من تفسير وتأملات
الآباء الأولين

الإنجيل بحَسَب
يُوحَنا

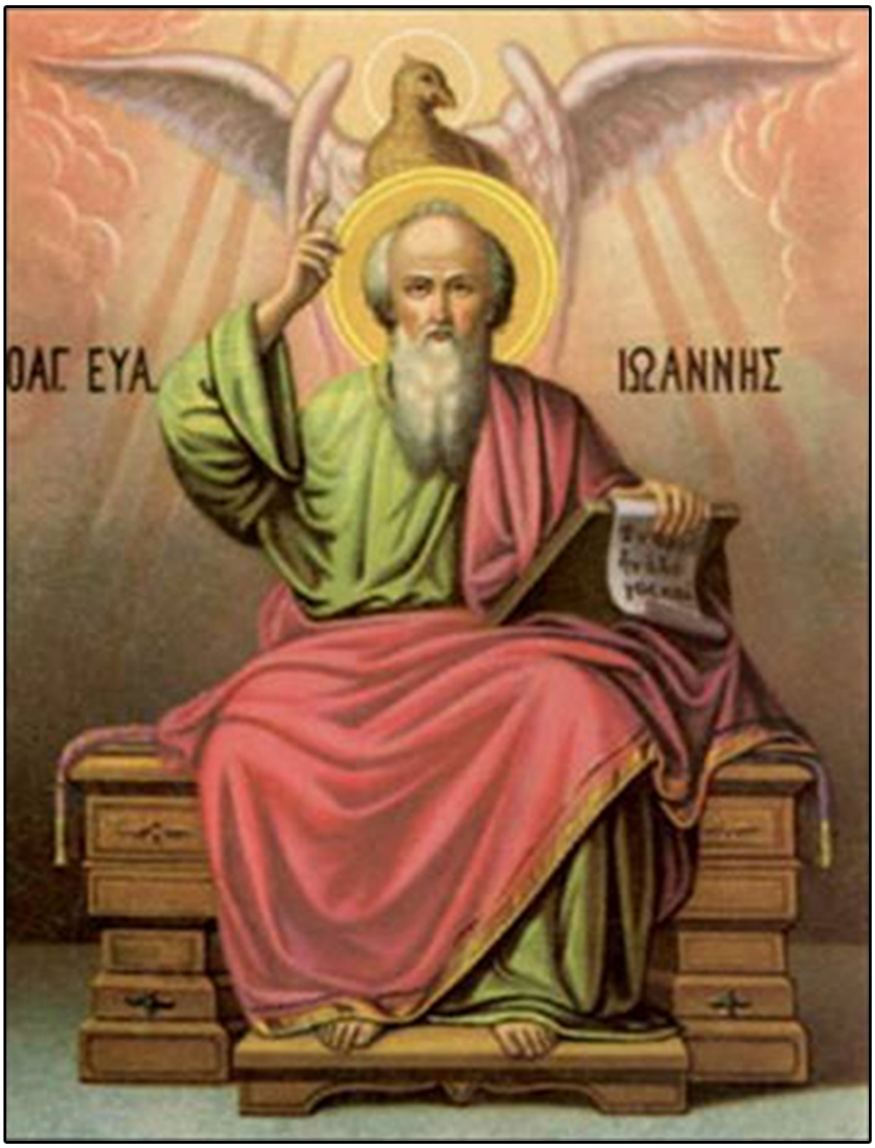

القمص تاودرس يعقوب ملطي

من تفسير وتأمُّلات

الآباء الأولين

الإنجيل بحسب

يوحنا

الجزء الأول

أصحاحات ١-٨

٢٠٠٣

القمص تادرس يعقوب ملطي

كنيسة الشهيد مار جرجس بسبورتنج

بسم الآب والابن والروح القدس

الله الواحد، آمين

اسم الكتاب: الإنجيل بحسب يوحنا.
المؤلف: القمص تادرس يعقوب ملطي.
الطبعة: الأولى ٢٠٠٣.
الناشر: كنيسة الشهيد مارجرجس بسبورتنج.
المطبعة: الأنبا رويس (الأوفست)، بالعباسية القاهرة.

أمجاد لا يُعبَّر عنها

أثناء كتابتي لهذا السفر كثيرًا ما عبر بي فكر ترددت في تسجيله، إذ شعرت بشيءٍ من الأسى أنني لم أبدأ بالتمتع بإنجيل يوحنا منذ بدء حياتي لأقضي عمري كله أسبح في الأمجاد التي يقدمها لنا هذا السفر، والتي لا يمكن للغة بشرية أن تُعَبِّر عنها.

أثناء دراستي للسفر أدركت معنى ما قاله **العلامة أوريجينوس** حين كتب تأملاته وعظاته عن السفر بأنه يظن أنه لا يقدر أن يتمم تفسيره للسفر حتى يعبر إلى السماء ليكمل تفسيره هناك! حقًا لست أظن أن إنسانًا يقدر أن يدرك أعماق السفر بأكملها، لكنها تتجلى بالأكثر حين نلتقي بمسيحنا الممجد لنشاركه مجده السماوي، فندرك ما عناه هذا السفر في صورة أروع مما يمكن الحديث عنها هنا.

ليت روح الله القدوس يحمل كل نفس إلى الأحضان الإلهية، ويشرق على بصيرتها الداخلية فتتمتع بما يود أن يقدمه مسيحنا العجيب لنا من أمجاد ومعرفة إلهية، فنلتهب بنار الحب الإلهي، ونشتهي اللقاء مع مخلصنا.

كلمة شكر

أشكر الأحباء الذين بذلوا جهدًا في كتابة هذا الكتاب على الكومبيوتر، خاصةً **الأخ صفوت فرج بأورنج كاليفورنيا ومدام ماجدة حنا بستيت إن آيلند نيو يورك**، الرب يعوضهما بالبركات السماوية.

مقدمة في

الإنجيل بحسب يوحنا

الإنجيل بحسب ما كتبه القديس يوحنا سفر يناسب الكل، البسطاء والعلماء. كلماته بسيطة للغاية، يقرأه البسطاء فيجدون نفوسهم قريبة منه فيرتاحون، ويغوص فيه أصحاب الخبرات الروحية دون أن ينتهوا إلى سبر غوره[1].

إنجيل يوحنا والكنيسة الأولى

سحب الإنجيل بحسب يوحنا قلب الكنيسة الأولى ليرفعه إلى الأسرار الإلهية الفائقة، بوحي الروح القدس، بأسلوبٍ روحيٍ جذَّاب، بعيدًا عن المصطلحات الفلسفية الصعبة ولغة اللاهوت الجافة.

فيما يلي بعض تعليقات آباء الكنيسة عنه:

❖ يمكننا أن نتجاسر فنقول أن **الأناجيل هي بكر كل الكتب المقدسة، أما بين الأناجيل فإنجيل يوحنا هو البكر**. لا يدرك معناه من لم يتكئ على صدر يسوع (يو ١٣: ٢٣) ويستلم مريم من يسوع أمًا له أيضًا (يو ١٩: ٢٧)؛ مثل هذا يكون يوحنا آخر، ويظهر له يسوع ذاته كما فعل مع يوحنا. **فإذ لم يكن ابن لمريم سوى يسوع، وذلك بالنسبة لمن يقدمون رأيًا صادقًا فيها، وقد قال يسوع لأمه: "هوذا ابنك" (يو ١٩: ٢٦)**، ولم يقل: "هذا هو **أيضًا** ابنك". كأنه يقول: "هوذا يسوع الذي ولدتيه". فإنه بالحق كل إنسان صار كاملاً، لا يحيا هو بل يحيا المسيح فيه (٢ كو ٤: ٧). وإذ يحيا المسيح فيه، يُقال لمريم عنه: "هوذا ابنك" المسيح[2].

العلامة أوريجينوس

❖ هؤلاء جميعًا (الإنجيليون متى ومرقس ولوقا) ارتفعوا قليلاً عن الأمور التي على الأرض، أي عن تلك الأمور التي صنعها ربنا يسوع المسيح على الأرض، أما عن لاهوته فتحدثوا القليل عنه. كانوا أشبه بأناسٍ ساروا معه على الأرض، **وبقي النسر، أي يوحنا، الكارز بالحقائق السامية، والمتأمل بنظرة ثاقبة نحو النور الداخلي الأبدي...**

---

[1] الخوري بولس الفغالي: إنجيل يوحنا، الرابطة الكتابية، ١٩٩٢، ص ١٤.

[2] *Commentary on John, Book 1:23.*

مع هذا فإننا نحن الذين نزحف على الأرض ضعفاء، ونسلك بين البشر بصعوبة، نتجاسر لنتمسك بهذه الأمور ونتفهمها، حاسبين أنفسنا كما لو كنا قد أدركناها عندما نتأمل فيها، أو نتحدث عنها[1].

القديس أغسطينوس

❖ أما يوحنا المبارك... نراه برغبةٍ ناريةٍ وعقلٍ يرغب في الأمور التي تعلو العقل الإنساني، تجاسر واقترب لكي يشرح الميلاد الفائق الذي لا يُمكن الإحاطة به، أي ميلاد اللَّه الكلمة. فهو يعلم أن "مجد اللَّه إخفاء الأمور" (أم ٢٥: ٢)، والكرامة التي تليق باللَّه تفوق فهمنا وإدراكنا، ومن الصعب أن يدرك أحد أو يشرح صفات الطبيعة الإلهية[2].

القديس كيرلس الكبير

يحقق إنجيل يوحنا بصورة خاصة "**ملء**" الكتاب المقدس بعينه، وكأنه "**مركز**" سرّ الكتاب.

يشبه **الأب مكسيموس المعترف** الكتاب المقدس بالكنيسة المقدسة، وإنجيل يوحنا **قدس الأقداس فيها**، فيه ندخل إلى أعماق مقدسات الكتاب، ونتعرف على أسراره، ونخترق الحجاب.

بحق يدعوه **القديس إكليمنضس السكندري** "**الإنجيل الروحي**"، لأنه يدخل بالنفس إلى التعرف على الأمجاد التي أعدت لها خلال محبة الله الآب، وعمل المسيح الخلاصي، وتعزيات الروح القدس. يرى أن **إنجيل يوحنا بمثابة الروح، والأناجيل الثلاثة الأخرى بمثابة الجسد**. قدمت الأخيرة الحقائق والوقائع الملموسة في حياة السيد المسيح وخدمته وعمله الخلاصي. **وجاء إنجيل يوحنا يفسر ما وراء هذه الأحداث، ويكشف عن أعماقها ومفاهيمها**. جاء السفر متناغمًا مع قول السيد المسيح: "ليعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ٥: ٨).

هو **الإنجيل الروحي** إذ يرفع المؤمن إلى عالم الروح، ولا يسمح لمؤمنيه أن يبقوا على مستوى المادة، فإذ أشبع الجموع بالخبز فرحوا (٦: ٢٦)، أما هو فدعاهم إلى الطعام الأبدي (٦: ٢٧).

في حديثه مع نيقوديموس عن الولادة الجديدة كان فكر نيقوديموس المعلم في إسرائيل حبيس أحشاء أمه، أما السيد المسيح فرفعه لينظر بعيني قلبه أن "المولود من الروح هو روح" (٣: ١-٦).

---

[1] *On the Gospel of St. John, tr. 36:5*

[2] القديس كيرلس الكبير: شرح إنجيل يوحنا، ترجمة مركز دراسات الآباء، يناير ١٩٨٩، ص١٢. اقتبست الكثير من أقوال القديس كيرلس الكبير عن هذه الترجمة.

وفي حديثه مع المرأة السامرية كان فكرها حبيس الدلو المادي وبئر يعقوب وماشيته، فرفع قلبها إلى الينبوع الإلهي حيث يقدم لها ماءً يفجر في داخلها ينابيع مياه حيّة تجري للحياة الأبدية.

إذ بدأ **القديس يوحنا الذهبي الفم** يعظ على إنجيل يوحنا، تحدث عن القديس يوحنا الإنجيلي وهو يقدم إنجيله مقارنًا بينه وبين الخطباء والممثلين كيف يجتذبون الجماهير بفن الخطابة واستخدام الموسيقى وارتداء قناعات جذابة، أما القديس يوحنا فيتقدم كما على منصة السماء، ليحدث أناسًا صار منهم كثيرون أشبه بالملائكة، ويشتهي أن يصير بقية المستمعين هكذا. إنه لا يستخدم سوي نعمة الله، يتحدث وهو في صحبة السمائيين، مقدمًا لهم رسالة المسيح المفرحة.

❖ يتقدم أمامنا الآن هذا الرجل: ابن الرعد، حبيب المسيح، عمود الكنائس في كل العالم، الذي يمسك بمفاتيح السماء، الذي شرب كأس المسيح، واعتمد بمعموديته، الذي اتكأ بكل ثقة على صدر سيده... دخل مرتديًا ثوب الجمال غير المدرك. فإنه سيظهر أمامنا مرتديًا المسيح (رو ١٣: ١٤؛ غلا ٣: ٢٧)، منتعلاً في قدميه الجميلتين باستعداد إنجيل السلام (أف ٦: ١٥)، ومتمنطقًا بمنطقة ليست حول خصره بل حول منطقتيه، ليست من جلد قرمزي، ولا مكسوة في الخارج من ذهب، بل منسوجة ومصنوعة من الحق نفسه. الآن يظهر أمامنا لا ليقوم بدور تمثيلي، وإنما برأس دون قناع يعلن الحق مكشوفًا. إنه لا يجعل جمهور المستمعين له يصدقونه بل بالأحرى بالمحفل والنظرات والصوت يحقق رسالته دون أدوات موسيقية مثل القيثارة أو ما يشبهها، إنما يستخدم لسانه، ناطقًا بصوت أعذب من أية قيثارة أو أداة موسيقية وأكثر نفعًا. منصته هي السماء كلها، ومسرحه هو العالم المسكون كله، وفرقته هي كل الملائكة، أما عن المستمعين فهم بشر صار منهم كثيرون ملائكة أو يود أن يصيروا هكذا. فإنه لن يستطيع أن ينصت إليه بانسجام حقيقي إلا الذين صاروا هكذا، مظهرين ذلك بأعمالهم. أما البقية فإنهم كأطفال صغار يسمعون ولا يفهمون... إنهم في طرب ولهو، يعيشون فقط من أجل الثروة والسلطة واللذات الحسية. ما يسمعونه هو حق، ولكنهم في أعمالهم لا يبرزون ما هو عظيم ونبيل خلال إسراعهم نحو الطين لعمل قرميد (طوب)[1].

❖ لم يعد بعد صياد السمك ابن زبدي، بل ذاك الذي يعرف "أعماق الله" (١ كو ٢: ١٠)، الروح القدس، أقصد أنه يضرب على هذه القيثارة، لذلك ليتنا ننصت إليه، فإنه لا يتحدث معنا بشيء

[1] *Homilies on St. John, Hom. 1:2.*

قط كإنسانٍ، إنما ما يقوله سيقوله من أعماق الروح، من الخفيات التي لم يعرفها حتى الملائكة قبل حدوثها، فقد تعلموها بواسطة صوت يوحنا معنا، وبواسطتنا، الأمور التي نحن نعرفها. هذا أيضا أعلنه رسول آخر، قائلاً: "لكي يعرف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة" (أف ٣: ١٠). فإن كان الرؤساء والسلاطين والشاروبيم والسيرافيم تعلموا هذا الأمور من الكنيسة، فواضح جدًا أنهم كانوا مشتاقين جدًا للإصغاء إلى هذا التعليم. في هذا ننال كرامة ليست بقليلة، أن الملائكة تعلموا هذه الأمور التي لم يكونوا يعرفوها قبلاً[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كاتبه

- ❖ كلمة "يوحنا" تعني: "يهوه حنان".
- ❖ هو ابن زبدي من بيت صيدا في الجليل، دعاه السيد المسيح مع أخيه الأكبر يعقوب الذي قتله هيرودس أغريباس الأول سنة ٤٤م.
- ❖ يبدو أنه كان على جانب من الثراء، إذ كان والده يستخدم أجرى في سفنه (مر ١: ١٠)، وكان يوحنا معروفًا لدى رئيس الكهنة (يو ١٨: ١٦). وكانت أمه سالومي سيدة فاضلة تقية تتبع السيد المسيح على الدوام (لو ٨: ٣)، اشتركت مع النساء اللواتي اشترين حنوطًا كثير الثمن لتكفين السيد المسيح، وهي على الأرجح أخت مريم أم يسوع (يو ١٩: ٢٥).
- ❖ اتخذ مهنة صيد السمك حرفة، وكان هو وأخوه شريكي سمعان في الصيد (لو ٥: ١٠)، وقد اختار السيد المسيح سمعان وأندراوس ويوحنا ويعقوب كأول تلاميذ له. وإذ كان يوحنا وأخوه حادي الطبع دعاهما "**بوانرجس**"، أي "ابني الرعد" (مر ٣: ١٧). وقد صار يوحنا رسول الحب، رقيقًا للغاية؛ جاء إنجيله ورسائله ورؤياه تدور حول "**الحب**". وبقى يكرز بالحب حتى شيخوخته، وكما يقول **القديس جيروم** في تفسيره الرسالة إلى أهل غلاطية كان تلاميذه يحملونه على أذرعهم ويذهبون به إلى المنبر لينطق بالكلمات: "يا أولادي أحبوا بعضكم بعضًا. هذه وصية الرب، إذا عملتم بها وحدها فهذا يكفيكم[2]". دُعي "التلميذ الذي كان الرب يحبه" (يو ٢١: ٢٠).

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 1:3.*
[2] *St. Jerome: Comm. On Galat. 6:10.*

❖ يقول **القديس إيرينيؤس** إن يوحنا كان في الخامسة والعشرين من عمره حين دعاه السيد المسيح للعمل.

❖ يعتبر مع بطرس ويعقوب من التلاميذ الأخصاء الذين انفردوا مع السيد المسيح في كثير من المواقف، مثل التجلي (مت ١٧: ١)، وعند إقامة ابنة يايرس (مر ٥: ٣٧)، وفي بستان جثسيماني (مت ٢٦: ٣٧)، وعندما تنبأ عن خراب الهيكل وأورشليم (مر ١٣: ٣). أمره السيد المسيح مع بطرس أن يعدا الفصح له ولتلاميذه (لو ٢٢: ٨).

انفرد باتكائه على صدر السيد المسيح (لو ١٣: ٢٣)، وقد رافق السيد حتى الصليب حيث تسلم منه القديسة مريم أمًا له (يو ١٩: ٢٠-٢٧).

❖ بعد صعود السيد اشترك مع القديس بطرس في إقامة الأعرج الذي كان عند باب الهيكل المُلقب بالجميل (أع ٣: ١-٦)، وفي الذهاب إلى السامرة لوضع اليد على المؤمنين ليحل الروح القدس عليهم (أع ٨: ١٤-١٧).

❖ حسبه الرسول بولس أحد أعمدة الكنيسة (أع ١٥: ٦؛ غل ٢: ٩).

❖ كرز في آسيا الصغرى، لاسيما في أفسس، وعُذب في أيام دومتيانوس، ونُفي إلى جزيرة بطمس، حيث تمتع برؤيا يوم الرب "سفر الرؤيا"، وبقي في منفاه حتى تنيح. يقول **القديس جيروم** أن الرسول يوحنا انتقل في العام الـ ٦٨ بعد صعود الرب. وبذلك يكون الرسول قد عاش عامين أم أكثر في القرن الثاني للميلاد. ومعنى هذا أنه عاش إلى ما يقرب المائة عام، حيث أن كان أصغر من الرب بقليل. ويرى البعض أنه تنيح حوالي سنة ٩٨م في حكم تراجان (٩٨-١١٧م).

❖ يروي لنا **يوسابيوس القيصري** في كتابه "تاريخ الكنيسة[1]" قصة عن القديس يوحنا الرسول في شيخوخته تكشف عن مدى تقديره العجيب لخلاص النفس البشرية وبحثه عنها؛ وقد رواها نقلا عن **القديس إكليمنضس السكندري** في كتابه "من هو الغني الذي يخلص؟"

جاء عن القديس يوحنا أنه بعد عودته من جزيرة بطمس إلى مدينة أفسس تجوّل في بعض المناطق الوثنية المجاورة، لإقامة أساقفة في بعض الأماكن وتدبير أمور الكنائس، وإذ بلغ مدينة ليست ببعيدة (غالبًا أزمير) سلم أسقفها شابًا وثنيًا قَبِل الإيمان وكان مملوءً غيرة، مؤكدًا عليه أن هذا الشاب

[1] *Eusebius: Hist. Ecc. 3:23.*

هو وديعة بين يديه. وبالفعل اهتم به الأسقف حتى نال سرّ المعمودية. لكن بعض الشبان الفاسدين اجتمعوا به، وأفسدوا حياته في ترفٍ وبذخٍ، وإذ احتاجوا إلى مالٍ صاروا يسرقون، فكان يشترك معهم. انحدر الشاب من جريمة إلى أخرى حتى كوَّن عصابة تحت قيادته يسلبون وينهبون ويسفكون الدماء. وإذ عاد القديس يوحنا إلى المدينة يسأل الأسقف عن الشاب أجابه: "لقد مات... مات عن اللَّه، لأنه عاد إلى شره، وأصبح خليعًا، وأخيرًا صار لصًا، وعوضًا عن الكنيسة صار يلازم الجبال مع عصابة تماثله". لم يحتمل القديس ذلك، بل طلب فرسًا امتطاه رغم شيخوخته، وانطلق إلى الموضع حيث أسره اللصوص، وأتوا به إلى رئيسهم، الذي لما رآه اعتراه الخجل وحاول الهرب. صار القديس يجري وراءه صارخًا: "**لماذا تهرب مني؟ أنا أبوك يا ابني، وأنا أعزل، طاعن في السن، وإن لزم الأمر فإنني مستعد أن احتمل الموت عنك، كما احتمل الرب الموت عنا. لأجلك أبذل حياتي. قف، آمن، فإن المسيح أرسلني إليك**". للحال خجل الشاب ووقف مطرقًا رأسه نحو الأرض، يبسط ذراعيه في رعدة، وكان يبكي بمرارة. فرح به القديس جدًا، ورجع به إلى الكنيسة، ولم يترك المدينة حتى اطمأن عليه.

❖ يروي **القديس يوحنا كاسيان** القصة التالية: "بينما كان الإنجيلي المبارك ذات يوم يداعب صقرًا، إذا بشاب أقبل عليه عائدًا من الصيد. فتعجب الشاب وسأل الرسول كيف أن رجلاً عظيمًا مثله يقضي وقته على هذا الحال. وحينئذ سأله الرسول: "ما هذا الذي في يدك؟" فقال الشاب: "إنه قوس". قال الرسول: "ولماذا هو غير مشدود؟" فأجاب: "لأنني لو جعلته مشدودًا على الدوام يفقد مرونته، وهي التي أحتاج إليها حين أطلق السهم". فقال الشيخ: "إذن لا تغضب على يا صديقي الشاب لأني في بعض الأحيان أحل أوتار نفسي، وإلا فقدت قوتها وخانتني في اللحظة التي أحتاج أن أستعملها[1]".

❖ يحدثنا أيضًا **المؤرخ يوسابيوس**[2] عن مدى حرصه على الإيمان المستقيم من البدع نقلاً عما جاء عنه في كتابات **القديس إيرينيؤس أسقف ليون** أن الرسول دخل مرة إلى الحمام ليستحم، وإذ عرف أن المبتدع كيرنثوس (نادى بأن مملكة المسيح أرضية؛ إذ كان محبًا للولائم والعلاقات الدنسة الجسدية) هناك قفز فزعًا، وخرج مسرعًا، لأنه لم يطقْ البقاء معه تحت سقفٍ واحدٍ،

[1] *Collat. XXIV c. 2.*
[2] *Eusebius: Hist. Ecc. 3:28.*

ونصح مرافقيه أن يقتدوا به، قائلاً: "لنهرب لئلا يسقط الحمام، لأن كيرنثوس عدو الحق بداخله[١]".

❖ يحدثنا أيضًا **المؤرخ يوسابيوس**[٢] على لسان أبولونيوس الذي يظن أنه كان أسقفًا على أفسس أن الإنجيلي يوحنا أقام ميتًا في أفسس بمعونة الله.

❖ يروي لنا **العلامة ترتليان**[٣] أن الإنجيلي يوحنا أُلقي في قزانٍ به زيت مغلي والرب نجاه.

مكان كتابته وتاريخ الكتابة

حسب شهادة **القديس إيرينيؤس أسقف ليون** (حوالي سنة ١٧٧–٢٠٠م)، وهو تلميذ القديس بوليكربوس، سلّم القديس يوحنا إنجيله لأساقفة آسيا حيث كان مقيمًا معهم إلى عهد الإمبراطور تراجان، وأنه قام بنشره في أفسس[٤].

وقد بقي تقليد الكنيسة في الشرق والغرب يأخذ بهذا الرأي دون اعتراض يُذكر. لكن جاء بعض النقاد المحدثين يشككون في نسبة السفر للقديس يوحنا، وبالتالي تشككوا في مكان كتابته وتاريخه.

أما من جهة **مكان الكتابة** فظن البعض أنه كُتب في **أنطاكيا** أو سوريا، يعتمدون في ذلك على ما جاء في **أعمال أغناطيوس** *Acts of Ignatius*[٥]، (وهو مُستند لا يُعرف تاريخه)، بأن يوحنا كان مرتبطًا بأنطاكيا. يُرد على ذلك بأن يوحنا كان في أنطاكيا زمانًا ثم ذهب إلى أفسس واستقر هناك.

ينسب بعض النقاد السِفر إلى الإسكندرية، حجتهم في هذا أن أقدم مخطوطة للسِفر وُجدت في مصر. وأن السفر يحمل طابعًا هيلينيًا يناسب فكر الإسكندرية المتأثرة بفيلون *Philo* اليهودي الرمزي السكندري. يُرد على ذلك أن مناخ مصر العلمي جعلها تقتنيه في وقت مبكر وتحتفظ به، ويكون له دوره في حياة كنيستها وآبائها، لكن ليس بالضرورة أن يكون قد كُتب في مصر[٦].

أما من جهة اعتراض البعض على كتابته في أفسس، فقد قام الاعتراض على أساسين:

أولاً: أكّد كثير من النقاد المحدثين خلال النصف الأول من القرن العشرين أن **أسلوب السِفر غنوسي هيليني**، وهو أسلوب لا يوافق القرن الأول الميلادي بل القرن الثاني. لذلك أصروا على أنه

---

[١] راجع أيضًا يوسابيوس ٤:١٤.

[2] *Eusebius: Hist. Ecc. 5:18:4.*
[3] *Tertullian: Praescrip, Haer., 36.*
[4] *Adv. Haer. 3:1:1 PG 7:844.*
[5] *PG 5:984.*
[6] *See Jerome Biblical Commentary, p. 416.*

حتى وإن كانت أصوله من وضع يوحنا، فإنه قد أُعيد كتابته في القرن الثاني بيدٍ غنوسية في أنطاكية أو الإسكندرية. وجاء اكتشاف مخطوطات البحر الميت سنة ١٩٤٧م وأيضًا المكتبة الغنوسية الكاملة التي أُكتشفت في تاريخ مقارب بنجع حمادي بصعيد مصر يؤكدان عكس ما أصرّ عليه النقاد. فتراجع الدارسون وشعروا بصدق التقليد الكنسي، وتيقّن غالبيتهم أنه من وضع القرن الأول، غالبًا بيد القديس يوحنا في أفسس. الأمر الذي نعود إليه عند حديثنا عن "إنجيل يوحنا والغنوسية".

ثانيًا: حاول بعض النقاد التشكيك في كتابة هذا السِفر بواسطة القديس يوحنا في أفسس بدعوى أن القديس قد استشهد مع أخيه يعقوب على يديّ هيرودس أغريباس الأول سنة ٤٤م في أورشليم، مُقدمين بعض الدلائل التي يمكن الرد عليها:

١. جاء في مرقس١٠:٣٩ أن يعقوب ويوحنا يشربان الكأس التي يشربها ربنا يسوع، قائلين بأن هذا يعني أن يوحنا كان يجب أن يستشهد مع أخيه، وإلا كان القديس مرقس قد التزم بتغيير النص. ويُرد على ذلك بأن القديس مرقس مُلتزم بكتابة نص كلمات السيد المسيح تمامًا، وليس من حقه تغيير النص، تاركًا للقارئ التفسير. فإن الكأس التي قصدها الرب كانت نبوة عن الآلام التي احتملها التلميذان، وليس بالضرورة البلوغ حتى الاستشهاد بسفك الدم[1]. هذا ولو أن هيرودس قتل الأخوين معًا لما اكتفى لوقا (كاتب سفر الأعمال) بذكر قتل يعقوب وحده، وإنما كان قد ذكر الأخوين معًا، "فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف، وإذ رأى أن ذلك يُرضي اليهود عاد فقبض على بطرس أيضًا" (أع ١٢:٢، ٣).

٢. اعتمدوا على عبارة موجزة وردت في كتابات كاتبين متأخرين هما فيلبس الصيدي *Philip of Side* من القرن الخامس، وجورج همرتوليس *George Hamartolus* من القرن التاسع، فيها نسبا لبابياس أن يوحنا ويعقوب قتلهما اليهود. ويرد على ذلك بأن ما ورد في هذا الشأن لا يُمكن أخذه بجدية إذ عُرف عن الكاتبين أنهما غير مدققين كمؤرخين[2]. ويقول *C. K. Barrett* أن إيرينيؤس ويوسابيوس عرفا كتابات بابياس ولم يذكرا شيئًا عن استشهاد يوحنا[3]. ومما يشكك في الأمر أن فيلبس لقب يوحنا باللاهوتي بينما لم يكن هذا اللقب قد عُرف به القديس يوحنا في أيام بابياس (القرن

[1] *Donald Guthrie: N.T. Introduction, 1975, p. 262.*
[2] *Ibid.*
[3] *The Gospel according to St. John, 1965, p.87.*

الثاني)؛ أما جورج فلم يأخذ ما كتبه عن بابياس في هذا الشأن بجدية، إذ عاد فتحدث عن القديس يوحنا أنه رقد بسلام (دون استشهاد).

٣. جاء في أعمال الشهداء السرياني (سنة ٤١١)[1] تذكار القديسين يوحنا ويعقوب في نفس اليوم، أي ٢٧ ديسمبر، كرسولين في أورشليم، كما جاء في تقويم قرطاجنّة (حوالي ٥٠٥م)[2] تذكار يوحنا المعمدان ويعقوب في نفس اليوم (٢٧ ديسمبر)، فحسب بعض الدارسين أن التقويم أخطأ في تلقيبه بالمعمدان، كما جاء في عظة **للأب أفراهات**[3] أن الذين استشهدوا من الرسل غير إسطفانوس وبطرس وبولس هما اثنان يوحنا ويعقوب.

يرد على ذلك بأنه في كل هذه حدث لبس بين القديسين يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول. أما الدلائل الإيجابية على أن الرسول يوحنا لم يستشهد مع أخيه فهي:

١. ذُكر القديس يوحنا بين أعمدة الكنيسة في غلاطية ٢: ٩، وكان ذلك بعد سنة ٤٤م.

٢. جاءت اكتشافات علماء الآثار النمساويين لمقبرة القديس يوحنا بأفسس تسند الفكر الكنسي التقليدي[4].

٣. جاء عن بوليقراطيس *Polycrates* أسقف أفسس أنه كتب إلى فيكتورينوس أسقف روما حوالي سنة ١٩٠م، يؤكد أن الرسول يوحنا عاش في أفسس وتنيح فيها[5].

أما من جهة **تاريخ كتابة السفر** فبحسب الفكر الكنسي كان في أواخر حياة القديس يوحنا. هذا وواضح من السفر أنه كُتب بعد خراب هيكل اليهود في أورشليم عام ٧٠م (راجع يو ٢: ١٩، ٢٠؛ ٤: ٢١)؛ وربما بعد طرد المؤمنين من مجامع اليهود، الأمر الذي تم حوالي سنة ٨٥م حتى سنة ٩٠م (راجع يو ٩: ٢٢؛ ١٦: ٢).

غاية الكتابة

١. يذكر لنا الإنجيلي غاية كتابته للسفر قائلاً: "**لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن اللَّه، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه**" (٢٠: ٣١). ويلاحظ في هذا النص الإنجيلي الآتي:

---

[1] *Cf. H. Lietzmann: Die drei altesten Marttyrologein (Kleine Texte, 2), 1911, p. 7f.*
[2] *Ibid, p. 5.*
[3] *Hom. 21.*
[4] *Nelson: A New Catholic Commentary on the Holy Scripture, 1969, p. 1033.*
[5] *Eusebius: H.E. 3:31:3; 5:24:3f. PG 20:485.*

أ. جاءت كلمة "**تؤمنوا**" في اليونانية *pioteonte* وذلك في النسخ السينائية والفاتيكانية و*Koredethi* في صيغة الحاضر لا الماضي، لتعني أن الإنجيل كتب لتثبيت إيمان قائم فعلاً[1]. فهو لم يقدم إيمانًا جديدًا، إنما أراد تثبيت إيمان الكنيسة الذي تعيشه حتى لا ينحرف أحد عنه.

ب. موضوع الإيمان أن يسوع هو المسيح، وأنه ابن اللَّه. وكما يقول[2] *W. C. Van Unnik* أن كلمة "المسيح" لا تعنى لقبًا مجردًا، إنما تعنى بالضرورة "الواحد الممسوح"، "الملك الممسوح"، الأمر الذي كان اليهود يدركونه دون الأمم، أما كلمة "ابن اللَّه" فيدركها بالأكثر العالم الهيليني. على أي الأحوال ارتباط اللقبين معًا كان ضروريًا لتثبيت إيمان من كانوا من أصلٍ يهوديٍ أو أمميٍ، إذ يدرك كل مؤمن أن يسوع هذا هو موضوع كل النبوات القديمة، وهو ابن اللَّه الواحد معه في ذات الجوهر، قادر على تقديم الخلاص وتجديد الخلقة.

هذا وقد لاحظ الدارسون أن كلمة "**المسيا**" قدمت في هذا الإنجيل وحده دون ترجمة بل كما هي، وكأن القديس يوحنا أراد أن يؤكد أن اللقب هنا إنما عني ما فهمه اليهود. لذا نجده يقدم لنا حديث فيلبس لنثنائيل: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء" (١: ٤٥)؛ ودعوة أندراوس لأخيه سمعان بطرس: "قد وجدنا **مسيا**، الذي تفسيره المسيح" (١: ٤١). هذه هي صورة ربنا يسوع في هذا الإنجيل منذ بدايته، صورة مسيانية[3].

هذه الصورة عن يسوع بكونه المسيا الملك الذي طال انتظار اليهود لمجيئه أكدها الإنجيلي في أكثر من موضع. ففي دخول السيد أورشليم "كانوا يصرخون: أوصنا، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل... هذا الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً؛ ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه" (١٢: ١٣-١٦). وأمام بيلاطس اعترف السيد بمملكته (١٨: ٣٣-٣٧)؛ وقد دين كملكٍ لليهود (١٩: ٣، ١٢-١٥، ١٩، ٢٠). القديس يوحنا وحده هو الذي أخبرنا أن الجموع طلبته لتقيمه ملكًا فانسحب من وسطهم (٦: ١٥)، لأن فهمهم للملك المسياني مختلف عن قصده هو.

هذه الصورة التي قدمها الإنجيلي يوحنا عن ربنا يسوع بكونه "**المسيا الملك**" الذي طال انتظار اليهود لمجيئه، جعلت بعض الدارسين ينادون بأن يوحنا كرجل يهودي كان مرّ النفس بسبب العداوة التي أظهرها اليهود نحو يسوع. هذا ما نادى به لورد شارنوود *Lord Charnwood* سنة ١٩٢٥،

---

[1] *Guthrie, p.271.*
[2] *"The purpose of St. John's Gospel," Studia Evangelica. 1959, p. 382-411.*
[3] *Guthrie, p.272.*

غير أن بعض الدارسين مثل ف. تيلور فيرى أن هذا الهدف لم يكن رئيسيًا، إنما كان القديس يوحنا مرّ النفس من نحو كل من حمل عداوة ليسوع سواء كان يهوديًا أو غير يهودي. ودارسون آخرون مثل[١] *J. A. T. Robinson* نادوا بأن الرسول قصد المسيحيين الذين من أصل هيليني ولم يوجه إنجيله لليهود.

ج. غاية هذا السفر **تأكيد لاهوت السيد المسيح**، بكونه ابن اللَّه الوحيد الجنس، لكن لا لمناقشات نظرية أو مجادلات فلسفية، وإنما للتمتع بالحياة باسمه. إيماننا بلاهوته يمس حياتنا وخلاصنا نفسه، لذلك جاءت أول عظة بين أيدينا بعد كتابة العهد الجديد تبدأ بالكلمات[٢]: [يليق بنا أيها الاخوة أن نفكر في يسوع المسيح بكونه اللَّه، ديان الأحياء والأموات. يلزمنا ألا نقلل من شأن خلاصنا، لأننا عندما نقلل من (السيد المسيح) إنما نتقبل منه القليل[٣].]

كأن هذا السفر جاء يعلن بأكثر وضوحٍ وإفاضة ما قدمه لنا الإنجيليون الآخرون، معلنًا لنا الجانب اللاهوتي. وكما يقول **العلامة أوريجينوس**: [إن أحدًا من هؤلاء لم يعلن لنا لاهوته بوضوح كما فعل يوحنا، إذ خلاله يقول: "أنا هو نور العالم"، "أنا هو الطريق والحق والحياة"، "أنا هو القيامة"، "أنا هو الباب"، "أنا هو الراعي الصالح"، وفي الرؤيا: "أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر"[٤].]

بمعنى آخر، قدم لنا هذا السفر علاقة الابن الأزلية مع الآب، ومعنى هذه العلاقة الفريدة في حياة المؤمنين، ودورها في خلاصهم. أراد الإنجيلي بالكشف عن شخصية السيد المسيح كابن اللَّه الوحيد أن نؤمن به فنخلص، ونحيا أبديًا. وقد أبرز الإنجيلي أن معاصري السيد المسيح أنفسهم لم يدركوا كمال حقيقته كما ينبغي ولا مغزى كلماته وتصرفاته الفائقة للعقل. أقرباؤه حسب الجسد مثل أمه واخوته (أبناء خالته)، وأصدقاؤه، ومعلمو اليهود، والكهنة، وأيضًا المرأة السامرية، وبيلاطس بنطس... هؤلاء جميعًا لم يدركوا كلماته وذهلوا أمام تصرفاته[٥].

❖ أتجاسر فأقول يا إخوتي أن يوحنا نفسه لم يتحدث في الأمر كما هو، إنما قدر استطاعته فقط. لأنه كان إنسانًا يتحدث عن اللَّه، حقًا مُوحى إليه من اللَّه، لكنه لا يزال إنسانًا[٦].

---

[١] دراسات في العهد الجديد، عدد ٦، سنة ١٩٦٠، ص ١١٧-١٣١.

[2] *Jaroslav Pelikan: The Christian Tradition, vol. 1, p. 173.*

[3] *2 Clem. 1:1L2.*

[4] *Commentary on the Gospel of John. P1, 6.*

[5] *C.M. Laymon: The Interpreter's One-volume Commentary on the Bible, 1980, p.707.*

[6] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 1:1.*

القديس أغسطينوس

د. حافظ الله على حياة هذا الرسول ولم يسمح باستشهاده مبكرًا مع بقية التلاميذ **ليقدم للكنيسة الصبية الحق في شيء من الإيضاح (إنجيل يوحنا)، ويدخل بها إلى يوم الرب لتعاين السماء المفتوحة (سفر الرؤيا).**

❖ ألا ترون أنه ليس بدون سبب أقول إن هذا الإنجيلي يتحدث إلينا من السماء؟ انظروا فقط في البداية عينها كيف يسحب بها النفس، ويهبها أجنحة، ويرفع معه ذهن السامعين. فيقيمها فوق كل الأشياء المحسوسة، أعلى من الأرض والسماء، ويمسك بيدها، ويقودها إلى أعلى من الملائكة أنفسهم والشاروبيم والسيرافيم والعروش والسلاطين والقوات، وفي كلمة يحثها على القيام برحلة تسمو فوق كل المخلوقات[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كان بولس سماءً عندما قال: "محادثتنا في السماء" **(في ٣: ٢٠)**. يعقوب ويوحنا كانا سماوات، ولذا دعيا ابنيّ الرعد (مر ٣: ١٧)، وكان يوحنا كمن هو السماء فرأى الكلمة عند اللَّه[2].

القديس أمبروسيوس

عاش القديس يوحنا حتى نهاية القرن الأول، كآخر من رقد بين تلاميذ السيد المسيح ورسله. وقد عاصر الجيل الجديد من المسيحيين، فكان هو – إن صح التعبير – حلقة الوصل بين العصر الرسولي وبدء عصر ما بعد الرسل. لقد أراد أن **يقدم الكلمة الرسولية النهائية عن شخص المسيا، وأن يحفظ الكنيسة من تسلل بعض الأفكار الخاطئة.**

يرى بعض الدارسين أن الإنجيلي قصد مواجهة بعض الحركات الغنوسية مثل الدوناتست (الدوسيتيون) *Docetism*، إذ نادى هؤلاء باستحالة أن يأخذ الكلمة الإلهي جسدًا حقيقيًا، لأن المادة في نظرهم شرّ. لذلك أكد الرسول في إنجيله أن يسوع وهو ابن اللَّه بالحقيقة قد تجسد أيضًا حقيقة، ولم يكن خيالاً، إذ يقول: "الكلمة صار جسدًا". ما كان يمكننا أن نتمتع بالخلاص ما لم يحمل طبيعتنا فيه، ويشاركنا حياتنا الواقعية. لقد أبرز الإنجيلي السيد المسيح في عرس قانا الجليل وهو يقوم بدور خادم الجماعة. لقد حوَّل الماء خمرًا، وهو عمل فيه خلق، لكنه قام به خلال الخدمة المتواضعة غير

[1] *Homily on St. John, 2:8.*
[2] *Letter, 22:5*

منتظرٍ أن يأخذ المتكأ الأول. وعلى بئر سوخار ظهر متعبًا وعطشانًا، وعند قبر لعازر تأثر جدًا بعمقٍ وبكى، وفي العلية غسل أقدام التلاميذ، وعلى الصليب عطش.

غاية هذا السفر **الربط بين يسوع التاريخي والمسيح الحاضر في كنيسته.** محولاً الأحداث التي تمت في حياة ربنا يسوع للإعلان عن شخصه بكونه رب المجد العامل في كنيسته[1].

أهداف أخرى للسفر

يرى البعض أنه قامت خمس نظريات خاصة بغاية هذا السفر، وهم:

١. انطلاق المؤمن بالإيمان بالسيد المسيح ابن الله المتجسد إلى عربون الحياة الأبدية والتمتع بالسماويات كما أوضح الإنجيلي نفسه (يو ٢٠: ٣٠-٣١). هذا ما تحدثنا عنه قبلاً.

٢. الرد على الهرطقات والبدع المعاصرة واليهود المقاومين، والدفاع عن الإيمان المسيحي. وسنتحدث عن هذه النظرية فيما بعد.

٣. نظرية تكميل ما ورد في الأناجيل الثلاثة الإزائية الأخرى. وقد مال إليها **يوسابيوس القيصري**[2] **والقديس جيروم**[3]. يصعب القول أن هذا هو ما هدف إليه الإنجيلي. حقًا لقد أمدنا بإعلان الروح القدس بأحاديث وحوار للسيد المسيح مع بعض الشخصيات والجماعات تكشف لنا عن شخص السيد المسيح وعمله الخلاصي وإمكانياته الإلهية التي قدمها لنا وهباته الفائقة وإرساله روحه القدوس وسكنى الثالوث القدوس فينا. قدم لنا فيضًا من اللاهوت الحي العملي الرائع، ومعرفة لاهوتية كاملة.

يوجد تقليد قديم يقول إن القديس يوحنا كتب إنجيله بناء على طلب أساقفة آسيا الصغرى شركائه في الخدمة، إذ يقول **القديس إكليمنضس الإسكندري** (حوالي سنة ١٩٠م): [إن يوحنا، آخر الكل، إذ أدرك الحقائق الخارجية التي كشفتها الأناجيل (الأخرى)، حثه تلاميذه كما أوحى إليه الروح ليكتب إنجيلاً روحيًا[4].] كأن تلاميذه وشركاءه في الخدمة بآسيا سألوه أن يسجل لهم تفسيرًا لاهوتيًا لما سبق فكتبه الإنجيليون الآخرون تاريخيًا. هذا وإن كان كل إنجيلي سجل سفره بالروح القدس ليحمل فكرًا لاهوتيًا متمايزًا ومتكاملاً مع الأناجيل الأخرى.

---

[1] *Cf. Oscar Cullmann: The N.T., 1968, p. 46.*
[2] *Eusebius: H. E. 3:24.*
[3] *Comm. on Matt., Prolong.*
[4] *Eusebius: H.E. 6:14:5-7.PG 20:552.*

٤. مال **القديس إكليمنضس السكندري** إلى ما يدعوه البعض بنظرية التعليم، حيث يقدم السيد المسيح المعلم. هذه حقيقة لكنه ليس بالمعلم الذي يقدم معلومات خارجية، إنما الذي يضم تلاميذه إليه كأعضاء جسده، يختبرون حياته كحياةٍ لهم.

٥. نظرية مواجهة الفلسفات المعاصرة للتوفيق بين الفلسفة والإيمان المسيحي. لسنا نظن أن هذا هو الهدف من وحي الروح القدس لهذا السفر، إنما غايته تقديم الحق الإنجيلي الإلهي. لا يعني أن هذا الحق يرفض ويقاوم كل الفلسفات، إنما يغربلها ويرفض ما فيها من باطل. وقد انبرت مدرسة الإسكندرية، خاصة في عصر **القديس إكليمنضس السكندري** تكشف عن إمكانية التزاوج بين الإيمان الحي والفلسفة بما فيها من حقٍ وليس بما أفسده الإنسان من أوهامٍ وخيالاتٍ[1].

الرد على الهرطقات والبدع المعاصرة واليهود المقاومين

يرى بعض آباء الكنيسة مثل **القديس إيرينيئوس أسقف ليون**[2] **والقديس جيروم**[3] **وفيكتورينوس من بيتَّاو** *Victorinus of Pattau* وغيرهم أن غاية هذا السفر هو الرد على الهرطقات والبدع المعاصرة في أيامه واليهود المقاومين للكنيسة.

يقول **فيكتورينوس من بيتَّاو** في أواخر القرن الثالث وبدء القرن الرابع: [كتب يوحنا الرسول إنجيله بعد سفر الرؤيا، وذلك بعد أن نشر كل من الهراطقة فالنتينوس وكيرنثوس وإبيون وآخرون من مدرسة الشيطان تعاليمهم في كافة أنحاء المسكونة، مما اضطر الأساقفة الذين في البلاد المجاورة أن يجتمعوا إلى القديس يوحنا واضطروه أن يكتب إنجيل شهادته[4].]

حقًا لقد قام الرسول بالدفاع عن الإيمان المسيحي في مواجهة عدة جماعات مقاومة للكنيسة، لكن السفر في جوهره هو عطية الروح القدس الذي أوحى للإنجيلي أن يكشف عن الحق الإلهي الذي يمس خلاصنا، ولا يقف عند الجانب السلبي.

ومما لا شك فيه أن هذا السفر يبقى دومًا مصدرًا حيًّا تنهل منه الكنيسة في دحض البدع عبر العصور. ففي رد **القديس إيرينيئوس** على الهرطقات اقتبس أكثر من ١٠٠ شاهدًا منه. وأيضًا كلٍ من **هيبوليتس والقديس أثناسيوس الرسولي والقديس كيرلس الكبير**، كما استخدمه كثيرًا **القديس**

---

[1] *Fr. Tadros Y. Malaty: The School of Alexandria, Introduction.*
[2] *Against Heresies, 3:11:1.*
[3] *Comm. on Matt., prolong.*
[4] *PG 5:333.*

إكليمنضس السكندري.

أولاً: الرد على اليهود المقاومين

وقد ظهرت مقاومتهم لشخصه في الأناجيل الثلاثة السابقة. استخدم كلمة "اليهود" ٧٠ مرة في هذا السفر مقابل ٥ أو ٦ مرات في كل سفر من الأناجيل الإزائية. يستخدمها بمعانٍ كثيرة، منها:

- ❖ بمعنى وطني لا ديني، كما في الحوار مع المرأة السامرية (٤: ٩).
- ❖ بمعنى السلطات الدينية، خاصة سلطات أورشليم المقاومة للسيد المسيح (٩: ٢٢؛ ١٨: ٣؛ ٨: ١٣).

يميز الإنجيل بين كلمتي **اليهود وإسرائيل**، فالأخيرة إيجابية تدل على ميراث العهد القديم الحقيقي. فقد جاء يوحنا المعمدان يعمد بالماء حتى يظهر يسوع لإسرائيل (١: ٣١). ووصف نثنائيل أنه إسرائيلي لا غش فيه (١: ٤٧). حينما يتحدث عن أعياد اليهود وعاداتهم (٢: ٦، ١٣؛ ٧: ٢) لا نجد ما يشير إلى الازدراء.

قاوم اليهود السيد المسيح: "أنت تلميذ ذاك، أما نحن فتلاميذ موسى" (٩: ٢٨)، وأرادوا قتله، فحسبهم السيد "أولاد إبليس" (٨: ٤٤-٤٧)، لأنهم يريدون أن يمارسوا عمل أبيهم القتّال منذ البدء.

إنهم ينكرون أنه المسيا ابن الله السماوي (٥: ١٨؛ ٨: ٤٠-٤٩). دبروا المؤامرات لقتله (١٠: ٣٠-٣٩؛ ١١: ٨-٥٠)، وحرموا من يعترف به أنه المسيا من المجمع (٩: ٢٢؛ ١٢: ٤٢).

أيضًا **الأبيونيون** وهم جماعة من المؤمنين من أصل يهودي اعتبروا التمسك بالفروض اليهودية وطقوس الآباء ضرورة يلتزم بها المسيحيون. وفي حماسهم الزائد لموسى والأنبياء اعتبروا أن السيد المسيح مجرد ابن لداود بدون وجودٍ له قبل التجسد، ومجرد نبي ممتاز كانوا ينتظرونه، ودعوا أنفسهم الأبيونيين من الكلمة العبرانية *ebyon* ومعناها "فقير".

في هذا السفر أوضح:

- ❖ ليس من وجه للمقارنة بين موسى مستلم الناموس والمسيح واهب النعمة والحق (١: ١٧). قدم الأول المن، وأما الثاني فهو نفسه خبز الحياة (٦: ٣٢).
- ❖ نهاية الطقوس اليهودية (٢: ١-١٠).
- ❖ عدم ارتباط العبادة بالهيكل (٢: ١-١٠).

❖ اليهود المقاومون ليسوا أبناء إبراهيم، بل أبناء إبليس (٨: ٣٩-٤٤).

❖ لن يلتقي اليهود المقاومون بموسى كشركاء في المجد، بل سيدينهم (٥: ٤٥).

ثانيًا: المتشيعون ليوحنا المعمدان

يرى البعض أن بعض تلاميذه كوّنوا جماعة تعظم يوحنا المعمدان على حساب شخص ربنا يسوع المسيح. كانوا يحسبونه أعظم من المسيح، لأنه جاء قبله، ولأنه عمده. جاء في "**التعارفات** *Recognitions*" المنسوب **لإكليمنضس** أنهم يدَّعون أن معلمهم هو المعمدان وليس يسوع. هؤلاء عاشوا في العالم المسيحي وعارضوا المسيحية. وكان لهم تأثيرهم، خاصة في أفسس (أع ١٩: ١-٨).

يرى أصحاب هذا الرأي (أن السفر قد كُتب لمقاومة المتشيعين ليوحنا المعمدان) أن الإنجيلي قد أكد أن يسوع المسيح وليس يوحنا المعمدان هو نور العالم (١: ٨-٩). وأنه جاء بعده، لكنه هو سابق له، وأعظم منه (١: ٣٠) مع تأكيد أن يسوع وليس يوحنا هو المسيح (١: ٢٠؛ ٣: ٢٨). وأن يوحنا المعمدان جاء شاهدًا ليسوع ينبغي أن الأخير يزيد والأول ينقص (٣: ٣٠).

أكد القديس يوحنا بشهادة يوحنا المعمدان نفسه عن عظمة المسيح: فالمعمدان ليس بالنور بل هو شاهد للنور (١: ٦-٨)، وأنه ليس بالعريس بل صديقه (٢: ٢٨-٣٠)، ليس بحامل خطايا العالم، إنما المسيح وحده هو حمل الله الذي يحمل خطية العالم (١: ٢٩).

حقًا لقد أعلن هذا الإنجيلي مشاعر السيد المسيح العميقة أكثر من بقية الأناجيل، وظهر ذلك بقوة في صلاته الوداعية في الأصحاح السابع عشر حيث صلى بصوتٍ عالٍ. بهذا يقدم لنا الإنجيلي صورة السيد المسيح الفائق الإدراك، والتي لا يمكن التعبير عنها، إذ يدخل بنا إلى كمال أسرار اللاهوت فنقف خاشعين، وإلى كمال ناسوته فنقف مذهولين!

لم يتجاهل القديس يوحنا الإنجيلي عظمة يوحنا المعمدان، فهو مُرسل من قبل اللَّه (١: ٦)، وهو السراج المنير الساطع (٥: ٣٥).

ثالثًا: الرد على بعض أصحاب البدع

جاء في كتاب "**ضد الهرطقات**" **للقديس إيرينيؤس**، وهو من رجال القرن الثاني، أن إنجيل يوحنا كُتب ضد كيرنثوس. وهو صاحب نزعة غنوصية، من آسيا الصغرى. في رأي **القديس إيرينيؤس** أن كيرنثوس ادعى بأن يسوع هو ابن ليوسف، وأن المسيح عنصر سماوي حلّ على يسوع في وقت

العماد وتركه بعد موته. كما ادعى أن الخلق قد تم بواسطة قوة خلاّقة لا بواسطة اللَّه.

إذ يذكر **القديس إيرينيؤس** أسقف ليون أبيون مع كيرنثوس، لذا ظن **القديس جيروم** أن إنجيل يوحنا جاء ردًا على أبيون وأتباعه، وهي شيعة مسيحية متهودة.

قيل أيضًا أنه موجه ضد **الدوسيتيين** *Docetists* الظاهرين، القائلين بالخيالية في جسد الرب. وهو يدعون أن يسوع المسيح لم يأتِ حقًا بالجسد. فجسده ليس جسدًا حقيقيًا بل ظاهرًا أو غازيًا أو أثيريًا. يبدو كأنه إنسان، وبهذا كان تألمه وموته ظاهريين.

رابعًا: نداء إلى المسيحيين الذين من أصل يهودي في الشتات

يشير مرتين إلى الذين آمنوا بالسيد المسيح ولم تكن لهم الشجاعة أن يعلنوا إيمانهم خوفًا من الطرد من مجمع السنهدرين. الأولى في ١٢: ٤٢ إذ "آمن به كثيرون من الرؤساء أيضًا غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع". والثانية في ١٩: ٣٨ "ثم أن يوسف الذي من الرامة وهو تلميذ يسوع، ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع".

خامسًا: مساندة المسيحيين في العالم أيًا كان أصلهم

جاء يسوع إلى العالم ليكون نورًا لكل إنسان (١: ٩)، وهو حمل اللَّه الذي يحمل خطية العالم (١: ٢٩)، جاء ليخلص العالم (٣: ١٦). متى ارتفع على الصليب يجذب إليه كل إنسانٍ (١٢: ٣٢). فهو مسيح العالم. في استهزاء قال اليهود إنه ربما يذهب إلى الشتات لكي يعلم اليونانيين (٧: ٣٥)، فتنبأوا عن عمله بين الأمم وهم لا يدرون، كما نسمع عن بعض اليونانيين الذين قالوا لفيلبس: "يا سيد، نريد أن نرى يسوع" (١٢: ٢٠-٢١). وفي حديثه عن عمله كراعٍ صالحٍ يؤكد أن له خرافًا ليست من هذا القطيع يجعلها جزءً من رعية واحدة لراعٍ واحدٍ (١٠: ١٦). وفي ٤: ٣٥ نرى السيد المسيح قد جاء ليس لفداء الأمة اليهودية وحدها بل ليجمع أبناء اللَّه المشتتين ويوّحدهم. لقد تعرف بعض السامريين عليه، وعرفوا أنه مخلص العالم (٤: ٤٢)، وقد رأى السيد حقول السامرة قد ابيضّت للحصاد (٤: ٣٥).

إنجيل يوحنا والأناجيل الثلاثة الإزائية[1] *Synoptic Gospels*

إن كان الإنجيل بحسب يوحنا يختلف عن الأناجيل المتشابهة أو الإزائية (متى ومرقس ولوقا)

[1] سبق لنا الحديث عن الأناجيل الإزائية في مقدمة كتاب: الإنجيل بحسب متى، ١٩٨٣، ص ١٨-٢٣.

Synoptic Gospels، لكننا لا نستطيع أن نبتره عنها تمامًا، إذ يفترض معرفة الإنجيلي يوحنا للأناجيل الثلاثة السابق كتابتها أو على الأقل للتقليد الذي اعتمدوا عليه[1].

كان الرأي الكنسي الأول يمثله قول **القديس إكليمنضس الإسكندري**[2]، وهو أن القديس يوحنا أراد أن يقدم تفسيرًا روحيًا للأناجيل الثلاثة السابقة له. هذا الرأي ساد عبر العصور ولازال يقبله كثير من الدارسين، وإن كان بعض النقاد المحدثين يرون أنه لا علاقة بين هذا السفر والأناجيل الثلاثة لا بالإيجابية ولا بالسلبية، ورأى بعضهم أن يوحنا عرف مرقس ولوقا دون متى.

ويلاحظ في هذا السفر أنه يفترض في القارئ معرفته للأناجيل الثلاثة الأخرى؛ نذكر على سبيل المثال في يو ١: ٤٠ يقدم لنا أندراوس هكذا: "كان أندراوس أخو بطرس..."، دون أن يشير قبلاً إلى القديس بطرس. وفي ٦: ٦٧ يفترض في القارئ أنه يعرف الاثني عشر تلميذًا. وفي ١: ٣٢-٣٤ إذ يسجل لنا شهادة يوحنا المعمدان عن السيد، يفترض في القارئ معرفته عن عماد السيد بواسطة يوحنا دون الإشارة إليه.

يعتبر البعض الأناجيل الثلاثة أشبه برحلة السيد المسيح من الجليل إلى أورشليم، فتركز على صعوده الأخير إلى المدينة المقدسة حيث قدم نفسه ذبيحة الفصح الفريدة. أما إنجيل يوحنا فيتحدث عن مناسبات عديدة أقام فيها السيد المسيح في أورشليم، ويذكر عيد الفصح في ثلاث سنوات متوالية، وفي ليلة الفصح الأخير مات المسيح "**حمل اللَّه**" ليُقدم احتفالاً جديدًا للعالم كله يملأه ببهجة قيامته التي صار تذكارها هو "عيد الفصح المسيحي".

سجل لنا القديس يوحنا الحبيب بإعلان الروح القدس هذا السفر بعد كتابة الأناجيل الإزائية الثلاثة، سجله للكنيسة الجامعة موضحًا شخص المخلص بكونه الكلمة الأزلي الإلهي، ابن اللَّه مخلص العالم.

❖ بسبب حسن يبدأ الإنجيلي يوحنا قصته من الوجود الأزلي. بينما يبدأ متى بعلاقة (المسيح) بالملك هيرودس، ولوقا بطيباريوس قيصر، ومرقس بمعمودية يوحنا، يترك هذا الرسول كل هذه الأمور **ليعبر فوق كل زمن وكل عصر**[3].

---

[1] *Cullmann, p.45.*
[2] *Eusebius: H.E. 6:14:5-7.*
[3] *Hom 4. PG 59:27.*

❖ لماذا بينما بدأ الإنجيليون الآخرون بالحديث عن التدبير... أشار يوحنا إلى ذلك باختصار مؤخرًا: "الكلمة صار جسدًا" [١٤]. ترك الحديث عن بقية الأمور: الحبل به، وميلاده، ونشأته، ونموه، متحدثًا معنا في الحال عن ميلاده الأزلي؟... لكي ينزع عن الذين يرغبون في أن يُغرموا بالأرض هذا الأمر، **ويجتذبهم نحو السماء**. لهذا بسبب حسن يبدأ قصته من فوق ومن الوجود الأزلي. بينما دخل متى إلى الحديث ذاكرًا الملك هيرودس، ولوقا طيباريوس قيصر، ومرقس معمودية يوحنا، ترك هذا الإنجيلي كل هذه الأمور وارتفع فوق كل زمن وكل عصر وسحب فكر سامعيه إلى "البدء" حتى لا يسمح للفكر أن يلتصق بأية نقطة، ولا يرتبط بحدودٍ معينة كما فعل الإنجيليون، إذ ارتبطوا بهيرودس وطيباريوس ويوحنا. وما نشير إليه هو أن ما يستحق العجب أن **يوحنا الذي كرّس نفسه لهذا التعليم العلوي لم يتجاهل تدبير (الخلاص)، كما أن الإنجيليين الآخرين لم يقفوا عند الارتباط بهذه الحدود ولا صمتوا عن كيانه قبل العصور**. فإنه بسبب صالح الروح الواحد هو الذي حرك هذه النفوس جميعًا. ولذلك أظهروا اتفاقًا عظيمًا في روايتهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يوحنا الإنجيلي، بين زملائه وأصحابه الإنجيليين الآخرين تقبَّل هذه الهبة الخاصة من الرب. إذ اتكأ على صدره في العيد، إشارة إلى شربه أسرارًا أعمق، وذلك من قلب (الرب) العميق. فصار ينطق بهذه الأمور الخاصة بابن اللَّه، التي قد تثور في أذهان الصغار المتيقظة، ولكنها لم تقدر أن تشبعها إذ هي عاجزة عن استيعابها. بينما بالنسبة لأذهان من هم أكثر نموًا، الذين بلغوا نوعًا من الرجولة الداخلية، فتعطيهم هذه الكلمات ما يختبرونه ويقتاتون به[2].

❖ في الأناجيل الأربعة أو بالأحرى في الأربعة كتب للإنجيل الواحد ليس عن غير استحقاق يشبه القديس يوحنا الرسول بخصوص فهمه الروحي بالنسر. **لقد ارتفع بكرازته أعلى وأكثر سموًا من الثلاثة الآخرين، وبارتفاعه هذا أراد أن يرفع قلوبنا أيضًا**. لأن الثلاثة إنجيليين الثلاثة ساروا مع الرب على الأرض كما مع إنسانٍ، أما عن لاهوته فتحدثوا القليل عنه. أما هذا الإنجيلي فإنه كمن استهان بالسير على الأرض، كما في مقدمة مقاله، فرعد علينا، وحلّق بنا ليس فقط فوق الأرض بل وفوق كل محيط الهواء والسماء، بل وفوق كل جيش الملائكة وكل نظام القوات غير المنظورة،

---

[1] *Homily 4:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 18:1.*

وبلغ إلى ذاك الذي "به كان كل شيء وبغيره لم يكن شيء مما كان"[1].

القديس أغسطينوس

لم يشترك مع الأناجيل الثلاثة إلا في:

* عماد السيد المسيح (بالتلميح) ١: ٣٢-٣٤؛
* تطهير الهيكل ٢: ١٣-١٦؛
* إشباع الجموع ٦: ١-١٣؛
* المشي على المياه ٦: ١٦-٢١؛
* سكب الطيب في بيت عنيا ١٢: ١-٨؛
* دخول المسيح أورشليم منتصرًا ١٢: ١٢-١٩؛
* إعلان الخيانة ١٣: ٢١-٣٠؛
* آلامه وقيامته، قدمت بطريقة خاصة.

هذا ولم يذكر الإنجيلي يوحنا سوى سبع آيات فقط، اختارها من بين الآيات والعجائب التي بلا حصر. وقد جاءت هذه الآيات أو المعجزات جديدة لم يذكرها غيره من الإنجيليين، سوى إشباع الجماهير التي سجلها كمقدمة لحديثه الصريح عن الإفخارستيا، والسير على المياه.

ذكر الإنجيلي يوحنا حوادث وأحاديث لم يذكرها غيره من الإنجيليين، فجاء جديدًا على مسامعنا. لم يكرر ما جاء قبلاً مثل ميلاد السيد المسيح، نسبه، التجربة، الموعظة على جبل، التجلي، الأمثال، العشاء الأخير، الآلام في جثسيماني، الصعود الخ. مكتفيًا أحيانًا بالتلميح.

إنجيل يوحنا بين اللاهوت والتاريخ

بلا شك أن إنجيل يوحنا له طابع متميز عن بقية الأناجيل، فإن كانت الأخيرة قد سجلها الوحي الإلهي بغرض تاريخي مع اهتمام كل إنجيل بالكشف عن أحد جوانب السيد المسيح، فإن هذا الإنجيل يغلب عليه الطابع اللاهوتي، وإن كان في عرض تاريخي أيضًا.

في إنجيل مرقس يذكر رحلة واحدة من الجليل إلى أورشليم (مر ١٠: ١)، أما في يوحنا فيذكر ثلاث رحلات (يو ٢: ١٣؛ ٥: ١؛ ٧: ١٠). في إنجيل مرقس يأتي تطهير الهيكل في أواخر السفر

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 36:1.*

(مر ١١: ١٥)، أما في يوحنا فيأتي في قرب بدايته (يو ٢: ١٣ الخ).

لقد ركز الإنجيلى يوحنا على شخص السيد المسيح ليعلن أنه كلمة اللَّه الذي فوق الزمن وقد خضع للزمن، وصار له موضع في تاريخ البشرية. حقًا لم يُقصد بالإنجيل أن يستعرض تاريخ حياة السيد، بل أبرز حقيقته بكونه اللوغس "الكلمة الإلهى"، النور، الحق، الحياة، القيامة الخ. وكأن هذا السفر أراد تأكيد أن التمتع بملكوت اللَّه الداخلي إنما هو تعرُف على شخص المسيا المخلص، وإدراك أسراره عاملة فينا. من أجل هذا خضع للزمن، إذ "صار الكلمة جسدًا" (١: ١٤).

إن كنا نحن كبشرٍ نحمل جسدًا يخضع للزمن، فبخضوع السيد المسيح بإرادته للزمن واقتحامه تاريخنا خلال تجسده لم يحطم الزمن بل أعطاه قدسية خاصة. ولعله لهذا السبب نجد الرسول يوحنا **يهتم بالتدقيق في الحديث عن الأزمنة والأوقات**، إذ يقول:

"وكان نحو **الساعة العاشرة**" (١: ٣٩)؛

"كان نحو **السادسة**" (٤: ٦؛ ١٩: ١٤)؛

"في **ست وأربعين سنة** بُني هذا الهيكل" (٢: ٢٠)؛

"وكان **شتاء**" (١٠: ٢٣)؛

"وكان **ليلاً**" (١٣: ٣٠)؛

ولعل اهتمام الرسول بتحديد الأزمنة تأكيد أن السيد المسيح قد حمل جسدًا حقيقيًا، ودخل في التاريخ البشري، ولم يكن جسده خيالاً كما ادَّعى البعض مثل الدوناتست.

إذ يسبح القديس يوحنا في اللاهوتيات، بكونه اللاهوتي الأول، يشرح لنا قصد اللَّه و"تدبيره" (باليونانية *eikos ecomomia*، *eikos* أي بيت؛ و*nomos* أي قانون أو ناموس): "الحكمة بنت لها بيتًا" (أم ٩: ١). فالحكمة هي المسيح، وأول بيت لها هو العذراء مريم التي بتجسده منها جاء المسيح إلى العالم. والعذراء صورة الكنيسة التي هي أيضًا بيت اللَّه (١ كو ٣: ٩-١٧)[1].

تزايد الاهتمام بالجانب التاريخي

إن كان بعض الدارسين المحدثين أرادوا تفسير إنجيل يوحنا من الجانب اللاهوتي البحت، متجنبين قيمته التاريخية، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام هذه الحقيقة: أن هذا اللاهوت سُجَل في قالب تاريخي[2].

---

[1] دير مارجرجس الحرف بيروت، إنجيل يوحنا، قراءة وتعليق، ١٩٨٦، ص ١٠.

[2] *The Anchor Bible: R.E. Brown: The Gospel According to John, (1-XII), 1981, p. XLI.*

لذلك نما الاتجاه نحو الاهتمام بالجانب التاريخي والاجتماعي والجغرافي لهذا السفر خاصة في الأحداث التي وردت في هذا السفر وحده دون بقية الأناجيل، من ذلك دراسات كل من *Albright* و*Higgins* و*Leal* و*Pallard* و*Stauffer* وغيرهم. هؤلاء ركزوا على الآتي[1]:

١. ما جاء في الأصحاح الرابع بخصوص السامريين، وفكرهم اللاهوتي، وممارستهم للعبادة على جبل جرزيم، وموقع بئر يعقوب بدقة.

٢. في الأصحاح الخامس نجد معلومات دقيقة عن بركة بيت حسدا، من جهة اسمها وموقعها وأبنيتها.

٣. مقالات لاهوتية خاصة بعيد الفصح (أصحاح ٦)، وعيد المظال (ص ٧، ٨)، تقدم لنا معلومات دقيقة عن الاحتفالات الخاصة بالأعياد وقراءات المجمع اليهودي في أثنائها.

٤. تفاصيل خاصة بأورشليم، مثل الإشارة إلى بركة سلوام (٩: ٧)، وإلى رواق سليمان كملجأ في الشتاء (١٠: ٢٢-٢٣)، وإلى الممر الحجري في بلاط بيلاطس (١٩: ١٣). بمعنى آخر يمكننا القول إن هذا السفر قدم لنا معرفة دقيقة خاصة بفلسطين قبل دمار أورشليم سنة ٧٠م وتحطيم معالمها.

سماته

١. إنجيل القداسة الإلهية

يكشف لنا هذا السفر عن قداسة اللَّه بطريقة رائعة مفرحة. فكلمة قداسة في اليونانية *ayios* تعني "لا أرضي". فالقداسة اسم يخص اللَّه، ليُعلن لنا ما هو فوق إدراكنا، وقد ارتبطت قداسة اللَّه قديمًا بالخوف:

"فارتعد كل الشعب الذي في المحلة... وارتجف كل الجبل جدًا" (خر ١٩: ١٢-٢٥).

"أما وجهي فلا تستطيع أن تراه، لأنه لا يراني إنسان ويعيش" (خر ٢٣: ٢٠).

"ويلي قد هلكت، لأني رجل دنس الشفتين... وقد رأت عيناي الملك رب الجنود" (إش ٦: ٥).

يكشف إنجيل يوحنا العهد الجديد في أعماقه حين نزل السماوي إلى الأرضيين، **وأعلن قداسته مقرونًا بالمجد لا بالرعد: "حلّ بيننا ورأينا مجده"** (١: ١٤).

[1] *The Anchor Bible: R.E. Brown: The Gospel According to John, (1-XII), 1981, p. XLII.*

٢. إنجيل الإيمان العامل بالمحبة *Redemptive love*، واهب الحياة

اتسم هذا السفر بوجود مصطلحات معينة متكررة تختلف عما وردت في الأناجيل الأخرى. ولعل من أهم الكلمات التي تكررت فيه هي: **يؤمن** (٩٨ مرة)، **يعرف** (٥٥ مرة)، **يحيا** (٥٥ مرة)، **يحب** (٢٠ مرة)، **يشهد** (٢١ مرة). تكرار هذه الكلمات لم يأتِ مصادفة أو بدون حكمة، فقد أراد الوحي الإلهي أن يكشف عن غاية هذا السفر، ألا وهو **الإيمان القائم على المعرفة الروحية، لكي يحيا الإنسان بروح الحب.**

فإن كانت كلمة "**يؤمن**" قد تكررت ٩٨ مرة في السفر كله، فإنها تكررت ٧٤ مرة في الإثني عشر أصحاحا الأولى، هذه الأصحاحات التي تُدعى "كتاب الآيات أو المعجزات"، شملت سبع آيات صنعها السيد المسيح. وكأن غاية هذه الآيات هي "الإيمان" بكونه سرّ حياتنا وخلاصنا. ويلاحظ أن الكلمة: "**يؤمن**" جاءت في هذا السفر ٣٩ مرة لتعني ليس مجرد تصديق أقوال السيد، وإنما **إعطاء الإنسان ذاته للَّه أو تحركه عمليًا نحوه** كما جاء في ١٢: ١١ "**لأن كثيرين من اليهود كانوا بسببه يذهبون ويؤمنون بيسوع**". وربما جاءت الكلمة عن أصل عبري يعني أن الشخص يسلم نفسه بثقة للغير[1].

تكررت أيضًا كلمة "**يعرف**"، ليؤكد الرسول أن الإيمان وهو يحمل معنى التسليم مع الثقة في اللَّه، هو تسليم النفس العاقلة التي **تتقبل حب اللَّه، وتتعرف على أسراره**، فترتمي في أحضانه. الإيمان لا يتقبله الأغبياء، ولا يعني الجهالة، بل يسير جنبًا إلى جنب مع المعرفة الحقيقية، خاصة التي يعلنها اللَّه نفسه ليتقبلها العقل، وإن كانت فائقة عن قدراته، لكنها ليست متعارضة معه أو مناقضة له.

المعرفة هنا لا تعني مجرد الإدراك الذهني النظري، إنما تعني الاتحاد الكامل في الحق والحب، أو شركة الحياة، الأمر الذي أوضحه الإنجيلي في رسالته الأولى: "الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضًا شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١ يو ١: ٣).

أما غاية المعرفة فهي "الشركة مع اللَّه" ليمارس حياته فينا، **فنحمل طبيعة محبته.** هذا هو الحب الخلاصي الذي يسكبه فينا لنختبره ونعيشه. جاء الإنجيل يعلن لنا: "**هكذا أحب اللَّه العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية**" (٣: ١٦). هذا الحب

[1] *Nelson: A New Catholic Commentary on the Holy Scripture, 1969, p. 1035.*

الخلاصي قدمه الابن، إذ يقول: "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع" (١٢: ٣٢). "أما يسوع... وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى" (١٣: ١). الإيمان بالصليب ينير بصيرتنا، فنتعرف على اللَّه، بكونه محب البشر الباذل، لذا يؤكد السيد: "متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون إني أنا هو" (٨: ٢٨). نعرفه أنه اللَّه الكائن، الذي يحب خليقته حتى النهاية.

هكذا يرتبط الإيمان بالمعرفة والحب ليحيا الإنسان بالإيمان الحي خلال المعرفة الروحية، ممارسًا طبيعة الحب.

الحب الخلاصي الذي نتذوقه فنتجاوب مع اللَّه بالحب، إنما ينبع عن طبيعة الحب الأزلية التي بين الآب والابن (٣: ٣٥؛ ١٥: ٩). وخلاله نمارس حبنا أيضًا لبعضنا البعض (١٣: ١٤).

كأن الانجيلي يوحنا، وهو رسول الحب، يحدثنا عن:

- حب الآب للسيد المسيح.
- حب الآب للبشرية خلال بذل ابنه وحيد الجنس.
- حب السيد المسيح الخلاصي للبشر، خاصة في حديثة الوداعي.
- حبنا للَّه.
- حبنا لبعضنا البعض كعلامة شركتنا في الحب الإلهي.

٣. إنجيل الحق

جاءت كلمة "**الحق**" ٢٥ مرة في هذا السفر. و"الحق" هنا يختلف عما يعنيه الغنوسيون أو الهيلّينيون[1]، إذ هو ليس ثمرة فكر بشري بحت، أو فلسفة إنسانية يتعرف عليها، وإنما "**الحق الإنجيلي**" يعني الآتي:

أولاً: الكلمة الإلهي نفسه الذي يحرر النفس من ظلمة الخطية: "وتعرفون الحق، والحق يحرركم" (٣٢:٨). الكلمة الإلهي الذي فيه نتقدس، كما جاء في صلاته الوداعية: "قدسهم في حقك، كلامك هو حق" (١٧:١٧).

ثانيًا: يُعلن لنا إلهيًا، إذ يقول السيد المسيح: "الذي من اللَّه يسمع كلام اللَّه، لذلك أنتم لستم

[1] *Nelson: A New Catholic Commentary on the Holy Scripture, 1969, p. 1035.*

تسمعون لأنكم لستم من اللَّه" (٨: ٤٧). "وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم ما قلته لكم" (١٤: ٢٦).

ثالثًا: الحق هو حياة تُعاش وتُمارس: "وأما من يفعل الحق، فُيقبل إلى النور، لكي تظهر أنها باللَّه معمولة" (٣: ٢١). "سالكين في الحق" (٢ يو ٤).

٤. إنجيل الروح

يرتفع بنا الإنجيلي إلى اللاهوتيات لنتعرف على أسرارها فنعيشها ونختبرها، فالحاجة هنا لا إلى مجادلات فكرية بشرية وفلسفية، وإنما إلى الروح القدس الذي ينير لنا البصيرة الداخلية. فإن كان الروح هو الذي يوحي للرسول بما يكتب، يطلب من قارئيه أن يتمتعوا بعمل الروح، فيدركوا أسرار الكتابة، ويتعرفوا خلال الأحداث على العمل الإلهي الخلاصي.

لم يدرك التلاميذ بالروح كلمات السيد المسيح حتى تمجد، إذ يقول: "قال لهم انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه... فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا، فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع" (٢: ١٩، ٢٢). "وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه" (١٢: ١٦). "لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغي أن يقوم من الأموات" (٢٠: ٩).

لقد سمعوا كلمات السيد ورأوا الأحداث، لكنهم كانوا في حاجة أن يفتح الروح بصيرتهم الداخلية ليدركوا ويؤمنوا؛ لهذا أكد الإنجيلي أن الرؤية الجسدية وحدها لا تكفي، إنما يلزم الإيمان الذي يفتح البصيرة للرؤية الداخلية:

"فقال لهم يسوع... إنكم قد **رأيتموني** ولستم تؤمنون" (٦: ٣٦).

"لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل من **يرى الابن** ويؤمن به تكون له حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (٦: ٤٠).

"لأنك رأيتني يا توما آمنت، طوبى للذين **آمنوا ولم يروا**" (٢٠: ٢٩).

"وخرج دم وماء، والذي **عاين** شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم" (١٩: ٣٤-٣٥).

"دخل أيضًا التلميذ الآخر الذي جاء أولاً إلى القبر **ورأى فآمن**" (٢٠: ٨).

يوضح الإنجيل أنه يوجد من يرى بعيني جسده، ولا يرى ببصيرته الداخلية: "فقال يسوع: أتيت

أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون". إذ بالإيمان أبصر الأمم الذين لم يبصروه حسب الجسد، بينما أصيب قادة اليهود بالعمى مع أنهم أبصروه بأعينهم الجسدية.

وما نقوله عن الرؤية الجسدية والروحية هكذا أيضًا بالنسبة للسماع. إذ يوجد من يسمع الصوت بأذنيه ولا تنفتح أذناه الداخليتان، كما قيل: "فجاء صوت من السماء: مجدت وأمجد أيضًا، فالجمع الذي كان واقفًا وسمع قال: قد حدث رعد..." (١٢: ٢٨-٢٩).

❖ كلمات يوحنا هي كلا شيء بالنسبة للذين لا يرغبون في التحرر من هذه الحياة البهيمية، كما أن أمور هذا العالم لا تفيده في شيءٍ. الرعد يذهل نفوسنا، إذ يصدر صوتًا بلا معنى، أما صوت هذا الرجل فلا يربك أحدًا من المؤمنين، بل بالأحرى يهدئ من متاعبهم وارتباكهم. إنه يذهل الشياطين فقط وعبيدهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٥. إنجيل الشهادة للسيد المسيح

الشهادة للسيد المسيح تمثل بلا شك عصب الحياة الرسولية، وقد جاء القديس يوحنا في إنجيله يعلن الشهادة للسيد بكونه "**المسيا ابن اللَّه**"، قدمها بما يناسب العقلية اليهودية الناموسية، فقدم لنا عدة شهادات متباينة:

ا. **شهادة الناموس له**، موضحًا أن فيه قد تمت الكتب والنبوات، خاصة في قصة آلامه (١٢: ٣٨؛ ١٣: ١٨؛ ١٥: ٢٥؛ ١٧: ١٢؛ ١٨: ٩؛ ٩: ٢٤؛ ١٩: ٢٤، ٣٦). يطالبنا السيد المسيح نفسه بتفتيش الكتب (٥: ٣٩).

ب. **شهادة يوحنا المعمدان** (١: ٧، ١٥، ١٩ الخ؛ ٣: ٢٦ الخ؛ ٥: ٣٥ الخ).

ج. **شهادة المرأة السامرية** (٤: ٣٩).

د. **شهادة الجموع له** (١٢: ١٧).

هـ. إذ يعلن السيد أن الإنسان لا يشهد لنفسه، أوضح أن **الآب يشهد له** خلال الأعمال (٥: ٣١-٣٦، ٨: ١٧ الخ؛ ١٠: ٣٧؛ ١٤: ١٠ الخ).

و. **شهادة الروح القدس عنه** (١٥: ٢٦ الخ).

[1] *Homilies on St. John, Hom. 1:4.*

ز. **شهادة التلاميذ له** (١٥: ٢٧).

وإنني أترك الحديث عن الشهادة لبنوة السيد المسيح للآب وتأكيد لاهوته لصُلب شرح الإنجيل منعًا من التكرار وتحاشيًا للإطالة، إذ يعتبر هذا الموضوع في صلب الإنجيل نفسه افتتح به الإنجيلي السفر وختمه به، موضحًا العلاقة الأزلية بين الآب والابن، الأمر الذي أثار اليهود وأرادوا رجم السيد (٥: ١٨).

ويلاحظ أن القديس يوحنا الحبيب يُسقط على الأشخاص **نور السيد المسيح** وينسبهم إليه، فيدعو القديسة مريم: "أم يسوع"، ويدعو نفسه: "التلميذ الذي كان يسوع يحبه". وكأن القديسين يحملون أسماءً هي عبارة عن نسبهم إلى السيد المسيح.

٦. إنجيل الوصية الجديدة أو إنجيل المحبة

إن كان هذا السفر لم يقدم لنا الموعظة على الجبل، ولا أمثال السيد المسيح ولا شرائع خاصة به، لكنه قدم وصية جديدة ركز عليها، هذه الوصية ليست دستور قوانين أو شرائع *code of laws* وإنما طريق محبة *way of love*؛ ليست ثقلاً يلتزم به الإنسان، بل شركة في طبيعة المسيح محب البشر، إذ يقول: "وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضًا؛ كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضًا بعضكم بعضًا، بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضنًا لبعض" (١٣: ٣٤-٣٥).

تكلم كثيرًا عن علاقة الرب بالكنيسة والعالم أنها علاقة محبة. فالاتحاد بالكنيسة يشبه اقتران العروسين. فلقد قال عنه المعمدان أنه عريس الكنيسة "من له العروس فهو العريس... إذًا فرحي هذا قد كمل" (يو ٣: ٢٥-٢٨). كما أكد النمو بأكل جسده: "أنا هو خبز الحياة. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد" (٦: ٤٨-٥١). لقد شبَّه نفسه بالراعي (١٠: ١١)، وأيضًا بالبواب (١٠: ٣)، والباب (١: ٧). ثم اعتبر نفسه الكرمة والكنيسة الأغصان (أصحاح ١٥).

وصف هذا الإنجيل كاتبه بأنه كان يتكئ على صدر الرب، وكان الرب يحبه. ووصف الرب يشارك الناس ظروفهم كما في العرس بقانا الجليل (يو ٢)، وفي الأحزان مثلما بكى عند قبر لعازر (يو ١١). وحين يضعف إيمان البعض مثلما حدث مع توما فيثبت إيمانه (٢٠: ٢٧-٢٨) ومع بطرس حين يسقط فيشجعه على عدم التراجع ويسنده بالحديث عن المحبة (٢١: ١٥-١٨). ويصدر حديثه الوداعي للتلاميذ بقوله إنه "أحب خاصته الذين في العالم. أحبهم إلى المنتهى" (١٣: ١) ولا

غرو فهو الذي بذل ذاته عنا، "لأنه هكذا أحب اللَّه العالم حتى بذل ابنه الوحيد كي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (٣: ١٦).

هذا ولم يذكر إنجيل يوحنا **مثلاً صريحًا** سوى في حديثه عن الراعي الصالح (يو ١٠).

٧. مسيح الشباب المفرح

افتتح خدمته بحضور عرس في قانا الجليل، فهو صديق الشباب، ومصدر فرحهم. لم يذكر معلمنا يوحنا اسمي العروسين اللذين حضر السيد المسيح عرسهما وصنع أول معجزة (يو ٢)، غالبًا ما كان أحد أقرباء يسوع المسيح حسب الجسد، لذا دُعي مع أمه للحضور.

٨. إنجيل أحاديث للسيد المسيح

جاءت غالبيتها خلال أسئلة أو اعتراضات وجهت إليه، خلالها كشف السيد عن حقيقة نفسه وعن أعماله، نذكر على سبيل المثال:

* **نثنائيل:** "من أين تعرفني؟" (١: ٤٨)
* **اليهود:** "أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟" (٢: ١٨)
* **نيقوديموس:** "كيف يمكن أن يكون هذا؟" (٣: ٩)
* **السامرية:** "كيف تطلب مني لتشرب، وأنت يهودي، وأنا امرأة سامرية؟" (٤: ٩)
* **اليهود:** "كيف يقدر أن يعطينا جسده لنأكل؟" (٦: ٥٢)
* **في عيد المظال:** "كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم؟" (٧: ١٥)
* **الجمع:** "بك شيطان؛ من يطلب أن يقتلك؟" (٧: ٢٠)
* **الكتبة والفريسيون:** "يا معلم، هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل، وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجم، فماذا تقول أنت؟" (٨: ٥)
* **اليهود:** "إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط، كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحرارًا؟" (٨: ٢٣)

"ألسنا نقول حسنًا إنك سامري وبك شيطان؟" (٨: ٤٨)

"ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذي مات، والأنبياء ماتوا، من تجعل نفسك؟" (٨: ٥٣)

"ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟" (٨: ٥٧).

* **التلاميذ:** "يا معلم، من أخطأ هذا أم أبواه حتى وُلد أعمى؟" (٩: ١)

هكذا سار السفر في غايته يحمل أسئلة أو اعتراضات والرب يجيب ويعلن أسراره!

حوى السفر عدة **أحاديث عامة أو موجهة لأشخاص:**

١. المعمودية والميلاد الجديد (٣: ١–٢١).
٢. الحياة الأبدية (٤: ٥–٢١).
٣. مصدر الحياة الأبدية (٥: ١٩–٤٧).
٤. خبز الحياة (٦: ٢٩–٥٩).
٥. معلم الحق (٧: ١٤–٢٩).
٦. نور العالم (٨: ١٢–٢٠).
٧. المسيح المصلوب غاية الإيمان (٨: ٢١–٣٠).
٨. المحرر الروحي (٨: ٣١–٥٩).
٩. الراعي الصالح (١٠: ١–١٨).
١٠. وحدة اللاهوت (١٠: ٢٢–٣٨).
١١. مخلص العالم (١٢: ٢٠–٣٦).

كما قدم **أحاديث وداعية لتلاميذه:**

١٢. موته عن كل البشرية (١٢: ٢٠–٣٦).
١٣. التقديس والتكريس (١٣: ٣١–١٤: ٣١).
١٤. الاتحاد مع المسيح (١٥: ١–٢٧).
١٥. الروح المعزي (١٦: ١–٣٣).

٩. إنجيل ليتورجي

إنجيل يوحنا أكثر الأناجيل "ليتورجية"، أي إعلان حضور السيد المسيح سريًا، فيعلن عن حضوره في عرس قانا الجليل لا كمدعو فحسب، وإنما كسرّ فرح خفي بتحويل الماء إلى خمرٍ، ويتحدث عن حضوره السري خلال حديثه مع نيقوديموس ليلاً عن سرّ المعمودية، كذلك في شفائه مفلوج بيت حسدا.

ما أن أسلم السيد المسيح الروح حتى طعنه واحد من العسكر في جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء (١٩: ٣٤)، دم الإفخارستيا وماء العماد. وكأنها لحظات ولادة الكنيسة، فقد وُلدت حواء الجديدة من جنب آدم الثاني.

جاءت الأحداث والأحاديث المسيانية في السفر لها طابع ليتورجي سرائري كنسي، مثل حوار السيد المسيح مع نيقوديموس عن الولادة الجديدة أو المعمودية (يو ٣)، كما تحدث مع الجمهور حديثًا إفخارستيا (يو ٦).

١٠. إنجيل القوة والحركة

يتميز إنجيل يوحنا بالحركة "**الديناميكية**" الجلية، فيقدم لنا حركة الخليقة نحو الآب في المسيح. "يسوع وهو عالم... أنه من عند اللَّه خرج وإلى اللَّه يمضي" (١٣: ١، ٣). إنها **حركة فصحية حقيقية** خلالها يُصعد السيد المسيح المؤمنين إلى حضن الآب بالصليب. يقول السيد المسيح: "إبراهيم أبوكم ابتهج بأن يرى يومي، فرأى وفرح" (٨: ٥٦).

إن كان إنجيل مرقس يشَّبه بالأسد حيث يفرح المؤمنون مع السمائيين بتسبيح الظفر كأسودٍ غالبة، وإنجيل لوقا يشَّبه بوجه الثور مقدمين حياتهم ذبيحة حب للَّه في المسيح الذبيحة الحقيقية، وإنجيل متى بوجه إنسانٍ، فإن **إنجيل يوحنا يشَّبه بالنسر الذي يحلق بنا في اللاهوتيات، ويرتقي بنا إلى السماء عينها لنعرف أسرار اللَّه الفائقة، قائلين: "رأينا مجده!"** (١: ١٤).

١١. اهتمامه بأرقام معينة

كمثال **رقم ٣**، إذ نجده:

* يحدثنا عن ذهاب السيد المسيح إلى الجليل ثلاث مرات؛
* ويختار في الجليل ثلاث معجزات؛
* كما ذهب إلى اليهودية ثلاث مرات؛
* ويُجري السيد بها ثلاث معجزات؛
* يسجل لنا من كلمات السيد المسيح السبع على الصليب ثلاث كلمات؛
* ويُقدم لنا ثلاثة ظهورات للسيد المسيح بعد قيامته.

واهتم أيضًا برقم ٧، إذ نجده:

* يأتي بسبعة شهود للسيد المسيح (راجع إنجيل شهادة للسيد المسيح)؛
* ويختار في كل السفر سبع معجزات أو آيات صنعها السيد المسيح.
* وترد فيه كلمة "اليوم الأخير" سبع مرات.

١٢. أسلوبه إعجازي مطلق

يجد المؤمن في الإنجيل بحسب القديس يوحنا **متعة خاصة،** فهو **ذروة الوحيّ الإنجيلي،** أسلوبه إعجازي مطلق بكونه السهل الممتنع، مادته هو "المسيح" نفسه بكونه "كلمة اللَّه" الذي يرفع النفس لتكتشف الأسرار الإلهية فيه كما بدون وسيط.

عاش القديس يوحنا هذا الإنجيل أكثر من نصف قرنٍ بعد صعود السيد المسيح يتأمله بالروح القدس الذي وعد به السيد: "لأنه ماكث معكم ويكون فيكم... يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم" (١٤: ١٧، ٢٦)، "يرشدكم إلى جميع الحق" (١٦: ١٣). تحولت خبرته الشخصية مع السيد المسيح أثناء وجوده على الأرض، ودالته لديه إلى انطلاقة بالروح القدس لتهيم نفسه في السماوات، تتعم بالسيد المسيح محبوبها الممجد. لذا كتب بالروح هذا السفر ليرفع كل نفس إلى ذات الخبرة.

١٣. آخر ما كُتب من أسفار الكتاب المقدس

قلنا أن **هذا الإنجيل جاء متمايزًا عن الأناجيل الإزائية** *Synoptic Gospel*، بكونه قد كُتب في أواخر القرن الأول، غالبًا آخر ما كُتب من أسفار الكتاب المقدس، فجاء لا ليكرر ما ورد في الأسفار الأخرى بل ليكملها، لهذا جاء يحمل السمات التالية:

- بينما اهتمت الأناجيل المؤتلفة بخدمة السيد المسيح في الجليل ولم تتعرض إلا لرحلةٍ واحدةٍ له في أورشليم في الأسبوع الأخير من حياته على الأرض، اهتم هذا الإنجيل بالأكثر **بخدمة السيد المسيح في اليهودية وأورشليم والهيكل،** لهذا دُعي البعض الأناجيل الأولى بالجليلية، أما إنجيل يوحنا فيُدعى "**الإنجيل الأورشليمي**".
- قدمت لنا الأناجيل الأولى معاملات السيد المسيح وأحاديثه مع عامة الشعب بلغة البساطة، أما الإنجيل الأورشليمي فإهتم بالأكثر بمعاملات السيد المسيح مع علماء اليهود وزعمائهم وأحاديثه معهم أكثر من أحاديثه مع العامة. لهذا ادعى بعض الدارسين أن مسيح الأناجيل المؤتلفة يكاد يكون غير مسيح الإنجيل الأورشليمي. لكن الحقيقة أنه السيد المسيح الذي يخاطب جماهير الشعب بلغة شعبية تعتمد على الأمثال من واقع حياتهم هو نفسه يخاطب العلماء بلغة أخرى، إذ يُعلن عن ذاته وعن الآب صراحة، حتى قال التلاميذ: "الآن تتكلم علانية ولست تقول مثلاً واحدًا" (١٦: ٢٩).

١٤. وحدة فنية وزمنية معًا

يمثل إنجيل يوحنا **وحدة فنية وزمنية معًا** بطريقة فريدة ورائعة. ففيه ترتبط موعظة السيد وأحاديثه بالأحداث ربطًا زمانيًا ومكانيًا وموضوعيًا. يضم هذا الإنجيل سبع معجزات ترتبط بسبعة أحاديث تكشف عن شخص السيد المسيح وأسراره الإلهية.

١٥. استخدام طريقة المقابلة

اتسم الإنجيل بحسب يوحنا باستخدامه **طريقة المقابلة**، نذكر على سبيل المثال:

- ❖ افتُتح سفر التكوين بالعبارة: "في البدء خلق اللَّه السموات والأرض"، وافتُتح الإنجيل هكذا: "في البدء كان الكلمة... به كان كل شيء".
- ❖ تمت الخليقة في ٦ أيام، وبدأ تجديد الخليقة في اليوم السادس من بدء شهادة يوحنا عنه (١: ١٩-٢: ١) إلى دخوله العرس، وتحويل ماء حياتنا إلى خمر محبته.
- ❖ نجد مقابلة بين نيقوديموس رئيس اليهود المتردد (ص ٣) والسامرية غريبة الجنس الشاهدة له لتجتذب المدينة كلها (ص ٤).
- ❖ عند حديثه عن تناول جسده المقدس نفر منه كثيرون (٦: ٦٦)، يقابل هذا تعلق تلاميذه به بالأكثر، إذ يقول القديس بطرس: "يا رب إلى من نذهب، كلام الحياة الأبدية عندك؟ ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن اللَّه الحيّ" (٦: ٦٨-٦٩).
- ❖ عند تفتيح عيني المولود أعمى (ص ٩) اجتمع الفريسيون معًا لمقاومة السيد، معلنين أنه رجل خاطئ (٩: ٢٤)، بينما وقف الأعمى يشهد له أمامهم ويحاجهم. لذا قال السيد: "لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يُبصرون، ويعمى الذين يُبصرون" (٩: ٣٩).

١٦. تنوع في الأسلوب

من جهة الأسلوب حمل هذا السفر **تنوعًا في الأسلوب**، كأن يستخدم أحيانًا الرمزية، وأحيانًا الأسلوب القصصي، وأيضًا الحوار الجدلي، والخطابة، والأسلوب الباطني (الصوفي)، والتعليمي... بتناسقٍ وتناغمٍ مع وحدة اللغة مما يدل على أن الكاتب واحد.

من العلامات المميزة لإنجيل يوحنا لغته، فبينما يتكرر تعبير "ملكوت اللَّه" و"ملكوت السماوات" في الأناجيل الإزائية، لا نجده في هذا السفر إلا مرتين. وعلى العكس يتكرر هنا تعبير "أنا هو..." بينما

لا نجده في الأناجيل الإزائية[1].

إنجيل يوحنا والعهد القديم

يعتبر إنجيل يوحنا أقل الأناجيل اقتباسًا من عبارات العهد القديم بطريقة مباشرة، ففي النص اليوناني: "*Nestle Greek Text*" نجد فقط ١٤ عبارة مقتبسة، وفي نص "*Westcott-Hort*" نجد إشارة إلى ٢٧ عبارة في إنجيل يوحنا مقتبسة عن العهد القديم، يقابلها ٧٠ في مرقس، ١٠٩ في لوقا، ١٢٤ في متى. مع هذا يرى كثير من الباحثين الارتباط الشديد بين إنجيل يوحنا والعهد القديم، إذ قدم لنا السيد المسيح بكونه المسيا، العبد المتألم، ملك إسرائيل، النبي، الأمر الذي يُطابق الصورة التي قدمها لنا العهد القديم[2].

يقول *Donald Guthrie*[3] إن التركيز الشديد الذي وُجه نحو مدى أثر الهيلينية على إنجيل يوحنا جعل دراسة أفكار العهد القديم في هذا السفر لم تستوفِ حقها. ففي الحقيقة قدم لنا الإنجيل شخص يسوع المسيح كجزءٍ من التاريخ اليهودي. وحينما رفضه اليهود، إنما رفضوا شخصًا ينتمي إليهم: "إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله" (١: ١١). جاء إلى الهيكل، ومارس سلطانه الذي من حقه، إذ "صنع سوطًا من حبال وطرد الجميع من الهيكل؛ الغنم والبقر..." (٢: ١٥) الخ. لقد أدرك نيقوديموس وهو رئيس لليهود حق السيد كمعلم (٣: ١-٢)، وقد حسب السيد نفسه من بين اليهود الذين لديهم سرّ الخلاص، قائلاً للسامرية: "أما نحن، فنسجد لما نعلم، لأن الخلاص من اليهود" (٤: ٢٢).

يرى بعض الدارسين أن **أسفار العهد القديم، خاصةً سفريّ التكوين والخروج وراء هذا السفر**، خلال العبور من الحرف إلى الروح، ومن الظل والرمز إلى الحق:

١. يفتتح سفر التكوين بالحديث عن **اللَّه كخالق**، أوجد العالم كله من أجل محبته للإنسان، ويفتتح إنجيل يوحنا بالحديث عن كلمة اللَّه (اللوغوس) الذي به كان كل شيء. هو الخالق ومُجدد الخليقة، ينير كل إنسانٍ ببهائه.

٢. أبرز إنجيل يوحنا **الصراع بين السيد المسيح وإبليس** الذي كان قتَّالاً للناس منذ البدء (تك ٣،

---

[1] *J.C. Fenton: The Gospel According to John, Oxford 1970.*
[2] *F.M. Braum: Jean le Theologein, t. II, Les grandes traditions d'Asrael, 1964.*
[3] *Guthrie, p. 237.*

يو ٨: ٤٤)؛ أعطانا الغلبة عليه، قائلاً: "الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجًا" (١٢: ٣١)، فقد جاء من هو من نسل المرأة ليسحق رأس الحية (تك ٣: ١٥).

٣. في سفر الخروج كان **تابوت العهد يمثل مقدسًا** ليسكن اللَّه في وسطهم، وجاء إنجيل يوحنا يُعلن مجد ابن اللَّه المتجسد الحال في وسطنا (١: ١٤).

٤. **الحيَّة النحاسية** الشافية (عد ٢١: ٤-٩) رمز للسيد المسيح مخلصنا (يو ٣: ١٤).

٥. **المن السماوي** (خر ١٦) رمز لجسده المبذول (يو ٦: ٢٥-٥٨).

٦. **الصخرة واهبة الماء** (خر ١٧: ١-٧) رمز للسيد المسيح القائل: "إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب" (٧: ٣٧).

٧. **عمود النار** الذي كان يضيء لهم (خر ١٣: ٢١-٢٢) يشير إلى القائل: "أنا هو نور العالم" (٨: ١٢؛ راجع ١٢: ٣٥).

٨. في سفر الخروج أعلن اللَّه ذاته لموسى قائلاً: "**أنا هو**"، أو "أهيه الذي أهيه" (٣: ١٤)، وجاء السيد المسيح في إنجيل يوحنا يؤكد" "أنا هو" أكثر من مرة.

٩. احتل **الفصح** مركز الصدارة في سفر الخروج (ص ١٢)، خلاله عبر شعب إسرائيل من مصر حيث العبودية لينطلقوا نحو أرض الموعد. وقد جاء إنجيل يوحنا يكشف لنا عن العبور الحقيقي. إنه عبور من هذا العالم إلى الآب (١٣: ١، ١٦: ٢٨).

ذكر الإنجيلي أعياد الفصح الثلاثة التي أقيمت أثناء خدمة السيد المسيح، وبدون ذكرها هنا لما استطعنا معرفة مدة إقامته على الأرض نحو ثلاث سنوات ونصف بعد الثلاثين السابقة لعماده.

- ❖ في العيد الأول (٢: ١٣ الخ) قام **بتطهير الهيكل**، معلنًا غيرته عليه، مؤكدًا لهم أنه يُقيم الهيكل من جديد في ثلاثة أيام (خلال قيامة هيكل جسده).
- ❖ في العيد الثاني (٦: ٤ الخ) أعلن عن **تقديم جسده المبذول** مأكلاً حقًا للتمتع بالحياة الأبدية.
- ❖ في العيد الثالث (١٢: ٣١) جاءت ساعته ليتمجد خلال **ارتفاعه على الصليب** فيهب مؤمنيه حياة أبدية.

١٠. أعطى **مفاهيم جديدة للعهد القديم**، فإذ كان اليهود يعتزّون بأنهم أبناء إبراهيم صاحب

العهد، وحافظو الشريعة خاصة يوم السبت. أوضح لهم أنه هو الابن الوحيد الجنس واهب البنوة الحقيقية، وأنه هو رب السبت؛ أما هم فليسوا أبناء إبراهيم بل أبناء إبليس بسبب جحودهم ورغبتهم في قتله، وأنهم ليسوا حافظي السبت بل موسى نفسه يشكوهم (٥: ٤٥).

١١. **حث السيد المسيح اليهود على قراءة العهد القديم،** ليُدركوا أنها تشهد له، إذ يقول: "فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي تشهد لي، ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة" (٥: ٣٩-٤٠). لقد أكد لهم أن من يُصدق موسى يُصدقه هو، لأن موسى كتب عنه (٥: ٤٦)، وهو بهذا يعني بوضوح الاستمرارية بين العهدين.

١٢. في وضوح أظهر هذا الإنجيل أن ما تحقق بالسيد المسيح من أحداث تمس خلاصنا سبق فأنبأ عنها أنبياء العهد القديم، مثل:

- ❖ دخول السيد المسيح أورشليم منتصرًا (١٢: ١٤).
- ❖ جحْد اليهود له (١٢: ٣٨، ٤٠).
- ❖ عدم كسر ساقيّ السيد (١٩: ٣٦).
- ❖ رؤية إبراهيم يومه وتهليله (٨: ٥٦).
- ❖ رؤية إشعياء لمجده (١٢: ٤١).
- ❖ نبوة إشعياء عن يوحنا السابق (١: ٢٣).

يقول *Guthrie*: [إن استخدام ربنا للعهد القديم وتعليقات الإنجيل تفترض أن الكتاب المقدس كله يشير إلى المسيح، فهو متمم للقديم؛ الحقيقة التي نسترشد بها في تفسيرنا مفاهيم الإنجيل[1].]

إنجيل يوحنا والغنوسية[2]

مجرد نظرة سريعة على إنجيل يوحنا تكشف لنا عن سمة مختلفة تمامًا عن بقية الأناجيل. وإن كان قد قدم حياة السيد المسيح في فلسطين، وأوضح أن فيه قد تحققت نبوات العهد القديم، لكن إلى وقت قريب كان النقاد المحدثون يحسبون أن شخصية السيد المسيح كما عرضها هذا الإنجيل أقرب إلى الجو الهيليني الغنوسي منه إلى مسيح الأناجيل الأخرى. وإن كانت هذه النظرة قد تغيرت تمامًا

[1] *Guthrie, p. 238.*
[2] *Jerome Biblical Commentary, p. 416-7.*
The Anchor Bible: R.E. Brown: The Gospel According to John, (1-XII), 1981, p. XLIII, LII, LXV.

لدى كثير من الدارسين كما سنرى.

ظن بعض النقاد أن الغنوسية التي تشدد على المعرفة الباطنية كطريق للخلاص لها تأثيرها على كاتب السفر. غير أن الغنوسية ظهرت في القرن الثاني الميلادي، بينما سُجل السفر في نهاية القرن الأول. قد يعترض البعض بأن جذور الغنوسية بدأت في الوثنية واليهودية مبكرًا جدًا، وقبلها بعض المسيحيين بطريق أو آخر منذ القرن الأول.

على أي الأحوال **جاء الإنجيل يحارب الأفكار الغنوسية التي تنكر حقيقة بشرية المسيح وآلامه.** ففي يو ١٩: ٣٤ طعنه أحد الجنود بحربة في جنبه فخرج للحال دم وماء. أية واقعية لبشريته مثل هذه الواقعة؟ كما قال أيضًا: "الكلمة صار جسدًا" (يو ١: ١٤). وفي رسالتيه الأولى (٤: ٢-٣) والثانية (ع ٧) أن من لا يعترفون بيسوع الذي جاء في الجسد فهم مضلّون وليسوا من اللَّه.

يدعي بعض الدارسين أننا لا نجد في هذا السفر مسيح الأناجيل الأخرى حيث الأمثال والتعاليم السلوكية البسيطة، إنما نجد رموزًا وتعاريف معينة: مثل أنا هو الخبز، أنا هو النور، الباب، الراعي، الحق، الحياة، الطريق، الكرمة، كما نجد أسماء مثل "اللوغوس"، "الحق"، "المعرفة". مع استخدام الثنائية مثل: النور والظلمة، الحق والباطل، الروح والجسد... هذا كله دفع الدارسين للقول بأن السيد المسيح في هذا الإنجيل كأنما يسير في العالم الهيليني في القرن الثاني، أو أن الكاتب يحمل فكرًا غنوسيًا.

حقًا إن يسوع بحسب إنجيل يوحنا يُقدم نفسه بالعبارة الخشوعية القدسية المتكررة: "**أنا هو**". جاء إلى عالم ظلمة يكره النور، ودخل عالم الباطل بكونه الحق، وعالم الكراهية والبغضة بكونه الحب؛ بحضرته ميّز البشرية إلى فريقين: فريق يقبل النور وآخر يهرب من النور، الأول يؤمن بالحق والآخر يرفضه. لكن هذا الفكر **يختلف عن الثنائية الغنوسية**، إذ لم يُقدم إنجيل يوحنا فكرًا خاصًا بأصل النور وأصل الظلمة، وهذا ما كان يشغل بال الغنوسيين.

كان يمكن لهذه الدراسات أن تبقى عقبة تشكك بعض البسطاء في قانونية هذا السفر، ونسبه للقديس يوحنا الإنجيلي، لكن اللَّه أراد أن يحوّل هذه الدراسات إلى تثبيت المؤمنين بالأكثر خلال اكتشافين هامين في حوالي سنة ١٩٤٧.

أولاً: ظهور مخطوطات البحر الميت، والتي تُسمى مخطوطات قمران التي قدمت للعالم مكتبة عن **الجماعة الأسينية** كشفت عن حقبة زمنية من حوالي سنة ١٤٠ق.م إلى ٦٨م. هذه المستندات

أظهرت أن الأفكار والتعبيرات التي وردت في إنجيل يوحنا هي فلسطينية ترجع إلى القرن الأول الميلادي.

ثانيًا: اكتشاف **مكتبة كاملة غنوسية في منطقة نجع حمّادي** بصعيد مصر، قدم للعالم الغنوسية من مصادرها الرئيسية لأول مرة، بعد أن كنا نتعرف عليها خلال كتابات الآباء المقاومين لها، ونسمع عن أسماء كتبها دون وجود نصوصها كاملة. هذا الاكتشاف عرّفنا الفارق الشاسع بين عالم الغنوسية وإنجيل يوحنا، والتمييز القاطع بينهما، إذ لم يعد هناك بعد أي شك بأن الإنجيل اعتمد على مصادر غنوسية، بل ظهر أن ما جاء في السفر من كلمات غنوسية هي يهودية فلسطينية بحتة أُستخدمت في القرن الأول.

قام بعض الدارسين مثل *Quispel* و*Barret* و*Braun* بدراسات مقارنة بين إنجيل يوحنا والمخطوطات الغنوسية التي وُجدت في نجع حمّادي مثل "إنجيل الحق" (يرجع لسنة ١٤٠م)، "إنجيل توما"، من جهة الأفكار والتعبيرات، فخرجوا بالنتائج التالية:

١. أنه **يستحيل وضع إنجيل يوحنا وسط الأعمال الغنوسية** التي وُجدت بنجع حمّادي، لكن يمكن القول بأن الأعمال الغنوسية استخدمت إنجيل يوحنا في القرن الثاني وقدمت أفكارًا غير ما وردت بالإنجيل.

٢. هناك تمايز قوي بين الإنجيل وهذه الأعمال **من جهة الأفكار ومن جهة التعبيرات**.

٣. توجد بعض تعبيرات مشتركة بين الإنجيل وهذه الأعمال، لكن الإنجيل قدمها بمفهومٍ معين والأعمال الغنوسية قدمتها بمفاهيم أخرى وباستعمالات مختلفة تمامًا.

هذا بالنسبة للعلاقة بين إنجيل يوحنا وبين الأعمال الغنوسية المسيحية (الهرطوقية). لكن ربما نتساءل: هل يمكن أن يكون هذا الإنجيل قد فتح الباب للغنوسية؟ أو أعدّ الطريق لها؟

- ❖ يرى بعض الدارسين أن الغنوسيين يمكن أن يكونوا قد تأثروا باليهودية خلال إساءة فهم بعض نصوص العهد القديم وليس إنجيل يوحنا، فإن كان إنجيل يوحنا قد ميّز بين النور والظلمة لكنه لم يُقدم فكرًا خاصًا بأصل النور وأصل الظلمة.
- ❖ ركّز إنجيل يوحنا على "**الإيمان**"، وحسب "المعرفة" **هبة إلهية** تُقدم خلال الإعلان الإلهي، الأمر الذي يتنافى مع الفكر الغنوسي.

إنجيل يوحنا والهيلينيّة

اتُهِمَ القديس يوحنا – أو كاتب السفر – أنه قام بتقديم مسحة هيلينية للمسيحية حتى يمكن للعقل الهيليني أن يتقبلها، مقدمين في ذلك دليلاً وهو استخدامه لتعبير "الكلمة" أو "**اللوغوس**" نقلاً عن الفلسفة اليونانية.

يُرد على ذلك بأن القديس يوحنا لم يستخدم هذا التعبير كما جاء في الفلسفات اليونانية أو في الغنوسية أو كما جاء عند فيلون (مفكر يهودي إسكندري قدم الفكر اليهودي بطريقة هيلينية رمزية)، وإنما حمل مفهومًا كتابيًا، على ضوء ما جاء في العهد القديم عن "**الحكمة**" التي خرجت إلى البشرية لتقيمهم مسكنًا إلهيًا، كما يقول سفر الأمثال:

"الحكمة تنادي في الخارج، في الشوارع تُعطي صوتها"؛

"الحكمة بنت بيتها، نحتت أعمدتها السبعة" (٩: ١).

"**اللوغوس**" في الفكر الهيليني يمثل العقل المدبّر الكامن في الكون، وهو أول الخليقة، أما القديس يوحنا فيحدثنا عن "**اللوغوس**" بكونه نطق اللَّه الذاتي، فهو الابن الوحيد، من ذات الآب وفي ذاته، وليس خارجًا عنه، بل هو واحد معه في الجوهر. لا نجد في الفكر الهيليني كلمة اللَّه متجسدًا يحلّ بين البشر الذي يعلن لهم أسراره الإلهية، هذا تمايز بين "الكلمة" في الفكر الهيليني و"الكلمة" في الإنجيل.

إذا دققنا في "**اللوغوس**" كما أعلنه القديس يوحنا في إنجيله نجده مرادفًا للحكمة كما جاء في العهد القديم:

ا. **أزلي** (أم ٨: ٢٢؛ ابن سيراخ ٢٤: ٩؛ حك ٩: ٥) [راجع يو ١: ١].

ب. **قائم في السموات**، ينزل إلى الأرض، ليسكن وسط إسرائيل (أم ٨: ٣١؛ باروخ ٣: ٣٧؛ ابن سيراخ ١٤: ٨) [يو ١: ١٤؛ ٣: ٤١؛ ٦: ٣٨؛ ١٦: ٢٨].

ج. **فيض مجد القدير** (حك ٧: ٢٥) [يو ١: ١٤؛ ٨: ١٥؛ ١١: ٤؛ ١٧: ٥].

د. **يعلم الناس الإلهيات** (حك ٩: ١٦)، وما يُرضي اللَّه (حك ٨: ٤)، ويقودهم إلى الحياة (أم ٨: ٢٥، ابن سيراخ ٤: ١٢) [يو ٣: ١٩؛ ٧: ٤٠؛ ١٤: ١٩].

هـ. **ينطق بصيغة المتكلم** "أنا" (أم ٨، ابن سيراخ ٢٤).

ز. **ينادي الإنسان ويخرج إليه** (أم ٨: ١، حك ٦: ١٦) [يو ٥: ١٤؛ ٩: ٣٥]. ويدعو تلاميذه

"أبنائي" (أم ٨: ٣٢؛ ابن سيراخ ٦: ١٨) [يو ١٣: ٣٣].

إنجيل يوحنا والسيد المسيح

للأسف انهمك كثير من النُقاد المحدثين في الكشف عن مدى ارتباط هذا السفر بالفكر الهيليني واللغة والثقافة الهيلينية، حتى ظن البعض أن الكاتب لا يمكن أن يكون يهوديًا. غير أن دراسة هذا السفر في علاقته بالسيد المسيح تكشف عن الإنجيلي وقد انشغل بالكشف عن شخص ربنا يسوع المسيح:

أولاً: بكونه ملك اليهود، الملك الروحي، المسيَّا الذي ترقبه الأنبياء وانشغل به العهد القديم.

"يا معلم أنت ابن اللَّه، أنت ملك إسرائيل" (١: ٤٩)؛

"مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل" (١٢: ١٣)؛

"قال له: أنت ملك اليهود... أفأنت ملك؟ فأجاب يسوع: أنت تقول إني ملك" (١٨: ٣٣-٣٧)؛

"كل من يجعل نفسه ملكًا يُقاوم قيصر" (١٩: ١٢)؛

"أأصلب ملككم؟!" (١٩: ١٥)؛

"كان مكتوبًا: يسوع الناصري ملك اليهود" (١٩: ١٩).

ثانيًا: جاء السفر يؤكد أن **يسوع هو المسيّا** ٢١ مرة، بينما في إنجيل متى ١٩ مرة؛ فما نطق به السيد وما فعله إنما يحقق الرجاء المسياني لشعب اللَّه[1]:

- ❖ جاء يُطهّر هيكله بأورشليم (٢: ١٣-٢٢)؛
- ❖ هو ذاك "الذي كتب عنه موسى والأنبياء" (١: ٤٥؛ تث ١٨: ١٨)؛
- ❖ الذي تحقق فيه قول إشعياء (٣٥: ٥-٦) حيث فتح أعين العميان (٩: ٦)، وجعل الصُم يسمعون والعُرْج يمشون الخ.
- ❖ واهب الحرية (٨: ٣٦؛ إش ٦١: ١)؛
- ❖ النور الحقيقي الذي يُشرق على الجالسين في الظلمة (١: ٥، ٩؛ ٨: ١٢؛ ١٢: ٤٦؛ إش ٩: ١؛ ٦٠: ١)؛
- ❖ ينبوع الحياة الحيّة يُعطى لارتواء شعبه (٧: ٣٧ الخ؛ ص ٤، خر ١٧: ١-٧؛ إش ٥٥: ١؛ ٥٨:

[1] *Nelson: A New Catholic Commentary on the Holy Scripture, 1969, p. 1023.*

١١).

- ❖ الملك الراعي الذي يفتقد شعبه بنفسه (ص ١٠؛ حز ٣٤)؛
- ❖ ديّان الأحياء والأموات، وهو لقب يهودي خاص باللَّه (يو ١١)؛
- ❖ السِفر في مجمله يكاد يردد ما قالته المرأة السامرية: "أنا أعلم أن مسيّا الذي يُقال له المسيح يأتي... ألعل هذا هو المسيح؟!" (٤: ٢٥، ٢٩).

ثالثًا: اتسم هذا السِفر بدعوة السيد المسيح نفسه: "**أنا هو**"، أو تقديم ذاته للبشرية. فإن "أنا هو" في العهد القديم تُشير إلى اللَّه الواحد العامل المخلص (خر ٣: ١٤؛ ١٠: ٢؛ إش ٤٢: ٨؛ ٤٣: ١٠-١١؛ حز ٦: ٧) لذا جاءت كلمات السيد المتكررة في هذا السفر "**أنا هو**" تُعلن شخصه الإلهي كمصدر الخلاص:

"أنا هو خبز الحياة" (٦: ٣٥)؛

"أنا هو نور العالم" (٨: ١٢؛ ٩: ٥)؛

"أنا هو الشاهد لنفسي" (٨: ١٨)؛

"أنا باب الخراف" (١٠: ٧)؛

"أنا هو الراعي الصالح" (١٠: ١١، ١٤)؛

"أنا الكرمة الحقيقية" (١٥: ١، ٥)؛

"إني ملك" (١٨: ٣٧).

رابعًا: الخط الواضح في هذا الإنجيل منذ بدايته حتى نهايته هو تقديم السيد المسيح بكونه الملكوت بعينه، فلم يأتِ بذكر الملكوت إلا مرتين (٣: ٣-٥؛ ١٨: ٣٦) لكنه يُعلن عنه خلال تمتعنا بالمسيح نفسه ملكوتنا الأبدي.

"كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية" (٦: ٤٠)؛

"ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي" (١٤: ٦)؛

"الذي رآني فقد رأى الآب" (١٤: ٩ الخ.)

هذا الخط الواضح في كل السفر قدمته الأناجيل الأخرى كنتيجة نهائية ظهرت في أواخر أيام السيد المسيح على الأرض.

خامسًا: لم يُقدم السيد المسيح كمشرّع لوصايا أو طقوس قدر ما قدم شخصه كسرّ حياة. السيد المسيح هو "الحياة" (١٤: ٦؛ ١: ٤)؛ يُعلن لقطيعه سرّ مجيئه: "أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل" (١٠: ١٠)، "إني أنا حيّ، فأنتم ستحيون" (١٤: ١٩). وقد أكّد لمرثا: "أنا هو القيامة والحياة" (١١: ٢٥)، جاء ليغرسنا فيه كأغصان في الكرمة، فنحمل حياته فينا (١٥: ١–٨).

يتحقق تمتعنا بالسيد المسيح "**الحياة**" خلال التغيير الكامل لطبيعتنا في سرّ المعمودية (٣: ٣–٨)، واتحادنا معه وثبوتنا فيه في سرّ الإفخارستيا (٦: ٥٢–٥٨)، ونوالنا المغفرة المستمرة في سرّ التوبة (٢٠: ٢٣). هذه جميعها تحققت بقوة الصليب واستحقاقات الدم.

سادسًا: مع كل أصحاح يقدم لنا القديس يوحنا شخص يسوع المسيح من زاوية معينة تمس خلاصنا وتشبع كل احتياجاتنا.

❖ من إنجيل يوحنا نتفهم ربنا يسوع المسيح من جهة لاهوته خالق كل الخليقة؛ ومن جهة ناسوته لأجل إصلاح الخليقة الساقطة[1].

القديس أغسطينوس

من هو يسوع؟

يو ١: الكلمة الإلهي المتجسد، واهب سلطان البنوة لله.

يو ٢: ابن الإنسان صاحب السلطان الإلهي، مفرح النفوس ومجددها.

يو ٣: المعلم الإلهي القدير، واهب الميلاد الجديد.

يو ٤: رابح النفوس العجيب.

يو ٥: الطبيب العظيم.

يو ٦: خبز الحياة.

يو ٧: ماء الحياة.

يو ٨: نور العالم.

يو ٩: واهب الاستنارة.

يو ١٠: الراعي الصالح.

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 67:1.*

يو ١١: واهب الحياة والقيامة.

يو ١٢: ملك إسرائيل.

يو ١٣: غاسل الأرجل.

يو ١٤: المعزي السماوي.

يو ١٥: الكرمة الحقيقية.

يو ١٦: مُرسل الروح القدس.

يو ١٧: رئيس الكهنة العظيم.

يو ١٨: المسيا المتألم.

يو ١٩: الملك المرفوض.

يو ٢٠: غالب الموت.

يو ٢١: مقيم النفوس الساقطة ورافعها إلى السماء.

❖ لا تظن (في فهمك لأسرار الثالوث) أنك تفعل شيئًا فوق طاقة الإنسان. فإن الإنجيلي يوحنا نفسه فعل ذلك.

لقد حلق فيما وراء الجسد، وراء الأرض التي وطأ عليها، وراء البحار التي تطلع إليها، وراء الهواء الذي تطير فيه الطيور، وراء الشمس والقمر والكواكب، وراء كل الأرواح غير المنظورة، وراء ذهنه، وذلك بذات نفسه العاقلة، بسموه فوق كل هذه سكب نفسه عاليًا أينما وجد[1].

القديس أغسطينوس

إنجيل يوحنا والآب

إن كان السيد المسيح هو مركز هذا السفر، فقد أكّد الإنجيلي أنه هو كلمة اللَّه الأزلي. جاء إلينا يُعلن لنا عن ذاته ليُمارس العمل المسياني لحسابنا، مقدمًا لنا الخلاص (٢٠: ٤٧)، واهبًا إيّانا الحياة (١٠: ١٠)، بكونه من فوق وفوق الكل (٣: ٣). لكن الإنجيلي **أكّد دور الآب** حتى لا نسقط فيما سقط فيه الغنوسيون، فالابن الواحد مع أبيه بكونه كلمته وابنه في نفس الوقت قد أرسله الآب (٥: ٣٦؛ ٦: ٥٧؛ ١١: ٤٢؛ ٢٠: ٢١). جاء يُعلن كلماته (٣: ٣٤؛ ٦: ٢٩؛ ١٧: ٣)، ويمارس أعماله

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:13.*

(١٠: ٣٦). من يراه يرى الآب، ومن يؤمن به ينظر الآب (٥: ٢٣ الخ؛ ١٢: ٤٤ الخ، ١٤: ٩).

إن كان هذا السفر هو إنجيل المسيّا كلمة اللَّه المخلص، فهو واحد مع أبيه يتمم إرادة الآب التي هي واحدة مع إرادته. هذا ما سنلاحظه بأكثر توسع خلال دراستنا للسفر.

❖ يوحنا مثل نسر يحلق عاليًا ويبلغ إلى الآب نفسه ويقول: "**في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند اللَّه، وكان الكلمة اللَّه**" [١]... شرح الكاتب البتول أسرارًا لم يستطِع المتزوجون أن يقوموا بها[1].

القديس جيروم

إنجيل يوحنا والروح القدس

يسمى البعض هذا السفر: "**إنجيل الروح القدس**"، فقد جاء الحديث عن الروح القدس خلال السفر واضحًا وبقوة.

في حوار السيد المسيح مع نيقوديموس تحدث السيد عن دور الروح القدس في الولادة الجديدة (ص ٣). لقد أوضح الرب الفارق بين الولادة الطبيعية (الجسدية) والولادة الروحية، وكان يصعب حتى على هذا المعلم اليهودي نيقوديموس أن يتفهم عمل الروح القدس، فقدم له السيد مثلاً ملموسًا مشبهًا الروح بالريح التي "تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كل من وُلد من الروح" (٣: ٨).

حديث السيد هنا عن الميلاد بالروح القدس يعتبر أحد معالم إنجيل يوحنا الرئيسية. وقد جاء منسجمًا مع السفر ككل، فإننا لن ندرك لاهوت السيد المسيح بدون الروح القدس، ولا أن نمارس العبادة للَّه بالروح والحق (٤: ٢٤) من عندياتنا، وإنما بروح الرب الساكن فينا.

لقد رأى السيد المسيح الجماهير تمارس العيد بطقوسه دون الشبع الروحي الداخلي، لذا وقف في اليوم الأخير من العيد يَعد بتقديم روحه القدوس كمياه حيّة تنفجر في داخل المؤمنين (٧: ٣٧-٣٩).

وفي حديثه الوداعي (ص ١٤-١٧) لم يجد السيد المسيح ما يقدمه لتعزية تلاميذه قبيل تسليمه سوى الوعد بالروح القدس، بكونه الباراقليط المعزي الذي سلمه السيد المسيح لكنيسته، ليعمل فيها ويُشكّلها على الدوام، فتصير على مثال عريسها:

❖ بكونه المحامي *Advocate* [الترجمة الحرفية للكلمة اليونانية: باراقليط]، هو روح الحق الذي

[1] *Against Jovinianus, 1:26.*

يشهد للسيد المسيح، لا بالكلام النظري، وإنما بكونه يُشكِّل طبيعتنا على صورة السيد المسيح ومثاله.

❖ هو المتحدث في غياب رب المجد يسوع جسديًا (بصعوده إلى السماء)؛ يعلّم التلاميذ ويقودهم ويرشدهم إلى كل الحق ويشهد خلالهم (١٤: ٢٦؛ ١٦: ١٣ الخ).

❖ هو المعزّي (١٦: ٦ الخ.) وسط حملنا صليب رب المجد يسوع.

إنجيل يوحنا والكنيسة

يرى كثير من الدارسين أن الأناجيل المقدسة السابقة قُدمت للعالم، سواء اليهودي أو الروماني أو اليوناني، ليتعرف على السيد المسيح بكونه الملك الروحي والخادم الحقيقي والصديق الفريد لكل البشر، فيتقبل الكل الإيمان به، وينعمون بعمله الخلاصي، فيرتفعون من العبودية إلى البنوة للّه. أما إنجيل يوحنا فكُتِبَ في النهاية للكنيسة، لذا دُعي "**إنجيل الكنيسة**"، يقدم لنا "**مسيح الكنيسة**"، بالرغم من عدم استخدامه لتعبير "الكنيسة".

كأن الفكرة اللاهوتية الرئيسية هنا هي الربط بين السيد المسيح التاريخي كما ظهر في حياته على الأرض، وبين مسيح الكنيسة الحال فيها ليعمل فيها. بمعنى آخر، إن كان السيد المسيح "كلمة اللَّه المتجسد" هو مركز الإنجيل، فإن كنيسته بكرازتها وعبادتها خاصة الأسرار الكنسية تحتل مركزًا رئيسيًا فيه، إذ يحدثنا عن:

١. **إرساليتها** (يو ٤: ٣١ الخ؛ ١٢: ٢٠ الخ).

٢. **عبادتها** "**بالروح والحق**"، حيث انتُزع المجد عن هيكل أورشليم ليُعلن خلال كنيسة المسيح المصلوب القائم من الأموات (١: ١٤، ٥١؛ ٢: ١٣ الخ؛ ٤: ١٩ الخ).

٣. **من جهة أسرار الكنيسة**، نجد القديس يوحنا يعطي أهمية خاصة بالحديث عن الأسرار الكنسية مثل **المعمودية والإفخارستيا والكهنوت**:

- قدم **معمودية يوحنا** كشهادة للمسيح (١: ٨) وطريق تمهيدي لمعمودية المسيح بالروح القدس (١: ١٥، ٢٥: ٢٣).
- في عرس قانا الجليل (٢: ١-١٢)، كان تحويل ماء التطهير اليهودي إلى خمر علامة مسيانية أن ساعته قد جاءت (٢: ٤)، وربما يشير إلى الإفخارستيا.

- تحدث مع نيقوديموس صراحة عن سرّ المعمودية (٣: ١–٧).
- قدم لنا الإنجيلي في صراحة حديثه عن **الإفخارستيا** (٦: ٢٢–٥٩). وفي إشباع الجماهير (٦: ١–١٣) نرى السيد المسيح **مشبع مؤمنيه خلال سرَّ الإفخارستيا في كنيسته.**
- ربما أعلن عن سرّ العماد خلال شفاء مفلوج بيت حسدا (٥: ١–١٤) حيث تُشفى الطبيعة البشرية، وخلال تفتيح عيني المولود أعمى (٩: ١–٧) بغسله في بركة سلوام التي تعني المُرسل.
- نزول الدم والماء من جنب السيد المسيح المصلوب (١٩: ٣٤) يشير إلى وحدة السرّين، أي المعمودية والإفخارستيا، وتكاملهما.
- تحدث عن **سرّ الكهنوت** (٢٠: ٢٢–٢٣).

٤. في الأناجيل السابقة تُقسَّم البشرية إلى صالحين وأشرار، أما هنا فيكتب عن "**مسيح الكنيسة**"، مميزًا بين مؤمنين وغير مؤمنين. بالإيمان لا نُدان (٣: ١٨)، بل ننال الحياة الأبدية (٣: ٣٦)، وننتقل من الموت إلى الحياة، لكنه ليس الإيمان النظري المجرد (١٣: ٣٤–٣٥)، بل الإيمان الحي المرتبط بالحب وحفظ وصايا الرب (٢١: ١٤–٢٤).

٥. **الوعد بالروح القدس في حديث السيد المسيح الوداعي،** بكونه معزي الكنيسة وشفيعها والقائد لها (ص ١٤–١٧).

٦. **قدم المسيح نفسه تكرارًا** "**أنا هو**"، بكونه موضوع حياة ومجد ورجاء في الحياة العتيدة، كما في حياة كنيسته الحاضرة.

إنجيل يوحنا وجامعية الكنيسة

إذ كُتب هذا السفر للكنيسة في العالم كله، حمل فكر "**الكنيسة الجامعة**"، ولم يحدّها بجماعة اليهود. يظهر هذا الفكر واضحًا خلال السفر كله، إذ نجد على سبيل المثال:

١. يقدم المسيح بكونه:

"حمل اللَّه الذي يرفع **خطية العالم**" (١: ٢٩).

"كان النور الحقيقي الذي ينير **كل إنسان** آتيًا إلى العالم" (١: ٩).

"وأما **كل الذين قبلوه** فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد اللَّه، أي المؤمنون باسمه" (١: ١٢).

"هكذا **أحب اللَّه العالم** حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة

الأبدية" (٣: ١٦).

"وأنا إن ارتفعت عن الأرض **أجذب إليَّ الجميع**" (١٢: ٣٢).

"أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط، بل **ليجمع أبناء اللَّه المتفرقين** إلى واحد" (١١: ٥١-٥٢).

"لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني: أن **كل من يرى الابن** ويؤمن به تكون له حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (٦: ٤٠).

"لي خراف أخر **ليست من هذه الحظيرة**، ينبغي أن آتي بتلك أيضًا، فتسمع صوتي، وتكون رعيّة واحدة وراعٍ واحدٍ" (١٠: ١٦).

"لست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضًا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم، ليكون **الجميع** واحدًا" (١٧: ٢٠-٢١).

"طوبى **للذين آمنوا** ولم يروا" (٢٠: ١٩).

٢. **ظهرت جامعية الكنيسة من رفض اليهودية**، وطن المسيح، لمخلصها، ورغبتها في قتله (٤: ٣، ٤٤، ٧: ١-٨؛ ١١: ٧-١٦). لقد صارت أورشليم عاصمة إسرائيل ومدينة المسيّا (١٢: ١٢-١٩)، مدينة عدم سلام (١: ١٩ الخ، ٥: ٢٣). الرب يرفض هيكلها (٨: ٥٩)، وينطلق من أسوارها إلى الجلجثة (١٩: ١٧).

٣. عِوَض "**هيكل أورشليم**" بيت أبيه (٢: ١٦) المجيد (١٢: ١٤)، والذي يأتي منه الخلاص (٤: ٢٢)، يعلن مجد **هيكل جسده** (٢: ٢٣ الخ) المقدم سرّ قيامة لكل البشرية.

٤. تحول المدينة الهرطوقية "السامرة" إلى موضع للعبادة بالروح والحق (٤: ٢٣ الخ).

٥. الحقول المبيضة للحصاد تشير إلى الحصاد المقبل، رمز العالم غير اليهودي.

٦. إذ يكتب الإنجيلي للكل حتى غير اليهود يقدم تفسيرًا للكلمات: *Rabbi* ١: ٣٨، مسيا (١: ٤١)، قيافا (١: ٤٢). كما يوضح طرق اليهود في التطهير (٢: ٦)، وفي الدفن (٩: ٤٠)، وعلاقتهم بالسامريين (٤: ٩)، والفصح كعيدٍ يهودي (٦: ٤). نجده أيضًا يقدم شرحًا جغرافيًا لبيت حسدا (٥: ٢) وبلاط بيلاطس بنطس الذي يدعى بالعبرانية جباثا (١٩: ١٣)... هذا كله يكشف أنه يكتب للناطقين باليونانية في أفسس سواء كانوا من أصل يهودي أو أممي، مؤمنًا بالكنيسة الجامعة التي لا

تحد بالشعب اليهودي.

إنجيل يوحنا والحياة الانقضائية (الأخروية)

بينما توجه الأناجيل الإزائية إلى ملكوت الله الذي يتحقق بالأكثر في الأيام الأخيرة حيث مجيء المسيح الثاني القريب، إذا بالإنجيلي يوحنا يؤكد أن المؤمن يدخل إلى الحياة الأبدية خلال حياته اليومية.

لم يصف لنا هذا الإنجيل انقضاء الدهر ونهاية العالم، أو مجيء السيد المسيح الأخير للدينونة، لكنه كشف عن الحياة الانقضائية خلال العمل الخلاصي الذي نتمتع به بالصليب، فنتذوق الحياة الأبدية خلال عربونها هنا، ونختبر أمجادها كحياة تمارس هنا:

- إعلانه عن مجد المسيح (١: ١٤؛ ٢: ١١؛ ١١: ٤، ٤٠)، إنما يدخل بالكنيسة إلى تذوق عربون الحياة الأبدية التي فيها نرى السيد في كمال مجده ونتعرف على أسراره.
- الخلاص في حقيقته هو ارتفاع فوق الزمن، وغلبة على الموت، خلال الإيمان العامل، إذ يقول: "الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة" (٥: ٢٤).
- تتحقق الحياة الانقضائية بالنسبة لنا خلال ما نلمسه من الآتي:

أ. أن رئيس هذا العالم قد دين (٣: ١٨-١٩).

ب. أن رئيس هذا العالم يطرح خارجًا (١٢: ٣١؛ ١٦: ٣٣).

- يعلن الإنجيلي أن ملء الزمان قد جاء والتاريخ قد تم خلال موت السيد المسيح على الصليب.

من يتذوق "إنجيل يوحنا" يجد نفسه قد ارتفع إلى الحياة الانقضائية فعلاً – خلال عربونها – فيشاهد في أعماقه المسيح الممجد، ويختبر الغلبة الحقيقية على الموت كما على محبة هذا العالم، وعلى عدو الخير إبليس الذي تسلط على العالم زمانًا، والآن قُيّد وطرح خارجًا، ليس له موضع في داخلنا. صليب ربنا يسوع المسيح دخل بنا إلى هذه الخبرة السماوية الحية.

❖ ألا ترون أنه ليس بدون سبب يتحدث هذا الإنجيلي إلينا من السماء؟ انظروا كيف أنه منذ البادية يسحب نفوسنا ويهبها أجنحة ويصعد بأذهان سامعيه معه. إذ يصعد بها إلى ما هو أعلي من كل المحسوسات، أعلي من الأرض والسماء، ويمسك بيدها ويقودها فوق الملائكة أنفسهم، فوق

الشاروبيم والسيرافيم، فوق العروش والرؤساء والسلاطين؛ وفي اختصار يقودها إلى رحلة تعبر فوق كل المخلوقات[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ظن *C.H. Dodd*[2] أن يوحنا أراد تصحيح مفهوم النظرة الكنسية الاسخاتولوجية (الانقضائية)، فقدم "إسخاتولوجي محقق *realized eschatology*"، بمعنى أن الإسخاتولوجي هو حقيقة حاضرة أكثر منه مجرد رجاء مستقبلي. لكن الدارسين رفضوا هذا كغاية رئيسية للإنجيل، خاصة وأن السفر مع تقديمه للحياة الأخروية كحياة تُختبر في الحاضر خلال عربونها لم يتجاهل الحياة الأبدية الأخروية المستقبلية (٥: ٢٥-٢٩)، إنما يسير الاتجاهان جنبًا إلى جنب[3].

إنجيل يوحنا والآيات

نجد في الأناجيل السابقة فيضًا من الآيات التي صنعها السيد المسيح، خلالها يعلن حنانه الإلهي ومحبته الفائقة للبشر، والرسول هنا بالرغم من معرفته لآياتٍ كثيرة صنعها رب المجد لكنه انتقى منها سبع آيات (والبعض يعتبرها ثمان آيات) ليعرضها في إنجيله، فنتقبل الإيمان بالسيد المسيح. إذ يقول: "وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب، وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن اللَّه، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياه باسمه" (٢٠: ٣٠-٣١). "وأشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبت واحدة واحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة" (٢١: ٢٥).

واضح إذن أن السيد قدم آيات ليدخل بنا إلى الإيمان، فننعم بالحياة الأبدية، الأمر الذي لمسه نيقوديموس، فقال: "ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن اللَّه معه" (٣: ٢). كما أكد السيد المسيح نفسه: "لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب" (٤: ٤٨). فقد أشهد هذه الآيات ضد الجاحدين، قائلاً: "لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية" (١٥: ٢٤).

لقد أدرك رؤساء الكهنة والفريسيون دور هذه الآيات في حياة الناس، إذ قالوا: "ماذا نصنع، فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة، إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به؟!" (١١: ٤٧-٤٨).

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 2:8.*
[2] *The Apostolic Teaching and its Development, 1944, p. 65 ff.*
[3] *Cf. L. van Hartingsveld: Gie Eschatologie des Johannesevangeliums, 1962.*

المعجزة	المعنى
١. تحويل الماء خمرًا ٢: ١–١١.	تجديد الطبيعة البشرية واتسامها بالفرح الأبدي.
٢. شفاء ابن الغني ٤: ٤٧–٥٤.	الإيمان شرط الحياة الأبدية.
٣. شفاء مفلوج بيت حسدا ٥: ١–٩.	قوة الحياة الجديدة.
٤. إشباع الجموع ٦: ١٤–١ (مت ١٤: ١٣–٢١؛ مر ٦: ٣٢–٤٤؛ لو ٩: ١٠–١٧).	المسيح الخبز الحي.
٥. المشي على المياه ٦: ١٥–٢١ (مت ١٤: ٢٢–٣٦، مر ٦: ٤٥–٥٦).	المسيح قائدنا في الطريق الملوكي.
٦. شفاء المولود أعمى ٩: ١–٤١.	المسيح نور الحياة.
٧. إقامة لعازر ١١: ١–٤٤.	المسيح قيامتنا غالب الموت.
٨. صيد السمك ٢١: ١–١٤.	الشركة الكاملة في الحياة الجديدة.

قانونية السفر

قبلت الكنيسة الجامعة هذا الإنجيل سفرًا قانونيًا منذ البداية ولم يلحق ذلك أدنى شك. فقد جاءت الشهادات الكنسية، حتى من الهراطقة والوثنيين تنسب السفر للقديس يوحنا الرسول، منذ بدء القرن الثاني، أي بعد كتابته بفترة وجيزة، ولم يشذ عن ذلك سوى جماعة الألوجين "*Algi*" كما أشار **القديس أبيفانيوس**[1]، الذين رفضوا السفر لتعارضه مع عقيدتهم في اللوغوس *Logos*. ولا يُعرف إن كان الألوجيون هؤلاء هم جماعة أم مجرد شخص، لكن على أي الأحوال لم يكن لهم صوت مسموع في العالم أو في الكنيسة.

أولاً: شهادة الكنيسة الجامعة والهراطقة

جاء إنجيل يوحنا ضمن المخطوطات اليونانية القديمة الخاصة بالعهد الجديد كالنسختين السينائية والفاتيكانية، المنسوختين عن أقدم منهما. كما جاءت المخطوطات الخاصة بالترجمة للعهد الجديد

[1] *Adv. Haer. 2:31.*

والتي ترجع أحيانًا للقرن الثاني أو الثالث مثل السريانية واللاتينية تضم هذا السفر. أما عن شهادة **آباء الكنيسة الأولي،** فلا نجد بينهم صوتًا يتشكك في قانونيته أو نسبته لغير القديس يوحنا، نذكر على سبيل المثال:

- ❖ **القديس إيرينيؤس أسقف ليون** في القرن الثاني، بنى دفاعه ضد الغنوسيين على إنجيل يوحنا، وشهد أن الأناجيل القانونية أربعة، كما شهد أن القديس يوحنا قام بنشره في أفسس[1].
- ❖ اقتطف بعض الآباء عبارات مباشرة من هذا السفر، أو استخدموها دون ذكر النص، كما جاء في رسالة **برناباس،** كتاب الراعي **لهرماس،** وفي **بابياس، وإكليمنضس الروماني، والقديس يوستين الشهيد، وثاوفيلس الأنطاكي، والقديس أغناطيوس الأنطاكي، والقديس بوليكربس، والعلامة ترتليان، والعلامة أوريجينوس، والقديس إكليمنضس الإسكندري.**
- ❖ جاءت شهادة وثيقة موراتورى *Muratorian Canon* في القرن الثاني (حوالي ١٧٠–٢٠٠ م) عن كاتب السفر أنه القديس يوحنا، لها قوتها.
- ❖ اقتبس **تاتيان** تلميذ القديس يوستين الكثير من هذا السفر، وبدأ عمله "الدياتسرون *Diatessaron*" بافتتاحية إنجيل يوحنا.
- ❖ اقتبس منه الكثير من الهراطقة مثل هيراكليون ومعلمه فالنتينوس وباسيليدس (سنة ١٢٥م)، وأيضًا الكتابات الغنوسية مثل إنجيل الحق.

ثانيًا: شهادة الوثنيين

استمد الفيلسوف الوثني صلسس، عدو المسيحية، في كتابه ضدها حوالي سنة ١٧٨م المادة التي هاجم بها من الأناجيل الأربعة، ويذكر تفاصيل لم ترد إلا في إنجيل يوحنا.

اعتراضات على نسبته للقديس يوحنا

ناقش كثير من النقاد والدارسين موضوع نسبة هذا السفر للقديس يوحنا بن زبدي، وقدموا نظريات كثيرة ومعقدة، إذ حاول البعض نسبة هذا السفر للكنيسة الرسولية ككل وليس لشخصٍ معينٍ، وافترض البعض أن السفر بصورته هذه من وضع كاتب في القرن الثاني كما لاحظنا في تعليقنا على مدى

[1] *Adv. Haer. 3:1:1.*

ارتباط السفر بالغنوسية، وحاول البعض تأكيد أن الكاتب ليس يهوديًا. وقد قدم لنا *E. Haenchen* ملخصًا للمشاكل النقدية الخاصة بهذا الأمر منذ عام ١٩٢٩ حتى الخمسينات[1].

فيما يلي موجز للرد على المعترضين على نسبة هذا السفر للقديس يوحنا:

تلميحات في السفر عن شخصية كاتبه

إن كان الإنجيلي لم يذكر اسمه في السفر، لكنه قدم تلميحات عن شخصيته منها يمكن التعرف عليه، ألا وهي:

ا- أنه شاهد عيان

في مقدمة السفر يقول الإنجيلي: "رأينا مجده" (١: ١٤). حاول البعض تفسير صيغة الجمع "رأينا" بمعنى أنه يقصد المسيحيين جميعًا، وليس الكاتب، فتكون الرؤيا هنا بالمعنى الروحي لا المادي، بهذا يكون كاتب السفر هو "الكنيسة الرسولية" وليس شاهد عيان[2]. هذا الفكر لم يقبله كثير من الدارسين، خاصة وأن الفعل اليوناني يعني الرؤيا الجسدية لا الروحية، حتى وإن فسرت بالرؤيا الروحية[3]. في أكثر من موضع يؤكد أنه شاهد عيان يكتب ما هو حق:

"**الذي عاين شهد وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم**" **(١٩: ٣٥)**.

"**هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا، ونعلم أن شهادته حق**" **(٢٤: ٢١)**.

واضح أن كاتب السفر "**تلميذ**"، "**شاهد عيان**"، هذا ينطبق على القديس يوحنا، الذي حمل ذات اللهجة في مقدمة رسالته الأولى: "الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه، ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة، فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية..." (١ يو ١).

ب. التلميذ المحبوب

من الشهادات الداخلية في السفر أن الكاتب هو القديس يوحنا تلقيب نفسه في تواضعٍ، بعدم ذكر اسمه: "**التلميذ الذي كان يسوع يحبه**" (٢١: ٢٠، ١٩: ٢٦). حاول البعض النقاد المحدثين التشكيك في هذا الأمر، وقد اختلفوا في تحديد شخصية هذا التلميذ، إذ قيل:

---

[1] *Theologische Rundschau, n.f., 1955, p.295-335.*
[2] *C.K. Barett: The Gospel According to St. John, 1956, p.138.*
[3] *Guthrie,, p. 242.*

١. **الشاب الغني**، الذي قيل عنه إن يسوع نظر إليه وأحبه (مر ١٠: ٢١). وإذ ليس لدينا أية أدلة إنجيلية أو تقليدية أنه عاد وآمن بعد تركه للسيد المسيح، يُحسب هذا الرأي بلا قيمة.

٢. **نثنائيل**: يُرد على ذلك أننا لا نعرف عنه إلا القليل، هذا ومن جانب آخر حين تحدث عنه الإنجيلي ذكره بالاسم (٢١: ٢) في نفس الأصحاح الذي قيل فيه: "التلميذ الذي كان يسوع يحبه" (٢١: ٢٠). فما قيل أخيرًا قُصد به تمييزه عن نثنائيل.

٣. **لعازر**[١]، إذ أرسلت أختاه إلى رب المجد تقولان: "يا سيد هوذا الذي تحبه مريض" (١١: ٣). يرد على ذلك بأن لعازر لم يكن مع السيد المسيح في العلية ليتكئ على صدره، إذ قيل: "ونظر التلميذ الذي كان يسوع يحبه يتبعه، وهو أيضًا الذي اتكأ على صدره وقت العشاء" (٢١: ٢٠). واضح من الأناجيل الثلاثة الأخرى أن السيد انفرد برسالة وقت العشاء. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الإنجيلي قد كرر اسمه في الأصحاحين ١١، ١٢، فلماذا يعود ويخفي اسمه؟!

٤. رأى البعض أن هذا اللقب لا يعني شخصًا معينًا بل يحمل **رمزًا**، وبهذا يكون الكاتب للسفر هو الكنيسة كجماعة وليس فردًا. هذا الفكر غير مُشبِع ويصعب قبوله، وإذ يجعل من هذا التلميذ ليس شخصية تاريخية شاهدة عيان، الأمر الذي يتنافى مع ما قدمه السفر عنه[٢].

هذا عن الاعتراضات أما الدلائل الإيجابية على أن التلميذ الذي كان يسوع يحبه هو القديس يوحنا فهي:

١. جاءت كتابات آباء الكنيسة منذ القرن الثاني تتحدث عن التلميذ الذي كان يسوع يحبه أنه يوحنا بن زبدي، كأمرٍ لا يحتاج إلى تساؤل، وأنه هو واضع السفر، وقد لاحظ *M.F. Wiles*[٣] أن **العلامة أوريجينوس والقديس يوحنا الذهبي الفم** وجدا في هذا الوصف: "التلميذ الذي كان يسوع يحبه" مفتاحًا للكشف عن غاية السفر.

٢. أنه أحد تلاميذ السيد المسيح كما يشهد السفر نفسه ملقبًا إياه "التلميذ" (٢١: ٢٠)، خاصة

---

[١] دافع *J.N. Senders* عن هذا الرأي في مواضعٍ كثيرة، منها:
B.A. Mastin: The Gospel According to St. John, 1986.
تبعه كل من *E.F. Harrison* و *F.V. Fison.*

[2] *Cf. Correll: Consummatum Est, 1958, p. 204 ff.*
[3] *M.F. Wiles: The Spiritual Gospel, 1960, p. 9 ff.*

وأنه اتكأ على صدر السيد المسيح وقت العشاء (٢١: ٢٠).

٣. يرى بعض الدارسين أنه أحد ثلاثة من التلاميذ الذين كانوا من خاصة السيد، رافقوه دون البقية في مواقف كثيرة[١]، ولما كان يعقوب قد استشهد في سنه ٤٤ م، يبقى بطرس ويوحنا، وإذ قيل عنه أنه كان في رفقة بطرس (٢٠: ٢ الخ.) إذن لن يكون إلا يوحنا.

٤. ذُكر القديس يوحنا بالاسم في الأناجيل الأخرى: مرتين في متى، ٩ في مرقس، ٦ في لوقا، ولم يذكر بالاسم قط في هذا السفر. واضح إذن أنه شخص يوحنا، وقد امتنع عن ذكر اسمه من قبيل التواضع.

٥. كان هذا التلميذ ملاصقًا للقديس بطرس كما جاء في (٢١: ٧؛ ٢٠: ٢). المرة الوحيدة التي ظهر فيها في هذا السفر دون بطرس الرسول هي عندما تسّلم من السيد المسيح المصلوب والدته أمًا له (١٩: ٢٦)، فمن هو هذا التلميذ المرافق للقديس بطرس؟ بلا شك هو يوحنا بن زبدي، إذ وُجد معه ومع يعقوب دون سائر التلاميذ في مواضع كثيرة كما سبق فرأينا (راجع مر ٥: ٣٧؛ ٩: ٢؛ ١٤: ٣٣). اختارهما السيد المسيح ليعدا له الفصح (لو ٢٢: ٨). وكانا ملازمين بعضهما البعض حتى بعد قيامة السيد المسيح (أع ٣: ١؛ ٤: ١٣). أُشير إليهما في أع ٨: ١٤ كمندوبين مُرسلين من أورشليم إلى السامرة. إذ أشار الرسول بولس إلى أعمدة الكنيسة ذكر يعقوب وصفا (بطرس) ويوحنا (غلا ٢: ٩). هذه دلائل على أن التلميذ الذي كان يسوع يحبه، وكان مرافقًا للقديس بطرس هو القديس يوحنا.

٦. لاحظ بعض الدارسين أن هذا السفر حين تحدث عن القديس يوحنا المعمدان، اكتفى بذكر اسمه "يوحنا" دون ذكر أي لقب آخر له، وهذا يسند بقوة الفكر الكنسي بأن الكاتب هو القديس يوحنا بن زبدي، الذي أصرّ ألا يذكر اسمه في السفر فلم يجد حاجة ليميز بين نفسه وبين يوحنا المعمدان بلقبٍ معين.

ج. الخلفية الفلسطينية

يتساءل البعض، إن كان الكاتب يوحنا بن زبدي، فهل يحمل السفر دلائل على أن الكاتب يهودي عاش في فلسطين، وكان شاهد عيان للسيد المسيح، أم أنه أحد رجال القرن الثاني من أنطاكية أو

[١] راجع حديثنا في هذا المقال عن شخصية يوحنا.

الإسكندرية؟

جاءت إجابة الدارسين أن السفر يحمل دلائل كثيرة وشهادات على أن كاتبه عاش في فلسطين في القرن الأول، وأنه يهودي، منها:

١. معرفته للعادات والتقاليد اليهودية

كثيرًا ما يقدم لنا تفاصيل دقيقة عن الحياة اليهودية وتقاليدها في فترة ما قبل خراب أورشليم، مثل:

- طقوس التطهير [٢: ٦].
- طقوس عيد المظال [٧: ٣٧؛ ٨: ١٢ (الإنارة)].
- التطهير في عيد الفصح [١٨: ٢٨؛ ١٩: ٣١–٤٢].
- تعاليم اليهود الخاصة بهم، كالشريعة الخاصة بالسبت [٥: ١٠؛ ٧: ٢١–٩: ١٤، ٢٣ الخ.]
- معرفته انتظار اليهود لنبي بروح إيليا (١: ١٩–٢٨)، وإدراكهم أن المسيح يبقى إلى الأبد (١٢: ٣٤).

٢. معرفته للتاريخ اليهودي

يعرف بوجه الدقة السنوات التي تم فيها بناء الهيكل (٢: ٢٠)، والعداوة التي كانت قائمة بين اليهود والسامريين (٤: ٩)، وأن رئيس الكهنة عن نفس السنة التي صُلب فيها السيد (١١: ٤٩، ١٨: ١٣ الخ) هو قيافا وحماه هو حنَّان.

٣. معرفته لجغرافية فلسطين

للكاتب معرفة دقيقة بفلسطين، فيعرف الاسم العبراني لبركة بجوار باب الضأن، ويعرف أن لها خمسة أروقة. يعرف وجود قريتين باسم "بيت عنيا" (١٢: ١؛ ٢٨: ١)، و"عين نون" بقرب ساليم (٣:٢٣)، وأن بحر الجليل هو بحيرة طبرية (٤: ٢١)، ومدينة أفرايم بالقرب من البرية (١١:٥٤).

٤. حمل طابع اللغة العبرية

وإن كان قد كتب إنجيله باليونانية لكنه حمل طابع اللغة العبرية. إذ لا يقدر الكاتب أن يتخلص من لغته الأصلية. يظهر ذلك في الألفاظ التي استخدمها والعبارات نفسها، واهتمامه بالأرقام.

٥. ذكره تفاصيل لم ترد في الأناجيل الثلاثة الأخرى، لا يذكرها إلا من كان شاهد عيان وتعرّف على الأشخاص بأسمائهم، مثل:

- الحديث التفصيلي مع نيقوديموس (ص ٣).
- الحديث مع مريم ومرثا (ص ١١).
- حديثه عن ملخس (١٨: ١٠).
- الحديث مع حنَّان وقيافا (١٨: ١٩-٣٢).
- الحديث مع النسوة عند القبر (٢٠: ١٥-١٧).
- الحديث مع القديسة مريم عند تسليمها له عند الصليب (١٩: ٢٦-٢٧).
- الحديث مع بطرس ويوحنا نفسه بعد القيامة (٢١: ٥-٢٣).

أيضًا سجل تفاصيل دقيقة للأحداث لا يكتبها إلا من كان شاهد عيان، كذكر عدد الأجران أنها ستة (٢: ٦)، وانطلاق التلاميذ بعيدًا عن البر نحو مائتي ذراع (٢١: ٨)، وكان عدد السمك مئة وثلاثًا وخمسين (٢١: ١١). وأيضًا ذكره أن الخبز كان من الشعير (٦: ٩)، وأن الرائحة ملأت البيت (١٢: ٣)، وتأثر الجند عند القبض على السيد (١٨: ٦)، ووزن الحنوط التي استخدمت في التكفين (١٩: ٣٩).

وصفه بدقة انفعالات التلاميذ (٢: ١١ الخ؛ ٤: ٢٧؛ ٦: ١٩؛ ١٢: ١٦؛ ١٣: ٢٢ الخ) وتأثر السيد المسيح (١٣: ١؛ ٦: ١٥، ٦١؛ ٢: ١١، ٢٤)...

هذه وغيرها من تفاصيل كثيرة تؤكد أنه كان شاهد عيان لما كتبه في السفر.

الإنجيل بحسب يوحنا وصياد السمك

يعترض بعض الدارسين على نسبة هذا السفر للقديس يوحنا بالقول: **هل من المعقول أن يكتب صيّاد أمي مثل هذا الإنجيل، وهو من أرفع ما كتب الفلاسفة الصوفيون، بإعجاز من "السهل الممتنع" الذي لا مثيل له؟!**[1]

يُرد على ذلك:

أولاً: إن كان الرسول أميًا، فإننا نؤمن بأن الكتاب المقدس كله مُوحى به من الروح القدس (٢ بط ١: ٢١)، الذي وإن كان لا يفقد العنصر الإنساني لكنه يقدسه ويرفعه ويهبه إمكانيات فائقة، ويحوط به كي لا يخطئ.

[1] دراسات إنجيلية: مصادر الوحي الإنجيلي ٤، صوفية المسيحية ١، ص ٧٠ الخ.

ثانيًا: أن القديس يوحنا الرسول كان بالحق أهلاً لكتابة هذا "**الإنجيل الروحي**" الفائق، من جهة:

١. لم يكن أميًا كما ظن كثيرون، إذ لم يكن مجرد صيّاد سمك، لكنه كان تاجر سمك ولدى والده أجراء يعملون لحسابه. كإنسان غني، في ذلك الحين، فالاحتمال الأكبر أنه كان محبًا للعلم والمعرفة، وكعادة اليهود يمارسون حرفة معينة كصيد السمك، إذ كان لكل يهودي حرفته، كما كان شاول الطرسوسي يمارس حرفة صنع الخيام (أع ١٨: ٣).

٢. نحن نعلم أن كلمة الله مقدمة للبشرية كلها للمبتدئين كما للكاملين، كما يظهر من كلمات الرسول بولس: "نتكلم بحكمة بين الكاملين" (١ كو ٢: ٦)، "وأما الطعام القوي فللبالغين" (عب ٥: ١٤). إن كان الإنجيليون الثلاثة القديسون متى ومرقس ولوقا قدّموا كلمة الله للبسطاء، يمكننا القول بأن الإنجيلي يوحنا أحد الثلاثة المقربين للسيد الذين اختارهم ليصحبوه في الأحداث الجسام التي تكشف عن سرّ شخصيته وسرّ رسالته، التلميذ الذي "كان يسوع يحبه"، الذي تمتع بالاتكاء على صدر الرب (٢١: ٢٠) أن يختص بالكتابة للكاملين. كأن الأناجيل الثلاثة الأولى تمثل الدعوة الأولى لقبول الإيمان بالسيد المسيح بكونه المسيا المخلص، خادم البشرية، وصديقها الإلهي، أما هذا الإنجيل فيمثل التعليم التكميلي للبالغين في الإيمان. إنه "**الإنجيل الروحي**" مُقدم للمؤمنين الذين تأصلوا في المسيحية، يرتفع بهم لينعموا بالأسرار الإلهية الفائقة.

ثالثًا: رأينا مدى ارتباط هذا السفر بالعهد القديم، فقد أبرز أنه حمل الله الحقيقي، لا الفصح الرمزي، فيه تحققت النبوات. كما أبرز حوار السيد المسيح مع اليهود ليعلن عن نفسه انه أعظم من إبراهيم وموسى... هذا يناسب يوحنا كرجلٍ يهودي دخل إلى الأسرار الإلهية، مشتاقًا أن يتمتع كل يهودي كما كل أممي بمن هو "موضوع النبوات".

رابعًا: رأينا أيضًا أن هذا السفر لا يحمل غنوسية هيلينية كما ادَّعى كثير من الدارسين قبل اكتشاف المكتبة الغنوسية بنجع حمادي، إنما في أسلوبه يتشابه مع كتابات الجماعة الأسينية *Essene* أو رهبان أهل قمران اليهود كما كشفت ذلك مخطوطاتهم التي ظهرت إلى النور حوالي عام ١٩٤٧. هذا يناسب شخصية القديس يوحنا الرسول الذي تتلمذ على يدي القديس يوحنا المعمدان ساكن البرية، وقد عرف الكثير عنهم بحكم الجوار. كان الأسينيون يتطلعون إلى الدين بنظرة روحية صوفية (باطنيّة *mystical*) رمزية أكثر منها حسية، تدور حياتهم حول الصراع بين النور والظلمة، وبين الحق والباطل... وكأن القديس يوحنا جاء يعلن لهم أنه قد وجد من يحقق لهم شهوة قلوبهم، لا

من يدخل بهم إلى معرفة النور والحق، وإنما يقدم نفسه لهم بكونه "النور الحقيقي"، و"الحق"، خلاله نستنير وننعم بالحق!

أقسامه

اتفق الدارسون على أن هذا السفر يمتاز بتقسيمه الدقيق الهادف، وإن كانوا قد اختلفوا فيما بينهم بخصوص التقسيم، نذكر على سبيل المثال التقسيم الذي رآه *D. Mollat*، وهو أن السفر بعد المقدمة ينقسم إلى تسعة أقسام حسب الليتورجيات الخاصة بالأعياد اليهودية الرئيسية:

ا. **مقدمة السفر**	ص ١: ١–١٨.
ب. الأقسام التسعة	
١. الأسبوع الأول من الخدمة المسيانية	ص ١: ١٩– ص ٢: ١١.
٢. الفصح الأول	ص ٢: ١٢– ص ٤.
٣. السبت	ص ٥.
٤. الفصح الثاني	ص ٦.
٥. عيد المظال	ص ٧– ص ١٠: ٢١.
٦. عيد التجديد	ص ١٠: ٢٢– ص١١: ٥٤.
٧. الفصح الثالث	ص ١١: ٥٥– ص ١٩: ٤٢.
٨. القيامة	ص ٢٠.
٩. ظهورات المسيح المقام	ص ٢١.

غير أن التقسيم السائد بالأكثر هو الذي رآه *A. Feuillet*، *C.H. Dodd*، *R.E. Brown*، وهو عبارة عن قسمين رئيسيين مع مقدمة وخاتمة:

ا. المقدمة	ص ١: ١–١٨.
ب. **كتاب الآيات**	ص ١: ١٩– ص ١٢.
ج. **كتاب الآلام**	ص ١٣– ص ٢٠.
د. الخاتمة	ص ٢١.

يرى *Feuillet* أن السفر في مجمله يحمل أمرين، هما إعلان السيد المسيح، واحتماله الآلام حتى

الموت من أجل هذا الإعلان، بهذا يمكن تقسيم السفر هكذا:

الكتاب الأول: كتاب الآيات

١. إقامة عهد جديد بالمعمودية وإرسال الروح القدس	ص ١: ١٩– ص ٤: ٤٢.
٢. إعلانه عن نفسه أنه مع الآب مصدر الحياة	ص ٤: ٤٣– ص ٥: ٤٧.
وأنه خبز الحياة	ص ٦.
وأنه نور العالم	ص ٧–١٢.

الكتاب الثاني: كتاب الآلام

١. إعلانه عن نفسه لتلاميذه بالحب والتعزية والاتحاد	ص ١٣– ص ١٧.
٢. الآلام طريق تأسيس الكنيسة	ص ١٨– ص ١٩.
٣. القيامة وارتباطها بحلول الروح القدس	ص ٢٠، ٢١.

يمكننا تقديم التقسيم التالي لتسهيل الدراسة:

أولاً: مقدمة: الكلمة المتجسد	**ص ١: ١–١٨.**
ثانيًا: آياته وأعماله تعلن عن لاهوته	**ص ١: ١٩– ص ١٢.**
ثالثًا: إعلانه عن ذاته لخاصته	**ص ١٣– ص ١٧.**
رابعًا: ابن الله الذبيح	**ص ١٨– ص ١٩.**
خامسًا: قيامته تشهد للاهوته	**ص ٢٠.**
سادسًا: خاتمة	**ص ٢١.**

من وحي إنجيل يوحنا

هب لي أن أُحلِّق مع نسورك في سمائك!

❖ اسمح لي مع حبيبك يوحنا أن أتكئ على صدرك،
وأرافقك حتى الصليب.
وأتسلّم منك أمك أمًا لي.
نعم، هب لي جناحيّ الروح فأصير معه كالنسر،
أطير في سمائك، فأتمتع بشركة أمجادك.
أعيش مع ملائكتك،
فأتعرف على أسرارك الإلهية خبزًا سماويًا مشبعًا لأعماقي!

❖ هب لي أن أنطلق بفكري إلى الأزلية،
هذه التي لن يدركها كائن سماوي أو أرضي.
أقف لأتمتع بسرّ ولادتك الأزلية،
تشرق عليّ يا كلمة اللَّه مع أبيك وروحك القدوس،
فتمتلئ نفسي من بهاء الثالوث.
أطأ ظلمة العالم حتى قدميّ،
وأحلق في هذا البهاء العجيب!

❖ تجسدت من أجلي يا من وهبتني الحياة،
وأنرت عليّ فلا أعود بعد أُحسب من هذا العالم،
بل أتمتع بالبنوة الإلهية بنعمتك،
أصير ابنًا للَّه، فلا يجد العالم له موضعًا في داخلي!

❖ ليحملني روحك القدوس إلى أسرار إنجيلك.
أراك ملكًا معلقًا على الصليب!
لست أطلبك لتملك كما طلبتك بقية الجماهير،
وإنما تُقيم عرش ملكك في أعماقي فأعتزّ به.

لن أدخل بعد في مجادلات فلسفية،
فقد عرفتك أنت المسيح الملك واهب الملوكية.
أراك ملك الملوك تهب الحياة الملوكية.

❖ أنت حمل اللَّه حامل خطايا العالم!
ارتفعت على الصليب، فصالحتنا مع أبيك.
اجتذبتنا إليك، لنحمل برَّك عِوض خطايانا.
بسطت يديك، لتضم اليهود والسامريّين والأمم معًا فيك.
بصليبك سكبت الحب فينا، يا أيها الحب الحقيقي،
صرنا أيقونة لك لن نقدر أن نفارق الحب ولا هو يفارقنا.
نلنا شركة طبيعتك، فجرى الحب في عروقنا.
لن تستطيع الكراهية أو الحقد أو الحسد أن يتسلل إلينا.

❖ هب لي مع عروسيّ قانا الجليل أن أشرب خمر حبك.
هب لي مع نيقوديموس أن اكتشف سرّ الميلاد الجديد.
هب لي مع السامرية أن أشرب من ينابيع روحك القدوس.
هب لي مع المولود أعمى البصيرة فأراك داخلي.
هب لي مع مريض حسدا أن أثبّ متهللاً،
أذهب إلى بيتي الحقيقي، أحضانك الإلهية.

❖ لأسمعك وأنت تكشف لي عن ذاتك.
لكلمتيك "أنا هو" عذوبة خاصة، فأنت يهوه الكائن فيّ!
حسب وعودك اسمعني صوتك، قائلاً:
أنا هو الخبز السماوي، من يأكلني يتمتع بالوليمة الأبدية.
أنا هو الحياة، بدوني لا وجود لك.
أنا هو نور العالم، أشرق عليك فتختبر نور الأبدية.
أنا هو الحق، أدخل بك إلى الأسرار الإلهية.

أنا هو القيامة، لن يقدر الموت أن يسبيك بعد!
أنا هو الباب، أدخل بك فيّ لتبلغ إلى أحضاني.
أنا هو الراعي الصالح، أحملك على منكبيّ بكل ضعفاتك!
أنا هو الكرمة الحقيقية، لتثبت فيّ وأثبت فيك!

❖ اسمح لي أن أرافقك في العُليّة، كما في بستان جثسيماني،
وأنطلق معك حيث تُحاكم وتُصلب،
وأجلس عند القبر أترقب قيامتك.
لتُظهر ذاتك لي، وتُشرق بقيامتك في داخلي!
نعم أبقى كل أيام غربتي أتأمل كل لحظة من لحظات عملك العجيب.
تبقى هذه الأحداث موضوع تسبيحي مع كل صفوف السمائيين.
لك المجد يا أيها الحب الحق، والحق واهب الحب والحرية!

الباب الأول: الكلمة المتجسد ص ١.
الباب الثاني: آياته وأعماله تعلن عن لاهوته ص ٢- ص ١٢.
الباب الثالث: إعلانه عن ذاته لخاصته ص ١٣- ص ١٧.
الباب الرابع: ابن الله الذبيح ص ١٨- ص ١٩.
الباب الخامس: قيامته تشهد للاهوته ص ٢٠.
الباب السادس: خاتمة ص ٢١.

الباب الأول

الكلمة المتجسد واهب النعمة
والشهود له

ص ١

- الكلمة المتجسد واهب النعمة ع ١-١٨.
- شهود للكلمة المتجسد ع ١٩-٥١.
- ملحق للأصحاح الأول عن النعمة الإلهية.

الأصحاح الأول

الكلمة المتجسد

في دهشة تقف النفس لتشهد في سكون عميق الإنجيلي القديس يوحنا الحبيب وقد صار أشبه بنسرٍ طائرٍ، يحلق لا في جو السماء المنظورة، بل في جو الإلهيات التي لا يُنطق بها. إنه كمن يدعونا أن نعبر معه إلى ما وراء الزمن لنرى كلمة الله الذي لا يفارق العقل الإلهي، والعقل الذي لن ينفصل عن كلمته؛ الابن الوحيد الجنس الواحد مع أبيه في ذات الجوهر. إنه يدعونا لنرى ونلمس واهب الحياة ومصدر النور، خالق الزمن، ومُوجد كل خليقة في السماء وعلى الأرض وكأنه لا يشغله أمر ما سوى الإنسان محبوبه الفريد!

بإعلان الروح القدس لا يسجل لنا الإنجيلي كتابًا مجردًا، بل يحملنا إلى حقائق إلهية تمس كياننا ومستقبلنا الأبدي ومجدنا، نغرف من فيض الحب الإلهي الذي لا يُعبر عنه بلسان بشري.

الشهادة للسيد المسيح

في هذا الأصحاح يتحدث القديس يوحنا عن لاهوت السيد المسيح فيقدم لنا شهادته هو [١–٥؛ ١٠–١٤؛ ١٦–١٨]، وشهادة القديس يوحنا المعمدان [٦–٩؛ ١٥؛ ١٩–٣٧]، وإعلان السيد المسيح نفسه لأندراوس [٣٨–٤٢]، ولفيلبس [٤٣–٥١]، وشهادتهما له.

١. شخص يسوع المسيح بكونه اللوغوس الأزلي الواحد في الجوهر مع الآب والأقنوم المتمايز عنه [١–٢]. هو واهب الحياة والنور، وفيه ننال سلطان التبني للآب [٣–١٣].

٢. يفتتح معلمنا يوحنا البشير السفر بتقديم الكلمة الإلهي **كمصدر النعم الإلهية**، خاصة نعمة الخلق ونعمة البنوة لله مع فيضٍ من النعم "**نعمة فوق نعمة**" [١٦–١٨]، يتحدث عنها بفيض في الأصحاحات التالية.

٣. شهادة القديس يوحنا المعمدان أمام إسرائيل الرسمي: "كهنة ولاويين" الذين جاءوا يقدمون له ثلاثة أسئلة، وكانت إجابته عليهم مختصرة للغاية. شهادة تمثل مجابهة علنية بينه وبينهم. إجابته تتلخص في أنه ليس له اسم، إنما هو مجرد "**صوت صارخ**" أمام المسيح [١٩–٢٨].

٤. **شهادة القديس يوحنا المعمدان أمام تلاميذه** [٢٩–٣٧] حيث يبادر بالكلام ويسهب فيه. لأنه يتحدث مع البقية التي تنبأ عنها إشعياء النبي: "ترجع البقية، بقية يعقوب إلى الله القدير" (إش ١٠: ٢١). يتحدث القديس يوحنا المعمدان مع إسرائيل الجديد الذين يؤمنون بالسيد المسيح، ليدخل بهم إلى العهد الجديد. يؤكد لهم أن المسيّا يأتي لا في صورة ملوكية مجيدة كما يظن اليهود بل كمتألم ومخذول، مجده الحب وحمل خطايا العالم [٣٦].

٥. **تبعية تلاميذ القديس يوحنا المعدان للسيد المسيح**، حيث يتم لقاء حقيقي شخصي وعميق يؤول إلى تغيير كامل للحياة كما للكيان والاسم. فنرى السيد المسيح يدخل إلى صميم نفس سمعان، ويحتل أعماقها، ليحوله إلى بطرس الرسول؛ فيغير اسمه ورسالته وحياته وكيانه كله [٤٢].

٦. **دعوة السيد المسيح لبقية تلاميذه في الجليل منذ البداية**. يعلن الإنجيلي عن رؤية السرّ الأخروي المخفي، حيث يؤكد انفتاح السماء وصعود الملائكة ونزولهم على شخص السيد المسيح [٥٠–٥١].

١. الكلمة الإلهي ١–١٣.

٢. الكلمة صار جسدًا ١٤–١٨.

٣. شهادة يوحنا المعمدان له ١٩–٣٤.

٤. شهادة تلاميذه الأولين له ٣٥–٥٣.

١. الكلمة الإلهي

يبدأ الإنجيل بحسب القديس يوحنا بافتتاحية أو مقدمة تختلف عن افتتاحية بقية الأناجيل الإزائية. افتتاحية مرقس الرسول تقدم وصفًا للقديس يوحنا المعمدان وعمله كملاكٍ يهيئ الطريق أمام السيد المسيح الذي طالما اشتهى الآباء والأنبياء أن يروا يوم مجيئه. وافتتاحية متى البشير تقدم تسلسل يسوع المسيح عن إبراهيم، وقصة ميلاده بكونه الملك الفريد الذي جاء ليقيم مملكة داود الساقطة، ويجعل من مؤمنيه شعبًا ملوكًيا. ويفتتح لوقا الرسول إنجيله بمقدمة أدبية رسمية (١: ١–٤)، يتبعها عرض لميلاد المعمدان ثم ميلاد يسوع المسيح الذي يشبع بحبه الباذل وصداقته الفريدة كل قلبٍ، ويملأ كل فراغ في الداخل. أما يوحنا فيبدأ بالكشف عن شخص ربنا يسوع قبل التجسد بكونه الكلمة الأزلي، لكي نتخطى كل زمن وننطلق إلى حضن الآب الأزلي، فنتعرف على خطة الله من نحونا

ومشيئته لخلاصنا ومجدنا الأبدي. يعرفنا على ذاك الذي نشاركه مجده ونعيش معه إلى الأبد. أبرزت المقدمة [١–١٨] ما ورد في السفر ككل أن الله يعلن عن نفسه خلال كلماته [١–١٣] كما خلال أعماله [٢–٥]، وأخيرًا خلال التجسد الإلهي لمجد الآب [١٤–١٨].

كُتبت الافتتاحية في أغلبها كقطعة شعرية متميزة من جهة الأسلوب والمفردات عن بقية السفر مما جعل بعض الدارسين يتساءلون إن كانت هذه الافتتاحية هي لحن كنسي اقتبسه الرسول، أو إضافة قدّمها الرسول بعد أن كتب بقية السفر كملخص يكشف عن هدف السفر ويفسر معناه. أو هي مقدمة كتبها ليُعلن عن موضوع كتابته مقدمًا. لكن الحقيقة هي أن غاية الافتتاحية أن تقدم للقارئ شخص يسوع المسيح موضوع السفر، بكونه الكلمة الأزلي، العامل مع الآب في الخليقة. بكونه الله نفسه يعلن عن الآب، ويقدمه لنا كما يقدم نفسه لنا. إنه حكمة الله المتحدث معنا، والذي يقدم ذاته كلمة الله لكي نقتنيه سرّ حياة أبدية. إنه حياة الكل، ونور كل إنسان. هذا الأزلي صار جسدًا وعاش كإنسانٍ، رفضه خاصته اليهود بالرغم من شهادة القديس يوحنا المعمدان له. لكن وُجدت بقية أمينة قبلته فصاروا أبناء الله وأعضاء في العائلة الإلهية.

في كل صباح نتغنى بهذه المقدمة وما يليها (يو ١: ١–١٧)، لكي ما ندرك أن بدايتنا اليومية الجديدة مصدرها الالتقاء بذاك الذي وحده يرفعنا إلى ما فوق الزمن ليدخل بنا إلى حضن أبيه، دون أن يحتقر الزمن أو يستخف به، بل يقدسه كطريق للعبور إلى ما وراء الزمن. في صلاة باكر نتذكر أن مسيحنا المخلص هو الألفا والأومجا، البداية والنهاية، فنتمتع ببداية مقدسة ونهاية مجيدة.

يقول **القديس أغسطينوس**[1] أن صديقه سمبليشيوس *Simplicius* أخبره بأن فيلسوفًا أفلاطونيًا قال بأن هذه العبارات التي جاءت في بداية إنجيل يوحنا تستحق أن تُكتب بحروفٍ من ذهبٍ.

وذكر متى هنري عن فرنسيس جوني *Francis Junius* الذي فقد كل القيم الدينية في شبابه، وقد استعادها بنعمة الله خلال قراءته لهذه الأعداد عن غير قصدٍ منه، قدمها له والده. شعر بقوتها وسلطانها عليه فقضى يومه كله لا يُدرك أين هو ولا ما كان يفعله، وكان جسمه مرتعبًا. وكان ذلك اليوم هو بداية حياته الروحية.

تقدم لنا العبارات (١–١٣) ثمان حقائق عظمى عن شخص ربنا يسوع المسيح، وهي:

١. كان ولا يزال الأزلي: "**في البدء كان الكلمة**" [١].

[1] *De Civitate Dei, Lib 10, ch. 29.*

ب. كان ولا يزال الأقنوم المتمايز عن أبيه: "**وكان عند الله**" [١].

ج. كان الكلمة ولا يزال هو الله [٢].

د. هو شريك مع الآب في الأزلية [٢].

هـ. هو خالق المسكونة [٣].

و. هو مصدر كل حياة ونور [٤، ٥، ٩].

ز. الإله الذي يعلن عن ذاته للعالم الساقط [١٠].

خ. دخل إلى عالم الإنسان، وخاصته لم تقبله [١١]، أما الذين قبلوه فنالوا ميلادًا جديدًا [١٢-١٣].

اللوغوس

جاء في النسخة الكلدانية *Chaldee* في إعادة صياغة العهد القديم دعوة المسيّا بكلمة *Memra* أي "كلمة يهوه"، وأن الكثير من الأمور الواردة في العهد القديم التي تحققت بالرب، إنما تمت بكلمة الرب. وأيضًا تعلم اليهود بوجه عام أن "كلمة الله" كانت مع الله.

تُستخدم كلمة "**لوغوس**" بمعنيين:

- **الكلمة التي يُحبل بها** *Logos endiathetas*، أي الفكر الذي تحبل به النفس، خلاله تتحقق كل الأعمال، وهي واحدة مع النفس. لذلك لاق بالأقنوم الثاني أن يُحسب كلمة الله، مولودًا من الآب بكونه الحكمة الأساسي الأزلي؛ **ليس شيء أكثر يقينًا من أننا نفكر، وليس شيء أكثر غموضًا من معرفة كيف نفكر**.

- **الكلمة المنطوق بها** *Logos prophorika*، التي هي الكلام، وهو الإشارة الطبيعية لما في الذهن. هكذا المسيح هو الكلمة التي تحدث به الآب في آخر الأيام (عب ١: ٢)، ويوجهنا لكي نسمع له (مت ١٧: ٥). خبرنا عن ذهن الآب كما يخبرنا الكلام عما في فكر الإنسان. إنه الكلمة الذي يحدثنا بما للآب، إذ هو الحق والآمين، والشاهد الصادق للذهن الإلهي. هنا يختلف عن يوحنا المعمدان الذي هو "صوت صارخ" وليس الكلمة الإلهي.

يقارن **القديس أغسطينوس** بين الخبز الذي يشبع البطن والكلمة التي تشبع الذهن. فإنه إن قدم خبزًا للشعب لا يستطيع أن يقدم ذات الخبزة لكل الحاضرين، أما الكلمة فيقدمها للكل، وتستقبلها

أذهان جميع الشعب بالكامل. **حقًا عجيبة هي كلمة الإنسان يقدمها ليسمعها الكل بلا نقص، فكم تكون كلمة الله الخالق؟**

❖ إن كنت أود أن أطعمكم فلا أملأ أذهانكم بل بطونكم، وأقدم لكم خبزًا لأشبعها بها، أما تقسمون الخبز فيما بينكم؟ هل يمكن لخبزي أن يأتي إلى كل واحدٍ منكم؟ فإن ناله أحد لا ينال البقية شيئًا. لكن الآن انظروا، فإني أتحدث وأنتم جميعًا تستقبلون الكلمة. لا، ليس فقط جميعكم تستقبلونها، وإنما أيضًا الكل يستقبلون الكلمة بالكامل. **يا لعجب كلمتي! فماذا عن كلمة الله؟!** استمعوا أيضًا، إني أتحدث ما أنطق به فيأتي إليكم الكلام ولا يفارقني. يبلغ إليكم ولا ينفصل عني. قبل أن أتكلم كنت أملك الكلمة ولم تكن لديكم. لقد تكلمت وبدأتم تتالونها دون أن أفقد شيئًا منها. **يا لعجب كلمتي! فماذا تكون إذن كلمة الله؟!**[1]

القديس أغسطينوس

❖ يا لكم من أغبياء، تتحدثون كمن لا يميزون بين الكلمة المنطوق بها والكلمة الإلهي، الثابت سرمديًا، مولود من الآب؛ أقول أنه مولود وليس فقط منطوق به. الذي لا يوجد فيه مقاطع كلمات، بل كمال اللاهوت السرمدي، والحياة التي بلا نهاية (كو ١: ١٩؛ ٢: ٩؛ ٣: ٤؛ يو ١: ٤؛ ٥: ٢٦؛ ١١: ٢٥؛ ١٤: ٦؛ رؤ١: ١٨)[2].

القديس أمبروسيوس

"**في البدء كان الكلمة،**
والكلمة كان عند الله،
كان الكلمة الله" **[١]**.

جاءت هذه العبارة في ثلاثة مقاطع موزونة موسيقيًا في اللغة العبرية، حيث يتكرر في الثلاثة الاسم "**الكلمة**" والفعل "**كان**". هنا الفعل يدل على الكينونة الدائمة القائمة في البدء لا على الزمن. في هذه المقاطع: كان الكلمة في البدء، وكان مع الله، وكان هو الله.

"**في البدء**": بدأ سفر التكوين بعبارة "في البدء خلق الله"، أي أنه يتكلم عن بداية المخلوقات، أي بدء الزمن بالخلقة. أما البدء في إنجيل يوحنا فهو ما قبل الخلق والزمن والتاريخ، حيث لم يوجد سوي

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 70:3.*
[2] *On the Christian Faith, Book 4:9:102.*

الله الكائن بذاته. يبدأ ببداية الكينونة "**في البدء كان الكلمة**" أي أن الكلمة أزلي هو بدأ بما لا بداية له. وقد كرر الرسول هذا الفكر حين قال الرب لليهود: "أنا من البدء ما أكلمكم أيضًا به" (يو ٨: ٢٥)، أي أنا الكائن المتكلم في الأصل أو منذ الأزل. جاء أيضًا في بداية رسالته الأولى: "الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا" (١ يو ١: ١). وقد قال أيضًا للجموع: "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يري يومي فرأي وفرح... قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (٨: ٥٦، ٥٨).

قدم **العلامة أوريجينوس** معانً كثيرة لكلمة "**البدء**"، كما ميز بين البدء في علاقته بالخالق، والبدء في علاقته بالخليقة. إنه البدء بكونه حكمة الله وقوة الله (١ كو ١: ٢٤).

يؤكد الرسول أن الكلمة هو "**في البدء**"، ليس فقط قبل التجسد بل قبل كل الأزمنة. جاء العالم إلى الوجود بخلقه من البدء، أما الكلمة **فكان موجودًا في البدء**، أي قبل الأزمنة. لقد عبر المرتل عن أزلية الله أنه قبل وجود الجبال (مز ٩٠: ٢؛ أم ٨: ٢٣).

إنه مع الله، فلا يظن أحد أن الإيمان بالكلمة يسحبه عن الله، وكان الكلمة عند الله إذ لا ينفصل عنه قط، من ذات جوهره (عب ١: ٣). وهو موضوع سروره (يو ١٧: ٥)، ابن محبته (أم ٨: ٣٠).

يتساءل **القديس يوحنا الذهبي الفم**[1] لماذا لم يبدأ الإنجيلي بالحديث عن الآب، بل بدأه بالابن الوحيد الجنس، ولماذا لم يبدأ بدعوته الابن الوحيد الجنس بل الكلمة. ويجيب على ذلك بأنه بدأ بالإعلان عن شخص السيد المسيح بكونه "**الكلمة**" المتجسد، ليتحدث بفيض فيما بعد أنه "ابن الله". لقب "**الكلمة**" يؤكد الوحدة، ولقب "**الابن الوحيد الجنس**" يؤكد التمايز، لذا فاللقبان مكملان لبعضهما البعض. ويقدم لنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** تبريرًا لذلك بقوله أن الإنسان غالبًا ما يفصل بين الأب والابن. فيظن أن بميلاد الابن حدث في الله تغيير، فصار الآب، ولم يكن قبل الولادة هكذا، إذ نظن أن الولادة حسية مثلما يحدث في الخليقة، وأنها لم تتم أزليًا. فلو أن الإنجيلي بدأ بالحديث عنه أنه "**ابن الله**" لدخل الشك لدى البعض أنهما إلهان منفصلان. لذا بدأ باللقب "**الكلمة**" الذي لا يتخيل الإنسان أنه منفصل عن الله.

❖ يدعوه "**الكلمة**" لأنه يستعد للتعليم بأن هذا الكلمة هو ابن الله الوحيد، فلا يظن أحد أنه ولادته حسّية. فبإعطائه لقب "**الكلمة**" ينزع مقدمًا ما يتعرض له الشخص من وهمٍ شرير ويزيله عنه. لقد

[1] *Homilies on St. John, Hom. 2:7.*

أظهر أن الابن من الآب، وأنه ولد دون ألم (تغيير)[1].

❖ لئلا يظن أحد عند سماعه "**في البدء**" أنه ليس بمولود أيضًا، عالج هذا في الحال بقوله أنه كان "**عند الله**" قبل أن يعلن أنه هو الله. وهو يمنع أي أحد من افتراض أن الكلمة بسيطة كما لو كانت مجرد كلمة منطوقة أو مدركة، مضيفًا إليها أداة التعريف... إنه لم يقل "كان في الله" بل "**عند الله**" معلنًا سرمديته كأقنوم. بعد ذلك يعلن عنها بأكثر وضوح مضيفًا أيضًا "**والكلمة كان الله**".

❖ لم يدعه "كلمة" بل أضاف أداة التعرف ليميزه عن البقية (كلمة الإنسان)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذا التعبير "**في البدء كان**" لا يعلن سوى الوجود *being* الدائم، وأنه وجود مطلق[3].

❖ "**كان اللوغوس**" لأن كلمة "وجود *being*" تستخدم للإنسان لتمييز الوقت الحاضر وحده، وأما بخصوص الله فتشير إلى السرمدية. لذلك عندما يستخدم "**كان**" بخصوص طبيعتنا تعني الماضي، وعندما تستخدم بخصوص الله تعلن عن السرمدية[4].

❖ هذا (الكلمة) هو جوهر إلهي حاصل في أقنوم بارز من أبيه خالٍ من انقسام عارض. وحتى لا تظن أن لاهوت الابن أدنى، وضع للحال الدلائل المُعرفة للاهوته فقال: "**وكان الكلمة الله**"[5].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ هو مولود فبسببٍ حسنٍ لم يجزم يوحنا أو غيره، سواء كان رسولاً أو نبيًا، أنه مخلوق. فإن هذا الذي تحدث عن نفسه بتواضع هكذا خلال تنازله لم يرد أن يقف صامتًا في هذا الأمر... لقد نطق بكلمات متواضعة (يو ٥: ٣٠؛ ١٢: ٤٩)... لكنه لو كان مخلوقًا لتحدث قائلاً: "لا تظنوا إني مولود من الآب، بل أنا مخلوق غير مولود، ولست شريكًا في جوهره". لكن إذ هذا أمره، فعلى العكس نطق بكلمات تلزم البشر حتى بغير إرادتهم أو رغبتهم أن يقبلوا الفكر الآخر. كقوله: "أنا

---

[1] *Homily 2:7.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 2:8.*
[3] *Comm. on John, hom. PG 59:13.*
[4] *Ibid, hom. 3. PG 59:18, 19.*
[5] استخدمت بعض نصوص القديس يوحنا الذهبي الفم من سلسلة كنوز مخطوطات البراموس، شرح إنجيل يوحنا للقديس يوحنا الذهبيّ الفم، إعداد القمص أغسطينوس البراموسي، ٢٠٠١.

في الآب والآب فيّ" (يو ١٤: ١١)، "أنا معكم زمانًا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩)، وأيضًا: "لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب" (يو ٥: ٢٣)، "لأنه كما أن الآب يقيم الموتى ويحيي، كذلك الابن أيضًا يحي من يشاء" (يو ٥: ٢١). "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧). "كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب" (يو ١٠: ١٥). "وأنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)[1].

❖ أصابت الدهشة إشعياء النبي عندما قال: "وميلاده من يخبر به؟ لأن حياته رُفعت من الأرض" (إش ٥٣: ٨). حقًا لقد رفع من الأرض تمامًا كل آثار الميلاد الأزلي، لأنه يفوق الإدراك. وإذا كان فوق الإدراك فكيف يمكن أن نقول أنه مخلوق، لأننا نستطيع أن نحدد بوضوح زمن بداية المخلوقات وكيفية وجودها، أما **البدء** فنعجز عن تحديد زمن بدايته.

❖ في هذا "**البدء** *Archi*" الذي هو فوق الكل وعلى الكل "**كان الكلمة**"، ليس من الطبائع المخلوقة التي تحت قدمي البدء، وإنما عاليًا عنها جميعًا، لأنه "**في البدء**"، أي من ذات الطبيعة والكائن دائمًا مع الآب له طبيعة الذي ولده... منه ومعه له السيادة *archi* على الكل.

القديس كيرلس الكبير

❖ بالقول "في البدء كان"، **وليس** "**بعد البدء**" **يعني أنه لم يكن بدء بدون اللوغوس، وبإعلانه** " كان اللوغوس عند الله" **يعني غياب أية شائبة في علاقة الابن بالآب، لأن اللوغوس يفكر فيه ككل مع كيان الله ككل**[2].

❖ خشي الإنجيلي من أذهاننا التي ينقصها التمرن، ولا يثق في آذاننا ليقدم لقب "الآب"، لئلا يتصور الجسداني في فكرة وجود أم أيضًا. ولم يذكر في إعلانه "**الابن**" حتى لا يجعل أحد اللاهوت بشريًا بنوعٍ من الهوى. لهذا دعاه اللوغوس، فكما أن كلمتك تصدر عن ذهنك دون تدخل لهوى، هكذا أيضًا عند سماعك "**الكلمة**" لا تفهم ذلك عن شيءٍ صدر بهوى[3].

❖ أولئك الذين يقدمون لنا أية أفكار صالحة عن مثل هذه الأسرار، هم غير قادرين حقًا على التعبير

---

[1] *Homily 3:3.*
[2] *On the Faith.*
[3] *Against Eunomius , book 4:1.*

عن الطبيعة الإلهية.

إنهم يتكلمون بالأحرى عن بهاء مجد اللّه ورسم جوهره (عب ١: ٣)، صورة اللّه، **وفي البدء كان الكلمة والكلمة كان اللّه** (يو ١: ١). كل هذه التعبيرات تبدو لنا نحن الذين لم نرَ الطبيعة الإلهية مثل الذهب من هذا الكنز. ولكن بالنسبة لهؤلاء القادرين على رؤية الحقيقة، فإنها شبه الذهب وليست ذهبًا لامعًا، إنها ذهب مع جمان من فضة (نش ١: ١١). إن الفضة كما يقول الكتاب: "لسان الصديق فضة مختارة (أم ١٠: ٢٠)".

هنا نتكشف أن الطبيعة الإلهية تتجاوز كل مفهوم نحاول أن ندركه.

فهمنا للطبيعة الإلهية يشبه ما نهدف إليه. إن أحدًا ما لم يرها ولا يستطيع أن يراها، ولكن خلال مرآة ولغز (١ كو ١٣: ١٢).

إنها تعطينا انعكاسًا لما نفكر فيه، أي انعكاس موجود في الروح بصورة معينة.

كل كلمة تمثل هذه المفاهيم تشبه نقطة ينقصها أن تمتد، حيث إنها قاصرة عن التعبير عما في العقل...

وكل كلمة تقال كمحاولة للتعبير عن اللّه تبدو مثل نقطة صغيرة غير قادرة للامتداد لتتناسب مع الغرض، إذ تقاد خلال مثل هذه المفاهيم لإدراك ما لا يمكن إدراكه سوى خلال الإيمان بها أن تقيم ذاتيًا طبيعة تفوق كل ذكاء[١].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ يُدعى الكلمة والابن وقوة الله وحكمة الله. **الكلمة** لأنه بلا عيب، و**القوة** لأنه كامل، و**الابن** لأنه مولود من الآب، و**الحكمة** لأنه واحد مع الآب في السرمدية، واحد في اللاهوت. ليس أن الآب أقنوم واحد مع الابن. إذ يوجد تمايز واضح بين الآب والابن يأتي من الولادة، هكذا المسيح هو إله من إله، خالد من خالد، كامل من كامل[٢].

القديس أمبروسيوس

❖ يوجد الله الواحد الذي أعلن عن نفسه بيسوع المسيح ابنه، الذي هو كلمته (اللوغوس)، ليس

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٣.

[2] *On the Christian Faith, Book 1:2:16.*

منطوقا به بل جوهري. لأنه ليس صوتًا لأداة نطق بل أقنوم مولود بالقوة الإلهية[1].

القديس أغناطيوس

كانت كلمة "**لوغوس**" معروفة لدي اليهود والأمم، عرفها هيرقليتس *Heracllitus* حوالي ٥٠٠ ق.م بأنها العقل الجامع الذي يحكم العالم ويخترقه، وقد تبناه الرواقيون وأشاعوه. وفي اليهودية الهيلينية "اللوغوس" هو أقنوم مستقل، تطورت فكرته ليكون مصاحبًا للحكمة (صوفيا) (الحكمة ٩: ١، ٢؛ ١٨: ١٥). إذ ربط **فيلون السكندري** بين تعبيرات فلسفية ومفاهيم كتابية قال أن اللوغوس هو نموذج إلهي جاء العالم صورة له.

❖ "**لوغوس**" في اليونانية لها معان كثيرة. فهي تعني الكلمة والعقل والتقدير وعلة الأشياء الفردية التي عليها تقوم. بكل هذه جميعًا نحن نعلن عن المسيح[2].

القديس جيروم

❖ لكننا نعلم أن المسيح لم يُولد كمثل كلمة منطوق بها، بل هو الكلمة الكائن الجوهري الحي، لا يُنطق بشفتين ولا ينتشر متبددًا، بل هو مولود من الآب أبديًا، لا يُوصف في الجوهر. إذ" **في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله**". إنه جالس عن يمين الله، الكلمة يفهم إرادة الآب، خالد، كل الأشياء كائنة بأمره.

الكلمة نزل وصعد، أما الكلمة التي ننطق نحن بها فإنها تنزل ولا تصعد.

ينطق "الكلمة" قائلاً: "أنا أتكلم بما رأيت عند أبي" (يو ٨: ٣٨).

للكلمة سلطان، يملك على كل شيء، إذ أعطى الآب كل شيء للابن (مت ١١: ٢٧؛ يو ٥: ٢٢)[3].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ إن كان قد وُجد وقت لم يكن فيه الابن، يكون الأب نورًا قاتمًا. فإنه كيف لا يكون نورًا قاتمًا إن كان ليس له بهاء؟ فالآب موجود دائمًا، والابن موجود دائمًا... البهاء يتولد من النور، ومع ذلك فالبهاء أزلي مع النور الذي يلده. النور دائم والبهاء دائم. النور يولد بهاءه، لكن هل وُجد بدون

---

[1] *Ep. ad. Magn. 8:1.*

[2] *Letter 53 to Paulinus, 4.*

[3] مقال ١١: ١٠.

بهائه؟... لتقبلوا أن الله يلد ابنه السرمدي[1].

القديس أغسطينوس

يفهم "**عند**" هنا "معه أزليا"، أي أن الكلمة مع الآب شريك معه في أزليته دون انفصال.

❖ "**والكلمة كان عند الله**"؛ لهذا فهو أزلي كالآب نفسه، لأنه لم يكن الآب بدون الكلمة، بل كان الله (الكلمة) مع الله، كل في أقنومه الخاص.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يؤكد **القديس أمبروسيوس** مساواة الكلمة للآب من أن الإنجيلي أورد الكلمة قبل الآب، ولو أن الآب أعظم من جهة طبيعة اللاهوت لما تجاسر وفعل هذا. وأيضًا بولس الرسول ذكر نعمة المسيح قبل محبة الآب (٢ كو ١٣: ٤). [ترتيب الكلمات (الخاصة بالثالوث) غالبًا ما تتغير لذا لاق ألا تتساءل عن الترتيب والدرجات. ففي الله الآب والابن ولا يوجد فصل في وحدة اللاهوت[2].]

عالج **القديس يوحنا الذهبي الفم** اعتراض الأريوسيين على مساواة الابن أو الكلمة للآب بدعوى أنه جاءت الكلمة "الله" هنا بدون أداة التعريف: "**وكان الكلمة إلهًا**". وهو ذات الفكر الذي يقتبسه شهود يهوه حاليًا. وقد فنّد القديس هذه الحجة موضحًا أن الكتاب المقدس أشار أحيانًا إلى الآب والروح القدس دون ربط اسميهما بأداة التعريف، بل وأحيانًا أشار إلى الابن والكلمة أنه الله مرتبطًا بأداة التعريف. هذا وأنه في ذات الموضع هنا ينسب للكلمة سمات خاصة بالله بكونه الأزلي، والخالق وواهب الحياة والإنارة. فلو أنه أقل من الله لكان قد تحدث صراحة عن ذلك حتى لا يحدث لبس.

❖ إنه لم يستخدم تعبيرًا يشير إلى وجود حدود إذ لم يقل: "له بداية" بل "**في البدء**". بفعل "**كان**" يحملكم إلى فكرة أن الابن بلا بداية. ربما يقول أحد: "لاحظ أن الآب قد أضيف إليه أداة التعرف (الله)، أما الابن فبدونها "إله". ماذا إذن عندما يقول الرسول: "الإله العظيم ومخلصنا يسوع" (تي ٢: ١٣). مرة أخرى: "الذي فوق الكل إله (الله)" (رو ٩: ٥)؟

حقًا إنه يشير هنا إلى الابن دون أداة التعريف، لكنه يفعل نفس الشيء مع الآب أيضًا، على الأقل في الرسالة إلى أهل فيلبي (٢: ٦) حيث يقول: "الذي في شكل إله لم يُحسب خلسة أن يكون معادلاً لله"، وأيضًا في الرسالة إلى أهل رومية: (نعمة لكم وسلام من الله (دون التعريف) أبينا والرب

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 68:1.*
[2] *On the Christian Faith, Book 5:9:117.*

يسوع المسيح" (رو ١: ٧)... وأيضًا عند الحديث عن الآب يقول: الله (إله) هو روح" (يو ٤: ٢٤)، فليس لأن أداة التعريف لم ترتبط بكلمة "روح" ننفي طبيعة الله الروحية. هكذا هنا وإن كانت أداة التعريف لم تلحق بالابن، فالابن بسبب هذا ليس بأقل من الله[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**هذا كان في البدء عند الله**" **[٢]**.

❖ قول يوحنا عن السيد المسيح "**هذا كان في البدء عند الله**" أظهر لنا اتفاقه مع أبيه في أزليته. فإذا سمعت في وصف الوحيد أنه "**كان في البدء**" فافهم أنه كان قبل الخلائق العقلية كلها وقبل كل الدهور.

❖ لم يكن الآب قط بدون الكلمة، بل كان الله دائمًا مع الله، ولكن كل واحد في أقنومه اللائق به[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**والكلمة كان عند الله**": الآب والابن ليسا واحدًا في الأقنوم، بل كل منهما أقنوم يمكن رؤيته في الآخر بسبب وحدة الجوهر، لأنه إله من إله، الابن من الآب.

❖ "**هذا كان في البدء عند الله**"، أي الابن، الذي هو مع الآب، والمولود من جوهره، فالابن الوحيد هو الذي يشار إليه بكلمة "هذا".

القديس كيرلس الكبير

❖ يمكن أيضًا للوغوس أن يكون "ابن الله" إذ هو يخبر بأسرار أبيه الذي هو "العقل"، مقابل (*analogous*) للابن أنه يُدعى "الكلمة". فكما أن الكلمة فينا هي رسول لما يدركه العقل هكذا كلمة الله، إذ هو يعرف الآب يعلن عن ذاك الذي يعرفه، إذ لا تستطيع خليقة أن تدخل في علاقة معه دون إرشاد. لا يعرف أحد الآب إلاَّ الابن ومن يعلن له الابن عنه (راجع مت ١١: ٢٧). وبكونه الكلمة فهو رسول المشورة العظيم الذي على كتفه تستريح السلطة (إش ٩: ٥ *LXX*)، وقد صار ملكًا إذ احتمل الصليب. وقد جاء في سفر الرؤيا أن الكلمة الأمين والحق ركب على فرس أبيض (رؤ ١٩: ١١)، وفي رأيي لكي يوضح الصوت الذي يقوده (يمتطيه) كلمة الحق، ويأتي

[1] *Homily 4:3.*
[2] *Homily 4:1.*

لكي يقطن فينا[1].

العلامة أوريجينوس

يقول **العلامة أوريجينوس** أن أنبياء العهد القديم تمتعوا بكلمة الرب التي صارت لهم (هو ١: ١؛ إش ٢: ١؛ إر ١٤: ١). فقيل "قول (كلمة) الرب الذي صار إلى هوشع بن بئيري" (هو ١: ١). كلمة هوشع معناها "المخَلِّص" وبئيري معناها "الآبار"، فإن كل من تمتع بالخلاص هو ابن الآبار التي تفيض من أعماق حكمة الله. فهو ابن الحكمة، وكما جاء في الكتاب المقدس "الحكمة تبررت من بنيها" (راجع لو ٧: ٣٥؛ مت ١١: ١٩). أما بالنسبة للآب فقد قيل: "**وكان الكلمة عند الله**" ولم يقل: "الكلمة صار إلى الآب"، إذ الكلمة أزلي مع الآب[2].

- ❖ على أي الأحوال صار الكلمة إلى البشر الذين لم يستطيعوا قبلاً أن يتقبلوا رحلة ابن الله الذي هو الكلمة. من الجانب الآخر، لم يأتِ الكلمة لكي يصير عند الله كما لو لم يكن الكلمة قبلاً عند الله؛ وإنما لأنه هو مع الآب على الدوام؛ قيل: "والكلمة كان عند الله" (يو ١: ١)، إذ لم يأت ليصير مع الله[3].

- ❖ نفس الفعل "**كان**" يشير إلى الكلمة عندما كان في البدء، وحين كان مع الله. إنه لم ينفصل عن البدء، ولا يفارق الآب. مرة أخرى إنه لم يأتِ ليصير في البدء كمن هو ليس في البدء، ولا عبر من عدم وجود مع الله لكي يصير معه. فإنه قبل كل زمان منذ الأزل "**في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله**"[4].

- ❖ يضيف أنه بمجيئه إلى الأنبياء ينيرهم بنور المعرفة، ويجعلهم يرون الأمور التي لم يدركوها قبل مجيئهم كمن يرونها بأعينهم. أما بكونه عند الله، والكلمة هو الله إذ هو عنده[5].

العلامة أوريجينوس

"**كل شيء به كان،**
وبغيره لم يكن شيء مما كان" **[٣]**.

---

[1] *Commentary on John, Book 1:277–278.*
[2] *Commentary on John, Book 2:4–8.*
[3] *Commentary on John, Book 2:8.*
[4] *Commentary on John, Book 2:9.*
[5] *Commentary on John, Book 2:10.*

قدم الإنجيلي الكلمة بكونه "الخالق" إذ به كان كل شيء، وبغيره لم يكن شيء مما كان. لم يقدم هذا إلا بعد الحديث عن العلاقة الأزلية بين الآب والكلمة. فالآب والابن (أو الكلمة) مع الروح القدس فيه التقاء ذاتي داخلي، كلي الحب والحياة. هذه الطبيعة الإلهية التي تفيض حبًا ليست في حاجة إلى الخليقة السماوية أو الأرضية لتحقق الحب عمليًا. الحب عامل بين الأقانيم الإلهية أزليًا، وقد جاءت الخلقة من فيض الحب الإلهي، لا كضرورة لتحقيق حب الله بل ثمرة هذا الحب. وما نقوله عن الخلقة نكرره عن الخلاص بكونه الخلقة الجديدة.

الكلمة الأزلي هو الخالق والمخلص، يحقق مشيئة الآب، التي هي واحدة مع مشيئة الابن.

بقوله "**كل شيء به كان**"؛ فرز نفسه من كل الخلائق السماوية والبشرية والمادية، فهو خالق كل أحد وكل شيء أينما وجد.

يقصد بـ "**به كان**" أنه به قد صار إلى الوجود، أو خلق كل شيء. فعل "**كان**" هنا في اليونانية مختلف عما ورد بخصوص الكلمة، هنا يعني الخلق، وهناك الكينونة الذاتية.

وجاء الحرف "**به**" يحمل معنى بواسطته ومن خلاله وفيه، فقد خلق وبقي مدبرًا لخليقته معتنيًا بها وحافظًا لها. هذا ما عبَّر عنه الرسول بولس: "فإن فيه خلق الكل"... به وله قد خلق... وفيه يقوم الكل" (كو ١: ١٦-١٧). "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته" (عب ١: ٣). "لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أع ١٧: ٢٨).

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الإنجيلي يركز على وحدة العمل الخاص بالخلقة بين الكلمة والآب، لإظهار لاهوت الكلمة ومساواته للآب. بالقول: "**وبغيره لم يكن شيء مما كان**" يؤكد أن دور الكلمة في الخلق أساسي، بدونه استحالة تحقيق الخلقة أو استمرارها.

عندما تحدث موسى النبي عن بدء الخليقة: "في البدء خلق الله السماوات والأرض" خشي لئلا يظن أحد أن الأرض أزلية فأكد أن لها بداية، وأنها من إبداع الخالق. فلو أن الكلمة مخلوق لالتزم الإنجيلي بتأكيد خلقته، لا بالحديث عنه كخالق للكل.

❖ من هو هذا الذي يسقط في هذا الخطأ، إذ يعلن عمن يخلق ويصنع كل الأشياء أنه مخلوق؟ إني أسأل: هل خلق الرب نفسه؟... من يفكر هذا؟ إن الله خلق كل شيء في حكمة (مز ١٠٤: ٢٤). إن كان الأمر هكذا، فكيف نفترض أن الحكمة قد خُلقت في نفسها؟[1]

[1] *On the Christian Faith, Book 1:14:88.*

القديس أمبروسيوس

❖ إن كنت تظن أن تعبير "**به**" هو علامة على أنه أقل، إذ تجعل من المسيح أداة للخلقة، اسمع (داود) قائلاً: "في البدء يا رب أسست الأرض والسماء عمل يديك" (مز ١٠١ (١٠٢): ٢٥). ما قاله عن الآب كخالق يقوله بخصوص الابن، الأمر الذي ما كان يقوله ما لم يحسبه الخالق، وليس مساعدًا لآخر. إن كان تعبير "**به**" يستخدم هنا أنه ليس لسبب سوى أنه لا يشك أحد في أن الابن غير مولود. بخصوص لقب الخالق ليس هو بأقل من الآب في شيء. اسمع ما يقوله بنفسه: لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحي كذلك الابن أيضا يحي من يشاء" (يو ٥: ٢١)[1].

❖ ألا ترون أنه بهذه الإضافة: "**وبغيره لم يكن شيء مما كان**" قد عالج كل الصعاب المحدقة، لأن القول: "**وبغيره لم يكن شيء مما كان**" ثم يضيف "**به كان كل شيء**"، فإنه يضم الأشياء التي يمكن إدراكها بالعقل (أي التي في العالم غير المنظور) لكنها لا تضم الروح (القدس)...

لئلا يقول أحد: "إن كان كل شيءٍ به كان، فالروح أيضا كان مخلوقًا". أجيبه:" إنني أجزمت أن ما خُلق إنما خلق به، سواء كان غير منظور أو غير مادي، أو في السماء. لهذا لم أقل بطريقة مطلقة "كل شيءٍ" بل قال: "كل شيء **كان**"، أي المخلوقات، وأما الروح فهو غير مخلوق. أترون دقة تعليمه... لقد استبعد الروح القدس عن كل الخليقة.

بنفس الروح إذ استمد بولس ذات النعمة قال: "به خلق الكل" (كو ١: ١٦). لاحظوا هنا الدقة عينها. فإن ذات الروح (القدس) هو حرك هذه النفس أيضًا. فلا يوجد أي استثناء من المخلوقات من كونها أعمال الله... " سواء كان عروشًا أم سلاطين، أم رؤساء أم قوات". فإن تعبير "سواء" يضم الكل، مظهرًا لنا أنه ليس شيء آخر إلا هذا أن "**به كان كل شيء، وبغيره لم يكن شيء مما كان**"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هل يمكن أن يكون الكلمة من صنع الله؟ لا، لأنه هو أيضًا عند الله في البدء. هل الأشياء التي خلقها الله غير التي خلقها الكلمة؟ لا، لأن كل شيء به كان. بأية وسيلة خلقت بواسطته؟ لأنه فيه كانت الحياة، وقبل خلقتها كانت الحياة موجودة. ما قد خُلق ليس بالحياة، بل خلقت بحكمة

---

[1] *Hom 5. PG 59:37.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 5:2.*

الله، وقبل خلقتها كانت الحياة. ما قد خلق يعبر ويزول، وأما ما في الحكمة لا يمكن أن يعبر[1].

❖ إن قلت: "**كل شيء**" ففي هذا لا تكذب، لأن هذا الكلمة يُدعي حكمة الله. ولدينا المكتوب: "خلقت كل شيء في الحكمة" (مز ١٠٤: ٢٤)[2].

القديس أغسطينوس

❖ تتمعن العروس بتأمل في يد العريس التي تمثل قدرته على العمل "حبيبي مد يده من الكوّة" (نش ٥: ٤) لا تتمكن الطبيعة البشرية من احتواء الطبيعة الإلهية الغير محدودة. تقول العروس: "فأنّت عليه أحشائي" (نش ٥: ٤)... تتعجب كل نفس بما لها من قدرة للفهم بالأعمال المبهرة ليد اللّه التي تفوق قدرات الإنسان، لأن الطبيعة الإلهية التي تعمل هذه العجائب لا يمكن فهمها أو احتوائها. فكل مخلوق حي هو من عمل هذه اليد التي ظهرت في الكوّة. لذلك يصرخ يوحنا في إنجيله قائلاً: "**كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان**" (يو ١: ٣). ويعبر النبي إشعياء عن نفس الفكرة، فيسمى اليد قوة اللّه للعمل: "كل هذه صنعتها يدي، فكانت كل هذه يقول الرب" (إش ٦٦: ٢). لا يتمكن عقل الإنسان من فهم هذا الإنجاز: جمال السماء بما فيها من نجوم والشمس وعجائب الخليقة الأخرى. غير أن قلب الإنسان يخاف من قوة اللّه. فإذا كان الإنسان لا يفهم كل أعمال اللّه، فكيف يتمكن من فهم اللّه الذي يعلو على ما في الخليقة؟[3]

❖ دعونا نعيد هذه الآية حتى نستفيد مما سقناه ونجعله يتمشى مع كلمات الوصيفات: "ما حبيبك من حبيب، أيتها الجميلة بين النساء؟ ما حبيبك من حبيب حتى تحلفينا هكذا؟" (نش ٥: ٩)

دعينا نستمع بانتباه بعدما رُفعت براقعنا، ونلتفت إلى الحق بعيون نفوسنا.

كيف تصف العروس لوصيفاتها ذاك الذي تبحث عنه؟

كيف تصف العروس هيئة من ترغبه في كلمات؟

كيف تُحضر العذارى من لا يعرفونه؟ المسيح غير مخلوق وأيضا مخلوق: ونعلم أن الغير مخلوق هو أبدى وموجود قبل إنشاء العالم، وهو خالق الكل. وعلى الجانب الآخر يرشدنا الجزء المخلوق، لأنه تكوّن حسب جسدنا الوضيع (في ٣: ٢١). ويمكننا فهم الكلمات بطريقة أفضل إذا فحصناها

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 3:4.*

[2] *Sermon on N.T. Lessons, 67:3.*

[3] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١١.

حسب ما جاء بالكتاب المقدس. نحن نعرف أنه **في البدء كان الكلمة وأنه كان دائما مع اللّه وأن الكلمة لم يُخلق، وبدونه لم يكن شيء مما كان** (يو ١: ١-٣). والكلمة كان مع اللّه وكان الكلمة اللّه، وبه كان كل شيء. وُلد المسيح، أي أنه أخذ جسدًا وحلّ بيننا. وأظهر تجسده عظمته بوضوح، أنه اللّه، الابن الوحيد للّه الذي هو في حضن الآب، ظهر في الجسد، وقال عنه يوحنا: "والكلمة صار جسدًا وحل بيننا ورأينا مجده كما لوحيد من الآب مملوءًا نعمة وحقًا" (يو ١: ١٤)[١].

القديس غريغوريوس النيسي

- "**كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان**". لأننا نؤمن أن كل شيء قد خُلق بواسطة الابن لا نستطيع أن نحسبه كواحدٍ من الكل (المخلوقات)، بل هو غيّرها تمامًا، لأنه ليس ضمن الطبائع المخلوقة، بل نعترف أنه وحده بالطبيعة الإله الحق.

- لم ينل قوة من آخر لكي يُخلق، وإنما هو قوة الله الآب، الابن الوحيد، الذي يعمل كل شيء مع الآب والروح القدس. لأن كل شيء من الآب بالابن، لأنه لو خلق الابن منفصلاً عن الآب لما استطاع الابن أن يقول: "أنا في الآب والآب فيّ" (يو ١٤: ١٠).

القديس كيرلس الكبير

يقول **القديس أغسطينوس** أن البعض مثل اتباع ماني يحسبون الشيطان خالقًا لبعض الكائنات كالذباب. ويرد القديس على هؤلاء بأن الله خالق كل شيء، ويستخدم حتى الكائنات التي تبدو تافهة ومضرة لصالح الإنسان، لتتزع عنه كبرياءه. [لتعلموا يا إخوة أنه من أجل ترويض كبريائنا خُلقت هذه الأشياء لكي تسبب لنا متاعب، فقد استطاع الله أن يحط من كبرياء شعب فرعون لا بالدببة والأسود والحيات بل أرسل عليهم ذبابًا وضفادع، ليخضع كبرياءهم بأتفه المخلوقات[٢].]

"**فيه كانت الحياة،**

والحياة كانت نور الناس" **[٤]**.

يميز الإنجيلي بين "**الحياة**" الخالقة "**والحياة**" الزمنية المخلوقة. فيتحدث عن أقنوم الكلمة ليس بكونه حيًا فحسب لكنه "**الحياة**". وكما يقول السيد المسيح عن نفسه أنه بمولده الأزلي "له الحياة في

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٣.

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 1:15.*

ذاته" (يو ٥: ٢٦). فهو جوهر الحياة التي لا تُدرك، لذلك يقول الإنجيلي: "الحياة أظهرت" (١ يو ١: ٢)، وذلك خلال التجسد.

هذه الحياة الخالقة تهب حياة للغير، "لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضا يحي من يشاء" (يو ٢١: ٥). فهو ليس فيه حياة، لكنه هو الحياة في ذاتها، لهذا "**به كان كل شيء**". قيل: "تحب الرب إلهك وتسمع لصوته، وتلتصق به، لأنه هو حياتك" (تث ٣٠: ٢٠). ويرنم المرتل: "لأن عندك ينبوع الحياة، وبنورك نعاين النور" (مز ٩: ٣٦).

"**والحياة كانت نور الناس**" [٤]، فإذ نقتنيه بكونه حياتنا نستنير، فندرك أن حياتنا الزمنية على الأرض هبة إلهية تدفعنا للانجذاب نحو "الحياة الأبدية"، حيث بهاء المجد الأبدي. نتمتع في السماء بمعرفة كاملة للسيد المسيح ورؤيته وكمال الاتحاد معه والثبوت فيه، فتكون له "الحياة الأبدية". "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ١٧: ٣).

كما أن الكلمة هو الحياة الخالقة واهبة الحياة المخلوقة، هكذا هو النور الجوهري الخاص بالطبيعة الإلهية والذي لا يُدني منه، يشرق علينا بنعمته فنصير نورًا يعكس بهاء نوره أينما حللنا. عندما أعلن السيد نفسه لشاول الطرسوسي، قال شاول: "أبرق حولي من السماء نور عظيم، فسقطت على الأرض" (أع ٢٢: ٧).

❖ يدعوه كلاً من "**النور**" و"**الحياة**". فإنه يهبنا النور مجانًا، هذا الذي يصدر عن المعرفة، والحياة التي تتبعه. في اختصار لا يكفي اسم واحد ولا اثنان أو ثلاثة أو أكثر أن يعلمنا ما يخص الله. يلزمنا أن نكون مستعدين أن ندرك سماته الغامضة بوسائل كثيرة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح بكونه الحياة، أو مصدر الحياة، لا يمكن إلا أن يكون أزليًا، وإلا فمن وهب الحياة إن كان هو نفسه غير موجود في وقتٍ ما؟

❖ هو الحياة... التي بلا بداية ولا نهاية، فإنها بهذا تكون بالحقيقة الحياة كما يلزم. فإنه إن كان يوجد وقت ما لم تكن فيه الحياة، فكيف يمكنها أن تكون حياة للآخرين إن كانت هي نفسها غير موجودة؟![2]

---

[1] *Homily 2:8.*
[2] *Homily 4:3.*

❖ يقول يوحنا عن المسيح: "**فيه كانت الحياة**"، فكما أن الآب يمتلك الحياة في ذاته، هكذا أعطى الابن أن يمتلك الحياة في ذاته.

لم يقل يوحنا: "والحياة كانت نور اليهود"، لكنه قال بطريقة جامعة: "**والحياة كانت نور الناس**"، لأن النور لم يكن لليهود وحدهم وإنما مقدم للجميع عامة، فقد جاءوا إلى هذه المعرفة بعينها، إذ أن هذا النور وُضع مشاعًا للكل.

وإن سألت: ولأي سبب لم يضف "الملائكة" للناس لكنه قال: "**والحياة كانت نور الناس**"؟ نقول: لأن مقاله في الوقت الحاضر مُقدم لطبيعة البشر، لهم قد جاء يحمل الأخبار السارة للعطايا الصالحة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليس شيء مخلوق صُنع بدونه، لأنه هو الحياة التي جعلت الخليقة ممكنة[2].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

❖ "**فيه كانت الحياة**": إنه يمنح الخليقة نعمة الوجود، يعطي أيضًا نعمة البقاء، ويمنح من عنده الأبدية للكائنات التي بطبيعتها ليست أبدية. فيصبح بذلك هو الحياة لكل من جاء إلى الوجود، لكي يبقى في الحياة حسب حدود طبيعته.

❖ لو كان الابن ليس من جوهر الآب بل هو من خارجه لصار خاضعًا للآب كالمخلوقات، **فكيف إذن يحيي كل الأشياء، وهو من بين الأشياء المخلوقة؟**... كيف نفهم كلمات الرسول بولس الخاصة بطبيعة الله: "الذي يُحي الكل" (١ تي ٦: ١٣) لو كان الابن مخلوقًا، وهو قادر على أن يحي الكل، لأصبحت الخليقة قادرة على أن تحيي نفسها، وليست محتاجة بالمرة لله، ولم يعد في الطبيعة الإلهية ما يميزها عن المخلوقات، ولأصبحت مثل الله قادرة على أن تفعل ما يفعله الله.

❖ إذا لم يكن الابن من جوهر الله الآب... فكيف يمكن للمرتل وهو يرى أنه لأمر عجيب يستحق الإعجاب في ذلك الذي هو بالطبيعة الله: "بنورك نعاين النور" (مز ٣٦: ٩)، **وإذا كان الابن كمخلوقٍ ينير كل الأشياء المخلوقة؟ إذن الخليقة تنير نفسها ولا تحتاج لنور الله خالقها.**

---

[1] *Homily 5:3.*
[2] *On the trinity 2 (20).*

القديس كيرلس الكبير

❖ من يريد أن يقتني هذا الكلمة، من يريد أن يكون له الكلمة، لا يبحث عن شيء خارج عنه ليقدمه، بل يقدم نفسه. وإذ يفعل ذلك لا يفقد ذاته كمن يفقد الثمن عندما يشتري شيئًا[1].

❖ من يقتني الكلمة فليقدم نفسه؛ هذا هو ثمن الكلمة. وكما قيل أن الذي يعطي لا يخسر نفسه، بل يقتني الكلمة الذي يهب ذاته له، كما يربح نفسه أيضًا في الكلمة واهب ذاته[2].

❖ نقرأ في الكتاب المقدس عن الحكمة: "إنها بهاء النور السرمدي". مرة أخرى نقرأ: "مرآة عظمة الله التي بلا عيب" (حك ٧: ٢٦)... من هذا لنأخذ تماثلاً فنجد مشاركة بين أمرين معاصرين منها ندرك المشاركة في السرمدية. النار تبعث النور، والنور يبعث النار. فإن سألنا أيهما من الآخر. كل يوم ونحن نشعل شمعة نتذكر أمرًا غير منظور ولا موصوف، أن الشمعة كما لو كانت في فهمنا يجب أن تُنار في ليل هذا العالم... **قدم لي نارًا بلا بهاء، فأصدق أن الآب كان بدون الابن**[3].

القديس أغسطينوس

يرى **العلامة أوريجينوس** أن المسيح جاء روحيًا قبل مجيئه جسديًا. جاء في العهد القديم إلى الكاملين الذين صاروا ناضجين وليسوا أطفالاً في عهدة معلمين ومربين، إذ بلغوا إلى ملء زمانهم الروحي (غلا ٤: ٤)، مثل الآباء البطاركة والأنبياء الذين تأملوا مجد المسيح. وكما افتقد المسيح الكاملين قبل رحلته المنظورة حسب الجسد هكذا لا يفتقد الذين بقوا أطفالاً بعد مجيئه ولا يريدون النضوج[4].

❖ إن فهمنا أن "**فيه كانت الحياة**" ذاك القائل: "أنا هو الحياة" (يو ١١: ٢٥)، نقول ليس أحد خارج الإيمان بالمسيح هو حي، لكن كل الذين لا يعيشون لله هم أموات. حياتهم هي حياة للخطية وليس للعقل (اللوغوس)، أو أقول إنها حياة الموت[5].

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 67:1.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 67:2.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 67:11.*
[4] *Commentary on John, Book 1:37– 38.*
[5] *Commentary on John, Book 2:115.*

❖ لنتطلع أولاً إلى العبارة: "إنه ليس إله أموات بل إله أحياء" (مر ١٢: ٢٧)، التي تعادل القول: "ليس إله خطاة بل إله قديسين"... إنه إله الآباء وكل القديسين. لا يجد أحد تسجيلاً في أي موضع أن الله إله أي أحد شرير. لذلك إن كان هو إله القديسين وقد قيل أنه إله الأحياء، فالقديسون هم أحياء، والأحياء هم قديسون. ليس قديس خارجًا عن الأحياء، **ولا يُدعى أحد حيًا إن لم يكن له مع حياته حقيقة أنه قديس**[١].

❖ إن كانت الحياة تعادل "**نور الناس**"، فإنه ليس أحد في الظلمة هو حي، وليس أحد حي هو في الظلمة، بل كل من هو حي هو أيضًا في النور، وكل من في النور هو حي. لهذا فإن من هو حي وحده هو ابن النور، وابن النور هو ذاك الذي تشرق أعماله أمام الناس (مت ٥: ١٦)[٢].

❖ يقول بولس أنه كان قبلاً "ظلمة والآن نور في الرب" (١ كو ٢: ١٤–١٥). هكذا **يمكن للظلمة أن تتحول إلى نور**. إنه ليس من الصعوبة لمن يدرك إمكانية كل إنسان أن يتغير إلى ما هو أسوأ أو ما هو أفضل[٣].

❖ إنه يمكن لمن يملك نور الناس ويشترك في أشعته أن يحقق أعمال النور ويعرف نور المعرفة (هو ١٠: ١٢ *LXX*) لأنه مستنير. لكن يلزمنا أيضًا أن نأخذ بعين الاعتبار الحالة التي للضد، أي أن كل من الأعمال الشريرة والمدعوة معرفة ليست حسب الحق، هذه تملك أسس الظلمة[٤].

العلامة أوريجينوس

❖ هذا النوع من النور لا يخص الحواس بل العقل، ينير النفس ذاتها. وإذ يقول المسيح نفسه فيما بعد: "لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب" (يو ٥: ٤٤)، فإنه يسبق الرسول في هذا الموضع ويقدم اعتراضًا معلنًا أنه هو (الابن) الذي "ينير" [٩]، فإنكم وإن سمعتم قولاً كهذا عن الآب فلا تظنوا أن هذا يخص الآب وحده، وإنما يخص الابن أيضًا. إنه يقول: "كل ما هو للآب فهو لي" (يو ١٥: ١٦)[٥].

---

[1] *Commentary on John, Book 2:118*
[2] *Commentary on John, Book 2:132.*
[3] *Commentary on John, Book 2:136.*
[4] *Commentary on John, Book 2:158.*
[5] *Homilies on St. John, Hom. 5:3.*

❖ "**والنور يضيء في الظلمة**" [٥]. يدعو الموت والخطأ ظلمة. فإن النور موضوع الحواس لا يشرق في الظلمة بل خارجًا عنها؛ أما كرازة المسيح فتشرق في وسط الخطأ المسيطر فتبدده. باحتماله الموت غلب الموت، وشفى الذين أُمسكوا فعلاً فيه. هكذا لا يقدر الموت أن يغلبها ولا الخطأ، لأنها بهية في كل موضع، ومشرقة بقوته اللائقة به[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نور الأذهان أسمى من الأذهان ويتعدى كل الأذهان. هذه هي الحياة التي بها كان كل شيء[٢].

❖ لا تكونوا أيها البشر في الظلمة، في عدم الإيمان، في الظلم، في الشر، في السلب، في الطمع محبين للعالم، فإن هذه في الظلمة. **النور ليس غائبًا، بل أنتم الغائبون عن النور**[٣].

القديس أغسطينوس

"**والنور يضيء في الظلمة،**

والظلمة لم تدركه" **[٥]**.

عمل الكلمة "شمس البر" أن يشرق بنوره على العالم، لكنه لا يلزم الذين في الظلمة أن يقبلوا نوره. الإنسان الذي يرفض النور، ويتمسك بالظلمة، يصير ظلمة لا تُدرك النور ولا تطيقه. كما إن الذي يقبل النور يصير نورًا للعالم ولا يطيق الظلمة.

إن كان الكلمة المتجسد هو "النور الحقيقي"، فإن إبليس باعتزاله مصدر النور صار "ظلمة" يبذل كل الجهد ليجتذب البشرية نحو مملكته، فيحمل سلطانًا عليهم. لهذا دعاه السيد المسيح "سلطان الظلمة" (لو ٢٢: ٥٣).

تقوم مملكة الظلمة على غياب النور الحقيقي، حيث تنفصل عن الكلمة الإلهي، فلا تكون لها "الحياة" ولا "النور" ولا "الحق" ولا "السلام"، بل لها أعمال الظلمة من موت روحي وبطلان وكذب وبغضة وانشقاقات وفساد الخ.

لا تدرك الظلمة النور ولا تطيقه، لذا تأخذ موقف العداوة منه لعلها تحجز النور عنه. وقد ظنت الظلمة إنها قادرة أن تطفئ شمس البرّ بصلبه، ولم تدرك أنه بالصليب حطمت نفسها، ليشرق شمس

---

[1] *Homily 5:3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 3:5.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 3:5.*

البرّ على الجالسين في الظلمة. "الشعب السالك في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا؛ الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور" (إش ٩: ٢).

❖ "**الظلمة**" هي الطبيعة التي تحتاج إلى استنارة، أي الطبيعة المخلوقة... يعلن أن الخليقة العاقلة بدون الطبيعة الإلهية هي ظلمة، وهي عاجزة عن أن تلد شيئًا من نفسها وبقدراتها.

❖ يشرق الكلمة على كل الأشياء القادرة أن تستقبل إشعاعه وإنارته.

❖ الابن الكلمة غير معروف عند الظلمة، لأن المخلوق العاقل على الأرض، أي الإنسان، عبَدَ المخلوق دون الخالق (رو ١: ٢٥). إنه لم يدرك النور، لأنه لم يعرف الخالق.

القديس كيرلس الكبير

❖ النور يضيء في الظلمة، في هذه الحياة وفي الجسد، والظلمة تطارده، لكنها لن تهزمه. أقصد أن القوة المضادة تثب في عارها ضد آدم المنظور لكنها تصطدم بالله فتنهزم، حتى إذ ننزع الظلمة نقترب إلى النور، عندئذ نصير نورًا كاملاً، أبناء النور الكامل[1].

القديس غريغوريوس اللاهوتي

❖ يقول: "**الظلمة لم تدركه**"، إذ من المستحيل أن يوجد المسيح مقهورًا، ولا يمكن أن يسكن في النفوس التي لا تريد أن تستنير. لكن لا تضطربوا إن النور لا يضم الكل، فإنه لا يحل بالقسر والإلزام بل برضى الشخص وقبوله يحضرنا الله إليه. لا تغلقوا أبوابكم في وجه هذا النور، فتتمتعون بسعادة عظيمة. لكن هذا النور يحل بالإيمان. وإذ يحل ينير بفيضٍ على من يقبله. وإن سلكتم الحياة الطاهرة اللائقة بالنور يبقي ساكنًا في الداخل بلا توقف، إذ يقول: "إن أحبني أحد يحفظ كلامي وإليه نأتي أنا وأبي، وعنده نصنع منزلاً" (راجع يو ١٤: ٢٣).

وكما أن الشخص لا يقدر أن يتمتع بنور الشمس ما لم يفتح عينيه، هكذا لا يقدر أحد أن يشترك في هذا النور الأبدي ما لم يفتح عين نفسه ويجعلها حاذقة البصر بكل وسيلة.

كيف يحدث هذا؟ عندما تتطهر النفس من كل الأهواء. فإن الخطية ظلمة، وظلمة عميقة، كما هو واضح من أن الناس يمارسونها لا شعوريًا وخفية. "لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتي إلى النور، لئلا توبخ أعماله" (يو ٣: ٢٠) "لأن الأمور الحادثة منهم سرًا ذكرها أيضا قبيح" (أف

[1] *Oration 39, on the Holy Lights (Epiphany),2.*

٥: ١٢). وكما أنه في الظلمة لا يعرف الشخص صديقًا ولا عدوًا، ولا يقدر أن يدرك أية سمة من سمات الأشياء، هكذا أيضًا في الخطية. فالذي يطمع في ربح أكثر لا يميز بين صديقٍ وعدوٍ، والحاسد يحمل عداوة حتى لمن هو ملتصق به جدًا. وواضع المكائد دومًا في صراع مع الكل على السواء...

في اختصار من يرتكب الخطية ليس بأفضل من السكارى والمجانين. وكما أنه بالليل يبدو لنا الخشب والقصدير والحديد والفضة والذهب والحجارة الكريمة متشابهة بسبب غياب النور الذي به نميز بينهم، هكذا من يسلك حياة فاسدة لا يميز سمو ضبط النفس ولا جمال الفلسفة (الحكمة)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من ينصرف عن النور الحقيقي، أي عن الله، يصير للحال أعمى، ومع هذا لا يشعر بعقوبته وإن كان قد نالها فعلاً[2].

القديس أغسطينوس

❖ يعبر عن شوقنا بالمرتل: "ويل لي فقد طالت غربتي عليّ، فأسكن معهم في قيدار، تقوم نفسي برحلة طويلة" (مز ١٢٠: ٥-٦ *Vulgate*). "قيدار" معناها "**ظلمة**"، والظلمة تمثل العالم الحاضر، إذ قيل لنا: "**النور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه**" [٥][3].

القديس جيروم

"**كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا**" **[٦].**

فعل "**كان**" هنا في اليونانية يعني "صار" على عكس فعل "كان" في الآية ١ "كان الكلمة"، إذ جاء في صيغة فعل الكينونة، بمعني أنه كائن لا زمني.

لم يقل الإنجيلي: "أرسل الله يوحنا المعمدان" بل ركز على الإرسالية ذاتها "**إنسان مرسل من الله**"، غايتها الشهادة لشخص الكلمة الإلهي بكونه النور المُشرق على الجالسين في الظلمة.

❖ إذا سمعت أن يوحنا مُرسل من الله فلا تظن أنه يتكلم بأقواله، لكنه إنما يتكلم أقوال مرسله، ولهذا سمى ملاكًا (ملا ٣: ١)، وفضيلة الملاك ألا يقول قولاً من ذاته[4].

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 5:3-4.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 67:5.*
[3] *Letter 39:3.*
[4] *Homilies on St. John, Hom. 6:1.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"هذا جاء للشهادة ليشهد للنور،

لكي يؤمن الكل بواسطته" [٧].

ما يشغل ذهن الإنجيلي يوحنا هو الإعلان عن شخص السيد المسيح، حتى نؤمن به، فنتمتع بالحياة الأبدية نورًا لنا في هذا العالم، ومجدًا في الحياة العتيدة، لذا قدم شهادات كثيرة. فتكرر فعل "يشهد" ٣٣ مرة في هذا السفر، واسم "شهادة " ١٤ مرة.

أما الشهادة فهي شهادة الآب له (٥: ٣١)، وشهادته لنفسه (٨: ١٤)، وشهادة الروح القدس (١٥: ٢٦)، وشهادة أعمال المسيح له (٥: ٣٦)، وشهادة الآباء والأنبياء (٥: ٣٩)، وشهادة يوحنا المعمدان (١: ٧)، وشهادة التلاميذ (١٥: ٢٧)، وأيضا شهدت له السامرية والسامريين (ص ٤) والمولود أعمى الذي أبصر (ص ٩)، وبعد قيامته شهد توما له.

يقول **العلامة أوريجينوس** أن الصوت شهد للكلمة مقدمًا ست شهادات:

١. شهد عن عظمته إذ يأتي بعده مع أنه الأزلي السابق له، وأنه واهب النعم والمخبر عن الآب (يو ١: ١٥–١٨). يرى أن هذه العبارات كلها هي شهادة القديس يوحنا السابق وليس كما يظن البعض أن جزءً منها هو شهادة الإنجيلي يوحنا.

٢. شهادته أمام إرسالية الكهنة واللاويين القادمين من أورشليم (يو ١: ١٩–٢٧).

٣. للمرة الثالثة يشهد عن عظمة المسيح موضحًا أنه غير مستحق أن يحل سيور حذائه (يو ١: ٢٦–٢٧) وهو قائم في وسطهم ولم يعرفوه.

٤. شهادته في اليوم التالي أنه حمل الله الذي يرفع خطية العالم (يو ١: ٢٩).

٥. شهادته له بعد أن رأى الروح نازلاً ومستقرًا عليه (يو ١: ٣٢–٣٤).

٦. للمرة السادسة يشهد أمام اثنين من تلاميذه أنه حمل الله (يو ١: ٣٥–٣٦)[1].

❖ لعل قائل يقول: ما معنى هذا؟ هل يشهد العبد لسيده؟!... أقول له ما قاله المسيح لليهود: "وأنا لا أقبل شهادة من إنسان" (يو ٥: ٣٤). وإن قلت: فإن كان المسيح لا يحتاج إلى هذه الشهادة، فلِمَ أرسل الله يوحنا؟! أقول لك: لم يرسل يوحنا لأن المسيح محتاج إلى شهادته، فهذا تجديف خطير.

[1] *Commentary on John, Book 2:212 – 218.*

فلماذا إذن؟ يخبرنا يوحنا نفسه، إذ يقول: "لكي يؤمن الكل بواسطته"... لا تظن أن السبب أن يوحنا المعمدان حمل الشهادة لكي يضيف شيئًا إلى الثقة في سيده. لا، وإنما لكي يؤمن أولئك الذين من ذات طبقته (البشر)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يفترض الإنجيلي أنه ملتزم بتقديم شهادته وحده عن المخلص، بالرغم من أنها شهادة حقّة، حتى لا يتعدى الناموس (الذين يطالب بشاهدين أو ثلاثة)... خصوصًا وهو يعلن عن أمور تعلو على الإدراك، بل يضم إليه يوحنا المعمدان.

❖ شاع كلام مستتر عند البعض بأن يوحنا المعمدان لم يكن إنسانًا حقيقيًا، بل أحد الملائكة القديسين في السماء، استخدم جسدًا، وأرسله الله لكي يعظ الناس. تعتمد هذه الخرافة على عدم إدراك لما قاله الله: "ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ الطريق أمامك" (مت ١١: ١٠؛ ملا ٣: ١). وخطأ هؤلاء الذين ابتعدوا عن الحق هو عدم فهمهم لمعنى كلمة "ملاك". فمعناها خادم أو رسول، دون تحديد لحقيقة جوهر هذا الخادم.

القديس كيرلس الكبير

"لم يكن هو النور بل ليشهد للنور" [٨].

❖ فضل المعمدان أن يعيش في البرية بعيدًا عن ترف المدن، وأعلن عن عزمٍ ثابتٍ في ممارسة الفضيلة، وارتقى إلى قمة البرّ الذي يمكن أن يصل إليه إنسان، مما جعل البعض يندهش من أسلوب حياته، بل أن البعض تخيّلوا أنه هو المسيح... تخيّل البعض أنه هو النور نفسه.

❖ قيل عن يوحنا المعمدان: "أقمته سراجًا لمسيحي" (٥: ٣٥). مع أنه يُقال عن القديسين أنهم نور... لكننا لا نجهل النعمة التي نالوها من "النور". لأن النور في السراج، وليس من السراج، ولا نور القديسين هو من القديسين، بل باستنارة الحق صاروا "نورًا في العالم، متمسكين بكلمة الحياة" (في ٢: ١٥-١٦).

القديس كيرلس الكبير

❖ لم يقل يوحنا البشير هذا بلا سبب، ولا كان قوله باطلاً، لكن إذ تحقق عندنا في أكثر الجهات أن

[1] *Homilies on St. John, Hom. 6:1.*

الشاهد أعظم من المشهود له وأكثر منه ثقة، فلكي لا يظن أحد في يوحنا المعمدان هذا التوهم أبطل يوحنا البشير في الحال من بداية قوله هذا التوهم الخبيث واقتلعه من أصله، وأظهر من هو هذا الشاهد، ومن هو ذاك المشهود له، وما هو الفرق بين الشاهد وبين المشهود له[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هكذا كان يوحنا نورًا، لكنه لم يكن النور الحقيقي، لأنه لو لم يستنِر لكان فيه ظلمة، لكنه بالاستنارة صار نورًا[2].

القديس أغسطينوس

"**كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيًا إلى العالم**" **[٩]**.

كان هذا التعبير شائعًا بين معلمي اليهود، أن كل إنسان يُولد يرى النور الذي كان محرومًا منه حين كان في رحم أمه. هنا النور يعني الحياة الجديدة، فالطفل المولود أعمى ويُحسب بمولده أنه قد رأى النور، أي انطلق بميلاده إلى حياة جديدة عما كان عليه قبل مولده. هكذا أشرق السيد المسيح بنور حضرته على عالمٍ جديدٍ يتمتع به كل من يُولد روحيًا.

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن الإيمان هو السراج، وكلمة الله المتجسد هو النور، إذ يقول: [كلمة الله هو موضوع إيماننا، وهو النور. فالسراج هو الإيمان، إذ كان هو النور الحقيقي الذي يضيء لكل إنسانٍ آتيًا إلى العالم (يو ١: ٩)[3].]

"**الحقيقي**" تفيد أنه النور الوحيد القادر أن يكشف عن الحق الكلي، ويخبر عن أسرار الإلهيات، فهو نور كامل دائم لا ينقطع. هذا النور الحقيقي وحده قادر أن يدخل إلى معرفة الآب، الإله الحقيقي **(**يو ٣: ١٧**)**. يقدم لنا نفسه **الحق الإلهي الحقيقي** الكامل، **والخبز الحقيقي** النازل من السماء، **والكرمة الحقيقية** حيث نتمتع بالاتحاد معه كأغصان فيه، وبه نصير **ساجدين حقيقيين** نسجد له بالروح والحق.

إنه النور "**الذي ينير كل إنسان**" **[٩]**، إذ يريد أن الكل يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون، هذا من جانبه، إذ لا يريد أن يحجز نفسه عن أحد، لكنه لا يلزم أحدًا بقبوله.

لم يقل "قد أنار" بل "**ينير**" إذ يفيد الفعل حالة استمرار دائم، يبقى باب محبته مفتوحًا على الدوام،

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 6:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 2:6.*
[3] *In lus. 11:33-36.*

بل وينزل إلى كل أحدٍ ليدعوه للتمتع بنوره. فمن حق كل إنسان أن يقبله ويتمتع به.

إنه النور الذي من يقبله يتمتع باستنارة إلهية فائقة للعقل، من يرفضه يكون كمن تصيب الشمس عينيه الضعيفتين، فيصير أعمي. "أعمي عيونهم، وأغلظ قلوبهم" (يو ١٢: ٤٠)؛ وكما قال السيد: "لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون، ويعمي الذين يبصرون" (يو ٩: ٣٩).

"**آتيًا إلى العالم**" لا تعود على "كل إنسان" بل على "النور الحقيقي"، إذ جاء الكلمة النور الحقيقي بالتجسد إلى العالم. فالإنارة للبشرية لم تتحقق بإشراقه عليهم من بعيد كما تشرق الشمس على أرضنا، وإنما بحضرته إلى عالمنا وحلوله في وسطنا.

❖ أين هم القائلون إن المسيح ليس إلهًا حقيقيًا؟ لأنه دُعي هنا "**النور الحقيقي**" والحق بذاته والحياة بذاتها.

❖ إن كان ينير لكل إنسان آتٍ إلى العالم، كيف لا يزال عدد كبير لم يستنر بعد؟ لأنه ليس الجميع قد عرفوا سلطان المسيح. كيف إذن يعطي نورًا لكل إنسان؟ إنه يعطي نورًا للكل قدر ما يتقبل الشخص النور فيه. أما الذين لا يرغبون فإنهم يغلقون عيون أذهانهم، ويرفضون أشعة هذا النور، ظلمتهم ليست من طبيعة النور بل من شرهم إذ تحولوا عن النور[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ سنصير كالنور باقترابنا إلى نور المسيح الحقيقي. إن تركنا جو الظلمة هذا الذي للأرض وسكنا في الأعالي، نصير نورًا كما يقول الرب (يو ٩: ٥؛ ١: ٩). أشرق النور الحقيقي الذي يضيء في الظلمة ونزل إلينا؛ إلا إذا انتشرت قذارة الخطية على قلوبنا فإنها تعتم بهاء نورنا[2].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ من كان أصله العدم لا يملك أن يجود، وإنما ينالون أشعة النور الحقيقي الذي يشع منهم عندما يشتركون في الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤). وعندما يتشبهون بالطبيعة الإلهية يدعون نورًا، ويصيرون نورًا.

---

[1] *Hom. 8 PG 59:48.*
[2] *On Virginity, 11.*

❖ إذا كان الابن هو بهاء (إشعاع) مجد الله الآب لذلك فهو النور الحقيقي.

❖ إذا كان عقل الإنسان يُدعى سراجًا، وهو ما يشير إليه المزمور: "أنت تضيء سراجي"، فكيف يُقال عنا أننا نحن نور؟ لأن السراج يحصل على نوره من مصدرٍ آخر. أما إذا كان الابن الوحيد وحده هو الذي ينير الظلمة التي فينا، فهو النور الحقيقي، وأما نحن فلسنا النور الحقيقي نهائيًا.

❖ إذا لم يكن الابن وحده بالحق هو النور، بل هذا يخص المخلوقات أيضًا، فماذا نقول عما كُتب عنا: "ولكنكم أنتم جنس مختار، كهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب مختار، لكي تختبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب" (١ بط ٢: ٩). فما هي الظلمة التي فينا؟ أو ما هي الظلمة التي كنا فيها، إن كنا نحن بالحقيقة النور؟

❖ كثيرًا ما أشار الكتاب المقدس إلى السيد المسيح بكونه النور الإلهي أو نور الآب (مز ٤: ٦؛ ٩٧: ١١؛ ٨٩: ١٥؛ ١١٢: ٤؛ إش ٦٠: ١، ٤٢: ٦، ٢: ٥؛ يو ١٢: ٣٥-٣٦؛ ١ يو ٢: ٩-١٠).

القديس كيرلس الكبير

❖ لأن هذا النور الذي للشمس المنظورة ينير حتى لأتفه الحيوانات وأصغرها. إذن فالبرّ والحكمة هما النور الحقيقي الذي يتوقف العقل عن أن يراها عندما يسوده ارتباك الغضب كما بسحابة. كما لو أن الشمس نزلت على غضب الإنسان. هكذا أيضًا في هذه السفينة حين يكون المسيح غائبًا، يهتز كل واحد بعواصفه وشروره وشهواته الشريرة[1].

❖ أشرق الرب يسوع نفسه ببهاء كالشمس. صار ثوبه أبيض كالثلج، أشرق هو نفسه كالشمس، مشيرًا إلى أنه النور الذي يضيء كل إنسانٍ آتٍ إلى العالم. ما هذه الشمس لعيني الجسد، هكذا هو بالنسبة لعيني القلب[2].

القديس أغسطينوس

❖ الصديق المضيء يكون في نهارٍ دائمٍ طول حياته، نهار لا تقطعه ظلمة، وهو يسبح الله سبع مرات، لأنه صار مرتفعًا عن هذا العالم الذي خُلق في ستة أيام.

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 25:5.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 28:2.*

عندما أبلغ فردوس الله، وأتأمل غاية الخلق وحكمة الله، اعترف أن أحكام الله عدل.

القديس ديديموس الضرير

"**كان في العالم،**

وكون العالم به،

ولم يعرفه العالم" **[١٠]**.

يا للعجب إنه خالق العالم بقدرته، وقد نزل إليه ليحل في وسطنا، ويبعث بنوره إلينا وفينا، لكن العالم الشرير رفضه، مفضلاً جهالة الظلمة عن معرفة النور.

إن كان الإنسان قد صار ظلمة فهو بلا عذر، وظلمته ليست من صنع خالقه، إنما هي من فعل إرادته الشريرة الرافضة للنور الحقيقي.

❖ يقول يوحنا عن المسيح: "**كان في العالم، وكوّن العالم به**". بهذا القول يصعد بك إلى فوق أيضًا، إلى ما قبل الدهور، وجود الوحيد، لأنه من يسمع أن به تكوّن هذا العالم كله فإنه حتى وإن كان فاقدًا الحس جدًا، ولو كان عدوًا، ولو كان محاربًا لمجد الله، فسيضطر أن يعترف به طائعًا.

يقول: "**ولم يعرفه العالم**" إذ أنه يوجد من انحرفوا عن تمييزهم، وقد صرعوا وجنوا جنونًا في أقصى غايته، ويوجد من عرفوه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**والعالم لم يعرفه**"، ليس لأنه غير معروف، وإنما لأن العالم ضعيف. فالابن ينير، لكن الخليقة تبعثر النعمة. لقد أعطى الكلمة للخليقة النظر لكي تدركه كإله بالطبيعة، ولكن الخليقة بددت العطية، وجعلت الكائنات حاجزًا يمنعها عن التأمل في الله، فلم تفكر إلا في ذاتها، ودفنت عطية الاستنارة بالإهمال.

❖ العالم في الحقيقة مُتهم بعدم الشكر وعدم إدراك خالقه... هذه الحقيقة يعبر عنها النبي، إذ يترنم بخصوص بني إسرائيل: "ونظرت لكي يثمر عنبًا، ولكنه أثمر عنبًا رديئًا وشوكًا" (إش ٥: ٤ *LXX*).

القديس كيرلس الكبير

❖ ليس العالم الذي خلقه هو الذي لم يعرفه.

ما هو العالم الذي خلقه؟ السماء والأرض.

كيف لم تعرفه السماء هذه التي عند آلامه أظلمت الشمس؟

كيف لم تعرفه الأرض التي تشققت عندما عُلق على الصليب؟

"**العالم لم يعرفه**"، هذا الذي قيل عن رئيسه: "هوذا رئيس هذا العالم آت، ولا يجد له فيَّ شيء" (يو ١٤: ٣٠). يُدعى الأشرار "العالم"؛ يُدعى غير المؤمنين "العالم". أخذوا هذا الاسم من ذاك الذي يحبونه.

بحب الله نصير آلهة، وبحب العالم نصير "العالم". لكن "الله في المسيح مصالحًا العالم لنفسه" (٢ كو ٥: ١٩).

❖ قدمت كل الأشياء من كل الجوانب شهادة له، ولكن من الذين لم يعرفوه؟ أولئك الذين بسبب محبتهم للعالم دُعوا "**العالم**"[١].

❖ خلق العالم به، السماء والأرض وكل ما فيهما. "**العالم لم يعرفه**"، محبو العالم، ومحتقرو الله، هذا هو العالم الذي لم يعرفه. فالعالم شرير، لأن الذين يفضلون العالم عن الله هم أشرار[٢].

❖ "**والعالم لم يعرفه**"، ليس العالم الذي قيل عنه: "الله في المسيح مصالحًا العالم فيه" (٢ كو ٥: ١٩).

يوجد عالم شرير، ويوجد عالم صالح. العالم الشرير هم الأشرار الذين في هذا العالم. والعالم الصالح هم كل الصالحين في العالم. هذا ما نلاحظه كثيرًا في الحقل. فنقول: هذا الحقل مملوء بالحنطة، كما نقول أيضًا، ونقول بالحق: هذا الحقل مملوء قشًا. وأيضًا نقول بالنسبة لشجرةٍ ما أنها مملوءة ثمرًا، ويقول آخر عنها إنها مملوءة أوراقًا. وكلٍ من القائل بأنها مملوءة ثمرًا والقائل مملوءة أوراقًا صادقان. فليس امتلاؤها بالأوراق ينزع امتلاءها بالثمار. ولا امتلاؤها بالثمار ينزع كثرة أوراقها[٣].

❖ العالم شرير لأن سكانه أشرار، كما أن البيت شرير ليس بسبب الحوائط وإنما بسبب سكانه[٤].

القديس أغسطينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 2:11.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 46:5.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 31:3.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate*

"**إلى خاصته جاء،**

وخاصته لم تقبله" **[١١]**.

خلق الله الإنسان لا ليخدمه، فهو ليس بمحتاج إلى خدمة بشرية، لكنه في حبه الفريد للإنسان يريد أن يجعل منه خاصته وأهل بيته. فقد "سار أخنوخ مع الله ولم يوجد، لأن الله أخذه" (تك ٥: ٢٤). بينما لا نعلم كيف أخذه، ولا إلى أين ذهب به، لكنه اختطفه ليكون معه على الدوام كأحد أفراد العائلة الإلهية.

يبرز الله حبه الفائق لمؤمنيه، فينسب نفسه إليهم قائلاً: "أنا إله إبراهيم، وإله اسحق، وإله يعقوب". ويكشف موسى النبي عن هذه العلاقة على مستوي الجماعة حيث يحسب الله شعبه نصيبه الشخصي: "إن قسم الرب هو شعبه، يعقوب حبل نصيبه" (تث ٣٢) "إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض " (تث ٧: ٦)، وكثيرًا ما أعلن الأنبياء إن الله اقتنى شعبه لنفسه خاصة.

وقد جاء الكلمة المتجسد وسط هذه الخاصة، لكن خاصته لم تقبله. كان الرفض جماعيًا من رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين ورؤساء الشعب بل واشترك معهم أحد التلاميذ. وتحقق القول: "يبغضونني بلا سبب" (مز ٣٩: ١٩؛ ٦٩: ٤). لقد صرخوا: "دمه علينا وعلي أولادنا" (مت ٢٧: ٢٥).

❖ سمع الرب صلوات الأنبياء واهتم الآب ألا يهلك جنسنا، فأرسل ابنه من السماء كشافٍ. يقول أحد الأنبياء: "يأتي بغتة السيد الذي تطلبونه" (ملا ٣: ١) إلى أين؟ "إلى هيكله"! يقول نبي آخر عند سماعه هذا: "على جبلٍ عالٍ اصعدي يا مبشرة صهيون... قولي لمدن يهوذا". ماذا أقول؟ "هوذا إلهك. هوذا السيد الرب بقوة يأتي" (إش ٤٠: ٩-١٠). والرب نفسه يقول: "ها أنا ذا آتٍ وأسكن في وسطكم" (زك ٢: ١٠). لكن الإسرائيليين رفضوا الخلاص، لهذا "جئت لأجمع كل الأمم والألسنة" (إش ٦٦: ١٨). إذ "**جاء إلى خاصته، وخاصته لم تقبله**". إنك تجيء، فماذا تهب الأمم؟ "جئت لأجمع كل الأمم والألسنة، وأجعل فيهم آية" (إش ٦٦: ١٩). لأنه متى عُلقت على الصليب أعطي جميع جنودي ختمًا على جباههم[١].

القديس كيرلس الأورشليمي

---

[١] مقال ١٢: ٨.

❖ تأمل قول يوحنا: "**إلى خاصته جاء**"، ليس لأجل حاجة المسيح، لأنه مستحيل أن تكون الذات الإلهية محتاجة، لكنه جاء من أجل الإحسان إلى خاصته.

وقد جعل يوحنا ملامة هؤلاء اليهود أشد لذعًا عندما قال: "**وخاصته لم تقبله**"، ومع أن المسيح هو الذي جاء إليهم لمنفعتهم إلا أنهم رفضوه، ولم يفعلوا به هذا الفعل فقط، لكنهم أخرجوه إلى خارج كرمه وقتلوه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وأما كل الذين قبلوه، فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله،**

أي المؤمنون باسمه" **[١٢]**.

إن كان قد جاء إلى خاصته، لكن خاصته لم تقبله، فإنه في وسط هذه الخاصة وجدت قلة قليلة أمينة قبلته. هذه القلة طُردت من المجمع، وحرمت من العبادة في الهيكل، ونُظر إليهم كوثنيين، ليسوا من تلاميذ موسى، ولا هم أبناء لإبراهيم الخ. لم يدرك اليهود أن هذه القلة هي خميرة مقدسة لكنيسة الأبكار في السماء، موضع سرور موسى وتهليل إبراهيم ويعقوب؛ يخدمون الهيكل الجديد، ويتمتعون بمجمع القديسين والسمائيين.

إن كان الرب قد دعي شعبه في القديم "إسرائيل ابني البكر" (خر ٤: ٢٢)، فإن هذه الخميرة قد احتلت هذا المركز بصورة فائقة خلال البنوة لله، حيث يصيرون "شركاء الطبيعة الإلهية" (٢ بط ١: ٤).

❖ لقد تبنى العبيد وجعلهم اخوة؛ فدى المسبيين وجعلهم شركاء في الميراث[1].

❖ إن كانوا أبناء الله، إن كانوا قد خلصوا بنعمة المخلص، إن كانوا قد أُشتروا بدمه الثمين، إن كانوا قد وُلدوا من الماء والروح، إن كانوا قد عُينوا لميراث السماء، فهم بالحق أولاد الله[2].

❖ "ورثة الله ووارثون مع المسيح". إنه لا يخشى أن يكون معه شركاء في الميراث، **لأن ميراثه لا ينقص إن ناله كثيرون. بل يصير الوارثون أنفسهم ميراثًا له، ويصير هو بدوره ميراثهم.** اسمع بأية وسيلة صاروا ميراثه: "الرب قال له: أنت ابني وأنا اليوم ولدتك. اسألني فأعطيك الأمم ميراثًا لك" (مز ٢: ٧-٨). اسمع بأية وسيلة يصير هو ميراثهم، يقول في المزامير: "الرب نصيب

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 53:2.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 31:6.*

ميراثي، وكأسي" (مز ١٥: ٥). لنقتنيه وليقتنينا. ليقتنينا بكونه الرب، ولنقتنيه بكونه الخلاص والنور. ماذا يعطي للذين يقبلونه؟ "**أعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، الذين يؤمنون باسمه**" كي يلتصقوا بالخشبة ويعبروا البحر[١].

❖ لا تتعجب يا إنسان أنك تصير ابنًا بالنعمة، أن تولد من الله حسب كلمته. فالكلمة نفسه اختار أولاً أن يولد من إنسان لكي تولد أنت من الله حسب الخلاص، فتقول لنفسك: "ليس بدون سبب أراد الله أن يولد من إنسان، لكن لأنه حسبني ذا أهمية ولكي يجعلني خالدًا، من أجلي ولد كإنسان قابل للموت[٢].

القديس أغسطينوس

❖ وأيضًا كما أن المسيح ابن حقيقي فإننا نصير أبناء عندما نقبل الروح القدس. يقول الكتاب: "إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضًا للخوف بل أخذتم روح التبني" (رو ٨: ١٥)، وإن كنا بالروح القدس قد صرنا أبناء، فواضح أننا في المسيح دعينا أولاًد الله. "**وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاًد الله**" (يو ١: ١٢).

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ لكن التبني في قوتنا أي "بإرادتنا"، إذ يقول يوحنا إن كثيرين "**قبلوه، فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه**". أي لم يكونوا قبل الإيمان أولاد اللُه إنما باختيارهم الإيمان تأهلوا لذلك[٣].

❖ إنه ليس مثلكم أنتم الذين تستنيرون فتصيرون أبناء الله... إذ أنتم أبناء بالتبني كما هو مكتوب: "**أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه. الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله**". حقًا إننا نولد من الماء والروح، لكن المسيح لم يولد من الآب هكذا. إذ في وقت عماد خاطبه قائلاً: "هذا هو ابني" (مت ٣: ١٧). لم يقل" صار ابني" بل "هذا هو ابني" معلنًا أنه "ابن" حتى قبل العماد[٤].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 2:13.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 2:15.*

[٣] مقال ٧: ١٣.

[٤] مقال ١١: ٩.

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ إن سألت: وما الذي ناله أولئك الذين قبلوا المسيح؟ أجبتك: هو قول يوحنا البشير: "**وأما كل الذين قبلوه، فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله**". ويصف البشير تلك العطايا الصالحة للذين قبلوا المسيح ويبيِّنها بألفاظ قليلة بقوله: "**وأما كل الذين قبلوه، فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله**". إن كانوا عبيدًا أو أحرارًا أو وثنيين أو حكماء أو غير حكماء، أو نساءً أو صبيانًا، أو شيوخًا، أو أغنياء، أو فقراء أو رؤساء أو عامة، فكلهم قد تأهلوا لكرامة بعينها، فما الذي يكون معادلاً لهذا التعطف على الناس؟

ومع ذلك فإن النعمة لا ينالها الكل، إنما الذين يريدونها، والمجتهدون في امتلاكها، لأن ذلك في سلطان أولئك وُضع لهم أن يصيروا أولادًا، فإن لم يريدوا فلا تتبعهم النعمة ولا تعمل عملاً يخصها، لأن إعطاء النعمة هو من قبل الله، أما قبول الإيمان فهو للإنسان.

❖ لماذا لم يقل: "جعلهم أبناء الله" بل قال: "**أعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله**"؟ ليظهر أننا محتاجون إلى غيرة عظيمة كي نحفظ صورة البنوة التي انطبعت علينا في العماد، وذلك بأن لا يوجد فينا دنس أو وسخ. وفي نفس الوقت يظهر أنه لا يستطيع أحد أن يأخذ هذا السلطان منا ما لم نحن أولاً نحرم أنفسنا منه... لأنه من وهبنا هذه الكرامة في أيدينا أعظم وأفضل من الكل. وفي نفس الوقت يريد أن يظهر أن النعمة لا تحل على الإنسان بغير إرادته، بل تحل على الذين يرغبون فيها، ويتعبون من أجلها. فإنه في سلطان هؤلاء أن يصيروا أبناءه، حيث أنهم ما لم يختاروا هم ذلك لن تحل النعمة عليهم، ولا يكون لها فاعليتها فيهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**الذين ولدوا ليس من دماءٍ،**

ولا من مشيئة جسد،

ولا من مشيئة رجل،

بل من الله" **[١٣]**.

كان اليهود يطلبون من الأممي لكي يصير دخيلاً أن يمارس ثلاثة أمور: الختان والعماد وتقديم

[1] *Homilies on St. John, Hom. 10:2.*

ذبيحة، بهذا يُحسب أنه وُلد من جديد حيث يصير من شعب الله، له حق التمتع بالعهد الإلهي. أما اليهود في مصر فقد أهملوا الختان، ولم يكن ممكنًا لهم الخلاص من عبودية فرعون والتمتع بالميلاد الجديد ما لم يختتنوا ويقدموا دم الفصح، وكأنه يلزم أن يختلط دمهم بدم الحمل ليتقدسوا ويخلصوا ويصيروا مولودين حديثًا. أما وقد جاء ابن الله الوحيد فقدم البنوة لله خلال الميلاد الروحي بالماء والروح.

كشف الإنجيلي يوحنا عن عمل الكلمة في حياة الناس، فقدمه الخالق الذي به كان كل شيء، ثم أوضح أنه هو "الحياة" واهبة الحياة. هذه الحياة الحقيقية تشرق على الإنسان ليتمتع بالنور الصادر من النور الحقيقي. خلال هذه الاستنارة يتمتع الإنسان بإعلان الله ذاته له فيؤمن، هذا الإيمان يرافقه الميلاد الجديد الروحي من الماء والروح. بهذا الميلاد الجديد الذي من الله الروح نصير باكورة الخليقة الجديدة، وخميرة حية تخمر عجين الأمم. "شاء فولدنا بكلمة الحق، لكي نكون باكورة من خلائقه" (يع ١: ١٨).

إنه ميلاد جديد في نوعه، فهو ليس ثمرة عناصر طبيعية، لأنه ليس من دمٍ. ولا من نتاج غرائز جسدية، لأنه ليس من مشيئة جسد، ولا يتحقق بخطة بشرية، لأنه ليس من مشيئة رجلٍ، إنما هو ميلاد علوي سماوي من الله. إنه ميلاد من الله، ليس للمصدر الطبيعي "الدم" موضع فيه، متحرر من الغرائز الطبيعية ومن القدرات البشرية ومن التخطيط البشري.

جاءت الصيغة في النص اليوناني لكلمة "دماء" بالجمع وليس بالمفرد، لأنه يقصد دماء الآب والأم، وليس يعني "الدم" اليهودي. إذ كان اليهود يفتخرون أنهم من نسل الآباء البطاركة إبراهيم واسحق ويعقوب، دم الجنس المختار.

هذا الميلاد الجديد هو موضع اعتزاز الإنجيلي يوحنا: "انظروا أية محبة أعطانا الله حتى ندعى أولاد الله!" (١ يو ٣: ١). "إن علمتم أنه بار هو، فاعلموا أن كل من يصنع البرّ مولود منه" (١ يو ٢: ٢٩). "نعلم أن كل من ولد من الله لا يخطئ، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه" (١ يو ٥: ٨).

❖ لقد ولدوا من آدم بالضرورة (وليس لهم اختيار في ذلك)... ويولدوا بالمسيح بإرادتهم وبالنعمة.

لا يُلزم البشر أن يولدوا بالمسيح.

إنهم لم يولدوا من آدم لأنهم رغبوا في ذلك. على أي الأحوال كل الذين ولدوا من آدم هم خطاة

بالخطية، وكل الذين ولدوا بالمسيح يتبررون ليس بذواتهم بل فيه...

كان الموت عقوبة الخطايا، وفي الرب كانت هبة الرحمة، وليس عقوبة خطية...

لم تكن فيه أية علة لكي يلزم أن يموت، ومع ذلك مات، أما أنت فلديك علّة فهل ترفض الموت؟...

أنت مت في آدم، قم في المسيح، فالاثنان واجبا الأداء لك.

الآن أنت تؤمن بالمسيح، لا ترتد إلى ما هو واجب خلال آدم.

قيود الخطية لن تلحق بك أبديًا، لأن موت ربك المؤقت ذبح موتك الأبدي. نفس الأمر بالنسبة للنعمة أيها الاخوة، وبالنسبة للحق إذ وُعد بهما وأعلنا عنهما[1].

❖ إذ ينالوا سلطانًا أن يصيروا أبناء الله يولدون من الله. لاحظوا إذن أنهم يولدون من الله "**وليس من دماء**" مثل ميلادهم الأول، مثل ذاك المولد البائس يصدر عن البِؤس. أما الذين يولدون من الله ماذا كانوا قبلاً؟ مما قد وُلدوا أولاً؟ من دماء، من ارتباط دم الذكر والأنثى، من الاتحاد الجسدي للذكر والأنثى؛ من هذا ولدوا.

مما يولدون الآن؟ من الله.

الميلاد الأول من الذكر والأنثى، والثاني من الله والكنيسة[2].

❖ لقد وُلدوا، لكنهم وُلدوا من الله. رحم أمهم هو مياه المعمودية[3].

❖ لا تظنوا أنه أمر عظيم جدًا أن تصيروا أبناء الله، فإنه من أجلكم صار هو ابن الإنسان ذاك الذي هو ابن الله. إن كان قد صار أقل، ذاك الذي كان أكثر، أفلا يستطيع أن يجعل من هذا الأقل الذي هو نحن أن نصير أمرًا أعظم؟

نزل إلينا، أفما نصعد إليه؟

من أجلنا قبل موتنا، أفما يعطينا حياته؟

من أجلكم احتمل شروركم، أفما يعطيكم أموره الصالحة؟[4]

القديس أغسطينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 3:13.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 70:4.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 69:4.*
[4] *Sermon on N.T. Lessons, 69:5.*

❖ يفعل ذلك حتى إذا تأملنا مكانة ولادتنا الأولى، ومذلتها الكائنة بالدماء وبمشيئة الجسد، وعرفنا علو مكانة ولادتنا الثانية بالمعمودية وشرف حسبها الكائنة بالنعمة، سنظهر حينئذ حرصنا العظيم، ونتأهل لعطية من ولدنا، ونظهر في المستقبل غيرة عظيمة، فإنه رعبنا لا يكون بسيطًا أن ندنس ذلك الثوب الجميل بإهمالنا بعد ذلك ومعاصينا، فنُطرح خارج حجال العرس الداخلي مثل العذارى الجاهلات، أو مثل ذاك الذي لم يرتدِ ثوب العرس (مت ٢٥: ٢٢)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. الكلمة صار جسدًا

سرّ الدهور كلها أن الكلمة الإلهي الأزلي صار جسدًا، إذ اتحد اللاهوت بالناسوت، وصار واحدًا منا. من رآه وتلامس معه رأى مجد الابن الوحيد لأبيه كما شهد القديس يوحنا المعمدان بذلك [١٥]، وتمتع بالنعمة والحق [١٧].

"**والكلمة صار جسدًا، وحل بيننا،**

ورأينا مجده مجدًا كما لوحيد من الآب،

مملوء نعمة وحقًا" **[١٤]**.

يا له من تقديم رائع لأقنوم الكلمة بكونه مع الآب كائن معه من الأزل، وواحد معه في الجوهر، الخالق لكل ما في السماء وعلي الأرض، واهب الحياة، والنور الحقيقي المشرق على الجالسين في الظلمة، يرفعهم فيه لينالوا نعمة التبني لله الآب. الآن لآخر مرة يذكر الإنجيلي اسم "الكلمة" إذ صار جسدًا، فدخل إلى عالم البشر، لا خلال رؤية أو حلم أو كضيف غريب، وإنما كإنسانٍ حقيقيٍ كاملٍ يعيش وسط اخوته الأصاغر. تجسد ليخفي عظمة بهاء لاهوته التي لا تقدر عين بشرية أن تحدق فيه، لكنه خلال هذا السرّ يفتح باب المعرفة والرؤية ليتمتع المؤمن بالبنوة لله والتعرف على الأسرار الإلهية. إنه لا يريدنا أن نقف عند حجاب الجسد ونتجاهل حقيقته، لذا يقول: "طوبي لمن لا يعثر فيّ" (مت ١١: ٦).

يشبه **القديس يوحنا الذهبي الفم** البشرية الساقطة بامرأة زانية، وقد نزل العريس السماوي مختفيًا في الجسد لكي لا تخافه فتهرب منه، بل تلتقي معه وتتمتع بالمصالحة مع الآب، وتقبل الاتحاد مع عريسها السماوي إذ تتعرف على أسراره، وتنطلق معه إلى سمواته.

[1] *Homilies on St. John, Hom. 10:3.*

صار الكلمة إنسانًا ليضم البشر فيه فيتمتعوا بالإعلان الإلهي والمعرفة الإلهية عن اتحاد وقرب واختبار.

من أجلنا أخلى نفسه عن مجده الإلهي المنظور، وكما يقول الرسول بولس: "الذي كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه، أخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس" (في ٢: ٦-٧).. هذا الإخلاء لم يسبب تغييرًا في خصائص لاهوته، لأن لاهوته المتحد بناسوته لم يمتزج معه، إنما بتأنسه صار الكلمة إنسانًا كاملاً حقيقيًا وهو العلي الإله السماوي. بهذا فتح لنا بابًا إلى الأقداس السماوية. "فإذ لنا أيها الاخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع، طريقًا كرسه لنا حديثًا حيًا بالحجاب، أي جسده" (عب ١٠: ١٩-٢٠).

"**ورأينا مجده مجدًا كما لوحيد من الآب مملوء نعمة وحقًا**".

في العبارات السابقة حلق بنا الإنجيلي يوحنا في جو الإلهيات حيث نشعر بالعجز الكامل عن إدراك أسرار الكلمة الإلهي. لكنه لم يتركنا في عجز لئلا نيأس، إذ عاد فأعلن أن هذا الكلمة صار جسدًا، صار قريبًا إلينا جدًا، في متناول يدنا، نراه ونلمسه ونسمعه ونعيش معه، نشاركه حياته.

نتطلع إلى ابن الإنسان فنراه وهو الكلمة الإلهي حمل الصليب فدان الخطية بالجسد، إذ قدمه ذبيحة خطية من أجل خلاص العالم ومجده. نراه على الصليب في ساعة مجده الخفي، حيث حملنا بصليبه إلى حضن أبيه أبناء مقدسين وممجدين، شركاء في الطبيعة الإلهية.

هذا الجسد العجيب المصلوب القائم من الأموات هو سرّ ثبوتنا فيه ومجدنا وحياتنا أبديًا، يقدمه لنا على الدوام خلال سرّ الإفخارستيا، خلاصًا من خطايانا وحياة أبدية لمن يتناول منه.

❖ لنصغِ أيها المستمعون إلى الأناجيل المقدسة، إلى يوحنا اللاهوتي، إذ يقول: "في **البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله**". ويكمل قائلاً: "**والكلمة صار جسدًا**". لأنه ليس حسنًا أن نتعبد لإنسانٍ عاديٍ، ولا أن نقول إن المسيح إله فقط ناكرين ناسوته. لأنه إن كان المسيح هو الله فهذا حق، لكن إن قلنا إنه لم يأخذ الطبيعة البشرية يصير الخلاص غريبًا عنا.

إذن لنتعبد له بكونه إله مؤمنين بتأنسه، لأنه لا نفع من القول عنه أنه إنسان وليس الله، أو أي خلاص لنا إن رفضنا الاعتراف ببشريته مع ألوهيته؟

لنعترف بحضوره إذ هو ملك وطبيب. لأن يسوع الملك إذ صار طبيبًا اتزر بكتان ناسوتنا، وشفي ما كان مريضًا.

المعلم الكامل للرُضع صار رضيعًا بينهم (رو ٢: ٢٠) لكي يعطي حكمة للجهلاء. خبز السماء نزل إلى الأرض لكي يطعم الجياع![1]

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ إذ أعلن أن الذين يقبلونه يولدون من الله ويصيرون أولاد الله، أضاف العلة والسبب لهذه الكرامة التي لا ينطق بها. ألا وهي: "**الكلمة صار جسدًا**" [١٤]، فقد أخذ السيد صورة عبد.

لقد صار ابن الإنسان الذي هو ابن الله، لكي يجعل أبناء البشر أبناء لله.

فانه إذ يجتمع العالي بالأسفل لا تُهان كرامته، بل يرفع المنحط من انحطاطه الدنيء؛ هذا ما حدث مع الرب.

ليس من شيءٍ قد قلل من طبيعته بتنازله، بل رفعنا نحن الذين كنا على الدوام جالسين في الخزي والظلمة، إلى مجد لا ينطق به.

هكذا إن تحدث ملك باهتمامٍ وحنوٍ مع إنسان فقيرٍ وضيعٍ، فإن هذا لا يمثل عارًا على الملك، بل يتطلع الكل إلى الآخر باهتمام وتقدير[2].

❖ وإذا سمعت أن "**الكلمة صار جسدًا**" لا تضطرب ولا تسقط، لأن المسيح لم ينتقل من جوهره إلى الجسد، لأن هذه الأفكار فيها كفر وإلحاد، لكن جوهره بقي على ما هو، فاتخذ على هذه الجهة صورة عبد.

وإن سألت: ولِم استعمل البشير كلمة "**صار**"؟ أجبتك استعملها لكي يسد بها أفواه أصحاب البدع، لأنه إذ يوجد أناس يقولون إن أعمال تدبير ربنا كلها إنما كانت خيالاً وتوهمًا، لذلك وضع البشير قوله "**والكلمة صار جسدًا**"، وبهذا أبطل من بداية كلامه تجديفهم، وبيّن أنه اتخذ جسدًا حقيقيًا...

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**حلّ**" أو "سكن" *skeenoso* باليونانية، وهي تعني إقامة مسكن مؤقت أو خيمة للإيواء. هذا المعنى يناسب ناسوت السيد المسيح، الذي رُمز له بخيمة الاجتماع أو المسكن في العهد القديم. وهو مسكن قابل للموت، لكنه دون أن ينفصل عن لاهوته. كما يُستخدم هذا التعبير في اليونانية عن إقامة مبنى يستخدم في المناسبات والأعياد. فتجسد السيد المسيح حول حياتنا إلى عيدٍ لا ينقطع.

---

[1] مقال ١٢: ١.

[2] *Homilies on St. John, Hom. 11:1.*

إذ ارتبط قلب الإنسان بالأرض فظن أن سكناه عليها أبديًا، ولم يعد قادرًا على الانطلاق بقلبه وفكره وأحاسيسه خارج حدود الأرض والزمن، أعلن الرب منذ القديم اشتياقه للسكنى في وسطهم، حتى يذوقوا خالق الأرض والسماء، فيشتهون الانطلاق إليه والسكنى معه. ففي أيام موسى "غطت السحابة خيمة الاجتماع، وملأ بهاء الرب المسكن، فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الاجتماع " (خر ٤٠: ٣٤-٣٥). وفي عصر الأنبياء يعلن الرب: "ترنمي وافرحي يا بنت صهيون، لأني هأنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب" (زك ٢: ١٠). وفي أرض السبي حيث فقد الشعب أرض الموعد مسكنًا لهم وعدهم الله، لا أن يردهم فحسب ليسكنوا في كنعان، بل يجعل فيهم مسكنًا مقدسًا له، أفضل من الأرض: "ويكون مسكني فوقهم، وأكون لهم إلهًا، ويكونون لي شعبًا" (حز ٣٧: ٢٧).

يصيرون أشبه بتابوت العهد حيث كان الله يعلن عن حضرته على غطائه بين الشاروبين. أما وقد تجسد الكلمة فصار كمن سكن البشرية باتحاد الكلمة بالناسوت، إذ صارت هيكله الجديد، وحل بيننا لنرى مجده، وننعم بالشركة معه. وهكذا فتح لنا تجسده ينبوعًا من النعم لا ينقطع.

❖ "**حل بيننا**" حتى نتمكن أن ندنو منه وأن نخاطبه ونتصرف معه بمجاهرة كثيرة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

إذ حلّ الكلمة بإخلائه وتجسده بيننا إنما لنختبر قبسًا من مجده، فنشتهي التمتع برؤية المجد الإلهي. هذا ما اختبره المعمدان في لحظات عماد السيد المسيح، فانفتحت عيناه على معرفته له بصورة أروع.

وهذا ما اختبره بطرس ويعقوب ويوحنا على جبل طابور حين تجلى السيد المسيح أمامهم. وقد سجل لنا بطرس الرسول تلك الخبرة: "لأننا لم نتبع خرافات مصنعة، إذ عرفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجدًا، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء، إذ كنا معه في الجبل المقدس" (٢ بط ١: ١٦-١٨).

بالصليب والقيامة أعلن مجد حب الرب الفائق للبشرية وشوقه لإقامة الكل من الأموات. وقد عبر سفر إشعياء عن ذلك في حديثه عن العصر المسياني: "يصير المعوج مستقيمًا، والعراقيب سهلاً، فيعلن مجد الرب، ويراه كل بشر معًا، لأن فم الرب تكلم" (إش ٤٠: ٤-٥).

أعلن هذا المجد الإلهي الذي لابن الله الوحيد، إذ بالتجسد الإلهي تعرفنا على حب الآب الفريد

لابنه كمصدر لتمتعنا نحن بالحب الإلهي. إذ "بهذا ظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به "(١ يو ٤: ٩).

أعلن مجده إذ قدم لنا ابنه الوحيد مصدر النعم والبركات، لكنها تقدم بروح الحق. يغفر خطايانا، لكنه هو يدفع الثمن. يفتح باب السماء، وهو الذي يقدسنا بروحه القدوس لندخل المقادس الإلهية السماوية، بهذا يربط النعمة بالحق.

❖ ما هذا؟ "**رأينا مجده مجدًا كما لوحيدٍ من الآب**". ما كان يمكننا أن نراه (المجد) ما لم يُظهر لنا خلال جسد يخفيه ويعيش بيننا...

ولكن ماذا يعني "**مجدًا كما لوحيدٍ من الآب**"؟ حيث أن كثير من الأنبياء أيضًا قد تمجدوا، مثل موسى وإيليا واليشع. فاليشع أحاطت به مركبة نارية (٢ مل ٦: ١٧)، وإيليا صعد عليها، وبعدهما دانيال والثلاثة فتية وآخرون كثيرون أظهروا عجائب ومُجدوا، وظهرت ملائكة للبشر... بل ظهر لهم حتى الشاروبيم والسيرافيم.

يقودنا الإنجيل بعيدًا عن كل هذه، وعن الخليقة، وبهاء العبيد زملائنا ويضعنا أمام ذروة الأمور الصالحة... السيد نفسه، الملك ذاته، الابن الوحيد الأصيل، رب الكل نفسه، رأينا مجده.

تعبير "**كما**" لا يعني هنا المشابهة أو المقارنة وإنما لفظة تحقيق وتحديد خالٍ من الشك، كأنه قال: "ورأينا مجده مجدًا كما وجب أن يمتلكه ابن وحيد خالص لإله الخليقة كلها وملكها"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كل جسدٍ هو عشب، وكل مجدٍ كزهر العشب. العشب يجف والزهر يسقط... "أما كلمة الله فتبقى إلى الأبد" (إش ٤٠: ٦-٧ *LXX*؛ ١ بط ١: ٢٤-٢٥).

لكن لكي يعيننا "**الكلمة صار جسدًا وحلَّ بيننا**" (يو ١: ١٤).

ماذا يعني "**الكلمة صار جسدًا**؟ الذهب صار عشبًا. صار عشبًا لكي يحترق. احترق العشب لكن بقي الذهب. في العشب لم يحترق (الذهب)، بل غيَّر العشب. كيف غيره؟ أقامه وأحياه ورفعه إلى السماء، وأقامه عن يمين الآب[2].

❖ حتى في كونه قد صار ابن الإنسان يختلف عنا كثيرًا. نحن أبناء البشر بشهوة الجسد، هو ابن

---

[1] *Hom. 12. PG 59:66-67*

[2] *Sermon on N.T. Lessons, 68:1.*

الإنسان بإيمان بتول.

والدة أي إنسان آخر مهما يكن تحبل باتحاد جسدي؛ وكل أحد يُولد من والدين بشريين: من أبيه وأمه. أما المسيح فوُلد من الروح القدس والعذراء مريم.

جاء إلينا، لكنه لم يفارق ذاته (لاهوته)، نعم من ذاته بكونه الله لن يفارق ذاته، بل أخذ ما هو لطبيعتنا.

جاء إلى ما لم يكن هو عليه، ولم يفقد ما كان عليه.

صار ابن الإنسان، ولم يكف عن أن يبقى ابن الله...

لم يأتِ إلينا كمن يترك الآب. ومن عندنا ذهب لكنه لم يتركنا. وإلينا سيأتي مرة أخرى، لكنه لا يترك الآب[1].

❖ لكي نقتني (رؤيته) إن كنا لا نقدر بعد أن نرى الله الكلمة، لنسمع "**الكلمة صار جسدًا**"، ناظرين أننا نحن جسديون، فلنسمع الكلمة المتجسد. فإنه لهذا السبب جاء، ولهذا السبب حمل ضعفنا حتى يمكن أن نقبل كلمات الله القوية الحامل ضعفنا.

بحق قد دُعي "اللبن"، إذ يهب لبنًا للرضع حتى يقدم وجبة الحكمة (اللحم) للناضجين.

لترضع الآن في صبرٍ حتى تُنعش رغبة قلبك المملوءة غيرة...

إذ أن الرضع ليس لهم قوة كافية ليأكلوا لحمًا موضوعًا على المائدة، ماذا تفعل الأم؟ إنها تحول اللحم *Incarnat* إلى مادة جسمها وتجعل منه لبنًا. إنها تجعل منه ما نستطيع أن نأخذه.

هكذا الكلمة صار جسدًا حتى يمكننا نحن الصغار، الذين بالحق كالرضع بالنسبة للطعام، فننتعش باللبن.

لكن يوجد هنا اختلاف بأن تجعل الأم الطعام يتحول من لحم إلى لبن، والطعام إلى لبن، أما الكلمة الذي سكن بنفسه آخذًا الجسد دون أن يتغير حتى يبدو كنسيجٍ من الاثنين[2].

❖ أولاً لتدركوا تنازل الله. لتتنازلوا فتكونوا متواضعين لأجل أنفسكم، متطلعين إلى الله الذي تنازل متواضعًا لأجلكم أيضًا وليس لأجل نفسه...

اعترفوا بضعفكم؛ ولترقدوا أمام الطبيب في صبرٍ.

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 71:5.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 67:16.*

عندما تدركوا تنازله ترتفعوا معه، ليس بأن يرفع نفسه بكونه الكلمة، بل بالأحرى يُدرَكْ منكم أكثر فأكثر...

هو لا يزيد، لكنكم أنتم تتقدمون، فيكون كمن ارتفع معكم...

تطلعوا إلى الشجرة فإنها أولا ضربت جذورها إلى أسفل حتى تنمو إلى فوق. تثبت جذرها السفلي في الأرض لكي ما تمتد بقمتها إلى السماء. هل تبذل جهدًا للنمو إلاَّ من خلال التواضع؟ إذن "ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة... لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله" (أف ٣: ١٧–١٩)[١].

❖ لتؤمن أن في هذا الناسوت أخذ ابن الله طبيعتنا كاملة، أي النفس العاقلة والجسد القابل للموت، بدون خطية. لقد شاركنا ضعفنا، لكنه لم يشاركنا شرنا، حتى بالضعف المشترك معنا يحل رباطات شرنا ويُحضرنا إلى برِّه، شاربًا الموت من كأسنا، ساكبًا الحياة من الذي له[٢].

❖ كان قبل وجود جسده، لقد خلق أمه واختارها هذه التي منها يُجعل به، خلق هذه التي منها يُخلق (حسب الجسد). فلماذا تتعجبون؟ فإني أتحدث إليكم عن الله: "**وكان الكلمة الله**".

إني أتحدث عن الكلمة، الذي هو ربنا، يحمل شيئًا ما من التشابه مع كلمة البشر، وإن كانت غير متساوية إلى أبعد الحدود، وليس من وجه للمقارنة. ولكن يوجد شيء ينقل إليكم تلميحًا عن شيءٍ من التشابه. نعم فإن الكلمة التي أنطق بها إليكم كانت في قلبي. لقد جاءت إليكم لكنها لم تفارقني. إنها تبدأ أن تكون فيكم وهي لم تكن فيكم. إنها مستمرة معي عندما خرجت إليكم.

إذن كما أن كلمتي قد جُلبت إلى أجسامكم ولم تفارق قلبي، هكذا الكلمة جاء إلى حواسنا ومع ذلك لم يفارق الآب.

كانت الكلمة معي وجاءت في صوت. كانت كلمة الله مع الآب وجاءت في جسد. لكن هل أستطيع أن أفعل بصوتي ما يستطيع (الله) أن يفعله بجسده؟ فإني لست سيدًا على صوتي عندما يطير. أما هو فليس فقط سيدًا لجسده ليولد ويعيش ويعمل، بل وأيضًا إذ مات أقامه ومجده لدى الآب فهو المركبة الحاملة له والتي بها جاء إلينا[٣].

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 67:18.*
[2] *Letters,39.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 69:7.*

القديس أغسطينوس

❖ الكلمة صار جسدًا لكي نعبر نحن من الجسد إلى الكلمة. لم يتوقف الكلمة عن أن يبقى على ما كان عليه (الكلمة)، كما لم تُفقد الطبيعة البشرية التي صارت بالميلاد[1].

القديس جيروم

"**يوحنا شهد له ونادى قائلاً:**

هذا هو الذي قلت عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي،

لأنه كان قبلي" [١٥].

إذ بدأ الإنجيلي يوحنا في الكشف عن عمل كلمة الله المتجسد، قدم شهادة القديس يوحنا المعمدان، الذي جاء متأخرًا عنه، لكنه هو كائن قبله وكما قال السيد المسيح: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يو ٨: ٥٨). ولما كانت هذه الشهادة أساسية، ولها أهميتها القصوى، لذا يقول الإنجيلي: "**شهد له ونادى**" معبرًا بكلمة "**نادى**" عن الصراخ بصوتٍ عالٍ للفت النظر إلى ما يعلنه، لأنه يمس حياة البشرية وخلاصها ومجدها.

صراخ الشهادة هذا سبق فقدمته اليصابات والدته حين كان جنينًا في أحشائها وقد تعرف على الكلمة المتجسد في أحشاء القديسة مريم عند زيارتها لأمه. يقول الإنجيلي لوقا: "وامتلأت اليصابات من الروح القدس وصرخت بصوت عظيم، وقالت: مباركة أنتِ في النساء، ومباركة هي ثمرة بطنكِ" (لو ١: ٤١-٤٢).

دُعي يسوع المسيح ابن العلي (لو ١: ٣٢)، بينما دُعي يوحنا نبي العلي (لو ١: ٦٧). كان يوحنا خادمًا للعهد الجديد، أما يسوع المسيح فهو وسيط العهد الجديد. يوحنا كان رجلاً عظيمًا له اسم عظيم ورسالة عظيمة، وهو الذي هيأ الطريق ليسوع المسيح. يوحنا كسائر الأنبياء يجلس عند قدمي الله ليتعلموا أو ينالوا رؤى. أما المسيح فهو في حضن الآب (أف ٣: ١١).

إنه الصوت الذي يدوي في القفر، ليهيئ الطريق ليسوع المسيح (إش ٤٠: ٣).

"**لأنه كان قبلي**" لأنه هو خالقي وموجدي للحياة. هو الأول، وهو لقب خاص بالله "الأول والآخر" (١ كو ١: ١٧)، إنه أزلي (مي ٥: ٢).

---

[1] *Against Jovinianus, 2:29.*

❖ يقول يوحنا البشير عن يوحنا المعمدان "**يوحنا شهد له ونادى قائلاً**"، أي أن يوحنا هتف بمجاهرة وبجرأة خلوًا من انقباض.

ولم يقل يوحنا المعمدان عن المسيح إن هذا هو ابن الله الوحيد، الابن الحقيقي، لكنه قال: "**هذا هو الذي قلت عنه أن الذي يأتي بعدي صار قدامي، لأنه كان قبلي**"، لأنه على مثال أمهات الطيور، إذ أنها لا تعلم أفراخها في الحال ولا في يومٍ واحدٍ الطيران كله، لكنها تخرجها أحيانًا، وأحيانًا تريحها وفي اليوم التالي تطير معها مسافة أكثر من تلك كثيرًا، وعلى هذا المنهج تقتادها إلى العلو الواجب. على هذا المثال كان يوحنا المعمدان، إذ لم يقتد اليهود في الحال إلى الآراء العالية، لكنه علمهم أن يطيروا ويعلوا من الأرض قليلاً قليلاً.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ومن ملئه نحن جميعًا أخذنا،**

ونعمة فوق نعمة" **[١٦]**.

يرى كل من **القديسين كبرلس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وأغسطينوس** أن الحديث هنا ليس تكملة لشهادة القديس يوحنا المعمدان، وإنما المتحدث هنا هو الإنجيلي يوحنا. يعلن الإنجيلي أن الذي هو مملوء نعمة وحقًا [١٤] هو سرّ الملء للكنيسة كلها، وينبوع نعم لا ينقطع، فيض حب يتفجر على الدوام. فمن كمال ملئه اللانهائي يفيض على كنيسته ليتمتع كل عضو فيها بالشركة في الطبيعة الإلهية.

هو مصدر كل النعم، يملأ مخازننا (أم ٨: ٢١). نتقبل منه النعم كما تتقبل مجاري المياه الماء من الينبوع مصدر الماء. العطايا الإلهية هي نعم *grotius* أي مجانية (رو ١٢: ٦)، فإذ يسرَّ الآب به لذا يُسر بنا نحن فيه (أف ١: ٦).

"**نعمة فوق نعمة**" كل نعمة هي وزنة نتقبلها من الله لنتاجر فيها فنربح وزنة أخرى (١ بط ١٤: ١٠).

"**نعمة فوق نعمة**" أي تبقى نعمة الله تفيض علينا بلا توقف. إذ "ليس بكيل يعطي الله الروح" (يو ٣: ٣٥). فإن كان المسيح بكونه الكلمة المتجسد قد "سر (الآب) أن يحل كل الملء" (كو ١: ١٩)، إذ هو الوحيد الملء الكلي بلا حدود، فإنه يفيض ليملأ الكل حسب قياس كل أحد. هذا ما عبر عنه الرسول: "فإن فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديًا، وأنتم مملوؤون فيه" (كو ٢: ٩-١٠)، وأيضا "الذي

يملأ الكل في الكل" (أف ١: ٢٣)، "لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله" (أف ٣: ١٩). هذا هو غاية ما نبلغه في المسح يسوع: "إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى قياس قامة ملء المسيح" (أف ٤: ١٣).

❖ إن كان هو النور الحقيقي الذي ينير كل إنسانٍ، فهو إذن قد أنار يوحنا أيضًا الذي أقر واعترف بحق "من **ملئه أخذنا**" [١٦][1].

❖ بعد قوله: "**من ملئه أخذنا**" أضاف "**نعمة فوق نعمة**" (يو ١: ١٦). لأنه بالنعمة خلص اليهود. يقول الرب: "اخترتكم ليس لأجل كثرة عددكم، وإنما من أجل آبائكم". إن كانوا لم يختاروا بواسطة الله من أجل أعمالهم الصالحة، فواضح أنه بالنعمة نالوا هذه الكرامة. ونحن أيضًا نخلص بالنعمة، لكن ليس بنفس الطريقة، ولا بذات الأهداف، بل بما هو أعظم وأسمى. إذن فالنعمة التي فينا ليست كالنعمة التي لهم. إذ لم يعطَ لنا فقط غفران الخطايا (إذ نحن شركاء معهم لأن الكل أخطأ)، وإنما نلنا أيضًا البرّ والتقديس والبنوة وعطية الروح بصورة أكثر مجدًا، وبفيضٍ[2].

القديس أغسطينوس

❖ أؤمن أنه موجود قبلي وأكثر كرامة مني مع الآب. وذلك لأني أنا والأنبياء الذين جاءوا قبلي قد قبلوا نعمة إلهية نبوية كبرى وذلك من ملئه، فإن النعمة التي قبلناها منه تخص حرية الإرادة[3].

العلامة أوريجينوس

❖ ماذا يعني: "**ومن ملئه نحن أخذنا**" [١٦]؟... يقول إنه لا يملك العطية بالمشاركة، بل هو نفسه ينبوع ذاته وأصل كل صلاح، الحياة ذاتها، النور ذاته، الحق ذاته، يحتجز في داخله غنى صلاحه، بل يفيض بها على الآخرين، ويبقى بعد هذا الفيض في ملئه، لا ينقص وهو يمد الآخرين، بل على الدوام يفيض ويهب الغير ليشاركوه بركاته، ويبقى في كماله كما هو. ما اقتنيه أنا هو بالمشاركة (أي أقبله من الغير)، لدي نصيب قليل من الكل، كنقطة ماء فقيرة إن قورنت بلجة لا تحد أو بحر بلا حدود. وحتى هذا المثل لا يقدر أن يعبر بالكامل عما نحاول أن نقوله... لنفترض وجود مصدر نار، ومن هذا المصدر أشعلت ربوات المصابيح... ألا تبقي النار

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 17:9.*
[2] *In John hom. 14:2.*
[3] *Commentary on John, Book 6:35.*

كما هي في ملئها حتى بعد أن قدمت ما لها لكل مثل هذا العدد؟ واضح لكل إنسانٍ إن الأمر هكذا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد أعطى الناموس ذاك الذي أعطى النعمة أيضًا، لكنه أرسل الناموس مع عبيد، ونزل بنفسه ليعطي النعمة.

وبأية وسيلة صار البشر تحت الناموس؟ بعدم تحقيقهم للناموس. لأن من يتمم الناموس لا يسقط تحت الناموس، بل يكون مع الناموس، أما الذي تحت الناموس فلا يقوم، بل يكون تحت ضغط الناموس.

إذ صار كل الناس تحت الناموس صاروا بالناموس مذنبين، لذلك صار الناموس فوق رؤوسهم، يظهر خطاياهم ولا ينزعها.

فالناموس يأمر، وواهب الناموس يظهر حنوًا فيما يأمر به الناموس. وإذ يسعى البشر بقوتهم الذاتية أن يتمموا ما يأمر به الناموس سقطوا بسبب تهورهم وعنادهم الجريء، ليس مع الناموس بل تحت الناموس. صاروا مذنبين، لذلك توسلوا طالبين عون مُسَّلم الناموس، وبسبب الشعور بالذنب الذي جاء بالناموس مرض المتكبرون. وصار مرض المتكبرين اعترافًا للمتواضعين.

الآن يعترف المرضى بالمرض، فليأتِ الطبيب، ليشفي المرضى.

من هو الطبيب؟ ربنا يسوع المسيح[2].

❖ ماذا تعني "**نعمة فوق نعمة**"؟ بالإيمان عاد الله مدافعًا لصالحنا، وإذ كنا غير أهلٍ لغفران خطايانا، ولأننا كنا غير مستحقين نلنا نفعًا عظيمًا هكذا، فدعي ذلك نعمة. ما هي النعمة؟ ما يُعطى مجانًا... وإذ تنال إحسانًا من الله بالحياة بالإيمان تتقبل الخلود كمكافأة والحياة الأبدية. وهذه نعمة[3]!

القديس أغسطينوس

"**لأن الناموس بموسى أعطي،**

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 14:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate3:2-3.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 3:9.*

أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا" [١٧].

الناموس في ذاته عطية عظيمة، ونعمة مقدمة من الله، لتهيئ لنعمة الإنجيل. لكن لا وجه للمقارنة بين الظل والحقيقة. يقدم فيضًا من النعم: يغني الفقراء بكنوز السماء، ويعتق العبيد من أسر إبليس، ويحمل المؤمنين على الأيدي الإلهية وسط الضيقات، ويهب معرفة مستمرة للأسرار الإلهية، ويهب قوة عوض الضعف، ويسكب مجده في داخلنا عوض الهوان. قدم لنا الناموس بكل وصاياه وفرائضه ونبواته ظلالاً أو شبه السماويات، أما السيد المسيح فدخل بنا إلى عمق الوصية لنتعرف على خالق السماء نفسه المختفي وراءها. حملنا السيد المسيح فيه لنختبر في عبادتنا بالروح القدس السماويات عينها التي جاء منها، فنحيا بحياته السماوية.

يتساءل **العلامة أوريجينوس:** إن كان يسوع قد أعلن أنه الحق (يو ١٤: ٦)، **فكيف به قد صار الحق؟** ويجيب هكذا: ما وهبه الله من نعم في العهد القديم كانت رموزًا لنعمة العهد الجديد التي هي "**الحق**". لهذا فإن مجد العهد الجديد أعظم (٢ كو ٣: ١٠). صار اكتشاف النعمة في العهد الجديد أوضح، وتوزيعها بأكثر سخاء. وهكذا نلنا نعمة العهد الجديد عوض نعمة العهد القديم، ليس لأنها تناقضها، بل تحققها في كمالها بسخاء، تنميها إلى الكمال وتثبتها فينا. إذ نتغير إلى الصورة الإلهية من مجدٍ إلى مجدٍ، من درجةٍ إلى درجةٍ أعلى (٢ كو ٣: ١٨). النعمة التي نتقبلها أشبه بختم يشَّكلنا **لنحمل أيقونة المسيح التي تزداد فينا وضوحًا** (رو ٨: ٢٩) وتجعلنا أيقونة السماويات (١ كو ١٥: ٤٩).

بتمتعنا بالمسيح ننال النعمة والحق، إذ هو مصدر النعم وكنز الحكمة يقدم ذاته لنا نعمة وحقًا نتمتع به.

في العهد القديم نلنا الناموس في جوٍ من الرعب (عب ١٢: ١٨)، أما العهد الجديد فنلناه في جوٍ من النعمة. بالعهد الجديد نتمتع بالوعود الإلهية الواردة في العهد القديم خلال جوٍ من الرحمة والحق، حسب الوعد الإلهي.

هكذا مع تمتعنا بالنعمة وتذوقنا لها نعطش بالأكثر إلى فيضٍ جديدٍ من النعمة، **فكل نعمة في داخلنا تنادي نعمة، وتجذبها إلى أعماقنا.** فتصير أعماقنا هدفًا لفيضٍ لا ينقطع من النعم الإلهية المتناغمة معًا.

❖ أُعطيَ الناموس بواسطة خادم، فجعل الناس مذنبين، وجاء العفو من الإمبراطور، وخلص

المذنبين[1].

القديس أغسطينوس

❖ على أي الأحوال، يأتي الحق في البشر بيسوع المسيح، كما جاء أن الحق في بولس وفي الرسل بيسوع المسيح. ليس غريبًا أن نقول أنه بالرغم من وجود الحق الواحد، يفيض منه كما لو كان الكثير من الحقوق. على أي الأحوال يعرف داود النبي كثرة من الحقوق *truths* إذ يقول: "يطلب الرب الحقوق" (مز ٣٠: ٢٤). فإن أب الحق لا يطلب حقًا واحدًا بل حقوقًا كثيرة لكي يخلص الذين يملكونها[2].

العلامة أوريجينوس

❖ عظيم هو الفارق بينهما، فمن جانب الكلمتان "**قد أُعطيَ**" تُنسب إلى شيء يُخدم حينما يستلمه شخص من آخر يُعطي أمرًا بإعطائه إياه، ومن الجانب الآخر فإن "**النعمة والحق قد صارا**" تناسب ملكًا له سلطان غافر للخطايا ويقوم بنفسه بتقديم الهبة[3].

❖ عندما كانت حرب عماليق في جبل سيناء استعانت يدا موسى بهرون وهور الواقفين بجواره (خر ١٧: ١٢)، أما عندما جاء المسيح فبسط يديه على الصليب بنفسه. ألا تلاحظون كيف أن الناموس أعطي، أما الحق فجاء؟[4]

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**الله لم يره أحد قط،**

الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر" **[١٨].**

ينظر إلى هذه العبارة بأنها ختام مقدمة إنجيل يوحنا، إن جاز لنا ذلك، والتي جاءت تقدم لنا الكلمة الإلهي بكونه الأقنوم الإلهي الواحد مع الآب في الجوهر وقد صار جسدًا من أجلنا. هنا يربط بين هاتين الحقيقتين: إنه الكلمة الأزلي، وأنه صار إنسانًا حقيقيًا من أجل بني البشر.

بكونه الكلمة الحقيقي والابن الوحيد الجنس، فإنه وحده يرى الآب رؤية الواحد معه في ذات الجوهر. لا يضارعه في هذا كائن ما على الأرض أو في السماء. ليس من مجال للمقارنة بينه وبين

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 3:15.*
[2] *Commentary on John, Book 6:39.*
[3] *Hom 14 PG 59:82.*
[4] *Homilies on St. John, Hom. 14:4.*

إبراهيم أب الآباء أو موسى مستلم الشريعة أو غيره من الأنبياء، ولا وجه للمقارنة بينه وبين أية طغمة سماوية.

موسى العظيم في الأنبياء رأى شبه الله (عد ١٢: ٨) لكنه لم يستطع أن يرى وجهه (خر ٣٣: ٢٠).

إنه الابن الوحيد الحقيقي القائم بذاته في حضن الآب، أي في أعماقه لن ينفصل قط عنه، موضع سروره، قادر أن يعلن عنه ويكشف عن أسراره الإلهية وخطته الفائقة. هكذا نلنا في المسيح إعلانًا واضحًا عن الآب الذي لم يره أحد قط. هذه هي النعمة، وهذا هو الحق الإلهي الذي صار لنا في المسيح، وهي "**المعرفة**".

الله روح، فلا يقدر الجسد على معاينته، لذا تجسد الابن ليهبنا الميلاد الجديد الروحي فنرى ذاك الذي لا يُرى (عب ١١: ٢٧)، ونحيا به. هو وحده يفتح الختوم (رؤ ٥: ٩) لنتعرف على أسرار الله.

❖ "**الله لم يره أحد قط**".

ماذا عن إعلانات العهد القديم؟ فما الذي نقوله لصوت **إشعياء العظيم** القائل: رأيت السيد جالسًا على كرسيٍ عالٍ ومرتفعٍ وأذياله تملأ الهيكل" (إش ٦: ١)؟

وما الذي نقوله **لدانيال** الذي قال: "كنت أرى أنه وُضعت عروش وجلس القديم الأيام، لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة" (دا ٧: ٩)؟

ويعقوب من هذا المنظر تسلم لقبه، إذ دعي إسرائيل، لأن معنى إسرائيل هو الناظر إلى إلهه (تك ٣٢: ٢٨)؟

وما الذي نقوله **لموسى** القائل بنفسه للرب: "أرني مجدك" (خر ٣٣: ١٨)؟

آخرون كثيرون قد أبصروا الله، فما غرض يوحنا من قوله: "**الله لم يره أحد قط**"؟ غرض يوحنا هنا هو: أن **تلك المعاينات كانت مناسبة لنزول الله وظهوره، وليست مناسبة لجوهره،** لأنهم لو كانوا قد أبصروا طبيعة الله بعينها لما كانوا أبصروها، لأن طبيعته بسيطة مستحيل أن تكون ذات شكل، فطبيعة الله لا تجلس ولا تقوم ولا تمشي، لأن هذه كلها خواص أجسام.

يعلن القديس يوحنا أن كل هذه كانت أمثلة عن تنازله وليست رؤية الجوهر ذاته[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Hom 15 PG 59:85.*

❖ رب قائل يعترض: إن كان جوهر اللاهوت لا يقع تحت الحواس، فلماذا نتحدث في هذه الأمور؟ نعم، هل لأني لا أستطيع أن أشرب النهر كله يكون هذا سببًا في ألا أستقي منه باعتدال قدر ما يناسبني؟!

هل لأن عيني تعجزان عن استيعاب أشعة الشمس في كمالها لا أنظر إليها قدر ما أحتاج؟!

وإذا دخلت حديقة عظيمة ولم أقدر أن آكل كل ثمارها هل تريد مني أن أخرج منها جائعًا؟!

إذن لأسبح اللّه خالقنا وأمجده، إذ وُهبت لنا وصية إلهية تقول: "كل نسمة فلتسبح الرب" (مز ٥: ٦).

إنني أسعى الآن لأقوم بتمجيده دون أن أصفه، عالمًا أنه بالرغم من عجزي عن القيام بتمجيده حسبما يستحق، لكن حتى هذا السعي هو من الأعمال التقوية. ويشجع الرب يسوع ضعفي بقوله: "اللّه لم يره أحد في أي زمان[1]".

❖ يستحيل علينا أن نتطلع إلى اللّه بأعين بشرية، لأن غير الجسدي لا يقع تحت الأعين الجسدية. وقد شهد الابن الوحيد، ابن اللّه نفسه، قائلاً: "اللّه لم يره أحد في أي زمان". فإن فهم أحد مما ورد في حزقيال أنه رأى اللّه (حز ٢٨: ١)، فإنه ماذا يقول الكتاب المقدس؟ إنه رأى "**شبه مجد اللّه**"، وليس الرب ذاته كما هو في حقيقته بل شبه مجده. فإن كانت رؤية شبه المجد تملأ الأنبياء رعدة، فبالتأكيد إن حاول أحد رؤية اللّه ذاته يموت، وذلك كالقول: "الإنسان لا يرى وجهي ويعيش" (خر ٣٣: ٢٠ "لا يراني ويعيش"). من أجل هذا فإن اللّه بحنو رحمته بسط السماوات أمام لاهوته لكي لا نهلك. لست أقول هذا من عندي بل هو قول النبي: "ليتك تشق السماوات وتنزل من حضرتك تتزلزل الجبال" (وتذوب إش ٦٤: ١).

لماذا تتعجب من سقوط دانيال عند رؤيته شبه المجد، إن كان دانيال عند رؤيته جبرائيل، الذي هو ليس إلا مجرد خادم اللّه، ارتعب للحال وسقط على وجهه ولم يجسر النبي أن يجيبه بالرغم من أن الملاك نفسه جاء على شبه ابن بشر؟ (راجع دا ١٠: ٩، ١٦، ١٨). إن كان ظهور جبرائيل أرعب الأنبياء، فهل يرى الإنسان اللّه كما هو ولا يموت؟![2]

القديس كيرلس الأورشليمي

---

[1] مقال ٦: ٥.

[2] مقال ٩: ١.

❖ قوله: "**الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب**" يعني أن سلطان الابن مساو لسلطان الآب، لأن الآب الأزلي ما حاز في حضنه جوهرًا غير جوهره، وهذا القول يدلنا على اتفاق الابن مع أبيه في أزليته.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الذي يرى هو أيضًا يخبر. لكن لا يخبر بكل عظمة من يراه، ولا بكل ما يعرفه، إنما قدر ما يحتمل القابلون للموت (البشر) أن يقبلوا[1].

القديس جيروم

شهود للكلمة المتجسد

بعد هذا الحديث الرائع عن **الكلمة المتجسد واهب النعمة** يقدم لنا الإنجيلي في بقية الأصحاح الأول الشهادة لشخص ربنا يسوع المسيح:

في اليوم الأول [١٩-٢٨]: يشهد يوحنا المعمدان أمام الكهنة واللاويين.
في اليوم الثاني [٢٩-٣٤]: يشهد عند رؤيته ليسوع.
في اليوم الثالث [٣٥-٣٩] يشهد يوحنا المعمدان أمام تلميذين من تلاميذه.
في اليوم الرابع [٤٠-٤٢] يشهد أندراوس أمام سمعان.
في اليوم الخامس [٤٣-٥١] يشهد فيلبس أمام نثنائيل.
في اليوم السادس: الشهادة العملية بتحويل الماء إلى خمر (ص ٢).

ويلاحظ في هذه الشهادة خلال الأسبوع الأول غالبًا بعد عودته من البرية بعد التجربة مباشرة الآتي:

أولاً: يماثل ما ورد في بدء الخلقة حيث وُجد العالم في ستة أيام واستراح الله في اليوم السابع، هكذا عند تجديد خلقة الإنسان ينتهي الأسبوع حيث يحوّل السيد المسيح الماء إلى خمر ليجد الكل فرحهم في تجديد حياتهم.

ثانيًا: بدأ سفر التكوين بعبارة: "في البدء خلق الله..." ليشير إلى بدء ما قبل وجود الزمن، حيث لم

[1] *Against the Pelagians, 3:12.*

يكن قد خلق الشمس والقمر والكواكب، فلم يكن بعد أزمنة وفصول وأيام (٢٤ ساعة،) بل هي حقبات زمنية مهما بلغ طولها دُعيت أيامًا. هكذا بدأ إنجيل يوحنا بذات العبارة: "في البدء"، لكنه البدء الأزلي حيث لا بداية له، إنها الأزلية حيث اللوغوس الذي هو واحد مع الآب.

٣. شهادة يوحنا المعمدان له

دُعيَ القديس يوحنا المعمدان رسولاً أو ملاك الله (ملا ٣: ١). لم يذكر عنه الكتاب أنه صنع معجزة ما، ولا أنه رأى رؤى وإعلانات إلهية، لكنه شهد للحق، وجذب الكثيرين للتوبة بحياته الجادة الصارمة مع طهارة وعفة ووضوح الهدف. كان يشتهي خلاص العالم، ونمو ملكوت الله على الأرض، فشهد للمخلص الملك الحقيقي.

لم يكن النور محتاجًا إلى من يشهد له، فهو شاهد لنفسه بنوره، لكن إذ أغلق الإنسان عينيه وصمم أن يفسد قلبه بالشهوات والعصيان أصيب بعمى، لذلك صار في حاجة إلى من يحثه شاهدًا للنور الحقيقي. كان يوحنا كحارس الليل يعلن أن نور الصباح قد أشرق حتى يستيقظ النائمون ويفتحون أعينهم لمشاهدة النور.

جاء يوحنا يعلن أن المسيا الذي طال انتظار المؤمنين لمجيئه قد جاء فعلاً، مخلصًا لكل العالم، وواهبًا المجد لشعبه إسرائيل الجديد.

السيد المسيح هو النور الحقيقي، أما يوحنا فلم يكن بالنور الباطل أو الغاش، إنما المصباح الحامل لنور المسيح فيه. لم يكن العريس الحقيقي، لكنه ليس بمن يغتصب العروس، إنما صديق العريس الذي يفرح بعرسه واتحاده بالعروس.

تمتع يوحنا بمعرفة أعمق عند عماد السيد المسيح وظهور الثالوث القدوس. أعلن يوحنا عن السيد المسيح أنه حمل الله الذبيح (٢٩؛ خر ١٢؛ إش ٥٣: ٧؛ ١ بط ١: ١٩).

"وهذه هي شهادة يوحنا

حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه:

من أنت" [١٩].

هذه هي المرة الثالثة في هذا الأصحاح يقدم الإنجيلي يوحنا المعمدان شاهدًا (١: ٧، ١٥، ١٩–٣٤). لم يلتفت الإنجيلي إلى شخصية المعمدان، وإنما إلى شهادته، إذ يحصر التقليد الرسولي ظهور السيد المسيح وعمله منذ معمودية المعمدان إلى يوم صعوده (أع ١: ٢١–٢٢؛ ١٠: ٣٧–٣٨؛ ١٣:

٢٣-٢٤).

أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين" [٩]؛ جاء تعبير "اليهود" في هذا السفر غالبًا ما يشير إلى مجمع السنهدرين بكونه الهيئة العليا للرئاسة الدينية. فقد شكل المجمع لجنة لتقصي حقيقة شخصية يسوع وتقييم أعماله وشعبيته. وهم في هذا يحسبون أنفسهم أنهم يتممون وصية من صُلب الناموس، مع أنهم كانوا غير مخلصين في أعماقهم. تحقق فيهم القول: :وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي" (تث ١٨: ٢٠).

هؤلاء الكهنة واللاويون المذكورون هنا غالبًا ما كانوا أعضاء في مجمع السنهدرين، على مستوى عالٍ في العلم والثقافة، وأصحاب سلطة ونفوذ. لما كان يوحنا المعمدان نفسه من نسل هرون، إذ كان والده كاهنًا لذا لفحص قضيته وخدمته لاق أن يُرسل إليه كهنة ولاويون (وهم من الكتبة والفريسيين من سبط لاوي، لكنهم ليسوا من عشيرة هرون بالذات).

أرسلوا إليه لا ليتحققوا من رسالته فيتجاوبوا معه، لأنهم يحسبون أنفسهم القادة العظماء للشعب. لكنهم أرادوا التعرف عليه من قبيل حب الاستطلاع، أو من قبيل ممارسة السلطة كأصحاب سلطان يشعرون بالمسئولية أن يكشفوا عن حقيقة شخص مثل هذا للشعب، إن كان ذلك وفقًا لمصالحهم. ولعلهم فعلوا هذا ليجدوا فيه علة، فيكتموا هذا الصوت الذي صدر من مصدر آخر غير السنهدرين صاحب السلطة العليا في الأمور الدينية.

سُئل القديس يوحنا المعمدان من السلطات الدينية اليهودية: "**من أنت؟**" (١٩، ٢٢). أوضح أنه ليس المسيا، ولا إيليا (٢ مل ٢: ١١)، ولا النبي المخلص (تث ١٨: ١٥). أعلن أنه مجرد "صوت" (إش ٤٠: ٣)، يتنبأ عن مجيء المسيا [٢٣]. عندئذ سألته السلطات: "إن كنت لا تحتل مركزًا رسميًا في الخدمة فلماذا تعمد؟" كانت أجابته أن عماده ليس غاية في ذاته، بل تهيئة لعمل روحي أعظم يحققه ذاك الذي يأتي بعده وهو كائن قبله، وأن يوحنا غير مستحق أن ينحني ليحل سيور حذائه.

❖ أرسلوا كهنة ولاويين من أورشليم، وهم أوفر كرامة من غيرهم...

وإن سألت: لماذا سأل اليهود يوحنا المعمدان هذا السؤال: "من أنت؟" أجيبك... لقد ظنوا أن خضوع يوحنا للمسيح شيء لا مبرر له، لأن أمورًا كثيرة كانت تُظهر يوحنا عندهم بهيًا جليلاً، أولها جنسه وجلالته وظهور شرفه، لأنه كان ابنًا لرئيس كهنتهم، ثم طعامه وصعوبة طريقته، وإعراضه عن الممتلكات الإنسانية كلها، ولأنه كان مهوبًا بثوبه ومائدته وسكنه وطعامه بعينه، فقد أقام زمانه السالف

في البرية. وجميع ما أبصروه في المسيح كان يخالف ذلك، لأن جنس المسيح كان عندهم حقيرًا، إذ قد هاجموه مرارًا قائلين: "أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم واخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا" (مت ١٣: ٥٥)، وكان التعيير يتجه نحو الموضع المظنون أنه وطنه على ما ذكر نثنائيل: "أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟" (يو ١: ٤٦). علاوة على أنه ما كان على حقويه منطقة جلد، ولا كان لباسه من وبر الإبل، ولا أكل عسلاً وجرادًا، لكنه كان تدبير حياته يشبه كل الحاضرين، وقد حضر في مجالس شرب مع أناس أشرار وعشارين ليستميلهم إليه. هذا الذي فعله المسيح لم يفهمه اليهود، فعيروه لأجل هذه الأفعال، وقد قيل: "جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فيقولون هوذا إنسان أكول وشريب خمر، محب للعشارين والخطاة، والحكمة تبررت من بنيها" (مت ١١: ١٩).

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بينما كان الرعاة يحرسون قطيعهم وجدوا "**حمل الله**"، الذي جزّته البهية والطاهرة كانت مبللة بندى السماء، بينما كانت كل الأرض بجانبه جافة (قض ٦: ٣٧). هذا الذي إذ يُرش دمه على قوائم الأبواب يطرد مُهلك مصر (خر ١٢: ٢١-٢٣)، وينزع خطايا العالم[1].

القديس جيروم

"**فاعترف ولم ينكر،**

وأقر أني لست أنا المسيح" **[٢٠].**

من الجانب السلبي أكّد القديس يوحنا أنه ليس بهذه العظمة، فهو ليس بالمسيح المنتظر. إنه لن يقبل أن يسلب المسيح مركزه أو كرامته. كان يوحنا المعمدان مهوبًا، فظنه البعض أنه المسيا. "وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح..." (لو ٣: ١٥). لهذا أسرع يوحنا يؤكد بطلان الإشاعات، معلنًا أنه ليس المسيح.

❖ كان سمو يوحنا عظيمًا جدًا حتى ظن الناس أنه المسيح، وفي هذا قدم برهانًا على تواضعه، إذ قال إنه ليس المسيح[2].

❖ بينما **كانوا يترجون مجيئه**، إذ صار حاضرًا قاوموه وتعثّروا فيه كما بحجر منخفض. إذ كان لا

---

[1] *Letter 108:10.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4:13.*

يزال حجرًا صغيرًا، قُطع بالحق من جبل بدون يدين، كما يقول دانيال النبي، أنه رأى حجرًا مقطوعًا من الجبل بدون يدين، كما يقول دانيال النبي، أنه رأى حجرًا مقطوعًا من الجبل بدون يدين (دا ٢: ٣٤-٣٥)... لم يرَ اليهود العميان الحجر الأسفل، لكن يا لعظم عماهم أنهم لا يرون الجبل[1].

القديس أغسطينوس

"فسألوه: إذًا ماذا؟

إيليا أنت؟

فقال: لست أنا.

ألنبي أنت؟

فأجاب: لا" [٢١].

أعلن أنه ليس بإيليا النبي، وإن كان قد حمل روحه الناري الذي يهيئ الطريق للمسيا (لو ١: ١٧). لذلك قال السيد المسيح أن إيليا جاء ولم يعرفوه (مت ١٧: ١٢). لكنه ليس إيليا حسبما كان يفكر اليهود. فقد كانوا يتوقعون نزوله بالمركبة النارية التي صعد بها إلى السماء، وأنه يقدم لليهود امتيازات مادية أرضية معينة. وأنه ليس النبي الذي تنبأ عنه موسى النبي (تث ١٨: ١٥، ١٨)، ولا أيضًا كأحد أنبياء العهد القديم الذين انشغلوا بأمور إسرائيل وتصحيح أوضاعهم السياسية.

❖ لو أنه قال: "أنا إيليا" يكون ذلك بمعنى أن المسيح قادم فعلاً في مجيئه الثاني للدينونة، وليس في مجيئه الأول ليُحاكم... لقد جاء كرمزٍ (لو ١: ١٧) حيث يأتي فيما بعد إيليا بشخصه اللائق به، أما الآن ففي شبهه جاء يوحنا[2].

القديس أغسطينوس

❖ لم يقولوا ليوحنا: أنبي أنت؟ أي هل أنت واحد من الأنبياء؟ لكنهم سألوه قائلين "النبي أنت؟" بإضافة أداة التعريف. بمعنى هل أنت النبي الذي سبق موسى فأخبر عنه (تث ١٨: ١٥)؟ أنكر هذا المعنى، ولم ينكر أنه نبي، لكنه أنكر أنه هو ذاك النبي.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4:6.*

"فقالوا له: من أنت لنعطي جوابًا للذين أرسلونا؟

ماذا تقول عن نفسك" [٢٢].

سألوه أن يجيبهم من هو لا لكي يؤمنوا به، أو يطلبوا العماد منه، وإنما لمجرد تقديم إجابة لمرسليهم. كانوا يتوقعون منه أن ينالوا إجابة واضحة، خاصة وأنه قد حمل ملامح الجدية والصراحة، وقد كان.

❖ لاحظوا كيف يضغطون عليه بأكثر عنف ليحثوه على الإجابة، مكررين أسئلتهم دون توقف، أما هو فبلطفٍ أزال عنهم المفاهيم الخاطئة بخصوص شخصه، ليقدم لهم ما هو حقيقي[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"قال: أنا صوت صارخ في البرية،

قوَّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبي" [٢٣].

جاء صريحًا في إجابته فنطق بالحق، موضحًا أنه جاء يتمم ما ورد في الكتب، وأنه يحمل سلطانًا إلهيًا كسابقٍ للمسيح، يهيئ له الطريق.

تحدث القديس يوحنا المعمدان عن نفسه أنه الصوت الصارخ في البرية (إش ٤٠: ٣-٤). وحين شهد عن المسيح "**صرخ**" [١٥]. فماذا يعني بالصراخ. إنه لا يعني الصوت الخارجي المرتفع أو الصياح، لكنه يتكلم مع الله والناس بلغة الروح التي يسمعها الله حتى وإن صمت اللسان، والتي تخترق قلوب الناس. لقد اعتمد السيد المسيح نفسه شهادة يوحنا المعمدان أنها حق. إذ يقول: "الذي يشهد لي هو آخر، وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق" (يو ٥: ٣٢-٣٣).

❖ إن كان الصوت العقلي للذين يصلون يلزم ألا يكون عاليًا بمبالغة، إلاَّ أنه ليس ضعيفًا، ويليق بهم ألا يرفعوا صرخة أو صيحة، فإن الله يسمع الذين يصلون هكذا.

إنه يقول لموسى: "لماذا تصرخ إليَّ"؟ (خر ١٤: ١٥) بينما لم يصرخ بصوت عالٍ (إذ لم يُذكر ذلك في سفر الخروج)، وإنما خلال الصلاة صرخ بصوت عالٍ بذاك الصوت الذي يسمعه الله وحده. ولهذا يقول أيضًا داود: "أنا صرخت إلى الرب بصوتي، والرب سمع لي" (مز ٧٦: ٢)[2].

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 16:2.*

[2] *Commentary on John, Book 6:101.*

العلامة أوريجينوس

يرى **العلامة أوريجينوس** أن البرية هنا تشير إلى النفوس الرافضة لله وللفضيلة، فقد عرف القديس يوحنا أن يتحدث إلى قلوبهم كما بصرخة الروح.

❖ جاء في الأمثال: "لا تمل يمينًا أو يسارًا" (أم ٤: ٢٧). فمن يميل إلى أحد الجانبين يفقد الاستقامة، ولا يعود يتأهل للرعاية الإلهية عندما يتعدى استقامة الطريق. فإن الرب عادل ويحب العدل، ووجهه يتطلع إلى الاستقامة (مز ١٠: ٧) وما ينظره ينيره[1].

العلامة أوريجينوس

❖ إذ قال يوحنا المعمدان في المسيح وصفًا عظيمًا عاليًا التجأ في الحال إلى إشعياء النبي، جاعلاً قوله بهذا الوجه مؤهلاً لتصديقه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كما أن الصوت يختلف عن الكلمة (الكلام) عندنا، فأحيانًا يمكن أن يصدر صوت بلا معنى بدون كلام، ويمكن أيضًا أن يُعلن الكلام للذهن دون صوت كما يحدث عندما نتأمل في داخلنا، هكذا يوحنا الذي يشبه الصوت في علاقته بالمسيح الذي هو الكلمة، فهو يختلف عن المخلص الذي من جانب معين هو الكلمة[2].

العلامة أوريجينوس

❖ جعل المذيع الناس يقفون خلف الديان، ودعا يوحنا الديان (ليأتي). نعم بالحقيقة يدعو يوحنا البشرية لذاك المتواضع حتى لا يختبروا ما سيكون عليه كديّان ممجد[3].

القديس أغسطينوس

❖ تهدي العروس المديح العريس: "حلقه حلاوة وكله مُشتهيات" (نش ٥: ١٦). نفس هذه الكلمات كالآتي: يوجد الحلق أسفل الذقن ويصدر الصوت من القصبة الهوائية والحنجرة بواسطة حركة الهواء. بما أن كلمات العريس لذيذة مثل العسل في حلاوتها، فصوته هو عضو الكلمة. وصوته

---

[1] *Commentary on John, Book 6:103.*
[2] *Commentary on John, Book 2:193.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4:7.*

الذي يصدر من الحلق قد يطلق عليه راعٍ ومُفسر للكلمة التي يتكلمها السيد المسيح. وسوف نتمكن من فهم حلق العريس بهذه الطريقة. عندما سُئل يوحنا المعمدان: من أنت؟ قال: "**أنا صوت صارخ في البرية**" (يو ١: ٢٣). يقدم الرسول بولس برهانًا على أن السيد المسيح يتكلم بداخله وبواسطته أصبح صوته عذبًا (٢ كو ١٣: ٢٣). **قدم جميع الأنبياء أنفسهم كأعضاء الصوت للروح القدس وأصبحت أصواتهم عذبة بتثبيت العسل المقدس في حناجرهم. يأكل الملوك والشعوب العسل لما له من فوائد صحية.** ولا يقلل التمتع بأكله الرغبة في الاستزادة منه. لذلك تُسمى العروس عريسها "أنه هو كله المرغوب فيه دائمًا" ويعتبر هذا تعبيرًا عن من تبحث عنه. كم هي نعمة عظيمة لأرجل العريس التي تجعله مرغوبًا فيه بشدة. فأرجله كاملة في كل شيء خيّر وتتكون هيئته وجمالها المرغوب فيه من جميع أعضاؤه. فهو مرغوب فيه ليس فقط من أجل عيونه ويداه وخصلات شعره بل أيضا من أجل قدميه ورجليه وحنجرته. فلكل عضو من الأعضاء أهميته الخاصة ولا يقلل من هذه الأهمية ارتفاع أهمية أحد الأعضاء على الأعضاء الأخرى[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"**وكان المرسلون من الفريسيين**" **[٢٤]**.

"**فسألوه وقالوا له:**

فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟" **[٢٥]**.

كان العماد شائعًا جدًا بين اليهود حيث كانوا يعمدون الداخلين إلى الإيمان اليهودي لكي يتمتع الدخيل بكمال الحقوق التي للمؤمن. لهذا حمل هذا السؤال خبثا، فقد أرادوا أن يصطادوه. لأنه إذ يعمد اليهود القادمين بالتوبة يكون قد تعامل معهم كمن هم من الأمم الوثنيين. ففي معموديتهم إنكار أنهم شعب مختار طاهر، وكأن عمادهم إهانة إلى قدسية الأمة ككل، وإلى كرامة اليهود كشعب الله المختار، وإلى السلطات الدينية كأنها عاجزة عن تحقيق قدسية الشعب. ومن جانب آخر خشوا إن تكون معموديته مسيانية، خاصة بالمسيا المنتظر، يجريها إنسان ليس عضوًا في الهيئة الكهنوتية أو الفريسية، فيكون كمن سحب سلطانهم واعتزل عنهم.

❖ ألا ترون أنهم ليس بدون سبب أرادوا أن يصلوا به إلى هذا (أن يكف عن العماد أو يدعي أنه هو

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٤.

المسيح)؟ أما لماذا لم يقولوا هذا من البداية فقد خشوا لئلا يكتشفهم كل الناس[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابهم يوحنا قائلاً:**

أنا أعمد بماء،

ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه" [٢٦].

بحكمة سماوية وبشهادة حق أعلن لهم: "ما بالكم تتشغلون بمعموديتي؟ إنها كلا شيء إن قورنت بمعمودية تتحقق على الأبواب. معموديتي تهيئة لما هو أعظم: معمودية المسيا المنتظر، وقد جاء الوقت وحلّ بينكم وأنتم لا تعرفونه، وهذه هي خطيتكم. أود ألا تتشغلوا بي ولا بمعموديتي، بل بمن أشهد له ولمعموديته!" هكذا بروح إيليا الناري الذي لم يخشَ آخاب الملك وإيزابيل الشريرة بل أرعب قلبيهما، نطق أيضا يوحنا الجديد أمام اللجنة المرسلة من السنهدرين في شجاعة وجرأة بلا خوف. لم ينطق بكلمة فيها تشامخ، بل بروح التواضع وفي نفس الوقت شهد بروح الحق.

إلى الآن المسيح قائم أقرب إلى الإنسان مما يتصور الإنسان نفسه، لكنه غير قادر على معرفة ذلك. وكما قال **القديس أغسطينوس** أن السيد المسيح كان في داخله عميقًا أعمق من عمقه، وعاليًا أعلى من علوه، وأنه في غباوته خرج خارجًا يبحث عنه، وهو في داخله.

❖ قال يوحنا المعمدان عن المسيح: "**في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه**"، لأنه كان لائقًا بالمسيح أن يختلط بالشعب كواحدٍ من كثيرين، إذ يعلمنا في كل موضع طبيعته الخالية من الكبرياء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لتظهروا أهلاً أن يكون المسيح في وسطكم.

لأنه حيث يوجد السلام يوجد المسيح، إذ المسيح هو السلام.

وحيث يوجد البرّ يكون المسيح، لأن المسيح هو البرّ.

ليكن في وسطكم لكي تروه، لئلا يُقال لكم أنتم أيضًا: "**ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه**" [٢٦]. لم يره اليهود هؤلاء الذين لم يؤمنوا به. إننا ننظر إليه بالورع، نتطلع إليه بالإيمان.

ليقف إذن في وسطكم، لكي تنفتح لكم السماوات التي تعلن مجد الله (مز ١٩: ١)، فتعلموا

[1] *Homilies on St. John, Hom. 16:2.*

مشيئته، وتعملوا أعماله. من يرى يسوع تنفتح السماوات له كما انفتحت لإستفانوس (أع ٧: ٥٦)[1].

القديس أمبروسيوس

"**هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي،**
الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه" **[٢٧]**.
كأن يوحنا يقول إن المسيح أكرم مني قدرًا وأبهى مكانًا.

❖ لم يعمد يوحنا بالروح لكنه كرز بالمسيح وبالروح... إذ لم يعتمدوا لا باسم المسيح ولا بالإيمان بالروح القدس لم يستطيعوا نوال سرّ العماد[2].

القديس أمبروسيوس

❖ كأنه يقول: "لا تبدأوا تظنوا أن كل شيء هو في معموديتي، فلو أنها كاملة، لما قام آخر بعدي ليقدم معمودية مختلفة. معموديتي هي مجرد ظل وصورة. لكن يأتي من يضيف إليها الحقيقة. حتى أن مجيئه نفسه بعدي يُظهر بالأحرى كرامته. لو أن الأولى كاملة لما كان يوجد موضع للأخرى. الذي يأتي بعدي أكثر كرامة وبهاءً... ولكي يظهر عدم إمكانية المقارنة قال: "الذي لست مستحقًا أن أحل سيور حذائه"[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه لأمر عظيم أن نحمل حذاء يسوع، ولكنه لأمر عظيم أيضًا أن ننحني إلى أموره الجسدية التي حدثت أسفل (على الأرض)، وذلك لكي نتأمل صورته أسفل وأن نحل كل صعوبة تخص سرّ التجسد، كما لو كانت كل سيور حذائه. إنه لأمر واحد هو رباط الغموض وكأنه مفتاح المعرفة (لو ١١: ٥٢) الواحد. فإنه **حتى الأعظم بين مواليد النساء (لو ٧: ٢٨) لم يجد في نفسه الكفاءة أن يحل أو يفتح هذه المصاعب، حيث أن الذي ربط وأغلق وحده يمنح لمن يريد أن يحل ويفتح سير حذائه والأمور المغلقة**[4].

❖ إن كانت العبارة الخاصة بالحذاءين لها معناها الخفي يلزمنا ألا نعبر عن ذلك. أظن أن التجسد،

---

[1] *Letters, 63:4-5.*
[2] *Of the Holy Spirit, Book 1:3:41.*
[3] *Hom 16. PG. 59:94.*
[4] *Commentary on John, Book 6:172 – 173.*

حيث أخذ الابن لحمًا وعظامًا هو أحد الحذاءين، ونزوله إلى بيت الجحيم أينما وُجد، والرحلة بالروح إلى السجن هو الحذاء الآخر. جاء في مز ١٥ عن النزول إلى بيت الجحيم: "لا تترك نفسي في الجحيم" (مز ١٥: ١٠)...[1]

العلامة أوريجينوس

❖ ليس أحد هو العريس سوى المسيح الذي يقول عنه القديس يوحنا: "من له العروس فهو العريس" (يو ٣: ٢٩). لذلك هؤلاء (موسى ويشوع بن نون وغيرهما) خلعوا أحذيتهم، أما حذاؤه فلا يقدر أحد أن يحل سيوره، وكما قال القديس يوحنا: "**أنا لست مستحقًا أن أحل سيور حذائه**" [٢٧][2].

القديس أمبروسيوس

يستعير **البابا غريغريوس (الكبير)** عن **العلامة أوريجينوس** فهمه للحذاء أنه يشير إلى الجسد القابل للموت، لأنه مصنوع من جلد الحيوانات بعد ذبحها. وكأن الكلمة بتجسده ارتدى الجسد القابل للموت مخفيًا لاهوته. ولم يكن ممكنًا ليوحنا أن يحل سيوره، أي أن يتعرف بعد على أسراره خلال روح النبوة[3].

❖ كيف تواضع جدًا! لذلك ارتفع جدًا!، لأن من يتواضع يرتفع (لو ١٤: ١١)... لقد قال: "لا أنا بل هو"، أما هم فقالوا: "نحن". يوحنا غير مستحق أن يحل سيور حذائه. كم كان تواضعه لو أنه قال أنه مستحق لذلك، وأما بقوله: "**يأتي بعدي من هو كان قبلي، الذي لست مستحقًا أن أحل سيور حذائه**" فقد ظهر تواضعه عظيمًا. عندما يقول أنه غير مستحق لفعل هذا. بالحقيقة كان مملوءً من الروح القدس الذي بهذا عرف كخادم سيده، وتأهل أن يكون صديقًا عوض خادم[4].

القديس أغسطينوس

"**هذا كان في بيت عبرة في عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد**" **[٢٨].**

"**بيت عبرة**" أو بيت العبور، وهو عبر الأردن. ويرى البعض أنه في هذا الموضع عبر إسرائيل الأردن متجهين نحو أرض الموعد تحت قيادة يشوع.

❖ ذكر البشير المكان لكي يوضح مجاهرة يوحنا المعمدان النذير العظيم بصوته، لأنه ما شهد

---

[1] *Commentary on John, Book 6:174 – 175.*
[2] *Of the Christian Faith, 3:10:71.*
[3] *Hom. 4:7, Forty Gospel Homilies PL 76:1099-1103.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4:9.*

بالمسيح في بيت ولا في زاوية، لكنه توجه إلى الأردن وأنذر به في وسط جماعة الناس الحاضرين الذين اعتمدوا منه كلهم، ونادى لديهم بذلك الاعتراف العجيب.

❖ النسخ الأكثر صحة تذكر "**بيت عبرة**" وليست "بيت عنيا"، لأن بيت عنيا ليست عبر الأردن، ولا في البرية بل بالقرب من أورشليم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ معنى اسم "**بيت عبرة**" مناسب لمعمودية ذاك الذي يعد شعبًا للرب، إذ تُترجم "بيت الإعداد". "بيت عنيا" يعني "بيت الطاعة". أي إذن مناسب لذاك الذي أُرسل كملاك أمام وجه المسيح ليعد طريقًا أمامه ليعمد مثلما يكون في "بيت الإعداد"[2].

العلامة أوريجينوس

"**وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه،**
فقال: هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" [٢٩].

في شهادة يوحنا له نلاحظ الآتي:

❖ أنه **حمل الله** فقد اعتادت البشرية أن تقدم الذبائح لله لمراضاته. أما هنا فالذي يُعد الذبيحة هو الله الآب نفسه الذي يقدم ابنه الوحيد ذبيحة.

❖ أنه ذبيحة كفارة أو ذبيحة إثم، قادرة بالحق أن ترفع الخطايا، وليست ظلاً أو رمزًا كالذبائح الحيوانية.

❖ يمتد عملها إلى البشرية كلها. هذا ما كان غريبًا عن الفكر اليهودي، إذ يقول[3] *Yalcut Rubeni* على سبيل المثال: سوف يحمل المسيا خطايا الإسرائيليين". أما أن يمتد إلى العالم كله، فهذا ما لا يقبله اليهود.

هنا هو اللقاء الثاني بين شخص السيد المسيح والسابق له يوحنا المعمدان. أما اللقاء الأول فيرويه لنا لوقا الإنجيلي (لو ١: ٣٩-٤١) حيث التقى الجنين الذي في أحشاء القديسة مريم بالجنين في

---

[1] *Hom. 17. PG 59: 96.*
[2] *Commentary on John, Book 6:206.*
[3] *Fol. 30.*

أحشاء القديسة اليصابات. وقد قدم لنا **العلامة أوريجينوس** نوعًا من المقارنة بين اللقاءين.

أولاً: في اللقاء الأول سكب المسيا وهو جنين في بطن أمه نوعًا من مجده على الجنين يوحنا المعمدان، حتى حمل نوعًا من الشبه، لذلك لم يستطع البعض التمييز بين الأصل والصورة. فحسب البعض يوحنا هو المسيا (يو ١: ٢٠)، وظن آخرون السيد المسيح يوحنا قائمًا من الأموات (لو ٣: ٥؛ مت ١٤: ٢؛ مر ٦: ١٤).

ثانيًا: إن كان المسيح هو الكلمة ويوحنا هو الصوت، فقد كان هذا الصوت عاليًا في أحشاء اليصابات حين امتلأت بالروح القدس عند سماعها تحية مريم، فصرخت بصوتٍ عالٍ وقدمت شهادتها (لو ١: ٤٢). وكما يقول **العلامة أوريجينوس** [هذا هو السبب الذي لأجله ركض يوحنا وصارت الأم كما لو كانت الفم ونبية عن الابن (الكلمة) عندما صرخت بصوت عالٍ وقالت: "مباركة أنتِ في النساء، ومباركة هي ثمرة بطنكِ" (لو ١: ٤٢)][1].

يتساءل **العلامة أوريجينوس** لماذا دُعي المخلص حملاً مع أن ذبائح العهد القديم هي ثلاثة أنواع من الحيوانات ونوعان من الطيور: الثور، الحمل، الماعز، يمامتان، فرخا حمام (لا ٥: ٦–٧، ١٨). يجيب على ذلك بأن خروفين حوليين كانا يُقدمان كل يوم دائمًا، واحد كتقدمة صباحية دائمة، والآخر كتقدمة مسائية دائمة. [أية ذبيحة دائمة يمكن أن تكون روحية تقدم للكائن الروحي أفضل من الكلمة في أولويته، الكلمة الذي يُدعى رمزيا "**الحمل**" الذي أُرسل حتى تستنير النفس (لأن هذه هي الذبيحة الصباحية) وترفع أيضًا في نهاية (المساء) وقت العقل المنشغل بالأمور السماوية؟[2]] هكذا نبدأ فجر حياتنا بذبيحة الحمل لنقضي يومنا كله مشغولين بخلاصه حتى يحل مساء عمرنا، فننعم بذات الذبيحة التي تحملنا إلى يومنا الجديد، الأبدية التي لا تنقطع، فنراه في السماء مع القديس يوحنا الحبيب: "الحمل كأنه مذبوح" (رؤ ٥: ٦).

❖ ماذا يلزمنا أن نفهم، وأية عظمة لحمل الله الذي ذُبح لكي يرفع الخطية ليس عن قليلين بل عن كل العالم [٢٩]، الذي من أجله تألم؟ "لأنه إن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا العالم أيضًا" (١ يو ٢: ١–٢). إذ هو مخلص كل بشر ولاسيما المؤمنين (١ تي ٤: ١٠). إنه هو الذي محا الصك الذي كان علينا

[1] *Commentary on John, Book 6:255.*
[2] *Commentary on John, Book 6:270.*

بدمه، ورفعه من الوسط، فلم يعد أثر للخطايا التي وُجدت بل مُحيت، مسمرًا إياها على الصليب، هذا الذي إذ جرد الرئاسات والسلاطين أشهرهم جهارًا ظافرًا بهم في الصليب (كو ٢: ١٤–١٥). هكذا تعلمنا أن نكون فرحين حينما نتألم في العالم. نتعلم علة فرحنا، وهو أن العالم قد انهزم (يو ١٦: ٣٣). وبالتأكيد خضع لمن غلبه. لهذا كل الأمم تتحرر ممن سيطروا عليهم، وصاروا يخدمونه، إذ ينقذ الفقراء من الجبار وذلك بقوة آلامه، ويخلص المسكين الذي لا معين له (مز ٧٢: ٤–٥)[1].

❖ صار حمل الله حملاً صغيرًا بريئًا يُقاد للذبح لكي **ينزع خطية العالم** (إش ٥٣: ٧؛ يو ١: ٢٩). الذي يهب الكلام (الكلمة) للكل صار مقارنًا بحملٍ صامتٍ أمام جازيه (إش ٥٣: ٧)، لكي نتطهر نحن جميعًا بموته، الذي يُوزع كدواءٍ ضد تأثيرات العدو، وضد خطية الذين يشتاقون إلى قبول الحق. فإن موت المسيح أبطل القوات المقاومة للجنس البشري، وأباد بسلطان لا يوصف الحياة في الخطية في حياة كل مؤمن[2].

العلامة أوريجينوس

❖ إذ عمده يوحنا مع كثيرين (آخرين) فلئلا يظن أحد أنه أسرع إلى يوحنا بذات الهدف مثل البقية، أي يعترف بخطايا، ويغتسل في النهر للتوبة، لهذا أعطي ليوحنا الفرصة ليقدم الرأي السليم مرة أخري بالقول: "**هوذا حمل الله الذي ينزع خطايا العالم**"، فيزيل كل شكٍ.

من الواضح تمامًا أن الذي هو طاهر هكذا حتى يستطيع أن ينزع خطايا الآخرين، لا يأتي لكي يعترف بخطايا، بل ليعطي فرصة لذاك المذيع العجيب أن يعلن ما قاله قبلاً بأكثر تحديد لمن سمعوه قبلاً، كما يسمعه آخرون أيضا.

استخدم كلمة "**هوذا**" لأن كثيرين بحثوا عنه، لهذا السبب الذي يقوله (يحمل خطاياهم) ولمدة طويلة. لهذا أشار إليه عند حضوره، قائلاً: "**هوذا**" الذي تبحثون عنهم زمانًا طويلاً، إنه "الحمل".

دعاه حملاً، مُذكرًا اليهود بنبوة إشعياء النبي التي تقول: "ظُلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه، كشاةٍ تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها، فلم يفتح فاه" (إش ٥٣: ٧).

ذكرهم بالظل الذي تحت ناموس موسى، لكي يقودهم إلى ما هو أفضل، من الرمز إلى الحقيقة.

---

[1] *Commentary on John, Book 6:285 – 286.*
[2] *Commentary on John, Book 1:233.*

حمل موسى لم ينزع للحال خطايا أحد، أما هذا فيزيل خطايا كل العالم. كان العالم في خطر الدمار فأسرع إليه وخلصه من غضب الله[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا تخجل من صليب مخلصنا بل بالأحرى افتخر به. لأن "كلمة الصليب عند اليهود عثرة، وعند الأمم جهالة"، أما بالنسبة لنا فخلاص (١ كو ١: ٢٣). إنه عند الهالكين جهالة، وأما عندنا نحن المخلصين فهو قوة الله (١ كو ١: ١٨). لأنه كما سبق أن قلت أنه لم يكن إنسانًا مجردًا ذاك الذي مات عنا، بل هو ابن الله، الله المتأنس.

بالأحرى إن كان الحمل في أيام موسى جعل المُهلك يعبر، أفلا ينزع عنا خطايانا ذاك الذي هو **حمل الله الذي يرفع خطايا العالم؟!**

دم الخراف غير الناطقة وهب خلاصًا، أليس بالأحرى دم ابن الله الوحيد يخلص؟!

من ينكر قوة المصلوب فليسأل الشياطين!

من لا يؤمن بالكلام فليؤمن بما يرى، فكثيرون صُلبوا في العالم، لكن الشياطين لم تفزع من واحدٍ منهم، لكنها متى رأت مجرد علامة صليب المسيح الذي صُلب عنا يُصعقون، لأن هؤلاء الرجال صُلبوا بسبب آثامهم، أما المسيح فصُلب بسبب آثام الآخرين... "لأنه لم يعمل ظلمًا ولم يكن في فمه غش" (إش ٥٣: ٩، ١ بط ٢: ٢٢). لم ينطق بهذه العبارة وحده، وإلا لشككنا في أنه منحاز لمعلمه. لكن إشعياء قال أيضًا، ذاك الذي لم يكن حاضرًا معه بالجسد لكنه تنبأ بالروح عن مجيئه بالجسد.

ما بالنا نستشهد بالنبي وحده هنا؟ فها هو بيلاطس نفسه الذي حكم عليه يقول: "لا أجد في هذا الإنسان علة" (لو ١٤: ٢٣) ولما أسلمه غسل يديه قائلاً: "أنا بريء من دم هذا البار".

هناك شهادة أخرى عن يسوع البار الذي بلا خطية، هي شهادة اللص أول الداخلين الفردوس، إذ بكَّت زميله منتهرًا إياه قائلاً: "أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئًا ليس في محله (لو ٢٣: ٤١)، لأن كلينا تحت قضائه[2].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ "الزهور ظهرت في الأرض، بلغ أوان القضب، وصوت اليمامة سمع في أرضنا" (نش ٢: ١٢).

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 17:1.*

[2] مقال ١٣: ٣.

يقول العريس: "انظروا فان المروج مزدهرة بأزهار الفضيلة. هل ترى هذا النقاء في جمال النرجس العبق؟ هل ترى ورد التواضع والبنفسج الذي يمثل رائحة السيد المسيح الذكية؟ لماذا إذن لا تعمل تاجًا من هذه الزهور؟ فهذا هو موسم قضب الزهور. لتعمل فرع تاج لتزين بها نفسك. قد حلّ موسم التقليم. يشهد بذلك صوت اليمامة أي أنه يشبه "**صوت صارخ في البرية**" (متى ٣: ٣)، **فيوحنا المعمدان هو اليمامة**. هو الذي تقدم هذا الربيع المنير الذي أنبت لبنى البشر الزهور الرائعة للقضب، وقدمها لكل من رغب في جمعها. إنه هو الذي بيّن لنا الزهرة التي من أصل يسى (إش ١١: ١)، "**حمل الله الذي يحمل خطية العالم**" (يو ١: ٢٩). وهو الذي أوضح لنا التوبة عن الخطية، والحياة حسب الفضيلة. يقول النص: "سُمع صوت اليمامة في أرضنا"، وهي تنادى: "يا أرض" تنادي هؤلاء الذين أُدينوا لخطيتهم، هؤلاء الذين يطلق عليهم الإنجيل "العشارين والزناة"، سمعوا صوت يوحنا المعمدان، بينما لم تقبل البقية تعاليمه[١].

❖ "أذهب إلى تل المر وإلى جبل اللبان" (نش ٤: ٦)...

خلصت الطبيعة البشرية ومن وصمة الخطية بعد أن **رفع حمل اللّه خطية العالم وحطم الإثم** (يو ١: ٢٩). لذلك يقول النشيد: "كلك جميل يا حبيبتي، ليس فيك عيبة" ويضيف إلى ذلك سرّ الانفعال الذي يرمز إليه المرّ (نش ٤: ٦)، ثم يذكر خليط الأعشاب العطرة والبخور التي تُشير إلى ألوهية المسيح. أن الذي يشارك المسيح في المرّ سوف يحصل على رائحة الأعشاب العطرة والبخور، لأن الذي يتألم معه سينال معه المجد (رو ٨: ١٧). وعندما يكون في المجد الإلهي سيحصل على الجمال الكامل ويكون بعيدًا جدًا عن كل عيب بغيض بواسطة المسيح ومن خلال المسيح ينفصل عن الخطية. إنه مات وقام من الأموات لأجلنا، وله المجد والقوة الآن وإلى الأبد آمين[٢].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ "**هوذا حمل الله**". إنه ليس بفرعٍ ممتدٍ من آدم، إنما استمد منه الجسد ولم يأخذ خطية آدم. إنه لم يأخذ الخطية عليه من العجين الذي لنا، إنما هو الذي ينزع خطايانا[٣].

القديس أغسطينوس

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٥.

[٢] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٧.

[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4:10.*

❖ النزع (للخطية) يعمل في كل واحدٍ في العالم حتى **تُمحى الخطية من العالم كله**، ويسلم المخلص مملكة معدة (١ كو ١٥: ٢٤) للآب، ليس فيها خطية ما قط، مملكة تسمح بحكم الآب وتأتي بالكل إلى الله بكاملها، فيتحقق القول "يكون الله الكل في الكل" (١ كو ١٥: ٢٨)[1].

❖ نؤمَر بذبح الحمل في العشية (خر ١٢: ٦)، حيث أتى الحمل الحقيقي، مخلصنا، إلى العالم (يو ١: ٢٩) في الساعة الأخيرة (١ يو ٢: ١٨)[2].

❖ كل إنجيل يجلب فرحًا بسبب صالح[3].

❖ المسيح هو الصلاح الذي كان ينتظره الشعب[4].

العلامة أوريجينوس

❖ لنتأمل في نفع الإيمان المستقيم. إنه نافع لي أن أعرف أنه من أجلي احتمل المسيح ضعفاتي، وخضع لعواطف جسدي. ومن أجلي، أقول من أجل كل إنسانٍ، صار خطية ولعنة (٢ كو ٥: ٢١؛ غلا ٣: ١٣)، من أجلي وفي تواضع وخضوع. ومن أجلي هو الحمل والكرمة والصخرة (يو ١: ٣٦؛ ١٥: ١؛ ١ كو ١٠: ٤)، والعبد وابن أمة (مر ١٠: ٤٥؛ يو ١٣: ٤–٥؛ مز ٨٦: ١٦؛ ١١٦: ١٤، يو ١: ٣٨)، وغير عارف ليوم الدينونة، من أجلي جهل اليوم والساعة (مت ٢٤: ٣٦)[5].

القديس أمبروسيوس

ماذا يُقصد بالعالم؟

يميل **العلامة أوريجينوس** الذي يؤمن بخلاص كل البشرية أن العالم كله سيخلص معتمدًا على قول الرسول بولس: "لأننا قد ألقينا رجاءنا على الله الحي الذي هو مخلص جميع الناس، ولاسيما المؤمنين" (١ تي ٤: ١٠). غير أن الرأي السائد في الكنيسة في أيامه غالبًا ما كان يقصد بالعالم هنا العالم الذي استتار بالمخلص فصار كنيسته المقدسة بدمه. وقد عبَّر عن ذلك **العلامة أوريجينوس**

---

[1] *Commentary on John, Book 1:235.*
[2] *Peri Pascha 25 (Translated by Robert J. Daly - ACW).*
[3] *Commentary on John, Book 1:28.*
[4] *Commentary on John, Book 1:29.*
[5] *Of the Christian Faith, 2:11:93.*

بقوله: [يرى البعض **أن العالم يعني الكنيسة وحدها، بكونها زينة العالم. إذ قيل أيضًا أنها نور العالم، إذ يقول الكتاب: "أنتم نور العالم" (مت ٥: ١٤). الكنيسة هي زينة العالم حيث أن المسيح الذي هو نور العالم الأول هو زينتها... ليته يُقال عن الكنيسة أنها العالم المستنير بالمخلص**[1].]

في تسبحة الملائكة في صلاة (تسبحة) باكر نترنم قائلين: "يا حمل الله، يا حامل خطية العالم ارحمنا". يرى البعض إنها من أقدم التسابيح في الشرق والغرب. ففي الغرب قبيل التناول يرددون: "يا حمل الله الرافع خطية العالم، ارحمنا".

"**هذا هو الذي قلت عنه:**

يأتي بعدي رجل صار قدامي،

لأنه كان قبلي" **[٣٠]**.

يكرر المعمدان هذه الشهادة أنه وإن سبق في الزمن مجيئه عن مجيء الكلمة المتجسد إنما ليهيئ الطريق، أما من جهة الوجود، فالكلمة كائن أزلي سابق له، وأعظم منه في الكرامة.

❖ يقول المعمدان: "مجيئي ليس له هدف إلا أن يعلن عن المحسن العام لكل العالم المسكون، وأن يقدم معمودية الماء، أما هذا فيطّهر كل البشرية ويهب طاقة الروح. يأتي بعدي ذاك الذي يظهر أكثر مني بهاءً، "**لأنه كان قبلي**"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وأنا لم أكن أعرفه،**

لكن ليظهر لإسرائيل،

لذلك جئت أعمد بالماء" **[٣١]**.

غاية رسالة يوحنا هو تقديم يسوع المسيح لشعب إسرائيل مع أنه لم يكن بعد قد رأى وجهه ولا عرفه، ولم يكن قادرًا أن يصفه سوى أنه حمل الله الذي يرفع خطية العالم.

❖ كانا قريبين حسب الجسد... ولئلا يبدو إنه يقدم مجدًا له بسبب القرابة استمر يقول: "**وأنا لم أكن أعرفه**"[3].

---

[1] *Commentary on John, Book 6:301, 304.*
[2] *Hom. 17.*
[3] *Hom 17. PG 59:99.*

❖ كيف تكون يا يوحنا شاهدًا مؤهلاً للتصديق، كيف تُعلم أناسًا آخرين إن كنت جاهلاً به؟! إلا أن يوحنا لم يقل: "لم أعرفه"، لكنه قال: "**أنا لم أكن أعرفه**". وبهذه الشهادة صار مؤهلاً لتصديقه كثيرًا، إلا أنك إن سألته: فكيف عرفته؟ يقول لك: عرفته بنزول الروح عليه...

أما كان يمكن ليوحنا أن ينذر بالمسيح بدون التعميد، ويقتاد الجموع بسهولة؟ فأجيبك: لم يكن ذلك ممكنًا البتة، لأنه لو كان قد نادى وأنذر بدون معمودية لما كان أهل ذلك البلد تقاطروا إليه كلهم على هذا المثال في كثرتهم، ولا عرفوا من المقايسة بينهما سمو أحدهما، إذ أن جموع الشعب خرجت إليه ليس لأنهم سمعوا الأقوال التي قالها، لكنهم خرجوا إليه ليعتمدوا ويعترفوا بخطاياهم، فلما جاءوا إليه علَّمهم وعرَّفهم ما شهد به في وصف المسيح والفرق بين المعمودية التي له والتي للمسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ وإن كان قد عرفه وهو لا يزال في رحم أمه (لو ١: ٤١–٤٤) بالتأكيد لم يعرف كل شيء عنه، وربما لم يكن يعرف أنه ذاك "الذي يعمد بالروح القدس ونار". عندما رأى الروح نازلاً ومستقرًا عليه [٣٣][1].

العلامة أوريجينوس

"**وشهد يوحنا قائلاً:**
إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء،
فاستقر عليه" **[٣٢]**.

❖ لا تظن أن هذا تجسد، بل ظهور. لقد جلب المظهر أمامه، حتى بالمظهر يؤمن ذاك الذي لم يرَ الروح. وبالمظهر يعلن أنه شريك مع الآب والابن في كرامة السلطة، عمل واحد في السرّ، عطية واحدة في الغطس[2].

❖ قال بما يليق: "**استقر عليه**"، لأن الروح أوحى بالكلام أو العمل للأنبياء كيفما شاء، لكنه مستقر على الدوام في المسيح[3].

❖ لا تهتز من القول: "**عليه**" إذ هو يتحدث عن "ابن الإنسان"، إذ اعتمد بكونه ابن الإنسان. فهو

---

[1] *Commentary on John, Book 1:239.*
[2] *On the Holy Spirit, Book 3:1:4.*
[3] *On the Holy Spirit, Book 3:1:5.*

ليس **عليه** حسب اللاهوت، بل **فيه**، كما أن الآب في الابن والابن في الآب[١].

القديس أمبروسيوس

يقول **البابا أثناسيوس الرسولي** أنه إذ استقر الروح على يسوع **[فذلك من أجل تقديسنا حتى ما نشارك مسحته[٢].]**

❖ لم يكن ممكنًا أن يصيروا أبناء، لأنهم بالطبيعة مخلوقات، ما لم يتقبلوا روح ذاك الذي بالطبيعة الابن الحقيقي. فلكي يتحقق ذلك "صار الكلمة جسدًا"، لكي ما يجعل الإنسان قادرًا على اللاهوت[٣]

❖ يعمل الآب كل الأشياء بالكلمة في الروح القدس، بهذه الوسيلة تحفظ وحدة الثالوث القدوس[٤].

البابا أثناسيوس الرسولي

❖ لست أتحدث عن المسيح الذي يسكن الروح فيه، ليس كمن يهب طاقة *ouchos energoun*، بل كرفيق لذاك الذي له ذات الكرامة[٥].

القديس غريغوريوس النزينزي

لم يتردد **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن أن يعلن أن يسوع كان مملوءً بالروح، إذ "هو روحي، لأن الروح نفسه شكله (من جهة تأنسه)، إنه كلمة الله كما أنه طاقة الروح"[٦].

كان **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** معارضًا للقول بأن الروح عمل في المسيح: "أضيف الإشارة إلى أن المسيح الذي سكن في الروح ليس كمن يعطيه طاقة بل كمن هو رفيق بكونه مساوٍ له في الكرامة[٧]. كان يلذ **للقديس غريغوريوس أسقف نيصص** أن يتحدث عن الروح القدس كرفيق للكلمة المتجسد، ويجعل أعماله مُعلنة[٨].

خصص **القديس كيرلس الكبير** الأناثيما ٩ للتعليم الخاص بحضور الروح القدس في المسيح. لا

---

[1] *On the Holy Spirit, Book 3:1:6.*
[2] *Oratio contra Arianos 1:47 PG 26:108c.*
[3] *Oratio contra Arianos 2:59 PG 26:273 A.*
[4] *Epistola ad Serapionem 1:28-29. PG 26:596 A.*
[5] *Oratio 41, In Pentecosten, 11 PG 36:444 B.*
[6] *In Epistolarm ad Hebroeos Homilia 15:2. PG 63:119.*
[7] *Oratio 41. In Pentecosten. PG 36:444 B.*
[8] *Cf. Oratio Catechetica magna, 2. PG 45:17B.*

يحتاج الله الكلمة إلى الشبع خلال الروح، لأنه هو قدوس بالطبيعة. على العكس فإن جسد الكلمة المتجسد صار يستقبل الروح، بكونه هيكل اللاهوت.

❖ إنه آدم الثاني الذي يشبه واحدًا منا، تقبل الروح من الآب، لكي يحفظ طبيعتنا... الروح قد فارقنا بسبب الخطية، وقد صار ذاك الذي لا يعرف خطية يشبه واحدًا منا، حتى يبقى الروح فينا بلا انقطاع[1].

❖ بسبب الخطية لم يجد الروح راحة في الكائنات البشرية، ولكن إذ صار كلمة الله إنسانًا، فإنه عليه وحده، البكر الثاني للجنس البشري، استقر الروح على الطبيعة البشرية، لكي يستقر أيضًا علينا[2].

❖ بعد أن صار إنسانًا، كان له أن يقبل الروح، وإذ فعل هذا ولم يعرف خطية أراد الروح أن يسكن فيه ويستقر عليه بكونه بكر الجنس البشري، وأصله الثاني[3].

❖ إذ كان جسمه كله مملوء بطاقة الروح المحيية، لهذا دعا جسده روحًا، دون أن ينكر أنه جسد[4].

القديس كيرلس الكبير

❖ يأتي المسيح؛ والروح يهيئ طريقه. يأتي في الجسد والروح لا ينفصل عنه قط، يعمل عجائب ويمنح أشفية من الروح القدس. الشياطين تخرج بالروح القدس. حضور الروح يفسد الشيطان. غفران الخطايا يعطى بعطية الروح. لقد اغتسلتم وتقدستم... باسم الرب يسوع المسيح وبروح إلهنا" (١ كو ٦: ١١)[5].

القديس باسيليوس الكبير

❖ "**عيناه كالحمام على مجارى المياه**" **(نش ٥: ١٢)**... يُعبِّر النص عن الحياة الروحية النقية بالحمام، الذي شاهد شبيهها يوحنا **عندما حلَّ الروح القدس على المياه** (يو ١: ٣٢)، لذلك فإن الذي يُعيّن بواسطة اللّه كعيون لجسد الكنيسة يجب عليه أن يغسل أي شيء يعوق بصره، لكي يقوم بوظيفة المراقبة والرؤية كما يجب. يقول اللّه أنه **لا يوجد نوع واحد من المياه لغسل عيوننا،**

---

[1] *In Joannis Evangelium 2:1,32. PG 73:265 D.-267A.*
[2] *In Isaiam 2:11 PG 70:313 D.*
[3] *Dialogus 6. PG 75:1008 C.*
[4] *In Joannis Evangelium 4 PG 73:604.*
[5] *Liber de Spiritu Sancto 19:49. PG 32:157 A.*

بل توجد أنواع كثيرة. فتوجد فضائل عديدة تمثل عدة ينابيع لتنقية المياه التي نغسل بها عيوننا لكي تُصبح نقية. والأمثلة على هذه الينابيع لتنقية المياه هي: المثابرة والعمل الدءوب، والتواضع، والصدق، والبر، والحزم والشجاعة، والرغبة في عمل الخير، والبعد عن الشر. تفيض أنواع هذه المياه وغيرها من نبع واحد وهو يضم مجاريها في مجرى واحد وبواسطتها تتنقى العيون من أي إفرازات للانفعالات[1].

القديس غريغوريوس النيسي

"وأنا لم أكن أعرفه،
لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي:
الذي ترى الروح نازلاً ومستقرًا عليه،
فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس" [٣٣].

❖ يسوع المسيح هو ابن اللُه، ومع هذا لم يكرز قبل العماد بالإنجيل (الذي صُلبه التمتع بالتبني للُه خلال السيد المسيح).

إن كان السيد نفسه قد اتبع هذا الوقت المناسب اللائق، فهل يجوز لنا نحن خدامه أن نخالفه النظام؟! إذ (من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز) عندما "نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة" (مت ٤: ١٧، لو ٣: ٢٢)، لا لكي يراه يسوع فيعرفه، إذ هو يعرفه قبلما يأتي عليه على هيئة جسمية، إنما لكي يراه يوحنا الذي يعمده إذ يقول: "لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقرًا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس" (يو ١: ٢٣).

إن كنت أنت أيضًا تحمل درعًا قويًا فإن الروح القدس يحل عليك، والآب يكلمك من فوق من الأعالي ليس قائلاً: "**هذا هو ابني**" بل "الآن صرت ابني"، لأن فعل المضارع في "**هذا هو ابني**" يخص الابن وحده الذي "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند اللُه وكان الكلمة اللُه" (يو ١: ١)، فهو وحده الذي يقال له: "هو ابني" إذ هو على الدوام ابن اللّه. أما أنت فيُقال لك: "الآن تكون" **إذ لا تحمل بنوة طبيعية بل تتقبلها بالتبني**. هو ابن سرمدي، أما أنت فتقبلت النعمة مؤخرًا[2].

القديس كيرلس الأورشليمي

---

[1] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٣.

[2] مقال ٣: ١٤.

❖ ما الذي لم يكن قد عرفه؟ إنها قوة معمودية الرب، فهي لن تنتقل من الرب إلى أي إنسانٍ، بل تتم خدمتها بكل وضوح هكذا. لا تنتقل القوة من الرب إلى أي أحدٍ، يقوم بالخدمة الشخص الصالح أو الشرير. لا ترتد الحمامة عن خدمة (الخادم الشرير) بل تتطلع إلى قوة الرب. أي ضرر يليق بكم من الخادم الشرير ما دام الرب صالح؟[1]

❖ لقد عرف (يوحنا المعمدان) أنه هو الرب، واعترف أنه هو الحق، وأنه (يوحنا) إنسان حق مُرسل من الحق، هذا ما عرفه يوحنا. ولكن ماذا كان في (المسيح) لم يعرفه يوحنا؟ **إنه قد حان الوقت أن يحتفظ لنفسه بقوة عماده، ولا يحولها إلى أي خادم**... ما الذي لم يكن يعرفه؟ إن **سلطان المعمودية العظيم هو للرب وأنه يرده لنفسه سواء وهو حاضر هنا على الأرض أو عند غيابه بالجسد في السماء**، وحضور جلاله، لئلا يقول بولس: "معموديتي"، ولئلا يقول بطرس: "معموديتي". انظروا وانتبهوا لكلمات الرسل. لم يقل أحدهم: "معموديتي". مع وجود إنجيل واحد للكل، لكنك تجدهم يقولون: "إنجيلي"، ولا تجدهم يقولون "معموديتي". هذا ما تعلمه يوحنا يا اخوتي. ما تعلمه يوحنا بالحمامة فلنتعلمه نحن أيضًا. لأن الحمامة لم تعلم يوحنا دون تعليم الكنيسة، هذه التي قيل عنها: "واحدة هي حمامتي" (نش ٦: ٨). ليت الحمامة (الروح القدس) تعلم الحمامة (الكنيسة)[2].

❖ تقول لي: هذا الشخص أو ذاك عمدك، لكن بالحمامة (الروح القدس) يُقال لي ولك: "إنه هو (الرب) الذي يعمدك. من الذي أصدقه: الحدأة أم الحمامة؟[3]

❖ هذا السرّ مقدس جدًا حتى أن خدمة قاتل له لن يفسده[4].

❖ أي نفع كان في أن تتقبل عماد خادمٍ معين لكي ما لا تزدري من قبول عماد الرب؟...

إن كنت قد جئت إلى الخادم فهل تستنكف من المجيء إلى الرب؟ إن كنت قد قبلت معمودية الخادم، فهل تستنكف من أن تتعمد بواسطة الرب؟[5]

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5:11.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5:8-10.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5:13.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5:19.*
[5] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4:13.*

❖ لو أنه كان يجهله تمامًا لما قال له عند مجيئه إلى النهر ليعتمد: "أنا محتاج أن أعتمد منك، فكيف تأتي إليّ؟"... لقد عُرف الرب بواسطة الحمامة، لا لذاك الذي لم يعرفه، بل لذاك الذي عرفه بطريقة ما، ولم يعرفه من جانب آخر. إنه من أجلنا لكي نكتشف ما هو فيه، الأمر الذي لم يعرفه يوحنا وتعلمه بالحمامة[1].

القديس أغسطينوس

❖ أظن أننا لا نستطيع أن نكف عن رؤية تلك النار عندما نقرأ أن الرب يسوع يعمد بالروح القدس ونار [٣٣]، كما يقول يوحنا في إنجيله... لذلك يقول إرميا بعد قبوله الروح: "صارت في قلبي كنارٍ حارقة ملتهبة في عظامي، وأنا كحقير لا أحتملها " (إر ٢٠: ٩)... ماذا يعني هذا – أعني أن هذه النار تصير ماءً، والماء يستدعي نارًا – إلا تلك النعمة الروحية التي **تحرق خطايانا بالنار وتغسلها بالماء؟** فإن الخطية تُغسل وتحترق[2].

القديس أمبروسيوس

❖ قَبِلْ العماد من يوحنا لهذا الهدف، وهو إذ يقبل ما هو أقل ممن هو أقل، يحثنا نحن الأقل أن نقبل ما هو أسمى[3].

❖ لو أن ربنا يسوع المسيح وحده اعتمد بمعمودية يوحنا، لظن البعض أن معمودية يوحنا أعظم من معمودية المسيح. إذ يقولون: إن هذه المعمودية هي الأعظم، لأن المسيح وحده هو الذي تأهل لها. لهذا كمثال للتواضع يقدمه لنا الرب أن ننال خلاص المعمودية.

قبل المسيح ما هو ليس ضروري له، لكنه ضروري لحسابنا نحن.

مرة أخرى لئلا ما تقبله المسيح من يوحنا يُفضل عن عماد المسيح سمح للآخرين أيضًا أن يعتمدوا بواسطة يوحنا. وأما الذين اعتمدوا بواسطة يوحنا فمعموديتهم لم تكن كافية، إذ كان يلزمهم أن يعتمدوا بمعمودية المسيح[4].

❖ كما كان المسيح هكذا كانت معموديته: معمودية الرب، إلهية لأن الرب هو الله[5].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5:2.*
[2] *Duties of the Clergy, Book, 3:18:102-103.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5:5.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5.5.*
[5] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 5:6.*

القديس أغسطينوس

"**وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله**" **[٣٤]**.

❖ لما كان يوحنا قد عمد، والمسيح قد عمد، فلكي لا يتوهم متوهم من الحاضرين أن القول الذي قيل من أجل يوحنا، جاء الروح متلافيًا هذا التوهم واستقر على المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. شهادة تلاميذه الأولين له

– شهادة يوحنا لمسيحانية يسوع (٣٥–٣٧) كسبت أندراوس [٣٨–٤٠].

– شهادة أندراوس بالتالي كسبت سمعان الذي دعاه يسوع صفا [٤٢].

– دُعيَ فيلبس من بيت صيدا على بحر الجليل، فكسب نثنائيل [٤٥–٥١] الإسرائيلي الذي لا غش فيه.

"**وفي الغد أيضا كان يوحنا واقفًا هو واثنان من تلاميذه**" **[٣٥]**.

"**فنظر إلى يسوع ماشيًا فقال:**

هوذا حمل الله" **[٣٦]**.

"**نظر إلى يسوع**"؛ ما أحوجنا إلى التطلع نحو السيد المسيح لننظره. نتطلع إليه فنراه يتطلع إلينا، مهتمًا بخلاصنا.

❖ لقد شهد يوحنا المعمدان عن المسيح أن هذا هو ابن الله [٣٤]، فلم يصغِ أحدهم إلى قوله ولا سأله، ولا قال له ما بالك تقول هذه الأقوال ولأجل من تقولها. وقال أيضًا هنا: "**هوذا حمل الله!**"، ولا على هذه الجهة لذع حسهم الزائل، فكانت طبيعتهم عنده طبيعة أرض صلبة ليَّنها بفلاحته، وأنهض تمييزهم الطيني بكلامه، لأنه اجتهد في غرض واحد وهو أن يقدمهم إلى المسيح، ويلصقهم به، لأنه عرف أنهم إذا قبلوا قوله هذا منه لا يحتاجون فيما بعد إلى الشاهد له.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما حان الوقت لكي يرحم الله، جاء الحمل.

أي حمل هذا الذي تخافه الذئاب؟

من أي نوع هذا الحمل الذي عندما يُذبح يُذبح أسدًا؟ لأن الشيطان يُدعى أسدًا، يجول زائرًا يلتمس

من يفترسه (١ بط ٥: ٨). بدم الحمل انهزم الأسد...

إنه لأمر عظيم أن ترى في العالم كله الأسد ينهزم بدم حملٍ؛ وأعضاء المسيح يخلصون من أنياب الأسود، ويرتبطون بجسم المسيح[1].

❖ يريد المسيح أن يمتلك ما قد اشتراه وحده، **ولا يرغب أن يشاركه أحد في الملكية**، إنما.

لقد دفع ثمنًا عظيمًا هكذا، لكي يمتلك وحده.

إنك تجعله شريكًا مع الشيطان هذا الذي بعت نفسك إليه.

"ويل لذوي القلبين" (ابن سيراخ ٢: ١٢)، هؤلاء الذين يعطون جزءً من قلوبهم لله والآخر لإبليس.

إذ يغضب الله لأن الشيطان صار له نصيب في القلب، يفارق القلب ويمتلك الشيطان على القلب كله. ليس باطلاً يقول الرسول: "لا تعطوا مكانًا لإبليس" (أف ٤: ٢٧).

لنعرف إذن أيها الاخوة الحمل، ولندرك ثمننا[2].

القديس أغسطينوس

"**فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع**" **[٣٧]**.

إذ سمعا عن الخلاص التصقا بالمخلص دون تأجيل وبغير حوارٍ. كل لحظة تأجيل تمثل خطرًا على النفس، إذ يليق بها أن تسعى إليه، وتطلبه بلا توانٍ.

كان التلميذان اللذان تبعاه مشتاقين إلى قبول كلمة نعمة من فمه، لا من فم السابق له رقم ٢ يشير إلى الحب وكأن التلميذين يشيران إلى كل الذين قبلوا تبعيته بكمالٍ، وهم الذين يكرسون حياتهم بالحب لله والحب للقريب. هذان هما التلميذان اللذان يحملاننا إلى تبعية المسيح الصادقة.

يروي لنا الإنجيلي يوحنا دعوة تلميذين من تلاميذ يوحنا ليتبعاه، وهما أندرواس ويوحنا الإنجيلي نفسه (غالبًا). وقام الأول بدعوة أخيه سمعان بطرس. هؤلاء الثلاثة هم باكورة تلاميذ السيد. هكذا بدأت الكنيسة صغيرة جدًا تضم ثلاثة يتمتعون بالنظر إلى يسوع والملكوت معه.

"**فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان،**

فقال لهما:

ماذا تطلبان؟

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 7:6.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 7:7.*

فقالا: ربي، الذي تفسيره يا معلم أين تمكث؟" [٣٨].

يليق بنا أن نجيب دومًا على سؤال السيد المسيح في كل عمل وفي كل كلمة ننطق بها أو فكر ننشغل به: ماذا تطلب؟ هل نطلب مسيحنا في كل تصرف؟ هل ننشغل باستنارتنا بروحه القدوس؟ هل نشتهي حضن الآب؟ هل نطلب بنياننا ونمونا في المعرفة الصادقة، وتقديسنا المستمر، ومجدنا الداخلي؟ هل نطلب ما لمجد الله وبنيان الكنيسة؟

سؤال السيد المسيح المستمر لكل إنسان: ماذا تطلب؟ هل يطلب ممتلكات العالم وملذاته، أم يطلب مديح الناس والكرامة الباطلة؟ أم أن يمكث مع المسيح أينما وجد؟ لم يكن للسيد موضع يستريح فيه، بل عاش كغريبٍ، هكذا من يطلبه يمكث معه كغريبٍ على الأرض. فلا يكفي أن نطلب من السيد أن نتبعه بين حين وآخر، وإنما **يلزمنا أن نمكث معه.** كلما اقتربنا إليه نتمتع ببهاء مجده، وننعم بغنى حبه، ونشتهي ألا نفارقه.

إننا في حاجة أن نلتقي به ونمكث معه فنجلس عند قدميه ونرتوي من ينابيع حبه، ونستنير بروحه القدوس فنتعرف على أسراره الخفية غير المنطوق بها. وكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** "لم يقولا علمنا تعليمًا في الآراء والمعتقدات أو غير ذلك من الأمور الضرورية، لكنهما قالا: "أين تمكث؟"

إذ طلبا المكوث معه جاءت الإجابة سريعة أن يأتيا وينظرا في الحال ليمكثا معه دون تأجيل. الوقت الآن مقبول (٢ كو ٦: ٢).

كان ربنا يسوع المسيح يدرك تمامًا ما في قلبيهما أنهما يطلبان أن يتبعاه فلماذا سألهما؟

أولاً: ليهبهما الثقة، فيعلنان رغبتهما، ويظهر مسرته بغيرتهما نحو الخلاص والحياة المقدسة لكي يسندهما.

ثانيًا: ليعلن أنه من جانبه مستعد أن يبدأ معنا رحلة نفوسنا نحو الحق والمجد الأبدي، لكنه لن يبدأ بدون إرادتنا. إنه يقدس الحرية التي وهبنا إياها.

❖ نتعلم أن إلهنا لا يعوق بمواهبه إرادتنا، لكننا إذا بدأنا نحن يعطينا الإرادة عينها (يلهب شوقنا إليه بالأكثر)، ويهبنا أسبابًا كثيرة لخلاصنا[1].

❖ "ماذا تطلبان؟... بسؤاله هذا جعلهما أكثر ائتلافا له، ووهبهما جرأة أعظم، وأظهر أنهما مستحقان

[1] *Cf. Homilies on St. John, Hom. 18:3.*

أن يسمعاه؛ لأنه من المحتمل أنهما كانا خجولين وخائفين، كمن هما ليسا معروفين لديه، وقد سمعا عنه شهادة معلمها له. فلكي ينزع عنهما خجلهما وخوفهما سألهما ولم يدعهما يذهبان معه إلى البيت في صمتٍ... سألهما لكي كما قلت يهب هدوءً لعقليهما اللذين قد ارتبكا بالخجل والقلق، ويهبهما ثقة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ثالثًا: يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [أعطاهما من الدالة عنده أكثر قدرًا، وأظهر أنهما مؤهلان للاستماع منه. لأنه كان لائقًا بحالهما أن يخجلا ويرهبا من جهة إنهما لم يعرفاه. فبسؤاله إياهما نزع خجلهما وخوفهما وأوهامهما كلها ولم يتركهما يذهبا إلى المنزل صامتين.]

يقول **العلامة أوريجينوس** أنه بعد أن قدم يوحنا المعمدان ست شهادات عن السيد المسيح الكلمة، جاء دور الكلمة نفسه ليشهد عن نفسه أمام تلميذي يوحنا[2].

"**فقال لهما:**

تعاليا وانظرا.

فأتيا ونظرا أين كان يمكث،

ومكثا عنده ذلك اليوم،

وكان نحو الساعة العاشرة" [٣٩].

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح في محبته للتلميذين اللذين تبعاه بعد سماعهما شهادة معلمهما القديس يوحنا المعمدان دخل معهما في حوار في الطريق، حتى يشعرا أنهما ليسا بغريبين عنه، بل صارت لهما معه ألفة، ولكي يمتعهما بصوته الإلهي.

حقا ما أحوجنا أن نسير معه في طريق حياتنا ونطلب أن نسمع صوته الإلهي، ونعطيه الفرصة للحديث معنا، وذلك كما حدث مع تلميذيه وهما في طريقهما إلى عمواس يوم قيامته (لو ٢٤)

يعلن القديس الذهبي الفم على الحوار الوارد مع تلميذي المعمدان بالقول: [ليتنا إذن نتعلم أن نحسب كل الأمور ثانوية بجانب سماعنا لكلمة الله، ولا نحسب وقتًا ما أنه غير مناسب لذلك... ليت الطعام والحمامات وكل أمور هذه الحياة يكون لها زمنها المعين، أما تعليم الفلسفة السماوية فلا يكون

[1] *Homilies on St. John, Hom. 18:3.*
[2] *Commentary on John, Book 2:219.*

لها وقت خاص، بل كل الأوقات مناسبة لها. يقول بولس: "في وقت مناسب وغير مناسب وبخ، انتهر، عظ" (٢ تي ٤: ٢). ويقول أيضا النبي: "في ناموسه يلهج نهارًا وليلاً" (مز ١: ٣)[1].]

جاء التلميذان إلى السيد المسيح نحو الساعة العاشرة ليمكثا معه حيث كان يمكث. فمن يقبل وصاياه (العشرة) ويعلن شوقه للطاعة يمكث مع مخلصه كل يوم حياته لا يفارقه حتى يأتي يوم لقائه به وجهًا لوجه في الدهر الآتي.

❖ لم يتبعاه بأية طريقة، بل التصقا به[2].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** أن رقم ١٠ يشير إلى الناموس حيث الوصايا العشرة. فقد ذهب إلى السيد المسيح بكونه واهب الناموس ومكمله (مت ٥: ١٧)، لكي يتعلما الناموس من واهب الناموس نفسه لأن الرحمة على لسانه (أم ٣١: ٢٦)، ويكمل قائلاً: [إن كنت لا تقدر أن تتمم الناموس اهرب إلى الرحمة. إن كنت لا تقدر أن تحقق الناموس استخدم ذاك العهد، استخدم الرباط، استخدم الصلوات التي وضعها ونظمها السماوي مختبر الناموس؟[3]]

يرى **العلامة أوريجينوس** أن السيد المسيح دعا التلميذين للتمتع به وبسكناه خلال حياة العمل مع التأمل. فبقوله: "**تعاليا**" دعاهما للحياة العاملة، وبقوله "**انظرا**" دعاهما لربط العمل بالتأمل فيه[4].

"كان أندراوس أخو سمعان بطرس
واحدًا من الاثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه" [٤٠].

كلمة "**أندراوس**" في اليونانية تعنى "رجولة". إذ يتبع السيد المسيح من كان جادًا في شوقه للتمتع به والحياة معه. وكما يقول المرتل: "ليتشدد وليتشجع قلبك، وانتظر الرب" (مز ٢٧: ١٤).

لم يعرفنا البشير اسم الآخر، لأنه هو الكاتب لهذه الأقوال.

"هذا وجد أولاً أخاه سمعان فقال له:
قد وجدنا مسيا،
الذي تفسيره المسيح" [٤١].

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 18:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 7:9.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate7:10.*
[4] *Commentary on John, Book 2:219.*

بقوله: "**وجد**" يشير الإنجيلي إلى اهتمام أندراوس بأخيه وبحثه عنه ليشاركه خبرته الجديدة التي تمتع بها بلقائه مع يسوع المسيح. في تواضع قال: "**لقد وجدنا مسيا**"، إذ لم ينسب هذا الاكتشاف لنفسه وحده بل كان معه آخر. يتحدث بلغة النصرة والاعتزاز بمن وجداه، إذ وجدا اللؤلؤة الكثيرة الثمن، الكنز الحقيقي. لم يردد ما قاله معلمه القديس يوحنا المعمدان: "حمل الله" بل قال كما أعلن عنه الكتاب أيضًا "**المسيا**"، وهو موضوع شهوة كل يهودي أن يلتقي به.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** في دعوة أندراوس لأخيه سمعان، ودعوة آخرين لبعضهما البعض صورة حية لتحقيق الصداقة في الرب، والتعاون في ملكوت الله. يقول إن الله حين خلق آدم لم يدعه وحيدًا، بل أعطاه زوجة معينة له ليعيشا معًا في رفقة، وإن كانت قد أساءت حواء لهذه الرفقة. أما الإنسان الحكيم فيجد منافع كثيرة في الرفقة، ليس فقط مع زوجته وأولاده، بل ومع اخوته، لذلك يقول النبي: "ما أحسن وأبهج أن يجتمع الاخوة معًا" (مز ١٣٣: ١). كما يحثنا الرسول بولس ألا نهمل اجتماعنا معًا (عب ١٠: ٢٥)[1].

❖ قوله "**قد وجدنا**" تعبير عن نفس تجاهد من أجل حضرة الرب، وتبحث عن مجيئه من العلا، وتتهلل عندما يتحقق ما تبحث عنه، وتسرع لتهب الآخرين أخبارًا سارة. هذا هو دور الحب الأخوي، خلال الصداقة الطبيعية، وتدبير مخلص، لبسط اليد للغير لتقديم الروحيات[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

دعوة فيلبس ونثنائيل

"فجاء به إلى يسوع،
فنظر إليه يسوع وقال:
أنت سمعان بن يونا،
أنت تدعى صفا،
الذي تفسيره بطرس" [٤٢].

دُعي فيلبس مباشرة ليس خلال يوحنا المعمدان مثل أندراوس ويوحنا، ولا من خلال أندراوس مثل سمعان بطرس. يستخدم السيد المسيح كل وسيلة لدعوة أولاده.

---

[1] *Cf. Homilies on St. John, Hom. 19:1.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 19:1.*

وجد يسوع فيلبس، كمن كان يفتش عليه ويبحث عنه حتى يجده. ولم يقف الأمر عند الشهادة ليسوع المسيح، بل جاء بأخيه إليه، لكي يتمتع بنفسه بالينبوع، يسمع صوته ويتمتع بأعماله.

دعاه السيد المسيح باسمه وغيَّر اسمه، ليدرك الرسالة التي يلتزم بها كشاهدٍ للإيمان بالمسيح.

دعاه والداه "**سمعان**" الذي يعنى "مستمع" أو "مطيع". وبالحق بروح الطاعة التقى بالمسيح ليهبه اسمًا آخر: "**صفا**" أو "بطرس" حيث يتمتع بصخرة الإيمان. أما الصخرة فهي المسيح (١ كو ١٠: ٤) هذا الذي أحبه سمعان بطرس.

❖ لعلك تسأل: ولِمَ عمل المسيح هذا العمل؟ فأجيبك: ليبين أنه هو الذي أعطانا الشريعة العتيقة، وهو الذي أحال فيها الأسماء وقوّمها، وهو الذي سمى إبرام إبراهيم وسارای سارة ويعقوب إسرائيل، وقد وضع لكثيرين أسماءهم منذ مولدهم كما وضع لإسحق وشمشون، ووضع أسماء للذين في نبوة إشعياء وهوشع، ووضع أسماء لأناس بعد الأسماء التي سماهم بها الوالدان.

لقد أخذ كل واحد من أولئك أسماء مختلفة، أما الآن فقد أخذنا كلنا لقبًا واحدًا، وهو ذلك اللقب الأعظم من الأسماء كلها أن نكون **مسيحيين وبنين لإلهنا وأصدقاءه وجسده**، لأن هذا اللقب أفضل من تلك الألقاب كلها، وفيه كفاية أن ينهضنا ويجعلنا أشد الناس إسراعًا إلى عمل الفضيلة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل،**

فوجد فيلبس فقال له:

اتبعني" **[٤٣]**.

ذهب السيد المسيح إلى الجليل ليدعو فيلبس. كلمة "**الجليل**" تعني "عمل هجرة" أو "إعلان"، أو "دائرة"، فقد أراد ربنا يسوع أن يظهر التزام تلاميذه بالهجرة من آلام الزمان الحاضر للتمتع بمباهج المجد الأبدي، إذ بهجرة القلب من الارتباك بالأمور الزمنية إلى خبرة سلام السماويات الفائق أو إلى دائرة السماء.

بحسب **القديس إكليمنضس السكندري** كان متداولاً أن هذا التلميذ هو الذي طلب منه الرب أن يتبعه، فطلب منه أن يسمح له أن يذهب ويدفن أباه (مت ٨: ٢١–٢٢). وقد وردت كرازته كشماس في أع ٦: ٥. يرى **ثيؤدورت أسقف كورش** أنه كرز في فريجية (المنطقتين بنفس الاسم). وبحسب **يوسابيوس** دفن في فريجية باستينيا *Phrygia Pacatiana*.

"**وكان فيلبس من بيت صيدا**

من مدينة أندراوس وبطرس" **[٤٤]**.

"**بيت صيدا**" أو بيت الصيد، لأن أغلب سكانها كانوا صيادين للسمك. كان هذا الموضع يتسم بالشر (مت ١١: ٢١) لكن وُجد فيه بقية مقدسة للرب، مختارة حسب نعمة الله.

لم يذكر الإنجيلي المدينة اعتباطًا بل تحمل معنى رمزيًا، فبيت صيدا تعني: "بيت الصيادين". بالحق من يقبل دعوة السيد المسيح ليتبعه إنما يصير صيادًا للناس (مت ٤: ١٩). وقد كان أول صيد لفيلبس هو نثنائيل، الذي جاء به إلى يسوع المسيح.

❖ كان الرسول فيلبس من نفس البلدة التي جاء منها أندراوس وبطرس بحسب ما جاء في الإنجيل (يو ١: ٤٤). إني أظن أن فيلبس قد مُجد لأنه كان صديقًا للأخوّين أندراوس وبطرس، أول من كرمهما الإنجيل.

فهم أندراوس سرّ المسيح وتبعه بعدما أشار يوحنا المعمدان إليه قائلاً: "هذا هو حمل اللّه الذي يحمل خطية العالم".

تعلم أندراوس حيث كان يسكن وحمل الأخبار المفرحة من النبوات التي صدرت منذ أمد بعيد إلى أخوه سمعان بطرس. ويلزم أن يسبق السمع الإيمان. لأن الشخص الذي يرتبط من كل قلبه بالحمل يصير مقدسًا بتغيير الاسم: فبدلاً من سمعان ناداه السيد المسيح بطرس، وأصبح اسمه بطرس.

ينطبق تغيير الاسم أيضا على إبراهيم وسارة اللذين مرا في مراحل روحية عديدة ثم استقبلا الوعد بالبركات من اللّه، وأصبح إبراهيم وسارة جدان لأمم كثيرة من خلال تغيير الاسم.

ويشبه ذلك ما حدث ليعقوب الذي صار اسمه إسرائيل بعد مصارعته الطويلة خلال الليل مع الملاك.

ونمى بطرس العظيم بمثل هذه النعمة، بعد ما عرف إيمان أخوه في حمل اللّه ثم اكتمل من خلال الإيمان وأصبح صخرة. لذلك كان فيلبس مستحقا أن يكون رفيقًا لبطرس وأندراوس بعدما وجده يسوع. كما يقول الإنجيل وجد فيلبس الذي صار تابعًا لكلمة اللّه؛ "اتبعني" (يو ١: ٤٣).

وبعد ما امتلأ فيلبس من نور الإيمان، دعا نثنائيل لكي يتقرب من المسيح ويتعرف على سرّ الإيمان ويمتلئ بنوره. فقال له فيلبس: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف من الناصرة" (يو ١: ٤٥). استقبل نثنائيل رسالة الإنجيل بانتباه ووجد سرّ النبوة عن السيد

المسيح صدى في أذنيه. علم أن بيت لحم هي أول مكان لظهور اللّه في الجسد، ولكنه بعد ذلك عاش في الناصرة لذلك سُمى السيد المسيح **الناصري**.

وقد تبين لنثنائيل من فحص النبوات أن السيد المسيح لابد أن يولد حسب الجسد من نسل داود في بيت لحم، وأن هذا السرّ لابد أن يحدث في مغارة وفيها أقمطة من قماش لكي يلف بها الطفل المولود ومعهم رجل يرعاهم. وكانت الجليل تُعرف حسب الكتاب المقدس بأنها موّطن الأمم (إش ٩: ١). لذلك ظهر نور المعرفة لنثنائيل الذي قال: "أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟" (يو ١: ٤٦) ومن هنا ترك نثنائيل شجرة التين التي أخفى ظلها النور، وتمسك بالواحد الذي لعن شجرة التين الغير مثمرة فجفت أوراقها. وشهد كلمة اللّه أن نثنائيل كان إسرائيليًا حقًا لا غش فيه، فلقد أظهر نفسه نقيًا مثل أبينا إبراهيم (تك ٢٥: ٢٧). قال المسيح: "هوذا إسرائيلي حقًا لا غش فيه"[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"**فيلبس وجد نثنائيل وقال له:**
وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء،
يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة" [٤٥].

نثنائيل هو نفسه برثلماوس *Bartholomew* للأسباب التالية:

أ. الإنجيليون الذين أشاروا إلى برثلماوس لم يذكروا نثنائيل، والذين ذكروا نثنائيل لم يشيروا إلى برثلماوس.

ب. كلمة برثلماوس ليست اسمًا لشخص ما، بل تعني "ابن بطليموس"، وأن اسمه الحقيقي هو نثنائيل.

ج. تحدث عنه الإنجيلي يوحنا كواحدٍ من الرسل عندما ذهب مع الرسل للتصيد وظهر لهم السيد المسيح بعد قيامته (يو ٢١: ٢–٤).

قول فيلبس يكشف عن غيرته في البحث في الكتاب المقدس خاصةً الناموس والأنبياء، حيث ألهب قلبه بالشوق لرؤية "يسوع" أو "المسيا" القادم من بيت داود. أخيرًا قد وجد ذاك الذي يعلن ذاته لطالبيه.

ذكر فيلبس عن السيد المسيح إنه "**يسوع**" أي "يهوه مخلص"، ليعلن لنثنائيل إنه المخلص الذي

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٥.

طالما تحدث عنه الناموس والأنبياء. أما دعوته "**ابن يوسف**" فلا يعني إنه من زرعه، وإنما ليؤكد إنه من بيت داود الذي جاء منه يوسف.

"**فقال له نثنائيل:**
أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟
قال له فيلبس: تعال وانظر" **[٤٦]**.

❖ هذه ليست كلمات غير مؤمن، ولا من يستحق اللوم بل المديح. كيف هذا؟ وبأية كيفية؟ لأن نثنائيل كان يهتم بكتابات الأنبياء أكثر من فيلبس. فقد سمع من الكتب المقدسة أن المسيح يأتي من بيت لحم، من قرية داود... شخصية نثنائيل لا تنخدع بسرعة. لكنه لم يرذل من جاء إليه بل دخل إلى (المسيح) نفسه برغبة عظيمة شعر بها من نحوه. شعر في داخله أن فيلبس ربما أخطأ في الموضع (لا في الشخص)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى الأب *Bede* أن كلمة "**ناصرة**" تتناسب مع أسرار المسيح، فهي تترجم "عن النقاوة"، أو "زهرته" أو "منفصل". فالرب مخلص العالم هو القدوس الذي بلا دنس، المنعزل عن الخطايا. يقول في نشيد الأناشيد: "أنا زهرة السهل، زنبقة الوادي" (نش ٢: ١ *LXX*) ويقول عنه إشعياء النبي: "ويخرج قضيب من جزع يسى وينبت غصن من أصوله" (١١: ١).

"**ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه:**
هوذا إسرائيلي حقًا لا غش فيه" **[٤٧]**.

امتدحه الرب بكونه **إسرائيليًا** لا غش فيه، أي بالحق جاء من نسل يعقوب الذي يجاهد من أجل الرب، فتأهل أن يُدعى "إسرائيل" (تك ٣٢: ٢٨). بقوله "**إسرائيلي حقًا**" يعني أنه أهل لأن يكون من نسل يعقوب، ليس فقط يؤمن بإلهه، وإنما أيضًا يتعبد له مجاهدًا بإخلاص وبحق. وبقوله: "**لا غش فيه**" يعني أنه وسط الفساد الذي اتسم به الشعب في ذلك الوقت احتفظ نثنائيل باخلاصه في إيمانه وحياته، يسلك بالبرّ والاستقامة.

❖ كمن يقول له: "وأنت تحت ظل الخطية أنا اخترتك"، وإذ تذكر نثنائيل أنه كان تحت شجرة التين

[1] *Hom. 20. PG 59:116-117*

حين لم يكن أحد هناك عرف لاهوته وأجاب: "أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل". ذاك الذي كان تحت شجرة التين لم يصر شجرة تين جافة، فقد عرف المسيح[1].

القديس أغسطينوس

"قال له نثنائيل:

من أين تعرفني؟

أجاب يسوع وقال له:

قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك" [٤٨].

ماذا تعنى شجرة التين؟

أولاً: يرى الأب *Bede* أن شجرة التين أحيانًا تشير إلى عذوبة الحب الإلهي، ولكن إذ أبوانا الأولان صنعا لنفسيهما ثيابًا من أوراق التين صارت شجرة التين تشير إلى الميل للخطية، والتستر عليها عوض العذوبة الإلهية. فإن كان "نثنائيل" معناه "عطية الله"، فقد فسدت العطية بالتجائها وتسترها بالميل نحو الخطية.

ثانيًا: يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الحديث الذي دار بين فيلبس ونثنائيل كان تحت شجرة تين[2].

- في هذا الموضوع تفهم شجرة التين أنها الخطية... فأنتم تعلمون أن الإنسان الأول غطى نفسه بورق التين عندما أخطأ. بهذه الأوراق التي غطيا بهما عُريهما عندما أحمر وجهيهما بسبب خطيتهما (تك ٣: ٧). وما قد صنعه الله لهما كأعضاء جعلوها بالنسبة لهم مجالاً للخزي. لو أن الشر لم يتقدم ما كان العري يسبب عدم حياء.

القديس أغسطينوس

- ليت يسوع يلقي بنظره إليَّ وأنا لازلت تحت شجرة التين غير المثمرة، وليت شجرة التين التي لي تأتي بثمر بعد ثلاث سنوات (لو ١٣: ٦ الخ)[3].

القديس أمبروسيوس

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 39:5.*
[2] *Hom 20. PG 59:117-118.*
[3] *Concerning the Virgins to Marcellina, his Sister, Book 1:1:3.*

"**أجاب نثنائيل وقال له:**

يا معلم أنت ابن الله،

أنت ملك إسرائيل" [٤٩].

إذ تلامس نثنائيل مع شخص ربنا يسوع المسيح دعاه: "معلمًا"، "ابن الله"، و"ملك إسرائيل". إن السيد قد مدحه بأنه إسرائيلي لا غش فيه، فقد انحنى نثنائيل ليقبله ملكًا عليه وعلى كل إسرائيل.

هذا الاعتراف كان كما يقول **القديس يوحنا الذهبى الفم** ناقصًا. قال: "أنت ملك إسرائيل" ولم يدرك إنه ملك العالم كله ومخلصه، لهذا وإن كان قد نطق بذات كلمات سمعان بطرس: "أنت ابن الله" (مت ١٦: ١٦) لم يطوَّبه الرب كما طوّب سمعان بطرس. لم يدرك نثنائيل لاهوت السيد وحقيقة شخصه، بل ظنه معلمًا ساميًا فحسب.

"**أجاب يسوع وقال له:**

هل آمنت لأني قلت لك إني رأيتك تحت التينة؟

سوف ترى أعظم من هذا" [٥٠].

يرى البعض أن نثنائيل اعتاد مثل بعض الحاخامات أن يجلس تحت شجرة تين في هدوء يقرأ في الكتاب المقدس ويناجي الله، ويطلب خلاص نفسه وخلاص إسرائيل. عينا الله على أولاده، خاصة في جلساتهم الهادئة للتمتع بالتأمل في الله وفي أعماله الخلاصية.

"**وقال له:**

الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة،

وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان" [٥١].

يرى البعض أن هذا التشبيه مأخوذ مما كان متبعًا حين يذهب أمير إلى بلد ما يأتي سفراء بلده ذاهبين إليه وراجعين إلى بلده يحملون إليه ومنه رسائل. هكذا فإن الملائكة السمائيين هم رسل يُرسلون لخدمة ملكهم الذي تنازل وتجسد ليسلك على الأرض كابن الإنسان.

بينما شهد له نثنائيل: "**أنت ابن الله؛ أنت ملك إسرائيل**" [٤٩]، إذا به في تواضعه يدعو نفسه ابن الإنسان.

ربما يتحدث هنا عن ظهوره في مجيئه الثاني ليدين العالم.

❖ أرأيت كيف يصعد المسيح بنثنائيل من الأرض قليلاً قليلاً، ويجعله ألا يظنه إنسانًا مجردًا؟ لأن من تخدمه الملائكة وتصعد عليه وتنزل كيف يكون هذا إنسانًا؟ لهذا السبب قال له: "**سوف ترى أعظم من هذا**" [٥٠] ولتأكيد ذلك قدم خدمة الملائكة له.

ما قاله يعنى هذا "هل تحسب يا نثنائيل أنه أمر عظيم بان تعترف بي إني ملك إسرائيل؟ فما الذي تقوله عني إذا رأيت الملائكة صاعدين ونازلين إليَّ؟" بهذه الأقوال حقق المسيح عند نثنائيل أنه رب الملائكة، لأن الملائكة يصعدوا وينزلوا إليه كخدام لابن ملكهم الحقيقي.

حدث ذلك في وقت صلبه وفي وقت قيامته، وعند صعوده، وقبل ذلك حين تقدموا وخدموه (مت ٤: ١١)، وحين بشروا بمولده لما قالوا: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة" (لو ٢: ١٤)، وعندما جاءوا إلى مريم، وجاءوا إلى يوسف[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن كانوا يصعدون وينزلون إليه فهو موجود فوق وهنا في نفس الوقت. فإنه لا يمكن بأية حال أن يصعدوا وينزلوا إليه ما لم يكن موجودًا هناك حيث يصعدون وهنا حيث ينزلون...

لنرى المسيح فوق وأسفل خلال شاول، فقد جاء صوت الرب نفسه من السماء قائلاً: "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟" (أع ٩: ٤) ماذا؟...

من أين صرخ؟ من السماء، فهو إذن فوق.

ويقول لماذا تضطهدني؟ "فهو أيضًا تحت (لأن بولس لم يصعد إلى السماء ليضطهده)[2].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس**[3] أن رؤيتنا للسيد المسيح والملائكة يصعدون وينزلون إليه أعظم من وجودنا تحت ظل شجرة التين أو تحت ظل الموت. أما الملائكة فهم رسل السيد المسيح وتلاميذه. كمثال صعد بولس حين اختطف إلى السماء الثالثة وهو في الجسد أو خارج الجسد لا يعلم، لكنه سمع أمورًا لا يُنطق بها (٢ كو ١٢: ٢-٤). وهو بنفسه نزل حينما لم يتكلم مع أهل كورنثوس كروحيين بل كجسديين كأطفالٍ في المسيح، يطعمهم لبنًا لا لحمًا (١ كو ٣: ١-٢). **ذاك الذي صعد إلى السماء الثالثة من أجل المسيح، من أجله نزل إلى الشعب ليتحدث معهم بلغة الأطفال غير**

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 21.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 72:6.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate*

الناضجين متشبهًا بالأمهات عند حديثهن مع أطفالهن الصغار. لقد صعد ونزل حيث يقول: "إننا إن صرنا مختلين فلله، أو كنا عاقلين فلكم" (٢ كو ٥: ١٣).

يقول **القديس أغسطينوس: [**إن كان الرب نفسه صعد ونزل، فواضح أن الكارزين به يصعدون بالاقتداء به، وينزلون بالكرازة[1].]

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate*

ملحق للأصحاح الأول

عن

النعمة الإلهية

(نعمة فوق نعمة)

يقدم لنا معلمنا يوحنا البشير خلال السفر كله شخص الكلمة الإلهي المتجسد **كمصدر فيضٍ من النعم الإلهية** بلا توقف، خاصة نعمة الخلق ونعمة البنوة لله مع فيضٍ من النعم. يقول الإنجيلي: "**ومن ملئه نحن جميعًا أخذنا، نعمة فوق نعمة، لأن الناموس بموسى أُعطيَ أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا**" (يو ١: ١٥–١٧). وقد سبق لنا نشر كتاب عن النعمة الإلهية في مدرسة الإسكندرية باللغة الإنجليزية، أرجو أن يسمح لي إلهي بترجمته ونشره. أود هنا أن أقدم عرضًا مبسطًا للنعمة الإلهية[١].

ماذا تعني النعمة؟

لم يهتم آباء الكنيسة في الشرق بتقديم تعاريف للمصطلحات اللاهوتية سواء للنعمة أو غيرها، بالرغم من الحديث بفيضٍ عن عمل النعمة ودورها في حياة المؤمن منذ خلقته إلى يوم لقائه مع الرب على السحاب.

ما يشغل ذهن الكنيسة، خاصة كنيسة الإسكندرية، هو الخبرة الحية والاتحاد مع الله كعربون للتمتع بالحياة الأبدية. لهذا لا نعجب إن استخدم **العلامة أوريجينوس** اسم "**المسيح**" عِوَض عطاياه أو نعمه[٢]، وفي مواضع أخرى يدعو السيد المسيح "ملكوت في شخص"، فإن من ينعم بملكوت الله إنما يتمتع بالكلمة الإلهي نفسه، واهب النعم ومشبع كل الاحتياجات.

حاول بنيامين بريوري *Benjamin Drewery* أن يقدم تعريفًا للنعمة الإلهية خلال أعمال **أوريجينوس** العديدة فقال [يمكننا أن نقترح أنه إذا سُئل أوريجينوس عن تقديم تعريف منهجي للنعمة

---

[١] للاستفاضة يمكن الرجوع إلى رسالة الدكتوراة للدكتور وهيب قزمان: النعمة عند القديس أثناسيوس، بالإنجليزية أو العربية.
Fr. Tadros Y. Malaty: The Divine Grace, 1992.

[2] *Benjamin Drewery, p. 109*

فإنه يجيب بشيء مثل هذا: "النعمة هي قوة الله المجانية، لكنها ليست غير مشروطة، توضع تحت تصرف الإنسان، بواسطتها يترجم الخلاص إلى حياة جديدة تبلغ الذروة، معلنة ومقننة في الكتب المقدسة، بواسطة يسوع المسيح المتجسد، وتصير به مملكته للعالم"[1].

النعمة وكلمة الله

إذ تغمرنا النعمة الإلهية نسبح في لجة محبة الله الفائقة التي تحصرنا من كل جانب، والتي لا نستطيع أن نحصر طولها وعرضها وعمقها وارتفاعها نتطلع إلى الكتاب المقدس لننهل من الوعود الإلهية الفائقة.

حقًا لقد خلق الله الإنسان ليتحدث الكلمة الإلهي معه وجهًا لوجه. وكان أبوانا الأولان يتمتعان بصوت الله ماشيًا في الجنة (تك ٣: ٨). أما وقد أعطى الإنسان ظهره لمصدر النعم، لم يتركه الله بل وهبه **الناموس** ليرتفع به إلى غنى نعمته. وجاء **الكتاب المقدس** ليس ورقًا وحروفًا مكتوبة بل لقاءً حيًا مع الكلمة الإلهي وراء الحروف.

من يتمتع بنعمة إدراك أسرار الكتاب المقدس يتمتع بالشركة مع الكلمة الإلهي، وتدخل نفسه الفردوس الروحي المشبع.

❖ لا يمكن نوال أمر صالح بعيدًا عن الله، وأما فوق كل شيء فهو فهم الكتب المقدسة الموحى بها[2].

❖ **المعنى الروحي الذي يهبه الناموس لا يدركه الكل، وإنما الذين يُمنحون نعمة الروح القدس في كلمة الحكمة والمعرفة**[3].

❖ ليتنا نحث الله لكي ما كما أن الكلمة تنمو فينا، نتقبل اتساع الفكر في المسيح يسوع، وبهذا يمكننا أن نسمع الكلمات المقدسة[4].

❖ كثيرون يسعون لتفسير الكتب المقدسة... لكن ليس الكل ينجحون. فإنه **نادرًا ما يوجد من له هذه**

---

[1] *Brewery, Origen and the Doctrine of Grace, London 1960, p. 48.*
[2] *Sel Ps. 1: 2.*
[3] *De Principiis, perf. 8.*
[4] *In Jer., hom 6: 3.*

النعمة من الله[1].

العلامة أوريجينوس

❖ "حبيبي هو شبيه بالظبي أو بِغُفْرِ الأيائل. هوذا واقف وراء حائطنا، يتطلع من الكوى، يُوَصْوِص من الشبابيك" (نش ٢:٩)...

يمكن تفسير معنى هذه الآية كالآتي: لا تكلمني من الآن فصاعدًا برموز الأنبياء والوصايا. وحتى أراك **اظهر لي نفسك حتى آتى إلى داخل الصخرة، الإنجيل، وأترك خلفي حائط الوصايا**. وحتى أسمعك اجعل صوتك يرن في أذني. فإذا **كان صوتك حلوًا جدًا من خلال شبابيك الأنبياء**، فكم تكون رؤية وجهك الجميل مُجْلِبةً للحب والسعادة؟

فهمت العروس السرّ في صخرة الإنجيل التي قادها إليها الكلمة بطرق عديدة ومختلفة (عب ١: ١١)، بينما كان عند الشبابيك. والآن ترغب العروس في ظهوره في الجسد، حتى يمكن رؤية اللّه في الجسد ويتكلم عن الوعود الإلهية للسعادة الأبدية لكل من يستحقها.

لاحظ توافق كلمات سمعان مع رغبة العروس: "الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك" (لو ٢: ٢٩-٣٠). رأى سمعان مثلما أرادت العروس أن ترى. وهؤلاء الذين استقبلوا صوت المسيح الحلو تعرفوا على نعمة الإنجيل وصرخوا: "يا رب إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك" (يو ٦: ٦٨)[2].

القديس غريغوريوس النيسي

نعمة الخلق

في تفسيرنا لعبارة "**نعمة فوق نعمة**" رأينا كيف أن الله أب كل البشرية يبسط يديه ليهب من فيض سخائه نعمته لكل بشرٍ. حقًا توجد نعم عامة يشترك فيها كل إنسان، كما توجد نعم خاصة تمتع بها شعب الله قديمًا بالإيمان خلال الناموس الموسوي، وأما ما قدمه الكلمة الإلهي المتجسد خلال صليبه فيفوق كل فكر. إنه كنز من النعم مفتوح لكل إنسان يقبله ويتجاوب معه. ولعل أول نعمة تمتع بها الإنسان هو "**الخلق**".

اهتم **القديس أثناسيوس الرسولي** بالحديث عن نعمة الخلق، فقد أوجد الله الإنسان ليس فقط من

---

[1] *Sel. Ps. 119: 85.*

[2] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٥.

العدم إلى الوجود، فيشعر أنه مدين له بكل حياته، وإنما أوجده أيضًا حاملاً **نعمة صورته**. بهذا يتمكن من ممارسة الحياة الفردوسية، وادراك أسرار معرفة الله، والاتصال بالخالق، فيتمثل به، ويراه ويحيا معه خالدًا إلى الأبد. يشرح القديس عمل الكلمة (اللوغوس) الخالق كواهب نعمة التمتع بصورة الله، واعادتها لنا بتجديد طبيعتنا بعد فسادها.

❖ طالما يحفظ الإنسان تلك السمة الإلهية *Tautotis*، فإنه لا ينعزل قط عن إحساسه بالله، أو يبتعد عن شركة حياة القديسين، بل إذ يستعيد نعمة الله التي وُهبت له، وإذ يمتلك القدرة الخاصة التي من اللوغوس كلمة الآب، فإنه يتهلل فرحًا متحدثًا مع الله، فيحيا الحياة المباركة التي بلا ألم، والخالدة بالحقيقة (عديمة الموت). وإذ لا يعوقه عائق عن المعرفة الإلهية، يتأمل دوما بطهارته[1] صورة الأب، أي في الله اللوغوس، الذي خلق الإنسان على صورته، ويتعجب إذ يدرك تدبير الله للكون بواسطة اللوغوس.

لهذا يسمو فوق كل محسوس وكل رؤية جسدانية، فيرتبط بالحقائق الإلهية والمعقولة[2] في السماوات بقوة الذهن. لأنه حينما لا تتصل أذهان الناس بالأجساد، ولا يوجد شيء مختلط بالأذهان من خارج، والذي ينبع من شهوة تلك الأجساد، بل تسمو (تلك الأذهان) بالتمام وتتكامل في ذاتها، كما خلقت منذ البدء.

وإذ تدع جانبًا كل الأمور الحسية والبشرية فإن الذهن يرتفع إلى عنان السماء.

وإذ يعاين اللوغوس يرى فيه الآب، أب اللوغوس، فيختبر الفرح الغامر عند هذه الرؤيا، ويتجدد باشتياقه إليه.

ويشبه ذلك الأمر حالة الإنسان الأول المخلوق الذي دعي آدم (بحسب اللغة العبرانية)، والذي يقول عنه الكتاب المقدس إنه كان في البدء ذا ذهن مثبت على الله بدالة لا تخزى، وإنه عاش حياة الشركة مع القديسين في تأمل الحقائق المعقولة التي اقتناها في ذاك الموضوع، والذي يسميه القديس موسى بشكل تصويري "الفردوس"، وكانت النفس الطاهرة بالحق قادرة أن ترى الله ذاته الذي ينعكس

---

[1] يقصد طهارة خلقته الأولى التي جُبل الإنسان عليها. (راجع دكتور وهيب قزمان: النعمة عند القديس أثناسيوس – مركز دراسات الآباء بالقاهرة، ١٩٩٣).

[2] المدرك بالعقل الأسمى من الحواس الجسدانية وهو ما ينعم به السمائيون.

فيها كمرآة. كما قال الرب نفسه: "طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله"[1].

القديس أثناسيوس الرسولي

نعمة حرية الإرادة

❖ أعطى اللّه الطبيعة العاقلة نعمة حرية الإرادة، وأنعم على الإنسان القدرة على تحديد ما يريده حتى يسكن الصلاح في حياتنا، ليس قسرًا ولا لاإراديًا بل نتيجة للاختيار الحر. إن تمتعنا بحرية الإرادة يؤدى بنا إلى اكتشاف حقائق جلية. في طبيعة الأمور إذا ما أساء أحد استخدام مثل هذه الإرادة الحرة فإنه بحسب كلمات الرسول يصير مثل هذا الشخص مخترعًا لأعمال شريرة (رو ١: ٣٠). كل من هو من اللّه يُعد أخًا لنا، أما الذي يرفض الاشتراك في أعمال الصلاح يتم ذلك بكامل إرادته[2].

القديس غريغوريوس النيسي

نعمة الناموس

الناموس، سواء الطبيعي أو الموسوي، في ذاته عطية عظيمة، ونعمة مقدمة من الله، لتهيئ لنعمة الإنجيل، لكن لا وجه للمقارنة بين الظل والحقيقة.

❖ النعمة التي معنا ليست كتلك التي لهم (لليهود)، فإننا لم ننل مجرد غفران الخطايا، بل نلنا البرّ والتقديس والبنوة ونعمة الروح القدس الأكثر بهاءً وبهجة وفيضًا. بهذه النعمة صرنا نشتاق إلى الله، ليس كعبيدٍ بل كأبناء وأصدقاء. عن هذه الحال يقول: "**نعمة فوق نعمة**". **حتى الأمور الخاصة بالناموس هي من النعمة... إذ قَبِلَ البشر الناموس كترفقٍ وعفوٍ ومحبةٍ ونعمةٍ**[3].

❖ كان يوجد تقديس، والآن يوجد التقديس.
كان يوجد عماد والآن العماد.
كانت هناك ذبيحة والآن توجد الذبيحة.
كان يوجد هيكل والآن يوجد الهيكل...

---

[1] الرسالة إلى الوثنيين: القس مرقص داود فصل ٢: ٢-٤.

[2] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٢.

[3] *Hom. 14 PG 59:81.*

هكذا كانت توجد نعمة والآن توجد النعمة.

لكن الكلمات في الحالة الأولى استُخدمت كرموزٍ، وفي الثانية كحقائق تحمل ذات الصوت ولكن ليس ذات المعنى[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

نعمة إعادة ما فقدناه

إذ فقد الآن صورة الله صارت حياته جحيمًا لا يُطاق، وتحول الفردوس إلى سجن، وأنبتت له الأرض شوكًا وحسكًا. لم تقف نعمة الله مكتوفة الأيدي مهما كلفها الأمر، حتى وإن كان الثمن تجسد الكلمة وإعلان حبه بقبوله الموت صلبًا حتى يهب الإنسان بهجة القيامة ويتمتع ببرّ المسيح، ويرد روحه القدوس صورة الله فيه.

❖ فما العمل إذن؟ إلى من يمكن اللجوء لاستعادة نوال مثل تلك النعمة، سوى إلى كلمة الله الذي خلق في البدء كل الأشياء من العدم؟ إذ يختص هو وحده بأن يأتي بمن كان في الفساد إلى عدم الفساد وأن يحقق ما يليق بالآب فوق كل شيء، إذ هو كلمة الله الآب الذي فوق الجميع لأنه وحده القادر أن يستعيد للجميع ما كان مفقودًا، وأن يتألم لأجل الجميع، وأن يكون شفيعًا لدي الآب لأجل الكل[2].

القديس أثناسيوس الرسولي

نعمة القيامة والغلبة على الموت

يقول السيد المسيح لمرثا: "**أنا هو القيامة**"، فإن كان الفساد قد حل بجسد لعازر الميت لمدة أربعة أيام، فهو حال في كل نفسٍ وجسدٍ، قد انتن الإنسان تمامًا بسبب موت الخطية. جاء "القيامة" يهبنا ذاته، فنتمتع بالشركة معه، فيحررنا من سلطان الموت، ولا يقدر الفساد أن يحل بنا. بروح القوة والنصرة ننشد مع الرسول بولس: "أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟ أما شوكة الموت فهي الخطية... ولكن شكرًا لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح" (١ كو ١٥: ٥٥–٥٧). هذه هي نعمة القيامة.

---

[1] *Hom. 14. PG 59:79*

[2] تجسد الكلمة ٧: ٤، ٥.

❖ لكي يستعيد اللوغوس المتأنس عدم الفساد إلى البشر الذين انحدروا إلى الفساد، فيحيهم من حالة الموت، أخذ جسدهم لنفسه، حتى يبيد الموت ويلاشيه بواسطة **نعمة القيامة** كما تلتهم النار الهشيم[1].

❖ لقد مات الموت حقًا... فلم يعد مزعجًا بعد، بل بالأحرى فإن المؤمنين بالمسيح يطأون الموت كأنه عدم، بل أنهم يفضلون الموت عن إنكار إيمانهم بالمسيح. كل هذا لأنهم يعلمون أنهم لا يفنون بالموت، بل يحيون بالقيامة ويصيرون عديمي فساد[2].

القديس أثناسيوس الرسولي

نعمة التبني لله الآب

الكلمة الإلهي هو الابن بالطبيعة، مولود من الآب، نور من نور، فيه ننال نعمة التبني لله الآب:

❖ أمرنا الله أن نعتمد ليس باسم "الخالق والمخلوق"، بل باسم الآب والابن والروح القدس" (مت ٢٨: ١٩)، لأننا إذ نحن من بين المخلوقات، نصير هكذا (بالمعمودية) مكتملين، **وبهذا نصير أبناء**[3].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ إن كان بينكم من هو عبد للخطية فليستعد بالإيمان **استعدادًا تامًا للميلاد الجديد في الحرية والتبني**. وبخلعه العبودية لخطاياه المرذولة وارتدائه عبوديته للرب المطوَّبة يصير أهلاً لميراث ملكوت السماوات.

اخلعوا "الإنسان العتيق الفاسد حسب شهوات الغرور" (أف ٤: ٢٢) بالاعتراف، حتى تلبسوا الإنسان "الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه" (كو ٣: ١٠).

بالإيمان خذوا "عربون الروح القدس" (٢ كو ١: ٢٢) لكي يقبلونكم في المظال الأبدية (راجع لو ١٦: ٩).

تعالوا لتنالوا الختم السري حتى يعرفكم السيد بسهولة، وتكونون محصيين بين قطيع المسيح المقدس الروحاني، ويكون مكانكم عن يمينه، فترثوا الحياة المعدة لكم، أما هؤلاء اللابسون ثوب

---

[1] تجسد الكلمة ٨: ٤.

[2] تجسد الكلمة ٢٧: ٢.

[3] الرسالة ضد الآريوسيين ١:١: ٤٢.

خطاياهم الدنس فيبقون عن يساره، إذ لم يأتوا بالمسيح إلى **نعمة اللّه في الميلاد الجديد بالمعمودية**.

وإنني أعني بالميلاد الجديد ميلادًا روحيًا جديدًا للنفس، فالوالدون المنظورون يلدوننا حسب الجسد، أما أرواحنا فتُولد ميلادًا جديدًا بالإيمان، إذ "**الريح تهب حيث تشاء**"، عندئذ متى وُجدتم مستحقين تسمعون الصوت القائل: "نعمًا أيها العبد الصالح والأمين" (مت ٢٥: ٢١)، وذلك إن كان ضميركم غير ملوث بدنس الرياء[١].

القديس كيرلس الأورشليمي

نعمة الروح القدس

كثيرًا ما شغل منظر عماد السيد المسيح قلب **القديس كيرلس الكبير**، فرأي الكنيسة كلها في المسيح الرأس بكونها جسده، فمع أن الروح القدس هو روحه الذي لا ينفصل عنه، لأنه واحد معه في الجوهر، لكنه حل عليه في العماد، من أجل تمتع الكنيسة به. فنعمة الروح القدس هي عطية واهب العطايا والنعم لكنيسته ولكل عضو فيها. **قدم لنا نعمة الروح القدس الذي يبكتنا على الخطية، ويدين عدو الخير الذي يود هلاكنا، ويهبنا برّ المسيح**. يقدم لنا الحق، إي السيد المسيح، ويجدد طبيعتنا، ويقودنا في الطريق، الذي هو المسيح، ويوَّحدنا في استحقاقات دم المسيح مع الآب، ويهبنا شركة مع السيد المسيح ومع السمائيين ومع بعضنا البعض.

❖ هكذا أيضًا توضح عبارة داود في مز ٤٤: ٧–٨ أنه ما كان لنا أن نصير شركاء الروح القدس ولا أن نتقدس لو لم يكن اللوغوس المتجسد، الذي هو واهب الروح قد مسح نفسه بالروح لأجلنا، ولهذا فمن المؤكد أننا كنا نحن الذين قبلنا الروح القدس حينما قيل انه مُسح بالجسد. لأن جسده الخاص هو الذي تقدس أولاً، وإذ قيل عنه كإنسان، إن جسده قد نال هذا (الروح)، فلأجل هذا ننال نحن نعمة الروح آخذين إياها "من ملئه"[٢].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ كان سكب للروح علينا، أما للرب يسوع الذي كان في شكل إنسانٍ، فالروح استقر عليه... بخصوصنا فإن سخاء المُعطي يعين بفيضٍ، أما بالنسبة له فيسكن فيه كمال الروح أبديًا. يسكب

---

[١] مقال ١:٢.

[٢] الرسالة ضد الآريوسيين ١:١: ٥٠.

إذن حسبما يكفينا، وما يسكبه لا ينفصل ولا ينقسم، أما ما هو له فهو وحدة الكمال الذي به ينير بصيرة قلوبنا حسب قدرتنا على الاحتمال. أخيرًا نحن نتقبل حسب ما يتطلبه تقدم ذهننا. من أجل كمال نعمة الروح غير منظور، ولكنه يساهم فينا حسب إمكانية طبيعتنا[1].

القديس أمبروسيوس

نعمة الشركة في الطبيعة الإلهية

إخلاء كلمة الله ذاته ليحمل شكل العبد وهبنا إمكانية المجد الداخلي الفائق، موضع سرور الله، إذ يرى ملكوته قائمًا فينا، وموضع سرور السمائيين، إذ يمجدون الله على غنى هذه النعمة الفائقة.

مع خبرتنا اليومية لهذا المجد الداخلي وسط تيارات العالم المرة يتجلى هذا المجد في أروع صوره يوم لقائنا مع العريس السماوي على السحاب، فنحمل صورته، ونُزف كعروس سماوية، ملكة تجلس عن يمين ملك الملوك. هذه هي نعمة شركة الطبيعة الإلهية العاملة في أعماقنا.

❖ يا للسر العجيب! الرب تنازل، الإنسان ارتفع.

❖ يقول الرسول: "ألا تعلمون أنكم هياكل الله" (١ كو ٣: ١٦). فالغنوصي (المؤمن صاحب المعرفة الروحية الحقيقية) بالتبعية إلهي، وقد صار بالفعل مقدسًا، حاملاً الله، ومحمولاً بالله.

❖ مزارع الله، إذ يمنحنا ميراث الآب العظيم حقًا والإلهي الذي لا يمكن نقله إلى آخر، يؤله الإنسان بتعليم سماوي، ويضع نواميسه في أذهاننا، ويكتبها في قلوبنا[2].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ صار كلمة الله إنسانًا، لكي تتعلم كيف يصير الإنسان إلهًا[3].

❖ شاركنا يسوع المسيح بشريتنا لكي يمنحنا فيضًا من غناه[4].

القديس كيرلس الكبير

❖ قيل عن المسيح أنه أخذ كإنسان ما كان له دائمًا كإله، حتى إن تلك النعمة، التي وُهبت له يمكن

---

[1] *Of the Holy Spirit 1:8:93.*
[2] *Protr. 11: 3; Stromata 7: 13, Protr. 11.*
[3] *Pret. 1.*
[4] *In Luc. (Conc. the temptation of Jesus Christ)*

أن ننالها نحن أيضًا، لأن اللوغوس لم ينقص قدره باتخاذه جسدًا حتى يسعى للحصول على نعمة، بل إنه بالأحرى قد ألَّه ذلك الجسد الذي لبسه، بل وأكثر من ذلك، فقد أنعم بهذه النعمة على جنس البشر[1].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ لداود الحق أن يصرخ، كإنسانٍ قد تجدد، "وسآتي إلى مذبح الله، إلى الله الذي يعطي فرحًا لشبابي" (مز ٤: ٤٣). كما قال قبلاً إنه شاخ وسط أعدائه... وهو يقول هنا إنه قد استعاد الشباب بعد طول شيخوخة وسقوط الإنسان. لأننا قد تجددنا بالتجديد الذي نلناه في **المعمودية**، وتجددنا خلال **سكب الروح القدس**، وسنتجدد أيضا **بالقيامة**، كما يقول في نصٍ آخر: "فيتجدد مثل النسر شبابك" (مز ١٠٣: ٥) فاعلموا طريقة تجديدنا: "تنضح علَّي بزوفاك فأطهر، تغسلني فأبيَّض أكثر من الثلج" (مز ٥١: ٩) وفي إشعياء: "إن كانت خطاياكم حمراء كالقرمز، تبيض كالثلج" (إش ١: ١٨) **ومن يتغير من الظلمة، ظلمة الخطية، إلى نور الفضيلة وإلى النعمة، إنما قد تجدد فعلاً**. لهذا فإن ذاك الذي تلطخ قبلاً بالدنس الأحمق، يشرق الآن بسطوع أكثر بياضًا من الثلج[2].

القديس أمبروسيوس

❖ يقول السيد المسيح: "يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا" (مت ٢٣: ٣٧). تتوافق هذه التعبيرات مع ما كنا نفترضه. فإذ قال النص المقدس الموحى به، لأي سبب سري لا نعرفه، أن الطبيعة الإلهية لها أجنحة، لذلك يكون الإنسان الأول الذي خلق على حسب صورة اللّه، شبيهًا له في كل شيء (تك ١: ٢٦). أستنتج من ذلك أن الإنسان الأول خُلق بأجنحة حتى يكون شبيها بالطبيعة الإلهية. ويتضح أن كلمة "أجنحة" يمكن أن ترمز إلى اللّه. فهي قوة اللّه ونعمته وعدم فساده وكل شيءٍ آخر. وامتلك الإنسان جميع هذه الصفات طالما كان على شبه اللّه في كل شيءٍ، ولكن ميلنا إلى الشر سلب منا الأجنحة. (فلم نكن تحت حماية أجنحة اللّه، بل نُزعت منا أجنحتنا الخاصة). لذلك ظهرت لنا نعمة وبركة اللّه، وأنارت عقولنا حتى تنمو لنا أجنحة من

---

[1] الرسالة ضد الآريوسيين ١:١: ٣٤.

[2] *Prayer of David, Book 4:9:35.*

خلال الطهارة والبرِّ بعد أن ننبذ الرغبات الدنيوية ونتجه إلى اللّه بكل قلوبنا[1].

القديس غريغوريوس النيسي

نعمة اقتناء حياة المسيح

❖ بالسخاء ذاك الذي يعطينا أعظم كل العطايا، حياته ذاتها[2].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ (إذ صار إنسانًا) صرنا الآن قادرين أن نقتنيه، نقتنيه هكذا بالعظمة، وبذات طبيعته التي كان عليها، إن كنا نعد له مكانًا لائقًا في نفوسنا.

❖ المسيح الذي هو كل فضيلة، يأتي ويتكلم على أساس أن ملكوت الله في داخل تلاميذه وليس هو هنا وهناك[3].

العلامة أوريجينوس

نعمة رائحة المسيح الذكية

❖ هكذا تشبَّه بولس العروس بالعريس في فضائله، وصور بعطره الجمال الذي لا يُدنى منه. من ثمار الروح الحب، الفرح، السلام وما شابه ذلك. صنع عطره، واستحق أن يصير "رائحة المسيح الذكية" (٢ كو ٢: ١٥). لقد **استنشق القديس بولس هذه النعمة الغير مدركة التي تجاوزت كل نعمة، وأعطى نفسه لآخرين كرائحة ذكية ليأخذوا منها على قدر طاقتهم**، حسب تدبير كل إنسان. صار بولس الرسول عطرًا، إما لحياة أو لموت، فإنه إذا ما وضعنا العطر ذاته أمام خنفس وأمام حمامة، فلن يكون له تأثير مماثل على الاثنين؛ فبينما تصير الحمامة أكثر قوة حين تستنشقه فإن الخنفس يموت حينذاك. هكذا الحال مع الرائحة المقدسة، مع بولس الرسول العظيم الذي شابه الحمامة[4].

القديس غريغوريوس النيسي

---

[1] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٥.

[2] *Paedageogus 1: 9.*

[3] *Comm. on John, Book 10: 4; Comm. on Matt. Book 12: 14.*

[4] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٢.

نعمة الفضيلة

❖ بحق يمكن للإنسان أن يصف نفس القديس بولس بكونها حاملة بذار الفضيلة وفردوسًا روحيًا. **فقد ترعرعت في داخله النعمة بعمقٍ**، كما كان دائمًا يهيئ أعماقه لتنمو النعمة فيها وتزدهر. وحين صار إناءً مختارًا دأب على تنقية نفسه فاستحق أن ينسكب عليه الروح القدس بفيض. هكذا صار لنا مصدر أنهارٍ كثيرة وعجيبة، ليست فقط الأنهار الأربعة التي نبعت في الفردوس، وإنما أنهار أخرى كثيرة تجري كل يومٍ لكل واحدٍ منا لتروي ليس فقط الأرض، بل نفوس البشر فتجعلها تنبت الفضائل[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليعطنا الرب الإله **نعمة التواضع** التي تقتلع الإنسان من أمراض كثيرة وتحفظه من تجارب كثيرة[2].

الأب دوروثيؤس من غزة

❖ **بنعمة الله**، منذ تركت العالم لم أنطق بكلمة واحدة ندمت عليها فيما بعد[3].

الأب بامبو

❖ ليس شيء من هبات الله للبشرية قُدم على سبيل إيفاء دين بل الكل هو من خلال النعمة[4].

العلامة أوريجينوس

نعمة الآب والابن

تقديم النعمة الإلهية هو عمل إلهي واحد، عمل الثالوث القدوس محب البشر. فالآب يهب نعمته بفيض بالكلمة الإلهي، بكونه قوة الله وحكمته، يقدمها لنا بروحه القدوس بكونه روح القوة والحكمة. فالنعمة الإلهية هي نعمة الآب والابن والروح القدس، عمل واحد للثالوث القدوس.

❖ من المستحيل أن الآب عندما يعطى نعمة، ألا يعطيها بالابن، لأن الابن موجود في الآب، مثلما يوجد الشعاع في الضوء. وذلك ليس كأن الله معوز أو ضعيف، بل كأب "قد أسس الأرض

---

[1] *Praises of St. Paul, Hom.1..*

[2] تعريب الأرشيمندريت افرام كرياكوس: القديس دوروثاؤس: التعاليم الروحية, مقال ٢.

[3] *Bendicta Ward, p. 197.*

[4] *Comm. Rom. 22 on 4: 4 f.*

بحكمته" (أم ٣: ١٩)، وصنع كل الأشياء بالكلمة المولود منه، ويختم على الحميم المقدس (المعمودية) بالابن. وأوجد كل الأشياء بواسطة كلمته، اللوغوس الذاتي، وأكمل الحميم المقدس في الابن. وحيث يكون الآب فهناك يكون الابن أيضًا. كما أنه حيث يكون النور هناك يكون الشعاع أيضًا.

ولهذا أيضًا عندما وعد الابن القديسين تكلم هكذا: "إليه نأتي، أنا والآب، وعنده نصنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣). وأيضًا "لكي يكونوا هم أيضًا واحدًا فينا... كما إننا نحن واحد" (يو ١٧: ٢١-٢٢). وهذا يعني أن النعمة هي واحدة، وهي معطاة من الآب بالابن، كما يكتب بولس في كل رسائله، "نعمة لكم وسلام أبينا والرب يسوع المسيح". (رو ١: ٧، ١ كو ١: ٣، أف ١: ٢)[١].

❖ لأن هناك **نعمة واحدة من الآب في الابن**، كما يوجد نور واحد للشمس وشعاعها. وكما تشرق الشمس من خلال الشعاع، هكذا أيضًا وبذات الأسلوب فإن القديس بولس يبعث بتمنياته لأهل تسالونيكي قائلاً: "والله نفسه أبونا والرب يسوع المسيح يهدى طريقنا إليكم" (١ تس ٣: ١١). ومن ثم يحفظ وحدانية الآب والابن. فلم يقل بولس (إن الله أبانا والرب يسوع المسيح) "يهديان" وكأن النعمة مزدوجة المصدر يعطيها اثنان، أي بواسطة هذا وذاك، بل يقول "يهدي *Katavtheinai*" لكي يوضح **أن الآب يُعطي هذه النعمة بالابن.**

إذن فتلك "**العطية الواحدة**" تكشف عن وحدانية الآب والابن. وأن كل ما يُعطى يُعطى بالابن، وما من شيء يعمله الآب من دون الابن، لأنه بهذه الطريقة تكون النعمة مضمونة لمن يتقبلها[٢].

القديس أثناسيوس الرسولي

نعمة ميراث الملكوت

غاية خلقتنا هي تمتعنا بالخلود مع الله أبينا، يكون لنا نصيب في أحضانه الإلهية. هذا ما شغل قلب ربنا يسوع المسيح وفكره، محتملاً عار الصليب عِوَضًا عنا لننعم بنعمة الملكوت أبديًا. ولا يزال مسيحنا في السماء يعد لكل واحدٍ منا موضعًا، فهو مشغول بميراثنا الأبدي.

❖ كيف حصلنا على النعمة "قبل الأزمنة الأزلية" بينما لم نكن قد خلقنا بعد، بل خلقنا في الزمن، لو

---

[١] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٢: ٤١-٤٢.

[٢] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ١١-١٢.

أن النعمة التي وصلت إلينا لم تكن مودعة في المسيح؟ لهذا ففي الدينونة، عندما ينال كل واحد بحسب عمله يقول: "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم" (مت ٢٥: ٣٤). كيف إذا أو بواسطة من أعد الملكوت قبل أن يخلقنا؟ إن لم يكن بواسطة الرب الذي به تأسيس قبل الدهور لأجل هذا الغرض، لكي ببنياننا عليه كحجارة ملتئمة نشترك في الحياة والنعمة الممنوحتين[١].

القديس أثناسيوس الرسولي

إذ يحدثنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن **نعمة ميراث الملكوت** يوضح لنا أننا في هذا الملكوت الأبدي نتمتع بنعمة عدم الفساد، فلا نُحرم من الجسد الذي اشترك في الجهاد مع النفس وتقدس معها بعمل روح الله القدوس، إنما يُنزع كل أثر للفساد فيه، حاملاً طبيعة عدم الفساد اللائقة بالحياة الأبدية.

❖ يريد أن يقول: إني أخلع ما هو غريب عني، والغريب ليس هو الجسد، ولكن الفساد. ولهذا يقول: لسنا نريد أن نخلعها (أي خيمة الجسد) ولكن أن نلبس فوقها، أي نلبس عدم الفساد. إذن نخلع الفساد ونلبس عدم الفساد. فهو يريد أن ينبذ ما جاء نتيجة الخطية، وفي الوقت نفسه **يكتسب كل ما أعطته النعمة الإلهية.**

ولكي نعلم أن الخلع لا يقوله من جهة الجسد بل يقوله من جهة الفساد والموت، اسمع ما يقوله بعد ذلك مباشرة: "إذ لسنا نريد أن نخلعها بل نلبس فوقها"، ولم يقل: لكي يُبتلع الجسدي من اللاجسدي، لكن ماذا يقول؟ "لكي يُبتلع المائت من الحياة". لهذا فهو لا يتحدث عن خلع الجسد بل عن خلع الموت والفساد. فالحياة التي تأتي إلى الجسد (بالقيامة) لن تبيد الجسد، بل الفساد والموت اللذين في الجسد.

إذن فالأنين ليس بسبب الجسد، بل بسبب الفساد الموجود في الجسد. فالجسد هو عبء ثقيل لا بسبب طبيعته، بل بسبب الفساد الذي دخله فيما بعد. والجسد بحد ذاته لم يُجعل للفساد بل لعدم الفساد. وهو يحمل تلك الخاصية حتى حين صار قابلاً للفساد. ولذلك فإن ظل الرسل كان يطرد القوات غير الجسدية، والملابس التي كانت تستر أجسادهم كانت تشفي المرضى وتعيدهم أصحاء. لا تحدثوني عن أمراض الجسد والأمور الأخرى التي يذكرها الذين يتكلمون ضد الجسد، لأن كل هذه

[١] الرسالة ضد الآريوسيين ١: ٢: ٦٧.

الأمور لم تكن من طبيعة الجسد، بل هي بسبب الفساد الذي دخل الجسد فيما بعد.

لو أردتم أن تعرفوا حقيقة الجسد وقيمته، دققوا النظر في خلق أعضاء الجسد وشكل هذه الأعضاء ودقائق أعمالها بتوافق وتناسق وانسجام، فإنك عندئذٍ ستتأكد أن أداء هذه الأعضاء والتوافق فيما بينها هو أمر أكثر مثالية وأمل من مدينة تحترم قوانينها ومواطنيها جميعًا من الحكماء[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

نعمة الخلود فيه

❖ لكن الآن قد صار الكلمة إنسانًا، وأخذ ما يخص الجسد، فلم تعد تلك الأشياء تمس الجسد بسبب اللوغوس الذي سكن فيهم، والتي أُبيدت بواسطته. فلم يعد البشر خطاة وأمواتًا بعد بحسب الأهواء الخاصة بهم، بل إذ قاموا بحسب قوة اللوغوس ظلوا عديمي الموت، وعديمي الفساد إلى الأبد.

وإذ قد أخذ الرب جسدًا من مريم والدة الإله، فإن الذي أعطى الآخرين أصل حياتهم، قيل عنه هو نفسه أنه قد وُلد، ليصبح هو ذاته أصلنا، فلا نعود نرجع إلى الأرض بعد باعتبارنا مجرد تراب من الأرض، لكن إذ اتحدنا باللوغوس نقل هو إلى ذاته ضعفات الجسد الأخرى أيضًا، حتى تكون لنا شركة في الحياة الأبدية، لا كبشر، بل كمن ينتمي إلى اللوغوس.

لأننا لا نموت بعد في آدم بحسب نشأتنا الأولي، بل إذ قد تحول أصلنا وضعف جسدنا إلى اللوغوس، نقوم من التراب، إذ زالت عنا لعنة الخطية بسبب ذاك الذي هو فينا والذي صار لعنة من أجلنا.

فإننا نحن جميعًا الذين من الأرض نموت في آدم، وإذ قد تجددنا من فوق، حيث أُعيد أصل نشأتنا من الماء والروح، فقد أحيينا في المسيح، ولم يعد الجسد ترابيًا بعد، بل إنه تأله (إذ صارت له خاصية اللوغوس)، بسبب حكمة الله، الذي لأجلنا صار جسدًا[٢].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ لأنك إن عارضت أمر خلاصي من الفساد بالطبيعة، فأنظر لئلا تعارض كلمة الله الذي رفع عني صورة العبودية، لأنه الرب الذي أخذ جسدًا، وصار إنسانًا. فإننا نحن البشر بالمقابل، وقد تألهنا

---

[1] *PG 50:417-432.* ترجمة: د. سعيد حكيم يعقوب (المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة)

[٢] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ٣٣.

باللوغوس إذ أُخذنا فيه بواسطة جسده، وهكذا من الآن فصاعدًا سنرث الحياة الأبدية[1].

القديس أثناسيوس الرسولي

نعمة التمتع بمعرفة الحق الإلهي

خلق الله في الإنسان حنينًا نحو التعرف على الحقيقة غير المتغيرة، فقدم السيد المسيح نفسه بكونه "الحق". من يقتنيه يتمتع بمعرفة الحق كنعمة إلهية مجانية.

❖ نحن نعلم أن الابن قد جاء، وأعطانا بصيرة لنعرف (الله) الحق، ونحن في الحق، في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية (١ يو ٥: ٢٠). ونحن قد صرنا أبناء في الابن بالتبني والنعمة، لأننا نشارك في روحه، إذ أن "كل الذين قبلوه أعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه" (يو ١: ١٢). ولهذا أيضًا فالابن هو الحق إذ يقول "أنا هو الحق" وفي حديثه إلى الآب يقول: "قدسهم في حقك، كلمتك هو حق" (يو ١٤: ٦؛ ١٧: ١٧)، ونحن بالمحاكاة نصير خيرين وأبناء[2].

❖ لهذا كان واضحًا للكل أن البشر حقًا جاهلون، لكن اللوغوس ذاته باعتباره الله الكلمة، يعرف كل شيء حتى قبل حدوثه. لأنه حينما صار إنسانًا لم يكف عن أن يكون هو الله، ولم يستنكف من أمور الإنسان بكونه هو الله، بئس هذا الفكر. بل بالأحرى، إذا هو الله، قد أخذ لذاته الجسد، وإذا هو في الجسد فإنه يؤله هذا الجسد. لأنه كما سأل أسئلة هكذا أيضًا أقام الميت، وأظهر للكل أن الذي يحيي الميت ويستدعي روحه، يعرف بالأكثر أسرار الجميع. إنه يعرف حقًا أين يرقد لعازر، ومع هذا يسأل، لأن لوغوس الله الكُلى القداسة، الذي احتمل كل شيء لأجلنا، إنما قد فعل ذلك، حتى **بأخذه جهلنا، يهبنا نعمة المعرفة**، معرفة أبيه الحقيقي وحده، ومعرفته أنه هو الابن المرسل لأجل خلاصنا جميعًا. فأية نعمة أعظم من هذه النعمة؟[3]

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ "لأنه ابتهج قلبي، واسترخت حقواي، وصرت كلا شيءٍ، ولا أعرف وصرتُ كبهيمٍ عندك، ولكني

---

[1] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ٣٤.

[2] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ١٩.

[3] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ٣٨.

دائمًا معك" (مز ٧٣: ٢١-٢٣)... هكذا يبدو الإنسان بهيمًا أعجمًا بالمقارنة لا أقول بالمسيح، بل **حتى بالملائكة،** لكن حتى إن كان الأمر كذلك، لا نيأس، لأن الربَ يحفظ البشرَ والبهائم كليهما معًا. (مز ٣٦: ٦). ومن ثم فلأنني لم أتعلم من ذاتي بل منك، فإنني ألتصق بك دومًا حتى أكف عن أكون بهيمًا، وحينئذٍ تقول لي: "**وأما أنت فقفْ هنا معي**"! (تث ٥: ٣١) فالإنسان الذي بجهله انحدر إلى الحماقة ونقص المعرفة، الذي يوزن بميزان البهيمة، **يبدأ من جديد فيصير إنسانًا، حينما تشمله نعمة الله،** فهو حقًا إن اقتدر بالعقل والنعمة، لأثبت أنه إنسانًا بتلك الحقيقة عينها. ومن ثم يتهلل أنه انفصل عن الحيوانات العجماوات، ودخل في شركة البشر الذين يفتقدهم الله ويحميهم. لأنه ما هو الإنسان إلا الذي يفكر الرب فيه ويفتقده؟ (قابل مز ٨: ٤)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ سريعًا ما تنحل رباطات الجهل خلال الإيمان البشري والنعمة الإلهية، وتُمحى خطايانا بدواء الله الكلمة. فنُغتسل من كل خطايانا، ولا نعود بعد فنكون مرتبكين في الإثم. لا تعود شخصياتنا تبقى كما كانت كسابق عهدها قبل الغسل. فإن **المعرفة تبرز للوجود جنبًا إلى جنب مع الاستنارة،** ففي لحظة نسمع نحن غير المتعلمين أننا صرنا تلاميذ المسيح. فإن الإرشادات تؤدي إلى الإيمان، ونتعلم الإيمان مع العماد بالروح القدس. هذا الإيمان هو الخلاص الجامع الواحد للبشرية.

القديس إكليمنضس السكندري

نعمة الثبوت في الآب والابن

❖ "بهذا نعرف أننا نثبت في الله وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه" (١ يو ٤: ١٣)، لهذا فإنه بسبب نعمة الروح القدس التي أُعطيت لنا، نصبح نحن في الله وهو فينا، حيث أن المقصود هنا هو روح الله الذي من خلال مجيئه ليصير فينا، نُعتبر نحن أيضًا في الله والله فينا إذ لنا الروح.

هكذا إذن لا نكون في الآب مثل الابن الذي هو كائن في الآب، لأن الابن ليس شريكًا للروح حتى يصبح نتيجة لذلك في الآب، ولا هو متقبل للروح القدس مثلنا، بل أن الابن بالأحرى يعطي الروح القدس للجميع.

وليس الروح هو الذي يربط كيان اللوغوس بالآب، بل أن الروح القدس بالأحرى هو الذي يأخذ من

[1] *Prayer of David, Book 3.*

اللوغوس. لأن الابن كائن في الآب بصفته كلمته الذاتي وإشعاعه، بينما نحن بدون الروح القدس غرباء عن الله، بعيدون عنه وبشركتنا في الروح نتحد بالله. لهذا فإننا نصير في الآب ليس من أنفسنا، بل من الروح القدس الذي فينا، والذي نحفظه ثابتًا فينا من خلال الاعتراف، كما يقول يوحنا أيضًا: "من يعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه، وهو في الله" (١ يو ٤: ١٥)[١].

القديس أثناسيوس الرسولي

نعمة الشبع والفرح

❖ "صارت لي دموعي خبزًا نهارًا وليلاً، إذ قيل لي كلَ يوم: أين إلهك؟" (مز ٤٢: ٣)، وبحق **دُعيتْ الدموعُ هنا خبزًا**، حيثُ الجوع إلى البرّ. "طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، لأنهم يُشبعون" (مت ٥: ٦)، لهذا توجد دموع بمثابة خبزٍ، تقوّي وتسند قلبَ الإنسان (قابل مز ١٠٤: ١٥)، ومقولة الجامعة المأثورة تناسب المقامَ هنا أيضًا "الِق خبزك على وجه المياه" (جا ١١: ١ *LXX*)، **لأن خبزَ السماء هناك، حيث مياه النعمة**. حقا أن أولئك الذين تتدفق من بطونهم أنهار ماء حيَّة (قابل يو ٧: ٣٨؛ ١٠: ٤)، سوف ينالون عون الكلمة (الإلهي) وتعضيده، وقوتًا من نوعٍ سري (باطني). أيضًا يوجد هذا الخبز الحي، (قابل يو ٦: ٥١)، حيث هنا مياه الدموع والبكاء، بكاء التوبة. لأنه لهذا كُتب: "بالبكاء يأتون وبالعزاء أعيدهم" (إر ٣١: ٩ *LXX*). لهذا طوباهم الذين **خبزهم الدموع**؛ لأنهم يستحقون أن يضحكوا؛ لأنه "طوبى للباكين!" (لو ٦: ٢١)[٢].

❖ "لأني سأدخل موضعَ الخيمة العجيبة، إلى بيت الله، بصوت الفرح والحمد، بصوت جمعٍ معيِّد واحد." (مز ٤٢: ٤). بكى بحق لأنه يسكن الأرض، بينما تنتظره المظال السماوية، حيث يدخل في الوقت المناسب إلى قدس القدير. (قابل مز ٨٤: ٢، ٣، ١٠). بالحقيقة فضل وآثر ذلك الموضوع على كل ثروةِ مملكته، كما شهد هو قائلاً في نصٍ آخر: "واحدةً سألتُ من الرب، وإياها التمس **أن أسكن في بيت الرب** كلَ أيام حياتي، لكي أنظر إلى فرحِ الرب" (مز ٢٧: ٤)، فرحُ الربِ في الكنيسة.

الكنيسة أيقونة السماويات، بعد أن يزول الظل حقًا تظهر الأيقونة جلِّيةً. (قابل عب ١٠: ١، كو

---

[١] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ٢٤.

[2] *Prayer of David, Book 4:2:7.*

٢: ١٧). والظل هو المجمع اليهودي. وفي الظل الناموس، لكن في الإنجيل الحق. لهذا فإن أيقونةَ الحق تسطع في نور الإنجيل، لهذا بكى المرتل بسبب تأجيل الخيرات التي **امتلأت حتى الحافة كاملةً بالنعمة والفرح**[١].

القديس أمبروسيوس

نعمة النور

❖ **تعبر النفس من الخطأ إلى الحق، وتتبدل صورة حياتها المظلمة إلى نعمة فائقة.** انتقل بولس الرسول عروس المسيح من الظلمة إلى النور، إذ يقول لتلميذه تيموثاوس، كما العروس لوصيفاتها، إنه قد صار مستحقًا إن يكون جميلاً، لأنه كان قبلاً مجدفًا ومضطهدًا ومفتريًا ومظلمًا (١ تي ١: ١٣). ويقول بولس الرسول أيضًا أن المسيح جاء إلى العالم لينير للذين في الظلمة. لم يدعُ المسيح أبرارًا بل خطاة إلى التوبة، الذي جعلهم يضيئون كأنوار في العالم (في ٢: ١٥)، بحميم الميلاد الثاني الذي غسلهم من صورتهم السوداء الأولى[٢].

❖ زارت ملكة أثيوبيا سليمان بعد ما سمعت عن حكمته، وقدمت له هدايا من الذهب والأحجار الكريمة والعطور (١ مل ١٠: ١-٣)، ويتضح سرّ هذه الزيارة من دراسة عجائب الإنجيل. لأنه من لا يعرف أن الكنيسة جاءت من مجتمع الظلمة من بين الأمم عابدي الأصنام، الذين عاشوا بعيدًا عن معرفة اللّه وكانوا منفصلين عنه بخليج الجهل العظيم. ولكن عندما **أضاءت نعمة اللّه** وحكمته، وأرسل النور الحقيقي أشعته إلى من كانوا في الظلمة وظلال الموت. أغمضت إسرائيل عيونها للنور، ورفضت أية مشاركة في الخير. لكن الأثيوبيين أسرعوا إلى الإيمان من بين الأمم، الذين كانوا بعيدون اقتربوا بعدما غسلوا أنفسهم من الظلمة بالمياه المقدسة. لقد اقتادهم الروح القدس إلى اللّه وقدموا هدايا للملك: بخور النسك والعبادة وذهب معرفة اللّه الملك وأحجارًا كريمة للوصايا وعمل الفضيلة[٣].

القديس غريغوريوس النيسي

---

[1] *Prayer of David, Book 4:2:9.*

[٢] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٢.

[٣] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٧.

نعمة الكرازة والشهادة

❖ لماذا لم تُرسل الملائكة في مهمة الكرازة بالإنجيل؟ لكي لا يكون للإنسان عذر في كسله أو إهماله، فيُبَرر نفسه بحُجة اختلاف الطبيعة البشرية عن الطبيعة الملائكية، لأن الفرق عظيم.

من العجيب حقًا إن الكلمة المنطوقة من لسان ترابي لها القدرة على اقتلاع الموت، وغفران الخطايا، وإعادة النظر للعميان، وتحول الأرض سماءً، وهذا يجعلني أتعجب من قدرة الله **ويزداد إعجابي وإكرامي لغيرة بولس لنواله تلك النعمة وتهيئة نفسه وإعدادها حتى يستحق نوالها.**

إني أُحثُّك لا لتتعجَب، بل لتقتدي بالمثال الأعلى للفضيلة، وبهذه الطريقة تستحق أن تُشاركه في إكليله، ولا تُفاجأ بأنه يمكن لأي شخص أن يصير كبولس في خدمته لو تمثَّل واقتدى به، فيردد في قلبه كلمات بولس: "**قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيرًا قد وضع لي إكليل البرّ، الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضًا**" **(٢ تي ٤: ٧-٨).**

رأيت كيف يدعو الجميع لمشاركته في إنجازاته، وبالتالي فالمكافأة أيضًا معروضة ومفتوحة للجميع.

فلنجتهد جميعنا لنثبت استحقاقنا للبركات الموعودة لنا، ولننظر ليس فقط لعظمة ومجد الحياة في الفضيلة، لكن نتأمل أيضًا في ثبات الهدف الذي من خلاله نحقق هذه النعمة. **ولنعرف أن بولس لم يختلف عن طبيعتنا بأية حال من الأحوال، ولكنه كان مثلنا، وهذا يجعل ما يبدو صعبًا ومستحيلاً بالنسبة لنا قد صار سهلاً وخفيفًا،** لأنه بعد هذا الوقت القصير من العمل والجهاد سنرتدي إكليل عدم الفساد الأبدي بواسطة نعمة وصلاح ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والكرامة الآن وكل أوانٍ وإلى أبد الآبدين. آمين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الآن نراه يكشف الحديث عن دور كنسي، لأن **أولئك الذين أرشدتهم النعمة وقد صاروا شهودًا للكلمة لا يكتموا الحق محتفظين به لأنفسهم، بل بالأحرى يبشرون به آخرين ممن لحقوهم.** لذلك تقول العذارى للعروس التي تمتعت أولاً بالصلاح إذ التقت بالكلمة وجهًا لوجه، واستحقت أن

[1] *Praises of St. Paul, Hom. 2.*

تتعرف على الأسرار الخفية: "**تبتهج ونفرح بك، نذكر حبك أكثر من الخمر**" (نش ١: ٤)[١].

القديس غريغوريوس النيسي

نعمة ديناميكية

من أجلنا قيل عن السيد المسيح: "وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئًا حكمة، وكانت نعمة الله عليه" (لو ٢: ٤٠)، وأيضًا: "وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والنعمة عند الله والناس" (لو ٢: ٥٢). وكما يقول العلامة أوريجينوس: [لقد أخلي ذاته وأخذ شكل العبد (في ٢: ٧)... وبالقدرة التي بها أخلي ذاته نما أيضًا.] هكذا يدخل بنا إلى طريق النمو الدائم في النعمة. فالنعمة فينا هي عمل الله المستمر الديناميكي غير المتوقف.

❖ المقصود بالنمو إذن هو نمو الجسد، لأنه بنمو جسد المخلص يُستعلن الله أكثر فأكثر (من خلال بشرية المخلص) لمن يرونه. وإذا يُستعلن اللاهوت أكثر فاكثر، هكذا بالأحرى تزداد نعمة بشريته بالأكثر كإنسان أمام جميع الناس. لأنه كطفلٍ حُمل إلى الهيكل، ولكن حينما صار صبيًا بقى في الهيكل وناقش الكهنة حول الناموس "حتى بهتوا من فهمه وأجابته" (لو ٢: ٤٧) [٢].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ ينمو الطفل يسوع المولود بداخلنا بمختلف الطرق في الحكمة والقامة والنعمة في قلب من يستقبله ليسكن فيه (لو ٢: ٥٢).

يسكن المسيح في كل قلب نقي، ولكن بصورة مختلفة حسب قامة الإنسان الذي يسكن بداخله. يظهر ذاته حسب طاقة كل إنسان. فإنه يأتي كطفلٍ أو كصبيٍ أو كإنسانٍ ناضجٍ على مثال العناقيد.

لا يظهر المسيح بنفس الصورة على الكرمة، لكنه يغير هيئته مع مرور الوقت الآن تبرعم، لقد نبت، ثم نضج، وصار يانعًا، وأخيرًا صار خمرًا.

إذ يحمل الكرم ثمرته يحمل معها وعدًا، حقًا إنه لم ينضج بعد ليعطي خمرًا، ولكنه ينتظر مرحلة النضوج. **وفي الوقت ذاته لا يحرمنا من السرور، لأنه يفرح حاسة الشم بدلاً من التذوق باعتبار ما سيكون؛ خلال عطر الرجاء يعطى عذوبة لحواس النفس.**

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١.

[٢] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ٥٢.

إن الإيمان الثابت **بالرجاء في النعمة يصير بهجة لنا**، نحن الذين ننتظر في صبر. وهكذا فإن الطاقة الفاغية تحمل وعدًا بالخمر. إنها ليست بعد خمرًا، لكنها تنبت نبته الرجاء. إنها تنتظر نعمة لم تأتِ بعد[1].

❖ وبالرغم من أن المرحلة التي بلغ إليها الشخص الآن أعلى في الحقيقة مما كان عليه سابقًا، إلا أن هذه المرحلة لا تحد من تقدمه، لكنها تصبح بداية لاكتشاف نعمة أعلى.

فالشخص الذي يرتفع لا يقف أبدًا ساكنًا. إنه يتحرك من إحدى البدايات إلى التي تليها، وبدايات النعمة الأعلى ليست محدودة. لذلك فرغبة النفس التي ترتفع تزداد في المعرفة وفي الرغبة في الارتفاع إلى مستويات أعلى، وتستمر في النمو محققة التقدم إلى الغير محدود[2].

القديس غريغوريوس النيسي

نعمة جامعة

❖ "صرت كل شيء لكل البشر، لكي أربح الكل" (١ كو ٩: ٢٢). تمطر النعمة الإلهية على الأبرار والأشرار (مت ٥: ٤٥).

هل هو إله اليهود وحدهم، أم إله الأمم أيضًا؟ نعم هو إله الأمم أيضًا، بالحقيقة هو الله الواحد (رو ٣: ٢٩–٣٠)، هذا ما يعلنه الرسول السامي[3].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ شكرًا لله، فإنه وإن كانت نعمة النبوة قد اقتصرت على إسرائيل، صارت الآن نعمة أعظم من كل ما كان لهم، انسكبت على الأمم بيسوع المسيح[4].

العلامة أوريجينوس

❖ تأملوا نقطة أخرى، "إنما صالح الله لإسرائيل، لأنقياء القلب" (مز ٧٣: ١). فهل الله ليس صالحًا للجميع إذن؟ حقًا هو صالح للكل، لأنه مخلص جميع البشر، خاصة للمؤمنين. لهذا أتى الرب

---

[1] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١.

[2] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٨.

[3] *Stromata 5: 3.*

[4] *Comm. Matt. 10: 22.*

يسوع ليخلص ما قد هلك (لو ١٩: ١٠).

حقًا جاء ليحمل خطية العالم" (يو ١: ٢٩)، ويشفي جراحتنا، لكن ليس الجميع يرغبون في العلاج!

كثيرون يتجنبونه! لئلا يحقن القرح بالعقاقير، ويفقد سطوته. لهذا السبب يشفي الذين يريدون الشفاء ولا يرفضونه.

فمن يرغبون في العلاج يستعيدون صحتهم، أما الذين يقاومون الطبيب ولا يطلبونه لا يتمتعون بصلاحه، لأنهم لا يختبرونه!

من نال الشفاء يستعيد صحته، لهذا فالطبيب صالح بالنسبة للذين أعاد إليهم عافيتهم. من ثمة الله صالح لأولئك الذين غفر خطاياهم، لكن إن كان لإنسان خطية لا علاج لها في روحه، فكيف يُقيّم الطبيب على إنه صالح، بينما هو يتحاشاه؟

لهذا كما قلت قبلاً، شرح الرسول بحق أن الله "الذي يريد أن الجميع يخلصون" (١ تي ٢: ٤)، هو صالح لكل الناس. **أما نعمة صلاح الله الخاصة فهي مكفولة بالأكثر لجميع المؤمنين**، الذين ينالون عونًا من إرادته الصالحة ونعمته. لكن حين يقول المرتل أيضًا: "إنما صالح الله لإسرائيل، لأنقياء القلب" فإنه ينقل مشاعر الذين لا يعرفون كيف يتمتعون بما يخص الله، عدا إنه صالح نحو كل شيء وهو في الكل[1].

القديس أمبروسيوس

واهب النعمة يطلب النعمة لحسابنا

❖ عندما يقول المخلص إذن، بحسب الأقوال التي يتذرعون بها، "دُفع إليَّ كل سلطان" (مت ٢٨: ١٨) و"مجد ابنك" (يو ١٧: ١)، وحينما يقول بطرس "وسلاطين وقوات مخضعة له" (١ بط ٣: ٢٢)، يجب أن نفهم كل تلك النصوص بنفس المعنى، أعني أن المخلص يقول ذلك كله بشريًا، بسبب الجسد الذي لبسه، إذ أنه وهو غير المحتاج قيل عنه رغم ذلك إنه نال ما ناله بشريًا.

هكذا أيضًا، فبقدر ما نال الرب، وبقدر ما تستقر النعمة عليه، تبقي النعمة محفوظة لحسابنا، لأن حينما يأخذ الإنسان بمفرده، فهناك احتمال فقدان ما أخذه، وقد ظهر ذلك في حالة آدم، لأنه بعد أن

[1] *Prayer of David, Book 3.*

نال خسر ما ناله.

ولكي تصير تلك النعمة بلا استرداد، وتظل محفوظة للبشر فقد أخذ المخلص العطية لنفسه وقال إنه قد أخذ سلطانًا كإنسانٍ، ذلك السلطان الذي يمتلكه على الدوام كإله.

ومن يمجد الآخرين يقول: "مجدني"، ليظهر أن له جسد في حاجة إلى السلطان والمجد. ومن هنا فحينما يأخذ الجسد (شيئًا ما)، ولأن ذلك الجسد الذي يأخذ خاص بالمخلص الذي صار إنسانًا، لهذا قيل إن المخلص هو الذي نال ما ناله[1].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ إن كان اللوغوس قد حلّ بيننا لكي يفدي البشر، وصار جسدًا لكي يُقدسهم ويؤلههم (لأنه لأجل هذا حقا قد صار جسدًا). فإنه يبدو جليًا للجميع، إنه حينما صار جسدًا نال مواهب الروح لأجلنا، وليس لأجله هو، لأن مواهب الروح التي يعطيها الآب بواسطة الابن كانت تُعطى لأجل ذلك الجسد، الذي كان يلبسه حينما تحدث.

لكن لنتأمل ما طلبه الرب، وماذا كانت تلك المواهب التي قيل إنه نالها، حتى يعود (أولئك الهراطقة) إلى رشدهم. لقد سأل إذ طلب المجد (يو ١٧: ١)، ومع هذا قال: "كل شيء قد دُفع إليّ من أبي" (لو ١٠: ٢٢). وبعد القيامة، يقول إنه نال كل سلطان في السماء وعلى الأرض (انظر مت ٢٨: ١٨). لكنه حتى قبل ذلك قال فعلاً: "دُفع إليّ كل شيء"، إذ إنه رب الجميع، "لأن كل شيء به كان" (يو ١: ١)، ويوجد "رب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (١ كو ٨: ٦). وحينما كان يطلب المجد، كان هو رب المجد، كما هو دائمًا كما يقول بولس: "لو عرفوا لما صلبوا رب المجد" (١ كو ٢: ٨). وحين طلب المجد بقوله: "مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" فإن ذلك المجد كان له أصلاً[2].

القديس أثناسيوس الرسولي

---

[1] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ٣٨.

[2] الرسالة ضد الآريوسيين ١:٣: ٣٩.

من وحي يو ١

قلبي متعطش إليك يا واهب النعم

❖ مالي أراك قادمًا إلى عالمنا.
يستحيل عليّ أن أرتفع إلى سماواتك!
لكن حبك أنزلك إليّ، يا أيها الكلمة الخالق!
حللت على أرضي، لترافقني رحلتي!

❖ تجسدك أعلن حبك العجيب لي،
ألهب قلبي، فصرت متعطشًا إليك يا واهب النعم!
أنت حياتي، بدونك لا وجود لي.
أنت نوري، بدونك أبقى في ظلمة فسادي.
حسبتني من خاصتك، ونزلت إليّ لألتصق بك!

❖ أقمتني بنعمتك الفائقة،
كل نعمة من عندك تسحبني لأتمتع بفيضٍ جديدٍ من النعم.
وهبتني وجودي من العدم،
أنعمت عليّ بصورتك ومثالك،
قدمت لي الناموس عونًا، يقودني للشعور بالحاجة إليك.
أخيرًا، قدمت لي ذاتك يا واهب النعم!
فتحت عيني لأشاهد مجد جلالك!
بهاؤك يعلن لي أنك ابن الله الوحيد!

❖ انفتحت أذناي لأسمع النذير، الصوت الصارخ في البرية!
يا له من صوت يدوي كما في صحراء قاحلة،
لكنه صوت عذب، يسبقك أيها الكلمة الإلهي.
صوته يعلن عن الحق،
أنك أزلي، واحد مع أبيك.

صوته يعلن عجزه عن أن يحل سيور حذائك،
لأنه بقي سرّ تجسدك غامضًا حتى تممت الخلاص بالصليب.
اسمح لي أن أتقدم وأحل سيور حذائك،
حيث يكشف لي روحك القدوس عن أسرار خلاصك!

❖ عرفك الجنين يوحنا فصرخ متهللاً.
سمعت أليصابات صوته في داخلها، فانفتح لسانها بالتسبيح!
لكنه حسب هذه المعرفة كلا شيء بعدما تمتع بعمادك!
عرفك أنك أنت تعمد بالروح القدس الناري.
أنت وحدك تغسل النفس بماء فريد،
وتلهب القلب بنار روحك القدوس.

❖ سحب نذيرك عيون الكل إليك، صارخًا:
هوذا حمل الله الذي طالما اشتاق الأنبياء إليه!
هوذا حمل الله موضع سرور الآب!

❖ سُرّ يوحنا حين انسحب تلاميذه إليك ليمكثوا معك.
وتهللت نفسه، إذ رأى كل تلميذ يشهد لك.
تحركت قلوبهم لتسحب بعضها البعض إليك.
مع نثنائيل ترك الكل ظلال شجرة التين اليابسة،
وجاءوا إليك ليروا ملائكتك تصعد وتنزل عليك!
رأوا السماء مفتوحة، والسمائيون يشتهون أن يخدموك!
نعم وأنا قلبي متعطش إليك،
لن يرتوي إلا بك، يا مصدر النعم!

الباب الثاني

آياته وأعماله
تعلن عن لاهوته

ص ٢ – ص ١٢

خدمة ابن اللَّه العامة

أو

سفر الآيات

يو ٢ – يو ١٢

سبع مراحل وسبع آيات

سبع مراحل

يرى البعض أن القديس يوحنا يتحرك في قوة وجرأة ليلتقط من أعمال السيد المسيح ومقالاته سبع آيات خلال سبع مراحل متمايزة.

المرحلة الأولى: البداية الجديدة (ص ٢ – ص ٤)

يُعرف إنجيل يوحنا **بإنجيل التجديد**، ويُدعى **سفر التكوين للعهد الجديد**، أو **سفر التكوين المسيحي**، حيث يقدم لنا قصة تجديد الخليقة بقوة. ففي هذه المرحلة نجد عدة لقاءات للسيد المسيح يركز فيها السيد على التجديد:

- ❖ **اللقاء الأول في قانا الجليل**، حيث يقدم حياة مسيانية جديدة متهللة.
- ❖ **اللقاء الثاني في الهيكل**، حيث يشير إلى هيكل جديد مُقام (اتحاد مع القائم من الأموات).
- ❖ **اللقاء الثالث مع نيقوديموس**، حيث يعلن عن الحاجة إلى الميلاد الجديد من الماء والروح.
- ❖ **اللقاء الرابع مع المرأة السامرية عند البئر**، حيث يكشف عن العبادة جديدة بالروح والحق.

في كل هذه اللقاءات يبرز عنصر الجدة. ما أعلنه هنا بالأعمال والحوار هو امتداد وتحقيق لما نادى به في الموعظة على الجبل عن تجديد فهمنا للوصية: "قد سمعتم أنه قيل للقدماء... وأما أنا فأقول لكم..." (مت ٥: ٢١–٢٢)، وما ورد في إنجيل مرقس الرسول: "ليس أحد يخيط رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق، وإلا فالملء الجديد يأخذ من العتيق، فيصير الخرق أردأ. وليس أحد يجعل خمرًا جديدة في زقاق عتيقة، لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق، فالخمر تنصب والزقاق تتلف، بل يجعلون خمرًا جديدة في زقاق جديدة" (مر ٢: ٢١–٢٢).

هكذا يقدم لنا الإنجيل السيد المسيح واهب الحياة المسيانية الجديدة والهيكل الجديد المُقام والميلاد الجديد والعبادة الجديدة والوصية الجديدة.

المرحلة الثانية: يسوع الكلمة واهب الحياة (ص ٤: ٤٣ – ص ٤٧: ٥)

إذ يقدم الكلمة الإلهي التجديد في كل جوانب الحياة يحتاج المؤمن إلى السيد المسيح كواهب الحياة.

تحوي هذه المرحلة ثلاثة فصول تحث عن التمتع بكلمة اللَّه واهب الحياة:

- ❖ شفاء ابن خادم الملك الذي كان في حكم الأموات، إذ كانت حياته في خطرٍ (ص ٤).
- ❖ شفاء مفلوج بيت حسدا الذي عانى من الفالج ٣٨ عامًا، حيث كانت حياته أقرب إلى الذين دُفنوا في القبور (ص ٥).
- ❖ حديث المسيح عن نفسه كواهب القيامة (ص ٥: ١٩-٤٧).

المرحلة الثالثة: يسوع خبز الحياة السماوي (ص ٦)

يحتاج الإنسان إلى النمو الدائم حتى يحيا ولا يموت، هذا الذي لن يتحقق بدون تناول الطعام اليومي. لذلك اشبع السيد المسيح الجموع بالخبزات القليلة، والتقى مع تلاميذه وهو سائر على المياه، وأخيرًا حدّثهم عن نفسه أنه الخبز السماوي، من يأكل منه لا يجوع، بل يتمتع بالشبع أبديًا، فيتمتع بنموٍ دائم لا ينقطع.

المرحلة الرابعة: يسوع المرفوض (ص ٧ – ص ٨)

بينما يهتم السيد بأن يقدم للإنسان الحياة الجديدة والخبز الجديد لكي يحيا معه في سمواته في نموٍ دائم، لا يطيق الإنسان اللقاء معه. فقد جاء الابن الوحيد الجنس متجسدًا لأجل خاصته، وخاصته لم تقبله. ففتح الباب للأمم لكي يصير الكل من خاصته. هكذا يبقى مسيحنا مرفوضًا مع كنيسته عبر الأجيال، ويبقى هو خادمًا حتى لرافضيه، باسطًا يديه لهم بالحبٍ، حتى يقبلوا الشركة معه.

المرحلة الخامسة: يسوع نور العالم (ص ٩ – ص ١٠)

يود السيد المسيح أن يقدم لهم المعرفة الصادقة للحق، حتى تستنير أعينهم. حقًا إن الذين يدركون عماهم ينالون منه النور كنعمةٍ مجانية، أما الذين يدعون التمتع بالبصيرة فيبقون في ظلمة عماهم.

المرحلة السادسة: يسوع القيامة (ص ١١)

آخر عدو يهدد حياة الإنسان هو الموت، لذلك لن يتوقف السيد المسيح عن العبور إلى مقابرنا لكي يقيمنا، مؤكدًا لنا أنه غالب الموت وقاهر الجحيم.

المرحلة السابعة: واهب الحياة خلال الموت (ص ١١: ٥٥ – ص ١٢: ٥٠)

سبع آيات

يضم هذه القسم ٧ معجزات:

١. تحويل الماء خمرًا في عرس قانا الجليل (٢).

٢. شفاء ابن خادم الملك (٤).

٣. شفاء مفلوج بيت حسدا (٥).

٤. إشباع الجموع (٦).

٥. السير على المياه (٦).

٦. شفاء المولود أعمى (٩).

٧. إقامة لعازر (١١).

الأصحاح الثاني

العريس مفرح النفوس

عرس قانا الجليل

في الأصحاح الأول قدم لنا الإنجيلي يوحنا بكور التلاميذ، الآن يقدم لنا بكر المعجزات ألا وهي معجزة تحويل الماء خمرًا في عرس قانا الجليل في بدء خدمته، حيث بدأ عصرًا جديدًا مسيانيًا، فيه تتحول مياه التطهيرات حسب الناموس القديم إلى خمرٍ من صنف جديد.

كان اليهود يترقبون العصر المسياني المتسم بالفيض من الخيرات مع الفرح الفائق للطبيعة. وقد عُبر عن ذلك في باروخ الثاني ٢٩: "يوجد على كل كرمة ألف غصن، وكل غصن يحمل ألفًا من العناقيد، وكل عنقود يحمل ألفًا من العنب، وكل عنبة تحوي كورًا *cor* (حوالي ١٢٠ جالون) من الخمر... هذه ستكون للذين في نهاية العالم". وقد استقى بابياس هذه الفكرة عندما تخيّل مجيء المسيح على الأرض ليملك ألف عام وما تحويه مملكته من كروم خيالية[1].

في الإنجيل بحسب القديس مرقس بدأ السيد المسيح خدمته إذ "جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله" (مر ١٤: ١). وهنا يحدثنا الإنجيلي عن بدء هذه البشارة المفرحة بحضوره في عرس بقانا الجليل وتحويل الماء إلى خمر. كرز بحضوره، وكرز برد البهجة على العروسين وأهلهما وأصدقائهما. فإن ملكوت السموات يشبه عشر عذارى "خرجن لاستقبال العريس" (مت ٢٥: ١)، أو "ملكًا صنع عرسًا لابنه" (مت ٢٢: ١). وحسب السيد المسيح حلوله وسط تلاميذه تحولاً لحياتهم إلى عرسٍ، سئل: "لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون؟" قال لهم: "هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا والعريس معهم؟ مادام العريس معهم لا يستطيعون أن يصوموا. ولكن ستأتي أيام حين يُرفَع العريس عنهم، فحينئذٍ يصومون في تلك الأيام" (مر ٢: ١٨-٢٠). يقول الرسول : "الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدًا" (٢ كو ٥: ١٧).

دعوة ربنا يسوع وتلاميذه إلى العرس لم تكن بلا معنى، فإن كان السيد المسيح هو العريس السماوي، فإن التلاميذ وهم بكور كنيسة العهد الجديد هم العروس الروحية. وكأن عرس قانا الجليل

[1] *Fr. Tadros Y. Malaty: The Apostolic Fathers, 1993, p. 137.*

وقد تم حسب الناموس والتقليد اليهودي، كان يضم في أعماقه عرسًا خفيًا لم يكن أحد بعد يدركه، عرس السيد المسيح مع كنيسته، هذا الذي يمتد ليس أسبوعًا كما في الطقس اليهودي (تك ٢٩: ٢٧؛ قض ١٤: ١٢)، وإنما الزمن كله حتى يعلن في يوم الرب العظيم (رؤ ٢١: ٢).

في هذا الأصحاح يؤكد الإنجيلي الحقائق التالية:

١. بدأ يسوع بالعمل في العرس، لكي يعلن حبه للبشرية، فيحملها إلى السماء كما إلى حجالٍ للعريس. نتمتع بالفرح السماوي، ونحمل انعكاس بهاء مجده علينا. إنه يؤكد أنه جاء إلى العالم ليحول حياتنا إلى عرسٍ مفرحٍ. تحويل ماء حياتنا إلى خمر يشير إلى الفرح الروحي الأبدي (إش ٥٥ :١؛ أف ٥: ١٨-٢٠).

❖ لقد نزل كلمة اللَّه من السماء، لكي يصير عريسًا للطبيعة الإنسانية، فأخذها مسكنًا له، لكي يخطبها ويقودها إليه فتلد ثمار الحكمة الروحية.

القديس كيرلس الكبير

❖ الذي صنع خمرًا في يوم الاحتفال بالزواج في الستة أجران للمياه هو نفسه الذي يفعل ذات الشيء كل عام في الكروم... لقد فقدت سمة العجب بسبب تكرارها المستمر[1].

❖ أي عجب إن كان قد جاء إلى ذاك البيت إلى عرسٍ، وقد جاء إلى هذا العالم لعرسٍ؟ حقًا إن كان يأتي إلى عرس، فإنه لابد أن يجد هنا عروسًا. ولكن ماذا يقول الرسول؟ "لأني خطبتكم لرجلٍ واحدٍ لأقدم عذراء عفيفة للمسيح" (٢ كو ١١: ٣)... هكذا له عروس هنا قد فداها بدمه، وأعطاها الروح القدس كعربونٍ. حررها من قيود الشيطان؛ مات من أجل خطاياها، وقام لأجل تبريرها (رو ٤: ٢٥). من يقدم لعروسه مثل هذه الأمور؟[2]

❖ العريس الذي قيل له: "**قد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن**" [١٠] يمثل شخص الرب. لأن الخمر الجيدة – أعني الإنجيل – حفظه المسيح حتى الآن[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 8:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 8:4.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 8:4.*

٢. حول ماء التطهير إلى خمر، فبدء عمله هو أن ينقلنا من حرفية الناموس حيثُ التطهيرات إلى فرح الروح، لنعيش في عصرٍ جديدٍ ببداية جديدة. بدأ العمل مع العروسين الشابين ليؤكد السيد المسيح اهتمامه بالشباب، وطلب صداقتهم ليهبهم بهجة لا تنقطع.

٣. إذ يدخل بنا إلى عرسه الأبدي، إنما يقيمه في هيكل قدسه، لذا قام بتطهير الهيكل [١٣-١٧]. لقد طلب اليهود آية [١٨]، أما هو فقدم آية موته وقيامته [١٩]، التي لم يفهمها أعداؤه بل وحاولوا تشويهها، أما أصدقاؤه فأدركوها بعد قيامته (مت٢٦: ٦١؛ ٢٧: ٤٠، يو ١٠: ١٨). انتقل الإنجيلي بنا من العروس إلى عيد الفصح لنرى مسيحنا يطهر الهيكل من الباعة والصيارفة. ويؤكد إقامة هيكل جديد في ثلاثة أيام [١٩] محولاً أنظارنا من الهيكل الحجري إلى هيكل النفس الداخلية حيث يقيم الله ملكوته في داخلنا. هكذا صار لنا في العصر الجديد هيكل جديد لا يقدُم ولا يشيخ.

١. تحويل الماء خمرًا ١-١٢.
٢. تطهير الهيكل ١٣-١٧.
٣. طلب آية ١٨-٢٥.

١. تحويل الماء خمرًا

"في اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل،
وكانت أم يسوع هناك". [١]

"**في اليوم الثالث**"، هكذا أراد الإنجيلي أن يوضح أنه في كل يوم جديد كان السيد المسيح يقوم بعملٍ جديدٍ وخدمةٍ جديدةٍ. لم يعبر يوم من أيام حياته على الأرض دون عمل. هكذا من يرتبط بالسيد المسيح تصير أيام حياته كلها أيام عمل، ليس من بينها يوم مفقود.

قوله "**في اليوم الثالث**" لا يخلو من معنى رمزي، فقد جاء يسوع المسيح بنفسه إلى كنيسته في المرحلة الثالثة ليقيم عرسه معها. العصر الأول هو عصر الآباء ما قبل الناموس، والثاني عصر الأنبياء في ظل الناموس، والثالث عهد النعمة حيث أشرق النور الحقيقي على العالم ليبدد ظلمته.

❖ يحتفل بالزفاف في اليوم الثالث، أي في العصر الأخير من العالم. فالعدد الثلاثي يشير إلينا بالبداية والوسط والنهاية[1].

[1] *Exposition on St. John PG 73:223- 226.*

❖ تم الزواج في اليوم الثالث، أي في نهاية (ملء) الدهور، لأن رقم ثلاثة هو البداية والوسط والنهاية. وهذه الثلاثة هي أبعاد الزمن كله. وينسجم تمامًا مع ما قاله أحد الأنبياء: "لقد ضُرب وسيعصبنا، بعد يومين يحيينا، وفي اليوم الثالث يقيمنا... لنحيا قدامه" (هو ٦: ١-٣).

القديس كيرلس الكبير

بقوله "**قانا الجليل**" يميزها عن قانا الأخرى التابعة لأفرايم في منطقة السامرة (يش ١٦: ٨؛ ١٧: ٩).

بدأت خدمته في **قانا الجليل** حيث سبط أشير (يش ١٩: ٢٨). وقد تنبأ يعقوب أثناء تقديم البركة للأسباط قائلاً: "أشير خبزه سمين، وهو يعطي لذات ملوك" (تك ٤٩: ٢٠). هكذا يقدم السيد المسيح في منطقة أشور خبز النفس السمين ويقدم ملذات روحية للملوك الروحيين. بدأ السيد عمله في ركنٍ ناءٍ من الدولة، منعزلٍ عن العاصمة "أورشليم" ليعلن انه جاء ليخدم، لا ليطلب مجدًا من الناس. جاء يخدم البسطاء الذين لا يقاومون كالكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة وغيرهم من القيادات الدينية.

يرى *Bede* أن "**قانا الجليل**" تعني "غيرة الهجرة". وكأن العرس الروحي يتحقق مع أولئك الذين لهم غيرة في المباراة نحو الهجرة من الرذائل إلى الفضائل، ومن الأرضيات إلى السماويات، وذلك بالرجاء والحب.

❖ يلاحظ المستمع المدقق أن الاحتفال (يو ٢) لم يتم في أورشليم بل خارج اليهودية (يو ٣)، فكان التجمع للاحتفال في مدينة للأمم (مت ٤: ١٥). فمن الواضح جدًا أن مجمع اليهود رفض العريس السماوي، ولكن كنيسة الأمم قبلته بقلب متهلل[1].

القديس كيرلس الكبير

هذا هو أول زواج مسيحي تم في العالم، كان حسب مشيئة الله، وإلا ما كان أصحاب العرس قد دعوا يسوع وتلاميذه. أما حضور القديسة مريم العذراء واهتمامها بالعرس، فإنها كانت مثالاً حيًا للعروس الطاهرة التي تفتح قلبها بالحب لكل إنسانٍ.

كانت أم يسوع هناك" [١] غالبًا ليس كأحد المدعوين وإنما كأحد أفراد الأسرة، لهذا أدركت أن الخمر قد فرغت، الأمر الذي لا يدركه المدعوون بل أصحاب العرس. هذا لم يكن بلا معنى، فإن كان هذا العرس هو أول آية صنعها يسوع ليربط بين العهد القديم والعهد الجديد، فإن أم يسوع وهي

[1] *Exposition on St. John PG 73:223- 226.*

من سبط يهوذا أحد أفراد عائلة العهد القديم تتوسط لدى ابنها ليعلن بهجة الخلاص المفقودة، فقد فرغ خمر الفرح، وانقطع الأنبياء إلي فترة طويلة، وساد الحزن والمرارة على الشعب.

"ودُعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس". [٢]

عدم مفارقة السيد المسيح وتلاميذه للعرس يكشف عن روح العروسين وأهلهما وأصدقائهما. كان الجميع يسلكون كما يليق في الرب، فلا يدعون يسوع إلى حين ليستأذن فيتحول العرس إلى حياة خليعة غير لائقة.

❖ الذي ذهب مرة واحدة فقط إلى الزواج يعلمنا ألا تتزوج المرأة إلا مرة واحدة (مادام رجلها حيًّا)، لكن هذه الحقيقة يمكن أن تكون ضد البتولية إن فشلنا في إعطاء الزواج وضعه اللائق... الهراطقة وحدهم هم الذين يحتقرون الزواج فيطأون وصية اللَّه بأقدامهم، أما نحن فنصغي بكل بهجة إلى الكلمة التي قالها ربنا في مديحه للزواج. فإن الكنيسة لا تشجب الزواج، وإنما فقط تخضعه[1].

القديس جيروم

❖ لم يأتِ لكي يشترك في العرس، بل بالأكثر ليحقق معجزته، ويقدس بدء الميلاد البشري الذي يتعلق بالجسد. كان لائقًا بذاك الذي جاء لتجديد طبيعة الإنسان نفسها وتقديمها بكاملها إلى حالٍ أفضلٍ أن يقدم بركته ليس فقط لمن ولدوا بالفعل، وإنما أيضًا يعد بالبركة للذين يولدون فيما بعد، مقدسًا مجيئهم في هذا العالم... بتقديس الزواج، لقد أزال الحزن القديم على الولادة[2].

❖ جاء (إلى العرس) لكي يقدس بداية ميلاده، أعني ميلاده حسب الجسد... أن يهيئ نعمة، مقدمًا إياها للذين سيولدون، ويجعل مجيئهم مقدسًا...

❖ قيل للمرأة من قبل اللَّه: "بالحزن سوف تحبلين" (تك ٣: ١٦). ألم تكن الحاجة بالأكثر إلى القضاء على هذا اللعنة أيضًا، وإلا كيف يمكننا أن نتفادى زواجًا مدانًا؟ لكن لأن المخلص هو محب البشر فإنه هو الذي يرفع هذه اللعنة، إذ **هو فرح الكل وسعادتهم. لقد أكرم الزواج بحضوره، لكي يزيل العار القديم الخاص بالحبل.** لأنه إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة،

---

[1] *Letter 48:11.*
[2] *Exposition on St. John PG 73:276.*

الأشياء القديمة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديدًا" (٢ كو ٥: ١٧).

❖ لم يأتِ المخلص إلى العرس بإرادته وحده، بل بدعوةٍ، أي برجاء وإلحاح أصوات القديسين، ولكن الخمر فرغت ولم يعد لدى المحتفلين منها أي شيء، لأن الناموس لم يكمل شيئًا، ولم تعطِ الوصايا الموسوية الفرح، ولم يستطع الناموس الطبيعي المغروس فينا أن يخلصنا.

القديس كيرلس الكبير

❖ كما قلت سابقًا إنه كان معروفًا في الجليل، لهذا دعوه في العرس، وقد لبى الدعوة، لأنه لم ينظر إلى كرامته، لكنه نظر إلى إحسانه إلينا، لأن من لم يستنكف من أن يأخذ صورة عبد (في ٢: ٧)، فأولى به وأليق ألا يترفع عن أن يحضر في عرس عبيده. ومن اتكأ مع عشارين وخطاة (مت ٩: ١٣) فأليق به ألا يمتنع عن أن يتكئ في العرس.

والذين دعوا المسيح لم يمتلكوا التمييز الواجب من أجله، ولا دعوه على أنه شخص عظيم، لكنهم دعوه كشخصٍ بسيطٍ كواحد من الكثيرين على أنه معروف عندهم. هذا المعنى ذكره البشير مستورًا إذ قال: وكانت أم يسوع هناك"، فعلى نحو ما دعوها، وكذلك دعوا يسوع أيضًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له:

ليس لهم خمر". [٣]

لم يذكر الإنجيلي أن القديسة مريم قد دُعيت للعرس، بل دُعي يسوع وتلاميذه الخمسة (حتى ذلك الحين)، لكنها كانت حاضرة غالبًا بكونها أحد أفراد العائلة.

إذ يُدعى السيد المسيح للحضور بالصلاة، يحل ومعه قديسيه (تلاميذه) ليحول الفرح إلى الكنيسة مقدسة، ويفيض على العروسين وكل الحاضرين من ينابيع فرحه السماوي.

ربما يتساءل البعض: مادام السيد المسيح لم يفعل قبلاً معجزات، فكيف عرفت القديسة مريم أنه قادر أن يقدم للعرس خمرًا بطريقةٍ معجزية؟

لم يكن قد صنع السيد المسيح عملاً معجزيًا علانية من قبل، غير أن القديسة مريم وقد عرفت إمكانياته الإلهية وصلاحه وترفقه بالغير توقعت أنه حتمًا يفعل شيئًا لكي لا يوجد نقص في العرس. إنها تدرك أنه لابد من تدخله عند الضرورة لسد الاحتياجات.

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 21:1.*

❖ يليق هنا التساؤل من أين جاء في ذهن أمه أن تتصور في ابنها أمرًا عظيمًا، إذ لم يكن بعد قد صنع أية معجزة، حيث يقول الإنجيلي: هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل" [١١]... الحبل به نفسه والظروف المحيطة به قد أوحى لها بفكر عظيم للغاية من جهة الطفل، إذ قال لوقا: "إذ سمعت كل الأقوال عن الطفل كانت تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها" (راجع لو ٢: ٥١)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ليس لهم خمر**" [٣]: هذا هو حال إسرائيل إذ زالت عنهم بهجة الخلاص. وكما يقول يوئيل النبي: "اصحوا أيها السكارى وابكوا وولولوا يا جميع شاربي الخمر علي العصير، لأنه قد انقطع عن أفواهكم" (يؤ ١: ٥). لقد اكتشفت أم يسوع، ابنة إسرائيل، ما حل بكل شعبها، فصرخت إلي العريس السماوي الذي وحده قادر أن يفيض حياض المعاصر خمرًا وزيتًا (يؤ ٢: ٢٤). باسم البشرية كلها رددت قول أبيها داود النبي: "رد لي بهجة خلاصك" (مز ٥١).

ما أعلنته القديسة مريم إنما خلال خبرتها بالعرس الروحي الجديد الذي تحققت منه حين أحنت رأسها، وقبلت تجسد الكلمة في أحشائها، فصارت أعماقها حفل عرس لا يُعبر عنه، إذ ترنمت قائلة: "تعظم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلصي" (لو ١ : ٤٦). هذا هو خمر الله الذي يبهج الروح، ويرد المجد والبهاء، ليحيا المؤمنون في عرس لا ينقطع. "كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك" (إش ٦٢: ٥).

تصرف القديسة مريم يكشف عن أمومة المؤمن واهتمامه بسد احتياجات الغير وليس احتياجاته هو، وأنه **يلجأ أولاً إلى الينبوع** لينال منه بفيضٍ بما يفوق الطبيعة. وأن يقدم الطلب بروح التواضع حيث يعرض الإنسان الموقف دون أن يضع الحَلْ لله كما لو كان أكثر منه حكمة أو حبًا للآخرين.

❖ اللَّه السخي جدًا لا يحتقرنا نحن الذين نجاهد جائعين إلى خيراته[2].

القديس كيرلس الكبير

"**قال لها يسوع:**
ما لي ولكِ يا امرأة؟

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 21:2.*
[2] *Exposition on St. John PG 73:278.*

لم تأتِ ساعتي بعد". **[٤]**

لم يلقِ السيد المسيح باللوم على العروسين أو أهلهما، لأنهم لم يعدوا خمرًا كافيًا، ولم يلم والدته لأنها تدخلت في الأمر، إنما أوضح لها أن لكل عمل وقته أو ساعته المناسبة.

يتعجب البعض كيف يدعو يسوع أمه "**يا امرأة**" لكن هذه الدهشة تزول حين نراه علي الصليب يكرر: "يا امرأة هوذا ابنك"، فهو يتحدث معها في بدء خدمة الآيات التي تمثل إشارة لبدء حمل الصليب، حيث يُستعلن شخصه فتثور قوى الظلمة ضده لتخطط لموته. فهو لا يتحدث معها بكونها أمه، لأنه ليس من حقها أن تحدد ساعة الصليب، إنما هذا حق الآب الذي أرسله. فقد جاء يتمم مشيئة الآب ببذل ذاته من أجل خلاص العالم.

حقا لقد رافقته القديسة مريم في أول معجزة وهي لا تدري أنها بدء ساعة الصليب، وبقيت معه حتى لحظات الصليب بكونها ممثلة للكنيسة، حواء الجديدة المرافقة لآدم الثاني في طريق آلامه، حتى يسكب بهاء مجده عليها. لقد قيل لها بعد الحبل بالسيد المسيح: "يجوز في قلبك سيف"، وقد بدأ يخترق قلبها في عرس قانا الجليل ليحمل جراحات الحب!

لم يقل "يا أماه" بل "**يا امرأة**"، لأن ما يمارسه بخصوص تحويل الماء خمرًا لا يصدر بكونه إنسانًا أخذ جسدًا منها، وإنما بعمل لاهوته. حقًا ليس انفصال بين لاهوته وناسوته، وما يمارسه السيد المسيح هو بكونه كلمة الله المتجسد، لكن بعض الأعمال هي خاصة به كابن الله الوحيد، والبعض بكونه ابن الإنسان.

لماذا قال "**لم تأتِ ساعتي بعد**" وقد قام في نفس الساعة بعمل المعجزة؟ لقد أوضح لها أن ساعته للقيام بآيات علنية ومعجزات عامة أمام الجميع لم تأتِ بعد، لكنه يعمل دومًا. وقد تمم الآية في هدوء بعد أن قدم الخدام الأجران حتى أن رئيس المتكأ والعريس لم يعرفا ذلك، وإنما الخدام وحدهم [٩].

❖ لكي تتأكد من احترامه العظيم لأمه استمع إلى لوقا كيف يروي أنه كان "خاضعًا لوالديه" (لو ٢: ٥١)، ويعلن إنجيلنا (يوحنا) كيف كان يدبر أمرها في لحظات الصلب عينها. فإنه حيث لا يسبب الوالدان أية إعاقة في الأمور الخاصة بالله، فإننا ملتزمون أن نمهد لهما الطريق، ويكون الخطر عظيمًا إن لم نفعل ذلك. أما إذا طلبا شيئًا غير معقول، وسببا عائقًا في أي أمر روحي، فمن الخطر أن نطيع! ولهذا فقد أجاب هكذا في هذا الموضع، وأيضًا في موضع آخر يقول: "من هي أمي؟ ومن هم إخوتي؟" (مت ١٢: ٤٨)، إذ لم يفكروا بعد فيه كما يجب. وهي إذ ولدته أرادت

كعادة بقية الأمهات أن توجهه في كل شيء، بينما كان يلزمها أن تكرمه وتسجد له، هذا هو السبب الذي لأجله أجاب هكذا في مثل هذه المناسبة[1].

❖ لقد اهتم بالغير واستخدم كل وسيلة ليغرس فيهم الرأي السديد الخاص به، فكم بالأكثر كان يليق به أن يفعل ذلك مع أمه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح كان يود أن يأتي الطلب من الذين كانوا في حاجة إلى ذلك وليس من أمه. لأنه إن كان ما يفعله يقوم علي طلب صديق له فمع كونه أمرًا عظيمًا لكن قد يتشكك البعض في الأمر، أما إذا سأل المحتاجون ذلك فلا يحوم الشك حول المعجزة، ويكون النفع أعظم. يشبه **القديس الذهبي الفم** السيد المسيح بطبيبٍ ماهرٍ متى دخل منزلاً به مرضى كثيرون، فإنه إن تحدث مع أمه ولم يتحدث مع أحد المرضى أو مع أقربائهم يتشككون فيه ويتضايق المرضى.

❖ أراد أن يظهر أنه يعمل كل الأشياء في وقتها المناسب، ولا يفعل كل شيء في الحال... إنه ليس ملتزمًا بالضرورة للأزمنة، لكنه هو الذي وضع نظام الفصول، إذ هو خالقها. لذلك يقول: "**ساعتي لم تأتِ بعد**". وهو يعني بهذا أنه لم يكن قد أعلن بعد لكثيرين، ولم يعد بعد له خورس تلاميذه...

علاوة على هذا فإنني يجب أن أُخبر بذلك ليس منكِ، أنتِ أمي، فسيُشك في المعجزة. يليق بالذين يريدون الخمر أن يأتوا ويطلبوا مني ليس لأني محتاج إلى ذلك، ولكن لكي بإجماعهم الكامل يقبلون المعجزة.

فإن الذي يعرف أنه في عوز يصير شاكرًا عندما ينال عونًا، أما الذي ليس لديه الإحساس بالاحتياج لن يكون لديه إحساس واضح بالمنفعة التي نالها"[3].

❖ فمع كونه حريصًا علي تكريم أمه، إلا أنه كان بالأكثر مهتمًا بخلاص نفسها، ويصنع ما هو صالح للكثيرين، الأمر الذي لأجله أخذ لنفسه جسدًا. كلماته إذن لم تكن صادرة عن من يتكلم بجفاءٍ مع أمه، بل بمن هو حكيم في تدبيره، فيدخل بها إلي الفكر السليم، ولكي يجعل معجزاته

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 21:2.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 21:2.*
[3] *Hom. 22. PG 59: 126 –127.*

تُقبل بالكرامة اللائقة بها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يريد أن يتسرع في القيام بشيءٍ، لأنه لا يريد أن يظهر كصانع المعجزات للذي لا يطلبه، بل ينتظر حتى يدعوه المحتاجون لا الفضوليون، فهو يعطي النعمة لمن يحتاج، وليس لمن يريد أن يتمتع بالمشاهدة.

القديس كيرلس الكبير

❖ لم يكن رب الملائكة خاضعًا للساعة، إذ هو الذي خلق فيما خلق الساعات والأزمنة. لكن لأن العذراء الأم رغبت في أن يصنع معجزة عندما فرغت الخمر، لذلك للحال أجابها بوضوح كما لو قال: "إني أستطيع أن أفعل معجزة تأتي من عند أبي لا من عند أمي". فإن ذاك الذي في ذات طبيعة أبيه صنع عجائب جاءت من أمه، وهو أنه يستطيع أن يموت. وذلك عندما كان على الصليب يموت. لقد عرف أمه التي عهد بها لتلميذه قائلاً: "هذه أمك " (يو ١٩: ٢٧). إذن بقوله: "**ما ليّ ولك يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد**" تعني "المعجزة التي ليست من طبيعتك لست أعرفك فيها. عندما تأتي ساعة الموت سأعرف أنكِ أمي إذ قبلت ذلك فيك أنني أستطيع أن أموت[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

وقد تبنى *Bede* ذات التفسير بقوله إن ما قاله السيد هو ليس شيئًا مشتركًا بين لاهوتي الذي ليّ دومًا من الآب وبين جسدك الذي أخذت منه جسدًا. لم تأتِ بعد ساعتي حيث بالموت أثبت الضعف البشري الذي أخذته منكِ. أولاً يليق بيّ أن أبرز قوة لاهوتي السرمدي بممارسة قوتي. لكن تأتي الساعة التي فيها يظهر ما هو عام بينه وبين أمه عندما يموت على الصليب ويهتم بأنه يوصي التلميذ البتول بالعذراء. عندما يتحمل الضعف البشري يتعرف على أمه الذي تسلم ذلك منها، ولكن حين يمارس الإلهيات يبدو كمن لا يعرفها، إذ يعرف إنها ليست مصدر ميلاده اللاهوتي.

"**قالت أمه للخدام:**

مهما قال لكم فافعلوه". **[٥]**

لم تعاتب ابنها على كلماته، لأنها أدركت السرّ على الأقل جزئيًا. شعرت أيضًا بعلامات الرضى،

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 21:3.*
[2] *N & PN Frs., Series 2. vol 13: 48.*

فطلبت من الخدام الطاعة بما يوصيهم به السيد المسيح.

استخدم الإنجيلي الكلمة اليونانية "ذياكونيس" لتكشف أنهم خدام أسرار الله الذين يعمل بهم السيد المسيح لخدمة وبهجة شعبه. وكنيسة العهد الجديد تدعو الشمامسة: "ذياكونيين" الذين يقومون بخدمة المذبح مع خدمة الموائد (الاهتمام باحتياجات الفقراء والمرضى..).

في ثقةٍ بحب السيد المسيح للخدمة وحنوه تأكدت أنه حتمًا سيتصرف ويشبع كل نقص. لقد طلبت من الخدام أن يوجهوا أنظارهم إليه ويسمعوا له. هذا هو دور القديسة مريم وكل القديسين ألا وهو توجيه أنظارنا إلى مسيحنا والطاعة الكاملة له.

❖ بدأت تعمل بأن هيّأت الخدم لكي يجتمعوا لإطاعة ما يأمر به دائمًا.

القديس كيرلس الكبير

❖ لأنها عرفت أن استعفاءه من ذلك لم يكن عن نقصٍ في القوة لكن لتواضعه، وحتى لا يُظن أنه يفرض ذاته عليهم باختياره، متسرعًا في عمل المعجزة، لذلك قدمت الخدام إليه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم**[2] في تصرف القديسة مريم درسًا عمليًا في المثابرة تقدمه لنا. فمع ما قاله لها ابنها يسوع لم تكف عن العمل بمثابرة، فقدمت له الخدام، وسألتهم الطاعة له.

وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود،
يسع كل واحدٍ مطرين أو ثلاثة". [٦]

كانت تُستخدم ستة أجران حسب أيام الأسبوع من الأحد حتى الجمعة، كل جرن يخصص ليومٍ معينٍ للتطهير، أما السبت يوم العبادة والراحة فلا يمارس فيه الشخص عملاً يحتاج إلي تطهير.

ليس عجيبًا أن يحول السيد المسيح الماء إلى خمرٍ، فهو الذي يخرج من الأرض خمرًا (مز ١٠٩: ١٤–١٥)، حيث يهب الأرض أن تنتج كرومًا يُعصر عنبها ويتحول إلى خمر.

بدأ موسى معجزاته في الضربات العشر بتحويل الماء إلى دمٍ فيه مرارة وموت، لأن الكل كسروا الناموس، وصاروا تحت اللعنة والموت. أما السيد المسيح فحول الماء إلى خمر، حيث قدم رسالة الخلاص المبهجة. جاء المسيح لا ليدين العالم بل ليخلص، ويهب شبعًا وبهجة ومجدًا داخليًا. دعوته

---

[1] *Cf. Homilies on St. John, Hom. 22:1.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 22:1.*

الإنجيلية هي: تعالوا إلى الماء واشتروا خمرًا (إش ٥٥: ١).

كانت هذه الأجران تُستخدم للتطهير، إذ لم يكن يجوز لليهودي أن يأكل ما لم يغتسل أولاً (مر ٧: ٣). كما كان هذا الماء يُستخدم في بعض الطقوس الأخرى الخاصة بالتطهير. وكان المثل السائد بين اليهود: "من يستخدم ماء أكثر في الاغتسال ينال صحة أوفر في هذا العالم".

كانت هذه الأجران للماء فقط لا يوضع فيها خمر، وكانت من الحجارة، حتى إذا وضع فيها خمر قبلاً لا يبقى له أثر، على عكس الفخار الذي قد يتشرب من السوائل القديمة وينضح على الجديدة. كانت الأجران من الحجارة، فقد رأى زكريا الحجر الموضوع أمام وجه يسوع عليه سبعة أعين (زك ٣: ٩)، أي له معرفة روحية في المسيح يسوع. ورآه القديس بطرس الرسول حجرًا حيًا يُقام منه هيكل الرب (١ بط ٢: ٤-٥).

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الإنجيلي يؤكد إنها "**حسب تطهير اليهود**" ليدرك الكل أنه لم يوضع فيها خمر قط بل ماء للتطهير. كما يقول أن فلسطين بلد تُعرف بقلة المياه، فلا توجد القنوات والينابيع في كل موضع لهذا كانوا يملأون الأجران بالماء، حتى لا يسرعوا إلي الأنهار متى تدنسوا في أي وقت، بل يجدون وسائل التطهير بين أيديهم[1].

يرى البعض الأجران الستة تشير إلى أزمنة العالم الستة التي مرّت بالإنسانية حتى مجيء الرب في الزمن السابع (في الختم السابع في سفر الرؤيا)، وكأنها تشير إلى المؤمنين عبر كل الأجيال الذين يتطهرون من خطاياهم ويشربون خمر الروح المفرح. هذه العصور كما يقول **القديس أغسطينوس** هي:

١. من آدم إلى نوح.
٢. من نوح إلى إبراهيم.
٣. من إبراهيم إلى داود.
٤. داود إلى السبي البابلي.
٥. من السبي البابلي إلى يوحنا المعمدان.
٦. من يوحنا المعمدان إلى نهاية العالم.

يعود فيقول **القديس أغسطينوس:** [أضف إلى هذا أن اللَّه خلق الإنسان على صورته في اليوم

[1] *Cf. Homilies on St. John, Hom. 22:2.*

السادس، لأنه في العصر السادس أُعلن تجديد ذهننا بالإنجيل ليصير على صورة خالقه، وتحول الماء إلى خمرٍ، لنتذوق المسيح. هذا أعلنه في الناموس والأنبياء. لهذا وجد ستة أجران وأمر أن تُملأ ماءً. الآن هذه الأجران الستة تعني العصور الستة التي لم تكن بدون نبوات. وهذه الفترات الست انقسمت وانفصلت كما بمفاصل، تبقى فارغة ما لم يملأها المسيح... يلزم أن يُفهم المسيح في كل النبوة[1].]

ماذا يعني بقوله: "**يسع كل واحدٍ مطرين أو ثلاثة**" [٦]؟ يقول **القديس أغسطينوس** أن كلمة **مطر** في اليونانية metrou هو قياس معين، وأن رقم اثنين يشير إلى الآب والابن، والثلاثة يشير إلى الثالوث القدوس. فإنه لم يقل بعض الأجران تسع اثنين والبعض ثلاثة أمطار، بل قال إن كل واحدٍ يسع مطرين أو ثلاثة. حيث جاءت النبوات في أسفار العهد القديم تتحدث عن الآب والابن (السيد المسيح)، وحملت ضمنًا الحديث عن الروح القدس بكونه روح الآب وروح الابن في نفس الوقت. ويرى **القديس أغسطينوس** [إن الروح القدس هو روح الحب الذي يربط الآب والابن معًا. عندما يقول اثنين يفهم الثالوث القدوس دون أن يُعبر عنه، وأما القول ثلاثة فيفهم منه الثالوث القدوس ويُعبر عنه[2].]

قلنا أن هذه الأجران الستة تشير إلى الست حقبات التي تتبأت عن عرس السيد المسيح مع **الكنيسة التي من كل الأمم**[3].

١. الجرن الأول يبدأ **بآدم** الذي يحمل اتحادًا مع حواء وصارا جسدًا واحدًا (تك ٢: ٢٤) كاتحاد المسيح بالكنيسة (أف ٣: ٣١)، وهما **والدان لكل البشرية**، وليسا للشعب اليهودي وحده.

٢. الجرن الثاني يبدأ **بنوح** الممثل للسيد المسيح، وقد ضم في فلكه **حيوانات وطيور من كل العالم**.

٣. الجرن الثالث يشير إلى إبراهيم الذي بنسله تتبارك **كل الأمم**.

٤. الجرن الرابع داود المرتل: "قم يا اللَّه دِنْ الأرض، لأنك أنت **تمتلك كل الأمم**" (مز ٨٢: ٨)، وقد وضع نغماته آساف المرتل.

٥. الجرن الخامس حيث **السبي البابلي**، فيه رأى دانيال النبي السيد المسيح كحجرٍ صغيرٍ

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 9:6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 9:7-8.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 9:10-11.*

مقطوع بغير أيدٍ بشرية وقد **ملأ الأرض كلها** (دا ٢: ٣٤).

٦. الجرن السادس ينتمي ليوحنا المعمدان أعظم مواليد النساء، الذي قيل عنه أنه أعظم من نبي (مت ١١: ١١)، وقد تنبأ عن المسيح أنه مرسل لكل الأمم، إذ يقول "إن اللَّه قادر أن **يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم**" (مت ٣: ٩). هكذا يرى **القديس أغسطينوس** أن الجرن السادس قد شهد لعرس السيد المسيح مع الكنيسة المجتمعة من الأمم. [لأنه من هذه الأمم نحن نأتي، ولكن ما كان يمكننا أن نأتي منها لو لم يقم اللَّه من الحجارة أبناء لإبراهيم. نحن صرنا أبناء إبراهيم بامتثالنا بإيمانه، وليس بميلادنا منه حسب الجسد[1].]

"قال لهم يسوع:
املأوا الأجران ماء،
فملأوها إلى فوق". [٧]

كان يمكن أن يخلق الخمر من العدم، لكنه حول الماء خمرًا ليؤكد أنه ما جاء ليتجاهل الناموس أو يبطله، بل ليكمله، فجاء الإنجيل امتدادًا روحيًا للناموس في غير حرفية. ولكي يجعل الذين استقوا الماء بأنفسهم شهودًا على الأعجوبة الكائنة، ويشهدون أن الأعجوبة لم تكن خيالاً.

يرى **القديس أغسطينوس** أن الماء هنا يشير إلى العهد القديم "الناموس والأنبياء والمزامير"، العهد القديم كله الذي كان له مذاق الماء لمن لم يدركه روحيًا ويكتشف فيه سرّ المسيح. وقد جاء السيد ليحول الماء إلى خمر مفرح، له مذاق جديد وفاعلية جديدة. [كيف حوّل الماء خمرًا؟ عندما فتح فهمهم وشرح لهم الكتب المقدسة، مبتدأ من موسى وكل الأنبياء، فسكروا وقالوا: "ألم تكن قلوبنا ملتهبة فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب؟!" (لو ٢٤: ٣٢). فقد فهموا المسيح في هذه الكتب، الذي لم يعرفوه من قبل. هكذا حوّل ربنا يسوع الماء إلى خمر، وصار له الآن مذاقًا لم يكن له من قبل، صار الآن يُسكر، الأمر الذي لم يكن له من قبل... لقد أظهر لنا أن الكتاب القديم هو من عنده، إذ بأمره امتلأت أجران الماء. إنها من الرب حقًا، كانت كتب العهد القديم أيضًا، لكن لم يكن لها مذاق ما لم يُفهم المسيح فيها[2].]

في طاعة لوصية الرب ملأ الخدام الأجران إلى الملء، إلى الحافة العليا. هكذا لا يليق بالخادم أن

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 9:16.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 9:5.*

يستريح حتى يتمم الوصية بأن يتلمس في خدمته عمل السيد المسيح "الملء الذي يملأ الكل في الكل" (أف ١: ٢٣). لأنه ليس بكيل يعطي الروح" (يو ٣: ٣٤). ليس ما يشغل رجل الله إلا تمتع كل نفسٍ بغنى مجد المسيح الذي لا يُستقصى، فيترنم: "من ملئه نحن جميعًا أخذنا، ونعمة فوق نعمة" (يو ١: ١٦).

الذي حول الماء خمرا، والذي يبعث الأمطار إلينا كان قادرًا أن يملأ الأجران ماء، ثم يحوله إلي خمر. لكنه في حبه للبشرية لا يتجاهل التزامنا بالعمل معه. فمادام في استطاعتنا أن نملأ الأجران ماء نعمل ما في وسعنا، ويعمل هو ما يستحيل علينا عمله. هكذا في كثير من الأعمال **يهبنا كرامة العمل معه ولحساب ملكوته فينا**، فيطلب من الحاضرين أن يرفعوا الحجر عن القبر، ويأمر لعازر أن يخرج. هو يهب الحياة والقيامة، ويطلب من التلاميذ أن يحلوا الميت من الأربطة. بهذا نترنم مع الرسول متهللين: "العاملان مع الله"!

"**ثم قال لهم:**

استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ،

فقدموا". **[٨]**

لم نسمع أنه استدعى اسم الله أو صلى على الماء، لكنه أصدر أمرًا بملء الأجران، وفي الحال طلب تقديم ما بالأجران. لم يطلب حتى أن يقدموا له لكي يذوق ما بها.

لم يصنع المعجزة لكي يظهر ذاته علانية، بل لكي يشبع احتياجاتهم. وقد أمر الخدام أن يقدموه في الحال. فإنه لا يهب الوزنة لكي ندفنها، بل كي نعمل دومًا، منتهزين كل فرصة للخدمة.

لم يكن السيد المسيح "رئيس المتكأ" بل كان صديقًا للعروسين، وخادمًا للكل. هذا هو كرسي الرئاسة الحقيقية، أن يبذل الإنسان نفسه بالحب وبروح التواضع من أجل الآخرين.

"**فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرًا،**

ولم يكن يعلم من أين هي،

لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا،

دعا رئيس المتكأ العريس". **[٩]**

جاءت الكلمة اليونانية المترجمة "استقوا" هي نفس الكلمة العربية الدارجة "نطل"، وتعني السحب من مصدر عميق. فالأجران ضخمة جدًا وأفواهها متسعة، ولا يمكن سكب الخمر منها إلا بسحبها

بكوز يده طويلة. إذ يليق بخادم السرّ والكارز بالإنجيل أن يمد يده إلي الأعماق، ويسحب من فيض عطية الله العظمى كمن يسحب من ينبوع إلهي لا ينضب.

"**وقال له:**

كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً،

ومتى سكروا فحينئذٍ الدون،

أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن". **[١٠]**

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنه لكي لا يقول أحد أن الشهادة قد صدرت عن أناس سكرى لا يدرون الفارق بين الخمر والماء، جاءت الشهادة من رئيس المتكأ. وحتمًا كان رئيس المتكأ يحرص ألا يسكر، إذ يلتزم بتدبير أمر العرس بوقارٍ وحكمةٍ[1].

حرص الإنجيلي أن يقول عن رئيس المتكأ: "**ولما ذاق**"، أي لم يكن بعد قد شرب حتى من هذا الخمر، إنما ذاقه.

في قانا الجليل حول السيد المسيح الماء خمرًا فبعث بالفرح الروحي في كل المحفل، وفي كنيسة العهد الجديد يحول السيد المسيح بروحه القدوس الخمر إلى دمه المبذول عنا، فيبعث بالفرح السماوي في حياة متناوليه.

❖ لم يحول المسيح الماء خمرًا فحسب، لكنه صيَّره خمرًا فائق الجودة، لأن عجائب المسيح لها هذه الخاصية، وهي أن تصير أبهى حسنًا وأفضل من الأصناف المتكونة في الطبيعة بكثير، فمن هذه الجهة متى أصلح في الناس عضوًا أعرج من جسمهم، أظهر ذلك العضو أفضل من الأعضاء الصحيحة. والبرهان على أن الماء الصائر خمرًا كان خمرًا فائق الجودة، شهد به ليس الخدام وحدهم، بل ومعهم رئيس متكأ العرس.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل،**

وأظهر مجده،

فآمن به تلاميذه". **[١١]**

هنا بدء الكشف عن مفهوم "**المجد**" في هذا السفر، وهو: "**الحضرة الإلهية**". **اللَّه يمجدنا حينما**

[1] *Homilies on St. John, Hom. 22:2.*

يعلن حضوره فينا، ونحن نمجده حينما نعلن حضوره في العالم. ففي هذه الآية أُعلن حضور الآب في ابنه وحيد الجنس، الذي يخبر عنه.

❖ الذي صنع الماء خمرًا يستطيع أن يجعل الحجارة خبزًا، فالسلطان واحد. لقد جربه الشيطان بذلك لكن المسيح لم يفعل ذلك. لأنكم تعلمون أنه عندما جُرب الرب المسيح اقترح الشيطان عليه ذلك. فقد كان جائعًا، حيث كان له ذلك كهبة منه، فقد مارس ذلك (أنه جائع) كنوعٍ من تواضعه. كان الخبز (المسيح) جائعًا، كما أن الطريق خائرًا، وواهب الصحة مجروحًا، والحياة ميتًا... لم يصنع خبزًا من الحجارة، ذاك الذي يمكنه أن يفعل هذا بسهولة كما حول الماء خمرًا... فإنه ليس شيء يجعل المجرب مهزومًا مثل احتقاره. وعندما غلب تجربة الشيطان "جاءت ملائكة وخدمته" (مت ٤: ١١)...

لماذا فعل هذه ولم يفعل تلك؟... عندما حول الماء خمرًا ماذا يضيف الإنجيلي؟ "وآمن تلاميذه به" (يو ٢: ١١). فهل كان للشيطان أن يؤمن به؟[1]

القديس أغسطينوس

❖ إن قال قائل: لا يوجد في هذا القول دلالة كافية على أن هذه الآية هي بداءة آيات المسيح لأجل إبداعها في قانا الجليل، لأنه من الممكن أن يكون فعل في غير ذلك المكان آيات أخرى غيرها.

نقول له: إن يوحنا المعمدان قد قال من قبل عن المسيح: "**وأنا لم أكن أعرفه، لكن ليظهر لإسرائيل، لذلك جئت أعمد بالماء**" (يو ١: ٣١)، فلو كان المسيح فعل في عمره المبكر عجائب لما كان الإسرائيليون قد احتاجوا إلى آخر يعلن عنه. لأن ذاك (يسوع) الذي جاء بين الناس وبمعجزاته صار معروفًا، ليس فقط للذين في اليهودية وإنما أيضا للذين في سورية وما وراءها، وفعل هذا في ثلاث سنوات فقط، فإنه ما كان محتاجًا إلي هذه السنوات الثلاث لإظهار نفسه (مت ٤: ٢٤)، لأنه كان من شهرته السابقة قد عُرف في كل موضع.

أقول أن ذاك الذي في وقت قصير أشرق عليكم بالعجائب فصار اسمه معروفًا للكل، لم يكن بأقل من ذلك لو أنه في عمره المبكر صنع عجائب وما كان يبقى غير معروف كل هذا الزمن (حتى بلغ الثلاثين من عمره). فإنه ما كان قد فعله لبدا غريبًا أن يفعله صبي...

في الحقيقة لم يفعل شيئا وهو طفل سوى أمرًا واحدًا شهد له لوقا (لو ٢: ٣٦) وهو في الثانية

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 73:2.*

عشر من عمره حيث جلس يسمع للمعلمين وقد دهشوا من أسئلته. بجانب هذا فإنه من الأرجح والمعقول انه لم يبدأ آياته في عمره المبكر، لأنه بهذا لبدت أمرًا مخادعًا. إن كان وهو في سن النضوج تشكك كثيرون فيها، كم بالأكثر لو أنه صنع العجائب وهو صغير. فإن ذلك كان قد أسرع به إلى الصليب قبل الوقت المحدد، خلال سم الحقد، ولما قُبلت حقائق التدبير[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وبعد هذا انحدر إلى كفرناحوم هو وأمه وإخوته وتلاميذه،
وأقاموا هناك أيامًا ليست كثيرة". [١٢]

يرى **العلامة أوريجينوس** أن كلمة "**كفرناحوم**" تعني "حقل الحث".

يقول **العلامة أوريجينوس**[2] أن يسوع ومن معه انحدروا إلى كفرناحوم حيث لم يقيموا أيامًا كثيرة لأن من هم في الأسفل أو المنحدر ليس لديهم موضع لبقاء يسوع وقديسيه إلى أيام كثيرة. إنهم منحدر "حقل الحث" الذي لا يقدر أن يتقبل إمكانية الاستنارة بالتعاليم الكثيرة، إنما يكتفي بالحث القليل. أما النفوس العالية المرتفعة روحيًا فتتمتع بالوعد الإلهي: "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر"، وليس إلى أيام ليس بكثيرة.

إذ نُصلب مع مسيحنا يقيم ليس فقط معنا إلى أيام قليلة بل وفينا، فنقول مع الرسول: "لا أحيا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (٢ كو ١٣: ٣). هكذا يسكن فينا ويحيا ويتكلم إلى انقضاء الدهر.

❖ بعد الفرح بالخمر كان من الضروري للمخلص مع أمه وتلاميذه أن يدخلوا "حقل الحث" لكي يحثوا التلاميذ على وجود ثمار في حقل خصب، وإن تحبل النفس به بالروح القدس، أو يحثوا أولئك الذين ينتفعون هناك"[3].

العلامة أوريجينوس

ماذا يقصد بتعبير "إخوته"؟ يقول **القديس أغسطينوس** كل من يمتون بعلاقة دموية بمريم يحسبون إخوته، مستشهدًا بذلك من الكتاب المقدس. فقد دُعي لوط ابن أخ إبراهيم أخًا له (تك ١٣: ٨؛ ١٤: ١٤). ودُعي لابان خال يعقوب أخًا له (تك ٢٨: ٥؛ ٢٩: ١٢، ١٥). كما تحدث السيد

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 21:2.*
[2] *Commentary on John, Book 10:41-42.*
[3] *Commentary on John, Book 10:38.*

المسيح عن تلاميذه أنهم إخوته (مت١٢: ٤٦-٥٠)[1].

٢. تطهير الهيكل

"وكان فصح اليهود قريبًا

فصعد يسوع إلى أورشليم". [١٣]

هذا هو الفصح الأول بعد عماد السيد المسيح، الثاني ورد في لو ٦: ١، والثالث في يو ٦: ٤، والرابع الذي صلب فيه السيد المسيح (يو ١١: ٥٥).

"ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرًا وغنمًا وحمامًا والصيارف جلوسًا". [١٤]

يتساءل **العلامة أوريجينوس** عن إضافة "اليهود" إلى "الفصح"، فهل يوجد احتفال بفصح آخر غير فصح اليهود؟ ويجيب أنه ربما كان البعض يحتفلون بالفصح حسب فكرهم البشري، وليس حسب الفكر الكتابي الإلهي، لهذا دعاه "**فصح اليهود**". جاء في سفر الخروج: "إنه فصح للرب" (خر ١٢: ١١)، ولم يقل "إنه فصحكم" في أي موضع. عندما يعلن الله عن رفضه للشعب ينسب الأصوام والأعياد إليهم لا إليه. وكما جاء في سفر إشعياء النبي: "رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي، صارت عليّ ثقلاً، مللت حملها" (إش ١: ١٤).

❖ كما أنه عندما يخطئ شعب الله (لا يُنسبون لله) هكذا الأعياد عندما تبغضها نفس الرب تُحسب أعياد الخطاة، وأما عندما يعدها الرب فتُدعى أعياد الرب. الآن فإن الفصح هو أحد الأعياد. جاء في نص الإنجيل الذي أمامنا أنه ليس للرب بل فصح اليهود. بينما جاء في موضع آخر من الكتاب المقدس: "مواسم (أعياد) الرب" التي فيها تنادون محافل مقدسة هذه هي مواسمي (لا ٢٣: ٢)[2].

العلامة أوريجينوس

أورد الإزائيون هذا الحدث في الأسبوع الأخير من حياة السيد المسيح على الأرض حين صعد إلى أورشليم، مما عجّل بالأحداث ليُحاكم ويصلب. فقد حسبه القادة في الهيكل إهانة لهم وللهيكل المقدس. أما القديس يوحنا فجعل هذا الحدث في بداية رسالة ربنا يسوع العامة ليؤكد لهم أنه هو الهيكل الجديد الذي يحتل مركز الهيكل القديم، وأنه الذبيحة الفريدة التي تحتل مركز الذبائح الدموية

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 10:2-3.*
[2] *Commentary on John, Book 10:80 – 81.*

الحيوانية، لذا طرد البقر والغنم مع الباعة[1]. ويرى كثير من الدارسين أن السيد المسيح قام بتطهير الهيكل مرتين: المرة الأولى في الفصح الأول من بدء خدمته كما ورد هنا في إنجيل يوحنا. والمرة الثانية في الفصح الأخير أو الرابع الذي فيه صلب السيد المسيح (مت ١٢: ١٢؛ مر ١١: ١٥؛ لو ١٩: ٤٥). وكأن تطهير بيت الرب هو عمل المسيح الأول والأخير، لذلك بدأ خدمته في الهيكل وأنهاها به. وقد سبق أن تنبأ ملاخي النبي عن هذا العمل (ملا ٣: ٢–٣).

وجد السيد سوقًا في إحدى مباني الهيكل يدعى دار الأمم. كانوا يبيعون فيه الثيران والغنم والحمام لتقديم ذبائح. وكان هذا الموضع بجوار بركة بيت حسدا (يو ٥: ٢). استخدمها رؤساء الكهنة ومن معهم من أجل الربح المادي، حيث تقدم شهادات بأن الذبيحة بلا عيب مقابل دفع رسم معين. وهكذا أفسدت محبة المال نقاوة العبادة (١ تي ٦: ٥، ١٠). كما وجدت المصارف لبيع شواقل الذهب الخاصة بالهيكل لتقديمها.

بلا شك رأى السيد المسيح هذا المنظر قبلاً حين كان يأتي إلى الهيكل، خاصة حين حاور المعلمين وهو في الثانية عشر من عمره، لكنه لم يقم بتطهير الهيكل إلا بعد أن بدأ خدمته العلنية. كما لم يشكوا الأمر إلى رؤساء الكهنة إذ يعلم أن ما يحدث هو بسماحٍ منهم أو بتشجيعهم.

باعة الغنم هم الذين يحوّلون خلاص المسيح، حمل اللَّه، إلى تجارة، فيقتنون أمرًا زمنيًا عوض الخلاص الأبدي، ويطلبون ما هو أرضي عِوَض السماوي.

❖ حقًا يقول اللَّه عنهم: "رعاة كثيرون أفسدوا كرمي، داسوا نصيبي، جعلوا نصيبي المشتهى برية خربة، جعلوه خرابًا" (إر ١٢: ١٠–١١). لأنه حقًا قد فسد كرم الرب، إذ قد تعلموا أن يدوسوا على العبادة الإلهية نفسها، وعن طريق الحب الدنيء للربح عند أولئك الذين أقيموا عليه فإن (الكرم) تُرك عاريًا لكل جهالة.

القديس كيرلس الكبير

❖ من هم الذين يبيعون الغنم والحمام؟

هؤلاء الذين يطلبون ما لذواتهم في الكنيسة لا ما للمسيح. يحسبون كل شيء موضوع بيع بينما لا يخلصون. إنهم لا يطلبون أن يُشتروا بل يطلبوا أن يبيعوا. نعم كان الأفضل لهم أن يخلصوا بدم المسيح، ويأتوا إلى سلام المسيح. الآن ما المنفعة أن يطلبوا في هذا العالم أمرًا مؤقتًا زائلاً أيًا كان

[1] الخوري بولس الفغالي: إنجيل يوحنا، الرابطة الكتابية، ١٩٩٢، ص ١٥.

هذا الأمر، سواء مالاً أو لذة طعام، أو كرامة تتبع عن مديح الناس؟ أليس هذا كله ريحًا ودخانًا؟ ألا يعبر هذا كله ويهرب؟... من يطلب هذه الأمور يا إخوتي إنما يبيعون[1].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** أن الثيران تشير إلى الرسل (١ كو ٩: ٩-١٠)، فمن يتاجر في الثيران إنما كمن يرتبط بالرسول دون صاحبه (السيد المسيح)، لهذا وبّخ القديس بولس أهل كورنثوس قائلاً: "ألعل بولس صلب لأجلكم؟ أم باسم بولس اعتمدتم؟" (١ كو ١: ١٣). "أنا غرست وأبولس سقى، لكن اللَّه كان يُنمي" (١ كو ٣: ٦-٧). [ليقول الراغبون في سلام خادمه: ليتمجد الرب![2]]

الذين يتاجرون في الثيران هم الذين يقدمون تعليم الكلمة كمن يحرث في حقل المسيح، لا للتمتع بثمر الروح، وإنما لأجل منفعة زمنية. هؤلاء يقول عنهم الرسول بولس: "عن تحزب ينادون بالمسيح لا عن إخلاص" (في ١: ١٦).

الذين يتاجرون في الأغنام هم الذين يقدمون أعمال الرحمة (الملابس الصوفية واللحوم) من أجل المديح الزمني، هؤلاء الذين يأخذون أجرهم في العالم (مت ٦: ٥).

والذين يبيعون الحمام هم الذين يسيئون استخدام مواهب الروح القدس الذي ظهر على شكل حمامة، مثل السيمونية في سيامة الكهنوت. فقد أراد سيمون أن يقتني بالفضة مواهب الروح القدس لكي يبيعها، فينال مكاسب مادية أو كرامات زمنية عوض العمل الروحي (أع ٨: ١٩-٢٠).

❖ إنه لا يسمح لعبيد المال أن يكونوا في هيكله، ولا لمن يبيعوا الكراسي. ما هي هذه الكراسي إلا الكرامات؟ ما هو الحمام إلا البسطاء في الذهن والنفوس الذين يتبعون إيمانًا واضحًا؟ هل أُحضر إلى هيكله من يغلق المسيح الباب في وجهه، إذ من يبيع الكرامات والمناصب يلزم أن يُؤمر بالخروج. يلزم الأمر بالخروج لمن يبيع أصحاب العقول البسيطة من المؤمنين[3].

القديس أمبروسيوس

❖ يشير البقر إلى الأمور الزمنية، إذ تعمل (في حرث) الأرض. ويرمز الغنم إلى الأمور البهيمية غير العاقلة حيث أن الغنم أكثر الحيوانات غير العاقلة المُستعبدة. ويرمز الحمام إلى عدم ثبات

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 10:6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 10:7.*
[3] *Sermon Against Auxentius, 21.*

الأفكار وبطلانها، والعملات تشير إلى ما نظنه أمورًا صالحة[1].

❖ يلزم نزع هذه الأمور البهيمية والتجارية عن هذا الهيكل الذي هو جسد المسيح، فلا يكون بعد بيت تجارة[2].

❖ أيضًا يلزم أن يُنقض هذا الهيكل بواسطة أولئك الذين يخططون ضد كلمة الله، وبعد نقضه يقوم في اليوم الثالث... كل شخص أيضًا إذ يطهره يسوع ينزع الأمور البهيمية والارتباك بالتجارة سيتحطم بسبب غيرة الكلمة التي فيه، ويقوم في اليوم الثالث بواسطة يسوع... يُقام بناء الهيكل في اليوم الأول بعد نقضه، وفي اليوم الثاني، ويتم البناء في كمال الثلاثة أيام حيث تتحقق القيامة وستكون قيامة إن كنا ندفن مع المسيح ونقوم معه (رو ٦: ٤)[3].

العلامة أوريجينوس

"**فصنع سوطًا من حبال،**
وطرد الجميع من الهيكل،
الغنم والبقر،
وكب دراهم الصيارف، وقلب موائدهم". **[١٥]**

يبدو أنه لم يطرد الباعة ولا الصيارفة إنما طرد البقر والغنم والحمام، وألقى بدراهم الصيارفة وقلب موائدهم. لقد جاء لا ليدين بل ليطهر ويقدس. جاء ليصلح من الفساد. إن نفسًا واحدة في نظر السيد المسيح أثمن من كل هذه الحيوانات وهذا الذهب والمال.

❖ يظهر مشاعره ليس بمجرد الكلمات بل بالحبال وبالسوط يطردهم من المواضع المقدسة، وبالعدل يطبق عليهم العقوبة المناسبة للعبيد، لأنهم لا يقبلون الابن الذي يجعل الإنسان حرًا بالإيمان.

❖ بحق أولئك الذين يكرمون الخدمات الناموسية بعد إعلان الحق أن يعرفوا أنه بالعودة إلى روح العبودية ورفض التمتع بالحرية يستحقون الخضوع للضربات وعذابات العبودية[4].

❖ سيطرد اليهود العصاة من الأماكن المقدسة، ويجعلهم خارج حظيرة القديسين المقدسة. بل حتى

---

[1] *Commentary on John, Book 10:142.*
[2] *Commentary on John, Book 10:240.*
[3] *Commentary on John, Book 10:243.*
[4] *Comm. On John, hom 132.*

حينما يقدمون ذبائح لن يقبلها، بل بالأحرى يخضعهم للعقاب والسوط، ممسكين بحبال خطاياهم (راجع أم ٥: ٢٢).

القديس كيرلس الكبير

"**وقال لباعة الحمام:**

ارفعوا هذه من ههنا،

لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة". **[١٦]**

صعد يسوع إلى أورشليم ليطهر هيكل أبيه الذي تحول إلى بيت تجارة، وها هو يصعد على الدوام إلى أورشليمنا الداخلية، إلى أعماقنا، ليقيم منها هيكلاً سماويًا مقدسًا للآب، يطهره من كل تجارة وفساد.

❖ قال: "**لا تجعلوا بيت أبي**"، ولم يقل "بيت أبينا"، لأنه حسب هذا القول أكثر مناسبة... حيث أن الكلمة يعرف أنه من جوهر اللَّه الآب وليس في عداد أولئك الذين هم أبناء بالنعمة. لذلك فهو يفصل نفسه عن الباقين، ويدعو اللَّه أباه.

القديس كيرلس الكبير

❖ إننا لا نسكت على الهراطقة الذين يفصلون العهد القديم عن الجديد. إنما نؤمن بالمسيح القائل عن الهيكل: "أما تعلما أنه ينبغي أن أكون في بيت أبى؟[١]". وأيضًا: "ارفعوا هذه من ههنا، لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة". هنا يعترف بأكثر وضوح أن الهيكل السابق في أورشليم هو بيت أبيه[٢].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ لم يقل المسيح لا تجعلوا البيت المقدس لكنه قال:" **لا تجعلوا بيت أبي**"، فها هو يدعو الله أباه. لم يغتاظوا منه لأنهم ظنوه يقول هذا القول على بسيط ذات القول، لكنه لما تكلم بهذا القول فيما بعد أفصح أنه تكلم مريدًا أن يبين معادلته لأبيه، حينئذٍ اغتاظوا منه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فتذكر تلاميذه أنه مكتوب:**

---

[١] لو ٢: ٤٩ "ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي؟!"

[٢] مقال ٧: ٦.

غيرة بيتك أكلتني". [١٧]

بدأ التلاميذ يدركون ما وراء تصرفات السيد المسيح، متذكرين ما ورد في الكتاب المقدس. فإنه في كلمة الله كل يفسر الآخر ويوضحه. تذكروا ما هو مكتوب في مز ٦٩: ٩.

حقًا غيرة بيت الآب أي الكنيسة قد التهبت في قلب يسوع المسيح الذي أحبها وأسلم نفسه لأجلها، لكي يهبها الحياة الأبدية فتشاركه مجده.

❖ "**غيرة بيتك أكلتني**" [١٧]... يعرف كل واحد منكم ما يفعله في بيته ومع أصدقائه وفي مسكنه، ومع عمله، مع الأعظم منه ومن هو أقل منه، قدر ما يسمح للَّه بالدخول، إذ يفتح الباب لكلمته التي لا تتوقف عن أن تربح أحدًا للمسيح، فقد رُبحت أنت بواسطة المسيح[1].

القديس أغسطينوس

❖ الرب نفسه يقول: "**غيرة بيتك أكلتني**". ليته يكون لنا غيرة للرب حقيقة، أعني ليست غيرة أرضية، إذ هذه تسبب حسدًا. ليحل السلام بينكم، هذا الذي يفوق كل فهم، ليحب الواحد الآخر. ليس شيء أعذب من الحب، ولا شيء أكثر تطويبًا من السلام. أنتم تعلمون إني أحبكم على الدوام، والآن أحبكم فوق الكل. كأبناء لأبٍ واحدٍ صرتم متحدين تحت رباط الحب الأخوي[2].

القديس أمبروسيوس

٣. طلب آية

"**فأجاب اليهود وقالوا له:**

أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟" [١٨]

إذ قام السيد المسيح بتطهير الهيكل بسلطانٍ لم تستطع القيادات أن تقاومه أمام الشعب. لقد أرادوا إبراز اهتمامهم الشديد بالهيكل وكل ما يدور فيه، فعوض الاعتراف بما حلَّ في الهيكل من فساد بسبب التجارة فيه سألوه: "**أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟**" إذ توجعوا لما انقطع ربحهم المستقبح عنهم، أرادوا بهذا السؤال أن يمنعوه عما يفعله معهم.

حين جاء موسى ليخلص شعب الله من عبودية فرعون صنع آيات واضحة، فما هي الآيات التي يفعلها يسوع ليقبلوه أنه جاء من عند الله. لم تدرك القيادات أنه وهو أعزل من أي سلطان بشري أو

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 10:9.*
[2] *Duties of the Clergy, Book 2:30:154.*

مركز ديني رسمي أو سلاح بسلطان إلهي طهر الهيكل دون مقاومة. حضوره الإلهي بدد الظلمة.

❖ إن كان ذلك قد أُخفي عن اليهود، فلأنهم وقفوا خارجًا، وأما بالنسبة لنا فقد كُشف لأننا نعلم بمن نؤمن. سنحتفل بنَقْض ذاك الهيكل قريبًا في الاحتفال السنوي المهيب، والذي نحثكم أن تستعدوا له، حيث تنالون نعمة كموعوظين[1].

القديس أغسطينوس

❖ لم يستطِع قادة اليهود أن يوبّخوه... لكنهم اخترعوا طرقًا لتأخير هروب التجار، ملتمسين العذر لأنفسهم بأنهم لم يخضعوا له فورًا أو بدون بحث لكي يقبلوه كابن اللَّه دون أن يهبهم آية.

القديس كيرلس الكبير

❖ واحسرتاه على جنونهم المطبق! هل توجد حاجة إلى علامة قبل أن يتمكنوا من الكف عن أفعالهم الشريرة، ويحرروا بيت الله من مثل هذا العار؟ أليست أعظم آية لسموه أن تكون له مثل هذه الغيرة على ذاك البيت؟ لقد تميز موقف التلاميذ اللائق إذ تذكروا "أنه مكتوب: "**غيرة بيتك أكلتني**" [١٧]. أما اليهود فلم يتذكروا النبوة، فقالوا: "**أية آية ترينا؟**" متوقعين بذلك أن يوقفوه، راغبين في تحديه بصنع معجزة، ليجدوا علة عليه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب يسوع وقال لهم:**

انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه". **[١٩]**

الآية التي قدمها السيد المسيح هي حضوره الإلهي القادر أن يكسر متاريس الهاوية، ويحطم سلطان آخر عدو وهو الموت، ليهب مؤمنيه قوة القيامة. قدم لهم آخر آية يصنعها يسوع المسيح نفسه قبل صعوده إلى السماء وهي قيامته. يجب أن يموت، لكن لا يستطيع الفساد أن يحل به (مز ١٦: ١٠).

طلب منهم أن ينقضوا هيكل جسده حيث يرفعوه على الصليب، أما هم فظنوا أنه يتحدث عن الهيكل الحجري.

❖ حسنًا دُعي حرًا ذاك الذي له سلطان أن يقيم نفسه... وحسنًا دُعي حرًا ذاك الذي نزل لكي يخلص

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 10:10.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 23:2.*

الآخرين[1].

القديس أمبروسيوس

"فقال اليهود:
في ست وأربعين سنة بُني هذا الهيكل،
أفأنت في ثلاثة أيام تقيمه؟" [٢٠]

بني الهيكل في ٤٦ عامًا، ويرى البعض أنه قد بدأ في أيام هيرودس حوالي عام ١٩/٢٠ ق.م. فيكون قد انتهى البناء منه في حوالي ٢٨م. ويرى آخرون أنه قد بدأ إعادة بنائه هيرودس الكبير في السنة الثامنة عشر من ملكه[2] وانتهى من العمل الرئيسي في تسع سنوات ونصف لكن تمت إصلاحات وإضافات للمبنى استمرت إلى سنوات طويلة. بدأ هيرودس العمل في السنة ١٦ قبل ميلاد السيد، والحديث هنا في السنة الثلاثين من ميلاده. فكان عمر المبنى القائم ٤٦ عامًا. وقد استمر البناء بعد ذلك. موضحًا بذلك البناء الأخير للهيكل لأن بناءه الأول كمل على مدى عشرين سنة. وكأنه مع بداية خدمة المسيح كان اليهود في أكثر لحظات اعتزازهم بالهيكل المبني حديثًا. فلم يكن من السهل قبول كلمات السيد المسيح الخاصة بهدمه في ثلاثة أيام.

نفس المدة أيضًا استغرق فيها بناء الهيكل حين وضع زرُبابل أساسات الهيكل في السنة الثانية من مُلك كورش إلى إتمام البناء في السنة ٣٢ من ملك أرتحشستا *Artaxerxes*.

❖ إنهم يهزأون بالآية، إذ لم يعرفوا عمق السرّ، بل يتمسكون بمرض جهلهم كعذرٍ معقول يبررون به عدم طاعتهم له... كيف يكون عاجزًا عن إتمام أي شيء مهما كان، وهو الذي في ستة أيام كوّن العالم كله بقوة تفوق التعبير، وقوته كائنة في مشيئته فقط؟

القديس كيرلس الكبير

في تفسيره الرمزي **لرقم ٤٦** يرى **القديس أغسطينوس** أن الأربعة حروف لآدم *Adam* هي الحروف الأولى لكل اتجاهات العالم: الشرق *Anatole* والغرب *Dysis* والشمال *Arctos* والجنوب *Mesembria*. وكأن آدم قد انشق وتبعثر في كل اتجاهات العالم. هذه الحروف في اليونانية لآدم (*Adam*) تعادل رقم ٤٦. حيث ألفا Α (A) تعادل رقم ١، ودلتا Δ (D) تعادل رقم ٤، وميّ Μ

[1] *On the Decease of His Brother Saytrus, Book 2:103.*
[2] *Josephus: Antiq. b.15 c.11 s.1; b.20 c.9 s.5, 7.*

(M) تعادل رقم ٤٠. فكلمة آدم تعادل ١+٤+١+٤٠=٤٦. هذا هو الهيكل أو الجسد الذي أخذه الكلمة من آدم فنقضه ليقيمه في ثلاثة أيام ليتمتع بالأبدية، إذ أقامه الآب بإرادته والابن بقوته، والروح القدس بكونه روح القيامة[1].

"وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده". [٢١]

لقد أظهروا جهلهم لمعنى كلمات السيد المسيح، إذ كان يعني بكلماته هيكل جسده. هذا وهل يصعب على الخالق أن يقيم حتى الهيكل الحجري في ثلاثة أيام؟

كما احتل الخمر المسياني الجديد عوض ماء التطهيرات الذي للناموس، هكذا يحتل هيكل جسد المسيح القائم من الأموات موضع هيكل العهد القديم الذي دمره جيش تيطس الروماني سنة ٧٠م. لقد أقام السيد المسيح له هيكلاً جديدًا في داخلنا لا تقدر جيوش العالم أن تحطمه (١ كو ٦: ١٩).

تحقق هذا القول بموت المسيح وقيامته في اليوم الثالث، ولا يزال يتحقق في جسده الذي هو الكنيسة، وفي كل مؤمن كعضوٍ في جسد المسيح.

❖ ولقائل أن يقول: فلأجل أي غرض لم يشرح المسيح قوله الغامض هذا، إذ أنه لا يقول عن هذا الهيكل لكنه يقول عن هيكل جسده؟ فنجيبه: لقد صمت المسيح عن إيضاح ذلك، لأنه لو قال موضحًا لما قبلوا قوله، لأنه إن كان تلاميذه لم يكن فيهم كفاية، ولا عرفوا كيف يفهمون ما قيل لهم، فقد كان أولى بالجموع وأليق ألا يفهموا معنى ما يقول.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا،

فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع". [٢٢]

كثير من النبوات لا يمكن إدراكها إلاَّ بعد إتمامها. هكذا لم يستطِع حتى التلاميذ أن يدركوا ما قاله في ذلك الحين إذ كانوا لا يزالوا أطفالاً في المعرفة. عند قيامته فتح أذهانهم ليفهموا الكتب، وألهب قلوبهم بالمعرفة الصادقة للنبوات (لو ٢٤: ٤٥). لقد كانوا بطيئي القلوب في الإيمان (لو ٢٤: ٢٥)، لكنهم كانوا في يقين بأن كلماته صادقة.

❖ ذكَّر الروح القدس التلاميذ ما سبق وقاله المسيح لهم، لأنهم تمسكوا بالموهبة وأظهروا حياة نيرة

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 10:12.*

وحكمة كثيرة وأتعابًا عظيمة وما احتسبوا البركات الإنسانية **شيئًا** البتة، لكنهم صاروا أعلى منها، وكانت صورتهم صورة نسور طائرة إلى الأعالي بأعمالهم (بالنعمة) ووصلوا إلى السماء عينها، وبها امتلكوا نعمة الروح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه،
إذ رأوا الآيات التي صنع". [٢٣]
"لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه،
لأنه كان يعرف الجميع". [٢٤]

لقد آمنوا به أنه المسيا المنتظر، لكنهم لم يدركوا أنه مخلص العالم، بل ظنوه ملكًا على إسرائيل، ينقذهم من الاستعمار، ويهبهم سلطانًا زمنيًا. لم يدركوا أنه مخلص نفوسهم، فلم تتغير قلوبهم، لهذا لم يأتمنهم يسوع على نفسه.

يميز **العلامة أوريجينوس** بين الذين يؤمنون بيسوع المسيح والذين يؤمنون باسمه **(فقط)**. إنه لم يأتمن الذين آمنوا باسمه فقط وليس الذين آمنوا به.

❖ لقد كان التلاميذ أبلغ استقصاء في إيمانهم، لأنهم لم يتقدموا إلى المسيح بسبب آياته فقط لكنهم تبادروا إليه بسبب تعليمه، لأن الآيات جذبت الذين كانوا أكثف عقولاً من غيرهم، إذ أن جميع الذين اقتنصهم تعليمه كانوا أثبت عزمًا من الذين اجتذبتهم آياته. ويدعوهم المسيح "مطوبين" قائلاً: "طوبى للذين آمنوا ولم يروا" (يو ٢٠: ٢٩).

أما هؤلاء المذكورون هنا فلم يكونوا تلاميذ حقيقيين. هذا ما تظهره العبارة التالية، إذ قيل: "**لم يكن يسوع يأتمنهم علي نفسه**" [٢٤]. لماذا؟ "**لأنه كان يعرف كل شيء**"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق بنا أن نلتصق به أكثر من التصاقنا باسمه، عندما نصنع عجائب باسمه، فلا نسمع الكلمات التي قيلت عن المفتخرين باسمه فقط (مت ٧: ٢٢–٢٣)، لكن إذ نتمثل ببولس تكون لنا الشجاعة أن نقول: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني" (في ٤: ١٣)[2].

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 24:1.*
[2] *Commentary on John, Book 10:310.*

العلامة أوريجينوس

❖ لم يأتمن حديثي الإيمان على نفسه... من هذا فليتعلم وكلاء أسرار المخلص ألا يدخلوا إنسانًا فجأة داخل الحجب المقدسة، ولا يسمحوا للمبتدئين الذين اعتمدوا قبل الأوان ولم يؤمنوا بالمسيح رب الكل في الوقت المناسب أن يقربوا من الموائد الإلهية.

❖ إن كان اللَّه وحده يعرف دائمًا ما فينا، والمسيح أيضًا يعرفه، فكيف لا يكون هو اللَّه بالطبيعة؟

القديس كيرلس الكبير

إنه يعلم ما في الإنسان لأنه خالق الكل (يو ١: ٣)، الكلي الحكمة (يو ٢: ١)، وفاحص القلوب والكلى.

"**ولأنه لم يكن محتاجًا أن يشهد أحد عن الإنسان،**
لأنه علم ما كان في الإنسان". **[٢٥]**

❖ إن الخاصية العارفة له في قلوب الناس هي خاصية الإله الذي أبدع قلوبهم، لأن سليمان الحكيم قال في صلاته للرب: "فاسمع أنت من السماء مكان سكناك واغفر واعمل وأعطِ كل إنسان حسب كل طرقه كما تعرف قلبه، لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب كل بني البشر" (١ مل ٨: ٣٩)، لذلك لم يكن المسيح محتاجًا إلى شهود حتى يعرف نية خلائقه، لكنه عرف خفاياهم كلها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يمكن فهم العبارة: "**لأنه علم ما كان في الإنسان**" [٢٥] بخصوص القوات الشريرة والصالحة التي تعمل في البشر، فإن أعطي إنسان مكانًا لإبليس (أف ٤: ٢٧) يدخل الشيطان فيه، كما أعطى يهوذا للشيطان موضعًا في قلبه لكي يخون يسوع... وإن أعطى الشخص موضعًا لله يصير مطوّبًا. إذ "طوبى لمن كان عونه من الله، والمصاعد في قلبه من الله" (راجع مز ٨٤: ٦). ابن الله العارف بكل الأشياء، يعرف ما كان في الإنسان[1].

العلامة أوريجينوس

[1] *Commentary on John, Book 10:321.*

من وحي يو ٢

حضورك يجعل حياتي عرسًا لا ينقطع!

❖ حضورك يحوّل حياتي إلى عرس دائم.
حضورك يجلب أمك وتلاميذك ومحبيك معك!
تعال، هوذا العُرس معد!
تعال، ليس من يفرح قلبي غيرك!

❖ حوَّلت ماء التطهير إلى خمرٍ جديدٍ.
عِوَض وصايا الناموس الحرفية التي تثقل كاهلي،
تهبني خمر الإنجيل الذي يفرح قلبي!
لأسكر بحبك وأعشق سماواتك،
فلا يكون للعالم موضع في داخلي!

❖ هب لي بروحك الناري أن أنصت إلى صوت أكثر:
مهما قال لكم فافعلوه!
طاعتي لك تفرح قلبها وقلوب كل محبيك.
صلواتها وشفاعتنها تسندني،
فأسلك بروح الطاعة لوصيتك.

❖ لتدخل إلى أعماقي، فتقدسها هيكلاً لك:
لتطرد كل غنمٍ وبقر منهاٍ،
فلا يكون لروح الربح القبيح موضع فيّ.
لأسلك بروحك القدوس،
فيكون لي عينا حمامة وديعة.
لتسكب كل محبة للدراهم من مائدة نفسي!

❖ هب لي روح الغيرة على بيتك،
فيلتهب قلبي بالطهارة الداخلية عِوَض الانشغال بإدانة الآخرين.

وأنشغل بسكناك فيّ عوض الانشغال بالغير.

❖ أقام اليهود الهيكل القديم في ٤٦ عامًا،
وها أنت أقمت هيكل جسدك من القبر في ثلاثة أيام.
في ثلاثة أيام أقمت كنيستك عروسًا سماوية.
لم يعد موضعنا ظلمة القبر،
بل بهاء سمائك الفائق!

الأصحاح الثالث

نيقوديموس والميلاد الجديد

المعلم واهب الميلاد الجديد!

ليس من أصحاح في العهد الجديد يبدو في صعوبة هذا الأصحاح، ومع هذا فقد جذب كثيرين من غير المؤمنين إلى الإيمان المسيحي. فعنده تقف نفس غير المؤمن الجادة في طلب خلاصها لتجد نفسها محتاجة مع نيقوديموس أن تدخل في حوار سري مع السيد المسيح، وإذ تتعرف على الإمكانيات الجديدة الموهوبة لها. تنحني أمامه تطلب الاتحاد معه لتتمتع بروحه القدوس بالميلاد الثاني الجديد خلال العماد.

في نفس خط تأكيد الحياة المسيحانية الجديدة: خمر جديدة وهيكل جديد، كان لابد من الكشف عن **الولادة الجديدة**.

يبقى هذا اللقاء الفريد بين شخصية فريسية ممتازة وبين شخص السيد المسيح ينبوع روحي حي يفيض على كل نفس جادة في خلاصها. فقد كان نيقوديموس كفريسي، رجل عالم في دراسة التوراة والتقليد اليهودي، ورجل أخلاقي يؤمن كغيره من الفريسيين أنه في قدرة الإنسان إن أراد أن يفعل برّ الناموس، يعتمد على جهاده الذاتي وإرادته البشرية، يتمسك بحرفية الناموس، ويحسب نفسه حافظًا لها. يرى في المسيح معلمًا يهوديًا مهتمًا بالناموس، ولعله كان أحد الكثيرين الذين ذكرهم الإنجيلي: "ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التي صنع" (يو ٢: ٢٤)، آمن أنه أتى من الله (يو ٣: ٢). ولعله كان يرجو في يسوع أن يكون مصلحًا أخلاقيًا، يقوم على أساس حفظ الناموس حرفيًا، وأن يصلح من شأن الأمة اليهودية.

لم تكن عقلية نيقوديموس وخبرته تؤهلانه لقبول الحياة الجديدة في المسيح يسوع، خلال الميلاد الجديد، والتمتع بناموس روحي جديد. كان محتاجًا أن يرفع السيد المسيح فكره وقلبه وكل أحاسيسه وطاقاته نحو السماء ليدرك حاجته إلى الميلاد الجديد خلال ذاك "الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء"، فهو وحده يصعد إلى السماء ليحمل مؤمنيه معه كأبناء لله يتمتعون بالبنوة للآب فيه.

لقاء نيقوديموس مع السيد المسيح ليلاً يسحب القلب نحو شخص السيد المسيح للتعرف على

اهتمام السيد المسيح بكل نفسٍ بشريةٍ، ولطفه مع صراحته في الحديث معها.

رأينا الكلمة الحال في وسطنا ليقيمنا أبناء لله، (ص ١)، الآن يعلن كيفية الميلاد الجديد في حديثه مع نيقوديموس رئيس اليهود. اشتاق نيقوديموس أن يرى الملكوت، فأكد له السيد الحاجة إلى المعمودية بالماء والروح. ليعيش المؤمن دومًا كابن لله يسلك بالروح. في هذا الأصحاح يرفعنا من الأرضيات إلى الانشغال بالسماويات خلال اتحادنا بالسماوي الذي نزل إلينا وصعد ليصعدنا معه، إذ هو قائم في السماء [١٣].

يربط العماد **بالصليب** حيث يعلن الآب حبه لكل البشرية ببذل ابنه لكي يتمتع العالم بالحياة الأبدية [١٦].

وإذ يشير إلى الميلاد الجديد يسحبنا من الخوف من الدينونة إلى **التمتع بالنور الإلهي** [٢١].

إذ رأى يوحنا المعمدان ما حدث في عماد السيد المسيح وما حمله هذا من تمتع المؤمنين به بالبنوة، كمل فرحهُ. لقد سمع صوت العريس يخطب عروسه لتحيا معه في الأمجاد السماوية [٢٩].

١. حوار حول الميلاد الجديد ١–١٣.

٢. الميلاد الجديد وذبيحة الصليب ١٤–١٧.

٣. الاستنارة والإيمان ١٨–٢١.

٤. موقف المعمدان من معمودية المسيح ٢٢–٣٦.

١. حوار حول الميلاد الجديد

"كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئيس لليهود". [١]

نيقوديموس: اسم يوناني معناه "المنتصر على الشعب". كان رئيسًا لليهود، أي عضوًا في مجمع السنهدرين، المجلس الأعلى للأمة اليهودية.

الدعوة الإلهية موجهة إلى كل البشرية بكل فئاتها، لكن قليلين من أصحاب المراكز الدينية والزمنية ومن لهم مراكز قيادة أن يستجيبوا للدعوة. وجد قلة قليلة جدًا من بين الفريسيين، أقل من إصبع اليد الواحدة، ممن تجاوبوا مع هذه الدعوة، من بينهم نيقوديموس. جاء إلى السيد المسيح ربنا وحده أو معه أحد تلاميذه أو أكثر. لم يستخف السيد بالنفس الواحدة، فإنه احتمل موت الصليب من أجل كل نفس.

حقًا لقد حمل الفريسيون روحًا مضادة ومقاومة للحق الإلهي، لكن وُجد بين هؤلاء المتعلمين الدارسين من يشتهي اللقاء مع السيد، وقد وجدوا بابه مفتوحًا. نعمة الله تعمل في الأميين كما في الدارسين، وفي العامة كما في القيادات، وفي البسطاء كما بين المقاومين. لقد جاء نيقوديموس إلى

السيد، وبقي في مركزه بين المقاومين، ووضع قلبه أن يعمل حينما تُتاح له الفرصة قدر المستطاع. وقد حان الوقت حين لم يستطع التلاميذ أن يعملوا ليعمل هو، فأخذ تصريحًا من بيلاطس كي يدفن جسد السيد المسيح في قبره الخاص الجديد.

أُشير إلى نيقوديموس بن جوريون *Gorion*، في الكتابات اليهودية أنه كان غنيًا جدًا يستطيع أن يعول كل أهل أورشليم لعشرة سنوات، وإن كان البعض يرى في ذلك شيء من المبالغة.

"**هذا جاء إلى يسوع ليلاً، وقال له:**
يا معلم نعلم أنك قد أتيت من اللَّه معلمًا،
لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل،
إن لم يكن اللَّه معه". **[٢]**

كلما أشار الإنجيلي يوحنا إلى شخص نيقوديموس يربطه بزيارته للسيد المسيح ليلاً، وقد كرر ذلك ثلاث مرات في هذا السفر (٣: ٢؛ ٧: ٥٠؛ ١٩: ٣٩). **لماذا جاء إلى يسوع ليلاً؟**

١. شعر أنه لا يكفيه أن يسمع أحاديثه العامة، ولا أن يتمتع برؤية معجزاته العلنية، بل هو محتاج إلى جلسة هادئة مع السيد المسيح فيما يخص خلاص نفسه. محتاج إلى حوار شخصي معه (ملا ٢: ٧). إن كان الابن الوحيد الجنس كثيرًا ما كان ينسحب من الجماهير بل ومن التلاميذ الأخصاء ليقضي الليل كله في حديث ممتع مع الآب، ألا يحتاج كل إنسانٍ منا أن يترك كل شيء ويجلس، خاصةً بالليل، مع مسيحه ليدخل معه في حوارٍ شخصي، ويتمتع بالحياة الجديدة والشركة معه؟

٢. لعله من باب الحكمة اختار المساء، لأن السيد المسيح كان مشغولاً طوال النهار بالخدمة العامة، فانتظر نيقوديموس حتى المساء ليلتقي مع السيد في وقت راحته، في حديث ودي.

٣. لعله إذ دهش برؤية بعض المعجزات انتهز أول فرصة للقاء شخصي معه. بينما الكل نيام أراد أن يقضي سهرة روحية مع السيد المسيح، ولعله خشي ألا يجد مثل هذه الفرصة في المستقبل. كان نهازًا للفرص! إنه تمثل بداود النبي الذي كثيرًا ما كان ينتهز فرصة الليل للتأمل (مز ٣٦: ٦؛ ١١٩: ١٤٨).

٤. لعل أيضًا الدافع لمجيئه ليلاً أنه خشي أن يبلغ الخبر إلى رؤساء الكهنة فيثوروا بالأكثر ضد السيد المسيح، أو يسيئون هم والرؤساء والفريسيون إلى نيقوديموس نفسه. ربما كان ينقصه نور

الإيمان، لقد انجذب إلى شخص يسوع، لكنه لم يكن بعد قد عرفه عن قرب، ولا تعرّف على حقيقته أنه نور العالم. لقد كان قائدًا يهوديًا [١]، ومعلم إسرائيل [١٠]، يحتاج إلى الميلاد الجديد ليتمتع بمفاهيم جديدة للمملكة السماوية المسيحانية. في ضعف إيمانه جاء ليلاً، وقد وجد باب قلب سيده مفتوحًا، ولم يجرح مشاعره بكلمة عتاب واحدة. على أي الأحوال كان إيمانه أشبه بحبة الخردل الحية التي نمت وظهرت كشجرة عظيمة عندما مات السيد المسيح، فتقدم بشجاعة ليطلب جسد السيد.

❖ لقد تردد نيقوديموس على المسيح، لكن ليس كما كان يليق، ولا بتمييز لائقٍ، لكن الضعف اليهودي كان لا يزال مستحوذًا عليه بعد، ولهذا السبب جاء ليلاً خائفًا من أن يجيء إليه نهارًا. ومع هذا فإن الله الرحوم لم يرذله ولا انتهره، ولا حرمه من تعاليمه، وإنما في حنوٍ شديدٍ حاوره، وكشف له تعاليم سامية للغاية، حتمًا كانت مبهمة إلا أنه كشفها له. فانه يستحق العفو بما لا يقاس من أولئك الذين يفعلون هكذا بنية شريرة. هؤلاء بلا عذر تمامًا، أما هو وإن كان يستحق اللوم لكن ليس بذات الدرجة[1].

❖ وإن كان نيقوديموس تخلف، إلا أنه فكر فيه بطريقة بشرية، فتحدث عنه كأنه نبي، متوهمًا انه قال عنه أمرًا عظيمًا من خلال معجزاته. يقول: "**يا معلم نعلم أنك أتيت من الله معلمًا**" [٢]. " فلماذا أتيت ليلاً في الخفاء إلى ذاك الذي يتكلم بأمور الله، ذاك الذي أتي من الله؟ لماذا لم تحاوره علانية؟ لم يقل له يسوع شيئًا من هذا، ولا انتهره. إذ يقول النبي: "قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ" (إش ٤٢: ٢-٣؛ مت ١٢: ١٩-٢٠). مرة يقول السيد نفسه: "لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم" (يو ١٢: ٤٧)[2].

❖ "**لأنه ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل، إن لم يكن الله معه**". [٢]

لاحظ تنازل المسيح المتزايد. فإنه قد أحجم إلى حين عن القول: "لست محتاجًا إلى عون آخرين، إنما أفعل كل شيء بسلطانٍ، لأنني ابن الله ذاته، ولي ذات سلطان أبي"، فإن هذا كان صعبًا علي سامعه...

ولهذا فإنه في مواضع كثيرة كان كمن يضع لنفسه حدودًا، أما في أفعاله فلم يفعل هكذا. فعند ممارسته معجزة، يصنع كل شيءٍ بسلطان، فيقول: "أريد فأطهر" (مت ٨: ٣)؛ "طليثا، قومي" (مر ٥: ٤١)؛ "مد يدك" (مر ٣: ٥)؛ "مغفورة لك خطاياك" (مت ٩: ٢)؛ "اسكت، ابكم" (مر ٤: ٣٩). "احمل

[1] *Homilies on St. John, 24:1.*
[2] *Homilies on St. John, 24:2.*

سريرك واذهب إلى بيتك" (مت ٩: ٦). " أيها الروح النجس، لك أقول أخرج منه" (مت ١٥: ٢٨)." إن سألكما أحد، قولا: الرب محتاج إليه" (مر ١١: ٣)." اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٣).. "سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل... وأما أنا فأقول لكم من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم" (مت ٥: ٢١-٢٢)." هلم ورائي فأجعلكما تصيران صيادي الناس" (مر ١: ١٧). في كل موضع نلاحظ أن سلطانه عظيم، فإنه في عمله لا يمكن لأحد أن يمسك عليه خطأ... أما في أحاديثه فربما في جنونهم يتهمونه بالجنون.

لذلك في حالة نيقوديموس لم يتكلم علانية، بل قاده بكلمات غامضة أن لديه سلطانًا في ذاته يظهر معجزات، فقد ولده الآب كاملاً، فيه الكفاية المطلقة بلا نقص قط[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

- ❖ كان نيقوديموس واحدًا من هؤلاء (الذين آمنوا باسمه، لكنه لم يأتمنهم على نفسه ٢: ٢٣-٢٤). جاء إلى الرب، لكنه جاء ليلاً. جاء إلى النور، وقد جاء في الظلمة[2].
- ❖ بالرغم من أنه جاء إلى يسوع، لكنه إذ جاء ليلاً، ظل يتكلم من خلال ظلمة جسده. لم يفهم ما يسمعه من النور الذي يضيء لكل إنسانٍ آتٍ إلى العالم[3].
- ❖ ربما علة مجيئه إلى السيد الحقيقي ليلاً أنه اعتاد أن يُعلِّم، وكان يخجل من أن يتعلم. لكنني أتمتع بمسرة أعظم عندما أصغي إلى معلم عن أن يُصغى إليَّ كمعلمٍ. فإنني أتذكر ما قاله للذين اختارهم قبل غيرهم: "لكن ليتكم لا تُدعون معلمين بواسطة الناس، فإن سيدكم واحد، المسيح" (راجع مت ٢٣: ٨)[4].

القديس أغسطينوس

على أي الأحوال لم يأتِ ليلاً لينال المعمودية ولا ليتتلمذ للسيد، فإنه حسب التقليد اليهودي لا يجوز لمن يريد أن يدخل الإيمان اليهودي أن يُختتن أو يُعمد في الليل، وإلا حسب هذا العمل باطلاً. لقد جاء للاستنارة برأيه، والتعرف على الطريق لا للتلمذة على يديه.

"**يا معلم**": لم يكن من السهل لفريسي يُحسب عالمًا في الكتاب المقدس وقائدًا للشعب أن يخضع لشخصٍ ما قائلاً بروح التواضع: "**يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلمًا**" [٢]. لم يتحدث مع السيد

---

[1] *Homilies on St. John, 24:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 11:4.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 11:5.*
[4] *Letters, 166:9.*

في أمورٍ سياسيةٍ، ولا في شئون الدولة، مع أنه كان رئيسًا لليهود، لكن ما كان يشغله هو خلاص نفسه.

اعترف نيقوديموس بأن السيد لم يتعلم على يدي أي معلمٍ يهوديٍ، ولا التحق بمدرسة دينية، لكن تعليمه هو بسلطان إلهي سماوي. أدرك أن السيد يحمل سلطان الحق لا السيف، يعمل بحكمة علوية لا بشرية. يعترف نيقوديموس أن الآيات التي صنعها يسوع لا يمكن أن تكون مزيفة. لقد فحصها مع زملائه وأدركوا أنها من الله، تتحقق بقوة إلهية.

والعجيب أنه يتكلم بصيغة الجمع "**نعلم**"، ربما لأنه جاء ومعه واحد أو أكثر من تلاميذه، أو تحدث على لسان بعض الفريسيين الذين لم يكن يشغلهم شيء أو شخصٍ ما سوى "يسوع"، وقد اعترفوا فيما بينهم بما يعلنه نيقوديموس هنا، لكن أحدًا ما لم يجسر أن يتكلم علانية، ولا أن يلتقي مع يسوع خفية.

"**أجاب يسوع وقال له:**

الحق الحق أقول لك

إن كان أحد لا يُولد من فوق (جديد)

لا يقدر أن يرى ملكوت اللَّه". **[٣]**

اعتبر نيقوديموس صنع الآيات دليلاً على أن يسوع هو من عند الله. فقد كان الربيون يربطون بين التقوى وعمل الآيات. ولم يكن نيقوديموس قادرًا أن يتعدى هذه الحدود ليدرك حقيقة شخص يسوع المسيح، فرآه معلمًا تقيًا، رجل الله، يتمتع بمعية الله، كما تمتع يعقوب حيث قال له الرب: "لا تخف لأني معك" (تك ٢٦: ٢٤). ويشوع بن نون: "كما كنت مع موسى أكون معك" (يش ١: ٥) وكثير من الآباء والأنبياء لم يستطع نيقوديموس بفكره الفريسي مع تقواه أن يتعدى هذه الحدود. هذا هو ما تعلمه، وهذا هو ما كان يعيشه في الجو اليهودي.

جاء حديث السيد المسيح معه يبرز النقاط التالية:

١. الحاجة الماسة إلى ميلادٍ جديدٍ لمعاينة عالمٍ جديدٍ في داخله "**ملكوت الله**" [٣]. لذلك دعيت ولادة جديدة أو ولادة ثانية، كما جاءت في الترجمات القبطية والسريانية واللاتينية، وكما استخدمها كثير من آباء الكنيسة الأولى، مثل **القديسين يوستين واكليمنضس السكندري، وترتليان، والقديسين أغسطينوس وجيروم**. وقد فهم نيقوديموس كلمات السيد المسيح أنها تدعوا إلى "ميلاد جديد"، لهذا وقف في حيرةٍ وعجز: كيف يمكن لشيخ أن يدخل بطن أمه ليولد من جديد؟

٢. أن تكون **الولادة من فوق**، أي سماوية [٣]. إذ هو عمل خاص بروح الله القدوس السماوي،

يهب إمكانيات سماوية إلهية تتجاوز الفكر البشري.

٣. تتحقق بالعماد من **الماء والروح** [٥].

٤. ولادة تحمل **قوة فائقة كالريح** ولا يُعرَف سرها [٨].

كان تكرار كلمة "**الحق**" في الكتابات اليهودية يُحسب معادلاً لقسم له قدسيته العظمى. استخدمه السيد المسيح عندما كان يشير إلى أمرٍ له خطورته الكبرى.

في لطف ينتهره السيد المسيح معلنًا له أنه لا يكفي للشخص أن يؤمن بأن يسوع هو معلم إلهي، ولا أن يُعجب من آياته بكونها آيات صادقة وفريدة، لكن الحاجة هي إلى ولادة "**من فوق**"، أي سماوية، لكي يعاين ما هو سماوي. فالجنين في بطن أمه لا يقدر أن يرى العالم، ولا يحمل أية خبرات فيه، ما لم يولد من رحم أمه. هكذا لا يستطيع الإنسان أن يعاين ملكوت الله، ولا أن يحمل خبرات السماء، ما لم يولد ثانية من فوق ليرى نور العالم الجديد ويعيش فيه.

بقوله "**يرى**" يؤكد السيد المسيح أنه يليق بالمؤمن الحقيقي الذي يتمتع بالميلاد الجديد السماوي ألا يعتز بهذا الميلاد دون أن **يرى ملكوت الله داخله ويعيشه**، أي يصير له الفكر السماوي والروح العلوية والمبادئ اللائقة بناموس السماء، وأهداف جديدة ورجاء جديد وإمكانيات جديدة.

بالميلاد الجديد يبدأ المؤمن حياة جديدة تمامًا، لا تقوم على تصليح كيان الإنسان، بل هدم القديم وبناء الجديد، إماتة الإنسان العتيق وقيامة الإنسان الجديد الذي على صورة خالقه.

بميلادنا الأول أفسدتنا الخطية وشكَّلت أعماقنا حسب هواها، فصرنا جسدانيين، يسيطر علينا ناموس شهوات الجسد، وتسحبنا محبة العالم، ويتحكم فينا عدو الخير، فأصبح الميلاد الجديد ضرورة لا مفر منها. لهذا يقول السيد: "**الحق الحق أقول لكم**".

ما هو **ملكوت الله** الذي يليق بنا أن نراه على الدوام سوى ملكوت المسيا السماوي، الساكن فينا، يقيم مملكته في داخلنا. نراه ونحيا به ونشاركه سماته، فنصير قديسين كما هو قدوس. هذا هو ملكوت الله الحاضر في حياتنا في متناول يدنا، كما أعلن السيد المسيح نفسه: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات" (مت ٤: ١٧). كما قال: قد أقبل عليكم ملكوت الله" (مت ١٢: ٢٨)، وأكد لنا: "ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧: ٢١). أما عن وضعنا في هذا الملكوت فهو أنه "جعلنا ملوكا وكهنة لله أبيه" (رؤ ١: ٦، ٩؛ ٥: ١٠). يصبغ علينا هذا الملكوت شركة سمات ربنا يسوع، إذ أن ملكوت الله "ليس أكلاً وشربًا، بل هو برّ وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ١٧).

هذا الملكوت هو عربون الملكوت الأبدي، ينقلنا إلى السماء لنشتاق للدخول في شركة المجد

العجيب يوم مجيء الرب. إنه يرفع فكرنا، ويصوب أنظارنا الداخلية نحو مجيء الرب الأخير والتمتع بالأكاليل السماوي.

❖ الآن كأن ما يقوله هو هكذا: "إن لم تولد من جديد، إن لم تشترك في الروح بجرن التجديد لا تستطيع أن يكون لك فكر سليم عني، لأن رأيك في جسدي لا روحي (تي ٣: ٥)... كلمة "**من جديد**" (أو من فوق) هنا يفهمها البعض بمعنى "من السماء"، ويفهمها آخرون "من الأول". يقول المسيح:" إنه من المستحيل أن أحدًا ما لا يولد هكذا أن يرى ملكوت الله"؛ هنا يشير إلى نفسه (المسيح)، ويعلن أننا في حاجة إلى عيون أخرى بجانب العيون الطبيعية لترى المسيح[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال له نيقوديموس:**

كيف يمكن الإنسان أن يُولد وهو شيخ؟

ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟" **[٤]**

جاء تساؤل نيقوديموس يكشف عن ضعف معرفته. بينما يتكلم السيد المسيح روحيًا كان قلب نيقوديموس مرتبطًا بالماديات. لم يكن ممكنًا أن يدرك الميلاد من فوق ما لم تُحل رباطات المادة من قلبه وفكره، فيقدر بروح الله أن يدرك الإمكانيات الروحية الجديدة.

صُدِمَ نيقوديموس بحديث السيد المسيح عن الميلاد الجديد، فقد كان نيقوديموس كغيره من الإسرائيليين يعتزون بمولدهم من أبيهم إبراهيم، ونسبهم لشعب الله، وتمتعهم بالأنبياء، والوعود الإلهية، والعهد الإلهي، والهيكل الفريد بكل طقوسه. إنه ليس فقط إسرائيليًا بل وكان فريسيًا، فأي ميلاد أفضل يريده له يسوع؟ كان اليهود ينتظرون في مجيء المسيا أن يُقبل الأمم على الإيمان ويولدون من جديد، أما بالنسبة لهم فليس من مولد أشرف مما هم عليه. إنهم يعتزون بنسبهم وميلادهم ويصعب بل يستحيل أن يسمعوا عن مولد آخر.

مع هذا كله فإن نيقوديموس لم يعطِ ظهره ليسوع بل تساءل لعله يدرك أمرًا جديدًا كان ينقصه معرفته. كشف نيقوديموس، المعلم والرئيس، عن تواضعه واستعداده للتمتع بأية معرفة صادقة أو إعلان سماوي ينقصه، حتى وإن كان الأمر يبدو حسب معرفته مستحيلاً. إنسان عجيب، فمع خبرته الطويلة الممتدة عشرات السنوات، ومع مركزه كقائدٍ له تقديره، ومع الجو الفريسي الذي يعيشه انحنى ليتعلم شيئًا جديدًا. إنه مثل رائع لكل قائد حقيقي ألا يتشامخ بما تعلمه، بل يبقى تحت التعليم حتى

[1] *Homilies on St. John, 24:2.*

آخر نسمة من حياته. وكما يقول **الأسقف القديس أمبروسيوس** أنه لا يوجد كائن لا يحتاج إلي التعلم سوي الله.

❖ لقد جاء نيقوديموس إلى المسيح كمن يجيء إلى إنسان، فسمع أقوالاً أعظم من أن تُسمع من إنسانٍ. نعم ولا سمعها أحد قط، فلبث يثب في لحظاتٍ إلى علوها عاجلاً، إلا أن فهمه أظلم، وصار غير ثابت، محمولاً من كل جانب، ساقطًا على الدوام من الإيمان. لذلك صمم على تأكيد استحالة ذلك، وكأنه قد حث السيد ليوضح تعليمه، فقال:: "**ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويُولد؟**",,, سمع نيقوديموس عن الميلاد الروحي لكنه لم يتعرف عليه روحيًا، بل سحب الكلمات إلى أسفل دنو الجسد، وجعل تعليمًا عظيمًا كهذا يعتمد على براهين جسدية.

وهكذا أوجد مصاعب تافهة وسخيفة. لذلك يقول بولس: "الإنسان الطبيعي لا يقبل ما للروح" (١ كو ٢: ١٤). ومع هذا فقد حفظ نيقوديموس الاحتشام والتوقير للمسيح، لأنه لم يسخر بما قيل له، لكنه سكت ظانًا أنه أمر ممتنع، وقد حدث له شك في أمرين هما: الولادة التي من هذا النوع، والملكوت، لأن اسم الملكوت لم يُسمع عند اليهود في وقت من أوقاتهم، ولا ذُكرت ولادة معناها كهذه، إلا أنه وقف متفكرًا عند الأول منهما وهو الولادة التي من فوق التي أدهشت عقله تمامًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عرف هذا الرجل ميلادًا من آدم وحواء، أما الذي من اللَّه والكنيسة فلم يعرفه. لقد عرف فقط هذين الوالدين اللذين يلدان للموت، ولم يعرف اللذين يلدان للحياة. لقد عرف الوالدين اللذين ينجبا خلفًا لهما، ولم يعرف الوالدين الدائمي الحياة اللذين يلدان من يقيموا (على الدوام). يوجد ميلادان: ميلاد من الأرض، والآخر من السماء، واحد من الجسد، والآخر من الروح، واحد قابل للموت، والآخر أبدي، واحد من ذكرٍ وأنثى والآخر من اللَّه والكنيسة، أما هو ففهم ميلادًا واحدًا فقط[2].

❖ كما لا يوجد تكرار في الميلاد من الرحم، لن يوجد أيضًا من المعمودية[3].

القديس أغسطينوس

"**أجاب يسوع:**
الحق الحق اقول لك،

---

[1] *Homilies on St. John, 24:3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 11:6.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 11:6.*

إن كان أحد لا يولد من الماء والروح،
لا يقدر أن يدخل ملكوت اللَّه". [٥]

عاد السيد وكرر ما سبق أن أكده، ليعلن أن هذا الحق لا يمكن التهاون فيه. فإن كلمة الله ليست نعم ولا، بل هي نعم وآمين. فمع عدم إدراك نيقوديموس للميلاد الجديد يصر السيد المسيح على ضرورته. ليس من طريق آخر **لمعاينة** ملكوت الله **والدخول** فيه سوى الولادة الثانية.

لماذا يستخدم الماء؟ إشارة إلى عمل الغسل الداخلي للنفس (تي ٣: ٥؛ ١ كو ٦: ١١؛ حز ٣٦: ٢٥). هذا الغسل يتحقق بالروح القدس القادر وحده أن يغسل أعماق النفس ويطهرها ويجددها. كما حول السيد المسيح الماء إلى خمرٍ يفرح أهل العرس والحاضرين فيه، هكذا يقدم لنا الماء لا لتطهير الجسد خارجيًا، بل تطهير الأعماق بالروح. هذا هو الماء الذي وعد به السيد في حديثه مع السامرية، أن من يشرب منه لا يعطش. إنه ليس كماء بئر يعقوب التي شرب منها هو وبنوه والماشية إنما هي مياه حية.

والماء ضروري في الميلاد الجديد، إذ يتم العماد بالتغطيس كقبول للموت والدفن مع المسيح للتمتع بالحياة المقامة الجديدة. وكما يقول الرسول بولس: "أم تجهلون إننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته؛ فدفنا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الأب، هكذا نسلك نحن أيضا في جدة الحياة" (رو ٦: ٤) فالميلاد من الماء والروح هو موت عن حياة جسدية، ودفن لإعمال الإنسان القديم، وقبول شركة مع المسيح في حياته المقامة، أو قبول حياة جديدة مخلوقه بالروح القدس، الذي هو روح القيامة. إنها عملية خلق داخلي جديد، فنموت عن الفساد لنحمل طبيعة جديدة على صورة الخالق.

❖ الآن حتى الموعوظ يؤمن بصليب الرب يسوع المسيح الذي به أيضًا يُرشم، لكنه ما لم يعتمد باسم الآب والابن والروح القدس لا يقدر أن يتقبل غفران الخطايا، ولا يقتني عطية النعمة الروحية[1].

القديس أمبروسيوس

❖ أخيرًا يمكنهم أن يتقدسوا بالتمام ويصيروا أبناء الله إن ولدوا من السرّ، كما هو مكتوب: "إن لم يولد الإنسان من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله"[2].

الشهيد كبريانوس

---

[1] *On the Mysteries, 4:20.*
[2] *Letter 72 to Stephen: 1.*

❖ فإن قلت: ما هو معنى هذا القول الذي قاله المسيح لنيقوديموس؟ أجبتك: "أراد المسيح أن يبعده عن التخيل الذي في الولادة الجسدية، وكأن المسيح يقول له **يا** نيقوديموس، إنما أقول **أنا** عن ولادة أخرى، فما بالك تسحب قولي إلى الأرض؟ لماذا تخضع هذا الفعل تحت ضرورة الطبيعة؟ فهذا الميلاد هو أعلى سموًا من مخاض الطلق التي هذه حالها، ابعد نفسك عن ما هو عام وشائع، فإنني أُدخل إلى العالم ولادة أخرى، وأشاء أن يولد الناس من جديد بطريقٍ آخر. لقد جئت لأجلب وسيلة جديدة للخلقة. لقد خلقت الإنسان من أرض وماء، ولكن ما قد تشكل ليس بنافع، فقد انحرف الإناء عن هدفه. لست أعود أشكله بتراب وماء بل بالماء والروح.

فإن سأل سائل: **كيف يخلق الله الإنسان من ماء؟** وأنا أسأله: وكيف خلقه من أرض؟ وكيف تقسم الطين إلى أجزاء مختلفة؟ من أين تكونت عظام الإنسان وأعصابه وشرايينه وأوردته؟ من أين أغشيته وأطرافه الآلية وغضاريفه وكبده وطحاله وقلبه؟ من أين تكوَّن جلده ودمه ولعابه وصفراه ومرارته؟ من أين أفعاله الجزيل تقديرها؟ من أين ألوانه المختلفة، لأن هذه الأجزاء ليست أجزاء أرض، ولا أجزاء طين.

وكيف إذا قبلت البذور الأرض تنبتها، وإذا قبل جسمنا البذور يعفنها؟

كيف تغذي الأرض البذور التي تُطرح فيها وجسمنا يتغذى على هذه البذور؟

تتقبل الأرض الماء فتجعله خمرًا، وجسمنا يقبل الخمر فيجعله ماءً. فلست أقدر أن أتحقق بفكري من أن هذه الأصناف جاءت من الأرض، إذ أن الأرض تضاد جسدنا بهذه الأصناف المذكورة، إلا أننى بتصديقي وإيماني بالله وحده أقبل أنها من الأرض.

فإن كانت تلك الأصناف المكونة كل يوم والملموسة تحتاج إلى تصديق وإيمان، فالأصناف الروحانية أولى وأليق أن تحتاج إلى تصديق وإيمان. وكما أن الأرض الغير متحركة حين أُيدت بإرادة الله تكونت منها هذه العجائب الجزيل عددها، هكذا **إذا حضر الروح في الماء تتكون وأيسر مرام هذه الأفعال البديعة الفائقة على فكرنا...**

وإن سأل سائل: وما الحاجة إلى الماء في هذه الولادة؟ أجبته: إن هذه الولادة تعمل وتتمم دلائل إلهية: قبر ودفن وإيمان وحياة وقيامة، وهذه كلها تتكون في المعمودية معًا، لأننا إذا غطسنا رؤوسنا في الماء، كأننا نغطسها في قبر من القبور، يُدفن فيه الإنسان العتيق إلى أسفل ويغرق كله، ثم إذا رفعنا رؤوسنا يطلع الإنسان الجديد أيضًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من هو هذا الذي يولد من الروح ويصير روحًا إلا ذاك الذي يتجدد بالروح في ذهنه (أف ٤: ٢٣)؟ هذا بالتأكيد هو الذي يُولد من جديد بالماء والروح القدس، إذ نتقبل الرجاء في الحياة الأبدية خلال جرن الميلاد الجديد والتجديد بالروح القدس (تي ٣: ٥). في موضع آخر يقول بطرس الرسول: "ستُعمّدون بالروح القدس" (أع ١١: ١٦). فإنه من هذا الذي يعتمد بالروح القدس إلا الذي يُولد مرة أخرى بالماء والروح؟ لذلك يقول الرب عن الروح القدس: **الحق الحق أقول لكم إن لم يولد الإنسان ثانية من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت اللَّه**"[١].

القديس أمبروسيوس

❖ يخبر ما جاء في سفر أعمال الرسل عن إعلان الروح الذي يعيش في المُعَمَّدْ، حين يمهد الماء الطريق لأولئك الذين يتقدمون بإخلاص. يُسمى العماد "غسْل الميلاد الثاني" (تي ٣: ٥) الذي يتم بتجديد الروح[٢].

❖ لما كان بسرّ العماد يتم إزالة دنس الميلاد، لذلك يُعمَّد حتى الأطفال. "**إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت اللَّه**" (يو ٣: ٥)[٣].

العلامة أوريجينوس

❖ تغسلنا المعمودية من كل عيبٍ، وتجعلنا هيكل اللّه المقدس، وتردنا إلى شركة الطبيعة الإلهية بواسطة الروح القدس[٤].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ بالمعمودية المقدسة ينعتق الإنسان من سلطان إبليس ويصير مولودًا من غير نطفة مثل ناسوت المسيح، لأن الروح القدس يقدسه من ميلاد النطفة، فلا يبقى للشيطان سلطان عليه مادام روح المسيح فيه[٥].

الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين

❖ الذي يعتمد للمسيح لا يولد من اللّه فقط بل يلبس المسيح أيضًا (غل ٣: ٢٧). لا نأخذ هذا

---

[1] *On the Holy Spirit, Book 3:10:64.*

[٢] القمص تادرس يعقوب ملطي، الروح القدس عند العلامة أوريجينوس، تعريب دكتور جورج بطرس.

[٣] القمص تادرس يعقوب ملطي، الروح القدس عند العلامة أوريجينوس، تعريب دكتور جورج بطرس.

[4] *In Lucam 22:8.*

[٥] الدرر الثمين في ايضاح الدين، ١٩٥٢، ص ١٢١.

بالمعنى الأدبي، كأنه عمل من أعمال المحبة، بل هو حقيقة. فالتجسد جعل اتحادنا بالمسيح وشركتنا في الألوهة أمرًا واقعًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يربط **القديس جيروم**[2] بين الحيات المحرقة والعقارب وبين العطش حيث لا يوجد ماء، فكتب في رسالته إلى أوشانيوس *Oceanus* أحد النبلاء الرومان الغيورين على الإيمان متحدثًا عن **بركات المياه والمعمودية**، جاء فيها:

- ❖ في البدء، أثناء الخلقة، كان روح اللَّه يرف على وجه المياه كقائد مركبة (تك ١: ٢)، وأخرج منها العالم الصغير، رمزًا للطفل المسيحي الذي يُغطس في مياه المعمودية.
- ❖ إن كلمة سماء في العبرية *shamyim* تعني "الخارج من المياه".
- ❖ إن كائنات الحية السماوية التي رأها حزقيال النبي في رؤياه على رؤوسها شبه مقبب كمنظر البلور الهائل منتشر على رؤوسها (حز ١: ٢٢)، وأنها مياه مضغوطة جدًا.
- ❖ في جنة عدن وُجد نهر في وسطها له أربعة رؤوس يسقى الجنة (تك ٢: ١٠).
- ❖ في رؤيا حزقيال عن بيت الرب الجديد، رأى مياه تخرج من عتبة البيت نحو المشرق، والمياه تُشفي، وتهب حياة للأنفس الميتة (حز ٤٧: ١-٩).
- ❖ عندما سقط العالم في الخطية لم يكن ممكنًا تطهيره إلا بالطوفان، وبعد أن خرج الطائر الدنس، عادت حمامة الروح القدس إلى نوح، جاءت بعد ذلك إلى السيد المسيح في نهر الأردن، وحملت الغصن المبشر بالسلام للعالم كله في منقارها.
- ❖ غرق في مياه البحر الأحمر فرعون وجنوده الذين رفضوا السماح لشعب اللَّه أن يتركوا مصر، بهذا صار البحر رمزًا لمعموديتنا. وقد وُصف هلاك فرعون في سفر المزامير: "أنت شققت البحر بالفضائل بقوتك؛ كسرت رؤوس التنانين في المياه. أنت رضضت رؤوس لوياثان إلى قطعٍ" (مز ٧٤: ١٣-١٤ *LXX*).
- ❖ كما أن الخشبة جعلت مياه مارة حلوة، لتروي بمجاريها سبعين نخلة، هكذا جعل الصليب مياه الشريعة واهبة الحياة للسبعين رسل المسيح (خر ١٥: ٢٣-٢٧؛ لو ١٠: ١).
- ❖ حفر إبراهيم وإسحق آبارًا بينما حاول الفلسطينيون منعهما (تك ٢٦: ١٥، ١٨).

---

[1] المؤلف: اللَّه مقدسي، ص ٥٢.

[2] *St. Jerome: Letter 69:6.*

- ❖ بئر سبع، مدينة القسم (تك ٢١: ٣١) وجيحون موضع تجليس سليمان ملكًا، حملا أسميهما من الينابيع (١ مل ١: ٣٨؛ ٢ أي ٣٢: ٣٠).
- ❖ وجد أليعازر رفقة بجوار بئر (تك ٢٤: ١٥-١٦).
- ❖ راحيل إذ كانت تسحب ماء من البئر نالت قبلة هناك (تك ٢٩: ١١) بواسطة يعقوب.
- ❖ إذ كانت بنات كاهن مديان في طريقهن ليبلغن إلى البئر وكن في ضيقة، فتح موسى لهن الطريق، وخلصهن من الطاردين لهن (خر ٢: ١٦-١٧).
- ❖ سابق الرب – يوحنا المعمدان – في ساليم (أي السلام) هيأ الشعب للمسيح بينبوع ماء (يو ٣: ٢٣).
- ❖ المخلص نفسه لم يبشر بملكوت السماوات إلا بعد أن طهّر الأردن بعماده بالتغطيس (مت ٣: ١٣-١٤).
- ❖ قال لنيقوديموس بطريقة سرية: "إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت اللَّه" (يو ٣: ٥).
- ❖ كما بدأت خدمة المسيح بالماء انتهت أيضًا به، إذ ضُرب جنبه بالحربة ففاض منه دم وماء، رمزان للعماد والاستشهاد (يو ٩: ٣٤).
- ❖ بعد قيامته عندما أرسل رسله للأمم أمرهم أن يعمدوهم بسرّ الثالوث القدوس (مت ٢٨: ١٩).
- ❖ إذ تاب اليهود عن شرورهم أرسلهم بطرس ليعتمدوا (أع ٢: ٣٨).
- ❖ بولس مضطهد الكنيسة، الذئب الثائر الخارج من بنيامين (تك ٤٩: ٢٧) أحني رأسه أمام حنانيا، واحد من قطيع المسيح، ونال بصيرته فقط عندما تقبل دواء المعمودية (أع ٩: ١٧-١٨).
- ❖ بقراءة إشعياء النبي تهيأ خصي كنداكة ملك أثيوبيا لمعمودية المسيح (أع ٨: ٢٧، ٣٨).
- ❖ "صوت الرب على المياه... الرب على المياه كثيرة" (مز ٢٩: ٣، ١٠). "أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل، اللواتي كل واحدة متئم، وليس فيهن عقيم" (نش ٤: ٢).
- ❖ أشار ميخا النبي إلى نعمة المعمودية، "يعود يرحمنا، يدوس آثامنا، وتُطرح في أعماق البحر جميع خطاياكم" (مي ٧: ١٩).

"**المولود من الجسد جسد هو،**

والمولود من الروح هو روح". **[٦]**

هذا هو سرّ المعمودية، بها نلنا التبني (رو ٨: ١٥)، فصرنا أبناء الملكوت، ولنا حق الميراث.

خلالها يتم نزعنا من الزيتونة البرية وتطعيمنا في الزيتونة الجديدة (رو ١١: ٢٤) بفعل الروح القدس. بها نحمل "الحلة الأولى" (لو ١٥: ٢٢)، و"حلة العرس" (مت ٢٢: ١١–٢٣) التي بدونها لا يستطيع أحد أن يتمتع بالملكوت. هكذا تحققت نبوة حزقيال: "أعطيكم قلبًا جديدًا، وأجعل روحًا جديدًا في داخلكم، وانزع قلب الحجر من لحمكم، وأعطيكم قلب لحم، وأجعل روحي في داخلكم" (حز ٣٦: ٢٦).

إذ أعلن نيقوديموس عن رغبته في إدراك ما يبدو له مستحيلاً، كشف له السيد مفهوم الميلاد الجديد. إنه ليس ميلادًا جسديًا يتحقق بالدخول من جديد في رحم الأم، وإنما هو ميلاد روحي يتحقق بعمل روح الله القدوس القدير، خلاله يتم التقديس بالروح (١ بط ١: ٢) والغسل الداخلي للنفس بالروح (تي ٣: ٥).

إننا جسد، ليس فقط من جهة العنصر الجسداني، وإنما لأن الفساد حلّ به (تك ٦: ٣)، وإذ تلتحم النفس بالجسد صارت النفس أسيرة الإرادة الجسدية الشهوانية، تجد مسرتها في الشهوات، حتى صار الإنسان ككل كأنه جسداني. فأي اتحاد بين الجسداني والله الذي هو روح. هذا ما استلزم الميلاد الجديد لكي يحمل الإنسان ككل سمة الروح، فيجد الجسد لذته ومسرته في الروح لا في شهوات الجسد.

هذا هو العلاج العملي للإنسان الذي أفسدته شهوات الجسد. هذا العلاج يقدمه ابن الله الوحيد بكونه واهب الشريعة العظيم ووسيط العهد الجديد وطبيب النفوس، هو وحده يعرف العلاج الحقيقي.

إنه الكرام الإلهي الذي يعلم أن كل شجرة تقدم ثمارًا حسب بذرتها، فمن يُولد روحيًا يحمل فيه ملكوتًا روحيًا مقدسًا لائقًا بالله.

❖ يستخدم الماء ليتحقق الميلاد للمولود، كما الرحم بالنسبة للجنين، هكذا الماء بالنسبة للمؤمن. فإنه في الماء يتشكل ويأخذ هيئته. في البداية قيل: "لتخرج المياه الزحافات الحية" (تك ١: ٢٠)؛ لكن منذ دخل الرب مجاري الأردن لم تعد بعد تخرج المياه "زحافات حية" بل نفوسًا عاقلة حاملة الروح، "كعروس خارجة من خدرها" (مز ١٨: ٦). الآن نتحدث عن المؤمنين إذ يبعثون أكثر بهاء منه (من المولود بالجسد). فمن يتشكل في الرحم يحتاج إلى زمن، لكن الأمر غير ذلك في الماء، فكل شيءٍ يتم في لحظة واحدة. هنا حياتنا قابلة للموت، تأخذ أصلها من فساد الأجساد الأخرى، فتتم الولادة ببطء، لكن الأمر ليس هكذا في الروحيات. لماذا؟ لأن الأمور تتشكل كاملة

من البداية[1].

❖ إذ سمع نيقوديموس ذلك اضطرب، انظروا كيف فتح المسيح أمامه خفايا هذا السرّ تدريجيًا، وجعله أكثر وضوحًا، إذ كان منذ لحظات غامضًا. قال: "**المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح**" [٦]. لقد قاده بعيدًا عن كل المحسوسات ولم يسمح له أن يتفحص الأسرار المعلنة باطلاً بعينيه الجسديتين. يقول: "إننا لسنا نتحدث عن الجسد، بل عن الروح يا نيقوديموس (بهذه الكلمات قاده نحو السماويات إلى حين)، لا تطلب أمرًا يخص أمور الحواس، فإن الروح لن يظهر مطلقًا لهذه الأعين، لا تظن أن الروح يلد جسدًا. ربما يسأل أحد: كيف إذن ولد جسد الرب؟ ليس من الروح وحده بل من الجسد، وكما يعلن بولس: "من امرأة مولودًا تحت الناموس" (غلا ٤: ٤) فإن الروح شكَّله بالحق ليس من عدم (وإلا فما الحاجة إذن إلى الرحم؟)، وإنما شكله من جسم بتولي...

"**المولود من الروح هو روح**" بمعنى "من يولد من الروحي روحي". فالميلاد الذي يتحدث عنه هنا ليس حسب الجوهر بل حسب الكرامة والنعمة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ما هو قوي فحتمًا يسود على ما هو ضعيف. يُبتلع ضعف الجسد بقوة الروح، مثل هذا لا يعود بعد يكون جسديًا، بل يصير روحيًا بسبب شركة الروح.

هكذا يحمل الشهداء شهادة محتقرين الموت، ليس حسب ضعف الجسد، وإنما حسب استعداد الروح. لأن ضعف الجسد يُبتلع بهذه الكيفية تاركًا لقوة الروح أن تشرق.

فالروح من جانبه إذ يمتص الضعف يملك فيه الجسد كميراثٍ له. بهذين الأمرين يتشكل الإنسان الحيّ، فهو حيّ لأنه يشترك بالروح ولكنه إنسان من أجل مادة الجسد[3].

القديس إيريناؤس

"لا تتعجب إني قلت لك: ينبغي أن تولدوا من فوق". [٧]

"الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها،

لكنك لا تعلم من أين تأتي، ولا إلى أين تذهب،

---

[1] *Homilies on St. John, 26:1.*
[2] *Homilies on St. John, 26:1.*
[3] *Adv. Haer. 5:9:2.*

هكذا كل من وُلد من الروح". [٨]

كما أنه لا سلطان للإنسان على الريح الذي يهب ونشعر به دون أن نعرف أين يبدأ تمامًا ولا إلى أين ينتهي، هكذا الولادة بالروح لها قوتها وفاعليتها. هي عطية مجانية من قبل الله، لا سلطان لنا عليها، يوجهها الله، وهي تتمم كلمته (مز ١٤٨: ٨).

عمل الروح في المعمودية كالريح القوية التي تظهر من فاعليتها وآثارها. يعمل خفية سرائريًا، لكن أثره واضح في حياة المؤمن يتلامس معه كل النهار. "كما أنك لا تعلم طريق الريح.. كذلك لا تعلم أعمال الله الذي يصنع الجميع" (جا ١١: ٥)

❖ إذ تكلم المخلص نفسه إلى تلاميذه في الهيكل قال: "قوموا ننطلق من ههنا"، وقال لليهود: "هوذا بيتكم يترك لكم خرابًا" (مت ٢٣: ٣٨). إن كانت السماء والأرض تزولان (لو ٢١: ٣٣) فواضح أن كل الأشياء الأرضية حتمًا ستزول[1].

القديس جيروم

❖ بقوله "**لا تتعجب**" أظهر اضطراب نفس نيقوديموس، وقاده إلى أمر أخف من الجسد. لقد قاده بالفعل بعيدًا عن الجسديات بقوله "**المولود من الروح هو روح**"، وإذ لم يعرف نيقوديموس معنى ما هو هذا الذي يولد من الروح وهو روح قدم له بعد ذلك مثلا آخر، فلم يأتِ به إلى كثافة الأجسام، ولا تحدث عن أمور خالية من الأجسام تمامًا (لأنه لو سمع ذلك لما قبله)، إنما وجد شيئًا في الوسط ما بين الجسم وما هو خالٍ من الجسم، "**حركة الريح**". قال: "**الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب**" [٨]. يقول إن كانت الريح تهب حيث ما يلائمها لا يقول هذا كما لو كان للريح قوة الاختيار، إنما يعلن عن حركتها الطبيعية التي لا يمكن مقاومتها، وهي بذات قوة... تنتشر في كل موضع وليس من يصدها ولا من يعوقها في عبورها من هنا إلى هناك، إنما تعبر بقوةٍ عظيمةٍ، وليس من يقف أمام عنفها. "**وتسمع صوتها**" [٨]، أي حفيفها وضجيجها، "**لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كل من ولد من الروح**" [٨]. هنا النتيجة النهائية لكل الأمر: يقول: "إن كنت لا تعرف كيف تفسر حركة هذه الريح وعبورها، التي تدركها بالسمع واللمس، كيف ترتبك جدًا أمام عمل الروح الإلهي، وأنت لا تفهم هذا عن الريح مع أنك تسمع صوتها؟[2]

---

[1] *Letter 58:3.*
[2] *Homilies on St. John, 26:1.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أجاب نيقوديموس، وقال له:

كيف يمكن أن يكون هذا؟" [٩]

في حيرة يقف معلم إسرائيل متسائلاً: "**كيف يمكن أن يكون هذا؟**" لم يستطع بإدراكه المادي أن يتعرف على الأمور الروحية التي تبدو للإنسان الطبيعي كأنها جهالة. لم يستطع بالحكمة البشرية أن يعرف ما هو إلهي. لقد أوضح له السيد بما فيه الكفاية أن هذه الولادة الجديدة روحية سماوية من اختصاص روح الله القدوس، لا تخضع لقوانين الطبيعة ومنطق البشر المجرد، هي من اختصاص الله وحده الفائق القدرة.

"أجاب يسوع وقال له:

أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا؟" [١٠]

كأن السيد المسيح يوبخه قائلاً له: كيف وضعت على عاتقك أن تقود العميان إلى الحق وأنت لا تعرف الحق؟ تدعو الذين يقبلون اليهودية أن يعتمدوا بالماء كرمز للميلاد الجديد وأنت نفسك لم تتمتع بالميلاد الجديد ولا تعرفت عليه. ألم يقرأ نيقوديموس عن عمل روح الرب في حياة الناس، كما حدث في مسح شاول ملكا؟ "يحل عليك روح الرب، فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر... وكان عندما أدار كتفه لكي يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه قلبًا آخر، وأتت جميع هذه الآيات في ذلك اليوم" (١ صم ١٠: ٦، ٩). وأيضا الوعد الإلهي في الأنبياء: "وأجعل في داخلكم روحًا جديدًا، وأنزع قلب الحجر من لحمهم، وأعطيهم قلب لحم" (حز ١١: ١٩)، "أجعل روحي فيكم فتحيون" (حز ٣٧: ١٤). "هل أنا أفحص ولا أولد يقول الرب؟" (إش ٦٦: ٩) "ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي علي كل بشر" (يؤ ٢: ٢٨).

❖ ماذا أيها الإخوة؟ أتظنون أن الرب يود أن يوبخ معلم اليهود هذا مسخّفًا به؟ لقد علم الرب ما كان يفعله، فقد أراد من هذا الرجل أن يولد من الروح. لا يولد أحد من الروح إن لم يتواضع، لأن التواضع نفسه يجعلنا نولد من الروح، "لأن الرب قريب من منكسرين القلوب" (مز ٣٤: ١٨). كان الرجل منتفخًا بكونه معلمًا؛ هذا يظهر من شعوره بأهميته كمعلمٍ لليهود. لقد أنزل يسوع كبرياءه لكي ما يولد من الروح. لقد وبّخه كشخصٍ غير متعلمٍ، لا لكي يظهر الرب كسيد عليه. فإنه أي

وجه للمقارنة بين اللَّه والإنسان، وبين الحق والباطل؟[1]

القديس أغسطينوس

❖ يتحدث المسيح معه هنا موبخًا إياه... لاحظوا إنه لم يتهمه قط بالشر، وإنما بالضعف والسذاجة.

ربما يسأل أحد: وما ارتباط الميلاد (الروحي) باليهوديات؟

لقد **أعلن عن الميلاد مقدمًا خلال الرمز** وعن التطهير الحادث منه، وذلك في الينبوع حيث جعل أليشع الأداة الحديدية تطفو، والبحر الأحمر حيث عبره اليهود، والبركة التي كان الملاك يحرك ماءها، ونعمان السرياني الذي طهر (من البرص) في نهر الأردن.

كما أشارت كلمات النبي إلي وسيله هذا الميلاد مثل: "يخبر عن الرب الجيل الآتي، يأتون ويخرون ببره شعبًا سيولد يصنعه الرب" (مز ٢٢: ٣٠؛ ٣٠: ٣١)، "يجدد مثل النسر شبابك" (مز ١٠٣: ٥)...

كان إسحق أيضا رمزًا لهذا الميلاد.

اخبرني يا نيقوديموس، كيف ولد؟ هل ولد حسب قوانين الطبيعة؟ مستحيل، طريقة ميلاده كانت في المنتصف بين الميلاد الذي نتحدث عنه والميلاد الطبيعي.

كان ميلادًا طبيعيًا لأنه نتيجة تعايش زوجي، والميلاد الآخر لأنه لم يولد خلال الدماء (إذ كانت الأم عاقرًا والأب شيخًا مسنًا) وإنما حسب مشيئة الله[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم،**

ونشهد بما رأينا،

ولستم تقبلون شهادتنا". **[١١]**

هنا يتحدث السيد المسيح بصيغه الجمع، لعله يقصد أن ما ينطق به إنما باسم الثالوث القدوس الذي يشتهي ميلاد البشرية الجديد ليتمتع كل مؤمن بالشركة مع الثالوث. إذ يصعب على الإنسان الطبيعي إدراك هذا الميلاد الروحي الجديد، يقدم السيد المسيح شهادته هو والآب عن رؤيتهما لهذا الميلاد الفوقاني العجيب خلال عمل الروح القدس في مياه المعمودية.

"**إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون،**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 12:6.*
[2] *Homilies on St. John, 26:2.*

فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات؟" [١٢]

يقصد **بالأرضيات** الحديث عن الريح التي تهب حيث تشاء ونسمع صوتها، ولكننا لا نعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. [٨]، كما أيضًا يقصد بها "نقض هيكل جسده" (٢: ١٩)، أما السماويات فهي الميلاد بالروح وقيامة المسيح وصعوده إلى السماء.

المعمودية هي ميلاد روحي يتم على الأرض لكي يبدأ المؤمن رحلته إلى السماء خلال اتحاده بالمسيح الذي صعد إلى السماء. فمن لا يقدر أن يقبل الميلاد الروحي كيف يمكنه أن يصعد بقلبه إلى السماء؟

إنهم كجسديين لم يستطيعوا أن يقبلوا الميلاد الجديد من الماء والروح، وهذه بداية انطلاقة الإنسان بقلبه وفكره وكل أعماقه نحو السماء. إنهم لم يقبلوا بعد بدء هذه الرحلة السماوية فكيف يصعدون مع السيد المسيح إلى سماواته، بالتناول من جسد الرب ودمه والتعرف علي أسرار الثالوث القدوس وعمله في المؤمن، والشركة مع السمائيين؟

❖ يرى البعض أن تعبير "**الأرضيات**" مُستخدم بخصوص الريح، بمعنى "إن كنت قدمت لكم مثلا من الأرضيات ولم تصدقوا حتى هذا، فكيف يمكنكم أن تتعلموا العلويات؟

لا تتعجبوا إن دعا المعمودية هنا أمرًا أرضيًا، فقد دعاها هكذا إما لأنها تتم على الأرض، أو بالمقارنة بميلاده الكلي المهابة. فمع أن هذا الميلاد الذي لنا هو سماوي، لكن بالمقارنة بالميلاد الحقيقي الذي في ذات الآب، يحسب أرضيًا. لم يقل: "لم تفهموا" بل قال "**لستم تؤمنون**"، لأنه عندما يكون شخص ما ميال إلى سوء النية من جهة أمور معينة يمكن إدراكها بالعقل وغير مستعد لقبولها بحق يمكن اتهامه أنه خالٍ من الفهم، ولكن عندما لا يتقبل أمورًا لا يمكن فهمها بالعقل بل بالإيمان وحده، الاتهام الموجه ضده هو أنه خال لا من الفهم بل من الإيمان[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء،

ابن الإنسان الذي هو في السماء". [١٣]

ربما يشير هنا إلى مفهوم خاطئ لدى بعض اليهود وهو أن موسى صعد إلى السماء حيث استلم الناموس ونزل به إلى إسرائيل. يصحح السيد مفهومهم مؤكدًا أنه ليس أحد يصعد إلى السماء إلاَّ ابن الإنسان الذي نزل من السماء، وبقي بلاهوته يملأ السماء. هو وحده يقدر أن يكشف عن الأسرار

[1] *Homilies on St. John, 27:1.*

السماوية، ويحمل المؤمنين إلى السماء، ويقدم لهم إرادة الآب.

لقد تحدث نيقوديموس مع السيد بكونه نبيًا من عند الله، فكان يليق به أن يدرك أن السيد أعظم من نبي، بتجسده نزل من السماء، وبلاهوته قائم في السماء. إنه الرب من السماء (١ كو ١٥: ٤٧).

❖ إن قلت وأية صلة بين هذا الكلام وما قبله؟! أجبتك: إنه متصل بالأقوال التي قبلها اتصالاً وثيقًا جدًا، لأنه إذ قال نيقوديموس للمسيح: "**يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلمًا**"، تلافى ربنا هذا القول بعينه، فقارب أن يقول له: لا تظن إننى أوجد على هذا المثال معلمًا مثل الكثيرين من الأنبياء الموجودين من الأرض، لكنني قد أتيت من السماء وأنا مقيم هناك أيضًا.

أعرفت كيف أن المسيح ليس هو في السماء فقط، لكنه حاضر في كل مكان مالئ خلائقه كلها؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نزل من أجلنا، لنصعد نحن من أجله. هو وحده نزل وصعد، ذاك الذي يقول: "**ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء**". ألا يصعد هؤلاء الذين جعلهم أبناء اللَّه إلى السماء؟ بالتأكيد يصعدون، هذا هو الوعد المقدم لنا: "سيكونون كملائكة اللَّه". إذن كيف لا يصعد أحد إلا الذي نزل؟ لأنه واحد فقط هو الذي نزل، وواحد هو الذي يصعد. وماذا عن البقية؟... رجاء البقية هو هذا، إنه **نزل لكي ما فيه وبه يصيرون واحدًا، هؤلاء الذين يلزم صعودهم به**... هذا يظهر وحدة الكنيسة. ويل للذين يبغضون الوحدة، ويجعلون من أنفسهم أحزابًا من البشر![1]

❖ يليق بنا أن نرحل، لكن هذه الرحلة لا تحتاج إلى دهن الأقدام (للسير بها)، ولا إلى طلب حيوان (نركبه) ولا إلى سفينة.

ليتك تجري بعاطفة القلب، لتسير في الرحلة في رفقة الحب، لتصعد بالمحبة.

لماذا تبحث عن الطريق؟ التصق بالمسيح الذي بنزوله جعل من نفسه "الطريق".

أتريد أن تصعد؟ تمسك بذاك الذي يصعد. بذاتك لن تقدر أن ترتفع... إن كان لا يصعد أحد إلاَّ الذي نزل، أي ابن الإنسان، ربنا يسوع المسيح، فهل تريد أن تصعد أنت أيضًا؟

كن عضوًا في ذاك الذي وحده يصعد. لا يصعد إلاَّ الذي يكون عضوًا في جسده، فيتحقق القول: "**لا يقدر أحد أن يصعد إلاَّ الذي نزل**"...

لقد ترك أباه وأمه والتصق بزوجته لكي يصير الاثنين واحدًا (أف ٥: ٣١). لقد ترك أباه لا لكي

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 12:8-9.*

يظهر نفسه مساويًا للآب، وإنما لكي يخلي نفسه آخذًا شكل العبد (في ٢: ٧).

لقد ترك أمه أيضًا، المجمع الذي منه وُلد حسب الجسد. لقد التصق بزوجته التي هي كنيسته.

الآن في الموضع الذي في المسيح نفسه هذه الشهادة، لقد أظهر أن رباط الزواج لا ينحل (مت ١٩: ٤)... "ليسوا بعد اثنين بل جسد واحد"، هكذا "**لا يصعد أحد إلاَّ الذي نزل**".

لكي تعرفوا أن العريس والعروس هما واحد حسب جسد المسيح، وليس حسب لاهوته... لكي تعرفوا أن **هذا الكامل هو مسيح واحد**، قال بإشعياء: "وضع عمامة عليَّ كعريسٍ، وكساني بالزينة كعروسٍ" (إش ٦١: ١٠ *LXX*)[1].

القديس أغسطينوس

٢. الميلاد الجديد وذبيحة الصليب

"وكما رفع موسى الحية في البرية،

هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان". [١٤]

يقدم لنا غاية نزوله من السماء، أن يرتفع على الصليب ليقدم الخلاص للبشرية.

آخر معجزة صنعها موسى النبي قبل نياحته هي رفع الحية النحاسية في البرية لشفاء الشعب من لدغات الحيات (عد ٢١: ٦-٩). هكذا بالصليب يخلصنا من لعنة الناموس الذي كسرناه فصارت كلدغات الحيات النارية القاتلة. هذا هو البلسان الذي في جلعاد الشافي من الأمراض القاتلة (إر ٨: ٢٢، ٤٦: ١١).

رُمز للسيد المسيح المصلوب بالحية النحاسية التي تحمل شكل الحية النارية القاتلة، لكنها لا تحمل سمها، بل تشفي من السم. هكذا حمل سيدنا شبه جسد الخطية، لكنه بلا خطية، لكي إذ صار خطية لأجلنا يكسر شوكة الخطية عنا.

إذ صارت الحية تحت اللعنة، صار المسيح لعنة من أجلنا لكي يحررنا من دائرة اللعنة ويدخل بنا إلى عرش مجده. رفعت الحية النحاسية بواسطة موسى النبي، وخضع السيد المسيح للناموس وشهد موسى له.

للعلامة أوريجينوس تعليق رائع بخصوص الصليب، فيرى فيه حقيقتان: الأولى ظاهرة وهي أن يسوع المسيح في حبه للبشرية وطاعته للآب رُفع على الصليب بإرادته. والثانية خفية أن الذي صلب وفقد حركته وسلطانه هو إبليس، إذ سُمر الصك الذي علينا بالصليب، وتجردت الرئاسات والسلاطين

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 41:7-8.*

من سلطانهم وشُهر بهم في هزيمة مرة (كو ٢: ١٤–١٥). فالحية التي رُفعت من جانب تمثل السيد المسيح حامل خطايانا ومن جانب آخر تمثل الحية القديمة التي سمرها السيد المسيح بصليبه وجردها من سلطانها على المؤمنين.

❖ هذا هو الرمز الأصلي، الحية التي رفعها موسى على صليب لكي يُشفى كل من لدغته حية، فبالنظر إلى الحية النحاسية يُشفى المؤمن بالإيمان (عد ٢١: ٩؛ يو ٣: ١٤). فهل تشفي الحية النحاسية بصلبها، وابن اللَّه المتجسد المصلوب لا يُخلص؟!

على أي الأحوال كانت الحياة تأتي من وسائط خشبية، ففي زمان نوح كانت الحياة تُحفظ في فلك خشبي. وفي أيام موسي كان عبور البحر بواسطة عصا موسي الخشبية التي ضرب بها البحر. فهل لعصا موسي قوة، وصليب المخلص بلا قوة؟! بالخشبة في أيام موسى صار الماء حلوًا، أما مع يسوع فقد تدفقت على خشبة الصليب المياه "من جنبه"[1].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ لعلك تسأل: لأي غرض لم يقل المسيح بوضوحٍ إنني سوف أُصلب، لكنه حثّ سامعيه إلى رمزٍ قديمٍ (الحية)؟ نقول لك: أولاً لتعرف أن أقوال العهد القديم متفقة مع الجديد، وأن تلك ليست غريبة عن هذه. ثانيًا: لتعرف أن المسيح لم يأتِ إلى العالم كارهًا. بجانب هذين السببين لكي تعرف أنه لم تصب السيد أذية من حقيقة (الآلام) هذه، وأن هذه الآلام بالنسبة لكثيرين تصدر عن الخلاص. حتى لا يقول أحد: كيف يمكن للذين يؤمنون بالمصلوب أن يخلصوا إن كان هو نفسه قد أمسك به الموت؟ لهذا يقودنا إلى القصة القديمة. فإن كان اليهود بتطلعهم إلى صورة نحاسية للحية هربوا من الموت، كم بالأكثر الذين يؤمنون بالمصلوب يتمتعون بسبب حسن بمنافع أعظم. فالصلب لا يتم خلال ضعف المصلوب أو لأن اليهود أقوى منه، بل لأن "**الله أحب العالم**" [١٦]، لهذا فإن هيكله الحي (جسده) قد أسرع نحو الصليب[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ما هي الحيات التي تلدغ؟ الخطايا الصادرة عن موت الجسد.

ما هي الحيّة التي رُفعت؟ موت الرب على الصليب. كما جاء الموت بالحيّة، رُمز له بصورة

---

[1] مقال ١٣: ٢٠.

[2] *Homilies on St. John, 27:2.*

حيّة.

لدغة الحيّة مميتة، وموت الرب محيي. إذ ينظر إلى حيّة تفقد الحيّة سلطانها. ما هذا؟ إذ ينظر إلى الموت، يفقد الموت سلطانه. ولكن موت من؟ موت الحياة...

بموت المسيح (الحياة) مات الموت.

موت الحياة ذبح الموت، ملء الحياة ابتلعت الموت.

انحل الموت في جسم المسيح.

لذلك نقول في القيامة إذ يتغنى المنتصرون: "أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟ أين شوكتك يا موت؟" (١ كو ١٥: ٥٤)...

يوجد فارق بين الصورة الرمزية والشيء الحقيقي، الرمز يبعث حياة وقتية، والحقيقة التي لها الرمز تبعث حياة أبدية[1].

❖ لكي يقدم رمزًا لصليبه رفع موسى بأمر اللَّه الرحيم صورة حية على عمودٍ في البرية، في شبه الجسد الخاطي الذي يلزم أن يُصلب في المسيح مرموزًا إليه (يو ٣: ١٤). بالنظر إلى هذا الصليب الذي تعمَّد المرتل أن يتطلع إليه ويقول: "**عيناي قد ذبلتا من انتظار خلاصك، وقول برك**" (مز ١١٩: ١٢٣)، لأنه جعل المسيح نفسه "خطية لأجلنا، وذلك على شبه الجسد الخاطي، لكي نصير برّ اللَّه فيه" (رو ٨: ٣؛ ٢ كو ٥: ٢١).

من أجل النطق ببرّ اللَّه يقول أن عينيه قد ذبلتا من النظر بغيرةٍ وحماسٍ، بينما يتذكر الضعف البشري، متطلعًا إلى النعمة الإلهية في المسيح.

القديس أغسطينوس

❖ حيتي حية صالحة، لا يخرج من فمها سم، بل الدواء الشافي.

القديس أمبروسيوس

❖ لم يكن المخلص هو الحية، لكنه كان يمثلها.

العلامة أوريجينوس

❖ يوضح لنا الناموس أن المنظور على الصليب كان على شبه الحية، لكنه لم يكن حية. وكما يقول بولس الرسول: " في شبه جسد الخطية" (رو ٨: ٣)، لأن الحية الحقيقية هي الخطية، ومن يلجأ

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 12:11.*

للخطية يأخذ طبيعة الحية. فقد أخلى الإنسان من الخطية بواسطة ذاك الذي أخذ شكل الخطية[1].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ كانت الحية تمثل المسيح، فاليهود حين عاملوا المسيح كأنه حية أصابهم سم الحية، أي الشيطان، وحينئذٍ جاء الشفاء للذين عضتهم الحية حين رُفعت الحية.

القديس أبيفانيوس أسقف سلاميس

"لكي لا يهلك كل من يؤمن به،
بل تكون له الحياة الأبدية". [١٥]

❖ أرأيت علة الصليب والخلاص الصائر منه؟ أرأيت مناسبة الرمز للحق؟ هناك انفلت اليهود من موتهم، وهنا يخلص المؤمنون بالمسيح من الموت الأبدي. هناك حية معلقة شفت لدغات الحيات، وهنا شفى يسوع المصلوب جراحات التنين العقلي. ذاك شفى الناظر **بعينيه الحسية** إلى الحية، وهنا **يطرح** الناظر إلى المصلوب كافة خطاياه. هناك كان المعلق نحاسًا بشكل حية وهنا المعلق هو جسد السيد المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"لأنه هكذا أحب اللَّه العالم،
حتى بذل ابنه الوحيد،
لكي لا يهلك كل من يؤمن به،
بل تكون له الحياة الأبدية". [١٦]

ركز هذا السفر على مجد الصليب حيث عليه يُرفع ابن الإنسان لكي يجتذب الجميع ويخلصهم، وقد تكرر ذلك أربع مرات (٨: ٢٨؛ ١٢: ٣٢-٣٤). الحب الإلهي هو العنصر الديناميكي الدائم الحركة لتمتع العالم بالخلاص.

في حديث **القديس أمبروسيوس** عن التوبة يوجه أنظارنا إلى أنه بالإيمان يتمتع الإنسان بالحياة الأبدية، فكيف نكف عن الصلاة من أجل غير المؤمنين، حتى يتمتعون بعطية الإيمان الإلهية فينالوا الحياة الأبدية[2]؟

❖ كأن المسيح يقول: لا تتعجب إنني سأُرفع على الصليب لتخلصوا أنتم، فإن هذا الرأي رأي الآب

---

[1] *Vita Moysis. PG 44:413, 315.*
[2] *Concerning Repentance, 1:10:48.*

الذي قد أحبكم هذا الحب حتى بذل ابنه عن عبيده، على أنه ما كان أحدكم يعمل هذا العمل من أجل صديقه، ولا من أجل إنسانٍ بارٍ. وهذا المعنى قد أوضحه بولس فقال: "فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بارٍ، ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضًا أن يموت، ولكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا " (رو ٥: ٧-٨).

إن قلت فمن أية جهة أحب الله العالم؟ أجبتك: لم يحبه من جهة أخرى إلا من جهة صلاحه وحده.

القديس يوحنا الذهبي الفم

بتعبير"**هكذا أحب**" والتعبير الآخر "**الله العالم**" يظهر عظمة قوة حبه. الفاصل بين الاثنين عظيم وغير محدود. هو الخالد ذاك الذي بلا بداية، صاحب الجلالة غير المحدود. وأما هم فتراب ورماد، إنهم مشحونون بربوات الخطايا، جاحدون، عاصون له على الدوام، هؤلاء قد أحبهم! مرة أخرى الكلمات التي أضافها بعد ذلك تحمل معنى متشابهًا، إذ يقول: "**بذل ابنه الوحيد**"، وليس خادمًا، ولا ملاكًا ولا رئيس ملائكة. لا يظهر أحد اهتمامًا بابنه كما يظهر الله نحو عبيده الجاحدين.

"**لأنه لم يرسل اللَّه ابنه إلى العالم ليدين العالم،**

بل ليخلص به العالم". **[١٧]**

على الصليب قدم السيد المسيح الخلاص علانية أمام العالم كله. "قد شمر الرب عن ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم، فترى كل أطراف الأرض خلاص إلهنا" (إش ٥٢: ١٠)

سبق فأعلن الجانب السلبي أن من يؤمن به لا يهلك، وألحقه بالجانب الإيجابي "له الحياة الأبدية". هنا أيضًا من الجانب السلبي "**لا يدين**" والإيجابي "**يخلصه**". أما قول السيد " "**ليخلص به العالم**"، فكانت ليست فقط جديدة على مسامع اليهود من قادة وشعب، بل ومعثرة لهم. فقد فسر المعلمون نبوات العهد القديم الخاصة بالمسيا المنتظر أنه يقيم ردم خيمة داود، ويرد الملك والعظمة والمجد لبني إسرائيل، ليدين الأمم ويسحق الشعوب الأخرى. أما أن يخلص العالم فهذا ما لم يكن ممكنًا للعقلية اليهودية أن تقبله بأي شكل من الأشكال.

❖ قبل مجيئه وُجد ناموس الطبيعة والأنبياء بالإضافة إلى الناموس المكتوب والتعاليم وربوات الوعود وإعلانات الآباء والتأديبات والعقوبات وعلامات أخرى كثيرة وُضعت لكي نسلك حسنًا. يتبع هذا كله أنه يطلب حسابات عن هذه. ولكنه إذ يحب البشرية فإلى حدٍ بعيدٍ يغفر عِوَض أن يفحص،

إذ يفعل ذلك لأجل الذين أسرعوا نحو الهلاك[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هو لا يدين، فهل تدين أنت؟

إنه يقول: "من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة" (يو ١٢: ٤٧)، أي أنه إن كان في الظلمة لا يبقى فيها، بل يصلح خطأه ويصحح نقائصه، ويحفظ وصاياي، إذ قلت: "لا أشاء موت الشرير بل إصلاحه" (راجع حز ٢٣: ١١). لقد قلت أن من يؤمن بي لا يُدان، وأنا أحقق ذلك لأني لم آتِ لكي أدين العالم بل أن يخلص العالم بي [١٧]. أود أن أعفو بسرعة، أغفر. "أريد رحمة لا ذبيحة" (هو ٦: ٦)... "ما جئت لأدعو أبرارًا بل خطاة" (مت ٩: ١٣). الذبيحة هي تحت الناموس، والرحمة في الإنجيل. "الناموس بموسى أُعطيَ، وأما النعمة فهي بي" (راجع يو ١: ١٧)[2].

القديس أمبروسيوس

٣. الاستنارة والإيمان

"الذي يؤمن به لا يدان،

والذي لا يؤمن قد دين،

لأنه لم يؤمن باسم ابن اللَّه الوحيد". [١٨]

الإيمان بالسيد المسيح ليس عقيدة نظرية مجردة، بل اتحاد عملي معه وشركة، فمن يختفي فيه ويثبت حتمًا يُعتق من دائرة الدينونة. "إذا لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" (رو ٨: ١). وقد أكد السيد مرة أخري: "الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة" (يو ٥: ٢٤).

❖ لعللك تقول: إن كان المسيح ما جاء بهذا الغرض أن يدين العالم، فكيف حكم على من لا يؤمن به مقدمًا إن كان وقت المحاكمة لم يأتِ بعد؟ نجيبك: لعل المسيح يتقدم فيذيع ما سيكون مستقبلاً. فكما أن القاتل وإن كان لا يُحكم عليه بطبيعة القاضي، فإنه يُحكم عليه بطبيعة فعله، كذلك من لا يكون مؤمنًا يُحكم عليه بطبيعة إنكاره وكفره. فقد مات آدم في اليوم الذي أكل فيه من الشجرة،

---

[1] *Hom. 28. PG 29: 195.*

[2] *Concerning Repentance, Book 1:12:54.*

لأن القضية قضت عليه هذا الحكم: "وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت" (تك ٢: ١٧). على أن آدم عاش فكيف مات؟ نقول: إنه مات بالقضية الحاكمة عليه وبطبيعة ممارسته للمعصية، لأن من قد جعل ذاته مُطالبًا بالعقوبة فهو تحت العقوبة وإن لم يُعاقب بالفعل سريعًا لكنه قد عوقب بالقضية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وهذه هي الدينونة:**

أن النور قد جاء إلى العالم،

وأحب الناس الظلمة أكثر من النور،

لأن أعمالهم كانت شريرة". **[١٩]**

هنا يشير إلى اللصوص وقطاع الطرق، غالبًا ما يمارسوا شرهم في الظلام بالليل. فقد وهب الله الإنسان الشمس لكي تنير، فيعمل الإنسان نهارًا ويستريح ليلاً. أما الذي يختار أن ينام نهارًا لكي يمارس شره ليلاً، فإنه مستحق للعقوبة ككاسرٍ لناموس إلهي.

إنجيل المسيح نور، إذ جاء إلى العالم، أشرق عليه ليعطي البشرية بهجة للعمل لحساب ملكوت الله. وفي نفس الوقت أوجب القضاء العادل على السالكين في الظلمة، مبغضي النور الحقيقي. بمعنى آخر تجسد الكلمة، وحلول النور الحقيقي بيننا فرز محبي النور من عاشقي الظلمة، وبدأ روح القضاء يعمل. لذلك قيل: "رئيس هذا العالم قد دين" (يو ١٦: ١١)، " الآن دينونة هذا العالم، الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجا" (يو ١٢: ٣١).

"**لأن أعمالهم شريرة**"، إذ يصممون على السلوك في الظلمة والالتصاق بإبليس ورفض "**النور**" مخلص العالم.

❖ كأن المسيح يقول: لو كنت جئت إلى العالم لأعاقب، مطالبًا بحجج عن الأعمال التي عملها الناس، لكان لهم أن يقولوا إننا لهذا السبب ابتعدنا عنه هاربين. لكنني جئت لأريحهم من الظلام، ولهذا السبب يُعاقبون، لأنهم لم يريدوا أن يتركوا الظلام ويأتوا إلى النور، هذا يبعدهم عن تقديم أي عذر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور،**

ولا يأتي إلى النور،

لئلا تُوبخ أعماله". [٢٠]

يحب الأشرار الظلمة، لأنها أفضل لممارسة شرهم، ويبغضون النور لأنه يفضحهم. الإنجيل مرعب بالنسبة للعالم الشرير، الذي يتطلع إليه كعدوٍ يفضحه ويبكته. من يمارس العادات السيئة لا يطيق النور فيرتمي في الظلمة عوض أن يعترف بها ويطلب النور. "لأن الأمور الحادثة منهم سرًا ذكرها أيضًا قبيح، ولكن الكل إذا توبخ يظهر بالنور، لأن كل ما أظهر فهو نور. لذلك يقول استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضيء لك المسيح" (أف ٥: ١٢-١٤).

يوجد اختلاف بين الذين يدركون اللوغوس (كلمة اللَّه)، فالبعض يدركه مصباحًا والآخرون يدركونه نورًا... العذارى الجاهلات كان لهن مصابيح منطفئة (مت ٢٥: ٢)، "لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور، ولا يأتي إلى النور، لئلا توبخ أعماله" (يو ٣: ٢٠). كذلك يوبخ يسوع الذين لا ينتفعون دائمًا من النور، الذي معهم إلى ساعة أو لحظة (يو ٥: ٣٥) عند استخدامهم هذا السراج. يقول ربنا يسوع: "كان هو السراج الموقد المنير، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة" (يو ٥: ٣٥).

❖ اجروا يا إخوتي لئلا تمسك بكم الظلمة. تيقظوا لخلاصكم، تيقظوا ما دام يوجد وقت... تيقظوا مادام الوقت نهار، النهار يشرق، المسيح هو النهار. إنه مستعد أن يغفر الخطايا، ولكن للذين يعرفونها. إنه مستعد أن يعاقب المدافعين عن أنفسهم والمفتخرين بأنهم أبرار، الذين يظنون أنهم شيء وهم لا شيء[1].

القديس أغسطينوس

❖ إذ جاء المسيح، لا لينقض الناموس والأنبياء، بل ليكمله (مت ٥: ١٧)، أرانا ما هو الفصح الحقيقي، "العبور" الحقيقي من مصر. جاء في العبارة أنه يكون بداية الشهور، عندما يحل الشهر الذي حدث فيه العبور. كما أنه أيضا بداية ميلاد آخر. إذ تبدأ طريقة **حياة جديدة بالنسبة لمن يترك خلفه الظلام، ويأتي إلى النور** (يو ٣: ٢٠-٢١)، متكلمين بأسلوب يليق بالسرّ المقدس، من خلال الماء المُعطى لأولئك الذين لهم رجاء في المسيح، المسمى "بغسل التجديد" (تي ٣: ٥) فماذا يعني الميلاد الثاني، إن لم يكن بدءً لميلادٍ آخر؟[2]

العلامة أوريجينوس

"**وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور،**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 12:14.*
[2] *Peri Pascha 4 (Translated by Robert J. Daly - ACW).*

لكي تظهر أعماله أنها باللَّه معمولة". [٢١]

جاء "**من يفعل الحق**" مقابل من يعمل السيئات و"أعمالهم شريرة". الحق بصيغة المفرد لأنه حياة واحدة في المسيح، التصاق بشخصه، أما السيئات والأعمال فبصيغة الجمع حيث الدخول في سلسلة لا تنقطع من أعمال الظلمة. والعجيب أن من يفعل الحق، أي يلتصق بالمسيح، يقبل إلى النور الذي هو شخص المسيح، وكأن كل التصاق عملي بالرب يلهب القلب بالأكثر مشتاقًا إلى دخول عملي واتحاد أقوى مع السيد. فيبقى المؤمن منجذبًا يومًا فيومًا لعله يبلغ إلى "قياس قامة ملء المسيح" (أف ٤: ١٣).

من يمارس الحق يُقبل إلى نور لكي تظهر أن أعماله تتم في حضرة الرب وبعونه ونعمته. هذه هي خاتمة حديث السيد المسيح مع نيقوديموس، إنه يليق بالمؤمن إذ يتمتع بالبنوة لله أن ينعم بإمكانيات الله عامة به وفيه.

نور الحق الذي يفرح قلب المؤمن هو بعينه يبغضه الشرير ولا يطيقه، بل يحسبه كعدوٍ مقاومٍ له.

أما قوله: " **بالله معمولة**"، فيؤكد السيد المسيح أن برّ المؤمن يقوم على عمل الله فيه، "الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" (في ٢: ١٣).

❖ إنك تُدعى إنسانًا فهذا من عمل اللَّه، وأن تُدعى خاطئًا فهو من عمل الإنسان ذاته.

امحِ ما تفعله أنت لكي يخلِّص اللَّه ما قد فعله.

يليق بك أن تكره عملك الذاتي فيك، وتحب عمل اللَّه فيك.

عندما لا تسرك أعمالك الذاتية، في هذا تبدأ أعمال الله الصالحة، إذ تجد خطأ في أعمالك الشريرة.

الاعتراف بالأعمال الشريرة بداية الأعمال الصالحة.

إنك تعمل الحق وتأتي إلى النور. كيف تعمل الحق؟ إنك لا تدلل نفسك ولا تهادنها ولا تتملقها، ولا تقول: "إني بار"، بينما أنت غير بار؛ هكذا تبدأ تفعل الحق.

إنك تأتي إلى النور لكي ما تعلن أعمالك أنها باللَّه معمولة، لأن خطيتك، الأمر ذاته الذي تكرهه، لا يمكنك أن تبغضه ما لم يشرق اللَّه فيك ويظهره الحق لك.

أما من يحب خطاياه حتى بعد نصحه، فهو يبغض النور الذي ينصحه ويهرب منه، فالأعمال التي يحبها لا تظهر له أنها شريرة. من يفعل الحق يتهم أعماله الشريرة فيه ولا يبرر نفسه، ولا يصفح عن نفسه حتى يغفر له اللَّه.

فمن يرغب في أن يغفر له اللَّه هو نفسه يعرف خطاياه ويأتي إلى النور، حيث يشكر على إظهار ما يلزمه أن يبغضه في نفسه. إنه يقول للَّه: "ردّ وجهك عن خطاياي". ولكن بأي وجه يقول هذا ما لم يضف "لأني أنا عارف بآثامي، وخطيتي أمامي في كل حين" (مز ٥١: ١١)؟

لتكن آثامك أمامك يا من لا تريدها أن تكون أمام اللَّه.

لكن إن وضعت خطاياك خلفك، فسيدفعها اللَّه ليجعلها أمام عينيك، يحدث هذا في الوقت الذي لا يعود يوجد فيه ثمر للتوبة[1].

القديس أغسطينوس

❖ قال المسيح هذه الأقوال في وصف الذين اختاروا أن يظلوا في رذيلتهم كل حين، لأن المسيح لهذا الغرض جاء ليصفح عن الخطايا السابقة، ويصون من الجرائم القادمة، وإذ قد يوجد أناس مسترخون منحلون مبتعدون عن الفضيلة حتى أنهم يريدون أن يثبتوا إلى أنفاسهم الأخيرة في شرهم ولا يبتعدوا عنه في وقت من أوقاتهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. موقف المعمدان من معمودية المسيح

"**وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية،**

ومكث معهم هناك وكان يعمد". **[٢٢]**

ترك السيد المسيح أورشليم "**في أرض اليهودية**" حيث تم فيها الحوار مع نيقوديموس، وانطلق إلى مناطق أخرى في اليهودية. كثيرًا ما يميز الكتاب بين أورشليم واليهودية (أع ١: ٨؛ ١٠: ٣٠؛ ١ مك ٣: ٣٤؛ ٢ مك ١: ١، ١٠).

لم يكن السيد المسيح بنفسه يعمد بل تلاميذه (يو ٤: ٢) بسلطانه وأمره، لذلك حُسب كأنه هو الذي يعمد.

❖ صعد المسيح إلى المدينة في الأعياد حتى يقدم تعاليمه في وسطهم وللانتفاع من آياته، وبعد انتهاء الأعياد كان يأتي في أكثر الأوقات إلى الأردن، إذ كان أناس كثيرون يبادرون إلى هناك، كان يتوجه دائمًا إلى المواضع التي تضم جموع كثيرة، لا لإظهار ذاته، ولا رغبة في التكريم، لكن لكي يقدم للكثيرين المنفعة الكامنة فيه. غير أن يوحنا البشير إذ أمعن في كلامه قال: "**مع أن**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 12:13.*

يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه" (يو ٤: ٢).

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ اعتمد صار يعمد (خلال تلاميذه)، ليس بالمعمودية التي اعتمد بها... اعتمد الرب بواسطة خادم، فصار يعمد مظهرًا طريق التواضع، وقائدًا إلى معمودية الرب التي هي معموديته، بتقديم مثالٍ للتواضع حيث لم يرفض المعمودية من خادمٍ[1].

القديس أغسطينوس

"**وكان يوحنا أيضًا يعمد في عين نون بقرب ساليم،**
لأنه كان هناك مياه كثيرة،
وكانوا يأتون ويعتمدون". **[٢٣]**

يبدأ السيد المسيح يعمد بواسطة تلاميذه قبل إلقاء يوحنا المعمدان في السجن، حتى يسحب تلاميذ يوحنا إليه، فلا يتشتتوا بعد استشهاده. ومن جهة أخرى لكي لا تتوقف عجلة العمل باستشهاد يوحنا. وقد بقي يوحنا يكرز ويعمل في توافق تام وتهيئة جادة لملكوت المسيح حتى النفس الأخير.

عين نون: تبعد حوالي ثمانية أميال جنوب *Scythopolis* ما بين ساليم والأردن.

واضح أن معمودية يوحنا كانت دائمًا بالتغطيس، إذ قيل: "**لأنه كان هناك مياه كثيرة، وكانوا يأتون ويعتمدون**" [٢٣].

❖ لم يكن يسوع يعمد بل تلاميذه، لماذا؟ قال المعمدان: "سيعمد بالروح القدس ونار" (مت ٣: ١١؛ لو ٣: ١٦). الآن لم يكن بعد قد أعطى الروح، ولهذا بسبب صالح لم يعمد. أما تلاميذه ففعلوا هذا، إذ رغبوا في أن يجلبوا كثيرين إلى التعاليم المخلصة... لماذا إذن لم يكف يوحنا عن العماد حتى يترك تلاميذ المسيح يظهروا في أكثر مهابة؟ حتى لا يثير تلاميذه إلى منافسة أقوى مما يثير الخصام... بجانب هذا وهو يعمد لم يكف عن أن يحثهم بالأكثر على عظمة أعمال يسوع ومهابتها...

هل كانت معمودية التلاميذ أفضل من معمودية يوحنا؟ لا ليس في شيء ما، كلاهما كانا دون موهبة الروح، كانتا متشابهتين، لهما ذات الهدف، وهي أن تقود الذين يعتمدون إلى المسيح[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 13:4.*
[2] *Hom. 29.PG 59: 165.*

"لأنه لم يكن يوحنا قد أُلقي بعد في السجن". [٢٤]

"وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير". [٢٥]

❖ كان تلاميذ يوحنا دائمًا يحسدون المسيح نفسه وتلاميذه، إذ لاحظوا أنهم يعمدون.

بدأوا يتحاورون مع الذين اعتمدوا كما لو أن عمادهم أفضل من معمودية تلاميذ المسيح. أخذوا واحدًا من المعمدين وسعوا إلى أن يقنعوه بهذا فلم يستطيعوا. اسمعوا كيف جعلنا الإنجيلي نفهم أنهم بدأوا أولاً بمهاجمة (يسوع)... لم يقل أن يهوديًا سألهم بل هم أثاروا التساؤل، صدر التساؤل من تلاميذ يوحنا إلى يهودي[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كان يوحنا يعمد، وكان المسيح يعمد. كان تلاميذ يوحنا يتحركون، يجرون نحو المسيح... الذين جاءوا إلى يوحنا أسلمهم إلى المسيح ليعتمدوا، وأما الذين جاءوا إلى المسيح فلم يُرسلوا إلى يوحنا. انزعج تلاميذه يوحنا، وبدأوا يتباحثون مع اليهود كما يحدث عادة.

لتفهم أن اليهود أعلنوا بأن المسيح أعظم، وأن الشعب يلزم أن يتجه إلى معموديته. لقد فهم أيضًا تلاميذ يوحنا ذلك، ومع هذا فقد دافعوا عن معمودية يوحنا. جاءوا إلى يوحنا نفسه لكي يحل السؤال.

لتفهموا أيها الأحباء. هنا أعطي لنا أن نرى استخدام التواضع، وعندما يخطئ الشعب في موضوع المباحثة يظهر إن كان يوحنا يطلب مجد نفسه...

لقد عرف حسنًا أمام من يتواضع، أمام ذاك الذي يعرف أنه جاء بعده بالميلاد، وقد اعترف باختياره بأسبقيته معترفًا به. لقد فهم أن خلاصه هو في المسيح. لقد سبق فقال قبلاً: "ونحن جميعًا من ملئه أخذنا". بهذا يعترف أنه هو اللَّه. إذ كيف يمكن لكل البشر أن يقبلوا ملئه لو لم يكن هو اللَّه؟...

إنه الينبوع، وهم الشاربون منه. الذين يشربون من ينبوع يعطشون ويشربون، أما الينبوع فلن يعطش قط، ولا يحتاج إلى ذاته، بل يحتاج البشر إلى الينبوع. بالمعدة العطشى والشفاه الجافة يجرون إلى الينبوع ليرتوون، والينبوع يفيض لكي ينعش؛ هكذا يفعل الرب يسوع[2].

القديس أغسطينوس

"فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له:

---

[1] *Hom. 29. PG 59: 165-166.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 13:8.*

يا معلم، هوذا الذي كان معك في عبر الأردن،
الذي أنت قد شهدت له هو يعمد،
والجميع يأتون إليه". [٢٦]

تقدم بعض تلاميذ يوحنا الذين في محبتهم لمعلمهم وغيرتهم إليه أساءوا إليه إذ كرموه عندما تحدثوا بكل احترام "يا معلم *Rabbi*" بينما لم يذكروا حتى اسم يسوع المسيح، بل في استخفاف قالوا: "**الذي كان معك**". حسبوا أن ما يفعله يسوع فيه جحود لذاك الذي عمده وشهد له. ولم يدركوا أنه لم يكن محتاجًا إلى شهادة يوحنا، ولا إلى تكريم بشر، فإن الآب نفسه شهد له، والروح القدس ظهر مستقرًا عليه. ظنوا أن ممارسة تلاميذ المسيح للمعمودية إهانة لمعمودية يوحنا، كما لو وجدت منافسة بين الفريقين.

❖ "**هوذا الذي كان معك في عبر الأردن، الذي أنت قد شهدت**" بمعنى "ذاك الذي كان في رتبة تلميذ، الذي لم يكن أكثر مما كنا نحن عليه، هذا الإنسان عزل نفسه ويعمد". لقد ظنوا أنهم يجعلونه حاسدًا، ليس فقط بهذا، وإنما أيضا بتأكيد أن شهرتهم بدأت تنقص، إذ يقولون: "**والجميع يأتون إليه**" [٢٦]. من هذا واضح أنهم لم يكونوا أفضل من اليهود الذين حاورهم؛ لكنهم نطقوا بهذا الكلمات لأنهم كانوا ناقصين في نزعاتهم، ولم يكونوا قد تخلصوا من الشعور بالمنافسة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب يوحنا وقال:**
لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئًا،
إن لم يكن قد أُعطي من السماء". [٢٧]

لم يرتبك يوحنا ولا اضطرب، بل بروح الفرح والتهليل أعلن أن ما يمارسه يسوع المسيح إنما هو من السماء. لقد وجد الفرصة سانحة لتأكيد وتوضيح شهادته للسيد المسيح مرة أخرى.

اسمع ما قاله يوحنا المعمدان لتلاميذه، لأنه لم يوبخهم توبيخًا شديدًا خشية أن ينفصلوا عنه ويعملوا عملاً آخر رديئًا، بل قال لهم: "**لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئًا إن لم يكن قد أُعطى من السماء**"... أراد أن يضربهم إلى حين بالخوف والرعب، وأن يظهر لهم أنهم إنما يحاربون الله وحده، عندما يحاربون المسيح. هنا أسس هذه الحقيقة بطريقة خفية، هذه التي أكدها غمالائيل:" إن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه، لئلا توجدوا محاربين الله أيضًا" (أع ٥: ٣٩). فإن القول: "**لا يقدر إنسان**

[1] *Homilies on St. John, 27:1.*

أن يأخذ شيئًا إن لم يكن قد أعطى من السماء" ليست إلا أعلانًا عن أنهم يحاولون المستحيلات، ويوجدون محاربين الله.. لاحظوا أيضًا كيف أنهم إذ قالوا: "قد شهدت له" [٢٦] انقلب ضدهم إذ ظنوا أنهم يحطون من قدر المسيح، وأبكمهم مظهرًا أن مجد المسيح لم يقم على شهادته. إذ يقول: "**لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئًا إن لم يكن قد أُعطيَ من السماء**" [٢٧]. "إن كنتم تتمسكون بشهادتي وتحسبونها صادقة، فلتعلموا بهذه الشهادة. يلزمكم ألا تفضلوني عنه، بل تفضلونه عني. لأنه بماذا شهدت له؟ إني أدعوكم أنتم شهودا لذلك [٢٨][1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس أغسطينوس** أن يوحنا المعمدان يتحدث عنا عن نفسه أنه كإنسانٍ ينال من السماء، وأنه ليس المسيح. [كأنه يقول: لماذا تخدعون أنفسكم؟ انظروا كيف تضعون هذا السؤال أمامي، ماذا تقولون لي؟... لأني قد نلت شيئًا من السماء لكي أصير شيئًا، أتريدون مني أن أفرغ نفسي منه بأن أنطق بما هو ضد الحق؟... إني المذيع، وهو الديّان[2].]

"**أنتم أنفسكم تشهدون لي إني قلت:**

لست أنا المسيح،

بل إني مرسل أمامه". **[٢٨]**

كأن يوحنا المعمدان يقول هنا: "أنا خادم أقوال مرسلي". جاء تعبير "**مرسل أمامه**" في اليونانية يحمل استمرارية العمل والثمر لعمله.

❖ إن تمسكتم بشهادتي... فإنه لم ينقص بشهادتي له، بل بالأحرى أنا أزداد بها، هذا بجانب أن الشهادة ليس من عندي، بل هي شهادة الله. إن كنت أحسب أهل ثقة عندكم، فقد قلت بين ما قلت: "**إني مرسل أمامه**" [٢٨]. ألا ترون كيف يظهر قليلاً أن هذا الصوت إلهي؟ فإن ما قاله هو هكذا: "أنا عبد، وأنطق بكلمات من أرسلني، ليس تملقًا للمسيح لأجل نفع بشري، بل خدمة لأبيه الذي أرسلني. لست أقدم الشهادة كعطية من عندي، بل أنطق بما أرسلت لأتكلم به. فلا تظنوا بهذا إنني عظيم، بل هو عظيم، هو رب كل الأشياء"[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Homilies on St. John, 29:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 13:9.*
[3] *Homilies on St. John, 29:2.*

"من له العروس فهو العريس،
وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه،
فيفرح فرحًا من أجل صوت العريس.
إذًا فرحي هذا قد كمل". [٢٩]

صديق العريس عند اليهود يُدعى *showshabiyn* وعند اليونانيين *paranymphos*. كان عادة يوجد صديق للعريس وآخر للعروس. غالبًا ما يكون الأخ هو صديق أخيه العريس.

أحيانًا لا يوجد شخص معين كصديقٍ للعريس أو للعروس، أما في حفلات الزواج الخاصة بالملوك والأمراء وأصحاب المراكز الكبرى كان لابد من وجود صديق للعريس. يرى اليهود أن هذه العادة أسسها الله، إذ كان هو نفسه صديق العريس *shashobin* لآدم في زواجه. لكن جاء في *Bereshith Rabba* كان آدم له صديقان في عرسه هما ميخائيل وجبرائيل.

كان دور صديق العريس هامًا لا يمكن الاستغناء عنه، وكان يُعفى من بعض الالتزامات الدينية ليتفرغ لمساعدة المتزوجين حديثًا خاصة في السبعة أيام الأولى للزواج. أما عمله قبل الزواج فهو أن يهتم بالمخطوبة ويحرسها ويقدم شهادة للعريس عنها؛ كما يقوم بحلقة الصلة بينهما، فيحمل رسائل كل منهما للآخر، حيث لم يكن يسمح للمخطوبة أن تفارق البيت.

أما بعد الزواج فيقوم بتعزيز شخصية العروس، ينام في شقة مجاورة لمسكن العروسين ليمنع حدوث أية أذية للعروس. وألا يسمح لأحد الطرفين أن يخدع الآخر، كما كان من واجبه فحص طهارة العروس، فمتى تأكد من ذلك تهلل وفرح. ولعل هذا ما قصده القديس يوحنا بقوله: "**إذا فرحي هذا قد كمل**" [٢٩]. يقوم بتقديم الهدايا القادمة للعروسين، وأخيرًا يساهم في الاحتفال المبهج للزواج لمدة سبعة أيام.

بعد هذا الاحتفال الممتد لمدة أسبوع يصير صديق العريس أشبه بالمدافع عن العروس (٢ كو ١١: ٢)، ويقوم بحل أية مشاكل زوجية تقوم بينهما ومصالحتهما.

يحتفظ صديق العريس بعقد الزواج، فإذا وجد العروس غير أمينة يقوم بتمزيقه، فيُحسب الزواج قد انحل. أما إن تركها العريس وطلقها فيقوم الصديق بدور الأخ الشرعي (أخ زوجها)[1].

يعلن القديس يوحنا المعمدان فرحه بمجيء العريس الإلهي، وهو في هذا يعبِّر عن مشاعر رجال الله في العهد القديم نحو العرس. يُعبِّر **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** في تفسيره نشيد الأناشيد

[1] *Adam Clark Comm.*

عن هذه الحقيقة، فيقول:

[إن الذين يخدمون الخطيبة البكر ويلازمونها هم البطاركة والأنبياء ومعلمي الناموس. إنهم يقدمون للعروس هدايا العرس، كما كانت. (من أمثلة هذه الهدايا: غفران المعاصي، نسيان الأعمال الشريرة، غسل الخطايا، تغيير الطبيعة، أي تصير الطبيعة الفاسدة طاهرة، التمتع بالفردوس، وكرامة ملكوت اللّه، والفرح اللانهائي.)

عندما تتقبل العروس كل هذه الهدايا من النبلاء الحاملين لها والذين يقدمونها خلال تعاليمهم النبوية حينئذٍ تعترف باشتياقاتها، ثم تسرع لتتمتع بامتياز جمال الواحد طالما اشتاقت إليه.

يصغي خدام البتول ومرافقوها إليها ويحثونها بالأكثر لاشتياق متزايد. ثم يصل العريس قائدًا جوقة من المغنين فيما بينهم أصدقاؤه والذين يترجون خيره. هؤلاء يمثلون الأرواح الخادمة التي تتقذ الإنسان أو الأنبياء الأطهار.

عند سماع صوت العريس يفرحون (يو ٣: ٢٩)، إذ يتحقق الاتحاد الطاهر وتصير النفس الملتصقة بالرب روحًا واحدًا معه كما يقول الرسول (١ كو ٦: ١٧)[١].]

❖ يقف هؤلاء الذين يتوقعون رجوع السيد المسيح باشتياق وانتباه على أبواب السماء عند ما يدخل ملك المجد إلى نعمته التي تفوق كل تصور، كما جاء في مز ١٨: ٦. "ومثل العروس الخارج من حجله".

بالرغم من خطأنا وعبادتنا للأصنام، وقد طردنا اللّه، حظينا بالميلاد الجديد وصرنا أبكارًا بعد غسل كل فساد فينا. لذلك تمت كل احتفالات الزواج، وارتبط كلمة اللّه بالكنيسة. وكما يقول القديس يوحنا: "**من له العروس فهو العريس**" (يو ٣: ٢٩).

واستُقبِلَت الكنيسة العروس في حجرة العرس المقدسة، وتوقعت الملائكة رجوع الملك أثناء قيادته للكنيسة كالعروس، وجعل طبيعتها مستعدة للنعمة. فقال أن حياتنا يجب أن تكون خالية من الشر والخداع، حتى نكون مستعدين لاستقبال الرب عند مجيئه الثاني.

وعندما نحرس أبواب مساكننا فإننا نُجهز أنفسنا لوصول العريس، عندما يناديا ويقرع على الباب. "طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين" (لو ١٢: ٣٧). لأنه مبارك ذاك الذي يطيع ذاك الذي يقرع.

إن النفس تتطلع إلى هذه البركة بأن تستقبل عريسها الواقف على الباب.

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، ١٩٩٣، عظة ١.

إنها تراقب باب بيتها بيقظة قائلة: "صوت حبيبي قارعًا" (نش ٥: ٢). كيف نفي العروس حقها إذ قد ارتفعت إلى ما هو أكثر قداسة؟[١]

القديس غريغوريوس النيسي

❖ كأن يوحنا المعمدان قال: إنني كنت أتألم كثيرًا لو لم يكن قد صار هذا. لو كانت العروس لم تتقدم إلى عريسها، لكنت حينئذٍ قد توجعت وغمني ذلك، لكنني لست أغتم الآن إذ كملت آمالي، وقد تحقق كل ما تمنيناه، وقد عرفت العروس عريسها، وأنتم شهدتم بذلك، وإذ رأيت هذا المطلب قد تحقق لذلك أسرّ وأبتهج.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ اسمعوا ما هو أقوى بكثير، شهادة أكثر وضوحًا. انظروا أي أمر تعالجونه، فإن من يحب شخصًا ما ويضعه موضع المسيح فهذا زنا... "**من له العروس فهو العريس**"... كونوا عفيفين، حبوا العريس...

الآن أرى زناة كثيرين يرغبون أن يقتنوا العروس التي اشتُريت بثمنٍ عظيمٍ هكذا، صارت محبوبة حين كانت مشوَّهة، وذلك لكي تصير جميلة، اشتُرِيَت ونالت خلاصًا وتزينت بذاك الواحد.

وأما هؤلاء الزناة فيصارعون بكلماتهم لكي يُحَبوا عِوَض العريس...

لنسمع صديق العريس لا للزناة ضد العريس.

لنسمع لذاك الغيور، ولكن ليس لحساب نفسه[٢].

❖ يقول إني أفرح، ليس من أجل صوتي، وإنما من أجل صوت العريس. أنا في مركز المستمع، هو في موقف المتكلم. أنا كشخص يلزم أن يستنير، أما هو فالنور. أنا مثل الأذن، وهو الكلمة. لذلك صديق العريس يقف ويسمعه.

لماذا يقف؟ لأنه لا يسقط.

كيف لا يسقط؟ لأنه متواضع.

انظروا فإنه يقف على أرض صلبة: "أنا لست أهلاً أن أحل سيور حذائه". حسنًا تفعل إذ تتواضع، فتتأهل لعدم السقوط، تتأهل للوقوف، وتسمعه وتفرح جدًا بصوت العريس[٣].

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١١.

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 13:10.*

[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 13:12.*

❖ بطرس عين في الجسم، وهذا الشخص هو إصبع، لكنه هو عضو في ذات الجسم الذي فيه بطرس عضو. وإن كان الإصبع له سلطان أقل من العين، لكنه لا يُبتر من الجسم.

من الأفضل أن تكون إصبعًا في الجسم، من أن تكون عينًا ومبتورًا من الجسم.

لذلك لا يخدعكم أحد يا اخوتي، لا يغرّكم أحد. حبّوا سلام المسيح الذي صلب عنكم وهو اللَّه. يقول بولس: "ليس الغارس شيئًا، ولا الساقي، بل اللَّه الذي ينمّي" (١ كو ٤: ٧)...

لتحب الأعضاء بعضها البعض، وليحيا الكل تحت الرأس.

في حزنٍ يا إخوتي التزمت أن أتحدث معكم كثيرًا، ومع هذا فإنني تكلمت قليلاً، فإنني غير قادر على التوقف في الحديث[1].

❖ ما هو فرحه؟ أن يفرح بصوت العريس.

هذا قد كمل فيَّ، لقد صارت لي نعمتي، إنني لا أنتحل لنفسي ما هو ليس لي، لئلا أفقد ما أنا عليه...

ليفهم الإنسان أنه لا يفرح بحكمته الذاتية، بل بالحكمة التي ينالها من اللَّه.

لا يطلب أحد أمرًا أكثر (مما عليه) فلا يفقد ما قد وجده. فإن كثيرين إذ يؤكدون أنهم حكماء يصيرون أغبياء. يوبّخهم الرسول قائلاً لهم: "إذ معرفة اللَّه ظاهرة فيهم، لأن اللَّه أظهرها لهم" (رو ١: ١٩)...

يلزمهم ألا ينسبوا لأنفسهم ما لم ينالونه من أنفسهم، بل ينسبوه لهذا وهو ما وهبه اللَّه مجانًا يأخذه من الجاحدين. لم يرد يوحنا أن يكون هكذا، بل أراد أن يكون شاكرًا. لقد اعترف أنه نال، وأعلن أنه قد فرح بصوت العريس، قائلاً: "**إذًا فرحي هذا قد كمل**" [٢٩][2].

القديس أغسطينوس

❖ "**إذًا فرحي هذا قد كمل**" [٢٩]. بمعنى إن العمل الذي كان يلزمني أن أفعله قد تم، فلا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا في المستقبل". فلكي يمنع زيادة المشاعر الجسدية ليس فقط في ذلك الحين، بل وفي المستقبل يخبرهم بما يلزم أن يحدث، مؤكدًا أن ما يحدث هو حسب ما سبق أن قاله وفعله[3].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 13:17-18.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:3*
[3] *Homilies on St. John, 29:2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ينبغي أن ذلك يزيد،**
وإني أنا أنقص". **[٣٠]**

يدرك القديس يوحنا المعمدان أن ذاك يزيد وهو ينقص. هذا ظهر بكل قوة في موتهما. الأول استشهد وهو في السجن خفية، ولم يدرك أمره غير قليلين، أما السيد المسيح فمات علانية على الصليب، ورفع رأسه نحو السماء، وبسط يديه ليحتضن بحبه الإلهي كل البشرية. الأول مات ودفن مقطوع الرأس، والثاني مات ودفن وقام ليقيم معه الأموات.

كلمات القديس يوحنا المعمدان تمس حياة كل مؤمن صادق ونامٍ في شركته مع السيد المسيح. فمع كل لحظة من لحظات عمره يتخلى عما هو مادي فيه، بل ويشعر كأنه يتخلى عما هو بشري، لا ليعيش بلا إرادةٍ بشرية أو عواطفٍ بشرية أو فكرٍ بشري، وإنما تتجلى إرادة المسيح فيه، وتتقدس عواطفه فيه، ويحمل فكر المسيح. هكذا يجد المؤمن عذوبة في نقصه، لكي يزيد المسيح فيه.

نجاح السيد المسيح في خدمته هو بدء لنشر برّه المجيد وسلامه والحق الذي له بين البشر.

يُسر القديس يوحنا حين ينقص عدد القادمين إلى معموديته، حيث يتوجهون إلى يسوع المسيح، فيحققون ما تهدف إليه خدمته ومعموديته.

❖ "**ينبغي أن ذلك يزيد، وإني أنا أنقص**" **[٣٠]**. ما هذا: يلزم أن يتمجد هو وأنا أن أتواضع؟

كيف يزيد يسوع؟ كيف يزيد اللَّه؟ اللَّه لا يزيد ولا ينقص. لأنه إن كان يزيد فهو ليس بكاملٍ، وإن كان ينقص فهو ليس اللَّه...

هل كان بحالته كإنسان حيث تنازل وصار إنسانًا؟ كان طفلاً، ومع أنه حكمة اللَّه رقد في المذود كرضيعٍ. ومع أنه خالق أمه، رضع لبن الطفولة منها، ثم نما يسوع في الجسد، ولعلّه لهذا قيل: "**ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص**". ولكن لماذا هذا؟ إذ هما من جهة الجسد كانا في ذات العمر، الفارق بينهما ستة أشهر، وقد نميا معًا... إذن ما هو معنى "**ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص**"؟

هذا سرّ عظيم!

قبل مجيء الرب يسوع كان البشر يمجدون أنفسهم.

جاء كإنسانٍ ليقلل من مجد الإنسان، ويزيد مجد اللَّه. الآن جاء بغير خطية، ووجد كل البشر في الخطية. إن كان هكذا قد جاء لينزع الخطية، فاللَّه يعطي مجانًا والإنسان يعترف. اعتراف الإنسان هو نزول به، حنو اللَّه هو ارتفاع.

لذلك إذ جاء ليغفر خطايا الإنسان، فليعترف الإنسان بانحطاطه، وليظهر اللَّه حنوه.

"**ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص**"، أي ينبغي أن يعطي وأنا أن استلم، هو يتمجد، وأنا اعترف. ليعرف الإنسان حاله، ويعترف للَّه. لتسمع ما يقوله الرسول للإنسان المتكبر المتشامخ الذي يُفخم نفسه: "وأي شيء لك لم تأخذ؟ وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟" (١ كو ٤: ٧)[1].

❖ ليت اللَّه الذي هو دائمًا كامل ينمو، وينمو فيك. فبقدر ما تفهمه يبدو ناميًا فيك، أما في ذاته فهو لا يزيد بكونه كاملاً أبديًا... هكذا أيضًا بالنسبة للإنسان الداخلي. إنه ينمو حقًا في اللَّه، ويبدو اللَّه متزايدًا فيه. لكن الإنسان نفسه يبدو كأنه ينقص حيث يسقط من مجد ذاته، ويقيم مجد اللَّه[2].

القديس أغسطينوس

❖ معنى هذا أن أفعالنا نحن قد توقفت وكفت، أما أفعال المسيح فينبغي أن تنمو، لأن ما تخشونه لا يحدث الآن فقط بل بالأكثر فيما بعد. وهذا على وجه الخصوص يجعل أحوالي أكثر بهاءً. لهذا الهدف أنا جئت؛ وإنني أفرح بأن أحواله قد صارت في تقدم عظيم، وان هذا يتم خلال ما فعلته. ألا ترون كيف أنه في رقة وبحكمة عظيمة هدأ من آلامهم، وأطفأ حسدهم، وأظهر أنهم كانوا يتحدثون في أمور مستحيلة، وأنه يجب ضبط الشر؟[3]

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع،**
والذي من الأرض هو أرضي،
ومن الأرض يتكلم.
الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع". **[٣١]**

العريس النازل من السماء (يو ٣: ١٣) هو فوق الكل، أعظم من موسى والأنبياء ومن يوحنا المعمدان نفسه.

يتحدث يوحنا عن نفسه عندما يقول: "**الذي من الأرض**"، لأنه وُلد كسائر البشر؛ لا يقدر أن يتكلم بما ينطق به المسيا السماوي، إنما يمهد للسماوي. ليس من وجه مقارنة بين الأنبياء (ومن بينهم يوحنا المعمدان) والسيد المسيح. فالأنبياء وإن شهدوا للحق لكنهم كبشر يتكلم الله بهم على الأرض، أما

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:5.*
[3] *Homilies on St. John, 29:3.*

المسيح فيتكلم من السماء لأنه سماوي.

❖ أراد أن يبين لنا أن المسيح لا يحتاج إلى أحد إذ هو كفء لذاته وهو أعظم من الكل... بقوله: **والذي من الأرض هو أرضي، ومن الأرض يتكلم**" يعني به ذاته... أرأيت كيف أن يوحنا المعمدان لم يقل قولاً آخر إلا أنه صغير، وآت من الأرض، وفي الأرض وُلد؟ أما المسيح فجاء إليهم من السماء، فبهذه الأقوال كلها أخمد حسدهم.

❖ كأنه يقول: إن قورنت أموري بأمره تبدو قليلة وهابطة وفقيرة كما لو كانت تحمل طبيعة أرضية[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ يتحدث عن الإنسان فيه (في يوحنا) فهم أرضي يستنير باللَّه.

لو لم يستَنِر لبقي أرضًا ومن الأرض يتكلم...

لتأتِ نعمة اللَّه وتنير ظلمته، كما قيل: "أنت تنير سراجي يا رب، لتنر ظلمتي يا إلهي" (مز ١٨: ٢٨).

لتأخذ فكر الإنسان وتحوله إلى نورها، ففي الحال يبدأ يقول مع الرسول: "لا أنا بل نعمة اللَّه التي معي" (١ كو ١٥: ١٠)، "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ" (غلا ٢: ٢٠)...

هكذا يوحنا، بكونه يوحنا هو من الأرض، ومن الأرض يتكلم، وأما ما تسمعه من إلهيات من يوحنا، فهو من ذاك الذي ينيره، وليس من ذاك الذي يستلمه[2].

القديس أغسطينوس

"**وما رآه وسمعه به يشهد،**

وشهادته ليس أحد يقبلها". **[٣٢]**

ما ينطق به الأنبياء إنما يشهدون لما يخبرهم به الله بطريقة أو أخرى، أما ما ينطق به السيد المسيح فهو يعلن ما يراه ويسمعه، إذ هو غير منفصل عن الآب، هو الحق ذاته.

❖ "**الذي يأتي من السماء، هو فوق الجميع. وما رآه وسمعه به يشهد، وشهادته ليس أحد يقبلها**" [٣١-٣٢]... له الآب، بكونه ابن اللَّه. له الآب ويسمع الآب... هو كلمة الآب[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Hom. 30 PG 59: 170.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:6.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14.*

"**ومن قبل شهادته، فقد ختم أن اللَّه صادق**". **[٣٣]**

❖ أرسل يوحنا تلاميذه إلى المسيح حتى وهو في السجن لكي يرتبطوا به... الآن إذ يتحدث المسيح بكلمات الله فإن من يؤمن ومن لا يؤمن، يؤمن بالله أو لا يؤمن به. لأن الكلمات "**فقد ختم**" تعني "قد أعلن". ولكي يزيد فزعهم يقول إن "**الله صادق**"، مظهرًا أنه ليس من أحد يقدر أن يرفض الإيمان بالمسيح دون أن يتهم الله كأنه يرتكب بطلانًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**لأن الذي أرسله اللَّه يتكلم بكلام اللَّه،**

لأنه ليس بكيلٍ يعطي اللَّه الروح". **[٣٤]**

تتقبل البشرية روح الله بكيل حسب ضعف إمكانياتها، أما السيد المسيح فيتقبله بغير كيلٍ لأنه واحد معه، مستقر فيه.

❖ قول يوحنا المعمدان عن المسيح: "**لأن الذي أرسله الله، يتكلم بكلام الله**"، إذ أن المسيح لا يقول قولاً خارج أقوال أبيه، لكنه يقول أقوال الله، فمن يخالف هذا الابن فقد خالف أباه الذي أرسله، أرأيت كيف يلذعهم بهذه الأقوال؟

يقول: "**لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح**"، أي أننا أخذنا كلنا فعل الروح بكيل وبمقدار، أما المسيح فقد امتلك الروح كله كاملاً دون أن يكون بمقدار.

❖ يقول يوحنا الإنجيلي عن الابن "**إنه لا يعطي اللَّه الروح بكيلٍ**" (يو ٣: ٣٤) للذين يستحقون. إذن لا يوجد مكيال لدى الابن، فهو لا يُمكن قياسه بل يفوق كل المقاييس لأنه اللَّه، فكيف يُقاس الذي لا يُقاس ويُوصف بأنه أقل؟

القديس كيرلس الكبير

❖ كتب **الذهبي الفم**: "بالروح يعني هنا **الطاقة** " فإننا جميعًا ننال طاقة الروح بقياس، أما المسيح فله كمال الطاقة بلا قياس، بل في كمالها. فإن كانت طاقاته بلا كيل فبالأكثر يكون جوهره. يدعوه الطاقة، الروح أو بالأحرى ذات روح الله كما قال المعمدان، وبالقول أن الطاقة بلا كيلٍ يشير إلى طبيعتها غير المخلوقة. بقوله نحن نقبلها بقياس يشير إلى اختلاف الطاقة غير المخلوقة بالنسبة

[1] *Hom. 30. PG 59: 172.*

للجوهر غير المخلوق... الآن إن كانت طاقة الروح بلا كيل كم بالأكثر يكون الجوهر[1].

الأب غريغوريوس بالاماس

يميز القديس يوحنا المعمدان بين إرساليته وإرسالية السيد المسيح. إرسالية يوحنا المعمدان هي إرسالية اللَّه لرسول بشري، يتكلم ويشهد قدر ما ينال من نعمة. أما إرسالية المسيح فهي إرسالية ابن اللَّه وكلمته الواحد معه، وحده يرى الآب كما هو، وقادر أن يشهد له، روحه القدوس هو روح الآب القدوس، لذا لا يناله بكيلٍ كما الأنبياء أو الرسل أو المؤمنون بوجه عام.

❖ "**لأنه ليس بكيلٍ يعطي اللَّه الروح**" [٣٤]. اسمع ما يقوله الرسول: "حسب قياس هبة المسيح" (أف ٤: ٧). بالنسبة للبشر يعطي بقياسٍ، وبالنسبة للابن الوحيد لا يعطى بكيلٍ. كيف يعطي للبشر بقياس؟ "فإنه لواحدٍ يعطى بالروح كلام حكمة، ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد. ولآخر عمل قوات ولآخر نبوة..." (١ كو ١٢: ٨ الخ)... أما المسيح الذي يعطي فهو يتقبل بلا كيل[2].

القديس أغسطينوس

"**الآب يحب الابن،**

وقد دفع كل شيء في يده". **[٣٥]**

يظهر يوحنا المعمدان أن يسوع فوق كل معلمٍ أو نبيٍ أو رسولٍ إلهيٍ بغير حدود. نال بعض الأنبياء مواهب معينة وآخرون رؤى معينة وآخرون أحلامًا، وآخرون موهبة التعليم، وآخرون موهبة التعزية الخ، أما السيد المسيح فهو وحده فله كل شيء في يده.

❖ "**الآب يحب الابن**" [٣٥]، ولكنه كآبٍ يحب وليس كسيدٍ يحب خادمه، بل بكونه الابن الوحيد الجنس وليس ابنًا بالتبني... لذلك إذ تنازل وأرسل لنا الابن لا نتخيل أن هذا الأمر أقل من الآب المُرسل إلينا. إذ يرسل الآب الابن، يكون كمن يرسل نفسه الآخر (إذ هو واحد معه ومساوٍ له)[3].

القديس أغسطينوس

"**الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية،**

والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة،

بل يمكث عليه غضب اللَّه". **[٣٦]**

---

[1] *The One Hundred and Fifty Chapters, Ch.95. St. Chry 505 tom. hom 30: 2 PG 59:173.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:10.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:11.*

❖ يقول يسوع: "أنا هو الباب" (يو ١٤: ٦؛ ١٠: ٩)، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي"، "لا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يُعلن له" (مت ١١: ٢٧)، فإن أنكرت من يعلن لك تبقى في جهل.

لقد جاء في الإنجيل العبارة التالية: "الذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة، بل يمكث عليه غضب الله" (يو ٣: ٣٦). فالآب يغضب عندما يُستهان بالابن الوحيد. فإن الملك يحزن لمجرد إهانة أحد جنوده. فإن كان الملك يحزن لمجرد إهانة أحد جنوده، فإن احتقر أحد ابنه الوحيد فمن يقدر أن يطفئ غضب الآب من أجل ابنه الوحيد؟![1]

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ قد يقول قائل: فهل يكفي أحدنا أن يؤمن بالابن فيمتلك حياة أبدية؟ نجيب: لا يمتلكها بجهة من الجهات، لأن المسيح نفسه يقول: "ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات" (مت ٧: ٢١). فلو أن أحد الناس يؤمن بالآب والابن والروح القدس إيمانًا قويمًا ولا يسلك في حياة تقوية، لا يحصل له من إيمانه ولا على فائدة واحدة تبلغ به إلى خلاصه. فلا تظن أن الإيمان بالابن فيه كفاية لخلاصنا، لكننا نحتاج إلى حياة قويمة مهذبة وطريق نقي طاهر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما يؤمن أحدٍ يعبر غضب اللَّه وتحل الحياة. إذن أن تؤمن بالمسيح هو أن تقتني الحياة، لأن من يؤمن به لا يُدان (يو ٣: ١٣). لكن بالنسبة لهذه العبارة يتذرعون بأن من يؤمن بالمسيح يلزمه أن يحفظ وصاياه، ويقولون أنه مكتوب في كلمات الرب نفسه: "أنا جئت نورًا لهذا العالم، فمن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة. وإن سمع أحد كلمتي وحفظها لا أدينه" (راجع يو ١٢: ٤٧)[2].

القديس أمبروسيوس

❖ لم يقل: "يحل عليه غضب اللَّه"، بل يقول: "**يمكث عليه غضب اللَّه**". كل الذين ولدوا هم قابلون للموت، يرافقهم غضب اللَّه. ما هو غضب اللَّه إلا الغضب الذي تقبله آدم أولاً... من هذه السلالة جاء الابن، بلا خطية، والتحف بالجسد وقبول الموت. إن كان قد شاركنا غضب اللَّه، إذ

---

[1] مقال ١٠: ١.

[2] *Concerning Repentance, Book 1:12:53-54.*

حمل خطايانا، فلماذا نتباطأ في الشركة معه بنعمة اللَّه؟ إذن من لا يؤمن بالابن، يمكث عليه غضب اللَّه. أي غضب للَّه؟ هذا الذي يقول عنه الرسول: "كنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا" (أف ٢: ٣). الكل هم أبناء الغضب، لأنهم جاءوا من لعنة الموت.

آمنوا بالمسيح، فمن أجلكم صار قابلاً للموت.

لقد عاش وأنت كنت ميتًا.

لقد مات لكي ما تحيا أنت.

لقد جلب نعمة اللَّه ونزع غضب اللَّه.

غلب اللَّه الموت، لئلا يغلب الموت الإنسان[1].

القديس أغسطينوس

من وحي يو ٣

ليحملني روحك الناري إلى العالم الجديد!

❖ أعماقي تئن، جسدي انحدر بكل كياني إلى الجسديات،

سيطرت المادة على أعماقي،

لكن نعمتك انتشلتني.

وهبتني ميلادًا من الماء والروح!

صرت لي أبًا سماويًا، وكنيستك أمًا خالدة.

لم يعد لي عذر بعد، ولا مبرّر،

ليحملني روحك الناري إلى العالم الجديد!

❖ من أجلي ولدت جسديًا،

لكي بروحك القدوس تهبني ميلادًا علويًا!

غسلتني بالتمام في مياه المعمودية،

ووهبتني النصرة على التنين القديم.

رويتني بالمياه الحيّة، فكيف أعطش بعد؟

دفعتني معك في القبر،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:13.*

وأقمتني لأتمتع بحياتك المقامة!
أعطيتني حياة جديدة وروحًا جديدًا، وقلبًا جديدًا.

❖ سحبت كياني كله في سماواتك،
فلم يعد لي على الأرض ما يسحب قلبي أو فكري!
أراك وحدك صاعدًا إلى السماء، يا قاطن السماء !
اقبلني عضوًا في جسدك، فلا تقدر الأرض أن تسعني!
نزلت إلى أرضي وخبأتني فيك،
وصعدت إلى سماواتك لأكون معك، حيث أنت كائن!

❖ قتلَتني الحيّة بسمّها وخداعها،
وقتلتُ نفسي بإنصاتي إليها.
ها أنت ترتفع على الصليب كالحيّة النحاسية.
أراك بعيني قلبي، وقد مزقت صك الدين الذي عليَّ!
رفعتني بصليبك، واجتذبتني إلى حضن أبيك!
أرتفع معك متحديًّا قوّات الظلمة.
موتك أمات موتي، وحطّم كل سلطانه!
صليبك صلب العالم لي، وصلبني للعالم!
ليس للعالم موضع فيَّ؛ وليس فيه لي موضع!

❖ صليبك أعلن مجد حبّك الفائق!
صليبك فتح قلبي، ليحتضن إن أمكن كل بشرٍ!
صليبك أزاح عنّي الخوف من الدينونة،
وألهب قلبي نحو يوم مجيئك!

❖ أشرقت يا شمس البرّ من على الصليب،
فتبددت كل ظلمة في داخلي.
أقبلت إليك يا نور قلبي!
أشرق الحق في داخلي،

فأدركت أنك أنت العامل بالبرّ في حياتي!

❖ مع ملاكك السابق – يوحنا المعمدان – لك أترنم متهلّلاً:

ينبغي لي أن أنقص، وأنت تزيد،
لأُدرك على الدوام ضعفاتي،
ولتنمو نعمتك فيّ بلا توقف!
أنا أنقص، حيث أُدرك بالأكثر جهالاتي،
وأنت تزيد، إذ تملك بالأكثر في أعماقي،
تتجلَّى بالأكثر في أعماقي،
وتملك بالكامل على كل جوانب حياتي

الأصحاح الرابع

لقاء مع السامرية

رابح النفوس العجيب

كان اليهود يعتزون بالأرض، بكونها "**أرض الموعد**" التي وهبها الله لإبراهيم أب المؤمنين ميراثًا لأبنائه. وقد انقسمت في أيام السيد المسيح إلى ثلاثة أجزاء. **اليهودية** في الجنوب حيث توجد مدينة الله أورشليم والهيكل كأقدس موضع في العالم. **والجليل** أو جليل الأمم في الجنوب، وهي تضم كثير من الأمم الذين قبلوا الإيمان اليهودي. ثم **السامرة** وهي في المنتصف، حيث يوجد السامريون الذين يحملون عداوة شديدة متبادلة بينهم وبين اليهود. في هذا الأصحاح نجد السيد المسيح في الثلاث مناطق المذكورة.

جاء السيد المسيح إلى اليهودية بعد أن حفظ العيد في أورشليم (يو ٣: ٢٢)، والآن يتركها بعد أربعة أشهر من الحصاد [٣٥]؛ أي مكث فيها حوالي ستة أشهر.

في الطريق عبر السيد المسيح على السامرة، والتقى عند البئر بامرأة سامرية تزوجت قبلاً بخمسة رجال والذي معها ليس برجلها. دخل معها السيد في حوار بالرغم من العداء بين اليهود والسامريين، فاجتذبها إلى خلاصها، بل وجعلها كارزة بالخلاص. اجتذبها فتمتعت بالمعرفة، وأدركت أنه المسيا الذي يخبرنا بكل شيء. وبعد دقائق تركت جرتها لتجتذب المدينة بأسرها ويؤمن كثيرون بالسيد المسيح. حقًا من يلتقي برابح النفوس العجيب يشاركه سماته، فيصير هو أيضًا رابحًا للنفوس.

خلال هذا اللقاء يحثنا السيد المسيح على العبادة الجديدة، حيث قدم لها ولأهل مدينتها ماءً حيًا يفيض في داخلهم. لقد أعلن السيد أنه عوض بئر يعقوب يقدم المياه التي من يشرب منها لا يعطش إلى الأبد، إذ تهب حياة جديدة أبدية [١٤]. وأن الساعة قد أتت لتتحقق العبادة على مستوى أعظم من جبل جرزيم أو الهيكل، حيث يسجد العابدون للآب بالروح والحق [٢٣]. وأن له طعام جديد وهو أن يفعل مشيئة الذي أرسله [٣٤]. وأن الحقول قد ابيضت للحصاد الجديد [٣٥]. وقد أبرز الإنجيلي أربع شخصيات هامة في الحوار: السيد المسيح، والمرأة السامرية، والتلاميذ، وأهل المدينة، بجانب راوي القصة. أما خاتمة اللقاء فهو: "**نحن نعلم أن هذا هو بالحقيقة مخلص العالم**" [٤٢].

يلحق الإنجيلي هذا اللقاء بلقاء آخر بين السيد المسيح وخادم الملك الذي كان يتعجل السيد لينزل

ويشفي ابنه قبل أن يموت، سمع الكلمة المحيية: "انزل، ابنك حي" فآمن وشفي ابنه. في اللقاء الأول تمتعت المرأة السامرية وكثيرون من أهل سوخار بالحياة الجديدة المقامة، وهو شعب شبه أممي، أو نصف أممي، هو ثمرة خلط بين اليهود والكلدانيين. وفي اللقاء الثاني تمتع خادم الملك وأهل بيته بالإيمان المحيي خلال شفاء الابن جسديًا، وهي أسرة غالبًا ما كانت أممية.

١. خروجه من اليهودية **١-٣.**

٢. مجيئه إلى السامرة **٤-٦.**

٣. حوار مع السامرية **٧-٢٦.**

٤. كرازة السامرية الناجحة **٢٧-٣٨.**

٥. إيمان السامريين به **٣٩-٤٢.**

٦. ذهابه إلى الجليل **٤٣-٤٦.**

٧. شفاء ابن خادم الملك **٤٧-٥٤.**

١. خروجه من اليهودية

"فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا

أن يسوع يصير ويعمد تلاميذ أكثر من يوحنا". [١]

"مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه". [٢]

مع كثرة الأعداد التي نالت العماد على يدي يوحنا، إلاَّ أن للسيد المسيح جاذبيته، لذا جاءت أعداد أكبر لنوال العماد لا من الخادم (يوحنا) بل من سيده (يسوع). لقد ظن الفريسيون أنهم يستريحون من يوحنا بسجنه والخلاص منه، فوجدوا يسوع المسيح قد اجتذب أعدادًا أكبر، فامتلأوا حسدًا.

اهتم السيد المسيح أن يكرز ويجتذب الناس إلى الإيمان به، ثم يسلمهم لتلاميذه للعماد. ولعل السيد المسيح لم يقم بالعماد بنفسه لكي لا يفتخر هؤلاء المعمدون على غيرهم بأنهم نالوا العماد من يد المسيح مباشرة. وقد اهتم بعض الرسل كبولس الرسول بالكرازة تاركًا العماد لغيره (١ كو ١: ١٧)، ليس استخفافًا بسرّ العماد، وإنما لأن ممارسته أسهل من جذب النفوس بالكلمة. هذا وكل عماد مسيحي باسم الثالوث القدوس لا يتممه الكاهن من ذاته، بل هو من عمل المسيح نفسه، الذي يرسل روحه القدوس ليهب المُعمد روح التبني. قوة العماد لا تتوقف على صلاح خادم السرّ، لأن السيد المسيح وحده خادم السرّ الخفي.

❖ لقد عمَّد حقيقة إذ هو الذي كان يغسل، وهو لم يعمد لأنه ليس هو الذي كان يلمس. مارس التلاميذ خدمة الجسد، وهو الذي منح عون جلاله... لا يزال يسوع يعمد، مادمنا نعمد، يسوع يعمد. ليأتِ الإنسان إلى الخدمة التي أسفل بلا خوف، إذ له سيد في العلا. يمكن أن يقول أحد أن المسيح يعمد بالحقيقة بالروح لا بالجسد...

أزل الماء لا توجد معمودية، أزل الكلمة لا يوجد عماد (أف ٥: ٢٥-٢٧)[1].

القديس أغسطينوس

"ترك اليهودية

ومضى أيضًا إلى الجليل". [٣]

كانت الجليل تابعة لهيرودس الذي ألقى القبض على يوحنا ووضعه في السجن، فظن أنه يقدر أن يضع النور تحت مكيال، ولم يدرك أن النور أقوى من الظلمة، وأنه وإن قتل يوحنا فرسالته لن تتحطم، إذ جاء السيد المسيح النور الحقيقي نفسه.

إذ بدأت ثورة الفريسيين ضده والرغبة في قتله، ترك السيد المسيح اليهودية منطلقًا نحو جليل الأمم، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد (يو ٧: ٣٠). ولعله لم يكن بعد تلاميذه يحتملون تجارب قاسية، لذلك انطلق بهم من اليهودية. وفي نفس الوقت يقدم لنا درسًا عمليًا أنه متى اضطهدونا نذهب إلى مدينة أخرى. انطلق إلى الجليل لأن كثيرين مستعدون للإيمان به، ومحتاجون إلى اللقاء معه، والتمتع بكلماته وأعماله.

❖ وإن سألت: لِمَ ذهب المسيح إلى الجليل؟ أجبتك: لم يمضِ عن خوفٍ، لكنه مضى لينزع حسدهم، لأنه كان قادرًا أن يضبطهم إذا أتوا إليه، إلا أنه لم يرد أن يعمل هكذا دائمًا حتى لا يُنكر تدبير تجسده، فلو أنه أمسك به كثيرًا واختفي لشك الكثيرون في أمره (كإنسان)، لهذا السبب كان يدبر أكثر أفعاله أقرب إلى تدبير البشر. وإذ رغب في أن يؤمنوا به أنه الله، كان يريدهم أن يؤمنوا أنه الله وقد حمل جسدًا، لذلك حتى بعد قيامته قال لتلاميذه: "جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي" (لو ٢٤: ٣٩). ولهذا السبب أيضا انتهر بطرس عندما قال: "حاشاك، لا يكون لك هذا" (مت ١٦: ٢٢). هكذا كان هذا الأمر موضوع اهتمامه. فإن هذا ليس بالأمر البسيط بالنسبة لتعاليم الكنيسة، بل يمثل نقطة رئيسية في الخلاص المقدم لنا. فيه كل الأمور تتحقق بنجاح، إذ بهذا انحلت رباطات الموت ودخلت ربوات البركات إلى حياتنا. هكذا أراد علي

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:3.*

وجه الخصوص أن نؤمن بالتدبير (التجسد) كمصدر وينبوع بركات لا حصر لها لنا. ومع هذا بينما كان مهتمًا بناسوته لم يسمح باحتجاب لاهوته[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قدم مثالاً للذين سيؤمنون به، أنه إن انسحب أي خادم للّه من مكان عندما يرى هياج مضطهديه أو الذين يطلبون نفسه للشر لا يخطئ...؛ فإن السيد الصالح فعل هذا ليعلمنا، وليس لأنه كان خائفًا[2].

القديس أغسطينوس

٢. مجيئه إلى السامرة

"وكان لا بد له أن يجتاز السامرة". [٤]

كان لابد أن يجتاز السامرة، لأنها تقع شمال اليهودية بين البحر العظيم والجليل والأردن، فلا يمكن العبور من أورشليم (اليهودية) إلى الجليل دون العبور على السامرة. هذه الرحلة تحتاج إلى ثلاثة أيام سفر.

السامريون من أصل يهودي سواء من جهة الدم أو الديانة؛ عندما سبى ملك أشور إسرائيل ترك الفقراء في الأرض. وقد حدث مزج بين الأصل اليهودي والجنسيات الأخرى خاصة الآشوريين، قام بتدبيره بعض ملوك أشور مثل شلمنصر (٢ مل ١٧)، كما حدث خلط بين الديانة اليهودية وعناصر غريبة وثنية. تمسك السامريون بأسفار موسى الخمسة وحدها. وبنوا هيكلاً على جبل جرزيم مقابل هيكل سليمان في أورشليم، وحسبوا شكيم وليست صهيون هي بيت أيل أو بيت الله. كانوا أيضًا يمارسون الأعياد اليهودية الكبرى: الفصح والبنطقستي والمظال ويوم الكفارة. إلى الآن يقدمون حملاً أو أكثر على جبل جرزيم في عيد الفصح.

كانت **السامرة** جزء لا يتجزأ من أرض فلسطين، يرى إدرزهايم أنها تبلغ ٤٧ ميلاً من الشمال إلى الجنوب و٤٠ ميلاً من الشرق إلى الغرب، تحدها اليهودية في الجنوب والأردن من الشرق وسهل شاردن من الغرب وسهل يزرعيل (الجليل) من الشمال، وقد استولت على أرض سبطي منسي وافرايم. وهي أجمل أراضي المنطقة وأخصبها، تضم العاصمة وهي مدينة السامرة (عاصمة إسرائيل) وبعض المدن القليلة.

---

[1] *Homilies on St. John, 31:1-2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:2.*

جاء السيد المسيح ليلقي بذرة الإيمان الحي في تربة السامرة التي تقبلت الكلمة بالإيمان لا بالمعجزات خلال المرأة السامرية التي يروي لنا الإنجيلي قصة لقائها مع السيد. وهي قصة فريدة حيث يلتقي بها السيد، وهي شبه أممية، ويحاورها ليخرج بها من خصوصياتها المشينة إلى العمل الكرازي، فتجتذب مدينة بأسرها في لحظات قليلة وتقودهم إلى مخلص العالم.

أبرز السيد اهتمامه بالسامرة والسامريين، فمدح الأبرص السامري غريب الجنس، الذي وحده دون التسعة اليهود البرص عاد ليشكر السيد على تطهيره له (لو ١٧: ١٥-١٨). كما قدم لنا مثل السامري الصالح الذي تحرك قلبه بالحب العملي ليهتم بجريح يهودي أكثر من الكاهن اليهودي واللاوي (لو ١٠: ٣٣-٣٦). وأخيرا قبل صعوده وضع علي عنق الرسل الالتزام بالخدمة في السامرة: "تكونون لي شهودًا في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض" (أع ١: ١٨).

فتح الرب الباب للسامرة وكل الأمم، لذلك إذ حدث "اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل" (أع ٨: ١). استقبلت السامرة بعض المؤمنين في العصر الرسولي المبكر. ويروى لنا لوقا البشير عن كرازة فيلبس الرسول في مدينة السامرة"،وكان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الآيات التي صنعها... فكان فرح عظيم في تلك المدينة" (أع ٨: ٥-٨).

أرسل أيضًا الرسل الذين في أورشليم إلى مؤمني السامرة بطرس ويوحنا ليصليا لهم لكي يقبلوا الروح القدس، فوضعا الأيدي عليهم وقبلوا الروح القدس (أع ٨: ١٤-١٧).

❖ لم يمضِ إلى الجليل بلا هدف، وإنما لينجز أمورًا هامة معينة بين السامريين... بحكمة خاصة به... مظهرًا أنه قام بهذا العمل العرضي أثناء الرحلة. وذلك كما فعل الرسل أيضا، فعندما اضطهدهم اليهود ذهبوا في الحال إلى الأمم، هكذا المسيح أيضا عندما طرده اليهود التقى بالسامريين، وهكذا فعل مع المرأة الفينيقية. هذا كله حدث حتى لا يكون لليهود عذر، ولا يمكنهم القول: "لقد تركنا وذهب إلى أهل الغرلة". لقد وجد التلاميذ لأنفسهم عذرا، قائلين: "كان يجب أن تكلموا أنتم أولاً بكلمة الله، ولكن إذ دفعتموها عنكم وحَكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية هوذا نتوجه إلى الأمم" (أع ١٣: ٤٦). عندما طردوه، فتحوا بابا للأمم. لم يذهب إلى الأمم فورًا وإنما أثناء عبوره[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Homilies on St. John, 31:2.*

"**فأتى إلى مدينة من السامرة**

يقال لها سوخار،

بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه". **[٥]**

سوخار: غالبًا هي شكيم عند سفح جبل الجرزيم، كثيرًا ما ورد ذكرها في العهد القديم. اختُتن أهلها على رجاء اتحادهم مع بني يعقوب كشعبٍ واحد، لكن قام شمعون ولاوي بقتلهم بعد الختان انتقامًا لاغتصاب شكيم أختهما دينا (تك ٣٤: ٢٤ الخ). في شكيم صار أبيمالك ملكًا؛ وفيها أقام يربعام عرشه. يرجح البعض أنها قرية "عسكر" على بعد نصف ميل شمالي بئر يعقوب. تبعد حوالي عشرة أميال من شيلوه، ٤٠ ميلاً من أورشليم و٥٢ من أريحا. يرى **القديس جيروم** أنها شكيم وليست سوخار، وكانت تدعى في أيامه نيابوليس *Neapolis*[1]. اسم المدينة الحالي هو نابلس *Naplouse*.

تدعى "**سوخار**" وتعني "سكرى" لأن سكانها كانوا محبين للسكر. وقد اتهم النبي إشعياء (٢٨: ١، ٣؛ ٧: ٨) أهل أفرايم بهذه الجريمة، حيث تقع هذه المدينة في حدودهم.

ورد عن هذه المدينة:

١. أول مدينة وقف فيها أبرام في رحلته من حاران إلى كنعان.

٢. ظهر فيها الله لأبرام لأول مرة ليعده بأن يعطيه الأرض لنسله.

٣. فيها بنى أبرام أول مذبح للرب دعاه باسمه (تك ١٢: ٧).

اشترى يعقوب هذا الحقل من أبناء حمور والد شكيم بمائة قطعة من الفضة أو حملاً (تك ٣٣: ١٩)، وبنى مذبحًا ودعاه إيل إله إسرائيل. وقد ترك يعقوب هذا الحقل كميراثٍ خاصٍ بيوسف وأبنائه (تك ٤٨: ٢١–٢٢؛ يش ٢٤: ٣٢).

❖ لعلك تسأل: لِم دقق البشير في وصف المكان؟ حتى إذا سمعت المرأة قائلة: "ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر؟" لا تستغرب قولها. فإن هذا هو المكان الذي فيه غضب لاوي وشمعون بسبب دينا، وصنعوا مذبحة عنيفة... لم يستخدم السامريون كل الأسفار المقدسة، بل قبلوا كتابات موسى وحدها مع القليل من كتب الأنبياء. لكنهم كانوا مشتاقين إلى إقحام أنفسهم في السلالة اليهودية الشريفة، فيعتزون بإبراهيم ويدعونه أباهم، إذ هم من الكلدانيين، ودعوا يعقوب أيضًا أباهم بكونه من نسله. أما اليهود فكانوا يمقتونهم بشدة كسائر الأمم. لذلك وبخوا المسيح

[1] *Letter 108:13.*

بالقول: "أنت سامري وبك شيطان" (يو ٨: ٤٨)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وكانت هناك بئر يعقوب،
فإذ كان يسوع قد تعب من السفر،
جلس هكذا على البئر،
وكان نحو الساعة السادسة". [٦]

لم يشِر العهد القديم إلى هذه البئر، لكن بالتقليد توارث السامريون أن هذه البئر حفرها يعقوب أو استخدمها، فدُعيت بئر يعقوب. وقد صارت فيما بعد للاستعمال العام.

جاءت الكلمة اليونانية *houtoos* لتعني ليس جلوسًا على عرش أو أريكة أو كرسي وإنما على الأرض، على حجارة ملقاة بجوار البئر.

نحو الساعة السادسة، أي الظهيرة، تعب السيد المسيح بسبب السير في وسط حر الظهيرة. كإنسان حقيقي خضع للضعف الجسدي فتعب. في تواضع كان يمارس رحلاته مشيًا على قدميه، ولم يكن لديه مركبة ولا دابة يمتطيها. وإذ كان جسده رقيقًا لم يحتمل السير حتى الظهيرة بينما لم يجد التلاميذ صعوبة أن يدخلوا المدينة ليشتروا طعامًا. ليس عجيبًا أن نسمع عن السيد أنه تعب وعطش في وقت الظهيرة، وهناك تركه تلاميذه، فإن هذا المنظر يحمل صورة للسيد المسيح علي جبل الجلجثة حيث استراح على الصليب في وقت الظهيرة وقد حمل أتعابنا وأعلن عطشه لكل نفس بشرية. هناك أيضا تركه تلاميذه هاربين، ليجتاز المعصرة وحده.

❖ جاء المسيح إلى هذا الموضع متجنبًا الحياة الرغدة، سالكًا الطريق المتعب مجاهدًا، لأنه لم يستعمل حميرًا في هذا السفر، لكنه مشى بقدميه كثيرا حتى تعب من سفره. وهذا الفعل يعلمنا إياه في كل موضع، أن نعمل مجاهدين لأجل احتياجاتنا دون الكماليات، فلهذا السبب قال: "للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (مت ٨: ٢٠) ولأجل هذا الغرض كان يقيم أكثر أوقاته في الجبال والبراري، ليس في النهار فقط، بل وفي الليل أيضًا. هذا أعلنه داود حين قال: "من الجدول يشرب في الطريق" (مز ١١٠: ٧)، مظهرا بهذا طريقة حياته المجاهدة[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 31:2.*
[2] *Homilies on St. John, 31:3.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن أردت أن تطلب يسوع فلتترك الأحواض المكسورة، لأن المسيح اعتاد أن يجلس ليس بجوار بركة بل بجوار بئر.

هناك وجدته المرأة السامرية، هذه التي آمنت، وأرادت أن تسحب ماءً. وإن كان يجب أن تأتي في ساعة مبكرة صباحًا، مع ذلك فإن أتت في الساعة السادسة تجد يسوع متعبًا من رحلته.

إنه متعب بسببك، إذ طال وقت بحثه عنك. عدم إيمانك جعله متعبًا. ومع هذا فإنك إن أتيت لا يعترض قط.

إنه يسأل أن يشرب ذاك الذي في طريقه أن يعطي. لكنه يشرب لا من ماء جدول يفيض، بل يشرب خلاصك. إنه يشرب من تصرفاتك الصالحة، يشرب الكأس أي الآلام التي يكفر بها عن خطاياك، حتى إذ تشرب من دمه المقدس تروي عطش هذا العالم.

هكذا تمتع إبراهيم باللَّه بعد أن حفر بئرًا (تك ٢١: ٣٠). وإسحق تقبَّل زوجته وهو سائر بجوار البئر (تك ٢٤: ٦٢)، التي كانت قادمة إليه كرمزٍ للكنيسة... رفقة وجدت من يبحث عنها عند البئر، والزانيات اغتسلن من الدم في مياه البركة (١ مل ٢٢: ٣٦)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ قوة المسيح خلقتك، وضعف المسيح (تعبه) جدد خلقتك. قوة المسيح أوجدتك حيث لم تكن؛ وضعف المسيح جعل ما يلزم دماره ألا يهلك. لقد خلقنا بقوته، وبحث عنا بضعفه[2].

❖ كضعيفٍ أنعش الضعفاء، كما تفعل الدجاجة بفراخها. إذ شبه نفسه بالدجاجة، يقول لأورشليم: "كم مرة أردت أن أجمع أولادكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا" (مت ٢٣: ٣٧). وأنتم ترون يا إخوة كيف تصير الدجاجة ضعيفة مع فراخها. ليس بين الطيور عندما تصير أمًا تعرف أن تفعل هكذا... جناحاها يتدليان، وريشها يتساقط، وصوتها يصير أجش، وكل أعضائها تصير غائرة وهزيلة، وكما قلت حتى عندما تراها بدون فراخها تعرف أنها أم.

هكذا يسوع ضعيف ومتعب في رحلته. رحلته هي الجسد الذي أخذه من أجلنا. إذ كيف يكون لذاك الحال في كل مكان رحلة، هذا الذي ليس بغائبٍ في أي موضع؟...

كان يسوع ضعيفًا في الجسد، لكي لا تصير أنت ضعيفًا، بل في ضعفه تصير قويًا، لأن "ضعف

---

[1] *Of the Holy Spirit 1:16:184-185.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:4.*

اللَّه أقوى من الناس"[1].

❖ خُلقت المرأة، كما لو كانت قوية، من الضلع؛ وآدم، كمن هو ضعيف، من التراب. إنه المسيح والكنيسة، ضعفه هو قوتنا[2].

❖ لماذا نحو الساعة السادسة؟ لأنه تحقق ذلك في المرحلة السادسة من العالم. ففي الإنجيل تُحسب كل مرحلة ساعة. المرحلة الأولى من آدم إلى نوح، والثانية من نوح إلى إبراهيم، والثالثة من إبراهيم إلى داود، والرابعة من داود إلى السبي البابلي، والخامسة من السبي البابلي إلى معمودية يوحنا، ومنذ ذلك الوقت تبدأ المرحلة السادسة[3].

القديس أغسطينوس

❖ جلس هكذا، ماذا يعني بهكذا"؟ ليس على عرش ولا على وسادة، ولكن ببساطة كما على الأرض[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. حوار مع السامرية

"فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماء،

فقال لها يسوع:

أعطيني لأشرب". [٧]

مجيء المرأة عند الظهيرة بعد أن حمل الرجال والنساء مياههم إلى منازلهم يكشف عن موقف الشعب منها؛ إذ لم تكن لها الجرأة أن تواجه أحدًا، فجاءت في وسط الحرّ لتستقي ماء من البئر بمفردها. مسيحنا هو إله المرذولين والمطرودين، يخرج منهم أبناء الملكوت وكارزين بالحق.

واضح أن هذه المرأة السامرية كانت فقيرة، ليس لها خادم يُحضر لها ماءً من البئر، وأنها مكافحة ذهبت بنفسها إلى البئر لتأتي بالماء.

هذا اللقاء يذكرنا برفقة وراحيل وابنة يثرون كيف تزوجن خلال اللقاء عند البئر بزيجات مباركة باسحق ويعقوب وموسى. هكذا وجدت السامرية عريس نفسها عند بئر يعقوب. ونحن نجد مسيحنا

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:7.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:8.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:9.*
[4] *Homilies on St. John, 31:3.*

عريسًا لنا عند جرن المعمودية.

بدأ السيد المسيح حواره معها بطلب متواضع: أن يشرب ماءً. ذاك الذي من أجلنا افتقر، الآن من أجلنا صار شحاذًا لكوب ماء، ليس لاحتياج شخصي، وإنما ليكشف لها عن احتياجها هي إليه،فتشرب وترتوي من ينابيع نعمته الغنية.

❖ ماذا تعني "أنا عطشان"؟ إني أتوق إلي إيمانك[1].

❖ ذاك الذي سأل أن يشرب كان في عطشٍ إلى إيمان المرأة نفسها[2].

القديس أغسطينوس

❖ هنا نتعلم من جهاده في رحلته، وعدم اهتمامه بالطعام، وكيف تطلع إليه كأمرٍ قليل الأهمية. وقد تعلم التلاميذ أن يستخدموا تدبيرًا مشابهًا، إذ لم يأخذوا معهم أية مئونة للطريق. يعلن ذلك إنجيلي آخر قائلاً بأنه عندما تحدث السيد معهم عن "خمير الفريسيين" (مت ٦: ١٦) ظنوا انه قال هذا لأنه لم يكن معهم خبز، وعندما قدمهم لنا وهم يقطفون سنابل القمح ويأكلوا (مت ١٢: ١)، وأيضا قال أن يسوع جاء إلى شجرة التين إذ كان جائعًا (مت ٢١: ١٨)، كل هذا أورده لا لشيء سوى أن يعلمنا بهذا أن نستخف بالبطن، ولا نحسب خدمتها أمرًا يقلق انتباهنا[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعامًا". [٨]

❖ في هذا الموضع لم يظهر فقط جهاده، وإنما أظهر تحرره من الكبرياء، ليس فقط بكونه كان متعبًا ولا بجلوسه علي جانب الطريق، وإنما بتركه وحده وترك تلاميذه له. فكان في قدرته – إن أراد – ألا يرسلهم جميعًا، أو يترك البعض يذهب والآخرين يخدمونه. لكنه لم يرد هذا، فقد جعل تلاميذه يعتادون على وطأ الكبرياء تحت أقدامهم.

وأي عجب إن كانوا يسلكون باعتدال في اشتياقاتهم ماداموا كانوا صيادي سمك وصانعي خيام؟" نعم كانوا صيادي سمك وصانعي خيام، لكنهم في لحظة صعدوا حتى إلى أعالي السماء، وصاروا أكثر كرامة من كل الملوك الأرضيين، إذ حسبوا أهلاً أن يصيروا في رفقة رب العالم، وأن يتبعوا ذاك الذي يتطلع الكل إليه برعدة. وأنتم تعلمون هذا أي أن الذين كانوا على وجه الخصوص من أصل

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 49:3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:11.*
[3] *Homilies on St. John, 31:3.*

وضيع عندما ينالون امتيازًا بسهولة شديدة ينتفخون في غباوة، إذ يجهلون تمامًا كيف يحتملون كرامتهم التي نالوها فجأة. لهذا فلكي يحفظهم في تواضعهم الحاضر كان دائمًا يعلمهم أن يكونوا معتدلين، ولا ينتظروا أحدا يستقبلهم (بكرامة)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

بينما مضى التلاميذ إلى المدينة ليشتروا طعامًا استغل السيد هذه الفرصة ليدخل في حوارٍ مع المرأة السامرية، ويسحبها هي وأهل المدينة لخلاصهم. هذا هو طعامه الحقيقي أن يتمم مشيئة الآب، وهي خلاص النفوس.

مسيحنا الذي يهتم بالحديث مع الجماهير يهتم أيضًا أن يلتقي مع شخص واحد، امرأة فقيرة غريبة الجنس وسامرية تحمل عداءً لليهود.

❖ ذهبوا ليبتاعوا أطعمة، لأنهم لم يكونوا مثلنا نحن الذين عندما ننهض من أسرتنا نهتم قبل اهتماماتنا كلها بهذا الأمر، وهو أن نستدعى طباخين ومصلحي أطعمتنا وخدام موائدنا ونوصيهم بحرص كثير على إصلاح مأكولاتنا، وبعد ذلك نمارس أشغالنا العادية كلها، ونهتم بها قبل الأشغال الروحية، لأنه كان **واجبًا** علينا على خلاف ذلك أن نجعل اهتمامنا بالأشغال الروحانية كثيرًا، وبعد أن نتممها حينئذٍ نمارس أيضًا الأشغال العادية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فقالت له المرأة السامرية:

كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟

لأن اليهود لا يعاملون السامريين". [٩]

لقد عرفت السامرية أنه يهودي من ملبسه المختلف عن السامريين أو من لهجة حديثه. وما شغل قلبها ليس أن تعطيه الطلب أو ترفضه، وإنما لهجة حديثه التي لم تحمل عداءً مع أن السامريين كانوا خصومًا لليهود (عز ٤: ١). وهي تعلم ما يحمله اليهود من حقدٍ وضغينة ضد السامريين، حيث يتطلعون إليهم أن لا نصيب لهم في القيامة، وأنهم في نظرهم تحت اللعنة ومحرومون من شعب الله. وأنه لا يجوز أن يأكل يهودي طعامًا لسامري لئلا يتنجس كمن يأكل لحم خنزير. أما السيد المسيح فلم ينشغل بالعداوة التي بين اليهود والسامريين، إنما ما يشغله جذبه للنفس لتتمتع بخلاصه.

دُهشت المرأة السامرية لموقف السيد المسيح، فإنه ما كان يمكن ليهودي أن يطلب شيئًا من

[1] *Homilies on St. John, 31:3.*

سامري، مهما بلغ احتياجه، أو واجه من متاعب ومصاعب، دون أي استثناء. كما دُهشت كيف يتوقع من سامرية أن تعطيه طلبه بينما يحمل السامريون عداءً لليهود.

لم يكن هناك تعامل بين اليهود والسامريين سواء من جانب العبادة أو التجارة، بل ولا يجوز لليهودي أن يستعير إناءً من سامري أو يشاركه نفس الطعام.

❖ ومن أية جهة ظنت أنه يهودي؟ لعلها ظنت ذلك من ملبسه ومن لهجة كلامه.

تأمل كيف كانت المرأة السامرية مؤدبة، لأنها لم تقل إن السامريين لا يختلطون باليهود، لكنها قالت لا "**لأن اليهود لا يعاملون السامريين**"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لقد تدرجت في معرفة السيد المسيح بفضل حديثه وإعلاناته التدريجية.

- في بداية حديثه معها حسبته يهوديًا لا يخالط السامريين [٩].
- دعته: "يا سيد" [١١].
- توقعت أنه أعظم من يعقوب أب الأسباط [١٢].
- آمنت أنه واهب المياه الحية [١٥].
- أنه نبي [١٩].
- توقعت أن يكون المسيا المنتظر [٢٥]، فقال لها: "أنا الذي أكلمك هو" [٢٦].

"**أجاب يسوع وقال لها:**

لو كنتِ تعلمين عطية الله،

ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب،

لطلبتِ أنتِ منه،

فأعطاكِ ماءً حيًا". [١٠]

سحب السيد المسيح هذه المرأة إلى طريق الخلاص، لا بالهجوم على العبادة في السامرة، بكونها منشقة، وأنها قد شوهت الإيمان والعبادة، وإنما بسحب فكرها من الانشغال بالعداوة القائمة بين الفريقين إلى الدخول إلى أعماق نفسها لتعطش إلى الماء الحي، وتدرك حاجتها إلى المخلص. الآن ليس الوقت للنزاع، بل للجلوس الهادئ مع النفس والتمتع بعطايا الله المجانية. فقد حان وقت افتقاد الله

[1] *Homilies on St. John, 31:4.*

للعالم كله بإرسال المسيّا المخلص. شهوة قلب السيد المسيح أن نعرفه، فنطلبه ونقتنيه، فنرتوي منه أبديًا!

ما تحتاج إليه هو المعرفة الصادقة: "**لو كنتِ تعلمين عطية الله**"، "**ومن هو الذي يقول لكِ...**". معرفة عطية الله لها، ومعرفة المتحدث معها، لأنه هو العطية العظمى! هو كنز الحب الإلهي الفائق، المروي للنفس الظمأ. إنه ليس قرضًا نستدين به لنرده، بل عطية مجانية، يُسر الآب أن يقدمها للبشرية.

لم تكن تدرك عطية الله الذي أرسل ابنه الوحيد ليبذل ذاته عن العالم (يو ٣: ١٦)، ولا عطية الروح القدس الذي يفيض في النفس كنهرٍ يرويها ويروي آخرين، ويقدم الروح مواهب روحية لا حصر لها لخلاص العالم. هذه العطايا إلهية مجانية قدمها الله من أجل مبادرته بالحب لنا ونحن بعد أعداء. تبقى هذه العطية مصدر معرفة إلهية مستمرة حتى في الحياة الأبدية: "وأراني نهرًا صافيًا من ماء الحياة، لامعًا كبلورٍ خارجًا من عرش الله والخروف" (رؤ ٢٢: ١).

❖ عطية اللَّه هو الروح القدس. لكنه حتى ذلك الحين كان يتحدث مع المرأة بحرصٍ، ويدخل إلى قلبها تدريجيًا[1].

القديس أغسطينوس

"**الماء الحي**" هو تعبير شائع لينابيع المياه التي تفيض بلا توقف، يقابله "الماء الميت" الراكد في البرك والمستنقعات ومخازن المياه حيث تتعرض للتلوث. يشير الماء الحي إلى الروح القدس الذي يروي النفس ويحول قفرها إلى فردوسٍ مثمرٍ، ويغسل ما في النفس من دنس.

❖ أوضح المسيح هنا أن المرأة (السامرية) مستحقة أن تسمع، وليست أهلاً للإعراض عنها، وبعد ذلك كشف لها عن ذاته. فإنها ما أن تعلمت من هو، للحال استمعت إليه وأصغت، الأمر الذي لا يُقال عن اليهود، لأنهم إذ تعلموا لم يسألوه شيئًا، ولا رغبوا في الانتفاع بأمرٍ ما منه، بل شتموه وطردوه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذا هو الماء الذي عطش إليه داود. إذ تشتاق الإيل إلى ينبوع تلك المياه (مز ٤٢: ٣)، ولا تعطش إلى سم الحيَّات. لأن مياه نعمة الروح حيّة، تطهر الأجزاء الداخلية للعقل وتغسل كل

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 15:12.*
[2] *Homilies on St. John, 31:4.*

خطية للنفس، وتطهر عصيان الأخطاء الخفيَّة[1].

القديس أمبروسيوس

"**لطلبتِ**": المعرفة الصادقة تدفعنا نحو الصلاة والطلبة. فالله من جانبه مستعد أن يهب، لكنه ينتظر أن نعلن رغبتنا في الأخذ، نطلب فنأخذ.

"**قالت له المرأة:**

يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة،

فمن أين لك الماء الحي؟" **[١١]**

يرى *Maundiell* أن عمق البئر كان حوالي ٣٥ ياردة[2]، استخراج الماء يتطلب دلوًا وحبلاً طويلاً لم يكن مع السيد ولا مع تلاميذه. بدا لها ما يقوله السيد ليس بمنطقي، لأنه كان يحدثها عن الروحيات بينما كانت هي تفكر بطريقة مادية. ومع هذا فمن لهجة حديثه شعرت بالالتزام أن تحترمه وتوقره، فبدأت تقول: "**يا سيد**".

اعتزت السامرية بالبئر التي حفرتها يد بشرية، ولم تدرك أنها أمام الينبوع الإلهي الحي. فقد سبق فعاتب الرب شعبه قائلا لهم: "شعبي عمل شرين، تركوني أنا ينبوع المياه الحية، لينقروا لأنفسهم آبارًا آبارًا مشققة لا تضبط ماء" (إر ٢: ١٣).

❖ انظر كيف أجابت المرأة المسيح بأوفر دعة قائلة: "**يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة، فمن أين لك الماء الحي؟**" لأنها لم تدعه هنا سيدًا على بسيط ذات التسمية، لكنها كرمته كثيرًا. والبرهان على أنها قالت هذه الأقوال مكرمة إياه، أنها لم تضحك عليه، لكنها تحيرت بسرعة. وإن كانت لم تفهم في الحال كل ما يجب أن تفهمه عن المسيح فلا تتعجب، لأنه ولا نيقوديموس فهم معنى كلام المسيح.

تأمل ما قاله نيقوديموس: "كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟" (يو ٣: ٤)، أما هذه المرأة فكانت أوفر توقيرًا من نيقوديموس، إذ قالت: "**يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة، فمن أين لك الماء الحي؟**" كان يمكنها أن تقول قولاً على سبيل التهجم: "لو كنت تمتلك هذا الماء الحي لما طلبت مني ماءً، بل تعطيه لنفسك أولاً، فأنت الآن إنما تفتخر بذلك". إلا أنها لم تنطق بلفظ من هذه الألفاظ، لكنها أجابت بوداعة كثيرة في ابتداء الخطاب.

---

[1] *Of the Holy Spirit 1:16:175.*
[2] *Adam Clarke Comm.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر،
وشرب منها هو وبنوه ومواشيه؟" [١٢]

كان السامريون يحسبون أنفسهم أبناء يعقوب، لأنهم أسباط إسرائيل العشرة التي انشقت أيام يربعام، لكنهم كما رأينا صاروا يحملون دمًا غريبًا من أمم مختلفة.

❖ كأن المرأة السامرية تقول للمسيح: "إن أبانا يعقوب قد أعطانا هذه البئر ولم يستعمل بئرًا غيرها، لأنه هو والمنسوبين إليه شربوا من هذه البئر، فما كانوا يشربون منها لو كانوا يمتلكون أفضل منها، فما تقدر أنت أن تعطينا أفضل من هذه البئر ومن هذا الماء. ولا يمكنك أن تمتلك بئرًا أخرى أفضل من هذه. إن لم تعترف بأنك أعظم من أبينا يعقوب، فمن أين تمتلك الماء الذي تعدنا أن تعطيه لنا؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

حسن أن تعتز السامرية ببئر أبيها يعقوب، لكنها لم تعرف كيف تعبر خلاله إلي إله يعقوب واهب المياه الحية. كان يليق بها أن تنطلق مع يعقوب أبيها لترى سلم يعقوب الصاعد من رأسه إلى السماء، فتتهلل بالصليب فاتح أبواب السماء للعالم كله! وحسن أن تناقش السجود لله: هل على جبل أورشليم أم على جبل جرزيم لكي تعبر مع رجال العهد القديم القديسين إلى ما وراء الجبال، فتتمتع بالسجود لله بالروح والحق. ما أعظمها وهى تتلمس فيه أنه المسيا الذي تترقبه الأجيال ليخبرهم بكل شيء، فتأهلت أن يعلن لها: "**أنا الذي أكلمك هو**". بلغت قمة الإعلان الإلهي بفم المخلص نفسه، ففاقت الكثيرين.

"أجاب يسوع وقال لها:
كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا". [١٣]

❖ لم يُجِبها: "نعم، أنا أعظم من يعقوب"، لكنه بلغ هذا الهدف بحديثه معها... راغبًا في إيضاح طبيعة الأمور، ومدى الفرق الشاسع والاختلاف الكامل بين شخصي المعطيين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الماء الذي في البئر هو ملذات العالم في أعماقه المظلمة، من هذا يسحب البشر بأوانيهم التي

[1] *Hom. On John, 32:1.*

للشهوة... لتحسبوا الشهوة هي الدلو، واللذة هي الماء الذي من عمق البئر. عندما يحصل شخص على لذة هذا العالم، فإن هذا بالنسبة له طعام وشراب وحمَّام وأبهة وسلاح، فهل يمكنه ألا يعطش مرة أخرى؟[1]

القديس أغسطينوس

"**ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا،**

فلن يعطش إلى الأبد،

بل الماء الذي أعطيه، يصير فيه ينبوع ماء، ينبع إلى حياة أبدية". **[١٤]**

لم يوبخها السيد المسيح لأنها ظنت يعقوب أعظم منه، وماء البئر أفضل من مائه الحي، بل في لطفٍ شديٍ بدأ يكشف لها عن الماء الحي، مقارنًا إياه بماء بئر يعقوب. أوضح أنه لا وجه للمقارنة بين ماء يروي الجسد إلى حين، وماء يسند النفس أبديًا ويرويها، فلا تعتاز إلى شيء.

الماء الذي يقدمه السيد له ميزات خاصة:

- هو عطية إلهية "**أنا أعطية**"، لذا يهب فرحًا إلهيًا: "فتستقون مياهًا بفرحٍ من ينابيع الخلاص" (إش ١٢: ٣).
- يهب حياة أبدية بلا احتياج، "**لن يعطش إلى الأبد**". "من يقبل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدًا" (يو ٦: ٣٥).
- ماء داخلي في النفس "**يصير فيه**". لذا يناجيها واهب المياه الحية، قائلا: "أختي العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم" (نش ٤: ١٢).
- يحول الأعماق إلى **ينبوع فياض على الغير**. "من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي" (يو ٧: ٣٨).

يسمي السيد المسيح الروح نارًا، مشيرًا إلى النعمة التي تنشط وتدفئ، قادرة على محو الخطايا والتطهير منها، كما أنه في تعبيره عنه بالماء يعلن عن قدرته على التنظيف وإزالة الأوساخ، والانتعاش العظيم الذي تحدثه في العقول التي تقبل الروح.

اشتهى الأنبياء هذه المياه الحية، حيث يسمعون الدعوة المقدمة للكل: "أيها العطاش جميعًا، هلموا إلى المياه" (إش ٥٥: ١). كما قيل: "لا يجوعون ولا يعطشون، ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه يوردهم" (إش ٤٩: ١٠). كما قيل في سفر الرؤيا: "لن يجوعوا

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:16.*

بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس، ولا شيء من الحر، لأن الخروف في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية" (رؤ ٧: ١٦).

❖ يعني بهذا مياه المعمودية المخلصة، والتي بالحق قدمت مرة ولن تُعاد ثانية[1].

القديس كبريانوس

❖ يسمي الكتاب المقدس نعمة الروح القدس أحيانًا نارًا وأحيانًا ماءً، مظهرًا أن هذه الأسماء لا تصف جوهره بل عمله. لأن الروح القدس غير منظور ولا مركب، ولا يمكن أن يتألف من موادٍ مختلفةٍ. لقد أعلن يوحنا (المعمدان) ذلك قائلاً: "هو سيعمدكم بالروح القدس ونار" (مت ٣: ١١). أما الآخر (يوحنا الإنجيلي) فيقول بلسان السيد المسيح: "من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي" (يو ٧: ٣٨). قال هكذا عن الروح الذي كان المؤمنون مزمعين أن يقبلوه. وفي حديثه عن السامرية دعا الروح ماء "**لأن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد**"[2].

❖ إذ سمع المسيح قول المرأة له: "فمن أين لك الماء الحي، ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر؟" [١١-١٢] ترك يعقوب وخاطبها في وصف الماء قائلاً: "**كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا**".

سمعت المرأة من قبل هذا القول: "**الماء الحي**" لكنها لم تفهم، لذلك أوضح لها المسيح هذا المعنى أفضل إيضاح فقال: "**لكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا، فلن يعطش إلى الأبد**"، لأن هذا أعظم سموًا من الماء بكثير، فكما أن من يملك بئرًا موضوعة داخل منزله لا يعاني من العطش في وقت من الأوقات، كذلك من يمتلك هذا الماء لن يعطش في وقت من زمانه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ واضح أن هذه البئر هي نعمة الروح، جدول يفيض من ينبوع حيّ. فالروح القدس هو أيضًا ينبوع الحياة الأبدية...

حسنة هي هذه المياه، نعمة الروح القدس... ليتها تفيض فيَّ، ليت هذه التي تعطي الحياة الأبدية تفيض عليّ.

---

[1] *EP. 62 to Caecillius.*
[2] *Hom. On John, 32: 1.*

ليفِض الينبوع علينا، ولا يفيض بعيدًا عنا. إذ تقول الحكمة: "اشرب مياهًا من أوانيك، ومن ينابيع آباؤك، ولتفض مياهك في شوارعك" (راجع أم ٥: ١٦-١٧). كيف احتفظ بآنيتي حتى لا يتسلل إليها شقوق الخطية، فلا تتسرب منها مياه الحياة الأبدية؟

علمنا أيها الرب يسوع، علِّمنا كما علَّمت رسلك قائلاً: "لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث لا يفسد السوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون" (مت ٦: ١٩-٢٠)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ حينما يتحقق الوعد للشخص المطَّوب لأنه يجوع ويعطش إلى البرِّ (مت ٥: ٦)، فإنه يشرب من الماء الذي يعطيه، فيكون له ينبوع ماء يثب (يفيض) إلى حياة أبدية، يقوم فيه[2].

❖ يليق أن يلاحظ الشخص بأن الوعد بالماء لم يُعطَ للمرأة السامرية عندما سألته ذلك، كما لو أن يسوع يريد ألا يقدمه إلاَّ من الينبوع، إذ قال لها: "اذهبي وأدعِ زوجك وتعالي" [١٦][3].

العلامة أوريجينوس

إن كان **العلامة أوريجينوس** قد كرس طاقاته وقدراته منذ طفولته للتمتع بالكتاب المقدس وشرحه لكنه ميَّز بين مياه الكتاب المقدس والمياه التي يقدمها رب المجد يسوع. فإن الكتاب يفيض بالأسرار الإلهية على النفس لنتمتع بالشركة مع الثالوث القدوس، لكن تبقى بعد الأسرار يحتفظ بها الرب يسوع ليقدمها سرًا للنفس المتحدة معه. إنه العريس السماوي الذي يفيض بأسراره على عروسه في مجال العرس.

❖ حقًا إن الكتاب المقدس لا يحوي بعض جوانب من أسرار الله التي هي بالأكثر ربانية وإلهية، والتي لا تحوي صوتًا بشريًا ولسانًا إنسانيًا، وذلك كما يُفهم من المعاني المعنية: "وأشياء أخر كثيرة أيضًا صنعها يسوع، إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة" (راجع يو ٢١: ٢٥).

لقد مُنع يوحنا من الكتابة عندما بدأ يسجل كل ما قالته السبعة رعود (رؤ ١٠: ٤). بولس أيضًا يقول أنه سمع كلمات لا يسوغ النطق بها (٢ كو ١٢: ٤). هذه الكلمات لم يكن مسموح لأحدٍ أن يعلنها...

---

[1] *Of the Holy Spirit 1:16:181-182.*
[2] *Commentary on John, Book 13:20.*
[3] *Commentary on John, Book 13:25.*

أظن أن كل الكتب المقدسة حتى حين تُدرك بكل دقة ليست إلاَّ مدخلاً للمبادئ ومقدمة مختصرة لكل المعرفة... ماء يسوع هو ذاك الذي يفوق ما هو مكتوب (١ كو ٤: ٦).

الآن غير مسموح للكل أن يمتحن الأمور التي تفوق ما هو مكتوب (١ كو ٤: ٦)... "لا تطلبوا لكم الأمور الفائقة العلو، ولا تبحثوا ما فوق قدرتكم" (راجع ابن سيراخ ٣: ٢١)...

أيضًا الأمور التي لم تدخل قلب إنسان هي أعظم من بئر يعقوب. تُعلن هذه الأمور من ينبوع ماء يفيض (يثب) إلى حياة أبدية للذين لم يعد بعد لهم قلب إنسان، لكنهم قادرون على القول "لنا فكر المسيح" (١ كو ٢: ١٦). "لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله، التي نتكلم بها أيضًا، لا بأقوال تُعلمها حكمة إنسانية، بل بما يعلمه الروح القدس" (١ كو ٢: ١٢-١٣)...

الكتب المقدسة إذن هي مقدمات، تُدعى بئر يعقوب. إذ تُدرك بدقة للحال يلتزم الشخص أن يصعد منها إلى يسوع، لكي يتمتع بسخاء بينبوعٍ يثب إلى حياة أبدية.

لكن ليس كل أحد يسحب ماءً من بئر يعقوب بنفس الطريقة. فإن كان يعقوب وبنوه ومواشيه شربوا منها (يو ٤: ١٢)، والمرأة السامرية أيضًا جاءت إليها وشربت ماءً وعطشت، لكن ربما شرب يعقوب وبنوه بطريقة ما بمعرفة كاملة، وشربت مواشيه بطريقة أخرى في بساطة مثل الحيوانات، والسامرية شربت بطريقة أخرى غير يعقوب وبنيه ومواشيه. فالبعض حكماء يشربون من الكتب المقدسة مثل يعقوب وبنيه. آخرون أكثر بساطة وبراءة يُدعون "قطيع المسيح" (يو ١٠: ٢٦) يشربون مثل مواشي يعقوب. وآخرون يسيئون فهم الكتب المقدسة ويستخدمون أمورًا غير لائقة ينسبونها للنصوص التي يفهمونها من الكتب المقدسة، هؤلاء يشربون مثل المرأة السامرية قبل إيمانها بيسوع[1].

العلامة أوريجينوس

❖ يوجد ماء حي، ينطق فيّ قائلاً: "تعال إلى الآب"[2].

القديس أغناطيوس الأنطاكي

❖ بما أن طبيعتنا تحولت إلى حجارة بواسطة عبادة الأصنام، وأصبحت مُجمدة في الوثنية الباردة، وغير القادرة على التقدم، بزغت شمس البرّ (ملا ٤: ٢). في هذا الشتاء القارس تحقق ظهور الربيع. وأزالت رياح الجنوب الدافئة آثار البرد، وأدخلت أشعة الشمس المشرقة الدفء في كل الأرض. لذلك، فالجنس البشرى الذي كان قد تحول إلى حجارة بواسطة البرد، قد يشمله الدفء

[1] *Commentary on John, Book 13:27 - 39*
[2] *Romans 7:2.*

بواسطة الروح القدس أشعة كلمة الله، وهكذا يصبح مرة أخرى مثل المياه التي تهب الحياة الأبدية (يو ٤: ١٤). "المحول الصخرة إلى غدران مياه، الصّوان إلى ينابيع مياه" (مز ١١٤: ٨)[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"**قالت له المرأة:**

يا سيد اعطني هذا الماء لكي لا أعطش،

ولا آتي إلى هنا لأستقي". **[١٥]**

❖ لما قال المسيح للمرأة (السامرية): "الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية" قالت المرأة في الحال: "**يا سيد أعطني هذا الماء**" (يو ٤: ١٥). أرأيت كيف أن المرأة صعدت قليلاً قليلاً إلى التعاليم العلوية؟ لأنها في الأول ظنت أن المسيح شخص يهودي منحرف عن شريعته... و**لما سمعت المرأة** "**ماء حيًا**" **[١٤]** ظنت أن هذا القول قد قيل في وصف ماء محسوس، وصدقت أن ذلك الماء يقدر أن يبطل العطش، ولم تعرف بعد ما هو هذا الماء، لكنها تحيرت أيضًا فظنت أنه أعلى قدرًا من المياه المحسوسة، وقالت: "**أعطني هذا الماء لكي لا أعطش، ولا آتي إلى هنا لأستقي**".

أرأيت كيف أن المرأة فضلت المسيح على رئيس الآباء إذ أوضحت رأيها في يعقوب ومقدار عظمته وعرفت الأفضل منه؟

❖ هنا اكتسبت بصيرة أكثر جلاءً. لكنها لم تكن قد أدركت بعد الصورة الكاملة، لأنها قالت: "**أعطيني هذا الماء حتى لا أعطش، ولا آتي إلى ههنا لأستقي**" [١٥]. هنا تفضله عن يعقوب. لأن لسان حالها يقول: "لن أحتاج إلى هذه البئر مادمت أنال منك هذا الماء..." بعد أن أوضحت تقديرها ليعقوب، شاهدت من هو أفضل منه، وبهذا لم تعقها أفكارها السابقة... ولا كانت مجادلة متمردة[٢].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بالحق قد ظهر واضحًا أن القول: "لطلبتِ أنتِ منه، فأعطاكِ ماءً حيًا" [١٠] صادق. لأنها عندما قالت: "**أعطني من هذا الماء**" [١٥] تسلمت الماء الحي، فلا تكون بعد في حالة فقدان عندما

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٥.

[2] *Hom. On John, 32.*

تعطش، كما لا تأتي إلى بئر يعقوب لتسحب ماءً.

تستطيع الآن أن تتأمل في الحق بعيدًا عن ماء يعقوب، بطريقة ملائكية تفوق الإنسان. لأن الملائكة ليسوا في حاجة إلى بئر يعقوب لكي يشربوا.

كل ملاك له في داخله ينبوع ماء يثب إلى حياة أبدية وُجد بواسطة الكلمة، ويُعلن به وبالحكمة نفسها.

على أي الأحوال إنه غير ممكن للشخص الذي لا ينشغل باجتهاد قادمًا إلى بئر يعقوب، وساحبًا ماءً منه بسبب عطشه، أن يقبل الماء الذي يعطيه الكلمة الذي يختلف عن بئر يعقوب. لهذا، كثير من الناس، في عجزٍ شديدٍ في هذا الجانب، في تدريب أنفسهم لمدة طويلة على سحب ماء من بئر يعقوب[1].

العلامة أوريجينوس

"**قال لها يسوع:**

اذهبي وادعي زوجك وتعالي إلى ههنا". **[١٦]**

حوَّل السيد المسيح الحوار من الحديث عن الماء إلى الحديث عن حياتها الزوجية، فإن كانت قد أدركت أنها في حاجة إلى ماء من صنفٍ جديدٍ قادر أن يروي، ويهب حياة أبدية، فإنه يلزمها أن تعيد تقييم حياتها الزوجية، فإنها في حاجة إلى عريس لنفسها.

أوضح السيد المسيح لها، دون أن يجرح مشاعرها، أنه يعرف ما في قلبها كما يعرف كل أسرارها العائلية، لكي يحثها على الشعور بالخطية وحاجتها إلى التوبة.

"**أجابت المرأة وقالت:**

ليس لي زوج.

قال لها يسوع:

حسنًا قلتِ ليس لي زوج". **[١٧]**

ياله من طبيب إلهي ماهر، فقد كشف عن علة المرأة، وبدأ بمشرطه الإلهي أن يضرب في الجسد لكن بمهارة وقدرة وحب، فجعلها تعترف بما لم يكن لامرأة أن تنطق به: "**ليس لي زوج**". لم يصدر اعترافها عن تبكيتٍ جارحٍ، ولا عن تشهيرٍ بها حتى أمام نفسها، إنما بحبه أيقظ ضميرها، وكشف لها عن شخصه، فاطمأنت له وصارحته بحقيقة موقفها، إذ أدركت أنه قادر أن يضمد جراحاتها ويرد لها

[1] *Commentary on John, Book 13:41 – 42.*

صحتها الروحية.

❖ لقد قلنا قبلاً أن الناموس الذي يحكم النفس، حيث يخضع كل أحد ذاته له، هو الزوج. الآن نقتبس شهادة عن ذلك من الرسول في رسالته إلى أهل رومية حيث يقول: "أم تجهلون أيها الأخوة، لأني أكلم العارفين بالناموس، أن الناموس يسود على الإنسان ما دام حيًا... فإن المرأة التي تحت رجل هي مرتبطة بالناموس بالرجل الحي" (رو ٧: ١–٢). كما أن رجلها الحي يعني من كان رجلها هو الناموس. يقول بعد ذلك: "ولكن إن مات الرجل فقد تحررت من الناموس، الرجل"... إذ لا تعود تتمم واجبات الزوجة نحو الزوج... الآن فقد مات الناموس حسب الحرف، ولم تعد النفس زانية إذ تصير لرجلٍ آخر، أي ترتبط بالناموس حسب الروح. لكن عندما يموت الرجل عن الزوجة، ربما يُقال أيضًا أن الزوجة قد ماتت عن الزوج. إذ نحن بالتبعية نفهم العبارة هكذا. "إذًا أنتم أيضًا قد متم للناموس بجسد المسيح، لكي تصيروا لآخر للذي قد أُقيم من الأموات لنُثمر لله" (رو ٧: ٤).

إذن إن كان الزوج يُعرف بأنه الناموس، والسامرية لها زوج إذ أخضعت نفسها إلى ناموس ما على أساس سوء فهم للتعاليم السليمة، الناموس الذي به كل مبتدع يود أن يعيشه، هنا يريد الكلمة الإلهي من النفس المبتدعة أن تُفضح عندما تُدخل الناموس الذي يحكمها. وإذ تحتقر نفسها لأنها لا تنتمي إلى زوجٍ شرعيٍ تبحث عن زوج آخر. إنه يود لها أن تنتمي إلى آخر، إلى الكلمة الذي يقوم من الأموات، الذي لن يهزم ولن يهلك، بل يبقى إلى الأبد (إش ٤٠: ٨؛ ١ بط ١: ٢٥)، هذا الذي يحكم ويُخضع كل أعدائه (مز ٨: ٧؛ أف ١: ٢٢). فإن "المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت أيضًا، لا يسود عليه الموت بعد؛ لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة، والحياة التي يحياها فيحياها لله" (رو ٦: ٩–١٠)، بكونه عن يمينه (عب ١٠: ١٢)، حتى يخضع كل أعدائه تحت قدميه (مز ١٠٩: ١)... لهذا السبب يقول يسوع لها: "**اذهبي وادعي زوجك**"... وإذ أجابته "**ليس لي زوج**" [١٧] أدانت نفسها على ارتباطها بزوج كهذا[1].

العلامة أوريجينوس

"لأنه كان لك خمسة أزواج،
والذي لكِ الآن ليس هو زوجك.
هذا قلتِ بالصدق". [١٨]

[1] *Commentary on John, Book 13:43 – 50.*

في رقة عجيبة لم يجرح مشاعرها لأنها تعيش مع من هو ليس برجلها بعد خمس زيجات، وحوَّل حوارها من المجادلة حول الخلافات بين اليهود والسامريين إلى العبادة الجديدة التي تضم كل العالم، ويتمتع بها المؤمن أينما وجد.

يرى **القديس جيروم** أنه يليق ترك الرجال الخمسة الذين يشيرون إلى حرفية الناموس في الأسفار الموسوية، والرجل السادس وهو يشير إلى المبتدعين، لكي نلتقي بالسيد المسيح مخلص العالم[1].

يرى **القديس أغسطينوس** أن هذه المرأة قد تزوجت بخمسة رجال والذي معها ليس برجلها. الأزواج الخمسة هم الحواس الخمس، فقد ارتبطت نفسها بالحواس الجسدية، التي لم تستطع أن تشبعها، لأنها لا تقود النفس إلى الأبدية، بل إلى المحسوسات الزمنية المؤقتة. والآن الذي معها ليس برجلها، إنه العقل (غير المقدس) الذي لا يقودها إلى الكلمة والحق، بل إلى الخطأ، يقدم لها مفاهيم خاطئة. إنها محتاجة إلى عريس نفسها، رجلها القادر أن يقودها إلى الحكمة والحق والشبع.

❖ كم كانت حكمة هذه المرأة عظيمة، وكم كان خضوعها إذ قبلت التوبيخ... في هذا التوبيخ يذكر أمرين: يعدد جميع أزواجها السابقين، ويوبخها على ذاك الذي تعيش معه حينئذٍ وهي تحاول أن تخفي أمره. هنا ماذا صنعت المرأة؟ لم تبدِ ضيقًا ولا تركته هاربة، ولا حسبت كلامه إهانة، لكنها على العكس أبدت إعجابها به، وفاق تقديرها له، إذ قالت: "**يا سيد أرى أنك نبي**". تطلع إلى رزانتها، إذ لم تندفع إليه مباشرة، لكنها وهي تقدره وتعجب منه قالت: "**أرى**" أي "**يبدو لي**" أنك كنبي[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أظن أن كل نفس تدخل إلى الدين المسيحي خلال الكتب المقدسة وتبدأ بالأشياء المُدركة بالحواس المدعوة أشياء جسدية، لها خمسة أزواج، لكل حاسة زوج. ولكن بعد أن تصير النفس في رفقة مع الأمور المدركة بالحواس وترغب فيما بعد أن ترتفع فوقها تندفع نحو الأمور المدركة بالروح؛ عندئذ تصطدم مع تعليم فاسد قائم على معانٍ رمزية روحية. حينئذٍ تقترب من زوج آخر بعد الأزواج الخمسة، وتقدم وثيقة طلاق للخمسة السابقين وكأنها تقرر أن تعيش مع هذا السادس...[3] ونحن نقيم مع ذاك الزوج السادس حتى يأتي يسوع ويجعلنا ندرك شخصية زوجٍ كهذا. لكن بعد

---

[1] *Letter 108:13*

[2] *Hom. on John, 32.* راجع السامرية: دار القديس يوحنا الحبيب للنشر بالقاهرة

[3] *Commentary on John, Book 13:51.*

مجيء كلمة الرب ودخوله في حوارٍ معنا نجحد هذا الزوج ونقول: "**ليس لي زوج**". عندئذ يقول الرب: "**حسنًا قلتِ ليس لي زوج**" [١٧][1]

العلامة أوريجينوس

❖ إذ أعلنت المرأة السامرية المذكورة في الإنجيل أن رجلها الذي كان معها هو السادس، انتهرها الرب لأنه لم يكن زوجها. من جانبي أعلن مرة أخرى بكل حرية أن الزواج الثاني *digamy* لا تشجبه الكنيسة، ولا حتى الزواج الثالث *trigamy*، ويمكن للمرأة أن تتزوج زوجًا رابعًا... أو عدد أكبر ما دام الزواج شرعيًا... لكن وإن كان الزواج الثاني غير مشجوب إلا أنه غير مستحب... "كل الأشياء تحل لي ولكن ليس كل الأشياء توافق" (١ كو ٦: ١٢)[2].

القديس جيروم

"**قالت له المرأة:**

يا سيد أرى أنك نبي". **[١٩]**

إذ كشف لها السيد المسيح عن شخصه تدريجيًا، اكتشفت المرأة أنه عالم بكل أسرارها الخفية أدركت حسب مفهومها أنه نبي، ووثقت أنه قادر أن يجيب بصدقٍ على التساؤل الذي يحير الكثيرين: هل تتحقق العبادة الصادقة في أورشليم كما يقول اليهود أم على جبل الجرزيم كما يقول السامريون؟ وهو الجبل الذي نُطق عليه بالبركات، ويرى البعض أنه نفس الجبل الذي بنى عليه إبراهيم المذبح (تك ١٢: ٦–٧)، وأيضًا يعقوب (تك ٣٣: ١٨–٢٠).

لقد سلم السامريون الهيكل الذي بناه لهم سنبلط *Sanballat* (عام ٣٣٢ ق.م) لأنتيخوس أبيفانيوس، طالبين منه أن يُكرس للإله جوبتر أولمبياس *Jupiter Olympius*، وقد نفوا كل علاقة لهم باليهود، حتى لا يعانوا من الضيقات المرة التي صبها أنتيخوس عليهم.

هكذا تحول الحوار إلى الحديث عن موضع العبادة: هل هو أورشليم أم جبل الجرزيم؟

❖ ما أعجب هذا الأمر، كم كانت فلسفة هذه المرأة، كيف قبلت توبيخ المسيح بأفضل ورعٍ، إذ لما أعلن المسيح فعلها المستور لم تستصعب ذلك ولا تركته وهربت، لكنها تعجبت بالأكثر لأنها قالت له: "**أرى أنك نبي**".

❖ تأمل في الحكم العادل المستقيم لهذه المرأة، فقد اتخذت قرارها من واقع الحقائق، سواء فيما يخص

---

[1] *Commentary on John, Book 13:52.*
[2] *Letter 48:18.*

أبينا يعقوب أو يسوع، أما اليهود فلم يكن رد فعلهم هكذا. إذ لما شاهدوه يطرد الشياطين منهم لم يقولوا أنه أعظم من أبينا يعقوب أب الأسباط، بل قالوا "به شيطان"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بدأ الزوج يأتي، إنه لم يأتِ بالكامل... بدأت تدعو الزوج وتطرد خليلها[2].

القديس أغسطينوس

"آباؤنا سجدوا في هذا الجبل،

وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه". [٢٠]

حسب السامريون أن جبل جرزيم مقدس، عليه ينبغي أن يسجدوا لله. وهو الجبل الذي تقع البئر عند سفحه مباشرة قيل انه على هذا الجبل بنى إبراهيم مذبحًا، وعليه تقابل مع ملكي صادق حيث باركه. على هذا الجبل أمر موسى النبي بمباركة الشعب عند العبور إلى الأردن حيث وقف عليه شمعون ولاوي ويهوذا ويساكر ويوسف وبنيامين بينما وقف رأوبين وجاد واشير وزبولون ودان ونفتالي على جبل عيبال للعنة (تث ٢٧: ١١–١٣). على الجانب الآخر فإن اليهود حسبوا صهيون مسكن الله الذي اختاره أب الجميع، وعليه أقيم الهيكل ومارس الكهنة واللاويون العبادة فيه.

❖ إذ ظنت أنه نبي لم تطلب شيئًا زمنيًا، لا صحة الجسد ولا الممتلكات ولا الثروة، لكنها اهتمت بالدين [٢٠][3].

❖ أرأيت كيف صارت المرأة في تمييزها أكثر عزمًا؟ لأن التي اهتمت بعطشها حتى لا تتكبد لأجله تعبًا سألته فيما بعد عن آراء في الدين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لو أن اللَّه جسد، لكان يحق أن يُسجد له على جبلٍ، لأن الجبل مادي، وكان يحق أن يُعبد في هيكل[4].

❖ إنه لأمر عجيب! يسكن في الأعالي وهو قريب من المتواضعين. إنه "يرى المتواضع، أما المتكبر فيعرفه من بعيد" (مز ١٣٨: ٦)...

---

[1] *Hom. On John, 32.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:23.*

[3] *Hom. on John, 32: 2.* راجع السامرية: دار القديس يوحنا الحبيب للنشر بالقاهرة

[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:24.*

إذن هل تطلب جبلاً؟ انزل لكي تقترب إليه.

هل تصعد؟ اصعد، ولكن لا تطلب جبلاً. قيل: "الصاعدون في قلبه، في وادي البكاء" (مز ٨٤: ٦). الوادي هو التواضع. لتفعل هذا كله في داخلك.

حتى إن أردت أن تطلب مكانًا مرتفعًا، موضعًا مقدسًا، اجعل لك هيكلاً في داخلك. "لأن هيكل اللَّه مقدس، الذي أنتم هو" (١ كو ٣: ١٧).

أتريد أن تصلي في هيكلٍ؟ الجبل في داخلك، إن كنت أنت أولاً هيكل اللَّه، لأنه في هيكله يسمع من يصلي[1].

القديس أغسطينوس

"قال لها يسوع:
يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة،
لا في هذا الجبل،
ولا في أورشليم،
تسجدون للآب". [٢١]

لقد حلت الساعة التي جاء فيها ابن الإنسان ليرفع الإنسان من الحرف إلى الروح، فما يشغل ذهن المؤمنين ليس الموضع، بل وضعهم كأبناء للآب السماوي.

❖ الإنسان الكامل والمقَّدس يتعدى حتى هذا، إذ يعبد الرب بطريقة تأملية وإلهية بالأكثر. فكما أن الملائكة (كما يتفق حتى اليهود) لا يعبدون الآب في أورشليم، لأنهم يعبدونه بطريقة أفضل عمن يعبدون في أورشليم، هكذا الذين يستطيعون أن يكونوا مثل الملائكة (لو ٢٠: ٣٦) في ميولهم لا يعبدون الآب في أورشليم، بل بطريقة أفضل[2].

العلامة أوريجينوس

❖ إنه لم يفضل مكانًا آخر، إنما أعطى الأفضلية للنية[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قيل هذا حقًا في شخص اليهود، لكن ليس كل اليهود، ليس اليهود الرافضين الإيمان، بل الذين

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:25.*
[2] *Commentary on John, Book 13:98 – 99.*
[3] *Hom. On John, 3 3: 1.*

كانوا مثل الرسل والأنبياء، فقد باع كل هؤلاء القديسين ما يملكونه ووضعوا أثمانها عند أقدام الرسل. "فإن اللَّه لم يرفض شعبه الذي سبق فعرفه" (رو ١١: ٢)[1].

❖ كأنها تقول: يجاهد اليهود من أجل الهيكل، ونحن من أجل هذا الجبل. وعندما يأتي (المسيا) سيحتقر الجبل ويلقى بالهيكل، وسيعلمنا كل شيء، فنعرف كيف نعبد بالروح والحق. لقد عرفت من يستطيع أن يعلّمها، لكنها لم تعرف بعد أنه الآن هو يعلِّمها. الآن قد تأهلت أن تتمتع بالكشف عنه[2].

القديس أغسطينوس

"**أنتم تسجدون لما لستم تعلمون،**

أما نحن فنسجد لما نعلم،

لأن الخلاص هو من اليهود". **[٢٢]**

بقوله: "**لما لستم تعلمون**" يشير إلى إنكار السامريين لأسفار الأنبياء التي تمهد طريق المعرفة للتعرف على شخص المسيا المخلص. وبقوله "**تسجد لما نعلم**" يشير إلى الأسفار الإلهية كطريق آمن للمعرفة والعبادة الحقيقية. ضم السيد المسيح نفسه إلى جمهور العابدين، لأنه صار في تواضعه ابن الإنسان.

لم يخجل ابن الله الوحيد من أن يعلن طاعته للآب وسجوده وعبادته له، بينما يستهين كثير من بني البشر في كبريائهم بالعبادة ويحسبونها مضيعة للوقت.

"**لأن الخلاص هو من اليهود**": ظهر الخلاص الأبدي من اليهود (رو ٩: ٥) وقُدم لهم أولاً. سلمت لهم التعاليم الإلهية (رو ٣: ٢)، وخدمة الله (رو ٩: ٤)، ومنهم جاء المسيا، ومنهم تبدأ الكرازة بالإنجيل للأمم.

❖ "**لأن الخلاص هو من اليهود**"، ما يقوله هو هكذا: أن بركة هذا العالم تأتي منهم (لأن معرفة الله وجحد الأصنام وإنكارها بدأت بهم، وبالنسبة لكم فإن عمل السجود وإن كنتم لا تؤدونه بالأسلوب الصحيح إلاَّ أنكم استلمتموه منهم)... كما أشار بولس الرسول إلى مجيئه إذ يقول: "ومنهم المسيح حسب الجسد، الكائن على الكل إلهًا مباركًا" (رو ٩: ٥). أنظر إليه كيف يمتدح العهد القديم،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:26.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:27.*

ويوضح أنه أساس البركات[1].

❖ لم يظهر المسيح للمرأة السامرية لماذا سجد الآباء في ذلك الجبل، ولماذا سجد اليهود في أورشليم، فلهذا صمت، إذ أبطل وأزال عن الموضعين كليهما معالي التقدم. وأنهض نفسها موضحًا أنه لا يمتلك السامريون ولا اليهود فعلاً عظيمًا بالمقايسة إلى الفعل المزمع أن يوهب لنا. وبعد ذلك أورد الفصل بينهما، إلا أنه قد حكم أن اليهود أشرف قدرًا على هذا القياس، دون أن يفضل مكانًا على مكان. لكنه أعطى لليهود التقدم، وكأنه قال: لا ينبغى لأحد أن يجادل لأجل مكانٍ فيما بعد، إلا أن اليهود في غريزتهم قد حازوا الشرف أكثر منكم أنتم أيها السامريون لأنه قال: "**أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم**".

فإن سألت: كيف لم يعرف السامريون من هو الذي يسجدون له؟! أجبت: لأنهم اعتقدوا بأن الله يحده مكان معين ويتحيز لهم، لهذا يسجدون له. إذ أرسلوا للفرس قائلين: "إن إله هذا المكان غاضب من أجلنا" (٢ مل ٢٦). ظنوا أنه يوجد إله محدود، فعلى هذا استرضوه وعبدوه، ولهذا السبب لبثوا يسترضون الأصنام، ويسترضون إله المسكونة، أما اليهود فكانوا بعيدين عن هذا الظن، فقد عرفوا الله أنه إله المسكونة كلها، وإن كان هذا الرأي لم يكن رأيهم كلهم، فلهذا السبب قال المسيح: "**أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم**"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما تحدثت هذه المرأة معه كيهودي وظنت أنه نبي، أجابها كيهودي يعرف أسرار الناموس روحيًا: "أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم". يقول "**نحن**" إذ يضم نفسه مع البشر، ولكن كيف يضم نفسه مع البشر إلا بحسب الجسد، ولكي يظهر أنه أجاب كمتجسدٍ، إذ يضيف "الخلاص من اليهود"[3].

القديس أمبروسيوس

"**ولكن تأتي ساعة وهي الآن،**
حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق،
لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له". [٢٣]

---

[1] *Hom. on John, 3 3: 1.*
[2] *Hom. on John, 3 3: 1.*
[3] *Of The Christian Faith , Book 5 , ch. 4 (50).*

عِوَض الانشغال بمكان العبادة يلزم الانشغال بحال الفكر الداخلي، وهيكل الله داخل النفس، وكيفية تقديم العبادة لله الذي هو روح. فالله الآب يطلب العابدين بقلوبهم، ونادرًا ما يوجدون، إذ قيل: "من هو هذا الذي أرهن قلبه ليدنو إليَّ يقول الرب" (إر ٣٠: ٢١). طريق العبادة بالروح ضيق، لأن فيه لا يطلب الإنسان مجد الناس بل مجد الله.

العبادة بالروح تحول القلب إلى صهيون الحقيقية التي يشتهيها الله كقول المرتل: "لأن الرب اختار صهيون، اشتهاها مسكنًا له؛ هذه هي راحتي إلى الأبد؛ ههنا أسكن لأنه اشتهيتها (مز ١٣٢: ١٣–١٤).

❖ كان كل من اليهود والسامريين شديدي الاهتمام بالجسد، يطهرونه بمختلف الطرق. لذلك يقول إنه ليس بطهارة البدن، بل بطهارة ذلك الجزء غير الجسدي من كياننا، أي العقل. به نعبد الله اللاجسدي، كما لا يكون القربان بذبح العجول والخراف، بل بتكريس الإنسان نفسه لله. أهلك ذاتك، فتقدم ذبيحة حية[1].

❖ إذ يقول الحق استبعد السامريين واليهود. فإنه وإن كان اليهود أفضل من السامريين، إلا أنهم أقل بكثير من القادمين بقدر ما أن الرمز أقل من الحقيقة. إنه يتحدث عن الكنيسة التي لها العبادة الحقيقية التي تليق بالله[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق بالإنسان أن يلاحظ إن العابدين بالحق يعبدون الآب بالروح والحق، ليس فقط في الساعة القادمة، بل وفي الوقت الحاضر أيضًا[3].

❖ إن كان الآب يطلب أولئك الذين يعِّدهم أن يكونوا عابدين حقيقيين بتطهيرهم وتعليمهم بالكلمة في تعاليم صادقة، إنما يطلبهم بابنه الذي جاء يطلب من قد فقدوا (لو ١٩: ١٠؛ حز ٣٤: ١٦).

العلامة أوريجينوس

"**الله روح،**

والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا". **[٢٤]**

❖ بقوله "**الحقيقيون**" يستبعد اليهود والسامريين، لأن هؤلاء اليهود وإن كانوا أفضل من السامريين إلا

---

[1] *Hom. on John, 3 3: 2.*
[2] *Hom. 33 PG 59: 191.*
[3] *Commentary on John, Book 13:112.*

أنهم أدنى كثيرًا من المزمعين أن يسجدوا "**بالروح والحق**".... إن كان الله في الماضي قد سعى إلى مثل هؤلاء... إنما لطفًا وتنازلاً منه حتى يأتي بهم إلى حظيرة الإيمان.

وإن سألت: ومن هم الساجدون الحقيقيون؟ أجبتك: الذين لا يربطون عبادتهم بمكانٍ محددٍ، وهم ينجذبون بالروح. وكما يقول بولس الرسول: "الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه" (رو ١: ٩). وفي موضع آخر يقول: "أطلب إليكم أيها الاخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم الفعلية" (رو ١٢: ١).

قول المسيح للمرأة السامرية: "**الله روح**" لا يدل على معنى آخر إلا على أنه خالٍ من جسم، لذلك ينبغي أن تكون عبادة للخالي من جسم خالية من جسم أيضًا، وأن نقدمها بما هو فينا خالٍ من جسم، أي أن تكون بروحنا وبنقاوة عقلنا، لذلك قال المسيح: "**والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا**"[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لست أتجاسر فأحدّ قدرة اللَّه الكلية أو أقيّدها بشريحة ضيّقة من الأرض، هذا الذي الأرض والسماء لا تسعانه. كل مؤمن يُدان ليس حسب مسكنه هنا أو هناك، وإنما حسب براري إيمانه. العابدون الحقيقيون يعبدون الآب، لا في أورشليم، ولا على جبل جرزيم[٢].

القديس جيروم

❖ بكونه ابن داود يخضع للزمن وللتدبير والتنازل النسبي، لكن من جهة اللاهوت لا يخضع لزمان ولا لمكان. "جيله من يعلنه؟" (إش ٥٣: ٨)

"**اللَّه روح**"؛ فذاك الذي هو روح قد وُلد روحيًا بكونه غير جسدي بنسبٍ غير مدرك ولا مفحوص.

الابن نفسه يقول للآب: "قال الرب لي: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك" هذا "اليوم" ليس زمنيًا بل سرمدي. اليوم هنا غير زمني بل قبل كل الدهور. "من الرحم قبل كوكب الصبح ولدتك[٣]".[٤]

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ أي عجب مادام الآب والابن يُقال عنهما أنهما "روح"، الأمر الذي نتحدث عنه بأكثر توسع عند

---

[1] *Hom. on John, 3 3.*
[2] *Letter 58:3.*

[٣] مز ١١٠: ٣ "من الفجر لك كل حداثتك".
[٤] مقال ١١: ٥.

حديثنا عن "وحدة الاسم"...

ليقرأوا أن الآب يُدعى "**الروح**"، كما يقول للرب في الإنجيل: "**لأن اللَّه روح**" [٢٤]. والمسيح يدعى "**الروح**"، إذ قال إرميا: "الروح أمام وجهنا، المسيح الرب" (مرا ٤: ٢٠) [1].

القديس أمبروسيوس

❖ الكلمات: "**الله روح**" لا تغير الحقيقة أن الروح القدس له اسمه الخاص به، وأنه هو العطية المقدمة لنا. قيل للسامرية التي وضعت حدودًا لله بالجبل أو الهيكل أن الله يحوي كل الأشياء ومُحوى في ذاته، وهو غير منظور ولا مُدرك، يلزم أن يُعبد بوسائل غير منظورة ولا عندما علم المسيح أن الله بكونه الروح يجب أن يعبد بالروح، وأظهر أية حرية ومعرفة ومجالات بلا حدود للسجود في عبادة الله الروح بالروح[2].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

"**قالت له المرأة:**

أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي،

فمتى جاء ذاك،

يخبرنا بكل شيء". **[٢٥]**

أخيرًا جاء الحوار بخصوص المسيا، فإذ لم تعترض السامرية على ما يقوله بل شعرت بقوة في داخلها سألته عما كان يدور في أذهان اليهود والسامريين، وهو: متى يأتي المسيا؟ فمع العداوة القائمة بين اليهود والسامريين إلاَّ أن أمرًا واحدًا كان الكل يترقبه، وربما تحدث كثير من المعلمين عنه في ذلك الوقت، وهو تحقيق الوعد الإلهي الخاص بمجيء المسيا وحلول مملكته.

مع ما لحق بها من فساد بسبب خطيتها لكن شوقها لمعرفة الحق وترقبها في تواضع لمجيء المخلص هيأها للالتقاء مع السيد والتعرف عليه والشهادة له.

❖ قد يقول قائلٍ: من أين للسامريين أن ينتظروا مجيء المسيح وهم يقبلون موسى وحده؟ فنقول له: "من كتب موسى نفسها، لأن موسى قال: "يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون" (تث ١٨: ١٥).

❖ كانت مجرد امرأة فقيرة لا خبرة لها بالكتب المقدسة، لذلك لم يحدثها بما جاء في هذه الأسفار، بل

---

[1] *Of the Holy Spirit Book 1:9:105.*

[2] *On the Trinity Book 2 (31)*

قادها إلى الإيمان عن طريق الماء[1].

❖ بالنسبة لليهود الذين كانوا يرددون باستمرار: "إلى متى تعلق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرًا" (يو ١٠: ٢٤) لم يعطهم جوابًا شافيًا. أما بالنسبة لهذه المرأة فقال لها بصراحة: "**أنا هو**"، لأن المرأة كانت غير منحازة وذات تفكير وضمير عادل أكثر من اليهود. إذ لم يسألوا لكي يتعلموا، بل كانوا دائمي السخرية منه... أما هذه فسمعت وآمنت ودعت آخرين أيضًا إلى الإيمان، وفي كل الأحوال تلاحظ وقتها وانضباطها وإيمانها[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال لها يسوع:**

أنا الذي أكلمك هو". **[٢٦]**

لم يتحدث السيد المسيح مع اليهود، ولا حتى مع تلاميذه بعبارات مباشرة هكذا: "**أنا الذي أكلمك هو**".

❖ الحصاد قد أُعد، فقد قام الأنبياء بالغرس لينمو، والآن قد جاء إلى النضوج وينتظر الرسل كحاصدين له... فبالنسبة للمرأة السامرية كان اسم "المسيا" ليس بجديدٍ عليها، كانت بالفعل تترقب مجيئه. لقد آمنت بالفعل أنه قادم. من أين كان لها أن تؤمن بهذا لو لم يغرسه موسى؟[3]

القديس أغسطينوس

❖ بالحقيقة لم يعطِ إجابة واضحة لليهود الذين كانوا يقولون باستمرار: "إلى متى تعلق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرًا" (يو ١٠: ٢٤)، أما لها فأخبرها بوضوح: "**أنا هو**"[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. كرازة السامرية الناجحة

"**وعند ذلك جاء تلاميذه،**

وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة،

ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب؟

---

[1] *Hom. on John, 33: 2.*
[2] *Hom. on John, 33: 2.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 51:2.*
[4] *Hom 34.PG 59: 195*

أو لماذا تتكلم معها؟" [٢٧]

لم يكن في ذهن التلاميذ أن معلمهم الذي كانوا يترقبون ملكوته العظيم على الأرض يتحدث مع امرأة فقيرة سامرية. إنها ليست من قطيع إسرائيل الضال، وفي ذهنهم لا يمكن أن يكون لها دور في ملكوته، فلماذا يتحدث معها؟

هذا ومن جانب آخر فإنه لم يكن من عادة الرجال أن يتحدثوا مع نساء في الطريق، حتى وإن كانت زوجاتهم، وقد وجدت قوانين كثيرة سنها الحاخامات في هذا الشأن.

❖ أجاز المسيح لنفسه أن يخاطب امرأة سامرية فقيرة، إلا أن تلاميذه مع انذهالهم من ذلك لم يسألوه عن سبب مخاطبته إياها، لأنهم كانوا بهذه الصفة متأدبين بحفظ ترتيب التلاميذ، وبهذه الصورة تهيبوه واستحيوا منه واحتشموه كاحتشامهم صاحبًا عجيبًا.

❖ ترى ممَ تعجب التلاميذ؟ من تواضعه الشديد وبُعده عن الكبرياء، إذ تبادل الحديث مع امرأة فقيرة بل وسامرية أيضًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فتركت المرأة جرتها،
ومضت إلى المدينة،
وقالت للناس". [٢٨]

إذ تمتعت السامرية بالحق الإلهي تركت جرتها، ونسيت ما جاءت من أجله، وعادت إلى المدينة دون الماء، إنما لتقدم ماء الحق لأهل المدينة. تركت جرتها لأنها لم ترد أن تعوقها الجرة عن الإسراع نحو المدينة لتشهد للحق. أخبرت الجميع في الشوارع أنها وجدت الكنز الذي تبحث عنه، ووجدت ينبوع سرورها الداخلي.

سبق أن طلب السيد منها أن تدعو زوجها [١٦]، وها هي قد دعت كل رجال المدينة ونجحت في مهمتها.

لم تخبرهم أنه حاورها في أمور دينية خطيرة خاصة بمكان العبادة وطريقة ممارستها، بل ما لمس قلبها حقًا أنه عرف أسرارها واجتذبها بقوة كلمته إليه، فتعرفت على شخصه، إنه هو المسيا.

❖ ربما تركت جرة الماء التي كانت في بئر تعتز بعمقها، أي بالتعاليم، إذ احتقرت الأفكار التي سبق

[1] *Hom. on John, 33: 3.*

أن قبلتها، وتقبلت جرة أفضل من جرة الماء، تحوي ماءً ينبع إلى حياة أبدية (يو ٤: ١٤)[١].

❖ هنا امرأة أعلنت عن المسيح للسامريين، وفي نهاية الأناجيل أيضًا امرأة رأته قبل كل الآخرين تخبر الرسل عن قيامة المخلص (يو ٢٠: ١٨)[٢].

❖ كل ما فعلته المرأة السامرية هو علاقتها بالخمسة أزواج، وبعد ذلك ارتباطها بالسادس الذي هو ليس بزوجها الشرعي. تبرأت من الرجل السابق، تركت جرتها واستراحت بوقار في السبت.

لقد جلبت أيضًا نفعًا للذين سكنوا معها في ذات المدينة، على أساس معتقداتها القديمة، أي شاركوها تعاليمها الخاطئة. إنها العلة التي جعلتهم يخرجون من المدينة ويأتون إلى يسوع[٣].

العلامة أوريجينوس

❖ إذ استقبلت الرب المسيح في قلبها ماذا يمكنها أن تفعل سوى أن تترك جرّتها وتجري لتكرز بالإنجيل؟ لقد طردت الشهوة، وأسرعت تعلن عن الحق. ليتعلم الذين يريدون أن يكرزوا بالإنجيل أن يتركوا جرتهم عند البئر[٤].

القديس أغسطينوس

❖ جاءت لتستقي ماءً، وعندما استنارت وعرفت الينبوع الحقيقي للتو احتقرت الينبوع المادي. وهي في هذه الواقعة البسيطة تعلمنا أن نتجاوز عن أمور الحياة المادية عندما نصغي للروحيات... دون أن يوجه لها أحد أمرًا تركت جرتها، وعلى جناحي الفرح والبهجة أسرعت وصنعت ما فعله الإنجيليون، ولم تدعُ واحدًا أو اثنين، كما فعل أندراوس وفيلبس، إنما دعت مدينة بأكملها، وأتت بهم إلى الرب يسوع[٥].

❖ آمنت المرأة السامرية على الفور، وبذلك اتضح أنها أكثر حكمة من نيقوديموس، بل وأكثر شجاعة وثباتًا. لأن نيقوديموس بعد أن سمع قدر ما سمعت المرأة آلاف المرات لم يذهب ويدعو آخرين لسماع هذه الكلمات، ولا تحدث بصراحة على الملأ. لكن هذه المرأة فعلت ما لم يفعله الرسل، إذ قامت بالكرازة للجميع تدعوهم إلى المسيح. بذلك قادت مدينة بأكملها إلى الإيمان بيسوع

---

[1] *Commentary on John, Book 13:175.*
[2] *Commentary on John, Book 13:179.*
[3] *Commentary on John, Book 13:181.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:30*
[5] *Hom. on John, 34: 1.*

المسيح[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"هلموا انظروا إنسانًا قال لي كل ما فعلت،
ألعل هذا هو المسيح؟" [٢٩]

كلمات السامرية تكشف عن سعادتها الداخلية بلقائها مع المسيا مخلص العالم، وتمتعها بمن يملأ أعماقها. لم يهبها الرجال الستة سعادة، لكن لقاءها مع مخلصها بعث فيها روح السعادة والعمل من أجل الآخرين لخلاصهم.

لم تكن الدعوة أن يأتوا ليروا أمرًا غريبًا، ولا أن يدخلوا معه في حوارٍ، بل أن يتمتعوا بفاحص القلوب، المسيا مخلص العالم. فمن أهم السمات التي كان اليهود ينتظرونها في المسيا أنه عالم بما في القلوب.

في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني ادعى *Barchochab* أنه المسيا، وإذ خدع كثيرين جاءوا إليه بأشخاصٍ لا يعرفهم بعضهم كانوا مجرمين وآخرون أبرياء، وطلبوا منه أن يميز بين الأشرار والأبرار، وإذ لم يستطِع قتلوه.

كانت السامرية حكيمة في كرازتها، إذ لم تملي عليهم إيمانها فيه بل بحكمة طلبت منهم أن يأتوا وينظروا ليتحققوا من شخصه: "**ألعل هذا هو المسيح؟!**" [٢٩].

❖ مرة أخرى لاحظوا حكمة المرأة العظيمة. فإنها لم تعلن الحقيقة بوضوح، ولا بقيت صامتة، ولا رغبت في إحضارهم باقتناعها هي، بل لتجعلهم يشتركون في هذا الرأي باستماعهم له، حيث صارت كلماتها لهم مقبولة فعلاً[2].

❖ لم تخجل من قولها أنه قال لها كل مع فعلته... فإنها لم تعد تنظر إلى ما هو أرضي، ولا تعود تلقي بالاً إلى مجد دنيوي أو عارٍ، لكنها أصبحت منتمية إلى شيءٍ واحدٍ فقط، وهي تلك الشعلة المقدسة المتقدة داخلها والممتلئة بها[3].

❖ "**ألعل هذا هو المسيح؟!**" [٢٩] لم ترغب في أن تأتي بهم بإرادتها هي واقتناعها، بل أرادت أن يكون لهم الرأي عندما يستمعون إليه. هذا ما جعل كلماتها أكثر قبولاً لديهم... لم تقل "هلموا آمنوا"

---

[1] *Hom. On John, 32.*
[2] *Hom 34. PG 59: 195.*
[3] *Hom. on John, 34: 1.*

بل "**هلموا انظروا**"، وهو تعبير أكثر رقة وجاذبية لهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ **ليس إنسان أسعد من المسيحي،** إذ له الوعد بملكوت السماوات. ليس أحد يجاهد بقوة أكثر منه إذ يخاطر بحياته كل يوم. ليس من أقوى منه إذ يغلب الشيطان... هل يوجد من هو أكثر خسة من المرأة السامرية؟ لكن ليست هي وحدها آمنت... وجدت بعد رجالها الستة الرب الواحد، ليس فقط تعرفت على المسيّا عند البئر، هذا الذي فشل اليهود في التعرف عليه في الهيكل، إنما قدمت الخلاص لكثيرين، بينما كان الرسل يشترون طعامًا لسدْ جوع المخلص وإراحته من تعبه[2].

القديس جيروم

❖ الأقوال التي قيلت للمرأة ألهبتها إلى أن أوصلها الشوق المتقد إلى ترك جرتها وإهمال الحاجة التي جاءت بسببها، ورجعت إلى مدينتها لتجتذب إلى المسيح كافة الجموع التي كانت فيها. تأمل حرص المرأة وفهمها، لأنها جاءت تستقي، فلما وجدت الينبوع الحقيقي احتقرت الينبوع المحسوس، فأصبحت معلمة لنا. وعلى حسب قوتها عملت العمل الذي عمله رسل ربنا، لأن أولئك لما دُعوا تركوا شباكهم، وهذه فمن ذاتها تركت جرتها وعملت عمل المبشرين. ولم تستدعِ واحدًا أو اثنين، لكنها استنهضت مدينة بأكملها وجمعًا جزيلاً تقديره، واقتادتهم إلى المسيح.

تأمل كيف اقتادت المرأة أهل المدينة بأوفر فهمٍ، لأنها لم تقل لهم: تعالوا أبصروا المسيح، لكنها اجتذبت الناس بالمقارنة التي اقتنصها بها المسيح فقالت: "**هلموا انظروا إنسانًا قال لي كل ما فعلت**".

قالت المرأة السامرية: "**هلموا انظروا إنسانًا قال لي كل ما فعلت**"، لم تخجل أن تقول ذلك، مع أنه كان يمكنها أن تقول قولاً غير هذا، وهو: تعالوا انظروا من يتنبأ. إذا أضرمت النار الإلهية نفوس أحدنا لا ينظر إلى شيءٍ من الأمور الأرضية، لا إلى الشرف ولا إلى خجل.

انظر حكمة المرأة إنها لم تجزم أنه هو المسيح بحكم واضح ولا صمتت، لأنها أرادت أن تجتذبهم إليه، ليس بحكمها هي، وإنما باستماعهم له.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما جاء المسيح رفضه اليهود، بينما اعترفت به الشياطين.

داود جده لم يجهله عندما قال: "رتبت سراجًا لمسيحي" (مز ١٣٢: ٧)، هذا السراج الذى فسره

---

[1] *Hom. on John, 34: 1.*
[2] *Letter 125:1.*

البعض أنه بهاء البنوة (٢ بط ١: ١٩) وفسره البعض أنه الجسد الذى أخذه من العذراء...

لم يجهل النبي أمر المسيح إذ قال: "وأعلن بين البشر بمسيحه *His Anointed*" (عا ٤: ١٣ الترجمة السبعينية).

موسى أيضًا عرفه، وإشعياء، وإرميا. لم يجهله أحد من الانبياء، بل حتى الشياطين عرفته إذ انتهرها...

رئيس الكهنة لم يعرفه، والشياطين اعترفت به.

رئيس الكهنة لم يعرفه، والسامرية أعلنت عنه قائلةً: "انظروا إنسانًا قال لي كل ما فعلت، ألعل هذا هو المسيح؟!" (يو ٤: ٢٩)[1].

القديس كيرلس الأورشليمي

"**فخرجوا من المدينة وأتوا اليه**". **[٣٠]**

لقد جاء الوقت الذي فيه بشر البرص بالخلاص العظيم لأصل السامرة (٢ مل ٧: ٣ الخ). ها هي امرأة سامرية لها ماضٍ مؤلم تصير أول كارزة بالأخبار المفرحة للسامرة، فتكسب المدينة كلها لحساب السيد المسيح.

"**وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين:**

يا معلم كلْ". **[٣١]**

القديس يوحنا الذهبي الفم

بينما انطلقت المرأة السامرية للكرازة بكل قوة، إذ بالتلاميذ ينشغلون بتقديم طعام للسيد المسيح، لأنه كان جائعًا ومُتعب.

"**فقال لهم:**

أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم". **[٣٢]**

يقول **العلامة أوريجينوس** أن للأجسام طعام يختلف عما للأرواح، وكما أن الأجسام نفسها تختلف في احتياجاتها من جهة نوع الطعام وكميته، هكذا أيضًا بالنسبة للأرواح والنفوس.

كان السيد المسيح ينتهز كل فرصة ليرفع عقول تلاميذه وقلوبهم إلى ما فوق الزمن، إلى السماء عينها. لقد أعلن لهم عن مدى بهجته بخلاص النفوس بكونه طعامه الشهي. لقد وجد شبعه وراحته

[1] مقال ١٠: ١٥.

في التعب من أجل كل نفسٍ، ومن أجل تحقيق خطة أبيه. إنه لن يستريح، بل يبقى مثابرًا على العمل حتى يعبر من هذا العالم.

❖ فإنه حتى ذات النوعية للكلمات المغذية والأفكار التأملية والأعمال المناسبة لهذه الكلمات والأفكار ليست مناسبة لكل النفوس.

إنه بالحقيقة يوجد البقول وأيضًا الطعام القوي (رو ١٤: ٢؛ عب ٥: ٢) الذي لا ينعش النفوس المحتاجة إلى تقدم في نفس الوقت.

وكما يقول بطرس ليت الأطفال حديثو الولادة يشتهون اللبن العقلي النقي (١بط ٢: ٢). ويطبق نفس الشيء إن كان أحد ما مثل الطفل كأهل كورنثوس الذين يقول لهم بولس: "سقيتكم لبنا لا طعامًا" (١ كو ٣: ٢).

ليت الضعيف يأكل بقولاً لأنه لا يؤمن (رو ١٤: ٢). هكذا علَّم بولس عندما قال: "واحد يؤمن أن يأكل كل شيء، وأما الضعيف فيأكل بقولاً" (رو ١٤: ٢).

ويوجد بالحقيقة وقت فيه "أكلة من البقول حيث صداقة مع نعمة خير من ثور معلوف ومعه بغضة" (راجع أم ١٥: ١٧). أما الطعام القوي فللبالغين الذين بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر" (عب ٥: ١٤). ولكن يوجد أيضًا طعام بغيض كما يعلمنا سفر الملوك الرابع عندما قال بعض الرجال لأليشع: "موت في القدر يا رجل الله" (٢ مل ٤: ٤٠)...

يليق بنا أن نرتفع بالفكر من الكائنات غير العاقلة والبشرية إلى الملائكة الذين هم أيضًا ينتعشون بالطعام، فإنهم ليسوا في عدم عوز تمامًا. "أكل الإنسان خبز الملائكة" (مز ٧٧: ٢٥).

لكن الآن يلزمنا أن نعبر إلى العبارة التي أمامنا بخصوص طعام المسيح، الذي لم يكن يعرفه التلاميذ عندئذ، إذ يقول يسوع الحق: "**أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم**" (يو ٤: ٣١). لأن التلاميذ لم يكونوا يعرفوا ما كان يسوع يفعله حينما كان يفعل إرادة من أرسله ويتمم أعماله الكاملة [٣٤]. إنه يفعل إرادة الآب التي هي واحدة مع إرادته[1].

العلامة أوريجينوس

يرى **القديس أغسطينوس** أن طعام السيد المسيح هو أن يتمم إرادة الآب، وأن يشرب من إيمان المرأة به. بهذه يطعِّمها جسده الذي هو الكنيسة، أي تصير عضوًا في الجسد. يرى **العلامة**

[1] *Commentary on John, Book 13:206 – 217.*

أوريجينوس أنه ليس الإنسان وحده بل وكل كائن عاقل سيتمتع بالكمال بيسوع بكونه عمل الله[1].

❖ حينما يكمل كل واحدٍ منا، بكونه عمل الله، بواسطة يسوع، يقول: "جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيرًا وضع لي إكليل العدل" (راجع ٢ تي ٤: ٧–٨)[2].

العلامة أوريجينوس

❖ كان الرب جالسًا جائعًا وعطشانًا اقتات بإيمان المرأة السامرية[3].

القديس جيروم

❖ أي عجب إن كانت تلك المرأة لم تفهم الماء؟ انظر فإن التلاميذ لم يفهموا بعد الطعام[4].

القديس أغسطينوس

"فقال التلاميذ بعضهم لبعض:
ألعل أحدًا أتاه بشيءٍ لياكل؟" [٣٣]

لم يدرك التلاميذ أن الكلمة الإلهي هو الذي عالَ إيليا في البرية عند نهر كريت، فكان يُرسل له طعامًا يوميًا بواسطة غراب (١ مل ١٧: ٤–٦). وأنه في البرية جاءت ملائكة تخدمه (مت ٤: ١١).

"قال لهم يسوع:
طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني،
وأتمم عمله". [٣٤]

يرى **القديس أمبروسيوس** أن حديث السيد المسيح هنا يشير إلى عمل المسيح في حياة الناس لكي يعملوا إرادة الآب، ويتمموا عمله، لأن ما يفعله الناس كأعضاء في جسد المسيح، يُحسب كأنه هو نفسه قد عمله[5].

أكلنا وشربنا وقراءتنا وخدمتنا وعبادتنا كلها إنما لخدمة خلاص النفوس. هذه هي إرادة أبينا السماوي، طعام نفوسنا الشهي.

لقد هلكت النفوس بسبب عدم المعرفة. وقد وهبنا الله مفتاح الملكوت الذي هو إنجيله ومعرفة كلمته.

---

[1] *Cf. Commentary on John, Book 13:245.*
[2] *Commentary on John, Book 13:242.*
[3] *Letter 108:13*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 15:31.*
[5] *On the Christian Faith, Book 5:13:169.*

❖ الوليمة التي يتحدث عنها سليمان لا تتحقق فقط بالطعام العادي بل تُفهم بأنها تتحقق بالأعمال الصالحة. إذ كيف يمكن للنفس أن تتمتع بوليمة بحكمة أفضل إلا بالأعمال الصالحة، أو ماذا يمكن أن يملأ أذهان الأبرار بسهولة مثل معرفة تحقيق العمل الصالح؟ أي طعام أكثر بهجة من عمل مشيئة اللَّه؟ يخبرنا الرب أن لديه هذا الطعام وحده بفيضٍ. كما جاء في الإنجيل: "**طعامي أن أعمل مشيئة أبي الذي في السماوات**" [٣٤]. فبهذا الطعام يبتهج الذين يتعلمون بمعرفة عجيبة أن يصعدوا إلى المباهج العلوية، الذين يقدرون أن يعرفوا أيّة بهجة هي هذه، وأيّة نقاوة لها والتي يمكن للعقل أن يفهمها. إذن ليتنا نأكل خبز الحكمة، ونشبع بكلمة اللَّه. لأن حياة الإنسان التي خُلقت على صورة اللَّه لا تتحقق بالخبز وحده، بل بكل كلمة تخرج من فم اللَّه (مت ٤: ٤). ويقول القديس أيوب عن الكأس بوضوح كامل: "كما تترقب الأرض المطر، هكذا فقل هؤلاء بالنسبة لكلماتي" (أي ٢٩: ٢٣)[1].

❖ إن كان طعامه هو أن يعمل مشيئة أبيه، هكذا أيضًا طعامه أن يشترك في آلامنا[2].

القديس أمبروسيوس

❖ "ليأتِ حبيبي إلى جنته ويأكل ثمرة النفيس" (نش ٤: ١٦). إنه لتعبير جرئ من نفس ممتلئة حماسًا وروعة ترتفع على كل تعجب.

من تدعوه العروس لوليمتها التي تتكون من فاكهتها الخاصة؟

لمن تُجهز العروس وليمتها التي أقامتها من مصادرها الخاصة؟

من تدعوه العروس لكي يأكل مما عرضته؟ "هو الذي منه وبه وله كل الأشياء" (رو ١١: ٣٦). إنه يعطي كل شخص طعامه في حينه (مز ١٤٥: ١٥)، يفتح يده ويملأ كل كائن حي بالنعيم. هو الخبز النازل من السماء (يو ٦: ٤١)، هو الذي يعطي الحياة للعالم ويجعل المياه تفيض من نبعه الخاص للحياة.

هذا هو الواحد الذي ترتب العروس له مائدتها. وهي الحديقة التي تنبت منها أشجار حيّة.

ترمز الأشجار إلينا وتُشير أرواحنا المُخلّصة إلى الطعام المُقدم له. وقال لتلاميذه: "**أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم**" (يو ٤: ٣٢، ٣٤). تتميم إرادة اللّه المقدسة: "فهو يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" (١ تي ٢: ٤).

---

[1] *Duties of the Clergy 1:31:163-164.*
[2] *Sermon Against Auxentius, 14.*

هذا الخلاص هو الغذاء الذي يُجهز له. تعطى إرادتنا الحرة الثمرة للّه وهي أرواحنا، ليقطفها من على غصنها الصغير. تمتعت العروس في البداية بثمرة التفاح الحلوة المذاق قائلة" وثمرته حلوة لحلقي" (نش ٢: ٣). ثم أصبحت هي نفسها الثمرة الجميلة الحلوة التي قُدمت للراعي ليتمتع بها[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"**أما تقولون إنه يكون أربعة أشهر ثم يأتي الحصاد.**

ها أنا أقول لكم:

ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد". **[٣٥]**

أخفى السيد المسيح المعنى الروحي السرائري وراء حديثه عن الحصاد، فإن ما يعنيه هو حصاد ملكوت السماوات الذي يتحقق بعد أربعة حقبات زمنية. الحقبة الأولى الإنسان في جنة عدن حيث لم يقدم الثمر اللائق، وجاء عصر الناموس الطبيعي (الآباء البطاركة)، ثم عصر الناموس الموسوي، وأخيرًا الحقبة الرابعة حيث عهد النعمة. فيتم حصاد كل الحقبات لحساب ملكوت السماوات، ويتحقق كمال الحصاد في مجيء المسيح على السحاب حيث ينتهي العصر الأخير.

يطلب السيد المسيح الحصاد الذي لن يتحقق بدون العمل الجاد بسرورٍ ومثابرة. فالعملٍ ضرورة حتمية وملحة للتمتع بالحصاد.

إنه يرى الحصاد القادم حيث يأتي كثير من السامريين إليه خلال خدمة المرأة السامرية، يؤمنون به ويتأهلون للبس الثياب البيضاء.

❖ "**ارفعوا أعينكم**"، وردت في مواضع كثيرة في الكتاب المقدس حيث يحثنا الكلمة الإلهي على رفع أفكارنا وبصيرتنا إلى فوق. كما جاء في إشعياء: "ارفعوا إلى العلاء أعينكم، وانظروا من جعل هذه الأمور معروفة" (راجع إش ٤٠: ٢٦).

❖ إذ بدأ يتحدث المخلص عن التطويبات **رفع عينيه** نحو تلاميذه وقال: "طوبى" لهؤلاء وأولئك (راجع لو ٦: ٢٠). فإنه لا يوجد تلميذ حقيقي ليسوع في الأسفل، ولا أحد ممن يستريح في حضن إبراهيم. فالغني الذي كان يتعذب **رفع عينيه** ليرى إبراهيم ولعازر في حضنه (لو ١٦: ٢٣)[٢].

❖ **ليس أحد يرفع عينيه إن كان مستمرًا في إتمام أعمال الجسد**[٣].

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٠.

[2] *Commentary on John, Book 13:274 – 276.*

[3] *Commentary on John, Book 13:278.*

❖ يحث الكلمة الحاضر مع التلاميذ سامعيه أن يرفعوا أعينهم إلى حقول الكتاب المقدس وإلى حقول الغاية من كل شيء موجود، فيرى الإنسان بياض نور الحق وبهاءه الحال في كل مكان. فإنه بحسب سليمان: "كلها واضحة لدى الفهماء، ومستقيمة لدى الراغبين في الشركة في المعرفة الحسية" (راجع أم ٨: ٩)[1].

العلامة أوريجينوس

كتب **القديس جيروم** إلى أبيغيوس *Abigaus* كاهن *Baetica* بأسبانيا يعزّيه في عماه الجسدي ويبعث فيه روح الفرح من أجل ما يتمتع به من بصيرة داخلية:

❖ يليق بك ألا تحزن، إنك محروم من هاتين العينين الجسديتين اللتين لدى النملة والحشرات والزحافات، بل بالأحرى أن تفرح أن لديك العين الواردة في نشيد الأناشيد: "قد سبيْتِ قلبي يا أختي العروس، قد سبيْتِ قلبي بإحدى عينيك" (نش ٤: ٥). هذه هي العين التي بها يُرى اللَّه، والتي أشار إليها موسى عندما قال: "أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم" (خر ٣: ٣)... وقال نبي: "يدخل الموت خلال نوافذك" (إر ٩: ٢١ *LXX*)... وقد أمر (الرسل) أن **يرفعوا أعينهم**، ويتطلعوا إلى القول، فإنها **قد ابيضَّت للحصاد** [٣٥][2].

القديس جيروم

"**والحاصد يأخذ أجرة،**
ويجمع ثمرًا للحياة الأبدية،
لكي يفرح الزارع والحاصد معًا". **[٣٦]**

الآن يتقدم السيد المسيح بكونه الزارع الذي غرس الكلمة في قلب السامرية، وفي ساعات قليلة جدًا قام بدور الحاصد، وفرح وتهلل من أجل الثمر حيث آمن به كل أهل المدينة قائلين: "**إن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم**" [٤٢].

❖ يقصد المسيح هنا الحاصد الروحاني، لأن ثمرة الحصاد الجسداني لا تبلغ إلى الحياة الأبدية، بل إلى هذه الحياة الوقتية، أما ثمرة الحصاد الروحاني فإنها تبلغ إلى حياة خالية من الشيخوخة والموت. أرأيت كيف أن أقواله محسوسة ومعانيها روحانية؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Commentary on John, Book 13:284.s*
[2] *Letter 76:2.*

❖ ضعوا في اعتباركم أنه إن كان موسى والأنبياء هم الذين زرعوا، إذ كتبوا الأمور "لإنذارنا نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور" (١ كو ١٠: ١١)، وأعلنوا عن رحلة المسيح. وانظروا إن كان الذين حصدوا هم الرسل الذين قبلوا المسيح، ورأوا مجده الذي يتفق مع بذار الأنبياء العقلية الخاصة به، التي حُصدت بواسطة إدراك السرّ المخفي منذ الدهور، وأُعلن في أواخر الأزمنة" (أف ٣: ٩؛ ١ بط ١: ٢٠). "الذي في أجيال أخر لم يعرف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه" (أف ٣: ٥).

الآن فإن الخطة الكاملة الخاصة بإعلان السرّ المحفوظ في كتمان لأزمنة أبدية، والآن أُعلن خلال الأسفار النبوية وظهور ربنا يسوع المسيح، وذلك في الوقت الذي فيه جعل النور الحقيقي الحقول مبيضة للحصاد، إذ أشرق عليها بكونه البذرة.

حسب هذا التفسير الحقول التي غُرست فيها البذور هي كتابات الناموس والأنبياء التي لم تكن قد ابيضت بالنسبة للذين لم يتقبلوا حضور الكلمة. لكنها صارت هكذا بالنسبة للذين صاروا تلاميذ ابن الله، وأطاعوه، هذا القائل: "**ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد**" [٣٥][1].

❖ كتلاميذ حقيقيين ليسوع لنرفع أعيننا وننظر الحقول التي غرسها موسى والأنبياء، لكي نرى بياضها، وكيف قد أُعدت لحصاد ثمارها، وجمعه لحياة أبدية، في رجاء نوال أيضًا مكافأة من رب الحقول ومانح البذور[2].

❖ كل إنسان، أيًا كان، يقرأ: "إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب، ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات" (مت ٨: ١١)، سيتفق في إن الزارع والحاصد يفرحان معًا، حيث يهرب كل أنين وحزن ووجع في الدهر الآتي (إش ٣٥: ١٠).

إن تردد أحد في قبول أنه حتى الآن الذي يزرع يفرح مع كل من يحصد، ليذكر ما حدث في تجلي يسوع كنوعٍ من الحصاد عندما ظهر في مجدٍ، ليس فقط للحصادين بطرس ويعقوب ويوحنا الذين صعدوا معه على الجبل، بل وأيضًا للغارسين موسى وإيليا من قبل، فاستناروا إلى هذا الحد بواسطة الآب وأناروا الذين رأوه. هكذا الآن يُرى موسى وإيليا معًا مع الرسل القديسين[3].

العلامة أوريجينوس

---

[1] *Commentary on John, Book 13:305 – 307.*
[2] *Commentary on John, Book 13:308.*
[3] *Commentary on John, Book 13:309 – 310.*

"لأنه في هذا يصدق القول:
إن واحدًا يزرع،
وآخر يحصد". [٣٧]

هوذا السيد المسيح يرسل تلاميذه للحصاد، الحقل الذي تعب فيه آباء وأنبياء العهد القديم زمانًا هذا مقداره.

❖ يمكننا القول أن واحدًا ينتمي إلى الناموس، والآخر إلى الإنجيل، لكنهما يفرحان معًا [٣٦]، لأن لهما هدف واحد من الله الواحد بيسوع المسيح الواحد، المخزن لهما في الروح القدس الواحد[1].

العلامة أوريجينوس

❖ الأنبياء هم الذين زرعوا ولم يحصدوا، وأما الذين حصدوا فهم الرسل. لكن لم يُحرم الذين زرعوا فقط من الفرح بالمكافأة على أتعابهم، إنما تهللوا وابتهجوا بالرغم من أنهم لم يحصدوا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه.
آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم". [٣٨]

❖ ولِمَ قال المسيح هذه الأقوال لتلاميذه؟ حتى إذا أرسلهم للمناداة لا يضطربوا كأنهم مرسلون إلى عملٍ شديد الصعوبة، لأن عمل الأنبياء كان أكثر تعبًا... إذ جاء التلاميذ إلى الأعمال الأسهل من غيرها، لأنه كما أن الثمرة تجمع في الحصاد بسهولة كذلك يصير عملهم الآن. بهذا شجع المسيح تلاميذه كثيرًا، لأن هذا العمل إذا كان يُظن أنه متعب، إذ يجولون المسكونة وينادون بالتوبة، بيَن لهم أنه سهل، لأن العمل الذي كان متعبًا جدًا، إنما كان ذاك العمل الذي احتاج تعبًا كثيرًا، وهو بذر البذور وأن يدخلوا نفسًا بعيدة إلى معرفة الله[3].

❖ الآن عمل الحصاد غير الزرع. لقد حُفظتكم لعمل أقل مشقة بينما المسرة أعظم، ليس أن تزرعوا لأنه يحتاج إلى جهد أصعب وإلى ألم.

في الحصاد ننال عائدًا عظيمًا بينما الجهد والألم ليسا هكذا عظيمًا، حقًا أنه أكثر سهولة... العمل الشاق الذي يتطلب جهدًا هو غرس البذور ودخول النفس التي لم تنل العضوية (الكنسية) إلى

---

[1] *Commentary on John, Book 13:322.*
[2] *Hom. on John, 34: 2.*
[3] *Hom. on John, 34: 2.*

معرفة الله... هذه هي رغبة الأنبياء أن يحضروا كل البشر إليّ، هذا ما كان يعده الناموس. بسبب هذا كانوا يغرسون لكي يأتوا بهذا الثمر. بهذا كله يظهر أنه أرسلهم أيضًا وأن العلاقة بين الجديد والقديم عظيمة، وقد أظهر هذا كله بهذا المثل[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الكلمة دائمًا يجعل أتعاب الناس القدامى أكثر وضوحًا للتلاميذ الحقيقيين حتى لا يمارسوا ذات الأتعاب التي واجهت الغارسين[2].

العلامة أوريجينوس

٥. إيمان السامريين به

"فآمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين،
بسبب كلام المرأة التي كانت تشهد أنه قال لي كل ما فعلت". [٣٩]

لم يرَ أهل سوخار معجزة ما، لكن ما اجتذبهم إلى السيد المسيح هو شخصه وحديثه الإلهي. تمتعوا بكلمة المسيح الواهبة الحياة، هذا ما سيؤكده الإنجيلي في الحقبة التالية... في حواره الأول السابق مع نيقوديموس القائد الديني ركز السيد على الميلاد الجديد بالمعمودية، وهنا يركز السيد على شخصه لكي يقبله الأمم ويتمتعوا بعمله الخلاصي.

❖ إن تطلعنا إلى ما يُقال بخصوص السامرة، والمرأة السامرية وبئر يعقوب فإنه ليس من الصعب أن نرى كيف أن هؤلاء الذين أُحبطوا بالتعاليم الباطلة تركوا مدينة آرائهم كما لكي يتمتعوا بالتعليم الصادق. وإذ تركوها آمنوا بحق بالتعليم الخلاصي بسبب امرأة واحدة سبق فقبلت تعليم الخلاص عند بئر يعقوب، وقد تركت جرتها السابقة المُشار إليها لكي تدعو الآخرين لكي ينتفعوا بنفس الطريقة[3].

العلامة أوريجينوس

"فلما جاء إليه السامريون،
سألوه أن يمكث عندهم،
فمكث هناك يومين". [٤٠]

---

[1] *Hom 34. PG 59: 197 – 198.*
[2] *Commentary on John, Book 13:326.*
[3] *Commentary on John, Book 13:340.*

يرى **العلامة أوريجينوس** أن يسوع مكث معهم ليس في مدينتهم، إذ خرجوا إليه خارج مدينتهم [٣٠]، أي مكث في عقولهم.

لم يذكر الكتاب أنه صنع آيات بينهم، إذ كانوا بسطاء محتاجين ومستعدين لسماع الكلمة، تعلقوا بالسيد المسيح من أجل الحق. ولم يطلبوا آيات لكي يتحققوا من شخصه كما طلب كثير من القيادات اليهودية.

في إنجيل لوقا نجد سامريين رفضوا أن يعبر يسوع بمدينتهم (لو ٩: ٣٥). هنا نجد سامريين يسألونه أن يمكث معهم، ففي كل شعب نجد من يقبل الحق، ومن لا يطيقه.

مع أن السيد المسيح كان في طريقه من اليهودية إلى الجليل، ومرّ عابرًا بالسامرة، فإنه إذ وجد فرصة للخدمة، وقبولاً للكلمة لم يرفض طلب السامريين بل مكث معهم يومين.

❖ يبقى يسوع مع الذين يطلبونه، خاصة عندما يترك سائليه مدينتهم، ويأتون إلى يسوع، مقتدين بإبراهيم عندما أطاع الله الذي قال له: "أخرج من مدينتك ومن شعبك ومن بيت أبيك" (تك ١٢: ١)[1].

❖ يبقى يسوع يومين مع الذين يسألونه، لأنهم لم يدركوا بعد يومه الثالث، إذ كانوا غير قادرين على إدراك أي شيء معجزي مثل هؤلاء الذين أكلوا مع يسوع في اليوم الثالث في عرس قانا الجليل (يو ٢: ١)[2].

العلامة أوريجينوس

"فآمن به أكثر جدًا بسبب كلامه". [٤١]

لقاؤهم مع السيد وهبهم نموًا في الإيمان وتزايدًا في عدد المؤمنين.

❖ نال اليهود معرفة أكثر من السامريين، وتعرفوا دومًا على الأنبياء، وأكلوا معهم، فظهروا في هذا أنهم متأخرون عنهم، لأن هؤلاء السامريين آمنوا بالمسيح بناء على شهادة امرأة، دون أن يبصروا منه معجزة واحدة، وخرجوا مسرعين يطلبون من المسيح أن يقيم عندهم، أما اليهود فشاهدوا بأعينهم عجائبه، وليس أنهم لم يستبقوه معهم بل طردوه بعيدًا، واستخدموا كل وسيلة لاستبعاده عن بلادهم، مع أنه قد جاء أصلاً لأجلهم[3].

---

[1] *Commentary on John, Book 13:246.*
[2] *Commentary on John, Book 13:347.*
[3] *Hom. on John, 35: 1.*

❖ سيدين هؤلاء السامريون اليهود بإيمانهم بالمسيح وقبولهم إياه، لأن **أولئك** اليهود بعد كل أعماله وعجائبه قاوموه دفعات متصلة، أما السامريون فبدون آيات أظهروا إيمانهم به.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وقالوا للمرأة:

إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن،

لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم". [٤٢]

رؤيتهم للسيد المسيح وسماعهم له ثبَّت إيمانهم الذي تسلموه من المرأة، وانجذب كثيرون معهم في ذات الإيمان، كما تعرفوا عليه أنه ليس مخلص اليهود وحدهم ولا معهم السامريون فحسب، بل هو بالحقيقة مخلص العالم الذي قال عنه إشعياء النبي: "جعلتك نورًا للأمم، لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض" (إش ٤٩: ٦).

إيمانهم حمل يقينًا "**بالحقيقة المسيح مخلص العالم**"، وكما قالت ملكة سبأ لسليمان الملك: "صحيحًا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك، ولم أصدق، حتى جئت وأبصرت عيناي، فهوذا النصف لم أُخبر به" (١ مل ١٠: ٦-٧).

هذه هي البذار التي غرسها السيد المسيح في السامرة في خلال يومين، نسمع بعد حوالي أربع أو خمس سنوات عن تبشير فيلبس في السامرة، حيث وجد بذارًا صالحة في الأرض (أع ٨: ٥-٦، ٨). كما وجد أيضًا أشرارًا مثل سيمون الساحر (أع ٨: ٩-١٠).

❖ تفوَّق الدارسون على معلمتهم، وصار لهم الحق في إدانة اليهود بقبولهم له وإيمانهم به... أدركوا في الحال أنه سوف يجتذب العالم إليه، وأنه جاء ليصنع خلاصًا لنا شاملاً، ولا تقتصر رعايته على اليهود وحدهم... إنه **المخلص الحقيقي** الذي يهب الخلاص الحقيقي الأبدي وليس الزمني[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يصفوا المسيح مخلصًا على بسيط ذات الوصف، لكنهم قالوا: "**نحن نعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم**"، الواهب الخلاص الحقيقي لا الخلاص الوقتي فقط. وهذا القول كان عن إيمان خالص، والدليل على ذلك أولاً لأن إيمانهم كان خاليًا من عجائب شاهدوها. ثانيًا على الرغم من أنهم سمعوا المرأة قائلة في ارتياب "ألعل هذا هو المسيح" لم يقولوا إننا نظن أنه المسيح،

[1] *Hom. on John, 35: 1.*

لكنهم قالوا: "**نحن نعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم**". فإنهم لم يعترفوا بالمسيح كأنه واحد من كثيرين، لكنهم أقروا أنه بالحقيقة المخلص، ومع أنهم لم يبصروه قد خلص، وإنما سمعوا كلامه قالوا هذا القول، فلو أنهم أبصروا عجائبه لقالوا أقوالاً كثيرة عظيمة. وإذ قالوا عن المسيح إنه مخلص العالم أوضحوا أنه مخلص العالم الضال.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد جحدوا إيمانهم القائم على حديث المرأة، وذلك عندما اكتشفوا أن سماعهم للمخلص نفسه أفضل من هذا الإيمان. فقد عرفوا هم أيضًا "**أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم**" [٤٢].

حقًا إنه من الأفضل أن تكون شاهد عيان للكلمة، وأن تسمع له، دون استخدام الأعضاء الجسمانية وتدَّخل المعلمين، هذا الذي يعلم ويقدم صورًا أمام العقل لإظهار الحق بأكثر وضوح، أفضل من الاستماع للرسالة عنه خلال الخدام الذين رأوه بينما لا يراه الشخص ولم يستتر بقوته[1].

❖ ليس بالأمر المدهش في الحقيقة أن البعض يُقال عنهم أن يسلكون بالإيمان لا بالعيان، وآخرين يسلكون بالعيان (الداخلي) الذي هو أعظم من السلوك بالإيمان (دون خبرة الرؤية الداخلية)[2].

العلامة أوريجينوس

٦. ذهابه إلى الجليل

"**وبعد اليومين خرج من هناك،**
ومضى إلى الجليل". **[٤٣]**

❖ قضى يومين في السامرة فآمن به السامريون، وقضى أيامًا كثيرة في الجليل ومع ذلك لم يؤمن به الجليليون... لم ينتظر السامريون آية، بل آمنوا بمجرد كلمته... بحديثه وحده آمن كثير من السامريين، وبالمعجزة التي فعلها لم يؤمن في الموضع سوى ذلك البيت [٥٣][3].

القديس أغسطينوس

"**لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبي كرامة في وطنه**". **[٤٤]**

يرى البعض أن الإنجيلي يقصد أن يسوع ذهب إلى الجليل وليس الناصرة، وإن كان قد اعتاد السيد أن يذكر هذا المثل مشيرًا إلى وطنه "الناصرة" (مت ١٣: ٥٧؛ مر ٦: ٤؛ لو ٤: ٢٤).

---

[1] *Commentary on John, Book 13:352*
[2] *Commentary on John, Book 13:363.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 16:3.*

لم يذهب السيد المسيح إلى وطنه بل إلى الجليل ليس طلبًا للكرامة الزمنية، وإنما لأنه لا يقحم نفسه على شعب يرفضه. حتى عندما ظهر لتلاميذه وسط العاصفة يقول الإنجيلي: "ولما قبلوه دخل السفينة". يشتهي السيد أن يعبر إلينا، ويدخل إلى مدينتنا، ويقود سفينة حياتنا، لكن ليس قهرًا بل عندما نطلبه. هذا ومن جانب آخر فإن الذين يطلبونه ويكرمونه يطلبهم ويكرمهم. "أكرم الذين يكرمونني، والذين يحتقرونني يصغرون" (أم ٢: ٣٠). إنه لجأ إلي الجليل بعد أن قدم كل فرصة ممكنة لشعبه ووطنه، إذ يقول: "بسطت يدي طول النهار إلي شعب متمرد" (إش ٦٥: ٢؛ رو ١٠: ٢١).

❖ لماذا أضاف هذا (المثل)؟ لأنه لم يرحل إلي كفرناحوم بل إلي الجليل، ومن هناك إلى قانا. ولكي لا تسأل لماذا لم يمكث مع شعبه بل مع السامريين، أضاف الإنجيلي السبب، مظهرا أنهم لم يكونوا يبالون به. لهذا لم يذهب إلي هناك، حتى لا تكون دينونتهم أعظم. لأنني أظن أنه يتحدث هنا عن كفرناحوم أنها "وطنه". ولكي يظهر أنه لم ينل كرامة هناك اسمعه يقول: "وأنت يا كفرناحوم المرتفعة إلى السماء، ستهبطين إلى الهاوية" (مت ١١: ٢٣). لقد دعاها وطنه، لأنه هناك حقق تدبير الكلمة (التجسد الإلهي) وسكن فيها على وجه الخصوص[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فلما جاء إلى الجليل قبله الجليليون،**
إذ كانوا قد عاينوا كل ما فعل في أورشليم في العيد،
لأنهم هم أيضًا جاءوا إلى العيد". **[٤٥]**

قبله الجليليون بكونه المسيا الموعود به، وذلك بسبب ما رأوه من آيات وعجائب صنعها في أورشليم حين كان في عيد الفصح (يو ٢: ٢٣).

❖ ها سامريون وجليليون قد آمنوا بالمسيح لخزى اليهود وتخجيلهم، فالسامريون وُجدوا أفضل من الجليليين، لأن أولئك السامريين قبلوه من كلام المرأة، أما الجليليون فقبلوه من معجزاته. يذكر الإنجيلي السامع بالمعجزة (تحويل الماء خمرًا في قانا الجليل) ليرفع من مديح السامريين، فقد قبله رجال قانا بسبب المعجزة التي تمت في أورشليم، ولم يكن هذا حال السامريين، إذ قبلوه من أجل تعليمه وحده[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 35:1.*
[2] *Homilies on St. John, 35:2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فجاء يسوع أيضًا إلى قانا الجليل حيث صنع الماء خمرًا،
وكان خادم للملك ابنه مريض في كفرناحوم". [٤٦]

كانت قانا على الطريق من الناصرة إلى كفرناحوم وبحر طبرية.

يرى **العلامة أوريجينوس** أن زيارتي يسوع إلى قانا الجليل تشيران إلى مجيئيه الأول والأخير. ففي المجيء الأول حول الماء خمرًا، وفي الثاني وهب الحياة لابن خادم الملك الذي أوشك على الموت. [توجد أيضًا زيارتان للكلمة في النفس. في الأولى يهبها خمرًا من الماء، لأجل بهجة الذين يعيدون معًا، والثانية فيها ينزع كل مرض لمدى طويل، وكل تهديد للموت[1].]

❖ في الرحلة الأولى بعد عمادنا يجعلنا نحن الذين نسكن معه مبتهجين، واهبًا إيانا خمر قوته لكي نشرب. هذا الماء عندما سُحب أولاً صار خمرًا عندما حوَّله يسوع. لأن الكتاب المقدس كان بالحق ماءً قبل مجيء يسوع، ولكن منذ مجيئه صار لنا خمرًا. في زيارته الثانية حيث سلمه الله الدينونة، يحررنا من حمى وقت الدينونة. إنه يحل ابن الملك من الحمى، ويشفيه تمامًا، سواء يُفهم انه ابن إبراهيم، أو ابن حاكم يدعى خادم الملك[2].

العلامة أوريجينوس

❖ جاء إلى الجليل بسبب حسد اليهود، ولكن لماذا جاء إلى قانا؟ جاء إليها أولاً بكونه مدعو إلي عرس، ولكن لماذا جاء الآن؟ حسب ظني أنه جاء لكي بحضوره يثبت الإيمان الذي زرعه بمعجزته، ولكي يجتذبهم إليه أكثر بحضوره إليهم مدعوًا من نفسه، تاركًا مدينته ومفضلاً إياهم عنهم[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٧. شفاء ابن خادم الملك

"هذا إذ سمع أن يسوع قد جاء من اليهودية إلى الجليل،
انطلق إليه وسأله أن ينزل ويشفي ابنه،
لأنه كان مشرفًا على الموت". [٤٧]

---

[1] *Commentary on John, Book 13:392.*
[2] *Commentary on John, Book 13:438 – 439.*
[3] *Homilies on St. John, 35:2.*

لم يفعل السيد المسيح شيئًا سوى أنه تكلم، مقدمًا كلماته واهبة للحياة، إذ كان الابن قد قارب الموت [٤٧].

خادم الملك *Basilibos*، وهو حارس في القصر الملكي. يرى كثير من الدارسين أن الملك هنا هو هيرودس أنتيباس رئيس ربع علي الجليل، كان الشعب يدعوه "الملك". يرى **القديس چيروم** أن اسمه *Palantinus*، بينما يرى آخرون أنه خوزي *Chuza* (لو ٨: ٣) وهو زوج يونا السيدة التي كانت تتبع السيد المسيح مع النساء اللواتي كن يخدمنه من أموالهن الخاصة، وآخرون أنه مناين *Manaen* (أع ١٣: ١).

جاء الوصف هنا دقيقًا، إذ يقول: "**سأله أن ينزل...**"، لأن السيد كان في قانا الجليل وهى علي هضبة عالية جدًا بينما كفرناحوم تقع على شاطئ بحر الجليل في مستوى البحر. هذا يؤكد أن الكاتب يدرك تمامًا طبيعة المنطقة.

جاء خادم الملك من كفرناحوم إلى قانا، وهي مسافة تبلغ حوالي ١٦ ميلاً.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن هذا الشخص إما أن يكون من الأسرة الملكية، أو نال كرامة عظيمة بسبب وظيفته، لهذا لقب بالنبيل أو الشريف. كما يقول أن البعض يحسبونه ذات الشخص الوارد في مت ٨: ٥، لكن القديس يرفض ذلك، فإن الاختلاف بينهما ليس من جهة الكرامة فحسب، وإنما من جهة الإيمان أيضًا. فالوارد في إنجيل متى حتى عندما أراد يسوع أن يذهب إليه توسل إليه أن يبقى؛ أما هذا فقد طلب من السيد أن يأتي إلى بيته دون أن يسأل السيد هذا. الأول قال "لست مستحقًا أن تدخل تحت سقفي" والثاني حثه علي المجيء قائلا: "انزل قبل أن يموت ابني". في الحالة الأولى كان السيد نازلاً من الجبل داخلاً كفرناحوم، أما هنا فجاء من السامرة ولم يدخل كفرناحوم بل قانا حيث قابله الرجل. الأول كان خادمه مصابًا بفالج، أما هنا فابنه مصاب بحمى[1].

"**فقال له يسوع:**

لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب". **[٤٨]**

لم يقل له السيد أنه ليس له إيمان، بل كان ضعيفًا في إيمانه. لم يكن قادرًا أن يؤمن بأن السيد يشفيه ما لم يحضر بنفسه من قانا إلى كفرناحوم. إنه الإيمان الضعيف الذي يقوم علي أساس المعجزات، وهو إيمان كثيرًا ما لا يتعدى العقل، لذا يتعرض للضعف والشك. هذا بخلاف الإيمان خلال إعلان الله للنفس، وتمتعها بأسرار الكلمة الإلهية.

[1] *Homilies on St. John, 35:2.*

يتساءل **القديس يوحنا الذهبي الفم** لماذا قال السيد المسيح هذا مع أنه واضح أن هذا الشخص كان مؤمنًا، وما أن سمع كلمة من السيد المسيح حتى آمن [٥٠]؟ ويجيب علي ذلك بقوله: [إما أنه استخدم هذه الكلمات لتزكية السامريين، لأنهم آمنوا دون آيات، أو لكي يلمس بها كفرناحوم التي يظن إنها وطنه، والتي جاء منها هذا الشخص. أضف إلى هذا ما قاله شخص ما "أؤمن يا سيد فأعن عدم إيماني" (مر ٩: ٢٤). هكذا إن كان هذا الحاكم قد آمن، فإن إيمانه لم يكن كاملاً، أو لم يكن سليمًا، هذا يظهر من سؤاله عن الساعة التي فيها أخذ يتعافى [٥٢]، ليعرف إن كان ما قد حدث طبيعيًا أم بناء على أمر المسيح[1].

"قال له خادم الملك:

يا سيد انزل قبل أن يموت ابني". [٤٩]

مع إيمانه الذي جعله يتحرك ليقطع هذه الرحلة، ويلتقي مع السيد المسيح، تاركًا ابنه علي فراش الموت، لكنه في ضعف لم يدرك أنه يتحدث مع غالب الموت وواهب القيامة. في مرارة كان يتعجل تحرك السيد المسيح إلى بيته قبل أن يموت ابنه. لقد ملك الفزع علي قلب أب كاد أن يفقد ابنه، وقد أظهر السيد نوعًا من التباطؤ، ليس في عدم مشاركة لمشاعر الأب المرتعب من موت ابنه، وإنما لبنيان نفسه ونفوس كثيرة. يريد السيد أن يوجه أنظار الأب وكل من حوله إلى سرّ الحياة والقيامة، إلى شخصه كمخلص العالم. أما عمل الآية فيُعطى كهبة إضافية كمن يطلب ملكوت الله وبره.

كثيرًا ما تحدث **القديس أغسطينوس** عن ضعف علاقتنا بالله وانحرافها، حينما لا يشغلنا سوى التمتع بالنعم والبركات الزمنية من الله صانع الخيرات عِوَض الانشغال به واقتناءه في داخلنا.

بنفس الروح يطالبنا القديس بولس ألا تكون علاقتنا بالقديسين مجرد علاقة للتمتع بمعونتهم، خاصة في حل المشاكل المادية أو المعنوية أو الاجتماعية، إنما في الدرجة الأولى علاقة حب داخلي كأساس للاقتداء بسيرتهم في المسيح يسوع. "انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم".

❖ انظر إلى أقوال خادم الملك، كيف تبين ضعفه، لأنه كان واجبًا عليه أن يتصور في ربنا تصورًا عظيمًا من أجل ابنه. لأن بقوله للمسيح: "**يا سيد انزل قبل أن يموت ابني**" أنزله بمنزلة من هو ليس مقتدرًا أن يقيم ابنه بعد موته، وكما لو كان غير عارفٍ بحال الغلام. لهذا السبب فإن المسيح لامه، لامسًا ضميره، مظهرًا أن معجزاته تتم لحساب النفس. هنا يشفي الأب المريض في

[1] *Homilies on St. John, 35:2,*

ذهنه لكي يحثنا أن نهتم به لا لأجل الآيات بل بتعليمه. فإن الآيات ليست للمؤمنين بل لغير المؤمنين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لديه إيمان قليل في ذاك، إذ ظنه لا يقدر أن يشفي ما لم يكون حاضرًا بالجسد. لو أنه آمن بالكامل لعرف أنه لا يوجد موضع ليس فيه الله حاضرًا... فالذي خلق كل شيء بإرادته يحقق الشفاء بمجرد أمر منه[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"**قال له يسوع:**

اذهب ابنك حي؟

فآمن الرجل بالكلمة التي قالها له يسوع وذهب". **[٥٠]**

اهتمام السيد المسيح بتوجيه خادم الملك إلى الإيمان الحي القوي لا يعنى تجاهله الجهد الذي بذله بحضوره إليه وقطعه هذه الرحلة، فإن مسيحنا لا ينسى تعب المحبة، ولا يتجاهل كأس ماء بارد يُقدم باسمه. هذا وهو الكلي الحب لا يتجاهل مشاعر أب يرى ابنه على سرير الموت، وقد اعتصر قلب الأب. وأخيرًا فإن لجاجة الرجل لها تقديرها، إذ يطالبنا أن نصلي ولا نمل، وقد مدح الأرملة التي من أجل لجاجتها سمع لها القاضي الظالم.

بقوله: "**اذهب ابنك حي**" أعلن سلطانه المطلق، فهو ملك الملوك ورب الأرباب له "الحياة في ذاته"، صاحب سلطان، ينتهر الأمراض فتهرب، والموت فيولي هاربًا. أما خادم الملك فيعرف ما للأوامر الملكية من سلطان وقوة، فلا تُقاس فيها. تقبل الكلمة كأمر ملكي وانطلق في يقين بلا جدال ولا حوار ليتمتع بهذا الكنز الثمين: الأمر الإلهي النافذ العمل!

آمن القائد، لكن بقي الإيمان مشروطًا في داخله، وهو أن يتأكد بأن ابنه قد شُفي، لذلك قيل فيما بعد: "**فآمن هو وبيته كله**" (٥٣).

"**وفيما هو نازل استقبله عبيده وأخبروه قائلين:**

إن ابنك حيّ". **[٥١]**

"**فاستخبرهم عن الساعة التي فيها أخذ يتعافى،**

---

[1] *Hom 35. PG 59: 204*

[2] *Hom 28 , Forty Gospel Homilies. PL 76: 1211.*

فقالوا له أمس في الساعة السابعة تركته الحمى". [٥٢]

بسؤاله كشف خادم الملك عن ضعف إيمانه، لكن كما قيل عن السيد: "فتيلة مدخنة لا يطفئ، وقصبة مرضوضة لا يقصف" (مت ١٢: ٢٠). إنه الراعي الذي يهتم بالخراف الضعيفة حتى يسندها، ويدخل بها إلى حظيرة الإيمان.

"ففهم الآب انه في تلك الساعة التي قال له فيها يسوع إن ابنك حي، فآمن هو وبيته كله". [٥٣]

"هذه أيضًا آية ثانية صنعها يسوع لما جاء من اليهودية إلى الجليل". [٥٤]

سبق فأشار الإنجيلي إلي معجزة تحويل الماء خمرًا عندما قال بأن يسوع جاء إلى قانا الجليل [٤٦]، وها هنا يشير إليها بقوله: "هذه أيضا آية ثانية صنعها يسوع..." وكأن الإنجيلي أراد أن يربط بين الآيتين، الأولي في بداية خدمة السيد المسيح حيث حوَّل العالم إلى عرس أبدي ليتمتع الكل بخمر محبة الله وفرح السماء الذي لا ينقطع. والثانية حيث أشرف ابن خادم الملك علي الموت، وغالبًا ما كان أمميًا، فوهبه الشفاء ليعلن أنه يطلب سلامة الشعب أو سلامة عروسه. تمجد السيد المسيح في المعجزة الأولى أمام صاحب العرس اليهودي، وتمجد هنا أمام الجموع التي جاءت في بيت خادم الملك الأممي.

ويرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الإنجيلي ذكر هذا ليكشف عن سمو السامريين الذين آمنوا بالسيد المسيح دون أن يروا المعجزة الأولى أو الثانية، بل قبلوه من خلال تعليمه.

❖ يحوي هذا القول أيضًا مديحًا للسامريين، موضحًا أن اليهود **بعد** أن تمت "آية ثانية" لم يصلوا بعد إلى علو أولئك السامريين الذين لم يبصروا ولا آية واحدة.

❖ لم يذكر الإنجيلي كلمة "**ثانية**" بلا هدف، وإنما لكي يزيد من دهشة السامريين بإظهار أنه حتى عندما تمت آية ثانية فإن الذين شاهدوها لم يبلغوا بعد إلى سمو الذين لم يشاهدوها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Hom 36. PG 59: 206.*

من وحي يو ٤

ينبوع حبك يروي أعماق نفسي!

❖ حبك العجيب يتحدّى كل القوانين!
لا تقف أمامه صعاب أو عقبات!
من أجل امرأة سامرية فقيرة وسيرتها مشينة،
انطلقت إلى السامرة، سائرًا على قدميك، صائمًا!
يا من يشتهي السمائيون أن يحملوك.
جسدك الرقيق صار مرهقًا!
لكن نفسك كانت في ظمأ إلى خلاص المرأة!

❖ خجلت السامرية من الذهاب صباحًا حتى لا تلتقي بأحدٍ.
لم يكن لديها خادم أو جارية يجلب لها ماءً.
وجَدّتك وحدك وسط الظهيرة تبحث عنها.
تحمل إليها ينابيع مياه حيّة،
من يشرب منها لا يعطش أبدًا.

❖ تواضعك مع حبك ولطفك أنساها العداوة بين السامريين واليهود.
التطلع إليك ألهب قلبها للعبادة للّه.
وثِقَتْ فيكَ، فاسترسلَت تتحدث في أمر العبادة!
تعرَّفَت عليكَ، وتدرّجت في معرفتها لك.
إذ بحثَتْ عنك بإخلاص، أعلنتَ ذاتك لها!

❖ يا للعجب، إنها لم ترَ قطْ معجزة أو آية فائقة،
لكن حديثك سحب كل كيانها للتمتع بالخلاص.
اعترفت بأسرارها لشخصية، إذ وجدت عريس نفسها.
لم يشبعها الرجال الخمسة السابقين، ولا الرجل الذي معها.
أدركت أن أسفار موسى الخمسة،
والتعاليم التي بين يديها،

لن تروي ظمأها.
أنت وحدك عريس نفسها.

❖ اقتنتك في داخلها،
فاتسع قلبها بالحب لكل بشرٍ.
تركت جرّتها، ودون أن تستأذن جرت إلى مدينتها.
بقلبها الناري لم تخجل أن تعترف بحكمة فائقة:
"إنسان قال لي كل ما فعلت،
ألعلّ هذا هو المسيح؟!"
خرجت المدينة بأسرها وانطلقت نحو العريس العجيب!

❖ لم يصدر لها أمر بالكرازة،
ولا تدربت على فن الشهادة،
لكنها فعلت ما لم يفعله رسول أو تلميذ!
بحبها جذبت المدينة كلها،
وإذ التقوا بكَ رفضوا أن يتعلّموا من غيرك.
أعلنوا في يقين ما لم يعلنه تلاميذك:
نعلم أن هذا هو بالحقيقة مخلص العالم!

❖ حقًا أنت مخلص العالم،
أنت واهب الشفاء والحياة.
يا من أقمت ابن خادم الملك كما من الموت!
أقم نفسي المسكينة،
فتتمتع بك، يا مصدر الحياة والفرح!

الأصحاح الخامس

شفاء مريض بيت حسدا

الطبيب الإلهي

في هذا الأصحاح نجد لقاء بين السيد المسيح، الطبيب السماوي، ومريض بيت حسدا الذي عانى من الفالج ٣٨ عامًا. وهو طبيب فريد يسعى نحو المريض دون أن يطلبه، وإن كان لا يشفيه قسرًا بل يسأله: "أتريد أن تبرأ". التقى به عند بيت حسدا التي كان لها خمسة أروقة، إشارة إلى كتب موسى الخمسة، أو إلى الناموس. فالناموس يفضح الخطية، ويؤكد لنا المرض، والحاجة إلى طبيب سماوي قادر أن يعالج.

أبرز الطبيب ما في المريض من سمات صالحة، فقد اتسم بالوداعة. فعندما سأله السيد: "**أتريد أن تبرأ**" لم يثِر، بل في وداعة عجيبة أجابه. "**يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء، بل بينما أنا آتٍ ينزل قدامي آخر**". [٧] من يسقط في مرضٍ مدة طويلة غالبًا ما يُصاب بأتعاب عجيبة، تزداد مع تزايد فترة المرض. أما هنا فنراه وديعًا للغاية. هذا وعندما قال له السيد "**قم احمل سريرك وامشِ**" [٨]، آمن وللحال قام ومشى وحمل سريره. إنه ملقى عند البركة منذ قبل ميلاد السيد المسيح بالجسد، وربما لم يسمع عنه، فقد كاد أن يصير محرومًا من لقاء الأقارب والأصدقاء بعد كل هذا الزمن من المرض. ومع هذا لم يحاور السيد كيف يقوم، وكيف يقدر أن يمشي دفعة واحدة، ويحمل سريره؟

قد عجزت الذراع البشرية عن شفاء هذا المفلوج المُلقى عند البركة لمدة ٣٨ عامًا. تدخل السيد المسيح سائلاً إياه: أتريد أن تبرأ؟ لقد وهبه حياة جديدة في بيت حسدا التي تعني "بيت الرحمة".

لم ترد هذه المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأخرى، لأن يوحنا اهتم بالمعجزات التي تمت في أورشليم بينما اهتم الإنجيليون الآخرون بما تم في الجليل.

١. شفاء مفلوج بيت حسدا	**١-٩.**
٢. مقاومة اليهود	**١٠-١٦.**
٣. حديث المسيح عن السبت	**١٧-١٨.**
٤. حديث عن الحياة الأبدية	**١٩-٣٠.**

٥. شهادة يوحنا المعمدان له **٣١–٣٥.**

٦. شهادة آياته وأعماله **٣٦.**

٧. شهادة الآب له **٣٧.**

٨. شهادة الكتاب المقدس له **٣٨–٤٧.**

١. شفاء مفلوج بيت حسدا

"وبعد هذا كان عيد لليهود،

فصعد يسوع إلى أورشليم". [١]

يرى كثير من آباء الكنيسة والدارسين المعاصرين أن الظروف الواردة في هذا الأصحاح تكشف أنه كان عيد الفصح. هذا وقد جاء اهتمام الإنجيليون الثلاثة الآخرون بخدمة السيد المسيح في اليهودية مقتضبًا جدًا ولم يشيروا إلى أعياد الفصح التي حلت منذ عماد السيد إلى صلبه، بينما أشار القديس يوحنا إلى جميع هذه الأعياد: الأول في ٢: ١٣، والثاني هنا ٢: ١، والثالث ٦: ٤، والرابع ١٣: ١. وإن كان لم يذكر صراحة هنا أنه عيد الفصح بل "**عيد لليهود**".

إذ حلَّ العيد، فمع إقامة السيد المسيح في الجليل إلاَّ أنه صعد إلى أورشليم. لقد أوصى في الناموس بصعود الرجال إلى أورشليم في العيد، فلم يرد أن يستثني نفسه مادام قد قبل أن يصير ابن الإنسان الخاضع للناموس. وهو في هذا يقدم لنا نفسه مثالاً للاهتمام بالعبادة الجماعية، حتى وإن مارسها الكثيرون في شكلية بلا روح.

إن كانت الحكمة تنادي في الأماكن العامة (أم ١: ٢١) فقد صعد الحكمة إلى أورشليم حيث جاء كثير من اليهود من كل بقاع العالم وأيضا من الدخلاء، فيعلن لهم عن الحق، خاصة وأنهم جاءوا للعبادة، وقد تهيأت نفوسهم لقبول الحق والتعرف عليه.

إذ وردت كلمة "عيد" هنا بدون أداة التعريف لهذا رأى بعض الدارسين أنه لم يكن عيد الفصح بل عيد الخمسين، حيث تذكار **استلام الناموس** ويعتقد كل من **القديسين كيرلس الكبير ويوحنا الذهبي الفم** بذلك. ويعلل البعض أنه عيد الخمسين أن السيد المسيح قدم حديثه عن مفهوم السبت واتهمهم بأنهم لا يصدقون موسى وإلا كانوا قد صدقوه، لأن الناموس يشهد له [٤٥–٤٧].

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على صعود السيد المسيح إلى أورشليم قائلاً: [غالبًا ما كان يذهب إلى المدينة، فمن جانب لكي يظهر معهم في العيد، من جانب آخر لكي يجتذب الجمهور

الذين هم بلا خبث، ففي مثل هذه الأيام يجتمع البسطاء معًا أكثر من الأوقات الأخرى[1].]

يبدو أن السيد المسيح صعد إلى أورشليم وحده، ولم يكن معه التلاميذ، حتى يدخل كمن هو متخفي. هذا واضح من عدم معرفة المفلوج لشخصه، لأنه ما أن شفاه حتى اعتزل عن الجمع [١٣].

"**وفي أورشليم عند باب الضان بركة،**

يُقال لها بالعبرانية بيت حسدا،

لها خمسة أروقة". **[٢]**

يتحدث عن البركة والخمسة أروقة بكونها كانت قائمة في أثناء كتابة السفر. ويرى البعض أن البركة وأروقتها لم تُدمر بتدمير الهيكل في أورشليم والخراب الذي حلَّ بأورشليم. ويرى البعض أنه في نسخ كثيرة يُستشف من الحديث أنها لم تكن قائمة. اكتُشفت البركة حديثًا، وهي بجوار كنيسة القديسة حنة. أظهرت الحفريات أن البركة مطوّقة بمستطيل به أربعة أروقة مع مجرى خامس عبر البركة يقسمها إلى قسمين.

"**بيت حسدا**" *Bethesda* وليست بيت صيدا *Bethsaida* كما جاءت في بعض النسخ. الكلمة العبرية *Bethchasdah* وتعني "بيت الرحمة". ربما أخذت اسمها من مراحم الله التي ظهرت بشفاء الذين ينزلون فيها.

"**باب الضأن**": الأرجح أن هذا الباب سُمى كذلك، لأن الكهنة كانوا يغسلون غنم الذبائح ويأتون بها إلى الهيكل.

تشير **البركة** إلى المعمودية حيث يتمتع المؤمنون بالولادة الجديدة والشفاء من الخطية.

تشير **الأروقة الخمسة** إلى الناموس الذي سُجل خلال أسفار موسى الخمسة؛ يدخل منها المرضى إلى البركة، ليدرك الداخلون أنهم مرضى وفي حاجة إلى الطبيب السماوي.

الملاك النازل من السماء يشير إلى كلمة الله المتجسد، الطبيب السماوي.

شفاء شخص واحد يشير إلى الكنيسة الواحدة التي تتمتع بالشفاء من الخطية.

تحريك الماء يشير آلام المسيح حيث ثارت الجموع عليه. كما يحمل تحريك الماء معنى أن مياه البركة تصير أشبه بمياه جارية حية، كمياه المعمودية التي يعمل الروح فيها فيولد الإنسان ميلادًا روحيًا كما أعلن السيد المسيح لنيقوديموس (يو ٣). وتشير إلى عطية السيد المسيح كقول السيد للسامرية، أن من يشرب من هذا الماء لا يعطش.

[1] *Homilies on St. John, 36:1.*

❖ كان هذا الماء هو الشعب اليهودي، والخمسة أروقة هي الناموس، لأن موسى كتب خمسة كتب. لذلك كان الماء مطوقًا بخمسة أروقة كما كان هذا الشعب مُحكمًا بالناموس. اضطراب الماء هو آلام الرب الذي حلَّ بين الشعب. الشخص الذي كان ينزل ويُشفى وهو شخص واحد، لأن هذه هي الوحدة.

الذين يرفضون آلام المسيح هم متكبرون. إنهم لا ينزلون، فلا يُشفون. إنهم يقولون: "هل أؤمن بأن الله تجسد، أن الله ولد من امرأة، وأن الله صُلب وجُلد ومات وجُرح ودُفن؟ حاشا لي أن أؤمن بأن هذه من الله، إنها لا تليق بالله. دعْ القلب يتكلم لا الرقبة. فإنه بالنسبة للمتكبرين يبدو لهم تواضع الرب إنه غير لائق به. لهذا فالتمتع بالصحة أمر بعيد عنهم. لا تتكبر، إن أردت أن تُشفى فلتنزل[1].

❖ انتبهوا أيها الأحباء، فإن الناموس قد أُعطي لهذه الغاية، أن يكشف عن الأمراض لا أن ينزعها. هكذا فإن هذا القطيع المريض الذي كان يمكن أن يكون مرضى في بيوتهم في سرية عظيمة لو لم توجد هذه الأروقة الخمسة. بدخولهم الأروقة الخمسة صاروا معروفين في أعين كل البشر لكن هذه الأروقة لا تشفيهم.

❖ إذن فالناموس نافع في كشف الخطايا، لأن ذلك الإنسان يصير بالأكثر مذنبًا جدًا بتعديه للناموس، فيمكن أن يلجم كبرياءه، ويتلمس معونة ذاك الذي يتحنن. أنصت إلى الرسول: "دخل الناموس لكي تكثر الخطية، ولكن حيث كثرت الخطية تزداد النعمة جدًا" (رو ٥: ٢٠)... وفي موضع آخر: "حيث لا ناموس ليس هناك تعدِ" (رو ٤: ١٥). يمكن أن يُدعى الإنسان خاطئًا قبل الناموس، لكن لا يمكن أن يدعى متعديًا. ولكنه إذ أخطأ تسلم بعد ذلك الناموس، فوُجد ليس فقد خاطئًا بل ومتعديًا. فإذ أضيف التعدي على الخطية لذلك "كثرت الخطية". وعندما كثرت الخطية تعلم الكبرياء البشري في النهاية أن يخضع وأن يعترف لله ويقول: "أنا ضعيف"[2].

القديس أغسطينوس

❖ كان قد اقترب وقت تسليم المعمودية، وهي تحمل قوة كثيرة، وأعظم البركات. تظهر كما في صورة بواسطة البركة والظروف الأخرى الملازمة...إذ يرغب الله أن يقترب بنا إلي الإيمان بالمعمودية، فإنها ليس فقط تشفى الرجاسات بل والأمراض أيضًا[3].

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 74:3.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 75:2.*
[3] *Homilies on St. John, 36:1.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"في هذه كان مضطجعًا جمهور كثير،
من مرضى وعمي وعرج وعسم،
يتوقعون تحريك الماء". [٣]

ذكر من بين المرضى فقط ثلاث فئات، وهي العمي والعرج العسم، وهي الفئات العاجزة عن النزول إلى الماء، لذلك تجمع منهم عدد كبير حول البركة في الأروقة الخمسة.

"لأن ملاكًا كان ينزل أحيانًا في البركة،
ويحرك الماء،
فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه". [٤]

يرى البعض أن هذا الملاك لم يكن ينزل في البركة يوميًا، وإنما في مواسمٍ معينة، خاصة في الأعياد الثلاثة الكبرى. وأن هذا العمل من قبل الله ليؤكد للشعب أنهم وإن كانوا قد حُرموا من الأنبياء وعمل المعجزات فإن الله لن ينساهم، وهو مهتم بهم.

يرى البعض أن هذا الأمر بدأ بعد أن بنى رئيس الكهنة اليشاب *Eliashib* حائطًا نحو أورشليم وقدسه بالصلاة، فشهد الله بقبوله ذلك خلال هذا العمل المعجزي للبركة. وآخرون يرون أن ذلك بدأ بميلاد السيد المسيح، وآخرون بعماده. ويرى د. لايتفوت *Dr. Lightfoot* أنه جاء في يوسيفوس المؤرخ أنه في السنة السابعة من هيرودس، أي الثلاثين قبل السيد المسيح حدث زلزال عظيم. وحيث أن نزول الملائكة تصحبه أحيانًا زلازل، فربما كانت هذه هي السنة الأولى لبداية نزول ملاك على البركة. ويرى البعض أن هذا الأمر توقف بموت السيد المسيح.

بقوله "**كان ينزل**" *Katebainen* في الماضي يوضح أن هذا الأمر كان قد توقف عند كتابة السفر، بينما يتحدث عن البركة إنها كانت قائمة في أيامه.

عدم الإشارة الصريحة إليها في كتابات يوسيفوس وفيلون وغيرهما من الكتاب اليهود يشير إلى أن هذا العمل لم يبقَ إلى زمنٍ طويلٍ، أو لم يكن قائمًا أثناء كتابتهم.

الاستحمام، خاصة في مكان عام بإلقاء الشخص بسرعة في الماء غالبًا ما قد يصيبه ضررًا، لكن هنا كان المريض، أيًا كان مرضه، يبرأ إن نزل أولاً إلى الماء.

❖ "**لأن ملاكًا كان ينزل أحيانًا في البركة ويحرك الماء**" [٤]، ويهب معه قوة شفاء، حتى يتعلم اليهود أن رب الملائكة يقدر بالأكثر أن يشفي أمراض النفس...

وكما أن طبيعة المياه لم تكن تشفي هنا على بسيط ذات الشفاء، لأنها لو كانت هي الشافية لكان هذا الشفاء يحدث كل حين، لكنها كانت تشفي بفعل الملاك، هكذا الحال في تطهيرنا، ليس بفعل الماء على بسيط فعله، لكنه يقوم بتطهيرنا إذا قبل نعمة الروح، حينئذٍ يحل خطايانا كلها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كان واحد فقط يُشفى إشارة إلى الوحدة، من يأتي بعد ذلك لم يكن يُشفى، لأنه لا يُشفى أحد خارج الوحدة[2].

القديس أغسطينوس

"وكان هناك إنسان به مرض منذ ثمانٍ وثلاثين سنة". [٥]

قضى المريض أكثر من نصف عمره عند البركة يعاني من الفالج، ولا يقدر أن يمارس حياته اليومية. الصحة وزنة يلزمنا أن نستخدمها مادامت في أيدينا، ونقدم ذبيحة شكر لله عليها.

ربما يتساءل البعض: لماذا لم يُشفِ كل المرضى الذين في بيت حسدا بكلمة من فمه؟ هو طبيب النفوس والأجساد، لكن ما يشغله بالأكثر الشفاء الأبدي، حيث تتمجد النفوس ومعها الأجساد. فشفاء هذا المريض، وغالبًا ما كان أكثرهم عند البركة، وقد عرفه كل الحاضرين من المرضى وأقربائهم وأصدقائهم، وربما المدينة كلها. لهذا إذ يشفيه يفتح عيون الكل لينظروا شخص المسيا، ويتمتع الكل بالإيمان لكي يتمجدوا أبديًا. شفاء هذا المريض كان ولا يزال وراء شفاء نفوس كثيرة محطمة ويائسة. فلو أن السيد شفى الجميع بكلمة لبدا في ذلك استعراضًا لعملٍ إلهيٍ معجزي، لكن ما يشغل قلب السيد المسيح هو إيمان الكل، وتمتعهم بالشفاء الروحي أولاً.

❖ دخل موضعًا حيث يضطجع عدد ضخم من القطيع المريض من عمي وعرج وعسم، وبكونه طبيب النفوس والأجساد وقد جاء ليشفي نفوس كل الذين يؤمنون اختار من بين هذا القطيع واحدًا ليشفيه لكي يعني **الوحدة**... مع أنه كان قادرًا بكلمة أن يقيم الكل[3].

❖ هذه البركة وتلك المياه تبدو لي أنها تشير إلى الشعب اليهودي (رؤ ١٧: ١٥)... تلك المياه، أعني الشعب، قد أُغلق عليه في أسفار موسى الخمسة، أي الخمسة أروقة. لكن هذه الأسفار تحضر المرضى ولا تشفيهم. لأن الناموس يدين الخطاة ولا يبرئهم. لذلك فإن **الحرف بدون النعمة**

---

[1] *Homilies on St. John, 36:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:3.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:1.*

يجعل الناس مذنبين، هؤلاء الذين إذ يعترفون يخلصون.

هذا ما يقوله الرسول: "لأنه لو أُعطي ناموس قادر أن يحيي لكان بالحقيقة البرّ بالناموس" (غلا ٣: ٢١). ويكمل قائلاً: " لكن الكتاب اغلق على الكل تحت الخطية ليعطي الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون" (غلا ٣: ٢٢). أي شهادة أكثر من هذه؟ أليست هذه الكلمات قد شرحت الخمسة أروقة وجمهور قطيع المرضى؟[1]

❖ في رقم ٤٠ إشارة إلى إتمام البرّ، حيث نعيش هنا في جهاد وتعب وضبط للنفس وأصوام وضيقات. هذا هو ممارسة البرّ، وهو أن تحتمل وأن تصوم عن هذا العالم لا عن طعام الجسم، الأمر الذي نفعله لكن نادرًا، أما الصوم عن محبة العالم فيلزم أن نمارسه دومًا. إذن ينفذ الناموس من يمتنع عن هذا العالم. إذ لا يستطيع أن يحب ما هو أبدي ما لم يكف عن محبة ما هو زمني.. لتهتم بمحبة الإنسان ولتحسبها كما لو كانت يد النفس. متى أمسكت بشيء لا تقدر أن تمسك بشيء آخر. ولكي ما تقدر أن تمسك بما يُعطى لها يلزمها أن تترك ما تمسك به فعلاً...

كمال البرّ (حسب الناموس) يظهر بالعدد ٤٠. ما هو الذي يكمل الرقم ٤٠؟ أن يضبط الإنسان نفسه عن محبة هذا العالم. يضبطها عن الأمور الزمنية حتى لا تحب لأجل تدميرنا... لهذا السبب فإن الرب صام أربعين يومًا وموسى وإيليا. الذي أعطى خادميه السلطان أن يصوما ٤٠ يومًا ألم يكن قادرًا أن يصوم ٨٠ يومًا أو مائة يوم؟ إذن لماذا لم يرد أن يصوم أكثر مما أعطى خادميه أن يفعلا إلاَّ لأنه في هذا العدد ٤٠ سرّ الصوم والزهد في العالم؟... ماذا يقول الرسول: "قد صُلب العالم، وأنا للعالم" (غلا ٦: ١٤). لقد أكمل إذن رقم ٤٠...

لماذا في رقم ٤٠ كمال البرّ؟

قيل في المزامير: "يا الله أرنم لك ترنيمة جديدة على قيثارة ذات عشر أوتار أرنم لك" (مز ١٤٤: ٩)، والتي تشير إلى الوصايا العشرة التي للناموس، التي جاء الرب لا لينقضها بل ليكملها. والناموس نفسه خلال العالم كله واضح أن له أربع جهات شرق وغرب وجنوب وشمال، كما يقول الكتاب... لذلك فرقم ٤٠ هو الزهد عن العالم، هو تنفيذ الناموس. الآن فإن المحبة هي تكميل الناموس (رو ١٣: ١٠؛ غلا ٥: ١٤). لكن وصية المحبة مزدوجة: "حب الرب إلهك من كل قلبك... والأخرى مثلها حب قريبك كنفسك" فمن لديه تقصير في الاثنين يكون له عجز الرقم ٣٨[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:2.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 75:7-10.*

القديس أغسطينوس

❖ رقم ٤٠ يجذب انتباهنا كرقمٍ مقدس بنوع من الكمال. ما افترضه هو معروف لكم تمامًا أيها الأحباء. فكثيرًا ما يشهد الكتاب المقدس لهذه الحقيقة. يتكرس الصوم بهذا الرقم كما تعرفون حسنًا. موسى صام أربعين يومًا، وإيليا وكثيرون، وربنا ومخلصنا يسوع المسيح نفسه تمم هذا الرقم في الصوم. موسى يعني الناموس، وإيليا الأنبياء، والرب الإنجيل. ولهذا السبب ظهر الثلاثة على ذلك الجبل حيث أظهر (الرب) ذاته لتلاميذه في بهاء ملامحه وثيابه، فقد ظهر في الوسط بين موسى وإيليا، إذ شهد الناموس والأنبياء للإنجيل...[1]

❖ صبر هذا المخلع مذهل، لأنه ظل ثمان وثلاثين سنة منتظرًا كل سنة أن يتخلص من مرضه، فثبت وما برح عن ذلك الموضع. انظر هذا الرجل الذي ظل مخلعًا منذ ثمان وثلاثين سنة وهو يبصر في كل سنة أناسًا آخرين معافين من مرضهم ويرى ذاته مربوطًا بمرضه ولم ييأس.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ماذا يعلن الملاك في هذا الرمز إلا نزول الروح القدس الذي يجتاز في أيامنا ويقدس المياه عندما يُستدعى بصلوات الكاهن؟ هذا الملاك كان سفير الروح القدس، حيث أنه بنعمة الروح يعمل الدواء في ضعفات النفس والعقل. هكذا للروح أيضًا ذات الخدام كما للّه الآب والمسيح. إنه يملأ الكل، كل الأشياء، يعمل الكل في الكل بنفس الطريقة مثل اللّه الآب والابن العاملين[2].

القديس أمبروسيوس

يرى ***Bede*** أن رقم ٣٨ هو محصلة رقم ٤٠ ناقص ٢. فإن كان رقم ٤٠ يشير إلى كمال الفضائل وهي محصلة ضرب ١٠× ٤ أي تكميل الناموس (١٠) والأناجيل الأربعة (٤)، فإن غياب الرقمين الخاصين بوصيتي الحب لله والقريب يظهر الإنسان في حقيقة كشخصٍ مريض طال زمان مرضه. انهم يقدرون أن يقَّوموا من رذائلهم خلال عطية الروح القدس عندما يهز بلادتهم، ليسرعوا فيحملوا حمل الحب الأخوي لكي يروا خالقهم.

"**هذا رآه يسوع مضطجعًا،**
وعلم أن له زمانًا كثيرًا،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:4-8.*
[2] *Of the Holy Spirit Book 1:7:88.*

فقال له: أتريد أن تبرأ؟" [٦]

إذ جاء السيد المسيح إلى أورشليم لم يزر قصور الأغنياء بل المستشفيات، ليقدم حبًا وحنوًا نحو المرضى. فقد جاء إلى العالم من أجل المحتاجين والمرضي. ولعل السيد ركز عينيه على ذلك المريض، لأنه كان أقدمهم، عانى أكثر من غيره من المرض والحرمان، إذ يجد السيد مسرته في العمل لحساب الذين بلا رجاء ولا معين.

"**أتريد أن تبرأ؟**" بهذا السؤال أراد أن يثير فيه الإيمان والرجاء والرغبة الشديدة نحو الشفاء. يوجه السيد المسيح هذا السؤال نحو كل نفسٍ لعلها تشتاق إلى شفائها خلال طبيب النفوس السماوي.

❖ لم يسأل المسيح للمخلع أتريد أن أشفيك؟ لأنه لم يكن بعد قد تصور في المسيح تصورًا عظيمًا، لكنه قال له: "**أتريد أن تبرأ؟**"

❖ سأله لا لكي يعرف (أنه يريد الشفاء) فإنه لم يكن السيد محتاجًا إلى ذلك، وإنما أراد إبراز مثابرة الرجل، وأنه بسبب هذا ترك الآخرين وجاء إليه...

مثابرة المفلوج مذهلة، له ثمانية وثلاثين عامًا وهو يرجو في كل عام أن يُشفى من مرضه. لقد استمر راقدًا ولم ينسحب من البِركة...

لنخجل أيها الأحباء، لنخجل ونتنهد على شدة تراخينا.

ثمانية وثلاثون عامًا وهو ينتظر دون أن ينال ما يترجاه ومع هذا لم ينسحب. لم يفشل بسبب إهمال من جانبه، وإنما خلال ضغط الآخرين وعنفهم ومتاعبهم. هذا كله لم يجعله متبلدًا. بينما نحن إن ثابرنا في الصلاة لمدة عشرة أيام من أجل أمرٍ ما ولم ننله تهبط غيرتنا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابه المريض:**

يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء،

بل بينما أنا آتٍ، ينزل قدامي آخر". [٧]

في حديثه عن المفلوجين (مت ٩: ٢) اللذين شفاهما السيد المسيح يبرز **القديس يوحنا الذهبي الفم** وداعة هذا المفلوج، فإنه إذ يلقي إنسان علي فراشه كل هذه السنوات غالبا ما يكون ثائرا، يعاني من متاعب نفسية وعصبية. ومع هذا فإنه سمع سؤال السيد المسيح لم يثر قائلا: "ألا تراني هنا

[1] *Homilies on St. John, 36:2.*

أترقب نزول الملاك ليحرك الماء، فكيف تسألني إن كنت أريد أن أبرأ؟ " لكن في وداعة عجيبة أجاب السيد المسيح.

اشتكى المريض من عدم وجود أصدقاء يساعدونه، فإنه حتى الذين نالوا الشفاء اعتادوا بشفائهم ولقائهم مع أقربائهم وأصدقائهم، ولم يوجد واحد من بينهم يهتم بهذا المسكين. كما اشتكى من عجزه في منافسة الآخرين لكي يلقي بنفسه أولاً في البركة إذ كانوا كثيرون يسبقونه.

قديمًا إذ تحولت الأنظار إلي البشر عوض النظر إلي المسيا كطبيب ودواء للشفاء قيل: "أليس بلسان في جلعاد؟ أم ليس هناك طبيب؟ فلماذا لم تُعصب بنت شعبي؟" (إر ٨: ٢٢). هذه هي شكوى المفلوج إذ لم يجد من يشفيه ولا من يهبه الدواء. الآن هوذا البلسان نفسه، والطبيب بعينه واقف أمامه يهبه ذاته سرّ شفاء.

كان المفلوج يبحث عن إنسانٍ يلقيه في البركة عند نزول الملاك، فينال الشفاء. وها هو الآب نفسه يطلب إنسانًا ينزل إلي العالم يقدر أن يعمل بالعدل وطلب الحق ليغفر للعالم خطاياه فلم يوجد سوى كلمته المتجسد. يقول الرب: "طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها، هل تجدون إنسانًا أو يوجد عامل بالعدل طالب بالحق فأصفح عنها" (إر ٥: ١). كما قال: "فرأى أنه ليس إنسان، وتحير من أنه ليس شفيع" (إش ٥٩: ١٦).

❖ اسمع كلام هذا المخلع واعرف جسامة حزنه، فمن يكون أحق بالرثاء من الناطق بهذه الأقوال؟ أرأيت قلبًا مطحونًا بسبب مرض طويل؟ أعرفت كيف يلهبه منقبضًا؟ لأنه لم ينطق بتجديف نظير ما يقوله أكثر الناس في مصائبهم، ولا لعن يومه ولا استصعب السؤال، ولا قال للمسيح إنك جئت بي مستهزأ إذ تسألني أتريد أن تبرأ؟ لكنه قال بوداعة كثيرة: "**يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة**" على الرغم من أنه لم يعرف من هو سائله ولا شعر أنه اعتزم أن يشفيه، لكنه وصف أحواله كلها بدعةٍ وما طلب شيئًا أكثر، فكان حاله حال من يخاطب طبيبه مريدًا أن يصف له مرضه فقط.

❖ الآن ليس ملاك يحرك الماء، بل رب الملائكة يعمل كل شيء. لا يقدر المريض أن يقول: "**ليس لي إنسان**"، لا يستطيع القول: "**بينما أنا آتٍ ينزل قدامي آخر**" [٧]، فمع أنه يلزم أن يأتي إلى العالم كله، غير أن النعمة لا تستهلك، والقوى لا تبطل، بل تبقي عظيمة كما كانت. وكما أن أشعة الشمس تعطي ضوء كل يوم مع هذا لا تُستنزف، ولا يقل الضوء بما يقدمه من فيض، هكذا

بالأكثر قوة الروح لن تقل بأية طريقة خلال تمتع الكثيرين بها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لكن من الذي يشفي المرضى؟ ذاك الذي ينزل في البركة. ومتى ينزل المريض في البركة؟ عندما يعطي الملاك العلامة بتحريك الماء. فإنه هكذا كانت تلك البركة تتقدس، حيث ينزل الملاك ويحرك الماء. كان الناس يرون الماء يتحرك، ومن حركة المياه المضطربة يدركون حضور الملاك. فإذا ما نزل أحد عندئذٍ يُشفى. لماذا إذن لم يُشف هذا المريض؟ لنعطي اعتبارًا لكلماته نفسها، يقول: "**ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء بل بينما أنا آتٍ ينزل قدامي آخر**" [٧]. ألم تستطع بعد ذلك أن تتزل إن نزل قدامك آخر؟ هنا يظهر لنا أنه واحد فقط يُشفى عند تحرك الماء. من ينزل أولاً هو وحده يُشفى[2].

القديس أغسطينوس

"**قال له يسوع:**

قم احمل سريرك وامشِ". **[٨]**

قدم له السيد الشفاء بطريقة لم تخطر على فكره، وهي ليس بإلقائه في البركة متى تحرك الماء، وإنما بكلمة تصدر من فمه الإلهي. أمر بسلطان فشُفي المريض.

اعتاد السيد أن يترك علامات بعد المعجزة لكي يتذكر شعبه أعمال محبته، فعندما أشبع الجموع أمر بجمع الكسر. وعندما حوَّل الماء خمرًا طلب من الخدام أن يقدموا للمتكئين. وعندما شفى البرص أمرهم أن يذهبوا إلى الكهنة ليشهدوا بشفائهم. هنا يطلب من المريض أن يحمل السرير الذي حمله أثناء مرضه.

طلب منه حمل السرير ليطمئن أن شفاؤه كامل، وأنه لم ينل القوة الجسدية تدريجيًا بل بكلمة الله وأمره فورًا. إنها صرخة المخلص على الصليب وهو يتطلع إلى الكنيسة كلها عبر الأجيال منذ آدم إلى آخر الدهور، لكي تقوم وتتحرك وتدخل إلى حضن الآب، بيتها السماوي. يطالبها بحمل سريرها الذي هو شركة الصلب معه، لا كثقل على ظهرها، بل كعرشٍ يحملها، ومجدٍ ينسكب عليها. رأى إشعياء النبي هذا المنظر المبدع بكونه قصة الفداء المفرحة فترنم قائلاً: "قومي استنيري، لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليكِ" (إش ٦٠: ١) لم تعد البشرية المؤمنة مطروحة الجسد تحت سطوة

[1] *Homilies on St. John, 36:1.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 75:3.*

الخطية المحطم، بل تمتعت بقوة الروح لتحمل مع عريسها المصلوب صليبه سرّ قوة للخلاص، وتمتع ببهاء المخلص عليها.

ارتبطت قصة شفاء هذا المفلوج بالمعمودية في ذهن الكنيسة الأولي، فوردت في بعض ليتورجيات المعمودية القديمة، كما صورت في بعض سراديب روما للكشف عن إمكانية المعمودية. تصور الرجل المفلوج العاجز عن السير، وقد قام حاملاً سريره على ظهره في حركة مملوءة حيوية ونشاطًا. صورة رائعة عن عمل المعمودية التي تقيم المؤمن من مرضه المستعصي ليشهد للحياة الجديدة التي صارت له في المسيح يسوع القائم من الأموات!

❖ "يسوع" تعني "مخلص"، أما في اليونانية فتعني "الشافي"، إذ هو طبيب الأنفس والأجساد، شافي الأرواح، فتح عيني المولود أعمى، وقاد الأذهان إلى النور. يشفي العرج المنظورين، ويقود الخطاة في طريق التوبة، يقول للمفلوج: "لا تخطئ"، وأيضًا: "**احمل سريرك وامشِ**"، لأن الجسد كان مفلوجًا بسبب خطية النفس. خدم النفس أولاً حتى يمتد بالشفاء إلى الجسد.

لذلك إن كان أحدكم متألم في نفسه من خطاياه، فإنك تجده طبيبًا لك. وإن كان أحدكم قليل الإيمان فليقل له: "أعن عدم إيماني" (مر ٩:٢٤).

وإن أصاب أحدكم آلامًا جسدية، فلا يكن غير مؤمنٍ، بل يقترب فإن يسوع يعالج مثل هذه الأمراض، وليعلم أن يسوع هو المسيح[1].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ "احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تمموا ناموس المسيح" (غلا ٦: ٢). الآن ناموس المسيح هو المحبة، والمحبة لن تتحقق ما لم نحمل أثقال الغير. يقول: "وبطول أناة محتملين بعضكم بعضًا في المحبة، مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام" (أف ٤: ٢).

حين كنت ضعيفًا حملك قريبك، الآن أنت صحيح، احتمل أنت قريبك. هكذا تملأ يا إنسان ما كان ناقصًا بالنسبة لك. "إذن **احمل سريرك**". وحين تحمله لا تقف في الوضع بل "**امشِ**". بحبك لقريبك، وبحملك قريبك، تتمم مشيك. إلى أين تسير في طريقك إلى الرب الإله، الذي يلزمنا أن نحبه من كل القلب ومن كل النفس ومن كل الفكر. لتحمله، عندئذٍ إذ تسير تذهب إلى ذاك الذي ترغب أن تمكث معه. لذلك "**احمل سريرك وامشِ**"[2].

---

[1] مقال ١٠: ١٣.

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:9.*

القديس أغسطينوس

"فحالاً برئ الإنسان،

وحمل سريره ومشى،

وكان في ذلك اليوم سبت". [٩]

لماذا أمر السيد هذا الشخص أن يحمل سريره في يوم السبت وقد منع الناموس هذه الأعمال، خاصةً حمل الأمور الثقيلة (خر ٢٠: ٨؛ إر ١٧: ٢١؛ نح ١٣: ١٥)؟

١. ربما كان هذا الشخص فقيرًا، لو ترك سريره يفقده، ولم يكن ممكنًا أن يبقى حتى الصباح حارسًا للسرير.

٢. أظهر السيد أن اليهود قد أساءوا فهم السبت، فمارسوه بطريقة حرفية بلا فهم روحي سليم، خاصة لمجد الله ونفع الإنسان.

٣. ليؤكد للحاضرين أنه رب السبت (مت ١٢: ٨)، كل الأيام هي له دون تمييز بين سبت وغير سبت، فيها يعمل عمل الآب بلا انقطاع.

٤. بحمله السرير في وسط العاصمة الدينية ووسط الجمهور القادم للعيد يشد أنظار الشعب لبحث الأمر، والتعرف على محبة المسيح لشعبه، واهتمامه بسلامتهم الروحية والجسدية أكثر من التنفيذ الحرفي للناموس.

٥. في هذا الأمر اختبار لمدى طاعة المريض لذاك الذي يشفيه، وإيمانه به.

٦. لكي يحمل صورة عملية حية عن الكنيسة في العصر المسيحاني. فقد تطلع الأنبياء إلي الكنيسة في العهد الجديد وترنموا قائلين: "الرب يقوم المنحنين" (مز ١٤٦: ٨)، "خلص يارب شعبك... بينهم الأعمى والأعرج" (إر ٣١: ٧). صارت كل أيامها سبت (راحة) لا ينقطع، وعيد مفرح مستمر.

❖ انظر إلى إيمان هذا المخلع أنه لما سمع من المسيح "**قم احمل سريرك وامشِ**" لم يضحك، لكنه نهض وصار معافى، ولم يخالف ما أشار به عليه، وحمل سريره ومشى.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. مقاومة اليهود

"فقال اليهود للذي شُفي:

إنه سبت.

لا يحل لك أن تحمل سريرك". [١٠]

تخاصم معه القادة واتهموه أنه كاسر للسبت. حسبوا في ذلك العمل تدنيسًا للسبت، وإذ يمارسه علنًا في وسط المدينة وعمدًا فإنه مستحق للرجم. ولم يدركوا أن حسدهم وبغضهم للسيد المسيح هو الذي يدنس سبوتهم وأعيادهم. ذهب السيد المسيح إلى المفلوج ليهبه حياة جديدة وإمكانيات جديدة، وها هم الرؤساء يستدعونه ليجدوا علة للموت. وكما يقول المرتل: "الشرير يراقب الصديق محاولاً أن يميته" (مز ٣٧: ٣٢).

"**أجابهم: إن الذي أبرأني هو قال لي:**

احمل سريرك وامشِ". [١١]

جاءت إجابة المريض تشهد للسيد المسيح، بقوله: "**الذي أبرآني هو قال لي احمل سريرك وامشِ**" [١١]. لم يلقِ بالمسئولية على السيد المسيح، ولا أراد أن يحول اتهام كسر السبت عليه، إنما يؤكد أن ذاك الذي له قوة الشفاء بهذه الطريقة الفائقة لا يمكن أن يخطئ الأمر، ولا يمكن أن يصنع شرًا. أطعته لأني أثق في قداسته وبرِّه.

ذاك الذي له سلطان على الأمراض المزمنة بطريقة تفوق الطبيعة يستحيل يُحسب كاسرًا للناموس. ذاك الذي له هذا الحب والحنو، لا يمكن إلا أن يكون منفذًا للناموس الذي يكمل بالحب العملي.

الحياة التي دبت فيه كانت بلا شك أثمن بما لا يقاس من التنفيذ الحرفي لحفظ السبت. لهذا ترك تفسير حفظ السبت لذاك الذي وهبه هذه الحياة الجديدة التي اختبر فيها الراحة.

❖ لما كان اليوم سبت، غضب اليهود في جهلٍ، إذ كانوا مرضى بغلاظة الحرف، فكانوا مقيدين أكثر من المفلوج بالحماقة الملتصقة بهم... كانوا مفلوجي الفكر، ضعيفي السلوك، هؤلاء الذين يُقال لهم بحقٍ: "شددوا الأيادي المسترخية والركب المرتعشة" (إش ٣٥: ٣). لكنهم استشاطوا غضبًا، زاعمين أنه ينبغي حتى على واهب الناموس أن يكرم الناموس[١].

القديس كيرلس الكبير

❖ لم يخالف المخلع قول المسيح، لذلك شُفي في الحال وحمل سريره ومشى. وما كان منه بعد ذلك فهو أعظم بكثير، لأن قبوله ما أشار به المسيح في البداية لم يكن فعلاً مستعجبًا، إذ لم يكن له

[١] ك ٣ ف ٤.

مغيث يغيثه، لكن لما أحاط به اليهود من كل جهة اشتد جنونهم ولاموه وحاصروه، وقالوا له: "**لا يحل لك أن تحمل سريرك**". فلم يصغِ إلى جنونهم، لكنه نادى بالمحسن إليه في وسط محفلهم بمجاهرة كثيرة. اسمع ما قاله لهم: "**إن الذي أبرآني هو قال لي احمل سريرك وامشِ**"، فقارب أن يقول لهم: قد اشتمل عليكم الجنون إذ تأمروني ألا أحتسب من أراحني من مرض طويل معلمًا، ولا أطيع جميع ما يأمرني به.

على أن المخلع لو أراد أن يسيء فعله كان ممكنًا أن يقول قولاً غير هذا، كأن يقول: إن كان فعلي هذا خطأ فانسبوا الخطأ إلى من أمرني به. إلا أنه لم يقل هذا القول، ولا سألهم عفوًا، لكنه بصوت بهي أقر بالإحسان البالغ إليه، ونادى به بعزم واضح، قائلاً: "**إن الذي أبرأني هو قال لي احمل سريرك وامشِ**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فسألوه: من هو الإنسان الذي قال لك احمل سريرك وامشِ**". **[١٢]**

بسؤالهم حاولوا إهانة السيد المسيح ليس فقط بظنهم أنه مجرد إنسان، إنما وضعوا السؤال بطريقة تحمل استخفافًا به: "**من هو الإنسان...؟**" بمعنى أنه لا وجه للمقارنة بين هذا الإنسان الذي شفاك وبين الله واضع الناموس.

❖ تأمل كيف كان كلامهم بمكر وافر، لأنهم لم يقولوا للمفلوج من الذي جعلك معافى، لكنهم صمتوا عن هذا القول، وذكروا العمل الذي يحسبونه معصية، وقالوا: "**من هو الإنسان الذي قال لك احمل سريرك وامشِ**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أما الذي شُفي فلم يكن يعلم من هو،**

لأن يسوع اعتزل،

إذ كان في الموضع جمع". **[١٣]**

ربما سمع اسم يسوع، لكنه إذ كان ملقى عند البركة ٣٨ سنة لم يرَ السيد من قبل ولا عرف عنه الكثير، ولم يكن قادرًا حتى إن رآه أن يتعرف عليه.

يرى **القديس أغسطينوس** أن اللَّه استراح في اليوم السابع إشارة إلى إتمام عمل الخلاص على

الصليب في اليوم السادس (الجمعة)، وراحته في القبر في اليوم السابع[1].

❖ من الصعب أن ترى المسيح في الجمع، لذلك تلزم الوحدة لأذهاننا. فبالتأمل في عزلة يمكن رؤية اللَّه. الجمع فيه صخب، والرؤية تتطلب سرية... لا تبحث عن المسيح في جمعٍ، إنه ليس كواحدٍ من الجمع، إنه يسمو على كل الجمع... حقًا رآه الرب في الجمع، إنما عرفه في الهيكل. جاء الرجل إلى الرب، رآه في الهيكل، رآه في الموضع المكرس المقدس[2].

القديس أغسطينوس

❖ يعلن الرب علانية أن سرّ السبت كعلامة لحفظ يومٍ واحدٍ أُعطي لليهود إلى حين، أما تتمة السرّ فتتحقق في (المسيح) نفسه[3].

القديس أغسطينوس

❖ فإن قلت: وما هو غرض المسيح في أنه أخفى ذاته؟ أجبتك: أخفى المسيح ذاته حتى لا تصير الشهادة مشكوك فيها؛ لأن المفلوج الذي تمتع بعافيته فقد صار شاهدًا بالإحسان الواصل إليه مؤهلاً للتصديق. ومن الجانب الآخر لكي لا يجعل السيد غضب اليهود أكثر التهابًا، فإنه مجرد التطلع إلي الشخص الذي يحسدونه يشعل شرارة ليست بقليلة عند الحاسدين. لهذا انسحب السيد، وترك العمل نفسه يترافع قدامهم، ولا يتكلم السيد عن نفسه بنفسه، وإنما يتحدثون مع من شُفي ومع المهتمين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"بعد ذلك وجده يسوع في الهيكل، وقال له:

ها أنت قد برئت فلا تخطئ أيضًا لئلا يكون لك أشر". [١٤]

إذ شعر الرجل بحنو الله عليه ذهب إلى الهيكل ربما ليقدم الشكر لله على شفائه. وكأنه يترنم قائلاً: "لله أذبح ذبيحة حمد، وباسم الرب أدعو، أوفي نذوري للرب مقابل شعبه، في ديار بيت الرب في وسطك يا أورشليم" (مز ١١٦: ١٦–١٩). غالبًا ما حدث هذا في نفس يوم شفائه.

التقى السيد المسيح بالمريض في الهيكل. ربما إذ اتهموه باحتقاره يوم السبت جاء إلى الهيكل ليؤكد تقديسه ليوم السبت، وانشغاله بالعبادة الجماعية في ذلك اليوم. لقد جاء خصيصًا ليهب البصيرة

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:15.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:11.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 17:13.*

الروحية، مع علمه بأن أعداءً كثيرين يطلبون قتله. لكن مادامت الحاجة ماسة للقاء مع شخص لبنيانه لم يتوقف عن الذهاب من أجله. لقد شفى جسد المريض، والآن يعلن اهتمامه بشفاء نفسه من الخطية.

أوضح له السيد المسيح أنه عالم بأسرار الماضي: "**لا تخطئ أيضًا**" موضحًا أن خطيته السابقة كانت السبب في مرضه الطويل المدى. يحذر السيد من الخطية التي تسحبه إلى مستشفى بركة بيت حسدا ليقضي بها ٣٨ عامًا، بل إلى جهنم لكي يُغلق عليه أبديًا في حرمان من المجد السماوي وعذاب مع عدو الخير إبليس.

بعض الأمراض أحيانًا تحل بنا بسب خطايانا، كتأديبٍ إلهيٍ لأجل رجوعنا إلى الله. وكما يقول المرتل: "والجمال من طريق معصيتهم، ومن آثامهم يُذلون. كرهت أنفسهم كل طعام، واقتربوا إلى أبواب الموت، فصرخوا إلى الرب في ضيقهم فخلصهم من شدائدهم" (مز ١٠٧: ١٧–١٩).

يلاحظ أن السيد لم يشر إلى الخطايا عند شفائه للمرضى إلاَّ في الحالات المستعصية لمدة طويلة كما في هذه الحالة وما ورد في مر ٢: ٥. ربما لأن هؤلاء إذ عاشوا زمانًا طويلاً في المرض ظنوا أنهم بعدم تعاملهم مع الناس هم أبرار بلا خطية، لذلك يطلب منهم أن يدخلوا إلى أعماق نفوسهم، ويكتشفوا ضعف طبيعتهم، ويرجعوا إلى الله. مثل هؤلاء يحتاجون إلى حذرٍ شديدٍ أكثر من غيرهم الذين يدركون أنهم مخطئون.

لعله قال له هذا في الهيكل، فقد حُرم من زيارة الهيكل ٣٨ عامًا بسبب مرضه، فلئلا ينشغل بالمبنى والالتقاء بالناس وما يدور حوله، أراد السيد أن يحول عينيه إلى أعماقه ليحذر في حياته الجديدة من الخطية. حقًا لست أظن أن لغة ما تستطيع أن تعبر عن مشاعر هذا الإنسان في رؤيته للهيكل بعد هذه السنوات الطويلة. ليكن هذا الشوق ممتزجًا باللقاء مع الله الساكن في أعماق النفس!

❖ عندما نعتمد نُقال لنا: "ها أنت قد برئت، لا تخطئ لئلا يكون لك أشر"[1].

القديس جيروم

❖ إنه لأمر بسيط أن تقتني شيئًا، لكن الأعظم أن تستطيع الحفاظ على ما تقتنيه، فالإيمان نفسه والميلاد المكرم يكونان مفعمين بالحيوية المفيدة، لا بنوالهما بل بحفظهما. فالمثابرة حتى النهاية وليس ممارسة الشيء (إلى حين) يحفظ الإنسان لله مباشرة... سليمان وشاول وكثيرون إذ لم يسيروا للنهاية في طرق الرب لم يستطيعوا أن يحفظوا النعمة التي وُهبت لهم. عندما ينسحب تلميذ

[1] *Against the Pelagians 3:1.*

المسيح منها، تنسحب أيضًا نعمة المسيح منه[1].

الشهيد كبريانوس

❖ يسأل أحد: ماذا إذن، هل كل مرضٍ سببه الخطية؟ لا، ليس كل الأمراض بل بعضها. البعض يصدر عن بعض أنواع من عدم المبالاة والإهمال حيث أن النهم والإدمان والكسل مثل هذا يسبب آلامًا... رغب يسوع أن يضمن لهذا الرجل مستقبله... حافظًا إياه في صحة بالنفع الذي قدمه له وبالخوف من الأمراض المقبلة[2].

❖ ليس فقط بإعطاء جسم المريض قوة، بل وبطريق آخر قد منحه برهانًا قويًا علي لاهوته، فبقوله: "**لا تخطئ أيضًا**" أظهر له أنه يعرف كل معاصيه القديمة، وبهذا يمكن أن يقتني إيمانه في المستقبل[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فمضى الإنسان وأخبر اليهود أن يسوع هو الذي أبراه**". **[١٥]**

لم يلقِ بالمسئولية على السيد المسيح أنه هو الذي قال له: احمل سريرك، بل شهد له أنه "**هو الذي أبرأه**". لقد أراد أن يمجد يسوع وفي نفس الوقت أن يشهد لصالح سامعيه لعلهم يفكرون جديًا في عمله العجيب.

"**ولهذا كان اليهود يطردون يسوع،**
ويطلبون أن يقتلوه،
لأنه عمل هذا في سبتٍ". **[١٦]**

عِوَض إعادة النظر في نظرتهم ليسوع منقذ النفوس وشافي الأجساد من الأمراض المستعصية حملهم الحسد والحقد إلى الرغبة في ممارسة أعمال أبيهم: الاضطهاد والقتل. فإنهم لن يجدوا شبعًا إلاَّ بسفك دمه. غيرتهم على تقديس السبت كانت تغطية لمشاعرهم المملوءة كراهية.

٣. حديث المسيح عن السبت

"**فأجابهم يسوع:**
أبي يعمل حتى الآن،

---

[1] *Letter 13 to Rogation, the priest and to the other confessors: 1.*
[2] *Hom 38. PG 59:217-218.*
[3] *Homilies on St. John,38.*

وأنا أعمل". **[١٧]**

دخل السيد المسيح في حوار مع القيادات التي تتهمه بكسر السبت. يبدو أن هذا الحوار كان أمام مجمع السنهدرين، إما في نفس اليوم أو في خلال يومين أو ثلاثة من شفائه للمريض.

بقوله: "**أبي يعمل حتى الآن**" [١٧] يوضح لهم أن الآب قد خلق العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، أي في السبت. لقد توقف عن عمل الخليقة إذ أكمل كل شيء، لكن راحته لا تعني تجاهله للخليقة، بل **يبقى في سبته يعتني بخليقته ويرعاها ويدبر كل أمورها**. فالسبت عند الله هو عمل فيه راحة ومسرة، حيث يعلن حبه لخليقته المحبوبة لديه جدًا. لو مارس السبت حرفيًا مثل القيادات اليهودية لتوقفت الخليقة وتدمرت، لأنها لا تقدر أن تقوم بدون العون الإلهي. هكذا الابن يقدس السبت بعمل الحب المستمر، حيث يرعى محبوبيه، ويعمل بلا توقف لكي يبرأ الكل وينمو في المعرفة والمجد. هذا هو مفهوم السبت على المستوى الإلهي.

في السبت يختتن الذكر إن كان هو اليوم الثامن لميلاده، وفي السبت يقدم الكهنة ذبائح، وفي السبت يقدم الرعاة المياه لأغنامهم. هذه كلها أعمال لا تكسر السبت لأنها تحمل رائحة حب. ابن الإنسان هو رب السبت، لأنه هو "الحب" عينه.

"**وأنا أعمل**": بكونه ابن الله فهو يمارس مسيرة أبيه الدائم العمل لحساب شعبه. التوقف عن عمل الحب هو كسر للسبت وإفساد له، أما عمل المحبة فهو تقديس له. إنه لا يعمل كأبيه، كأن لكل منهما عمله المستقل، إنما هو العامل مع أبيه، إذ "به كان كل شيء". فإن أُتهم بكسر السبت، يكون في ذلك اتهام لله الآب نفسه الذي لا ينفصل الابن عنه قط.

يقارن السيد المسيح نفسه بالآب، فكما أن الآب يعمل في السبت كما في بقية الأيام هكذا يمكن له أن يفعل هذا. هذه المقارنة لها خطورتها عند القيادات اليهودية، لأنها تحمل معنى التساوي بينهما في الخطة الإلهية والعمل. من هو هذا الذي يعالج موضوع الآب والسبت بكونهما يخصانه؟

يرى **القديس أغسطينوس** أن اليهود أخطأوا في فهمهم ليوم السبت بطريقة جسدانية. لقد ظنوا أن الله خالق العالم في ستة أيام، فتعب وأراد أن يستريح من تعبه في اليوم السابع فقدس هذا اليوم للراحة. هذا الفهم الخاطئ جعلهم هم في تعبٍ. أما المعنى الروحي له فهو أنه إذ تعبر ستة أيام أو فترات التاريخ البشري يأتي يوم الرب بكونه اليوم السابع. راحته تعني راحتنا نحن فيه. أما الأيام الستة فهي:

- اليوم الأول: من آدم إلى نوح.

- اليوم الثاني: من الطوفان إلى إبراهيم.
- اليوم الثالث: من إبراهيم إلى داود.
- اليوم الرابع: من داود إلى السبي البابلي.
- اليوم الخامس: من السبي البابلي إلى مجيء السيد المسيح.
- اليوم السادس: العصر الحاضر منذ مجيء المسيح إلى مجيئه الأخير. في هذا اليوم نتشكل على صورة الله، إذ فيه خُلق الإنسان (تك ١: ٢٧). وفيه يتم تجديد خلقتنا (بالصليب يوم الجمعة).

هكذا يرى **القديس أغسطينوس** أن الله يعمل خلال الستة أيام، وأن اليوم السادس هو يوم خلقة الإنسان وتجديده حتى يتهيأ للتمتع بالراحة في اليوم السابع، يوم مجيئه الأخير[١].

❖ لكي نعرف بطريقة أكمل عن مساواة الآب والابن، إذ تكلم الآب عمل الابن، هكذا أيضًا الآب يعمل، والابن يتكلم. الأب يعمل كما هو مكتوب: "أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل". تجد أنه قيل للابن: "قل كلمة فقط فيبرأ غلامي" (مت ٨: ٨). ويقول الابن للآب: "أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني ليكونون معي حيث أكون أنا" (يو ١٤: ١٧)، فالآب عمل ما قاله الابن[٢].

القديس أمبروسيوس

❖ بالتأكيد كما تعلمنا الكنيسة حسب كلمات المخلص: "**أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل**"... اللَّه يعمل (يخلق) نفوسنا كل يوم، الذي به نزيد ونعمل، وهو لن يكف عن أن يكون خالقًا[٣].

❖ هو مُعطي باستمرار، دائمًا واهب عطايا. لا يكفيني أنه يهبني نعمة مرة واحدة، يليق به أن يعطيني النعمة على الدوام. أطلب لكي أنال، وإذ أنال أطلب أيضًا مرة أخرى. إني أطمع في سخاء اللَّه، وإذ لا يتأخر في العطاء، لا أمل من قبول عطائه. قدر ما أشرب أعطش بالأكثر[٤].

القديس جيروم

❖ إن سأل أحد: كيف يعمل الآب الذي توقف عن كل أعماله في اليوم السابع؟ ليته يتعلم ما هي الطريقة التي يعمل بها. ما هي أعماله؟ إنه يعتني بأمور كل ما قد عمله ويدبرها. عندما ترى الشمس مشرقة والقمر يجري في مجاله والبحيرات والينابيع والأنهار والأمطار والمواسم الطبيعية

---

[1] *Cf. Sermon on N.T. Lessons, 75:4-6.*
[2] *On the Holy Spirit, Book 2, jutr.(2).*
[3] *To Pammachius Against John of Jerusalem, 22.*
[4] *Letter 133:6.*

للزرع وطبيعة أجسامنا وأجسام الحيوانات غير العاقلة وكل الأمور الباقية التي بها وجدت هذه المسكونة فنتعلم عدم توقف عمل الآب. إذ "يشرق شمسه علي الأشرار والأبرار، ويمطر علي الصالحين والطالحين" (مت ٥: ٤٥). وأيضا الله يلبس عشب الحقل الذي يظهر اليوم ويطرح غدا في التنور (مت ٦: ٣٠). وإذ يتحدث عن الطيور قال: "أبوكم السماوي يقوتها"[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قال هذا لهم لأنهم أخذوا حفظ السبت بمعنى جسداني، متخيلين أن اللَّه كما لو كان قد نام بعد أن تعب بخلق العالم إلى ذلك اليوم، وأنه قدّس ذلك اليوم حيث بدأ يستريح كما من تعبه.

الآن بالنسبة لآبائنا القدامى قد وُضع سرّ السبت، هذا الذي نحفظه نحن المسيحيون روحيًا بالامتناع عن كل عمل ذليل، أي عن كل خطية، لأن الرب يقول: "كل من يفعل خطية هو عبد للخطية". وإذ ننال راحة في قلوبنا فهذه هي الراحة الروحية.

أما عن القول بأن اللَّه استراح، فذلك لأنه لم يخلق أية خليقة أخرى بعد أن أكمل كل شيء.

علاوة على هذا فإن الكتاب المقدس يدعوها راحة، لكي يحثنا على الأعمال الصالحة التي بعدها نستريح. لأنه كتب في التكوين: "خلق اللَّه كل شيء حسن جدًا، واستراح اللَّه في اليوم السابع". لكي ما تدرك يا إنسان أن اللَّه نفسه قيل أنه استراح بعد الأعمال الصالحة، فتتوقع راحة لنفسك بعد أن تمارس أعمالاً صالحة.

إن كان اللَّه بعد أن خلق الإنسان على صورته ومثاله وفيه أكمل كل أعماله لتكون حسنة جدًا عندئذٍ استراح في اليوم السابع. هكذا لا تتوقع أنت راحة لنفسك ما لم ترجع إلى ذلك الشبه الذي خُلقت عليه[٢].

❖ لا تظن أن أبي استراح في السبت بمعنى أنه لا يعمل، لكنه إلى الآن هو يعمل، وهكذا أنا أعمل. وكما أن الآب بلا تعب هكذا الابن بلا تعب[٣].

❖ الإيمان الجامعي (للكنيسة الجامعة) هو أن أعمال الآب وأعمال الابن غير منفصلة... كما أن الآب والابن غير منفصلين، هكذا أيضًا أعمال الآب وأعمال الابن غير منفصلة... ما يفعله الآب يفعله أيضًا الابن والروح القدس. فإن كل الأشياء صُنعت بالكلمة، عندما "تكلم كانت"[٤].

---

[1] *Homilies on St. John, 38:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:2*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:3.*

القديس أغسطينوس

ربما يتساءل البعض: كمثال سار السيد المسيح على المياه، بينما لم يسر الآب على المياه، فكيف نقول أن أعمال الآب والابن غير منفصلة؟ يجيب **القديس أغسطينوس** قائلاً: [انظروا كيف يقدم الإيمان الجامعي شرحًا لهذا السؤال. سار الابن على البحر، وضع قدميه الجسديتين على الأمواج، سار الجسد، وقد وجَّهه اللاهوت. ولكن حين كان الجسد يمشي واللاهوت يوجّهه، هل كان الآب غائبًا؟ لو كان غائبًا فكيف يقول الابن نفسه: "لكن الآب الحال فيّ نفسه يعمل الأعمال"؟ إن كان الآب حالاً في الابن، هو نفسه يعمل الأعمال، إذن فالسير على المياه هو من عمل الآب وبالابن. بهذا فإن ذاك السير هو عمل الآب والابن بلا انفصال. أرى الاثنين يعملان كلاهما فيه. الآب لن يترك الابن، ولا الابن الآب. هكذا كل ما يعمله الآب لن يعمله بدون الابن، لأن ما يعمله الآب لن يعمله بدون الابن[1].]

- يقول قائل: كيف يلد الأزلي أزليًا؟ كما أن اللهيب المؤقت يلد نورًا مؤقتًا. فإن اللهيب المولّد معاصر للنور الذي يلده. اللهيب المولّد لن يسبق النور في الزمن، ولكن منذ اللحظة التي يبدأ فيها اللهيب في نفس اللحظة يُولد النور. أرني لهيبًا بلا نور، وأنا أريك اللَّه الآب بدون الابن. لهذا "لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب يعمل"، هذا يتضمن أن "ينظر" و"يولد" بالنسبة للابن هما ذات الشيء. رؤيته ووجوده ليسا مختلفين، ولا قوته وكيانه مختلفين. كل ما هو للابن هو من الآب، وكل ما يقدر عليه وما هو عليه هو أمر واحد، الكل من الآب[2].

- ما يعمله الآب هذا أيضًا يعمله الابن. صنع الآب العالم، وصنع الابن العالم، وصنع الروح القدس العالم. لو أنهم ثلاثة آلهة لوجدت ثلاثة عوالم. إذ هم إله واحد الآب والابن والروح القدس، إذن **عالم واحد خلقه الآب بالابن في الروح القدس**. بالتبعية فإن الابن يعمل ما يفعله الآب، ولا يعمل بطريقة مختلفة، هو يعمل معًا هذه الأمور، ويصنعها بذات الطريقة[3].

- إن كنت ترى أنه لا انفصال في النور، فلماذا تطلب انفصالاً في العمل؟ تطلع إلى اللَّه، انظر إلى كلمة الملازمة للكلمة التي يتكلم بها، فإن المتكلم لا يتحدث بمقاطع لفظية، وإنما كلمته تشرق في بهاء الحكمة. ماذا قيل عن الحكمة نفسها؟ "إنها إشراق النور الأبدي" (حك ٩: ١٥). تطلع

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:8.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:9.*

إلى الشمس في السماء تنشر بهاءها على كل الأراضي وفوق كل البحار، ومع ذلك فهي نور مادي بسيط. إن كنت بالحق تستطيع أن تفصل البهاء عن الشمس فلتفصل الكلمة عن الآب[1].

القديس أغسطينوس

"فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه،
لأنه لم ينقض السبت فقط،
بل قال أيضًا إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله". [١٨]

دفاعه عن تقديس السبت بالعمل الإلهي لا بالامتناع عن العمل، حمل شهادة أنه مساو لله الذي دعاه أباه، فازدادوا حقدًا عليه، إذ ليس ما يثيرهم مثل تأكيد سلطانه الإلهي، فطلبوا بالأكثر قتله، لأنه في نظرهم قد جدَّف. كل من الاتهامين عقوبتهما الموت (لا ١٥: ٣٢؛ لا ٢٤: ١١؛ ١٤: ١٦).

يرى البعض أن ما أزعج القيادات اليهودية هو دعوة الآب أباه الشخصي الذاتي، وهذا يفهم من استخدام الكلمة اليونانية، فيحسب نفسه معادلاً له.

❖ مكتوب: "لأن أبي أعظم مني" (يو ٢٨: ١٤). كما هو أيضا مكتوب: "لم يُحسب خلسة أن يكون معادلاً لله" (في ٦: ٢). مكتوب:" قال أيضًا إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله" (يو ١٨: ٥). مكتوب: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)... هل يمكن أن يكون أقل ومساوٍ في نفس الطبيعة؟ لا، الواحد يشير إلى اللاهوت، والآخر لجسمه[2].

القديس أمبروسيوس

٤. حديث عن الحياة الأبدية

"فأجاب يسوع وقال لهم:
الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا،
إلا ما ينظر الاب يعمل،
لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك". [١٩]

في حديثه دومًا يؤكد حقيقتين: وحدانية اللَّه، وأنه واحد مع الآب ومساوٍ له.

إذ أراد اليهود أن يقتلوه ليس فقط لأنه كسر السبت بل وقال أيضًا أن اللَّه أبوه، معادلاً نفسه باللَّه [١٨]. لم يكن رد الفعل أنه قال: "لماذا تريدون قتلي، إني لست معادلاً لأبي". لو كان السيد المسيح

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 20:13.*
[2] *Of the Christian Faith, Book, ch. 18 (224).*

أقل من اللَّه من جهة اللاهوت لالتزم بتوضيح ذلك. لكنه أوضح أنه لا تناقض بينه وبين الآب، لأن ما يفعله الآب إنما يفعله بالابن الذي هو قوة اللَّه وحكمته. "كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٢). يقول أن ما يرى الآب هو يفعله؛ ماذا يعني أن ما يرى الآب هو فاعله؟ هل ينظر ما فعله الآب فيكرر ذات الفعل؟ مستحيل! لكن إذ يقوما بذات العمل، فهو واحد مع أبيه في الإرادة، لذلك يتمم الفعل الإلهي الذي حسب مسرة أبيه. وفي نفس الوقت حسب مسرته هو. لا يقدر الابن أن يفعل شيئًا من ذاته بسبب الوحدة التي لا تنفصم مع الآب، ولا يفعل الآب شيئًا دون الابن بسبب الوحدة اللانهائية، لأن الابن هو قوة الله وحكمة الله وكلمة الله.

يقدر الكائن المخلوق أن يفعل شيئًا من ذاته، إذ يستطيع أن يخطئ الأمر الذي لن يقدر الله أن يفعله لأنه قدوس بلا خطية. أما الابن فلن يقدر أن يفعل إلاَّ ما يرى الآب فاعله. كأنه يقول لهم إن اتهمتموني بكسر السبت، فأنا لا أفعل شيئًا إلاَّ ما أرى الآب فاعله، فهل تحسبونه كاسرًا السبت؟!

ركز في مقاله أنه واهب الحياة الأبدية حسبما يشاء [٢١]، وأن كلماته تهب حياة أبدية [٢٤]، صوته يقيم الأموات [٢٥-٢٦]، وإن الساعة قادمة ليهب حياة لمن في القبور [٢٨-٢٩].

❖ يُظهر الآب له ما سيفعله لكي ما يُفعل بالابن[1].

❖ إذن ما نحن نوضحه أيها المحبوبون، الأمر الذي نسأله، كيف يرى الكلمة؟

كيف يُرى الآب بواسطة الكلمة؟

وما هو الذي يراه الكلمة؟

لست أتجاسر هكذا ولا أتهور فأعدكم إنني أشرح هذا لنفسي أو لكم. إنني أقدر قياسكم وأعرف قياسي...

لقد عني بذلك ألا نفهم بأن الآب يفعل بعض الأعمال التي يراها الابن، والابن يفعل أعمالاً أخرى بعد أن يرى ما فاعله الآب. وإنما كلا من الآب والابن يفعلان ذات الأعمال...

فإن كان الابن يفعل ذات أعمال الآب، وإن كان الآب يفعل ما يفعله بالابن، فالآب لا يفعل شيئًا والابن شيئًا آخر، إنما أعمال الآب والابن هي واحدة بعينها...

أقدم لكم مثالاً الذي أظن أنه ليس بصعبٍ عليكم، عندما نكتب خطابات تُشكل أولاً بقلوبنا وبعد ذلك بأيدينا... القلب واليد يقومان بعمل الخطابات. أتظنون أن القلب يشكل خطابات والأيدي خطابات أخرى؟ ذات الخطابات تفعلها القلب عقليًا واليد تشكلها ماديًا.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 19:3.*

انظروا كيف أن ذات الأمور تتم ولكن ليس بنفس الطريقة. لذلك لم يكن كافيًا للرب أن يقول: "مهما عمل الآب فهذا يعمله الابن أيضًا"، لكن كان لازمًا أن يضيف: "**وبنفس الكيفية**"...

إن كان يفعل هذه الأمور بذات الكيفية، إذن فليتيقظوا، وليتحطم اليهود، وليؤمن المسيحي، وليقتنع المبتدع، فإن الابن مساوي للآب[1].

القديس أغسطينوس

❖ إن سألت: فما معنى قول المسيح "**لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا**"؟ أجبتك: معناه أنه لا يقدر أن يعمل عملاً مضادًا لأبيه ولا غريبًا عنه. وهذا قول يوضح معادلته لأبيه واتفاقه معه كثيرًا جدًا.

قول المسيح: "لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب يعمل" كأنه يقول: "إنه ممتنع عليّ وغير ممكن أن أعمل عملاً مضادًا". وقوله: "**لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك**" بهذا القول أوضح مشابهته التامة لأبيه.

❖ ماذا يعني: **لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا؟** إنه لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئًا في مضادة للآب، ليس شيء مغايرًا، ليس شيء غريبًا، مما يظهر بالأكثر المساواة والاتفاق التام.

لماذا لم يقل: "لا يعمل شيئًا مضادًا" عِوَض قوله: "لا يقدر أن يعمل"؟ وذلك لكي يثبت عدم التغير والمساواة الدقيقة، فإن هذا القول لا يتهمه بالضعف، بل يشهد لقوته العظيمة... وذلك كالقول: "يستحيل على الله أن يخطئ"، لا يتهمه بالضعف، بل يشهد لقوته التي لا يُنطق بها...

هكذا المعنى هنا هو أنه قادر، أي مستحيل أن يفعل شيئًا مضادًا للآب[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليس للابن ولا للروح شيء من ذاتهما، لأن الثالوث لا يتحدث عن أمرٍ خارج عن ذاته... لا يظن أحد أنه يوجد أي اختلاف في العمل سواء من جهة الزمن أو التدبير بين الآب والابن، بل يؤمن في وحدة ذات العملية[3].

❖ تكمن الحرية (للثالوث القدوس) لا في وجود اختلافات بل في وحدة الإرادة[4].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 18:8.*
[2] *Hom 38. PG 59:221-222.*
[3] *Of the Holy Spirit Book 2:12:134m136.*
[4] *Of the Holy Spirit Book 1:17:112.*

❖ لقد حقَّ للابن وثبّت مساواته للآب، مساواة حقيقية، مستبعدًا كل اختلاف في اللاهوت[1].

القديس أمبروسيوس

❖ صنع المسيح كل الأشياء...، لا بمعنى أن الآب تنقصه قوة لخلق أعماله، إنما لأنه أراد أن يحكم الابن على أعماله فأعطاه اللَّه رسم الأمور المخلوقة. إذ يقول الابن مكرمًا أبيه: "**لا يقدر الابن أن يعمل شيئًا إلا ما ينظر الآب يعمل. لأنه مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك**" (يو ٥: ١٩). وأيضًا: "أبي يعمل حتى الآن وأنا اعمل". فلا يوجد تعارض في العمل، إذ يقول الرب في الأناجيل: "كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠).

هذا نتعلمه بالتأكيد من العهدين القديم والجديد، لأن الذي قال: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" (تك ١: ٢٦) بالتأكيد تكلم مع أقنوم معه. وأوضح من هذا كلمات المرتل: "هو قال فكانت. وهو أمر فخلقت" (مز ١٤٨: ٥). فكما لو أن الآب أمر وتكلم، والابن صنع كل شيء كأمر الآب[2].

القديس كيرلس الأورشليمي

[يحذرنا **القديس أغسطينوس** من التفسير المادي]

❖ إنه لم يقل: "لا يقدر الابن أن يفعل شيئا من ذاته إلاَّ ما يسمع الآب يأمر به" بل يقول: "**لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا، إلا ما ينظر الاب يعمل**". أنظر هل تفهم هذا هكذا: الآب يفعل شيئًا، والابن يصغي ليري ماذا يفعل هو أيضًا، وأنه يفعل شيئا آخر مثلما يفعل الآب.

ما يفعله الآب بمن يفعل هذا؟ إن لم يكن بالابن، إن لم بالكلمة، فإنك تجدف ضد الإنجيل، "لأن كل شيء به كان" (يو ١: ٣).

إذن ما يفعله الآب إنما يفعله بالكلمة. فإن كان بالكلمة يفعل هذا إنما يفعله بالابن. فمن هو هذا الآخر الذي يصغي ليفعل شيئًا يرى الآب فاعله؟[3]

❖ الآب لا يفعل أشياء والابن أشياء أخرى، فإن كل الأشياء التي يفعلها الآب إنما يصنعها بالابن. الابن أقام لعازر، ألم يقمه الآب؟ الابن أعطى النظر للأعمى، ألم يهبه الآب البصر؟ يعمل الآب بالابن في الروح القدس. إنه الثالوث، لكن **عمل الثالوث هو واحد، العظمة واحدة، الأزلية واحدة، الأبدية واحدة، والأعمال واحدة.** لم يخلق الآب بعض الناس والابن آخرين والروح القدس آخرين.

---

[1] *Of the Holy Spirit Book 2:8:69.*

[2] مقال ١١: ٢٣.

[3] *Sermon on N.T. Lessons, 76:9.*

خلق الآب والابن والروح القدس إنسانًا واحدًا بعينه...

القديس أغسطينوس

❖ من ينسب ضعفًا للابن ينسبه للآب أيضًا. يحمل الراعي كل القطيع وليس فقط هذا أو ذاك الجزء منه... الكتاب المقدس يعد بفيض من النعمة، لكننا نحن نقر بندرتها[1].

القديس جيروم

❖ لماذا كُتب: "الابن يعمل نفس الأشياء" وليس "مثل هذه الأشياء" إلا لكي تحكموا أن في الابن وحدة في ذات أعمال الآب، وليس تقليدًا لما يفعله الآب؟...

ماذا نفهم بالقول "ما يراه"؟

هل الابن في حاجة إلى أعين جسدية؟ لا، فإن أكد الأريوسيون هذا عن الابن، فالآب إذن في حاجة إلى أعمال جسدية حتى يراها الابن لكي يفعلها.

إذن ماذا يعني: "لا يقدر الابن أن يفعل شيئًا من ذاته"؟... هل يوجد شيء مستحيل على قوة اللَّه وحكمته؟ ليُدرك هؤلاء أن هذين هما لقبان لابن اللَّه، الذي قدرته بلا شك ليست عطية ينالها من آخر، ولكن كما أنه هو الحياة ولا يعتمد على آخر ليهبه الحياة بل هو الذي يحيي الآخرين، لأنه هو الحياة، هكذا هو الكلمة (١ كو ١: ٢٤) ليس ككائنٍ جاهل يطلب الحكمة، بل يجعل الآخرين حكماء من مخازنه. وهكذا هو القوة ليس كمن ينالها خلال ضعف يحتاج إلى مزيد من القوة، بل يهب القوة للأقوياء[2].

القديس أمبروسيوس

"لأن الآب يحب الابن،
ويريه جميع ما هو يعمله،
وسيريه أعمالاً أعظم من هذه،
لتتعجبوا أنتم". [٢٠]

جاء الفعلان "**يحب**"، و"**يريه**" في اليونانية في صيغة الحاضر المستمر، يحملان معنى الحب والرؤية وهما عملان مستمران لا ينقطعان. هو حب الوحدة الكاملة في ذات الجوهر، لذا لم يستخدم "أغابي" بل "فيلين" ورؤية العمل المستمر، والذي يحمل الشركة معًا في ذات العمل الإلهي.

---

[1] *Letter 69:1.*
[2] *Of the Christian Faith, 4:4:40-43.*

الأعمال التي أعظم من شفاء المفلوج هي إقامة الموتى [٢١]، وقيامته من الموت، وإدانته للعالم [٢٢].

❖ هذا يبرز أن الكل يأتي إلى الوجود خلال إرادة واحدة وسلطة واحدة وقوة واحدة... مادام المسيح لا يفعل شيئًا من ذاته، إن كان المسيح يفعل كل الأمور مثل الآب... لأنه لم يقل بأن "كل الأمور التي يرى الآب فاعلها يعملها هو"، بل "ينظر ما يعمله الآب"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أنه أمر أعظم جدًا أن يقوم ميت عن أن يُشفى مريض. هذه أمور أعظم.

لكن متى يُظهر الآب هذه الأمور للابن؟

ألا يعرفها الابن؟

المتكلم نفسه ألا يعرف كيف يقيم الموتى؟

هل كان محتاجًا أن يتعلم كيف يقيم الأموات إلى الحياة ذاك الذي به كان كل شيء؟ هذا الذي أوجدنا في الحياة حين كنا عدمًا هل كان محتاجًا أن يتعلم كيف نقوم من الأموات؟

فماذا إذن تعني كلماته؟...

إنه يتحدث إلينا تارة بما يليق بجلاله، ومرة أخرى بما يليق بتواضعه. هو نفسه العلي تنازل، لكي يرفعنا نحن الذين أسفل إلى العلا.

ماذا إذن يقول: "**وسيريه أعمالاً أعظم من هذه لتتعجبوا أنتم**" [٢٠]. إن ما يظهره هو لنا لا لأجله. وإذ يريه الآب لأجلنا، لذلك قال "**لتتعجبوا أنتم**".

لماذا لم يقل: "سيريكم الآب" بل سيرى الابن؟ لأننا نحن أيضًا أعضاء الابن، وما تتعلمه الأعضاء يتعلمه هو بطريقة ما في أعضائه.

كيف يتعلم فينا؟ كما يتألم أيضًا فينا.

أين نُثبت أنه يتألم فينا؟ من الصوت الصادر من السماء: "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟" (أع ٩: ٤)[2].

القديس أغسطينوس

"**لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي،**

---

[1] *Hom 38. PG 59:221-222.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 21:6-7.*

كذلك الابن أيضًا يحيي من يشاء". [٢١]

أقام الآب الموتى كما فعل مع ابنة أرملة صرفة صيدا خلال إيليا النبي (١ مل ١٧: ٢٢)، وابن الشونمية (٢ مل ٤: ٣٢–٣٥) خلال خدمة إليشع النبي. ويقيم الابن من يشاء كما حدث مع ابنة يايرس (مر ٥: ٣٥–٤٢)، وابن أرملة نايين (لو ٧: ١١–١٥)، ولعازر في بيت عنيا (يو ١١: ١٤–٤٤). إنه يهب الحياة حسبما يشاء، وليس بطلب قوة خارجية كما حدث مع الأنبياء، وأيضًا التلاميذ. له سلطان مطلق على الحياة! له مفتاح القبر والموت (رؤ ١: ١٨)، له مفتاح داود يفتح ولا أحد يغلق، ويغلق ولا أحد يفتح (رؤ ٣: ٧). إنه يميت ويحيي (١ صم ٢: ٦).

❖ يظهر التعبير قوة غير مغايرة... ومساواة في السلطة... "فإن كل ما يفعله (الآب) يفعله الابن أيضًا"، مظهرًا أنه يستمر في فعل كل الأشياء التي يفعلها الآب سواء تقولون عن إقامة الموتى أو تشكيل الأجساد أو غفران الخطايا أو أي أمر آخر. إنه يعمل بنفس الطريق بالنسبة للذي ولده[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ حتمًا لا يعني هذا أن الابن يحيي البعض، والآب يحيي آخرين، بل الآب والابن يحيون نفس الأشخاص، لأن الآب يفعل كل الأشياء بالابن[2].

القديس أغسطينوس

❖ هكذا مساواة الابن للآب قد رسخت ببساطة خلال وحدة عمل الإحياء، حيث يحيي الابن كما يفعل الآب. لتدركوا هنا أبدية حياته وسلطانه[3].

القديس أمبروسيوس

"لأن الآب لا يدين أحدًا،

بل قد أعطى كل الدينونة للابن". [٢٢]

هذا يؤكد أنه لا يعمل الآب الديان بدون الابن، ولا الابن الديان بدون الآب، لهما سلطان واحد، يعملان معًا.

الآب لا يدين أحدًا، ليس لأنه بلا سلطان، ولكن هذه هي مسرته أن الابن الذي بذل ذاته يدين البشرية. لقد خلقنا الآب بابنه، وخلصنا بموته، ويدينا خلاله. صار المسيح رأسًا للكنيسة بعمله

---

[1] *Hom 39. PG 59:223.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 62:4.*
[3] *Of the Christian Faith, 4:10:129.*

الخلاصي، صار فوق الكل (أف ١: ١١)، رأس كل رجلٍ (١ كو ١١: ٣)، لذلك فهو الذي يتمم ذلك بأن يتمتع مؤمنيه بشركة مجده. وهو الذي بدأ المعركة ضد مملكة الظلمة، فيعلن في الدينونة تحطيمها تمامًا. إن كان الابن في تواضعه قد صار ابن الإنسان واحتمل الموت موت الصليب، فإنه يظهر أيضًا كابن الإنسان ليخجل ويخزى الذين رفضوه وطعنوه بحربة عدم الإيمان به.

إذ طلب اليهود محاكمته وقتله شرعيًا، أعلن أنه هو الديان، الذي سيحكم في اليوم العظيم ويدين كل البشرية.

❖ نحتاج أيها الأحباء إلى اجتهاد عظيم في كل شيء، إذ سنعطي حسابًا، ونُسأل بكل دقة عن كلماتنا وأعمالنا.

لا تقف اهتماماتنا بما يحدث الآن، بل ما سيحدث بعد ذلك، إذ نقف أمام محاكمة رهيبة. "لأنه لابد أننا جميعا نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرًا كان أم شرًا" (٢ كو ٥: ١٠).

لنضع في ذهننا على الدوام هذه المحاكمة، حتى يمكننا في كل الأوقات أن نثابر علي الفضيلة... فإن الذي يغفر خطايانا الآن سيديننا، الذي يموت من أجلنا سيظهر ليدين كل البشرية يقول الرسول: "سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه" (عب ٩: ٢٨). لذلك يقول في هذا الموضع: "لأن الآب لا يدين أحدا، بل قد أعطى كل الدينونة للابن، لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب" [٢٢-٢٣]...

لكي تفهموا "قد أعطى" كما "قد ولد" اسمعوا ما قيل في موضع آخر: "كما أن الآب له الحياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته" [٢٦]. ماذا إذن؟ هل ولده أولاً ثم أعطاه الحياة بعد ذلك؟...

هل وُلد بدون الحياة؟ حتى الشياطين لن تتخيل هذا، لأنه غباوة عظيمة وشر!

فكما إن إعطاء الحياة يعني ميلاده الذي هو الحياة، هكذا إعطاء الدينونة هو إعطاء الميلاد له الذي هو الديان.

ولئلا عندما تسمعون إن الآب هو مصدره تحسبون وجود اختلاف في الجوهر أو نقص في الكرامة قال إنه سيأتي ويدينكم، مبرهنًا بذلك على مساواته. فإن من له السلطان أن يعاقب ويدين من يشاء، له ذات سلطان الآب[1].

[1] *Homilies on St. John,39:1*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**لأن الآب لا يدين أحدًا بل قد أعطى كل الدينونة للابن**" [٢٢]... عندما يدين الابن هل يبقى الآب بلا عمل ولا يدين؟... قيل هذا لأنه لا يظهر للبشر في الدينونة سوى الابن. سيختفي الآب ويُعلن الابن.

كيف يُعلن الابن؟ في الشكل الذي به صعد. لأن شكل اللاهوت مخفي مع الآب، لكن يعلن شكل الابن للبشر...

بأية كيفية رأوه ذاهبًا؟ في الجسد الذي لمسوه، وأمسكوه، والجراحات التي تحققوا منها باللمس؛ في هذا الجسد كان يظهر لهم أربعين يومًا، معلنًا عن ذاته بالحق، لا في خيالٍ أو بطلانٍ أو ظلٍ أو روحٍ، بل هو بنفسه لم يخدعهم: "جسّوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون" (لو ٢٤: ٣٩). هذا الجسد بالحق صار متأهلاً للسكنى السماوية، لا يخضع للموت، ولا يتغير مع زوال الزمن[1].

القديس أغسطينوس

"**لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب،**

من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله". **[٢٣]**

إن كان الابن يُكرم كما يكرم الآب، له ذات الكرامة، تسجد له الخليقة السماوية والأرضية وتتعبد له، الأمر الذي لا يليق إلاَّ بالله، فهو مع الآب الله الواحد.

❖ هل الابن أقل لأنه قال أنه مُرسل؟ إنني أسمع عن الإرسال لا الانفصال...

بين البشر الراسل أعظم من المُرسل. ليكن، لكن الشئون البشرية تخدع الإنسان، الإلهيات تطهره، لا تتطلع إلى الأمور البشرية التي فيها الراسل يظهر أعظم من المُرسل... ومع ذلك توجد حالات كثيرة فيها يُختار الأعظم لكي يرسله من هو أقل...

ترسل الشمس شعاعًا ولكنه لا ينفصل عنها...

والسراج يفيض نورًا ولا ينفصل عنه. إنني أرى إرسالاً دون انفصال...

الإنسان الذي يرسل آخر يبقى خلفه بينما يتقدم المُرسل. هل يذهب الراسل مع الذي أرسله؟ أما الآب الذي أُرسل الابن لا ينفصل عن الابن... الآب الراسل لا ينفصل عن الابن المُرسل، لأن

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 21:12.*

المرسل والراسل هما واحد[1].

القديس أغسطينوس

❖ ألا ترون كيف ترتبط كرامة الابن بكرامة الآب؛ قد يقول أحد: ما هذا ؟ فإننا نرى نفس الشيء في حالة الرسل إذ يقول المسيح: "من يقبلكم يقبلني" (مت ١٠: ٤٠). في ذلك يتحدث هكذا، لأنه مهتم بخدامه الذين هم له، أما هنا فالسبب هو أن الجوهر واحد والمجد واحد مع الآب. لذلك لم يقل عن الرسل "لكي يكرمونهم"، أما هنا فبحق يقول: "من لا يكرم الابن لا يكرم الآب" [٢٣]. فإنه متى وجد ملكان، من يسب الواحد يكون قد سب الآخر، خاصة إن كان ابنه وأيضًا من يسيء إلي جنوده يحسب كمن أساء إليه، لكن بطريقة مختلفة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلمتي ويؤمن بالذي أرسلني،**
فله حياة أبدية،
ولا يأتي إلى دينونة،
بل قد انتقل من الموت إلى الحياة". **[٢٤]**

تعاليمه، أي إنجيل خلاصه، هي بذار الحياة الأبدية الغالبة للموت أبديًا، متى زُرعت في القلب ترفع المؤمن فوق الموت الأبدي والدينونة في يوم الرب العظيم. لن يدخل مدينة الموت التي تحبس النفوس التي حرمت نفسها من مصدر الحياة. إنما تعبر النفس إلى إمبراطورية الحياة، ينال المؤمن مواطنة جديدة، عِوَض بلدة الموت يتمتع بالمواطنة السماوية ليحيا فيها أبديًا في مجدٍ سماويٍ وينطق بلغةٍ سماويةٍ.

إن كانت الحياة الأبدية لا ترتبط بالزمن، فإن عربون هذه العطية يُقدم في الحياة الحاضرة، لننمو فيها حتى تتمتع بكمالها في الحياة العتيدة.

❖ إنه لم يقل: "إن من يسمع كلمتي ويؤمن بي" (بدلاً من **يؤمن بالذي أرسلني**)... لأنه إن كان بعد صنع ربوات المعجزات لفترة طويلة تشككوا فيه عندما تكلم في فترة لاحقة بهذه الطريقة "إن كان أحد يحفظ كلمتي فلن يرى الموت إلى الأبد" (يو ٨: ٥١)، وقالوا له: "قد مات إبراهيم والأنبياء، وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلتمي فلن يذوق الموت إلي الأبد؟" (يو ٨: ٥٢)، فلكي لا يصيروا

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 21:17*
[2] *Homilies on St. John,39:2.*

هنا في غضب شديد، انظروا ماذا يقول؟ "إن من يسمع كلمتي، **ويؤمن بالذي أرسلني**، فله حياة أبدية" [٢٤]. لهذا القول أثره غير القليل في قبول مقاله، عندما يتعلمون أن من يسمعونه يؤمنون أيضًا بالآب، فإنهم إذ يقبلون هذا بسهولة، يمكنهم أن يقبلوا بقية المقال بسهولة. **حديثه بطريقة متواضعة ساهمت وقدمتهم إلي الأمور العلوية**. فإنه بعد قوله "له حياة أبدية" أضاف: "ولا يأتي إلي دينونة، بل يكون قد انتقل من الموت إلى الحياة " [٢٤][1].

❖ بهذين الأمرين جعل مقاله يُقبل بسهولة. أولاً لأن **الآب هو الذي نؤمن به**، وبعد ذلك الذي يؤمن **يتمتع ببركاتٍ كثيرة**. عدم الآتيان إلى دينونة يعني عدم العقوبة، إذ لا يتحدث هنا عن الموت، بل الموت الأبدي، وأيضًا عن الحياة بلا موت[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ يحب البشر أن يعيشوا على هذه الأرض وُعدت لهم الحياة، وإذ يخشون الموت جدًا وُعدوا بالحياة الأبدية.

ماذا تحبون؟ أن تعيشوا. ستنالون هذا.

ماذا تخشون؟ أن تموتوا. ستكون لكم حياة أبدية...

لنحب الحياة الأبدية، بهذا نعرف كيف يلزمنا أن نجاهد كثيرًا من أجل الحياة الأبدية[3].

القديس أغسطينوس

❖ ليس سلطان الابن يزيد، بل معرفتنا عن هذا السلطان هي التي تزيد. وليس ما نتعلمه يضيف إلى كيانه شيئًا، وإنما يضيف إلى نفعنا حتى أننا **بمعرفتنا للابن ننال حياة أبدية**. هكذا في معرفتنا لابن الله ليست كرامة له، بل فائدتنا هي المعنية[4].

القديس أمبروسيوس

❖ إن الروح رغم اتحادها مع اللّه فهي لا تشعر بملء السعادة بطريقةٍ مطلقة. إنما **كلما تمتعت بجماله زاد اشتياقها إليه**.

إن كلمات العريس روح وحياة (يو ٥: ٢٤)، وكل من التصق بالروح يصير روحًا. كل من التصق

---

[1] *Homilies on St. John, 39:2.*
[2] *Hom 39. PG 59:222.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 77:2.*
[4] *Of the Christian Faith, 5: 6: 68 – 69.*

بالحياة ينتقل من الموت إلى الحياة كما قال الرب.

هكذا فالروح البكر تشتاق دائمًا للدنو من نبع الحياة الروحية. **النبع هو فم العريس الذي تخرج منه كلمات الحياة الأبدية.** إنه يملأ الفم الذي يقترب منه مثل داود النبي الذي اجتذب روحًا خلال فمه (مز ١١٨: ١٣١).

لما كان لزامًا على الشخص الذي يشرب من النبع أن يضع فمه على فم النبع، وحيث أن الرب ذاته هو النبع كما يقول: "إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب" (يو ٧: ٣٧)؛ لذلك فإن الأرواح العطشانة تشتهي إن تضع فمها على الفم الذي ينبع بالحياة ويقول: "**ليقبلني بقبلات فمه**" (نش ١: ٢).

من يهب الجميع الحياة، ويريد إن الجميع يخلصون، يشتهي أن يتمتع كل واحد بنصيب من هذه القبلات، لأنها تطهر من كل دنس[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن،
حين يسمع الأموات صوت ابن الله،
والسامعون يحيون". [٢٥]

يميز البعض بين "**كلمة**" السيد المسيح [٢٤] و**صوته** [٢٥]، فكلمته هي إنجيل خلاصه حيث يجد المؤمن خلال الصليب الحياة الجديدة عِوَض الموت، ويتمتع بالحرية عِوَض العبودية، إذ يقول السيد "**كلمتي روح وحياة**" أما صوته فهو كائن في كلمته، حيث تستعذب العروس صوت عريسها، فيمتلئ قلبها بنشوة الحب وتتحسس حنانه الإلهي ولن تقبل عنه بديلاً: "خرافي تسمع صوتي" (يو ١٠: ٢٧).

يشير الكتاب المقدس إلى ثلاثة أنواع من الموت: الموت الطبيعي أو الجسدي، والموت الروحي، والموت الأبدي. الأول يتحقق بانفصال النفس عن الجسد، والثاني بانفصال النفس عن الله، والثالث بانفصال النفس والجسد معًا عن الله في العالم الآخر. مقابل هذا توجد ثلاثة أنواع من الحياة: الحياة الطبيعية التي في هذا العالم، حيث يعمل الجسد مع النفس في وحدة، والحياة الروحية حيث تتمتع النفس بالوحدة مع الله الذي يقودها بروحه القدوس، والحياة الأبدية حيث يشترك الجسد مع النفس في المجد السماوي في حضن الآب.

بمجيء السيد المسيح حلت الساعة لتقوم النفس من موتها، أو انفصالها عن الله مصدر حياتها،

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، ١٩٩٣، عظة ١.

فتتمتع بالحياة الجديدة هنا. هذه الحياة الجديدة تهيئ المؤمن لمجيء السيد المسيح الثاني حيث يقوم الأموات لتشترك الأجساد مع النفوس في الحياة الأبدية المجيدة. هذا يتحقق بأمر السيد المسيح، حيث يسمع الأموات صوته.

في مجيئه الأول يتكلم في النفس فيقيمها من الموت، وفي مجيئه الأخير يأمر فيقوم الأموات. ليتنا نسمع دومًا صوته الموجه شخصيًا إلينا: "لعازر هلم خارجًا". ففي كل عبادتنا، بل مع كل نسمة من نسمات حياتنا يلزمنا أن نميل بآذاننا إليه لنسمع صوته العذب المحيي لنفوسنا.

❖ تتحقق القيامة الآن، ويعبر الناس من الموت إلى الحياة، من الموت بعدم الإيمان إلى الحياة بالإيمان، من الموت بالبطلان إلى الحياة بالحق، من الموت بالشر إلى الحياة بالبرّ. لذلك توجد قيامة للأموات[1].

❖ الذين يؤمنون ويطيعون يحيون. قبل أن يؤمنوا ويطيعوا كانوا راقدين أمواتا. كانوا يسيرون وهم أموات. ماذا ينتفعون بسيرهم وهم أموات؟ ومع ذلك إن مات أحدهم الموت الجسدي، فيجرون يهيئون القبر ويكفنوه ويحملوه ويدفنوه؛ الموتى يدفنون الميت. وقد قيل عنهم: "دع الموتى يدفنون موتاهم" (مت ٨: ٢٢).

مثل هؤلاء الموتى أقيموا بكلمة الله ليعيشوا في الإيمان. الذين كانوا موتى في عدم إيمان أقيموا بالكلمة. عن هذه الساعة يقول الرب: "**ستأتي الساعة وقد جاءت الآن**". بكلمته يقيم هؤلاء الذين كانوا موتى في عدم الإيمان. عنهم يقول الرسول: "قم أيها النائم، وارتفع عن الموتى، فالمسيح يعطيه النور" (أف ٥: ١٤). هذه هي قيامة القلوب. هذه هي قيامة الإنسان الداخلي، هذه هي قيامة النفس.

لكن ليست هذه هي القيامة الوحيدة، إذ تبقى قيامة الجسد أيضًا. من قام ثانية في النفس سيقوم أيضًا في الجسد لتطويبه في الجسد. وأما من لم يقم أولاً في النفس فسيقوم في الجسد للعنته... إذ نتطلع إلى الرب أنه ختم علينا بهذه القيامة للنفوس التي يجب علينا جميعًا أن نسرع إليها، وأن نجاهد لنعيش فيها، وأن نثابر حتى النهاية. بقي له أن يختم علينا بقيامة الأجساد أيضًا التي ستكون في نهاية العالم. الآن فلتسمع كيف ختم بهذه أيضًا.

عندما قال: "**الحق الحق أقول لكم أنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات**"، أي غير المؤمنين، "**صوت ابن الله**"، أي الإنجيل، "**والسامعون**"، أي المطيعون "**يحيون**" [٢٥]، أي يتبررون،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 19:8.*

ولا يعودوا بعد غير مؤمنين. عندما أقول أنه قال هذا بقدر ما يرانا أننا محتاجون إلى التعلم عن قيامة الجسد أيضًا، ولا نُترك هكذا لذلك أكمل قوله: "**لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة في ذاته**". هذه تشير إلى قيامة النفوس، إلى إحياء النفوس. عندئذٍ أضاف: "**وأعطاه سلطانًا أن يدين أيضًا لأنه ابن الإنسان**" [٢٧][1].

❖ من أي مصدر يحيون؟ من الحياة. من أية حياة؟ من المسيح... يقول: "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو ١٤: ٦).

أتريد أن تسير؟ أنا هو الطريق.

أتود ألا تُخدع؟ "أنا هو الحق".

أتريد ألا تموت؟ "أنا هو الحياة".

هذا ما يقوله مخلصك لك... البشر الذين ماتوا يقومون؛ إنهم يعبرون إلى الحياة، إذ يسمعون صوت ابن اللَّه يحيون. فيه يحيون، إذ يثابرون في الإيمان به. لأن الابن له الحياة؛ حيث له الحياة حتى أن الذين يؤمنون به يحيون[2].

القديس أغسطينوس

❖ أعرفت هنا سيادة المسيح وسلطانه المطلق غير المنطوق به؟ فكما سيكون في القيامة هكذا يقول "**الآن**". لذلك عندما نسمع صوته يأمرنا أن نقوم، إذ يقول الرسول: "عندما يأمر الله يقوم الأموات" (راجع ١ تس ٤: ١٦)[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته،**

كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة في ذاته". **[٢٦]**

يتحدث ربنا يسوع هنا بكونه المسيا الذي يخلص العالم ويهبه الحياة.

❖ "**أعطى**" بسبب الوحدة معه. أعطى لا لكي تؤخذ منه، بل لكي يتمجد في الابن. لقد أعطى لا لكي يقوم الآب بحراستها، بل لكي تكون مِلكًا للابن[4].

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 77:7-8.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 22:8.*
[3] *Homilies on St. John, 39:2.*
[4] *Of the Christian Faith, 4:10:132.*

❖ لا تظن أنها هبة مجانية للنعمة، إذ هي سرّ ميلاده. إذ لا يوجد أي اختلاف في الحياة بين الآب والابن، كيف يمكنك أن تظن أن الآب وحده له الخلود وليس للابن[1]؟

القديس أمبروسيوس

❖ انظر، أنت تقول وتعترف أن الآب يعطي الحياة للابن لكي تكون له الحياة في ذاته، وذلك كما أن الآب له الحياة في ذاته، فلا يكون الآب في حاجة والابن أيضًا ليس في حاجة. كما أن الآب هو الحياة هكذا الابن هو الحياة، **وكلاهما يتحدان في حياة واحدة وليس حياتين**، لماذا يُقال أن الآب يعطي الحياة للابن؟ ليس كما لو كان الابن بدون حياة ونال الحياة، لأنه لو كان الأمر هكذا لما كانت له الحياة في ذاته[2].

❖ ماذا إذن قوله "**أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته**"؟ أقول باختصار أنه ولد الابن... كأنه يقول: "الآب الذي هو الحياة في ذاته قد ولد الابن الذي هو الحياة في ذاته. يمكن فهم كلمة "أعطي" *dedit* بمعنى "ولد" *genuit*[3].

❖ ماذا يعني له الحياة في ذاته؟ لا يحتاج إلى الحياة من آخر، بل هو نفسه فيض من الحياة، منه ينال الغير – الذين يؤمنون به – الحياة... لقد أُعطي أن تكون له الحياة في ذاته، لمن أعطى؟ لكلمته، لذاك الذي هو "في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند اللَّه"[4].

القديس أغسطينوس

❖ ألا ترون أن هذا يعلن عن الشبه الكامل إلا في نقطة واحدة، هي أن الواحد هو أب والآخر هو ابن؟ فإن تعبير "**أعطى**" لمجرد إبراز هذا التمايز أما البقية كلها فمتساوية ومتشابهة تمامًا. واضح إن الابن يفعل كل شيء بسلطان وقوة مثل الآب، وأنه لا يستمد القوة من مصدر آخر، إذ له الحياة في ذاته مثلما للآب[5].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وأعطاه سلطانًا أن يدين أيضًا، لأنه ابن الإنسان**". **[٢٧]**

يرى **القديس أمبروسيوس** أن السيد المسيح قَبِلَ أن ينال السلطان أن يدين "لأنه ابن الإنسان" أما

---

[1] *Of the Holy Spirit Book 5:2:35.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 19:12.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 19:13.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 22:10.*
[5] *Homilies on St. John, 39:3.*

بكونه ابن الله فهو الديان، إذ هو واحد مع الآب[1].

يقول **القديس أغسطينوس** أنه هو "ابن الله في ذاته" [٢٥] كان يلزم (بحبه) أن يصير ابن الإنسان حين أخذنا فيه، أو أخذ طبيعتنا.

إنه إذ يقيم الموتى نراه ابن الله واهب الحياة والقيامة، وإذ يدين يتجلى أمامنا عمله الخلاصي الذي بدونه لن نتبرر، فنراه وقد حمل طبيعتنا وصار ابن الإنسان الذي مات وقام ووهبنا برَّه. يراه الأشرار أيضًا ابن الإنسان الذي صلبوه ورذلوه وطعنوه.

بقوله: "**وأعطاه أن يدين أيضا لأنه ابن الإنسان**" يوجه أنظارهم نحو نبوة دانيال النبي عنه: "كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء **مثل ابن إنسان** أتي وجاء إلي القديم الأيام، فقربوه قدامه، فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض" (دا ٧: ١٣-١٤).

❖ سيكون الديان هنا ابن الإنسان، سيكون ذلك الشكل هو الذي يدين، وقد كان تحت الحكم.

اسمعوا وافهموا ما قاله النبي بالفعل: "سينظرون إلى من طعنوه" (زك ١٢: ١٠؛ يو ١٩: ٣٧). سينظرون ذات الشكل عينه الذي طعنوه بحربة. يجلس كديان ذاك الذي وقف أمام كرسي القضاء. سيحكم على المجرمين الحقيقيين، ذاك الذي جعلوه مجرمًا باطلاً. سيأتي بنفسه بذات الشكل.

هذا تراه أيضًا في الإنجيل عندما ذهب إلى السماء أمام أعين تلاميذه، وقفوا ونظروا وتكلم الصوت الملائكي: "أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين... إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقًا إلى السماء" (أع ١١: ١)...

انظروا الآن على أي أساس كان هذا ينبغي أن يحدث وبحق إن الذين يلزم أن يدانوا يروا الديان. فإن الذين يدانون هم صالحون وأشرار معًا. "ولكن طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨). **بقي أنه في الدينونة يعلن شكل العبد للصالحين والأشرار، ويحفظ شكل الله للصالحين وحدهم**[2].

❖ أي شيء سيناله الصالحون؟... لقد قلت أننا هناك سنكون بصحة سليمة، في أمان أحياء بلا بلايا، بلا جوع ولا عطش، بلا عيب، دون فقدان لأعيننا. هذا ما قلته ولكن ما سيكون لنا أعظم لم أقله: إننا سنرى الله الآب، فإن هذا الأمر عظيم هكذا إذا ما قورنت به كل بقية الأمور تحسب

[1] *Of the Christian Faith, 63: 78 – 79.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 77:10.*

أمامه كلا شيء...

هل سيرى الشرير الله أيضًا هذا الذي قال عنه إشعياء: "ليطرد الشرير فلا يرى مجد الله" (إش ٢٦: ١٠ *LXX*)؟... لذلك فإنه سيعلن نفسه للكل، للصالحين والأشرار، ولكن يحتفظ بنفسه للذين يحبونه... بعد قيامة الجسد عندما يُطرد الشرير فلا يرى مجد الله؛ فإنه "إذ أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو" (١ يو ٣: ٢)، هذه هي الحياة الأبدية[1].

❖ كيف إذن لا يأتي الآب نفسه؟ ذلك بكونه لا يكون منظورًا في الدينونة، "سينظرون إلى الذي طعنوه". **الشكل الذي ظهر أمام القاضي، سيكون هو الديان**. ذاك الشكل الذين حوكم سيدين. لقد حُوكم ظلمًا، سيدين بالعدل. سيأتي في شكل العبد، وهكذا سيظهر. لأنه كيف يظهر شكل اللَّه للأبرار والظالمين؟ لو أن الدينونة ستكون بين الأبرار وحدهم يظهر لهم شكل اللَّه. ولكن لأن الدينونة هي للأبرار والظالمين، ولا يُسمح للظالمين أن يروا اللَّه، لأنه "طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعينون اللَّه" (مت ٥: ٨)[2].

❖ هناك سيكون فصل (بين الأبرار والأشرار) ولكن ليس كما هو الآن. الآن نحن منفصلون ليس من جهة المكان، بل حسب السمات والرغبات والإيمان والرجاء والمحبة. الآن نعيش معًا، نعيش مع الأشرار، وإن كانت حياة الكل ليست واحدة. في السرّ نحن متمايزون، سرّا نحن مفصولون، كالقمح في البيدر، وليس كالقمح في المخزن. في الحقل القمح مفصول ومختلط، مفصول لأنه مختلف عن التبن، ومختلط لأنه لم يُغربل بعد. بعد ذلك سيحدث فصل عام... فالذين صنعوا الصالحات سيعيشون مع ملائكة اللَّه، والذين صنعوا السيئات يتعذّبون مع إبليس وجنوده...

بعد الدينونة سيعبر شكل العبد... وسيقود الجسد بكونه الرأس، ويسلم المُلك للَّه (١ كو ١٥: ٢٤). عندئذٍ يظهر شكل اللَّه علانية، هذا الذي لم يكن ممكنًا للأشرار أن يروه، وإنما يرون شكل العبد...

سيعلن نفسه، كما وعد للذين يحبونه. إذ يقول: "من يحبني يحفظ وصاياي؛ والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأُظهر له ذاتي" (يو ١٤: ٢١)[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 77:11-13.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 19:16.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 19:18.*

"لا تتعجبوا من هذا،

فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته". [٢٨]

عند قيامة السيد المسيح لم يُسمع صوت ما، لأنه قام بقوته وسلطانه. أما عند إقامتنا في اليوم الأخير فيُسمع صوت المسيح الذي له سلطان أن يقيم الموتى. كما تُسمع أصوات أبواق الملائكة التي تعلن مجيء صاحب السلطان.

❖ كل الذين **يسمعون** يحيون، لأن كل الذين **يطيعون** يحيون...

ها نحن ننظر قيامة الفكر، ليتنا لا نترك إيماننا بقيامة الجسد...

فإنه حقًا كل الفرق التي تتعهد ببث أية عقيدة دينية في الناس يسمحون بالاعتقاد بقيامة الأذهان، وإلا يُقال لهم: إن كانت النفس لا تقوم، فلماذا تتحدثون معي؟... لكن يوجد كثيرون ينكرون قيامة الجسد، ويؤكدون أن القيامة قد تمت فعلاً بالإيمان. مثل هؤلاء الذين يقاوموهم الرسول قائلاً: "من بينهم هيمينايس وفيليتس اللذين زاغا عن الحق، قائلين أن القيامة قد صارت، فيقلبان إيمان قوم" (٢ تي ٢: ١٧-١٨). يقولون أن القيامة قد تمت فعلاً بطريقة لا نتوقع بها قيامة أخرى، ويلومون الذين يترجون قيامة الجسد، كما لو أن القيامة الموعود بها قد تحققت في عمل الإيمان، أي في الذهن[1].

القديس أغسطينوس

"فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة،

والذين عملوا السيآت إلى قيامة الدينونة". [٢٩]

"أنا لا اقدر أن أفعل من نفسي شيئًا،

كما أسمع أدين،

ودينونتي عادلة،

لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني". [٣٠]

❖ كأن المسيح يقول هنا: "إنكم لم تبصروا فيّ فعلاً غريبًا مخالفًا، ولا عملاً لا يريده أبي".

القديس يوحنا الذهبي الفم

٥. شهادة يوحنا المعمدان له

"إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقا". [٣١]

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 19:14.*

لو أنه شهد لنفسه دون شهادة الآب خلال الأنبياء ودون قيامه بأعمال عجيبة إلهية، لكان لهم عذرهم إن حسبوها شهادة باطلة. لقد رفض شهادته لنفسه لأنهم حسبوا هذا نوعًا من طلب مجد الناس. فهو لا يود أن يقدم شهادة حسب معاييرهم ليست حقًا. بهذا يقطع خط الرجعة عليهم، فلا يعطيهم فرصة للاعتراض علي شهادته، ولا يسمح لهم أن يتشككوا في نيته، فيظنوه أنه يطلب المجد الزمني.

❖ عندما قال: "**شهادتي ليست حقا**" [٣١] كان يوبخهم علي رأيهم فيه، واعتراضهم عليه، وعندما قال: "وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق" (يو ٨: ١٤) يعلن طبيعة الشيء نفسه، وهي أنه بكونه الله يلزمهم أن يحسبوه موضع ثقة حتى عندما يتحدث عن نفسه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يقدم نفسه مرة في شخص إنسان، وأخرى في جلال اللَّه... مرة يشير أن شهادته ليست حقًا (يو ٥: ٣١) وأخرى أنها حق (يو ٨: ١٤)[2].

القديس أمبروسيوس

❖ إنه قد عرف حسنًا أن شهادته عن نفسه كانت حقًا، ولكن من أجل الضعفاء، الذين بلا فهم فإن الشمس تتطلع إلى المصابيح. من أجل ضعف بصيرتهم لم يحتملوا بهاء الشمس المتألق[3].

❖ ألم يشهد الشهداء للمسيح؟ ألم يشهدوا للحق؟ لكن إن تطلعنا بشيء من الاهتمام الأكثر عندما شهد الشهداء، شهد هو لنفسه. لأنه يسكن في الشهداء، وهم يشهدون للحق. لنسمع أحد الشهداء، بولس الرسول: "أتقبلون برهان المسيح الذي يتكلم فيَّ؟" (٢ كو ١٣: ٣ *Vulgate*). إذن **عندما يشهد يوحنا فالمسيح الساكن في يوحنا يشهد لنفسه**. ليشهد بطرس، وليشهد بولس وبقية الرسل، ليشهد إسطفانوس، فإن **ذاك الذي يسكن فيهم جميعًا هو يشهد لنفسه**[4].

القديس أغسطينوس

❖ إن كان الرب نفسه الذي سيأتي فيما بعد ليحكم في كل شيء لم يرد أن يصدقوه بناء على شهادته هو، مفضلاً أن يتزكى بحكم الله الآب وشهادته، كم بالأكثر يلزمنا نحن عبيده الذين ليس فقط

---

[1] *Homilies on St. John, 40.*
[2] *On the Christian Faith, Book 5:10:123.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 78:1.*
[4] *Sermon on N.T. Lessons, 78:3.*

نتزكى بشهادة الله وحكمه بل ونتمجد بها يلزمنا أن نحافظ على ذلك[1].

الشهيد كبريانوس

"**الذي يشهد لي هو آخر،**

وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق". **[٣٢]**

جاءت كلمة "**يشهد**" هنا في صيغة المضارع المستمر، فإن شهادة الآب للابن شهادة سرمدية، شهادة الحب لذاك الذي واحد معه في ذات الجوهر.

هم يؤمنون بالكتاب المقدس، فهو يحمل شهادة الآب عنه خلال النبوات الكثيرة، وهي شهادة صادقة.

❖ كأنه يقول: "لعلكم تقولون لي إننا لا نصدقك، لأنه على نحو ما يُقال في أناس إن من يشهد بتسرع لنفسه ليس هو مؤهلاً لتصديقه.

فقول المسيح: "**إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقا**" لا ينبغى أن يُقرأ على بسيط ذات قراءته، لكن ينبغي أن يُقرأ إذا أضفنا إليه ظن أولئك اليهود في المسيح أن قوله ليس حقًا...

أورد الأقوال التي قالها بثلاثة شهود: أولهم الأعمال التي صنعها، وثانيهم شهادة أبيه، وثالثهم إنذار يوحنا المعمدان به، وقد وضع آخرها أولها وهى شهادة يوحنا المعمدان إذ قال: ""**الذي يشهد لي هو آخر، وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق**" **[٣٢]**.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق**". **[٣٣]**

مع أن السيد المسيح لا يقبل شهادة من أي إنسان، لكن من أجلهم يقدم شهادة يوحنا المعمدان عنه أو "**للحق**"، إذ كانوا يحترمونه كسراج حمل النور لساعة. كان يوحنا في ذلك الوقت في السجن. يكرمه السيد المسيح بكونه السراج الذي يعلن عن مجيء المسيح وسط ظلمة هذا العالم.

من جهة سأله الأعداء أنفسهم وطلبوا رأيه، ومن جهة أخرى عُرف القديس يوحنا أنه لا يعطي وزنًا للكرامة الزمنية، ولم يطلب لنفسه مجدًا. إنه مخلص في رسالته، لم يستطِع هيرودس أن يثنيه عن الحق، وعندما شهد يوحنا عن السيد المسيح لم يكن قد رآه.

❖ قال أولاً "**أنتم أرسلتم إليَّ يوحنا**" فما كانوا يرسلون إليه لولا أنهم احتسبوه مؤهلاً للتصديق.

---

[1] *Letter 66 to Florentius: 2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ انظروا كيف كان يلزمه أن يقول: "لتضئ يا رب سراجي". أخيرًا إذ استنار قدم شهادته... إنه السراج، الذي استنار، استنار لكي يضيء. وما يمكن أن يُنار يمكن أيضًا أن يُطفأ. فلكي لا يُطفأ ليته لا يعرض نفسه لريح الكبرياء[1].

القديس أغسطينوس

"**وأنا لا أقبل شهادة من إنسان،**

ولكني أقول هذا لتخلصوا أنتم". **[٣٤]**

يقول السيد أنه ليس بمحتاج إلى شهادة يوحنا، فإن أعماله فيها كل الكفاية، وهي أعظم من شهادة يوحنا.

أنتم تؤمنون أن يوحنا نبي، لا ينطق بالكذب بل بالحق. وقد شهد أني حمل الله الذي يرفع خطية العالم (يو ١: ٢٩)، فإن آمنتم بي تخلصون من خطاياكم.

❖ شهادة يوحنا لم تكن شهادة إنسان، لأنه قال: "وأنا لم كن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء، ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقرًا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس" (يو ١: ٣٣) فمن هذه الجهة استبان أن شهادة يوحنا المعمدان كانت شهادة الله، لأنه من الله عرفها، وقال له ما قاله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "أكثر من جميع الذين يعلمونني فهمت، لأن شهاداتك هي درسي"...

من هو هذا الذي له فهم أكثر من كل معلميه؟

إنني أسأل: من هو هذا الذي يتجاسر ويفضل نفسه عن كل الأنبياء، الذي ليس فقط بالكلام علَّم بسلطانٍ عظيمٍ هكذا الذين عاش معهم، وأيضًا الأجيال المتعاقبة بكتاباتهم؟...

ما قد قيل هنا لا يمكن أن يكون عن شخص سليمان...

إنني أعرفه بوضوح ذاك الذي يفهم أكثر من كل الذين يعلمون، فإنه إذ كان صبيًا في الثانية عشرة من عمره بقي يسوع في أورشليم ووجده والداه بعد ثلاثة أيام (لو ٢: ٤٢-٤٦). قال الابن: "كما علمني أبي أنطق بهذه الأمور".

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 17:9.*

من الصعب جدًا أن نفهم هذا عن شخص الكلمة، ما لم ندرك أن الابن المولود من الآب... "أخذ صورة عبد" (في ٢: ٧)، فإنه إذ اتخذ هذا الشكل، ظن من هم أكبر منه سنًا أنه يجب أن يتعلم كصبي، لكن ذاك الذي علَّمه الآب له فهم أكثر من كل معلميه، لأنه درس شهادات اللَّه الخاصة به، وهو يفهمها أكثر منهم عندما نطق بالكلمات: "أنتم أرسلتم إلي يوحنا فشهد للحق، وأنا لا أقبل شهادة من إنسانٍ" (يو ٥: ٣٣-٣٤).

القديس أغسطينوس

"كان هو السراج الموقد المنير،

وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة". [٣٥]

يقصد بكلمة "**موقد**" أو الملتهب نارًا الغيرة المتقدة في قلبه نحو توبة الناس وخلاصهم. ويُقصد "**بالساعة**" الوقت القصير ما بين ظهوره للخدمة والقائه في السجن.

"**تبتهجوا**" *agalliatheenai* وتعني أن يثبتوا متهللين، أو يفرحوا بفيض بأخبار ظهور المسيا، حيث توقعوا أن يخلصهم من الرومان، لكن ما أن أعلن عن ملكوته الروحي حتى رفضوه ورفضوا السراج الذي أعلن عنه.

عندما كان هيرودس صديقًا ليوحنا كانت القيادات الدينية تتحدث عنه بكل وقارٍ أو على الأقل لا تقاومه، أما وقد ألقي في السجن بواسطة هيرودس فقد صار بلا شك موضع تكريم من الشعب، لكن القيادات لم تبالِ بأمره. وفي نفس الوقت لم تكن قادرة على مهاجمته علنًا، لأنه كان في أعين الشعب كنبي. الآن إذ أدرك الشعب أن يوحنا نبي وهو قد شهد للمسيح يلزم على الشعب أن يقبل المسيح.

يرى **القديس جيروم** أن القديسين هم كالقديس يوحنا المعمدان كالسراج الذي ينير، وأن النور يشير إلى بهجتهم وفرحهم بالخلاص. كما يقول: [كل الكنيسة الشرقية، حتى عندما لا توجد رفات للشهداء عندما يُقرأ الإنجيل توقد الشموع، حتى عندما يجعل الفجر السماء حمراء، لا لكي تبدد الظلمة، بل من أجل الشهادة لفرحنا. لذا فإن العذارى المذكورات في الإنجيل يشعلن على الدوام مصابيحهن. وأخبر التلاميذ أن يكونوا على الدوام ممنطقين أحقائهم وموقدين مصابيحهم. ونقرأ عن يوحنا المعمدان: "**كان هو السراج الموقد المنير**"، حتى أنه النور الحسّي يشير إلى النور الذي نقرأ عنه في المزمور: "كلامك سراج لقدميّ يا رب، ونور لسبلي" (مز ١١٩: ١٠٥)[1].]

❖ هذا السراج قد أُعد بسبب ارتباكهم، فمن أجل هذا قيل في المزامير منذ زمن طويل: "هيأت سراجًا

[1] *Against Vigiliantius, 8.*

لمسيحي" (مز ٩١: ١٧). ماذا يكون السراج بالنسبة للشمس؟[1]

القديس أغسطينوس

❖ "**بنوره ساعة**": هو قول يوضح بسهولة ميلهم وأنهم ولوا عن يوحنا مبتعدين عنه بسرعة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٦. شهادة آياته وأعماله

"وأما أنا، فلي شهادة أعظم من يوحنا،
لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها،
هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها،
هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني". [٣٦]

كثيرًا ما يتحدث السيد المسيح عن شهادة أعماله لشخصه ولرسالته (يو ١٠: ٢٥، ٣٢، ٣٧-٣٨؛ ١٤: ١٠-١١). هنا لا يعني بالأعمال كثرة المعجزات والآيات وتنوعها فحسب وإنما أعمال محبته الفائقة، وسلوكه أثناء عمل المعجزات، وحبه العجيب للبشرية إذ كثيرًا ما نسمع أنه "تحنن عليهم وشفاهم"، هذا بجانب أيضا أحاديثه، والأحداث الفريدة في حياته مثل سماع صوت الآب عند عماده وتجليه، وغلبته لإبليس في التجربة. يشير السيد هنا إلى شفاء المفلوج كشهادة عملية لكي يقبلوا شخصه وتعاليمه فيخلصوا.

كلمة "**العطاء**" هنا لا تفيد أن ينال الابن ما لم يكن لديه، لكنه تحقيق العمل الإلهي الذي هو للآب والابن وتكميله. فالخلاص علي سبيل المثال هو عمل الثالوث القدوس، الأب يرسل ابنه إلى العالم ليقدم نفسه ذبيحة، والروح القدس يهيئ أحشاء القديسة مريم لتحقيق التجسد الإلهي. فلا فصل ولا ارتباك ولا ازدواج بين عمل الآب والابن والروح، إنما العمل الإلهي واحد. ولقد أعلن السيد علي الصليب أنه أكمل العمل (يو ١٩: ٢٨). وكما يقول الرسول بولس: "لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام" (عب ٢: ١٠).

❖ الغرض الذي كان يحرص عليه أولاً هو أن يصدقوا أنه جاء من الله، وهو أقل بكثير من تصديقهم أنه إله معادل لأبيه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 78:2.*

٧. شهادة الآب له

"والآب نفسه الذي أرسلني يشهد (قد شهد) لي لم تسمعوا صوته قط، ولا أبصرتم هيئته". [٣٧]

لقد شهد له الآب نفسه على فم الأنبياء كما ورد في العهد القديم وانتهى بشهادة القديس يوحنا المعمدان. وأخيرًا شهد له الآب بصوته من السماء يوم عماده (مت ٣: ١٧)، وفي تجليه أمام ثلاثة من تلاميذه.

❖ إن سألت: وأين شهد له؟ أجبتك: في الأردن قائلاً: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" (مت ٣: ١٧)...

أوضح أنه ليس في الله صوت وليس له صورة، لكنه هو أعلى من كل الأشكال والنغمات التي هذه صفتها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**لم تسمعوا صوته قط، ولا أبصرتم هيئته**". **[٣٧]** يحدثنا **القديس أغسطينوس** فى هذا الشأن قائلاً: [لا تستسلموا للتفكير بأنكم ترون للَّه وجهًا جسديًا، لئلا بتفكيركم هذا تهيئون أعينكم الجسدية لرؤيته فتبحثون عن وجه... تنبهوا من هو هذا الذي نقول له بإخلاص: "لك قال قلبي... وجهك يا رب أطلب "... لتبحثوا عنه بقلوبكم. يتحدث الكتاب المقدس عن وجه اللَّه وذراعه ويديه وقدميه وكرسيه وموطئ قدميه... لكن لا تحسبوا أنه يقصد بها أعضاء بشرية. فإن أردتم أن تكونوا هيكل اللَّه فلتكسروا تمثال البهتان هذا[1].]

❖ إنه ليس مثلنا يُدرك من جانب دون آخر. فإن مثل هذا تجديف لا يليق بجوهر اللّه الذي يعرف الأمور قبل كونها، قدوس وقدير، يفوق الكل في الصلاح والعظمة والحكمة.

لا يمكننا أن نخبر عن بداية له أو شكل أو مظهر، إذ يقول الكتاب: "**لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته**". وكما قال موسى: "احتفظوا جدًا لأنفسكم فإنكم لم تروا صورة ما "يوم كلمتكم".

فإذ يستحيل تمامًا رؤية شكله، كيف تفكر في الاقتراب من جوهره؟![2]

القديس كيرلس الأورشليمي

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 3.*

[2] مقال ٦: ٧.

٨. شهادة الكتاب المقدس له

"وليست لكم كلمته ثابتة فيكم،

لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به". [٣٨]

وإن كنتم تؤمنون بالكتاب المقدس وما يحويه من نبوات إلاَّ أن قلوبكم غير ثابته في الكلمة. تنطقون بها بألسنتكم، وترفضها قلوبكم، لأنه إذ تحققت النبوات بمجيئي لم تقبلوني. إنكم تقتنون الكتب لكنكم ترفضون خلاصكم. على نقيض داود النبي القائل: "خبأت كلامك في قلبي لئلا أخطئ إليك" (مز ١١٩: ١١).

"فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية،

وهي التي تشهد لي". [٣٩]

كأنه يقول لهم: "لا يكفي أنكم تفتخرون باقتنائكم الكتب، وأنكم تقرأونها، إنما يلزم أن تفتشوا فيها باجتهاد، لتتمتعوا بخلاصكم وحياتكم الأبدية، فإن جميعها تدور حول مجيئي إليكم". يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن العبارة هنا تشير إلى الذين يبحثون عن المعادن النفيسة في بطن الأرض، يحفرون المناجم ويبحثون باهتمام عن المعدن النفيس حتى يجدوه.

استخدم السيد المسيح هذه النبوات في حديثه مع تلميذيه اللذين كانا في طريقهما إلى عمواس يوم قيامته: "ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب" (لو ٢٤: ٢٧).

ويوجهنا القديس بطرس الرسول إلى هذه الشهادة الحية فيقول: "وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت، التي تفعلون حسنًا إن انتبهتم إليها كما إلى سراجٍ منيرٍ في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار، ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم، عالمين هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص، لأنه لم تأتِ نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون، مسوقين من الروح القدس" (٢ بط ١٧: ١-٢١). كما يقول: "الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم، باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم، إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها" (١ بط ١: ١٠-١١).

❖ أرسل المسيح اليهود إلى الكتب ليس للقراءة العادية لها، لكنه أرسلهم ليبحثوها بحثًا بليغًا متصفحًا، لأنه لم يقل اقرأوا الكتب بل قال: "**فتشوا الكتب**"، لهذا يأمرهم أن يتعمقوا فيها، لأن الأقوال التي قيلت عنه تحتاج إلى اهتمامٍ كبيرٍ ليمكنهم أن يجدوا الفوائد الموضوعة في أعماقها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نقول بالصدق أن الفهم اللفظي للنص يكفى كما في حالة موسى الذي أصدر قانون الفصح. يؤكل اللحم الظاهر ولكن يترك ما يختفي داخل العظم (خروج ١٢: ٩). فإذا رغب أحد في النخاع المختفي للنص، لنتركه يبحث عنه عند ذاك الذي يكشف عن الأسرار المختفية لمن هم يستحقون. إلا أننا يجب أن لا نعطى الانطباع على أننا سنترك النص دون اختبار وتمحيص، وسوف لا نهمل أمر اللّه، الذي يحفزنا على أن نفتش الكتب (يو ٥: ٣٩)[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"**ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة**". **[٤٠]**

إنهم يبحثون في الكتب المقدسة في غير إخلاص، فيقدمون دراسات وتفاسير وهم متجاهلون جوهر الكتب، شخص المسيا، إذ لا يريدون أن يلتقوا به ويؤمنوا به ليتمتعوا بالحياة.

"**مجدًا من الناس لست أقبل**". **[٤١]**

لم يطلب منهم هذا عن احتياج إلى تكريم منهم، فإن خلاص الإنسان لا يضيف إلى الله شيئًا، ولا هلاك الإنسان يسيء إلى الله، إنما مسرة الله محب البشر هو بنيان الإنسان ومجده الأبدي.

"**ولكني قد عرفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم**". **[٤٢]**

لقد قاوموا السيد المسيح تحت ستار غيرتهم على الله وعلى مجده وعلى ناموسه، وأنهم يدافعون عن الحق الإلهي، لأن يسوع كاسر للناموس ومجدف، حيث يساوي نفسه بالآب. ها هو يكشف لهم أعماقهم أنهم لا يحملون حبًا صادقًا لله ولا غيرة على اسمه ومجده وناموسه، فإنه لو كان لهم هذا الحب لكانوا عرفوا بالحق من هو يسوع، وأدركوا شخصه وعمله. لم يكن ممكنًا لشخصٍ آخر أن يتجاسر ويعلن ما أعلنه السيد أن محبة الله ليست في قلوبهم.

❖ يقول قائل للمسيح: لِمَ تقول هذه الأقوال؟ يجيب: "أقولها حتى أوبخهم، لأنهم لم يطردوني لأجل حب الله. إذ كان الله يشهد لي بأفعاله وأنبيائه لأنهم على نحو ما ظنوا قبل هذا الوقت أنني ضد لله فطردوني، كذلك الآن منذ أريتهم هذه المعجزات وجب عليهم أن يبادروا إليّ لو أنهم أحبوا الله إلا أنهم لم يحبوه".

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٦.

"أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني.

إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه". [٤٣]

يرى **القديس أمبروسيوس** مع تمايز الأقانيم وجود وحدة في الاسم الإلهي، لهذا يتم العماد **باسم** الآب والابن والروح القدس وليس "بأسماء" (مت ٢٨: ١٩). وقد جاء الابن باسم الآب (٥: ٤٣)، وكما يُدعى الروح القدس بالباراكليت (الشفيع أو المحامي). هكذا أيضًا يُدعى الابن (١ يو ٢: ١). وكما يتحدث السيد المسيح عن نفسه قائلاً: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦)، يُدعى الروح القدس أيضًا "الحق" (١ يو ٥: ٧)[1]. أيضًا يُدعى كل من الآب والابن والروح القدس "النور" (١ يو ١: ٥؛ يو ١: ٨-٩؛ إش ٩: ٢؛ مز ٤: ٦) [2]. وهكذا الأقانيم الثلاثة يدعوا "الحياة"[3].

كان الحاخامات يعتزون جدًا بأن من يقدم نفسه معلمًا يشهد له شخص أو أشخاص لهم مكانتهم الدينية، لهذا كان شاول الطرسوسي يعتز بشهادة معلمه غمالائيل. لقد جاء ربنا يسوع يشهد له الآب، ويتكلم باسمه، ويطلب مجده، أما أضداد المسيح فيأتون بأسماء أنفسهم (مت ٢٤: ٥).

❖ لقد أظهر الالتزام بتعليم وحدة الاسم الإلهي، وعدم وجود اختلاف، حيث أن المسيح جاء في وحدة الاسم، أما ضد المسيح فسيأتي باسمه الخاص به... علمنا بكل وضوح من خلال هذه العبارات (مت ٢٨: ١٩؛ يو ١٤: ٢٦؛ أع ٤: ١٢؛ يو ٥: ٤٣) أنه لا يوجد فارق في الاسم (الإلهي) في الآب والابن والروح القدس[4].

القديس أمبروسيوس

❖ لم يقبل اليهود الرب يسوع المسيح الذي هو أبن الله وهو الله، لكنهم سيقبلون المحتال الذي يدعو نفسه الله[5].

الأب يوحنا الدمشقي

❖ من هو هذا الذي قال عنه أنه يأتي باسم نفسه؟ إنه يذكر هنا بطريقة غامضة أن الذي يأتي هو ضد المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Of the Holy Spirit Book 1:13.*
[2] *Of the Holy Spirit Book 1:14.*
[3] *Of the Holy Spirit Book 1:15.*
[4] *Of the Holy Spirit Book 1:13:155-156.*
[5] *Exposition of the Orthodox Faith. Boo k 4, ch 36.*

❖ قيل عن ضد المسيح وعن كل الذين ينكرون الرب هذا: "**أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلوني. إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه**" [٤٣]. لنسمع أيضًا يوحنا: "سمعتم أن ضد المسيح يأتي، قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون" (١ يو ٢: ١٨). ماذا في ضد المسيح؟ نحن نرتعب منه، إلاَّ أن اسمه يُكرم ويحتقر اسم الرب؟ ماذا يقول سوى: "إني أبرر ذاتي"؟ نجيبه: "أنا أتيت إلى المسيح لا بقدمي بل بقلبي. حيث سمعت الإنجيل هناك آمنت. هناك اعتمدت، فإني إذ آمنت بالمسيح آمنت بالله"[1].

القديس أغسطينوس

"**كيف تقدرون أن تؤمنوا، وأنتم تقبلون مجدًا بعضكم من بعض،**
والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟" **[٤٤]**

أوضح السيد المسيح أن مشكلتهم قائمة في أعماقهم، ففسادهم أعمى أعينهم عن معرفة الحق وقبوله. فالعائق الرئيسي لخلاص الكتبة والفريسيين هو كبرياؤهم. فإنهم يفضلون فقدان خلاصهم وهلاك نفوسهم عن أن تُمس سمعتهم وسط الشعب. يهتمون بما يقوله الناس عنهم، لا بما يشهد به الله عنهم.

❖ أراهم أنهم لم يطلبوا حقوق الله، لكنهم بتظاهرهم هذا أرادوا أن ينتصروا لمرضهم، فابتعدوا عن مجد الله، لأنهم رغبوا المجد الإنساني أكثر من المجد الذي من الله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يلزمكم أن تهتموا بتجنب شباك هوى المجد الباطل. يقول يسوع: "**كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدًا بعضكم من بعض؟**" [٤٤] أي شر هذا الذي ضحيته لا نقدر أن نؤمن! ليتنا بالأحرى نقول: "أنت مجدي" (إر ٩: ٢٤)، وأيضًا "من يفتخر فليفتخر في الرب" (١ كو ١: ٣١)، "إن كنتُ بعد أُرضي الناس فلستُ عبدًا للمسيح" (غلا ١: ١٠). "حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم"[2].

القديس جيروم

"**لا تظنوا إني أشكوكم إلى الآب،**
يوجد الذي يشكوكم،

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 79:6.*
[2] *Letter 22:27.*

وهو موسى الذي عليه رجاؤكم". [٤٥]

اتهموه بكسر السبت، وقد أثبت لهم أن بعمله هذا يقدس السبت لأنه يعمل حسب مسرة الآب. الآن وقد ظهر بطلان اتهامهم، فإنه لم يقم بدوره باتهامهم ككاسري الناموس كله، فإنه ليس بمحتاج إلى ذلك، ولا جاء لهذا الغرض. إنه لم يتجسد ليدين الناس بل ليخلصهم. إنه يترك موسى نفسه الذي يثقون فيه، هو نفسه يتهمهم ويدينهم.

"لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني،

لأنه هو كتب عني". [٤٦]

جاءت أسفار موسى الخمسة مشحونة بالرموز والنبوات التي تشهد لشخص السيد المسيح وميلاده وخدمته وصلبه وقيامته كمخلص للعالم. فمن يصدق موسى يصدق السيد المسيح نفسه، لأن فيه تمت النبوات.

"فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي؟" [٤٧]

إن كانوا لا يفتحون قلوبهم للنبوات ويدركون أعماق الناموس بل يتمسكون بالحرف بطريقة جافة، فكيف يمكنهم أن يتمتعوا بشخص السيد المسيح عصب الكتاب ومركزه؟ لديهم الحقل لكنهم لا يبحثون عن الكنز المخفي فيه. يقول القديس بولس أنه لا يزال البرقع موضوعًا على قلوبهم إلى اليوم حين يُقرأ موسى (٢ كو ٣: ١٥)، فلا يدركون غاية الكلمة الإلهية.

خُتم حديث السيد المسيح بصمت كامل من جهة المقاومين، إذ لم يكن لديهم ما يجيبون عليه. ويبدو أن كل ما قد فعلوه أنهم رفعوا الاتهام عنه في صمت، أما قلوبهم فازدادت تحجرًا، تترقب فرصة أخرى ليمسكوه بها.

من وحي يو ٥

ليس لي إنسان!

❖ نفسي تئن مع مريض بيت حسدا.
دخلتُ معه كما من الأروقة الخمسة.
دخلت خلال كتاب موسى الخمسة،
سقطت تحت الناموس الذي فضح ضعفي.
اكتشفت إني مريض، محتاج إلى طبيب سماوي!

❖ عبَرَ عمري وكأنه ٣٨ عامًا، ينقصني فيه الحب الحقيقي!
ليس لي إنسان يلقيني في مياه الحب الإلهي فأُشفى!
من يهبني الحب الحقيقي للّه وإخوتي؟
من يسندني لأكمل ناموس الحب فأبرأ؟

❖ كثيرًا ما عبرت يا طبيب النفوس!
كأنك قد تركت الكل لتبحث عن ضعفي،
فإني أول الخطاة!
كنت بالحب تردد بلا توقف:
أتريد أن تبرأ؟
لغباوتي لم أسمع صوتك!
أحببت ضجيج العالم، وانشغلت به.
ليس لي أذنان تسمعان صوت الحب السماوي!
صوتك حلو، لكن لثقل أذناي لم استمع إليه!

❖ روحك القدوس العجيب سحب قلبي إليك.
سمعت صوتك الحلو،
وتمتعت بوجهك الأبرع جمالاً من بني البشر!
اعترفت لك بحاجتي لمن يشفيني.

❖ على كلمتك القديرة قمت من فراشي،

وفي طاعة لوصيتك حملت سريري، منطلقًا إلى بيتي!
حملت سرير مرضي،
أراه فأذكر ضعفي وموتي،
بل أذكر قدرتك يا واهب الغفران والحياة.
إني أسير، وأبقى أسير حتى أدخل بيتي.
لن أستريح حتى أبلغ أحضان أبيك، بيتي الأبدي!

❖ حوَّلت حياتي كلها إلى سبتٍ دائمٍ،
تحوّل زماني إلى عيدٍ وراحة فائقة.
عبرت بي إلى عربون الأبدية،
لأتمتع بشركة الطبيعة الإلهية.

الأصحاح السادس

المسيح خبز الحياة

أو

الخبز السماوي

في المرحلة الأولى قدم لنا الإنجيلي يوحنا كلمة المسيح بكونه واهب التجديد، وفي المرحلة الثانية واهب الحياة. الآن يقدم لنا الإنجيلي شخص السيد المسيح بكونه الخبز السماوي الذي يقوت النفس ويشبعها لتبقى حية ونامية. إنه الكلمة المتجسد، بكلمته يقيمنا للحياة الجديدة، وبجسده الذي هو الخبز السماوي ينعشنا لنثبت فيه.

في هذا الأصحاح نرى السيد المسيح يشبع الجموع بسمكتين وخمسة أرغفة شعير قدمها غلام.

أولاً: رفع يسوع عينه ليرى الجموع الجائعة. لم ينتظر من يطلب طعامًا أو من يشبع الجموع، إنما يتطلع هو إلى احتياجات الناس.

ثانيًا: وهو يقدم طعامًا للشعب يقبل تقدمة غلام صغير. كما يعطي يأخذ، علامة الحب المتبادل بين الله والبشرية. كما رفع من معنوية الغلام وهو يرى تقدمته الصغيرة أشبعت كل الجماهير وفاضت باثنتي عشرة قفة من الكسر.

ثالثًا: يكرم الله كل إنسان ويطلب التقدمة من غلام أو صبي أو طفل، مهما كانت قليلة! علامة شعور الإنسان بدوره الحيوي ومساهمته في خدمة البشرية.

رابعًا: ترمز السمكتان إلى العهدين الجديد والقديم، والخمس خبزات إلى أسفار موسى الخمسة. شتان ما بين استلام الكلمة من يد السيد المسيح وبين القراءة خلال التفسير البشري. كلمة الله مُشبعة وفياضة متى قدمها لنا مسيحنا خلال كنيسته (تلاميذه).

خامسًا: سأل الرجال أن يتكئوا على العشب الذي يشير إلى الجسم، فلا نجعل من الجسم قائدًا، بل من النفس الناضجة. فيخضع لها الجسم ليعمل تحت قيادتها ولحسابها وليس لحساب شهوات الجسد.

سادسًا: عادت الجموع تبحث عنه في الغد، لا للتمتع بصانع الآيات، وإنما لأنها أكلت وشبعت [٢٦]، لذا قدم لهم السيد المسيح مائدة جديدة مختلفة: جسده ودمه المبذولين طعامًا يهب الحياة

الأبدية والقيامة.

الذي سار على المياه لكي يحملنا فيه فنسلك الطريق الملوكي يقدم لنا ذاته الخبر النازل من السماء ويهب حياة للعالم [٣٣]. تحدث السيد بوضوح أنه الخبز الإلهي المنعش للحياة الأبدية. تعثر كثيرون من تلاميذه وتركوه، أما هو فقال للإثني عشر:" ألعلكم أنتم أيضًا تريدون أن تمضوا؟" [١٧] أصر أنه يقدم جسده ودمه، وليس رمزين لأمر آخر، وإلا ما كان يترك هؤلاء يرجعون من ورائه.

لم يستطِع اليهود أن يقبلوا الكلمة الإلهي، ولا أن يتمتعوا بجسده ويشربوا دمه لذا تركوه ومضوا.

١. إشباع الجموع	**١-١٤.**
٢. سير المسيح على الماء	**١٥-٢١.**
٣. الجموع تطلبه في كفرناحوم	**٢٢-٢٥.**
٤. أنا هو الخبز الحي	**٢٦-٥٩.**
٥. تذمر البعض	**٦٠-٦٥.**
٦. إلى من نذهب؟	**٦٦-٧١.**

١. إشباع الجموع

اعتاد الإنجيلي يوحنا أن يشير إلى المعجزات التي لم يشر إليها أحد الإنجيليين الثلاثة الآخرين، ما عدا هذه المعجزة، فقد تحدث عنها الإنجيليون جميعًا. ففي كل الجوانب متى قُدم السيد المسيح كملك (إنجيل متى) أو خادم للبشرية (إنجيل مرقس) أو صديق لها (إنجيل لوقا) أو ابن الله الذي يهب البنوة للبشرية (إنجيل يوحنا) ما يبغيه الإنجيل هو إشباع احتياجات الإنسان من كل الجوانب.

هذا وقد اهتم الإنجيلي بهذه المعجزة لكي يورد الحديث الطويل الملحق بها والخاص بتقديم المسيح نفسه خبزًا نازلاً من السماء، فنشبع به بكونه الكلمة الإلهي، كما يقدم لنا جسده ودمه المبذولين عنا غفرانًا للخطايا وحياة أبدية.

"**بعد هذا مضى يسوع إلى عبر بحر الجليل،**

وهو بحر طبرية". **[١]**

حدد الإنجيلي المكان والزمان لعمل المعجزة وكل الظروف المحيطة بها كشهادة على حقيقة القصة لما لها من أهمية تمس حياة الكنيسة عبر الأجيال.

مضى يسوع إلى عبر بحر الجليل وهي بحيرة طبرية، تُدعى في موضع آخر جنيسارت. وتُدعى هنا بحر طبرية *Tiberias* نسبة إلى مدينة تقع على الجانب الغربي من البحيرة قام هيرودس مؤخرًا

بتوسيعها وتجميلها، ودعها على اسم الإمبراطور طبريوس *Tiberius* تكريمًا له، ويحتمل إنه جعلها عاصمته. لم يعبر السيد البحر وإنما جعل رحلته عبر البحر، أي على ساحلها.

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن السيد المسيح انصرف من أورشليم، وعبر إلى الضفة الأخرى من بحيرة طبرية تحاشيًا لبغضة عديمي الإيمان له، وأنه فعل ذلك اختياريًا وليس قسرًا. إنه يعلمنا الهروب من هجمات الشر، ليس خوفًا من الموت، وإنما حبًا في مضايقينا.

❖ لسنا نسعى من أجل خيرنا بل من أجل خير الآخرين أيضًا. عمل المحبة ليس في تصدي الذين يريدون الشر بنا، ولا في الاكتفاء بما نعاني ما يحل بنا، فنثير فيهم الغضب المرير بسبب عجزهم عن السيطرة على ما يكرهونه. فالمحبة لا تطلب ما لنفسها كما يقول بولس (١ كو ١٣: ٥). هذا ما كان في المسيح بشكل واضح.

القديس كيرلس الكبير

❖ ليتنا أيها الأحباء لا نتنافس مع العنفاء، بل نتعلم انه حينما يفعلون هذا لا يسيئون إلي فضيلتنا بسبب مشوراتهم الشريرة، وإنما يُكبح عملهم العنيف وكما أن السهام إن سقطت علي جسم ثابت قوي ومقاوم ترتد بقوةٍ عظيمة علي من ألقوها، فلا يجد عنف الذين ألقوها من يعارضهم، هكذا أيضا بالنسبة للمتغطرسين، عندما نصارع معهم يزدادون شراسة، ولكن حين نخضع وننحني أرضًا بسهولة نبطل جنونهم. لذلك عندما عرف الرب أن الكتبة والفريسيين قد سمعوا أن يسوع صار يعمد تلاميذ اكثر من يوحنا ذهب إلي الجليل ليطفئ من حسدهم ويهدئ بانسحابه غضبهم الذي هاج بالتقارير التي وصلتهم. وعندما رحل للمرة الثانية إلي الجليل لم يذهب إلى ذات المواضع التي ذهب إليها قبلاً، إذ لم يذهب إلي قانا بل إلى "**عبر البحر**"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

هذا ويرى **القديس كيرلس الكبير** أن العبور إلى الضفة الأخرى يحمل رمزًا لعبور الكرازة بالسيد المسيح من اليهود إلى الأمم، فلا يمكنهم العبور إليه بسبب عدم إيمانهم به.

❖ معبر البحر الذي يفصل بين الجانبين يشير إلى صعوبة عبور اليهود، بل بالأحرى استحالة سيرهم في الطريق المؤدية إليه، إذ يعلن الله أنه يسيّج طرق النفس الشريرة، قائلاً في الأنبياء: "هأنذا أسيّج طريقها بالشوك... حتى لا تجد مسلكها" (هو ٢: ٦). فما يُشير إليه الشوك هناك

[1] *Homilies on St. John, Hom. 42:1.*

يشير إليه البحر هنا، إذ يفصل المُهان عن الذين أهانوه بلا هوادة، والمقدس عن النجس.

القديس كيرلس الكبير

"**وتبعه جمع كثير،**

لأنهم أبصروا آياته التي كان يصنعها في المرضى". **[٢]**

لم يذكر القديس يوحنا معجزات الشفاء هذه، فقد أوردها الإنجيلي متى في شيء من التفصيل (مت ١٢: ٢؛ ١٤: ١٣). التفت الجماهير حوله، وكانوا يشتاقون إلى التعرف عليه من أجل كثرة ما فعله. أما بالنسبة للسيد المسيح فلم يكن هذا الجمهور يمثل تكريمًا له، وإنما يمثل حق عمل لتقديم كلمة الحق ولخدمتهم حتى يتمتعوا بالشركة معه.

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** علي هذه العبارة موضحًا أن ما ورد هنا لا يشير إلى أصحاب عقول حكيمة جدًا، لأنهم انجذبوا بالمعجزات أكثر من التعليم، مع أن الآيات هي لغير المؤمنين وليس للمؤمنين.

"**فصعد يسوع إلى جبل،**

وجلس هناك مع تلاميذه". **[٣]**

أما المنبر الذي كان من عليه يتحدث مع الجمهور فهو الجبل حيث جلس عليه ومعه تلاميذه. هذا الجبل في برية صيدا في مقاطعة فيلبس التابعة للجليل.

❖ صعد إلى الجبل لكي يعلمنا دومًا أن نستريح من فترة إلى أخرى بعيدًا عن الضجيج وارتباك الحياة العامة، فإن الوحدة أمر لائق لدراسة الحكمة. كثيرًا ما كان يصعد وحده علي جبل، ويقضي الليل هناك يصلي حتى يعلمنا أن من يرغب في الاقتراب من الله يلزمه أن يتحرر من كل اضطراب ويبحث عن أوقات هادئة خالية من الارتباك[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لنتبعه وهو مُضطهد وهارب من عناء مقاوميه، حتى أننا نحن أيضًا "**تصعد إلى جبل ونجلس معه**". فنرتفع إلى نعمة مجيدة، أسمى من كل شيءٍ، ونملك معه. وكما قال بنفسه: "أنتم الذين تبعتموني في تجاربي متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده في التجديد، تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (مت ١٩: ٢٨؛ لو ٢٢: ٢٨).

[1] *Homilies on St. John, Hom. 42:2.*

القديس كيرلس الكبير

"وكان الفصح عيد اليهود قريبًا". [٤]

يربط الإنجيلي يوحنا بين هذه المعجزة وعيد الفصح، بقوله: "**وكان الفصح عيد اليهود قريبا**" [٤]. فإن الفصح الحقيقي هو تقديم جسد المسيح ذبيحة علي الصليب، وهو بعينه الإفخارستيا التي نتمتع بها علي المذبح. وأن هذه المعجزة كانت تمهيدًا لقبول العالم المؤمن جسد الرب ودمه المبذولين للإشباع الروحي، حياة أبدية لن يهزمها الزمن أو الموت.

حدث هذا قبل العيد الثالث للفصح الذي احتفل به السيد أثناء خدمته؛ كان قرابة عشرة أو اثني عشر يومًا قبل العيد. وقد اعتاد اليهود أن يقضوا شهرًا كاملاً قبل الفصح لعمل الإعدادات الضخمة الخاصة به، فيمهدون الطرق ويصلحون الكباري إن كانت هناك حاجة إلى ذلك، ويتحدثون عن الفصح وكيف تأسس.

لعل الجمهور في تلك المنطقة أدركوا أنه قد اقترب موعد عيد الفصح حيث يلتزم كل الرجال أن يذهبوا إلى أورشليم، وبالتالي حتمًا يصعد يسوع المسيح إلى أورشليم، فلا تكون لهم فرصة للقاء معه وسط الازدحام الضخم والجماهير القادمة من بلاد كثيرة. لهذا أرادوا انتهاز الفرصة للالتفاف حوله وعدم مفارقتهم له قدر المستطاع. لم يؤجلوا اللقاء معه إلى ما بعد العيد، بل كانوا حكماء، ينتهزون كل فرصة للتمتع به.

❖ إن قلت: ما غرض المسيح في توجهه الآن إلى الجبل وجلوسه هناك مع تلاميذه؟ أجبتك: بسبب المعجزة التي أزمع أن يجريها... ولكي يعلمنا أن نستريح من الانزعاج الذي حولنا، لأن الهدوء والقفر موافقان للحكمة، وقد توجه المسيح إلى الجبل دفعات كثيرة وحده، وظل ليلة بطولها يصلي.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فرفع يسوع عينيه،

ونظر أن جمعًا كثيرًا مقبل إليه،

فقال لفيلبس: من أين نبتاع خبزًا ليأكل هؤلاء؟" [٥]

رفع يسوع عينيه ورأى الجمهور الضخم من الطبقة العامة الفقيرة، نفوسهم في عينيه ثمينة جدًا كنفوس الأغنياء بلا تمييز. يهتم السيد باحتياجاتهم الروحية كما الجسدية أيضًا لذلك سأل فيلبس: "**من أين نبتاع خبزًا ليأكل هؤلاء؟**" فقد كان يهوذا هو أمين الصندوق، وكان فليبس هو المسئول عن تدبير الطعام اليومي للتلاميذ.

❖ هذا يظهر أنه لم يجلس قط في أي وقت في خمول مع تلاميذه، وإنما يدخل معهم في حوار، ويجعلهم ينصتون إليه ويتجهون نحوه، الأمر الذي يشير علي وجه الخصوص إلي عنايته الحانية وتواضعه وتنازله في سلوكه معهم. لقد جلسوا معه وربما كل ينظر الواحد إلي الآخر، وإذ رفع عينيه شاهد الجماهير قادمة إليه[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ رفع المسيح عينيه ليعلن أن الذين يحبونه يتأهلون للنظرة الإلهية. وكما قيل لإسرائيل في البركة: "يرفع الرب وجهه عليك، ويمنحك سلامًا" (عد ٦: ٢٦).

القديس كيرلس الكبير

❖ أعطى يسوع للبعض خبزًا من الشعير لئلا يخوروا في الطريق، ومنح سرّ جسده للآخرين (مت ٢٦: ٢٦) لكي يجاهدوا من أجل الملكوت[2].

القديس أمبروسيوس

يقارن **القديس يوحنا الذهبي الفم** بين ما فعله الله مع موسى النبي وما فعله السيد المسيح مع فيلبس. ففي القديم سأل الله موسى عما في يده، وإذا به يخبره أنها عصا، لا حول لها ولا قوة، فتصير عصا لله التي يصنع بها عجائب. وها هنا يسأل السيد المسيح فيلبس عن إمكانياته وهو والتلاميذ لإشباع الجموع، فكادت تكون لا شيء سوي خمسة أرغفة شعير وسمكتان لدي غلام، استخدمها السيد لإشباع هذه الألوف مع فيض من الكسر.

من أجل محبته للإنسان يود الله أن يدخل دومًا في حوار معه، ويسأله عن إمكانياته، لكي يقدم الله من جانبه إمكانياته الإلهية القديرة خلال عجزنا وضعف إمكانياتنا.

"وإنما قال هذا ليمتحنه،
لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل". [٦]

قال السيد المسيح ذلك لكي يختبر إيمانه، ولكي يجتذب قلبه وقلوب اخوته نحو عمله الإلهي. هذا وقد كان فيلبس من بيت صيدا في منطقة مجاورة للموضع، على إلمام بإمكانيات الموضع وربما يعرف الكثيرين في ذلك الموضع.

سأل فيلبس ليس لأن السيد المسيح لا يعرف الإجابة، وإنما لكي يتعرف فيلبس على بلادة إيمانه.

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 42:2.*
[2] *Concerning widows, 13: 79.*

"**أجابه فيلبس:**

لا يكفيهم خبز بمأتي دينار

ليأخذ كل واحدٍ منهم شيئًا يسيرًا". **[٧]**

كان الدينار هو الأجرة اليومية العادية للشخص.

كأن الرسول فيلبس يقول للسيد المسيح أنه لا مجال لمناقشة هذا الأمر، فمن جهة لا توجد إمكانيات في الموضع لإشباع هذه الجماهير، وإن وُجدت الإمكانيات العينية فمن أين لنا أن نشتري هذا فإننا نحتاج إلى ٢٠٠ دينارًا؟

"**قال له واحد من تلاميذه**

وهو أندراوس أخو سمعان بطرس". **[٨]**

مع أن أندراوس أكبر من سمعان بطرس، وهو الذي دعا أخاه ليتبع المسيح، لكن سرعان ما لمع نجم بطرس حتى صار أندراوس يُعرف بأنه أخ بطرس، أي يُنسب إليه لكي يعرفه القارئ.

❖ كان أندراوس أسمى من فيلبس لكنه لم يبلغ إلى النهاية. ما نطق به ليس مصادفة بل سمع عن معجزات الأنبياء وكيف صنع أليشع آية بالخبزات (٢ مل ٤٣: ٤)، ولهذا فقد ارتفع إلى علو معين، لكنه لم يبلغ إلى القمة ذاتها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان،**

ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟" **[٩]**

عرفت كنعان بأنها أرض الحنطة (تث ٨: ٨). اعتاد سكانها أن يأكلوا الحنطة الفاخرة (مز ٦١: ١٦)، لكن يسوع المسيح سرّ بالخبزات التي من الشعير، فلم يحتقرها بل شكر ووزع خلال تلاميذه ليجد الكل شبعًا.

في ضعف إيمان قال فيلبس: "**ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟**" [٩]. لم يدرك أن يسوع هو الذي أشبع محلة إسرائيل كلها في البرية بالمن النازل من السماء، فهل يصعب عليه أن يشبع ألف عائلة بخبزة شعير؟

يرى **القديس أغسطينوس** أن الأرغفة الخمسة من الشعير تشير إلى العهد القديم الذي يضم أسفار

[1] *Hom 42. PG 59:250.*

موسى الخمسة. وهي من الشعير، لأن قشرة الشعير جامدة ويصعب نزعها، كالعهد القديم حين كان اليهود يمارسونه بالحرف، ويستصعبون إدراكه بالروح. أما الغلام فيشير إلى شعب إسرائيل القديم الذي سلك في الروحيات كغلام صغير بلا نضوج، وأما السمكتان فتشيران إلى الشخصيتان الرئيسيتان في العهد القديم، وهما النبي والملك أو الحاكم. كان الغلام يحمل هذا دون أن يأكل منه.

لقد قُدمت الخبزات والسمكتان لذاك الذي وحده يعطي العهد القديم فهما روحيًا جديدًا. [بعد طول زمانٍ جاء بنفسه في سرّ، هذا الذي عُني به خلال هؤلاء الأشخاص. جاء بعد زمن طويل ذاك الذي يشار إليه بالشعير، ولكنه كان مخفيًا بالقشرة. جاء الشخص الواحد يحمل الشخصيتين للكاهن والحاكم. إنه الكاهن إذ يقدم نفسه للّه ذبيحة من أجلنا، وهو الحاكم إذ يملك علينا. هذه الأمور التي كانت مغطّاة الآن تُكشف. شكرًا له، فقد حقق بنفسه ما ورد في العهد القديم. أمر بكسر الخبزات، وبكسرها تضاعفت وكثرت. ليس حق أفضل من هذا، أنه إذ تُفسر أسفار موسى الخمسة كم من الأسفار تُكسر وكأنها قد صارت مفتوحة ومحمولة؟[1]]

هكذا يشير الغلام إلى الشعب اليهودي الذي كان كطفلٍ في معرفته وفهمه للناموس. كانوا يتمسكون بالحرف دون إدراك للروح. وكانت الخبزات الخمس تشير إلى كتب موسى التي متى وضعت في يدي المسيح تفيض علينا بالفهم الروحي المشبع للنفس، وتقوت قلوبنا بخبز الحياة. أما السمكتان فتشيران إلى المزامير والأنبياء. بالمزامير يعلن المؤمنون شكرهم وتسابيحهم لعمل الله الخلاصي، وخلال الأنبياء يتعرفون على سرّ المسيح مشبع كنيسته بحضرته، واتحادها معه، وثبوتها فيه وهو فيها. وقد تم ذلك بعد عبور بحر طبرية، أي يتحقق خلال مياه المعمودية.

جاءت الكلمة اليونانية للسمكتين وهو الاسم المستخدم حاليًا في مصر باللغة الدارجة"بساريا" يترجمها البعض سمكتين صغيرتين. ويري كثير من الدارسين أن السمكتين كانتا مملحتين، ولا يزال الأقباط يأكلون سمكًا مملحًا في يوم شم النسيم، في اليوم التالي لعيد القيامة المجيد.

❖ الخمسة أرغفة تعني أسفار موسى الخمسة التي للناموس. فالناموس القديم هو من الشعير متى قورن بحنطة الإنجيل. في هذه الأسفار توجد أسرار عظيمة عن المسيح. لذلك قال بنفسه: "لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني" (يو ٥: ٤٦).

ولكن كما أنه في الشعير يختفي لُبه في قشرته (القش) هكذا في حجاب إسرار الناموس يختفي المسيح.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 24:5.*

وكما أن هذه الأسرار تصير في تقدم وتُكشف، هكذا هذه الخبزات تتزايد عندما تُكسر. في هذا الذي أشرحه لكم أكسر لكم خبزًا.

الخمسة آلاف رجلاً يشيرون إلى الشعب الخاضع لأسفار الناموس الخمسة. الإثنا عشر قفة هم الاثنا عشر تلميذًا الذين هم أنفسهم امتلأوا بكسر الناموس. السمكتان هما وصيتا حب الله وقريبنا، أو هما الشعبان: أهل الختان والغرلة، أو الشخصيتان للملك والكاهن. إذ تُشرح هذه الأمور، تُكسر، عندما يفهمها الآكلون[1].

القديس أغسطينوس

❖ يشير بالأرغفة الخمسة إلى كتاب الحكيم جدًا موسى ذي الأسفار الخمسة، أعني الناموس كله الذي كان بمثابة الطعام الأغلظ، أي بالحرف والتاريخ، لأن هذا ما يلمح إليه لفظ "شعير".

لكنه يشير بالسمكتين إلى ذلك الطعام الضئيل الذي حصلنا عليه بواسطة الصيادين، إشارة إلى الكتب الشهية جدًا التي لتلاميذ المخلص. وهما اثنتان، إشارة إلى الكرازة الرسولية الإنجيلية التي أشرقت في وسطنا. وكلاهما مخطوطات الصيادين وكتاباتهم الروحية. هكذا يخلط المخلص الجديد بالقديم، والناموس بتعاليم العهد الجديد، فيقود نفوس المؤمنين به إلى الحياة التي هي بلا شك أبدية.

القديس كيرلس الكبير

إذ يشير **القديس كيرلس الكبير إلى عدم الإيمان** فيلبس يحذرنا من **عدم الإيمان** الذي بسببه حُرم موسى وهرون من أن يقودا الشعب إلى الأرض الموعد حين تشككا في إمكانية صدور ماءٍ من الصخرة. يقول: [من ينجو بسبب عدم إيمانه من غضب الله، هذا الذي لا يحابي أحدًا، إذ لم يشفق حتى على موسى الذي قال له: "عرفتك أكثر من الجميع، ووجدت نعمة في عيني" (خر ٣٣: ١٢ *LXX*).]

❖ تحول عدم إيمانهم إلى شهادة حسنة للمسيح. لأنهم باعترافهم أن مبلغا كبيرًا كهذا المال لن يكفي الجموع ولو لشراء زادٍ طفيف، بهذا ذاته يكللون قدرة رب الجنود التي لا يُنطق بها، هذا الذي عندما لم يتوفر شيء... تمم عمل محبته نحو الجموع بغنى فائق.

القديس كيرلس الكبير

ربما يتساءل البعض: ألم يكن ممكنًا للسيد المسيح أن يشبع الجموع دون استخدام السمكتين

[1] *Sermons on N.T. Lessons, 80:1.*

والخمس خبزات؟

يرى كثير من الآباء أن السيد استخدم هذه الأمور لكي لا يظن أحدا أن الخليقة المادية نجاسة، وأنها غير صالحة، كما ادعى الغنوصيون خاصة في القرن الثاني الميلادي. إنه يقدس ما خلقه سواء القمح أو الشعير أو السمك أو الكروم... ويستخدم هذه الأمور في صنع عجائبه بمباركته إياها.

❖ اعتقد (أندراوس) أن صانع العجائب يقدم القليل من القليل، والكثير مما هو كثير. لكن الأمر على خلاف ذلك، فإنه يسهل على السيد في الحالتين أن يجعل الخبز يفيض سواء من الكثير أو من القليل، إذ لا يحتاج إلي مادة (ليفيض منه الخبز).

ولكن لئلا يظن أن الخليقة غريبة عن حكمته كما ادعى بعد ذلك المفترون الذين تأثروا بمرض مرقيون (الذي يظن أن المادة دنس والخليقة المادية نجسة لا تليق بالله)، لهذا استخدم السيد الخليقة نفسها (الخبز والسمك) كأساس لعمل عجائبه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس جيروم** أن السيد المسيح قدم للجماهير تارة خبزًا من الحنطة وأخرى من الشعير (مت ١٤:١٥-٢١؛ ١٥: ٣٢-٣٨). كل من الحنطة والشعير خليقة اللَّه، بها تشبع الجماهير. وإذ كان الشعير في ذلك الحين طعام الحيوانات، لذا جاء في المزمور: "أنت يا رب تخلص الإنسان والحيوان" (مز ٣٦: ٧). فهو يُشبع الروحيين، وأيضًا الذين تحت ضعف الجسد. ويبرر بهذا **القديس جيروم** حديثه عن البتولية أنها كالذهب، والزواج كالفضة، وكلاهما معدنان لهما قيمتهما[2].

"**فقال يسوع:**

اجعلوا الناس يتكئون،

وكان في المكان عشب كثير،

فاتكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف". **[١٠]**

طلب السيد المسيح من تلاميذه أن يتكئوا الناس على العشب ليستعدوا للطعام قبل أن يقدم لهم الطعام، أو يروي لهم ما سيفعله. لقد طلب الطاعة المرتبطة بالإيمان ليقفوا ويروا خلاص الله العجيب.

يشير العشب الكثير إلى الجسد (إش ٥٠: ٦)، أو الشهوات الجسدية. فإنه لا يستطيع أحد أن

[1] *Homilies on St. John, Hom. 42:2.*
[2] *Cf. Letter 47:14.*

يشبع بالقوت الروحي ما لم يُخضع شهواته الجسدية تحته، أو يطأها بقدميه. إذ اتكأ الرجال الخمسمائة على العشب تمتعوا بالطعام الروحي المقدم لهم من السيد المسيح نفسه خلال تلاميذه.

كان من عادة اليهود أن يحصوا الرجال وحدهم من سن العشرين فما فوق دون النساء والأطفال أو الصبيان.

رقم ٥ يشير إلى حواس المؤمنين الخمس وقد سمت لتصير سماوية حيث رقم ١٠٠٠ يشير في الكتاب المقدس إلى الحياة السماوية. لذلك اتكأ الرجال وكان عددهم خمسة آلاف، إذ لم يكن ممكنًا للمؤمنين أن يتمتعوا بالشبع الروحي وفهم الناموس روحيًا ما لم يحملوا سمات النضوج الروحي (رجالاً)، وتتقدس حواسهم الخمس لتحمل سمات سماوية. لذلك فالمؤمن رمزه ٥٠٠٠ (خمس حواس × حياة سماوية "١٠٠٠" = ٥٠٠٠). أما جلوسهم على الشعب فيحمل رمز خضوع الجسد للنفس المقدسة للرب. فمن يطأ الزمنيات، ولا يرتبك بها، تنفتح طاقات السماء لتقدس كل حواسه وطاقاته وكيانه الداخلي، وتشبعها بالحكمة كما من مائدة إلهية غنية.

❖ تجاوز تمامًا عن الإناث والأطفال وأحصى الجموع من البالغين، لأنه مكرَّم في كتاب الله كل من هو رجل يافع، وليس من هو طفولي في طلب الصالحات... الذين يسلكون كرجال في الصلاح يُعطون الطعام بواسطة المخلص على وجه الخصوص، وليس للذين هم مخنثين ولا يمارسون الصلاح في حياتهم، ولا للذين هم أطفال في الفهم، العاجزين عن إدراك أي أمر ضروري معرفته.

القديس كيرلس الكبير

❖ بهذا القول أنهض المسيح تمييز تلاميذه وأطاعوه في الحال، ولم يضطربوا، ولا قالوا ما هو هذا، كيف يأمرنا أن نتكئ الجموع ولم يظهر شيئًا في الوسط؟ بهذا ابتدأوا بالإيمان قبل نظرهم إلى المعجزة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ،
والتلاميذ أعطوا المتكئين،
وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا". [١١]

يعلمنا السيد أن نقدم الشكر لله على كل بركاته الروحية والجسدية، فإن ما لدينا هو عطية مجانية من عنده. وكما يقول الرسول بولس: "لأن كل خليقة الله جيدة، ولا يُرفض شيء إذ أُخذ مع الشكر، لأنه يقدس بكلمة الله والصلاة" (١ تي ٤: ٤-٥).

إن كانت الجماهير قد قبلت الخبز من أيدي التلاميذ إلاَّ أن العطية في حقيقتها هي من يدي السيد المسيح نفسه. هكذا يليق بالمؤمن أن يدرك أن كل ما يناله هو من الرب نفسه، وإن جاءت بوسيلة أو أخرى.

❖ صلى لأن الحاضرين كانوا جمعًا عظيمًا ووجب أن يتحقق عندهم أنه جاء إليهم برأي الله، وحتى يصيرهم موقنين أنه ليس ضد الله ولا معاندًا لأبيه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

قبل أن يوزع السيد المسيح الخبز والسمكتان على تلاميذه شكر حتى يعلن فرحه بكل عطية سماوية يقدمها للبشر كي يشبعوا ويغتنوا، أيضًا لكي يدربنا على حياة الشكر.

عهد السيد المسيح بالطعام للتلاميذ، والتلاميذ قدموه للمتكئين، أي الجمهور. إنه بيديه يقدم لنا الفهم الروحي للناموس والمزامير والأنبياء، ولكن خلال تلاميذه ورسله أو الكنيسة المقدسة.

"**فلما شبعوا قال لتلاميذه:**

اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء". [١٢]

يلتزم المؤمن بجمع الكسر، فلا يبدد الموارد، لأنها عطية إلهية ووزنة يلزمنا أن نكون أمناء فيها مهما بدت تافهة، ولو كانت كسرة خبز من الشعير. كان اليهود يتطلعون إلى الخبز بكونه الطعام الرئيسي يمثل بركة من الرب، لذا يحرصون ألا يسقط فتات خبز على الأرض ولا يطأ أحد بقدميه على فتات الخبز. إلى الآن في صعيد مصر يحمل الناس هذا الاتجاه فيحسبون من يطأ بقدميه على فتات خبز كمن يسئ إلى بركة الرب وعطاياه. جاء في أمثال اليهود: "من يحتقر خبزًا يسقط في أعماق الفقر".

إن كان الرب يهتم بكسر الخبز الذي من الشعير، فكم بالأولى لنا أن نحرص على ألا نفقد كلمة الرب أو نفسد وقتنا؟

وضع اليهود لأنفسهم قانونًا أن يتركوا كسرة خبز بعد الطعام إشارة إلى أن البركة قائمة في البيت. أما الأشرار فلا يبقون شيئًا على المائدة إشارة إلى نزع البركة عنهم "ليست من أكله بقية، لأجل ذلك لا يدوم خيره" (أي ٢٠: ٢١).

إن كسرت الخمس خبزات لن تملأ اثنتي عشرة قفة، فكيف ما تبقي منها يملأها؟ لم يكن ممكنًا لكائنٍ ما أن يدرك كيف يجمعون كسرًا من الخمس خبزات التي قُسمت على هذه الآلاف من البشر بعد أن شبعوا. هكذا إذ يقدم لنا السيد المسيح طعامًا روحيًا يشبع أعماقنا وتفيض يشبع آخرون من

الكسر المتبقية والتي تفوق أحيانا ما قد نلناه.

جاء هذا الأمر الإلهي الخاص بجمع الفضلات يكشف عن أهمية الإيمان بإله المستحيلات الذي يهب بسخاء، فيشبع النفوس لتفيض بالخيرات والفرح، علي خلاف الانحباس في الأرقام والحسابات البشرية مع عدم الإيمان والتي تسبب جفافًا وحرمانًا داخليًا.

يدعونا السيد لكي نتقبل من يديه حياة أفضل وشبعًا يفيض، فنترنم قائلين: "تعرفني سبل الحياة، أمامك شبع سرور، وفي يمينك نعم إلى الأبد" (مز ١٦: ١١).

❖ بجمع الكِسَرْ يتأكد الإيمان بأنه كانت هناك وفرة من الطعام حقًا، ولم يكن الأمر فيه خداع لنظر المشتركين في الوليمة.

❖ لا يخيب الله من يستعد للتوزيع؛ ويتهلل بمسلك المحبة الأخوية... إذ ننفق قليلاً لأجل مجد الله ننال نعمة أوفر، كقول المسيح: "كيلاً جيدًا ملبدًا مهزوزًا فائضًا يعطون في أحضانكم" (لو ٦: ٣٨)... يقول الله: "افتح أحشاءك بسعة لأخيك المحتاج الذي معك" (انظر تث ٥: ١١).

القديس كيرلس الكبير

يرى **القديس كيرلس الإسكندري** أن السيد المسيح سمح بامتلاء اثنتي عشرة سلة، لكل تلميذ سلة. وكأن من يتعب في تقديم كلمة الله، الطعام الروحي، للشعب فسينال بسخاء ملء النعمة الإلهية.

❖ كان يرغب أنه يعلم تلاميذه الذين كانوا معدين ليكونوا معلمين للعالم. ربما لم تحصد الجموع أية ثمار من المعجزة (إذ للحال نسوا المعجزة وسألوا معجزة أخرى) بينما هؤلاء التلاميذ اقتنوا نفعًا ليس عامًا... إني مندهش من دقة الفائض. الكسر الباقية تحمل النقاط التالية:

أن ما حدث لم يكن تخيلاً، وأنها كسر من الخبزات التي اقتاتت بها الجموع.

أما بالنسبة للسمك فقد جاء عن مادة كانت موجودة فعلاً (أي كان السمك لدى الغلام) ولكن في فترة لاحقة، بعد القيامة وُجد سمك ليس من مادة موجودة (حيث وجدوا سمكًا مشويًا قبل إخراج السمك من الشبكة يو ٢١: ٩)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر،
من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين". [١٣]

[1] *Hom 42. PG 59:251-252.*

يشير جمع الكسر التي تملأ ١٢ سلة إلى الالتزام بالشهادة للثالوث القدوس في كل العالم، أي في المشارق والمغارب والشمال والجنوب (٣×٤=١٢). لذلك كان عدد أسباط بني إسرائيل ١٢ وعدد التلاميذ ١٢. وجاءت الكسر ١٢ قفة. **وكأنه يليق بالشعب الذي يتمتع بالطعام الروحي من يد الآب خلال كنيسته أن يقدم فضلاته التي تشبع المسكونة كلها لتجذب غير المؤمنين إلى ملكوت الله.**

"**فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع،**
قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم". **[١٤]**

واضح من هذا أنه حتى عامة الشعب كانوا يترقبون مجيء المسيا إلى العالم. لقد احتقر الفريسيون عامة الشعب، ناظرين إليهم أنهم بلا معرفة، ولم يدركوا أن العامة ببساطتهم عرفوا ما لم يستطع الفريسيون بعلمهم ومعرفتهم أن يبلغوا إليه. لقد أدرك العامة أنه قد جاء النبي الذي وعد به الله شعبه خلال موسى النبي (تث ١٨: ١٥). اقترب العامة من ملكوت السماوات.

يقارن **القديس كيرلس الكبير** بين رد فعل اليهود إذ أرادوا رحمة عندما شفى مرضى، أما هنا الذين هم خارج اليهودية، فقد قالوا: "**بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم**". أولئك رأوا معجزات كثيرة لكنهم كانوا قساة قلوب غير مؤمنين، بينما هؤلاء شاهدوا معجزة واحدة فمجدوه. [قد حان الوقت أن ينال الأمم أخيرًا نصيبًا من الرحمة من فوق، ونصيبًا من المحبة بالمسيح].

٢. سير المسيح على الماء

اختفاء السيد المسيح عندما أرادت الجموع أن تقيمه ملكًا ثم ظهوره للتلاميذ وحدهم سائرًا علي البحر يحمل إعلانًا كتابيًا هامًا. فإن السيد المسيح يقدم جسده خبزًا من السماء، لا لكي يملك علي الأرض، بل ليحمل أعضاء جسده (الكنيسة) إلي كنعان السماوية. أراد أن يصحح المفاهيم الخاطئة لمملكة المسيا. ومن جانب آخر إن كان موسى قد شق البحر ليعبر مع شعب الله، فالسيد المسيح جاء سائرًا علي المياه ليحمل شعبه إلي ما فوق تيارات العالم.

إذ يقول الكتاب المقدس عن الله "الماشى على البحر" (أي ٩: ٨) جاء في التقليد اليهودي عند الربيين أن المسيا يأتي من البحر، فأراد السيد أن يؤكد لهم أنه هو المسيا المنتظر الذي تنبأ عن الكتاب وورد عنه في التقليد.

"**وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكًا،**
انصرف أيضًا إلى الجبل وحده". **[١٥]**

أرادت الجماهير أن تخطفه وتقيمه ملكًا أرضيًا حسب هواهم، أما هو فاختفى منهم، وانصرف إلى الجبل وحده. لم يدركوا طبيعة مملكة المسيح، فأرادوا تكريمه حسب تفكيرهم لا حسب فكره الإلهي. كانت الجماهير تريد الخلاص من قيصر ومن الاستعمار الروماني، أما السيد المسيح فلم يرد أن ينشغل تلاميذه بالأمور السياسية، وألا يحملوا عداوة ضد إي إنسان.

بانسحابه إلى الجبل وحده يؤكد لنا أهمية انسحابنا من العالم من حين إلى آخر للقاء مع الله في حديث سري والتمتع بالسكون المقدس. خدمتنا للآخرين مهما بلغت أهميتها يلزم ألا تفقدنا عبادتنا الشخصية السرية.

❖ لما امتلأت بطونهم، وكان الطعام عندهم هو أكثر حرصهم، اعتزموا أن يجعلوا المسيح ملكًا، إلا أنه هرب... معلمًا إيانا أن نحتقر مراتب العالم، مظهرًا أنه لا يحتاج إلى المراكز الأرضية، لأن المنح الآتية إليه من السماوات كانت بهية عظيمة، وهي الملائكة والنجم وأبوه هاتفًا، والروح شاهدًا، وأنبياء أنذروا به من زمان بعيد، أما التي من الأرض فكلها حقيرة. جاء ليعلمنا أن نزدري بالأشياء التي هنا وأن نعشق النعم المقبلة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هرب من الذين أرادوا أن يعطوه الكرامة التي يستحقها، ورفض مملكة تعتبر أعظم مكافأة أرضية، مع أنها بالنسبة له لم تكن في الحقيقة أمرًا يشتهيه، لأن له الملك مع الآب على الأشياء...

يليق بنا أن نتحاشى محبة المجد، الذي هو شقيق الغطرسة وقريبها، وليس ببعيد عنها.

يلزمنا أن نتحاشى أيضًا الكرامة البرّاقة في هذه الحياة الحاضرة، فهي ضارة. ولنبحث عن التواضع المقدس، مقدمين بعضنا البعض، كما ينصح الطوباوي بولس أيضًا قائلاً: "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا، الذي إذ كان في صورة الله لم يُحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبدٍ، صائرًا في شبه الناس، وإذ وُجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب، لذلك رفعه الله أيضًا، وأعطاه الاسم الذي هو فوق كل اسم" (في ٢: ٥-٩).

إن كنا نهتم بالأمور السماوية ونحيا لأجل أمور علوية أكثر من الأرضية، فلنرفض العظمة على الأرض، إن عرضت علينا، فهي والد كل مجدٍ باطلٍ.

القديس كيرلس الكبير

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن صعوده إلى الجبل وحده حين أرادوا أن يقيموا منه ملكًا يشير إلى

رفضه على الأرض، لكنه يصعد إلى السماء، الجبل المقدس (مز ٢٤: ٣–٤) حتى متى عاد من السماء في مجيئه الأخير يملك بالكامل علينا.

❖ عندما جلس الرب على الجبل مع تلاميذه رأى الجموع قادمة إليه فنزل من الجبل وأشبعهم في الأماكن السفلية للجبل. إذ كيف كان يمكن له أن يهرب إلى هناك مرة أخرى لو لم يكن قد نزل قبلاً من الجبل؟

يحمل ذلك معنى، نزول الرب من العلا ليطعم الجموع ويصعد...

لقد جاء الآن لا ليملك في الحال، إذ يملك بالمعنى الذي نصلي من أجله: "ليأتِ ملكوتك". إنه يملك على الدوام مع الآب بكونه ابن اللَّه، الكلمة الذي به كان كل شيء. لكن الأنبياء يخبروننا عن ملكوته الذي فيه هو المسيح الذي صار إنسانًا ويجعل مؤمنيه مسيحيين...

ملكوته يمتد ويُعلن عندما يُعلن مجد قديسيه بعد أن تتم الدينونة بواسطته، الدينونة التي تحدث عنها قبلاً، إن ابن الإنسان يتممها. ذلك الذي يقول عنه الرسول: "عندما يُسلم ملكوت اللَّه للآب" (١ كو ١٥: ٢٤). وقد أشار عليه بنفسه قائلاً: "تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المُعدّ لكم منذ بدء العالم" (مت ٢٥: ٣٤).

لكن التلاميذ والجموع التي آمنت به ظنوا أنه قد جاء لكي يملك حالاً، لهذا أرادوا أن يمسكوه ويجعلوه ملكًا. أرادوا أن يسبقوا الزمن الذي أخفاه بنفسه لكي يعلنه في الوقت المناسب[1].

القديس أغسطينوس

❖ ماذا يعني: "هرب (انصرف)؟ أن سموه لا يمكن إدراكه! فإن ما لا تستطيع فهمه تقول عنه: "لقد هرب مني". لذلك هرب ثانية إلى الجبل وحده، هذا البكر من الأموات صعد أعلى من السماوات يشفع فينا (كو ١: ١٨؛ رو ٨: ٣٤)[2].

القديس أغسطينوس

"**ولما كان المساء نزل تلاميذه إلى البحر**". **[١٦]**

ربما بتوجيه من السيد المسيح انطلق التلاميذ بالسفينة نحو كفرناحوم حتى لا ينشغلوا بحوار غير نافع خاص بإقامة يسوع ملكًا. أراد أن يسحبهم من هذه التجربة، لكنهم يواجهون تجربة أخرى وهي هياج البحر من ريح عظيمة.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:1-2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:4.*

جاء السير على المياه بعدما أشبع الجموع (مر ٦: ٣٤-٥١؛ مت ١٤: ١٣-٣٣). هنا بعد أن قدم المسيح كلمته واهبة الحياة والقيامة يقدم نفسه في وقت المجاعات كما في وقت العواصف معلنًا حضوره الإلهي: "**أنا هو**" الواهب المعونة والمشبع للاحتياجات، "لا تخافوا".

❖ تشير هذه السفينة إلى الكنيسة بينما هو في الأعالي... بحقٍ قال: "**كان ظلام**"، لأن النور لم يأتِ إليهم. كان الوقت ظلام، ويسوع لم يأتِ إليهم. إذ تقترب نهاية العالم وتتزايد الأخطاء، ويتضاعف الرعب، ويكثر الإثم، ويزيد إنكار الإيمان غالبًا ما ينطفئ النور، باختصار النور الذي أظهره الإنجيلي يوحنا بالكامل وبوضوح ليكون حبًا. إذ يقول: "من يبغض أخاه هو في الظلمة. تتزايد ظلمة العداوة بين الاخوة ، تتزايد يوميًا ولم يأتِ بعد يسوع[1].

القديس أغسطينوس

"**فدخلوا السفينة،**
وكانوا يذهبون إلى عبر البحر إلى كفرناحوم،
وكان الظلام قد اقبل،
ولم يكن يسوع قد أتى إليهم". **[١٧]**

❖ إن سألت: ولِمَ تركهم ولم يظهر لهم؟ أجبتك: ليعرفهم كم هو أثر تركه إياهم، ويجعل شوقهم إليه أعظم تأثيرًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وهاج البحر من ريح عظيمة تهب**". **[١٨]**

❖ تتقاذف الأمواج العاتية من هم ليسوا مع يسوع، وقد انفصلوا عنه أو بدوا غائبين عنه، بانصرافهم عن شرائعه المقدسة. فانفصلوا بسبب الخطية عن ذاك القادر أن يخلص. فإن كان الأمر ثقيلاً علينا أن نكون في ظلمة روحية، فإن كنا متقلين بسبب ابتلاع بحر الملذات المريرة، فلنقبل يسوع، لأنه هو يخلصنا من المخاطر ومن الموت في الخطية.

القديس كيرلس الكبير

"**فلما كانوا قد جذفوا نحو خمس وعشرين أو ثلاثين غلوة،**
نظروا يسوع ماشيًا على البحر،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:5.*

مقتربًا من السفينة،

فخافوا". [١٩]

٢٥ أو ٣٠ غلوة *Stadia* تعادل حوالي ٣,٥ ميلاً. وكان البحر حوالي ٦ أميال من الجانب إلى الجانب الآخر. بحسب ما ورد في **يوسيفوس المؤرخ**[1] كان عرض البحيرة حوالي ٤٠ غلوة أي حوالي خمسة أميال، أما طولها فيبلغ حوالي ١٤٠ غلوة أو ١٨ ميلاً. ويرى **بليني** *Pliny* أن اتساعها كان ٦ أميال وطولها ١٦ ميلاً[2].

يرى **القديس أغسطينوس** أن رقم ٢٥ يشير إلى الناموس المدرك حرفيًا، بينما رقم ٣٠ يشير إلى الناموس مدركًا خلال الإنجيل. لم يحدد إن كانوا قد بلغوا ٢٥ غلوة أم ثلاثين غلوة. رقم ٥ يشير إلى الناموس، أو أسفار موسى الخمسة والتي سبق الإشارة إليها خلال الخمسة أروقة المؤدية إلى البركة، وخمسة أرغفة من الشعير التي كان يحملها غلام. إذا حاول أحد أن يفهمها ناموسيًا (٥×٥) تكون المحصلة ٢٥. أما إذا حاول إدراكها خلال الكمال الإنجيلي أي رقم ٦ تكون المحصلة ٦٠. الكمال الإنجيلي يرمز برقم ٦ حيث كملت الخليقة. عندما ندرك الناموس إنجيليًا نرى يسوع ماشيًا على البحر، مقتربًا إلينا جدًا.

❖ لهؤلاء يكمل الناموس، لذلك يأتِ يسوع. كيف يأتي؟ ماشيًا على الأمواج، ضابطًا كل دوامات العالم التي تبتلعنا تحت قدميه، ضاغطًا على كل مرتفعاته. هذا ما يحدث، فإذ يعبر الزمن وتمتد الأجيال، تزداد التجارب، وتكثر الكوارث والأحزان، كل هذه تتصاعد لتبتلع، لكن يسوع يعبر واطئًا بقدميه الأمواج[3].

❖ لقد وطأ أعالي العالم إلى أسفل لكي يتمجد بواسطة المتواضعين[4].

القديس أغسطينوس

❖ مما يلوح لظني أن هذه المعجزة هي أخرى غير المعجزة التي وردت في بشارة متى (مت ١٤: ٢٢-٢٣).

إن سألت: لماذا خافوا؟ أجبتك: إن الأسباب التي جعلتهم يخافون كانت كثيرة، فمن جهة الوقت

---

[1] *War, B. 3, c. 25.*
[2] *Lib. 5, c. 15.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:6.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:7.*

كان ظلامًا، ومن جهة البحر لهبوب الرياح، ومن جهة المكان لأنهم لم يكونوا قريبين من الأرض[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال لهم:**

أنا هو لا تخافوا". **[٢٠]**

يقول: "**أنا هو**"، أي "أنا الساكن (وسط الشعب)"، أو"أنا هو الذي أنا هو" (خر ١٤: ٣)

جاء ماشيًا على المياه ليس استعراضًا لسطانه على البحر والطبيعة، وإنما إعلانًا عن إخضاع قوانين الطبيعة لحساب مؤمنيه، خاصة في وسط آلامهم. إنه الرب الذي يركب السحاب لنجدة شعبه (تث ٣٣: ٦). يسمح لأولاده بالتجارب، لكنه لن يتركهم وسط التجربة، بل يعلن عن حضوره ليهبهم راحة وسلامًا.

إذ رأوا السيد المسيح ماشيًا على المياه خافوا وارتعبوا، إذ ظنوه خيالاً. فالخوف من الخيال أشد من الخوف من التجربة نفسها.

❖ تأملوا كيف أن المسيح لم يظهر لأولئك الذين كانوا في السفينة عند إبحارهم في الحال، ولا عند بدء المخاطر التي حدثت، لكن حينما كانوا على بعد غلواتٍ كثيرة بعيدًا عن الشاطئ. فإن نعمة ذاك الذي يخلص لا تفتقدنا حالما يبدأ الخطر حولنا، وإنما عندما يبلغ الخوف ذروته، ويبدو الخطر نفسه عنيفًا جدًا، ونوجد في وسط أمواج الضيقات، عندئذٍ يظهر المسيح دون توقع، ويبدد مخاوفنا، ويخلصنا من كل خطرٍ، وبقدرته التي لا يُنطق بها يبدد المخاوف بالفرح، ويصير هدوء وسلام.

القديس كيرلس الكبير

"**فرضوا أن يقبلوه في السفينة،**

وللوقت صارت السفينة إلى الارض التي كانوا ذاهبين إليها". **[٢١]**

كلما اقتربت الضيقة منا اقترب السيد المسيح بالأكثر لكي ينقذنا. إنه يقترب إلينا، لكنه لن يدخل سفينة حياتنا قسرًا بل إن قبلناه بكامل حريتنا.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنه لم يظهر نفسه ماشيًا علي المياه، إذ كانوا غير متأهلين لذلك بسبب ضعفهم، أما التلاميذ فرأوه إلي حين ثم اختفي، إذ لم يدخل السفينة[2].

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 43:1.*

[2] *Cf. Homilies on St. John, Hom. 43:1.*

على أي الأحوال ظهر السيد المسيح للتلاميذ إذ كانوا في وسط الضيقة، أما الجمهور الذي كان على البر فلم يتمتعوا برؤيته هكذا. الضيق هو مجال خصب للنفس لكي تتمتع برؤية مخلصها قادمًا إليها وهو سائر علي مياه العالم، يطأ بقدميه كل الأمواج العنيفة ويتحدى الرياح.

لم نسمع أن السيد المسيح هنا يأمر أمواج البحر لكي تسكت والرياح لكي تهدأ، لكن ما أن قبلوه في السفينة حتى وجدوا السفينة علي الشاطئ في أمان يبدو أن السفينة قد رست عند الشاطئ بطريقة غير عادية، كأمرٍ معجزي. قبول السيد المسيح لدخوله في النفس كفيل أن يهبها سلامه الداخلي بطريقة فائقة للطبيعة.

❖ المسيح هو نجاتنا من كل خطر، وهو يحقق الإنجازات بما يفوق توقع الذين يقبلونه.

تلاميذه وحدهم وبأنفسهم كنموذج للمعلمين الكنسيين بالتتابع عبر الأزمان كلها، يسبحون خلال أمواج هذه الحياة الحاضرة كنموذج للبحر، يواجهون تجارب عديدة وشديدة، ويتحملون مخاطر لا يُستهان بها عند التعليم، وذلك على أيدي أولئك الذين يعارضون الإيمان ويحاربون الكرازة بالإنجيل. لكنهم سيتحررون من خوفهم ومن كل خطرٍ، وسوف يستريحون من أتعابهم وبؤسهم حينما يظهر المسيح لهم بعد موته أيضًا بقدرته الإلهية، إذ قد وضع العالم كله تحت قدميه.

هذا ما يشير إليه سيره على البحر، مادام البحر غالبًا ما يُعتبر رمزًا للعالم في الكتب المقدسة... فحينما يأتي المسيح في مجد أبيه كما هو مكتوب (مت ١٦: ٢٧) حينئذٍ سفينة الرسل القديسين، أي الكنيسة، والذين يبحرون فيها، أي الذين بالإيمان والمحبة نحو الله يرتفعون فوق أمور العالم، دون تأخير وبدون أي تعبٍ، يربحون الأرض التي كانوا ذاهبين إليها، إذ غايتهم هي بلوغ ملكوت السماوات، كما إلى مرفأ هادئ.

القديس كيرلس الكبير

❖ لماذا تخافون أيها المسيحيون؟

المسيح يتحدث: "أنا هو لا تخافوا".

لماذا تتزعجون لهذه الأمور؟ لماذا تخافون؟

لقد سبق فأخبرتكم بهذه الأمور أنها ستحدث حتمًا... "**أنا هو لا تخافوا. فرضوا أن يقبلوه في السفينة**" [٢٠-٢١].

إذ عرفوه وفرحوا تحرروا من مخاوفهم. "**وللوقت صارت السفينة إلى الأرض التي كانوا ذاهبين إليها**" [٢١]. وُجدت نهاية عند الأرض، من المنطقة المائية إلى المنطقة الصلدة، من الاضطراب إلى

الثبات، من الطريق إلى الهدف[1].

القديس أغسطينوس

❖ لقد سمح بالعاصفة أن تثور لكي يطلبوه، وأسكن العاصفة لكي يتعرفوا على سلطانه، ولم يصعد إلى السفينة لكي يجعل المعجزة أعظم![2]

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. الجموع تطلبه في كفرناحوم

"وفي الغد لما رأى الجمع الذين كانوا واقفين في عبر البحر
أنه لم تكن هناك سفينة أخرى سوى واحدة،
وهي تلك التي دخلها تلاميذه،
وأن يسوع لم يدخل السفينة مع تلاميذه
بل مضى تلاميذه وحدهم". [٢٢]

يقول **القديس كيرلس الكبير** أن معجزة سير السيد المسيح على المياه حدثت ليلاً في الظلام، وقد اكتشفتها الجماهير التي تترقب حركاته دون أن يخبرهم بها. [من يريد اقتفاء خطوات المسيح، وبقدر ما هو مُستطاع لدى البشر لكي يتشكل الإنسان حسب مثاله يلزمه ألا يحيا في حب الافتخار، ولا ينحرف سعيًا وراء المديح حين يمارس فضيلة، ولا يفتخر حين يدخل في حياة غير عادية بنسكٍ كثير، بل عليه أن يشتاق أن تراه عينا الله فقط، الذي يكشف الخفيات، وما يتم في الخفاء يظهره بأوضح إعلان.]

"غير أنه جاءت سفن من طبرية إلى قرب الموضع الذي أكلوا فيه الخبز،
إذ شكر الرب". [٢٣]
"فلما رأى الجمع أن يسوع ليس هو هناك ولا تلاميذه
دخلوا هم أيضًا السفن،
وجاءوا إلى كفرناحوم يطلبون يسوع". [٢٤]
"ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له:

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:7.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 43:1.*

يا معلم متى صرت هنا". [٢٥]

يقصد بالجانب الآخر من البحر ساحل البحر الشمالي حيث توجد كفرناحوم في أرض جنيسارت. يبدو أنهم وجدوه في المجمع اليهودي [٥٩]، فقد اعتاد السيد أن يحضر في الاجتماعات الدينية (لو ٤: ١٦). يليق بنا أن **نطلبه في مجمع شعبه**، إذ هو حال في وسطهم. إذ وجدوه أنه قد هرب منهم حين طلبوه ملكًا بدأوا يتعاملون معه كمعلم وليس كملكٍ.

❖ ماذا توقعت الجموع سوى أنه قد جاء إلى هناك عابرًا البحر بقدميه؟ إذ لم يكن ممكنًا أن يكون قد جاء بسفينة أخرى. إذ يقول الإنجيلي أنه وجدت سفينة واحدة بها التلاميذ. لذلك عندما جاءوا إليه بعد دهشة عظيمة لم يسألوه كيف عبرت، أو كيف بلغت إلى هناك، ولا طلبوا أن يفهموا آية عظيمة كهذه. وإنما ماذا قالوا؟ "**يا معلم متى صرت هنا؟**" (يو ٦: ٢٥)[1].

❖ عبر اليهود البحر الأحمر تحت قيادة موسى، لكن تلك الحالة مختلفة تمامًا عن هذه. فعل موسى ذلك كله بالصلاة كخادمٍ، أما المسيح ففعل بسلطانٍ مطلقٍ. هناك إذ هبت ريح الجنوب انسحبت المياه لتجعلهم يعبرون إلى أرض جافة، أما هنا فالمعجزة أعظم (خر ١٤: ٢١). فإن البحر احتفظ بطبيعته المناسبة له، وسار ربه علي سطحه، هكذا مختبرًا ما يقوله الكتاب: الماشي علي البحر كما علي رصيف" (أي ٩: ٨)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. أنا هو الخبز الحي

"أجابهم يسوع وقال:

الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات،

بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم". [٢٦]

كثيرون لا يطلبون من الله إلاَّ أن تمتد يداه لتقدم لهم احتياجاتهم الزمنية؛ قليلون يشتهون اللقاء مع الله من أجل الله نفسه. كثيرون يطلبون من الله الخبز الرخيص لا الحب الثمين. الخبز النازل من السماء (خر ١٦: ٤؛ نح ٩: ١٥؛ مز ٧٨: ٢٤؛ مز ١٠٥: ٤٠).

يركز على أنه واهب الخبز على مستوى عطية الآب لا على مستوى موسى [٣٢]؛ وأنه هو اللَّه

[1] *Homilies on St. John, Hom. 43:1.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 43:2.*

العطية "الخبز النازل من السماء. إنه يقوت الإنسان بكونه الحكمة الإلهية (أم ٩: ١-٥).

إنه واهب الخبز، أعظم من موسى.

هو الخبز النازل من السماء.

هو الخبز المشبع بكونه حكمة اللَّه.

خبز إفخارستي واهب الحياة الأبدية.

❖ الأسلوب اللين اللطيف ليس دائمًا نافعًا، بل توجد أوقات حين يحتاج المعلم إلي استخدام لغة حادة... فعندما جاءت الجماهير ووجدت يسوع وتملقته بالقول: "**يا معلم متى صرت هنا؟**" (يو ٦: ٢٥). فلكي يظهر أنه لا يطلب كرامة من بشرٍ إنما يتطلع إلي أمرٍ واحدٍ وهو خلاصهم، أجابهم بحدة، لكي يصحح موقفهم لا بهذه الطريقة فحسب بل وبالكشف والإعلان عن أفكارهم[1].

❖ وبخهم بكلامه، ولكنه عمل هذا برفق وإشفاق، لأنه لم يقل لهم: يا أيها الشرهون في الأكل، يا عبيد بطونكم، قد صنعت عجائب هذا مقدارها فلم تأتوا ورائي، ولا تعجبتم لأعمالي". لكنه خاطبهم بلطفٍ ورقةٍ، قائلاً: "**تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم**"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يلزمنا أن نطيع المسيح ونحبه، لا للحصول على الخيرات الجسدية بل لكي ننال منه الخلاص.

القديس كيرلس الكبير

❖ نادرًا ما يُطلب يسوع من أجل يسوع نفسه[3].

القديس أغسطينوس

"**اعملوا لا للطعام البائد،**

بل للطعام الباقي للحياة الأبدية،

الذي يعطيكم ابن الإنسان،

لأن هذا الله الآب قد ختمه". **[٢٧]**

ختمه الآب ليقوم بعمل المصالحة، وليقبل نيابة عن المؤمنين الروح القدس ويستقر عليه. إنه قد ختم لكي نُختم نحن جميعًا فيه ونُحسب مسحاء لله.

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 44:1.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 44:1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:10.*

❖ كأنه يقول لهم: إنني غذيت أجسادكم لكي تلتمسوا الطعام الآخر الباقي المغذي أنفسكم، أما أنتم فقد أسرعتم إلى الطعام الأرضي، فلهذا لست أقتادكم إلى هذا الطعام الأرضي، بل إلى ذلك الطعام الذي ليس من شأنه أن يقدم حياة وقتية بل أبدية، المغذي أنفسكم لا أجسادكم.

❖ ليس شيء أردأ وأكثر خزيًا من النهم، فإنه يجعل الذهن دنيئًا والنفس جسدانية؛ إنه يسبب عمى، فلا يرى الشخص جيدا[1].

❖ "**هذا الله الآب قد ختمه**" [٢٧] بمعنى "أرسله لهذا الهدف أن يحضر لكم طعامًا". تعلن الكلمة أيضًا تفاسير أخرى إذ يقول المسيح في موضع آخر: "ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق" (يو ٣: ٣٣)... يبدو لي هذا القول أنه يلمح هنا عن "الآب ختم" ليس إلا أنه "أقر" أو" أعلن بشهادته". فالمسيح في الحقيقة أقر عن نفسه، ولكنه إذ كان يحاور اليهود قدم شهادة الآب له[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من يقدر أن يعطي الناس طعامًا يحفظهم إلى حياة أبدية؟ فإن هذا الأمر غريب تمامًا على طبيعة الإنسان. يليق بذاك الذي هو إله فوق الجميع. كأنه يقول: "أنا لست عاجزًا عن أن أعطيكم طعامًا يمكن أن يدوم ويثمر إلى حياة أبدية وفرح أبدي، لأنه بالرغم من أني أبدو كواحدٍ منكم، أي إنسان له جسد، إلاَّ إنني مُسحت وخُتمت من الله الآب للمماثلة معه.

القديس كيرلس الكبير

❖ ما هو الختم (يو ٦: ٢٧) إلا وضع علامة معينة؟ أن تختم يعني أنك تضع علامة على الشيء لكي لا يحدث لبس بينه وبين شيء آخر...

إذن "**الآب ختمه**"... أي منحه أمرًا معينًا جعله ليس موضوع مقارنة مع بقية البشر. لذلك قيل عنه: "اللَّه إلهك قد مسحك بزيت البهجة، فوق كل زملائك" (مز ٤٥: ٨). ماذا إذن "**يختم**" سوى أنه يكون مستثنى من الآخرين؟

هذا هو أهمية "فوق كل زملائك". يقول: "هكذا لا تحتقرني لأني ابن الإنسان، بل لتطلب مني لا الطعام البائد بل الباقي للحياة الأبدية. لأني ابن الإنسان بطريقة بها لست واحدًا منكم. أنا ابن الإنسان بطريقة بها الآب ختمني... أعطاني شيئًا خاصًا بي، فلا يحدث لبس بيني وبين البشرية، إنما

[1] *Homilies on St. John, Hom. 45:1.*
[2] *Hom 44.*

تخلص البشرية بي[1].

القديس أغسطينوس

"فقالوا له:

ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟" [٢٨]

إذ سألهم أن يعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية سألوه كيف يتممون الأعمال الإلهية، أو الأعمال التي حسب مسرة الله. ماذا يُطلب منهم أكثر من طاعتهم للناموس؟ هل الناموس ناقص ويوجد ما هو أفضل منه؟

يقول **القديس أغسطينوس** أن السيد المسيح أوصاهم ألا يطلبوا الطعام البائد بل الباقي للحياة الأبدية، لذلك سأله الجمع: "**ماذا نفعل حتى نعمل أعمال اللَّه؟** [٢٨]. كأنهم يسألونه: كيف ننفذ هذه الوصية؟ وجاءت الإجابة هي: الإيمان بالذي أرسله.

الإيمان يجعل أعمالهم مقبولة لدى اللَّه. لم يرد السيد أن يميز بين الأعمال والإيمان بل أن يعلن أن الإيمان نفسه هو عمل. إنه الإيمان العامل بالمحبة (غلا ٥: ٦).

❖ لم يكن سؤالهم (يو ٦: ٢٨) بقصد صالح، ويمكننا أن نفترض أنه لم يكن نابعًا عن رغبة في التعلم، بل بالأحرى كان نتيجة كبرياء زائد. وكأنهم يحجمون عن تعلم شيء أكثر مما كانوا يعرفونه فعلاً.

كأنهم يقولون: "يكفينا أيها السيد الصالح كتابات موسى، فنحن نعرف أكثر مما نحتاج عن تلك الأمور التي ينبغي على الماهر في أعمال الله أن يقصدها، فما الشيء الجديد الذي ستزودنا به إذن بالإضافة إلى تلك الأمور التي كانت قد حُددت في ذلك الزمان؟ وأي شيء غريب ستعلمنا إياه ولم يكن قد انكشف لنا من الكلمات الإلهية؟"

كان التساؤل من قبيل الحماقة، وليس بدافع الإرادة النشطة.

القديس كيرلس الكبير

❖ لم يقولوا هذا لكي يتعلموا ويعلموا (كما يظهر مما جاء بعد ذلك)، وإنما لكي يقدم لهم طعامًا مرة أخرى[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:11.*
[2] *Hom 45. PG 59:262.*

"أجاب يسوع وقال لهم:

هذا هو عمل الله:

أن تؤمنوا بالذي هو أرسله". [٢٩]

جاءت الإجابة إنه ينقصهم أمر واحد، هو من صميم الناموس، وهو أن يؤمنوا به، بكونه المسيا الذي أشار إليه الناموس، بكونه مخلص العالم الذي أفسدته الخطية.

كلمة الإيمان هنا تحمل معنى الإيمان العملي الحي، حيث يلتصق به المؤمن ويتبعه في طريق الصليب.

❖ كان من الضروري أن يريهم أنهم كانوا لا يزالون بعيدين جدًا عن العبادة المرضية لله، وأنهم لا يعرفون شيئًا عن الأمور الصالحة الحقيقية. فإذ يلتصقون بحرف الناموس صار ذهنهم مملوء بالرموز والأشكال المجردة...

إن العمل الذي تمارسه النفس النقية هو الإيمان المتجه نحو المسيح.

والأسمى من ذلك بكثير هي الغيرة في أن يصير الإنسان حكيمًا في معرفة المسيح أكثر من الالتصاق بالظلال الرمزية.

القديس كيرلس الكبير

"فقالوا له:

فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ماذا تعمل؟" [٣٠]

طلب اليهود من السيد آية ليؤمنوا به، فهل حسبوا إشباع الجمهور البالغ عدد الرجال بينهم حوالي ٥٠٠٠ نسمة بخمس خبزات شعير وسمكتين آية تافهة؟

طلبوا منه معجزة تضاهي التي حدثت في أيام موسى حيث أكل آباؤهم المن في البرية، أكلوا خبزًا نازلاً من السماء. لقد رأوا معجزة إشباع الجموع بخمس خبزات وسمكتين ولم يؤمنوا. لم يكن ممكنًا أن يروا أعظم من هذا لكن أذهانهم لم تعد قادرة على إدراك الحق.

"آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب،

أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا". [٣١]

"فقال لهم يسوع:

الحق الحق أقول لكم،

ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء،

بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء". [٣٢]

لكي يدركوا الحق كشف لهم عن أعماق عمل الله مع آبائهم حين عالهم في البرية أربعين عامًا بالمن النازل من السماء:

١. ليس موسى بل الله هو الذي أعطاهم المن.
٢. لم يكن المن هو الخبز الحقيقي إنما هو رمز له.
٣. الآن يقدم لهم الله الخبز الحقيقي الذي لا يُقارن به المن قط.
٤. إنه هو الخبز الحقيقي النازل من السماء، والذي من أجله أُعطي لآبائهم المن رمزًا له.

❖ بمنتهى الغباوة يتَّوجون هامة موسى بهذا العمل (نزول المن من السماء)، لهذا يطلبون من المسيح آية مساوية لتلك الآية، دون أن يبدوا أي إعجاب على الإطلاق بالآية التي أراهم ليومٍ كاملٍ، حتى وإن كانت عظيمة، لكنهم يقولون إن عطية الطعام عليها أن تمتد لهم زمنًا طويلاً. لهذا نراه يخزيهم بشدة جدًا ليقروا ويقبلوا أن قدرة المخلص وتعليمه الذي هم على وشك قبوله هما الأكثر مجدًا.

❖ الآن أيضًا يقول لهم المخلص إنهم لا يفهمون، وأنهم يجهلون إلى أبعد حد ما في كتابات موسى. لأنه كان الأحرى بهم أن يعلموا في جلاءٍ تامٍ أن موسى كان يخدم أمور الله للشعب، وأيضًا أمور بني إسرائيل تجاه الله، وأنه لم يكن هو نفسه صانع عجائب، بل بالأحرى كان خادمًا وفاعلاً في خدمة تلك الأمور... فلنتعلم إذن بأكثر تمييز وتعقل أن نحترم آباءنا القديسين... لكن حين يكون الحديث عن المسيح المخلص علينا أن نقول: "مَنْ في السماء يعادل الرب؟ من يشبه الرب بين أبناء الله؟" (مز ٨٩: ٦).

القديس كيرلس الكبير

❖ كان يمكنه أن يجيبهم: "أنا الآن أصنع عجائب أعظم مما فعلها موسى، فلا احتاج إلى عصا، ولا إلي صلاة، بل أفعل كل شيء من نفسي، وإن كنتم تذكرون المن انظروا فإني أعطيكم خبزًا. لكنه لم يكن ذلك الوقت مناسبًا لمثل هذه الأحاديث، فإن الأمر الوحيد الذي كان يرغبه بغيرة هو أن يقدم لهم طعامًا روحيًا. انظروا إلي حكمته غير المحدودة، وأسلوب إجابته!"[1]

❖ قول المسيح لليهود: "**ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء**"، إذ أن المّن ليس هو من السماء،

[1] *Homilies on St. John, Hom. 45:1.*

فكيف يقال أنه من السماء؟ إنما قيل ذلك كما يُقال "طيور السماء"، و"أرعد الرب من السماء".

وقوله: "**الخبز الحقيقي من السماء**"، إذ أن المسيح هو الخبز الحقيقي، ليس لأن الأعجوبة الخاصة بالمن كانت كاذبة، لكن لأنها كانت رسمًا ولم تكن الحقيقة بذاتها.

❖ لماذا لم يقل: "ليس موسى أعطاكم هذا بل أنا"، وإنما وضع الله موضع موسى وهو نفسه موضع المن؟ ذلك من أجل الضعف الشديد لسامعيه... لقد قادهم المسيح إليه قليلاً قليلاً[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ وعدهم يسوع بشيءٍ أعظم مما أعطاهم موسى. حقًا بموسى كان الوعد بملكوت، بأرضٍ تفيض لبنًا وعسلاً، بالسلام المؤقت، بكثرة الأبناء وصحة الجسد، وكل الأمور الأخرى التي للخيرات الوقتية، لكنها تحمل رمزًا روحيًا... كان الوعد بملء البطن على الأرض بالطعام الزائل، أما الآخر (يسوع) فيعد لا بالطعام الزائل بل بالطعام الباقي للحياة الأبدية[2].

القديس أغسطينوس

"**لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم**". **[٣٣]**

❖ في غباوة شديدة تفترضون أن المن هو الخبز النازل من السماء، بالرغم من أن المن قد أطعم جنس اليهود فقط في البرية، بينما يمتد العالم بأمم أخرى لا حصر لها... لكن حين أشرف زمان الحق على أبوابنا، "أبي يعطيكم الخبز الحقيقي الذي من السماء"، والذي كانت عطية المن ظلاً له في القديم. فهو يقول: لا يظن أحد أن ذاك المن كان بالحق هو الخبز من السماء، بل بالأحرى لصالح هذا الخبز القادر أن يطعم الأرض كلها، ويمنح العالم ملء الحياة.

المن الحقيقي هو المسيح ذاته، مُدركًا باعتبار أن الله الآب قد أعطاه تحت رمز المن للذين كانوا في القديم.

"وخبز السماء أعطاهم، أكل الإنسان خبز الملائكة" (مز ٧٨: ٢٤)... واضح للجميع أنه لا يوجد خبز وطعام للقوات العقلية في السماء سوى ابن الله الآب الوحيد. إذن فهو المن الحقيقي، والخبز الذي من السماء لكل الخليقة العاقلة الذي يعطيه الله الآب.

يعدنا المسيح أن يهبنا الطعام الذي من السماء، أي التعزية بواسطة الروح، أعني المن الروحي. بهذا بالمن نتقوى على احتمال كل مشقةٍ وعزمٍ، وإذ نحصل عليه لا نسقط بسبب عجزنا في تلك

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 45:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:12.*

الأمور التي ينبغي إلا ننحدر إليها.

كان الأجدر بهم أن يعرفوا أن موسى قد جلب فقط خدمة الوساطة، وأن العطية لم تكن من صنع يدٍ بشريةٍ، بل هي من عمل النعمة الإلهية، فتضع الروحي داخل إطار مادي كثيف، وعبَّر لنا عن الخبز الذي من السماء، الذي يعطي حياة لكل العالم، ولا يُطعم جنسًا واحدًا فقط.

القديس كيرلس الكبير

❖ لم يقل أنه لليهود وحدهم بل لكل العالم، ليس طعامًا مجردًا بل الحياة، حياة أخري متغيرة. لقد دعاه"**حياة**" لأن الكل كانوا أمواتا في الخطايا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقالوا له:**

يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز". **[٣٤]**

كان اليهود يتوقعون بمجيء المسيا ينعمون مع السلطة والحكم والحرية كل أنواع الملذات الزمنية. قال الحاخام ميمون *Rab. Mayemon* إنه متى جاء المسيا يقيم الأموات، فيجتمعون في جنة عدن، ويأكلون ويشربون ويصيرون في تخمة كل أيام العالم. تُبنى بيوتهم بالحجارة الكريمة، وأسرتهم بالحرير الناعم، وتفيض الأنهار بالخمر والزيت المخلوط بالتوابل. سينزل المن عليهم له مذاقات متنوعة، ويجد كل إسرائيلي في طبقه ما يلذ له. إن اشتهى السمين وجده. يذوقه الشاب فيجده خبزًا والشيخ يجده عسلاً والأطفال زيتًا. هكذا ستكون أيام المسيح القادمة. سيهب إسرائيل سلامًا ويجلس في جنة عدن[2]...

❖ بينما كان مخلصنا المسيح وبكلمات كثيرة – إن جاز للمرء أن يقول – يجذبهم بعيدًا عن التصورات الجسدانية، وبتعليمه الكلي الحكمة يحلق في التأمل الروحي، فإنهم لا يبتعدون عن منفعة الجسد. وإذ يسمعون عن الخبز الذي يعطي حياة للعالم يصورون لأنفسهم خبز الأرض "لأن إلههم بطنهم" (في ٣: ١٩)، كما هو مكتوب. وإذ ينهزمون بشرور البطن يستحقون سماع القول: "مجدهم في خزيهم".

القديس كيرلس الكبير

"**فقال لهم يسوع:**

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 45:1.*
[2] *cf Adam Clarke Commentary.*

أنا هو خبز الحياة،

من يقبل إليَّ، فلا يجوع،

ومن يؤمن بي، فلا يعطش أبدًا". [٣٥]

اعتاد السيد المسيح في أحاديثه الأخرى أن يقدم شهودًا أنه يعلن الحق، تارة يعلن أن الآب يشهد له، وأخرى يقتبس نبوات الأنبياء، وأخرى يقدم آياته وعجائبه. أما هنا فكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم**[1] لم يورد شهودًا وهو يعلن عن نفسه أنه الخبز النازل من السماء، لأنهم شاهدوا ولمسوا كيف أشبعهم بخبزات قليلة. يقول القديس إنه يعلن عن لاهوته، فمن يقترب إليه يشبع ولا يجوع قط.

❖ قال لهم "**أنا هو خبز الحياة**" [٣٥] لكي يوبخهم، لأنهم عندما ظنوا الطعام عاديًا جروا إليه، وليس عندما تعلموا أنه من نوع روحي[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الآن أنا حاضر أحقق وعدي في حينه. "**أنا هو خبز الحياة**"، ليس خبزًا جسدانيًا، فهو لا يسد الإحساس بالجوع فقط، ويحرر الجسم من الهلاك الناشئ عنه، بل يعيد تشكيل كل الكائن الحي بأكمله إلى حياة أبدية. ويصير الإنسان الذي خلقه ليحيا إلى الأبد سائدًا على الموت. يشير بهذه الكلمات إلى الحياة والنعمة التي ننالهما بواسطة جسده المقدس، الذي به تنتقل خاصية الابن الوحيد هذه، أي الحياة.

❖ حينما دُعينا إلى ملكوت السماوات بالمسيح – لأن ذلك حسب ظني هو ما يشير إليه الدخول إلى أرض الموعد، فإن المن الرمزي لم يعد بعد يخصنا، لأننا لسنا نقتات بعد بحرف موسى، بل لنا الخبز الذي من السماء، أي المسيح، هو يقوتنا إلى حياةٍ أبديةٍ، بواسطة زاد الروح القدس، كما بشركة جسده الخاص، الذي يسكب فينا شركة الله، ويمحو الموت الذي حلّ بنا من اللعنة القديمة.

❖ إني أتفق معكم أن المن قد أُعطي بواسطة موسى، لكن الذين أكلوا آنذاك جاعوا. وأقر معكم أنه من جوف الصخرة خرج لكم ماء، لكن الذين شربوه قد عطشوا، وتلك العطية التي سبق الحديث عنها لم تعطهم سوى تمتعًا مؤقتًا، لكن "**من يقبل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدًا**". ما الذي يعد به المسيح إذن؟ إنه لا يعد بشيءٍ قابلٍ للفساد، بل بالأحرى بذلك السرّ – الألوجية –

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 45:2.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 45:1.*

في شركة جسده ودمه الأقدسين، فيستعيد الإنسان بكليته عدم الفساد، ولا يحتاج أبدًا إلى أي شيء من تلك التي تدفع الموت عن الجسد، أعني الطعام والشراب. إن جسد المسيح المقدس يعطي حياة لمن يكون الجسد فيهم، فيحفظهم كلية في عدم فساد، إذ يختلط بأجسادهم، لأننا ندرك أنه ما من جسدٍ آخر سوى جسده له الحياة بالطبيعة، هذا الذي لا يعادله جسد آخر.

❖ إذ نقترب إلى تلك النعمة الإلهية والسماوية، ونصعد إلى شركة المسيح المقدسة، بذلك وحده نقهر خداع الشيطان. وإذ نصبح شركاء الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤) نرتفع إلى الحياة وعدم الفساد.

القديس كيرلس الكبير

❖ أنتم تطلبون خبزًا نازلاً من السماء، إنه أمامكم لكنكم لا تريدون أن تأكلوا. "**ولكنني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون**" [٣٦][1].

القديس أغسطينوس

"**ولكني قلت لكم أنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون**". **[٣٦]**

❖ رأوا الرب، الله بالطبيعة، حينما أطعم جمعًا غفيرًا لا يُحصى، كان قد جاء إليه، بخمسة أرغفة شعير وسمكتين صغيرتين، كان قد قسمها لهم. لكنهم رأوا ولم يؤمنوا بسبب العمى الذي أغشى فهمهم كضباب بسبب الغضب الإلهي... لأنهم متمسكون بعثرات لا حصر لها، ومقيدون بحبال تعدياتهم التي لا فكاك منها (أم ٥: ٢٢). لم يقبلوه حين جاء إليهم، وهو القادر على حل قيودهم وتحريرهم. لهذا السبب كان قلب هذا الشعب غليظًا.

القديس كيرلس الكبير

"**كل ما يعطيني الآب فإليَّ يُقبِل،**

ومن يُقبِل إليَّ، لا أخرجه خارجًا". **[٣٧]**

يوجه **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنظارنا هنا إلى دور الله ودور الإنسان، فالإنسان لن يقدر أن يؤمن بذاته، بل بجاذبية الله له، ونعمته المجانية العاملة فيه. لكن لا يتمتع الإنسان بهذا الإيمان قسرًا، بل بكامل حريته يقبل إلى السيد الذي يحفظه ويقدسه ولا يطرده خارجًا عنه.

❖ إنه يشير هنا إلى شعوب الأمم الموشكين أن يؤمنوا به إيمانًا كاملاً. إني لن أُخرج من يقبل إليّ خارجًا، أي إنني لن أطرحه كإناءٍ عديم النفع... كإنسانٍ مُحتقر. ولن يبقى دون نصيب في

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:14.*

اهتماماتي، بل سوف أجمعه في مخزني، وينزل ساكنًا في المنازل السماوية، ويرى نفسه مالكًا لكل رجاء يفوق إدراك البشر.

القديس كيرلس الكبير

❖ إن ما يعلنه هنا ليس إلا هذا: "الإيمان بي ليس بالأمر العادي، لا يأتي خلال براهين بشرية، بل يحتاج إلى إعلان من فوق، وإلى نفس تدبيرها حسن يجتذبها الله لكي تتقبل الإعلان[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"لأني قد نزلت من السماء،

ليس لأعمل مشيئتي،

بل مشيئة الذي أرسلني". [٣٨]

جاء من السماء، لا ليعمل حسب الدوافع البشرية، بل حسب حكمته الإلهية غير المحدودة، حسب صلاحه ورحمته. فالأهواء اليهودية تزدري بالعشارين والخطاة، وتغلق باب السماء أمام الأمم، أما مراحم الله فتحتضنهم. جاء الابن الكلمة ليعلن عن هذه المراحم الإلهية.

❖ "**قد نزلت من السماء**"، أي صرت إنسانًا حسب مسرة الله الآب الصالحة، ورفضت أن أنخرط في أعمال غير موافقة لمشيئة الله، حتى أحقق لهم – أولئك الذين يؤمنون بي – الحياة الأبدية والقيامة من الأموات، محطمًا قوة الموت. واحتمل التحقير من اليهود والشتائم والسب والإهانات والجلدات والبصق، والأدهى من ذلك شهادة الزور، وآخر الكل الموت.

ستفهمون لماذا لم يكن المسيح مخلصنا يريد الآلام التي على الصليب، ومع ذلك أرادها لأجلنا، ولأجل مسرة الله الآب الصالحة، لأنه حين كان على وشك الخروج للآلام أيضًا، جعل حديثه إلى الله (الآب) قائلاً ما قاله في صيغة صلاة: "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت" (مت ٢٦: ٣٩). لأنه وهو الله الكلمة، غير المائت، وغير الفاسد، والحياة ذاتها بالطبيعة، لم يقدر أن يرتعب أمام الموت. وإني أعتقد إن ذلك واضح للجميع، إذ وهو له أن يرتعد أمام الموت حين كان على مشارفه، لكن يُظهر أنه بالحقيقة إنسان... باتحاد الطبيعة البشرية بالكلمة أُعيدت إلى ما يليق بالله من إقدامٍ، واستعيدت إلى غرض شريف، أعني أن الطبيعة البشرية لم تصنع ما يبدو صالحًا لإرادتها الذاتية بل بالأحرى تتبع القصد الإلهي، مهيأة على الفور للركض إلى

[1] *Homilies on St. John, Hom. 45:2.*

مهما يدعوها إليه ناموس خالقها.

أرأيتم كيف أن المسيح لم يكن يريد الموت بسبب الجسد، ولا هوان التألم، ومع هذا أراده، حتى يتمم مقاصد مسرة الآب الصالحة لأجل العالم أجمع، أي حياة وخلاص الجميع.

القديس كيرلس الكبير

"**وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني:**
أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئًا،
بل أقيمه في اليوم الأخير". **[٣٩]**

الله يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون، لكنه لا يلزمهم بالخلاص قهرًا كما لو كانوا قطعًا حجرية، بل يتعامل معهم ككائنات عاقلة لها كمال الحرية.

❖ ماذا تقول؟ هل إرادتك شيء، وإرادته شيء آخر؟ لئلا يشك أحد في هذا صاحب هذا بما جاء بعد ذلك. ما قاله هو هذا: "جئت لا لأفعل شيئًا إلا ما يريده الآب، فليست لي إرادة من ذاتي تختلف عن تلك التي للآب، فإن كل ما للآب هو لي، وما لي هو للآب. فإن كان ما للآب وما للابن مشترك فبحق يقول:"ليس لأعمل مشيئتي"... لأني كما قلت في موضع آخر إنه كان يحجب الأمور العالية إلى حين ويرغب في أن يبرهن أنه لو قال: "هذه هي إرادتي" لكانوا يحتقرونه. لذلك يقول: "لأنني أتعاون مع تلك الإرادة"، راغبًا أن يردعهم بالأكثر. وكأنه يقول: "ماذا تظنون؟ هل تغضبوني بعدم إيمانكم؟ لا، فإنكم تغضبون أبي "**وهذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئًا**" [٣٩]. هنا يظهر أنه ليس في حاجة إلى خدمتهم، فإنه لم يأتِ لنفعه الخاص، وإنما لأجل خلاصهم لا لينال كرامة منهم... فما جاء قبل ذلك وبعده هو أنه يسعي بكل غيرة أن يظهر بأنه جاء لأجل خلاصهم. وهو يقول أنه يجلب مجدًا للآب حتى لا يتشككوا فيه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**لأن هذه مشيئة الذي أرسلني:**
أن كل من يرى الابن ويؤمن به
تكون له حياة أبدية،
وأنا أقيمه في اليوم الأخير". **[٤٠]**

[1] *Hom 45. PG 59:267.*

❖ إن خلاصنا ونجاتنا من الموت واستعادتنا إلى الحياة هي عمل الثالوث القدوس كله... من خلال الثالوث القدوس كله تأتي الصالحات لأجلنا، فيكون الله الآب هو كل شيء في الكل بالابن في الروح القدس.

القديس كيرلس الكبير

❖ من يؤمن به يأكل الخبز الحيّ[1].

القديس أغسطينوس

❖ لماذا يركز دومًا على القيامة؟ لكي لا يحكم الناس علي عناية الله خلال الأمور الحاضرة وحدها، كمن لا يتمتعون بالثمار هنا، فيحل بهم القنوط، وإنما يلزمهم أن ينتظروا الأمور القادمة. كما لا يستخفون بالله لأنهم لا يعاقبون علي خطاياهم، بل يتطلعوا إلي الحياة الأخرى. الآن هؤلاء الناس لا يقتنون شيئًا (من شرهم)، أما نحن فيلزمنا أن نقتني بالآلام ربحًا وذلك بتذكرنا المستمر للقيامة... إنه توجد قيامة، وهي علي أبوابنا وليست بعيدة عنا ولا علي مسافة منا." لأنه بعد قليل جدًا سيأتي الآتي ولا يبطئ" (عب ١٠: ٣٧)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فكان اليهود يتذمرون عليه،**

لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء". **[٤١]**

تذمر اليهود عليه لأنه في حديثه يؤكد لهم أنه أعظم من موسى بلا حدود، وأنه وحده قادر أن يهب الحياة الأبدية، وأن أصله سماوي. لقد سمعوا عن ملائكة نزلوا من السماء، لكنهم لم يسمعوا قط عن إنسانٍ أصله سماوي.

❖ هو نفسه "**الخبز النازل من السماء**"، الخبز الذي ينعش الناقصين ولا ينقص. خبز يمكن أن يُؤكل (يُستطعم) ولا يمكن أن يتبدد. هذا الخبز يشير إليه المن. فقد قيل "أعطاهم خبز السماء، أكل الإنسان خبز الملائكة" (مز ٧٧: ٢٤-٢٥ *LXX*).

من هو خبز الملائكة إلاَّ المسيح؟

ولكن لكي يأكل الإنسان خبز الملائكة، صار رب الملائكة إنسانًا. فإنه لو لم يصِر إنسانًا ما كان له جسده، وإن لم يكن له جسده ما كنا نأكل خبز المذبح.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:1*

[2] *Homilies on St. John, Hom. 45:2.*

لنسرع إلى الميراث، متطلعين إلى إننا قد قبلنا عربونًا عظيمًا منه.

يا إخوتي ليتنا نشتاق إلى حياة المسيح، متطلعين إلى أننا أمسكنا بعربون موت المسيح.

القديس أغسطينوس

❖ "الذين آلههتم بطنهم، ومجدهم في خزيهم" (في ٣: ١٩)، هكذا قال بولس عن بعض الأشخاص في رسالته إلى أهل فيلبي. الآن يظهر واضحًا أن هؤلاء اليهود هم من هذا النوع، وذلك مما حدث قبلاً، ومما قالوه عندما جاءوا إلى المسيح. فإنه عندما أعطاهم خبزًا وملأ بطونهم قالوا إنه نبي، وطلبوا أن يقيموه ملكًا. ولكن عندما علمهم عن الخبز الروحي والحياة الأبدية، عندما قادهم بعيدًا عن المحسوسات وتحدث عن القيامة ورفع أذهانهم إلى العلويات، وكان يليق بهم أن يعجبوا بذلك إذا بهم يتذمروا ويبتعدوا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وقالوا: أليس هذا هو يسوع ابن يوسف،
الذي نحن عارفون بأبيه وأمه،
فكيف يقول هذا إني نزلت من السماء؟" [٤٢]

❖ كان بالأولى أن يدركوا أن المسيح المتوقع مجيئه إلينا ليس بدون الجسد أو تدبير جسماني، بل يأتي في هيئة بشرية كما سبق التنبؤ عنه، أنه يوجد في الرداء المشترك بين الجميع، لهذا يخبرنا صوت النبي أن العذراء القديسة "تحبل وتلد ابنًا" (إش ٧: ١٤)... وقد "أقسم لداود بالحق" (مز ١٣٢: ١١ *LXX*). فهو لا يرجع عما وعد به أن "من ثمر بطنك أجعل على كرسيك" كما هو مكتوب. وتتبأ أيضًا أنه "يخرج قضيب من جذع يسى" (إش ١١: ١)... لكن إذ يفهم اليهود تدبير الجسد الذي لمخلصنا المسيح، ومع معرفتهم لأمه وأبيه، مع أن (يوسف) لم يكن أباه فعلاً، لم يخجلوا أن يتذمرا، لأن المسيح قال إنه "نزل من السماء".

القديس كيرلس الكبير

❖ يقول اليهود عن المسيح "**أليس هذا هو يسوع ابن يوسف؟**" فقد استبان واضحًا أنهم ما كانوا قد عرفوا بعد ولادته العجيبة البديعة، لهذا دعوه ابن يوسف. لم يقولوا هذا لأنه كان ابن يوسف، لكنهم قالوه لأنهم لم يستطيعوا أن يسمعوا عن ولادته العجيبة.

[1] *Homilies on St. John, Hom. 46:1.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كان هؤلاء اليهود بعيدين عن الخبز الذي من السماء، ولم يعرفوا كيف يجوعوا إليه...

كانت لهم أنياب قلوبهم ضعيفة، لهم آذان مفتوحة لكنهم صم، ورأوا لكنهم وقفوا عميانًا. هذا الخبز بالحق يتطلب جوعًا للإنسان الداخلي. لهذا يقول في موضع آخر: "طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنهم يشبعون" (مت ٥: ٦). يقول الرسول بولس أن المسيح بالنسبة لنا برّ (١ كو ١: ٣٠). لهذا من يجوع إلى هذا الخبز يجوع إلى البرّ، ذاك البرّ النازل من السماء، البرّ الذي يعطيه اللَّه، لا الذي يفعله الإنسان لنفسه...

ما هو برّ اللَّه للإنسان، أن يكون بارًا باللَّه.

لكن مرة أخرى ماذا كان برّ هؤلاء اليهود؟ البرّ الذي صنعوه بقوتهم، وعليه اتكلوا، وبهذا أعلنوا عن أنفسهم أنهم يتممون الناموس بفضيلتهم. مع أنه لا يتمم أحد الناموس إلا الذي تعينه النعمة، أي يعينه الخبز النازل من السماء[1].

القديس أغسطينوس

"فأجاب يسوع وقال لهم:

لا تتذمروا فيما بينكم". [٤٣]

بالرغم من النبوات التي تؤكد أن المسيا يأتي من نسل داود، وأنه مولود من عذراء، هاجمه اليهود متطلعين إليه باستخفاف كابن لمريم ويوسف المعروفين لديهم تمامًا. أما هو ففي حنو وجَّه أنظارهم إلى أبيه السماوي الذي وحده يقدر أن يكشف لهم عن شخص الابن المتجسد الواهب القيامة.

❖ نظر اليهود إلى يسوع وهم يجهلون أن أباه في السماء، دون أن يعترفوا أنه بالطبيعة ابن إله الجميع، بل ناظرين فقط إلى أمه الأرضية وإلى يوسف. وإذ يجيبهم بحنوٍ بالغ سرعان ما يعمل بالالتفات إلى كرامته الإلهية لأجل نفعهم. إنه كإله يعرف تذمرهم الداخلي وما يدور بأفكارهم. من خلال هذه الأمور عينها يدفعهم إلى إدراك أنهم قد سقطوا عن الحق، وكوَّنوا عنه فكرًا بالغ الحقارة، وكان يليق بهم أن يقدموا الكرامة الإلهية، لذاك الذي يعرف القلوب تمامًا، ويختبر حركات الفكر، وهو لا يجهل ما يدور في نفوسهم من فكرٍ... يكشف لهم أن معرفته هي من عمل النعمة العلوية...

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:1.*

لنفعهم يؤكد لهم الوعد أنه سيقيم من الموت من يؤمن به، ومن ثم يبرهن حتى لأكثر الناس جهلاً أنه هو الله حقًا وبالطبيعة. لأن القدرة على الإقامة من الموت... تخص طبيعة الله وحده، ولا تُنسب إلى أي مخلوق.

القديس كيرلس الكبير

"**لا يقدر أحد أن يقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني،**
وأنا أقيمه في اليوم الأخير". **[٤٤]**

كيف يجتذبه الآب؟ يجيب **القديس أغسطينوس** بأن الإنسان يُجتذب بما يُبتهج به.

إن قدمت عشبًا يجتذب القطيع إليه، وإن قدمت فاكهة تجتذب الطفل. هكذا يجتذب الآب الإنسان بأن يقدم له المخلص بكونه شهوته، فيجتذبه به. الإنسان الذي يدرك في نفسه أنه خاطئ ضائع وإذ يشتاق أن يهرب من الجحيم ويبلغ إلى السماء يجد في دم المسيح جاذبية له.

كأنه يقول لهم: "لماذا تتذمرون فيما بينكم؟ فإنكم لا تستطيعون أن تؤمنوا ما لم يجتذبكم الآب". إنه يجتذب النفوس ليس بمحاباة، بل من يطلب يتمتع بالإيمان، لكنه لن يجتذب أحدًا بغير إرادته.

يقول **القديس أغسطينوس:**

[يمكن أن يأتي إنسان إلى الكنيسة بغير إرادته، ويمكنه أن يقترب من المذبح بغير إرادته، ويشترك في الأسرار قهرًا، لكنه لا يقدر أن يؤمن ما لم يرد ذلك... الإيمان ليس شيئًا يتم بالجسد. اسمع الرسول: "بالقلب يؤمن الإنسان للبرّ". ماذا يلي ذلك... "وباللسان يعترف للخلاص" (رو ١٠: ١٠). هذا الاعتراف يصدر عن جذر القلب. أحيانًا تسمع إنسانًا يعترف ولا تعرف إن كان يؤمن أم لا...

إذن حيث أن الإنسان بالقلب يؤمن بالمسيح، الأمر الذي لا يفعله أحد بغير إرادته، ولا من يُجتذب ضد إرادته، كيف نجيب على السؤال: "**لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني**" [٤٤]؟

قد يقول قائل: "إن كان يُجتذب، فإنه يذهب بغير إرادته. وإن كان يذهب بغير إرادته فهو يؤمن... لأننا لسنا نذهب إلى المسيح بأقدامنا بل بالإيمان؛ وليس بعاطفة الجسد بل بغير إرادته...

لا تظن أنك تُجتذب بغير إرادتك. فالذهن يُسحب أيضًا بالحب.

يلزمنا أيضًا ألا نخاف لئلا نُلام بحسب هذه الكلمة الإنجيلية التي للكتاب المقدس بواسطة أولئك الذين يثقلون بالكلام وهم بعيدون عن حركة العمل، وبعيدون عن الإلهيات، لئلا يُقال لنا: كيف يمكنني أن أؤمن بإرادتي إن كنت لا أُجتذب؟" أقول: لا يكفي أن تُجتذب بالإرادة، فإنه يمكنك أن

تجتذب حتى بالبهجة. "تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك" (مز ٣٧: ٤). توجد لذة للقلب الذي يجد عذوبة في ذاك الخبز الذي من السماء. علاوة على هذا، إن كان بحق جاء في القطعة الشعرية: "كل إنسانٍ ينجذب بشهوته"، فإنه ليس خلال الضرورة بل باللذة، لا بالالتزام بل بالبهجة ينجذب؛ كم بالأكثر يلزمنا القول **أن الإنسان ينجذب إلى المسيح عندما يتلذذ بالحق،** عندما يبتهج بالتطويب، يبتهج بالبرّ وبالحياة الأبدية هذه كلها التي هي المسيح؟[1]]

"**إنه مكتوب في الأنبياء:**

ويكون الجميع متعلمين من الله.

فكل من سمع من الآب وتعلم يقبل إليَّ". [٤٥]

جاء ذلك في إرميا ٥٤: ١٣؛ وإشعياء ٣١: ٣٤. كيف يعلمنا الله؟ بأن يعلن حبه العملي لنا خلال صليب ابنه. كانوا قبلاً في رعبٍ من الله بكونه الديان، أما وقد أعلن حبه لهم بالصليب علمهم واجتذبهم إليه لكي يتمتعوا بالحياة الأبدية.

يعلق **القديس كيرلس الكبير** على قول السيد المسيح بأن الجميع يكونون متعلمين من الله، قائلاً: [حال كون الله آبًا، وهكذا يُدرك عنه ويُكرز به، فإنه بهذا يغرس معرفة ابنه الذاتي في سامعيه. وهكذا أيضًا يُقال عن الابن، أنه في الحقيقة منه بالطبيعة، فهو يعلن عن الآب. لهذا يقول: "أنا أظهرت اسمك للناس" (يو ١٧: ٦)... يزرع فينا الآب معرفة ابنه الذاتي، ليس بصوتٍ يشق عنان السماء من فوق، أو يلف الأرض لفًا كالرعد، بل بالاستنارة الإلهية، مشرقًا فينا لفهم الكتاب المقدس المُوحى به.]

❖ ألا ترون كرامة الإيمان، وأنه ليس من إنسان ولا بإنسان يتعلمون هذا، بل بالله نفسه؟[2]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ مكتوب في الأنبياء: "**ويكون الجميع متعلمين من اللَّه**" [٤٥]. لماذا أقول هذا يا أيها اليهود؟ الآب لا يعلمكم، فكيف يمكنكم أن تعرفوني؟ فإن كل رجال ذلك الملكوت سيتعلمون من اللَّه، ولا يتعلمون من بشرٍ. وإن كانوا يتعلمون بواسطة الناس إلا أن ما يفهمونه هو عطية داخلية لهم، يشرق في داخلهم، ويُعلن فيهم.

ما هو دور البشر الذين يعلنون عن الأخبار من الخارج؟ ما أفعل حتى الآن هو من الخارج. إنني أسكب أصوات ألفاظ الكلمات في آذانكم. ما قيمة ما أقوله أو ما أتكلم به إن لم يُعلن لكم عنه في

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:2-4,*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 46:1.*

الداخل؟

من الخارج يوجد من يزرع الشجرة، في الداخل خالق الشجرة. الذي يغرس والذي يروي يعملان في الخارج؛ هذا ما نفعله نحن، لكن "ليس الغارس شيئًا، ولا الساقي، بل اللَّه الذي ينمي" (١ كو ٣: ٧). بمعنى هؤلاء كلهم يتعلمون من اللَّه. من هم هؤلاء كلهم؟ "**كل من سمع من الآب وتعلم يقبل إليّ**" [٤٥]. **انظروا كيف يجتذب الآب، إنه يبهج بتعليمه لا باستخدام الإلزام**. انظروا كيف يجتذب: "**يكون الجميع متعلمين من اللَّه**" [٤٥]. هذا هو جذب الآب[1].

❖ إننا نعرف كيف يعلم اللَّه أولئك الذين هم ودعاء اللَّه. فإن الذين يسمعون من الآب ويتعلمون يأتون إلى ذاك الذي يبرر الفجار (يو ٦: ٤٥؛ رو ٤: ٥). لكي يحفظوا برّ اللَّه ليس فقط في ذاكرتهم، بل في تنفيذهم للبرّ. هكذا من يفتخر، يفتخر لا في نفسه، بل في الرب (١ كو ١: ١٣)، ويفيض حمدًا.

القديس أغسطينوس

"**ليس أن أحدًا رأى الآب إلا الذي من الله،**
هذا قد رأى الآب". **[٤٦]**

لا يعلمهم بأن يروه وجهًا لوجه ولا بحديثٍ صوتي مباشر، وإنما بعمل روحه القدوس فيهم. لم يرَ أحد قط الله إلا ابنه الذي في حضنه هو يراه ويخبر عنه (يو ١: ١٨).

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن السيد المسيح هنا يعني بطريقة ضمنية العظيم في الأنبياء موسى، فقد ظن بعض اليهود أنه إذ دخل إلى الظلمة الكثيفة رأى بعينيه الجسديتين الله الذي لا يُرى. هنا يؤكد السيد المسيح أنه هو وحده يرى الآب لأنه مولود منه. [لكن كيف وبأية وسيلة يرى الآب، أو يراه الآب، إن لساننا يعجز عن ذكر هذا الأمر، لكن علينا أن ندركه بطريقة إلهية.]

❖ رب قائلٍ يعترض: ماذا إذن، ألم يُكتب: "أن ملائكة الصغار كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السماوات" (انظر مت ٨: ١٠)؟ نعم لكن الملائكة ترى اللّه ليس كما هو، بل قدر ما تحتمل. إذ يقول يسوع المسيح: "**ليس أن أحدًا رأى الآب إلا الذي من الله، هذا قد رأى الآب**". فالملائكة ترى اللّه قدر ما تحتمل، ورؤساء الملائكة يرون قدر ما يحتملون، والعروش والسلاطين يرون أكثر من

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:7.*

السابقين، لكنها لا ترى كما يستحق اللّه[1].

فالابن، مع الروح القدس، هو وحده الذي يقدر أن يراه بحق كما هو، لأنه: "يفحص كل شيء حتى أعماق اللّه" (١ كو ٢: ١٠). هكذا الابن الوحيد مع الروح القدس يدركان الآب في كماله إذ قيل: "لا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له" (مت ١١: ٢٧).

إذ يرى الكل حسب احتماله، لذلك فهو يرى الآب بكماله، معلنًا اللّه "الآب" خلال الروح، إذ الابن مع الروح "واحد" مع الآب في اللاهوت.

المولود يعرف الوالد، والوالد يعرف المولود.

إن كان الملائكة جاهلين "بمعرفة اللّه في كماله" فلا يخجل أحدكم من الاعتراف بجهله. حقا إنني أتكلم الآن كما يتكلم أي السان في مناسبة ما، أما كيفية الكلام فلست أعرفه. إذن كيف أستطيع أن أخبركم عن واهب الكلام نفسه؟!

وإذ لا أقدر أن أخبركم عن سمات النفس المميزة لها، فكيف أصف واهب النفس؟![2]

❖ نحن نؤمن بإله واحد، الآب غير المفحوص، غير المنطوق به، الذي "لم يره أحد من الناس" بل "الابن الوحيد هو خبر" (يو ١: ٢٨)، لأن" الذي من الله يرى الآب" (١ تي ٦: ١٦)، هذا الذي تراه الملائكة على الدوام في السماوات (مت ١٨: ١٠) حسب درجة كل منهم. أما استنارة وجه الآب "في كماله" فستبقى في تفاوتها للابن مع الروح القدس[3].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ لقد أوضح هو نفسه أيضًا هذا وأظهر لنا المعنى الذي يقصده بقوله: "فكل من سمع من الآب وتعلم يقبل إليّ"، أضاف للفور ما يمكننا أن نفهمه: "ليس أن أحدًا رأى الآب إلا الذي من اللَّه، هذا قد رأى الآب" [٤٦].

ما هذا الذي يقوله؟ أنا أرى الآب، وأنتم لا ترونه، ومع هذا فأنتم لا تأتوا إليّ ما لم يجتذبكم الآب.

---

[1] تحدث القديس يوحنا الذهبي الفم فى مقاله عن "العناية الإلهية" ترجمة الأخت عايدة حنا فصل ٣ عن "قصر حكمة السمائيين في التعرف على اللَّه كما هو ولا أحكامه بكمالها". إذ يقول: "حقًا أن اللَّه حتى بالنسبة لهذه الطغمات غير مدرك، ولا يقدرون على الدنو منه، لهذا يتنازل بالطريقة التي جاءت في الرؤيا، لأن اللَّه لا يحده مكان ولا يجلس على عرش... وأما جلوسه على عرش وإحاطته بالقوات السمائية إنما هو من قِبَل حبه لهم".

[2] مقال ٦: ٦.

[3] مقال ٧: ١١.

وما هو اجتذاب الآب لكم سوى أنكم تتعلمون من الآب؟ وماذا تتعلمون من الآب إلا أن تسمعوا عنه؟ ماذا تسمعون عنه إلا أن تسمعوا كلمة الآب، أي تسمعون مني؟ في هذه الحالة عندما أقول: "كل من سمع من الآب وتعلم" يلزمكم أن تقولوا داخل أنفسكم: لكننا لم نرَ الآب قط، فكيف نسمع منه؟ اسمعوا مني، فإنه "ليس أن أحدًا رأى الآب إلا الذي من اللَّه، هذا قد رأى الآب". أنا أعرف الآب، أنا من الآب، ولكن بكوني الكلمة التي منه، ليس الكلمة التي تعطي صوتًا وتعبر، بل الكلمة الذي يبقى مع المتكلم ويجتذب السامع[1].

القديس أغسطينوس

"**الحق الحق أقول لكم**
من يؤمن بي فله حياة أبدية". **[٤٧]**

يعلن السيد المسيح في حديثه هذا أن المؤمن:
١. يجتذبه الآب خلال أعمال ابنه الخلاصية الجذابة.
٢. يسمع تعاليمه.
٣. يقبل الخلاص المقدم له.
٤. يقتات بالخبز السماوي.
٥. يُحفظ في الإيمان.
٦. لا يهلك بل يقوم في اليوم الأخير.
٧. يتمتع بالحياة الأبدية.

❖ باعتباره الحياة الأبدية يعد أن يعطي نفسه للذين يؤمنون به، أي "يحل المسيح بالإيمان في قلوبنا" (أف ٣: ١٧).

القديس كيرلس الكبير

❖ ليت ما يلي ذلك يحثنا: "**الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة الأبدية**". إنه يود أن يعلن ذاته من هو. إنه يقول من يؤمن بي يقتنيني. لأن المسيح نفسه هو اللَّه الحقيقي والحياة الأبدية. لذلك يقول: من يؤمن بي يدخل فيّ، ومن يدخل فيّ أكون له. وماذا يعني "أكون له"؟ تكون له الحياة الأبدية[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:9.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:10.*

القديس أغسطينوس

"أنا هو خبز الحياة". [٤٨]

"آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا". [٤٩]

هذا المن لم يحفظ أجسادهم من الموت، ولا وهبهم حياة أبدية. هذا حسب مفهومهم هم، إذ كانوا يعتبرون آباءهم قد هلكوا في البرية، وليس لهم حياة أبدية. أكلهم المن لم يحفظهم من غضب الله الذي حل عليهم بسبب تمردهم المستمر وتذمرهم في البرية (١ كو ١٠: ٣-٥).

❖ إنه يؤسس شيئًا لكي يجتذبهم، وهو أنهم يحسبون قد تأهلوا إلي أمور أعظم مما لآبائهم، يقصد الناس العجيبين الذين عاشوا في أيام موسى، فإنه بعد قول أن الذين أكلوا المن ماتوا أكمل "إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد" [٥١][1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"هذا هو الخبز النازل من السماء

لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت". [٥٠]

مقابل هذا جاء السيد ليقدم جسده خبزًا يسند أجسادهم فيمجدها ويهبها شركة مع النفوس إلى الأبد.

❖ الابن وحده وبحق هو خبز الحياة، والذين اشتركوا فيه مرة واختلطوا به بطريقة ما من خلال الشركة معه فقد ظهر أنهم فوق رباطات الموت نفسه. وقد سبق أن قلنا مرارًا أن المن يؤخذ بالأحرى كرمزٍ أو ظلٍ للمسيح، وكان يمثل خبز الحياة، ويسندنا المرتل في هذا صارخًا بالروح: "أعطاهم خبزًا من السماء، أكل الإنسان خبز الملائكة" (مز ٧٨: ٢٤-٢٥)... هنا الكلام موجه لنا نحن، لأنه أليس من الحماقة والجهل الشديد أن يفترض أن الملائكة القديسين الذين هم في السماء، بالرغم من أن لهم طبيعة غير جسدية، يمكنهم أن يشتركوا معنا في طعامٍ ماديٍ كثيفٍ؟

القديس كيرلس الكبير

❖ إلى يومنا هذا نتقبل الطعام المنظور، فالسرّ شيء، وفاعلية السرّ أمر آخر.

كم من كثيرين يتناولون من المذبح ويموتون؟ يموتون حقًا بتناولهم إيّاه! لذلك يقول الرسول: "يأكل ويشرب دينونة لنفسه" (١ كو ١١: ٢٩). فإنه أليس ما أخذه في فمه من الرب كان سُمًّا ليهوذا. ومع ذلك أخذه، وعندما تناوله دخله العدو، ليس لأن ما تناوله أمر شرير، وإنما لأنه هو شرير، تناول ما

[1] *Homilies on St. John, Hom. 46:2.*

هو صالح بطريقة شريرة.

إذن انظروا أيها الإخوة إنكم تتناولون الخبز السماوي بمعنى روحي، قدموا طهارة للمذبح.

فمع أن خطاياكم يومية فعلى الأقل لا تسمحوا أن تكون مميتة.

قبل أن تقتربوا إلى المذبح ضعوا في اعتباركم حسنًا أن تقولوا: "اغفر لنا ما علينا، كما نغفر نحن أيضًا لمن لنا عليهم". أنتم تغفرون فيُغفر لكم.

اقتربوا في سلام، إنه خبز لا سم.

ولكن انظروا إن كنتم تغفرون، فإنكم إن لم تغفروا تكذبون، وتكذبون على ذاك الذي لا يُخدع. يمكنك أن تكذب على اللَّه لكنك لا تقدر أن تخدعه[1].

القديس أغسطينوس

"**أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء.**

إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد،

والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم". **[٥١]**

❖ أموت لأجل الجميع، لكي أحيي الجميع بذاتي. وقد صيَّرت جسدي فدية لأجل الجميع. لأن الموت سوف يموت في موتي، ومعي ستقوم طبيعة الإنسان الساقطة. فمن أجل هذا صرت مثلك أيها الإنسان، صرت من ذرية إبراهيم حتى "أشابه اخوتي في كل شيء" (عب ٢: ١٧).

❖ يعطي جسد المسيح حياة لكل من يشترك فيه، لأنه يطرد الموت، حتى يأتي ويدخل إلى أناسٍ مائتين، ويزيل الفساد، إذ أن (جسد الكلمة) ممتلئ بالكامل بالكلمة الذي يبيد الفساد.

القديس كيرلس الكبير

❖ لا تجعل فمك مستعدًا بل قلبك... إذ نقبله نعرف ما نفكر فيه. نقبل فقط القليل وننتعش في القلب. ما يقوتنا ليس ما نراه بل ما نؤمن به. لهذا فنحن لا نطلب ما يمس حواسنا الخارجية، ولا نقول: "ليؤمن الذين يرون بأعينهم ويلمسون بأيديهم الرب نفسه بعد قيامته إن كان ما يُقال هو حق إننا لم نلمسه، فلماذا نؤمن؟"[2]

القديس أغسطينوس

يشير **القديس يوحنا الذهبي الفم** إلى ثمار الإفخارستيا:

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:11.*

[2] *Sermons on N.T. Lessons, 62:5.*

❖ يكون للذين يشتركون فيهما (جسد الرب ودمه) رزانة النفس، غفران الخطايا، شركة الروح، بلوغ ملكوت السماء، الدالة لديه، وليس للحكم والدينونة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يصف **القديس إيريناؤس** الإفخارستيا أنها خبز الخلود، كما يدعوه **القديس أغناطيوس الأنطاكي** دواء الخلود[2].

❖ في الأيام الأخيرة لخص كل شيء في نفسه؛ فقد جاء ربنا إلينا ليس حسب إمكانياته هو، وإنما حسبما نستطيع نحن أن نراه. حقًا كان يمكنه أن يأتي إلينا في مجده الذي لا يُعبّر عنه، لكننا لم نكن قادرين أن نحتمل عظمة مجده. ولهذا السبب قدم خبز الآب الكامل نفسه لنا في شكل لبنٍ بكوننا أطفالاً صغار. هكذا كان مجيئه كإنسان لكي نتقوّت، أقول، من صدر جسده، وبمثل هذا اللكتات (فرز اللبن) نعتاد أن نأكل كلمة اللَّه ونشربه، فنحمل في داخلنا خبز الخلود، الذي هو روح الآب[3].

القديس إيريناؤس

"فخاصم اليهود بعضهم بعضا قائلين:

كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟" [٥٢]

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** علي هذه العبارة أنه ما كان يليق باليهود أن يتساءلوا هكذا بعد أن رأوا معجزة الخبزات. كما جاء في تعليقه أيضًا:

❖ يلزمنا أن نفهم الأسرار، ما هي، ولماذا أعطيت، وما النفع منها.

نصير جسدًا واحدًا، و"أعضاء جسده ومن عظامه" (أف ٥: ٣٠). ليت المتناولون يتتبعون ما أقوله. لكي ما نصير هكذا ليس بالحب وحده، بل وبالفعل ذاته، لنتحد بهذا الجسد. هذا يتحقق بالطعام الذي قدمه لنا مجانًا، مشتاقًا أن يظهر حبه لنا. لهذا مزج نفسه بنا، وعجن جسد بأجسادنا، لكي نصير واحدًا، كجسد يتحد بالرأس...

يقودنا المسيح إلى صداقة حميمة ليظهر حبه لنا. إنه يهب الذين يرغبونه ليس فقط أن يروه بل يلمسوه ويأكلوه، ويثبتوا أسنانهم في جسده، ويقبلون ويشبعون كل حبهم له.

---

[1] *The Liturgy of St. John Chrysostom, prayer ofter the Epiclesis.*
[2] *Ad. Eph. 20:1.*
[3] *Adv. Haer 4:38:1. PG 7:1105-6.*

ليتنا نعود من تلك المائدة كأسود تتنفس نارًا ترعب الشيطان، مفكرين في رأسنا وفي حبه الذي أظهره لنا.

غالبًا ما يقدم الآباء أبناءهم لآخرين كي يطعموهم؛ أما هو فيقول: "أما أنا فلا أفعل ذلك، أنا أطعمتكم بجسدي، مشتاقًا أن تصيروا جميعكم مولودين ميلادًا جديدًا ولكم رجاء صالح في المستقبل. فإن من يعطيكم ذاته هنا كم بالأكثر يعطيكم فيما بعد.

أردت أن أصير أخاكم، ومن أجلكم شاركتكم في اللحم والدم، وأعود فأعطيكم الجسد والدم لكي بذلك أصير قريبكم".

هذا الدم يجعل صورة ملكنا متجددة فينا، تبعث جمالاً لا يُنطق به، ولا تدع سمو نفوسنا أن ينزع منا، بل ترويه دائمًا وتنعشه.

الدم الذي يستخرج من طعامنا لا يصير دمًا في الحال بل يصير شيئًا آخر، أما هذا فلا يفعل هكذا، إنما في الحال يروي نفوسنا، ويعمل فيها بقوة قديرة.

هذا الدم السري إن تناولنا بحق يطرد الشياطين، ويجعلهم بعيدين عنا، بينما يدعو الملائكة ورب الملائكة إلينا. فحالما يرون دم الرب تهرب الشياطين وتركض الملائكة معا... سفك هذا الدم وجعل السماء سهلة المنال[1].

❖ بالحق مهوبة هي أسرار الكنيسة، مهوب بالحق هو المذبح. ينبوع يصعد من الفردوس، ويفيض بأنهار مادية؛ من هذه المائدة يصدر ينبوع يبعث أنهارًا روحية[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ رب الجميع نفسه الذي يريدنا أن نكون هكذا يقول بالنبي إشعياء: "لأن أفكاري ليست أفكاركم، ولا طرقكم طرقي يقول الرب. لأنه كما علت السماوات عن الأرض، هكذا طرقي عن طرقكم، وأفكاري عن أفكاركم" (إش ٥٥: ٨–٩). لكن ذاك الذي يفوقنا بما لا يُقاس من عظمة في الحكمة والقدرة، كيف لا يفعل شيئًا عجيبًا يفوق فهمنا؟...

إن كنت تصر أيها اليهودي قائلاً: كيف؟ فإني أيضًا أقول لك...

كيف خرجت من مصر؟

كيف تحولت عصا موسى إلى حية؟...

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 46:3.*
[2] *Homilies on St. John, Hom. 46:4.*

لو طبقت كلمة "كيف" لما آمنت أبدًا بالكتاب كله، ولطرحت عنك كل كلمات القديسين.

❖ الذين آمنوا الآن لهم القوة على التعلم أيضًا. لأنه هكذا يقول إشعياء النبي: "إن كنتم لا تؤمنون فلن تفهموا" (إش ٧: ٩ *LXX*). لهذا كان من الصواب أن يتأصل فيهم الإيمان أولاً ثم يأتي بعد ذلك الفهم للأمور التي يجهلونها.

القديس كيرلس الكبير

❖ وكما اضطرب نيقوديموس إذ قال: "كيف يمكن الإنسان أن يُولد وهو شيخ، ألعله يقدرًان يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟" (يو ٣: ٤)، هكذا اضطرب هؤلاء إذ قالوا: "**كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟**"

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يعرف المؤمنون جسد المسيح إن لم يهملوا في أن يكونوا جسد المسيح. ليصيروا جسد المسيح إن أرادوا أن يعيشوا بروح المسيح[1].

القديس أغسطينوس

"**فقال لهم يسوع:**
الحق الحق أقول لكم:
إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان،
وتشربوا دمه،
فليس لكم حياة فيكم". **[٥٣]**

❖ إن كان بلمسة جسده المقدس وحدها (في إقامة ابنة يايرس لو ٨: ٥٤؛ وإقامة الشاب وحيد أمه لو ٧: ١٢–١٤) يعطي حياة لجسد تحلل فكيف لا ننتفع نحن بأكثر غنى بالبركة (التناول) التي نشترك فيها، إذ حين نتذوقها أيضًا ننال الواهب الحياة؟ لأنه سوف تتحول بالتأكيد إلى خيرنا الذاتي، أي الخلود...

نحن القابلون للفساد بطبيعة جسدنا، نهجر ضعفنا الطبيعي باختلاطنا بالحياة، ونتبدل إلى خاصية الحياة. فالأمر لا يحتاج فقط إلى إعادة خلقة للنفس بالروح القدس إلى جدة الحياة، بل وأن ذاك الجسد الأرضي الغليظ يلزمه أن يتقدس ويُدعى إلى عدم الفساد بواسطة الشركة الأكثف والأقرب.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:13.*

القديس كيرلس الكبير

يندهش **القديس كيرلس الكبير** من اليهود الذين آمنوا أنه بأكل لحم خروف الفصح ونضح دمه على الأبواب يهرب الموت منهم، ويُحسبوا مقدسين، ولن يعبر بهم المهلك، فكيف لا يؤمنون بأن تناول جسد حمل الله ودمه يهبهم الحياة الأبدية.

❖ عندما أعطانا كلاً من جسده ودمه انتعاشًا صحيًا، وباختصار حلَّ سؤال عظيم بخصوص الكمال (أي كل من الرأس المسيح والجسد الكنيسة). ليت الذين يأكلون يستمرون في الأكل، والذين يشربون أن يشربوا. ليت الجائعون والظمأى يأكلون الحياة ويشربون الحياة... فإن الأمر سيكون هكذا، أي أن جسد المسيح ودمه يكونان حياة الإنسان. إن كان ما نأخذه في السرّ هو أمر منظور فإنه في الحق نفسه يؤكل ويُشرب روحيًا[1].

القديس أغسطينوس

❖ الطعام المدعو "إفخارستيا"، لا يَسمح لأحد أن يشترك فيه إلا من يؤمن أن ما نعلم به هو حقيقي، وأن يغتسل بالغسل، أي غفران الخطايا للميلاد الجديد، وأن يحيا كما علمنا المسيح. فإننا لا نقبل هذا كخبز عام ولا شرب عام، بل أن يسوع المسيح مخلصنا صار جسدًا بلوغوس لله؛ أخذ جسدًا ودمًا لأجل خلاصنا، هكذا نحن تعلمنا أن الطعام المقدس بالصلاة التي لكلماته، والذي ينتعش به جسدنا ودمنا بالتحول *transmutation* من جسد يسوع ودمه هذا الذي صار جسدًا ودمًا[2].

القديس يوستين الشهيد

❖ بخصوص صدق الجسد والدم لا يوجد أي مجال للشك. فإنه الآن بإعلان الرب نفسه وإيماننا، هو جسد حقيقي ودم حقيقي. وما يؤكل ويشرب يعبر بنا لكي نكون في المسيح والمسيح فينا[3].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

❖ نقدم له ما له ما معلنين باستقامة الشركة والاتحاد للجسد والروح. فكما أن الخبز الذي ينتج عن الأرض عندما يقبل استرحام (دعوة) الله لا يعود بعد خبزًا عاديًا بل إفخارستيا، يحوي حقيقتين: حقيقة أرضية وحقيقة سماوية، هكذا أيضًا أجسادنا إذ تتقبل الإفخارستيا لا تعود قابلة للفساد إذ

---

[1] *Sermons on N.T. Lessons, 81:1.*
[2] *The Faith of Christians, First Apology, 65- 67.*
[3] *On The Trinity, Book 8:14.*

تترجي القيامة للأبدية[1].

❖ بدمه خلصنا... وإذ نحن أعضاءه ننتعش أيضا بوسائل خليقته...

إنه يعرف الكأس (وهي جزء من الخليقة) إنها دمه، التي منها يندى دمنا، والخبز (وهو أيضًا جزء من الخليقة) قد أقامه كجسده، الذي منه يهب نموًا لأجسادنا... لذلك فإن الكأس الممزوجة والخبز المكسور... يصير إفخارستيا دم المسيح وجسده، منه ينمو جسدنا ويستند، فكيف يمكن للهراطقة أن يؤكدوا أن الجسد عاجز عن تقبل عطية الله، التي هي الحياة الأبدية، والتي ينتعش (الجسم) بجسد الرب ودمه ويصير عضوًا له؟ فإن الطوباوي بولس يعلن أننا "أعضاء جسمه، من جسده وعظامه" (أف ٥: ٣٠).

لا يتحدث بهذه الكلمات عن الإنسان الروحي غير المنظور، فإن الروح ليس له عظم ولا الجسد، إنما يشير إلى ذلك التدبير الذي به صار الرب إنسانا حقًا يحوى جسمًا وأعصاب وعظام، ذاك الجسد الذي ينتعش بالكأس الذي هو دمه ويتقبل نموًا من الخبز الذي هو جسده...

هكذا أيضًا أجسامنا إذا تنتعش به فإنها إذ تودع في الأرض وتتحلل هناك ستقوم في الوقت المعين، يهبها لوغوس الله القيامة لمجد الله اللآب، هذا الذي يهب مجانًا المائت عدم الموت والفاسد عدم الفساد، إذ قوة الله تكمل في الضعف (٢ كو ٩: ١٢)[2].

القديس إيريناؤس

❖ يوجد كأس، به تطهر حجرات النفس الخفية، كأس لا حسب التدبير القديم، ولا ممتلئ من كرمة عامة، بل كأس جديد، نازل من السماء إلى الأرض (يو ٦: ٥٠-٥١)، مملوء بالخمر المعصور من عنقود عجيب معلق في شكل جسدي على خشبة الصليب، كما يتدلّى العنب من الكرمة. من هذا العنقود إذن الخمر الذي يفرح قلب الإنسان (قض ٩: ١٣)، يزيل الحزن، ينسكب فينا ويحمل رائحة الدهش التي للإيمان والتقوى الحقيقية والطهارة[3].

القديس أمبروسيوس

"من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية،
وأنا أقيمه في اليوم الأخير". [٥٤]

---

[1] *Adv. Haer. 4:18:5.*
[2] *Adv. Haer. 5:2:2,3.*
[3] *On the Christian Faith, Book 2:20:135.*

❖ لم يقل صار في الجسد بل **صار جسدًا**، لكي يوضح الاتحاد. ونحن لا نقول إن الله الكلمة الذي من الآب قد تحول إلى طبيعة الجسد، أو أن التجسد تحول إلى الكلمة... لكن بطريقة لا يُنطق بها وتفوق الفهم البشري اتحد الكلمة بجسده الخاص، وإذ ضمه كله إلى نفسه... قد طرد الفساد من طبيعتنا وأزاح أيضًا الموت الذي ساد من القديم بسبب الخطية. لذلك فإن كل من يأكل من الجسد المقدس الذي للمسيح فله الحياة الأبدية، لأن الجسد له في ذاته الكلمة الذي هو للحياة بالطبيعة. لهذا يقول: "**وأنا أقيمه في اليوم الأخير**". وبدلاً من القول "جسدي يقيمه" أي يقيم كل من يأكل جسدي، قد وضع الضمير "أنا" في عبارة "**أنا أقيمه**"، لا كأنه شيء آخر غير جسده الخاص به، لأنه بعد الاتحاد لا يمكن أبدًا أن ينقسم إلى اثنين. لهذا يقول: "أنا الله صرت فيه، من خلال جسدي الخاص نفسه، أي إنني سأقيم في اليوم الأخير ذاك الذي يأكل جسدي. لأنه كان من المستحيل حقًا أن الذي هو الحياة بالطبيعة ألا يقهر الفساد بشكلٍ أكيدٍ، وألا يسود على الموت.

القديس كيرلس الكبير

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن السيد المسيح وهبنا جسده واهب الحياة كخميرة تُلقى فينا، فيصير العجين كله مخمرًا. وكما تصير الخميرة في العجين كذلك العجين في الخميرة، هكذا يثبت المسيح فينا ونحن فيه. مرة أخرى يقدم لنا جسده ودمه كبذارٍ في أعماقنا [هكذا يخفي ربنا يسوع المسيح الحياة فينا من خلال جسده الخاص، ويغرسها كبذرة خلود، فيبيد كل الفساد الذي فينا].

❖ لئلا يظنوا أن الوعد بالحياة الأبدية في هذا الطعام والشراب بطريقة بها لا يموتوا الآن جسديًا، تنازل وواجه هذا الفكر عندما قال: "**من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية**"، للحال أكمل: "**وأنا أقيمه في اليوم الأخير**" [٥٤]. بهذا فإنه حسب الروح تكون له حياة الأبدية في الراحة التي تنالها أرواح القديسين، أما بالنسبة للجسد فإنه لا تسلب منه حياته الأبدية، إنما على العكس سينالها في قيامة الأموات في اليوم الأخير[1].

القديس أغسطينوس

"**لأن جسدي مأكل حق،**
ودمي مشرب حق". **[٥٥]**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:16.*

❖ ماذا يقول؟ إما أنه يود القول بأنه طعام حقيقي يخلِّص النفس، إذ يؤكد لهم... أنه لا يليق بهم أن يظنوا أن كلماته لغز أو مثل، بل ليعرفوا على وجه الخصوص أنه توجد حاجة لأكل الجسد[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أشبع طعام المن حاجة الجسد زمانًا يسيرًا جدًا، أبعد ألم الجوع، لكنه صار بعدها بلا قوة، ولم يهب الذين أكلوه حياة أبدية. إذن لم يكن ذاك هو الطعام الحقيقي والخبز النازل من السماء. أما الجسد المقدس الذي للمسيح الذي يقوت إلى حياة الخلود والحياة الأبدية فهو بالحقيقة الطعام الحقيقي.

لقد شربوا ماءً من صخرة أيضًا... وما المنفعة التي عادت على الذين شربوا لأنهم قد ماتوا. لم يكن ذاك الشراب أيضًا شرابًا حقيقيًا، بل الشراب الحق في الواقع هو دم المسيح الثمين، الذي يستأصل الفساد كله من جذوره، ويزيح الموت الذي سكن في جسم الإنسان.

القديس كيرلس الكبير

"من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه". [٥٦]

❖ يقوت المسيح كنيسته بهذه الأسرار، فبهذه يتقوى جوهر النفس...

لهذا فإن الكنيسة أيضًا إذ تنظر نعمة عظيمة كهذه تحث أبناءها وأصدقاءها أن يأتوا معًا إلى الأسرار، قائلة: "كلوا يا أصدقاء، وأشربوا، نعم اشربوا يا اخوة بفيض" (نش ١: ٥). ما نأكله وما نشربه قد أوضحه الروح في موضع أخر قائلاً: "ذوقوا وانظروا فإن الرب صالح، طوبى للرجل الذي يصنع رجاءه فيه" (مز ٨: ٣٤).

في هذا السرّ المسيح إذ هو جسد المسيح، لذلك فهو ليس بالطعام الجسماني بل الروحي... ذاك الطعام كما يسجل النبي يقوي قلوبنا، وهذا الشراب يبهج قلب الإنسان (مز ١٠٤: ١٥)[2].

القديس أمبروسيوس

❖ يا له من تنازل مهيب! الخالق يعطي ذاته لخليقته لأجل بهجتهم.

يعطي الحياة نفسه للقابلين للموت، كطعامٍ وشرابٍ، فيحثنا: "تعالوا كلوا جسدي واشربوا الخمر الذي مزجته لكم. أعددت نفسي طعامًا. مزجت نفسي لمن يرغبونني. بإرادتي صرت جسدًا، صرت شريكًا لجسدكم، وأنا حبة الحنطة الواهبة الحياة، أنا هو خبز الحياة. اشربوا الخمر الذي مزجته لكم

[1] *Hom 47. PG 59:275.*
[2] *On the Mysteries 9:55,58.*

فإني مشرب الخلود، أنا الكرمة الحقيقية (يو ١٥: ١) اشربوا الخمر الذي مزجته لكم (أم ٥: ٩)[1].

❖ أقل كمية من البركة (الإفخارستيا) تخلط جسمنا كله معها، وتملأ بفعلها المقتدر. هكذا جاء المسيح ليكون فينا ونحن أيضًا فيه.

القديس كيرلس الكبير

❖ في هذه الأيام يطعمكم المعلمون، يطعمكم المسيح يوميًا. مائدته دائمًا معدة أمامكم.

لماذا إنكم ترون أيها السامعون المائدة ولا تأتون إلي الوليمة؟...

ما يقوله الرب يعرفه المؤمنون حسنًا. أما أنت أيها الموعوظ المدعو سامعًا فأنت أصم. فإنك تفتح أذني الجسم، متطلعا أنك تسمع الكلمات التي قيلت، لكن أذني قلبك مغلقتان، إذ لا تفهم ما يُقال...

هوذا عيد القيامة على الأبواب، قدم اسمك للعماد... لكي تفهم معني: "**من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه**" [٥٦][2].

❖ كيف يلزمنا أن نفهمه؟

هل تشمل هذه الكلمات ("**من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه**") حتى أولئك الذين قال عنهم الرسول: "يأكلون ويشربون دينونة لأنفسهم" (١ كو ١١: ٢٩) عندما يأكلون هذا الجسد ويشربون هذا الدم؟ هل يهوذا الذي باع سيده وخانه (مع أن لوقا الإنجيلي يعلن بكل وضوح أنه أكل وشرب مع بقية تلاميذه سرّ جسده ودمه الأول بيدي الرب) هل ثبت في المسيح والمسيح فيه؟

هل كثيرون من الذين يتناولون ذاك الجسد ويشربون ذاك الدم في رياء أو الذين بعد تناولهم من الجسد والدم يرتدون يثبتون في المسيح والمسيح فيهم؟[3]

القديس أغسطينوس

"كما أرسلني الآب الحي،
وأنا حي بالآب،
فمن يأكلني فهو يحيا بي". [٥٧]

جاء تعبير "**أنا حي بالآب**" في اليونانية تحمل معنى أن علة حياته الآب، فالابن لا يحيا وحده، لكن حياة الآب هي حياة الابن بلا انفصال.

---

[1] *Meditation on the Mystical Supper, Hom 10. PG 77, in Toal 3:155-157.*
[2] *Sermons on N.T. Lessons, 82:1.*
[3] *Sermons on N.T. Lessons, 21:17.*

❖ حينما يقول الابن أنه أُرسل يشير إلى تجسده... من يأخذني في نفسه بالاشتراك في جسدي سيحيا، ويُطَّعم بالكامل فيّ، أنا القادر أن أهبه حياة، لأنني من أصل واهب الحياة، أي الله الآب.

القديس كيرلس الكبير

❖ يسأل البعض: كيف يكون الابن مساويًا للآب عندما يقول أنه يحيا بالآب؟

ليت هؤلاء الذين يعترضون علينا في هذه النقطة يخبروننا أولاً ما هي حياة الابن؟ هل هي حياة ممنوحة بواسطة الآب لمن هو في حاجة إلى حياة؟ بل كيف يمكن للابن أن يكون في حاجة أن يملك حياة وهو نفسه الحياة، إذ يقول: "أنا هو الطريق والحق والحياة"؟

حقًا حياته أبدية، وسلطانه أبدي. هل وُجد وقت كانت فيه الحياة لا تملك ذاتها؟

تأملوا ما قُرأ اليوم بخصوص الرب يسوع أنه "مات لأجلنا حتى إذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعًا معه" (١ تس ٥: ١٠). ذاك الذي موته هو حياة، ألا يكون لاهوته حياة، متطلعين إلى لاهوته أنه حياة أبدية؟

لكن هل حياته بالحقيقة هي في سلطان الآب؟ لماذا؟

لقد أظهر أنه حتى حياته الجسدية ليست في سلطان آخر كما سُجل لنا: "أضع حياتي لكي آخذها. لا يأخذها إنسان مني، بل أنا أضعها بنفسي. لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أيضًا أن آخذها. هذه الوصية قبلتها من أبي".

إذن كيف يُنظر إلى حياته الإلهية كمن تعتمد على سلطان آخر إن كانت حياته الجسدية لا تخضع لسلطان غير سلطانه؟ إنما يوجد سلطان آخر من أجل وحدة السلطان. وذلك كما أعطانا أن نفهم بأن وضع حياته تحقق بسلطانه وبكامل حرية إرادته، هكذا أيضًا يعلمنا أنه يضعها في طاعة لأمر أبيه، هنا الوحدة بين إرادته وإرادة أبيه[1].

القديس أمبروسيوس

"هذا هو الخبز الذي نزل من السماء،
ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا،
من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد". [٥٨]

❖ سبق فأخبر النبي ملاخي أحد الاثني عشر: "ليست لي مسرة بكم قال الرب القدير، ولا أقبل تقدمة

[1] *Of the Christian Faith, 4:10:118-122.*

من يدكم، لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم بين الأمم، وفي كل مكان يُقرب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة، لأن اسمي عظيم بين الأمم "(مل ١: ١٠-١١). تشير هذه الكلمات بطريقة واضحة أن الشعب القديم (اليهود) سيتوقفون عن تقديم التقدمات لله، وإنما في كل موضع ستقدم إليه ذبيحة طاهرة، وإن اسمه سيتمجد بين الأمم. ولكن أي اسم لآخر يتمجد بين الأمم مثل ذاك الذي لربنا، الذي به يتمجد الآب والإنسان أيضًا؟ ولأن هذا هو اسم ابنه الذي صار جسدًا بواسطته لذا يدعوه "اسمه"[1].

القديس إيريناؤس

❖ يليق بالأبدي أن يعطي ما هو أبدي، لا أن يعطي تمتعًا بطعامٍ وقتي بالكاد يقدر أن يدوم لحظات قليلة... يليق بالذي نزل آنذاك أن يجعل المشتركين في تناوله أسمى من الموت والاضمحلال.

القديس كيرلس الكبير

❖ إذن نحن نحيا به، بتناولنا إيّاه، أي بنوالنا الحياة الأبدية، التي ليست لنا من ذواتنا.

من جهة هو حي بالآب الذي أرسله، إذ أخلى نفسه، وأطاع حتى موت الصليب" (في ٢: ٨)...

بقوله "**أنا حيّ بالآب**" يعني أنه من الآب، وليس الآب منه؛ يقال هذا دون مساس مساواته له. وأما بقوله: "**من يأكلني فهو يحيا بي**" لا يعني أن مساواته للآب كمساواتنا نحن له، وإنما يظهر نعمة الوسيط "**هذا هو الخبز الذي نزل من السماء**" [٥٨].

بأكله نحيا، إذ لا نستطيع أن تكون لنا الحياة الأبدية من أنفسنا. يقول: "**ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا، من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد**" [٥٨]. لأن هؤلاء الآباء موتى، ويُفهم منه أنهم لا يعيشوا إلى الأبد (بواسطة المن). أما الذين يتناولون المسيح فبالتأكيد يموتون وقتيًا لكنهم يحيون أبديًا، لأن المسيح هو حياة أبدية[2].

القديس أغسطينوس

"قال هذا في المجمع وهو يعلم في كفرناحوم". [٥٩]

❖ رأوه يعلِّم الجميع علنًا في المجمع، كما يقول هو نفسه بالنبي إشعياء أيضًا: "لم أتكلم بالخفاء في مكانٍ مظلم من الأرض" (إش ٤٥: ١٩)، لأنه كان يتكلم بتلك الأمور علنًا.

القديس كيرلس الكبير

---

[1] *Adv. Haer. 4:17:5, 6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 26:19-20.*

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح ألقي حديثه في المجمع لسببين: الأول لكي يقتنص أكبر عدد ممكن من أعدائه، والثاني أنه أراد تأكيد عدم معارضته للآب. فإن كانوا يخدمون الله في الهيكل، فهو لا يتحاشى الهيكل بل يحسبه بيت أبيه الذي يعلم فيه.

٥. تذمر البعض

"فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا:

إن هذا الكلام صعب،

من يقدر أن يسمعه؟" [٦٠]

واضح أنه بجوار الاثني عشر تلميذًا كثيرون كانوا يصحبونه. استصعب بعضهم حديثه بخصوص شخصه كسماوي، وتقديم جسده ودمه حياة أبدية، فتركوه.

❖ يبهج الإنسان الروحي نفسه بكلمات مخلصنا، ويصيح عن حق: "ما أحلى قولك لحنكي، أحلى من العسل لفمي" (مز ١١٩: ١٠٣). أما الجسداني ففي جهل يحسب السرّ الروحي حماقة... يليق بالذي يركض نحو استقامة الإيمان الذي في المسيح أن يسافر عبر طريق ملوكي.

القديس كيرلس الكبير

❖ يعطينا الرب جسده لنأكل، مع هذا إن فهمناه حسب الجسد فهذا موت، بينما يقول عن جسده أن فيه حياة أبدية. لهذا يلزمنا ألا نفهم الجسد جسدانيًا[1].

القديس أغسطينوس

"فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا،

فقال لهم أهذا يعثركم؟" [٦١]

بقوله هذا لتلاميذه أوضح لهم أنه السماوي العارف بالقلوب. وإذ لا يمكن أن يُخدع بالمظهر لا يخدع هو أيضًا غيره. بهذا أوضح لهم أنه الله وتعليمه هو الحق.

"**فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا**" [٦١]. علم أفكارهم الداخلية بسلطانه الإلهي، إذ لا يُخفى عنه شيء ما، وليس خلال إعلان إلهي كما كان يحدث مع بعض الأنبياء. إنه الكلمة الإلهي الذي يميز أفكار القلب (عب ٤: ١٢-١٣). لذا لاق بنا أن نقدس أفكارنا بروحه القدوس، وليس فقط كلماتنا المنطوق بها وتصرفاتنا الظاهرة.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:1.*

"**فإن رأيتم ابن الإنسان صاعدًا إلى حيث كان أولا**". **[٦٢]**

هنا يقدم تلميحًا لصعوده إلى السماء، لأن التمتع بجسد الرب ودمه يهبنا رفع القلب والذهن وكل الكيان الداخلي للتمتع بالشركة مع المسيح السماوي.

❖ استخدم المسيح هذا المعنى في وقت خطابه مع نثنائيل، إذ قال له: هل آمنت لأني قلت لك إني رأيتك تحت التينة؟ سوف ترى أعظم من هذا" (يو ١: ٥٠). وفي وقت مفاوضته نيقوديموس قال: "وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء" (يو ٣: ١٣).

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يعرفوا جمال السرّ، ولا ذلك التدبير البديع جدًا الخاص به. إلى جانب ذلك فإنهم قد تناقلوا هذا الأمر مع أنفسهم، كيف يمكن للجسد البشري أن يغرس فينا حياة أبدية، كيف يمكن لشيءٍ من نفس طبيعتنا أن يهب خلودًا؟ وإذ يعرف المسيح أفكارهم، لأن كل شيء عريان ومكشوف لعينيه (عب ٤: ١٣)، فإنه يشفي أسقامهم أيضًا مرة أخرى، فيقودهم بيده بطرقٍ متنوعة إلى فهم هذه الأمور التي كانوا لا يزالوا يجهلونها بعد... إن كنتم تفترضون أن جسدي لا يستطيع أن يهبكم حياة، فكيف له أن يصعد إلى السماء كطائرٍ؟ لأنه إن كان لا يقدر أن يحيي، لأنه ليس من طبيعته أن يحيي، فكيف سيحلق في الهواء، وكيف يصعد إلى السماء؟ لأن هذا أيضًا مستحيل. لكن ذاك الذي جعل الجسد الأرضي سماويًا، فسيجعله واهبًا للحياة أيضًا حتى إن كانت طبيعته تتحلل، فيما يختص بتكوينه الخاص.

القديس كيرلس الكبير

❖ قال لهم إنه سيصعد إلى السماء، حتمًا بكليته. "**فإن رأيتم ابن الإنسان صاعدًا إلى حيث كان أولاً**" [٦٢]. عندئذٍ بالتأكيد على الأقل سترون أنه لا يكون ذلك بالطريقة التي تظنون أنه بها يوزع جسده. بالتأكيد عندئذٍ سيدركون أن نعمته لا تُستهلك بالأكل[1].

القديس أغسطينوس

"**الروح هو الذي يحيي،**
أما الجسد فلا يفيد شيئًا،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27: 3.*

الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة". [٦٣]

❖ حينما تمعنون النظر في سرّ التجسد، وتعرفون من هو ذاك الذي حلّ في هذا الجسد، تشعرون حتمًا ودون أن تتهموا الروح الإلهي نفسه أيضًا، أن الجسد يمكنه أن يهب حياة، مع أن الجسد في حدّ ذاته لا يفيد شيئًا البتة. لأنه إذ اتحد الجسد بالكلمة واهب الحياة صار واهبًا للحياة كلية، مرتفعًا إلى قوة الطبيعة الأكثر علوًا، دون أن يلزم ذاك الذي لا يمكن إخضاعه بأي حال إلى التحول إلى طبيعته الخاصة.

القديس كيرلس الكبير

❖ "**الروح هو الذي يحي، وأما الجسد فلا يفيد شيئًا**". هذا هو ما يقوله: يوجد احتياج أن تستمروا في الاستمتاع روحيًا بالأمور الخاصة بي، لأن من يسمع جسدانيًا لا ينتفع شيئًا، ولا ينتفع بأي صلاح". إنه لأمر جسداني أن تحتقروا من نزل من السماء، وتظنوه انه ابن يوسف.

كيف يمكن لهذا أن يعطينا جسده لنأكل؟ [٥٢]. كل هذه الأمور جسدانية، بينما يوجد احتياج لفهمهما سرائريًا وروحيًا...

"**الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة**" [٦٣]، بمعنى إنها كلمات إلهية روحية، ليس فيها شيء جسدي، ولا تتبع نظام الطبيعة، بل هي متحررة من مثل هذه الضرورة، وهي فوق القوانين نزلت لأجل هذا العالم، ولها أيضًا معني آخر مختلف.

الآن كما في هذه العبارة قال "**روح**" عوضًا عن "روحي"، لذلك عندما يتحدث عن جسد لا يقصد أمورًا جسدية بل الاستماع الجسداني، مشيرًا في نفس الوقت إليهم، لأنهم دائمًا يطلبون الجسديات عندما كان يلزمهم أن يطلبوا الروحيات. فإن من يتقبلها جسدانيًا لا ينتفع شيئًا.

ماذا إذن هل جسده ليس بجسد؟ بالتأكيد هو، فكيف يقول إذن "**الجسد لا ينفع شيئًا**"؟ **إنه لا يتحدث عن جسده، حاشا! بل عن الذين يقبلون كلماته بطريقة جسدانية.** ماذا "يفهم جسدانيًا؟ التطلع إلي ما هو أمام عيوننا مجردًا دون تصور ما هو وراءه، هذا هو الفهم الجسداني. ولكن **يليق بنا ألا نحكم هكذا بالنظر بل نتطلع إلي كل الأسرار بالعيون الداخلية.** هذا هو "النظر روحيًا"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يتساءل **القديس أغسطينوس:** كيف يقول السيد المسيح: "**أما الجسد فلا يفيد شيئًا [٦٢]**، بينما

[1] *Hom 47. PG 59:277-278.*

الكلمة صار جسدًا، وهو نفسه يقدم لنا جسده؟ يجيب على ذلك بأن الحديث هنا مثل القول بأن العلم (المعرفة) ينفخ، بينما المحبة تبني (١ كو ٨: ١)، فالعلم بدون محبة ينفخ، لكن هذا لا ينفي أهمية العلم. هكذا الجسد بدون الروح لا ينفع شيئًا، **فمن يقبل جسد المسيح بطريقة جسدانية كمن يأكل طعامًا ماديًا بحتًا، فتناوله لا يفيده شيئًا.** [لتضف الروح إلى الجسد، كما يُضاف الحب إلى العلم. إن كان خلال الجسد ينفعنا المسيح جدًا فهل لا يفيد الجسد شيئًا؟ إنه بالجسد يعمل الروح لخلاصنا. كان الجسد إناءً، تأملوا ما يحويه، لا ما هو عليه (وحده). أليس أُرسل التلاميذ، فهل أجسادهم لم تنفع شيئًا؟ إن كانت أجساد الرسل نفعتنا فهل يمكن لجسد المسيح ألا ينفع شيئًا؟... لهذا "**الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا ينفع شيئًا**"، وذلك حسبما يفهمون الجسد، وليس كما أعطي جسدي لكي يؤكل[1].]

❖ إنه الروح هو الذي يجعلنا أعضاء حيين... قيل هذا لكي نحب الوحدة ونخشى الانشقاق. فإنه ليس شيء يلزم أن يخافه المسيحي مثل الانفصال عن جسد المسيح، وإذ لا يكون عضوًا في المسيح لا يحيا بروح المسيح. يقول الرسول: "إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له" (رو ٨: ٩)[2].

القديس أغسطينوس

"**ولكن منكم قوم لا يؤمنون،**
لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون،
ومن هو الذي يسلمه". **[٦٤]**

الحديث هنا خاص بيهوذا الذي سيسلمه وأيضا عن الذين تركوه، معلنًا أن ما سيحدث ليس بغريبٍ عنه، لأنه من البدء عالم بكل هذا. كما يكشف أن ما يحدث هو بكامل حريتهم. كل النفوس مكشوفة أمام السيد المسيح، فهو يعلم الأمناء المخلصين في إيمانهم، والمخادعين الذين يسلكون في رياء.

❖ لم يقل: منكم قوم لا يفهمون، بل أخبرنا عن السبب لماذا لا يفهمون. "**ولكن منكم قوم لا يؤمنون**" (يو ٦: ٦٤)، لذلك لا يفهمون، إذ هم لا يؤمنون. إذ يقول النبي: "إن لم تؤمنوا لا تفهمون" (إش ٧: ٩ *LXX*). نحن نتحد بالإيمان، ونحيا بالفهم. لنقترب إليه أولاً بالإيمان حتى نحيا بالفهم. لأن من يقترب لا يُقاوم، ومن يقاوم لا يؤمن. كيف يمكن للمقاوم أن يحيا؟ إنه خصم لشعاع النور

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:8.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:6.*

الذي به يفهم، إنه لا يغمض عينيه بل يغلق ذهنه. لذلك "**منكم قوم لا يؤمنون**". ليؤمنوا وينفتحوا، لينفتحوا ويستنيروا[1].

❖ كان يهوذا حاضرًا هناك... صمت الرب عن ذكر اسمه. لقد وصفه ولم يذكر اسمه، ومع ذلك لم يصمت عن الحديث عنه. حتى يخاف الكل وإن كان واحد هو الذي يهلك[2].

القديس أغسطينوس

"**فقال: لهذا قلت لكم**

إنه لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم يُعطَ من أبي". **[٦٥]**

لا يعني هذا أن الله يميز بين فريق وآخر، إنما من يطلب يجد، ومن يسأل عن الحق يسلمه الآب للحق ويثبته فيه فلا يسقط.

❖ كما كان الأمر بالنسبة للذين لم يؤمنوا بالله في البرية أنهم حُرموا من دخول أرض الموعد، هكذا أيضًا بالنسبة للذين لا يكرمون المسيح لعدم إيمانهم لا يُمنح لهم دخول ملكوت السماوات.

القديس كيرلس الكبير

❖ إنه لأمر عجيب، عندما يُكرز بالمسيح المصلوب، اثنان يسمعان، واحد يحتقر والثاني يصعد. ليت الذي يحتقر ينسب لنفسه هذه التهمة (عدم الإيمان)، وأما الذي يصعد لا ينتحل (إيمانه) لنفسه. إذ يسمع من السيد نفسه: "**لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ ما لم يُعطَ من أبي**" [٦٥]. ليفرح أنه نال. ليقدم شكرًا لذاك الذي وهبه هذا، بقلبٍ متواضعٍ لا متعجرف، لئلا ما ناله خلال التواضع يفقده بالكبرياء.

❖ أن نؤمن فذاك يُعطى لنا، فإننا إذ نؤمن فهذا شيء. وإن كان هذا شيئًا عظيمًا فلتفرحوا أنكم تؤمنون، وإن كنتم لم ترتفعوا بعد، لأنه "أي شيء لك لم تأخذه"؟ (١ كو ٤: ٧)[3].

❖ لكي يعلمنا أن هذا الإيمان عينه هو عطية وليس عن استحقاق يقول: "**لهذا قلت لكم انه لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يُعط من أبي**" [٦٥]. الآن أين قال الرب هذا، فإننا إذ نتذكر كلمات الإنجيل نجد الرب يقول: "**لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب**" [٤٤]. لم يقل: "يقود" بل

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:7.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:7.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:7.*

"يجتذب".

هذا العنف (للجذب) يحدث للقلب لا للجسم. لماذا إذن تتعجبون؟ آمنوا فتأتوا؛ حبوا فتُجذبوا.

لا تفترضوا هنا نوعًا من العنف القاسي أو الصعب بل **هو عنف رقيق، إنه عذب، إنها العذوبة عينها هي التي تجتذبكم.**

ما الذي يجتذب القطيع عندما يُظهر له العشب الطازج أثناء جوعه؟ مع هذا فإنني لا أتصور اجتذابًا جسديًا، بل هو ارتباط سريع بالرغبة (في الأكل).

بهذه الطريقة تأتون أنتم أيضًا إلى المسيح.

لا تفهموا ذلك انه رحلات طويلة، وإنما أينما تؤمنون تأتون. فإننا **نأتي إلى ذاك الذي هو في كل موضع، نأتي إليه بالحب لا بالإبحار.** فإنه في مثل هذه الرحلة أمواج التجارب المتنوعة هياجها شديد.

آمن بالمصلوب، فيستطيع إيمانك أن يصعد بك إلى الخشبة.

إنك لن تغرق، بل تحملك الخشبة. هكذا وسط أمواج هذا العالم كان يبحر ذاك القائل: "وأما أنا فحاشا لي أن أفتخر إلاَّ بصليب ربنا يسوع المسيح"[1]

القديس أغسطينوس

"من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء،
ولم يعودوا يمشون معه". [٦٦]

❖ حسنًا يقول الإنجيلي ليس انهم رحلوا بل "رجعوا إلى الأمور التي تركوها إلى خلف"، معلنًا أنهم حرموا أنفسهم من أي نمو في الفضيلة، وباعتزالهم فقدوا الإيمان الذي كان لهم قديمًا. لكن هذا لم يحدث للإثنى عشر[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس كيرلس الكبير** أنه كما يهرب ضعيفو البصر من الشمس ويُسرون بالجلوس في الأماكن المظلمة، هكذا بالنسبة لمرضى الذهن يهربون من المسيح شمس البرّ، الذي يكشف السرّ الإلهي العظيم. هكذا أيضًا فعل شعب إسرائيل عندما عاد يشوع بعد تجسس أرض الموعد، فقد ثاروا عليه، ورجعوا إلى الوراء وخسروا مصاحبتهم ليشوع كي يعبروا إلى أرض الموعد.

---

[1] *Sermons on N.T. Lessons, 81:2.*
[2] *Hom 47. PG 59:279.*

❖ ما هو ثمين في عيني الله ليس على الإطلاق عدد العابدين، بل سمو إيمانهم الصحيح حتى وإن كان عدد المؤمنين قليلاً. لهذا يقول الكتاب الإلهي أن كثيرين مدعوون وقليلين جدًا الذين يُقبلون.

القديس كيرلس الكبير

❖ ربما كُتب هذا لتعزيتنا. لأنه أحيانًا يحدث أن يعلن إنسان الحق فلا يُفهم قوله، فيعارضه سامعوه ويتركوه. يتأسف الإنسان أنه قال الحق، ويقول في نفسه: "كان يليق بي ألا أتكلم هكذا، كان يلزمني ألا أقول هذا".

انظروا فإن هذا قد حدث مع الرب. لقد تكلم وفقد الكثيرين، وبقي معه قليلون. ومع هذا لم يضطرب، لأنه عرف من البداية من الذين يؤمنون ومن الذين لا يؤمنون. إن حدث هذا معنا فإننا ننزعج بمرارة. لنجد راحة في الرب ولنتكلم بوقار[1].

القديس أغسطينوس

٦. إلى من نذهب؟

"فقال يسوع للاثني عشر:

ألعلكم أنتم أيضًا تريدون أن تمضوا؟" [٦٧]

جاء حديث السيد المسيح مع الاثني عشر متشددًا، فهو يطلب مؤمنين يثقون فيه، ويثبتون في الحق بكامل حرية إرادتهم دون ضغط أو حرج. لقد اختارهم من العالم، وسلمهم الأسرار الفائقة وقدم لهم إمكانياته وتلامسوا مع حياته الإلهية، وبقي لهم أن يقرروا بأنفسهم دون تردد، لأنهم قادمون على السير في طريق الصليب.

لم يقل شيئًا للذين رجعوا إلى الوراء، فإنه لا يُلزم أحدًا بالإيمان، لكنه استخدم ذلك لتثبيت إيمان تلاميذه.

❖ فإن قلت: فلماذا لم يمدحهم؟ أجبتك: إنه جمع في ذلك غرضين، أولهما: حفظ الرتبة اللائقة بالمعلم، لأنه لو كان مدحهم لظنوا أنهم قد أسدوا إليه بعطية، ثانيهما إيضاحه أنه ليس محتاجًا إلى إتباعهم إياه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه لم يوبخ الذين تركوه ولا هددهم بطريقة عنيفة بل بالأحرى اتجه نحو تلاميذه قائلاً: "**أتريدون**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:8.*

أنتم أيضًا أن تمضوا؟" (يو ٦: ٦٧)، محترمًا بالحق القانون الذي به يمارس الإنسان حريته ويبقى في حرية إرادته يختار الموت أو الخلاص[1].

الشهيد كبريانوس

"**فأجابه سمعان بطرس:**

يا رب إلى من نذهب،

كلام الحياة الأبدية عندك؟" **[٦٨]**

امتاز القديس بطرس بغيرته المتقدة واستعداده الدائم، لذا أجاب في الحال ليس فقط عن نفسه، بل وعن التلاميذ. لقد أدرك أنهم لن يستطيعوا التمتع بالحياة الأبدية بدون المخلص المسيا. من يلتصق به لا يقدر الموت الأبدي ولا الجحيم ولا العذابات الأبدية أن تلحق به. لا يستطيع العالم ولا الجسد ولا الشيطان أن يقدموا حياة أبدية.

لم يقبل البعض حديث السيد المسيح فرجعوا عنه، بينما ازداد البعض اقترابًا إليه وأدركوا مع بطرس الرسول قوة كلمته واهبة الحياة الأبدية. يقدم حديثه رائحة حياة لحياة ورائحة موت لموت.

تحدث القديس بطرس باسم كل نفسٍ ملتصقة بالسيد المسيح، كما تحدثت راعوث مع حماتها: "لا تلحي عليَّ أن أتركك وأرجع عنك لأنه حيثما ذهبت أذهب، وحيثما بتِ أبيت" (را ١: ١٦). وفي شجاعة رفض نحميا أن يترك موقع العمل ويختفي في الهيكل ويغلق أبوابه عليه لئلا يقتلوه، قائلاً: "أرجل مثلي يهرب؟" (نح ٦: ١١).

"**يا رب إلى من نذهب؟**" [٦٨] إن ذهبنا إلى الآباء البطاركة يردونا إليك لأن إبراهيم رأى يومك فتهلل، وإن ذهبنا إلى موسى يقدم لنا الناموس قائدنا إليك. وإن ذهبنا إلى رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين نجلس عند أقدامهم، ماذا يقدمون سوى رياءهم وبغضهم للحق؟ من يعلن لنا الحق سواك؟ ومن يهبنا الحياة الأبدية إلاَّ أنت؟

❖ يلزمنا أن نجلس بجوار المعلم الواحد الوحيد، المسيح، ونلتصق به بلا انقطاع ولا انفصال عنه، ونجعله سيدنا الذي يعرف حسنًا كيف يقود أقدامنا إلى الحياة التي بلا نهاية... لأنه هكذا يليق بنا أن نرتقي إلى المنازل السماوية الإلهية، ونسعى إلى كنيسة الأبكار لنعيد بالصالحات التي تفوق إدراك الإنسان.

[1] *Letter 59 to Cornellius: 7.*

❖ كأنهم يقولون: معك سنبقى، وبوصاياك نلتصق إلى الأبد، ونقبل كلماتك دون أن نعثر بها.

القديس كيرلس الكبير

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن ما حدث في أثناء رحلة بني إسرائيل في البرية كان رمزًا للحقيقة التي نعيشها الآن. فقد جاء في سفر العدد أن القائد الحقيقي للشعب هو الله نفسه. فقد ظهر على شكل سحابة تظللهم، متى ارتفعت عن الخيمة تحركت المحلة، ورحل الجميع، وحيث حلت السحابة ينصبون خيامهم (عد ٩: ١٥–١٨). هكذا نلتصق نحن بالرب، ولا نتحرك في موضع دون أمره [لا يمكننا أن نترك الرب، بل بالأحرى نجتهد أن نبقى معه روحيًا. هذا بالحق لائق بالأكثر بالقديسين.]

"**ونحن قد آمنا،**

وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي". **[٦٩]**

بحكمة روحية يقدم الرسول بطرس الإيمان عن المعرفة دون تجاهل لدور المعرفة. فقد آمنوا بابن الله الحي، وعرفوا أسراره بالالتصاق به والشركة معه.

❖ نادى الكلمة بهذه التعاليم من خلال الشبابيك إلى عروسه، وهى الحمامة، فاستجابت لجماله، لأنها استنارت بشعاع الفهم وتعرفت على الصخرة وهو المسيح. إنها تقول: "أرني وجهك، اسمعني صوتك لأن صوتك لطيف ووجهك جميل" (نش ٢:١٤)... رأى سمعان مثل ما أرادت العروس أن ترى. وهؤلاء الذين استقبلوا صوت المسيح الحلو تعرفوا على نعمة الإنجيل وصرخوا: "يا رب إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك" (يو ٦: ٦٨)[١].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ يقولون أنهم يؤمنون ويعرفون، فيربطون الأمرين معًا. لأنه يجب على الإنسان أن يؤمن وأيضًا أن يفهم. ليس معنى أننا نقبل الأمور الإلهية بالإيمان أن نبتعد تمامًا عن أي فحص لها، بل نحاول بالأحرى أن نبلغ إلى معرفة معتدلة، كما يقول بولس: "كما في مرآةٍ كما في لغزٍ" (١ كو ١٢: ١٢). حسنًا إنهم لم يقولوا عرفوا أولاً ثم آمنوا، إذ يضعون الإيمان أولاً ويلحقونه بالمعرفة، ولكن ليس قبل الإيمان. كما هو مكتوب: "إن لم تؤمنوا لن تفهموا" (إش ٧: ٩ *LXX*).

القديس كيرلس الكبير

❖ ليس أننا عرفنا وآمنا بل "**آمنا وعرفنا**" [٦٩]. لقد آمنا لكي نعرف؛ لأننا إن أردنا أن نعرف أولاً

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٥.

وعندئذٍ نؤمن، لن نستطيع أن نعرف ولا أن نؤمن...

ماذا آمنا وعرفنا؟ "**أنت المسيح ابن اللَّه الحيّ**" [٦٩]، بمعنى أنت هو الحياة الأبدية عينها، تهبها في جسدك ودمك فقط اللذين هما أنت[1].

القديس أغسطينوس

"**أجابهم يسوع:**

أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر وواحد منكم شيطان؟" **[٧٠]**

صحح السيد المسيح حديث القديس بطرس معلنًا أنه وهو الذي اختارهم تلاميذ له يعلم أنه يوجد بينهم شخص قَبِلَ أن يكون أداة في يد الشيطان القتال منذ البدء، والذي لا يعرف الحب بل البغضة والخيانة.

❖ اسأله لماذا اختار يهوذا الخائن؟ لماذا عهد إليه بالخزانة مع معرفته أنه لص؟ هل أخبرك بالسبب؟ اللَّه يحكم حسب الحاضر لا حسب المستقبل. **إنه لا يستخدم سابق معرفته ليدين إنسانًا مع معرفته أنه فيما بعد يفعل ما لا يسره.**

لكنه في صلاحه ورحمته التي لا يُنطق بها يختار إنسانًا يعرف أنه إلى حين هو صالح، لكنه سيتحول إلى الشر، مقدمًا له فرصة التغيير والتوبة. هذا ما يعنيه الرسول بقوله: "غير عالم أن لطف اللَّه إنما يقتادك إلى التوبة؛ ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضبًا في يوم الغضب واستعلان دينونة اللَّه العادلة، الذي سيجازي كل واحدٍ حسب أعماله" (رو ٢: ٤-٦).

آدم لم يخطئ لأن اللَّه سبق فعرف أنه سيفعل هكذا. اللَّه بكونه اللَّه سبق فعرف ما سيفعله آدم بكامل حرية إرادته[2].

القديس جيروم

❖ إنه يظهر أن الذين ينسحبون من المسيح يهلكون بخطأهم، أما الكنيسة التي تؤمن به والتي تتمسك بما تعلمته مرة فلن تنسحب منه نهائيًا. والذين يبقون في بيت الله هم الكنيسة[3].

الشهيد كبريانوس

❖ بتوبيخه يوقظ فيهم الصحوة، ويجعل كل واحدٍ منهم أكثر ثباتًا بالنسبة لنفسه. لأنه لم يقل بعد

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:9.*
[2] *Against the Pelagians, 3:6.*
[3] *Letter 59 to Cornellius: 7.*

بصراحة من الذي سيخونه، بل يلقي بنير الإثم على واحدٍ وحده دون تحديد، فيضعهم جميعًا أمام التحدي، ويدعوهم إلى مزيد من الاهتمام والحذر، إذ يرتعد كل واحدٍ منهم خشية خسارة نفسه.

❖ دعا الذي يفعل إرادة الشيطان "شيطانًا"، وهذا حق لأنه كما أن "من التصق بالرب فهو روح واحد" (١ كو ٦: ١٧)، فالعكس صحيح أيضًا.

القديس كيرلس الكبير

❖ لاحظوا حكمته، فإنه لم يعلن عن الخائن (لم يذكر اسمه)، ومع هذا لم يجعله مخفيًا، فمن جانب لا يفقد كل حيائه ويصير محتقرًا، ومن الجانب الآخر لئلا يظن أن أمره غير مدرك فيمارس شره بلا خوف. لهذا كان السيد يوبخه بوضوح تدريجيًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي،
لأن هذا كان مزمعًا أن يسلمه،
وهو واحد من الاثني عشر". [٧١]

أكثر السيد المسيح من الإشارة إلى الخائن دون تلميح نحو اسمه لكي يعطي يهوذا فرصة للتوبة ومراجعة نفسه إن أراد.

يتساءل البعض: لو أن يهوذا تراجع فكيف كان يمكن تحقيق النبوات؟ وكيف يتم خلاصنا؟ حتمًا كان يقبله الله وكانت خطة الخلاص تتحقق بطريق آخر، وتمت النبوات في شخص آخر، لأنها لم تشر إلى اسمه.

❖ كان جاحدًا لمن قدم له نفعًا عظيمًا وكرامة عظيمة؛ لقد أخذ المال وفقد البرّ. بكونه ميتًا خان الحياة. فإن الذي تبعه كتلميذٍ له اضطهده كعدوٍ. كل هذا الشر هو من يهوذا، لكن الرب استخدم شره للخير. احتمل أن يكون موضع خيانة لكي يخلصنا. انظروا فإن شرّ يهوذا تحول إلى صلاحٍ. كم من شهداء اضطهدهم الشيطان. لو أن الشيطان توقف عن الاضطهاد لما كنا اليوم نحتفل بأكاليل الشهداء...، فإن ما يفعله الشرير من الشر يضره هو ولا يناقض صلاح اللَّه[2].

❖ لننتفع أيها المحبوبون جدًا بهذا الهدف، ألا نتناول جسد المسيح ودمه في الأسرار مجردًا، كما

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 47:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:10.*

يفعل كثير من الأشرار، بل نتناولهما بشركة الروح، فنثبت كأعضاء في جسد الرب، ونحيا بروحه، فلا نتعثر إن تناول كثيرون الآن الأسرار بطريقة زمنية، هؤلاء الذين ينالون في النهاية عقوبة أبدية. حاليًا جسد المسيح كما لو كان مختلطًا في موضع الدرس، "لكن الرب يعرف من هم له"[1].

القديس أغسطينوس

من وحي يو ٦

جسدك العجيب يقدِّس جسدي!

❖ عيناك تتطلعان دومًا إلى الجموع القادمة إليك.
يقتربون إليك فلا يرجعون فارغين.
أنت مشبع الجياع، ومُروي الظمأى.

❖ إني كغلامٍ صغير أُقدم لك الخمس خبزات والسمكتين.
أقدم لك أسفار موسى الخمسة وإنجيلي الذي وهبتني إيّاه.
افتح عن بصيرتي لأجد في كتابك طعامًا يشبع الملايين!
نعم هب لي مع شعبك أن أجلس على العشب.
هب لنفوسنا الملتهبة بروحك أن تقود أجسادنا وتسيطر عليها.

❖ نجلس لنتمتع خلال كنيستك بطعامك الروحي.
تشبعنا بفيض، فتمتلئ سلال العالم بغنى نعمتك!
تروي نفوسنا، وتُشبع أجسادنا،
ولا تجعلنا في عوزٍ قط!
تبقى نفوسنا شاكرة لك فأنت مصدر كل البركات!

❖ جئت يا كلمة متجسدًا،
فلا نخجل من أن نطلب منك كل احتياجاتنا.
اعترف لك يا صديق كل البشرية،
نفسي تئن من ثقل شهوات جسدي.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 27:11.*

❖ صرخاتي بلغت إلى سماواتك!
ويحي أنا الشقي، من ينقذني من جسدي المائت؟
بحبك صرت يا كلمة اللَّه جسدًا،
وعشت في وسطنا كواحدٍ منّا!
رأينا جسدك غير منفصل عن لاهوتك!
جسدك المقدس مصدر كل قداسة!

❖ وهبتني جسدك ودمك مأكلاً ومشربًا حقًا!
أتمتع بهما فأثبت فيك وأنت فيّ!
أتطعم فيك يا أيها الكرمة الحقيقية،
فلن تقدر الخطية بعد أن تأسرني،
ولا الموت أن يسيطر عليّ،
مادمت متمتعًا بالاتحاد بك!

❖ جسدك ودمك دواء لحياتي،
بهما انطلق من دائرة الفساد إلى عدم الفساد،
وانتزع نسبي لآدم الترابي،
فأصير ابنًا لك يا آدم الجديد!
عِوَض التراب أصير بالحق سماءً!

❖ اقبل يا مخلصي ذبيحة شكري.
كنت أود أن أتمتع بالمنّ في برية سيناء!
لكن آبائي أكلوه وماتوا!
الآن تهبني جسدك ودمك،
أتناولهما فلن أموت إلى الأبد،
لا بل أحيا معك، شريكًا في المجد حسب وعدك.

❖ حقًا وعودك فائقة،
من يقدر أن يدركها غير الذين تجتذبهم بحبك!

رجع الكثيرون من وراءك،
إذ استصعبوا نوالهم ما لا يمكن إدراكه.
أما أنا فأصرخ مع تلميذك:
إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية هو عندك؟
أسمع صوتك العذب، فينسحب كل كياني بالحب إليك.
أسمع صوتك، فيُشرق بهاؤك على أعماقي.
أسمع صوتك، فتصمت أعماقي لتتمتع بعذوبة كلمتك!
عجيبة هي كلماتك، وسخيّة هي وعودك!
كلّك حب يا مخلص العالم!

الأصحاح السابع

حديث السيد المسيح
عن حلول الروح القدس
ينبوع الماء الحي!

تأخر السيد المسيح عن الذهاب إلى أورشليم إذ كان اليهود يريدون قتله، وقد طلب أقرباؤه منه أن يصنع آيات للعرض أما هو فانتهرهم. وفي الوقت المناسب صعد إلى أورشليم في العيد ليعلن عن حلول الروح القدس واهب الارتواء والفرح.

اعتاد اليهود أن يتركوا بيوتهم في عيد المظال ويقيموا في مظال مؤقتة لمدة أسبوع ليتذكروا أنهم غرباء ونزلاء في هذا العالم.

خلال السبعة أيام الأولى للعيد كانوا يحضرون ماء من بركة سلوام في إناء ذهبي ويسكبه رئيس الكهنة أمام الشعب، ليعلن أن من كان عطشانًا فليقترب ويشرب. كان ذلك إشارة إلى الصخرة التي كانت تفيض ماء على الشعب في البرية. وفي اليوم الثامن لا يحضر ماء من البركة إشارة إلى أن الشعب يشرب من ينابيع كنعان وليس من مياه البرية. في هذا اليوم وقف السيد المسيح رئيس الكهنة الأعظم وأسقف نفوسنا ليقدم نفسه ينبوع مياه يفيض بالمياه الحية في أعماق نفوس المؤمنين، سائلاً إياهم أن يشربوا بفرحٍ من آبار الخلاص (إش ١٢: ٣؛ زك ١٤: ٨؛ يؤ ٢: ٢٨-٣٢).

١. عدم ظهوره علانية في اليهودية ١.
٢. حوار حول صعوده إلى أورشليم ٢-١٣.
٣. حديثه في وسط العيد ١٤-١٨.
٤. حديثه عن كسر السبت ١٩-٢٤.
٥. إيمان كثيرين به ٢٥-٣٦.
٦. الوعد بحلول الروح القدس ٣٧-٤٨.
٧. شهادة خدام الهيكل له ٤٩-٥٣.

١. عدم ظهوره علانية في اليهودية

"وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل،
لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية،
لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه". [١]

أثار شفاء المفلوج في يوم السبت هياج القيادات الدينية (يو ٥: ١٦) فأرادوا قتله، إما بإثارة الشعب ضده أو إصدار حكم قضائي ضده. لذلك مال السيد المسيح إلى عدم الظهور علانية في أورشليم، مفضلاً التردد سيرًا على قدميه في الجليل. لم يكن هذا عن خوف من الموت، لأنه جاء ليموت عن البشرية، وإنما في حكمة حتى تحين الساعة.

استخدم الإنجيلي تعبير "**يسير**" والذي ترجم في العربية "يتردد"، ليقدم لنا فكرة عن الحياة التي عاشها السيد المسيح أثناء خدمته. كان لا يعرف موضعا يستقر فيه في الخدمة، فقد كان قبلاً يتردد في اليهودية، يسير من بلد إلى بلد قبل مجيئه إلي الجليل، وهذه الفترة تمثل الجزء الأول من خدمته التي لم يشر إليها الإنجيليون الإزائيون الثلاثة. وسافر إلي الجليل سيرًا علي قدميه دون أن يمتطي فرسًا أو حتى حمارًا. فكان ومن معه يسيرون معا من موضع إلي آخر، وحيثما حل يصنع خيرات.

يقدم لنا السيد المسيح درسًا عمليًا في الانسحاب من الخطر، ليس خوفًا وإنما من أجل الخدمة، كما أوصى تلاميذه بذلك (مت ١٠: ٢٣). أما إذ دُعينا للشهادة من أجل اسمه ولم يكن يوجد مجال لترك الموضع فنحسب أنفسنا غير أهلٍ لبذل نفوسنا لأجل اسمه.

يعلق **القديس كيرلس الكبير** على هذه الآية، بأنه "**بعد هذا**"، أي بعد كل هذه الكلمات والأفعال التي صنعها يسوع صار يتردد بالأكثر في الجليل بكل سرور ولم يرد أن يتردد في اليهودية. لأن وجوده بين الجليليين (الأمم) ظهر أنه أفضل كثيرًا من الحياة مع إسرائيل، كما جاء في إرميا: "قد تركت بيتي، رفضت ميراثي، دفعت نفسي الحبيبة إلى أعدائي" (إر ١٢: ٧ *LXX*). يرى في طقس ذبيحة المحرقة حيث يُذبح الحمل ليس أمام المذبح على جانب الشمال (لا ١: ١٠-١١)، وإنما كان المذبح متجها نحو الشرق، فيكون الحمل نحو اتجاه الجليل، كنيسة الأمم، إذ "عيناه تراقبان الأمم" (مز ٦٦: ٧).

وإن وجد ترحابًا في الجليل لكن الصليب كان يلاحقه أينما وُجد، سواء في اليهودية أو الجليل أو في العاصمة أورشليم. ففي اليهودية كانوا يطلبون أن يقتلوه" [١]. وفي الجليل مع كثرة معجزاته تركه أيضا كثير من تلاميذه ولم يعودوا يسيروا معه. أما في أورشليم فقد كان الشغل الشاغل للقيادات الدينية هو الخلاص منه بأية وسيلة. لم يبالوا بحفظ الناموس بل طلبوا قتله (يو ٧: ١٩)، وأرسل

مجلس السنهدرين خدامًا ليمسكوه (يو ٧: ٣٢)، وقد بثوا روح الرعب حتى لم يكن أحد يتكلم عنه جهارا لسبب الخوف من اليهود (٧: ١٣)، هذا وقد رفعوا حجارة ليرجموه (يو ٨: ٥٠)

حقًا لم يكن مندفعًا نحو الثائرين ضده، لكنه لم يتخلَ قيد أنملة عن رسالته وعمله الخلاصي، وإن كانت تكلفته عار الصليب.

قدم لنا الأصحاحان ٧، ٨ صورة حية عن مدى العداوة والحقد والضغينة التي كانت في قلوب القيادات اليهودية الدينية ضد شخص يسوع المسيح، ففي نظرهم شوه صورة المسيا المنتظر. أرادوا المسيا الذي حسب هواهم البشري، وليس حسب خطة الله الفائقة.

❖ كان شعب إسرائيل يمارس كراهية شديدة ضده، فكان في حالٍ أفضل وهو يعيش وسط أعدائه. جعل إقامته مع الذين أظهروا نحوه لطفًا أكثر مما وجده وسط أقربائه حسب الجسد، الذين كان يليق بهم أن يحبوه...

لا نحسب انسحاب المسيح ضربًا من ضروب الجبن، ولا نتهمه بالضعف، فهو القدير في كل شيء، وإنما نقبل هذا من قبيل التدبير الإلهي، لأنه يليق به أن يحتمل الصليب لأجل الجميع في حينه وليس قبل الأوان.

القديس كيرلس الكبير

❖ ليس داء أشر من الحسد والحقد فعلى أساسه دخل الموت إلى العالم (حك ٢: ٢٤)، لأن إبليس لما أبصر الإنسان مكرمًا لم يحتمل حُسن حاله، فعمل كل ما أمكنه حتى قتله. وبالحسد ذُبح هابيل، وقارب داود أن يُقتل، وقُتل آخرون كثيرون من ذوي البر، وصار اليهود قتلة المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قدم مثالاً لضعفنا. إنه لم يفقد قوته، لكنه يقدم راحة لضعفنا[1].

القديس أغسطينوس

٢. حوار حول صعوده إلى أورشليم

"وكان عيد اليهود عيد المظال قريبًا". [٢]

عيد المظال: يحتفل في ١٥ **تشري** *Tisri*، أو تشرين الأول أو ليثام، ما بين النصف الأخير من سبتمبر والأول من أكتوبر، وهو الشهر السابع من السنة الدينية والأول من المدنية. أخذ العيد اسمه

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:2.*

من المظال التي كانت تُقام بجوار الهيكل وفي الأماكن العامة والميادين وأسطح البيوت والحدائق حيث يسكن فيها اليهود لمدة ٨ أيام تذكارًا للأربعين عامًا التي عاشها آباؤهم في البرية. وهو أحد الأعياد الثلاثة الكبار التي كان يلتزم كل الرجال أن يصعدوا إلى أورشليم حسب الشريعة.

أهم سمات هذا العيد هو الفرح الشديد، والسكنى في المظال، وطقسه الفريد، الذي تميز بظاهرتين متكاملتين هما سكب الماء والإنارة. اعتاد اليهود أن يذهبوا إلى أورشليم قبل العيد بيومٍ، وكان بعضهم يذهب إليها قبل اليوم العاشر من الشهر ليشترك في عيد الكفارة، ويقيم هناك حتى يحتفل بعيد المظال فيه.

من جهة **سكب الماء** يذكر التلمود أنه ابتداء من اليوم الأول ولمدة سبعة أيام يخرج في الفجر موكبان عظيمان، أحدهما يتوجه لجمع أغصان الزيتون وسعف النخيل والأشجار الأخرى كالصفصاف والآس، ويربطونها معًا بخيوطٍ ذهبية أو فضية أو أشرطة. كانوا يحملونها طوال النهار ويأخذونها في المجامع، ويمسكون بها أثناء الصلوات. وفي الأيام التالية يحملونها معهم إلى الهيكل، ويسيرون بها حول المذبح، وهم يسبحون: "أوصنا، نطلب إليك خلصنا!" تُضرب الأبواق من كل جانب. ولعل القديس يوحنا كان يشير إلى هذا العيد وهو يتحدث عن نفوس الشهداء في الفردوس التي تحت المذبح (رؤ ٦: ٩) وقد أُعطيت سعف النخيل وهي تسبح: الخلاص لإلهنا...

أما ما يحسبه اليهود أكثر طقوس هذا العيد فرحًا فهو أن يتوجه الموكب الثاني إلى بركة سلوام ومعه رئيس الكهنة يحمل إبريقًا ذهبيًا ليغرف فيه الماء من البركة ويملأ الإبريق حيث يأتي به إلى الهيكل.

وكانت جماعات المرتلين ترافق الموكبين، ليعود الموكبان بين الهتافات والتسابيح المقتبسة بعضها من إشعياء ١٢ "هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن **ياه يهوه قوتي وترنيمتي، وقد صار لي خلاصًا**. فتستقون مياهًا بفرح من ينابيع الخلاص" (إش ١٢: ٢–٣). وقد اقتبست الكنيسة القبطية هذا النشيد "قوتي وتسبحتي هو الرب وقد صار لي خلاصا" لتترنم به في أسبوع البصخة باعتبار أن السيد المسيح قد أُخرج خارج المحلة، خارج أورشليم، ليقدم ذبيحة فصح لخلاص العالم. وكما يقول الرسول بولس: "لذلك يسوع أيضا لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب؛ فلنخرج إذا إليه خارج المحلة حاملين عاره" (عب ١٣: ١٢–١٣). هذا الخروج تحدث عنه موسى وإيليا مع يسوع المسيح عند تجليه علي جبل تابور (لو ٩: ٣٠ الخ). هكذا ارتبط الصليب بعيد المظال حيث يخرج الكل من بيوتهم ويعيشون في المظال الزمنية استعدادا للدخول إلي الأحضان الإلهية أبديًا.

يصل الموكبان إلى الهيكل في وقت واحد، فتُقدم محرقة الصباح. ويقيم حاملو الأغصان مظلة جميلة على المذبح بينما يستقبل الكهنة رئيس الكهنة الذي يحمل الإبريق الذهبي بالنفخ ثلاثة في الأبواق. يصعد الكاهن على درج المذبح ومعه كاهن آخر يحمل إبريقًا آخر من الذهب به الخمر، فيسكبان سكيب المحرقة من الماء والخمر في طاسين من الذهب مثقوبين ومثبتين على المذبح، فينساب السكيب إلى أسفل المذبح، وكان الناس يستقون الماء بفرح من بركة سلوام في أيام العيد تذكارًا لخروج الماء من الصخرة على يد موسى النبي وشرب آبائهم منها، متذكرين كلمات إشعياء النبي: "أيها الجياع جميعًا هلموا إلى المياه، والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا، هلموا واشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمرًا ولبنًا"، "فتستقون مياها بفرح من ينابيع الخلاص" (إش ٥٥: ١؛ ١٢: ٣).

كان الصدوقيون يرون الاقتصار على سكب الخمر وحده دون الماء. ففي حوالي عام ٩٥ق.م. كان رئيس الكهنة اسكندر بانياس من الصدوقيين قد سكب الماء على الأرض بعيدًا عن المذبح فثار ضده الفريسيون وأرادوا قتله، فقامت معركة بين الصدوقيين والفريسيين، وانتهت بنصرة الفريسيين، بعد أن قتل أكثر من ستة آلاف شخص.

على أي الأحوال إذ كان الماء والخمر يسكبان على المذبح تعزف موسيقى الهيكل وترنم مزامير الهليل (مز ١١٣–١١٨). وكانوا عندما يأتون إلى المقاطع التالية: "احمدوا الرب لأنه صالح"، "يا رب أنقذ"، "احمدوا الرب" (مز ١١٨: ١، ٢٥، ٢٩)، يلوح المتعبدون بالأغصان حول المذبح.

هذا ويظهر مدى ارتباط هذا العيد بالماء أن اليوم الثاني من العيد كان يسمى "**الاحتفال الأصغر**" يقام فيه احتفالات مسائية مبهجة مع بقية الأيام تسمى "**فرح مجاري المياه**". وقد جاء في التلمود بكل وضوح: "لماذا دعي اسمه "مجاري المياه"؟ من أجل تدفق الروح القدس حسب ما قيل: بالفرح تنفجر المياه من ينابيع الخلاص.

في اليوم السابع يطوفون حول المذبح سبعة مرات، ويسمى هذا الموكب "أوصنا العظيمة *Hosanna rabba*".

في هذا العيد كانت تُقدم ذبائح كثيرة. ففي اليوم الأول يقدمون بجانب الذبائح العادية ذبيحة محرقة، ١٣ ثورًا وكبشين و١٤ حملاً مع تقدمات من دقيق وسكب الخمر. كما يقدمون ماعزًا ذبيحة خطية. وفي الأيام التالية يقدمون نفس الذبائح مع إلغاء ثورٍ واحدٍ كل يوم حتى متى جاء اليوم السابع يُقدم فقط سبعة ثيران. وفي اليوم الثامن الذي يحسب قمة الفرح في هذا العيد يقدمون ثورًا واحدًا وكبشًا واحدًا وسبعة حملان ذبيحة محرقة، وماعزًا واحدًا ذبيحة خطية مع التقدمات المعتادة وسكب الخمر.

وفي هذا اليوم أيضًا يقدمون في الهيكل بكور محاصيلهم الأخيرة أو تلك التي نضجت مؤخرًا.

أوصى موسى بالاحتفال بالعيد لمدة ٨ أيام، لكن اليهود أضافوا يومًا تاسعًا، دعوه "**فرح الشريعة**" حيث يتممون قراءه أسفار موسى الخمسة.

ورد تأسيس هذا العيد في لاويين ٢٣: ٣٤، وحدث تجديد له بعد عدم ممارسته مدة طويلة (نح ٨: ١٤).

"**فقال له إخوته:**

انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية،

لكي يرى تلاميذك أيضًا أعمالك التي تعمل". **[٣]**

اعتاد الكتاب المقدس أن يدعو الأقرباء من ذات الأسرة اخوة، لذلك فإن كلمة "**إخوته**" غالبًا ما يُقصد بها أقرباء السيد المسيح حسب الجسد أيا كانت القرابة. هؤلاء بدافع حب الظهور والكرامة طالبوه بالصعود إلى أورشليم لهدفين: الأول لكي يسند التلاميذ الذين رافقوه أكثر من سنتين في الخدمة، فيروا مجده في وسط أورشليم أثناء الاحتفال بالعيد، والثاني لكي يؤسس مملكته في العاصمة. هذا ولعل إخوته هؤلاء إذ لم يكونوا بعد يؤمنون به – كما علق الإنجيلي نفسه – طلبوا هذا ليس عن إخلاص له، بل بنية غير سليمة. فمن جهة أرادوا أن يقدموا له مشورة كمن هو غير قادر حتى على قيادة نفسه بل في حاجة إلى من يقوده. ومن جهة أخرى لم يكن يشغلهم سلامه لأنهم يعلمون مدى خطورة ظهوره في أورشليم وسط القيادات المشحونة نفوسهم بالحقد نحوه.

ويرى البعض أنهم طالبوه بهذا لكي إذا ما صنع آيات وعجائب يفحصها الفريسيون والقادة يكتشفون عن ما تحمله هذه الأعمال من خداع، وبهذا يبرر الأقرباء عدم إيمانهم به.

"**لأنه ليس أحد يعمل شيئًا في الخفاء،**

وهو يريد أن يكون علانية.

إن كنت تعمل هذه الأشياء،

فاظهر نفسك للعالم". **[٤]**

لقد ظنوا أن ربنا يسوع يشاركهم نفس مشاعرهم وأفكارهم، فيصنع الآيات لكي يظهرها للناس، وليس بدافع الحب للغير. لهذا قدموا له نصيحة لكي ينتهز كل فرصة لتحقيق هذا الهدف، فلا يضيع وقته في صنع العجائب في الجليل، في المدن والقرى بين أناسٍ جهلاء لا يمكن أن يسندوه. لكنه يصنعها في العاصمة ليقيم لنفسه شعبية من أشخاص لهم وزنهم في المجتمع، ولكي ينتشر خبره في

كل الأمة حيث يقدم إلى العيد رجال من كل بلد. كأنهم يقولون له: "إن كنت في طريقك أن تكون المسيا فلتصعد إلى العاصمة وتعلن عن نفسك، فإنك لن تستطيع أن تكون مسيا إسرائيل وأنت مقيم في القرى والمدن الصغيرة بعيدًا عن مراكز التجمع الشعبية والقيادية".

"**لأن إخوته أيضًا لم يكونوا يؤمنون به**". **[٥]**

لم يؤمنوا به أنه المسيا المنتظر الموعود به، ربما ظنوا أنه قائد له تقديره أو نبي. فإنه لو كان المسيا مخلص إسرائيل كان يلزم أن يعلن عن نفسه للعالم كله.

لم يكن أقرباؤه يؤمنون به، لكنهم طلبوا إبراز أعماله المعجزية علانية من أجل إعجاب الناظرين. لم يتكلموا بحكمة لأجل خلاص نفوسهم وخلاص إخوتهم. جاء في إرميا النبي: "لأن اخوتك وبيت أبيك هم أيضًا يزدرون بك، ويصرخون، ومن بين أتباعك، قد اجتمعوا معًا، فلا تصدقهم، إن هم تكلموا عليك بالخير" (إر ١٢: ٦ *LXX*).

❖ تبدو كلماتهم صادرة عن أحباء، لكنها كانت صادرة عن خبثاء. فإنهم يتهمونه بالجبن هنا مع محبة المجد الباطل. فالقول: "**ليس أحد يعمل شيئًا في الخفاء**" هو تعبير يوجه لأشخاص يتسمون بالجبن، ومن يتشككون في الأعمال التي يمارسونها أنها ليست حقيقية. وبإضافة: "**وهو يريد أن يكون علانية**" يتهمونه بالمجد الباطل[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ كانوا لم يؤمنوا به فكلماتهم كانت بدافع الحسد[2].

❖ لماذا لم يؤمنوا به؟ لأنهم طلبوا مجدًا بشريًا. فقد تظاهر إخوته وهم ينصحونه أنهم يشيرون عليه من أجل مجده... كانوا يتحدثون بحكمة الجسد مع الكلمة الذي صار جسدًا وحلّ بيننا[3].

القديس أغسطينوس

"**فقال لهم يسوع:**

إن وقتي لم يحضر بعد،

وأما وقتكم ففي كل حين حاضر". **[٦]**

جاءت إجابة السيد المسيح في دفاعه عن أسلوب اختفائه في الجليل كل هذه المدة هي أنه لا

---

[1] *Homilies on St. John 48: 2.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 83:1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:4.*

يريد أن يسبق الأحداث، فإن وقته لم يحضر بعد. فإنه لا يريد أن يذهب إلى أورشليم فيثير الرؤساء في أورشليم حتى يحين وقت آلامه حسب خطته الإلهية التي دبرها. هذا وقد أوضح لهم أنه لا يذهب لاستعراض أعمال معجزيه، ولا لكسب شعبية، ولا لإظهار نفسه للعالم، وإنما يذهب ليحقق خطة الخلاص. هم يستطيعون أن يذهبوا إلي أورشليم كزائرين، أما هو فيذهب هذه المرة لكي يُفحص ويُقدم ذبيحة فصح، إذ هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم.

لم يحن بعد وقت آلامه، لأن هذا العمل الخلاصي يتحقق حسب خطته الإلهية، أما بالنسبة لهم فهم كأصدقاء للعالم لا يجابهون خطرًا، بل يذهبون أينما أرادوا. أيضًا وقت صعوده إلى العيد لم يحن بعد، لأن له خطة خاصة في صعوده، أما بالنسبة لهم فيمكنهم الذهاب إلى العيد في أي وقت. هنا يفضح نيات إخوته بطريقة غير مباشرة، دون أن يحرج مشاعرهم.فإذ كانت نياتهم شريرة وخبيثة فالعالم الخبيث بشره لا يبغضهم، لأن أعمالهم متناغمة مع فكر العالم. أما هو فلن يهادن العالم، فالعالم لا يطيقه.

❖ دائمًا وقتكم حاضر حيث تكونون بلا خطر، أما وقتي حيث حلَّ زمن الصليب يلزمني أن أموت. وإذ كان المعنى هكذا أظهره بقوله بعد ذلك: "لا يقدر العالم أن يبغضكم"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من يتمتع بالشركة مع السيد المسيح يلزمه أن يسلك بلياقةٍ وتدبيرٍ، فيعرف أن لكل عمل وقته المعين أو ملء زمانه، أما الذين يسلكون في استهتار وتسيب، فيعيشون كما يحلو لهم، كل الأوقات تناسبهم دون التزام. لم يحن الوقت بعد لدعاية بلا قيود، ولا للإعلان المكشوف للجميع، إذ لا يزال عقل اليهود غير ناضج بعد للفهم، حتى يستطيعوا قبول كلماتي دون ثورة أو غضب. ليست الفرصة سانحة بعد لدعوتي الآن أن أكون معروفًا للعالم... أما هم فزمانهم حاضر ومهيأ دائمًا... يفعلون حسبما يرتبون وليس من ضرورة تعوقهم أو تدعو لتدبير ملائم يرشدهم إلى عمل شيء أو الامتناع عنه، كما كان الحال بالنسبة للمسيح.

القديس كيرلس الكبير

❖ انظر كيف أجابهم المسيح ألطف جواب، لأنه لم يقل لهم: "ومن أنتم إذ تشيرون عليَّ بهذه المشورات وتعلمونني"، لكنه قال: "**إن وقتي لم يحضر بعد**".

---

[1] *Homilies on St. John 48: 2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قدموا له مشورة أن يسعى نحو المجد، كمن ينصحونه بطريقةٍ عالمية، وبتدبيرٍ أرضيٍ، حتى لا يكون غير معروف بل يصير مشهورًا، ولكي لا يخفى نفسه في غموض.

هكذا أجاب الرب على الذين قدموا له مشورة خاصة بالمجد: "**إن وقتي لم يحضر بعد**"، أي وقت مجدي لم يحضر بعد.

يا لعمق هذه الإجابة!

هم نصحوه للمجد، وهو أراد المجد الذي يسبقه التواضع، أراد أن يهيئ الطريق للمجد ذاته بالتواضع، فإن هؤلاء التلاميذ أيضًا كانوا حتمًا يطلبون مجدًا ليجلسوا الواحد عن يمينه والآخر عن يساره. فكروا فقط في الغاية، ولم يروا ما هو الطريق الذي يلزم بلوغه.

استدعاهم الرب إلى الطريق حتى يبلغوا به إلى وطنهم في تدبير لائق. فالوطن في العلا، **والطريق أسفل على تلك الأرض هي حياة المسيح، أي هو موت المسيح.**

تلك الأرض هي سكنى المسيح، والطريق هو آلام المسيح. من يرفض الطريق، لماذا يطلب الوطن؟ في اختصار قدم الإجابة التالية لمن يطلبون أيضًا المجد: "أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا؟" (مت ٢٠: ٢٢). انظروا الطريق الذي يلزمكم به أن تبلغوا الأعالي التي ترغبونها. الكأس التي أشار إليها هي بالحق هذه الخاصة بتواضعه وآلامه[1].

❖ لنكن مستقيمي القلب، فإن وقت مجدنا لم يأتِ بعد. لنقل لمحبي هذا العالم كما قيل لاخوة الرب: "**وقتكم في كل حين حاضر**ٌ" [٦]... لنتجاسر ونقول هذا. فإننا إذ نحن جسد ربنا يسوع المسيح، مادمنا أعضاءه، مادمنا نعرف بفرح رأسنا، لنقل هذا بغير تردد، مادام قد تنازل هو وقال هذا من أجلنا.

وعندما يشتمنا محبو هذا العالم فلنقل لهم: "وقتكم في كل حين حاضر، أما وقتنا نحن فلم يحضر بعد". إذ يقول لنا الرسول: "لأنكم قد متُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في اللَّه".

متى يحضر وقتنا؟ يقول: "متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذٍ تظهرون أنتم أيضًا معه في المجد" (كو ٣: ٣-٤)[2].

القديس أغسطينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:5.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:7.*

"لا يقدر العالم أن يبغضكم،
ولكنه يبغضني أنا،
لأني اشهد عليه أن أعماله شريرة". [٧]

لا تقدر القيادات اليهودية أن تضطهدكم، لأنكم تحملون ذات أفكارهم، حيث تطلبون مسيا زمنيًا، يقيم نفسه ملكًا أرضيًا. إنكم أبناء العالم وخدامه، لا يشغلكم أمر سوى الأرضيات، والعالم حتمًا يحب من له. أما أنا فإذ أدين الفساد والخطية فإن العالم يبغضني.

لم يرد السيد المسيح أن يصعد إلى العيد مع أقربائه، لئلا تحت دعوى الحاجة إلى إظهار المسيح يستخدمون الدعايات، بينما قيل عن السيد المسيح أنه لا يصيح ولا يسمع أحد صوته (إش ٤٢: ٢).

❖ العقل الساقط تحت أسر الملذات الرديئة يغضب تمامًا من النصح الذي يحثه على الرزانة اللازمة.

القديس كيرلس الكبير

❖ "**لا يقدر العالم أن يبغضكم**" [٧]. ما هذا إلا أن العالم لا يقدر أن يبغض محبيه، شهود الزور؟ لأنهم يدعون الأمور الشريرة صالحة، والصالحة شريرة. "**ولكنه يبغضني أنا، لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة. اصعدوا أنتم إلى هذا العيد**" [٧-٨]. ماذا يعني "هذا"؟ حيث تطلبون المجد البشري... حيث يرغبون في المبالغة في الأفراح الجسدية ولا تتأملون في الأفراح الأبدية... في يوم العيد هنا تطلبون مجدًا بشريًا، أما وقتي، أي وقته مجدي، فلم يأتِ بعد. هذا سيكون يوم عيدي، لا يسبق هذه الأيام ويتخطّاها بل يبقى أبديًا، سيكون ابتهاجًا وفرحًا بلا نهاية، يكون أبديًا لا ينتهي، هادئًا بلا سحاب[1].

❖ "**أنا لست أصعد إلى يوم العيد هذا**" [٨]. لأن رغبته ليست في المجد الزمني، بل أن يعلمهم شيئًا ينتفعون به، أن يصلح البشر ويحثهم على العيد الأبدي، لكي يحول حبهم لهذا العالم إلى حب للّه[2].

القديس أغسطينوس

"اصعدوا أنتم إلى هذا العيد.
أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:8.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:8.*

لأن وقتي لم يكمل بعد". [٨]

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن إخوته أو أقرباءه هنا يمثلون الشعب اليهودي ككل بكونهم اخوة السيد المسيح، إذ هم خاصته. وقد طلب منهم أن يصعدوا ليحتفلوا بالرمز إذ لا يزالوا يحبون الظلال، أما هو فمسرته ليست في الرموز والظلال بل في الحقيقة، حيث يحل الوقت اللائق، ويأتي ملء الزمان ليقدم نفسه عيدًا حقيقيًا.

❖ يقول الرب هنا بوضوح إنه لن يعيِّد مع اليهود أو يذهب معهم ليشاركهم فرحهم في الظلال. لأن ما قيل عن قليلين يمتد في معناه على كل جنس إسرائيل... فإن كل جموع اليهود يحسبون رمزيًا إخوته. لذلك يمتنع عن حضور العيد معهم، حسبما قيل بأحد الأنبياء القديسين: "بغضت، كرهت أعيادكم، ولست ألتذ باعتكافاتكم، إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها. أبعد عني ضجة أغانيك، ونغمة ربابك لا أسمع" (عا ٥: ٢١–٢٣). كما يقول المخلص نفسه: "لأن الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" (يو ٤: ٢٤).

القديس كيرلس السكندري

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** إنه قال بأنه لا يذهب إلى العيد في تلك اللحظات (الآن)، أي يذهب معهم[1]. لم يرد أن يذهب معهم في ذلك الوقت لكي يصلب إذ لم تكن ساعة الصلب قد حلت.

"قال لهم هذا ومكث في الجليل". [٩]

❖ بيّن من هذه الأقوال أنه ليس محتاجًا إليهم ولا يريد أن يتملقهم، لكنه أطلق لهم أن يعملوا الفرائض اليهودية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يمكث المسيح فرحًا في الجليل، مبتعدًا عن اليهودية، حيث يقيم في سلامٍ أكثر وأمان... يظهر كلاً من حبه الحقيقي لهم ورفضه لسكان اليهودية... لقد جعل كنيسة الأمم مستحقة فعلاً للمحبة الإلهية... يُظهر جمال كنيسة الأمم، أحبها وذهب إليها كما إلى عروسٍ في خدرها.

القديس كيرلس السكندري

"ولما كان إخوته قد صعدوا،

[1] *Hom 48. PG 59:285.*

حينئذٍ صعد هو أيضًا إلى العيد،

لا ظاهرًا بل كأنه في الخفاء". [١٠]

لقد رفض الذهاب مع أقربائه لأنهم طلبوا هذا ليس من أجل النفع الروحي، وإنما من أجل نوال كرامات بسبب المعجزات.

عالج **القديس أغسطينوس** ما يُثار من البعض، لأن السيد المسيح قال لإخوته أنه لا يصعد إلى العيد وتركهم يذهبون دونه إلى أورشليم، لكنه عاد فذهب. يوضح القديس بأن السيد لم يقل أنه لا يصعد إلى العيد وإنما "**اليوم**". لما كان العيد يحتفل به إلى أيامٍ كثيرةٍ، بقى في الجليل ذلك اليوم ثم صعد إلى أورشليم بعد ذلك. أما غاية ذلك فهو أن إخوته لم يطلبوا أن يذهب معهم في صحبة مشتركة، بل أن يصعد هو أولاً. لكنه كما يقول القديس ظهر كإنسانٍ ضعيفٍ يهرب من المقاومين كما هرب إلى مصر من وجه هيرودس. هكذا تركهم يصعدون إلى أورشليم، وبعد ذلك صعد هو في يومٍ تالٍ. يرى **القديس أغسطينوس** أن السيد المسيح صعد في منتصف العيد بعد أيام كثيرة[1].

قول السيد المسيح "**بعد**" يشير إلى رفضه الصعود معهم في تلك اللحظات، وليس الرفض النهائي للصعود للعيد. واضح أن السيد المسيح بحديثه معهم يفصل بين فكرهم في الصعود للعيد وفكره هو. فهم يذهبون للمشاركة الشكلية في أفراح العيد والالتقاء مع الأقرباء والأصدقاء، وقد وجدوا في العيد مجالاً خصبًا لصعود السيد كي يبرز أعماله للشعب. أما هو فيصعد إلى العيد لتقديم نفسه ذبيحة فصح عن العالم. لهذا أراد أن يصعد بمفرده ليعزل مفاهيمهم عن مفاهيمه.

هذا وصعودهم كجماعة يكون علنيًا يرافقه التسابيح مع الزمر وأغصان النخيل، أما هو فيصعد كمن في الخفاء ليحقق رسالة مستترة لم يكن العالم قادرًا أن يدركها.

أخيرًا فقد صعدوا هم إلى أورشليم مباشرة، أما هو فقد انتقل إلى الجليل وجاء إلى تخوم الهيودية من عبر الأردن (مت ١٩: ١؛ مر ١: ١٠)، وفي نهاية رحلته ذهب إلى قرية بيت عنيا بجوار أورشليم لزيارة لعازر وأختيه (لو ١٠: ٣٨-٣٩)، ومن هناك دخل أورشليم في منتصف العيد. هكذا كان خط سيره مختلفًا تمامًا عن خط سير أقربائه.

❖ لم يقل "في الخفاء" بل "**كأنه في الخفاء**". فإنه بهذه الطريقة أراد أن يستخدم هذا لتعليمنا كيف ندبر الأمور[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:10.*

[2] *Hom 49. PG 59:287-288.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لكي تعرفوا الله العظيم، الواهب الحياة، ابن الله القدير أضاف برهانًا لجلاله بقوله: "وكل مالي هو لك، وما لك هو لي" [١٠][1].

القديس أمبروسيوس

"**فكان اليهود يطلبونه في العيد ويقولون:**

أين ذاك". **[١١]**

يرى البعض أنه يقصد هنا جمهور اليهود أو الشعب، فقد كان موضوع اشتياقهم أن يروا ذاك الذي يصنع عجائب فريدة. كان موضوع حديثهم وإن كانوا قد انشقوا إلى فريقين من جهة نظرتهم إليه. أما الرأي السائد بين آباء الكنيسة الأولى والدارسين المعاصرين فان كلمة "اليهود" هنا كما في أغلب هذا السفر يعنى بها الإنجيلي القيادات من رؤساء كهنة وكتبة وفريسيين، هذه التي اشتاقت أن تتخلص منه، كما اشتاق شاول الملك أن يقتل داود في الشهر الجديد (١ صم ٢٠: ٢٧).

حتى الذين أُعجبوا بشخص السيد المسيح وأعماله لم يستطيعوا أن يدركوا حقيقته، إذ ظنوه رجلاً صالحًا مجردًا، ولم يدركوا أنه ابن الله. إلى الآن كثير من غير المؤمنين يتطلعون إليه كقائدٍ صالحٍ فريدٍ، لكنهم لا يقدرون على التعرف عليه.

طلبوه ليس لأجل الإيمان به والنفع الروحي، وإنما لكي يقذفوه بالشتائم. وكما يقول **القديس كيرلس السكندري: [**لم يأبوا أن يقولوا أين ذاك الإنسان؟ لأن تعبير ذاك الإنسان يُقال عمن هو مرفوض.]

❖ قول اليهود عن المسيح "**أين ذاك؟**"، فمن بغضهم الشديد له وعداوتهم لم يريدوا أن يذكروا اسمه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وكان في الجموع مناجاة كثيرة من نحوه،**

بعضهم يقولون: إنه صالح،

وآخرون يقولون: لا بل يضل الشعب". **[١٢]**

الكلمة اليونانية المترجمة هنا "**مناجاة**" تعني تذمرًا، وقد جاءت باللاتينية *murmur*. يقول **القديس أغسطينوس** أنه حدث تذمر ونزاع من نحوه. فإننا نعيش في هذا العالم كما في فصل الشتاء، فيرى البعض في بعض أنواع أشجار الفاكهة أنها ميتة، ولا يدركون أنها حيّة إلا في الصيف حيث يحل

[1] *Of the Christian Faith, 5: 7: 93.*

وقت الدينونة. [صيفنا هو ظهور المسيح، "سيأتي اللَّه إلهنا ولا يصمت" (مز ٥٠: ٣). "النار أمامه"، هذه النار التي "تحرق أعداءه" (مز ٩٢: ٣)، تمسك بالأشجار الجافة التي يُقال لها: "كنت جائعًا فلم تطعموننى". بينما على الجانب الآخر، على اليمين، يُرى فيض من الثمر، وكثرة من الأوراق تبقى خضراء أبديًا[1].

❖ في رأيي أن أصحاب الرأي الأول هم الكثيرون، والثاني هو رأي القادة والكهنة، فإن هذا الافتراء ضده يناسب حقدهم وشرهم[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ دعهم يقولون عنك، إن كنت ناميًا في المسيح، "**إنه يضل الشعب**". هذا قيل عن المسيح نفسه، ويُقال عن جسد المسيح كله. لتفكر في أن جسد المسيح لا يزال في العالم، لتفكر أنه لا يزال في حقل الدراسة، كيف يُجدف عليه من التبن. يُدرس التبن والقمح معًا، لكن التبن يُحرق والقمح يُنقى. ما قيل عن المسيح إذن هو للتعزية حين يُقال عن أي مسيحي[3].

القديس أغسطينوس

❖ يخوضون في أكثر التخيلات سخافة، ويضلون كثيرًا عن الحق، فلا يحجمون عن أن يدعوه "**مضلاً**" ذاك الذي يرشد إلى طريق البرّ غير المعوج.

القديس كيرلس الكبير

"**ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهارًا لسبب الخوف من اليهود**". **[١٣]**

لم يجسر أحد أن يتكلم عنه خوفًا من القيادات اليهودية، لأن مجرد ذكر اسمه كان يُحسب جريمة قد تؤدي إلى الحرمان من حق العبادة.

❖ من الذين لم يتكلموا عنه جهارًا خوفًا من اليهود؟ حتمًا الذين قالوا أنه صالح وليس الذين قالوا "يضل الشعب". لأن الذين قالوا يضل الشعب سُمع ضجيجهم مثل أصوات أوراق الشجر الجافة... لقد صاحوا أعلى فأعلى.

والذين قالوا أنه صالح همسوا وهم تحت ضغط أكثر فأكثر...

الآن الكنيسة تنمو، فقد تفضل فأعطاها أن تنتشر في العالم كله. الآن فقط الذين يقولون إنه

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:11.*
[2] *Homilies on St. John 49: 1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:11.*

يضل الشعب يهمسون، والذين يقولون إنه صالح يتكلمون بصوت أعلى[1].

القديس أغسطينوس

❖ أي عجب فإن الشعب يخشونهم ويرتعدون منهم، وهم لم يتهذبوا بالناموس، ولا تعلموا أن يحيوا بأسلوب لائق... لأن الخوف دليل على أعلى درجات العبودية.

إذن فقد كانوا مضطرين أن يتعدوا دون أن يفحصوا بالأحرى غاية معطي الناموس. (وإذ لم يتجاسروا أن يمتدحوا ما هو خير) ويحكموا بالشر لا بإرادتهم بل قسرًا حسبما اختار الآخرون، ويدينوا بالخسة ذاك المستحق للمديح والإعجاب.

استطاع (القادة) أن يوجهوهم ضد الوصايا الإلهية، وصاروا مسئولين عن ضياع الجميع.

يشهد النبي عنهم أنهم علة هلاك الشعب، قائلاً: "صار الرعاة بهيميين، ولم يطلبوا الرب، لهذا لم يفهم القطيع كله وتبدد" (إر ١٠: ٢١ *LXX*).

القديس كيرلس الكبير

٣. حديثه في وسط العيد

"ولما كان العيد قد انتصف،

صعد يسوع إلى الهيكل،

وكان يعلم". [١٤]

إذ صعد إلى أورشليم في وسط أيام العيد صعد إلى الهيكل كعادته، وبدأ يبشر علانية. لم يسجل لنا القديس يوحنا عظته، ربما لأن غيره من الإنجيليين قد سجلها.

ذهب في اليوم الرابع أو الخامس من العيد حتى يترك الشعب في الأيام الأولى منشغلين بالمظال التي صنعوها والأغصان التي يمسكونها طوال النهار والتي لم يدركوا مفاهيمها الروحية كما ينبغي، لذا لم تكن أذهانهم مستعدة، وربما لم يكن لديهم الوقت للانشغال بكلمات السيد وأعماله.

لماذا كان يعلم؟ جاء لكي يقدم الحق لعل الإنسان يشتهي المعرفة الصادقة ويتمتع بها. هذا وبقيامه بالتعليم سدّ الفراغ الذي حدث نتيجة انشغال القيادات الدينية ببرهم الذاتي والكرامة والدخول في السياسة، عوض الاهتمام بالمعرفة الروحية.

كأن السيد المسيح من جانب احتل مركز المعلمين، وكشف عن عجزهم عن تحقيق رسالتهم. لقد

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 28:12.*

حقق الوعد: "هكذا قال السيد الرب هأنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها... أنا أرعى غنمي وأربضها يقول السيد الرب، وأطلب الضال، واسترد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح، وأبيد السمين والقوي، وأرعاها بعدلٍ" (حز ٣٤: ١١، ١٥-١٦). "وأُقيم عليها راعيًا واحدًا فيرعاها عبدي داود هو يرعاها، وهو يكون لها راعيًا" (حز ٣٤: ٢٣).

❖ أظن أن الكل بالحق قد تعجبوا لكن ليس الكل اهتدى للإيمان[1].

القديس أغسطينوس

كيف يقول: "**تعليمي**" وفي نفس الوقت يقول: "**ليس لي**"؟ إنه تعليم الآب الذي أرسله، وقد سبق فأعلن الإنجيلي عن يسوع أنه كلمة الآب! لهذا فإن المسيح نفسه هو تعليم الآب، هو كلمة الآب، فما يقدمه المسيح من تعليم، إنما يقدم نفسه ليقتنيه المؤمنون، فهو تعليمه وفي نفس الوقت هو من الآب. هو التعليم الإلهي غير المتغير، ليس تعليمًا يُنطق بألفاظ وحروف، بل هو الواحد مع الآب، يحملنا إلى الآب للمصالحة معه والتجاوب مع حبه.

❖ يليق بنا بأكثر تعقل أن نقر أن مشيئة الطبيعة الإلهية نسمعها بوجهٍ خاصٍ في الأماكن المقدسة.

القديس كيرلس الكبير

لم يقدم لنا الإنجيلي كل تعاليم السيد وعظاته في هذه الفترة لكنه قدم ثلاثة أنواع من الحوار والمحادثات: حوار مع القيادات اليهودية [١٤-٢٤]، وآخر مع سكان أورشليم [٢٥-٣١]، والثالث مع الخدام المرسلين من رؤساء الكهنة والفريسيين [٣٢-٣٦].

"**فتعجب اليهود قائلين:**

كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم؟" **[١٥]**

دُهش اليهود إذ سمعوا تعليمه، إذ كان يتكلم بسلطان، يقتبس من أسفار العهد القديم ويشرح ويحاور ويضرب أمثالا، تعاليمه عميقة ومقنعة، تجتذب البسطاء، وتشبع المتعلمين، وتقنع حتى المقاومين له. جاء في إنجيل مرقس: "وللوقت دخل المجمع في السبت وصار يعلم. فبهتوا من تعليمه، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان، وليس كالكتبة، (مر ١: ٢١-٢٢؛ راجع مر ٦: ٢؛ مت ٧: ٨؛ ١٣: ٥٤؛ لو ٤: ٢٢). فإنه لم يلتحق في إحدى مدارس الأغنياء، ولا عند قدمي أحد الربيين، ولا سافر ليتعلم في بلدٍ ما كما كان يفعل الفلاسفة، ولا التحق بأية مدرسة عامة في بلده. تعلم موسى

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 29:2.*

حكمة المصريين، أما يسوع فلم يتعلم حتى حكمة اليهود. لم يدركوا أنه ليس بمحتاج إلى تسلم المعرفة من يد إنسان، لأنه هو نفسه الحق الإلهي، وأن إرادته واحدة مع الآب.

❖ أرأيت كيف أظهر الإنجيلي أن تعجبهم منه هنا مملوء شرًا، لأن البشير لم يذكر أنهم تعجبوا من تعليمه أو أنهم قبلوا ما خاطبهم به، لكنه قال مالوا إلى دهشةٍ أخرى وتحيروا، وقالوا: "**كيف يعرف هذا الكتب وهو لم يتعلم؟**" فقد كان واجبًا أن يعرفوا ويتيقنوا من حيرتهم هذه أنه لم يكن فيه قول بشري، إلا أنهم لم يريدوا أن يكشفوا هذا المعنى، لكنهم أرادوا أن يقفوا عند تعجبهم منه فقط[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن الذين في استخفاف سألوا: "**أين هو ذاك الإنسان**" اعترفوا بجهلهم، أما هؤلاء الذين قالوا: كيف يعرف الكتب (الحروف) وهو لم يتعلم؟ فيحسبون أنفسهم أصحاب معرفة وعلم ويحكمون عليه هكذا. كان يليق بهم أن يبحثوا بروح المعرفة عن سرّ معرفته للكتب دون أن يتعلم. لعلهم أيضًا قارنوا بينه وبين موسى، فحسبوه غير متعلم، أما موسى "فقد تهذب بكل حكمة المصريين" (أع ٧: ٢٢).

❖ المسيح هو الصالح وحده صلاحًا كاملاً في كل شيء، والوحيد بين الكل الذي له الحكمة والفهم، وله الرفعة، لا بالتعلم بل كخاصية فيه...

كل الصالحات هي في الله بالطبيعة، وهي ليست فيه صادرة من الخارج. هكذا الحكمة فيه أيضًا؛ بل هو ذاته الحكمة، وبشكل خاص نبع الحكمة، يهب الحكمة جزئيًا لمن يشتركون فيه، من الخلائق السماوية العاقلة، وأيضًا الخلائق الأرضية.

القديس كيرلس الكبير

"**أجابهم يسوع وقال:**

تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني". **[١٦]**

إذ دهشوا لمعرفته أعلن لهم أن تعليمه ليس مصدره مدرسة أرضية، ولا أحد الربيين أو الناموسيين، إنما مصدرها الآب السماوي. بكونه المسيا مخلص العالم يقول: "**تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني**" [١٦].

إن كان المسيا يقدم عمل محبة إلهية كان لابد أن ينسب هذا الحب للآب كما جاء في يو ٣:

[1] *Homilies on St. John 49: 1.*

١٦، لئلا يظن البعض أن الآب يمثل الغضب الإلهي، والابن الرحمة الإلهية. فقد بلغ فيما بعد ببعض الفرق مثل أتباع مرقيون أن يحسبوا إله العهد الجديد جاء يخلص العالم من إله اليهود القاسي. لهذا يوضح السيد المسيح أن خطته الإلهية هي تحقيق لتعليم الآب وتدبيره من أجل خلاص العالم، وأنها موضع مسرة الآب كما هي موضع مسرة الابن.

إذ تعجب اليهود كيف يعرف الكتب وهو لم يتعلم، أوضح لهم أنه ليس بمحتاجٍ إلى تعليمٍ بشريٍ أو حكمةٍ بشريةٍ، إذ هو حكمة الآب. ما ينطق به يتناغم مع مشيئة الآب. تعليمه إلهي لا بشري.

❖ مرة أخرى يجيب على أفكارهم السرية ناسبًا تعاليمه إلى الآب، وبهذا يرغب في أن يبكم أفواههم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق به أن يظهر نفسه معادلاً لله الآب الذي لم يتعلم قط بل له معرفة كل الأشياء بالطبيعة دون تعلم، لأنه يفوق كل فهم، ويعلو فوق كل حكمة موجودة في الكائنات. لهذا كان ممكنًا له من خلال أمورٍ أخرى أيضًا أن يُظهر لسامعيه ويؤكد لهم أن كل ما في الآب فيه هو أيضًا، بسبب وحدة الطبيعة.

القديس كيرلس الكبير

❖ أليس تعليمه بدون بلاغة الحروف يبدو أنه يعلم ليس كإنسانٍ بل بالأحرى بكونه اللَّه. إنه لم يتعلم إنما يدبر تعاليمه[2].

القديس أمبروسيوس

❖ وجهوا أفكاركم نحو تعليم المسيح، فتبلغون إلى حكمة اللَّه، وإذ تصلون إليه راعوا هذا: "كان الكلمة اللَّه" (يو ١: ١)، عندئذٍ ترون ما قيل "**تعليمي**" هو **حق**. تأملوا كلمة من هو؟ (كلمة الآب)، فترون بحق أن "**تعليمي ليس لي**"[3].

❖ في اختصار يبدو لي أيها الأحباء أن الرب يسوع المسيح قال: "**تعليمي ليس لي**" بمعنى: "أنا لست من ذاتي". فمع قولنا وإيماننا أن الابن مساوٍ للآب، وأنه لا يوجد أي اختلاف في طبيعتهما وجوهرهما، وأنه لا يوجد أي فاصل زمني بين الوالد والمولود، مع حفظنا هذا وحرصنا عليه فإن أحدهما هو الآب والآخر هو الابن. والآب لا يكون أبًا دون أن يكون له الابن، والابن ليس كذلك

---

[1] *Homilies on St. John 49: 1.*
[2] *On the Christian Faith, Book 2:9:79.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 29:4.*

ما لم يكن له الآب. مع هذا فالابن هو اللَّه من الآب، والآب هو اللَّه لكن ليس من الابن... يُدعى الرب يسوع المسيح نور من نورٍ... والاثنان معًا نور واحد، وليسا نورين[1].

القديس أغسطينوس

"**إن شاء أحد أن يعمل مشيئته**

يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي". **[١٧]**

قدم السيد المسيح لهم برهانًا علي مصدر تعليمه أنه ليس من مدرسة أرضية، ولا من ربِّي، بل من الآب، وذلك أن تعليمه الإلهي متناسق تمامًا مع عمله، فقد جاء إلى العالم خاضعًا في طاعة للآب، لكي يزيل عنا الاعتداد بالذات والعصيان. لقد فتح لنا طريق الطاعة الكاملة باتحادنا معه، فنطلب لا ما هو لنا، بل ما هو لله، ونجد مسرتنا فيه.

إنه الطريق الذي به نتمتع بالأحضان الإلهية خلال شركتنا معه في الطاعة والتواضع. وهو بهذا يفتح أمامنا الباب كي نتقبل التعليم الإلهي، لا بالحوار العقلاني البحت والدراسة الجافة، وإنما بقبول مشية الله فينا عمليًا، والتجاوب مع خطته الإلهية من نحونا. هذا لن يتحقق ما لم نتحد بمسيحنا عمليًا فيهبنا فيه الطاعة الكاملة، ويقدم لنا بره، ويكشف لنا أسراره.

هذا هو عمل روحه القدوس فينا. وكأن مصدر تعليمنا هو الثالوث القدوس، الروح الذي ينير أعماقنا، ويدخل بنا الابن النور الحقيقي، ويحملنا الابن إلى حضن الآب لنحيا في الأسرار الفائقة ونختبر عربونها في هذا العالم حتى يوم لقائنا معه.

❖ فإن سألت: ما هو معنى ما قاله المسيح؟ أجبتك: إنه قال: انزعوا ارتيابكم وغيظكم وحسدكم وبغضكم الناشئ منكم باطلاً، فلا يوجد مانع يمنعكم أن تعرفوا أن كلامي هو بالحقيقة كلام الله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه،**

وأما من يطلب مجد الذي أرسله،

فهو صادق وليس فيه ظلم". **[١٨]**

سمة المخادع أو المضل أن يطلب مجد نفسه ويتكلم عن نفسه، وهي سمة أضداد المسيح والأنبياء الكذبة. يطلبون تحقيق إرادتهم الذاتية لا مشيئة الله. أما علامة أن يسوع هو المسيح حقًا الصادق، فهو أنه يتكلم بما هو من عند الآب، ويطلب مجد الآب، بالرغم من أن إرادتهما واحدة،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 29:5.*

ومجدهما واحد.

إن كان الابن قد صار جسدًا، فمع كونه ابن الإنسان إلا أن تعليمه ليس محصلة خبرة بشرية، ولا دراسة زمنية، ولا ثمرة فكر خاص، إنما مصدره الآب الذي أرسله، فهو تعليم إلهي حق، ليس فيه أي بطلان أو كذب.

"**ليس فيه ظلم**" أي ليس فيه كذب أو بطلان.

❖ "**من يتكلم عن نفسه يطلب مجد نفسه**" [١٨]. ذاك الذي سيُدعى ضد المسيح يقول عنه الرسول: "المرتفع على كل ما يُدعى إلهًا أو معبودًا" (٢ تس ٢: ٤). يعلن الرب عن نفس الشخص (ضد المسيح) أنه يطلب مجد نفسه وليس مجد الآب، فيقول لليهود: "أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه" (يو ٥: ٤٣).

لقد صرح أنهم سيقبلون ضد المسيح الذي سيطلب مجد اسمه، منتفخًا وغير ثابتٍ، ولا مستقر بل حتمًا مدمر.

لكن ربنا يسوع المسيح يظهر لنا مثلاً عظيمًا في التواضع، فإنه دون شك هو مساوي للآب... يطلب مجد الآب لا مجد نفسه. فكم يليق بك يا إنسان، يا من حين تفعل أمرًا صالحًا تطلب مجد نفسك، بينما حين ترتكب أمرًا شريرًا تسيء إلى اللَّه؟

اعرف نفسك، أنت مخلوق!

اعرف خالقك. أنت خادم، لا تحتقر ربك.

أنت مُتبني ليس من أجل استحقاقك...

اطلب مجد ذاك الذي تنال منه هذه النعمة فإنك إنسان مُتبنّي[1].

القديس أغسطينوس

٤. حديثه عن كسر السبت

"**أليس موسى قد أعطاكم الناموس،**

وليس أحد منكم يعمل الناموس،

لماذا تطلبون أن تقتلوني؟" **[١٩]**

واجه السيد اتهام الرؤساء له أنه مضل [١٢] باتهامهم أنهم كاسرو الناموس. كيف يكون هو

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 29:8.*

مضلاً وهو يتمم مشيئة الآب، بينما وهم يدعون أنهم حافظوا الناموس إذا بهم يكسرونه كقتلة للبرئ. هنا يهاجمهم السيد علانية داخل الهيكل في أعز ما يظنون أنهم أمناء عليه وهو حفظ الناموس.

❖ اتهمهم لا بتعديهم الفردي على الناموس بل بأن أمة اليهود كلها قد أبطلت ناموس موسى... في اتهامه بتعديه على السبت يظهرون أنفسهم متعدين ومتآمرين على قتله، وبهذا يسقطون في أرذل جميع الخطايا (وهو قتل البريء).

القديس كيرلس الكبير

❖ تطلبون أن تقتلوني لهذا السبب وهو أنه ليس أحد منكم يعمل بالناموس. لأنكم لو كنتم تعملون بالناموس لعرفتم المسيح في كل حروفه، ولما كنتم تقتلونه حين يكون حاضرًا بينكم...

انظروا ما هي إجابتهم: "**بك شيطان، من يطلب أن يقتلك**"...

لقد اضطرب الجمع، بماذا؟ بالحق. لأن الأعين غير السليمة لا تقدر أن تحتمل بهاء النور[1].

القديس أغسطينوس

"**أجاب الجمع وقالوا:**

بك شيطان من يطلب أن يقتلك". **[٢٠]**

ربما أنكر الرؤساء ومن معهم وجود أية خطة لقتله حتى لا يثيروا الشعب، ولهذا دُهش الشعب، ولئلا يظهروا ككاسري الناموس إذ يطالبون بقتل شخص دون محاكمة، أو بقتل إنسان برئ حينما أعلن السيد: "**لماذا تطلبون أن تقتلوني؟**" [١٩]. أما اتهامهم "**بك شيطان**"، فيتكرر دومًا حين لا يجدوا علة عليه أو ما يقاومونه به.

❖ شعر اليهود بالاتهامات... ولجأوا إلى الإنكار، مع أنهم لم يحيدوا عن خطتهم في القتل. لكنهم بكل اجتهاد يبعدون عن أنفسهم مظهر التعدي على الناموس، فإن فخر الفريسيين هو في التظاهر فقط.

القديس كيرلس الكبير

❖ يقول: لا عجب إن كنتم لا تطلبونني، فإنكم لا تطيعون الناموس الذي تظنون أنكم تطيعونه وتتمسكون بأنكم تسلمتموه من موسى. فإنه ليس بالأمر الجديد إن كنتم لا تهتمون بكلامي[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 30:2.*
[2] *Homilies on St. John 49: 3.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أجاب يسوع وقال لهم:
عملاً واحدًا عملت،
فتتعجبون جميعًا". [٢١]

العمل الذي يشير إليه هنا هو شفاء المفلوج (يو ٥) في يوم السبت.

❖ إنه على أساس هذا العمل الواحد، وعلى الرغم من أنه عُمل لأجل خلاص المطروح أرضًا وحياته، فهل تدينون الصانع القدير بسبب هذا؟... لأن وصية الناموس قد كُسرت حسب تصوركم الأحمق، لأسباب ليست هينة أو عديمة القيمة، وإنما لأجل خلاص الإنسان وحياته، وأنتم غاضبون بلا سبب، بينما كان الأجدر بكم أن تمدحوا ذاك المتسربل بقوة إلهية عظيمة المقدار حقًا هكذا.

القديس كيرلس الكبير

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن العمل الذي صنعه السيد المسيح وهو شفاء المولود أعمى، وقد أُتهم بكسر يوم السبت. العمل الذي فعله أعظم من الختان الذي قدمه موسى، وجاءت وصية الختان تكسر السبت أيضًا، إذ كان يلزم إتمام الختان إن جاء الموعد في يوم السبت. حقًا لم يقل السيد مباشرة: "أنا عملت ما هو أعظم من الختان" بل قال: "لهذا أعطاكم موسى الختان ... " [٢٢].

"لهذا أعطاكم موسى الختان،
ليس أنه من موسى،
بل من الآباء،
ففي السبت تختنون الإنسان". [٢٢]

لقد وُهب لهم الختان كعطية صالحة، وليس كثقلٍ يمارسه الإنسان، ولا يُحسب ممارسته كسرًا للناموس. لقد أُعطيت وصيته قبل موسى بزمانٍ طويلٍ، منذ أيام إبراهيم (تك ١٧: ٩-١٠)، لكنه أُدمج مع الشرائع الموسوية كواحدةٍ منها، مع أنه لم ترد وصية موسوية تطالب بالختان.

أعطى معلمو اليهود لوصية الختان أفضلية عن السبت، فقد التزم اليهود بطقس الختان في اليوم الثامن حتى وإن جاء يوم سبت. لا يُراعى حفظ السبت من أجل الصحة العامة. فإن كان الأمر هكذا بالنسبة لممارسة الختان حرفيًا، فماذا إن كان الأمر يخص سلامة الإنسان كله، متى شفيت كل أعضاء المفلوج الملقى علي سرير مرضه ٣٨ عام.

يعود أمر الختان إلى عصر الآباء، ما قبل موسى النبي، وليس من بدء الخليقة، أما ما يفعله السيد المسيح فهو أمر يخص كيان الإنسان طبيعيًا، منذ خلقته، إذ يريد الله أن يكون الإنسان سليمًا روحيًا وجسديًا منذ بدء الخليقة.

يقول **القديس أغسطينوس كأن السيد المسيح** يقول: [لأن الختان يخص نوعٍ من ختم الخلاص، ويلتزم الناس ألا يكفوا عن عمل الخلاص في يوم السبت. لهذا لا تسخطون عليَّ لأني شفيت إنسانًا كله في السبت [٢٣]، إن كان الإنسان يقبل الختان في السبت...[1]]

كما يقول **القديس أغسطينوس إن** الختان كان يتم في اليوم الثامن باستخدام سكينٍ حجريةٍ، وكان رمزًا لنزع الشهوات الجسدية من الجسد، وقد جاء السيد المسيح، الصخرة الحقيقية، ليقدمه في اليوم الثامن فيهب المؤمن بقيامته ختانًا روحيًا. يقول استمعوا إلى أولئك الذين اختتنوا بالحجر الحقيقي الذين ينصحهم الرسول: "إن كنتم قد قمتم مع المسيح فأطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين اللَّه. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض" (كو ٣: ١-٢). يتحدث إلى المختونين: المسيح قام، إنه ينزع عنكم الشهوات الجسدية، الشهوات الشريرة، الأمور غير اللازمة التي ولدنا بها، والأمور الأشر التي أضفتموها إليها بحياتكم الشريرة. إن كنتم قد اختتنتم بالصخرة لماذا لازلتم تضعون عواطفكم في الأرض؟[2]]

❖ موسى نفسه "خادم الناموس" كسر ناموس السبت لأجل الختان الذي امتد من الآباء حتى زمن اليهود ليُظهر أنه كان حافظًا لتقليد الآباء، ولما كان الله يعمل أيضًا في السبت، لذلك فهو يعلن عن نفسه أنه هو أيضًا يعمل. فلا يكون هذا تعديًا على السبت، إذ له نفس الفكر مع الآب، لهذا أيضًا قال: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧)...

إن كان موسى قد اهتم أن يكرِّم تقليد الآباء، وجعل هذا التكريم أعلى من تكريم السبت، فلماذا تنزعجون باطلاً من جهتي وتتعجبون كأنني أحد الساعين إلى التعدي على الناموس والمزدرين به، مع أنني أعمل عملاً معادلاً لعمل الآب، وأتفق معه دومًا في كل قصد؟ وحيث أنه يعمل يوم السبت، فإنني أرفض التكاسل في هذا اليوم.

القديس كيرلس الكبير

"**فإن كان الإنسان يقبل الختان في السبت لئلا ينقض ناموس موسى،**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 30:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 30:5.*

أفتسخطون عليَّ لأني شفيت إنسانًا كله في السبت؟" [٢٣]

الختان فيه جرح ودم وألم، ومع هذا يُمارس يوم السبت الذي هو يوم الراحة، فماذا يكون بالنسبة للسيد المسيح الذي يهب شفاء الإنسان بأكمله؟ إن كان عمل الناموس المؤلم يُسمح به في السبت، أليس بالأولى عمل الإنجيل المفرح واهب السلام أن يُمارس في السبت؟

ما يشغل ذهن والدي الرضيع وأقربائه أن يُشفى الطفل المُختتن في الجزء المُختون، أما ما يشغل السيد المسيح فهو شفاء الإنسان بكل كيانه.

❖ الختان هو السبيل إلى العناية بالإنسان، وهو يفوق فريضة السبت نفسها، لأنه كان من الضروري أن يُشفى المريض تمامًا، فما العائق إذن، أو كيف يُعقل أن تقف فريضة السبت في طريق شفاء الجسد كله ما دام يُسمح فعلاً ودون لومٍ بخرقه عن طريق شفاءٍ جزئي (أو طفيف)؟

القديس كيرلس الكبير

❖ أنتم ترون أننا ننال امتياز الشركة في جوهره ليس في دائرة الطبيعة، وإنما في دائرة النعمة. والسبب أننا موضع حب الآب، بحبه للابن يحب أعضاء الجسد[1].

القديس جيروم

"لا تحكموا حسب الظاهر،

بل احكموا حكمًا عادلاً". [٢٤]

يطالبهم السيد المسيح أن يحكموا بالبرّ لا بالمظهر، فإن الانشغال بالحرف لا بالروح يفسد حكمنا بالنسبة لأمور الناموس. السبت كيوم "الراحة" هو يوم الرحمة والحب لحساب مجد الله وبنيان شعبه وخلاص كل أحدٍ ما أمكن. ليكن حكمهم في شفاء المفلوج يوم السبت خلال هذا المفهوم الروحي لا الحرفي.

❖ إن الناموس الذي أنتم غيورون عليه هكذا للاشتراك فيه، والذي بسببه اشتعلتم بثورة عارمة، إنما يصرخ عاليًا، قائلاً: "لا تهابوا وجه إنسانٍ، لأن القضاء لله" (تث ١: ١٧). إذن أنتم يا من تدينونني كمتعدٍ بسبب السبت، وتقررون أنه من اللائق تمامًا أن تغضبوا لهذا، هل تهتمون بكرامة الناموس؟ لتخجلوا من الرسالة القائلة: "لا تحكموا حسب الظاهر، بل احكموا حكمًا عادلاً، لأنكم إن كنتم تستبعدون موسى من التعدي، وبصوابٍ تعتبرون أنه لا دينونة عليه في ذلك بالرغم من

[1] *Against Jovinianus, 2:29.*

أنه يكسر فريضة السبت بسبب الختان الذي هو من الآباء، فهل تعفون الابن أيضًا من اللوم وهو الذي يتفق دومًا مع فكر الآب ويوافق مشيئته، وكل ما يفعله الآب يفعله الابن أيضًا؟ كيف تدينون الابن وحده دون موسى مع أنه مشترك معه في نفس اللوم فيما يخص ما تظنون أني متورط فيه بسبب السبت؟

القديس كيرلس الكبير

❖ كأن المسيح يقول: أنا قد عملت عملاً أرفع قدرًا من الختان وأفضل.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الآن بحسب ناموس موسى تختتون في يوم السبت ولم تقضوا على موسى، وعندما أبرأت إنسانًا كله غضبتم علي. "إنكم تحكمون بمحاباة، اهتموا بالحق![1]

❖ لا نظن أن هذا لم يُقل من أجلنا نحن، لأننا لم نكن موجودين في ذلك الحين... ليتنا لا نتراجع إلى الخلف، ونتطلع إليه وهو يوبخ الأعداء، بينما نحن أنفسنا نفعل ما يوبخنا عليه الحق.

حقًا لقد حكم اليهود حسب الظاهر، وبهذا لم ينتموا إلى العهد الجديد، ليس لهم ملكوت السماوات في المسيح، ولا اتحدوا بمجتمع الملائكة القديسين. لقد طلبوا أمورًا زمنية من الرب: أرض الموعد، النصرة على الأعداء، كثرة البنين، فيض من الثمار – هذه الأمور التي بالحق وعدهم اللَّه بها، الحق والصالح، وعد بها كأناسٍ جسدانيين، هذه كلها قدمت لهم عهدًا قديمًا...

الآن نتجدد، وصار لنا الإنسان الجديد، لأنه قد جاء ذاك الذي هو الإنسان الجديد. إذ من هو جديد هكذا مثل ذاك الذي وُلد من العذراء؟... فيه ميلاد جديد وفينا نحن الإنسان الجديد.

وما هو الإنسان الجديد؟ إنسان يتجدد من العتق.

إلى أي شيء يتجدد؟ لطلب الأمور السماوية والاشتياق إلى الأبديات، والغيرة لطلب الوطن العلوي، وعدم الخوف من عدو، حيث لا نخسر صديقًا ولا نخشى عدوًا، حيث نعيش بعاطفة صالحة بلا عوزٍ...

لنا رجاء مختلف تمامًا عن رجائهم. ليتنا لا نحكم حسب الظاهر، بل نحكم حكمًا عادلاً... هكذا ننتفع بكلمات الرب، ولكي ننتفع بها تعيننا نعمته[2].

القديس أغسطينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 30:6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 30:7-8.*

٥. إيمان كثيرين به

"فقال قوم من أهل أورشليم:

أليس هذا هو الذي يطلبون أن يقتلوه؟" [٢٥]

كانت أورشليم في نظر اليهود هي ينبوع الروحانية ومصدر المعرفة الإلهية الحقيقية، لكن الشعب في أورشليم صاروا في ارتباك من موقف القيادات الدينية. هل هم يطلبون حقًا قتله كمجدفٍ ومخادعٍ؟ ولماذا لم يلقوا القبض عليه، وها هو يعلم علانية؟

هنا نجد موقف الشعب القادم من خارج أورشليم مختلف عن أهل أورشليم، لأن القادمين لا يعرفون شيئًا عما تحمله القيادات من حسدٍ وغيرةٍ، أو من مقاومة للسيد المسيح، أما أهل أورشليم فعلى دراية بما يخططه هؤلاء ضده.

بخصوص موقف اليهود من السيد المسيح يميز بعض الدارسين بين ثلاث فئات:

١. الرؤساء والكهنة والفريسيون، يحملون عداوة ضد السيد المسيح.

٢. أهل أورشليم، يعرفون ما تحمله مشاعر الفئة الأولى، وقد وقفوا في ارتباك بين خضوعهم للقيادات مع ملاحظتهم أنهم لا يتحركون للخلاص منه عمليًا وبين ما يتمتعون به من أعمال محبة وأعاجيب وتعاليم لها جاذبيتها الروحية وسلطانها يمارسها السيد.

٣. الغرباء الصاعدون إلى أورشليم للعيد، والذين اعجبوا من السيد وهم يجهلون موقف الفئة الأولى ضده. وقد دهشوا عندما سمعوه يقول أنهم يطلبون أن يقتلوه [٢٠]، وحسبوا ذلك وهمًا عنده أو فكرًا من الشيطان.

❖ نعتقد أن بقية الشعب اليهودي كانوا يجهلون خطة رؤسائهم، لكن أولئك الذين من أورشليم يعيشون معظم الوقت معهم، ويسكنون معهم في نفس المدينة، ويتقابلون معهم باستمرار، ويعرفون التخطيط الشرير الذي ملأهم ضد المخلص المسيح.

القديس كيرلس الكبير

❖ الذين عرفوا بأية شراسة كانوا يطلبونه تعجبوا بأيّة قوة حُفظ من أن يقبضوا عليه. وإذ لم يعرفوا قوته كما ينبغي توهّموا أن القادة عرفوا أنه المسيح نفسه، ولهذا السبب تركه الذين كانوا شغوفين جدًا أن يطلبوا قتله[1].

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:2.*

القديس أغسطينوس

"وها هو يتكلم جهارًا ولا يقولون له شيئًا،
ألعل الرؤساء عرفوا يقينا أن هذا هو المسيح حقًا؟" [٢٦]

❖ إن لم يكن الرؤساء قد عرفوا يقينًا أن هذا هو المسيح (حقًا)، فما الذي يغريهم على تحمل توبيخه العلني لهم، وتجديده للأمور التي كانت فريضة منذ القديم، إذ وُجد يشفي حتى في يوم السبت، ويحزنهم أشد الحزن بقوله بصراحة: "أليس موسى قد أعطاكم الناموس، وليس أحد منكم يعمل الناموس؟" وهم يتحملون كل هذا...

القديس كيرلس الكبير

"ولكن هذا نعلم من أين هو،
وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو". [٢٧]

عرف غالبية الشعب أن يسوع ولد في بيت لحم من بيت داود، ولكن حسبما يعلن إشعياء النبي: "جيله من يقدر أن يعلنه؟" (إش ٥٣: ٨)، أي أن ميلاده وظهوره سرِّيان. وكان الربيِّين لديهم هذا المثل: "ثلاثة أمور تحدث فجائيًا: شيء نجده بالمصادفة، لدغة العقرب، ظهور المسيا". لهذا تساءل أهل أورشليم إن كان يسوع هو المسيح أم لا، لأنهم يعرفون من أين هو.

لم يدركوا أن ما نطق به إشعياء يخص ميلاده الأزلي الفائق، وأيضًا يخص كهنوته بكونه على رتبة ملكي صادق الذي لا يعرف أحد والديه. أما عن تجسده، فقد أعلن الأنبياء الكثير عن تفاصيله، وقد عرف اليهود أين يولد (مت ٢: ٤–٥).

❖ إنهم لم يفطنوا إلى كلمات الأنبياء القديسين عنه وهي نوعان.

تشير أحيانًا إلى أنه سيأتي إلى العالم في الجسد، وتعلن لنا عن ميلاده من عذراء حسب الجسد. "فها العذراء تحبل وتلد ابنًا" (إش ٧: ١٤). أجل، بل وهي تعلن مكان ميلاده: "أما أنتِ يا بيت لحم أفراته، وأنتِ صغيرة، أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطًا على إسرائيل، ومخارجه من القديم، منذ أيام الأزل" (مي ٥: ٢).

لكنهم حينما كانوا يقدمون – قدر المستطاع – ميلاده غير المدرك من الله الآب يقولون ما ذكرناه آنفًا أن ميلاده من يخبر به؟ لأن "حياته أُنتزعت من الأرض"، أو ما يتصل بالنص المقتبس: "مخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل". لأنه يعني هنا بتعبير "مخارج" الابن الوحيد، كخروج البهاء من النور، وكخروج خاص من جوهر الذي ولده، إلى كيانه الخاص (الذاتي) الذي قبل كل الدهور وكل

يوم وكل لحظة...

القديس كيرلس الكبير

❖ يقولون:" لا يعرف أحد من أين هو"، مع أن رؤساءهم عندما سُئلوا أصروا أنه ينبغي أن يولد في بيت لحم...

مرة أخرى يقولون: لا يأتي من الجليل بل من بيت لحم [٤١-٤٢]. ألا تروا أن قراراتهم صادرة عن ثورة غضب؟ يقولون "نحن نعلم" و"نحن لا نعلم"... فقد انشقوا في أمرٍ واحدٍ[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بكونه إنسانًا سبق فأخبرتنا الكتب المقدسة ما سيكون عليه، أما بكونه اللَّه فقد أُخفي هذا عن الأشرار، ويحتاج الأمر إلى أبرارٍ يكتشفونه. علاوة على هذا يقولون: "**وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو**" [٢٧]. لأن هذا ما نطق به إشعياء، مقدمًا لهم هذه الفكرة: "وجيله من يخبر به؟!" في اختصار قدم الرب نفسه إجابة على الطريقين، إنهم يعرفون من أين هو، وأيضًا لا يعرفون. وذلك لكي يشهد للنبي الذي سبق فأخبر عنه من جهة بشرية ضعفه، وأيضًا من جهة لاهوت مجده[2].

القديس أغسطينوس

"**فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً:**

تعرفونني وتعرفون من أين أنا،

ومن نفسي لم آتِ،

بل الذي أرسلني هو حق،

الذي أنتم لستم تعرفونه". **[٢٨]**

أجاب السيد المسيح على هذه التساؤلات علانية، مناديًا بصوت عالٍ في الهيكل. ولعله بهذا يدعو الكهنة والقيادات التي لم تعد تجسر أن تقترب، أو لا تطيق سماع صوته لكي يقتربوا ويسمعوا. إنه لا يُعلِّم خفية بل علانية، لأنه يقدم الحق بلا خداع كما ادعوا. كأنه يقول لهم: "من له أذنان للسمع فليسمع".

"**تعرفونني وتعرفون من أين أنا**"، كأنه يقول: هذا حق، فإني من أمتكم، وأنا منتسب إليكم،

---

[1] *Hom 50. PG 59:294.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:2.*

وتعرفون موطن ميلادي. لكن من جهة لاهوتي لست تعرفونني ولا تعرفون من أين أنا، ولا ذاك الذي أرسلني.

"**ومن نفسي لم آت**". إنه ليس بالإنسان المجرد الذي يعمل لحساب نفسه، بل هو مُرسل من الآب، يعمل لحساب البشرية كلها. إنه ابن الله الذي سبق فوعدهم بإرسال المسيا مخلص العالم، وهذا هو الوعد الإلهي يتحقق لكنهم يرفضونه ويرفضون إنجيله.

لم يكن من السهل أن يقبل الرؤساء هذا الحديث، إذ فيه اتهام ضدهم بالجهل؛ إنهم لا يعرفون الله، بينما هو وحده يعرفه، ليس لأنه أرسله كما يرسل الأنبياء وإنما هو "**منه**"، مولود منه أزليًا. فمن جهة ينسب إليهم الجهل، ومن جهة أخرى يقيم من نفسه ابنًا مولودًا من الآب، وفي نظرهم هذا تجديف يستحق عليه الموت. لكن قوة خفية منعتهم من إلقاء أيديهم عليه حتى تحين الساعة.

❖ كإنسانٍ لم يأتِ من نفسه، وكابن اللَّه لم يأخذ بدايته من بشر، بل كما يقول: "أنا من البدء ما أكلمكم أيضًا به" (يو ٨: ٢٥). الكلمات التي أكلمكم بها ليست بشرية بل إلهية[1].

❖ إذن ما هو معنى "لا تؤمنوا بي" (يو ١٢: ٤٤)؟ لا تؤمنوا بما تدركونه في الشكل الجسدي، ولا في مجرد الإنسان الذي ترونه. إذ بقدر ما أنه يجب علينا ألاّ نؤمن به كمجرد إنسان بل أن يسوع المسيح نفسه هو الله والإنسان (في نفس الوقت). لهذين السببين يقول: "**لم آتِ من نفسي**" (يو ٧: ٢٨). كإنسان لم يأتِ من نفسه، وكابن الله لم يأخذ بدايته من إنسان، بل يقول: "أنا نفسي من البدء ما كلمتكم به". الكلام الذي أكلمكم به ليس بشريًا بل هو إلهي[2].

القديس أمبروسيوس

❖ القول: "تعرفون من أين أنا" لا تعني هنا موضعًا معينًا، وذلك هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه"، مشيرًا هنا إلى الجهل الذي ظهر من أعمالهم. وكما يقول بولس: "بأنهم يعرفون الله، ولكنهم بالأعمال ينكرون" (تي ١: ١٦). فإن خطأهم يصدر ليس مجردًا عن الجهل بل عن شرٍ، عن رأيهم الشرير وحكمهم الشرير. فمع معرفتهم هذه أرادوا أن يكونوا جاهلين... بقولهم: "**نحن نعلم من أين هو**" لم يعلنوا أنه من السماء... وبقوله: "**وتعرفون من أين أنا**" [٢٨]، يعني أنه ليس من الموضع الذي يظنونه، بل من الموضع الذي منه ذاك الذي أرسله[3].

---

[1] *On the Christian Faith, Book 5:10:120.*
[2] *Of the Christian Faith, 5: 10: 120.*
[3] *Hom 50. PG 59:294-295.*

❖ بالقول: "**من نفسي لم آتِ**" يعلن أنهم عرفوا أنه مرسل من الآب، ومع ذلك لم يريدوا أن يبوحوا به.

إنه يلومهم من جانبين: أولاً انهم قالوا في الخفاء وهو تكلم علانية لكي يضعهم في خزي؛ وأنه أعلن ما هو في قلوبهم. فبينما أصروا على القول: "**لا يعلم أحد من أين هو**" أكد بذلك انه هو نفسه المسيح.

هم استخدموا الكلمات: "**لا يعلم أحد**" بالإشارة إلى تمييز بين أماكن محلية، لكنه بذات الكلمات يظهر نفسه المسيح، لأنه جاء من عند الآب... كلماته بخصوص الآب: "**أنتم لستم تعرفونه**" جعلتهم في سخطٍ، إذا يوبخهم هكذا لأنه إذ يعرف أنهم يتظاهرون بالجهل كان ذلك كافيًا أن يؤخزهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الكتاب الموحى به من الله أعطاكم أن تعرفونني، وأن تعرفوا من أين أنا، ليس لأنكم تعرفونني إنني من الناصرة أو من بيت لحم، وإنني مولود من امرأة، يوجب عليكم بهذا أن يصيبكم مرض عدم الإيمان. لكن بسبب تلك الأمور التي قيلت عني، وبسبب ميلادي الجسدي، كان ينبغي عليكم بالأحرى أن تتقدموا إلى إدراك الأسرار الخاصة بي، وألا ترددوا صوتًا وحيدًا لنبي يخبر عن ميلادي غير المدرك من الله الآب.

❖ لست مثلكم، ولا أحاكي خستكم التي تمرستم عليها جيدًا. فأنا لم آتٍ من نفسي، ولا أنا بمرسل نفسي مثلكم، بل أنا آتٍ من السماء، والذي أرسلني هو حق، وليس مثل الشيطان مرسلكم، شيطان الكذب، الذي تقبلون روحه، فتتجرأون على التنبؤ بالكذب، الذي هيجكم لتخترعوا كلمات من الله، فهو ليس حقًا، لأنه كذاب وأبو الكذاب (يو ٨: ٤٤).

القديس كيرلس الكبير

❖ كأنه يقول: أنتم تعرفونني، وتعرفون من أين أنا، وأنتم لا تعرفون من أين أنا.

أنتم تعرفون من أين أنا، يسوع الناصري، وتعرفون والديه. لأنه قد خفي عليهم ميلاده من البتول وحدها، الأمر الذي يشهد له زوجها، فإنه قادر أن يشهد بأمانة لهذا كزوجٍ غيورٍ، فإن هذا هو الميلاد البتولي المتوقع.

لقد عرفوا في يسوع ما يخصه كإنسان، وجهه كان معروفًا، مدينته كانت معروفة، أسرته كانت

[1] *Hom 50. PG 59:295.*

معروفة، أين ولد كان معروفًا بالسؤال عنه. بحق قال "**تعرفونني وتعرفون من أين أنا**" [٢٨]، وذلك حسب الجسد وشكل الإنسان الذي أحمله.

أما ما يخص لاهوته: "**من نفسي لم آتِ، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لا تعرفونه**" [٢٨]. كان يمكنكم أنتم أن تعرفوه، وتؤمنوا بالذي أرسلني. إنه لن يرى أحد قط اللَّه إلا ابن اللَّه الوحيد الذي في حضن الآب، هو يخبر عنه (يو ١: ٨). لا يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له (مت ١١: ٢٧) [1].

القديس أغسطينوس

❖ "**الذي لستم تعرفونه**"، حيث أنكم لا تعرفون ذاك الذي هو منه، الذي فيه وحده يُرى الآب. لأن من رأى الابن فهذا قد رأى الآب (١٤: ٩). والذي يعرف الابن لا يجهل ذاك الذي ولده...

إنه ليس مثلهم لا يعرف أباه الشخصي، لكنه يؤكد أنه يعرف نفسه ويعرفه (الآب) حق المعرفة تمامًا. لأنه إله من الله الآب يملك معرفة خاصة عجيبة وغريبة بتلك الأمور كلها، كما يليق به وحده، لأن الابن لا يعرف الآب بنفس الطريقة التي نعرفه نحن بها. لأن طبيعة المخلوقات تبلغ إلى رؤية الله بالفهم فقط، ولا تتجاوز حدودها التي تلائمها، وتذعن بغير إرادتها إلى الطبيعة الإلهية المجتمعة في الكلمات التي لا يُنطق بها. أما الابن الوحيد الجنس لله الآب فيرى ذاك الذي ولده كاملاً في ذاته، ويرسم جوهر الآب في ذاته ويعرفه، بطريقة لا يُمكن التعبير عنها، لأن أمور الله لا يُنطق بها.

القديس كيرلس الكبير

"**أنا أعرفه لأني منه،**
وهو أرسلني". **[٢٩]**

❖ لماذا يقول: "**أنا أعرفه**"؟ "**لأني منه، وهو أرسلني**" [٢٩]. لقد أظهر كليهما بطريقة مجيدة. يقول: "**إني منه**"، لأن الابن من الآب، وما هو عليه الابن إنما هو من ذاك الذي هو ابنه. لذلك نقول إن الرب يسوع المسيح هو إله من إله، ولا نقول عن الآب إنه إله من إله بل هو اللَّه. ونقول عن الرب يسوع نور من نور، ولا نقول عن الآب إنه نور من نورٍ، بل هو النور. بهذا فهو يقول: "**إني منه**".

ولكن حسبما ترونني في الجسد هو "**أرسلني**".

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:3.*

عندما تسمع "**أرسلني**" لا تفكر في وجود اختلاف في الطبيعة بل في سلطان ذاك الذي وُلد[1].

القديس أغسطينوس

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على تواضع السيد المسيح العجيب، فإنه بهذا كسب نفوسًا كثيرة للإيمان به.

❖ ألا ترون كيف يطلب على الدوام أن يبرهن: "لم آتِ من نفسي"، "الذي أرسلني هو حق"، مجاهدًا إلاَّ يُحسب عدوًا لله؟ ولتلاحظوا عظمة نفع تواضع كلماته، فإنه قيل بعد هذا: "**ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا الإنسان؟**"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فطلبوا أن يمسكوه،**
ولم يلقِ أحد يدًا عليه،
لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد". **[٣٠]**

❖ أسكتت توبيخات (الرب) الفريسيين، وإذ قد تأكدوا أن صمتهم حيال هذه الأمور قد أضر بعنادهم وانتفع به الجمهور (إذ اقتنعوا انه المسيح)... تعطشوا مرة أخرى إلى قتله، إذ طرحوا وقار الناموس جانبًا... وحُسبوا غير أهلٍ لتذكر الوصية: "لا تقتل البريء والبار" (خر ٢٣: ٧). لكن العمل الإلهي قمعهم وكبح أعمالهم الشريرة، وحوَّل خطتهم إلى مجرد محاولات.

القديس كيرلس الكبير

❖ "**فطلبوا أن يمسكوه، ولم يلقِ أحد يدًا عليه، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد**"، أي لأنه لم يكن يرد ذلك.

فإنه ماذا تعني "**ساعته لم تكن قد جاءت بعد**"؟ لم يولد الرب تحت مصير معين. يجب ألا تعتقد بذلك بالنسبة لك (أنك مُصيّر، فكم بالأولى لذاك الذي خلقك. إن كانت ساعتك هي حسب إرادته الصالحة (وليس قضاء وقدرًا)، فكم تكون ساعته إلا بإرادته الصالحة؟

إذ لا يعني بالساعة التي يموت فيها قسرًا بل التي تنازل لكي يموت فيها (بإرادته). إنه كان ينتظر أن يموت فيها كما انتظر الساعة التي وُلد فيها. تحدث الرسول عن هذا الزمن، قائلاً: "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل اللَّه ابنه مولودًا" (غل ٤: ٤). لهذا السبب كثيرون يقولون لماذا لم يأتِ المسيح من

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:4.*
[2] *Homilies on St. John 50: 2.*

قبل؟ نجيبهم: لأن ملء الزمان لم يكن قد جاء بعد. وفي المكان الأول كان من الضروري أن يُخبر مسبقًا عنه بسلسلة طويلة من الأزمان والسنوات، لأن مجيئه ليس بالأمر التافه. كان يجب أن يُخبر مُسبقًا لمدة طويلة عن ذاك الذي نتمسك به أبديًا.

كلما زادت عظمة القاضي القادم كلما طال صف المعلنين عنه السابقين له.

في اختصار **إذ حلّ ملء الزمان جاء ذاك الذي يخلصنا من الزمن.** وإذ نخلص من الزمن سنأتي إلى الأبدية حيث لا زمن. عندئذٍ لا نقول: متى تأتي الساعة؟ لأن اليوم أبدي، لن يسبقه أمس، ولن يقطعه غد. لكن في هذا العالم الأيام تتكرر وراء بعضها البعض، أيام تمضي وأخرى تأتي، وليس من يوم يدوم. اللحظات التي نتكلم فيها تسحب اللحظة غيرها، كل لحظة بدورها...

منذ بدأنا نتحدث صرنا إلى حدٍ ما أكبر (عمرًا)، فبدون شك الآن أنا أكبر مما كنت عليه في الصباح. هكذا لن يبقى شيء على حاله، ليس شيء ثابت في الزمن. لهذا يليق بنا أن نحب ذاك الذي به خلق الزمن، حتى نتخلص من الزمن، ونثبت في الأبدية، فلا يكون بعد تغيير في الزمن.

عظيمة هي مراحم ربنا يسوع المسيح الذي من أجلنا وُجد في زمن، هذا الذي أوجد الأزمنة، إذ وُجد بين كل الأشياء ذاك الذي به كل شيء كان، فصار ما قد صنعه...

إذ صار إنسانًا ذاك الذي خلق الإنسان، حتى لا يهلك ما قد صنعه. نحسب هذا التدبير قد جاءت ساعة ولادته فوُلد، لكن في ذلك الحين لم تكن قد جاءت ساعة آلامه، لذلك لم يكن بعد قد تألم[1].

القديس أغسطينوس

"فآمن به كثيرون من الجمع وقالوا:

ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟" [٣١]

كلما اشتدت الضيقة وحاول الرؤساء بالأكثر أن يقتلوا السيد المسيح، مع استعبادهم للشعب كان الحق يتجلى بالأكثر. لذلك آمن به كثيرون.

وجد الرؤساء في حديث السيد المسيح العلني تجديفًا لا يُحتمل، بينما وجد كثير من الجمع في أعمال محبته الفائقة برهانًا أكيدًا أنه المسيا المنتظر، إذ لم يكن ممكنًا أن يقوم أحد بعمل آيات مثلما فعل السيد المسيح. وكما قال السيد أنه جاء لقيام كثيرين وأيضًا لسقوط كثيرين.

❖ كما أكرر كثيرًا، أن الجسدانيين ينقادون لا بالتعاليم ولا بالكرازة وإنما بالمعجزات[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:5.*
[2] *Homilies on St. John 50: 2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد اجتهدوا دائمًا أن يبينوا أنه ليس هو المسيح، فلو اعتبرنا أن هذا ليس هو المسيح، فهل يكون ذاك أفضل من هذا؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ شفى الرب المتواضعين والفقراء. كان القادة في جنونٍ، لهذا ليس فقط لم يعرفوا الطبيب، وإنما أيضًا يطلبون قتله. وُجد جمع من الناس رأوا بسرعة مرضهم، وبغير تأخير عرفوا علاجه. انظروا كيف تحرك هذا الجمهور بواسطة معجزاته... فآمنوا به[1].

القديس أغسطينوس

"**سمع الفريسيون الجمع يتناجون بهذا من نحوه،**
فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خدامًا ليمسكوه". **[٣٢]**

بدأ كثيرون يؤمنون به وصار تهامس بين الشعب. وشعر الرؤساء أن كل تأخير ليس من مصلحتهم، فأرسلوا خدامًا (جند الهيكل) ليلقوا القبض عليه.

❖ اتهمهم الناس بحق أنهم مغلوبون من الحسد أكثر من اهتمامهم بالأحرى بخلاص الناس... ويبدو أن الجمع أساءوا إليهم... وصاروا متعطشين بالأكثر إلى الإيمان به.

❖ كان يليق بهم (رؤساء الكهنة) أن يكونوا قدوة في الأفكار الصالحة، وأن يمسكوا بزمام التوجيه في المشورة التي لا تقاوم الله. لكنهم إذ كانوا مبتعدين عن كل اتجاه صالح، وقد طرحوا الناموس الإلهي وراء حياتهم الشخصية، انجرفوا إلى ما يرضي انفعالاتهم التي بلا فطنة وحدها. لأن الرأس قد صار ذنبًا كما هو مكتوب (تث ٢٨: ٤٤). إذ صار القائد تابعًا، وباتفاقه مع عدم تقوى الفريسيين يطلق العنان لهجماته ضد المسيح أيضًا.

القديس كيرلس الكبير

"**فقال لهم يسوع:**
أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد،
ثم أمضي إلى الذي أرسلني". **[٣٣]**

حديثه هنا موجه للشعب وليس لخدام الهيكل، مظهرًا لهم أنه عالم بكل ما يخططه الرؤساء ضده

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:7.*

خفية، وإن كانوا قد عجزوا عن تنفيذه عمليًا.

❖ أخبروني لماذا أنتم ناقمون، كأنني باقٍ معكم زمانًا طويلاً في هذا العالم؟ إني أقر أنني حمل ثقيل عليكم، ولا أشكِّل مسرة كبيرة عند الذين لا يكرمون الفضيلة... لكن لا تنصبوا لي شبكة الموت في غير أوانها. "**أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد**"، وسوف أرحل بفرحٍ حين يأتي الوقت المناسب لآلامي... سأرحل من وسط الأشرار كإله، لكنني أبقى مع خاصتي كل الأيام حتى وإن ظهرت كأني غائب بالجسد...

لماذا تمزقون أنفسكم إربًا بمشورات غير مثمرة؟

اغمدوا سلاح الحسد، لأنكم تصوبونه بلا هدف.

لن تخضع الحياة للموت، ولن ينال الفساد من عدم الفساد شيئًا.

لن تمسكني أبواب الجحيم، ولن أصبح جسدًا ميتًا في قبوركم، بل أنطلق مرتفعًا إلى ذاك الذي أنا منه.

سأصعد ثانية إلى السماء، منظورًا من الناس والملائكة معًا، كحاكم على تجديفكم. فسيتعجب البشر من صعودي. وحينما يلاقيني الملائكة يقولون: "ما هذه الجروح في يديك؟" أجيبهم: "هي التي جُرِحت بها في بيت أحبائي" (زك ١٣: ٦).

القديس كيرلس الكبير

❖ يلزمني أن أكمل تدبيري، بهذا تأتي آلامي[1].

القديس أغسطينوس

"**ستطلبونني ولا تجدونني،**

وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا". **[٣٤]**

يشبه البعض حديث السيد المسيح هنا بعمود السحاب والنار اللذين كان يظهران لشعب بني إسرائيل في البرية. لهذا الحديث جانبه المشرق المفرح كما له الجانب المظلم.

الجانب المفرح أن السيد المسيح يسير في هذا العالم يسيرًا ليعبر وادي الألم ويصعد إلى حيث الآب. إنه عالم مملوء بالمتاعب، لم يعبر به يوم دون أن يحمل فيه الصليب، لكن الزمن لن يطول. أيامنا مليئة متاعب، يلزمنا أن نحتمل الأشواك، ونتخطى العقبات والحواجز، لكن شكرًا لله أنها قليلة!

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:8.*

لن تعبر الآلام معنا إلى الفردوس!

بقوله "**أمضي**" يؤكد أنه قد قَبِل الموت بإرادته وليس قسرًا، كما اختار هذه الرحلة الشاقة، كسفيرٍ عن الآب يقدم حياته مبذولة عن العالم ثم يعود إليه. ثورة الرؤساء ضده ومقاومتهم له ليس لها قوة بدون سماحٍ منه، وفي نفس الوقت تلهب قلبه كابن البشر أن يعبر إلى الآب.

أما **الجانب المظلم** فهو ما يحمله الرؤساء من بغضة وكراهية، فيسرعون إلى الخلاص منه من الأرض كلها، لكنهم لم يدركوا أنهم يطلبونه ولا يجدونه. إنهم ينالون ثمر جحودهم له، ويشربون من كأس خطاياهم، حيث لا يستطيعون التعرف عليه والبلوغ إليه.

يرى البعض أنه يتحدث هنا عما سيحل بهم حين يهاجم الرومان مدينة أورشليم بقيادة القائد تيطس، فيصرخون طالبين مخلصًا كما طلب آخاب الملك إيليا النبي وبحثوا عنه فلم يجدوه (١ مل ١٨: ١٠).

لعله قصد أنهم في يوم الدينونة إذ يكتشفون مقاومتهم للحق يطلبون التمتع بشركة المجد مع المسيا فلا يجدون، لأن باب التوبة يُغلق، ويُجازى كل واحد حسب أعماله. إنهم يتوقعون أنهم يخلصون ويتمتعون بالسماء، فيجدون الذي قاوموه هو السماوي ديان البشرية، وأنهم لم يتأهلوا للدخول إلى السماء، إذ رفضوا الصليب، شجرة الحياة.

❖ يقول الطوباوي بولس عن حق: "هوذا الآن وقت مقبول، هوذا الآن يوم خلاص" (٢ كو ٦: ٣). وأيضًا: "حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع" (غل ٦: ١٠)... فإنه حينما تمضي الفرص لا يتوفر لنا ما تأتينا به. ينبغي علينا ألا ننام عندما تكون الخيرات حاضرة، بل أن نسهر بالأحرى، وألا نجتهد بغير حكمة أن ننال ما هو نافع، حينما يكون البحث بلا طائل.

❖ فليأتِ إذن بولس الروحاني مناديًا بصوتٍ عالٍ للذين ماتوا عن الخطية: "لأنكم قد مُتم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذٍ تظهرون أنتم أيضًا **معه في المجد**" (كو ٣: ٣–٤). وفي عظته عن القيامة أيضًا يقول: "ثم نحن الأحياء سنُخطف جميعًا معهم في السُحب لملاقاة الرب في الهواء، وهكذا **نكون كل حين مع الرب**" (١ تس ٤: ١٧)...

أجل، إذ يخاطب اللص الذي عُلق معه، وعند أبواب الموت عينها، وبالإيمان به، أمسك بنعمة القديسين، فيقول له: "الحق الحق أقول لك **اليوم تكون معي في الفردوس**" (لو ٢٣: ٤٣).

فالذين كرموه بالطاعة يكونون معه دون عائق ما، وسيفرحهم بالخيرات التي تفوق الفهم، أما الذين لا يكفون عن إهانته بحماقتهم، فبالرغم من كونهم أبناء العرس سيُطرحون في الهاوية في حزن لينالوا

عقوبات مرة. وكما هو مكتوب: "يُطرحون إلى الظلمة الخارجية" (مت ٨: ١٢).

القديس كيرلس الكبير

❖ هنا يسبق فيخبرهم بقيامته، فإنهم لم يعرفوه حين كان حاضرًا، لكن بعد ذلك سيطلبونه حينما يجدون الجماهير قد آمنت به.

ستحدث آيات عجيبة عندما يقوم الرب ويصعد إلى السماء. ستتم أعمال قديرة بواسطة تلاميذه، لكنه هو العامل بهم كما عمل بنفسه، إذ قال لهم: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٥).

عندما مشى ذلك الأعرج الذي كان جالسًا عند الباب على قدميه، وذلك عند سماعه صوت بطرس، فتعجب الناس، تحدث معهم بطرس أنه ليس بقوته فعل ذلك بل بذاك الذي قتلوه (أع ٣: ١٦). نُخس كثيرون في قلوبهم وقالوا: "ماذا نفعل؟" إذ رأوا في أنفسهم أنهم قد رُبطوا بجريمة الشر البشعة، إذ قتلوا ذاك الذي كان يليق بهم أن يكرّموه ويعبدوه[1].

❖ لم يقل: "حيث سأكون أنا" بل "**حيث أكون أنا**" [٣٤]. لأن المسيح كان دائمًا في هذا الموضع عندما كان في طريقه للعودة. فقد جاء بطريقة لم يفارق بها الموضع (السماء). "وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان **الذي هو في السماء**" (يو ٣: ١٣). لم يقل أنه كان في السماء. لقد تحدث وهو على الأرض، وقال أنه في ذلك الوقت كان في السماء[2].

❖ لم يقل "سوف لا تقدرون أنتم أن تأتوا" بل "**لا تقدرون أنتم أن تأتوا**" [٣٤]، لأنهم في ذلك الحين لم يكونوا قادرين على هذا. ولكي يعرفوا أنه لم يقل هذا لكي يسبب لهم يأسًا قال هكذا لتلاميذه: "حيث أذهب لا تقدرون أنتم أن تأتوا" (يو ١٣: ٣٣). مع هذا في صلاته من أجلهم قال: "أيها الآب، أريد حيث أكون أنا يكونون هم أيضًا" (يو ١٧: ٤). وأخيرًا شرح ذلك لبطرس وقال له: "حيث أذهب لا تقدر **الآن** أن تتبعني، ولكنك **ستتبعني أخيرًا**" (يو ١٣: ٣٦)[3].

القديس أغسطينوس

❖ حتى في الحياة الحاضرة إن تصرف جندي بغير لياقة مع ملكه، فإنه لن يقدر أن يرى الملك، إنما يُعزل من سلطته وينال عقوبة عنيفة. لذلك نحن إن سرقنا أو طمعنا أو أسأنا إلى الآخرين، إن لم نمارس أعمال الرحمة لن نستطيع أن نذهب إلى هناك، بل نعاني مما حدث مع العذارى

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:9.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:9.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:4.*

(الجاهلات). فحيث يوجد هو لا يستطعن أن يدخلن بل يتقاعدن، تنطفئ مصابيحهن، أي تفارقهن النعمة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال اليهود فيما بينهم:**

إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده نحن؟

ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين، ويعلم اليونانيين؟" **[٣٥]**

ظنوا أنه يتحدث عن تركه لليهودية وانطلاقه إلى شتات العالم يكرز بين اليهود المشتتين في دول كثيرة يحملون ثقافة يونانية، ويستخدمون الترجمة السبعينية اليونانية. وكان يهود اليهودية يطلبون تنقية اليهود من الفكر الهيليني (اليوناني)، ولعله قصد هنا ذهابه إلى الأمم الوثنيين ليكرز لهم.

❖ ما هو "**شتات اليونانيين**"؟ هكذا كان اليهود يدعون الأمم، لأنهم كانوا مبعثرين في كل موضع، وممتزجين الواحد مع الآخر دون شبع. هذا الخزي سقط بهم هم أنفسهم بعد ذلك، إذا صاروا في شتات... بعد قولهم هذا لاحظوا كيف أنهم لم يقولوا عنه انه ذاهب لكي يهلكهم بل "**ليعلمهم**". إلى هذه الدرجة اسقطوا غضبهم[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بالحقيقة كان الرب ذاهبًا إلى الأمم (اليونانيين)، ليس بحضوره الجسدي، وإنما بقدميه. ما هاتان القدمان؟ هاتان اللتان أراد شاول أن يطأهما باضطهاده عندما صرخت الرأس إليه: "شاول، شاول لماذا تضطهدني؟" (أع ٩: ٤)[3].

❖ هذا ما يقول عنه الرب أنهم لا يعرفون الموضع – إن صح القول أنه موضع – الذي هو حضن الآب، هذا الذي لن يفارقه المسيح، ولم يكونوا كفء أن يدركوا أين كان المسيح، الذي منه لن يُسحب قط المسيح، فإلى حيث هو ذاهب كان هو أيضًا قاطنًا.

كيف يمكن للقلب البشري أن يدرك هذا؟

وبالأكثر كيف يمكن للسان أن يشرحه؟

هذا لم يدركوه قط، ومع هذا سبقوا فأعلنوا عن خلاصنا بأن الرب يذهب إلى شتات الأمم، ويحققوا

---

[1] *Homilies on St. John 50: 3.*
[2] *Hom 50.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:10.*

ما قرأوه ولم يفهموه. "شعب لم أعرفه خدمني، بسماع الأذن أطاعني" (مز ١٨: ١٤). هؤلاء الذين كانوا أمام عينيه لم يسمعوا له، والذين سمعوا بآذانهم كان صوته يرن فيها[1].

القديس أغسطينوس

"ما هذا القول الذي قال:
ستطلبونني ولا تجدونني،
وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟" [٣٦]

❖ لا يقولون أنه سيصعد إلى السماء، مع أنهم سمعوا بوضوح: "أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني" [٣٣]. لكنهم يتخيلون مدينة اليونانيين كأن الآب أرسله في وسطهم...

إنهم كمن يتنبأون، وهم لا يدرون بما يقولون، إذ تحركوا بدافعٍ إلهيٍ ما، فيقدمون المسيح إلى مدينة الأمم خلال الشك، مفكرين فيما يكون بعد قليل حقيقةً.

إنهم بهذا يلقون عليه وصمة عارٍ، كأنه قد تعدى الناموس فعلاً... وأن ذلك فيه نقض للنواميس الإلهية وعدم مبالاة بالأمور.

القديس كيرلس الكبير

٦. الوعد بحلول الروح القدس

"وفي اليوم الأخير العظيم من العيد،
وقف يسوع ونادى قائلاً: إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب". [٣٧]

الذين التصقوا بموسى النبي شربوا ماءً من الصخرة في البرية حيث كانت الصخرة تتبعهم وتفيض عليهم بما يرويهم، أما من يؤمن بالسيد المسيح فيحمل الصخرة في داخله، وينطلق الفيض لا من الخارج بل من بطنه، أي من إنسانه الداخلي حيث يُقام ملكوت الله.

يدعو اليهود الماء الجاري ماءً حيًا، لأنه دائم الحركة، لن يتوقف عن الحركة. هكذا إذ يوجد السيد المسيح في القلب يتمتع المؤمن بنعمة فوق نعمة، تفيض هذه النعم على من هم حوله (أم ١٠: ١١). فلا يكفينا أن نشرب من المجرى الذي في داخلنا، لنستريح بالنعمة الإلهية المعطاة لنا، وإنما يلزم أن يفيض هذا المجرى الداخلي ليروي الكثيرين. الأرض الجافة المقفرة ليس فقط تتحول إلى فردوسٍ، وإنما تفيض بمياهها على نفوس جافة كثيرة لتشاركها الطبيعة الفردوسية الجديدة.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:10.*

في اليوم الأخير من العيد وقف السيد المسيح يقدم دعوة للشعب العائد إلى بيوتهم، قدمها علانية مناديًا بصوتٍ عالٍ. في الأيام الأولى للعيد يقدمون ذبائح من أجل السبعين دولة في العالم، أما اليوم الأخير فمخصص لإسرائيل وحده. لهذا كان اليوم الثامن يُحسب "العظيم"، له تقديره الخاص.

❖ إنه لا يقول: "يجب أن تشربوا، يجب أن تجروا، أردتم أو لم تريدوا"، بل من كان راغبًا وقادرًا على الجري والشرب، فسيغلب ويرتوي[1].

القديس جيروم

❖ إنه ليس بالأمر التافه أننا نقرأ أن نهرًا ينبع من عرش اللَّه، إذ تقرأون كلمات الإنجيلي يوحنا في هذا الفحوى: "وأراني نهرًا صافيًا من ماء حياة لامعًا كبلّورٍ خارجًا من عرش اللَّه والخروف. في وسط سوقها، وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع اثنتيّ عشر ثمرة، وتعطي كل شهر ثمرها، وورق الشجرة لشفاء الأمم" (رؤ ٢٢: ١-٢). هذا بالتأكيد النهر الصادر عن عرش اللَّه، أي الروح القدس الذي يشرب منه من يؤمن بالمسيح كما قال المسيح نفسه [٣٧-٣٨][2].

القديس أمبروسيوس

❖ إذ ينتهي الأمر بأن يكون على المرء أن يأخذ كل شيء من داخل النهر أو الوادي، وأن يتهلل بذلك، نقول إن ربنا يسوع المسيح يُقارن بنهرٍ، فيه نجد كل مسرة وتمتع في الرجاء، وفيه نفرح فرحًا روحيًا إلهيًا.

القديس كيرلس الكبير

❖ إن كنا عطشى فلنأتي، لا بأقدامنا بل بعواطفنا. لنأتي لا بالتحرك من موضعنا بل بالحب. بالرغم من أنني حسب الإنسان الداخلي من يحب يتحرك أيضًا من مكانٍ؛ من غيَّر مكانه يهجر بجسده ذلك بحركة القلب. إن كنت شيئًا ما وكنت قبلاً تحب شيئًا آخر فأنت الآن لست في ذات الموضع الذي كنت فيه[3].

القديس أغسطينوس

❖ إن الروح بالرغم من اتحادها مع اللّه فهي لا تشعر بملء السعادة بطريقة مطلقة. **كلما تمتعت بجماله زاد اشتياقها إليه.**

---

[1] *Against Jovinianus, 1:12.*
[2] *Of the Holy Spirit Book 3:20:153-154.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 32:2.*

إن كلمات العريس روح وحياة (يو ٥: ٢٤)، وكل من التصق بالروح يصير روحًا. كل من التصق بالحياة ينتقل من الموت إلى الحياة كما قال الرب.

وهكذا فالروح البكر تشتاق دائمًا للدنو من نبع الحياة الروحية. **النبع هو فم العريس الذي تخرج منه كلمات الحياة الأبدية**. إنه يملأ الفم الذي يقترب منه مثل داود النبي الذي اجتذب روحًا خلال فمه (مز ١١٨: ١٣١). لما كان لزامًا على الشخص الذي يشرب من النبع أن يضع فمه على فم النبع، وحيث أن الرب ذاته هو النبع كما يقول: "إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب" (يو ٧: ٣٧)؛ لذلك فإن الأرواح العطشانة تشتهى إن تضع فمها على الفم الذي ينبع بالحياة، ويقول: "**ليقبلني بقبلات فمه**" (نش ١: ٢).

من يهب الجميع الحياة ويريد أن الجميع يخلصون يشتهي أن يتمتع كل واحد بنصيب من هذه القبلات، لأنها تطهر من كل دنس[١].

❖ يلزمنا أن نفكر بعمقٍ في الكلمات المقدسة بالنشيد: "هلمي معي من لبنان، هلمي معي من لبنان انظري من رأس أمانة، من رأس شنير وحرمون، من خدور الأسود من جبال النمور" (نش ٤: ٨).

ماذا نفهم إذن من هذه الكلمات؟

يجذب ينبوع النعمة إليه كل العطشى. وكما يقول الينبوع في الإنجيل: "إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب" (يو ٧: ٣٧).

لا يضع المسيح لهذه الكلمات حدودًا لعطشنا ولا لتحركنا نحوه، ولا لارتوائنا من الشرب، ولكن يمتد أمره إلى مدى الزمن، ويحثنا أن نعطش وأن نذهب إليه. وإلى هؤلاء الذين ذاقوا وتعلموا بالتجربة أن اللّه عظيم وحلو (مز ٣٤: ٨)، فإن حاسة الذوق عندهم تُصبح حافزًا لزيادة التقدم. لذلك فالشخص الذي يسير باستمرار نحو اللّه لا ينقصه هذا الحافز نحو التقدم[٢].

❖ إذا أردنا أن نسوق شاهدًا أعظم من الكتاب المقدس نسجل ما قاله السيد المسيح إلى هؤلاء الذين آمنوا به: أنهار ماء حي ستفيض من كل من يؤمن به "من آمن بي كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حي" (يو ٧: ٣٨). وتُضيف أن القلب النقي يُشار إليه بالتعبير "بطن". ويصبح لوح للشريعة المقدسة (رو ٢: ١٥) كما يقول الرسول. ويوضح تأثير الشريعة المكتوبة في القلب

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، ١٩٩٣، عظة ١.

[٢] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٨.

ليس بحبرٍ (٢ كو ٣: ٣)، ولكن بروح اللّه الحي الذي يرسم هذه الحروف في النفس، وليس على ألواح حجرية كما يقول الرسول، ولكن على لوح القلب النقي، الخفيف والمضيء.

يلزم أن تُنقش الكلمات المقدسة الموجودة في الذاكرة النقية الصافية، على القدرة القائدة للنفس، بحروف بارزة واضحة. تُشير الزفير في الحقيقة إلى تمجيد بطن العريس فقط باللوح الذي يشع نورًا بلون السماء.

ترشدنا هذه الصورة لكي نكون متنبهين للأشياء السماوية، مكان كنزنا (مت ٦: ٢١). فإذا ثبتنا في حفظ وصايا اللّه تتكون لدينا آمال مقدسة تنعش عيون نفوسنا[١].

❖ بعد ذلك يرفع النشيد العروس إلى أعلى قمة للمجد، مُضفيًا عليها اسم ينبوع المياه الحيّة المتدفقة من لبنان. لقد تعلمنا من الكتاب المقدس عن طبيعة اللّه المعطية للحياة كنبوة من شخص اللّه تقول: "تركوني أنا ينبوع المياه الحيّة" (إر ٢: ١٣). ثم يقول السيد المسيح للمرأة السامرية: "أجاب يسوع وقال لها، لو كنت تعلمين عطية اللّه، ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب، لطلبتِ أنتِ منه فأعطاكِ ماء حيّا" (يو ٤: ١٠). ثم قال: "إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه" (يو ٧: ٣٧-٣٩).

تقول كل من هذه الفقرات أن الماء الحي هو الطبيعة المقدسة، لذلك جاز للنشيد أن يسمى العروس بصدق **بئر ماء حي يفيض من لبنان**. هذا في الحقيقة يتعارض مع ما هو معروف، فجميع الآبار تحتوى مياه ساكنة، والعروس وحدها عندها مياه جارية في بئر عميق، ومياهها تفيض باستمرار.

من يقدر ويستحق أن يفهم العجائب الممنوحة للعروس؟ يتضح أنها قد وصلت إلى أقصى ما تتمناه، فقد قورنت بالجمال الأبدي الذي منه نشأ كل جمال. وفي نبعها تشبه نبع عريسها تمامًا، وحياتها بحياته، وماؤها بمائه. إن كلمته حية، وبها تحيا كل نفس تستقبله.

هذه المياه تفيض من اللّه كما يقول ينبوع المياه الحيّة: "لأني خرجت من قبل اللّه وأتيت" (يو ٨: ٤٢).

تحفظ العروس فيض مائه الحي في بئر نفسها، وتصبح بيتًا يكنز هذه المياه الحيّة التي تفيض من لبنان، أي التي تكوّن سيولاً من لبنان، كما يقول النص.

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٤.

لقد أصبحنا في شركة مع الله بامتلاكنا هذه البئر، حتى نحقق وصية الحكمة (أمثال ٥: ١٧-١٨)، ونشرب مياها من بئرنا، وليست من بئرٍ آخر. نتمتع بهذا في المسيح ربنا له المجد والعظمة إلى الأبد آمين[١].

القديس غريغوريوس النيسي

يشار إلى الرب أنه نهر يفيض بنعمته ليروي ظمأ بني البشر (مز ٣٦: ٧-٨) يفيض على الأمم بالسلام والمجد (إش ٦٦: ١٢ *LXX*).

"**من آمن بي كما قال الكتاب،**

تجري من بطنه أنهار ماء حي". **[٣٨]**

من يؤمن بي ويقبلني بكوني المسيا الذي تنبأت عنه الأسفار المقدسة، فإنه يسكن في قلبه أو في أحشائه الروح القدس الذي يفيض حياة. يصير ينبوعًا يفيض بثمار الروح من حب وفرح وسلام وحرية واستنارة. وقد اعتاد اليهود أن يشبهوا عمل الروح القدس بالمطر المبكر والمتأخر والينابيع والآبار والأنهار الخ (مز ٣٦: ٨-٩؛ إش ٤٤: ٣-٤؛ يؤ ٢: ٢٣).

بقوله "**إن عطش**" يعني من يشعر بفقره إلى البرّ أو احتياجه إلى البركات الروحية أو بالفراغ الداخلي.

"**فليقبل إليّ ويشرب**"، لا يقف بعد عند رئيس الكهنة ويُعجب بالإناء الذهبي الذي يسكب منه قليلاً من ماء بركة سلوام، ولا يذهب إلى الفلسفات الوثنية الكثيرة والمتضاربة التي لها من جاذبية تخدع الإنسان، بل ليأتي إلى السيد المسيح كما قدمه لنا الكتاب المقدس بعهديه.

❖ مجازاة الإيمان عظيمة وبلا نهاية، يقول من يؤمن ينعم بأغنى نعم الله، لأنه سيمتلئ بعطايا الروح، فلا يسمن ذهنه فقط، بل يصبح قادرًا على أن يفيض على قلوب الآخرين، كتيار النهر المتدفق الذي يفيض بالخير المُعطى من الله على جاره أيضًا.

القديس كيرلس الكبير

❖ يوجد عطش داخلي وتوجد بطن داخلية، إذ يوجد إنسان داخلي. هذا الإنسان الداخلي بالحق هو غير منظور، أما الإنسان الخارجي فمنظور، لكن الداخلي أفضل من الخارجي. ما لا يُرى يُحب

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٩.

أكثر، فإنه بالتأكيد أن الإنسان الداخلي يُحب أكثر من الخارجي[1].

❖ ما هو الينبوع، وما هو النهر الذي يفيض من بطن الإنسان الداخلي؟ الميل إلى الخيرية، الذي به يراعي الإنسان الاهتمام بأخيه. فإن تصوّر أن ما يشربه يلزم أن يكون لشبعه هو وحده لن يكون فيض من المياه الحيّة من بطنه، لكنه إن أسرع إلى الاهتمام بصالح قريبه لا يكون جافًا بل كون فيه فيض[2].

القديس أغسطينوس

❖ يقصد **بالبطن** هنا القلب... أين يوجد في الكتاب المقدس أن أنهارًا لمياه حية تفيض من بطنه؟ لا يوجد.

فماذا إذن يعني: "**من آمن بي كما يقول الكتاب**"؟ هنا يلزمنا أن نتوقف فقد يكون القول: "**تجري من بطنه أنهارًا**" تأكيد أنه عن المسيح. فكثيرون قالوا: "هذا هو المسيح"، و"عندما يأتي المسيح، هل يصنع معجزات أكثر"؟ إنه يظهر الحاجة إلى معرفة صحيحة، وأن يقتنعوا لا من المعجزات بل من الكتاب...

لقد سبق فقال: "فتشوا الكتب" (٥: ٣٩) وأيضًا: "مكتوب في الأنبياء"، و"يكون الكل متعلمين من الله" (٦: ٤٥)، "موسى يشكوكم" (٥: ٤٥)، وهنا يقول:" كما قال الكتاب، تجرى من بطنه أنهار"، ملمحًا نحو عظمة النعمة وفيضها... وقد دعاها في موضع آخر "حياة أبدية" أما هنا فيدعوها "**أنهار ماء**"...

فإن نعمة الروح إذ تدخل الذهن وتقيم، تفيض أكثر من أي ينبوع.

إنها لن تتوقف ولن تفرغ...

فلكي يعني إنها تقدم عونًا لا ينضب، وفي نفس الوقت طاقة لا تخيب، دعاها "بئرًا" وأنهارًا، ليست نهرًا واحدًا، بل هي أنهار لا تُحصى.

يمكن للشخص أن يدرك بوضوح ما تعنيه إن وضع في اعتباره حكمة اسطفانوس ولسان بطرس وغيرة بولس[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 32:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 32:4.*
[3] *Hom 51. PG 59:300-301.*

❖ هكذا يؤمر النبي من الرب أن يعبر إلى النهر (١ مل ١٧: ٢) لكي يشرب من العهد الجديد ليس فقط بنهر بل "تجري من بطنه أنهار مياه حية" [٣٨]، أنهار فهم، أنهار تأمل، أنهار روحية، هذه التي تجف في زمن عدم الإيمان لئلا يشرب مدنسو المقدسات وغير المؤمنين. في ذلك الموضع عرف الغربان ما لم يعرفه اليهود. أطعمة الغربان، ذاك الذي اضطهده الجنس الملوكي الشريف[1].

القديس أمبروسيوس

"قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه،
لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد،
لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد". [٣٩]

لا يبخل الله بروحه على البشرية، فقد خلق الإنسان ليعمل روح الله فيه، ويستقر فيه. لكن الإنسان بإرادته أعطى ظهره له ولم يقبله، فصار الروح أشبه بضيفٍ يعمل في رجال الله وفي الأنبياء، بل وأحيانًا حتى في غير المؤمنين كي يجتذبهم للإيمان. أما وقد تمجد الرب على الصليب ودفع الثمن لغفران خطايانا وتمجيدنا فيه، وهب الروح بفيض كما سبق فوعد في يوئيل ٢: ٨.

الروح القدس هو العطية العظمى، بل واهب العطايا الذي نلنا وعدًا بحلوله على الكنيسة وسكناه في قلب المؤمن، وتوزيع مواهب وعطايا حسبما شاء، لمجد الله وبنيان الكنيسة وخلاص النفوس.

يرى **القديس أغسطينوس** أن الروح القدس قد حلّ على كثيرين قبل أن يتمجد يسوع بقيامته، مثل سمعان الشيخ وحنّة النبيّة والقديسة مريم عند التجسد الإلهي، لكن حلول الروح القدس بعد القيامة جاء حلولاً عامًا على الكنيسة في عيد العنصرة حيث نطقت بكل لغات الأمم. لكن **لماذا لا ينال المؤمن النطق بكل لغات الأمم عند عماده الآن ونواله الروح القدس؟**

يجيب **القديس أغسطينوس** بأنه إذ انتشرت الكنيسة في العالم صار المسيحيون ينطقون بكل لغات العالم، فكل مسيحي كعضو في الكنيسة الجامعة يحسب نفسه كمن يتكلم بكل لغات الأمم، لأن ما ينطق به إخوته كأنما ينطق به هو كعضوٍ في الجسد الواحد[2].

مرة أخرى يقول **القديس أغسطينوس** أنه بعد قيامته وهبنا الروح القدس الذي به نحب الكنيسة ونتمتع بوحدتها وحبها، وبهذا ننعم بالقيامة معه، حيث نهاجر بقلوبنا العالم لنحيا معه في السماء. [يكون لنا الروح القدس إن كنا نحب الكنيسة، لكننا نحب الكنيسة إن ثبتنا في وحدتها وحبها... نحن هنا نولد ونموت، ليتنا لا نحب هذا العالم، بل نهجره بالحب، بالحب نسكن في الأعالي، بذات الحب

[1] *Letter, 63: 78 – 79.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 32:7.*

الذي به نحب اللَّه. في هذه الرحلة لحياتنا ليتنا لا نفكر في شيء غير أننا لن ندوم هنا، وأنه بالحياة الصالحة نعد لأنفسنا موضعًا حيث لا نهجره قط[1].]

إن كان الروح لم يكن قد أُعطي بعد، فكيف صنع الأنبياء في العهد القديم معجزات؟ أليست هي من عمل الروح القدس الساكن فيهم؟ وكيف مارس تلاميذ الرب المعجزات قبل حلول الروح القدس عليهم؟ يجيب **القديس يوحنا الذهبي الفم** على ذلك بقوله: [لم يخرجوا الشياطين بالروح، بل صنع بعضهم ذلك بالسلطان المُعطى لهم.]

"**أرسلهم**": لم يذكر: "أعطاهم الروح القدس" بل "أعطاهم سلطانًا" (مت ١: ١٠) لكي يطهروا برص ويقيموا موتى ويخرجوا شياطين، بنفس الطريقة بالنسبة للأنبياء. في حالة الأنبياء يعترف الكل أن هذه العطية هي من الروح القدس. لكن **هذه العطية محدودة وكانت ترحل، وناقصة على الأرض**... فكان الروح القدس محتفظ بها (لأشخاص معينين). [أما المستقبل فصار بفيضٍ[2].]

❖ دعي الصليب "مجدًا"... فكان من الضروري تقديم الذبيحة عنا أولاً، حتى تُنزع العداوة التى في جسدنا، فنصير أصدقاء الله، وعندئذٍ نتقبل العطية[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الروح القدس هو النهر الذي يفيض – حسب العبرانيين – من المسيح إلى الأراضي. وقد قبلنا هذا كما تنبأ فم إشعياء (إش ٦٦: ١٢). هذا النهر العظيم الذي يفيض على الدوام ولن يتوقف، ليس فقط نهرًا بل هو أيضًا أحد المجاري الغزيرة التي تفيض عظمة، كما قال داود: "مجرى النهر يفرح مدينة اللَّه" (مز ٤٦: ٤). فإنه لا ترتوي تلك المدينة، أورشليم السماوية بقناة، أي بنهرٍ أرضيٍ، بل بذاك الروح القدس المنبثق من مصدر الحياة. المجرى الذي يصدر عن ذاك الذي يشبعنا، يبدو أنه يفيض بوفرة بين العروش السماوية والسيادات والقوات والملائكة ورؤساء الملائكة، جاريًا في أكمل نصيب لفضائل الروح السبع[4].

القديس أمبروسيوس

❖ بدأ الله الآب يعطي الروح من جديد، وكان المسيح أول من قبل الروح كباكورة الطبيعة المتجددة، لأن يوحنا شهد قائلاً: "إني قد رأيت الروح نازلاً من السماء فاستقر عليه" (يو ١: ٣٢)...

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 32:8-9.*
[2] *Hom 51. PG 59:300-301.*
[3] *Hom 51. PG 59:301.*
[4] *Of the Holy Spirit 1:16:177-178.*

لم يقبل المسيح الروح لأجل نفسه، بل بالأحرى لأجلنا نحن فيه، لأن كل الصالحات تفيض أيضًا فينا بواسطته.

لأنه إذ حاد جدنا آدم بالخديعة فسقط في العصيان والخطية لم يحفظ نعمة الروح. وهكذا فقدت فيه الطبيعة البشرية كلها الخير المُعطى لها من الله، لهذا يلزم أن الله الكلمة غير المتغير يصير إنسانًا حتى إذا ما نال كإنسان يمكنه أن يحفظ الصلاح في طبيعتنا على الدوام. ودليلنا في تفسير هذه الأسرار هو المرتل الإلهي نفسه، إذ يقول للابن: "أحببت البرّ وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك" (مز ٤٥: ٧).

❖ في الأنبياء القديسين بريق غني خاص، يستمدونه من مصدر الاستنارة من الروح القدس، القادر أن يقودهم إلى إدراك أمورٍ عتيدة ومعرفة أنباء مخيفة. لكننا نثق أن الذين يؤمنون بالمسيح لا يكون لهم مجرد استنارة من الروح القدس، بل **الروح نفسه يسكن ويجعل إقامته فيهم**... لنفهم أنه يعني سكنى الروح القدس في البشر كاملة وبالتمام.

القديس كيرلس الكبير

"**فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا:**

هذا بالحقيقة هو النبي". **[٤٠]**

قال البعض إنه النبي العظيم الذي تحدث عنه موسى النبي (تث ١٨: ١٥)، لكن للأسف لم يكونوا قادرين على إدراك أن النبي هنا يقصد به المسيا مخلص العالم. وقال آخرون أنه المسيح.

"**آخرون قالوا:**

هذا هو المسيح،

وآخرون قالوا:

ألعل المسيح من الجليل يأتي؟" **[٤١]**

إذ تنبأ العهد القديم بأن المسيح قادم من سبط يهوذا من بيت داود تشكك البعض في أمره، هؤلاء الذين لم يعرفوا أنه وُلد في بيت لحم وظنوا أنه وُلد في الجليل.

يقول **القديس كيرلس الكبير** أن الجموع كما الفريسيين كانوا يفتقدون الدقة في هذا الأمر، حيث ظنوا أن ما وعد الله به موسى بأنه سيقيم نبيًا من وسط شعبه مثله (تث ١٨: ١٨) شخص آخر غير المسيح. وبسبب عدم الدقة ظن الفريسيون أن ثلاثة يظهرون، إذ قالوا للقديس يوحنا المعمدان: "ما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟" (يو ١: ٢٥).

"ألم يقل الكتاب أنه من نسل داود،

ومن بيت لحم، القرية التي كان داود فيها يأتي المسيح؟" [٤٢]

لقد عرف اليهود أن السيد المسيح يأتي من نسل داود (مز ١٣٢: ١١)، وأنه يولد في بيت لحم (مي ٥: ٢) لكن كما يقول **القديس كيرلس الكبير** إذ أُشيع عن يسوع أنه تربى في ناصرة الجليل (يو ٤: ١٦) سقطوا عن الحق وأعوزهم التفكير السليم.

"فحدث انشقاق في الجمع لسببه". [٤٣]

❖ بسبب انشقاقهم لم يعرفوا المسيح ولا فهموا دقة الكتاب المقدس، لأنهم لو آمنوا أن يسوع هو نبي الناموس، لما سقطوا في هذا الجدل غير اللائق.

القديس كيرلس الكبير

"وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه،

ولكن لم يلقِ أحد عليه الأيادي". [٤٤]

نتيجة هذا المقال حدث انشقاق في الجمع بسببه إلى أربعة فرق: فريق حسبه النبي وليس المسيح، وفريق حسبه المسيح، والثالث رأى فيه علامات المسيح لكنهم تعثروا بسبب ظنهم أنه من الجليل، أما الفريق الرابع فهو الذي تبع الرؤساء وأرادوا القبض عليه ولم يستطيعوا.

❖ لم يلقِ أحد عليه الأيادي، ليس توقيرًا له، بل لأن قدرته وحدها أوقفتهم.

القديس كيرلس الكبير

"فجاء الخدام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين،

فقال هؤلاء لهم:

لماذا لم تأتوا به". [٤٥]

إذ كان اليوم الأخير العظيم من العيد لم يكن ممكنًا أن يصبغ عليهم روح الفرح والبهجة، لأنهم حرموا أنفسهم من السيد المسيح ينبوع الفرح.

بينما مارس رئيس الكهنة طقس العيد، لكن كل ما كان يشغله هو والكهنة والفريسيون لا أن يتمتع الشعب بحب الله ويتعرفوا على سرّ العيد، إنما أن ينشغل الشعب بالمظاهر، بينما يخطط الرؤساء مكيدة. في نظرهم السياسات الكنسية أهم من كل عملٍ روحي. جلسوا في حجرة الجلسات الخاصة مترقبين مجيء خدام الهيكل موثقين يسوع كسجين.

إذ بعثوا بالخدام (جند الهيكل) للقبض عليه أصابهم الخوف حين رأوهم قادمين بدونه. دُهشوا حين وجدوا الخدام قد حضروا دونه، ولعلهم ظنوا أنه كعادته في هذه الأحوال كان يختفي منهم حتى تحين الساعة.

"**أجاب الخدام:**

لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان". **[٤٦]**

لم يكونوا يتوقعون أن خدام الهيكل أنفسهم ينجذبوا إليه، ويشهدوا له في جرأة قائلين أمام المجمع: "**لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان**". ربما تبع الخدام السيد منذ فترة مجيئه في وسط العيد، وقدر ما أنصتوا إليه لكي يجدوا علة يمسكونه بها اقتنعوا بالأكثر أنه بار مملوء حكمة سماوية.

قيل لهم من الرؤساء أنه نبي كاذب ومضل، لكنهم إذ سمعوه تعلقوا به، وأدركوا أنه يعلم بالحق، وكل الحق، وليس شيئًا سوى الحق.

❖ يمكننا أن نفترض أن كلمات الخدام كانت ذاخرة بالتعقل هكذا: إن كنا نرضي أنفسنا بتعليم الكتب المقدسة، وإن كنا نفتخر أننا تهذبنا بالنواميس الإلهية، وإن كنا نتعجب للحكمة كخيرٍ غير أرضي، لماذا في شرٍ نطرد من له هذه الحكمة، ونُوصم بخطأ ليس بقليل ذاك الذي ينبغي ألا نتهمه، بل بالأحرى نحن مدينون له بمحبة خاصة؟ أجل ونحن نخضع لمخاطر الناموس متعطشين أن نقتل بريئًا بارًا (خر ٢٣: ٧) بدون سبب.

أعتقد أن بالنسبة للعبارة: "**لم يتكلم قط إنسان هكذا**" يمكن للمرء أن يقول شيئًا ما أقرب إلى الموضوع، لأنهم يقولون تقريبًا هكذا: ليس من المعقول أن تلومونا نحن الذين لم نأتِ إليكم الآن بمن تطلبونه. لأنه كيف يمكن لإنسانٍ أن يقاوم، حتى ولو ضد إرادته، إنسان هو بحسب كلماته إله؟

لأنه لم يتكلم كإنسانٍ، ولا كانت كلماته كلمات إنسانٍ، بل هي بصواب تخص ذاك الذي هو بالطبيعة الله.

فليقل أي أحد إن كان أحد الأنبياء القديسين يقدر أن يسمي نفسه نهرًا أو يجرؤ على القول: إن عطش أحد فليأتِ ويشرب منه؟ متى قال لنا القدير موسى: "من آمن بي، تخرج من بطنه أنهار ماء حي"؟... كيف لنا أن نمسكه ضد مشيئته، هذا الذي أعلى منا بما لا يقاس، كإله فوق الإنسان؟

هكذا قدم الخدام برهانًا واضحًا على أن الرب هو الله بالطبيعة... وهكذا سددوا ضربة من كل جانب إلى مقاومي الله.

القديس كيرلس الكبير

❖ ها هم رؤساء الكهنة والفريسيون الذين كانوا يظنون أنهم أحكم من غيرهم، وقد حضروا عند المسيح وأبصروا عجائبه، وقرأوا الكتب ولم يفيدهم ذلك نفعًا، بل أصابهم ضرر.

أما خدامهم فقد اصطادهم خطاب واحد من السيد المسيح، سمعوه مع الجمع، وكانوا قد ذهبوا إليه لكي يقبضوا عليه، فعادوا من عنده مربوطين متعجبين منه.

ليس لنا أن نمدح فهمهم فقط، لأنهم لم يحتاجوا إلى آيات، لكن تعليمه وحده اقتنصهم. لأنهم لم يقولوا أنه لم يفعل إنسان في وقت من الأوقات عجائب مثل هذا، لكنهم قالوا "**لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان**"، فلا ينبغي إذًا أن نتعجب من فهمهم فحسب، لكن سبيلنا مع ذلك أن نتعجب من مجاهرتهم، لأنهم قالوا هذه الأقوال للفريسيين الذين أرسلوهم.

كلماتهم ليست كلمات أناسٍ معجبين به فحسب، بل من يلومون أيضًا سادتهم، لأنهم يقاومون دون أن يسمعوا. مع أنهم لم يسمعوا عظة بل حديثًا مقتضبًا، فإنه في العظة الطويلة يأخذ العقل قراره بلا تحيز فلا تكون حاجة إلى حوارات طويلة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فأجابهم الفريسيون:**

ألعلكم أنتم أيضًا قد ضللتم". **[٤٧]**

لا عجب إن كانت المسيحية منذ نشأتها الأولى وإلى الآن يظن البعض أنها تضلل، من يقبلها قد ضل.

❖ تأملوا كيف أن هذا القول مفعم بنوعٍ من اليأس من أي رجاء فيما يخص الشعب... ما الذي أبعدكم عن محبتكم لنا بالرغم من أنكم قد نشأتم في نفس عدم الإيمان معنا؟

القديس كيرلس الكبير

"**ألعل أحدًا من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به؟**" **[٤٨]**

مقياس الحق عندهم هو قبول عدد كبير من الرؤساء له، فإذ لم يؤمن به إلاَّ قلة قليلة منهم، مع إيمان الكثيرين من عامة الشعب فهذا في نظرهم دليل على أنه مضل وليس فيه الحق.

يتعجب **القديس يوحنا الذهبي الفم** كيف حسبوا هذا اتهامًا ضد المسيح وليس ضد رفض الرؤساء والفريسيين الإيمان به[2].

---

[1] *Homilies on St. John 52: 1.*
[2] *Homilies on St. John 52: 1.*

٧. شهادة خدام الهيكل له

"ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون". [٤٩]

كان الفريسيون يحتقرون الشعب، لذا إيمانهم بالسيد المسيح لا يُعتد به، وحسبوهم غير فاهمين للناموس وملعونين.

كانت القيادات الدينية في ذلك الحين حتى مع وجود تعارض في الفكر، وصراع داخلي فيما بينهم إلا أنهم يتفقون معًا في نظرتهم إلى الشعب غير المتعلم باستخفافٍ شديدٍ واحتقارٍ. عوض أن يلوموا أنفسهم أنهم أهملوا في رعايتهم وتعليمهم يحسبون الشعب ملعونًا. يلقوا باللوم على الشعب في جهله عوض اللوم على أنفسهم في تخليهم عن عملهم التعليمي.

❖ سقط (الفريسيون) في تفاخرهم المعتاد، ملقين بتهمة الجهل على الذين تعجبوا من يسوع كصانع عجائب، وكآت بأمورٍ إلهية، ومتوجين هامتهم وحدهم بالخدمة حسب الناموس ومعرفة الكتب المقدسة... يتباهون كثيرًا بأنفسهم، وقد طاشت عقولهم، ولخفتهم الشديدة يوصمون الجميع بالجهل هكذا بسهولة.

القديس كيرلس الكبير

❖ أيها الفريسيون، إن هذا لوم عظيم لكم، إذ آمن الجمع بالسيد المسيح، وأنتم أنكرتموه. لقد مارسوا أفعال من يعرفون الشريعة فكيف يكونون ملعونين؟ بالحقيقة أنتم الملعونون لأنكم لم تحفظوا الشريعة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"قال لهم نيقوديموس:
الذي جاء إليه ليلاً وهو واحد منهم". [٥٠]
"ألعل ناموسنا يدين إنسانًا لم يسمع منه أولاً،
ويعرف ماذا فعل؟" [٥١]

كان نيقوديموس فريسيًا وأحد رؤساء اليهود. هكذا لم يترك الله نفسه بلا شاهد حتى وسط فساد مجمع السنهدرين؛ وفي قصر نبوخذنصر وُجد دانيال النبي؛ وفي قصر ارتحشستا وُجد نحميا. وجد أيضًا حوشاي بين مشيري أبشالوم الأشرار كأداة تحول مشوراتهم الشريرة إلى غباوة.

احتج نيقوديموس على بطلان الإجراءات التي اتُخذت ضد يسوع، إذ هي مخالفة للناموس.

❖ أظهرهم نيقوديموس أنهم لا يعرفون الشريعة ولا يعملون بها، لأن الشريعة لم تأمر بقتل إنسانٍ لم يكن قضاتها قد سمعوا كلامه أولاً، وهؤلاء قد نهضوا إلى القتل قبل استماع الكلام، فلذلك هم عاصون للشريعة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ انزعج بعض الشيء إذ حُسب ملعونًا معهم، لأن الضمير يسرع بألا يبقى صامتًا حيال الأمور المضادة له... عاد عليهم بالإهانة نفسها ليس صراحة، بل راح يخاطبهم معترضًا بكلماتٍ تستمد قوتها من الناموس، وليس بشكلٍ علنيٍ مكشوفٍ.

القديس كيرلس الكبير

"**أجابوا وقالوا له:**

ألعلك أنت أيضًا من الجليل؟

فتش وانظر، إنه لم يقم نبي من الجليل". **[٥٢]**

مع أن نيقوديموس لم يترك عضويته في مجمع السنهدرين ليتبع السيد المسيح كتلميذٍ له، إلاَّ أنه شهد له في وسط المجمع في أحلك اللحظات.

قام حوارهم على أخطاء كثيرة بجانب حسدهم وشرهم. فحسبوا يسوع من الجليل مع أنه مولود في بيت لحم من بيت داود. وظنوا أن أغلب التلاميذ جليليون مع أنه كان له تلاميذ كثيرون في اليهودية. أيضًا ادعوا أنه لم يقم نبي من الجليل غير أن إيليا النبي كان من جلعاد.

❖ باطلاً يقول الفريسيون عن المسيح مخلصنا "إنه لم يقم نبي من الجليل"، لأنه كان الأحرى بهم أن يستفسروا كيف وهو الذي جاء من أبوين يهوديين (يو ٦: ٤٢) أن يكون جليليًا، وأن يأخذوا في الاعتبار أخيرًا أنه تربى في الناصرة، ولا يضلون عن الإيمان به لهذا السبب.

القديس كيرلس الكبير

❖ قول الفريسيين لنيقوديموس: "**فتش وانظر**" كأنهم قالوا له اذهب وتعلم، أي أن نيقوديموس لم يعرف قولاً ليس في الكتاب.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فمضى كل واحدٍ إلى بيته**". **[٥٣]**

انتهت الجلسة بأن عاد كل واحدٍ إلى بيته دون الوصول إلى قرار نهائي.

من وحي يو ٧

لتفجِّر في داخلي مياه حيَّة!

❖ اسمح لي يا سيدي أن أسجل هذا العيد الفريد.
ألوف ألوف من الشعب انشغلوا بإقامة المظال.
امتلأت الشوارع والميادين والحقول بها.
خرجت الجماهير بتهليل في موكبين:
موكب يقطع أغصان الأشجار وسعف النخل ليلوّحوا بها.
وآخر ينطلق إلى سِلوام مع رئيس الكهنة ليُحضر ماءً.
الكل في شوقٍ لممارسة طقس عيد المظال بتهليل عظيم!

❖ ها أنا أرى موكبين خفيّين خطيرين.
موكب خفي للقادة في حيرة،
لن تشغلهم بهجة العيد مادمت أنت حيّ تخدم البشرية!
يبذلون كل الجهد للخلاص منك مهما كان الثمن!
ويحسبون كل كذب هو حفظ للناموس لكي يقتلوك!

❖ أما موكبك الخفي فعجيب حقًا!
رفضت الخروج مع أقربائك إلى أورشليم للعيد.
انطلقت كمن في الخفاء لتقيم عيدًا حقيقيًا!
عوض المظال، أردت أن تقيم مدينتك في قلوب مؤمنيك.
عوض أغصان الزيتون وسعف النخل تهبهم سلامك ونصرتك.
عوض أحاديث القادة المملوءة رياءً، أعلنت عن نفسك أنك الحق.
عوض سكب الماء من إبريق ذهبي،
كشفت عن أنهار المياه الحيّة المتفجّرة في داخلنا!

❖ نعم لتفجِّر في داخلي أنهار مياه حيّة،
فعِوض الاحتفال بعيد مظال رمزي احتفل بعيد أبدية لا تنقطع!
عوض ماء سِلوام أرتوي من روحك القدوس.

أرتوي وأفيض على إخوتي.
روحك يحوّل قفرنا إلى فردوس إلهي!
روحك القدوس يهبنا سلامك الحقيقي!
روحك القدوس يهبنا نصرتك الدائمة!
روحك القدوس يقيم منّا مدينة اللَّه المقدسة!

❖ لك المجد يا من تصعد إلى أورشليمي،
وتحوّل كل مرارة إلى عيد أبدي مفرح!
تفتح أبواب قلبي لأبيك وروحك القدوس!
وجد السمائيون فيه مسرّتهم!

الأصحاح الثامن

المسيح نور العالم

فاتح أبواب الرجاء

قدم الكتبة والفريسيون امرأة أُمسكت في زنا وسألوه عن حُكمه عليها إن كانت تُرجم حسب شريعة موسى أم لا. ولعلهم كانوا يتوقعون أنه يوافق على رجمها، فيطلبون منه أن يبدأ بالرجم، فينفر الكثيرون منه بعد أن لمسوا فيه الرقة واللطف حتى مع الخطاة، وإن رفض يُحسب كاسرًا للناموس فيلزم محاكمته.

لم يعترض على حكم الشريعة لكنه سأل عمن يتأهل للبدء بالرجم، "**من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر**" [٧]. انسحب الشيوخ أولاً ثم الآخرين بينما كان يكتب السيد المسيح على الأرض، بلغة قرأ كل منهم فيها خطيته الخفية. بقيت المرأة الزانية وحدها تقف أمام ديان العالم كله الذي ما جاء ليدين بل ليخلص، فسألها ألا تعود للخطيئة. هو وحده من حقه أن يدينها، لكنه يفتح أبواب الرجاء أمام الخطاة للتوبة. قدم نفسه محررًا للنفس، بكونه الحق الإلهي [٣٢].

مع لطفه وحنانه نحو الخطاة من الشعب أظهر حزمه مع القيادات الدينية التي طلبت أن تمارس عمل أبيها: إبليس القتال، أب الكاذبين. أراد أن يحررهم من بنوتهم لإبليس، فيتمتعوا بالحق عوض الكذب، ويمارسوا الحب عوض شهوة القتل. ظنوا أنهم أبناء إبراهيم الحر، مع أنهم لم يمارسوا أعماله بل أعمال إبليس. أما يسوع فأعلن أن إبراهيم هذا تهلل أن يرى يومه، فرأى وفرح [٥٦].

تكشف قصة تعامل السيد المسيح مع المرأة الخاطئة عن طبيعة السيد المسيح الملتهبة بالحب نحو الخطاة، يشرق عليهم بأشعة حبه ليبدد ظلمتهم.

١. المرأة التي أُمسكت في زنا	**١–١١.**
٢. المسيح نور العالم	**١٢–٢٠.**
٣. هلاك غير المؤمنين	**٢١–٣٠.**
٤. الحرية الروحية	**٣١–٣٧.**
٥. البنوة لله والبنوة لإبليس	**٣٨–٤٧.**
٦. اتهامه بالتجديف	**٤٨–٥٠.**

٧. المسيح واهب الخلود ٥١–٥٩.

١. المرأة التي أُمسكت في زنا

"أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون". [١]

في الأصحاح السابق رأينا المضايقات التي حلت بالسيد المسيح خاصة بواسطة القيادات، والآن إذ حل الغروب ترك المدينة وذهب إلى جبل الزيتون، إما ليستريح في بيت أحد أصدقائه أو تحت إحدى مظال عيد المظال. ويرى البعض أنه لم يجد في أورشليم من يأويه في بيته، فانطلق إلى الجبل. ويرى آخرون أنه خرج ليقضي الليلة في الصلاة.

❖ لبث السيد المسيح يُعلم في أورشليم وفي الهيكل يوم العيد الأخير كله، أي اليوم الثامن من عيد المظال، وناقض أقوال الفريسيين. هؤلاء رجعوا عند المساء إلى منازلهم، وأما هو فمضى إلى جبل الزيتون، لأنه كان في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل يخرج يبيت في جبل الزيتون معلمًا إيانا ألا نقتني منازل من حرفة، بل نقتنع بما تدعو الضرورة إليه للراحة فقط، عالمين أننا سنترك هذه الأبنية بعد قليل، وننتقل إلى العالم الباقي، ويكون تعبنا لأجل هذه المنازل باطلاً وعبثًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ثم حضر أيضًا إلى الهيكل في الصبح،
وجاء اليه جميع الشعب،
فجلس يعلمهم". [٢]

جاء السيد المسيح إلى الهيكل في الصباح المبكر لكي يعلم الشعب الذي جاء إليه. بالأمس كان يعلم، وها هو يأتي اليوم باكرًا، مع أنه ربما قضى الليلة كلها على جبل الزيتون يصلي، لكنه كمحبٍ لعمله، ولشوقه أن يتمتع الكل بالمعرفة جاء إلى الهيكل مبكرًا. إنه يحب المبكرين إليه، إذ قيل: "أنا أحب الذين يحبونني والذين يبكرون إليّ يجدونني" (أم ٨: ١٧). وها هو يبكر إلى أحبائه.

أراد أن يلتقي مع الشعب داخل الهيكل، إذ لم يأتِ لكي يهجر الشعب القديم بل ليهبهم مفاهيم جديدة ونظرة جديدة نحو الناموس والهيكل والعبادة. جلس يعلمهم، بكونه صاحب سلطان، يود أن يجلس الكل معه، ويستقروا معه، يستمعون إلى الحق ويتمتعون به.

اعتاد كبار المعلمين أن يجلسوا أثناء التعليم، إذ يمتد ذلك إلى فترات طويلة، خاصة وان الإنجيلي يوحنا يقول: "**جاء إليه جميع الشعب**"، فمن جهة فعل "جاء" يحمل استمرارية الحضور، ومن جهة أخرى كلمتا "جميع الشعب" تشيران إلى جموع كثيرة. فكانت الحركة مستمرة ومتزايدة منذ الصباح

المبكر (لو ٢١: ٣٨).

"**وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زنا،**
ولما أقاموها في الوسط". **[٣]**

يرى البعض أنه بسبب انتشار الزنا لم تُعد تطبق الشريعة الخاصة بالمرأة الزانية بأن تحضر أمام الكاهن وتشرب ماء الغيرة (عد ٥: ١٤)، وذلك لأن كثير من الأزواج أيضًا كانوا ساقطين في الزنا.

لاحظ الكتبة والفريسيون تجمع أعداد ضخمة من الشعب حول السيد المسيح يسمعون تعليمه منذ الصباح المبكر، فأرادوا من جانب أن يفسدوا هذه الجلسة بإحضار المرأة الزانية لكي ينشغل الكل بأمرها لا بما يعلم به السيد. ومن جانب آخر أرادوا نصب شبكة له، فإن عفا عنها حُسب كاسرًا للناموس، وإن دانها ينفرون منه كشخصٍ قاسٍ.

"**قالوا له:**
يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل". **[٤]**

يدعونه "**يا معلم**" بينما في اليوم السابق دعوه مضللاً (٧: ٤٧).

فقد الكتبة والفريسيون جوهر رسالتهم وهو الدخول بكل نفس إلى معرفة مشيئة الله، وتمتع الكل بالحب الإلهي. وصار انشغالهم منصبًا في الحرف القاتل، بغض النظر عن خلاص الإنسان وتمتعه بالشركة العميقة مع الله. لهذا لم يكن صعبًا عليهم أن يجدوا امرأة في حالة تلبس بجريمة الزنا. جاءوا بها إلى السيد، كل منهم يحمل في قلبه حجرًا يروي أعماقه المتعطشة لسفك الدماء، مطالبين في داخلهم برجمها، كما برجم شخصية السيد المسيح.

لم يدركوا أن السيد المسيح، كلمة الله، لن ينقض الناموس لكنه يكمله، فيرفعه من الحرف القاتل إلى الاهتمام ببنيان الداخل وتقديس الأعماق.

ظن الحرفيون في الناموس أنهم حتمًا يتمتعون برؤية المرأة وهي تطرد من الحياة برجمها، إذ لا تستحق الوجود على الأرض، ولا السكنى في بيت، بل تُلقى في حفرة وتنهال عليها الحجارة. ولم يدركوا أنهم جاءوا بها إلى غافر الخطية القدير، الذي وحده يجتذبها من بيت إبليس ويسحبها من منزل الزنا، لا ليعفو عنها، وإنما لتجد في القدوس عريسًا لنفسها، وفي السماء بيت زوجية تستقر فيه.

قصة هذه المرأة الزانية تفتح أمام كل نفس باب الحب الإلهي والرحمة، لتجد ناموس المسيح قانونها الداخلي الجذَّاب، فتنعم بالصوت الإلهي: "إني لم آتِ لأدين العالم بل لأخلص العالم" (يو ٣: ١٧؛ ١٢: ٤٧). فلا تجد من يحكم عليها بالموت الأبدي، بل من يشتريها بالدم الثمين ويهبها برَّه

السماوي، ويشفع فيها أمام الآب، ويدخل بها إلى الأحضان الإلهية. تحولت هذه القصة من وقوف في محكمة إلى دخولٍ في عرس أبدي سماوي.

في رسالته عن العذارى إلى إستوخيوم *Eustochuim* يكتب **القديس جيروم** مطالبًا إيّاهن أن يتركن بيت أبيهن، أي إبليس، لكي يرتبطن بالعريس السماوي. [ربما تقولين لي: لقد تركت بيت طفولتي، لقد نسيت أبي، ووُلدت من جديد في المسيح، أيّة مكافأة أنالها؟ يُظهر النص ذلك: "يشتهي الملك حُسنك" (مز ٤٥). هذا هو السرّ العظيم. فإنه لهذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويصير الاثنان (ليس كما جاء في النص جسدًا واحدًا)، بل روحًا واحدًا (أف ٥: ٣١-٣٢). عريسكن ليس متشامخًا ولا مستخف بكن... إنه يقودكم إلى حجاله بيده الملوكية[1].]

"وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم،
فماذا تقول أنت؟" [٥]

لم يأمر موسى بالرجم بل أمرت الشريعة أن يحكم على الزاني والزانية بالموت (لا ٢٠: ١٠؛ تث ٢٢: ٢٢). لكن كانت وسيلة الحكم بالموت في ذلك الحين هي الرجم. إذ كان عطشهم لسفك الدماء ملتهبًا، ورغبتهم في تلفيق تهم خطيرة ضد السيد المسيح ملتهبة، جاءوا بالمرأة ليقدموا قضية غير متكاملة من الجانب القضائي، إذ لم يأتوا بمرتكب الجريمة مع المرأة، ولا أحضروا الشهود. ومع هذا لم يرفض السيد القضية لعدم تكاملها، لكنه حوَّل أنظار الكل إلى عمق الوصية وغاية الناموس الحقيقية.

❖ ألحوا عليه بالجواب على سؤالهم الخبيث، إذ قد كان في ظنهم لا يقدر أن يفلت من سؤالهم ذي الحدين. إن حلّ الزانية يكون قد تجاوز الناموس وقلب نظام الشريعة، وفتح بابًا للزنا، وإن أمر برجمها يكون قد ابتعد عن دعته وحلمه، إلا أن السيد المسيح الذي لم يزل حليمًا، ولا ابتعد عن شفقته، ولا علّم ضد الناموس، لكنه حامى عن الناموس، ولم يفنده، ولم يفسخه، وأنقذ المرأة من القتل.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"قالوا هذا ليجربوه، لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه،
وأما يسوع فانحنى إلى أسفل،

[1] *Letter 22:1.*

وكان يكتب بإصبعه على الأرض". [٦]

جاءوا إليه كقاضٍ يجب أن يحكم بالناموس وإلاَّ حُسب كاسرًا للناموس، ومجدفًا يستحق هو الرجم، ولم يدركوا أن المعزي السماوي. حقا إنه الديان الإلهي لكنه في نفس الوقت المحامي الذي يطلب الخطاة ويطرد الخطية.

كتب "**بإصبعه على الأرض**"، هذا الذي سبق فكتب الوصايا العشرة بإصبعه على حجارة، وسلمها لموسى، يكتب بإصبعه على الأرض ليكتشف الكل أنهم كسروا الوصية، وعاجزون عن تنفيذ الرجم لأنهم خطاة ومستحقون الموت. إنه لا يزال يكتب على أرض قلوبنا، ليحول ترابها الفاسد إلى سماء مقدسة. يكتب بروحه القدوس (بإصبعه) ليكمل الناموس؛ نكتشف خطايانا فلا ننشغل بخطايا الآخرين، بل بخلاصنا وخلاصهم. يسجل بإصبعه عمل الحب فينا!

لو أنه حكم عليها بالموت لاشتكوه لبيلاطس أنه أصدر حكمًا بالموت، الأمر الذي نُزع من القيادات الدينية وصار في سلطان الحاكم الروماني وحده. هذا وأن القانون الروماني لم يكن يحكم بالموت بسبب الزنا. وإن عفا عنها يُتهم بأنه يسمح بالتسيب وعدم الحزم بخصوص العفة والطهارة، بجانب كسره للناموس.

لم يطلبوا مشورته عن إخلاص لمعرفة الحق، وإنما ليجربوه، لهذا لم يستحقوا أن ينالوا إجابة صريحة، وإنما أن يكشف لهم عما في قلوبهم وأفكارهم وما ارتكبوه سرًا، فصاروا في عارٍ دون أن يعرف أحدهم ما فعله الآخر. لقد ستر عليهم ولم يوبخهم مجاهرة.

❖ إن سألت: ماذا كتب السيد المسيح على الأرض؟ أجبتك: يُحتمل أنه قد رسم شيئًا يسبب حياءً وخجلاً للكتبة والفريسيين، وتبكيتًا لخطاياهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بهذه الكلمات والآراء ربما كانوا قادرين على إشعال الحسد ضده، وإثارة اتهامات ضده، وتكون سببًا لطلب إدانته. ولكن هذه ضد من؟ لقد وقفت الحماقة ضد الاستقامة، والبطلان ضد الحق، والقلب الفاسد ضد القلب المستقيم، والجهالة ضد الحكمة. متى أعد مثل هؤلاء الناس شباكًا، ولم يلقوا برؤوسهم أولاً فيها؟ انظروا إذ أجابهم الرب حفظ البرَّ ولم يفارق اللطف. لم يسقط في الشباك المنصوبة له، بل بالأحرى سقطوا هم فيها، إذ لم يؤمنوا به أنه قادر أن يسحبهم إلى الشبكة التي

نصبوها[1].

القديس أغسطينوس

"ولما استمروا يسألونه،

انتصب وقال لهم:

من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر". [٧]

كان نظام الرجم عند اليهود حسب فكر الحاخامات هو هكذا. تُربط يدا المجرم من خلف وهو نصف عارٍ، ويوضع على منصة ارتفاعها عشرة أقدام أو اثني عشرة قدمًا، ثم يدفعه الشاهدان بكل قوة، فإن مات ينتهي الأمر، أما إذا لم يمت يحمل أحد الشاهدين حجرًا ضخمًا ويضرب به على صدره، وغالبًا ما تكون الضربة القاضية. غير أن هذا النظام لم يكن يُتبع في كل حالات الرجم.

إذ ألحوا عليه واستمروا يطلبون رأيه وهو صامت كمن لا يسمع أخيرًا سلمها ليحكموا هم إن استطاعوا.

"ثم انحنى أيضًا إلى اسفل،

وكان يكتب على الأرض". [٨]

جاء في بعض المخطوطات أنه كان يكتب على الأرض خطاياهم. لم يكتب السيد على رخامٍ أو نحاسٍ بل على التراب، لأنه كتب خطاياهم إلى لحظات وتزول، فإنه ينقش أسماءنا على كفه لتبقى خالدة، أما خطايانا فيكتبها على الأرض في التراب لكي تُدفن مع التراب وتنتهي. كتب في التراب لكي يحكم التراب على التراب، أما هو فما جاء ليدين بل ليخلص.

❖ كأن السيد المسيح يقول: قد أريتكم أيها الكتبة والفريسيين جرائمكم على شبه جرم هذه الزانية، بل وأعظم منها كما تشهد عليكم ضمائركم. فإذًا لا تلحوا على دينونة هذه المرأة الزانية بلجاجة وصرامة، بل تذكروا خطاياكم، وافحصوا عن جرمها، لأنكم أنتم خطاة ومجرمون، ومؤهلون للعقاب على شبهها، وإن كنتم تدينونها، فبالأولى أن تدينوا أنفسكم أيضًا، وإن آثرتم رجمها فبالأولى وجب رجمكم... إذًا فقد أنقذ السيد المسيح المرأة الزانية من الموت، ولم يخالف الناموس، لأنه لم يزل قادرًا وحكيمًا ورحيمًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 33:4.*

❖ أراد العاصون عن الناموس تنفيذ الناموس، بهذا صاروا مُهتمين بإهماله وليسوا منفذين له، دينوا كزناة بواسطة العفة!

لقد سمعتم أيها اليهود، أيها الفرّيسيون، يا معلمو الناموس وحارسوه لكنكم لم تدركوا (يسوع) أنه معطي الناموس!

ماذا يعني عندما يكتب بإصبعه على الأرض؟

لقد كُتب الناموس بإصبع اللَّه، لكنه كُتب على حجر بسبب قسوة قلوبكم (الحجرية). الآن يكتب الرب على الأرض لأنه يطلب ثمرًا. لقد سمعتم الناموس، ليته يُنفذ، ليت الزناة يُرحمون...

ولكن هل بعقاب هذه المرأة يتم الناموس بالذين هم مستوجبون العقوبة؟

ليتأمل كل إنسانٍ في نفسه، ليدخل إلى نفسه، ويصعد على كرسي الحكم الذي لذهنه، ويضع نفسه وراء قضبان ضميره، ويلزم ذاته بالاعتراف. فإنه يعرف أنه هو، إذ لا يعرف أحد ما للإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه. ليتطلع كل واحد بحرصٍ إلى نفسه فيجد نفسه خاطئًا.

نعم حقًا، إما تتركوا المرأة لسبيلها، أو تنالون معها عقوبة الناموس.

لو أنه قال بأن الزانية لا تُرجم لبرهن أنه غير عادلٍ، وإن قال إنها ترجم لما ظهر أنه حنَّان. ليقل ما قاله كلطيفٍ وعادلٍ: "**من كان منكم بلا خطية فليرجمها أولاً بحجر**" [٧].

هذا هو صوت العدالة. لتُعاقب الخاطئة، ولكن ليس بواسطة الخطاة. ليُنفذ الناموس لكن ليس بكاسري الناموس[1].

القديس أغسطينوس

"**وأما هم فلما سمعوا، وكانت ضمائرهم تبكتهم،**

خرجوا واحدًا فواحدًا،

مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين،

وبقي يسوع وحده، والمرأة واقفة في الوسط". **[٩]**

إن كانوا قد انصرفوا فكيف كانت المرأة واقفة في الوسط؟ الذين انصرفوا هم المتهمون لها، أما الشعب الذي جاء يستمع للسيد المسيح فبقي واقفًا والمرأة في الوسط. وكأن الله لم يكتب خطايا كل الشعب، إنما الذين اتهموها وحدهم. فمن يدين أخاه يُدان! وبالحكم الذي يحكم به على الغير يُحكم عليه. المغلوبون من الخطية غالبًا ما يكونوا مملوئين عنفًا ضد الخطاة، وأما الأبرار فيترفقون بهم، إذ

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 33:5.*

يدينون أنفسهم لا الآخرين.

أظهر الكتبة والفريسيون بتصرفهم هذا أنهم غيورون ضد الخطية، لكن ظهر أنهم هم أنفسهم ليسوا متحررين منها، كانوا كما قال لهم السيد مملوءين من الداخل نجاسة (مت ٢٣: ٢٧-٢٨). بتصرفهم ليس فقط تحاشى السيد الشبكة التي نصبوها له، وإنما سمح لهم أن يسقطوا في ذات الشبكة، إذ صاروا في عارٍ أمام الجمع. لم يستطيعوا تنفيذ الناموس، ولم يوجد أحد منهم مستحقًا أن يرفع أول حجرٍ يلقيه بها. ليتنا لا نلقي الحجارة على اخوتنا بينما نحن أنفسنا نستحق الرجم.

ارتعبوا مما كتبه السيد على الأرض كما سبق وارتعب بيلشصر الملك عندما رأى يدًا تكتب على الحائط أمامه (دا ٥: ٢٥). طوبى للذين يجدون سلامهم فيما يكتب السيد المسيح، والويل لمن يرتعب أمام ما يكتبه السيد.

حول السيد المسيح أنظارهم من التطلع إلى تصرفات المرأة الزانية أو من انتظار الحكم عليها إلى ضمائرهم الداخلية، ليروا الفساد الداخلي، لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الله. لقد اكتشفوا فسادهم، وبدلاً من الاعتراف به وقبول مشورة طبيب النفوس هربوا كما من المعركة (٢ صم ١٩: ٣). كل ما فعلوه أنهم خشوا الفضيحة والعار فهربوا لا إلى المسيح مخلصهم بل إلى خارج المسيح حتى لا يفضحهم نوره.

إذ انسحب المشتكون كان يمكن للمرأة أن تهرب، لكنها وجدت خلاصها في السيد المسيح. بتصرفه هذا لم يهادن الخطية، لكنه أعلن أنه جاء ليخلص العالم لا ليدينه، فلم يخشَ الخطاة والعشارون اللقاء معه وهو العارف بأسرار الجميع وخفياتهم.

سرعان ما تغير الموقف! امرأة بائسة تترقب رجمها بعد لحظات، وقد أرهبها لا منظر الحاملين للحجارة لرجم جسدها بل ملامح القادة وقد وجدوا سعادتهم في سفك دمها. الآن تركها الكل لتجد نفسها أمام الحب الفائق للخطاة والعمل الإلهي العجيب لتقديس حياتها لحساب ملكوت السماوات! عوض الرعب صارت كمن في عرسٍ. ترى السماء متهللة تنتظر يوم عرسها الأبدي!

❖ فإذ خرجوا أظهروا بالإقرار على أنفسهم أنهم مجرمون على هذه المشابهة، وما أسرعوا بالخروج إلا خوفًا من أن يبتدئ بذكر خطاياهم واحدًا فواحدًا...

"**مبتدئين من الشيوخ**": خرج الشيوخ أولاً، إما لأنهم كانوا قد ارتكبوا خطايا أكثر، بسبب سنوات عمرهم الأكثر، أو لأنهم فهموا قوة كلام السيد المسيح قبل غيرهم لنباهة فهمهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحدًا سوى المرأة،**

قال لها:

يا امرأة، أين هم أولئك المشتكون عليكِ؟

أما دانك أحد؟" **[١٠]**

"**فقالت: لا أحد يا سيد.**

فقال لها يسوع: ولا أنا أدينك، اذهبي ولا تخطئي أيضًا". **[١١]**

يرى البعض أن المرأة تعرضت لمعاملة غاية في القسوة والعنف ممن أمسكوا بها، فاكتفى بهذا التأديب لها.

❖ قول السيد المسيح للمرأة الزانية: "**ولا أنا أدينك**"، كأنه يقول: "إنني أنا وحدي الذي أستطيع أن أدينك يا امرأة، لأنني وحدي الديان، ولكن لأنني إنما أتيت لأخلص العالم لا لأدينه، فلست أدينك.

وبقوله: "**اذهبي**" كأنه يقول: "اذهبي وكوني في طمأنينة، فإن زناكِ قد نُزع عنكِ، لأنني قد نزعت عنكِ خطاياكِ، فإذًا اذهبي...

وقوله: "**ولا تخطئي أيضًا**" أي أوصيكِ ألا تعودي تخطئي فيما بعد لئلا أدينك على ما تخطئين به. من الآن لا تعودي إلى الخطية مرة أخرى كما يعود الكلب إلى قيئه (أم ٢٦: ١١؛ ٢ بط ٢: ٢٢)، ولا تعودي فيما بعد لئلا تعاقبين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الذي غيَّر طبيعة الخمسة أرغفة وصيَّرها أرغفة كثيرة، وأنطق طبيعة الحمار غير العاقل، وجاء بالزانية إلى العفة (يو ٨)، وجعل طبيعة النار المحرقة بردًا على الذين كانوا في الأتون، ومن أجل دانيال لطَّف طبيعة الأسود الكاسرة، كذلك يقدر أن يغَّير النفس التي أقفرت وتوحشت بالخطية، ويحولها إلى صلاحه ورآفاته وسلامه بروح الموعد المقدس الصالح.

القديس مقاريوس الكبير

❖ لقد سمعنا صوت العدالة [٧]، لنسمع أيضًا صوت الرحمة... ذاك الذي طرد خصومها بلسان العدل رفع عيني الرحمة إليها، قائلاً لها: "**ولا أنا أدينك؛ اذهبي، ولا تخطئي أيضًا**" [١٨].

ليحذر الذين يحبون في الرب لطفه، ليخشوا حقه! فإن الرب حلو وحق" (مز ٣٥: ٨). أنت تحبه بكونه حلوًا، لتخشاه بكونه حقًا...

الرب رقيق، طويل الأناة، حنّان، لكن الرب أيضًا عادل وحق.

إنه يفسح لك المجال للإصلاح، لكنك تحب تأجيل الدينونة أكثر من إصلاح طرقك!

هل كنت بالأمس شريرًا؟ لتكن اليوم صالحًا.

هل أنت مستمر اليوم في شرِّك؟ على أي الأحوال تغيّر غدًا... لكن كيف تعرف أن غدًا يأتي؟... اللَّه وعد بالغفران لمن يُصلح من شأنه، لكنه لم يعدني بأن يطيل حياتي (للغد)![1]

القديس أغسطينوس

يحذرنا **القديس أغسطينوس** من اليأس كما من الرجاء الباطل، فمن ييأس ظانًا أن اللَّه لا يغفر له يقتل نفسه باليأس، ومن يسترخي مهملاً في التوبة بدعوى رحمة اللَّه تنقذه غدًا يهلك نفسه بالرجاء الباطل[2].

٢. المسيح نور العالم

"ثم كلمهم يسوع أيضًا قائلاً:

أنا هو نور العالم،

من يتبعني فلا يمشي في الظلمة،

بل يكون له نور الحياة". [١٢]

إذ انسحب المشتكون الذين أرادوا أن يسببوا اضطرابًا وبلبلة وسط الجمع ثم انسحبت المرأة أكمل السيد المسيح تعليمه للشعب، وغالبًا ما لخص حديثه بالعبارة: "**أنا هو نور العالم...**" [١٢]. بدونه يبقى الكل في الظلمة والبؤس والموت. لقد أدرك الفريسيون أن ما يعنيه بهذا أنه المسيا المنتظر، إذ رمز إليه الأنبياء بالنور (إش ٦٠: ١؛ ٤٩: ٧؛ ٩: ٩). جاء في *Bamidbar Rabba*: "قال الإسرائيليون لله: يا رب المسكونة، أنت أمرت أن توقد أسرجة لك، أنت هو نور العالم. وبك يسكن النور[3]".

"**لا يسلك في الظلمة**"، أي يخلص من الجهل والخيانة والخطية.

يرى البعض أن الحديث هنا يشير إلى عادة كان يمارسها اليهود حيث يضيفون إلى عيد المظال يومًا تاسعًا فيه يُخرجون كل الكتب المقدسة من الصناديق المودعة فيها ويضعون مكانها مشاعل منيرة إشارة إلى ما جاء في أم ٦: ٢٣ "لأن الوصية مصباح، والشريعة نور، وتوبيخات الأدب طريق

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 33:7.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 33:8.*
[3] *Adam Smith Comm.*

الحياة".

يرى كثير من الدارسين أن من أهم الذكريات لعيد المظال هو سكب الماء بيد رئيس الكهنة كما رأينا في الأصحاح السابق، وممارسة **طقس** "**النور**" تذكارًا لعمود النور الذي كان يتقدم الشعب في البرية ليقودهم وسط ظلمة الليل (خر ١٣: ٢١) حتى يعبروا إلى كنعان حسب الوعد الإلهي.

كانوا يستخدمون في هذا العيد شمعدانًا ضخمًا ذا فروع. كانت تستخدم أربعة أسرجة تُملأ بالزيت، كانوا يصعدون إليها بواسطة سلم. وقد جاء في التلمود أن ارتفاعها خمسون ذراعًا. وكان النور بهيًا جدًا، فجاء في المشناة *Mishah*: "لا توجد ساحة دار في أورشليم لا ينعكس عليها النور". هذا المنظر البرَّاق كان نادرًا جدًا في المدن القديمة.

يرى بعض الدارسين أن هذا الشمعدان يُطفأ بعد العيد، وقد وقف السيد هناك حيث انطفأ النور الذي أبهر القادمين للعيد، وحلت الظلمة عوض النور، ليعلن عن الحاجة إلى النور الإلهي، إلى المسيا عبد الرب بكونه نورًا جاء للأمم.

جاء في إشعياء النبي: "أنا الرب قد دعوتك للبرّ، فأمسك بيدك وأحفظك، وأجعلك عهدًا للشعب، ونورًا للأمم، لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين في الظلمة" (إش ٤٢: ٦–٧). "قد جعلتك نورًا للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض" (إش ٤٩: ٦). "حقي أثبته نورًا للشعوب" (إش ٥١: ٤).

إذ فسَّر الربيون قول المرتل: "الرب نوري وخلاصي ممن أخاف" (مز ٢٧: ١)، بأن الناموس هو النور، أعلن السيد أنه هو الكلمة الإلهي، نور العالم، الذي يضيء لكل إنسانٍ آت إلى العالم.

وإذ قالوا أن الهيكل هو "النور" سألهم السيد أن ينقضوا الهيكل ليبنيه في ثلاثة أيام (يو ٢: ٢٠)، معلنًا عن هيكل جسده القائم من الأموات، بكونه الهيكل الذي يضم الخليقة الجديدة المستنيرة بنور قيامته.

وعندما تحدث الإنجيلي يوحنا عن الهيكل السماوي قال: "الرب الله القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها... لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها" (رؤ ٢١: ٢٣–٢٤).

يشبه السيد المسيح حياة الإنسان برحلة وسط عالمٍ مظلمٍ، يحتاج إلى شمس البرّ، تشرق عليه وترافقه فلا يتعثر في الطريق. يليق بالمؤمن أن يتبعه ويسترشد به في كل أمور حياته. إنه النور الحقيقي الذي نجد سلامنا في التطلع إليه ومصاحبته والإيمان به والسير فيه، ليكون سراجًا ليس لعيوننا فقط بل ولأرجلنا، سراج لكل كياننا. يقودنا في هذا العالم ويرفعنا بروحه القدوس إلى السماء

فنتمتع بعربون الأبدية.

❖ أوضح أنه ليس هو أحد الأنبياء، لكنه سيد العالم، وليس هو نور الجليل ولا فلسطين ولا اليهودية، بل "**نور العالم**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن كنا أساقفة الله والمسيح لا أجد أن أحدًا ما يُلزمنا أن نتبعه أكثر من الله والمسيح، إذ هو نفسه في إنجيله يؤكد قائلاً: "**أنا نور العالم، من يتبعني لا يسلك في الظلمة بل يكون له نور الحياة**" [١٢][1].

الشهيد كبريانوس

❖ أظن ما يقوله الرب: "**أنا هو نور العالم**" [١٢] واضح لمن لهم أعين يشاركون بها هذا النور، أما الذين ليس لهم أعين سوى الأعين التي في الجسد وحدها فيندهشون لقول الرب يسوع المسيح: "**أنا هو نور العالم**"[2].

❖ يوجد نور هو خالق لنور الشمس. لنحب هذا النور، ونشتاق أن ندركه، ونعطش إليه، حتى يقودنا ويبلغ بنا إليه، وهكذا نعيش فيه فلن نموت...

الذي يشرق عليك لكي تنظره، هو بعينه (الينبوع) الذي يفيض عليك فترتوي...

حتى عندما لا يُعلن ربنا يسوع المسيح للكل خلال سحابة جسده، لكنه هو كما هو ممسك بكل الأشياء بقوة حكمته...

إلهك حال بكامله في كل موضع، إن كنت لا تتركه لن يتركك"[3].

القديس أغسطينوس

❖ لنتبعه الآن فننال فيما بعد. نتبعه الآن بالإيمان فننال فيما بعد بالعيان. يقول الرسول: "فإذًا نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد فنحن متغربون عن الرب، لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان" (٢ كو ٥: ٦-٧).

متى نسلك بالعيان؟ عندما يكون لنا نور الحياة، عندما نبلغ تلك الرؤيا، عندما يعبر الليل.

---

[1] *Letter 63 to Brother Cecil: 18.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 34:1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 34:3-6.*

عن هذا اليوم حيث نقوم قيل: "في الصباح اقترب إليك وأتأملك" (مز ٥: ٤). ماذا يعني "في الصباح"؟ عندما يعبر ليل هذا العالم، عندما تنتهي مخاوف التجارب، عندما ينهزم ذاك الأسد الذي يجول في الليل يطلب من يفترسه.

"في الصباح أقف أمامك وأتأمل". الآن ماذا تظنّون أيها الإخوة ما هو واجبنا نحو الحياة الحاضرة، إلا ما يقوله المزمور مرة أخرى: "أعوّم كل ليلة سريري بدموعي..." (مز ٦: ٦)

يقول كل ليلة أبكي، والتهب شوقًا نحو النور. فيتطلع الرب إلى رغبتي، إذ يقول مزمور آخر: "أمامك كل شوقي وتنهدي ليس بمستورٍ عنك" (مز ٣٨: ١٠).

هل تشتاق إلى الذهب؟ لا يمكنك أن لا تُرى، لأنك إذ تطلب الذهب تُعلن ذلك للبشر...

أتشتاق إلى اللَّه"؟ من يرى ذلك إلا اللَّه؟ ممن تطلب اللَّه... إلا من اللَّه؟ فإنه يُطلب من ذاته الذي يعد بإعطاء ذاته.

لتبسط النفس شوقها، وبحضنها المتسع تطلب وتدرك ما لم تره عين وما لم تسمع به أذن وما لا يخطر على قلب إنسان (١ كو ٢: ٩).

يمكننا أن نشتهي ذلك ونتوق إليه ونركض وراءه، لكننا لا نقدر أن نستحق إدراكه ونعلنه بكلمات[1].

القديس أغسطينوس

"**فقال له الفريسيون:**

أنت تشهد لنفسك،

شهادتك ليست حقا". **[١٣]**

إذ انسحب الفريسيون المشتكون على المرأة الزانية بقي فريسيون آخرون لمقاومته من جهة ما ينطق به من تعاليم. كان الفريسيون يعرفون أن "**النور**" هو لقب المسيا الذي ترقبه رجال العهد القديم كما جاء في دانيال ٢: ٢٢.

يغالط الفريسيون أنفسهم، فإننا نجد في العهد القديم بعض الأنبياء شهدوا لأنفسهم، وأكدوا أنهم يحملون إعلانًا إلهيًا أو نبوة من السماء. بل وجاء الفريسيون يسألون يوحنا المعمدان: ماذا تقول عن نفسك؟ لو أنهم في إخلاصٍ تطلعوا إلى تعاليمه وآياته التي صنعها لأدركوا أن السيد المسيح لم يكن محتاجًا إلى شهادة خارجية.

"**أجاب يسوع وقال لهم:**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 34:7.*

وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق،
لأني أعلم من أين أتيت، وإلى أين أذهب،
وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي، ولا إلى أين أذهب". **[١٤]**

إذ يعلم السيد المسيح أنه ابن الله لم يهاجمهم ولا هاجم شهادتهم الكاذبة، إنما كشف عن شخصه وعن علاقته بالآب ورسالته بتجسده. وهذا كله فيه كل الكفاية للشهادة له.

أكد السيد المسيح ثلاث حقائق:

أولاً: يقينه من جهة معرفته بنفسه، وأن الأمر ليس فيه أدنى شك ولا يحتاج إلى حوارٍ. يعرف نفسه قبل مجيئه وإعلانه عن نفسه للعالم. فقد جاء من عند الآب وإليه يذهب (يو ١٦: ٢٨)، جاء من المجد ويعود إليه (يو ١٧: ٥).

ثانيًا: أنهم ليسوا أكفاء ليكونوا قضاة عليه وعلى تعاليمه، لأنهم جهلاء ويريدون أن يبقوا في ظلمة الجهل. إنهم يدينون في حسب أهوائهم الجسدية [١٥]، ليسوا أهلاً للحكم فيما هو إلهي وروحي. ومع استحقاقه أن يدين لأنه الديان العادل لكنه يؤجل الدينونة إلى مجيئه الثاني.

ثالثًا: أن شهادته لنفسه تثبتها شهادة الآب له [١٨].

❖ للرب يسوع المسيح شهود هم الأنبياء الذين أُرسلوا قبله، المذيعون (الحجَّاب) الذين يسبقون القاضي. له أيضًا يوحنا المعمدان شاهد له، لكن هو نفسه يحمل أعظم شهادة لنفسه... إنه النور الحقيقي الذي يضيء لكل إنسانٍ آتٍ إلى العالم[1].

❖ "**لأني أعلم من أين أتيت، وإلى أين أذهب**" من يتكلم معكم بشخصه لديه ما لم يتركه، ومع ذلك قد جاء. لأنه بمجيئه لم يترك هناك (السماء). ولن يهجرنا عندما يعود إلى هناك.

لماذا تتعجبون؟ إنه اللَّه، فإن ما يحدث لا يقدر أن يفعله إنسان، لن يحدث حتى مع الشمس، فإنها إذ تذهب إلى الغرب تترك الشرق حتى تعود إليه عندما تشرق... أما ربنا يسوع المسيح فإنه يأتي وفي نفس الوقت هو هناك، ويعود وهو لا يزال هنا. اسمع الإنجيلي نفسه يقول... "اللَّه لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبّر". لم يقل أنه كان في حضن الآب، كما لو كان بمجيئه قد ترك حضن الآب.

كان يتحدث هنا، ومع ذلك يعلن أنه كان موجودًا هناك.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 34:3-6.*

وعندما اقترب من الرحيل من هنا ماذا قال: "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء العالم" (مت ٢٨: ٢٠)[1].

القديس أغسطينوس

❖ من ينكر أن الابن من الآب لا يعرف الآب الذي منه الابن، وأيضًا لا يعرف الابن لأنه لا يعرف الآب[2].

القديس أمبروسيوس

"**أنتم حسب الجسد تدينون،**

أما أنا فلست أدين أحدًا". **[١٥]**

إذ صار الكلمة جسدًا دانه الفريسيون حسب الجسد، إذ ظنوه إنسانًا مجردًا، ولم يدركوا حقيقته أنه كلمة الله وحكمة الله وقوة الله. أعماله تشهد بذلك، إنه المسيا الموعود به. لقد خدعوا أنفسهم بأنفسهم، لأنهم حاولوا قياس الإلهيات بمقاييس بشرية، والروحيات بمقايسس جسدية.

تطلعوا إلى الناموس والوعود الإلهية بأعين جسدية، فتحول الكتاب إلى دراسات حرفية، وتعلق بالخلاص الزمني والكرامة الباطلة والحرف القاتل، فتعثروا في معرفة المسيا كما في معرفة الآب الذي أرسله.

❖ أن يعيش أحد حسب الجسد هو أن يحيا بطريقة شريرة، هكذا من يدين حسب الجسد يدين ظلمًا[3].

❖ "**لا أدين أحدًا**"، فإنني إن كنت أود أن أدين تكونون أنتم مَدانين... لكن وقت الدينونة لم يحل بعد. إنه يلمح بأنه ليس وحده يدينهم، بل والآب أيضًا يدينهم[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نحن نقول أنه سيأتي ديّانًا للأحياء والأموات بينما يقول عن نفسه: "**أما أنا فلست أدين أحدًا**" [١٥]. هذا السؤال يمكن أن يُحل بطريقتين. إما أننا نفهم هذا التعبير "**لست أدين أحدًا**" بمعنى لست أدين أحدًا **الآن**، وذلك حسب قوله في موضع: "لم آتِ لأدين العالم بل لأخلص العالم"، غير منكرٍ هنا أنه يدين، لكنه يرجئها. أو لأنه إذ قال: "**أنتم حسب الجسد تدينون**" [١٥] أضاف:

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 35:5.*
[2] *On the Christian Faith, Book 1:19:127.*
[3] *Hom 52. PG 59:307.*
[4] *Hom 52. PG 59:307.*

"**أما أنا فلست أدين أحدًا**" بذات الطريقة، أي حسب الجسد[1].

القديس أغسطينوس

"**وإن كنت أنا أدين، فدينونتي حق،**
لأني لست وحدي،
بل أنا والآب الذي أرسلني". **[١٦]**

❖ أشار السيد المسيح هنا بالتلميح أنه ليس هو وحده يدينهم، لكن أباه أيضًا معه يوجب الحكم عليهم[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كأنه يقول: "**دينونتي حق**"، لأنني ابن اللَّه. كيف تبرهن أنك ابن اللَّه"؟ "**لأني لست وحدي، بل أنا والآب الذي أرسلني**"... يوجد جوهر واحد، لاهوت، شركة أزلية، مساواة كاملة عدم اختلاف... لكن الآب آب، والابن ابن... الابن أقنوم آخر غير الآب، هذا تقوله بالحق، أما أنه مختلف عنه في الطبيعة فهذا ليس حقًا... أنا لست الابن بطريقة بها لا أكون معه، ولا هو بطريقة بها لا يكون معي. لقد أخذت شكل العبد، لكنني لم أفقد شكل اللَّه[3].

❖ ليتنا أيها الإخوة نختار لأنفسنا اللَّه ديّانًا لنا، اللَّه شاهد لنا ضد ألسنة الناس، ضد شبهات البشرية. فإن ذاك الذي هو الديّان لا يستنكف من أن يكون شاهدًا، ولا يزداد كرامة حين يكون ديّانًا، حيث أن الشاهد هو نفسه سيكون ديّانًا[4].

القديس أغسطينوس

"**وأيضًا في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق**". **[١٧]**

وإن كان يمكن أن يتفق اثنان أو أكثر على الشهادة الزور (١ مل ٢١: ١٠)، لكنها تُقبل كشهادة حق ما دام لا يثبت ضدها (تث ١٧: ٦؛ ٩: ١٥؛ عد ٣٥: ٣٠).

"**أنا هو الشاهد لنفسي،**
ويشهد لي الآب الذي أرسلني". **[١٨]**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 36:4.*
[2] *Homilies on St. John 52: 2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 36:9.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 36:11.*

كما اشترك الآب والابن في الخلقة، هكذا يعملان معًا في الخلاص. ما يفعله الابن لا يعمله بمفرده بل مع أبيه الذي هو أيضًا يشهد له.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الفريسيين عرفوا أنه المسيح لكنهم بسبب حسدهم تحدثوا معه كمن لم يعرفوه، وأنهم جاءوا ليجربوه فحسبهم ليسوا أهلاً أن يجيب عليهم. لذلك لم يقدم لهم نبوات العهد القديم والدلائل على شخصه، إنما أعلن أنه هو الشاهد لنفسه، فآياته وتعاليمه وصليبه الذي حان وقته، هذه كلها شهادة حية له. ليس بمحتاجٍ إلى شهادة آخر، وإنما يشهد له الآب بكونه واحدًا معه[1].

❖ ألا ترون أنه قال هذا ليظهر أنه من ذات الجوهر ولا يحتاج إلى شاهد آخر، وأنه ليس بأقل من الآب؟ لاحظوا على الأقل استقلاله (تمايزه)[2]!

❖ لو أنه (المسيح) في كيانٍ أقل (من الآب) لما قال هذا! الآن لكي لا تظنوا أن الآب قد ضُم للشهادة ليجعل الرقم اثنين (شاهدين) لاحظوا أن سلطانه ليس مختلفًا عما للآب. يقدم الإنسان شهادة عندما يثق في نفسه وليس عندما يحتاج هو نفسه إلى شهادة، وهكذا أيضًا فيما يخص الغير. أما فيما يخصه هو نفسه حين يحتاج إلى شهادة آخر، فإنه لا يكون هو موضع ثقة. أما الحال هنا فمختلف تمامًا، فإنه إذ يشهد لنفسه وأنه يوجد آخر يشهد له يؤكد أنه موضع ثقة، ويعلن بكل الطرق استقلاله (دون انفصاله)...

يضع نفسه أولاً: "**أنا هو الشاهد لنفسي**" [١٨]. واضح أنه يظهر هنا مساواته في الكرامة، وأنهم لن ينتفعوا شيئًا بقولهم أنهم عرفوا الآب بينما هم لم يعرفوا (المسيح).

يقول أن علة هذا أنهم لا يرغبون في معرفته. لهذا يقول لهم أنه من المستحيل أن يعرفوا الآب بدون أن يعرفوه هو، إذ يقوم هو بجذبهم إلى معرفته. لذلك فبتركهم إياه حتى وإن بحثوا عن معرفة الآب يقول: "لا تقدرون أن تعرفوا الآب بدوني". فمن يجدف على الابن، لا يجدف على الابن وحده، بل وعلى من ولده[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقالوا له:**

---

[1] *cf Homilies on St. John 52: 3.*
[2] *Homilies on St. John 52: 3.*
[3] *Homilies on St. John 52: 3.*

أين هو أبوك؟

أجاب يسوع:

لستم تعرفونني أنا ولا أبي،

لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضًا". [١٩]

اتهمهم السيد المسيح بجهلهم لمعرفة الله. حقًا لقد عُرف الله في اليهودية (مز ٦٧: ١)، لهم بعض المعرفة لله كخالقٍ للعالم، لكن أعينهم أظلمت، فلم تستطع أن ترى نور مجده المشرق في وجه يسوع المسيح. أما علة جهلهم للآب فهو جهلهم لشخص المسيح الذي يعلن عن معرفة الآب.

❖ العبارة: "تعرفونني وتعرفون من أين أنا" (يو ٧: ٢٨) خاصة بشخصه كإنسانٍ، أما العبارة "لستم تعرفونني أنا ولا أبي" [١٩] فخاصة بلاهوته... فمن الواضح أن كلمات القوم الذين من أهل أورشليم: "هذا نعلم من أين هو" (يو ٧: ٢٧) تشير إلى حقيقة أنه وُلد في بيت لحم (مت ٢: ١). وقد عرفوا أنه ذاك الذي أمه تُدعى مريم وأن اخوته (أبناء خالته) هم يعقوب ويوحنا وسمعان ويهوذا (مت ١٣: ٥٥). لهذا شهد للقائلين: "هذا نعلم من أين هو" قائلاً: "تعرفونني وتعرفون من أين أنا". لكنه حينما تحدث مع الفريسيين قال: "**وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب**" [١٤]، إذ كان يتحدث عن طبيعته الإلهية، كشخص يتحدث عن الأساس الذي به هو بكر الخليقة (كو ١: ١٥)[1].

العلامة أوريجينوس

ظن بعض الهراطقة أن في قول السيد المسيح "**ولا أبي**" للفريسيين إشارة إلى أن أباه غير الله الخالق الذي يعرفه الفريسيون خلال قراءتهم للعهد القديم. لكن عدم معرفة الفريسيين هنا تنبع عن شرهم. لا يعرف الأشرار الله حتى إن آمنوا به كخالقٍ، وتحدثوا عنه بكونه الله دون الالتصاق به والسلوك حسب مسرته.

❖ إن كان أحد ما قادرًا أن يقدم حسابًا كاملاً عن الأمور الخاصة بالله، وقد تعلَّم من آبائه أنه وحده ينبغي له السجود، فإنه ما لم يسلك باستقامة يقول الكتاب عنه أنه لا يحمل معرفة الله.

إن كان أحد بالحقيقة يعرف الأمور الخاصة بالخالق وخدمته الكهنوتية فمن الواضح أن أبناء عالي الكاهن كان لهم هذا، إذ أنهم كانوا يقيمون في موضع العبادة. مع هذا إذ أخطأوا كُتب عنهم في

[1] *Commentary on John, Book 19:7, 10.*

سفر ملوك الأول: "وكان بنو عالي بني الهلاك، لم يعرفوا الرب" (راجع ١ صم ٢: ١٢)...

يمكننا أن نجد نفس الشيء ليس فقط بخصوص أبناء عالي بل وبخصوص حكام أشرار في إسرائيل ويهوذا. هكذا أيضًا لم يعرف الفريسيون الآب، إذ لم يعيشوا حسب إرادة الخالق[1].

العلامة أوريجينوس

❖ إذ تحدث الرب عن اللَّه أبيه أجابوه وقالوا له: "**أين هو أبوك؟**" لقد فهموا أب المسيح جسديًا، لأنهم يدينون كلمات المسيح حسب الجسد. لكن الذي تحدث كان الظاهر هو الجسد، وأما الخفي فهو الكلمة؛ الإنسان المنظور واللَّه الخفي... لقد احتقروه لأنهم لم يعرفوه، ولم يعرفوه لأنهم لم يروه، ولم يروه لأنهم عميان، وهم عميان لأنهم لم يؤمنوا[2].

❖ نحن نراك وحدك، ولا نرى أباك معك، فكيف تقول أنك لست وحدك بل أنت مع أبيك؟ إلا فلترنا أن أباك معك[3].

القديس أغسطينوس

"**هذا الكلام قاله يسوع في الخزانة وهو يعلم في الهيكل،**
ولم يمسكه أحد،
لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد". **[٢٠]**

الخزانة: يخبرنا الإنجيلي يوحنا عن الموضع الذي استخدمه السيد ليقدم فيه تعليمه، وهو "**الخزانة**". غالبًا لا يقصد به الموضع الذي توضع فيه كنوز الهيكل الثمينة، وإنما تشير إلى جزء من المناطق التي يقدم إليها الشعب ليقدموا عطاياهم للهيكل. وهو يمثل جزءً خاصًا بدار النساء حيث يوجد فيه ١٣ صندوقًا للعطاء على شكل أبواق. يُنقش على كل صندوق مجال استخدامه حتى يقدم الشخص عطاءه حسبما يريد أن يوجهه. أما دعوة الموضع "دار النساء" فلا يعني أنه خاص بالنساء ولا يدخله الرجال، وإنما يعني أنه يسمح للنساء بالدخول فيه، ولا يسمح لهن بالدخول في مواضع أخرى. وذلك كما يسمح للأمم الدخول إلى "دار الأمم" لكن هذا لا يعني عدم دخول اليهود فيه.

كان هذا الموضع محببًا للشعب حيث كانت توقد فيه المنارات الأربع في عيد المظال السابق الإشارة أيها. وكان هذا الموضع يُدعى جازت *Gazith*، في مواجهة المكان المخصص لانعقاد مجمع

---

[1] *Commentary on John, Book 19:13, 15.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 37:1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 37:2.*

السنهدرين. لهذا قال السيد المسيح أثناء محاكمته: "أنا علَّمت في كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائمًا، وفي الخفاء لم أتكلم بشيء" (يو ١٨: ٢٠).

وكان السيد المسيح يعلن مجاهرة أمام الشعب وفي حضرة السنهدرين أنهم لا يعرفون الآب لأنهم لم يعرفوه هو [١٩]. ومع هذا لم يستطيعوا القبض عليه.

كانت ألسنتهم بلا ضابط تنطق بالتجديف ضده، أما أياديهم فكانت مربوطة، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد. لقد قيدهم بقوته الإلهية حتى تحين ساعة صلبه.

❖ يقول عن السيد المسيح: "**لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد**"، ومعنى ذلك أنه لم يكن قد حان بعد وقت ملائم يشاء أن يُصلب فيه، فمن هذه الجهة كان صلبه ليس بقوة أولئك، وإنما كان بتدبيره هو، لأنهم أرادوا ذلك من قبل ولم يقدروا، ولا اقتدروا بعد ذلك لو لم يرد هو ذلك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذه تُظهر أنه إن كانت كل المساهمة في مساندة المحتاجين في خزانة الهيكل لأجل الصالح العام، فإن يسوع فوق الكل قدم ما هو نافع. قدم هذه الكلمات الخاصة بالحياة الأبدية (يو ٦: ٦٨)، وتعليمه عن الله (الآب)، وعن نفسه. قوله: "**أنا نور العالم**" [١٢].

كان في الخزانة أكثر قيمة من أية عملة. وهكذا قوله: "**لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضًا**" [١٩]، وكل بقية التعاليم في ذلك الموضع.

كل الذهب الذي قدمه الآخرون إلى الخزانة يشبه حبة رمل إن قورن بكلمات يسوع؛ وتُحسب الفضة طينًا في حضرتها (راجع حك ٧: ٩) فإن كل كلمة نطق بها هي حكمة...[1]

❖ لم ينطق يسوع بكل الكلمات التي لديه حين كان يعلم في الخزانة، وإنما قدر ما يمكن للخزانة أن تتقبل. فإنني لست أظن أن العالم نفسه يمكن أن يحوي كل كلمة الله (يو ٢١: ٢٥)[2].

❖ مع أنه نطق هكذا بكلمات كثيرة في الخزانة، وعلَّم في الهيكل لم يمسكه أحد، لأن كلماته كانت أقوى من الذين يرغبون في القبض عليه. مادام يتكلم لا يقبض عليه أحد ممن يخططون ضده، لكنه إذ يصمت يمسكون به. هذا هو السبب الذي لأجله كان صامتًا عندما فحصه بيلاطس وحين ضُرب (يو ١٩: ٩)، إذ أراد أن يتألم لحساب العالم. فإنه لو تكلم لما صُلب عن ضعف (٢ كو

[1] *Commentary on John, Book 19:53 - 55*
[2] *Commentary on John, Book 19:59.*

١٣: ٤) لأنه لا يوجد ضعف في الكلمة المتكلم[1].

العلامة أوريجينوس

٣. هلاك غير المؤمنين

"قال لهم يسوع أيضًا:
أنا أمضي وستطلبونني،
وتموتون في خطيتكم،
حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا". [٢١]

يقدم السيد المسيح تحذيرًا لغير المؤمنين، بأن جحودهم يدفعهم إلى الهلاك الأبدي. وكما يقدم السيد كلمات النعمة المشجعة لصغار النفوس، يقدم تحذيرات مرعبة للجاحدين قبل فوات الأوان. وكما قال: "يشبهون أولادًا جالسين في السوق ينادون بعضهم بعضًا ويقولون: زمرنا لكم فلم ترقصوا، نحنا لكم فلم تبكوا" (لو ٧: ٣٢). هكذا كثيرًا ما يفتح الرب باب الرجاء بالكلمات الطيبة اللطيفة، كما يستخدم التحذيرات الشديدة ليحفظهم من السقوط أو يقوموا مما سقطوا فيه.

"**أنا أمضي**": لقد طلبوا منه أن يمضي عنهم، فإنهم لا يطلبونه، ولا يريدون أن يسمعوا كلماته. وها هو يخبرهم أنه سيمضي، وبمضيه عنهم لا يجدون الحياة بل يموتون في خطيتهم. حين يحل بهم الضيق يطلبون عون المسيا المرفوض منهم والذي صلبوه فلا يجدونه حسب هواهم. يرفضونه ليطلبوا مسحاء كذبة لا يقدمون الحياة بل الغضب الإلهي.

يطلبونه لكن فكرهم المادي الحرفي يحصرهم في حدود الأرض، فيبحثون عنه ولا يجدونه إذ هو صاعد إلى السماء. يطلبونه وهم محبوسون في قبر مجدهم الزمني ومصالحهم المادية فلا يجدونه هناك، لأنه هو نور الحياة. يموتون في خطاياهم إذ لا يروا غافر الخطية ومخلص النفوس من الفساد. هكذا يفضح الطبيب السماوي المرض أمام المرضى لعلهم يقبلون الالتقاء معه ويتمتعون بالشفاء.

"**خطيتكم**" جاء في اليونانية بالمفرد لا الجمع، إذ يركز على خطية الجحود ورفض السيد المسيح. هذا ويلاحظ أن الإنجيلي يوحنا وقد ركز أنظارنا على السيد المسيح كمخلص العالم كرر أكثر من غيره من الإنجيليين فعل "يموت" واسم "خطية". فذكر فعل "يموت" ٢٨ مرة بينما ورد في متى ٥ مرات، ومرقس ٩ مرات، ولوقا ١٠ مرات، ولم ترد بهذه الكثرة في أي سفر في العهد الجديد، إنما جاء

[1] *Commentary on John, Book 19:59 – 61.*

في الرسالة إلى رومية ٢٣ مرة. أما كلمة "**خطية**" فوردت ١٧ مرة في هذا الإنجيل بينما وردت ٧ مرات في متى، ٦ مرات في مرقس، و ١١ مرة في لوقا. ومع هذا فإن الإنجيلي يوحنا لم يهدف إلى تركيز أنظارنا على الخطية وما تثمره من موت، وإنما مع خطورة الخطية القاتلة يركز على ساحق الخطية بصليبه لكي نعيش بروح النصرة والغلبة، ونمارس الحياة الجديدة عوض الموت الروحي.

لقد سبق فقال هذا أيضًا في اليوم السابق (يو ٧: ٣٤).

❖ إنني أسأل إن كان يقول: "**أنا أمضي وستطلبونني، وتموتون في خطيتكم**" ليس لكل الحاضرين، وإنما للذين قد عرف أنهم لا يؤمنون به، ولذلك يموتون في خطيتهم، ويصيروا عاجزين عن أن يتبعوه. إنهم عاجزون لأنهم لا يريدون، فإنهم عاجزون، ولكنهم يريدون ما كان يليق بالقول: "**تموتون في خطيتكم**"[1].

❖ يجيب أحد: إن كان قد نطق بهذه الكلمات إلى أناسٍ مصممين على عدم الإيمان فلماذا يقول لهم "**ستطلبونني**"؟ حسنًا، توجد طرق كثيرة لطلب يسوع، بكونه الكلمة والحق والحكمة. لكن... "**الطلب**" أيضًا يستخدم أحيانًا عن الذين يخططون ضده كما جاء في العبارة: "طلبوا أن يمسكوه، ولم يلقِ أحد يدًا عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد (يو ٧: ٣٠). وأيضًا في العبارة: "أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم لكنكم تطلبون أن تقتلوني، لأن كلمتي لا موضع لها فيكم" (راجع يو ٨: ٣٧). وفي العبارة: "ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم الحق الذي سمعه من الآب" (راجع ٨: ٤٠) لهذا فإن العبارة "**ستطلبونني...**" [٢١] مقدمة للذين يطلبون بطريقة خاطئة وليس نقضًا للقول: "من يطلب يجد" (مت ٧: ٨). يوجد دائمًا اختلافات فيما بين الذين يطلبون يسوع. ليس الكل يطلب بطريقة سليمة لأجل خلاصهم وللانتفاع به[2].

❖ "**تموتون في خطاياكم**" [٢١]. إن أخذت بالمعنى العادي الواضح أن الخطاة سيموتون في خطاياهم، وأما الأبرار ففي برهم. لكن إن أُخذ تعبير "**ستموتون**" بخصوص الموت لعدو المسيح (١كو ١٥: ٢٦) حيث أن من يموت يرتكب "خطية تقود إلى الموت" (١ يو ٥: ١٦)، فمن الواضح أن الذين وُجهت إليهم هذه الكلمات لم يكونوا قد ماتوا بعد. ربما تسأل كيف أن الذين لم يؤمنوا وهم أحياء سيموتون في وقتٍ ما. يجيب أحدهم ويقول إنهم إلى ذلك الحين لم يؤمنوا، ولم يخطئوا للموت، والذين لم تأتِ بعد إليهم الكلمة لم يرتكبوا خطية الموت. إنهم أحياء يعانون من

---

[1] *Commentary on John, Book 19:70.*
[2] *Commentary on John, Book 19:72 – 73.*

المرض في نفوسهم، وهذا المرض ليس للموت (يو ١١: ٤)...[١]

❖ لنهتم ألا يصيبنا "**مرض للموت**"، فمرضنا يمكن أن يُشفى (بالتوبة)، وهو متميز عن المرض الذي لا يُمكن شفائه (بالإصرار على عدم التوبة)[٢].

❖ لنقارن عبارة حزقيال: "النفس التي تخطئ تموت" (حز ١٨: ٢٠) بالقول: "**ستموتون في خطاياكم**"، لأن الخطية هي موت النفس. لست أظن أن هذا صحيح لكل خطية بل للخطية التي يقول عنها يوحنا أنها للموت (١ يو ٥: ١٦)[٣].

❖ لنميز أيضًا بين خطية هي موت للنفس، وأخرى هي مرض لها. وربما يوجد نوع ثالث للخطية هي فقدان للنفس، هذه التي تشير إليها الكلمات: "ماذا ينتفع الإنسان إن ربح العالم كله وخسر نفسه؟" (مت ١٦: ٢٦؛ لو ٩: ٢٥). وأيضًا الكلمات: "إن احترق عمل أحد فإنه يعاني من الفقدان" (راجع ١ كو ٣: ١٥)[٤].

العلامة أوريجينوس

إن كانت الخطية مرضًا خطيرًا يصيب الإنسان كله، نفسه وجسده، فقد ملَّكت الموت عليه. غير أنه إذ جاء كلمة الله المتجسد طبيبًا للنفس والجسد ميّز بين نوعين من الخطية أو نوعين من المرض. يوجد مرض ليس للموت (يو ١١: ٤)، بل لمجد الله، وذلك بالنفس التي تقبل كلمة الله، وتخرج من قبر الفساد، وتتمتع بحل الأربطة والشهادة للقائم من الأموات واهب القيامة. ويوجد مرض للموت مثل الذي يتحدث عنه السيد مع بعض السامعين له قائلاً إنه يطلبونه وسيموتون في خطاياهم، هذين الذين يصرون أن يبقوا في العصيان حتى يوم رقادهم، هؤلاء يرتكبون الخطية التي تقود للموت (١ يو ٥: ١٦).

❖ يقول: "**أنا أمضي وستطلبونني**" [٢١] ليس عن شوقٍ إليّ، بل عن كراهية، لأنه بعد تحركه بعيدًا عن الرؤية البشرية طلبه كل من الذين أبغضوه والذين أحبّوه. الأولون بروح الاضطهاد، والآخرون بالرغبة في اقتنائه[٥].

---

[1] *Commentary on John, Book 19:79 – 80.*
[2] *Commentary on John, Book 19:82.*
[3] *Commentary on John, Book 19:84.*
[4] *Commentary on John, Book 19:85.*
[5] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38:1.*

❖ من الخطأ ألا تطلب حياة المسيح بالطريقة التي بحث بها التلاميذ، ومن الخطأ أن تطلب حياة المسيح بالطريقة التي بحث بها اليهود. للآن هؤلاء الناس يطلبونه بقلب منحرف. ماذا أضاف؟ "**تطلبونني**" – ليس لأنكم تطلبونني للخير – لذلك "**تموتون في خطيتكم**". هذا يحدث من طلب المسيح بطريقة خاطئة ليموتوا في خطيتهم، خطية الكراهية للمسيح، ذاك الذي وحده يمكن أن يوجد فيه الخلاص. فإنه بينما الذين لهم رجاء في الله لا يردوا الشر بالشر هؤلاء يردون الخير بالشر[1].

❖ "**حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا**"، قال نفس الكلمات لتلاميذه في موضع آخر، ومع ذلك لم يقل لهم: "**ستموتون في خطيتكم**"... إنه لم ينزع عنهم الرجاء، بل سبق فأخبرهم عن تأخيرهم في الذهاب إلى حيث يذهب. لأن في هذا الوقت حين تكلم الرب بهذا مع التلاميذ لم يكونوا قادرين على الذهاب إلى حيث هو ذاهب، لكنهم يذهبون بعد ذلك. أما هؤلاء فإنه بسابق علمه يعرف أنهم لن يذهبوا لذا قال: "**تموتون في خطيتكم**"[2].

القديس أغسطينوس

❖ قال هذا لكي يخجل نفوسهم ويرعبهم، انظروا أي خوف حل بينهم بسبب ذلك. فمع كونهم يرغبون في قتله لكي يتخلصوا منه، لكنهم سألوا إلى أين يذهب، فقد تخيلوا أمورًا خطيرة بقوله هذا. أيضًا رغب في أمرٍ آخر، وهو أن هذا الفعل (موته) لن يحدث خلال قوتهم، لكنه يتحدث عنه أمامهم مقدمًا ويخبرهم مقدمًا عن القيامة[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال اليهود:**

ألعله يقتل نفسه حتى يقول

حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟" **[٢٢]**

حين قال قبلاً هذا ظنوا أنه يذهب إلى ولايات يونانية ليكرز بين اليهود الذين في الشتات، أما هنا فأدركوا أنه يتحدث عن موته. لقد حسبوه ليس فقط كواحدٍ منهم، بل أشر منهم لأنه ينتحر يأسًا.

❖ "**حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا**" [٢٢]... فإنه حين يموت أحد في خطيته لا يقدر أن

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 2.*
[3] *Homilies on St. John 53: 1.*

يذهب حيث يذهب يسوع، إذ لا يقدر ميت أن يتبع يسوع. "لأن الأموات لا يسبحونك يا رب، ولا الهابطين في الهاوية، بل نحن الأحياء نحمدك يا رب" (مز ١١٣: ٢٥–٢٦ *LXX*)[١].

❖ ظهر سلطانه أن يموت بإرادته الحرة تاركًا الجسم خلفه من العبارة: "**أمضي أنا**"[٢].

❖ ربما جاء في التقاليد (اليهودية) عن المسيح أنه يولد في بيت لحم، وأنه يقوم من سبط يهوذا حسب التفاسير السليمة للكلمات النبوية؛ وأيضًا في التقاليد بخصوص موته أنه ينتزع نفسه من الحياة بالوسيلة التي قلناها. ويبدو أن اليهود عرفوا أن الذي يرحل هكذا يذهب إلى موضع لا يمكن أن يذهب إليه حتى الذين يفهمون هذه الأمور. لذلك لم يتحدثوا بطريقة حرفية عندما قالوا: "**ألعله يقتل نفسه حتى يقول حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟**" [٢٢]...[٣]

❖ على أي الأحوال أظن قد قالوا هذا عن خبث ما قد بلغ إليهم بالتقليد عن موت المسيح. وعوض أن يمجدوا ذاك الذي يرحل من الحياة بهذه الطريقة قالوا: "**ألعله يقتل نفسه؟**"[٤].

❖ ربما في تردد تكلموا، لكن مع تلميح لمجده في لحظات موته، فإنهم كمن يقولون: "هل تفارق نفسه حينما يريد حين يُترك الجسم خلفه؟" هل لهذا السبب قال: "**حيث أنا أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟**"[٥].

❖ تأملوا أيضًا إن كان بولس قد قال أمرًا مشابهًا لهذا: "أسلم نفسه لأجلنا ذبيحة لله" (أف ٥: ٢)[٦].

العلامة أوريجينوس

❖ إذ سمعوا هذه الكلمات فكعادة الذين لهم أفكار جسدانية والذين يحكمون حسب الجسد ويسمعون ويفهمون كل شيء بطريقة جسدانية، قالوا: "**ألعله يقتل نفسه؟**"... يا لها من كلمات عنيفة تفيض جهالة!... بقوله: "**حيث أمضي**" لا يقصد أنه يذهب إلى الموت، بل أنه يذهب إلى ما بعد الموت[٧].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Commentary on John, Book 19:83.*
[2] *Commentary on John, Book 19:111.*
[3] *Commentary on John, Book 19:104.*
[4] *Commentary on John, Book 19:113.*
[5] *Commentary on John, Book 19:114.*
[6] *Commentary on John, Book 19:119*
[7] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 2.*

"**فقال لهم:**
أنتم من أسفل،
أما أنا فمن فوق.
أنتم من هذا العالم،
أما أنا فلست من هذا العالم". **[٢٣]**

حسب الحكمة البشرية لا يقدر أحد أن يقرر مصير حياته إذا أنهاها بيده، لهذا حسبوه يتكلم عن موته بقيامه بالانتحار. ولعلهم أشاعوا هذا ليشوهوا صورته أمام الشعب، إذ يعتبر الانتحار جريمة يعاقب عليها الناموس، بكونه سفك دم إنسان: "أطلب أنا دمكم لأنفسكم" (تك ٩: ٥). تبقى صورة أخيتوفل المنتحر (٢ صم ١٧: ٢٣) مثلاً خطيرًا للحياة الفاسدة. حقًا لقد قبل شمشون أن يموت بيديه مقابل الآلاف من الوثنيين الذين ماتوا معه، وأيضًا كان البعض معجبين بالذين في حصن *Masada* الذين قتلوا أنفسهم وعائلاتهم عن أن يسقطوا في أيدي الرومان، لكن الانتحار في ذهن الشعب هو خطية اليأس التي عقوبتها نار جهنم. وقد أشار إلى ذلك يوسيفوس المؤرخ، حتى قال بأنه يلزم دفن أجساد الأعداء فورًا، أما المنتحرون فتبقى أجسادهم بلا دفن حتى الغروب كنوعٍ من العقوبة. وذكر يوسيفوس أنه في بعض الأمم كانت تقطع الأيدي اليمنى للمنتحرين لأنها تجرأت وفصلت الجسم عن النفس، هكذا تنفصل هي عن الجسد.

هذا هو الفكر اليهودي في عصر السيد المسيح، وكان الانتحار من الخطايا المعارضة تمامًا لأفكار كثير من الفلاسفة اليونانيين الذين يرون في الانتحار عملاً بطوليًا يستحق المديح، حيث ينهي الإنسان الحياة الزمنية بثقلها ليتمتع بحياة مكرمة ممتدة![1]

يقدم لهم السيد المسيح علة عدم معرفتهم لشخصه وطبيعته، وعدم إدراكهم من أين جاء وإلى أين يذهب، وهو اختلاف طبيعتهم عن طبيعته. كأنه يقول لهم: أنتم قادرون أن تمارسوا القتل حتى لأنفسكم لأنكم من أسفل، وليس لله شيء فيكم. أنتم من أسفل، أرضيون، جسديون، شيطانيون.

هم من الأرض ترابيون، وهو من السماء، الخالق غير المحدود. لهذا فهم في حاجة إلى إدراك لاهوته والإيمان به. "**لأنكم إن لم تؤمنوا أنا هو، تموتون في خطاياكم**" (٢٤).

❖ يشير هنا إلى الأفكار والأوهام العالمية الجسدانية، فمن هذه الجهة استبان قوله: "**أما أنا فلست من هذا العالم**" ليس أنه لم يأخذ جسدًا، لكنه يشير إلى أنه بعيد عن خبث أولئك.

[1] *Leon Morris, p. 311.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **العلامة أوريجينوس** أن الذي من أسفل بالضرورة هو من هذا العالم، لكن ليس كل من هو من هذا العالم هو من أسفل، بل يمكن أن تكون مواطنته في السماء (في ٣: ٢٠). هذا ومن جانب آخر حتى الذي هو من أسفل وهو من العالم يمكن أن يتغير ليصير ليس من هذا العالم.

❖ على أي الأحوال يمكن لمن هو من أسفل ومن هو من هذا العالم، ومن الأرض أن يتغير ويصير من فوق ولا يعود يكون من هذا العالم... لذلك يقول لتلاميذه: "كنتم من العالم، وأنا اخترتكم من العالم، ولستم بعد من العالم" (راجع يو ١٥: ١٩). فإن كان المخلص قد جاء يطلب ويخلص ما قد فُقد (لو ١٩: ١٠)، إنما جاء لكي ينقل الذين من أسفل والذين سُجلوا كمواطنين بين الذين هم من أسفل إلى الذين هم من فوق. فإنه هو الذي نزل طبقات الأرض السفلى من أجل الذين هم هناك (أف ٤: ٩–١٠). لكنه أيضًا صعد فوق كل السماوات، وأعدَّ طريقًا للذين يرغبون فيه، وقد صاروا تلاميذ حقيقيين له حيث الطريق الذي يقود إلى الأمور التي فوق السماوات أي الأمور غير المادية[1].

❖ انتبهوا، إن أردتم أن تتعلموا من الكتاب المقدس من هو من أسفل، ومن هو من فوق. إذ أن كنز كل شخص يوجد في قلبه (مت ٦: ٢١)، فإن من يخزن كنزه على الأرض (مت ٦: ٢١) بفعله هذا يكون من أسفل. وأما إذا خزن أحد كنزه في السماء (مت ٦: ٢٠) يولد من فوق ويأخذ صورة السماوي (يو ٣: ٣؛ ١ كو ١٥: ٤٩). بالإضافة إلى أنه إذ يعبر هذا الشخص خلال السماوات يوجد قد بلغ هدفه الطوباي للغاية[2].

❖ يمكن القول أن من هو من أسفل يمارس أعمال الجسد، وأما من هو من فوق فيحمل ثمار الروح (غلا ٥: ٢٢). مرة أخرى يُمكن القول أن الذي من هذا العالم يحب هذا العالم، حيث أن الذي له محبة الله هو من فوق كقول يوحنا (١ يو ٢: ١٥). إنه ليس من هذا العالم ذاك الذي لا يحب العالم ولا الأشياء التي في هذا العالم، إنما يقول: "حاشا لي أن أفتخر إلاَّ بصليب ربي يسوع المسيح، الذي به قد صلب العالم لي، وأنا للعالم" (راجع غلا ٦: ١٤–١٦)[3].

العلامة أوريجينوس

---

[1] *Commentary on John, Book 19:135 – 137.*
[2] *Commentary on John, Book 19:138.*
[3] *Commentary on John, Book 19:139.*

❖ ماذا قال الرب للذين لهم سمة الأرض؟ "**فقال لهم: أنتم من أسفل**" (يو ٨: ٢٣). لهذا فأنتم تحملون نكهة الأرض، إذ تلحسون التراب مثل الحيات.

أنتم تأكلون التراب، ماذا يعني هذا؟

أنتم تقتاتون بالأمور الأرضية، وتجدون لذتكم فيها، أنتم تفغرون أفواهكم أمام الأرضيات، لن تطلب قلوبكم العلويات.

"**أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم**" [٢٣].

إذ كيف يمكن أن يكون من العالم ذاك الذي به خُلق العالم؟

كل من هم من العالم جاءوا بعد العالم، لأن العالم سبقهم، ولهذا فالإنسان هو من العالم.

حيث كان المسيح قبل العالم، ولم يكن قبل المسيح شيء ما، لأنه "في البدء كان الكلمة، وكل شيء به كان" (يو ١: ١، ٣)، لذلك فهو من ذاك الذي هو فوق... من الآب نفسه. ليس من هو فوق الله الذي ولد الكلمة مساويًا له، وشريك معه في الأزلية، الابن الوحيد في غير زمنٍ، والذي وضع أساس الزمن[1].

❖ لقد شرح لنا يا إخوة ماذا أراد لنا أن نفهم: "**أنتم من هذا العالم**". إنه يقول بالحقيقة: "أنتم من هذا العالم" لأنهم كانوا خطاة، كانوا أشرارًا، غير مؤمنين، لهم نكهة الأرضيات...

لكن ماذا قال الرب نفسه للرسل؟ "**أنا اخترتكم من العالم**" (يو ١٥: ١٩) هؤلاء إذن الذين كانوا من العالم صاروا ليسوا من العالم، وبدأوا ينتمون إلى المسيح الذي به كان العالم. أما هؤلاء (اليهود) فاستمروا بكونهم من العالم، هؤلاء قيل لهم: "**تموتون في خطيتكم**" [٢٤][2].

❖ الذي خلق العالم جاء إليك، وخلصك من هذا العالم. إن كان العالم يبهجك، فأنت تريد أن تكون دومًا غير طاهرٍ، ولكن إن كان العالم لم يعد يبهجك فأنت بالفعل طاهر.

مع هذا إن كان خلال بعض الضعف لا يزال العالم يبهجك دعْ ذاك الذي يطهر يسكن فيك فتصير أنت أيضًا طاهرًا[3].

القديس أغسطينوس

"**فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم،**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 6.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 6.*

لأنكم إن لم تؤمنوا إني أنا هو تموتون في خطاياكم". [٢٤]

❖ جاء لهذا السبب: لينزع الخطية عن العالم، وإن كان من المستحيل للبشر أن ينزعوها بطريق آخر سوى بالغسل، فالحاجة إلى أن الذي يؤمن يلزمه ألا يرحل من العالم وبه الإنسان العتيق، مادام الشخص الذي لا يذبح بالإيمان الإنسان العتيق ويدفنه يموت وفيه (الإنسان العتيق) ويذهب إلى الموضع يعاقب عن خطاياه السابقة[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن كان الذي لا يؤمن أن يسوع هو المسيح يموت في خطاياه، فمن الواضح أن الذي لا يموت في خطاياه يؤمن بالمسيح. لكن الذي يموت في خطاياه حتى إن قال أنه يؤمن بالمسيح، فإنه لا يؤمن به وهو مهتم بالحق، إن كان إيمانه المشار إليه ينقصه الأعمال، فإن مثل هذا الإيمان ميت كما نقرأ في الرسالة المتداولة كعمل يعقوب (يع ٢: ١٧)[٢].

❖ إذن من هو ذاك الذي يؤمن أو يقتنع بأن يحمل طابعًا يتفق مع الكلمة ويتحد معه فلا يسقط في الخطايا التي يُقال أنها للموت (١ يو ٥: ١٦)، ولا يخطئ – كما جاء في تلك الكلمات – بأية وسيلة مقاومًا الكلمة المستقيمة حسب العبارة: "من يؤمن أن يسوع هو المسيح وُلد من الله" (راجع ١ يو ٥: ١)[٣].

❖ من يؤمن بالكلمة أنه منذ البدء مع الله (يو ١: ١)، فإنه إذ يتأمل فيه لا يفعل أمرًا غير عاقل.

ومن يؤمن أنه هو سلامنا (أف ٢: ١٤) لا يود أن يتنازع في شيء ما كمن هو مولع بالحرب أو مثير للشغب.

بالإضافة إلى ذلك إن كان المسيح ليس هو حكمة الله فحسب بل وقوة الله (١ كو ١: ٢٤)، فإن من يؤمن به أنه القوة لن يكون هزيلاً في صنع الخيرات...

وإذ نعتقد فيه أنه الثبات والقوة على أساس القول: "والآن ما هو ثباتي (رجائي)؟ أليس هو الرب؟" (راجع مز ٣٩: ٨)... فإن سلمنا أنفسنا للمتاعب لا نؤمن به مادام هو الثبات، وإن كنا ضعفاء لا نؤمن به أنه القوة[٤].

---

[1] *Hom 53. PG 59:311.*
[2] *Commentary on John, Book 19:152.*
[3] *Commentary on John, Book 19:153.*
[4] *Commentary on John, Book 19:155 – 157.*

العلامة أوريجينوس

❖ يكمن بؤس اليهود كله ليس في أن لهم خطية، بل أنهم يموتون في خطاياهم. فإن هذا ما يليق بكل مسيحي أن يهرب منه، وبسبب هذا نقبل إلى العماد. ولهذا السبب الذين حياتهم في خطر بسبب مرض أو لأمرٍ آخر يطلبون العون، ولنفس السبب يحمل الرضيع بواسطة أمه بأيدٍ تقية إلى الكنيسة حتى لا يخرج إلى العالم بدون عماد ويموت في الخطية التي وُلد فيها[1].

❖ إن آمنتم إني أنا هو لا تموتوا في خطاياكم. إنه يرد الرجاء للجذعين منهم؛ فالنيام يستيقظون، وتتمتع قلوبهم بيقظةٍ متجددةٍ. بالفعل آمن بعد ذلك كثيرون كما يشهد الإنجيل في النهاية. إذ وُجد أعضاء للمسيح لم يكونوا قد التحموا بعد بجسد المسيح. صار أعضاء للمسيح من بين الذين صلبوه وعلقوه على شجرة، وسخروا منه حين كان معلقًا، والذي ضربه بالحربة، والذين قدموا له خلاً ليشرب، عن هؤلاء قال: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"[2].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** أنه بقول السيد المسيح: "**إن لم تؤمنوا بي أنا هو**"، إنما يذكرهم بقول الله لموسى حين سأله عن اسمه "أنا هو الذي هو" (خر ٣). وأنه يعني أنه البداية الموجود في الماضي والحاضر والمستقبل[3].

"**فقالوا له:**

من أنت؟

فقال لهم يسوع:

أنا من البدء ما أكلمكم أيضًا به". **[٢٥]**

جاءت إجابته على سؤالهم هكذا: "أنا هو البدء *Arche*"، كما تكلمت معكم في العهد القديم، لم أتغير. من البدء قيل أن نسل المرأة يسحق رأس الحية (تك ٣: ١٥). إنه موضوع إيمان الآباء البطاركة (إبراهيم وإسحق ويعقوب). إنه هو وسيط العهد، موضوع نبوات الأنبياء. من بدء خدمته أعلن لهم أنه ابن الله، وخبز الحياة. لماذا يكررون السؤال وقد سبق الإجابة عليه مرارًا وتكرارًا، وقد أخبرهم أنه مخلص العالم. لقد سألوه: من أنت يا من تهددنا بهذه الطريقة؟ أي سلطان لك علينا؟

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38: 7.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 38.*

❖ كأن ما يقوله هو هكذا "أنتم لستم أهلاً لتسمعوا كلماتي نهائيًا، بالأكثر أن تتعلموا من أنا. لأن كل ما تقولونه هو لكي تجربونني، ولم تبالوا حتى بقولٍ واحدٍ من أقوالي. وكل هذه الأمور يمكنني الآن أن أبرهنها ضدكم". هذا هو معنى الآية التالية[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الذين سمعوا ما قاله الرب بسلطانٍ عظيمٍ التزموا أن يسألوه من هو هذا الذي ينطق بهذه الأمور. فإنه إذ يعلن المخلص: "**إن لم تؤمنوا إني أنا هو تموتون في خطاياكم**" [٢٤] ظهر أنه أعظم من إنسان، إنه يحمل بالأكثر طبيعة إلهية[2].

العلامة أوريجينوس

"**إن لي أشياء كثيرة أتكلم وأحكم بها من نحوكم،**
لكن الذي أرسلني هو حق،
وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم". **[٢٦]**

يعلن السيد أنه قادر أن يفضحهم لأنه عالم بالخفيات، يعرف كبرياءهم وطمعهم ورياءهم وشرورهم وبغضهم للنور وحسدهم ضد الحق مع جحودهم وعدم إيمانهم وما سيفعلونه به. ما قيل عنكم بالأنبياء هو حق. لكنه ليس الآن وقت للدينونة بل للخلاص.

هنا يعلمنا السيد المسيح أنه ليس كل ما نعرفه، خاصة عن شرور الآخرين، نقوله. إنما نطلب توبة الناس ورجوعهم إلى الحق والتمتع بالشركة مع الله.

❖ كأن السيد المسيح يقول: إن كان الآب أرسلني لخلاص العالم، وهو غرض صالح، فلهذا لست أحكم الآن على أحدٍ، لكنني أخاطبكم بهذه الأقوال التي تؤدي إلى خلاصكم، لا التي تدينكم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب**". **[٢٧]**

إذ أعمى الشيطان بصيرتهم، وظنوه أنه يتحدث عن أب جسداني في الجليل، وليس عن الآب أبيه.

"**فقال لهم يسوع:**
متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ تفهمون إني أنا هو،

---

[1] *Hom 53. PG 59:311.*
[2] *Commentary on John, Book 19:159.*

ولست أفعل شيئًا من نفسي،

بل أتكلم بهذا كما علمني أبي". [٢٨]

إذ يمتلئ شرهم بصلبه، عندئذٍ يدركون أنهم صلبوا رب المجد، وذلك خلال العلامات التي تحدث أثناء الصلب والقيامة وما بعد قيامته.

كانت ذبيحة المحرقة تُدعى "**رفع**"، وفي كثير من طقوس التقدمات والذبائح ترفع الذبيحة إلى أعلى، وتُحرك أمام الرب. هكذا رُفع السيد المسيح على الصليب. وفي القداس الإلهي إذ يختار الكاهن الحمل يُدعى هذا الطقس "رفع الحمل". وبالفعل يضعه في لفافة ويرفعه على جبينه وهو يصلي: "مجدًا وإكرامًا، إكرامًا ومجدًا للثالوث القدوس".

يستخدم الكتاب المقدس كلمة "**يرفع**" لتعني أحيانًا "يمجد" كما استخدمها بطرس الرسول في عظته في يوم العنصرة: "وإذ ارتفع بيمين الله" (أع ٢: ٣٣)، والرسول بولس: "لذلك رفعه الله أيضًا" (في ٢: ٩). وفي العهد القديم قال يوسف: "في ثلاثة أيام أيضًا يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك" (تك ٤٠: ١٣).

وتُستخدم الكلمة أيضًا لتعني الهوان والموت، كما قال يوسف: "في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك ويعلقك على خشبة" (تك ١٤: ١٩).

هنا بقوله: "**رفعتم ابن الإنسان**" نجد المعنيين، فمن جهتهم يرفعونه على الصليب للموت في عارٍ وخزي، ومه جهة الآب يرفعه ويمجده، حيث بالصليب تتحطم قوى إبليس ويُشهر بها (كو ٢: ١٥).

❖ لم يقل: "تعرفون من أنا" بل قال: "**تفهمون إني أنا هو**"، أي المسيح ابن الله، الذي يحمل كل الأشياء، وأنا لست ضد ذاك الواحد... "فإنكم ستعرفون قوتي ووحدة الفكر مع الآب"، إذ يقول: "**ولست أفعل شيئًا من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي** " [٢٨]. بهذا يعلن أن جوهره هو مثله تمامًا، وأنه لا ينطق بشيءٍ إلا بما في ذهن الآب[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ماذا يعني هذا؟ يبدو أن كل ما قاله هو أنهم سيعرفونه من هو بعد آلامه. بدون شك لقد رأى أنه سيعرف بعضًا منهم بنفسه، هؤلاء من بقية قديسيه قد اختارهم بسابق علمه قبل تأسيس العالم، هؤلاء يؤمنون بعد آلامه... كأنه قال: "سأترك معرفتكم تتأجل حتى أتمم آلامي. هذا لا يعني أن

[1] *Hom 53. PG 59:311.*

كل الذين سمعوه يؤمنون فقط بعد آلامه. لأنه بعد ذلك بقليل قيل: "**وبينما هو يتكلم بهذا آمن به كثيرون**" [٣٠]، ولم يكن بعد قد ارتفع ابن الإنسان.

رفعِه الذي يتحدث عنه هنا خاص بآلامه وليس بتمجيده، خاص بالصليب لا بالسماء، لأنه تمجد هناك أيضًا عندما عُلق على الصليب[١].

❖ لماذا قال هذا إلاَّ لكي لا ييأس أحد مهما شعر ضميره بالذنب، وذلك عندما يرى الذين قتلوا المسيح أنه غفر لهم؟[٢]

❖ "**لست أفعل شيئًا من نفسي**" [٢٨] ماذا يعني هذا؟ أنا لست من نفسي. لأن الابن هو الله من الآب، ولكن الآب هو الله ليس من الابن. الابن إله من إله، الآب هو الله وليس من إله. الابن هو نور من نور، والآب هو نور لكن ليس من نور. الابن كائن، لكن يوجد من هو كائن منه، والآب كائن ولكن لا يوجد من هو كائن منه[٣].

❖ كيف تحدث الآب مع الابن؟ إذ يقول الابن: "**أتكلم بهذا كما علمني أبي**" [٢٨]؟

هل تحدث معه؟

عندما علَّم الآب الابن هل استخدم كلمات كما تفعل أنت حين تعلم ابنك؟

كيف يمكنه أن يستخدم كلمات في حديثه مع الكلمة؟

أية كلمات كثيرة في العدد تُستخدم في الحديث مع الكلمة الواحد؟

هل يقترب الابن بأذنيه إلى فم الآب؟

مثل هذه الأمور جسدانية، انزعوها من قلوبكم... إن كان الله كما قلت يتحدث إلى قلوبنا بدون صوت، فكم يتحدث أيضًا إلى ابنه؟...

تحدث الآب إلى الابن بطريقة غير جسدانية، لأنه ولد الابن بطريقة غير جسدانية.

لم يعلمه كما لو كان قد ولده غير متعلم. لكن أن يعمله إنما تعني نفس معنى ولده مملوء معرفة... منه نال المعرفة بكونه منه نال كيانه. لا بأن منه نال أولاً كيانه وبعد ذلك المعرفة. وإنما كما بميلاده أعطاه كيانه، هكذا بميلاده أعطاه أن يعرف، وذلك كما قيل لطبيعة الحق البسيطة، فكيانه ليس بشيء آخر غير معرفته بل هو بعينه[٤].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 40: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 40: 2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 40: 2.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 40: 5.*

القديس أغسطينوس

"**والذي أرسلني هو معي،**
ولم يتركني الآب وحدي،
لأني في كل حين أفعل ما يرضيه". **[٢٩]**

إن كانوا قد نالوا سلطانًا ليقتلوه فهذا لا يعني أن الآب فارقه. فهو دائمًا معه، لا ينفصلان، وما يفعله الابن إنما يرضي الآب، وهو أن يبذل نفسه من أجل خلاص العالم.

❖ حتى لا **يظنوا** أن قول السيد المسيح: "**والذي أرسلني**" يظهر نقصًا له قال: "**هو معي**"، لأن كلمة "**أرسلني**" مناسبة لتدبيره، و"**هو معي**" مناسبة للاهوته. وقول السيد المسيح عن الآب: "**لأني في كل حين أفعل ما يرضيه**" يوضح أن عمله في السبت مرضي لأبيه، إذ أن السيد المسيح قد اجتهد اجتهادًا كثيرًا حتى يبين أنه لا يعمل عملاً مخالفًا لأبيه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**الذي أرسلني هو معي**" [٢٩]... هذه المساواة في الوجود "**دائمًا**"، ليس من بداية معينة وما بعدها، بل بدون بداية وبلا نهاية. لأن الميلاد الإلهي ليس له بداية في زمنٍ حيث أن الزمن نفسه خلقه الابن الوحيد[1].

القديس أغسطينوس

"**وبينما هو يتكلم بهذا آمن به كثيرون**". **[٣٠]**

بينما تعثر الفريسيون والكتبة في كلماته وتعاليمه آمن كثيرون من الشعب به. فالشمس التي تجفف الطين هي بعينها التي تجعل الشمع يذوب. قدمت كلماته رائحة حياة لحياة، ورائحة موت لموت.

جاءت الكلمة اليونانية "آمن" هنا لتعني "صدقوه" لكنها لا تحمل الإيمان الحي الأكيد، إذ كانت قلوبهم وأفكارهم تترقب رؤية المسيا حسب عالمهم المادي السياسي، الذي يخلصهم من الاستعمار الروماني ويرد للأمة كرامتها في العالم.

❖ آمن كثيرون من اليهود بالسيد المسيح، ولكن ليس كما يجب، لكنهم آمنوا على بسيط ذات الإيمان، وعلى ما اتفق، عندما استلذوا بأقواله واستراحوا إليها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 40: 6.*

٤. الحرية الروحية

"فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به:

إنكم إن ثبتم في كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي". [٣١]

إذ بدأ كلامه يعمل في قلوب الذين آمنوا حوّل حديثه من الحوار مع الفريسيين المتكبرين إلى المؤمنين البسطاء المبتدئين ليحدثهم عن الحرية الداخلية. أراد أن ينطلق بهم من التصديق البسيط دون أعماق روحية إلى الثبوت فيه والنمو المستمر في الشركة معه. كانوا ضعفاء في الإيمان، لكنه كراعٍ حملهم على منكبيه في حنو مترفق. فتح أمامهم طريق التلمذة الحقيقية له، وهو **الاستمرارية أو الثبوت في كلمته**. لا يكفي أن يلتحقوا بمدرسته، بل يلزمهم أن يستمروا، فيتمتعوا بحركة نمو مستمرة لا تنقطع. كثيرون أخذوا مظهر التلمذة، وحملوا الاسم، لكنهم لم يثابروا في كلمته. التلمذة الحقيقية له هي الثبوت فيه، والتمتع الدائم بالشركة معه. مادمنا في الحياة نبقى ملتحقين بمدرسته، جادين في التمتع بمعرفته العملية. حقًا لقد قبلنا الحق الإلهي، لكن يلزمنا أن نسلك فيه ونحبه ونتمسك به ونحفظه داخلنا.

❖ الآن يتكلم بهذه الكلمات حتى يحدث ما يلحق ذلك: "**وبينما هو يتكلم بهذا آمن به كثيرون**" [٣٠]، حيث جاء الفقراء إلى الخزانة لينالوا من هناك ما يستطيعوا وما يُوزع عليهم. لذلك آمن كثيرون به، لكن ليس كثيرون عرفوه، وقد وُجد من بين الذين آمنوا به من ثبتوا في كلمته، هؤلاء الذين صاروا بالحقيقة تلاميذه. لذلك فإنه ليس كثيرون يعرفونه، لكن إذ يحرر الحق [٣٢] لا يتحررون، بل قليلون يرتفعون إلى الحرية.

من هم أولئك الذين يعرفونه، أو من يرفعونه؟ كما يعلِّم بنفسه حين يقول: "متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذٍ تعرفون إني أنا هو" [راجع ٢٨]. الآن ليس أحد يُعطى لبنًا لكي يشرب، إذ يُعد نفسه لقبول الطعام القوي (١ كو ٣: ٢؛ عب ٥: ١٢). لهذا يقول مثل هذا الشخص: "جزمت ألا أعرف شيئًا بينكم إلاَّ يسوع المسيح وإياه مصلوبًا" (١ كو ٢: ٢)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ لكي تكون تلميذًا لا يكفي أن تأتي، بل وأن تستمر (تثبت). لذلك لم يقل: "إن سمعتم كلمتي"، ولا "إن جئتم إلى كلمتي" أو "إن مدحتم كلمتي" لكن لاحظوا ماذا قال: "**إن ثبتم (استمررتم) في**

[1] *Commentary on John, Book 19:65 – 68.*

كلمتي، بالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يحرركم" (يو ٨: ٣١-٣٢). ماذا نقول يا إخوة؟ أن تستمر (تثبت) في كلمة الله هل هو أمر متعب أم لا؟

إن كان شاقًا فلننظر إلى المكافأة العظيمة.

إن كان ليس شاقًا، فإنك قد تسلمت المكافأة مقابل لا شيء.

لنستمر (نثبت) في ذاك الذي يثبت فينا.

إن لم نثبت فيه نسقط، أما هو فإن لم يثبت فينا لا يفقد مسكنًا. فإنه يبرع في سكناه في ذاته الذي لن يترك ذاته.

أما بالنسبة للإنسان فحاشا لله أن يثبت في ذاته، إذ فقد ذاته.

لهذا **نثبت فيه عن عوز من جانبنا، وأما هو فيثبت فينا عن رحمة بنا**[1].

❖ ماذا تعني "**إن ثبتم**"؟ إن كنتم تُبنون على الصخرة" (مت ٧: ٢٤).

يا لعظمة هذا يا إخوة!...

ما هي المكافأة؟ "**تعرفون الحق والحق يحرركم**".

احتملوني منصتين إليّ، فأنتم تدركون أن صوتي واهن.

أعينوني بإنصاتكم الهادئ.

يا لها من مكافأة مجيدة! "**تعرفون الحق**".

هنا قد يقول قائل: "وماذا ينفعني أن أعرف الحق؟ "**والحق يحرركم**".

إن كان الحق ليس له مفاتن بالنسبة لكم ليكن للحرية مفاتنها.

في اللغة اللاتينية تعبير "**يتحرر**" يُستخدم في معنيين. ونحن قد اعتدنا أن نسمع هذه الكلمة في هذا المعنى أن من كان حرًا يفهم بأنه قد هرب من بعض الخطر وتخلص من بعض العوائق. ولكن المعنى اللائق للتحرر هو "أن تكون في أمان"، و"أن تُشفى"، و"أن تكون كاملاً"، وهكذا أن تتحرر تعني أن تصير حرًا[2].

القديس أغسطينوس

معرفة الحق ليست معرفة نظرية بل معرفة اختبار له واتحاد معه.

❖ انظروا إن كان الكتاب المقدس لم يقل أيضًا في موضع آخر أن الذين يتحدون مع شيءٍ ما

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 84:1.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 84:2.*

ويصيرون معه واحدًا **يعرفون هذا الذي صاروا معه واحدًا** وانشغلوا به. قبل هذه الوحدة والشركة فإنهم حتى وإن أدركوا شروح قُدمت لهم عن الشيء فإنهم **لا يعرفونه.**

كمثالٍ، قال آدم عن حواء: "هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي" (تك ٢: ٢٣)، فإنه لم يعرف زوجته، وحين التصق بها قيل: "عرف آدم حواء امرأته" (تك ٤: ١).

من يتعثر لأننا استخدمنا هذه العبارة: "عرف آدم حواء امرأته" كمثال لمعرفة الله ليأخذ في اعتباره أولاً: "هذا السرّ عظيم" (أف ٥: ٣٢)، بعد ذلك يقارن ما قوله الرسول عن الذكر والأنثى، فقد استخدم نفس اللغة الخاصة بالرجل مع الرب. "من التصق بزانية هو جسد واحد، وأما من التصق بالرب فهو روح واحد" (١ كو ٦: ١٦-١٧). لذلك من يلتصق بزانية يعرف الزانية، ومن يلتصق بزوجته يعرف زوجته، ولكن بالأكثر من يلتصق بالرب يعرف الرب بطريقة مقدسة.

إن كان الأمر هكذا فإن الفريسيين لم يعرفوا الآب ولا الابن[1].

العلامة أوريجينوس

❖ "**إن ثبتم**" (استمررتم) في الإيمان الذي يبدأ الآن فيكم يا من تؤمنون فإلى أين تبلغون؟

تطلعوا إلى طبيعة البداية وإلى أين تقودكم. إنكم تحبون الأساس اهتموا بالقمة، اطلبوا وأنتم في هذا المستوى البسيط (الهين) الارتفاع والسمو. فإن الإيمان له التواضع، لكن المعرفة والخلود والأبدية فلها لا السفليات بل العلو، أي الارتفاع والشبع الكامل والاستقرار الأبدي والحرية الكاملة من الهجمات المعادية ومن الخوف من الفشل. هذه التي لها البداية في الإيمان عظيمة لكنه يُستخف بها.

ففي إنشاء مبنى عادة يعطى الذين بلا خبرة الأساسات قدرًا ضئيلاً. تُصنع حفرة عظيمة وتلقى الحجارة في كل موضع وبكل طريقة. لا تظهر فيها زخرفة ولا جمال، وهكذا أيضًا في جذر الشجرة لا يظهر جمال. ومع ذلك كل ما يبهجكم من الشجرة ينبع من الجذر. تتطلع إلى الجذر فلا تجد بهجة؛ تتطلع إلى الشجرة وتدهش بها. إنسان غبي! ما تُعجب منه ينمو مما لا يعطيك بهجة.

هكذا إيمان المؤمنين يبدو كأنه أمر تافه، ليس لديك ميزان لكي تزنه.

لتسمع إذن ما يقدمه الإيمان وتتطلع إلى عظمته. إذ يقول الرب في موضع آخر: "إن كان لكم إيمان مثل حبة خردل" (مت ١٧: ٢٠). أي شيء أقل من هذا؟ ومع هذا أية طاقة أعظم تنتشر منه؟ أي شيء أصغر منها؟ ومع هذا أي شيء ينتشر بأكثر قوة منها؟ هكذا يقول: "**إن ثبتم في كلمتي**" أي إن آمنتم، فإلي أين تُحضرون؟ "**بالحقيقة تكونون تلاميذي**" [٣١].

---

[1] *Commentary on John, Book 19:22 - 24*

وماذا ينفعهم هذا؟ "**وتعرفون الحق**" [٣٢][1].

القديس أغسطينوس

❖ "**إنكم إن ثبتم في كلمتي**" هو تعبير لمن يعلن ما في قلوبهم، ويعرف أنهم آمنوا لكنهم لم يستمروا في ذلك. وها هو يعدهم بأمر عظيم أنهم يصيرون تلاميذه. فقد تركه قبلاً البعض، وها هو يشير إليهم بقوله: "**إن استمررتم**" لأن هؤلاء أيضًا سمعوا وآمنوا وتركوه، لأنهم لم يستمروا. "رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشوا معه" (يو ٦: ٦٦)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وتعرفون الحق،**

والحق يحرركم". **[٣٢]**

هنا يتحدث عن المعرفة العملية والتلامس مع قوتها لممارسة التلمذة الحقيقية له، فنتمتع بالحرية الداخلية. فمادامت الخطية ساكنة في الإنسان لم تتحطم بعد، لا يقدر أن يمارس روح البنوة الذي ناله في مياه المعمودية ليدعو الآب أباه (رو ٨: ١٥). عبودية الخطية هي أخطر أنواع العبودية والتحرر منها هو أعظم أنواع الحرية.

من يعرف الحق ويثبت فيه، أي يعرف السيد المسيح ويقتنيه، يتحرر من عبودية الخطية، ويصير له فكر المسيح المتناغم مع إرادة الله، يحيا في كمال الحرية حسب مشيئة خالقه.

إنه المحرر الذي يقول: "روح السيد الرب عليّ، لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق" (إش ٦١: ١). على الصليب عتقنا من خطايانا، وحررنا من أسرها، وبقيامته وهبنا برّه الإلهي، فلم نعد بعد عبيدًا للخطية. حررنا إنجيله من نير حرفية الناموس لنحيا بحرية الروح كأولاد الله. نختبر الحياة السماوية، كمن يدخل أورشليم العليا، أمنا الحرة.

❖ ألم يبلغوا مثل هذه المعرفة حين كان الرب يكلمهم؟ إن كانت ليس لهم المعرفة فكيف آمنوا؟ **لقد آمنوا ليس لأنهم كانوا يعرفون، وإنما لكي يعرفوا**. فإننا نؤمن لكي نعرف، ولسنا نعرف لكي نؤمن. **لأن ما سنعرفه لم تره عين ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على بال بشر** (إش ٦٤: ٤؛ ١

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 40: 8.*
[2] *Homilies on St. John 54: 1.*

كو ٢: ٩) لأنه ما هو الإيمان إلاَّ تصديق ما لم تروه بعد؟[1]

❖ "**وتعرفون الحق**". الحق غير متغير. الحق هو خبز، ينعش عقولنا ولا يسقط، يغَّير من يأكله، ولا يتغير فيمن يأكله. الحق هو كلمة الله... الابن الوحيد. هذا الحق التحف جسدًا من أجلنا لكي ما يُولد من العذراء مريم وتتم النبوة: "الحق نبع عن الأرض" (مز ٨٥: ١١). هذا الحق إذن وهو يتحدث مع اليهود اختفى في الجسد. لكنه لم يختفِ لكي يُنكر، وإنما لكي ما يُرجأ إعلانه، يُرجأ لكي ما يتألم في الجسد، ويتألم في الجسد لكي ما يخلص الجسد من الخطية. هكذا ظهر بالكامل بخصوص ضعف الجسد، وكان مخفيًا من جهة جلال اللاهوت[2].

القديس أغسطينوس

❖ "**وتعرفون الحق**" بمعنى: "ستعرفونني، إذا أنا هو الحق. كل الأمور اليهودية هي رموز، لكنكم تعرفون الحق فيَّ، وهو يحرركم من خطاياكم"... إنه لم يقل "أحرركم من العبودية" فقد تركهم هم يستنتجون ذلك[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابوه:**

إننا ذرية إبراهيم،

ولم نُستعبد لأحد قط،

كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحرارًا؟" **[٣٣]**

واضح أنهم لم يدركوا حديث يسوع المسيح عن "**الحرية**"، فحسبوا دعوته لهم للتمتع بالحرية إهانة كبرى، لأنهم أبناء إبراهيم الحر، الذي يدعو الله "خليلي" (إش ٤١: ٨). كان اليهود يفتخرون بأنهم نسل هذا الأب العظيم. يقول الربّي اكيبيا *Rabbi Akiba* الذي مات حوالي ١٣٥م: [يُنظر حتى إلى أفقر الأشخاص في إسرائيل كأحرار، هؤلاء الذين فقدوا ممتلكاتهم، لأنهم أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب. كل الأمة تعتز بهذه الكرامة الخاصة بانتسابها لهؤلاء الآباء العظماء لا بكثرة ممتلكاتهم]. هذا هو شعور اليهود في عصر المسيح.

ظنوا أن انتسابهم لإبراهيم بالجسد يحررهم بينما نجد الغني الغبي في الجحيم يدعو إبراهيم أباه: "يا

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 40: 9.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 1.*
[3] *Homilies on St. John 54: 1.*

أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني، لأني معذب في هذا اللهيب" (لو ١٦: ٢٤).

كيف تجاسروا وقالوا: "**لم نُستبعد لأحد قط**" [٣٣]؟ ألم يُستعبدوا للمصريين وقام موسى بتحريرهم؟ ألم يُستعبدوا عدة مرات لأمم مجاورة في أيام القضاة؟ ألم يُستعبدوا لبابل مدة سبعين عامًا؟ وأخيرًا يدفعون الجزية لقيصر الروماني؟

لا يبالي الجسدانيون بالعبودية الداخلية، كل ما يشغلهم تمتعهم بالشهوات الجسدية.

❖ هكذا هو افتخار اليهود: "نحن ذرية إبراهيم"، "نحن إسرائيليون". إنهم لم يشيروا قط إلى أعمالهم البارة. لهذا صرخ فيهم يوحنا قائلاً: "لا تقولوا لنا إبراهيم أبًا" (مت ٣: ٩). ولماذا لم يفحمهم المسيح إذ كثيرًا ما استعبدهم المصريون والبابليون وأمم كثيرة؟ لأن كلماته لم يقدمها لينال كرامة لنفسه، وإنما لأجل خلاصهم، لنفعهم، فكان يضغط عليهم بهذا الهدف... إنه لم يرد أن يظهر أنهم كانوا عبيدًا للناس بل للخطية، التي هي عبودية خطيرة، لا يقدر أن يحررهم منها سوى الله وحده[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كل شخصٍ: يهودي أو يوناني، غني أو فقير، صاحب سلطة أو في مركز عام، الإمبراطور أو الشحاذ، "**كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية**" [٣٤]. إن عرف الناس عبوديتهم يرون كيف يقتنون الحرية.

المولود حرًا ويسبيه البرابرة يتحول من حرٍ إلى عبدٍ، وإذ يسمع عنه شخص آخر يتحنن عليه ويتطلع أن لديه مالاً فيفديه، يذهب إلى البرابرة ويعطيهم مالاً ويفدي الرجل. إنه بالحق يرد له الحرية، إذ ينزع الظلم...

إني أسأل الذي افتُدي: هو أخطأت؟ يجيب "أخطأت". إذن لا تفتخر بنفسك أنك قد افتُديت، ولا تفتخر يا من افتديته، بل ليهرب كليكما إلى الفادي الحقيقي. إنه جزئيًا يُدعى الذين تحت الخطية عبيدًا، إنهم يدعون أمواتًا.

ما يخشاه الإنسان حلول السبي عليه الذي جلبه الإثم عليه فعلاً. لماذا؟ هل لأنهم يبدون أنهم أحياء؟ هل أخطأ القائل: "دع الموتى يدفنون موتاهم" (مت ٨: ٢٢)؟ إذن فكل الذين تحت الخطية هم

[1] *Homilies on St. John 54: 1.*

أموات، عبيد أموات، أموات في خدمتهم، وخدام (عبيد) في موتهم[1].

القديس أغسطينوس

❖ من الذي يحرر من الموت ومن العبودية إلاَّ ذاك الذي هو "حرّ من بين الأموات" (مز ٨٨: ٥)؟ من هو "الحرّ من بين الأموات" إلاَّ ذاك الذي بلا خطية وسط الخطاة؟ يقول مخلصنا نفسه، منقذنا: "رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء" (يو ١٤: ٣٠). (رئيس هذا العالم) يمسك بمن يخدعهم ومن يغويهم، ومن يحثهم على الخطية والموت، هذا "ليس له فيّ شيء".

تعال أيها الرب، تعال أيها المخلص. ليتعرف عليك الأسير.

دع من اقتيد إلى السبي أن يهرب إليك. كن فاديًا له!

إذ كنت مفقودًا وجدني ذاك الذي لم يجد الشيطان له فيه شيئًا آتيا من الجسد. لقد وجد في رئيس هذا العالم جسدًا، لقد وجده لكنه أي نوع من الجسد؟

جسد مائت يمكن أن يمسكه ويقدر أن يصلبه وأن يقتله!

لقد أخطأت يا أيها المخادع فإن المخلص لا يُخدع... إنك ترى فيه جسدًا قابلاً للموت لكنه ليس جسد الخطية، بل على شبه جسد الخطية. "الله أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد" (رو ٨: ٣). في جسد، لكن ليس في جسد الخطية بل "في شبه جسد الخطية". لأي هدف؟ "لكي بالخطية التي بالتأكيد لم يكن منها شيء فيه، يدين الخطية في الجسد، فيتحقق برّ الناموس فينا، نحن الذين لا نسلك حسب الجسد بل حسب الروح (رو ٨: ٤).

لا يدع أحد نفسه حرًا لئلا يبقى عبدًا. لا تبقى نفوسنا في عبودية، لأنه يُعفى عن ديوننا يومًا فيومًا[2].

❖ حتى بالنسبة للحرية في هذه الحياة، أين هو الحق عندما تقولون: "**لم نُستعبد لأحدٍ قط**"؟ ألم يُبع يوسف (تك ٣٧: ٢٨)؟ ألم يذهب الأنبياء القديسون إلى السبي (٢ مل ٢٤؛ خر ١: ١)؟ مرة أخرى أليست هذه الأمة عندما كانت تصنع اللبن في مصر خدمت حكامًا عنفاء ليس في ذهب وفضة بل في صنع الطوب (خر ١: ١٤)؟ إن كنتم لم تُستعبدوا قط لأحد يا أيها الشعب الجاحد، فلماذا يذكركم الله باستمرار أنه خلصكم من بيت العبودية (خر ١٣: ٣؛ تث ٥: ٦)؟... كيف تدفعون الجزية للرومان، والتي من خلالها أقمتم فخًا لتصطادوا الحق فيه عندما قلتم: "هل يجوز

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 84:3.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 84:6.*

أن نعطي الجزية لقيصر؟" وذلك حتى إن قال يجوز ذلك تتهمونه بسرعة أنه يسئ إلى حرية نسل إبراهيم، وإن قال لا يجوز تشتكونه أمام ملوك الأرض بكونه يمنع الجزية لمثل هؤلاء؟[1]

القديس أغسطينوس

"**أجابهم يسوع:**

الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية". **[٣٤]**

هذه المقدمة المهيبة "**الحق الحق أقول لكم**" هي إعلان مهوب، كثيرًا ما يستخدمه السيد المسيح عندما يصدر أمرًا له خطورته. وهو في هذا يختلف عن الأنبياء، الذين كانوا يرددون العبارة: "هكذا يقول الرب"، لأنهم خدام أمناء لله. أما السيد المسيح فيتكلم باسم نفسه بكونه الابن "**أقول لكم**".

"**من يعمل الخطية فهو عبد للخطية**": لا يوجد إنسان بار لم يخطئ، لكن ليس كل من يسقط في خطأ هو عبد للخطية. إنما يقصد بقوله "**يعمل الخطية**" أي يختارها ويفضلها عن برّ الله، يفضل طريق الشر عن طريق القداسة (إر ٤٤: ١٦-١٧)، فيقيم عهدًا مع الخطية، ويقبلها دستورًا لحياته، تقوده شهواته الجسدية ومحبته للعالم.

يدرك الإنسان عبوديته لها كما مارسها. ففي بداية ممارستها يظن الإنسان أنه صاحب سلطان، له حق قبولها أو رفضها، لكنها إذ تدخل تمسك بعجلة قيادة النفس، ويفقد الإنسان سيطرته على إرادته تدريجيًا، فتكون الخطية أشبه بمخدر لا يقدر أن يستغني عنها. تحركه الخطية حسب هواها ليمارس ما لم يكن يتوقعه يومًا ما. وكما يقول كثير من آباء البرية أنه إذ تحتل خطية مكانًا في قلب الإنسان أو فكره تملك عليه وتفتح الطريق لغيرها من الخطايا لتملك معها، ويدخل الإنسان في سلسلة من الخطايا لا يقدر على مقاومتها بنفسه.

❖ "**أجابهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية**".

إنه عبد، يا ليته لإنسانٍ بل للخطية!

من لا يرتعب أمام مثل هذه الكلمات؟ الرب إلهنا يهبنا – أنتم وأنا – أن أتكلم بتعبيرات لائقة عن هذه الحرية باحثًا عنها وأن أتجنب تلك العبودية...

يا لها من عبودية بائسة! عندما يعاني البشر من سادة أشرار يطلبون على أي الأحوال تغيير السيد.

ماذا يفعل عبد الخطية؟ لمن يقدم طلبه؟ إلى من يطلب الخلاص؟...

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 2.*

أين يهرب عبد الخطية؟ فإنه يحمل (سيده) أينما هرب. لا يهرب الضمير الشرير من ذاته، لا يوجد موضع يذهب إليه.

نعم لا يقدر أن ينسحب من نفسه، لأن الخطية التي يرتكبها هي في داخله. يرتكب الخطية لكي يحصل على شيء من اللذة الجسدية. تعبر اللذة وتبقى الخطية. ما يبتهج به يعبر، وتبقى الشوكة خلفها. يا لها من عبودية شريرة!...

لنهرب جميعًا إلى المسيح، ونحتج ضد الخطية إلى الله بكونه مخلصنا.

لنطلب أن نُباع لكي ما يخلصنا بدمه. إذ يقول الرب: "مجانًا بُعتم وستخلصون بدون مالٍ" (إش ٥٢: ٣). بدون ثمن من جهتكم، بسببي. هكذا يقول الرب لأنه هو دفع الثمن لا بمالٍ بل بدمه، وإلا بقينا عبيدًا معوزين[1].

القديس أغسطينوس

أما الابن فيبقى إلى الأبد". [٣٥]

لعله يشير هنا إلى طرد إسماعيل وعدم تمتعه بالميراث (تك ٢١: ١٠-٤). ليس للعبد حق الميراث من الأسرة التي نشأ فيها. أما الابن الشرعي فله هذا الحق. بل ومن حقه أن يحرر أي عبدٍ في الأسرة، وأن يتصرف في ميراثه كما يشاء.

الحرية التي افتخر بها اليهود هي وهم وخيال، إذ لم تكن لهم الحرية الداخلية ولا الحرية الخارجية. هذا ما تفعله العبودية للخطية، إذ توهم عبيدها بالحرية، فيظنون في ممارستهم للشر ممارسة للحياة الحرة بلا قيود، وتحطيم لما يظنوه قيود البرّ والإيمان. الحرية الحقيقية هي في المسيح يسوع حيث يرى المؤمن دستوره الحب الحقيقي، حتى وإن كان ثمنه بذل النفس من أجل الغير، وإمكانياتها إلهية حيث يتمتع المؤمن بالشركة في الطبيعة الإلهية، لا تقدر الأوهام والزمنيات أن تأسره، بل يجد مسرته في تناغم إرادته مع إرادة الله أبيه السماوي.

❖ إن قلت: "فلِم ذكر **البيت** إذ خاطبهم مذكرًا إياهم بخطاياهم؟ أجبتك: لكي يريهم كما أن السيد في بيته متسلط، كذلك هو متسلط، وسيد الخليقة. بقوله: "**لا يبقى**" يعني أنه بلا سلطان أن يهب امتيازات، لأنه ليس سيدًا للبيت. أما الابن فهو رب البيت. فإن هذا ما يعنيه بالقول: "**يبقى إلى الأبد**"، كمجاز مُستعار من الأمور البشرية. فلكي لا يقولوا: "من أنت" قال: "كل شيء هو ملكي؛ **أنا هو الابن الساكن في بيت أبي**"، مظهرًا بقوله "**البيت**" سلطانه. ففي موضعٍ آخر يدعو

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 3 – 4.*

الملكوت "بيت أبيه": "في بيت أبي منازل (مواضع) كثيرة" (يو ١٤: ٣). وإذ كان مقاله خاصًا بالحرية والعبودية، لهذا استخدم المجاز ليخبرهم أنهم بلا سلطان على التمتع بالحرية (أو نوال المغفرة)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يدخل كثير من الخطاة الكنيسة. لهذا لم يقل "العبد ليس في البيت" وإنما قال: "**لا يبقى في البيت إلى الأبد**". رجاؤنا أيها الإخوة هو هذا أن نصير أحرارًا بواسطة الحرّ، وإذ يجعلنا أحرارًا يقيمنا عبيدًا.

لقد كنا عبيدًا للشهوة، ولكن إذ نتحرر **يجعلنا عبيدًا للحب**.

هذا أيضًا ما يقول الرسول: "فإنكم إنما دعيتم للحرية أيها الإخوة غير أنه لا تصيِّروا الحرية فرصة للجسد بل بالمحبة اخدموا بعضكم بعضًا" (غلا ٥: ١٣).

إذن لا يقول المسيحي: أنا حرّ، أنا دُعيت للحرية. كنت عبدًا وقد خلصت، وبخلاصي هذا صرت حرًا، أفعل ما يحلو لي. لا يصد أحد إرادتي مادمت حرًا... لا تفسد حريتك بالخطية، بل استخدمها في عدم ارتكاب الخطية. فإنه متى كانت إرادتك ورعة عندئذٍ فقط تكون حرة.

تكون حرًا إن كنت لا تزال عبدًا متحررًا من الخطية وخادمًا للبرّ. وكما يقول الرسول: "لأنكم لما كنتم عبيد الخطية كنتم أحرارًا من البرّ... وأما الآن إذ أُعتقتم من الخطية وصرتم عبيدًا لله فلكم ثمركم للقداسة والنهاية حياة أبدية" (رو ٦: ٢٠، ٢٢)[2].

القديس أغسطينوس

"**فإن حرركم الابن،**

فبالحقيقة تكونون أحرارا". **[٣٦]**

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الابن يظهر هنا مساواته للآب في السلطان، فإن الله وحده هو الذي يبرر ويدين (رو ٨: ٣٣، ٣٤). الابن بلا خطية ويهب الحرية من الخطية، الأمر الذي هو من اختصاص الله وحده. هذا وقد أوضح لهم أن الحرية التي في أذهانهم ليست أصيلة، أما التي يهبها الابن فهي الحرية الحقيقية: "بالحقيقة تكونون أحرارًا"[3].

---

[1] *Homilies on St. John 54: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 8.*
[3] *Homilies on St. John 54: 2.*

❖ لقد جاء في الجسد، أي في شبه جسد الخطية (رو ٨: ٣)، لكن ليس في جسد خاطئ، لأنه ليس فيه خطية نهائيًا، ولهذا صار ذبيحة حقيقية عن الخطية، لأنه هو نفسه بلا خطية[1].

❖ باستحقاق فعّال يخلص من عبودية الخطية هذه، هذا الذي يقول في المزامير: "صرت إنسانًا بلا سند، حرًا بين الأموات" (مز ٨٨: ٤-٥). فإنه وحده كان حرًا إذ لم يكن فيه خطية. إذ هو نفسه يقول في الإنجيل: "رئيس هذا العالم يأتي" يقصد الشيطان الذي يأتي في أشخاص اليهود المضطهدين له، "وليس له فيّ شيء" (يو ١٤: ٣٠-٣١). فلا يجد فيَّ نسبة ما من الخطية كما في أولئك الذين يُقتلون كأبرارٍ، لا يجد قط شيئًا ما فيّ... إنني لست أدفع عقوبة الموت كضرورة بسبب خطاياي، لكنني أموت متممًا إرادة أبي. في هذا أنا أفعل إذ أحتمل الموت، فلو كنت لا أريد الألم ما كنت أتألم. يقول بنفسه في موضع آخر: "لي سلطان أن أضع حياتي، ولي سلطان أن آخذها أيضًا" (يو ١٠: ١٨). بالتأكيد هنا ذاك الذي هو حر بين الأموات[2].

❖ كما أن الطبيب يكره مرض المريض ويعمل بمقاييس الشفاء لينزع المرض ويشفي العليل، هكذا الله يعمل بنعمته فينا، ليبدد الخطية ويتحرر الإنسان[3].

❖ من ثم يقول الرسول ما نبدأ نحن نقوله: "فإني أُسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن" (رو ٧: ٢٢). هنا إذن **نصير أحرارًا عندما نُسر بناموس الله**، لأن الحرية لها الفرح. فإنك مادمت تفعل الصلاح عن خوفٍ، فإن الله لا يكون موضع مسرتك. **لتجد مسرتك فيه فتكون حرًا**. لا تخف العقوبة بل حب البرّ. هل لازلت لا تحب البرّ؟ خف من العقوبة حتى تنال محبة البرّ[4].

القديس أغسطينوس

"أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم،
لكنكم تطلبون أن تقتلوني،
لأن كلمتي لا موضع لها فيكم". [٣٧]

حسنًا يفتخر اليهود أنهم أبناء إبراهيم، لكن لماذا لم يسلكوا بروح أبيهم في إيمانه وطاعته لله؟ لماذا لم يثبتوا انتسابهم له بالعمل، لأنهم يطلبون قتل السيد المسيح؟ إن كان قتل البريء جريمة عظمى فماذا يكون قتلهم لملك الملوك؟ في طاعة كاملة وإيمان قدم إبراهيم ابنه الحبيب ذبيحة محرقة لله، وها

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 5.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 7.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 9.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 41: 10.*

هم في تمرد يطلبون قتل ابن الله الحبيب!

يفتخرون بانتسابهم لإبراهيم الذي نال وعدًا أن يكون أبًا لأممٍ كثيرة، وإذ حان الوقت لتحقيق الوعد، إذ جاء من نسله السيد المسيح الذي يضم الأمم معًا كأبناء روحيين لإبراهيم يريد اليهود قتله. أما سرّ مقاومتهم للحق، وعدم تمتعهم بالبركات التي نالها أبوهم إبراهيم فهو كما قال السيد: "**لأن كلامي لا موضع له فيكم**". لم يتركوا لكلام السيد المسيح، للحق نفسه، موضعًا في قلوبهم، لأن الحسد والغيرة والفساد ملأ قلوبهم، ولم يترك مجالاً لدخول الحق إليها.

حين يغلق الإنسان أبواب قلبه بالشهوات الجسدية ومحبة العالم لا يقتحمها الحق، لأنه لن يدخل قسرًا ما لم يجد ترحيبًا، فيدخل الحق كما إلى بيته، ويتسلم عجلة القيادة ليدير كل حركة القلب والفكر والحواس والمشاعر، فيتحول الإنسان بالنعمة الإلهية إلى كائنٍ روحيٍ، يقوده روح الرب.

❖ إن كنتم تفتخرون بعلاقتكم بإبراهيم، يلزمكم أيضًا أن ترتقوا بأن تسلكوا ذات سلوك حياته. ولم يقل: "ليس لكم موضع لكلماتي"، بل "**كلمتي لا موضع لها فيكم**"، مشيرًا إلى سمو التعاليم. ومع ذلك فإنه ليس بسبب هذا يلزم أن يقتلوا بل أن يُكرموا وينصتوا إليه لكي يتعلموا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يقدم لنا **العلامة أوريجينوس** الفارق بين "ذرية" و"أبناء" من الجانب الحرفي. فالذرية أو البذور إذ تُلقى في المرأة قد تنجب ابنا أو لا تنجب. كأن كل الأبناء هم من الذرية أو البذور لكن ليس كل الذرية أو البذور هم أبناء. فالسالكون حسب حياة إبراهيم هم من ذريته وأبنائه. أما من هم أبناء له حسب الجسد دون السلوك حسب حياته فهم ذرية وليسوا بالحق أبناء له. لهذا يقول **العلامة أوريجينوس** إنه إن وُجد إنسان ليس ابنا لإبراهيم ولا هو من ذريته فلا يُلام مثلهم إن كان خاطئًا لأنه لم يجد فرصه أن يُولد من بذار رجل بار فيكون كأبيه. أما الذين هم من ذرية إبراهيم، فكان يلزمهم أن يُحسبوا أبناء لإبراهيم سالكين مثل أبيهم. إنهم ذريته لكنهم ليسوا بالحق أبناء إبراهيم، لأنهم لا يحيون كأبيهم[2].

مرة أخرى يقول: **[إبراهيم صار إبراهيم مع أنه ليس من ذرية إبراهيم (لم يلد نفسه) بل من ذرية السابقين له، هكذا يُمكن لشخص ما بغرس بذارٍ صالحة في نفسه أن يصير إبراهيم آخر، مع أنه ليس من ذرية إبراهيم نهائيًا، إنما فيه الكفاية أن يغرس بذورًا مثل إبراهيم[3].]**

---

[1] *Hom 54. PG 59:317-318.*
[2] *Commentary on John, Book 20:3 etc.*
[3] *Commentary on John, Book 20:16.*

إذ سلك شعب بني إسرائيل كما يسلك الأموريون والحثيون الوثنيون لهذا قيل عنهم: "أبوك أموري وأمك حثية" (حز ١٦: ٣)، مع أنهم من ذرية إبراهيم ومن نسل سارة، لكنهم لم يحسبوا أبناء إبراهيم ولا من سارة!

❖ نتعلم من هذا بوضوحٍ شديدٍ أنه يجب أن نفسر كل قصة إبراهيم رمزيًا، ونمارس كل ما فعله بطريقة روحية، ابتداء من الوصية: "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك" (تك ١٢: ١). هذه العبارة تُقال ليس لإبراهيم وحده بل ولكل من يريد أن يكون ابنًا له... والرب الإله الذي ظهر لإبراهيم يظهر لنا، ويعدنا أن يعطينا الأرض التي حول السنديانة العليا لذرية نفوسنا الروحية (تك ١٢: ٦).

أيضًا يلتزم من يفهم الوصية: "**تعملون أعمال إبراهيم**" [٣٩] أن يبني مذبحًا للرب الذي يظهر لنا حيث توجد البلوطة العليا، ثم يرحل من البلوطة العليا إلى الجبل. الجبل في شرق بيت إيل التي تعني "بيت الله". لهذا فإنه ينصب خيمته عند بيت إيل في الغرب وعاي في الشرق، عاي تعني أعيادًا...

إن كنتم أبناء إسحق اعملوا أعمال إسحق، وهكذا بالنسبة ليعقوب وكل الآباء القديسين. وعلى العكس **كل شخصٍ يخطئ يُدعى من جهة الجنس أنه ابن إبليس، حيث أن من يخطئ هو مولود من إبليس** (١ يو ٣: ٨)...

لهذا تقولون أن كل شخص سيذهب إلى آبائه عندما يخلص من هذه الحياة، إذ يلزمنا عند وقت الرحيل أن يُقال ليس لإبراهيم وحده بل لكل البشر: "وأما أنت فتمضي إلى آبائك" (تك ١٥: ١٥). غير أن لا يُقال "بسلام" (تك ١٥: ١٥) لكل الناس في ذلك الحين وإنما للقديسين، إذ يحتفظون بشيخوخة صالحة. يُقال هذا للذين تكملوا وتمتعوا برحلة روحية طويلة إذ "الفهم بالنسبة للبشر هو الشيبة" (حك ٤: ٩)، والشيبة هي إكليل الافتخار (أم ١٦: ٣١). والشيبة التي تزينهم هي مجد للشيوخ الصالحين بالحق[1].

العلامة أوريجينوس

❖ "**أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم، لكنكم تطلبون أن تقتلوني، لأن كلامي لا يمسك بكم**"... إنني أعرف أنكم ذرية إبراهيم حسب الأصل الجسدي، وليس بالقلب المؤمن. لو أُخذ كلامي لأمسك بكم، ولو أمسك بكم لكان يُمسك بكم كالسمك في شباك الإيمان. إذن ماذا يعني "**لا يُمسك بكم**"؟ لا يمسك

[1] *Commentary on John, Book 20:67 etc.*

بقلوبكم لأنها لا تقبله. فإنه هكذا هي كلمة الله، وهكذا يجب أن تكون بالنسبة للمؤمنين، إنها كالصنارة بالنسبة للسمكة. إنها تأخذ السمكة حين تأخذها السمكة. لا يحل ضرر ما بمن يُمسك بهم إذ يُمسكون للخلاص وليس للدمار... أما هؤلاء فإنهم ورثوا الجنس الجسدي، لكنهم صاروا منحلين عنه بعدم إقتدائهم بإيمانه كأبناء له[1].

القديس أغسطينوس

٥. البنوة لله والبنوة لإبليس

"أنا أتكلم بما رأيت عند أبي،

وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم". [٣٨]

إذ كان اليهود يفتخرون بأنهم أبناء إبراهيم، من نسله حسب الجسد، قدم لهم نفسه أنه هو ابن الله بالطبيعة، ويود أن يرتبطوا به ليتمتعوا بالبنوة لله بالنعمة عوض ما بلغوا إليه من بنوة لإبليس. هم يريدون قتله مع أنه ابن الله بالطبيعة، وبفعلهم هذا يؤكدون أنهم نالوا التبني لإبليس.

ما يتكلم به السيد المسيح هو الحق الأبدي الذي يراه في حضن أبيه، لأنه هو كلمة الله.

توجد أسرتان لن تتحدا: الله وأبناؤه، وإبليس وأبناؤه. لا يقدر أحد أن ينتسب للأسرتين معًا، فإنه إذ يقبل الواحدة يقاوم الأخرى بالضرورة، حتى وإن لم تكن المقاومة علنية.

ما يقدمه السيد المسيح ليس فقط ما يسمعه من الآب بل **ما يراه**، لأنه كائن في حضن الآب يراه، ما ينطق به الأنبياء هو بناء على ما يسمعوه من الله أو ما يرونه خلال رؤى، أما السيد المسيح فهو الكلمة الإلهي ذاته، وهو الحق الإلهي نفسه.

❖ أنا بكلامي وبالحق أعلن عن الآب، هكذا لتفعلوا أنتم بأعمالكم. فإنه ليس لي فقط ذات الجوهر مع الآب بل وذات الحق معه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لكن إبراهيم أيضًا وُلد وسط الجنس البشري، كثيرون كانوا قبله وكثيرون بعده. أنصت إلى صوت الآب إلى الابن: "قبل لوسيفر ولدتك" (مز ١١٠: ٣ *Vulgate*). لقد وُلد الذي ينير الكل قبل لوسيفر (إش ١٤: ٢٧)... لماذا يذكر لوسيفر؟ لأنه إذ استنار أنار. ولماذا صار مظلمًا؟ لأنه لم

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 1.*
[2] *Hom 54. PG 59:318.*

يثبت في الحق (يو ٨: ٤٤)[1].

❖ "**أنا أتكلم بما رأيت عند أبي، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم**" [٢٨]. أنا أرى الحق؛ أنا أنطق بالحق، لأني أنا هو الحق. **فإنه إذ يتكلم الرب بالحق الذي يراه عند الآب إنما يرى نفسه، ويتكلم بنفسه الذي يراه عند الآب**. لأنه هو الكلمة، وكان الكلمة عند الله (يو ١: ١). الشر الذي يفعله هؤلاء الناس والذي يعنفه الرب ويمنعه، أين رأوه؟ عند أبيهم... هنا يتحدث عن أب آخر لهم، هذا الذي لم يلدهم ولا خلقهم ليصيروا بشرًا. ومع هذا فهم أبناؤه بكونهم أشرارًا وليس بكونهم بشرًا. إنهم أبناؤه لأنهم يتمثلون به، وليس خُلقوا بواسطته[2].

القديس أغسطينوس

"**أجابوا وقالوا له:**

أبونا هو إبراهيم.

قال لهم يسوع:

لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم". **[٣٩]**

للابن طبيعة أبيه، بالطبيعة يتمثل به. فكان يليق بهم إن كانوا بالحق أبناء إبراهيم أن يحملوا إيمانه وطاعته وبره، لا أن يقتلوا من يتكلم بالحق، الأمر الذي لم يكن ممكنًا لإبراهيم أن يمارسه. بهذا حرموا أنفسهم من الانتساب له روحيًا.

❖ هنا يعالج موضوع نيتهم للقتل مشيرًا إلى إبراهيم. وهو بهذا يود أن يسحبهم من انشغالهم بالانتساب لإبراهيم ونزع الكبرياء عنهم ليحثهم بالأكثر للرجاء في الخلاص لا في إبراهيم ولا بعلاقتهم الطبيعية به، وإنما في التمتع بإرادته (البارة). لأن ما كان يعوقهم عن المجيء إلى المسيح هو هذا، أنهم كانوا يظنون أن هذه العلاقة تكفي لخلاصهم[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**أجابوا وقالوا له: أبونا هو إبراهيم**" [٣٩]، كما لو أنهم يقولون: ماذا تقول ضد إبراهيم؟ أو إن كنت تستطيع تجاسر وأظهر خطأ في إبراهيم. لم يكن الرب غير قادر أن يتجاسر ويجد خطأ في إبراهيم، ولكن إبراهيم ليس بالشخص الذي يريد الرب أن يُظهر له خطأ بل يزكيه. أما هؤلاء فيبدو

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 3:7.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 2.*
[3] *Homilies on St. John 54: 2.*

أنهم أرادوا أن يتحدوه كي يتكلم بشرٍ عن إبراهيم فيجدوا فرصة ليتمموا مقاصدهم[1].

القديس أغسطينوس

"ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني،
وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله،
هذا لم يعمله إبراهيم". [٤٠]

❖ الذين يطلبون أن يقتلوه يطلبون أن يقتلوا إنسانًا، فإنهم إن قتلوه لا يُقتل الله (اللاهوت). وإذ أرادوا أن يقتلوه ولم يقتلوه تآمروا ضده كما ضد إنسانٍ، غير مدركين أن الذين يتآمرون ضده هو الله، إذ لا يمكن لأحد أن يود الاستمرار في التآمر ضده لو أنه اقتنع أن الذي يتآمر ضده هو الله[2].

❖ ربما يقتلون جسم الكلمة، فإنه من الواضح أنهم بعد لا يقدرون أن يفعلوا شيئًا. لهذا يلزمنا ألا نخاف من الذين يقتلون الجسم وبعد ذلك لا يقدرون أن يفعلوا شيئًا، ولا نخاف الذين يقتلون الجسم ولا يقدرون أن يقتلوا النفس التي للكلمة[3].

❖ ليت العبارة: "لا أحيا أنا بل المسيح يحيا فيّ" (غلا ٢: ٢٠) تنطبق ليس على الذين جاءوا من بعده فقط بل وعلى الذين سبقوه. ألاحظ أيضًا في قول المخلص: "إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، لكنه ليس إله أموات بل إله أحياء" (مت ٢٢: ٣٢)؛ ربما تعني أن إبراهيم وإسحق ويعقوب هم أحياء لأنهم هم أيضًا دفنوا مع المسيح وقاموا معه (١ كو ٢: ١٢؛ رو ٦: ٤). لكن ليس لم يحدث هذا بأية وسيلة في وقت دفن المسيح جسمانيًا ولا قيامته الجسمانية. هذه هي ملاحظتنا على العبارة: "هذا لم يعمله إبراهيم" [٤١][4].

العلامة أوريجينوس

❖ لم يكن إبراهيم قاتلاً. أقول هذا، أنا رب إبراهيم، وحين أقول هذا أقول الحق... أنا أعلم أنكم ذرية إبراهيم. إنه لم ينكر أصلهم، لكنه يدين أفعالهم[5].

❖ نحن نأتي من أممٍ أخرى، لكننا إذ نتمثل به نصير أبناء إبراهيم. اسمعوا الرسول: "وأما المواعيد

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 3.*
[2] *Commentary on John, Book 20:80.*
[3] *Commentary on John, Book 20:81 – 82.*
[4] *Commentary on John, Book 20:93.*
[5] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 3.*

فقيلت في إبراهيم وفي نسله. لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحدٍ، وفي نسلك الذي هو المسيح... فإن كنتم للمسيح فأنتم إذًا نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة" (غلا ٣: ١٦، ٢٩). لقد صرنا نسل إبراهيم وجعلنا الله ورثة معه. لقد نزع الميراث عن السابقين، وتبنى اللاحقين. لقد قطع الأغصان الطبيعية الجافة عن شجرة الزيتون التي أصلها في البطاركة وطعَّم زيتونة البرية الوضيعة (رو ١١: ١٧)[1].

القديس أغسطينوس

يعلق **القديس أغسطينوس** على هذه العبارة قائلاً بأن القديس يوحنا المعمدان كسر تشامخ اليهود القادمين إليه المعتزين بأنهم نسل إبراهيم دون الاقتداء به، موضحًا أن الله قادر أن يقيم من الحجارة أولادًا لإبراهيم (مت ٣: ٧–٩). [إن لم تحملوا ثمارًا تليق بالتوبة فلا تتنفخوا بمثل هذا النسب. فإن الله قادر أن يدينكم دون أن يحرم إبراهيم من الأبناء. فإن لديه طريق يقيم به أبناء لإبراهيم. الذين يتمثلون بإيمانه يصيرون أبناءه. "الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم" مثل هؤلاء هم نحن. كنا في آبائنا حجارة عندما عبدنا الحجارة كإله لنا. من هذه الحجارة خلق الله عائلة لإبراهيم[2].]

"**أنتم تعملون أعمال أبيكم.**

فقالوا له إننا لم نولد من زنا،

لنا أب وأحد وهو اللَّه". **[٤١]**

كشف السيد المسيح لهم عن حقيقة مخفية عنهم وهي أنهم بأعمالهم هذه يحملون البنوة لإبليس القتَّال منذ البدء الذي لم يثبت في الحق [٤٤].

ربما قصد اليهود بذلك أنهم ليسوا من نسل إسماعيل ابن الجارية، إنما من نسل إسحق ابن سارة الحرة. كما أنهم ليسوا من نسل موآب أو أدوم الذين وَلدوا خلال علاقة أثيمة بين نوح وبنتيه.

❖ لا يقف الأمر عند العود والحجارة بل اختار الإنسان حتى الشيطان مهلك النفوس ليكون أبًا له. لهذا إنتهرهم الرب قائلاً: "**أنتم تعملون أعمال أبيكم**" أي الشيطان، أب البشر بالخداع لا بالطبيعة. فكما صار بولس بتعليمه الصالح أبًا للكورنثيون، هكذا دُعي الشيطان أبًا للذين وافقوه بإرادتهم (مز ٥٠: ١٨)[3].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 5.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 5.*

[3] مقال ٧: ١٣.

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ إذ نخطئ ففي هذا نحن لم ننتزع بعد مولدنا من إبليس، حتى وإن كنا نظن أننا نؤمن بيسوع. لهذا يقول يسوع لليهود الذين آمنوا: "**أنتم تعملون أعمال أبيكم**". كلمة "**أب**" تعني إبليس كما جاء في العبارة: "أنتم من أب هو إبليس" [٤٤].

❖ هذه الكلمات توضح تمامًا أن الشخص ليس ابنا لإبليس كثمرة للخلقة، ولا يُقال عن أي إنسان أنه ابن الله لأنه خُلق هكذا.

كما هو واضح أيضًا أن الذي كان قبلاً يُدعى ابنًا لإبليس يمكنه أن يصير ابن الله. أعلن أيضًا (الإنجيلي) متى ذلك عندما سجل قول المخلص هكذا: "سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي **تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات**" (مت ٥: ٤٣-٤٥)[1].

❖ إن كان كل من يثبت فيه لا يخطئ، فإن من يخطئ لا يثبت في الابن. وإن كان كل من يخطئ لا يراه، فإن من يراه لا يخطئ[2].

❖ المولود من الله لا يخطئ. لكن بالحقيقة لم يُكتب أن المولود من إبليس لا يصنع البرّ، وإنما من يصنع الشر هو من إبليس[3].

❖ يقول البعض أن بعض الكائنات المخلوقة هي من الله وهي ليست قط مولودة من الله. هذه الكائنات حتمًا أقل رتبة في المسكونة من الذين يُقال عنهم انهم مولودون من الله[4].

❖ المولود من الله لا يخطئ لأن بذرة الله تثبت فيه، من خلال قوة هذه البذرة الموجودة فيه تظهر فيه سمة عدم إمكانية أن يخطئ. وقد قيل في نهاية كلمات الرسالة: "كل من وُلد من الله لا يخطئ، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه" (١ يو ٥: ١٨).

❖ إن كان أبناء إبراهيم يعملون أعمال إبراهيم، وأول هذه الأعمال هي أن يذهب من أرضه وعشيرته ومن بيت أبيه ويرحل إلى الأرض التي يريه الله إياها، لهذا فإن سبب توبيخ من وُجهت إليهم هذه

---

[1] *Commentary on John, Book 20:106.*
[2] *Commentary on John, Book 20:109.*
[3] *Commentary on John, Book 20:114.*
[4] *Commentary on John, Book 20:118.*

الكلمة بأنهم ليسوا أبناء إبراهيم، إذ لم يخرجوا من بيت أبيهم، فلا يزالوا ينتمون إلى الأب الشرير ويعملون أعمال ذاك الأب[1].

❖ إذ قال المخلص إن الله هو أبوه (يو ٥: ١٨) ولم يعرف رجلاً بأنه أباه، فلذلك قالوا: "**إننا لم نولد من زنا**" لمقاومته، مضيفين: "**لنا أب واحد وهو الله**" [٤١]. وكأنهم يقولون له: "إننا نحن الذين لنا أب واحد وهو الله وليس أنت يا من تدعي أنك وُلدت من بتول، فأنت وُلدت من زنا.

إنك تفتخر أنك وُلدت من عذراء بقولك أن لك الله وحده هو أبوك. نحن الذين نعرف الله كأب لنا لا ننكر أنه لنا أب بشري"[2].

العلامة أوريجينوس

❖ إذ أدرك اليهود أنه لا يتحدث عن نسبهم الجسدي لإبراهيم بل عن سلوكهم، وهم يعلمون أن السلوك الشرير هو انحراف عن الله، وبالتالي يسقطون في الزنا الروحي، لهذا تركوا الحديث عن نسبهم لإبراهيم لأنهم فشلوا في الإقتداء به، وقالوا له: "**إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحد وهو الله**" [٤١].

❖ أنتم تدعون الله أبًا، لتعرفوني إذن على الأقل كأخٍ لكم. وفي نفس الوقت أعطاهم حافزًا لقلوب الأذكياء بذكر ما اعتاد أن يقول: "لم آتِ من نفسي، هو أرسلني. أنا خرجت وأتيت من الله"... لقد جاء من عنده بكونه الله المساوي له، الابن الوحيد، كلمة الآب، جاء إلينا، لأن الكلمة صار جسدًا لكي يحل بيننا. مجيئه يشير إلى ناسوته، الذي هو سكناه، و إلى لاهوته. إنه بلاهوته ذاك الذي بناسوته يجعلنا نتقدم. لو لم يصر هكذا لكي ما نتقدم ما كنا قط نقتنيه ذاك الذي يبقى إلى الأبد[3].

❖ يقول: "لماذا لم تفهموا كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا كلمتي"... ولماذا لم يقدروا أن يسمعوا، إلاَّ لأنهم رفضوا أن يسلكوا حسنًا بالإيمان به؟ ولماذا هذا؟ "لأنكم من أبيكم الشيطان. إلى متى تحتفظون بالحديث عن أبٍ؟ إلى متى تغيرون آباءكم – تارة أبوكم هو إبراهيم، وأخرى هو الله. اسمعوا من الابن أبناء من أنتم: "**أنتم من أبيكم إبليس**"[4].

❖ لماذا أنتم أبناؤه؟ من أجل شهواتكم وليس لأنكم وُلدتم منه.

---

[1] *Commentary on John, Book 20:126.*
[2] *Commentary on John, Book 20:130.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 8.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 9.*

ما هي شهواته؟ "**إنه قتال من البدء**". هذا ما يوضح: "**شهوات أبيكم تفعلوا**". "أنتم تطلبون أن تقتلونني، الإنسان الذي يخبركم بالحق".

للشيطان إرادة شريرة نحو الإنسان، ويقتل الإنسان. فإن الشيطان في إرادته الشريرة نحو الإنسان أخذ شكل الحية، وتحدث مع المرأة، ومن المرأة بث سمه في الرجل. لقد ماتا باستماعهما للشيطان (تك ٣: ١)، هذان اللذان لو لم ينصتا له لسمعا للرب. لأنه كان يلزم للإنسان أن يطيع الخالق لا المخادع...

لقد دُعي الشيطان بالقتال، ليس كمن يتسلح بسيف ويلتحف بفولاذٍ.

جاء إلى الإنسان وبذر فيه اقتراحاته الشريرة وذبحه.

لا تظن إذن أنك لست بقاتلٍ عندما تغوي أخاك على الشر. إن كنت تغوي أخاك على الشر فإنك تذبحه. ولكي تعرف هذا أنك تذبحه أنصت إلى المزمور: "أبناء البشر أسنانهم حراب وسهام، ولسانهم سيف حاد" (مز ٥٧: ٤).

نعم أنتم تعملون شهوات أبيكم، ولهذا تندفعون بجنونٍ نحو الجسد، إذ لا تقدرون أن تسيروا حسب الروح.

"**إنه قتال منذ البدء**"، على الأقل في بداية البشرية.

منذ ذلك الوقت صارت إمكانية قتل الناس قائمة، فقط في الوقت الذي خُلق فيه الإنسان صار ممكنًا قتل البشر. فإنه ما كان يمكن قتل الإنسان لأنه لم يكن بعد قد خُلق...

ومن أين صار قاتلاً؟ **لأنه لم يثبت في الحق**.

إذن كان في الحق وسقط بعدم ثبوته فيه. ولماذا لم يثبت في الحق؟ لأن الحق ليس فيه مثل المسيح. فإن المسيح فيه الحق بطريقة ما، بحيث هو نفسه الحق. لو أنه ثبت في الحق لثبت في المسيح، لكنه لم يثبت في الحق، لأنه لا يوجد الحق فيه[1].

القديس أغسطينوس

"**فقال لهم يسوع:**
لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني،
لأني خرجت من قبل الله وأتيت،
لأني لم آت من نفسي،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 10: 11.*

بل ذاك أرسلني". [٤٢]

إن كانوا قد ظنوا أنهم أبناء الله لم يرتكبوا الزنا، لأنهم لا يعبدون الأوثان، إلاَّ أنهم برفضهم للسيد المسيح ومقاومتهم له أثبتوا ما هو على خلاف ذلك. إن كانوا يدافعون عن بنوتهم لله فليدركوا أن الأمة اليهودية كأمٍ لهم قد فقدت اتحادها بالله بسبب الخطية وطُلقت: "هكذا قال الرب: أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها؟ هوذا من أجل آثامكم قد بُعتم ومن أجل ذنوبكم طُلقت أمكم" (إش ٥٠: ١). فما قيل لآبائهم في عصر إشعياء يُقال لهم الآن بسبب عبوديتهم للخطية.

أما قوله: "**خرجت من قِبَل الله**" فيختلف معنى الكلمة حسب حرف الجر اليوناني الملحق بها. فإن جاء الحرف apo بالابتعاد كنوع من التغرب الملحق بها. فإن جاء الحرف para فتحمل معنى المرافقة بجانب الكائن، وأما إن لحق بها حرف ek فهي خروج من الداخل مع البقاء في الجوهر. **وقد جاءت القراءات اليونانية الصحيحة هنا هكذا تلحق حرف ek لتعني خروج الكلمة دون انفصاله عن الآب في الجوهر، فمجيئه إلى عالمنا لم يعزله عن ذات الجوهر الإلهي الواحد.**

❖ يظهر من كل جانب أنه ليس ضد الله، وأنه ليس بسبب هذا لا يؤمنون، وإنما لأنهم كانوا غرباء عن الله، لأنه عندما يقول أنه لم يفعل خطية، وقال أنه خرج من عند الله ومُرسل من عنده، ويقول الحق... وبعد هذا لا يؤمنون به فواضح أنهم لا يؤمنون لأنهم جسدانيون[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد خرج من قبل الله وبعد خروجه لا يزال في الله[٢].

❖ واضح أن هؤلاء القوم حسبوا أن للآب موضع مادي، وأن الابن قد جاء إلى الحياة بتغيير موضعٍ بموضعٍ آخر بمعنى مادي، وليس بتغيير الحالة إلى حالة أخرى كما نفهم نحن[٣].

العلامة أوريجينوس

❖ من يصدر عن الآب ويخرج من عند اللَّه لا يمكن أن يُنسب له إلا ما يليق باللَّه[٤].

القديس أمبروسيوس

"لماذا لا تفهمون كلامي؟

---

[1] *Hom 54. PG 59:319-320.*
[2] *Commentary on John, Book 20:156.*
[3] *Commentary on John, Book 20:159.*
[4] *Of the Holy Spirit Book 1:16:107.*

لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي". [٤٣]

يمكن للشخص الذي لم يكن قادرًا أن يسمع كلمة يسوع أن يتمتع بالقدرة على استماعها مؤخرًا، حيث أن الإنسان لا يقدر أن يسمع ما دام سمعه لم يُشفَ بعد بالكلمة الذي يقول للأصم: "انفتح" (مر ٧: ٣٤)[1].

إذ تطلب كلمة المسيح قلوبهم لتنزع عنها كبرياءها ورياءها، وتحطم الفساد الذي فيها، وتقدس إرادتهم، صمموا ألا يتركوا الشر، بهذا صارت كلمة المسيح بالنسبة لهم غامضة لا معنى لها، وغير واقعية بالنسبة لهم.

❖ عدم القدرة على الاستماع ليس ثمرة طبيعية لا يُمكن شفائها[2].

❖ يشير الكذب إلى خصم ذاك الذي قال: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). هذا هو ضد المسيح، الذي أبوه هو كذاب بكونه إبليس[3].

العلامة أوريجينوس

"أنتم من أب هو إبليس،
وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.
ذاك كان قتالاً للناس من البدء،
ولم يثبت في الحق،
لأنه ليس فيه حق،
متى تكلم بالكذب، فإنما يتكلم مما له،
لأنه كذاب وأبو الكذاب". [٤٤]

لو لم يقاوموه بإصرار في حوارهم لما أعلن لهم: "**أنتم من أب هو إبليس**" فهو لا يود أن يجرح مشاعر أحد، لكن إصرارهم على المغالطة والمقاومة والرغبة في قتل الحق جعله يحدثهم علانية عن هذه البنوة لإبليس لعلهم يدركون حقيقة أنفسهم ويرجعون عن موقفهم الشرير.

جاءت كلمة "**تريدون**" في اليونانية تحمل الإصرار المستمر في تنفيذ ما يريدونه، وهذه سمة عدو الخير المصمم على شره، العنيد، والمقاوم للحق حتى النهاية. إنه يسكب هذه السمة على من يقبل

---

[1] *Commentary on John, Book 20:164.*
[2] *Commentary on John, Book 20:165.*
[3] *Commentary on John, Book 20:173.*

أبوته له. على نقيض ذلك نجد في أبناء الله روح الطاعة والوداعة.

إذ هم ليسوا أبناء الله، لأنهم يكرهون ابنه الحبيب ويطلبون قتله فبالضرورة هم أبناء إبليس، لأن العالم البشري منقسم إلى فريقين، فريق يمثل مملكة الله، والآخر مملكة إبليس.

يعمل إبليس في أبناء المعصية (أف ٢: ٢)، الذين يدعون نسل الحية (تك ٣: ١٥)، أبناء الشرير (مت ١٣: ٣٨). يشاركونه طبيعته الشريرة، ويحملون صورته، ويطيعون ناموسه، ويتمثلون به.

هذا الاتهام خطير جدًا يصعب على أي إنسان أن يقبله، فكيف إن وجه إلى شعب يظن أنه الشعب الوحيد المتعبد لله، والذي يعتز بلقبه "شعب الله"؟ لذلك قدم لهم السيد برهانًا عمليًا على ما يقوله، وهو "**وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا**". كأنه يقول لهم: "إنكم تسرونه، وتتممون تجاربه، وتحققون أهدافه فيكم". أهم سمتين لإبليس هما: القتل لأنه ضد الله "الحب"، والكذب لأنه مقاوم للحق. وها هم يتممون الأمرين، إذ يطلبون قتل ابن الله، ويرفضون الحق ويقاومونه. هكذا صاروا قتلة أبناء القتّال وكذبة أبناء أبي الكذابين.

إنه قتّال منذ البدء، فقد خدع حواء بالحية وآدم بواسطة حواء، ودمَّر حياتهما وقتلهما روحيًا وجسديًا، إذ دخل الموت إلى العالم. وبث في قايين روح القتل فقتل أخاه هابيل. هذا هو فكر اليهود أنفسهم، إذ جاء في *Sohar Kadash* عن الأشرار أنهم يدعون: "أبناء الحية القديمة التي ذبحت آدم ونسله".

يتكلم إبليس مما له، أي من الكذب الذي فيه. هكذا تكلم خلال الحية، فخدع حواء وأخرجها من الحق. عندما ينطق إنسان بالكذب إنما يتكلم بما لإبليس ويكون له فمًا.

❖ لقد أخرجهم السيد المسيح من قرابتهم لإبراهيم، ولما تجاسروا على أعظم منها وقالوا "**لنا أب واحد وهو الله**" [٤١] حينئذٍ ألقى بالضربة عليهم، إذ قال أنهم ليس فقط ليسوا مولودين من إبراهيم لكنهم مولودون من إبليس [٤٤].

❖ يستخدم الناس الكذب ليس كأمرٍ لائقٍ بهم بل غريب عنهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا تقدر شجرة جيدة أن تأتي بثمر رديء، ولا شجرة رديئة أن تأتي بثمر جيد[2].

---

[1] *Hom 54. PG 59:319.*
[2] *Against Jovinianus, 2:18.*

القديس جيروم

❖ ليس كل شخص ينطق بكذب هو أب لكذبه، فلو أنك تسلمت أمرًا كذبًا من شخص ونطقت بما سمعته، فأنت بالحق تنطق بالكذب، لكنك لست أبًا لهذا الكذب، لأنك تسلمته من آخر. أما الشيطان فكان كاذبًا من ذاته. لقد ولد ما يقوله باطلاً، الأمر الذي لم يسمعه من أحدٍ. **كما أن الآب ولد الحق ابنًا له، هكذا الشيطان إذ سقط ولد الباطل ابنًا له**... لتنسحب إذن من أب الكذب، ولتسرع إلى أب الحق، احتضن الحق، فتتمتع بالحرية[1].

القديس أغسطينوس

❖ **الشيطان هو المصدر الأول للخطية وأب الأشرار**. هذا القول ليس من عندي بل هو قول الرب. "لأن إبليس من البدء يخطئ" (١ يو ٣: ٨؛ يو ٨: ٤٤)... لكنه لم يخطئ عن إلزام، كأن فيه نزوع طبيعي للخطية، وإلا ارتدت علة الخطيئة إلى خالقه أيضًا. وبإرادته الحرة صار إبليس متقبلاً هذا الاسم من عمله.

كان رئيس ملائكة، لكنه دُعي "إبليس" بسبب أضاليله.

كان خادم اللُه الصالح، وقد صار مدعوًا شيطانًا بحق، لأن "الشيطان" يعني "الخصم".

هذا التعليم ليس من عندي، بل هم تعليم حزقيال النبي الموحى به، إذ رفع مرثاة عليه قائلاً: "كنت خاتم صورة اللُه، وتاج البهاء، وُلدت في الفردوس" (راجع حز ٢٨: ١٢-١٧).

يعود فيقول بعد قليل: "عشت بلا عيب في طرقك من يوم خُلقت حتى وجُد فيك إثم".

إنه بحق يقول: "حتى وُجد فيك إثم"، إذ لم يُجلب عليه من الخارج بل هو جلبه لنفسه. وللتو أشار إلي السبب قائلاً: "قد ارتفع قلبك لجمالك، بسبب كثرة خطاياك طُعنت، فطرحت على الأرض". يتفق هذا القول مع قول الرب في الإنجيل: "رأيت الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء" (لو ١٠: ١٨).

ها أنت ترى اتفاق العهدين القديم والجديد!

عندما طُرد سحب معه كثيرين، إذ يبث الشهوات فيمن ينصتون إليه، منه تنبع الدعارة والزنا وكل أنواع الشر. خلاله طُرد أبونا بسبب العصيان، وتحول عن الفردوس ذي الثمر العجيب إلى الأرض المنبتة شوكًا[2].

القديس كيرلس الأورشليمي

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 1 3.*

[2] مقال ٢: ٤.

❖ يشير إلى كل الذين يكذبون، فحينما يُنطق بالكذب على فم كل كذاب "يتكلم مما له"، أي من الكذب. بالإضافة إلى ذلك جاءت العبارة: "أبوه هو كذاب" (راجع يو ٨: ٤١)، مشيرًا إلى حقيقة أن كل واحد يجلب كذبًا من فمه هو أب للكذب الذي ينطق به[١].

❖ إنه ليس بالأمر المنافي للعقل تأكيد أن شهوات إبليس هو القتل وممارسة الظلم والطمع، إذ يوَّلد شهوات مشابهة في أبنائه. أيضًا ليس بالأمر السخيف القول بصفة عامة أن شهوات الشيطان هي الأعمال الدنسة المقاومة في طبيعتها للطهارة، وليس من الصعب الاعتقاد بأن شهوات إبليس هذه تثير شهوات أبناء إبليس نحو الأمور النجسة[٢].

❖ نحن نعلم أن كل من يريد أن يمارس شهوات إبليس لا يمكن أن يكون الله أباه، بل يصير ابن إبليس، ويتشكل حسب الرغبة في ممارسة شهوات الشرير، ويصير في صورة الأب الشرير الذي منه تخرج ذاك الإنسان الترابي وتتقبل أختامها، لأن هذا الإنسان الأول هو من التراب (١ كو ١٥: ٤٧-٤٩)[٣].

❖ إن كنا نعمل أعمال الله ونشتهي أن نعمل رغباته، فنحن أبناء الله. لكن إن كنا نعمل أعمال إبليس ونشتهي أن نمارس شهواته، فإننا من أبينا إبليس. لهذا وجب أن نتيقظ ليس من جهة ما نفعله فقط بل وأيضًا ما نشتهيه. فإن **اشتهاء ممارسة شهوات إبليس تكفي أن تجعلك ابنه**[٤].

❖ مات آدم وحواء في الحال في اليوم الذي فيه أكلا من الشجرة الممنوعة. ليس أحد سوى إبليس القتَّال هو الذي قتلهما عندما خدع حواء خلال الحية، وأعطت حواء زوجها من الشجرة فأكل (تك ٣: ١-٦)[٥].

❖ دُعي بحق قتَّالاً، ليس لأنه قتل أفرادًا معينين، وإنما لأنه قتل كل الجنس البشري، إذ "في آدم مات الجميع" (١ كو ١٥: ٢٢)[٦].

❖ من جانب قتلنا القتَّال، ولكن بنعمة الله نحن دُفنا مع المسيح وقمنا معه، إن صرنا بالحقيقة نشاكل

---

[1] *Commentary on John, Book 20:175.*
[2] *Commentary on John, Book 20:177.*
[3] *Commentary on John, Book 20:181.*
[4] *Commentary on John, Book 20:193 – 194.*
[5] *Commentary on John, Book 20:221.*
[6] *Commentary on John, Book 20:224.*

قيامته، ونسلك في جدة الحياة. (رو ٦: ٤)[1].

❖ الآن يحكم القتَّال الذين يهلكون، يدير الموتى، لكنه لا يقدر أن يحكم أحدًا من الأحياء[2].

❖ حث الرب موسى أن يثبت على هذا، أي في الحق، قائلاً له: "هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة" (خر ٣٣: ٢١). فإن كانت الصخرة هي المسيح (١ كو ١٠: ٤)، ويقول المسيح: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦)، فيكون القول "تقف على الصخرة" تعادل "تقف على الحق". هذا يمكن أن يحدث فقط للشخص بعد محاولات كثيرة في صعوبات[3].

❖ إن كان أحد ليس بعد كذابًا، ويثبت في الحق، مثل هذا ليس بإنسان بل يقول له الله ولمن هم مثله: "أنا قلت أنكم آلهة، وبنو العلي كلكم" (مز ٨١: ٦)، ولا تُضاف العبارة: "بالحقيقة تموتون كبشرٍ" (مز ٨١: ٧).

إن لم يثبت أحد في الحق، فمن الواضح أن إبليس القتال من البدء لا يثبت في الحق... وقد جاء السبب مُعبرًا عنه بعد ذلك: "**لأنه ليس فيه حق**". أما السبب أن الحق ليس فيه فهو أنه خُدع ويقبل الكذب، وأنه خدع نفسه بنفسه. على هذا الأساس حُسب أشر من كل بقية المخدوعين، إذ خُدعوا بواسطته، أما هو فخلق الخداع لنفسه[4].

❖ قد يقول قائل أن عبارة: "**ليس فيه حق**" تعني أنه ليست له شركة مع المسيح، هذا الذي يثير حروبًا ضده.

يقول آخر بأنه من أجل أنه لا يوجد فيه حق قط، بل هو مخدوع في كل شيء. والسبب أنه هو إبليس وهو شرير، وأشر من كل أحدٍ آخر يخطئ.

إذ يوجد بين جماهير الخطاة شيء من الحق وسط أمور كثيرة خاطئة، لكن لا يوجد حق قط في إبليس.

ويتفق فريق ثالث مع البقية ويقولون أنه من الاستحالة أن يوجد كائن عاقل متمسك برأي خاطئ في كل شيء، ولا يقبل الحق في أي أمر حتى ولو في أمر صغير، فعندما يفكر إبليس في نفسه فعلى الأقل يتمسك برأي صادق أنه كائن عاقل، وإن هذا الكائن إنسان، وأن هذا جسم الخ.[5]

---

[1] *Commentary on John, Book 20:226.*
[2] *Commentary on John, Book 20:227.*
[3] *Commentary on John, Book 20:240.*
[4] *Commentary on John, Book 20:242 – 244.*
[5] *Commentary on John, Book 20: 248 – 250.*

❖ يلزمنا أن نفهم العبارة: "**لا يثبت في الحق**" أنها لا تشير إلى نوع معين من الطبيعة، كما لا تعني أنه كان من المستحيل عليه أن يثبت في الحق[1].

العلامة أوريجينوس

❖ كل من هو من اللّه يعد أخًا لنا، أما الذي يرفض الاشتراك في أعمال الصلاح بكامل إرادته إنما هو يبث الشر. إذ يصير "أبو الكذَّاب" (يو ٨: ٤٤)، فقد أعدَّ نفسه لمحاربة كل من اختار أن يعيش في الصلاح[2].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ يجب على كل أحدٍ أن يعطى اهتمامًا عظيمًا لئلا يسلبه "الكذب"، لأن **الكذاب لا يتحد مع اللّه.**

الكذاب غريب عن اللّه. ويقول الكتاب المقدس بأن الكذاب هو من الشيطان، إذ هو "كذاب وأبو الكذاب" (يو ٨: ٤٤).

هكذا دعي الشيطان أبو الكذاب، أما الحق فهو اللّه، إذ يقول بنفسه: "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو ١٤: ٦).

أما ترون إذن كيف أننا نصير غرباء عن اللّه بالكذب وبمن نتحد **(عن طريقه)؟!** لذلك إن أردنا بحق أن نخلص، يلزمنا أن نحب الحق بكل قوتنا وكل غيرتنا، ونحرس أنفسنا من كل كذب، حتى لا يفصلنا عن الحق والحياة[3].

الأب دوروثيئوس

"**وأما أنا فلأني أقول الحق، لستم تؤمنون بي**". **[٤٥]**

إذ جاءهم "**الحق**" لم ينصتوا إليه، وكما قيل: "قد ارتد الحق إلى الوراء، والعدل يقف بعيدًا. لأن الصدق سقط في الشارع، والاستقامة لا تستطيع الدخول، وصار الصدق معدومًا" (إش ٥٩: ١٤-١٥). "أولئك يكونون بين المتمردين على النور، لا يعرفون طرقه، ولا يلبثون في سبله" (أي ٢٤: ١٣).

❖ يبدو أنهم آمنوا به على أساس ما هو منظور إذ صنع عجائب، لكنهم لم يؤمنوا به بسب أقواله

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 252.*

[2] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، ١٩٩٣، عظة ٢.

[3] *Philokalia, Book 1.*

العميقة[1].

العلامة أوريجينوس

❖ لقد جعل المتكلم هنا من نفسه طفلاً صغيرًا أمام اللّه، فقد اختاره ليكون له أبًا وأمًا. إنه أبوه لأنه خلقه، وهو أمه لأنه يهتم به ويربيه ويقوته ويرضعه ويقول بتربيته.

لنا أب آخر وأم أخرى... فحينما كنا عديمي الإيمان، كان الشيطان أبانا (يو ٨: ٤٤)، وكانت لنا أم أخرى (هي بابل)... لكننا تعرفنا على أب هو اللّه... وأم هي أورشليم السماوية، الكنيسة المقدسة التي لا يزال جزء منها متغربًا على الأرض...

بعيدًا عن الأب والأم، أي بعيدًا عن الشيطان وبابل، يستقبلنا اللّه كأولادٍ له ليعزينا بأمور لا تفنى، ويباركنا بالباقيات...

المسيح رأسنا هو في السماء؛ ولا يزال أعداؤنا قادرين على الهياج ضدنا، إذ لم نرتفع بعد عن متناول أيديهم، لكن رأسنا هناك في السماء فعلاً، وهو يقول: "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟" (أع ٩: ٤)، موضعه أنه هو فينا نحن الذين أسفل (على الأرض)، لكننا في نفس الوقت نحن فيه في العلا، إذ "يرفع رأسي على أعدائي" [٦].

القديس أغسطينوس

"من منكم يبكتني على خطية؟
فإن كنت أقول الحق،
فلماذا لستم تؤمنون بي؟" [٤٦]

كمقاومين للحق كانوا يفحصون كل كلمة وكل تصرف للسيد المسيح، لا ليتعرفوا عليه، وإنما لكي يجدوا علة عليه، لهذا سألهم: "**من منكم يبكتني على خطية؟**" هنا يضع الخطية مقابل الحق، وكأن الحق والبرّ واحد، كما أن الخطية والكذب أو البطلان هما واحد. الحق يظهر من ثمره الذي هو البرّ، كما ينفضح الكذب بثمره الذي هو الخطية.

كلمة "**يبكتني**" في اليونانية اصطلاح قانوني يحمل معنى إقامة الدليل ضد المتهم. فليس من يمكن أن يقف ضد يسوع المسيح، ولا من يشهد عليه. وأما الروح القدس فيبكت العالم (يو ١٦: ٨)، مقدمًا الدليل الثابت على خطيته، وسقوطه ضد الدينونة والحكم.

[1] *Commentary on John, Book 20: 274.*

❖ إنه ربنا وحده الذي لم يفعل خطية (١ بط ٢: ٢٢)، الذي جُرب في كل شيءٍ مثلنا بدون خطية (عب ٤: ١٥)، القادر أن يوجه هذه الكلمات لكل الذين يعرفونه. الآن افهم الكلمات: "**من منكم**" أنها قد قيلت ليس فقط للذين كانوا حاضرين، بل ولكل الجنس البشري، كمن يعرفها بمعنى: مَنْ مِنْ بين جنسكم؟ أو أي نوع من الإنسان يمكنه أن يتهمني بالخطية؟ تأكدوا أنه لا يوجد[1].

❖ على أي الأحوال يمكن للمخلص أن يقول هذا، ليس فقط للبشر، بل وأيضًا لإبليس والقوات الخاضعة له، إذ لا يستطيعوا أن ينطقوا باتهام ضده بالخطية. هذا القول بالحقيقة يتفق مع العبارة: "رئيس هذا العالم يأتي لا يجد فيّ شيء" (راجع يو ١٤: ٣٠)[2].

❖ ونحن أيضًا باجتهادٍ عظيمٍ يمكننا بعد فترة من الزمن أن نستعيد ثقتنا حتى في وقت خروجنا نقول لإبليس وملائكته الذين يطلبون فرصة ضدنا: "**من منكم يبكتني على خطية؟**"[3].

العلامة أوريجينوس

"**الذي من الله يسمع كلام الله،**
لذلك أنتم لستم تسمعون،
لأنكم لستم من اللَّه". **[٤٧]**

يقدم لهم اتهامًا آخر وهو أنهم ليسوا من الله لأنهم لا يسمعون لله. لقد سمع صموئيل صوت الرب بينما لم يستطع عالي الكاهن أن يسمع الصوت. هكذا صاروا كعالي الكاهن لا يسمعون صوته، ولا يفهمونه، ولا يتجاوبون معه، فهم ليسوا من الله.

❖ إن كان بولس بالطبيعة ابن الغضب (أف ٢: ٣)، فمن هو أفضل من هذا الذي في قوامه كان ابنًا للغضب، قبل أن يتقبل السلطان أن يصير ابنًا لله (يو ١: ١٢)، وقبل أن يصير هكذا؟ وإن كان الطريق الوحيد ليصير الشخص ابنًا للآب الذي في السماوات هو محبته للأعداء، وصلاته من أجل الذين يضطهدونه (مت ٥: ٤٤-٤٥)، فمن الواضح أنه ليس أحد يسمع كلمات الله لأنه بالطبيعة هو من الله، وإنما لأنه يتقبل السلطان أن يصير ابنا لله، ويستخدم هذا السلطان في وضع لائق، لأنه يحب أعداءه ويصلي من أجل مضايقيه، وقد صار ابنًا للآب الذي في السماوات. بهذا يصير أيضًا من الله، ويسمع كلمات الله، ويفهمها ويستوعب معرفتها. هذه سمات

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 277 – 278.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 281.*
[3] *Commentary on John, Book 20: 282.*

خاصة لا بالعبيد (رو ٨: ١٥)، وإنما بأبناء الله الذين جحدوا ميلادهم (من إبليس) من جانب، وقبلوا ميلادهم من الله بروح التبني (رو ١٥: ٨)[1].

❖ غالبًا عندما لا نسمع الكلمات التي ينطق بها الله، أي لا نفهمها، يلزمنا أن ندرك أننا نوَّبخ لأننا لسنا من الله. لأن من لا يسمع كلمات الله، إنما لأنه ليس من الله، وهو ليس من الله بناء على قراره هو، مع أنه أحيانا يتقبل السلطان ليصير ابنًا لله (يو ١: ١٢)، وهو قادر أن يصير ابنًا للآب الذي في السماء بحبه للأعداء وصلاته لمن يسئ إليه (مت ٥: ٤٤-٤٥؛ لو ٦: ٢٨)[2].

العلامة أوريجينوس

❖ هنا أيضًا ليس بسبب طبيعتهم كبشرٍ، وإنما بسبب فسادهم أنهم يفكرون هكذا. في هذا وهم من الله إلاَّ أنهم ليسوا من الله. بحسب الطبيعة هم من الله، وبسبب فسادهم ليسوا من الله[3].

❖ بنفس الطريقة هم أبناء إبراهيم وهم ليسوا أبناء إبراهيم... هم أبناء إبراهيم من جهة أصلهم الجسدي، وليسوا أبناءه بخصوص خطية اتباعهم لحث الشيطان لهم. هكذا أيضًا لنطبق هذا بخصوص ربنا وإلهنا، فإنهم كانوا منه وليسوا منه. كيف كانوا من الله؟ لأنه هو الذي خلق الإنسان الذين جاءوا منه... إنه المهندس الأعظم للطبيعة. هو خالق الجسد والروح. كيف أنهم ليسوا منه؟ لأنهم جعلوا أنفسهم فاسدين. لم يعودوا بعد منه، لأنهم اقتدوا بالشيطان فصاروا أبناء الشيطان[4].

القديس أغسطينوس

٦. اتهامه بالتجديف

"فأجاب اليهود وقالوا له:

ألسنا نقول حسنًا،

أنك سامري وبك شيطان؟" [٤٨]

إذ كشف لهم السيد المسيح عن شرهم، وأفحمهم في ادعائهم أنهم أبناء إبراهيم هاجموه بالاتهام أنه مجدّف ضد الشعب كما ضد الله. اتهموه أنه سامري أي عدو لليهود، وأن به شيطان كعدو لله.

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 291 – 293.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 309.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 15.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 42: 15.*

لم يكن يوجد لقب يعبر عن عداوة شخص لأمة اليهود كلها مثل "**سامري**". سبق أن دعوه جليليًا، ليعنوا بذلك إنه إنسان خسيس، أما دعوته سامريًا فيعني أنه مستحق للمحاكمة، لأنه عدو الأمة اليهودية. حسبوه خائنًا للوطن وللشعب، لأنه هكذا كان السامريون يدعون أن اليهود ليسوا أبناء إبراهيم ليشوهوا صورتهم ويفقدوهم حق دعوتهم "شعب الله"، وإلى قرون طويلة كان اليهود يدعون المسيحيين سامريين إشارة إلى العداوة من نحوهم. أما الاتهام الثاني فهو "**بك شيطان**": يرون تحالفًا بينه وبين الشيطان. فمن جهة تعليمه حسبوه سامريًا كمن هو منشق عنهم ومبتدع ومقاوم للناموس، وبه شيطان يصنع معجزات.

في إصرارٍ عجيب يؤكدون أنهم أصحاب علم ومعرفة، وأنهم خلال هذه المعرفة تأكدوا أن به شيطان. كيف؟ لقد تحدث الله مع إبراهيم والأنبياء، وسمع هؤلاء كلام الله وتحاوروا معه وسلكوا فيه ومع هذا ماتوا، فهل يكون كلام يسوع المسيح أعظم من كلام الله؟ هكذا كان منطقهم، وهكذا كانت ثمرة معرفتهم.

هنا يكشف رؤساء اليهود عن جهلهم، إذ لم يميزوا بين قول السيد "**يرى الموت**" وبين تعبير "**يذوق الموت**". فالسيد المسيح نفسه ذاق نعمة الله لأجل كل واحدٍ (عب ٢: ٩)، أما تعبير "**يرى الموت**" فيحمل معنى السقوط الدائم تحت سلطان الموت، والخوف منه، يتأمله الإنسان فيرتعب منه.

❖ يبدو أن البعض كانوا يرددون تعليقاتهم على المخلص فيما بينهم سريًا، ويدعونه "**سامريًا**"، وذلك مثل السامريين الذين يخطِّئون التقاليد اليهودية. لأن اليهود لا يعاملون السامريين (يو ٤: ٩)، إذ لا يتفقون معهم في تعاليم كثيرة[1].

❖ لكن يليق أن تسأل إذ ينكر السامريون الحياة العتيدة ولا يقبلون الوجود الدائم للنفس، كيف يتجاسرون ويدعون المخلص سامريًا، وقد علَّم بأمور كثيرة خاصة بالقيامة والدينونة؟ ربما قالوا هذا ليوبخوه، وليس لأنه يعلم بذات تعاليم السامريين... أو أنه قد تظاهر فأبدى ملاحظاته عن القيامة والحياة الأبدية لمجرد أنها تتفق مع التعاليم العامة المقبولة لكي يقبل رضي اليهود[2].

❖ وقالوا أن به شيطان بسبب تعاليمه التي تتعدى الحدود البشرية، كقوله أن الله أبوه (يو ٥: ١٨)، وأنه نزل من السماء (يو ٦: ٣٨)، وأنه هو نفسه خبز الحياة الأعظم من المن، من يأكله يحيا إلى الأبد (يو ٦: ٣٢-٣٥)، وعشرات الألوف من هذه الأمور التي امتلأت بها الأناجيل.

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 310.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 311 – 312.*

❖ يمكن أن يكونوا قد قالوًا: "**بك شيطان**" [٤٨]... حيث ظن بعضهم أنه ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين (لو ١١: ١٥)[1].

العلامة أوريجينوس

"**أجاب يسوع:**
أنا ليس بي شيطان،
لكني أكرم أبي،
وأنتم تهينونني". **[٤٩]**

يقول **العلامة أوريجينوس** أن السيد المسيح لم يرد على اتهامه بأنه سامري، وإنما ردَّ على الاتهام بأنه شيطان، لأن السيد نفسه قدم مثلاً عن السامري الصالح (لو ١٠: ٣٠-٢٤) الذي أظهر حنوًا على الساقط جريحًا على الطريق.

إن كان بولس صار كل شيء لكل بشرٍ كي يربح الكثيرين (١ كو ٩: ٢٢) فبالأولى المخلص الذي يطلب خلاص الكل، فهو لا يستنكف من أن يكون سامريًا ليربح السامريين. هذا وأن كلمة سامري معناها "حارس"، وهو حارس كل النفوس[2]. [فهو بحق حارس أولئك الذين قيل عنهم: "إن لم يحرس الرب المدينة، فباطلاً يتعب الحراس" (مز ١٢٧: ٢). [لقد عرف أنه كان حارسًا لكل النفوس البشرية، فقد قيل عنه: الذي يحرس إسرائيل لا ينعس ولا ينام، (مز ١٢٠: ٤)، والرب هو حافظ الصغار (مز ١١٤: ٦)[3]]. كما يقول: [على أي الأحوال يدعى العبرانيون الحراس *Somer*، وهكذا أيضًا جاء في تقليدهم أن السامريين تسلموا أولاً هذا الاسم، لأن ملك الآشوريين أرسلهم كحراس لأرض إسرائيل بعد السبي[4].]

❖ لقد رفض اتهامًا دون الآخر، إذ أجاب وقال: "**ليس بي شيطان**". ولم يقل "أنا لست سامريًا"، ولم يرُد اللعنة باللعنة، ولا القذف بقذفٍ، لكنه كان يليق به أن يجحد اتهامًا ويترك الآخر. لم يفعل هذا بلا هدف يا إخوة. لأن "سامريًا" تعني "حافظًا". إنه يعلم أنه حافظنا. "لأن حافظ إسرائيل لا ينعس ولا ينام" (مز ١٢١: ٤). و"إن لم يحرس الرب المدينة باطلاً يتعب الحراس" (مز ١٢٧: ١). إنه إذن حافظنا، ذاك الذي هو خالقنا... لهذا أجاب أنه ليس به شيطان، ولم يقل أنه ليس سامريًا[5].

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 313 – 314.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 316 – 3Commentary on John, Book 20.*
[3] *Commentary on John, Book 20: 3Commentary on John, Book 20.*
[4] *Commentary on John, Book 20: 321.*
[5] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 2.*

القديس أغسطينوس

❖ أنصتوا إلى ما أجابه الرب بعدما شُتم. "**ليس بي شيطان، لكني أكرم أبي**"... لم يرد الرب أن يجيب: "أنا لست سامريًا"، بل قال: "**ليس بي شيطان**". وُجه ضده اتهامان: جحد اتهام وأظهر قبوله للثاني بصمته. إنه قد صار حارسًا على الجنس البشرى. فلو أنه قال أنه ليس بسامري يجحد أنه الحارس. كان صامتًا بخصوص ما يعلم أنه حقيقي، وبطول أناة رفض ما قيل عنه باطلاً. انظروا كيف أنه عندما شُتم الرب لم يكن غاضبًا، ولا كانت ردود فعله كلمات أثيمة. لو لم يكن بهم شيطان لما استطاعوا أن ينطقوا بمثل هذه الأشياء الشائنة ضد الله[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

يحدثنا **العلامة أوريجينوس** عن دور الشيطان في حياة الناس، قائلاً:

❖ إنها وجهة نظر سائدة في الكتاب المقدس أن الخطاة يمارسون أشياء كثيرة مضادة للعقل لا لسبب إلاَّ لأنهم صاروا يتقبلون أنشطة روح شرير أو يتقبلون إرادة شيطانٍ دنسٍ[2].

❖ كما أنه ليس بار على الأرض يصنع خيرًا ولا يخطئ (جا ٧: ٢٠)، هكذا لا يوجد أحد في حرية دائمة من الشياطين ولا يسقط قط ضحية لتأثيرهم[3].

❖ أليس ذلك برهانًا أننا خاضعون للشيطان عندما نصرخ ملتهبين غضبًا وسخطًا في حالة من الجنون، أو نكون مسعورين وكمن يصهل، فنمارس العلاقة حتى مع زوجاتنا بشهوات كالفرس الجامحة (إر ٥: ٨)، ونلقي خلفنا كلمات الله عن التحرر من الهوى؟

علاوة على هذا إن كنا في كآبة وعبوسة وإحباط بسبب الغضب وفقدان السمو اللائق بالكائنات العاقلة، وننسى أنه لا يسقط عصفور في فخٍ بدون إذن الله، وأن الأحكام في كل ما يحدث للبشر هي عادلة، بماذا نفسر هذه ما لم نقل أننا نعاني من هذه الأمور لأن شيطانًا قد غلبنا وأفسد العنصر التي يتحكم فينا؟

أيضًا بماذا نفسر الخوف من أمور غير مخيفة، ونمارس فرحًا مبالغًا فيه من أجل أمورٍ لا تستحق إلاَّ أن ننسب هذه لأنشطة الشياطين التي ملأت أولئك الذين لا يستطيعون أن يقولوا بحق: "**ليس بي**

---

[1] *Hom. 16, Forty Gospel Homilies, 114-115 Pl 16:1150.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 326.*
[3] *Commentary on John, Book 20: 328.*

شيطان"؟[1]

❖ واضح أن كل الكتب المقدسة صحيحة، وأنه حتى الذين تغيروا إلى الحياة الفاضلة غير قادرين أن يقولوا على الدوام في البداية: "**ليس بي شيطان**". هذه العبارة خاصة بالمخلص وحده منذ البداية. هذا هو السبب أنه وحده كرَّم الآب بطريقة لائقة جدًا وسليمة[2].

العلامة أوريجينوس

❖ "**لكني أكرم أبي، وأنتم تهينونني**" [٤٩]. هذا معناه إنني لست أكرم نفسي حتى لا تظنوا إني متعجرف. إنني أكرم واحدًا، ولو عرفتموني لكنتم تكرمونني كما أكرم أنا الآب. إني أفعل ما يليق، وأما أنتم فلستم تفعلون[3].

القديس أغسطينوس

❖ أب كامل ولد ابنًا كاملاً، وسلم كل شيء للمولود، إذ قال: "كل شيء قد دُفع لي من أبي" (مت ١١: ٢٧)، وتمجد بواسطة الابن الوحيد إذ يقول الابن: "**أكرم أبي**"، وأيضًا: "كما إني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته (يو ١٥: ١٠)".[4]

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ "**إني أمجد أبي**"، إذ ليس له أب آخر غير الله في السماء[5].

❖ نحن أيضًا نحقق هذه العبارة عندما ندرك غسل الميلاد الجديد (تي ٣: ٥)، وإذ بغسله نصير أبناء الله لا ندعو أحدًا على الأرض أبًا (مت ٢٣: ٩)، إذ صرنا أبناء الآب الذي في السماوات وإخوة لذاك القائل: "أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي إلهكم" (يو ٢٠: ١٧).

من الواضح إذن انه إذ قال يسوع بشرعية كاملة ودقة: "**ليس بي شيطان، لكني أكرم أبي**" [٤٩] فإن كل من يقتدي به يكون قادرًا، ويستطيع كل شيء في المسيح يسوع الذي يقويه (في ٤: ١٣)، سيقول هو نفسه: "**ليس بي شيطان، لكني أكرم أبي**". لكن من يقدر أن يقول "**ليس بي شيطان**" متى كان بين الموتى ساكنًا في القبور؟[6]

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 332 – 334.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 334.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 3.*
[4] مقال ٧: ٥.
[5] *Commentary on John, Book 20: 339.*
[6] *Commentary on John, Book 20: 340 – 341.*

أو من يقدر أن يقول: "**لكني أكرم أبي**" [٤٩] كتلميذ ليسوع بينما هو يكرم شيئًا آخر غير الله وكلمته والوصايا التي يأمر بها الكلمة، مكرمًا آخر مع أنه كان يلزم أن يقدم الكرامة لمن يستحقها (رو ١٣: ١٧)[١].

عبارة: "**أنتم تهينونني**" لا تخص الذين كانوا في ذلك الوقت وحدهم، لكنها تنطبق أيضًا دومًا على الذين يهينونه بأعمالهم المضادة لكلمة الله المستقيمة. يهينون المسيح الذي هو العدل بممارستهم للظلم، ويهينون قوة الله التي هي المخلص (١ كو ١: ٢٤)... بتصرفاتهم الضعيفة والهزيلة[٢].

❖ يُقال "**أنتم تهينونني**" لمن يحتقر الحكمة، لأن المسيح هو أيضًا الحكمة (١ كو ١: ٢٤)[٣].

❖ من يفعل الشر يهين المسيح بإهانته للنور[٤].

❖ الله الذي أعطانا ابنه يطلب مجد المسيح في كل من يتقبله. إنه يجد المجد في الذين يسهرون على أنفسهم وينتهزون الفرص لممارسة الفضيلة المزروعة فيهم. لكنه لا يجد المجد فيمن لا يفعلون هكذا. فإذ لا يجد المجد سيدين من ليس فيهم مجد ابنه، ويقول لهم: "بسببكم يجدف على اسمي دومًا بين الأمم"[٥].

العلامة أوريجينوس

"**أنا لست أطلب مجدي،**
يوجد من يطلب ويدين". **[٥٠]**

❖ "**أنا لست أطلب مجدي**"، لهذا أغفل عن عقابكم، إنما أضع على عاتقي أن أحثكم على العمل وأشير عليكم بذلك، حتى ليس فقط تهربوا من العقوبة، وإنما تنالون أيضًا الحياة الأبدية[٦].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كيف يقول في موضع آخر: "لأن الآب لا يدين أحدًا بل قد أعطى كل الدينونة للابن" (يو ٥: ٢٢)، بينما يقول هنا "**أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين**" [٥٠]؟... هذه المشكلة يمكن حلها من خلال الكلمة ذاتها. **توجد دينونة للعقوبة** وجدت في الإنجيل: "من لا يؤمن يدن"

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 342.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 344.*
[3] *Commentary on John, Book 20: 345.*
[4] *Commentary on John, Book 20: 348.*
[5] *Commentary on John, Book 20: 350.*
[6] *Homilies on St. John 55: 1.*

(يو ٣: ١٨). وفي موضع آخر: "تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين فعلوا السيئات إلى قيامة الدينونة" (يو ٥: ٢٨-٢٩). ها أنتم ترونه كيف يضع حكمًا للدينونة والعقوبة. مع هذا إن كان الحكم دائمًا يفهم للدينونة فإننا نسمع: "احكم لي يا الله". في الموضع الأول يستخدم الحكم بمعنى إنزال عقوبة مؤلمة، **هنا يستخدمه بمعنى التمييز**... لذلك يقول: "احكم لي يا الله" ثم يضيف: "وخاصم مخاصمتي من أمة غير مقدسة" (مز ٤٢: ١). بنفس الطريقة يقول الرب يسوع: "لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين". كيف "**يوجد من يطلب ويدين**"؟ **يوجد الآب الذي يميز بين مجدي ومجدكم**. لأنكم تتمجدون بروح هذا العالم. أما أنا فلست كذلك... ماذا يميز الآب؟ مجد ابنه من مجد الناس المجردين. هنا قيل: "مسحك الله إلهك بزيت البهجة أكثر من رفقائك" (مز ٤٥: ٧). ليس لأنه صار إنسانًا يقارن بنا. نحن كبشرٍ خطاة، وأما هو فبلا خطية. نحن كبشرٍ نرث من آدم الموت والإثم، أما هو فقبل من البتول الجسد المائت لكن بدون إثم[1].

القديس أغسطينوس

ربما يتساءل البعض: كيف يقول السيد المسيح: "**يوجد من يطلب ويدين**"، بينما يقول في موضع آخر: "لأن الآب لا يدين أحدًا بل قد أعطى كل الدينونة للابن" (يو ٥: ٢٢)؟ يجيب **العلامة أوريجينوس**: [تأملوا العبارة التالية التي تحمل إجابة على هذه الاعتراض: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا، كما أسمع أدين ودينونتي عادلة، لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني" (يو ٥: ٣). فإن كان مخلصنا يدين كما يسمع من الآب ولا يطلب مشيئته هو بل مشيئة الآب الذي أرسله... فإن الدينونة ليست من قبل من يسمع بل الذي يتكلم لمن يسمع.[2]]

٧. المسيح واهب الخلود

"الحق الحق أقول لكم إن كان أحد يحفظ كلامي
فلن يرى الموت إلى الأبد". [٥١]

وعد موسى النبي بطول العمر والخيرات الزمنية لمن يحفظ الوصية الإلهية، أما السيد المسيح فقدم الحياة الأبدية والغلبة على الموت لمن يحفظ كلمته، لن يقدر الموت أن يسيطر على نفس المؤمن الحقيقي.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 4, 9.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 352 – 353.*

يليق بنا لكي ننعم بالمجد الأبدي ليس فقط أن نقبل الكلمة الإلهية، بل ونمارسها ونثبت فيها أو نستمر فيها، هذا هو مفهوم حفظ الكلمة. من يحفظ الكلمة الإلهية يتمتع بمفهومٍ جديدٍ للموت، يراه عبورًا إلى الحياة الأخرى. أما الموت الحقيقي فهو حرمان النفس من الله مصدر حياتها، هذا الموت لا سلطان له على المؤمن.

❖ لا يتكلم هنا عن الإيمان وحده بل وعن الحياة الطاهرة. قبلاً قال: "**تكون له الحياة الأبدية**" [٤٠]، أما هنا "**لن يرى الموت**". في نفس الوقت يلمح إليهم أنهم لن يقدروا أن يفعلوا شيئًا ضده. لأن من يحفظ قوله لن يموت، فكم بالأكثر يكون هو نفسه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كما توجد أنواع مختلفة من الحياة هكذا توجد أنواع مختلفة من الموت. يوجد موت شرير وعنيف وهو عدو للقائل: "أنا هو الحياة" (يو ١١: ٢٥). فمن يموت هذا الموت الأخير فإنه يموت ذاك المكتوب عنه: "آخر عدو الموت، يبطل" (١ كو ١٥: ٢٦).

يلزمنا أن نعتبر أنه ذاك الموت الذي يقول عنه الرسول: "كأنما بإنسانٍ واحدٍ دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع. فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم، على أن الخطية لا تُحسب إن لم يكن ناموس. لكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى وذلك على الذين على شبه تعدي آدم" (رو ٥: ١٢–١٤). وقد أضاف بعد قليل: "لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيرًا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البرّ سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح" (رو ٥: ١٧)... فمن يحفظ كلمة الابن الوحيد، بكر كل الخليقة (كو ١: ١٥) لن يرى هذا الموت، إذ طبيعة الكلمة تمنع الموت من أن يُرى...[2]

❖ من يحفظ في نفس الوقت الحياة التي توجد فيه وغير منفصلة عنه، هذه الحياة التي هي في نفس الوقت نور الناس الذي يشرق على الذين في الظلمة فلا يُغلبون منها (يو ١: ٤–٥).[3]

❖ حقًا لا يرى أحد الموت ما دام يحفظ كلمة يسوع، لكن حالما يفقدها يرى الموت.[4]

العلامة أوريجينوس

---

[1] *Hom 55. PG 59:322.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 363 – 367.*
[3] *Commentary on John, Book 20: 370.*
[4] *Commentary on John, Book 20: 373.*

❖ أنتم تقولون: "**بك شيطان**" [٤٨]. أنا أدعوكم للحياة. احفظوا كلمتي فلا تموتون. لقد سمعوا: "**إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد**" [٥١]، إلاَّ أن الرب قد رأى موتًا آخر جاء ليخلصنا منه – الموت الثاني، الموت الأبدي، موت جهنم، موت الإدانة مع الشيطان وملائكته. هذا هو الموت الحقيقي، أما الآخر فهو مجرد انتقال. ما هو الموت الآخر؟ ترك الجسد، إلقاء الحمل الثقيل، ونزع الحمل فلا يسحب الإنسان إلى جهنم. عن الموت الحقيقي يقول الرب: "**إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد**[1]".

القديس أغسطينوس

"**فقال له اليهود:**
الآن علمنا أن بك شيطانًا
قد مات إبراهيم والأنبياء، وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد؟" **[٥٢]**

❖ الذين ظنوا أن ما قيل خاص بالموت العادي حسبوا أن الذي يقول أن من يحفظ كلمتي لن يموت إلى الأبد قد فقد عقله، إذ مات إبراهيم والأنبياء[2].

العلامة أوريجينوس

❖ مات إبراهيم والأنبياء، ولكن ليس بالموت الذي أرادنا أن نفهمه. فإن هؤلاء ماتوا لكنهم أحياء، أما هؤلاء الآخرون فهم أحياء ولكنهم موتى. فإنه إذ كان يجيب في موضع ما على الصدوقيين عندما أثاروا سؤال القيامة قال الرب نفسه: "وأما من جهة القيامة أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء" (مت ٢٢: ٢١–٢٢؛ لو ١٢: ٤–٥). فإن كان هؤلاء أحياء فلنجاهد أن نحيا حتى يمكننا بعد الموت أن نحيا معهم[3].

القديس أغسطينوس

"**ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات والأنبياء ماتوا؟**
من تجعل نفسك؟" **[٥٣]**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 10 – 11.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 380.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 1 3.*

❖ عندما يزيد عناد الأشرار، يلزمنا ليس فقط ألا نتوقف عن الكرازة بل نكثف جهودنا، هذا ما ينصحنا به الرب خلال مثاله... كما أن الصالح يصير إلى حال أفضل خلال المقاومة، هكذا المدانون يصيرون إلى حال أردأ حينما ينالون حنوًا. بعد أن تقبلوا كرازة (يسوع) كرروا القول: "**الآن علمنا أن بك شيطانًا**" [٥٢]. لقد التصقوا بالموت الأبدي دون أن يتحققوا أن هذا كان الموت الذي التصقوا به. كان ما في نظرهم موت الجسم وحده؛ وكانوا عميانًا عن معني كلمة الحق. هذا كما أنهم في تكريم إبراهيم و الأنبياء وضعوهم فوق الحق نفسه. لقد ظهر لنا أن الذين لا يعرفون الله، قد يكرمون عبيده بطريقة خاطئة[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ كان لائقًا أن يقولوا: "ألعلك أنت أعظم من الله؟"، أو "لعل الذين يسمعون قولك أعظم من إبراهيم؟"، إلا أنهم لم يقولوا هذا، إذ ظنوا أن السيد المسيح أقل مكانة من إبراهيم. وقال اليهود للسيد المسيح من قبل: "**إن بك شيطانًا**" [٥٢] إلا أن **المرأة** السامرية لم تقل هذا، لكنها قالت: "ألعلك أعظم من أبينا يعقوب؟" (يو ٤: ١٢) لقد كان هؤلاء اليهود شتامين، أما تلك المرأة فأرادت أن تعرف من هو، إذ تحيرت وأجابته بتحفظٍ قائلة: "يا سيد أرى أنك نبي" (يو ٤: ١٩).

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن كان إبراهيم قد مات إلاَّ أنه كان حيًا (مت ٢٢: ٢٣)، ولم يرَ الموت إذ رأى يسوع ففرح وتهلل (يو ٨: ٥٦). أظن أنه لهذا السبب أجاب مخلصنا على عبارة "إبراهيم مات" بالقول: "أبوكم إبراهيم تهلل بأي يرى يومي، فرأى وفرح" [٥٦] ليعلم بأن إبراهيم كان حيًا[2].

❖ إن كان ليس هو إله أموات بل أحياء (مت ٢٢: ٣٢)، وكما أنه هو إله إبراهيم وإسحق ويعقوب فهو إله بقية الأنبياء، والأنبياء هم أحياء، إذ حفظ هؤلاء كلمة ابن الله عندما جاءت كلمة الله إلى هوشع وإلى إرميا وإلى إشعياء. فإنه ليست كلمة الله جاءت إلى أي واحدٍ منهم سوى ذاك الذي من البدء مع الله، ابنه، الله الكلمة[3].

❖ إنهم لم يروا أن الذي وُلد من العذراء ليس فقط أعظم من إبراهيم بل ومن كل مواليد النساء. ولم

---

[1] *Hom. 16. Forty Gospel Homilies, 116- Pl 76:1150.*
[2] *Commentary on John, Book 20: 394 – 395.*
[3] *Commentary on John, Book 20: 398.*

يروا الذي تنبأ عنه الأنبياء أعظم من كل الأنبياء، والذي جعلهم أحياء أعظم من الذين يموتون[1].

العلامة أوريجينوس

"**أجاب يسوع:**

إن كنت أمجد نفسي،

فليس مجدي شيئًا.

أبي هو الذي يمجدني،

الذي تقولون أنتم إنه إلهكم". **[٥٤]**

خلال وحدة الجوهر كل أقنوم يمجد الأقنومين الآخرين، فنقرأ أن اللَّه يتمجد في الابن ويُمجد الابن (يو٧:٣٣).

"**الذي تقولون أنتم انه إلهكم**" [٥٤] بينما يدَّعون أن الله هو إلههم إذا بهم أعداء له من جهة روحهم وسلوكهم.

❖ هل مجده ليس شيئًا؟ بالنسبة لهم إنه لا شيء. وكما قال: "شهادتي ليست حقًا" (يو ٥: ٣١) وذلك حسب رأيهم؛ لذلك يقول هنا: "**يوجد الذي يمجدني**" [٥٤][2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

أي شكٍ هنا في أن يتمجد الابن بواسطة الآب، ويتمجد الآب بواسطة الابن؟ ولكي تتضح الوحدة، اتحاد الثالوث. يقول أيضًا أن يتمجد بالروح القدس كما جاء: "يأخذ مما لي ويمجدني (يو ١٦: ١٤). فالروح القدس يمجد ابن اللَّه. كيف إذن يقول: " **إن كنت أمجد نفسي، فليس مجدي شيئًا**" [٥٤]؟ هل مجد الابن كلا شيء؟ أن نقول هذا هو تجديف ما لم نطبق هذا على جسده، فإن الابن تحدث في شخص إنسان، فإن قورن مجد الجسد بالنسبة لمجد اللاهوت يكون بلا مجد[3].

القديس أمبروسيوس

❖ يشير إلى تمجيده بالآب الذين يقولون عنه أنه الله... إن كان هو يمجد الابن والابن يمجده، فليبطل عناد (الأريوسيين والهراطقة) وليعرفوا المساواة ويصححوا انحرافهم[4].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Commentary on John, Book 20: 419.*
[2] *Homilies on St. John 55: 2.*
[3] *On the Holy Spirit, Book 5:8:113.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 4.*

"ولستم تعرفونه،
وأما أنا فأعرفه،
وإن قلت إني لست أعرفه أكون مثلكم كاذبًا،
لكني أعرفه وأحفظ قوله". [٥٥]
"أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح". [٥٦]

إذ يفتخر اليهود أنهم من نسل إبراهيم أكد لهم السيد المسيح أن أباهم إبراهيم كان يشتهي أن يراه ويكرمه، وأنه قد رأى يومه. إن كان المسيح قبل إبراهيم فإن تعاليمه ليست بجديدة، إنه يسبق موسى مستلم الشريعة.

متى رأى إبراهيم يوم الرب فتهلل؟

١. يقول **القديس بولس** أن إبراهيم رأى يومه، إذ نال وعدًا بمجيئه من نسله (غل ٣: ١٦)، أي مجيء المسيح ليبارك جميع قبائل الأرض (أع ٣: ٢٥-٢٦).

٢. يرى **العلامة أوريجينوس** أنه رآه حين سار مسيرة ثلاثة أيام ورفع عينيه وأبصر موضع الذبيحة من بعيد (تك ٢٢: ٤)، فبسيره ثلاثة أيام اختبر طريق القيامة في اليوم الثالث فتمتع بمفهوم جديد للذبيحة، ذبيحة الابن الوحيد الجنس.

٣. يرى **القديس امبروسيوس** أنه رآه حين أقسم بذاته أنه بالبركة يباركه ويكثر نسله كنجوم السماء وكالرمل على شاطئ البحر (تك (٢٢: ١٦).

❖ إنه ذاك الذي أقسم بذاته هو الذي رآه إبراهيم[1].

القديس أمبروسيوس

❖ أظن أنه قد غاب عن بيلاجيوس حقيقة أن الإيمان بالمسيح الذي أُعلن بعد ذلك لم يكن مخفيًا في أيام آبائنا. لكنهم خلصوا بنعمة اللَّه، وهكذا كل أعضاء الجنس البشري في كل الأزمنة الذين بواسطة حكم اللَّه السرّي الذي يتعذر دحضه، هم قادرون أن يخلصوا. لهذا يقول الرسول: "**لهم ذات روح الإيمان**" بلا شك هو بنفسه الذي كان لهم – كما هو مكتوب: "آمنت لذلك تكلمت، ونحن أيضًا نؤمن لذلك أيضًا نتكلم" (راجع ٢ كو ٤: ١٣؛ مز ١١٥: ١٠). لهذا السبب قال الوسيط نفسه: "إبراهيم رأى يومي، رآه فتهلل" (يو ٨: ٥٦). هكذا أيضًا ملكي صادق إذ قدم سرّ

[1] *Of the Christian Faith, 2: 8: 72.*

مائدة الرب عرف أنه سبق فرمز لكهنوت المسيح الأبدي (تك ١٤: ١٨)[١].

❖ إنه لم يخف بل فرح أن يراه، لأن فيه الحب الذي يطرد الخوف خارجًا (١ يو ٤: ١٨). لم يقل "تهلل لأنه **رأى**" إنما قال: "تهلل لأنه **يرى**"، مؤمنًا تحت كل الظروف، ويتهلل على رجاء أن يرى بفهمٍ. "**فرأى وفرح**"... إن كان الذين انفتحت أعينهم الجسدية بالرب قد تهللوا، فأي فرح لذاك الذي رأى بعيني نفسه النور الذي لا يوصف، الكلمة القاطن (في الآب)، البهاء الذي يبهر أذهان الأتقياء، الحكمة التي لا تسقط، الله الثابت في الآب، وفي نفس الوقت يراه آتيًا في الجسد دون أن ينسحب من حضن الآب؟ هذا كله رآه إبراهيم[٢].

القديس أغسطينوس

❖ "**يومي**" يبدو لي أنه يعني يوم الصليب الذي سبق فرآه إبراهيم خلال الرمز بتقديم الكبش وإسحق[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه يكفيك من أجل الصلاح أن تعرف – كما قلنا – أن اللَّه له ابن واحد وحيد مولود طبيعيًا. الذي لم يبدأ وجوده عندما وُلد في بيت لحم بل قبل كل الدهور. اسمع النبي ميخا يقول: "أما أنتِ يا بيت لحم أفراته، وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطًا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل" (ميخا ٥: ٢).

إذن لا تفكر في ذاك الذي هو خارج الآن من بيت لحم (ولا تحسبه حديثًا)، بل اعبده إذ هو مولود من الآب أزليًا. لا تسمح لأحد أن يقول أن للابن بداية في زمان...

أتريد أن تعرف أن ربنا يسوع المسيح هو ملك أزلي؟ اسمعه يقول: "**أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي، فرأى وتهلل**" (يو ٨: ٥٦). وعندما استصعب اليهود قبول هذا قال لهم أن هذا ليس بصعبٍ، فإنه "**قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن**" (يو ٨: ٥٨).

مرة أخرى يقول: "والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" (يو ١٧: ٥) قال بوضوح: "بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم". وأيضًا عندما قال: "لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو ١٧: ٢٤)، معلنًا أن مجده أزلي[٤].

---

[1] *Letters, 177.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 16.*
[3] *Hom 55. PG 59:323.*

[٤] مقال ١١: ٢٠.

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ دُعي الأنبياء رائين *seers* (١ صم ٩: ٩)، إذ رأوا ذاك الذي لن يراه آخرون. إبراهيم رأى يومه (المسيح) وتهلل (يو ٨: ٥٦).

الناموس روحي (رو ٧: ١٤)، لكن الحاجة إلى إعلان يعيننا على فهمه، عندما يكشف الله عن وجهه لنراه ونعاين مجده...

السماوات التي كانت مختومة بالنسبة للشعب المتمرد كانت مفتوحة لحزقيال[1].

القديس جيروم

"**فقال له اليهود:**

ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟" [٥٧]

"**قال لهم يسوع:**

الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن". [٥٨]

❖ لماذا لم يقل:" قبل أن كان إبراهيم أنا كنت" بل "**أنا الكائن**"... يستخدم المسيح هذا التعبير ليعني استمرار الكائن فوق كل زمان. لهذا حُسب هذا التعبير تجديفًا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لتزنوا الكلمات، ولتتعرفوا على السرّ. "**قبل أن يكون (يُخلق *was made*) أنا كائن**". لتفهموا أن "خُلق" تشير إلى الخلق البشري، أما "**أنا كائن**" فتشير إلى الجوهر الإلهي. لم يقل: "قبل أن يكون (*was*) أنا كنت"، ذاك الذي لم يُخلق إلاَّ بي أنا الكائن. ولم يقل "قبل أن يُخلق إبراهيم أنا خُلقت"... لتميزوا بين الخالق والمخلوق[3].

القديس أغسطينوس

❖ "أنا كائن" في الحاضر، لأن اللاهوت ليس فيه ماضٍ ولا زمن المستقبل بل دائمًا "**كائن**" إذ لم يقل: "أنا كنت قبل إبراهيم"[4].

البابا غريغوريوس (الكبير)

---

[1] *Letter 53:4.*
[2] *Hom 55. PG 59:324.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 17.*
[4] *Hom. 16. Forty Gospel Homilies, 116-117.*

"فرفعوا حجارة ليرجموه،

أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل،

مجتازًا في وسطهم، ومضى هكذا". [٥٩]

اتُّهِمَ السيد بالتجديف، فحسبوه مستحقًا للرجم حسب الشريعة (لا ٢٤: ١٦). كان لزامًا أن ينطلقوا خارجًا لرجمه، انطلق في وسطهم ولم يروه. فارقهم السيد في صمت، هكذا يدخل السيد المسيح القلب في صمت، ومن يرفض مملكته يفارقه في صمت. هكذا فارق الرب شمشون وهو لا يدري (قض ١٦: ٢٠).

❖ كإنسان هرب من الحجارة، ولكن ويل لهؤلاء الذين هرب الله من قلوبهم الحجرية[1].

القديس أغسطينوس

❖ لماذا أخفى الله نفسه؟ إذ صار مخلصنا إنسانًا بين البشرية يعلمنا بعض الأمور بكلماته، والأخرى بمثاله. ماذا يخبرنا بهذا المثال إلا أنه حيث يكون ممكنًا لنا أن نقاوم يلزمنا في تواضع أن نتجنب غضب الكبرياء. لذا يخبرنا بولس: "لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب" (رو ١٢: ١٩) لا يثور أحد ضد المقاومة الموجهة ضده. لا يرد الأذية بالأذية، الأكرم أن تقلد الله بالهروب في صمت من وجه الإهانة عن أن تنشغل بالرد عليها. أما المتكبرون فيتحدثون ضد هذه في قلوبهم: إنه عار عليكم أن لا تصمتوا حين توجه إليكم شتيمة لأنهم لا يظنون أنكم تظهرون صبرًا بل أنكم تعرفتم على الاتهام الموجه ضدكم. لكن هذا بالحقيقة يأتي من التصاق أفكارنا بالأمور السفلية، وحين نطلب المجد على الأرض لا نهتم بأن نسر الله الذي يرانا من السماء[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 18.*
[2] *Hom. 16, Forty Gospel homilies*

ملحق الأصحاح الثامن

حول قصة المرأة الخاطئة

مع روعة ما تحمله هذه القصة من مفاهيم روحية، ومع تناغمها مع فكر المسيح وتصرفاته كما وردت في الأناجيل المقدسة إلاَّ أن بعض الدارسين حسبوا أن هذه القصة وإن كانت واقعية لكن ليس موضعها في إنجيل يوحنا، وحجتهم في ذلك:

أولاً: لم يذكرها بعض الآباء الأولين أثناء تفسيرهم للسفر، وإن كان البعض أشار إليها في كتاباتهم الأخرى. فقد تجاهلها كل من **العلامة أوريجينوس والقديسين يوحنا الذهبي الفم وكبريانوس.**

ثانيًا: إن لغة القصة باليونانية تحوي بعض كلمات لم ترد في بقية السفر أو وردت نادرًا[1].

ثالثًا: ذكر اسم "الكتبة" مع الفريسيين، الأمر الذي لم يستخدمه الإنجيلي يوحنا في بقية السفر، كذلك ذكر جبل الزيتون وأن السيد كان يعلم وهو جالس الخ.

غير أن بعض الدارسين يرون في القصة أنها ليس فقط أصيلة من حيث حدوثها، وإنما من حيث موضعها في السفر، ويعللون ذلك بالآتي:

أولاً: وردت في تفاسير كثير من آباء الكنيسة الغربية مثل **القديسين چيروم وأغسطينوس وأمبروسيوس،** على أساس أنها وردت في النسخة اللاتينية الفولجاتا *Volgate* والتي تشير إلى أنها وجدت في كثير من المخطوطات اليونانية.

ثانيًا: وجدت في أكثر من مخطوطة، خاصة النسخ اللاتينية، كما وجدت في النسخة الممفيسية *Memphetic* والأثيوبية والأرمنية.

ثالثًا: يرجع تحفظ بعض الآباء الشرقيين في التعرض لها وتفسيرها أثناء تفسير إنجيل يوحنا، أنهم خشوا في ظروفهم وقد قبل بعض الوثنيين الإيمان أن يروا فيها تهاونًا مع خطية الزنا.

رابعًا: ورد هذه القصة بكلماتها في كتاب تعاليم الرسل[2] أثناء الحديث عن قبول التائبين في الكنيسة والرد على رفض توبة الزناة.

خامسًا: أما من الجانب اللاهوتي الروحي، فقد جاء موقع القصة دقيقًا للغاية. إذ وردت بعد حديث السيد المسيح في اليوم الأخير من العيد حيث دعا العطاش ليشربوا من الماء الحي لتجري من

---

[1] *Leon Morris, p. 290 – 291.*
[2] *Apostolic Constitutions 2: 24.*

بطونهم أنهار ماء حي (يو ٧: ٣٧ الخ)، وقبل حديثه عن نفسه أنه نور العالم. فقد كشفت هذه القصة عن دور السيد المسيح في النفوس التي شربت من ملذات مياه هذا العالم فاستحقت الرجم، وصارت في موضع دينونة حتى من البشر، فرواها السيد بمياه الحب الإلهي لتصير عروس المسيح التي تتأهل لشركة المجد، وكارزة بالتوبة، وشاهدة لعمل الشفيع العجيب! عاشت المرأة ماضيها في الظلمة، فاشتهت أن تموت لتدفن في قبر عوض رجمها، فأشرق النور الإلهي عليها، لتجد أحضان الآب تنتظرها!

حقًا صارت هذه المرأة تمثل البشرية البائسة التي صارت أسعد كائن في العالم بلقائها مع مخلص البشرية!

من وحي يو ٨

لتشرق بنورك عليَّ،
ولتحوِّل محكمتي إلى عرسٍ أبديٍ!

❖ لتشرق بنور حبك على قلبي،
ولتدخل معي إلى محكمة الفريسيين العنيفة،
عِوض تقديمي للمحاكمة، تهيئني للعرس الأبدي!
لم أعد أخشى قلوبهم الحجرية التي يلقونني بها لرجمي،
فإنك تسكب حبك الفائق في أعماقي!
ليس من محامٍ يدافع عني! أنت شفيعي ومخلصي ومفرِّح نفسي!
تمسِك بيدي، وتدخل بي إلى حجالك، يا أيها القدوس!

❖ أراد العالم أن يُدينني، فأدان نفسه.
هب لي ألاّ أدين أحدًا، فلا أسقط تحت دينونتك!
لأدن نفسي، فتبرّرني بدمك، يا مخلص العالم!
أنت وحدك بروحك القدوس تجدّد حياتي،
أنت تُقيم من الزناة قديسين،
يا من غيّرت طبيعة الأتون إلى ندى للثلاثة فتية،
وطبيعة الأسود الجائعة إلى أصدقاء لدانيال النبي.

❖ أوصيتني ألاّ أعود إلى الخطية،
من يتمم هذه الوصية بدون نعمتك.
إنها وصية إلهية، بل وعد إلهي تحقق فيّ.
أنت نور العالم، أنت نوري.
إذ أسلك فيه، لا تقدر ظلمة الخطية أن تتسلل إليّ.

❖ أنت الينبوع الذي يفيض في داخلي أنهار مياه حيّة.
أنت نور العالم، تحوّل أعماقي إلى سراج منير!
أنت ابن اللَّه، تهبني بروحك القدوس روح البنوة.
تنقلني من العبودية إلى حرية مجد أولاَد اللَّه!

❖ كنتُ معتزًّا بانتسابي لإبراهيم أب الآباء،
وبإرادتي لم أسلك كما سلك،
صرتُ عبدًا للخطية، وابنًا لإبليس المضلّل.
صرتُ حجرًا بلا إحساس روحي.
ها أنت تُقيم منّي ابنًا لإبراهيم،
إنك تنزع عبوديتي للخطية فأصير خادمًا للبرّ.
تنقلني إلى البنوة للَّه أبيك!
الآن بالحق أتهلل مع أبي إبراهيم بيوم مجيئك!
لك المجد يا واهب الحرية للجميع،
يا مصدر الفرح الحقيقي!
متى أراك وجهًا لوجه، فأجتمع مع كل آبائي كعروسٍ مقدسة لك!

من تفسير وتأملات

الآباء الأولين

الإنجيل بحسب

يوحنا

الجزء الثاني

أصحاحات ٩ – ٢١

٢٠٠٣

القمص تادرس يعقوب ملطي

كنيسة الشهيد مار جرجس بسبورتنج

الأصحاح التاسع

تفتيح عيني المولود أعمى

نور العالم

رأينا في الأصحاح السابق السيد المسيح يعلن لليهود أنه نور العالم (٨: ١٢). جاء لكي يفضح الظلمة ويبددها، فينتزع السالكين فيها، ويحملهم إلى نور مجده. لقد صار أبناء إبليس (٨: ٤٤) يحتاجون إلى المحرر الحقيقي ليهبهم استنارة داخلية، ويتهللوا مع إبراهيم أبيهم بيوم الرب العجيب (٨: ٥٦). الآن وقد أرادوا رجمه فاختفى عنهم ظهر لكي يهب البصر للمولود أعمى، ربما بعد أيامٍ أو شهورٍ قليلة من الحوار السابق. كان يلزمهم أن يتلامسوا مع واهب البصر، ليدركوا أنه واهب البصيرة أيضًا.

لم يرد في العهدين القديم والجديد تفتيح عيني مولود أعمى سوى في هذا الأصحاح، وقد ورد في العهد الجديد عن عطية النظر للعميان كأحد أعمال المسيا المنتظر: "ويسمع في ذلك اليوم الصم أقوال السفر، وتنظر من القتام والظلمة عيون العمي" (إش ٢٩: ١٨)، "حينئذٍ تتفتح عيون العمي وآذان الصم تتفتح" (إش ٣٥: ٥)، كما قيل عن عبد الرب (الكلمة المتجسد): "أنا الرب قد دعوتك بالبرّ، فأمسك بيدك وأحفظك، وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم، لتفتح عيون العمي" (إش ٤٢: ٦–٧). ويسبح المرتل الرب قائلاً: "الرب يفتح أعين العمي" (مز ١٤٦: ٨).

وكأن الإنجيليين وهم يشيرون إلى تفتيح أعين العميان، خاصة هذا المولود أعمى يعلنون تحقيق النبوات خلال شخص يسوع بكونه المسيا المنتظر، الرب الذي يفتح الأعين الداخلية للقلب مع العيون الجسمية. فيه قد تحققت النبوات، حيث تمم أعمالاً لا يمكن أن يمارسها غير الله نفسه، أو باسم الرب.

شفاء المولود أعمى يعلن عن شخص السيد أنه جاء يفتح البصيرة الداخلية، لكي يتعرف المؤمنون على أسرار الله. وفى نفس الوقت يفضح عمى القيادات المرائية المتعجرفة التي لم تستطع أن تكتشف عماها الروحي وخطاياها!

مع أهمية هذه الآية الفريدة من جهة خلق عيني مولود أعمى إلاَّ أن الإنجيلي لم يذكر لنا اسم الأعمى، ولا أورد تفاصيل كثيرة عنها إنما قدم الحوارات المتبادلة بخصوص هذه الآية، خاصة

أحاديث السيد المسيح مع التلاميذ ومع الأعمى نفسه كما مع الفريسيين. فإن ما يشغل ذهن الإنجيلي ليس إبراز ما في الآية من عملٍ معجزي فائق، وإنما في تمتع البشرية بعمل المسيح الإلهي في حياتهم وأفكارهم.

لقد استخدم التراب في خلقة العينين ليؤكد أنه الخالق المخلص، أما طلبته من الأعمى أن يغتسل في بركة سلوام ليؤكد الحاجة إلى مياه المعمودية لننعم باستنارة الروح القدس خلال الميلاد الجديد. لقد طرد اليهود المتمتع بالاستنارة ليجد له موضعًا لدى السيد المسيح، **مسيح المطرودين والمرذولين**.

إن كان البعض من الشعب قد أدرك عماه وأيضًا كثير من الأمم فإن هذين الفريقين أفضل من الفريسيين الذين مع عماهم ادعوا أنهم مبصرون. بادعائهم هذا صاروا في غباوة بلا رجاء، أما العشار والزانية فإذ اعترفا بعماهما انفتح أمامهما باب الرجاء ليتمتعا ببصيرة فائقة وينعما بالحياة الأبدية في المسيح يسوع.

خلال هذا العمل أمكن للبصيرة أن **تتدرج في معرفة شخص ربنا يسوع:**

- ❖ إنسان يُدعى يسوع [١١].
- ❖ إنه نبي [١٧].
- ❖ إنسان من عند اللَّه [٣٣].
- ❖ ابن الإنسان السماوي [٣٥].
- ❖ مستحق للسجود والعبادة بكونه الرب [٣٨].

يُقرأ هذا الأصحاح في "أحد التناصير" لأنه يرتبط بسرّ المعمودية، بكونها استنارة للبصيرة الداخلية.

١. شفاء الأعمى ١–٧.

٢. حوارات بعد الشفاء

أ. حوار بين الجيران والأعمى ٨–١٢.

ب. حوار بين الفريسيين والأعمى ١٣–١٧.

ج. حوار بين الفريسيين ووالدي الأعمى ١٨–٢٣.

د. حوار ثان بين الفريسيين والأعمى ٢٤–٣٤.

هـ. حوار بين المسيح والأعمى ٣٥–٣٨.

و. حوار بين المسيح والفريسيين ٣٩–٤١.

١. شفاء الأعمى

"وفيما هو مجتاز رأى إنسانًا أعمى منذ ولادته". [١]

إن كان السيد المسيح قد اجتاز في وسط القيادات اليهودية واختفى منهم لأنهم حملوا حجارة لكي يرجموه (٨: ٥٩)، نراه يجتاز بجوار أعمى مسكين يستعطي، فيتطلع إليه لا كما يتطلع الآخرون إليه، إنما بروح الحب والترفق. إنها صورة حية للسيد المسيح الذي رفضه اليهود المعتزين بالهيكل، ليسير كما في الشوارع يطلب الأمم. إنهم عاجزون عن رؤيته لأنهم بلا نبوات ولا شريعة إلهية ولا رموز؛ إنهم أشبه بالمولود أعمى، مكانه الطريق، فقير يستعطي في حالة بؤس. وكما يقول أيوب البار: "لِمَ يعطي لشقي نور، وحياة لمُريّ النفس" (أي ٣: ٢٠).

لم يذكر الإنجيلي أين كان مجتازًا ولا إلى أين يذهب، لكنه إذ كان مجتازًا كحامل للآلام رأى هذا المولود أعمى. وكان فقيرًا يستعطي، في مكانٍ معين، حيث يقدم له بعض المحسنين عطاءً لكي يعيش.

كان معروفًا في المدينة أنه مولود أعمى، ولم يسأله الشخص ولا من هم حوله، ولا حتى تلاميذ السيد من أجل تفتيح عينيه، ربما لأنه لم يتوقع أحد حدوث ذلك.

تطلع إليه ربنا يسوع لكي يجده الأعمى المسكين، وكما جاء في إشعياء: "أصغيت إلى الذين لم يسألوا، وُجدت من الذين لم يطلبونني. قلت هأنذا لأمة لم تُسمى باسمي" (إش ٦٥: ١). بادر بالحب، فأحبنا قبل أن نعرفه، وكما يقول الرسول: "عُرفتم من الله" (غلا ٤: ٩).

❖ إذ هو مملوء حبًا نحو الإنسان، مهتم بخلاصنا، ويريد أن يبكم أفواه الأغبياء لم يتوقف عن العمل من جانبه مع أنه لم يوجد من يبالي به. وإذ يعرف النبي ذلك قال: "كي تتبرر في أقوالك وتغلب إذا حوكمت" (مز ٥١: ٤). لذلك هنا عندما رفضوا كلماته السامية، قائلين أن به شيطان، وحاولوا قتله، ترك الهيكل وشفى الأعمى، مُسكنًا من ثورتهم بغيابه، وصانعًا المعجزة ليهدئ من قسوتهم وعنفهم، مثبتًا الحقائق. صنع معجزة غير عادية، بل حدثت لأول مرة. يقول الذي شُفي: "**منذ الدهر لم يُسمع أن أحدًا فتح عيني مولود أعمى**" [٣٢]. ربما فتح البعض أعين عميان، أما مولود أعمى فلم يحدث قط. أما بخروجه من الهيكل تقدم للعمل عمدًا فواضح من هذا، أنه هو

الذي رأى الأعمى، ولم يأتِ الأعمى إليه. بغيرة تطلع إليه، وقد أدرك تلاميذه هذا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذا الأعمى (يو ٩) هو الجنس البشري، لأن هذا العمى وجد له موضعًا في الإنسان الأول بالخطية، هذا الذي نحن جميعنا نلنا أصلنا، ليس من جهة الموت فحسب، بل ومن جهة الشر. فإن كان عدم الإيمان هو عمى، والإيمان استنارة، فمن وجده المسيح مؤمنًا عند مجيئه؟ فإن ذاك الرسول الذي تنسب نفسه لعائلة الأنبياء يقول: "كنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا" (أف ٢: ٣)... فإن كان الشر قد وجد له جذوره فينا، فإن كل إنسانٍ ولد أعمى ذهنيًا. لأنه إن كان يرى فعلاً، فلا يحتاج إلى قائد. وإذ كان يحتاج إلى من يقوده وينيره، فهو إذن أعمى منذ مولده[2].

القديس أغسطينوس

"**فسأله تلاميذه قائلين:**

يا معلم، من أخطأ هذا أم أبواه حتى وُلد أعمى؟" [٢]

خرج السيد المسيح من الهيكل (يو ٨: ٥٩)، وكان في رفقته تلاميذه الذين لم يتركوه في تجاربه، فتمتعوا بالتعرف عليه، ونالوا خبرات جديدة فائقة. لاحظوا أن عينيه تتطلعان إلى الأعمى المسكين، ولم تكن نظرات عادية، بل نظرات عمل مملوءة حبًا. فتحولت نظراتهم هم أيضًا إلى المولود الأعمى، وعوض السؤال من أجله لشفائه قدموا استفسارًا عن علة ميلاده أعمى.

❖ إن قلت: من أين جاءوا بهذا السؤال؟ أجبتك: لما شفى السيد المسيح المفلوج قبلاً قال له: "ها أنت قد برئت، فلا تخطئ أيضًا لئلا يكون لك أشر" (يو ٥: ١٤). فهؤلاء إذ خطر ببالهم أن ذاك قد أصاب الفالج جسده لأجل خطاياه، إلا أن هذا القول لا ينبغي أن يُقال عن هذا الأعمى، لأن من مولده هو أعمى. فهل أخطأ والداه؟ ولا هذا القول يجوز أن يُقال، لأن الطفل لا يتكبد العقوبة من أجل أبويه... لقد تحدث التلاميذ هنا لا ليسألوا عن معلومات قدر ما كانوا في حيرة[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كان القول الرباني (المنسوب للربيين) المشهور: "ليس موت بدون خطية، ولا ألم بدون شر". وقد حاول الربيون تبرير ذلك بما ورد في حز ١٨: ٢٠؛ مز ٨٩: ٣٢. وقد ثبت هذا القول في أذهان

---

[1] *Homilies on St. John, 56: 1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 1*
[3] *Homilies on St. John, 56: 1.*

اليهود، من بينهم تلاميذ السيد المسيح الذين لم يسألوا إن كان هذا العمي بسبب الخطية أم لا، ففي نظرهم هذا أمر لا يحتاج إلى سؤال أو مناقشة، إنما جاء السؤال عمن أخطأ حتى حلت الكارثة المرعبة بهذا الشخص. ما أربك التلاميذ أنه كيف يكون قد أخطأ قبل ولادته حتى يُولد هكذا، ألعل هذا بسبب خطية والديه؟ وما ذنبه هو مادامت الخطية ارتكبها أحد الوالدين؟

لقد اعتقد البعض أن نفس الإنسان قد تكون أخطأت قبل أن تلتحف بالجسد، كما اعتقد **العلامة أوريجينوس** أن البعض يعانون آلامًا قبل أن يمارسوا خطأ بعد ولادتهم. ولعل البعض اعتمد على المنطق البشري لتبرير العدالة الإلهية، كيف يُولد أناس فقراء وآخرين أغنياء، أو يولد شخص حاد الذكاء وآخر ينقصه الذكاء، أو شخص قوي البنية وآخر مصاب بأمراض كثيرة. هذا وقد اعتمد البعض على تأكيد إمكانية ارتكاب الخطأ قبل الولادة مما قيل عن يعقوب وعيسو وهما في الرحم: "وتزاحم الولدان في بطنها" (تك ٢٥: ٢٢).

وجاء في كتابات الربيين عما يحل بالأبناء بسبب أخطاء الوالدين. قال أحدهم في التزام الرجل ألا يحملق في امرأة: "من يتطلع إلى عقب امرأة سيولد له أطفال معوقين". وقال آخر أن هذا يحدث لمن يعاشر زوجته أثناء الطمث. وقال آخر أن من يمارس العلاقات الزوجية أثناء وجود دم (فترة الطمث) سيكون له أطفال يعانون من مرض الصرع. وقد وردت أقوال مشابهة كثيرة تبرز في اقتناع الربيين بأن أخطاء الوالدين يُعاقبون عليها بتشوهات خلقية في أبنائهم، يعاني منها الأبناء مدى الحياة.

هذا يوضح أن ما قاله التلاميذ لم يكن من وحي خيالهم، بل كان تعليمًا راسخًا في أذهان الكثير من اليهود خلال تعاليم الربيين وكتاباتهم.

يظن البعض أن التلاميذ سمعوا عن بعض الأفكار الفيثاغورية *Pythagrean* التي كانت تنادي بالوجود السابق للنفس. ولعل الفريسيون حملوا ذات الفكر عندما قالوا للمولود: "في الخطايا **وُلدت أنت بجملتك**" [٣٤].

تعتقد كثير من الشعوب الآسيوية في تناسخ الأرواح، ولا تزال الهندوسية تهتم أن تحدد خطية الشخص التي ارتكبها حين كان في جسم آخر قبل ميلاده. اقتبس **العلامة أوريجينوس** عن كتاب العبرانيين غير القانوني حديثا ليعقوب يقول فيه: "أنا ملاك الله، أحد الرتب الأولى للأرواح. يدعوني الناس يعقوب، وأما اسمي الحقيقي الذي يعطيني الله إياه فهو إسرائيل. يعتقد أفلاطون أن الهواء مملوء بالأرواح، والبعض بسبب نزعاتهم الطبيعية الحيوية يربطون أنفسهم بأجسام، والآخرون يبغضون مثل هذا الاتحاد".

"**أجاب يسوع:**

لا هذا أخطأ ولا أبواه،

لكن لتظهر أعمال الله فيه". **[٣]**

عوض إدانة المولود أعمى أو والديه وجَّه السيد المسيح أنظار تلاميذه إلى عناية الله الفائقة وخطته الخفية، فقد سمح بالعمى لكن يهب هذا المولود أعمى البصيرة الروحية، ولكي يشهد للحق الإلهي أمام القيادات اليهودية العنيفة ويمجد الله.

لم يقل السيد المسيح أن هذا الأعمى لم يخطئ، ولا أيضًا أبواه لم يخطئا، فكل البشرية تسقط في الخطية. لكن ما يعاني منه هذا الأعمى ليس بسبب خطية معينة ارتكبها هو أو والداه. ما يليق بالتلاميذ كما بالمؤمنين أن ينشغلوا بأعمال الله وخطته نحو كل إنسان ليتمتع بالبصيرة الداخلية، ويتعرف على أسرار الله، وينال شركة المجد الأبدي.

يد الله عاملة على الدوام وسط الضيقات كما في الأفراح، تحت كل الظروف الله يريد خلاصنا. فالمؤمنون لم ينالوا وعدًا بألا تحل بهم ضيقات أو آلام كغيرهم من سائر البشر، إنما بالعكس يتعرضون لضيقات أكثر. لكن ما يعزيهم هو إدراكهم لخطة الله في كل شيء، وتمتعهم بالنعمة الإلهية التي لهم فيها كل الكفاية. هذا ما وعدنا به الله كما قيل لبولس الرسول: "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل" (٢ كو ١٢: ٩).

لا يعرف المؤمن الشكوى وسط التجارب لأن عيناه مسمرتان على أبوة الله الحانية، وقلبه منفتح على إدراك خطة الله نحوه.

❖ المسيح هو المخلص، بعمل الرحمة صنع ما لم يعطِه في الرحم. الآن عندما لم يعطِ ذاك الأعمى عينين لم يكن ذلك عن خطأ فيه (الخالق) بالتأكيد، وإنما للتأجيل من أجل صنع المعجزة... "**لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه**"... إنه لم يعطه ما كان يمكنه أن يعطيه؛ إنه لم يعطه ما عرف أنه سيعطيه حين تكون هناك حاجة إلى ذلك.

لم يكن العمى بسبب خطية والديه ولا بسبب خطاياه هو "**لكن لتظهر أعمال الله فيه**"، فإننا نحن جميعًا حين وُلدنا كنا مرتبطين بالخطية الأصلية، ومع ذلك لم نُولد عميانًا. على أي الأحوال ابحث بحرص فإننا وُلدنا عميان. فمن لم يولد أعمى؟ أقصد عمى القلب. ولكن الرب يسوع الذي خلق الاثنين يشفي الاثنين[1].

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 86:1.*

القديس أغسطينوس

❖ قول السيد المسيح عن الأعمى: "**لا هذا أخطأ ولا أبواه**"، ليس مبرئًا لأبويه من الخطايا، لأنه لم يقل على بسيط ذات القول: "**لا هذا أخطأ ولا أبواه**"، لكنه أكمل: "**لكن لتظهر أعمال الله فيه**". لأن هذا الأعمى قد أخطأ هو ووالداه، إلا أن عماه هذا ليس بسبب هذا. لأنه لا يجوز أن يُعاقب أحد إذا أخطأ آخر، فقد أزال هذا الوهم بلسان حزقيال النبي إذ قال: "وكان إليّ كلام الرب قائلاً: ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين: الآباء أكلوا الحصرم، وأسنان الأبناء ضرست. حي أنا يقول السيد الرب لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل. ها كل النفوس هي لي، نفس الآب كنفس الابن، كلاهما لي النفس التي تخطئ هي تموت" (حز ١٨: ١-٤). هذا وقد قال موسى النبي: "لا يُقتل الآباء عن الأبناء، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيته يُقتل" (تث ٢٤: ١٦).

فإن قال قائل: فكيف قال الرب لموسى النبي: "لأني أنا الرب إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي" (خر ٢٠: ٥)؟ فنقول له: إن هذه القضية ليست كلية، لكنها إنما قيلت عن أناسٍ من الذين خرجوا من مصر، فالذي يقول هذا معناه: لما خرج اليهود من مصر وصاروا بعد رؤيتهم لآيات وعجائب أشر من والديهم وأجدادهم الذين لم يشاهدوا مثل هذه العجائب، سيقاسون المصائب نفسها التي قاساها أولئك إذ قد تجاسروا على هذه الأعمال نفسها.

❖ يقول هذا ليس كمن يشير إلى أنهم لم يخطئوا، فإن كل من هذا الإنسان ووالديه قد أخطأوا، لكن عماه ليس بسبب هذا... وإنما لكي يُعلن مجد الله فيه. يقول قائل: لماذا يعاني من أجل مجد الله؟ أي ظلم، أخبرني؟ فإنه ماذا لو أن لم يخلقه نهائيًا؟ لكنني أقول: لقد نال نفعًا بعماه، إذ نال شفاءً لبصيرته الداخلية. أي نفع لليهود بأعينهم إذ صارت دينونتهم أعظم، فإنهم رأوا وكانوا عاجزين؟ أي ضرر أصاب هذا الرجل من عجزه، فإنه بهذا انفتحت عيناه؟ لذا فشرور الحياة الحاضرة ليست شرورًا، ولا الخيرات هي صلاح. الخطيئة وحدها هي شر، أما العجز فليس شرًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كتب **القديس جيروم** إلى كاستريتوس *Castrutius of Pannonia* يعزّيه على عماه الجسدي:

❖ إذ أكتب إليك الآن أسألك ألا تتطلع إلى البلوى الجسدية التي حلّت بك ظانًا أنها بسبب الخطية...

[1] *Hom. 56. PG 59:327.*

أما نرى أعدادًا كبيرة من الوثنيين واليهود والهراطقة وأصحاب أفكار مختلفة يتمرغون في وحل الشهوة، ويسبحون في الدم في عنفٍ أكثر من الذئاب المفترسة وكالحدأة الخاطفة، ومع هذا لم يحل هذا الوباء إلى مساكنهم؟ إنهم لا يصابون مثل غيرهم، ويزدادون وقاحة ضد اللَّه، ويرفعون وجوههم حتى إلى السماء. ومن الجانب الآخر نحن نعرف أن القديسين يصابون بأمراضٍ وآلامٍ وأعواز... إن ظننت أن عماك سببه الخطية، وأن المرض الذي غالبًا ما يستطيع الأطباء أن يشفوه شهادة على غضب اللَّه، إذن فأنت تحسب اسحق خاطئًا، إذ أصيب بعمى كامل حتى خُدع، وهو يعطي البركة لمن لم يكن يود أن يعطيه. نتهم يعقوب بالخطية الذي اظلمّ نظره، فلم يعد يرى إفرايم ومنسّى (تك ٤٨: ١)، مع أنه بعينه الداخلية وروحه النبوية استطاع أن يرى المستقبل البعيد وأن المسيح قادم من السبط الملوكي (تك ٤٩: ١)[1].

القديس جيروم

لا يليق بالمؤمن وقد أدرك أسرار الله الفائقة أن يدين أحدًا أو يحسب ما يحل بالآخرين عقوبة إلهية لخطايا خفية، إذ يستخف بهم حتى وإن كانت خطاياهم ظاهرة. لقد سقط اليهود في ذلك فحسبوا البار، الذي بلا خطية، أنه يتألم ويُصلب عن شر أو تجديف ارتكبه. يقول المرتل: "لأن الذي ضربته أنت هم طردوه، وبوجع الذين جرحتهم يتحدثون" (مز ٦٩: ٥٦). ويقول إشعياء النبي: "نحن حسبناه مُصابًا مضروبًا من الله ومذلولاً، وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه، وبحُبره شُفينا" (إش ٥٣: ٤–٥).

"ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني مادام نهار،
يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل". [٤]

كانت لحظات حاسمة حين تطلع رب المجد يسوع إلى المولود أعمى. إنها ليست لحظات لشفاء عيني المولود أعمى فحسب، وإنما للكشف عن شخص السيد المسيح أنه نور العالم واهب البصيرة الداخلية، ومع هذا لم يستطِع أحد أن يكتشف ما وراء هذا العمى. لم يكن ممكنًا حتى تلك اللحظات لتلاميذ السيد المسيح أن يقرأوا ويفهموا كتاب العناية الإلهية، لكنه جاء الوقت فيما بعد لإدراك هذا السرّ الإلهي، وللتعرف على العمل الإلهي الفائق.

إنه لم يتقدم للعمل لإبراز قدرته على صنع عجائب، وإنما ليمارس أعمال أبيه الذي أرسله. لم يقل أمارس الأعمال التي أمرني بها أبي، وإنما يمارس ذات أعمال أبيه. ويلاحظ هنا الآتي:

[1] *Letter 68:1.*

أولاً: جاء إلى العالم لمهمة عمل، يحقق إرادة أبيه في طاعة كاملة كابن الإنسان، وهي ذات إرادة الابن. لهذا فمن يطيع، إنما يشارك مسيحنا طبيعة الطاعة.

ثانيًا: يمارس ذات عمل الآب، وهذا ما يؤكده السيد المسيح في إنجيل يوحنا في وحدة العمل الإلهي، كما سنرى في عبارات قادمة واضحة.

ثالثًا: بروح الحب للبشرية والطاعة والوحدة مع الآب يجد مسرة في تحقيق هذا العمل، بل والتزام محبة، إذ يقول: "**ينبغي أن أعمل**".

رابعًا: يعمل مادام نهار قبل أن يتحرك اليهود بالحقد والكراهية لقتل السيد المسيح. فترة خدمته هي فرص للعمل الظاهر حتى وإن كان الوقت سبتًا. هذه دعوة لنا للتحرك بالعمل، وانتهاز كل ساعات عمرنا لئلا ينتهي نهار عمرنا ولا نحقق رسالتنا. لقد وهبنا الله النهار للعمل (مز ١٠٤: ٢٢–٢٣)، لذا يليق بنا ألا نلهو في نهار عمرنا ولا نفسده، بل نجاهد في طاعة لله أبينا حتى متى حل المساء صار لراحتنا.

خامسًا: يدعونا نحن أيضًا أن نعمل به ومعه، وكما يقول الرسول: "العاملان مع الله" (١ كو ٣: ٩). ففي العمل معه راحة وكرامة ومجد، نشترك معه في العمل مادمنا في الحياة قبل أن يحل الليل.

❖ ماذا تعني تلك الكلمات؟ ما هي النتائج المترتبة عليها؟ كثيرة. لأن ما يقوله هو نوع من هذا: مادام نهار حيث يمكن للشعب أن يؤمن بي، مادامت هذه الحياة لازالت قائمة يلزمني أن أعمل. يأتي ليل، بمعنى أنه في المستقبل حيث لا يقدر أحد أن يعمل. لم يقل: "أنا لا أقدر أن أعمل"، بل "لا يقدر أحد أن يعمل"، بمعنى انه لا يعود يوجد إيمان ولا أعمال ولا توبة[1].

❖ لماذا دعا بولس هذه الحياة "ليلاً"؟ (رو ١٣: ١٢) وهنا دعاها السيد "نهارًا"؟ إنه لا يتحدث بما يعارض المسيح، إنما يقول نفس الشيء، وإن كان ليس في الكلمات لكن في المعنى. إنه يقول: "قد تناهى الليل وتقارب النهار". دعا الوقت الحاضر ليلاً، لأنه يقرنه بالنهار المقبل. دعا المسيح المستقبل "ليلاً" لأنه لا يوجد مكان لأعمال التوبة والإيمان والطاعة في العالم المقبل إن أُهملت خطية ما هنا. أما بولس فيدعو الحياة الحاضرة ليلاً، لأن من يستمر في شره وعدم إيمانه فهو في ظلمة. فإذ يوجه الحديث إلى المؤمنين قال: "قد تناهى الليل وتقارب النهار"، إذ يلزمهم أن يتمتعوا بذاك النور؛ إنه يدعو الحياة القديمة ليلاً. "فلنخلع أعمال الظلمة، ونلبس أسلحة النور"[2].

---

[1] *Hom 56. PG 59:328.*
[2] *Homilies on St. John, 56: 2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

هكذا إذ يوجه السيد المسيح حديثه إلى غير المؤمنين يحسب حياتهم هنا نهارًا إن قورنت بحياتهم في العالم المقبل. الآن وقت يمكن لهم أن يتمتعوا بنور شمس البرِّ في أعماقهم بالإيمان الحي والتوبة الصادقة؛ أما في العالم العتيد فتحيط بهم الظلمة، حيث لا مجال للرجوع إلى المخلص وتقديم توبة. أما الرسول بولس فيوجه حديثه إلى المؤمنين حاسبًا حياتهم الماضية ليلاً حيث كانوا يسلكون في أعمال الظلمة، وقد حان وقت الرحيل إلى العالم المقبل حيث يتمتعون بنور المسيح الأبدي، الذي أمامه تحسب الحياة هنا أشبه بليلٍ دامس.

❖ يا إخوة، إن وضعنا في الاعتبار عقوبتنا الموروثة، فالعالم كله أعمى. وقد جاء المسيح واهب الاستنارة، لأن الشيطان هو الذي يسبب العمى. لقد جعل كل البشرية مولودين عميانًا، ذاك الذي خدع الإنسان الأول. ليجروا نحو واهب الاستنارة. ليجروا ويؤمنوا ويتقبلوا الطين الذي من البصاق... ليغسلوا وجوههم في بركة سلوام... هوذا سلوام، اغسل وجهك، اعتمد، حتى تستنير وترى يا من كنت قبلاً لا ترى[1].

❖ أولاً: افتح عينيك لمن قال: "جئت لكي أعمل أعمال الذي أرسلني" (راجع يو ٩: ٤). الآن يقف الأريوسي في الحال ويقول: "هنا كما ترى لم يفعل المسيح أعماله هو بل أعمال الآب الذي أرسله"... هل هذه الأعمال ليست أعماله؟ ماذا يقول الذي هو نفسه سلوام، المُرسل نفسه، الابن نفسه، الابن الوحيد، الذي تشتكي له مقللاً من شأنه؟ ماذا يقول: "كل ما للآب هو لي" (يو ١٦: ١٥)... فإنه لم يقل: "كل ما للآب قد أعطاني". مع أنه حتى إن قال هذا يظهر أيضًا مساواته له... اسمع في موضع آخر: "وكل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠). التساؤل ينتهي، فإن ما للآب والابن هو كما باتفاقٍ واحدٍ، فلا تُدخل شقاقًا. ما يدعوه "أعمال الآب" هي أعماله هو، فإن ما هو لك فهو لي... "لأنه مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك (وبنفس الطريقة)" (يو ٥: ١٩)[2].

القديس أغسطينوس

يقدم لنا السيد المسيح نفسه مثالاً، بل ونائبًا عنا، حتى متى اختفينا فيه نمارس ذات عمله بذات روحه. لم يكن محتاجًا إلى جهاد، لأنه يعمل عمل أبيه بكل مسرة داخلية بالرغم من المقاومة المستمرة

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 85:1.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 85:3.*

ممن حوله. إنه ينبغي أن يعمل حتى خلال اتحادنا به، لا نكف عن الجهاد والشعور بالالتزام بالعمل قبل أن يحل بنا ليل الموت وينتهي نهار زماننا على الأرض.

"**مادمت في العالم فأنا نور العالم**". **[٥]**

يعمل السيد المسيح مادام الوقت نهار، أي مادام يمكننا أن نتمتع بأعماله الخلاصية، لأنه إذ ينتهي النهار ويحل ليل القبر لا يمكن الانتفاع بعد بأعماله، حيث لا مجال لتوبتنا ورجوعنا إليه. في نهار حياتنا يشرق علينا بكونه "**نور العالم**"، شمس البرّ الذي ينير نفوسنا وأذهاننا وكل أعماقنا.

سبق فأعلن أن عمله هو إشراق نوره على الجالسين في الظلمة (يو ٨: ١٢)، فهو شمس البرّ واهب الاستنارة والشفاء خلال أشعة حبه أو تحت جناحيه. كرأس للكنيسة يحول مؤمنيه إلى "**نورٍ للعالَم**" ليس لهم إلاَّ أن يحترقوا بنار الحب الإلهي من أجل الآخرين.

❖ قال هذا لنؤمن بأنه يتحدث عن التجسد، فإنه مادام هو إنسان. إنه في هذا العالم إلي حين، لكنه بكونه الله يوجد في كل الأزمنة. يقول في موضع آخر: "ها أنذا معكم كل الأيام وإلى كمال الدهر" (مت ٢٨: ٢٠)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ هنا يُظهر أنه حتى بعد الصليب يهب رعايته الحانية للأشرار، ويجذب كثيرين إليه. فإنه لا يزال الوقت نهار [٤]. ولكن بعد هذا فسيقطعهم تمامًا. يعلن عن هذا بقوله: "**مادمت في العالم فأنا نور العالم**". **(يو ٩: ٥)**. كما قال لآخرين: "مادام لكم النور آمنوا بالنور" (يو ١٢: ٣٦)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الابن الوحيد الجنس هو نور ليس فقط للعالم، بل ولكل خليقة علوية[3].

القديس كيرلس الكبير

❖ يُلقب "**نور العالم**" (يو ٩: ٥) لأجل عمله في إنارة العالم، الذي فيه هو النور.

ويُدعى القيامة إذ ينزع عن للذين يقتربون إليه بإخلاص ما هو ميت ويقيم فيهم خبرة الحياة.

وبسبب أعمال أخرى دُعي "الراعي" (يو ١٠: ١١-١٢)، والمعلم (يو ١٣: ١٣)، والملك (زك ٩:

---

[1] *Of the Christian Faith. 3:7 (48).*
[2] *Hom 56. PG 59:330.*
[3] *Explanation on the Gospel. PG 73:601B.*

٩؛ مت ٢١: ٥؛ يو ١٢: ١٥)، والسهم المختار (مز ٤٤: ٦؛ إش ٤٩: ٢)، والعبد (إش ٤٩: ٣)، بالإضافة إلى الشفيع والكفارة (١ يو ٢: ١ – ٢؛ رو ٣: ٢٥)، كما يدعى أيضًا اللوغوس، إذ ينزع عنا كل ما هو غير عاقل *alogon*، ويجعلنا بحق كائنات عاقلة نعمل كل شيء لمجد الله، حتى الأكل والشرب (١ كو ١٠: ٣١)، فنتمم الأعمال العامة والكاملة في الحياة لمجد الله، وذلك بسبب التعقل. إن كنا بالشركة معه نقوم ونستنير، وأيضًا يرعانا ويدبر حياتنا، فمن الواضح أننا أيضًا نصير عاقلين بطريقة إلهية عندما يحطم فينا كل ما هو ليس عاقل *irrational* وما هو ميت بكونه هو الكلمة والقيامة (يو ١: ١، ١١: ٢٥)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ ما هو ذاك الليل الذي متى حل لا يقدر أحد أن يعمل؟ اسمعوا ما هو هذا النهار، وعندئذٍ ستفهمون ما هو الليل... دعوه هو يخبرنا: "**مادمت في العالم فأنا نور العالم**" [٥]. انظروا هو نفسه النهار. دع الأعمى يغسل عينيه في النهار، لكي يرى النهار... إذن سيكون ليل من نوع ما هو عدم معرفة الشخص لي؛ حيث لا يكون بعد المسيح هناك، فلا يقدر أحد أن يعمل[2].

❖ إنه ليل الأشرار، ليل أولئك الذين سيُقال لهم في النهاية: "ابعدوا إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته".

الآن يعمل الإيمان بالحب، فإن كنا الآن نعمل – فيكون الآن نهارًا – إذ المسيح حاضر هنا.

اسمعوا وعده، ولا تظنوا أنه غائب. إنه بنفسه قال: "ها أنا معكم". إلى متى؟ ليتنا لا نقلق نحن الأحياء؛ حيث هذا ممكن إذ نكون في أمان كامل بكلمته في الأجيال القادمة.

إنه يقول: "هذا أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (مت ١٨: ٢٠). يوجد وقت للعمل وآخر لنوال الأجرة، فإن الرب سيكافئ كل واحدٍ حسب أعماله (مت ١٦: ٢٧).

مادمتم تعيشون اعملوا... فسيأتي ليل مرعب يغشى الأشرار في ثناياه. الآن كل غير مؤمن يموت يدخل في ليلٍ، حيث لا يوجد عمل يمكن أن يُفعل. في ذلك الليل كان الغني يحترق ويتألم ويعترف، لكنه لم ينل أية راحة. لقد حاول أن يفعل صلاحًا إذ قال لإبراهيم: "يا أبي إبراهيم، أرسل لعازر إلى إخوتي ليخبرهم ما يحدث هنا، لئلا يأتوا هم أيضًا إلى موضع العذاب هنا" (راجع لو ١٦: ٢٧–٢٨).

يا له من إنسان شقي! عندما كنت عائشًا كان وقت للعمل، الآن أنت في ليلٍ، حيث لا يقدر

---

[1] *Commentary on John, Book 1:267– 268.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 5.*

إنسان أن يعمل[1].

القديس أغسطينوس

"قال هذا وتفل على الأرض،
وصنع من التفل طينًا،
وطلى بالطين عيني الأعمى". [٦]

طريقة شفاء المولود أعمى فريدة، فمن المعروف أن الطين يفسد العين السليمة، فكيف يصنع من التفل طينًا ليطلي به عيني المولود أعمى؟ ولماذا لم ينتظر ليشفيه خفية حتى لا تهيج القيادات الدينية؟ وأيضًا لم ينتظر حتى يعبر السبت ليشفيه؟

أولاً: يؤكد السيد المسيح أنه يتمم عمله بحسب فكره الإلهي وليس حسب رغبتنا ووسائلنا البشرية.

ثانيًا: ما يشغله هو وهب الأعمى بصرًا لعينيه، وبصيرة لقلبه، دون اهتمام بمقاومة القيادات اليهودية له.

ثالثًا: لم ينتظر حتى يعبر السبت، لأن السبت هو يوم الراحة، فتستريح نفس المسيح بالعمل الإلهي واهب الاستنارة والراحة للغير.

رابعًا: يقدم نفسه مثلاً ألا نؤجل عمل الخير إلى الغد، بل ننتهز كل فرصة لنسرع إلى عمل الخير لئلا لا توجد هذه الفرصة في الغد.

خامسًا: صنع من التفل طينًا وطلى عينيه بيديه، ليؤكد أن سرّ القوة في المسيح نفسه، وفي عمل يديه. كل ما يصدر عن المسيح فيه قوة وحياة واستنارة، فإن يده قديرة.

❖ لاحظوا أنه عندما أراد أن يشفيه نزع عماه بأمرٍ يزيد العمى، إذ وضع طينًا[2].

❖ أخذ ترابًا من الأرض وذلك بنفس الطريقة هو يخلق (آدم). حقًا لو أنه قال: "أنا هو الذي أخذ ترابًا من الأرض وشكل الإنسان"، لكان الأمر شاقًا وبغيضًا على سامعيه أن يحتملوه. لكنه إذ أظهر الأمر خلال العمل الواقعي لا يقف شيء أمامه. لذلك إذ أخذ ترابًا ومزجه باللعاب يُعلن مجده الخفي. فإنه ليس بالمجد الهين أن يؤمنوا أنه صانع الخليقة[3].

❖ إن سألت: لِم لم يستعمل السيد المسيح ماءً في الطين الذي أصلحه، بل استعمل لعابه؟ أجبتك:

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 6.*
[2] *Hom 4. PG 61:27.*
[3] *Hom 56. PG 59:328.*

لكي لا يُنسب الشفاء إلى الينبوع، بل لكي تعرف أن القوة الظاهرة من فمه هي التي أبدعت عيني الأعمى وفتحتهما.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ منحه عينين جديدتين[1].

القديس بولينوس

❖ صنع العينين من الطين.
انبعث النور من التراب،
وذلك كما حدث في البداية...
أمر النور، فُولد من الظلمة.
هكذا هنا أيضًا.
صنع طينًا بلعابه،
وقدم كمالاً لما كان ناقصًا في الخليقة، وذلك منذ البداية،
ليظهر أن ما كان في يديه هو أن يقدم كمالاً لما هو ناقص في الطبيعة...
وإذ كانوا لا يريدون أن يؤمنوا أنه قبل إبراهيم.
برهن لهم بالعمل أنه ابن ذاك الذي شكلت يداه آدم الأول من التراب[2].

مار أفرآم السرياني

❖ فإذ صنع من التفل طينًا طلى بالطين أعيننا (يو ٩: ٦-٧)، وجعلنا نبصر جليًا (مر ٨: ٢٥) وفتح آذان (راجع مر ٧: ٣٣-٣٥) قلوبنا، حتى إذ صارت لنا آذان نسمع (راجع متى ١١: ١٥، ١٣: ١٩). وإذ نشتم رائحته الذكية (راجع أف ٥؛ ٢ كو ٢: ١٥)، مميزين اسمه كرائحة طيب مسكوب (نش ١: ٣، في ٢) وإذ ذقنا ونظرنا ما أطيب الرب (١ بط ٢: ٣، مز ٣٤ [٣٣]: ٨) وإذ لمسناه بتلك اللمسة التي يتحدث عنها يوحنا: "الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة" (١ يو ١: ١)، صار في إمكاننا حينئذٍ أن نذبح الحمل ونأكله، فنخرج بهذا من مصر[3].

---

[1] *Poem 23. ACW 40:219.*
[2] *Commentary on Tataion's Diatessaron, 28.*
[3] *Peri Pascha 18,19 (Translated by Robert J. Daly - ACW).*

العلامة أوريجينوس

"**وقال له:**

اذهب اغتسل في بركة سلوام الذي تفسيره مرسل،

فمضى واغتسل وأتى بصيرًا". **[٧]**

سلوام: تدعى أيضًا شيلوه *Siloo, Siloe, Shilooh*، وهي عبارة عن ينبوع كان تحت حصون أورشليم نحو الشرق، ما بين المدينة وجدول مياه قدرون. يرى البعض أن سلوام هي بنفسها عين روجل الواردة في يش ١٥: ٧؛ ١٨: ٦؛ ٢ صم ١٧: ١٧؛ ١ مل ١: ٩. كانت مياه هذا الينبوع تجمع في مخزن عظيم لاستخدام المدينة، وكان يصدر عنه مجرى ماء يغذي بركة بيت صيدا.

كانت هذه البركة تستمد المياه من ينبوع صادر عن جبل صهيون، فكانت مياه الهيكل "نهر سواقيه تفرح مدينة الله مقدس مساكن العلي" (مز ٤٦: ٤). إنها مياه حية شافية (حز ٤٧: ٩).

"**الذي تفسيره مرسل**"، إذ الاسم مشتق من العبرية *Shalach* وتعني "أرسل"، إما لأنهم كانوا يتطلعون إلى هذا الينبوع كعطية مرسلة من قبل الله لأجل استخدام مياهه في المدينة، أو لأن مياهها كانت تُرسل خلال قنوات أو أنابيب إلى جهات متباينة. يرى البعض أن الاسم يشير إلى نبوة يعقوب ليهوذا عن مجيء السيد المسيح من نسله: "حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع الأمم" (تك ٤٩: ١٠)، فهي رمز للسيد المسيح المُرسل من قبل الآب لإنارة النفوس وشفائها.

كان السيد المسيح يُدعى المُرسل، إذ هو رسول العهد (ملاخي ٣: ١)، ويكرر السيد في إنجيل يوحنا أن الآب قد أرسله. هكذا إذ يدعو الأعمى أن يذهب إلى بركة سلوام أو المرسل، إنما يدعو كل نفس تحتاج إلى الاستنارة أن تذهب إليه، إذ هو المُرسل الذي يطهر الإنسان من الخطية، ويشرق بنوره عليه، فيتمتع بالمعرفة السماوية، ولا تعود للظلمة موضع فيه.

❖ كما أن المسيح كان الصخرة الروحية (١ كو ١٠: ٤) هكذا كانت أيضًا سلوام الروحية[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

أبرز السيد المسيح طاعة هذا الأعمى، فمن جهة ترك ربنا يسوع المسيح الذي لم يره من قبل أن يصنع طينًا على عينيه دون أن يتذمر، أو حتى يتساءل كيف تُشفى عينان بالطين؟ ومن جهة أخرى أطاع وذهب إلى بركة سلوام واغتسل فيها، وربما سبق فاغتسل فيها ولم يتمتع بالبصر، وحتمًا كثيرون اغتسلوا بمياه سلوام ولم يُسمع عن أعمى قد شُفي بمياهها. لقد أعلن السيد عن فضائل هذا الأعمى

[1] *Homilies on St. John, 57: 1.*

المسكين كيف أطاع في يقين وثقة وهدوء.

❖ لاحظوا فكر الأعمى، كان مطيعًا في كل شيء. إنه لم يقل: إن كان بالحق الطين واللعاب يهبني عينين، فما الحاجة إلى سلوام؟ إن كانت هناك حاجة إلى سلوام فما الحاجة إلى الطين؟ لماذا هو يدهنني (بالطين)؟ ولماذا يأمرني أن أغتسل؟ إنه لم يفكر في مثل هذه الأمور. لقد هيأ نفسه لأمرٍ واحدٍ وهو الطاعة في كل شيء لذاك الذي قدم له الأمر، وألا يفعل شيئًا مضادًا له[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

تمتع المولود أعمى بالبصر الذي لم يتمتع به قبلاً، وكأنه قد نال ميلادًا جديدًا يختلف عن مولده السابق. بركة سلوام كانت تشير إلى مياه المعمودية التي تهب مع التطهير وغفران الخطايا استنارة داخلية.

كانت المياه تشير إلى العصر المسياني أو مملكة بيت داود: "لأن هذا الشعب رذل مياه شيلوه الجارية بسكوت..." (إش ٨: ٦).

عاد الأعمى بصيرًا، يرى ما لا يُرى، مسبحًا بكل كيانه ذاك الذي وهبه الاستنارة. وكما قيل بإشعياء النبي: "صوت مراقبيك يرفعون صوتهم، يترنمون معًا لأنهم يبصرون عينًا لعين عند رجوع الرب إلى صهيون" (إش ٥٢: ٨).

❖ يقول السيد المسيح للأعمى اذهب اغتسل في بركة سلوام، فإن قلت: لِم لم يعمل السيد المسيح هذا العمل في الحال، بل أرسل الأعمى إلى بركة سلوام؟ أجبتك: ليُعرف إيمان الأعمى، ولكي يُبكم مكابرة اليهود، ولأنه كان واجبًا أن يبصره كل من التقى به ذاهبًا إلى البركة مشتملاً الطين على عينيه. إذ بهذا المنظر الغريب يجتذب الكل إليه، سواء الذين كانوا يعرفونه أو الذين لم يكونوا يعرفونه، فالكل يلاحظه بكل دقة. وإذ ليس من السهل أن يُعرف الأعمى بعد تفتيح عينيه (إذ تتغير ملامحه) لذلك جعل السيد أولاً شهودًا كثيرين بطرق مختلفة، وبالمنظر الغريب يلاحظونه بدقة... حتى لا يمكنهم بعد المعجزة أن يقولوا أن هذا ليس هو.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ غسل عينيه في تلك البركة التي تفسيرها "مرسل". إنه اعتمد في المسيح. لذلك إذ عمده بطريقة ما فيها استنارة، وعندما مسحه (بالطين) ربما جعله موعوظًا[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 57: 1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 2.*

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** في صنع الطين بالتفل إشارة إلى أن الكلمة صار جسدًا[1].

٢. حوارات بعد الشفاء

أ. حوار بين الجيران والأعمى

الجيران وهم شهود عيان لما حدث يعرفون الأعمى تمام المعرفة. بسبب عظمة المعجزة وعدم توقعهم لحدوثها، مروا بثلاث مراحل من الشك، أوجدت ثلاث تساؤلات:

المرحلة الأولى: تشككهم في الشخص نفسه [٨] فأكد لهم الأعمى أنه هو [٩].

المرحلة الثانية: من الذي قام بها؟ وكانت الإجابة: إنسان يقال له يسوع [١١].

المرحلة الثالثة: أين هو؟ وجاءت الإجابة: "لا أعلم" [١٢].

كان الأعمى دقيقًا ومخلصًا للغاية في إجاباته على الأسئلة الثلاثة قدر معرفته في ذلك الحين.

"**فالجيران والذين كانوا يرونه قبلاً أنه كان أعمى قالوا:**

أليس هذا هو الذي كان يجلس ويستعطي؟" **[٨]**

دُهش جيرانه فقد وُلد ونشأ في وسطهم، واعتادوا أن يروه أعمى، وغالبًا ما كان يجلس مستعطيًا في بؤس، الآن فجأة صار بصيرًا، وصار بصره كاملاً، يسير هنا وهناك متهللاً. ذاك الذي لم يكن قادرًا على العمل بسبب عماه ونفسيته المحطمة، ولم يكن والداه قادرين على إعالته لذا كان يستعطي وهو جالس في الطريق أغلب يومه. لقد تغيرت حتى لهجته، وكلماته، فعوض كلمات الاستعطاف لكي ينال صدقة، صارت كلمات تحمل تسبيحًا وشكرًا. هذا وقد تمت معجزة شفائه علانية، ولم تكن خفية! مع هذا فقد تشكك البعض في شخصه، وتضاربت الأقوال، لأن شفاء مولود أعمى أمر يصعب قبوله، بل ومستحيل حسب الفكر البشري.

❖ يا لحنو الله! أينما نزل بحنوه العظيم شفى حتى الشحاذين، وهكذا أبكم اليهود، فإنه لم يأخذه في اعتباره الأشخاص المشهورين أو البارزين أو الحكام، بل الذين يبدو كمن لا يتأهلون لنوال نفس الرعاية. فقد جاء لخلاص الكل[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 2.*
[2] *Homilies on St. John, 57: 1.*

"**آخرون قالوا:**

هذا هو،

وآخرون إنه يشبهه،

وأما هو فقال: إني أنا هو". **[٩]**

ربما الذين قالوا: "**هذا هو**" هم الذين عاينوا ما حدث معه، إذ تم كل شيء علانية، أما الآخرون فلم يصدقوا قائلين: "**إنه يشبهه**"، لأن تفتيح عينيه أعطاه شكلاً مغايرًا تمامًا عما كان عليه. وبقوله "**إني أنا هو**"، يشهد أنه هو ذاك الذي كان قبلاً يستعطف حنو الناس الآن يتمتع بغنى نعمة الله الفائقة.

❖ لم يخزَ من عماه الأول، ولا خشي غضب الجمع، ولا استعفى من إظهار ذاته لينادي بمن أحسن إليه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقالوا له:**

كيف انفتحت عيناك؟" **[١٠]**

إذ شهد الأعمى أنه هو الذي نال نعمة الشفاء تساءل الجيران عن كيفية شفائه، لكي يتعرفوا على صانع المعجزة، ويبحثوا عنه. وكما يقول المرتل: "عظيمة هي أعمال الرب، مطلوبة لكل المسرورين بها" (مز ١١١: ٢).

"**أجاب ذاك وقال:**

إنسان يقال له يسوع صنع طينًا وطلى عيني،

وقال لي: اذهب إلى بركة سلوام واغتسل،

فمضيت واغتسلت، فأبصرت". **[١١]**

لقد قدم الحقيقة في بساطة حسب خبرته فقال: "**إنسان يُقال له يسوع صنع طينًا...**" لم يكن قد سبق فرأى يسوع لكنه سمع عنه، وسمع صوته حين أمره أن يغتسل في بركة سلوام، لقد شعر بأنه وضع شيئًا على عينيه اكتشف بعد شفائه أنه طين، وأن يسوع قد صنعه بنفسه وطلى به عينيه.

❖ انظروا لقد صار مبشرًا بالنعمة. انظروا إنه يكرز بالإنجيل؛ إذ نال البصيرة صار معترفًا. صار

ذاك الأعمى معترفًا، فاضطربت قلوب الأشرار، إذ لم ينالوا في قلوبهم ما ناله هذا في محياه[1].

القديس أغسطينوس

"فقالوا له:

أين ذاك؟

قال لا أعلم." [١٢]

جاء سؤالهم الثاني: "**أين ذاك؟**" هل عن تشكك في شخص صانع المعجزة لأنه كسر الناموس وحرض على الكسر. فمن جانبه صنع طينًا وطلى به العينين، ومن جانب آخر أمر الأعمى أن يسير حتى البركة ويغتسل. وربما تساءل البعض كنوعٍ من حب الاستطلاع ليروا أين ذلك القادر أن يفعل هذا، وربما وُجد من تساءل عن إخلاص ليلتقي به.

أجاب الأعمى: "**لا أعلم**"، إذ يبدو أن السيد انسحب للحال بعد أن أمره بالذهاب إلى بركة سلوام، ولم ينتظر حتى يرجع ليقدم الشكر. فإن مسرة السيد المسيح هي في العطاء المجاني دون انتظار لكلمة مديح أو شكر. وإن عاتب على عدم الشكر فهو من أجل الآخرين، إذ يريدهم شاكرين فرحين مسبحين كالملائكة.

❖ لاحظوا تواضع المسيح، فإنه لم يستمر مع من يشفيهم، لأنه لم يطلب أن يحصد مجدًا، ولا أن يجتذب الجماهير، ولا أن يظهر نفسه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ب. حوار بين الفريسيين والأعمى

"فأتوا إلى الفريسيين بالذي كان قبلاً أعمى". [١٣]

كنا نتوقع أن ينشغل الجيران بالبحث عن صانع المعجزة ليتعرفوا عليه ويتمتعوا به، لكنهم أمسكوا بالأعمى وأتوا به إلى الفريسيين، وكأنه مشترك في جريمة. قادوه كمتهمٍ أنه قبل كسر السبت حتى ولو كان فيه خلق لعينيه.

كان الموضوع أكبر من أن يعرض على كاهن أو أكثر، فإذ هو يمس الشعب ككل قادوه إلى مجلس السنهدرين صاحب القرار الأخير والقاطع في ذهن الشعب. كان أغلب أعضائه من الفريسيين، وكان أكثرهم يبذلون كل الجهد لمقاومة يسوع. ولعل البعض أتوا به إلى المجلس ليظهروا الحق،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 8.*
[2] *Homilies on St. John, 57: 2.*

ويكشفوا للفريسيين أن ذاك الذي يقاومونه قد خلق عيني للمولود أعمى، فيلتصقوا به عوض مقاومتهم له.

يرى البعض أن كلمة "الفريسيين" هنا تعني هيئة فرعية منبعثة عن مجمع السنهدرين الذي يضم رؤساء الكهنة مع الفريسيين. يضم المجمع هيئتين كل منهما تضم ٢٣ عضوًا، وكان لكل منهما حق المحاكمة في بعض القضايا. كان يوجد في المدن الكبرى هيئة مماثلة.

"وكان سبت حين صنع يسوع الطين وفتح عينيه". [١٤]

"فسأله الفريسيون أيضًا كيف أبصر.

فقال لهم: وضع طينًا على عيني واغتسلت،

فأنا أبصر". [١٥]

قدم الفريسيون ذات السؤال الذي وجهه إليه جيرانه، ولم يكن هذا بقصد التعرف على الحقيقة من مصدرها الأصلي، وإنما لعلهم يجدون علة يشتكون بها على شخص يسوع، ويشوهون بها صورته أمام الجمهور الذي التف حوله.

❖ تأمل كيف لم يضطرب الأعمى، فلم ينكر، ولم يقل أقوالاً مخالفة لأقواله الأولى، إذ أن الفريسيين والناس الآخرين ساقوا الأعمى على أن يكون جاحدًا من شفاه، فأصابهم ما لم يريدوه بخلاف أملهم، وعرفوا أعجوبة السيد المسيح أبلغ معرفة، وقد أصابهم هذا المصاب في كل موضع من آياته.

القديس يوحنا الذهبي الفم

جاءت إجابته على الفريسيين مشابهة لإجابته على جيرانه غير أنه لم يذكر عن السيد المسيح "صنع طينًا"، ربما لأنه لم يره وهو يصنع طينًا، حتى ولو كان بالترياق، فلم يرد أن يذكر في مجمع رسمي شهادة يمكن أن يعترضوا عليها: كيف رأى يسوع يصنع طينًا وهو أعمى؟ ولعله لم يذكر لأن صنع الطين هو عمل، فلم يرد أن يمسك اليهود على يسوع أنه كاسر السبت. ولنفس السبب لم يذكر عبارة: "وقال لي..." حتى لا يُتهم السيد المسيح كمحرضٍ على كسر الناموس بالذهاب إلى بركة سلوام والاغتسال فيها. وفي نفس الوقت في جرأة قال: "اغتسلت" ولم يخشاهم!

"فقال قوم من الفريسيين:

هذا الإنسان ليس من الله،

لأنه لا يحفظ السبت.

آخرون قالوا:

كيف يقدر إنسان خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات؟

وكان بينهم انشقاق". [١٦]

خلق عيني الأعمى كان كفيلاً أن يبكم المقاومين، لكن حدث شقاق في المجمع، فبعض الأعضاء الحرفيين في العبادة والمنشغلين بالمجد الباطل حسبوه كاسرًا للسبت، أو كاسرًا للوصية الإلهية، وعوض التمتع بشخص يسوع اضطهدوه كمجرمٍ: "**هذا الإنسان ليس من عند الله**". والفريق الآخر رأوا في عمله حب فائق وتنفيذ للوصية، وأن الشفاء علامة صادقة على صدق رسالته. غير أن هذا الفريق كان يمثل قلة قليلة لا تستطيع الوقوف أمام الغالبية الثائرة.

في ختام كل تعليم أو معجزة غالبًا ما كان يحدث انشقاق بين الجموع، وكان المقاومون يحتكمون لدى الفريسيين كقضاة وأصحاب سلطة دينية. أما هنا فالانشقاق بين القضاة أنفسهم، وربما هذا أدى إلى تأجيل الحكم في أمر يسوع المسيح.

❖ يقول يوحنا البشير "**وكان بينهم انشقاق**" لأن بعضهم منعهم حبهم للرئاسة عن المجاهرة بالسيد المسيح، وبعضهم أسكتهم جبنهم وخوفهم من الكثيرين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

لقد تعمد أن يشفي مفلوج بيت حسدا في يوم سبت ويأمره أن يحمل سريره ويمشي (يو ٥: ٨)، وأن يشفي المولود أعمى بصنع الطين وطلاء عينيه، فقد جاء في كتاب الجمارا[1] أن من يضع دواءً داخل العين في يوم سبت يُحسب ذلك خطية، وأمره أن يذهب إلى بركة سلوام ليغتسل. وكما يقول لايتفوت *Lightfoot* أن يسوع المسيح كسر السبت من نواحٍ كثيرة. أما كان يمكن أن يحقق الشفاء في غير السبت، وبدون هذه الأعمال؛ فلماذا أصر على الشفاء في السبت؟ لقد فعل ذلك لإبراز مفهوم السبت، إنه راحة في الرب، في ممارسة عمل الرب من حب ورحمة، وليس في حرفية قاتلة بالامتناع عن الأعمال اليومية الضرورية وأعمال المحبة.

❖ الذين طردوه استمروا عميانًا، إذ أثاروا اعتراضات على الرب أنه كان سبت عندما صنع طينًا من التفل وطلي عيني الأعمى. فعندما شُفي الأعمى بكلمة، فتح اليهود بابًا لإثارة اعتراضات...

[1] *Gemara. 14.*

لقد كسر الرب السبت (حرفيًا) لكنه لم يكن مذنبًا.

ماذا يعني قولي: "لقد كسر السبت"؟ هو النور الذي جاء فأزال الظلال. فقد فرض الرب الإله السبت. فرضه المسيح نفسه الذي كان مع الآب عندما أُعطي الناموس، لقد فرضه كما في ظلٍ لما يحدث بعد ذلك. "فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي ظل الأمور العتيدة" (كو ٢: ١٦-١٧)...

لماذا تبهجنا الظلال؟ افتحوا أيها اليهود أعينكم، فإن "الشمس" حاضرة.

"**نحن نعلم**" [٢٤]. ماذا تعلمون أيها العميان القلب؟ "**إن هذا الإنسان ليس من الله، لأنه لا يحفظ السبت**" [١٦].

السبت أيها التعساء عينه هو الذي وضعه المسيح الذي تقولون عنه أنه ليس من الله. أنتم تحفظون السبت بطريقة جسدانية، إنه ليس لكم تفل المسيح على أعينكم، أنتم لم تأتوا إلى سلوام، ولم تغسلوا وجهكم وتستمرون عميانًا. إنكم عميان عن الصلاح الذي لهذا الأعمى الذي لم يعد بعد أعمى لا بالجسد ولا بالقلب... "**لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون**" [٣٩][1].

❖ بالأحرى لقد حفظ السبت، إذ كان بلا خطية. فإن هذا هو السبت الروحي، أن يكون الشخص بلا خطية.

في الحقيقة يا إخوة هذا ما حثنا عليه الله عندما أمرنا بالسبت: "عملاً ما من الشغل (العبودية) لا تعملوا" (لا ٢٣: ٨). الآن ارجعوا إلى الدروس السابقة واسألوا ماذا يعني بعمل العبودية *servile work*، وأصغوا إلى الرب: "إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية" (يو ٨: ٣٤)[2].

القديس أغسطينوس

"**قالوا أيضًا للأعمى:**

ماذا تقول أنت عنه من حيث أنه فتح عينيك؟

فقال: إنه نبي". **[١٧]**

لقد ألقوا بالشباك أمام الأعمى لكي ينكر أن يسوع هو المسيا، حتى لا يتعرض للطرد من المجمع وربما للقتل.

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 86:3.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44:9.*

بعد استفسارهم عن طريقة شفائه سألوه عمن وهبه الشفاء، وما رأيه الشخصي فيه، وفي تصرفاته. كانوا يضغطون عليه ليجيب ولو بالسلبية كما فعل والداه، فيقول أنه قدم معلوماته عن شفائه، وأنه يترك التقرير في يد القيادات الدينية ليحكموا. لكنه خيَّب آمالهم وكرَّم واهب الشفاء. بحسب قانونهم الجديد حكموا عليه بالطرد ليكون مثلاً يُعتبر منه الآخرون.

كان هذا الأعمى مثل المرأة السامرية (يو ٤: ١٩)، كلاهما ظنا أنه **نبي** قبل أن يتعرفا على حقيقة شخصه أنه المسيا "**قدوس القديسين**" واهب البرّ الأبدي. لقد بدأ النور يشرق في قلبه، في بصيرته الداخلية كما أشرق في عينيه الجسديتين. بقوله: "**إنه نبي**" خشي الفريسيون من إدراك ما ورد في سفر دانيال أن القادم بعد قرابة ثلاثة قرون والشعب في ظلمة بلا نبي من قبل الله **خاتم الرؤى والنبوات، المسيا الأبدي** الذي تنتظره كل الأجيال. "سبعون أسبوعًا قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة، لتكميل المعصية، **وتتميم الخطايا، ولكفارة الإثم، وليؤتي بالبرّ الأبدي، ولختم الرؤيا والنبوة، لمسح قدوس القديسين**" (دا ٩: ٢٤).

❖ لاحظوا حكمة الرجل الفقير فقد تحدث بأكثر حكمة من جميعهم. قال أولاً: "**إنه نبي**" [١٧]. إنه لم يخشَ حكم اليهود والمعارضين الذين هم ضد السيد، القائلين: "**هذا الإنسان ليس من الله، لأنه لا يحفظ السبت**" [١٦]. لقد أجابهم: "**إنه نبي**"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ج. حوار بين الفريسيين ووالدي الأعمى

"فلم يصدق اليهود عنه أنه كان أعمى فأبصر،
حتى دعوا أبوي الذي أبصر". [١٨]

يقصد بكلمة "**اليهود**" هنا السلطات الدينية، خاصة الفريسيين وأعضاء مجمع السنهدرين. إنهم لم يصدقوا أنه وُلد أعمى، فاستدعوا والديه للتأكد أنه ابنهما، وأنه وُلد أعمى، لعلهم يجدون علة بها يقللون من شأن المعجزة أمام الشعب.

❖ لاحظوا بكم من الطرق حاولوا أن يطمسوا المعجزة بالظلمة ويزيلوها. ولكن هذه هي طبيعة الحق، بذات الوسائل التي يُهاجم بها من البشر، يصير الحق أقوى، ويشرق بذات الوسائل التي تُستخدم

[1] *Homilies on St. John, 58: 1.*

لطمسه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فسألوهما قائلين:**

أهذا ابنكما الذي تقولان أنه وُلد أعمى،

فكيف يبصر الآن؟" [١٩]

إذ لم يحتمل هؤلاء القادة نور الحق قدموا سؤالاً للوالدين في أسلوب يحمل عجرفةً وتهديدًا، فلم يكتفوا بالشر، وإنما بثوا الرعب وسط الشعب لكي يشاركوهم جحودهم للمسيا ورفضهم للحق الإلهي.

❖ لم يقولوا: "الذي كان في وقت من الأوقات أعمى"، لكنهم قالوا: "**الذي تقولان أنه وُلد أعمى**"، فقاربوا أن يقولوا: الذي جعلتماه أنتما أعمى.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابهم أبواه وقالا:**

نعلم أن هذا ابننا،

وأنه وُلد أعمى". [٢٠]

لم يخجل والداه من الاعتراف بأنه ابنهما الذي بسبب الفقر مع العمى كان يستعطي، وإذ لم يكونا شاهدي عيان لشفائه تهربا من الإجابة عن كيفية إبصاره خشية طردهما من المجمع.

"**وأما كيف يبصر الآن فلا نعلم،**

أو من فتح عينيه فلا نعلم.

هو كامل السن اسألوه،

فهو يتكلم عن نفسه". [٢١]

حقًا لم يكونا شاهدي عيان، لكنهما حتمًا قد عرفا وتأكدا من ابنهما نفسه، أن يسوع هو الذي شفاه. استخدما الحكمة البشرية ففقدا نعمة الشهادة للسيد المسيح، وحُرما من تقديم ذبيحة شكر وشهادة حق لصانع الخيرات. خشيا البشر فنصبا شركًا لنفسيهما ولابنهما، وكما يقول الحكيم: "خشية الإنسان تصنع شركًا، والمتكل على الرب يُرفع" (أم ٢٩: ٢٥).

"**قال أبواه هذا، لأنهما كانا يخافان من اليهود،**

[1] *Homilies on St. John, 58: 1.*

لأن اليهود كانوا قد تعاهدوا

أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح يخرج من المجمع". [٢٢]

الطرد من المجمع يعني عزله عن جماعة المتعبدين ويسمى ذلك *nidui*، وهو أقل أنواع الحرومات عند اليهود. أما الأناثيما *cheram, anathema* فاستُخدم ضد المسيحيين بعد القيامة.

كانت عقوبة الاعتراف بيسوع أنه المسيح هي الطرد من المجمع، إذ يُحسب كمن قد ارتد عن الإيمان اليهودي، فعزل نفسه عن الجماعة، ويُحسب متمردًا وخائنًا للقيادة الدينية. بطرده يدرك الشخص أنه غير أهلٍ لكرامة الانتساب إلى شعب الله، وعجزه عن التمتع بامتيازات إسرائيل.

لهذا الطرد نتائجه الخطيرة: الحرمان من العبادة العامة مع الشعب، والتطلع إليه ككاسرٍ للشريعة، فيُحرم من ممارسة العمل التجاري، كما يفقد حريته، وتُصادر ممتلكاته.

❖ لم يعد الطرد من المجمع بالأمر الشرير. هم يُطردون والمسيح يستقبلهم[1].

القديس أغسطينوس

"لذلك قال أبواه:

إنه كامل السن اسألوه". [٢٣]

❖ إذ سألوهما ثلاثة أسئلة: هل هو ابنهما؟ وهل ولد أعمى؟ وكيف أبصر؟ اعترفا بإجابة سؤالين فقط، وما ذكرا إجابة للسؤال الثالث، وفعلهما هذا صار من أجل الحق، حتى لا يعترف آخر إلا من نال الشفاء نفسه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

د. حوار ثان بين الفريسيين والأعمى

"فدعوا ثانية الإنسان الذي كان أعمى، وقالوا له:

أعطِ مجدًا لله،

نحن نعلم إن هذا الإنسان خاطئ". [٢٤]

استدعوا الأعمى للمرة الثانية وتعاملوا معه بوقارٍ شديدٍ وتكريمٍ ليكسبوه في صفهم، قالوا له: "**أعطِ مجدًا لله**"، أي لتقسم باسم الله أن تنطق بالحق. ثم حاولوا أن يملوا عليه لينطق بما يريدونه وهو أنه متظاهر كنبي وأنه معتد على الناموس، فإنه بهذا يسرهم، فينال منهم كرامة. ويرى البعض أن هذا

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 10.*

إجراء ديني قانوني مؤداه أنه مزمع أن يصدر حكم خطير ضده، أي قطعه من شعب الله أو الحكم عليه بالموت. وكأنهم يشهدون الله عليه قبل قطعه أو موته.

لعلهم بقولهم هذا عنوا هذا: "إنه رجل خاطئ وشرير، فأعطِ مجدًا لله بالأكثر، لأنه استخدم هذا الرجل أداة ليعمل به".

أرادوا أن يتشبهوا بيشوع عندما حكم على عاخان بالرجم إذ سأله أولاً: "أعطِ مجدًا للرب" (يش ٧: ١٦)، وطلب منه ألا يخفي شيئًا عنه، بل يعترف بما فعله حيث صار "حرام في وسط إسرائيل".

سبق أن أعلن السيد المسيح مجاهرة: "من منكم يبكتني على خطية؟" في حضوره لم يجسر أحد أن يتهمه، لكن من ورائه كانوا يقولون: "**نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ**" [٢٤].

❖ لم يقولوا للأعمى قولاً في ظاهره يخلو من الخجل بأن ينكر أن السيد المسيح أبرأه، بل أرادوا أن يخترعوا هذا الجحود بشكلٍ ورعٍ، لأنهم قالوا له: "**أعطِ مجدا لله**" وفي قولهم هذا وقاحة ظاهرة.

إذ يقولون للأعمى عن السيد المسيح: "**نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ**" أخاطبهم: كيف لم توبخوا السيد المسيح عندما قال: "من منكم يبكتني على خطية؟" (يو ٨: ٤٦)؟! من أين عرفتم أنه خاطئ؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ماذا يعني "**أعطِ مجدًا لله**"؟ اجحد ما قد نلته. فإن مثل هذا التصرف لا يمجد الله بل هو تجديف عليه[1].

القديس أغسطينوس

"**فأجاب ذاك وقال:**

أخاطئ هو لست أعلم،

إنما أعلم شيئًا واحدًا،

إني كنت أعمى والآن أبصر". **[٢٥]**

لم يشغل هذا الفقير أن يسر القيادات الدينية ولا أن ينال منهم كرامة، إنما في بساطة نطق بالحق، فصار شاهدًا حقيقيًا لشخص السيد المسيح.

كأنه يقول لهم أن شخصية من شفاني ليست موضوع حوار وجدال، فأنا في غنى عن هذا

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 11.*

الجدال. عمله لا يحتاج إلى حوارٍ، ما أعرفه أنني كنت أعمى والآن أبصر. هذه هي خبرتي معه. أو كأنه يقول لهم إن كنتم تدَّعون أنه خاطئ، فهذا ما لا علم لي به، إنما ما أعرفه هو ثقتي فيه التي ترفض تمامًا ما تقولونه عنه. والخبرة العملية هي أعظم وأقوى من الحوار النظري. هذه هي خبرة المؤمنين الحية، وكما يقول الرسول بولس: "لأنكم كنتم قبلاً ظلمة، وأما الآن فنور في الرب" (أف ٥: ٨).

أرادوا تحويل عمل المسيح إلى حوارات تناقشها الجماهير فتنشغل بالحوار لا بالشركة الحية مع المسيح، أما المولود أعمى ففضل خبرة الحياة الجديدة المستنيرة عن الانشغال بمناقشات غبية.

❖ هل بالحق لم يكن الأعمى مرتعبًا؟ لم يكن هذا هكذا. فكيف ذاك الذي قال: "**إنه نبي**" [١٧]، يقول الآن: "**أخاطئ هذا لست أعلم**" [٢٥]؟

قال هذا ليس لأنه هكذا كان فكرة، ولا ليقنع نفسه بهذا، **وإنما رغبة في تبرئة السيد من اتهاماتهم خلال شهادة الحقائق وليس بإعلانه هو عنه، حتى يجعل دفاعه قويًا عندما يشهد العمل الصالح نفسه ضدهم**. لذلك بعد حديث طويل قال الأعمى: "لو لم يكن بارًا لم يقدر أن يفعل مثل هذه المعجزة" [راجع ٣٣]، ثاروا وقالوا له: "**في الخطايا وُلدت أنت بجملتك وأنت تعلمنا؟**" [٣٤]. فلو أنه قال هذا من البداية أي شيء كانوا لا يقولونه؟ أو أي شيء كانوا لا يفعلونه؟

"**أخاطئ هو لست أعلم**" [٢٥]؛ كأنه يقول: "لست أقول شيئًا في صالح هذا الشخص، لا أقدم تصريحًا عنه حاليًا، لكن هذا بالتأكيد أعرفه وأؤكده أنه لو كان خاطئًا لما فعل مثل هذه الأمور".

هكذا حفظ نفسه بعيدًا عن الشكوك، فلا تفسد شهادته، ولا يتكلم عن تحيز، بل يقدم شهادات خلال الواقع[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقالوا له أيضًا:**

ماذا صنع بك؟

كيف فتح عينيك؟" **[٢٦]**

عادوا لاستجوابه بطريقة أخرى لعلهم يجدون في إجابته ما يناقض ما سبق فقاله، فيجدون علة على السيد المسيح. أرادوا أن يسألوه عن كيفية تفتيح عينيه لعله استخدم طريقة شيطانية. أما الشاب فضاقت نفسه من أسلوبهم غير اللائق، فلم يجب عليهم، بل رد السؤال بسؤال إن كانوا يريدون أن

[1] *Homilies on St. John, 58: 2.*

يتتلمذوا له، حاسبًا نفسه أنه تلميذ يسوع.

"**أجابهم: قد قلت لكم ولم تسمعوا،**
لماذا تريدون أن تسمعوا أيضًا؟
ألعلكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟" **[٢٧]**

جاءت إجابته تحمل روح الصراحة والشجاعة والشهادة الحية للسيد المسيح، كما جاء سؤاله لهم فاصلاً أن يختاروا أحد أمرين: التلمذة للسيد المسيح كما يتتلمذ هو على يديه، أو وقف الحوار معه. فإنه ليس من مجالٍ للحوار.

❖ ماذا كانت إجابته؟ إذ غلبهم وأسقطهم لم يعد يتحدث في خضوعٍ لهم. إذ كان الأمر يحتاج إلى سؤال وحوار تحدث معهم بحذرٍ حتى يأتي بالبرهان. وإذ غلب ونال نصرة فائقة تشجع ووطأ عليهم[١].

❖ ألا ترون كيف يتحدث شحاذ بجرأة أمام الكتبة والفريسيين؟ هكذا الحق قوي والباطل ضعيف. إذ يتمسك أناس عاديون بالحق يصيرون ممجدين، أما الباطل وإن استخدمه أقوياء يصيرون ضعفاء. وما قاله هو هذا: "إنكم لم تلتفتوا إلى كلماتي، لهذا لا أعود أتكلم وأجيبكم بعد، إذ تسألونني بلا هدف، ولا ترغبون أن تسمعوا لتتعلموا، وإنما لكي تسيئوا إلى كلماتي[٢].

❖ بقوله: "**ألعلكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟**" رتب نفسه في صف تلاميذ السيد المسيح، لأن قوله هذا واضح أنه صار تلميذًا للسيد المسيح. عندئذٍ سخر بهم وضايقهم جدًا. فإذ كان يعلم هذا يضرب بهم بشدة. قاله لهم، لكي يوبخهم بقسوة شديدة. هذا عمل نفس شجاعة تحلق في الأعالي، وتحتقر جنونهم، وتشير إلى عظمة هذه الكرامة (للتلمذة له)، إذ كان واثقًا جدًا، وأظهر لهم أنهم يشتمون من هو مستحق للإعجاب، لكنه لا يبالي بشتيمتهم إليه بل ما يقدمونه توبيخًا هو كرامة له[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ماذا يعني قوله: "ألعلكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟" فمن جهتي أنا قد صرت فعلاً هكذا،

---

[1] *Homilies on St. John, 58: 2.*
[2] *Homilies on St. John, 58: 2.*
[3] *Homilies on St. John, 58: 3.*

أتريدون أنتم أيضًا؟ إنني الآن أرى، أرى بدون ارتياب[1].

القديس أغسطينوس

"**فشتموه وقالوا:**

أنت تلميذ ذاك،

وأما نحن فإننا تلاميذ موسى". **[٢٨]**

إذ لم يستطيعوا مقاومة الحق لجأوا إلى لغة الشتيمة. وهذا ما يتوقعه كل من يلتصق بالحق. يقول السيد المسيح: "طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم، وقالوا عنكم كل كلمة شريرة، من أجلي كاذبين" (مت ٥: ١١). حملوا قلبًا مملوء بالكراهية ضد الحق الإلهي، قتالاً، فخرجت كلماتهم كطعن السيف (أم ١٢: ١٨؛ مز ٥٥: ٢١).

في استخفاف قالوا له: "**أنت تلميذ ذاك**". إذ لم يكن بعد قد رآه، ولا سمع لعظاته، لكنهم حسبوه تلميذه لأنه يشهد له، أما هو فكان يعتز بأن يكون تلميذه.

كانوا يفتخرون بعلاقتهم بموسى النبي كمعلمٍ لهم، فلا يحتاجون إلى معلمٍ آخر، ولا يطلبون ذلك. سبق أن افتخروا أمام السيد المسيح أنهم أبناء إبراهيم، والآن يعتزون بأنهم تلاميذ موسى، مع أنهم كانوا بأعمالهم وفكرهم غرباء عن إبراهيم وعن موسى. لو كانوا بحق أبناء إبراهيم لرأوا معه يومه وتهللوا (يو ٨: ٥٦). ولو كانوا بالحق تلاميذ موسى لالتصقوا بالسيد المسيح الذي تنبأ عنه موسى، عوض مقاومتهم له.

"**نحن نعلم أن موسى كلمه الله،**

وأما هذا فما نعلم من أين هو". **[٢٩]**

كأنهم يقولون: إننا متأكدون بأن خدمة موسى إلهية، لكن ليس لدينا أي دليل على أن هذا الشخص مدعو للخدمة، فكيف نترك موسى ونتبع شخصًا مجهولاً، غريبًا عن الخدمة الإلهية؟ قدموا ما يبرر اعتزازهم بموسى كمعلم لهمٍ، أن الله كلَّمه، ولم يدركوا أن يسوع هو كلمة الله نفسه المتأنس. موسى كان العبد الأمين المؤتمن على بيت سيده، أما يسوع فهو الابن الوحيد الجنس صاحب البيت (عب ٣: ٥، ٦) الذي يخدمه موسى.

في سخرية قالوا: "**وأما هذا فما نعلم من أين هو**" [٥٩]. حقًا لم يعلموا وما كان يمكنهم أن يعرفوا من أين هو ما لم يفحصوا أسفار العهد القديم بنية صادقة، ويطلبون من الله أن يكشف لهم عن

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 11.*

شخصه. لو فحصوا لأدركوا أنهم في الزمن الذي يأتي فيه المسيا المنتظر، لكنهم كآبائهم في عصر إرميا النبي الذين "لم يقولوا أين هو الرب" (إر ٢: ٦).

❖ لم يقولوا نحن سمعنا أن موسى كلمه الله" إنما قالوا "**نحن نعلم**" [٢٩]. أيها اليهود، هل أنتم متأكدون مما سمعتموه، إذ تعلمون هذا، بينما تحسبون ما ترونه أقل ثقة مما تسمعونه؟ واحد لم ترونه بل سمعتم عنه، والآخر لم تسمعوه وإنما رأيتموه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أهكذا تتبعون العبد وتعطون القفا للرب؟ فإنكم بهذا لستم تتبعون العبد، لأنه هو نفسه يقود إلى الرب[2].

القديس أغسطينوس

"**أجاب الرجل وقال لهم:**

إن في هذا عجبًا،

أنكم لستم تعلمون من أين هو، وقد فتح عيني". **[٣٠]**

دُهش الأعمى لإحساسهم بأن يسوع غريب عن الخدمة الإلهية، وقد فعل ما لم يفعله موسى النبي، تفتيح عيني إنسان مولود أعمى. لقد عرفت المدينة كلها بالمعجزة، لأنه كان يستعطي وكثيرون من كل نواحي المدينة رأوه وتيقنوا أنه أعمى طول الماضي، وها هو يقف ويسير شاهدًا بعمل السيد المسيح الفائق.

إن كان الأعمى قد وجد عجبًا في يسوع لأنه فتح عينيه بل وخلقهما برعايته وسلطانه الفائق، والآن يجد عجبًا في هؤلاء القادة العميان أنهم يجلسون على كرسي القضاء ولا يرون الحق الواضح، مع أنه قدم الحقائق التالية:

✞ فتح يسوع عينيه، هذه حقيقة عملية لا يمكن إنكارها.

✞ الله لا يسمع للخطاة (مز ٦٦: ١٨)، بينما هم يقولون أنهم يعلمون بأن هذا الإنسان خاطئ.

✞ الله يسمع للأتقياء الذين يعملون إرادته.

✞ لم نسمع في تاريخ العالم أن أحدًا فتح عيني مولود أعمى، لم يقم حتى موسى بمثل هذا العمل.

✞ إن كان يسوع ليس من عند الله كأنه بلا قوة.

---

[1] *Homilies on St. John, 58: 3.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 12.*

هكذا نصبوا الفخ فوقعوا هم فيه.

"**ونعلم أن الله لا يسمع للخطاة،**

ولكن إن كان أحد يتقي الله ويفعل مشيئته فلهذا يسمع". **[٣١]**

جاءت كلمة خطاة هنا في اليونانية *hamartooloon* لتعني الوثنيين غير المؤمنين يقابلها كلمة *theosebees* لتعني المتعبد لله. الله لا يسمع لمن يطلب بفمه أن يخلص بينما بقلبه وسلوكه مصمم على الالتصاق بالشر والتلذذ به.

❖ هنا أظهر ليس فقط أنه بلا خطية، وإنما أعلن أنه موضع سرور الله جدًا، ويعمل إرادته. فإذ دعوا أنفسهم "عابدي (متقي) الله" أضاف "**ويعمل مشيئته**". كأنه يقول: "إنه لا يكفي أن يعرف الناس الله بل يلزمهم أن يعملوا مشيئته"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بعيني الإيمان ترون هذا الأعمى إنه أعمى أيضًا (بالقلب) إذ تسمعونه يخطئ. سأخبركم فيمَ أخطأ هذا الأعمى.

أولاً إنه ظن في المسيح أنه نبي، ولم يعرف أنه ابن الله. لذا نسمعه يجيب من خلال خطأه، إذ قال: "نحن نعلم أن الله لا يسمع للخطاة" [٣١].

إن كان الله لا يسمع للخطاة، فأي رجاء لنا؟

إن كان الله لا يسمع للخطاة، فلماذا نصلي، ونعترف بسجل خطيتنا بالقرع على الصدر؟

أيضًا أين ذلك العشار الذي صعد مع الفريسي إلى الهيكل (لو ١٨: ١٠)، وبينما كان الفريسي منتفخًا مستعرضًا استحقاقاته الذاتية، وقف بعيدًا وبعينين متطلعتان نحو الأرض وقارعًا صدره معترفًا بخطاياه، نزل هذا الإنسان المعترف بخطاياه من الهيكل مبررًا أكثر من الفريسي؟

إذن بالتأكيد يسمع الله للخطاة. لكن الذي نطق بهذه الكلمات لم يكن بعد قد غسل وجه قلبه في سلوام.

لقد عبر السرّ أمام عينيه، لكن لم يتأثر القلب ببركة النعمة.

متى غسل هذا الأعمى وجه قلبه؟ عندما جاء إليه الرب نفسه بعد أن طرده اليهود. إذ وجده وقال له: "أتؤمن بابن الله؟" أما هو فقال: "من هو يا سيد لأؤمن به؟" لقد رآه فعلاً بعينيه فهل رآه بقلبه؟ لا،

[1] *Homilies on St. John, 58: 3.*

لم يكن بعد قد رآه بقلبه. انتظروا فإنه سيراه...

أجابه يسوع: "الذي يتكلم معك هو هو" [٣٧]. هل شك؟ لا، فقد غسل وجهه.

لقد تكلم مع "سلوام" التي تفسيرها "المُرسل". من هو المُرسل إلاَّ المسيح؟... هو نفسه سلوام. **اقترب إليه الرجل الأعمى بقلبه، لقد سمع وآمن وسجد، غسل وجهه فرأى**[1].

القديس أغسطينوس

❖ في الخروج أيضًا الكهنة الذين يقتربون إلى الرب الإله يلزمهم أن يتقدسوا لئلا يتركهم الرب (خر ١٩: ٢٢). وأيضًا الذين يقتربون إلى مذبح القدوس للخدمة لا يجلبوا معهم خطية لئلا يموتوا (خر ٢٨: ٤٣)[2].

الشهيد كبريانوس

❖ إذ نضع هذه الأمور أمام أعيننا فبكل حرص وتقوى نهتم بذلك في سيامة الأساقفة، فيلزمنا أن لا نختار أحدًا إلا الكهنة الذين بلا عيب والمستقيمين الذين يقدمون ذبائح الرب بقداسة واستحقاق أمام الله. هؤلاء قادرون أن تُسمع صلواتهم هذه التي يقدمونها من أجل سلامة شعب الرب[3].

الشهيد كبريانوس

"**منذ الدهر لم يسمع أن أحدًا فتح عيني مولود أعمى**". **[٣٢]**

منذ بدء الأزمنة، قبل عصر الآباء والأنبياء لم يُسمع قط أن أحدًا ما – حتى موسى – قد فتح عيني مولود أعمى.

"**لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئًا**" **[٣٣]**.

قدم الأعمى نتيجة صادقة، وهي أنه لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئًا، لأنه ينبوع كل صلاح. ليس من صلاح يمكن أن يتحقق بدونه.

"**أجابوا وقالوا له:**

في الخطايا وُلدت أنت بجملتك،

وأنت تعلمنا.

فأخرجوه خارجًا". **[٣٤]**

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 86:2.*
[2] *Letter 63 to ○Epictetus: 2.*
[3] *Letter 69 to Asturica: 2.*

كأنهم يقولون له: "ها أنت قد نلت جزاءً عادلاً، فجئت إلى العالم مشوهًا، بلا عينين، بسبب خطاياك السابقة، ولا تستحق أن تشارك المؤمنين عبادتهم لله، فكيف تمارس دور المعلم للقادة؟ ثم أصدروا أمرًا بحرمانه من الشركة في العبادة لله. إذ لم يكن لديهم القدرة على الرد عليه، استخدموا سلطانهم بحرمانه وطرده.

احتقروه وأهانوه قائلين: إنك لست مثل كل إنسان مولود بالخطية، وإنما "**أنت بجملتك وُلدت في الخطايا**". أنت فاسد تمامًا، تحمل الفساد في نفسك كما في جسدك، وها هي علامات الفساد قد انطبعت عليك بتشويه جسدك وحرمانك من البصر، هوذا الطبيعة نفسها قد وسمته بالفساد. ولعلهم حسبوا فقره الشديد واستعطائه علامة من علامات الغضب الإلهي عليه بسبب خطاياه.

استخفوا بكلماته وهم في دهشةٍ: كيف يقف هذا الغبي الأمِّي الذي يجهل حتى نور الشمس إذ لم يره من قبل والذي يجلس يستجدي أن يحتل مركز المعلم بالنسبة لقادة الفكر والعلم؟

في كبريائهم رفضوا التعلم خاصة ممن هم أقل منهم رتبةً أو علمًا. مع أن الإنسان الصالح لن يأنف من أن يتعلم كل يوم حتى آخر نسمة من نسمات حياته. يستطيع أن يتعلم حتى من الأطفال الصغار. رفض التعليم هو الغباوة عينها والجهالة!

إذ اقترب جدًا من ضمائرهم لم يحتملوه بل طردوه، ولعلهم طلبوا من الخدم أو الحرس أن يخرجوه ولو بالقوة.

إذ عجز القادة المتعلمون عن الحوار في تشامخ أصدروا الحكم بطرده خارجًا. أخرجوه خارج لكنهم لم يعزلوه عن الشركة مع المسيح. ظنوه غير أهلٍ للعضوية الكنسية اليهودية، ولم يدركوا أنه يتأهل للعضوية في جسد المسيح.

لم يدركوا أنهم بهذا ترتد عليهم الإهانة، فإنه إن كان حسب فكرهم قد وُلد بجملته في الخطايا لأنه وُلد أعمى، فها هو قد بريء من العمى، فيكون من شفاه قادر على نزع الخطايا وإزالتها؛ وهذا من عمل الله.

❖ سُجلت هذه الأمور لكي نقتدي بها.

الرجل الأعمى، الشحاذ، الذي لم يكن بعد قد رأى السيد وقد أظهر جرأة باستقامة قبل أن يشجعه المسيح، ووقف في وجه كل القتلة الممسوسين من الشيطان، الثائرين، الذين أرادوا بكل وسيلة أن يدينوا المسيح. فإنه لم يخضع لهم ولا أعطاهم القفا بل بجرأةٍ أبكم أفواههم، مفضلاً بالأحرى أن يُطرد خارجًا عن أن يخون الحق.

كم بالأكثر يليق بنا نحن الذين نعيش زمانًا طويلاً في الإيمان ورأينا ربوات المعجزات تتم بالإيمان، وتقبلنا بركات أعظم مما نالها هو، إذ انفتحت أعيننا الداخلية، وتعرفنا على إسرارٍ لا توصف، ودعينا إلى كرامة عظيمة كهذه، أقول كم يلزمنا أن نظهر جرأة في الحديث مع الذين يتهمون المسيحيين، ونبكم أفواههم دون أن نخنع في ضعف.

يمكننا أن نفعل ذلك إن كانت لنا جرأة، وكنا مهتمين بالكتب المقدسة ونسمعها بغير إهمالٍ[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ماذا يعني "**بجملتك**" هنا؟ حتى إلى عمى العينين.

لكن ذاك الذي فتح عينيه قد خلصه أيضًا بجملته، إنه سيمنحه القيامة عن يمينه ذاك الذي أنار ملامحه[2].

❖ عندما طردوه استقبله الرب، فإنه قدر ما طرد صار مسيحيًا[3].

القديس أغسطينوس

هـ. حوار بين المسيح والأعمى

"فسمع يسوع أنهم أخرجوه خارجًا،

فوجده وقال له:

أتؤمن بابن الله؟" [٣٥]

واضح أن السيد المسيح كان كمن يبحث عنه ليجده. وجده حين طرده الفريسيون، وحرموه من حقه كعضوٍ في شعب الله. وربما خشي والداه من إيوائه لئلا يكون مصيرهم كمصيره. وجده إله المطرودين والمرذولين وأب الأيتام وقاضي الأرامل، والمهتم بمن ليس لهم من يسأل عنه.

قوله: "**أتؤمن بابن الله؟**" يعادل القول: "أتؤمن بالمسيا"، لأن هاتين السمتين لا تنفصلان (يو ١: ٣٤، ٤٩؛ ١٠: ٣٦؛ مت ١٦: ١٦؛ مر ١: ١).

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح وقد رأى في الأعمى حبه للحق وشجاعته وهبه الشوق إليه قبل أن يعلن ذاته له[4]. هكذا كل من يطلب الحق في جدية ولا يخشى الباطل يجتذبه

---

[1] *Homilies on St. John, 58: 4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 15.*
[4] *Homilies on St. John, 59: 1.*

الحق إليه بالحب ثم يعلن ذاته له.

❖ الذين يعانون من الأمور المرعبة والشتائم بسبب الحق والاعتراف بالمسيح هؤلاء يكرمون على وجه الخصوص...

لقد أخرجه اليهود خارج الهيكل، ورب الهيكل وجده.

لقد عُزل من الصحبة المهلكة، والتقى بينبوع الخلاص.

أهانه الذين أهانوا المسيح، فكرمه رب الملائكة.

هكذا هي مكافآت الحق.

ونحن أيضًا إن تركنا ممتلكاتنا في هذا العالم نجد ثقة في العالم العتيد.

إن صرنا هنا في ضيق نجد راحة في السماء، وإن شُتمنا من أجل الله نُكرم هنا وهناك[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب ذاك وقال:**

من هو يا سيد لأومن به". **[٣٦]**

واضح أنه لم يره من قبل، وإن كان قد سبق فسمع صوته عندما أمره بالذهاب إلى بركة سلوام ليغتسل. لقد أكتشف أنه هو الذي شفاه فآمن به.

لم نسمع عن حوارٍ تم بين السيد المسيح والأعمى قبل شفائه، كما حدث مع مفلوج بيت حسدا. يبرر البعض ذلك بأن الأعمى لم يكن بعد قد رأى المسيح، وربما بسبب فقره الشديد وانشغاله بالاستعطاء لم يتحدث معه أحد عن السيد المسيح وأعماله الفائقة. لهذا لم يقل له السيد: "أتريد أن تبرأ؟" كما قال للمفلوج. حينما حُرم الأعمى من الصداقات البشرية وعانى من الشعور بالنقص كما بالشعور بالعزلة، جاءه السيد المسيح يشبع احتياجاته، ويملأ أعماقه بالحب الإلهي.

يؤكد البعض عدم إيمان الأعمى ليس عن عمدٍ، وإنما عن عدم وجود فرصة للسماع عنه والالتقاء به. لهذا بعدما شفاه السيد، وبعد حوارات كثيرة تمت حوله وبعد طرده خارجًا وجده يسوع وسأله: "**أتؤمن بابن الله؟**" [٣٥]، وجاءت إجابته تكشف عن شوقه للإيمان: "**من هو يا سيد لأومن به؟**" [٣٦].

❖ قال الأعمى للسيد المسيح: "**من هو يا سيد لأومن به**"، لأنه لم يكن بعد قد عرفه على الرغم من

[1] *Homilies on St. John, 59: 1.*

أنه قد استمد منه الشفاء، لأنه كان ضريرًا قبل أن يجيء إلى المحسن إليه. ولم يقل الأعمى للسيد المسيح في الحال "أؤمن"، لكنه خاطبه على سبيل السؤال، فقال له: "**من هو يا سيد لأؤمن به؟**" هذا قول نفس تائقة مبتغية إياه جدًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال له يسوع:**

قد رأيته،

والذي يتكلم معك هو هو". **[٣٧]**

لا يحتاج أن يذهب الإنسان بعيدًا ليلتقي معه، فإنه قريب جدًا. وكما يقول الرسول بولس: "لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء، أي ليحدر المسيح، أو من يهبط إلى الهاوية، أي ليصعد المسيح من الأموات، لكن ماذا يقول: الكلمة قريبة منك" (رو ١٠: ٦–٨).

فتح السيد المسيح عينيه لكي ينظر إليه الأعمى ويراه. إن كان تفتيح العينين قد أبهجا هذا الأعمى، فإن رؤيته لابن الله أعظم جدًا من تمتعه بالعينين الجسديتين. رؤيته لابن الله أبهجت قلبه أكثر من كل أنوار العالم. وها نحن بالإيمان نتمتع بالبصيرة الداخلية، فننعم برؤية السيد المسيح، وندرك سرّه كابن الله الوحيد الجنس. حقًا يستطيع أن يترنم مع المرتل قائلاً: "بنورك يا رب نعاين النور" (مز ٣٦: ٩).

"**فقال أومن يا سيد وسجد له**". **[٣٨]**

بقوله "**أؤمن**" عني "أؤمن أنك المسيا"، مقدمًا دليلاً على صدق إيمانه، أنه سقط وسجد أمامه. لم يره من قبل، ووجد مقاومة شديدة ضده من السلطات الدينية، لكنه إذ اختبر بنفسه تفتيح عينيه آمن بلاهوته وسجد له، ممجدًا إياه كمخلصٍ له. لقد انفتحت بصيرته الداخلية، وتعرف على أسرارٍ إلهية لم يكن ممكنا لأعضاء مجمع السنهدرين أن يدركوها ويؤمنوا بها.

آمن الأعمى واعترف بالسيد المسيح، ولم يكن محتاجًا إلى حوارٍ، إذ تمتع بعمله الإلهي العجيب وبالبصيرة الروحية. آمن بقلبه واعترف بلسانه أمام الرب والناس، حتى أمام المقاومين. هكذا صارت القصبة المرضوضة شجرة مغروسة على مجاري الروح مملوءة ثمرًا.

"**سجد له**"، إذ لم يقدم له تكريمًا كما لإنسان ليعبر عن شكره له، لكنه قدم له سجودًا لائقًا بالعبادة لله. هكذا عبَّر عن إيمانه بالشهادة العلنية دون خوف، والعبادة لله بروح التواضع. لم يروِ لنا الإنجيلي يوحنا لنا شيئًا عن هذا الأعمى بعد هذا السجود، إنما ما هو واضح من قول السيد أنه صار مبصرًا،

يتبع النور ويحيا فيه.

سجد الأعمى أمام السيد المسيح، غالبًا في حضرة الفريسيين؛ عندئذٍ قدم السيد المسيح أمامهم تعليقًا عما تثمره خدمته الإلهية في هذا العالم. ويظن البعض أن هذا الحديث جاء في لقاء آخر مع الفريسيين ليس بعد سجود الأعمى مباشرة.

جاء إلى العالم كمخلصٍ وليس كديانٍ، لكن إذ يرفض الأشرار غير المؤمنين عمله يسقطون تحت الدينونة. خدمته الإلهية أقامت من البشرية فريقين: فريق يعترف بعماه فيؤمن ويقبل النور، وآخر يظن أنه مبصر فيرفض الإيمان ويبقى في ظلمته، وتصير أعمال المسيح دينونة عليهم. هكذا ينقسم العالم إلى مؤمنين وغير مؤمنين، وهذا هو الخط الواضح في أكثر أحاديث السيد المسيح في هذا السفر. صارت أعمال المسيح الخلاصية أو إنجيله حياة لحياة، ويحمل رائحة موت لموت. أشرق على الأمم نور عظيم يهبها حياة وأطلقها من الأسر (إش ٦١: ١)، وأصيب إسرائيل في كبريائه بالعمى فألقي بنفسه في دائرة الموت.

❖ الآن في النهاية بوجهه الذي اغتسل وضميره الذي تطهر عرفه ليس فقط ابن الإنسان كما اعتقد قبل ذلك، بل ابن الله الذي أخذ جسدنا. "**فقال: أومن يا رب**"...[1]

القديس أغسطينوس

و. حوار بين المسيح والفريسيين

"**فقال يسوع:**

لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم،

حتى يبصر الذين لا يبصرون،

ويعمى الذين يبصرون". **[٣٩]**

إنها لحظات عجيبة شدت أنظار الواقفين، سواء التلاميذ أو الجموع أو بعض الفريسيين، فقد سجد الأعمى عند قدمي ربنا يسوع يعلن إيمانه به أنه ابن الله. أقول أنه مشهد سحب أنظار السمائيين وهم يرون إيمان هذا الإنسان الصادق مع نفسه ومع مقاومة أعلى درجات القيادة الدينية للحق. إنه منظر يفرح قلب السيد المسيح، ليس لاحتياجه إلى من يشهد له، ولكن لأنه يود أن يتمتع الكل بالنور السماوي.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 15.*

لقد سبق فأعلن السيد أنه ما جاء إلى العالم ليدينه بل ليخلصه (يو ٣: ١٧). لكنه إذ يشرق بنوره على الجالسين في الظلمة بنوره يصير المستنيرون علة دينونة للذين أحبوا الظلمة أكثر من النور (يو ٣: ١٩). إنهم يدينون أنفسهم بأنفسهم، لأنهم حتى يتعثرون ويسقطون في الحفرة، إذ هم "عميان قادة عميان" (مت ١٥: ١٤).

نال الأمم الذين جلسوا في الظلمة زمانًا نور المعرفة والبصيرة الحقيقية. أما اليهود الذين تظاهروا أنهم أبناء النور وأصحاب المعرفة الروحية، وأساءوا استخدام طول أناة الله ورحمته، ففقدوا خلاصهم الذي رذلوه، وأصابهم عمى روحي. استطاع الأعمى الأمي أن يتعرف على أسرار إلهية، بينما الفريسيون أصحاب المعرفة جهلوا هذه الأسرار. لم يقرأ الأعمى الكتاب المقدس، ربما سمع في بساطة وإخلاص بعض العبارات الكتابية والقصص الخاصة بتاريخ الخلاص. أما هم ففحصوا الكتب وحفظوا عبارات عن ظهر قلب وتمسكوا ببعض التفاسير، لكن عملهم هذا لم يكن عن إخلاص في معرفة الحق، لذا لم يتأهلوا لإدراك الأمور الواضحة عن المسيا.

سرّ عماهم أنهم يظنون في أنفسهم أنهم مبصرون: يعرفون موسى وأنهم تلاميذ له، يعرفون السبت ويحفظون شريعته، كما يعرفون أن الأعمى قد وَلد بجملته في الخطية.

❖ تحذير خطير! **يبصر الذين لا يبصرون** [٣٩]،

حسنًا! إنه عمل المسيح، إعلان قوة الشفاء!

ولكن ما هذا الذي تضيفه يا رب؟ "**يعمى الذين يبصرون**" [٣٩]؟ إنهم اليهود. هل يرون؟ حسب كلماتهم إنهم يبصرون؟ وبحسب الحق لا يبصرون.

ماذا إذن "**يبصرون**"؛ إنهم يظنون أنهم يبصرون، يعتقدون هذا. إذ ظنوا أنهم يصونون الناموس ضد المسيح... هؤلاء الذين لا يعترفون بعماهم تقسوا بالأكثر... بالحقيقة قد تم القول "**يعمى الذين يبصرون**"، فإن المدافعين عن الناموس، الأساتذة في الناموس، معلمي الناموس، فاهمي الناموس، صلبوا واضع الناموس.

يا للعمى الذي حصل جزئيًا لإسرائيل (رو ١١: ٢٥). ماذا يعني "**يبصر الذين لا يبصرون**"؟ "إلى أن يدخل ملء الأمم" (رو ١١: ٢٥). كل العالم قد سقط في العمى، لكن جاء لكي "**يبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون**"...

يا للعمى الخطير؟ لقد قتلوا النور، لكن النور المصلوب أنار العميان[1].

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 86:4.*

❖ الآن إنه اليوم الذي يميز بين النور والظلمة![1]

❖ لقد تسلمتم الناموس، وأنتم تريدون أن تحفظوه، لكنكم عاجزون عن ذلك؛ لقد سقطتم من الكبرياء فتروا ضعفكم. اشتاقوا إلى المسيح. اعترفوا له، آمنوا به. لقد أضيف الروح إلى الحرف فتخلصون. فإنك إن نزعت الروح عن الحرف "الحرف يقتل". وإن قتل، فأين الرجاء؟ "أما الروح فيحيي" (٢ كو ٣: ٦)[2].

القديس أغسطينوس

يقارن **القديس أغسطينوس** بين الحرف والروح، فيرى في الحرف عصا اليشع التي سلمها لتلميذه جيحزي حين كان ابن الأرملة ميتًا، لكن لم يقم الميت إلاَّ بحضور اليشع نفسه. هكذا مع نفع الناموس الذي تسلمناه من الله نحن في حاجة إلى حضور الله نفسه، فنتمتع بقوة القيامة[3].

"**فسمع هذا الذين كانوا معه من الفريسيين وقالوا له:**
ألعلنا نحن أيضًا عميان؟" **[٤٠]**

أدرك الفريسيون أنه يتحدث عن العمى الروحي، فسألوه إن كان يقصدهم بهذا. وقد صدر سؤالهم عن نفوس متكبرة لا تقدر أن تتمتع بغنى نعمة الله.

ما يشغل ذهن الفريسيين هو كرامتهم أمام الناس، والظهور كأصحاب معرفة، يحتلون كراسي التعليم. حسبوا اتهامهم بالعمى بسبب عدم رغبتهم في التعلم هو أشبه بضربة قاتلة. بقولهم: "**ألعلنا نحن أيضًا عميان؟**" يكشفون عما في أعماقهم، فهم يحسبون الشعب ككل عميانًا أما من يضمهم يسوع مع الشعب الأعمى فهذا ما لم يكن يخطر على بالهم. حسبوا هذا إهانة منه، وخطأ منه لا يغتفر، إذ لم يعتادوا أن يسمعوا كلمة نقد من أحدٍ قط.

❖ قول الفريسيين للسيد المسيح "**ألعلنا نحن أيضًا عميان؟**" على نحو ما قالوا في غير هذا الموضع: "إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط؛ إننا لم نولد في زنى" (يو ٨: ٣٣، ٤١) هكذا قالوا الآن.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال لهم يسوع:**
لو كنتم عميانًا لما كانت لكم خطية،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 16.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 86:5.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 86:6.*

ولكن الآن تقولون إننا نبصر، فخطيتكم باقية". **[٤١]**

لو أنهم اعترفوا بجهلهم لما سقطوا تحت الحكم، لكن أفواههم تشهد عليهم، فقد ادعوا أنهم مبصرون، قادرون على إدراك الحق وتمييزه عن الباطل. ادعوا أنهم مبصرون، يرون الحق الإلهي ويفهمون الشريعة والنبوات، لذا أغلقوا على أنفسهم، وصارت خطيتهم باقية.

من وحي يو ٩

هب لي يا رب البصيرة الداخلية!

❖ عيناك بالحب تتطلعان إليَّ، كما إلى المولود أعمى!
ورثنا عن أبينا آدم عمى البصيرة،
فلم نعد نتمتع بجمال بهائك!

❖ هوذا الكثيرون حتى من بين الذين حولك يدينوني!
أما أنت فبحبك تطلب شفاء قلبي وبصيرته!
أنت هو النهار الذي لا يكف عن أن يعمل.
أنت النور الذي يبدد الظلمة التي فيّ!
لتشرق عليَّ بنورك، فأصير ابنًا للنهار،
ولا تغرب عيني يا شمس البرّ!

❖ أنت الخالق، جبلتني من التراب،
وبالطين تهبني نورًا لعينيّ.
على كلمتك آتي إليك، فأنت هو سلوام "المُرسل" من الآب.
اغتسل بدمك، فتتفتح بصيرتي.
أرى أبواب السماء مفتوحة أمامي ترحب بي!

❖ ملّت نفسي الحوار المستمر مع القريب والغريب.
لم يعد لكثرة الكلام مكان في قلبي.
أعمالك مشبعة، تشهد لإمكانياتك الإلهية.
حبك العملي يبكم الألسنة المقاومة!
نورك مشرق في داخلي، لن تقدر قوات الظلمة أن تقاومه.

❖ مع المولود أعمى لا أخشى الطرد،
إذ يرفضني الجميع تتراءى أنت لي.
وإذ أُطرد خارجًا،
أجدك حاملاً الصليب خارج المحلّة.

أنت إله المطرودين والمرذولين.

❖ لينشغل الكل بالحوار الكثير.

أما أنا فأسجد أمامك،

وأتمتع بشركة بهائك،

وأنعم ببهجة سماواتك التي لا تنقطع!

الأصحاح العاشر

الراعي الصالح

جاء حديث السيد المسيح عن الراعي الصالح بعد تفتيح عيني المولود أعمى، حيث ظهر الفارق واضحًا بين الراعي المهتم بخرافه وبين الأجراء؛ أي بين السيد المسيح الذي يشتاق إلى خلاص البشرية والفريسيين الذين يهتمون بكرامتهم الذاتية وسلطانهم ومكاسبهم.

في الأصحاح السابق يود السيد المسيح أن يهب كل نفس نعمة البصيرة لكي تتعرف على الحق. وما هو الحق إلا إدراك أن كلمة اللَّه المتجسد هو الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف. يُعتبر هذا الإصحاح امتدادًا لحوار السيد المسيح مع الفريسيين في نهاية الأصحاح السابق. فقد أخذ الفريسيون موقفًا معاديًا له، على أساس أنهم المعلمون ورعاة كنيسة الله، وأن لا موضع ليسوع كاسر الناموس بينهم، مطالبين الشعب ألا يلتصقوا به، لأنه ليس من عند الله. جاء الحديث هنا يكشف عن ثلاثة فئات: فئة الرعاة الحقيقيين، الخدام الأجراء، اللصوص الذين يتخفون في زي رعاة.

مسيحنا مشبع كل احتياجاتنا

طُرد اليهود الذين آمنوا بالسيد المسيح من المجمع، ولم يعد لهم حق الدخول إلى الهيكل، ولا ممارسة العبادة اليهودية، ولا الطقوس الخاصة بالتطهيرات والأعياد الخ. فجاء هذا السفر يعلن أن يسوع المسيح يشبع كل احتياجاتهم، فيه كل الكفاية، فقد قد احتل موقع كل المؤسسات اليهودية وكل الامتيازات الخاصة بهم، ولكن بصورة فائقة إلهية.

يو ١: يعتز اليهود بموسى مستلم الناموس، أما يسوع فهو الكلمة، الذي مع الآب، وواحد معه، واهب نعمة فوق نعمة.

يو ٢: يعتز اليهود بطقوس التطهيرات الناموسية، أما يسوع فيحول مياه التطهيرات إلى خمرٍ جديدٍ وفريدٍ.

يو ٥: يفتخر اليهود بحفظهم السبت في حرفية، فأعلن يسوع أنه السبت الحقيقي الذي يعمل ما يعمله اللَّه الآب (يو ٥: ١٦-١٨).

يو ٦: يفتخر اليهود بأن آباءهم أكلوا المن النازل من السماء في البرية، أما يسوع فهو الفصح الحقيقي، الخبز السماوي، وهو الذي ينقذ من الماء (سار على الماء كما عبر بالشعب بحر سوف).

يو ٧–٨: في عيد المظال يقدم نفسه الماء الحي والنور الحقيقي.

يو ١٠: عوض عيد التجديد يقدم نفسه، إذ يكرسه الآب لحساب خلاص العالم.

صور الإنجيلي هذا الحديث الثامن للسيد المسيح والذي ركز على رعايته الباذلة بعد صنع معجزة تفتيحه عيني المولود أعمى الذي طُرد من المجمع اليهودي. فالتلميذ الحقيقي للسيد المسيح يُطرد من القطيع اليهودي أو من حرفية الناموس لينعم بالعضوية في قطيع المسيح الذي تفتحت أعينه لمعاينة أسرار الملكوت.

١. الراعي الصالح	**١–٢١.**
٢. الوحدة مع الآب	**٢٢–٣٩.**
٣. يسوع في موضع عماده	**٤٠–٤١.**

١. الراعي الصالح

في هذا المثل تظهر اليهودية كقطيع [١]، والسيد المسيح هو الراعي الصالح الذي يأتي من الباب المعين (خلال باب النبوات) إلى القطيع. والروح القدس يفتح له الباب، ويتجاوب القطيع الحقيقي معه، حيث تشفى أعينهم ويعاينوا الراعي. يخرج بهم الراعي عن حرفية الناموس [٣] وعن الارتداد وعدم الإيمان، بينما يرفض الحرفيون الراعي الصالح [٤–٥].

نرى في هذا المثل الآتي:

أ. السيد المسيح وليس الناموس هو باب القطيع، الباب الجديد [٧].

ب. كل القيادات اليهودية الحرفية الرافضة للمسيح هم لصوص [٨].

ج. المسيح وحده هو المخلص، السيد، معطي ذاته [٩–١٠].

د. المسيح هو ذبيحة الحب يموت عن قطيعه [١١–١٥].

هـ. للراعي الصالح قطيع آخر من الأمم يضمه إلى المؤمنين من اليهود، ويقيم منهم جميعًا قطيعًا واحدًا هو كنيسة المسيح [١٦، ١ كو ١٢: ١٣؛ أف ٤: ٤–٦]

و. يتفاعل هذا القطيع الواحد مع ذبيحة المسيح الفريدة وموته الاختياري [١٧–١٨]. أما عدم الإيمان فيعجز عن تقديم أي شيء سوى الارتباك والتجديف الشرير.

"**الحق الحق أقول لكم**

إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف،

بل يطلع من موضع آخر،
فذاك سارق ولص". [١]

تلجأ الخراف إلى حظيرة الخراف ليلاً، غالبًا ما تكون ملاصقة لبيت الراعي. للحظيرة باب واحد يحرسه البواب. لهذا من أراد السرقة يلجأ إلى التسلل عن طريق الوثب من حائط الحظيرة.

يشبه السيد المسيح نفسه براعي الخراف المهتم بقطيعه، والكنيسة في العالم أشبه بمرعى، حيث تضم في داخلها الخراف المشتتة في العالم (يو ١١: ٥٢)، ليتحدوا معه كقطيعٍ مقدسٍ يرعاه الراعي القدوس، هذا الذي يحتضنه فيكون لهم سور نارٍ لحمايتهم (زك ٢: ٥). أما استخدام قطيع الخراف كرمزٍ لكنيسة المسيح، ذلك لما اتسمت به الخراف من وداعة وهدوء وتسليم بين يدي راعيها، والتصاقها ببعضها البعض.

قدم السيد المسيح هذا التشبيه، لأن الخراف تتسم بعجزها عن دفاعها عن النفس ضد أي هجوم، إنما تعتمد تمامًا على اهتمام راعيها وسهره على حمايتها. تعتمد أيضًا في طعامها وشرابها على الراعي الذي يتقدمها، فحتى في البلاد التي تتسم بغزارة الأمطار يحتاج القطيع إلى من يقوده إلى فترة طويلة إلى مراكز المياه لكي يشرب، ولا تبحث عنها الخراف بنفسها. وفي دخولها إلى الحظيرة لا تبدأ بالدخول حتى وإن لحق بها مخاطر من وحوش ضارية ما لم يقود الراعي خروفًا أو اثنين من الباب فتسير بقية الخراف وراءه أو وراءهما.

❖ إن وجدنا هذه الشخصيات الثلاث أيها الإخوة القديسون، نجد من يليق بنا أن نحبهم، ومن يجب علينا أن نحتملهم، ومن يلزمنا الحذر منهم. فالراعي يُحب، والأجير يُحتمل، واللص يُحذر منه[1].

القديس أغسطينوس

❖ لاحظوا سمات اللص؛ أولاً أنه لا يدخل علانية؛ ثانيًا لا يدخل حسب الكتب المقدسة، فهذا لا يعنيه، "**لا يدخل من الباب**" [١]. هنا أيضًا يشير إلى الذين جاءوا قبلاً والذين سيأتون بعده، ضد المسيح والمسحاء الكذبة، يهوذا وثيداس (أع ٥: ٣٦) وكل من على شاكلتهم.

في قول السيد المسيح: "**إن الذي لا يدخل من الباب**"، المقصود بالباب هنا هو الكتب المقدسة، لأنها تدخل بنا إلى الله، وتفتح لنا المعرفة بإلهنا، وهي تحفظنا، ولا تترك الذئاب تدخل إلينا، لأنها بصورة باب، تغلق المدخل في وجه ذوي البدع، وتصيرنا في صيانة من خداعهم، ولا تهملنا حتى لا

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 87:5.*

ننخدع. لأننا بالكتب نعرف الرعاة، والذين ليسوا برعاة، ولهذا قال السيد المسيح لليهود: "فتشوا الكتب، لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي" (يو ٥: ٣٩). إنها تجلب موسى وتدعوه هو وكل الأنبياء شهودًا، إذ يقول: "كل من يسمع الأنبياء يأتي إليّ" وأيضًا: "لو صدقتم موسى تؤمنون بي"... حسنًا يقول: "يتسلق (يصعد) وليس "يدخل"، فإن التسلق هو من عمل السارق الذي يضع في نيته أن يقفز فوق السور، يفعل ذلك وهو معرض للخطر[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد أعلنوا أنهم ليسوا عميانًا، ومع ذلك كان يمكنهم أن يروا فقط إن صاروا قطيع المسيح.

من أين لهم أن يدعوا بأن لهم النور هؤلاء الذين يعملون كلصوصٍ ضد النهار؟ ذلك بسبب بطلانهم وكبريائهم وتشامخهم العضال، لذلك أضاف الرب يسوع تلك الكلمات التي فيها يقدم لنا نحن أيضًا دروسًا قيمة إن دخلنا بها إلى القلب. إذ يوجد كثيرون بحسب عادة الحياة يُدعون صالحين – رجال صالحين، نساء صالحات، أبرياء – لمن يراعون ما جاء في الناموس: يحترمون والديهم، ويمتنعون عن الزنا، ولا يقتلون ولا يسرقون، ولا يشهدون باطلاً ضد أحد، ويراعون كل متطلبات الناموس الأخرى. ومع هذا فهم غير مسيحيين، ويسألون بتشامخٍ مثل هؤلاء الناس: "هل نحن أيضًا عميان؟"...

إنهم يعملون بلا هدف، ولا يدخلون من الباب الذي يقود إلى الحظيرة.

قد يقول الوثنيون: نحن نحيا بصلاح.

إن لم يدخلوا من الباب، أية إرادة صالحة هذه يمارسونها، ومع ذلك فهم متشامخون؟...

ليس لأحد رجاء حسن للحياة ما لم يعرف الحياة، أي المسيح، ويدخل الحظيرة من الباب[2].

❖ يوجد فلاسفة لهم مناقشات بارعة عن الفضائل والرذائل، يميزون بينها، ويقدمون تعريفات لها، وفي النهاية يقدمون تسلسلاً عقليًا دقيقًا، يملأون الكتب، ويحمون حكمتهم بأحاديث ثرثارة؛ هؤلاء يجسرون ويقولون للناس اتبعونا، انضموا إلى فرقتنا إن أردتم أن تعيشوا سعداء. لكنهم لا يدخلون من الباب؛ هؤلاء يريدون أن يحطموا ويذبحوا ويقتلوا[3].

❖ هل يمكن للفريسي أن ينطق بالصالحات؟

---

[1] *Homilies on St. John, 59: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 44: 2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 45: 3.*

الفريسي هو شوك، فكيف أجني من الشوك عنبًا (مت ٧: ١٦؛ ١٢: ٣٣)؟

لأنك يا رب تقول: "ما يقولونه أعملوه، وأما ما يفعلوه فلا تفعلوه" (مت ٢٣: ٣).

هل تأمرني أن أجمع عنبًا من الشوك عندما تقول: "هل يجتنون من الشوك عنبا"؟ يجيبك الرب: "لست آمرك أن تجمع من الشوك عنبًا، بل أن تتطلع وتلاحظ حسنًا كما يحدث غالبًا عندما تتدلى الكرمة المرتفعة عن الأرض ألا تكون مشتبكة مع الأشواك". فإننا نجد أحيانا يا اخوتي كرمة مزروعة... يكون حولها سياج من الأشواك، تلقي بفروعها متشابكة بين الأشواك. والذي يريد أن يقتطف عنبًا لا يجنيه من الأشواك بل من الكرمة المتشابكة مع الأشواك.

بنفس الطريقة فإن الفريسيين مملوءون بالأشواك، لكنهم إذ يجلسون على كرسي موسى تحيط بهم الكرمة والعنب الذي هو الكلمات الصالحة، والوصايا الصالحة تتدلى منهم. لتقطف عنبًا دون أن يوخزك الشوك، عندما تقرأ: "ما يقولوه اعملوه، وأما ما يفعلوه فلا تفعلوه". لكن الشوك يوخزك إن كنت تفعل ما يفعلونه. فلكي تجتني عنبًا دون أن يمسك بك الشوك "ما يقولوه افعلوه، وأما ما يفعلونه فلا تفعلوه".

أعمالهم هي الأشواك، كلماتهم هي العنب، لكنه صادر عن الكرمة التي هي كرسي موسى[1].

❖ ضميري ليس صالحًا لأنكم تمدحونه، إذ كيف تمدحون ما لا ترونه؟

ليمدحني (الله) الذي يرى.

نعم، ليُصلحه إن كان يرى فيه شيئًا يضاد عينيه.

فإنني أيضًا لا أقول إنني كاملاً تمامًا، لكنني أقرع صدري، وأقول لله: "ارحمني لكي لا أخطئ". لكنني أظن أنني أتكلم في حضرته بأنني لا أطلب شيئًا منكم بل أطلب خلاصكم، وأنتهر على الدوام خطايا إخوتي، وأحتمل ضيقات، وذهني يعذبني، ودومًا أوبخهم. نعم لا أكف عن حثهم. كل الذين يتذكرون ما أقوله هم شهود، كيف أنتهر يا إخوتي من يخطئون بدون حسدٍ[2].

القديس أغسطينوس

"وأما الذي يدخل من الباب

فهو راعي الخراف". [٢]

راعي الخراف هو صاحب القطيع، يهتم بكل واحدٍ منهم، يدخل إليهم من الباب بكونه صاحب

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 87:13.*

[2] *Sermon on N.T. Lessons, 87:14.*

سلطان. يدخل لكي يعمل لحساب الكل. وكما يقول الله نفسه: "أنا أرعى غنمي وأربضها يقول السيد الرب؛ وأطلب الضال، وأسترد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح، وأبيد السمين القوي، وأرعاها بعدلٍ" (حز ٣٤: ١٥-١٦).

"لهذا يفتح البواب،
والخراف تسمع صوته،
فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها". [٣]

❖ ليس ما يمنع من الخطر أن نفترض في موسى أنه البواب، فإنه قد عُهد إليه حفظ تعاليم الله[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليتنا لا نرتبك أيها الإخوة في فهمه، إذ يحمل تشبيهات بكونه هو الباب وأيضًا البواب. لأنه ما هو الباب؟ طريق الدخول. من هو البواب؟ ذاك الذي يفتح الباب. إذن من هو ذاك الذي يفتحه إلاَّ هو نفسه حيث يكشف عن ذاته ليُرى؟[2]

القديس أغسطينوس

"ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها،
والخراف تتبعه،
لأنها تعرف صوته". [٤]

إذ يرسل الراعي الصالح خرافه ليس في الطريق الذي بلا ذئاب بل يؤكد لهم أنه يرسلهم "وسط الذئاب" (مت ١٠: ١٦)، لذلك يتقدمهم في الطريق حتى إذا ما هاجمتهم الذئاب إنما تهاجمه هو، فيحول الذئاب إلى حملان وديعة. لقد تقدم قطيعه في مرعى الصليب والآلام، حتى لا يخشى القطيع طريق الجلجثة، ولا يهابون الموت، ماداموا في رفقة المصلوب.

❖ يعمل الرعاة خلاف ذلك إذ يمشون وراء الخراف، ولكن السيد المسيح يبين هنا أنه هو الذي يرشد جميع تابعيه إلى الحق.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وأما الغريب فلا تتبعه،

---

[1] *Homilies on St. John, 59: 3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 46: 4.*

بل تهرب منه،

لأنها لا تعرف صوت الغرباء". [٥]

القطيع غير العاقل يعرف صاحبه فيلتصق به، وإذ لا تعرف صوت الغرباء تهرب منهم. وكما قيل: "الثور يعرف قانيه" (إش ١: ٣).

"**هذا المثل قاله لهم يسوع،**

وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يكلمهم به". [٦]

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنه بهذه العبارة يفصل السيد المسيح بينه وبين المسحاء الكذبة، فإنه بكل وسيلة كان يفعل هذا.

أولاً: تعاليمه من الكتب المقدس التي تشهد له، أما المسحاء الكذبة فيجتذبون الناس بعيدًا عن كلمة الله.

ثانيًا: طاعة الخراف له، إذ يؤمنون به ليس فقط حين كان سالكًا على الأرض بل وحتى بعد موته وصعوده إلى السماء. أما المسحاء الكذبة فتتركهم الخراف كما حدث مع ثيداس ويهوذا إذ تشتت الذين آمنوا بهما (أع ٥: ٣٦).

ثالثًا: يعمل الكذبة كمتمردين ويسببوا ثورات، أما هو فعندما أرادوا أن يجعلوه ملكًا اختفى. وعندئذٍ سُئل إن كان يجوز أن تقدم الجزية لقيصر، أمرهم بدفعها، بل هو نفسه دفعها (مت ١٧: ٢٧).

رابعًا: جاء لخلاص الخراف، لكي تكون لهم حياة، ويكون لهم أفضل [١٠]. أما الكذبة فيحرمونهم حتى من الحياة الزمنية، إذ يتركونهم في لحظات الخطر ويهربوا لينجوا.

لم يدرك اليهود ما عناه السيد المسيح بالمثل؛ لم يفهموا أن يسوع المسيح هو الراعي الصالح، ولا أن الأجراء هم الخدام الذين يطلبون ما لنفعهم الشخصي وليس ما هو لنفع القطيع، وأيضًا السراق واللصوص هم الذين يطلبون كرامتهم الشخصية، حتى وإن كان الثمن هلاك القطيع.

لم يستطِع الفريسيون فهمه، هؤلاء الذين يحسبون أنفسهم معلمين للشعب، أصحاب معرفة، ولا يحتاجون إلى أن يتعلموا شيئًا. بين أيديهم كلمة الله، لكنهم يسيئون فهمها بسبب قسوة قلوبهم، وعمى بصيرتهم الداخلية.

"**فقال لهم يسوع أيضًا:**

الحق الحق أقول لكم إني أنا باب الخراف". [٧]

إنه باب المرعى، باب الكنيسة. يَغلق لا ليحبس القطيع، وإنما ليحميه من الذئاب واللصوص، فلا يهلكون. إنه الحكمة والقوة والبرّ من يدخل منه يدخل إليه، وينعم بهذا كله. إنه باب مغلق في وجه الذئاب، لكنه باب الحب للخراف كي تدخل وتخرج وتلتقي معًا في شركة الحب الأخوي. لذا يدعو نفسه "**باب الخراف**"، لن يقدر ذئب أن يدخل منه ما لم يتحول إلى حملٍ حقيقيٍ.

إنه الباب الملوكي الإلهي، بل ندخل إلى العرش الإلهي وننعم بالحياة السماوية.

والعجيب أن راعي الخراف عومل كلصٍ، فخرجوا عليه بسيوفٍ وعصيٍ للقبض عليه (مت ٢٦: ٥٥)، لأنه لم يدخل من خلال هؤلاء اللصوص والذئاب الخاطفة، ولم يكن يستأذنهم في خدمته لشعبه. عوض التلمذة له ليسلكوا بروحه كانوا ينتظرون تلمذته لهم، ليسلك بروحهم المعادية للحق الإلهي وللحب الرعوي الحقيقي.

❖ عندما يحضرنا إلى الآب يدعو نفسه "**بابًا**"، وعندما يرعانا يدعو نفسه "**راعيًا**". فلكي لا تظنوا أن عمله الوحيد أن يحضرنا إلى الآب لذلك دعا نفسه راعيًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يسوع هو كل شيء، كل الأسماء تناسبه. إنه كل شيء يعلنه[2].

العلامة أوريجينوس

❖ للمحتاجين إلى البهجة يصير لهم كرمة، وللمحتاجين إلى الدخول يقف كبابٍ[3].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ هو نفسه الباب؛ لنأتِ فيه ونعرفه. لندخل أو لنفرح أننا بالفعل فيه[4].

❖ جاء قبله الأنبياء، فهل كانوا سراقًا ولصوصًا؟ حاشا. إنهم لم يأتوا منفصلين عنه، بل جاءوا معه. عند مجيئه أرسل رسلاً لكنه احتفظ بقلوب رسله. أتريدون أن تعرفوا أنهم جاءوا معه ذاك الذي هو حاضر على الدوام؟ بالتأكيد هو أخذ جسدًا بشريًا في الوقت المعين. لكن ماذا يعني: "على الدوام"؟ "في البدء كان الكلمة" (يو ١: ١). جاء معه من جاءوا مع كلمة الله. لقد قال: "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو ١٤: ٦). إن كان هو الحق، فقد جاء معه من هم صادقون. لكن

---

[1] *Homilies on St. John, 59: 3.*
[2] *Commentarium in Joannem 1. PG 14:50 S9.*
[3] *Catech. 10. PG 33:665 B.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 45: 8.*

كثيرين إذ انفصلوا عنه هؤلاء هم سراق ولصوص، أي جاءوا ليسرقوا ويدمروا[1].

❖ "**ولكن الخراف لم تسمع لهم**" هذه نقطة أكثر أهمية. قبل مجيء ربنا يسوع المسيح، حيث جاء في تواضع في الجسد، سمعه أناس أبرار، آمنوا به أنه سيأتي بنفس الطريقة التي لنا أنه قد جاء.

الأوقات تتغير لكن ليس الإيمان... في أوقاتٍ متغيرةٍ حقًا لكن الدخول من باب واحد للإيمان، أي المسيح، فنرى كليهما قد دخلا...

يقول (الرسول): "جميعهم شربوا شرابًا واحدًا روحيًا، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم، الصخرة كانت المسيح" (١ كو ١٠: ٤). انظروا بينما بقي الإيمان تغيرت العلامات. هناك الصخرة كانت المسيح، أما بالنسبة لنا فالمسيح على مذبح الله... كثيرون في ذلك الوقت آمنوا، سواء إبراهيم أو إسحق أو يعقوب أو موسى أو البطاركة الآخرون والأنبياء الذين تنبأوا عن المسيح، هؤلاء هم خراف سمعوا المسيح. سمعوا صوته وليس صوت آخر[2].

القديس أغسطينوس

"**جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص،**
ولكن الخراف لم تسمع لهم". **[٨]**

❖ لم يتكلم هنا عن الأنبياء كما ادعى الهراطقة، فإنه إذ آمن كثيرون بالمسيح سمعوا للأنبياء واقتنعوا بهم. إنما يتحدث هنا عن ثيداس ويهوذا وغيرهما من مثيري الفتنة. بجانب هذا يقول: "**ولكن الخراف لم تسمع لهم**" [٨]، كمن يمدحهم على ذلك. لا نجده في أي موضع يمدح السيد من يرفضوا السماع للأنبياء، وإنما على العكس يوبخهم ويتهمهم بشدة، بينما القول: "لم تسمع" يشير إلى قادة الفتنة[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أنا هو الباب،**
إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى". **[٩]**

من يدخل إلى المرعى خلال المسيح، الباب الإلهي، ليس فقط ينجو من اللصوص والسراق، وإنما يتمتع أيضًا بالحرية الحقيقية. يدخل ويخرج بكامل حريته. يدخل كما إلى حضن الأب ليتمتع بأبوته

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 45: 8.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 45: 9.*
[3] *Homilies on St. John, 59: 3.*

الإلهية، ويخرج إلى العالم كما مع الابن المتجسد ليشهد للحب الإلهي، ويجتذب كثيرين إلى المرعى الإلهي. إنه يخلص ويرد كثيرين بروح الله إلى خلاصهم، فيفرح ويتهلل معهم، ويشبع الكل من مرعى الحب، ويتمتعون بعربون المجد، مترقبين بفرحٍ يوم الرب لمشاركة الرب مجده. إنهم يخلصون من أنياب الأسد ليعيشوا في سلامٍ فائقٍ.

تدخل الخراف من الباب لتجد نفسها في المسيح يسوع كما في بيتها الأبوي، ليست بالخراف الغريبة ولا النزيلة، بل صاحبة بيت، تتحرك بكامل حريتها، إن دخلت تستقر كما في بيتها، لأنها خرجت للعمل إنما إلى حين لتعود وتستريح!

❖ إنه كما يقول: "يكون في أمان وضمان". ولكن بقوله "مرعى" يعني هنا الرعاية وتغذية الخراف وسلطانه وسيادته عليهم. إنه يبقى في الداخل ولا يقدر أن يدفعه خارجًا. لقد حدث هذا مع الرسل الذين دخلوا وخرجوا، وصاروا سادة كل العالم، ولم يوجد من يقدر أن يطردهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كما أنه هو "**الطريق**"، وليس طريقًا بين طرق كثيرة، إنما الطريق الوحيد الذي يقودنا إلى حضن الآب، هكذا هو "الباب"، لا نقدر أن ندخل السماء من باب آخر غيره، هو الباب الوحيد.

❖ لنسمو بأفكارنا على اليهود، فإنهم حقًا يقرون بتعاليمهم بالله الواحد، ولكن ماذا يكون هذا وهم ينكرونه خلال عبادتهم للأصنام؟! لكنهم يرفضون أنه أبو ربنا يسوع المسيح. وهم بهذا ينقضون أنبياءهم الذين يؤكدون هذا في الكتب المقدسة، إذ جاء "الرب قال لي أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك" (مز ٢:٧).

إنهم إلى يومنا هذا يرتجون مجتمعين على الرب و على مسيحه (مز ٢: ٢)، حاسبين أنهم قادرون أن يكونوا أصدقاء للآب وهم منفصلون عن تعبدهم للابن، جاهلين أنه لا يأتي أحد إلى الآب إلا بالابن القائل: "**أنا هو الباب والطريق**" (يو ١٤: ٦؛ ١٠: ٩).

فمن يرفض الطريق الذي يقود إلى الآب وينكر الباب، كيف يتأهل الدخول لدى اللّه (الآب)؟! إنهم يناقضون ما جاء في المزمور الثامن والثمانين: "هو يدعوني أبي. أنت إلهي وصخرة خلاصي. أنا أيضًا اجعله بكرًا أعلى من ملوك الأرض[2]" (مز ٨٩: ٢٦-٢٧).

القديس كيرلس الأورشليمي

---

[1] *Homilies on St. John, 59: 3.*

[2] مقال ٧: ٢.

❖ أقول حقًا إننا ندخل حينما ننشغل بتدريبٍ للفكر داخليًا، ونخرج حينما نمارس عملاً خارجيًا. وكما يقول الرسول إن المسيح يحل في قلوبنا بالإيمان (أف ٣: ١٧). أن ندخل في المسيح، أي نسلم أنفسنا للفكر، حسن هذا الإيمان، أما أن نخرج بالمسيح، فهو أنه بذات الإيمان نمارس أعمالاً في الخارج، أي في حضور آخرين. هنا نقرأ في مزمور: "يخرج إنسان لعمله" (مز ١٠٤: ٢٣). ويقول الرب نفسه: "لتضئ أعمالكم قدام الناس" (مت ٥: ١٦)... أيضًا يبدو لي أنه يعني أنه تكون لهم الحياة في دخولهم وحياة أوفر في رحيلهم... فإنه لا يستطيع أحد أن يخرج بالباب – أي بالمسيح، إلى تلك الحياة الأبدية الذي يُفتح للنظر ما لم يدخل كنيسته بذات الباب أو بذات المسيح نفسه، التي هي قطيعه في الحياة المؤقتة التي تُمارس بالإيمان[1].

❖ "**ويجد مرعى**" [٩]، مشيرًا إلى كليهما: الدخول والخروج، إنهم هناك فقط سيجدون المرعى الحقيقي حيث يشبع الجائعون والعطشى إلى البرّ. هذا المرعى يوجد بواسطة ذاك الذي قيل له: "اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٣)[2].

القديس أغسطينوس

❖ يدخل ليجد إيمانًا، ويخرج من الإيمان إلى الرؤية، ومن الاعتقاد إلى التأمل. يجد مرعى في انتعاشٍ أبديٍ.

سيجد قطيعه مرعى، لأن من يتبعه بقلب بريء ينتعش بطعامٍ أبدي.

ما هي مراعي هذه القطعان إلا المباهج الأبدية للفردوس الدائم الخضرة؟

مرعى المختارين هو وجه الله شخصه. عندما نراه، تشبع قلوبنا بطعام الحياة إلى النهاية.

الذين يهربون من مصائد الملذات الوقتية يفرحون في تلك المراعي في كمال الأبدية. هناك طغمات ملائكة تتغنى بالتسابيح، هناك صحبة المواطنين السمائيين[3].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"**السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك،**

وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة،

وليكون لهم أفضل". **[١٠]**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 45: 15.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 45: 15.*

[3] *Hom. 15, Forty Gospel Homilies. PL 76: 1127.*

الرعاة المخادعون هم سراق، يدخلون لا من خلال باب الحب، بل بروح الخداع بنية شريرة. بخداعهم يذبحون النفوس ويهلكونها. بينما يهتم الراعي بتقديم حياة أفضل، ينشغل اللص بالذبح وقتل النفوس. تسلل اللص إلى القطيع يسبب موتًا، أما نزول الراعي الصالح، الكلمة المتجسد، فيهب حياة أبدية.

إن كان الراعي قد جاء إلى قطيعه في العالم لكي يبررهم ويقدسهم ويمجدهم، فإنه يرد لهم الحياة المفقودة. إنهم لا يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل الخطية، بل إلى فيض أبدي للحياة التي لن يقهرها موت، لذا يقول: "**أفضل**".

❖ إن قلت: قل لي وما الذي يكون أفضل من الحياة؟ أجبتك: ملكوت السماوات، لكنه لم يقل هذا بعد، إنما يردد اسم الحياة الذي كان أوضح الأشياء معرفة عندهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**فقد أتيت لتكون لهم حياة**" [١٠]، أي الإيمان العامل بالمحبة (غلا ٥: ٦). "**وليكون لهم أفضل**"، هؤلاء الذين يصبرون حتى المنتهى، فإنهم يخرجون بهذا الباب عينه، أي بالإيمان بالمسيح. فإنهم كمؤمنين حقيقيين يموتون وتكون لهم حياة أفضل عندما يذهبون إلى حيث يقيم الراعي، ولا يموتون بعد[2].

❖ إن كنا نتطلع إلى العالم كبيتٍ واحدٍ عظيم، فإننا نرى السماوات تمثل القبو، والأرض تمثل الممر. إنه يريد أن ينقذنا من الأمور الأرضية، لنقول مع الرسول: "مواطنتنا هي في السماء". فالالتصاق بالأرضيات هو موت للنفس، عكس الحياة التي يصلي من أجلها قائلاً: "أحيني"!

القديس أغسطينوس

"**أنا هو الراعي الصالح،**

والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف". **[١١]**

تطلع أنبياء العهد القديم إلى ربنا يسوع بكونه الراعي (إش ٤٠: ١١؛ حز ٣٤: ٢٣؛ ٣٧: ٢٤؛ زك ١٣: ٧)، واختبره الرسل كأسقف لنفوسنا (١ بط ٢: ٢٥)؛ ورئيس الرعاة (١ بط ٥: ٤)؛ والراعي العظيم (عب ١٣: ٢٠).

لهذا اللقب "الراعي الصالح" جاذبيته الخاصة لدى المسيحيين عبر الأجيال حتى الذين لم يشاهدوا

---

[1] *Homilies on St. John, 59: 3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 45: 15.*

رعاة غنم في حياتهم، فإنهم يشعرون فيه بنوعٍ من دفء الرعاية. كما أن قطيع الغنم لا يقدر أن يواجه الحياة بدون راعيه، هكذا يشعر المسيحيون في مواجهة الشر والعالم الشرير إلى الراعي الإلهي الذي يحفظهم من الشر ويشبع كل احتياجاتهم، ويقودهم إلى المراعي الفردوسية.

بقوله "**أنا هو**" يستخدم السيد المسيح لغة اللاهوت "أنا يهوه"، فهو الراعي الوحيد الإلهي الفريد.

الكلمة اليونانية المترجمة هنا "**صالح**" هي *kalas*، وهي تختلف عن غيرها من الكلمات اليونانية التي تُترجم أيضًا "صالح"، مثل: *agathos* إذ تشير إلى السلم الداخلي، و *dikaios* التي تشير إلى الشخص الذي يبلغ مستوى عالٍ من الاستقامة. أما *kalas* فجاء في *Abbot Smith's lexicon* أنها تشير إلى الصلاح معلنًا شكل معين، بمعنى آخر تشير إلى الصلاح مع الجمال. وقد قام *E. V. Rieu* بترجمة العبارة: "**أنا هو الراعي**"، **الراعي الجميل**". على أي الأحوال فإن تعبير الراعي الصالح تعبير محبب للنفس، يحمل فيه الصلاح الجذاب للرعية. فمع صلاح رعايته تتمتع الرعية بجاذبية شخصه، أو انجذابهم إليه[1].

رعاية "**الراعي الصالح**" فريدة من نوعها، ليست فقط رعاية صالحة، حيث ينشغل الراعي بالقطيع، كمن ليس ما يشغله في السماء وعلى الأرض غيره، ولا من حيث اهتمامه بالنفس الواحدة، خاصةً الخروف الضال، وإنما ما هو أعظم انه "**يبذل نفسه عن الخراف**".

في منطقة فلسطين كان الرعاة يتعرضون لمخاطر اللصوص كما لمخاطر الحيوانات المفترسة. فداود النبي واجه أسدًا ودبًا وهو شاب في رعاية غنمه (١ صم ١٧: ٣٤–٣٦). ويحدثنا عاموس النبي عن الراعي الذي يخلص من فم الأسد قدمي حمل أو قطعة أذن له (عا ٣: ١٢). وفي عصر الآباء نسمع يعقوب يقول لخاله: "فريسة لم أحضر إليك. أنا كنت أخسرها. من يدي كنت تطلبها، مسروقة النهار أو مسروقة الليل" (تك ٣١: ٣٩). هكذا لعمل الرعاية مخاطر، لكننا لا نسمع قط عن راعٍ يلقي بنفسه في الموت بإرادته من أجل قطيعه. حقًا قد يتعرض الراعي للموت، لكنه ليس لأجل مصلحة قطيعه، إنما من أجل مصلحته الشخصية كمالكٍ للقطيع. أما الراعي الصالح فبإرادته وحسب مسرته واجه الموت ليفدي كل حملٍ من قطيعه.

بذل الراعي الصالح ذاته ليقدم لنا دمه الثمين، تغتسل به نفوسنا، فنطهر من الخطايا، ونشربه سرّ حياة أبدية. والعجيب فيه أنه يهب خدامه الأمناء أن يجدوا مسرتهم في البذل فينفقون ويُنفقون (٢ كو ١٢: ١٥) لحساب الشعب كما فعل الرسول بولس.

---

[1] *cf Leon Morris, p. 377.*

بين السيد المسيح والراعي

اختيار السيد المسيح للراعي لتشبيه له لم يأتِ جزافًا، إنما يحمل معانٍ هامة:

أولاً: الراعي، وإن كان صاحب القطيع مهما بلغت أعداده **يرتدي ثيابًا رخيصة** أثناء رعايته للغنم، إذ كثيرًا ما يجلس على الأرض وحوله غنمه، ويحمل على منكبيه الغنمات المجروحة أو المتعثرة، وقد تكون متسخة بالوحل. هكذا لبس الكلمة الإلهي جسدًا لكي يشاركنا أرضنا، ويحملنا على منكبيه، بل ويحتل مركزنا يحمل آثامنا للتكفير عنها.

ثانيًا: في الرعاية **يتحرك الراعي أمام الخراف** لكي تتبعه، وهكذا فتح لنا مسيحنا طريق السماء بعبوره خلال الصليب، كي نشاركه آلامه فننعم بشركة أمجاده.

ثالثًا: كثيرًا ما يمسك الراعي **بعصا الرعاية**، مقدمتها على شكل حرف U، لكي ما إذا سقط خروف في حفرة يرفعه بها. هكذا يمسك مسيحنا بصليبه الذي يحمل كل نوع من الحنو الإلهي البناء مع الحزم والتأديب بما فيه تقدمنا المستمر.

رابعًا: كثيرًا ما يجلس الراعي يستظل في الظهيرة **ويضرب بمزماره** وحوله الخراف فإن سمة الراعي هو الفرح وسط المتاعب وحرّ التجارب. هكذا نجد في راعينا مصدر الفرح الحقيقي.

خامسًا: يهتم الراعي **بالخروف الضال** أكثر من التسعة والتسعين الباقين، ولا يستريح حتى يرده إلى القطيع (مت ١٨: ١٢–١٤؛ لو ١٥: ٣–٧).

❖ "**أنا هو الراعي الصالح**". يتحدث هنا عن الآلام، مظهرًا أنها هي خلاص العالم، فإنه لم يأتِ إليها قسرًا. عندئذٍ يتحدث عن نموذج الراعي مرة أخرى وعن الأجير[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد قال أنه هو "**الراعي**"، كما قال أنه هو "**الباب**". تجد الاثنين في نفس الموضع، كلاً من "**أنا هو الباب**" و"**أنا هو الراعي**" [٧، ١١]. في الرأس هو الباب، وفي الجسد هو الراعي... الذي يدخل من الباب هو الراعي، أما الذي يطلع من موضعٍ آخرٍ فذاك سارق ولص، يبدد ويشتت ويهلك. من هو الذي يدخل من الباب؟ ذاك الذي يدخل بالمسيح. من هو؟ ذاك الذي يتمثل بآلام المسيح...[2]

---

[1] *Hom 59. PG 59: 349.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 87:3, 4.*

❖ هل كان (الرسل) رعاة؟ بالتأكيد كانوا هكذا. فكيف يوجد راعي واحد؟ كما سبق فقلت أنهم **كانوا رعاة لأنهم أعضاء في الراعي**. لقد فرحوا في هذا الرأس، وتحت رئاسة هذا الرأس كانوا في انسجام معًا، عاشوا بروحٍ واحدٍ في رباط جسدٍ واحدٍ. لذلك فجميعهم ينتمون للراعي الواحد[1].

❖ ماذا تعني إذن إنك تقدم للرعاة الصالحين الراعي الصالح وحده إلاَّ أنك تعلم الوحدة في الراعي الصالح؟ وقد أوضح الرب نفسه ذلك بأكثر وضوح في خدمتي، إذ أذكركم أيها الأحباء بهذا الإنجيل القائل: "اسمعوا ماذا وضعت أمامكم، لقد قلت **أنا هو الراعي الصالح**، لأن كل البقية، الرعاة الصالحين، هم أعضائي". رأس واحد، جسم واحد، مسيح واحد. هكذا كل من راعي الرعاة ورعاة الراعي والقطيع برعاته الذين تحت الراعي.

ما هذا كله إلاَّ ما يقوله الرسول: "كما أن الجسم واحد، له أعضاء كثيرون، وكل أعضاء الجسم بكونهم كثيرون جسم واحد، هكذا المسيح" (١ كو ١٢: ١٢). لذلك إن كان المسيح هو هكذا، فبسبب صالح يحوي المسيح في ذاته كل الرعاة الصالحين، يقيمون الواحد القائل: "أنا هو الراعي الصالح". أنا وحدي وكل البقية معي واحد في وحدة.

من يرعى بدوني يرعى ضدي. "من لا يجمع فهو يفرق" (مت ١٢: ٣٠). لتسمعوا هذه الوحدة قد وضعت أكثر قوة، إذ يقول: "**ولي قطيع آخر ليس من هذا القطيع**" [١٦][2].

❖ أسألكم، أتوسل إليكم بحق قدسية مثل هذا الزواج أن تحبوا الكنيسة، **حبوا الراعي الصالح**، فالعروس جميلة للغاية، هذه التي لا تخدع أحدًا، ولا تطلب هلاك أحد. صلوا أيضًا من أجل القطيع المبعثر، لكي يأتوا، ويتعرفوا عليه، ويحبوه، ويصيروا **رعية واحدة وراعٍ واحدٍ**[3].

القديس أغسطينوس

❖ كيف لا أحبك يا من أحببتني بشدة؟ رغم أني سوداء، **فقد وضعت حياتك من أجل خرافك** (يو ١٥: ١٣)، أنت راعيهم.

ليس لأحدٍ حب أعظم من هذا، لأنك بذلت حياتك لتمنحني الخلاص.

قل لي إذًا أين ترعى؟

عندما أجد مرعى خلاصك، حينئذٍ أشبع بالطعام السماوي؛ الذي بدونه لا يدخل أحد إلى الحياة

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 46: 7.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 88:5.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 88:10.*

الأبدية. وحين أجري إليك أيها الينبوع سوف أشرب من الينبوع الإلهي الذي جعلته يتدفق ليروي كل من يعطش إليك.

إذ ضُرِب جنبك بالحربة للوقت خرج دم وماء (يو ١٩: ٣٤). ومن يشرب منه يصبح ينبوع ماء حيّ للحياة الأبدية (يوحنا ٤: ١٤).

إذا رعيتني ستجعلني أستريح بسلام خلال منتصف النهار في الضوء الخالي من الظلال. لأنه لا توجد ظلال في منتصف النهار، عندما ترسل الشمس أشعتها عمودية فوق الرأس. وستجعل ضوء منتصف النهار يُريح كل من أطعمته، وتأخذ أطفالك معك في فراشك (لو ١١: ٧).

لا يستحق أحد أن يأخذ راحة منتصف النهار إلا ابن النور والنهار (١ تس ٥: ٥). الشخص الذي فصل نفسه من ظلمة الليل إلى الفجر، سوف يستريح في منتصف النهار مع شمس البرّ (ملا ٤: ٢)[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"وأما الذي هو أجير وليس راعيًا،
الذي ليست الخراف له،
فيرى الذئب مقبلاً،
ويترك الخراف ويهرب،
فيخطف الذئب الخراف ويبددها". [١٢]

يتعرض هذا القطيع لذئابٍ خاطفة تخدع وتفترس وتحطم (أع ٢٠: ٢٩)، كما يتعرض للصوص يخطفون القطيع لتقديمه ذبائح لعدو الخير، أو يسرقون طعامه. غالبًا ما تأتي الذئاب في ثياب حملان (مت ٧: ١٥).

في العبارتين ١٢ و١٣ يحدثنا السيد المسيح عن الرعاة المهملين، فيدعوهم أجراء، إذ يخدمون من أجل الأجرة أو المكافأة، وليس عن حبٍ صادقٍ لشعب الله. محبتهم للمال أو لبطونهم هي التي تحملهم إلى الرعاية. حقًا من يخدم المذبح من المذبح يأكل، ومن يكرز بالإنجيل فمن الإنجيل يعيش، لكن قلوبهم مرتبطة بخلاص النفوس، لا بما يقتنوه من وراء الخدمة.

❖ يعلن عن نفسه أنه السيد مثله مثل الآب، فإنه هو كذلك، فهو الراعي والخراف له[٢].

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، ١٩٩٣، عظة ٢.

[2] *Homilies on St. John, 59: 3.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

الأجير الذي يرى ذئبًا فيهرب تاركًا القطيع للافتراس يخطئ. وقد جاء في المشناه *Mishnah* أنه يلتزم أن يحمي القطيع إن واجه ذئبًا واحدًا لكن يعطي عذرًا له لو هاجم القطيع ذئبان أو أكثر لأنه لا يقدر على هذه المواجهة. كأجير غير ملتزم بحماية القطيع أن تعرض لذئبين معًا، لأن حياته تكون في خطرٍ.

❖ يعمل الأجير مادام لا يرى الذئب قادمًا، مادام لا يرى اللص أو السارق، ولكن إذ يراهم يهرب... يصعد الأجراء بطريق آخر... لأنهم متكبرون يصعدون...

الذين ليسوا في وحدة (الكنيسة) لهم طريق آخر، أي متعجرفون ويريدون أن يفسدوا القطيع.

الآن لاحظوا كيف يصعدون. إنهم يقولون: إننا نحن الذين نقدس ونبرر ونقيم أبرارًا...

الذئب هو الشيطان الذي يرقد منتظرًا أن يخدع، وأيضًا الذين يتبعونه يخدعون، فقد قيل بالحق يرتدون جلود القطيع، ولكن في الداخل ذئاب خاطفة (مت ٧: ١٥).

إن لاحظ الأجير شخصًا منشغلاً بحديثٍ شريرٍ، أو أحاسيس قاتلة لنفسه أو يمارس رجاسة ودنسًا، وعلى الرغم من أنه يبدو كمن يحمل شخصية لها أهميتها في الكنيسة (التي منها يترجى أن ينال نفعًا إذ هو أجير)، ولا يقول شيئًا له: "أنت تخطئ"، ولا يؤنبه حتى لا يفقد ما لنفعه. أقول هذا هو معنى "**عندما يرى الذئب يهرب**". إنه لا يقول له: "أنت تعمل بالشر". هذا ليس هروبًا بالجسد بل بالنفس. الذي تراه لا يزال واقفًا بالجسد يهرب بالقلب. عندما يرى خاطئًا لا يقول له: "أنت تخطئ" نعم لكي يكون في اتفاق معه[1].

❖ لا يحملن الأجير هنا شخصية صالحة، ولكن من نواحٍ أخرى فهو نافع، وإلا ما كان يُدعى أجيرًا، وما كان ينال أجرة ممن وظَّفه. فمن هو هذا الأجير الذي يُلام ونافع أيضًا؟ يوجد بعض يعملون في الكنيسة يقول عنهم الرسول بولس: "يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو ليسوع المسيح" (في ٢: ٢١). ماذا يعني "يطلبون ما لأنفسهم"؟ الذين لا يحبون المسيح مجانًا، بل يسعون نحو المنافع الزمنية، يطلبون الربح، ويطمعون في الكرامات من الناس.

❖ يوجد أجراء أيضًا في وسطنا، لكن الرب وحده يميزهم، ذاك الذي يفحص القلوب يميزهم[2].

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 87:1*٢.

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 46: 5.*

❖ لنلتفت باهتمامٍ إلى الحقيقة أنه حتى الأجراء نافعون. فإنه بالحقيقة يوجد كثيرون في الكنيسة يسعون وراء النفع الأرضي، ومع هذا فهم يكرزون بالمسيح، ومن خلالهم يُسمع صوت المسيح، وتتبع الخراف لا الأجراء، بل صوت المسيح المتكلم خلالهم. أشار الرب نفسه إلى الاستماع إلى الأجراء، إذ قال: "على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا" (مت ٢٣: ٢–٣). ماذا قال سوى أصغوا إلى صوت الراعي خلال الأجراء؟[1]

❖ اسمع الرسول يتنهد من أجل مثل هذه الأمور. إنه قيل أن البعض يكرزون بالإنجيل خلال المحبة، وآخرون "لعلة"، فيقول عنهم انهم لا يكرزون بالإنجيل بحق (في ١: ١٦–١٨). ما يكرزون به هو حق، أما الذين يكرزون فهم أنفسهم ليسوا مستقيمين.

لماذا من يكرز هكذا ليس مستقيمًا؟ لأنه يطلب شيئًا آخر في الكنيسة، لا يطلب الله.

إن طلب الله يكون عفيفًا، إذ يكون الله هو الزوج الشرعي للنفس.

أما من يطلب من الله ما هو بجانب الله، فإنه لا يطلب الله بعفة.

لاحظوا يا إخوة، إن كانت زوجة تحب زوجها لأنه غني، فإنها ليست عفيفة. لأنها لا تحب زوجها بل ذهب زوجها. لو أنها تحب زوجها، فإنها تحبه في عريه وفقره. لأنها إن كانت تحبه لأنه غني، ماذا إذا صار محتاجًا فجأة؟ ربما ترفضه، لأنها لم تحب رجلها بل ممتلكاته. لكنها إن كانت تحب زوجها بالحق، فإنها تحبه بالأكثر عندما يفتقر، إذ تحبه مترفقة به أيضًا[2].

❖ يلزمنا لا أن نحب الغنى، بل الله الذي خلق الغني، لأنه لا يعدكم بشيء بل بنفسه. لتجد شيئًا أثمن منه وهو يهبه لك. جميلة هي الأرض والسماء والملائكة، لكن خالقهم أكثرهم جمالاً.

إذن من يكرزون بالله بكونه الله المحب، من يكرزون بالله لأجل نفسه، يرعون القطيع وليسوا أجراء.

يطلب ربنا يسوع المسيح من النفس هذه العفة، إذ قال لبطرس: "يا بطرس أتحبني" (يو ٢١: ١٦)؟ ماذا تعني "أتحبني"؟ هل أنت عفيف؟ هل قلبك غير زانٍ؟ هل لا تطلب الأمور الخاصة بك في الكنيسة، بل تطلبني أنا؟ إن كنت هكذا وتحبني "ارعَ غنمي". فإنك لا تكون أجيرًا بل راعيًا[3].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 46: 6.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 87:9.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 87:10.*

❖ يكرز الراعي بالمسيح بالحق، ويكرز الأجير بالمسيح بعلة (في ١: ١٨)، يطلب شيئًا آخر. وإن كان هذا وذاك يكرزان بالمسيح... بولس نفسه الراعي يُسر أن يكون لديه أجراء. فإنهم يعملون حين يكونوا قادرين، إنهم نافعون ماداموا قادرين على الكرازة... **نادرًا ما يجد (الرسول) راعيًا بين أجراء كثيرين، لأن الرعاة قليلون، أما الأجراء فكثيرون**. لكن ماذا قيل عن الأجراء؟ "الحق أقول لكم أنهم قد أخذوا أجرتهم" (مت ٦: ٢). أما عن الراعي فماذا يقول الرسول؟ "لكن من يطهر نفسه من مثل هذه يصير آنية للكرامة مقدسة ونافعة للرب، معدة لكل عملٍ صالحٍ" (٢ تي ٢: ٢١)، ليست معدة لأمور معينة بل "معدة لكل عمل صالح"[1].

القديس أغسطينوس

"**والأجير يهرب،**

لأنه أجير ولا يبالي بالخراف". **[١٣]**

يشبه **القديس أغسطينوس** الأجراء الذين يعملون في الخدمة لحساب أنفسهم لا لحساب المسيح بالأسوار المملوءة شوكًا وقد استندت عليها الكرمة الحاملة العنب. فيليق بنا أن نتمتع بعنب الكرمة المحمول على الأشواك. العنب الذي لم يصدر عن الشوك بل عن الكرمة.

يقدم لنا الرسول مثلاً لهذه الأشواك الحاملة للكرمة: "وأما قوم فعن حسد وخصام يكرزون بالمسيح، وأما قوم فعن مسرة. فهؤلاء عن تحزب ينادون بالمسيح، لا عن إخلاص... غير أنه على كل وجه سواء كان بعلةٍ أم بحقٍ يُنادى بالمسيح، وبهذا أنا أفرح، بل سأفرح أيضًا" (في ١: ١٥-١٨)[2].

❖ في هذا يختلف الراعي عن الأجير، واحد يطلب دومًا ما هو لسلامه غير مبالٍ بالخراف، والآخر يطلب ما هو للخراف غير مبالٍ بما هو لنفسه...

قديمًا انتهر حزقيال (الأجراء) وقال: "ويل لكم يا رعاة إسرائيل. هل يرعى الرعاة أنفسهم؟ ألا يرعون الخراف؟" (خر ٣٤: ٢ *LXX*). لكنهم فعلوا ما هو على خلاف ذلك، الذي هو أشر أنواع الشر، وعلة كل بقية الشرور. فقد قيل: "لم يستردوا المطرود، والضال لم يطلبوه، والمكسور لم يجبروه، والمريض لم يشفوه، لأنهم رعوا أنفسهم لا الغنم" (راجع حز ٣٤: ٤).

وكما أعلن بولس أيضًا في موضع آخر: "إذ الجميع يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو ليسوع المسيح" (في ٢: ٢١). وأيضًا: "لا يطلب أحد ما هو لنفسه بل كل واحدٍ ما هو للآخر" (١ كو ١٠:

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 87:11.*
[2] *cf St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 46: 6.*

٢٤)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يكون الشخص أجيرًا إن احتل موضع الراعي لكنه لا يطلب نفع النفوس. إنه يتوق إلى المنافع الأرضية، ويفرح بكرامة المراكز السامية، وينقاد إلى الربح المؤقت، وينعم بالكرامة المقدمة له. هذه هي مكافآته... مثل هذا لا يقدر أن يقف عندما يكون القطيع في خطر.

الآن إذ يجد الكرامة ويتمتع بالمنافع المؤقتة يخشى مقاومة الخطر لئلا يفقد ما يحبه... عندما يقتحم شخص شرير المؤمنين المتواضعين، يكون هذا ذئبًا يهجم على القطيع، يمزق أذهانهم بالتجارب. لا يتحمل الأجير مسئولية حماية القطيع.

تهلك النفوس بينما يتمتع هو بالمنافع الأرضية. ليس من غيرة تلتهب في الأجير ضد هذه التجارب، ليس من حب يثيره، كل ما يطلبه هو المنافع الخارجية، وبإهمال يسمح للأضرار الداخلية أن تحل بقطيعه[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"أما أنا فإني الراعي الصالح،

وأعرف خاصتي،

وخاصتي تعرفني". [١٤]

تلامس المرتل مع الرب الراعي الصالح في مزمور الراعي (مز ٢٣)، حيث يكشف عن مدى اهتمام الرب الفائق برعيته.

تكشف الرعاية الصالحة عن الحب المشترك والمعرفة المتبادلة بين الراعي ورعيته. فالراعي يعرف رعيته، لا معرفة مدرسية تعتمد على التنظيمات المجردة، بل معرفة الالتصاق بهم، والانتساب إليهم وانتسابهم له، فيصيروا خاصته التي تتأهل لمعرفته.

لقد عرف الله إبراهيم وإسحق ويعقوب، فدعا نفسه "إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب". وعرف بولس راعيه الأعظم فيحسبه ربه وإلهه هو! هكذا خلال هذه الرعاية الحقيقية يسمع كل حمل من بين القطيع صوت راعيه يؤكد له: "وأكون له إلهًا، وهو يكون لي ابنًا" (رؤ ٢١: ٧).

إنه يعرف خاصته، إذ يتطلع إليهم بعيني الحب والاهتمام الرعوي، يعرفهم فيبذل ذاته بكل سرور

---

[1] *Homilies on St. John, 60: 1.*

[2] *Hom. 15, Forty Gospels Homilies.*

من أجلهم. وكما يقول القديس يوحنا: "هو أحبنا أولاً" (١ يو ٤: ١٩). وكما يقول الرسول بولس: "وأما الآن إذ عرفتم الله، بل بالأحرى عُرفتم من الله" (غلا ٤: ٩).

نظرات حب الراعي تسحب نظرات الرعية إليه، وكما يعرف الراعي خاصته بالحب العملي والاتحاد معهم يعرفونه هم ويجدون لذتهم في الاتحاد معه. هذا هو العهد الجديد، عهد النعمة القائم على الحب بين الله وخاصته. فتدرك الخاصة كلمات راعيهم: "أنا أعلم الذين اخترتهم" (يو ١٣: ١٨)، وفي يقين الإيمان بالراعي يرددون مع الرسول: "لأنني عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم" (٢ تي ١: ٢١).

❖ المسيح إذن هو الراعي الصالح. ماذا كان بطرس؟ ألم يكن راعيًا صالحًا؟ ألم يبذل حياته عن القطيع؟ ماذا كان بولس؟ ماذا كان بقية الرسل؟ ماذا عن الأساقفة الطوباويين والشهداء؟... ماذا عن كبريانوسنا القديس؟ ألم يكن هؤلاء جميعًا رعاةً صالحين؟... هؤلاء جميعًا كانوا رعاةً صالحين، ليس لمجرد سفك دمائهم، إنما سفكوه من أجل القطيع، ليس في كبرياء، بل سفكوه في محبة.

ماذا تقول يا رب، أيها الراعي الصالح؟ فإنك أنت هو الراعي الصالح، أنت هو الحمل الصالح. في نفس الوقت أنت الراعي والمرعى، الحمل والأسد في نفس الوقت. ماذا تقول؟ هب لنا أذنًا وأعنا لكي نفهم. إنه يقول: "أنا هو الراعي الصالح". وماذا عن بطرس؟ هل هو ليس براعٍ أو هل هو شرير؟... إنه راع وراع صالح، لكنه كلا شيء بالحق بالنسبة لقوة راعى الرعاة وصلاحه، ومع هذا فإنه راعٍ وصالح، وكل الآخرين الذين مثله هم رعاة صالحون[1].

❖ المسيح هو بابي إليكم، بالمسيح أجد مدخلاً، لا إلى بيوتكم بل إلى قلوبكم. بالمسيح أدخل، إنه المسيح الذي فيّ، هو الذي تريدون أن تسمعوا له. ولماذا تريدون أن تسمعوا المسيح فيّ؟ لأنكم قطيع المسيح، أُشتريتم بدم المسيح. إنكم تعرفون ثمنكم، الذي لا يُدفع بواسطتي، وإنما يكرز به بواسطتي. إنه هو، وهو وحده المشتري، الذي سفك دمه الثمين – الدم الثمين لذاك الذي بلا خطية[2].

القديس أغسطينوس

"**كما أن الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب،**

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 88:6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 47: 2.*

وأنا أضع نفسي عن الخراف". [١٥]

ليس فقط اشتهى البذل حتى الموت من أجل قطيعه بل كراعٍ صالح يؤكد: "**وأنا أضع نفسي عن الخراف**". لقد حقق خطة البذل فعلاً. قدم حياته المبذولة مهرًا ليقتني الخراف. اشتراها لا لكي يذبحها، وإنما يُذبح هو لكي يحبها. لا يُقدم القطيع ذبيحة عن صاحبها كما في العهد القديم، بل يقدم الراعي نفسه ذبيحة عن قطيعه.

❖ "**خاصتي تعرفني، كما أن الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب**"، بمعنى سأكون منتميًا لقطيعي وهم يرتبطون بي، بدأت الكيفية التي بها يعرف الرب الآب ابنه الحقيقي الوحيد الجنس، ثمرة جوهره، ويعرف الابن الآب، بكونه الله الحقيقي، ويلد كيانه من هو منه، هكذا نحن إذ تعبنا لنكون له يُقال أننا من عائلته، ونُحسب أبناءه. نحن بالحقيقة أقرباؤه (أع ١٧: ٢٩)، ونحمل اسم الابن، وبسبب ذاك الذي من الآب، فإنه وهو المولود من الله، إله حق، قد صار إنسانًا، وأخذ طبيعتنا، ماعدا الخطية[١].

القديس كيرلس الكبير

❖ إنه (الآب) يعرف أنه قد ولده، كما يعرف هو أيضًا أنه مولود منه. وباختصار أذكر ما جاء في الإنجيل: "أنه لا يعرف أحد الابن إلا الآب، ولا الآب إلا الابن" (مت ١١: ٢٧، يو ١٠: ١٥؛ ١٧: ٢٥)[٢].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ إنه يعرف الآب بنفسه، ونحن نعرفه به... إذ يقول: "الله لم يره أحد قط، الابن الذي في حضن الآب هو يخبر" (يو ١: ١٨). هكذا به ننال هذه المعرفة التي يعلنها لنا[٣].

❖ تذكروا كيف أن الرب يسوع المسيح هو الباب والراعي، الباب بتقديم نفسه لكي يُعلن، والراعي الذي يدخل بنا بواسطته. بالحقيقة يا إخوة، لأنه هو الراعي يعطي لأعضائه أن يصيروا مثله. فإن كلا من بطرس وبولس وغيرهما من الرسل وكل الأساقفة الصالحين كانوا رعاة. لكن لا يدعو أحد منا نفسه أنه الباب. فقد ترك هذا بالتمام لنفسه. في اختصار مارس بولس عمل الراعي الصالح عندما كرز بالمسيح، إذ دخل من الباب. لكن حينما بدأ القطيع غير المهذب يسبب انشقاقات،

---

[1] *PG 74: 653 AB.*

[٢] مقال ٤: ٧.

[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 47: 3.*

وأن يقيموا أبوابًا أخرى أمامهم... قال بولس أنا لست الباب؛ "هل صُلب بولس من أجلكم، أو هل اعتمدتم باسم بولس؟!" (١ كو ١: ١٢–١٣).

القديس أغسطينوس

"ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة،
ينبغي أن آتي بتلك أيضًا،
فتسمع صوتي،
وتكون رعيةً واحدةً، وراعٍ واحدٍ". [١٦]

يقدم لنا الراعي الصالح في هذا السفر تأكيده عن المعرفة الفريدة المتبادلة بين الآب والابن، علامة وحدة الفكر والإرادة ووحدة العمل معًا (مع وحدة الجوهر الإلهي)، كمثال للمعرفة بينه وبيننا كخاصته المحبوبة لديه التي تجد أبديتها في قبول مشيئته وقوته والعمل به ومعه! يتحدث بعد ذلك عن الخراف الآخر التي من الأمم، بكونها خرافه التي يأتي بها إليه لتكون مع خراف بيت إسرائيل رعية واحدة لراعٍ واحد.

بقوله: ينبغي أن "**آتِ بتلك**" يؤكد السيد المسيح دوره الإيجابي في اقتناء الأمم شعبًا له، فهو الذي يقدم دمه ثمنًا لخلاصهم، وهو الذي يعمل بروحه فيهم ليجتذبهم، لكن ليس بغير إرادتهم. إنه يفتح قلوب مؤمنيه لمحبة كل البشرية المدعوة للتمتع برعاية السيد المسيح مخلص العالم. وفي نفس الوقت يحطم تشامخ اليهود الذين ظنوا أن المسيا قادم إليهم وحدهم، وإنهم قطيع الله الفريد، متطلعين إلى الأمم ككلابٍ بين القطيع.

بقوله "**ينبغي**" يؤكد السيد التزام الحب؛ حبه الإلهي يلزمه بتقديم ذاته ذبيحة لفداء قطيعه بسرورٍ.

إنه يأتي بالكل من جميع الأمم ليردهم إلى المرعى الحقيقي، الكنيسة المقدسة؛ يفتح لهم أبوابها السماوية ليدخلوا بعد تيه في البرية لزمانٍ هذا مقداره. إنه ينسبهم له، فهم قطيعه الذي خلقه ويهتم بخلاصه، ويقدم دمه الثمين ثمنا لخلاصهم، يردهم في كرامةٍ ومجدٍ.

هذا القطيع أيًا كان مصدره، إذ هو قادم من أمم كثيرة، يسمع صوت الراعي الواحد فيؤمن به، إذ الإيمان بالاستماع، فينجذبون إليه ويتحدون معه كأعضاءٍ لجسدٍ واحدٍ لرأس واحد. وكما يقول الرسول: "جسد واحد، وروح واحد، كما دُعيتم أيضًا في رجاء دعوتكم الواحد، رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة، إله وأب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم" (أف ٤: ٤–٦). هكذا ترتبط وحدة القطيع أو الوحدة الكنسية بوحدة الراعي.

❖ كأنه يقول: ما بالكم تتعجبون إن كان هؤلاء القوم سيتبعونني، وإن كان غنمي يسمع صوتي، لأنكم إذا رأيتم أغنام أخرى تتبعني وتسمع صوتي فستذهلون حينئذٍ ذهولاً عظيمًا.

❖ "**ينبغي أن آتي بتلك**"، كلمة "**ينبغي**" هنا لا تعني "**ضرورة**"، بل هي إعلان عما سيحدث حقًا كأنه يقول: لماذا تتعجبون إن كان هؤلاء يتبعونني وإن كانت خرافي تسمع صوتي؟ فإنكم سترون آخرين أيضًا سيتبعونني ويسمعون صوتي، فتكون "دهشتهم أعظم". لا ترتبكون عندما تسمعونه يقول: "**ليست من هذه الحظيرة**"، فإن الاختلاف يخص الناموس وحد، كما يقول بولس: "لا الختان ينفع شيئًا، ولا الغرلة" (غلا ٥: ٦).

"**ينبغي أن آت بتلك أيضًا**" [١٦]. لقد أظهر أن هؤلاء وأولئك قد تشتتوا وامتزجوا، وكانوا بلا رعاة، لأنه لم يكن بعد قد جاء الراعي الصالح. عندئذٍ أعلن عن وحدتهم المقبلة إذ يصيروا رعية واحدة. وهو نفس الأمر الذي أعلنه بولس بقوله: "لكي يخلق الاثنين في نفسه إنسانًا واحدًا جديدًا" (أف ٢: ١٥)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى؟ أين تربض عند الظهيرة؟ لماذا أكون كمقنَّعة عند قطعان أصحابك**" (نش ١: ٧).

"أين ترعى أيها الراعي الصالح، يا من تحمل القطيع كله على كتفيك؟ لأنك إنما حملت خروفًا واحدًا على كتفيك ألا وهو طبيعتنا البشرية.

أرني المراعي الخضراء.

عرفني مياه الراحة (مز ٢٣: ٢).

قدني إلى العشب المشبع.

ادعني باسمي (يو ١٠: ٣) حتى أسمع صوتك، أنا خروفك، أعطني حياة أبدية[2].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ ضرب الفريسيين المعاندين بطرق متنوعة. هنا سمح لهم أن يلاحظوا أنهم على وشك نزعهم عن رعاية شعبه، الذي يدبر أمورهم بنفسه الآن. إنه يعني إن الخلط بين قطعان الأمم مع أولئك الذين

---

[1] *Homilies on St. John, 60: 2. . PG: 353.*

[2] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، ١٩٩٣، عظة ٢.

لهم إرادة صالحة من شعب إسرائيل، فلا يعود يحكم اليهود وحدهم، بل ينتشر مجد نوره على الأرض كلها. إنه يرغب ألا يُعرف في إسرائيل وحدها منذ البداية، بل يقدم لكل الذين تحت السماء معرفة الله الحقيقي[1].

القديس كيرلس السكندري

❖ توجد سفينتان (لو ٥: ٢) منهما دعا تلاميذه. إنهما تشيران إلى هذين الشعبين (من اليهود ومن الأمم)، عندما ألقوا شباكهم وأخرجوا صيدًا عظيمًا وعددًا كبيرًا من السمك، حتى كادت شباكهم تتخرق. قيل "امتلأت السفينتان" تشير السفينتان إلى الكنيسة ولكنها تتكون من شعبين، ارتبطا معًا في المسيح، وإن كانا قد جاءا من أماكن متباينة.

عن هذه أيضًا الزوجتان اللتان لهما زوج واحد يعقوب، وهما ليئة وراحيل، كانتا رمزًا (تك ٢٩: ٢٣، ٢٨). وعن هذين الشعبين كان الأعميان رمزًا، جلسا على الطريق ووهبهما الرب النظر (مت ٢٠: ٣٠). وإن دققت في الكتاب المقدس تجد الكنيستين اللتين هما كنيسة واحدة وليس اثنتين قد رمز لهما في مواضع كثيرة[2].

القديس أغسطينوس

❖ أخيرًا، الذبائح نفسها التي للرب تعلن أن الاجتماع المسيحي يرتبط بذاته بحب ثابت لا ينفصل. لأن الرب عندما دعا الخبز الذي يتكون من وحدة حبوب كثيرة جسده، يشير إلى شعبنا الذي يحمل اتحادًا. وعندما يدعو الخمر المعصور من عناقيد العنب والحبوب الصغيرة جدًا التي تجتمع معًا في دمه الواحد، هكذا أيضًا يعني قطيعنا الممتزج معًا بجماهير متحدة[3].

الشهيد كبريانوس

"لهذا يحبني الآب،
لأني أضع نفسي لآخذها أيضًا". [١٧]

يخطئ البعض حين يظنون في الآب العدالة الإلهية والابن الرحمة الإلهية. هؤلاء يتصورون أن الابن مملوء حبًا نحو البشر، وقد قدم ذاته ذبيحة حب ليرفع غضب الآب. وقد اعتقد بعض الغنوسيين في القرن الثاني أن إله العهد الجديد (الابن) جاء يخلص العالم من إله العهد القديم لأنه

---

[1] *PG 74: 656c.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 87:6.*
[3] *Letter 67 to Asturica ...: 2.*

غضوب! هنا يؤكد القديس يوحنا أن ذبيحة المسيح هي موضوع حب الآب لنا، وأنها ثمرة الحب المتبادل بين الآب والابن. فالحب الإلهي هو سمة الثالوث القدوس وليس خاصًا باقنوم دون آخر.

الابن الوحيد الجنس موضع حب الآب أزليًا، أما وقد تجسد وصار بالحقيقة إنسانًا، فإنه يتمتع بحب الآب كابن البشر حيث يقدم حياته مبذولة عن البشرية. لقد صار بإرادته خادمًا باذلاً من أجل العالم ليقتنيه لحساب الله أبيه. وقد جاء في أناشيد العبد الأمين المتألم: "هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرت به نفسي، وضعت روحي عليه، فيُخرج الحق للأمم" (إش ٤٢: ١).

بهذا التدبير الإلهي قدم نفسه لنا "الطريق"، فإننا إذ ندخل فيه نشاركه سمة الحب الباذل العملي والأمانة، فنشتهي أن نشاركه صلبه وموته لنصير فيه موضع سرور أبيه. ببذله فدى البشرية وقدمها لأبيه، وباتحادنا به ننعم بمجد البذل والصلب معه.

يتحدث السيد عن موته "**أضع نفسي**" وعن قيامته "**آخذها**". إنه صاحب سلطان ما كان يمكن لكل قوات الظلمة أن تتصرف هكذا بدون إذنه؛ في سلطانه أن يضع نفسه ويأخذها. هكذا يقدم الموت والقيامة بأسلوب بسيط، بلا انزعاج أمام الموت، ولا دهشة أمام قيامته.

❖ "**لأني أضع نفسي**". ليت اليهود لا يفتخرون بعد، هم يهيجون لكنهم بلا سلطان. ليثوروا كيفما شاءوا فإن كنت غير راغب أن أضع نفسي، ماذا يفعل هياجهم هذا؟...

لا يفتخر اليهود كمن غلبوا، فإنه هو الذي وضع حياته بنفسه...

أنتم تعرفون المزمور: "أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت (قمت)، لأن الرب عضدني" (مز ٣: ٥)...

إنها مسرتي أن أفعل هذا...

لكنه يجب أن يعطي المجد للآب لكي يحثنا على تمجيد خالقنا. فبإضافته: "أنا استيقظت لأن الرب عضدني" أتظنون أنه قد حمل هنا نوعًا من الحرمان من سلطانه، حتى أنه في سلطانه أن يموت، وليس في سلطانه أن يقوم؟ حقًا تبدو الكلمات هكذا إن لم تُدرك كما ينبغي... اسمعوا عبارة أخرى في الإنجيل إذ يقول: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه"، ويضيف الإنجيلي: "وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده" (يو ٢: ١٩-٢٠)[1].

❖ يضع الجسد نفسه بقوة الكلمة، ويأخذ الجسد مرة أخرى بذات قوة الكلمة[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 47: 7.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 47: 1 3.*

❖ "**هذه الوصية قبلتها من أبي**" [١٥]. لم يقبل الكلمة الوصية في كلمات، وإنما في الابن الوحيد كلمة الآب تقوم كل وصية. ولكن حين يُقال أن الابن يقبل من الآب ما لديه جوهريًا فيه، إنما يعطيه الحياة في ذاته (يو ٥: ٢٦)، بينما الابن هو نفسه الحياة فلا ينقصه شيء من السلطان لم يعطه مولده.

فإن الآب لم يضف مواهب كما لو كان الابن غير كامل في مولده، بل الذي ولده كماله مطلق، يحمل كل العطايا بمولده. في هذا أعطاه المساواة معه ولم يلده قط في عدم مساواة له[1].

القديس أغسطينوس

❖ أي شيء يكون أكثر ملئًا من السمات البشرية عن هذا القول، إن كنا نحسب ربنا محبوبًا لأنه يموت من أجلنا؟ ماذا إذن؟ أخبروني ألم يكن محبوبًا قبل ذلك؟ هل بدأ الآب يحبه وكنا نحن السبب في حب الآب له؟ ألا ترون كيف يستخدم التنازل؟ لكن ماذا يريد أن يؤكد هنا؟ لأنهم قالوا إنه كان غريبًا عن الآب ومخادعًا وجاء ليهلك ويدمر، لذلك قال لهم: "هذا لو لم يوجد ما يدفعني أن أحبكم، بمعنى أنكم محبوبون من الآب، وأنا أيضًا محبوب منه، لأني أموت من أجلكم". بجانب هذا يرغب في البرهنة على نقطة أخرى أنه لم يأتِ ليفعل شيئًا بغير إرادته، فإنه لو كان الأمر هكذا فكيف يكون عملي هذا سببًا في الحب؟[2]

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ليس أحد يأخذها مني،**
بل أضعها أنا من ذاتي.
لي سلطان أن أضعها،
ولي سلطان أن آخذها أيضًا،
هذه الوصية قبلتها من أبي". **[١٨]**

إذ يضع نفسه يأخذها، لأنه قدوس الله الذي لن يرى فسادًا (مز ١٦: ١٠). إذ صار جسدًا بإرادته سلم نفسه باذلاً جسده لكي يقبله من يدي الآب جسدًا مجيدًا، فاتحًا لنا باب القيامة، إذ هو نفسه "القيامة". أعطانا فيه حق التمتع بالجسد الممجد القادر أن يشارك النفس مجدها السماوي. إنه يؤكد أن موته يتحقق بكامل إرادته، إذ هو صاحب سلطان أن يموت وأن يقوم. هذا البذل هو موضع سروره

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 47: 14.*
[2] *Homilies on St. John, 60: 2.*

كما هو موضع سرور الآب، وفي طاعة كاملة سلم الأمر بين يدي الآب، ليحقق إرادته التي هي واحدة مع إرادة الابن.

❖ اشتهى المسيح أن يأكل الفصح (لو ٢٢: ١٥)، وأن يبذل حياته ليضعها بإرادته ويأخذها أيضًا بإرادته (يو ١٠: ١٨)، وقد تحققت شهوته.

القديس أغسطينوس

❖ وضع حياته لكي يمجدنا، ولكن كان سلطان لاهوته أن يضعها وأن يأخذها أيضًا... ها أنتم ترون صلاحه، أن يضعها بإرادته؛ ها أنتم ترون سلطانه أيضًا أن يأخذها[1].

القديس أمبروسيوس

❖ إذ كانوا كثيرًا ما يطلبون قتله أخبرهم: "ما لم أرد أنا ذلك، فإن تعبكم يكون باطلاً". وبالأمر الأول برهن على الثاني، بالموت برهن على القيامة. فإن هذا هو الأمر الغريب والعجيب.

كلاهما وضعا في طريق جديد على خلاف العادة.

لنتأمل بدقة لما يقول: "**لي سلطان أن أضعها**" [١٨]. من ليس له سلطان أن يضع نفسه؟ فإنه في مقدرة أي إنسان أن يقتل نفسه. لكنه قال هذا ليس هكذا، وإنما كيف؟ "لي سلطان أن أضعها بطريق هكذا، إنه لا يقدر أحد أن يفعل هذا ضدي بغير إرادتي". هذا السلطان ليس لدى البشر، فإنه ليس لنا سلطان أن نضعها بأية وسيلة سوى أخرى إلاَّ بقتلنا أنفسنا. وإن سقطنا تحت أيدي أناس ضدنا ولهم سلطان أن يقتلونا، فإنهم يضعون أنفسنا ولو بغير إرادتنا. لم يكن حال المسيح هكذا، وإنما حتى عندما تآمر الآخرون ضده كان له سلطان ألا يضعها.

إذ هو وحده له السلطان أن يضع حياته أظهر أن له ذات السلطان أن يأخذها ثانية.

ألا ترون أنه بالأولى برهن على الثانية، وبموته أظهر أن قيامته غير قابلة للنقاش؟[2]

❖ في قوله "**هذه الوصية قبلتها من أبي**" إن سألت السيد المسيح: وما هي هذه الوصية؟ أجابك: هي أن أموت عن العالم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أخبرنا مقدمًا أنه في وقت آلامه سيحل نفسه من جسمه بإرادته قائلاً: "**أضع نفسي لآخذها أيضًا**.

---

[1] *On the Christian Faith, Book 2:25-26*

[2] *Homilies on St. John, 60: 3.*

لا يأخذها أحد مني، بل أضعها بنفسي. لي سلطان أن أضعها أن أضعها، ولي سلطان أيضًا أن آخذها" [١٧-١٨].

نعم داود النبي أيضًا، حسب تفسير العظيم بطرس إذ تطلع إليه قال: "لا تترك نفسي في الهاوية، ولا تدع قدوسك يرى فسادًا" (مز ١٦: ١٠؛ أع ٢: ٢٧، ٣١). فإن لاهوته – قبل تجسده وعندما تجسد وبعد آلامه – غير قابل للتغير كما هو، بكونه في كل الأوقات كما كان بالطبيعة وسيبقى كما هو إلى الأبد. لكنه إذ أخذ الطبيعة البشرية كمل اللاهوت التدبير لصالحنا بنزع النفس إلى حين من الجسم، ولكنه بدون إن ينفصل اللاهوت عن إحداهما، هذان (النفس والجسم) اللذان كانا مرة متحدين، وإذ يضم العنصرين مرة أخرى اللذين انفصلا يعطى لكل الطبيعة البشرية بداية جديدة ومثالاً لما سيحدث في القيامة من الأموات، بأن يحمل كل الفاسدين عدم الفساد، وكل المائتين عدم الموت[1].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

"فحدث أيضًا انشقاق بين اليهود بسبب هذا الكلام". **[١٩]**

هذه هي المرة الثالثة التي حدث فيها انشقاق بين المستمعين للسيد المسيح (يو ٧: ٤٣؛ ٩: ١٦)، إذ كان عدو الخير يبذل كل الجهد لإفساد عمل السيد المسيح.

إذ تحدث السيد المسيح عن بذله العملي لكل حياته من أجل قطيعه، وقيامته لكي يقيمهم، لم يحتمل البعض هذا الحب الإلهي الفائق، فحسبوه يتكلم هكذا بدافع شيطاني أو بسبب اختلال عقله. بينما يشتهي الرب تمجيدنا أبديًا يقاومه البعض ويسيئون إليه، مطالبين الآخرين بعدم الاستماع إليه، فحدث انشقاق بين الفريقين.

"فقال كثيرون منهم: به شيطان وهو يهذي،
لماذا تستمعون له؟" **[٢٠]**

اتهمه البعض أن به شيطان، وأنه مجنون، لماذا يستمعون له؟ إنه يهذي ويتكلم بلا وعي. هذا الاتهام لا يزال يُوجه إلى السيد المسيح خلال كل من يشهد للحق ويتحدث عن السماء والأبدية، حيث يحسبه السامعون أنه غير واقعي، وأنه خيالي.

لقد استخفوا أيضًا بسامعيه، بكونهم يشجعونه على بث هذه التعاليم.

لا يكتفي غير المؤمن بعدم قبول الكلمة الإلهية، وإنما يسخر أيضًا منها، ويحث الآخرين على

[1] *Against Eunomius, 2: 13.*

مقاومتها، بل أحيانًا يكرس طاقته لمقاومة المستمعين لها، فيقول: "**لماذا تستمعون إليه؟**"

❖ لقد صاروا مثلجين بردًا في عذوبة الحب له، ومحترقين بالشهوة نحو أذيته. كانوا بعيدين جدًا بينما هم بجواره[1].

القديس أغسطينوس

❖ كل فضيلة صالحة، أما فوق الكل فهي فضيلة اللطف والوداعة. هذه تظهرنا بشرًا مختلفين عن الوحوش المفترسة، هذه تليق بنا لننافس ملائكة. لهذا فإن المسيح يتحدث كثيرًا عن هذه الفضيلة، آمرًا إيانا أن نكون ودعاء ولطفاء. ليس فقط يقدم كلمات كثيرة عنها، وإنما يعلمنا إياها بأعماله... فقد دعاه هؤلاء الناس شيطانًا وسامريًا وكثيرًا ما طلبوا قتله، وألقوه بحجارة... مع هذا لم يرفضهم، ومع أنهم تآمروا ضده أجابهم بوداعة عظيمة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**آخرون قالوا:**

ليس هذا كلام من به شيطان،

ألعل شيطانًا يقدر أن يفتح أعين العميان؟" **[٢١]**

هذا الفريق وإن كانوا لم يؤمنوا به بكونه المسيا ابن الله، إلاَّ أنهم لم يحتملوا إهانته ونسبته للشيطان. تعاليمه لا تحمل عنف الشيطان وفساد مملكته، أما عجائبه وأعماله فلن يقدر شيطان أن يفعلها.

❖ والآن لم يقل إنه ليس به شيطان، لأنه إذ أعطاهم برهانًا بأعماله صمت فيما بعد. فما الحاجة إلى أن يوبيخهم إذ كان بعضهم يعاند بعضًا، وأحدهم يوبخ الآخر. لهذا صمت، واحتمل شتائمهم كلها بأوفر وداعة، ليس لهذا الغرض فقط، لكن ليعلمنا كافة دعته وطول أناته.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. الوحدة مع الآب

"**كان عيد التجديد في أورشليم،**

وكان شتاء". **[٢٢]**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 2.*
[2] *Homilies on St. John, 61: 1.*

هنا نجد أيضًا حوارًا بين السيد المسيح واليهود داخل الهيكل، وكان ذلك في **عيد التجديد** *Hanukkah*، في الشتاء. كان هذا العيد تذكارًا لما فعله يهوذا المكابي عام ١٦٥ / ١٦٤ ق.م. قام بتطهير الهيكل من الرجاسة التي دنس بها أنطيخوس الرابع ابيفينوس السرياني الهيكل قبل ثلاث سنوات (١ مك ٤: ٣٦–٥٩). والزمهم بالعبادة الوثنية، ومنعهم من ختان الأطفال وحفظ السبت. وقد جاء ذكر هذا العيد في أكثر تفصيل في ٢ مك ١: ١٨. كان يُنظر إلى عودة الحرية إليهم كمن قاموا من الموت وتمتعوا بالحياة من جديد، ولتذكار ذلك أقاموا عيدًا سنويًا في الخامس والعشرين من شهر كسلو، حوالي بدء شهر ديسمبر ويمتد العيد لمدة تسعة أيام بالأنوار. لا يُحتفل بالعيد في أورشليم وحدها كبقية الأعياد، وإنما يحتفل به كواحد في موضعه، وذلك كعيد الفوريم (إش ٩: ١٩). إذ كان اليهود يحتفلون بعيد تقديس الهيكل وتكريسه [٢٢] أعلن السيد المسيح أنه هو الذي كرسه الآب وأرسله إلى العالم [٣٦].

"**وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان**". **[٢٣]**

"**فاحتاط به اليهود وقالوا له:**

إلى متى تعلق أنفسنا؟

إن كنت أنت المسيح، فقل لنا جهرًا". **[٢٤]**

كان يسوع يتمشى في الهيكل، في رواق سليمان، وهو يقع في القسم الشرقي من دار الأمم، أكبر دار في منطقة الهيكل، يحوط المباني الداخلية. هذا لا يعني أن الذي بناه سليمان، لأن الهيكل تهدم وأعيد بنائه، لكنه صار لا يزال يحمل اسم أول من قام ببنائه، وقد احتفظوا باسم سليمان من أجل شهرته العظيمة "**هيكل سليمان**".

تمشى يسوع وحده كمن يلاحظ تصرفات مجلس السنهدرين الجالس هناك، حيث قيل: "الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي. حتى متى تقضون جورًا وترفعون وجوه الأشرار؟" (مز ٨٢: ١–٢). يتمشى ليقدم خدماته لكل محتاج، ويجيب على كل تساءل، ولكي يفتح الباب لكل راغب في المشي معه في الرواق. سُئل السيد المسيح في اليوم الثامن من العيد إن كان هو المسيح، فأجاب:

أ. يعرف قطيع المسيح الحقيقي لاهوته ومسيحانيته [٢٥–٢٧].

ب. يخلص قطيعه في آمان وسلام [٢٨–٢٩].

ج. أكد يسوع وحدة الجوهر مع الآب، وأدرك اليهود أنه يساوي نفسه بالآب [٣٠–٣١].

د. دافع عن لاهوته بأعماله وبنبوات الكتاب المقدس [٣٢–٣٩].

هـ. إن كان إسرائيل يدعو قضاته آلهة [٣٤-٣٩] لأنهم يمثلون اللَّه (مز ٨٢: ٧)، فلماذا يتعثرون في ابن اللَّه الحقيقي الذي أرسله الآب [٣٦].

جاء إلى بيته وبيت أبيه، أي الهيكل، ليخدم كل نفس تطلبه، لكنهم اجتمعوا معًا كرجلٍ واحدٍ بنية شريرة يسألونه لماذا يعلق أنفسهم، فإن كان هو المسيح المنتظر فليخبرهم. يرى البعض أن السؤال حمل اتهامًا شريرًا.

كأنهم يقولون: لماذا تسحب قلوب الناس كما فعل أبشالوم حين تمرد على داود أبيه ليسحب منه العرش بروح الغش والخداع؟ أو لماذا تخدع قلوب البسطاء لتقيم لك تلاميذ؟ جاء سؤالهم يحمل مظهرًا صالحًا أنهم يريدون التعرف على الحق.

كانوا يعلمون أن المسيا سيكون ملكًا، لكن حسب فكرهم أنه ملك زمني. لهذا طلبوا إجابة صريحة كي يشتكوا عليه لدى السلطات الرومانية أنه متمرد وخائن للرومان.

لم يلُم القادة أنفسهم على فساد أفكارهم وقلوبهم بل ألقوا باللوم على السيد المسيح نفسه الذي جذب الشعب وبعض القادة فسبب ارتباكًا وانقسامًا في مجمع السنهدرين. إنهم يلقون باللوم على السيد المسيح أنه تركهم في حيرة وارتباك. عوض لومهم لأنفسهم أنهم لا يقبلون الحق، ولا يريدون المعرفة. كأنه قد أرادت بعض القيادات الدينية اليهودية أن تدخل معه في مشاجرة: إلى متى تتركنا في حيرة وقلق؟ إلى متى تسحب قلوبنا؟ لتكن واضحًا وتعلن عن شخصك علانية. فإن أعماله تشهد أنه هو المسيا المنتظر، أما هم فيريدون كلمة صريحة ربما لكي يدينوه عليها متى أعلن أنه المسيا المنتظر.

يرى البعض في السؤال إعلانًا صادقًا عن الصراع الداخلي بين شعورهم بقدسيته، إذ أعماله تظهره، واقتناعهم بشخصه، وبين خوفهم على مراكزهم وفساد قلوبهم الذي يمنعهم عن قبوله، فإنهم يريدون مسيحًا حسب هواهم، يحقق لهم اشتياقاتهم الزمنية.

أظهروا أنفسهم كمن يريدون المعرفة، مع أن القديس يوحنا المعدان شهد لهم بكل وضوح، والسماء أعلنت عن شخصه، والسيد المسيح نفسه حدثهم أنه نور العالم والراعي الصالح، وواهب الحياة الأبدية، وأعماله شهدت لشخصه.

يرى البعض أن كلمة "**نفوسنا**" هنا تعني "**حياتنا**"، وذلك كما سبق فقال السيد المسيح: "لي سلطان أن أضع **نفسي**"، أي يموت. ولعل بعض اليهود شعروا أن تعاليم السيد المسيح بما فيها من حب وتسامح ستفضي تمامًا على حياتهم كأمة يهودية. وقد عبَّر عن ذلك قيافا حين قال: "إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به، فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا" (١١: ٤٨).

❖ لقد عرف أن نيتهم التي بها قدموا هذا التساؤل شريرة. فإنهم إذ يحيطون به وبقولون: "**إلى متى تعلق أنفسنا؟**" كما لو صدرت عن غيرة نحو المعرفة. لكن غايتهم كانت منحرفة وفاسدة مملوءة قروحًا خفية... فإنهم لم يسألوا لأجل التعلم كما يبدو الهدف[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابهم يسوع:**

إني قلت لكم ولستم تؤمنون.

الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي". **[٢٥]**

طلب اليهود إجابة واضحة وصريحة، إما نعم أو لا. هذا لم يكن ممكنًا، لأن مفهومهم "للمسيا" يختلف تمامًا عما في خطته الإلهية. ومع هذا فقد وضع السيد المسيح إصبعه على المشكلة، إذ لا تنقصهم المعرفة، بل تنقصهم الإرادة أن يؤمنوا. أعماله الإلهية تشهد لشخصه (يو ١٤: ١١). المشكلة في داخلهم وليست في الكشف عن شخصه. لكي لا يكون لهم عذر قال لهم أنه سبق فأخبرهم بالكلام كما بالعمل. سبق فأعلن لهم أنه ابن الله وابن الإنسان الذي له الحياة في ذاته، وأنه صاحب سلطان أن يدين، أفليس هو المسيح؟ لقد تظاهروا أنه تركهم في حيرة، لكنه أكد لهم أنهم لا يريدوا أن يؤمنوا. أشار إلى أعماله وإلى حياته، فهو الذي بلا خطية، أعماله وحياته تشهد لحقيقة شخصيته الفريدة.

من جانب يود أن يقدم كل معرفة حقيقية، إن كان الشخص مخلصًا في طلبها، وذلك كما فعل مع المرأة السامرية (٤: ٢٦)، ومع المولود أعمى (٩: ٣٥–٣٨). لقد عرفه بعض أتباعه منذ البداية (١: ٤١)، والتف حوله البعض إذ أدركوا أنه المسيا المنتظر. لقد سبق فأعلن لليهود: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (٨: ٥٨) فأرادوا أن يرجموه. سمعوا بما فيه الكفاية عن شخصه فاتهموه بالتجديف، لأنه جعل نفسه مساويًا لله (٥: ١٨).

❖ يبين السيد المسيح لليهود هنا أنه قد أبدى بأعماله صوتًا أكثر وضوحًا من صوته بأقواله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ولكنكم لستم تؤمنون،**

لأنكم لستم من خرافي،

كما قلت لكم". **[٢٦]**

---

[1] *Hom. 61. PG 59: 361.*

يلقي باللوم عليهم فإنهم حرموا أنفسهم من أن يكونوا من قطيعه فكيف يمكنهم التعرف عليه؟ إنهم ليسوا من قطيعه ليس بسبب نقص في الشهادة عن شخصه، وإنما بسبب نقصهم في الإيمان. ليس لهم عذر. إذ وُجد قطيع للمسيح آمنوا به خلال كلماته وأعماله وعرفوا صوته الذي يعطي لحياتهم معنى. هؤلاء يدينون من لم يؤمنوا به الذين بسبب عدم إيمانهم لم ينضموا إلى قطيع المسيح، ولا تعرفوا عليه أنه المسيا المنتظر، ولا عرفوا صوته، لذلك فهم يتبعون رعاة آخرين.

❖ كأن السيد المسيح يقول لليهود هنا: فإن كنتم لم تتبعوني فليس لأني لست راعيًا لكن لأنكم لستم غنمي. قال السيد المسيح هذا لكي يريدوا أن يصيروا غنمًا له، ولكي ينهضهم ويجعل فيهم هذه الشهوة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أجابهم أنه هو ابن الله. كيف؟ أنصتوا: "**أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون، الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي، ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي**" (يو ١٠: ٢٥-٢٦)... إنهم خراف بالإيمان، خراف باتباع الراعي، خراف بعدم الاستخفاف بمخلصهم، خراف بدخولهم من الباب، خراف بدخولهم وخراف بخروجهم ليجدوا مرعى، خراف بتمتعهم بالحياة الأبدية. إذن ماذا يعني القول: "**أنتم لستم من خرافي**" (٢٦)؟ لقد رآهم قد وُضعوا للهلاك الأبدي، ولا ينالوا الحياة الأبدية بدمه[2].

القديس أغسطينوس

"**خرافي تسمع صوتي،**
وأنا أعرفها،
فتتبعني". **[٢٧]**

قدم لهم السيد المسيح علامات قطيعه، وهي أنها تسمع صوته كراعٍ لها، أنها تعرف صوت حبه واهتمامه، فتلتصق به وتتعرف عليه في أعماق جديدة، وتتأهل أن تكون موضع معرفته. وكما يقول الرسول: "يعلم الرب الذين هم له" (٢ تي ٢: ١٩).

❖ هذا هو المرعى، إن تذكرتم ما قاله قبلاً: "**يدخل ويخرج ويجد مرعى**". إننا ندخل الإيمان ونخرج عند الموت. ولكن إذ ندخل من باب الإيمان، فإننا كمؤمنين **نترك** *quit* الجسم، فإنه بالخروج

[1] *Homilies on St. John, 61: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48:4.*

بذات الباب يمكننا أن نجد مرعى. المرعى الصالح يدعى الحياة الأبدية، حيث لا توجد ورقة نبات جافة، بل الكل أخضر ومنتعش. يوجد نبات يُقال عنه أنه دائم الحياة، هناك فقط يوجد ليعيش[1].

القديس أغسطينوس

"وأنا أعطيها حياة أبدية،

ولن تهلك إلى الأبد،

ولا يخطفها أحد من يدي". [٢٨]

لكي يقنعهم بالبؤس الذي يحل برفض الالتصاق به والانتساب إليه قدم لهم الجانب الإيجابي وهو بركات الحياة المطوبة التي يتمتع بها قطيعه ألا وهي الحياة الأبدية السماوية. أما هنا على أرض التعب والألم فقطيعه محفوظ بالروح القدس، لن يقدر العدو أن يمسه. وكما يقول المرتل: "هذا المسكين صرخ والرب استمعه، ومن كل ضيقاته خلصه. ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم" (مز ٣٤: ٦–٧). إنه يعرفهم تمامًا، ويعرف احتياجاتهم، ويعرف مقاومة العدو لهم، لكنهم محفوظون فيه.

هنا يقدم السيد المسيح الحياة الأبدية كهبة لمن يؤمن به، كما يعلن عن الأمان الذي يتمتع به المؤمن، إذ هو محفوظ في يده، الأمر الذي لن يتمتعوا به خلال الفريسية التي يتمسكون بها. انضمامهم إلى قطيعه يهبهم أمانًا لن يبلغوه بأية وسيلة أخرى. وكما يقول الرسول بولس: "لأن هبات الله، ودعوته هي بلا ندامة" (رو ١١: ٢٩).

قطيع السيد المسيح هو هبة يتسلمها الابن من يد الآب، ويبقى محفوظًا في يد الابن [٢٨] كما في يد الآب [٢٩]، أي محفوظ بالروح القدس الذي هو روح المسيح وروح الآب أيضًا.

جاءت كلمة "**يهلك**" هنا لتعني المصير المرعب لدمارٍ أبدي، لذا فالخلاص منه لا يُقدر بثمن. أما كلمة "**يخطف**" فتشير إلى سلوكٍ عنيفٍ ضد الشخص، ليس من يقدر أن يحمينا منها سوى يد القدير التي تحفظنا فيها.

❖ "**لن تهلك إلى الأبد**" [٢٨]... ماذا يستطيع الذئب أن يفعل؟ ماذا يمكن للسارق أو اللص أن يفعلا؟ إنهم لا يهلكون أحدًا إلاَّ الذين هم معينون للهلاك. أما عن تلك الخراف التي يقول عنها الرسول: "يعلم الرب الذين هم له" (تي ٢: ١٩)، "الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم... والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضًا، والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضًا، والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضًا" (رو ٨: ٢٩–٣٠)، ليس أحد من هذه الخراف يمسك بها الذئب، أو يسرقها سارق، أو يذبحها

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 6.*

لص[1].

القديس أغسطينوس

"أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل،
ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي". [٢٩]

يرى **القديس أمبروسيوس** أن الروح القدس الذي هو روح الآب أيضًا روح الابن، هو يد الله الآب والابن. فالخراف التي تسمع صوت المسيح لن يقدر أحد أن يخطفها من الآب أو من الابن أو من الروح القدس[2].

❖ قول السيد المسيح: "**ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي**"، يُظهر أن يده ويد أبيه واحدة في القدرة، ومن جوهر واحد بعينه.

وقوله "**ولا يخطفها أحد من يدي، أبى الذي أعطاني إياها**" قيل لأجل أولئك اليهود لكي لا يدعونه مخالفًا لله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هل للآب والابن يد واحدة، أم نقول إن الابن نفسه هو يد الآب؟ إن كنا نفهم باليد القوة، فإن قوة الآب والابن واحدة. ولكن إن كنا نعني باليد بالطريقة التي تكلم بها النبي: "ولمن استُعلنت ذراع الرب؟" (إش ٥٣: ١) فإن ذراع الآب هو الابن نفسه، ليس بالمعنى الذي به نفهم أن لله شكل بشري، أو له أعضاء جسمية، وإنما به كل شيء كان[3].

القديس أغسطينوس

"أنا والآب واحد". [٣٠]

لم يقل "أنا والآب متطابقان"، بل "**أنا والآب واحد**"، إنها وحدة حب وعمل كما هي وحدة جوهر، لهذا فهي وحدة فريدة لا يمكن لخليقة ما أن تبلغها، وإنما هي المثل الأعلى للوحدة التي يشتهيها من يلتصق بالله، ويتحد معه.

جاء الحديث عن هذه الوحدة مرتبط بالحديث عن رعاية الابن والآب للمؤمن حيث لا يقدر أحد أن يخطفه من يد الابن أو الآب. كأن أساس الرعاية الإلهية هي وحدة الحب الفريد بين أقنومي الآب

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 6.*
[2] *Of the Holy Spirit, 16: 114.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 7.*

والابن، وغاية هذه الرعاية أن يحمل المؤمنين أيقونة الوحدة.

❖ يقول المسيح نفسه: "**أنا والآب واحد**" [٣٠]. يقول "**واحد**" حيث لا يوجد انفصال في السلطان وفي الطبيعة. لكن مرة ثانية يقول: "**نحن**" لكي ندرك الآب والابن، إذ نؤمن أن الآب الكامل يلد الابن الكامل؛ والآب والابن هما واحد دون خلط في الأقانيم بل في وحدة الطبيعة[١].

القديس أمبروسيوس

❖ يلزم أن يتقدم الإيمان الفهم، فيكون الفهم مكافأة على الإيمان...[٢]

❖ إنه قال، وقال بالحق: "**أنا وأبي واحد**". ماذا يعني "**واحد**"؟ نحن طبيعة واحدة، جوهر واحد[٣].

القديس أغسطينوس

❖ "**أنا والآب واحد**" [٣٠]، وبعد ذلك يضيف: "أنا في الآب، والآب فيَّ" (يو ١٤: ٣٠)، لكي يوضح وحده الألوهية من ناحية، ووحدة الجوهر من الناحية الأخرى. إذن هما واحد، ولكن ليس مثل الشيء الواحد الذي ينقسم إلى جزئين، كما أنهما ليسا مثل الواحد الذي يسمى باسمين، فمرة يُدعى الآب، ومرة أخرى يُدعى هو نفسه ابنه الذاتي... لكن هما اثنان، لأن الآب هو الآب، ولا يكون ابنًا، والابن هو ابن ولا يكون أبًا.

لكن الطبيعة هي واحدة، لأن المولود لا يكون غير متشابه لوالده، لأنه صورته، وكل ما هو للآب هو للابن (يو ١٦: ١٥). ولهذا فالابن ليس إلهًا آخر، لأنه لم ينشأ من خارج، وإلا فسيكون هناك آلهة كثيرون...

كلاهما واحد في الذات، وواحد في خصوصية الطبيعة، وفي وحدة الألوهية كما سبق أن قلنا حيث أن الشعاع هو النور وليس ثانيًا بعد الشمس ولا نور آخر، ولا هو ناتج من المشاركة مع النور، بل هو مولود كلي وذاتي من النور، ومثل هذا المولود هو بالضرورة نور واحد، ولا يستطيع أحد أن يقول أنه يوجد نوران. فبالرغم من أن الشمس والشعاع هما اثنان إلا أن نور الشمس الذي ينير بشعاعه كل الأشياء، هو واحد[٤].

القديس أثناسيوس الرسولي

---

[1] *On the Christian Faith, Book 1:1:9.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 89:1.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 98:2.*
[4] *Discourses Against the Arians, 1: 23 (3, 4).*

❖ إلى هنا كان يمكن لليهود أن يحتملوه، وأما وقد سمعوا: "**أنا والآب واحد**" فلم يستطيعوا بعد أن يحتملوا... ها أنتم ترون أن اليهود فهموا ما لا يفهمه الأريوسيون. فقد غضبوا على هذا، وشعروا ما كان يمكن القول: "أنا وأبي واحد" إلاَّ إذا وجدت مساواة بين الآب والابن[1].

❖ إذ جاءت كلمة الله إلى البشر لكي يصيروا آلهة، فماذا يكون كلمة الله نفسه الذي عند الله إلاَّ أن يكون هو الله؟

إن كان بكلمة الله يصير البشر آلهة، إن كان بالشركة معه يصيرون آلهة، فهل يمكن لذاك الذي به ينالون الشركة ألا يكون هو الله؟

إن كانت الأنوار التي تُضاء هي آلهة، فهل النور الذي يضيء لا يكون هو الله؟

أنتم اقتربتم من النور فاستنرتم وحسبتم أبناء الله، فإن انسحبتم من النور تسقطون في غموض وتُحسبون أنكم في ظلمة، أما ذاك النور فلا يقترب (ليستنير) لأنه لا ينسحب من ذاته[2].

❖ يمكننا أحيانًا أن نقول: نحن في الله والله فينا، لكن هل يمكننا القول: "نحن والآب واحد"؟ أنتم في الله، لأن الله يحتويكم، والله فيكم لأنكم صرتم هيكل الله... لكنكم هل تقدرون أن تقولوا: "من يراني يرى الله" كما قال الابن الوحيد (يو ١٤: ٩)... "أنا والآب واحد"؟ تعرفوا على امتياز الرب الفائق، وعلى المنحة التي للخادم. **امتياز الرب هو مساواة للآب، ومنحة الخادم هي الشركة مع المخلص**[3].

القديس أغسطينوس

"**فتناول اليهود أيضًا حجارة ليرجموه**". **[٣١]**

للمرة الثانية أراد مقاوموه أن يرجموه (يو ٨: ٥٩)، أما علة الرجم فلأنه في نظرهم قد جدَّف، إذ ادعى وحدته مع الآب. لم يدرك اليهود حقيقة شخصه لذا لم يحتملوا كلماته.

الوحدة الفريدة بين الآب والابن، والتي هي أساس العمل الرعوي الإلهي هي مصدر استنارتنا الروحية وتعزياتنا وسلامنا الداخلي. هذه الوحدة لم يستطع أن يتقبلها اليهود بل حسبوها تجديفًا على الله.

خطية التجديف عند اليهود خطية قاتلة ومميتة لا تحتاج إلى محاكمة وسماع دفاع من المتهم، بل

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 8.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 9.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 10.*

يُعاقب الشخص فورًا. فقد جاء في المشناه أنه إن سرق إنسان إناءً مقدسًا يعاقب المتحمسون دون محاكمة. نفس الأمر إن خدم كاهن على مذبح دنس. جاء في المشناه أن اخوته الكهنة لا يأتوا به إلى المحكمة، بل يأخذه الكهنة الشباب إلى خارج دار الهيكل ويفتحون مخه (رأسه) بالهراويل. إنها خطية مرعبة تستحق عقوبة رهيبة! هكذا رأى اليهود أنه لا حاجة لمحاكمته، بل ذهبوا خارج دائرة الهيكل ليجدوا حجارة، حملوها وجاءوا بها ليرجموه دون اعتبار حتى للموضع المقدس نفسه، إذ لا يجوز الرجم في تلك المنطقة. لكن غضبهم الشديد وظهورهم بالغيرة على مجد الله جعلهم يتصرفون هكذا.

"**أجابهم يسوع:**

أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي،

بسبب أي عمل منها ترجمونني؟" **[٣٢]**

قدم السيد المسيح أعماله الإلهية شهادة حية عن شخصه، فهي أقوى من الحوار بالكلام، وأسهل على فهم الحقيقة.

لماذا يصر على القول "**من عند أبي؟**" أما كان يكفي القول: "أعمالاً كثيرة صالحة أنا عملتها"؟ لقد أراد تأكيد أنه والآب يعملان معًا، ذات العمل الذي يمارسه الابن هو من عند الآب. إن كان الابن القدوس ينسب أعماله الصالحة للآب، فكم يليق بنا نحن الخليقة الضعيفة أن ننسب كل صلاح فينا إلى نعمة الله العاملة فينا؟

لقد تحداهم السيد قائلاً: "من منكم يبكتني على خطية؟" (٨: ٤٦)، ولم يستطع أحد أن يجيبه. فكيف يرجمون شخصًا لا يقدر أحد أن يبكته على خطية واحدة؟

بقوله "**أي أعمال**" بمعنى "أي نوع من الأعمال" هذه التي لا يستطيع مخلوق سماوي أو أرضي أن يفعلها، إذ هي أعمال تخص الله نفسه.

"**أجابه اليهود قائلين:**

لسنا نرجمك لأجل عمل حسن،

بل لأجل تجديف،

فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا". **[٣٣]**

لم يستطِع اليهود أن ينكروا الأعمال، لكنهم لم يحتملوا كلماته، حاسبين أنه قد تجاسر وساوى نفسه بالله. قالوا: "**وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا**" بينما يعلن الإنجيلي خلال كل السفر أنه وهو الإله صار

إنسانًا.

"**أجابهم يسوع:**

أليس مكتوبًا في ناموسكم أنا قلت أنكم آلهة". [٣٤]

كلمة "**الناموس**" هنا بالمعنى الواسع حيث تعني العهد القديم ككل. فقد ورد هذا النص في مزمور ٨٢: ٦ عن القضاة العبرانيين بكونهم يمثلون الله. حيث يكمل المرتل: "لكن مثل الناس تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون" (مز ٨٢: ٧). فإن كان هذا قد قيل عن قضاة العهد القديم، فماذا يُقال عن السيد المسيح الذي قدسه الآب وكرسه لخلاص العالم؟

بقوله: "**ناموسكم**" لا يعني أنه يتبرأ من هذا الناموس، بل يتطلع إليه ككلمة الله، ولا يمكن أن يُنقض [٣٥].

❖ الله ليس فقط أوجدنا من العدم، وإنما أعطانا مجانًا بنعمة اللوغوس حياة متطابقة مع الله. لكن إذ رذل البشر الأمور الروحية، وبمشورة الشيطان إذ تحولوا إلى الفساد، صاروا علة فسادهم بالموت؛ صاروا بالطبيعة فاسدين.

لكن قرر لهم بنعمة الشركة مع اللوغوس أن يهربوا من حالهم الطبيعي، ويبقوا صالحين.

فإذ حلّ اللوغوس بينهم لم يُقتلوا بفسادهم الطبيعي، كما يقول الحكمة: "خلق الله الإنسان ليكون خالدًا، وأوجده صورة أبديته. لكن بحسد إبليس جاء الموت إلى العالم" (حك ٢: ٢٣)[1].

❖ صار إنسانًا لكي نصير آلهة. وأعلن عن نفسه بجسم حتى نتقبل فكرة الآب غير المنظور، واحتمل إهانة البشر لكي ما نرث نحن عدم الموت. فإنه بينما هو نفسه لم يصبه ضرر بأي الأحوال، بكونه فوق الآلام وغير فاسد، اللوغوس نفسه، الله، فإنه سند البشر الذين يتألمون والذين من أجلهم احتمل كل هذا، وحفظهم في الألم الذي له[2].

❖ حقًا لقد أخذ الناسوت لكي نصير آلهة. لقد أعلن عن نفسه خلال جسد لكي ما ندرك عقل الآب غير المنظور، لقد احتمل العار لكي ما نرث عدم الفساد[3].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ "إنكم آلهة وبني العلي تدعون". لهذا الهدف صار لوغوس الله إنسانًا. ابن الله صار ابن الإنسان،

---

[1] *On the Incarnation 4 (5).*
[2] *De lncarn. 54 (3).*
[3] *Oratio de Incarnatione Verbi, 54. PG 25:192 BC.*

حتى أن الإنسان إذ يدخل في اللوغوس، ويتقبل التبني، يصير ابنًا لله. فإنه ليس من وسيلة أخرى يمكننا بها أن نبلغ إلى عدم الفساد وعدم الموت. لكن كيف كان يمكننا أن نرتبط بعدم الفساد وعدم الموت فيُبتلع الفساد بعدم الفساد، والمائت بعدم الموت فنتقبل تبني الأبناء؟[1]

القديس إيريناؤس

❖ أنصت إلى ما جاء في المزامير: "ألم أقل أنكم آلهة وبني العليّ تدعون؟" (مز ٨٢: ٦). **يدعونا اللَّه لهذا، ألا نكون بشرًا.** إنما نكون في حالٍ أفضل حين لا نكون بشرًا، وذلك إن عرفنا أولاً الحقيقة أننا بشر، بمعنى أننا **نرتفع بالتواضع إلى ذلك العلو**؛ لئلا عندما نظن في أنفسنا أننا شيء بينما نحن لاشيء ليس فقط لا ننال ما لسنا نحن عليه، بل ونفقد حتى ما هو نحن فيه[2].

القديس أغسطينوس

"إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله،
ولا يمكن أن ينقض المكتوب". [٣٥]
"فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم،
أتقولون له أنك تجدف لأني قلت إني ابن الله؟" [٣٦]

❖ ما يقوله هو من هذا النوع: "إن كان الذين يتقبلون هذه الكرامة بالنعمة لا يجدون خطأ في دعوة أنفسهم آلهة، فكيف يُوبخ ذاك الذي له هذا بالطبيعة؟[3]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ربما يتساءل أحد: إن كان الآب قد قدسه، فهل وُجد زمن لم يكن فيه قد تقدس؟ لقد قدسه بذات الطريقة التي بها ولده. فإنه في الولادة نال السلطان ليكون مقدسًا، إذ ولده في القداسة. لو أن ذاك القدوس كان قبلاً غير مقدس فكيف يمكننا القول عن الله الآب: "ليتقدس اسمك"؟[4]

القديس أغسطينوس

"إن كنت لست أعمل أعمال أبي، فلا تؤمنوا بي". [٣٧]
"ولكن إن كنت أعمل،
فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال،

---

[1] *Adv. Haer 3:19 (1).*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 1:4.*
[3] *Hom. 61. PG 59: 364.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 10.*

لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ، وأنا فيه". [٣٨]

يدعو السيد المسيح المقاومين أن يواجهوا أعماله ويختبروها حتى متى أدركوا أنها أعمال أبيه يؤمنوا به أنه ابن الله. خلال فحص أعماله يعرفوا فيؤمنوا، وقد جاء الفعل في اليونانية يحمل معنى "تبدأوا تعرفون" أو "تأتون إلى معرفة". ويترجم البعض كلمة: "تؤمنوا" هكذا "تستمروا في معرفة هذه الأمور"، فلا تكفي بداية هذه المعرفة، إنما يلزم الاستمرار في المعرفة.

❖ آمنوا إذن أن حضرة الله قائمة فيها (في أعماله). أتؤمنون بالأعمال ولا تؤمنون بالحضرة؟ إذن من أين للأعمال أن تصدر ما لم تسبقها الحضرة؟[1]

القديس أمبروسيوس

❖ ألا ترون كيف يبرهن هنا أنه ليس فيه شيء ما أدني من الآب، بل هو مساوٍ له في كل شيءٍ؟ فإن تساوي الأعمال وكونها هي بذاتها، يقدم برهانًا على سلطانه غير المختلف[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

فطلبوا أيضًا أن يمسكوه،

فخرج من أيديهم". [٣٩]

عوض الحوار معه كانت إجابتهم الوحيدة هي محاولة القبض عليه مرة أخرى ليقتلوه.

"**ومضى أيضًا إلى عبر الأردن،**

إلى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولاً،

ومكث هناك". [٤٠]

في كمال حريتهم كانوا قادرين على اتهامه ظلمًا، والتخطيط للقبض عليه وقتله، والثورة ضده، أما تحقيق خطتهم فما كانوا قادرين عليه لأنه لم يكن بعد قد سُمح لهم بذلك.

❖ من عادة السيد المسيح أنه متى تكلم كلامًا عاليًا أن ينصرف سريعًا ليخفف من غيظهم، حتى بابتعاده عنهم يُسكن داء غيظهم، وهذا ما عمله في ذلك الوقت.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ فشلوا في أن يمسكوه بسبب فقدانهم يد الإيمان. الكلمة صار جسدًا، لكنه لم يكن بالأمر العظيم أن

---

[1] *On the Mysteries, 3:8.*
[2] *Hom. 62. PG 59: 369.*

يخلص جسده من الأيدي الجسدية. لكي تمسك بالكلمة في ذهنك هو الإدراك السليم للمسيح[1].

القديس أغسطينوس

٣. يسوع في موضع عماده

"فأتى إليه كثيرون وقالوا:

إن يوحنا لم يفعل آية واحدة،

ولكن كل ما قاله يوحنا عن هذا كان حقًا". [٤١]

بسبب العداوة التي أظهروها للسيد المسيح انطلق السيد إلى الجانب الآخر من الأردن، في الموضع الذي كان فيه القديس يوحنا المعمدان يُعمد القادمين إليه. جاء ليس خوفًا من قتله، فقد جاء إلى العالم ليخلص العالم بالصليب، ولكن في الوقت المعين.

يحمل هذا الموضع ذكريات رائعة للسيد المسيح وتلاميذه، حيث شهد القديس يوحنا المعمدان عن السيد المسيح "حمل الله الذي يحمل خطية العالم". لعل سكان هذه المنطقة كانوا لا يزالون يذكرون شهادة القديس يوحنا ويرددونها. لقد استشهد القديس يوحنا وعبر من هذا العالم، لكن ثمرة شهادته ظهرت حتى بعد رحيله، إذ تذكرها أهل الموضع، وآمنوا بالسيد المسيح. لم يصنع القديس يوحنا آية واحدة، لكنهم صدقوا شهادته بدون حاجة إلى آيات.

❖ إن كان اليهود صدقوا أن يوحنا المعمدان الذي لم يصنع ولا آية واحدة، فبالأولى أن يصدقوا السيد المسيح، فمن هذه الجهة يتبين سمو حال السيد المسيح وعظمته.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فآمن كثيرون به هناك". [٤٢]

❖ لأن الأعمال التي اجتذبتهم إليه كانت كثيرة، ولأنهم تذكروا الأقوال التي قالها يوحنا المعمدان، إذ دعاه قائلاً: "الذي يأتي بعدي هو أقوى مني" (مت ٣: ١١) ومما سمعوه من السماء والروح الذي ظهر بصورة حمامة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 48: 11.*

من وحي يو ١٠

لتحملني على منكبيك وتغسلني بدمك!

❖ وسط ضجيج العالم الذي لا ينقطع،
أرى وجهًا مشرقًا، وأسمع صوتًا رقيقًا جذّابًا!
إنه وجهك يا من أنت أبرع جمالاً من بني البشر!
إنه صوتك الفريد الذي يسحب كل مشاعري!
أنت هو راعيّ الصالح، المحب لنفسي!

❖ أنت هو الراعي، والباب، والبوّاب.
أنت هو الراعي الذي يتقدم خطواتي،
ليقتل كل ذئب مفترس.
تتقدّمني لتدخل بي إلى مراعيك السماوية الفريدة.
تتقدّمني لترتفع على الصليب،
فتغسلني بدمك الطاهر!
تحمل عصاك لتقتل بها عدوّي،
وبها تؤدبني بروح الحنو واللطف،
وبها تقودني لأدخل في أحضانك.
تحمل مزمارًا، لتعلن فرحك الكامل بي،
فيكمل فرحك فيّ، يا مصدر كل سعادة.

❖ أنت هو الباب والبوّاب.
كيف يدخل إلى حضنك أبيك إلا بك يا باب الأحضان الإلهية؟
هل من باب آخر أدخل به سواك؟
أنت هو البوّاب، تقودني إليك،
وتغلق عليّ فيك،
فلن يقدر عدو أن يدخل معي، ولا أن يمسّني!

❖ ماذا أرد لك مقابل هذه الرعاية الفريدة الفائقة؟

هب لي أن أتحد بك، فأصير بك ومعك راعيًا!
أحبك، فأرعى بك ومعك غنمك.
يكمل فرحي بخلاص الكثيرين.
وأجد لذّتي في شركتي معك بروح الرعاية الحقيقية.

❖ رعايتك حملتك بإرادتك إلى الموت والقيامة.
بسلطانك أخذت نفسك وأبهجت الذين في القبور!
هب لي مجد الشركة معك في صلبك،
وهب لي بهجة التمتع بقيامتك!

❖ في عيد التجديد كنت تتمشى في رواق سليمان،
هوذا رواق ملك السلام في داخلي،
لتدخل وتتمشى، فأتمشّى معك، وأسمع صوتك.
لتقم في داخلي عيدًا دائمًا للتجديد المستمر لهيكلك في داخلي!

❖ لتُعلن في داخلي أنك واحد مساوٍ لأبيك.
أؤمن يا سيدي، فقد رأيتك وتمتعت بأعمالك!
أعمالك تشهد لك،
فقد حوّلت مقبرتي إلى مقدسٍ،
وحوَّلت قلبي إلى سماواتك،
وحوّلت ظلمتي إلى نورٍ،
أعلنت حضرتك في داخلي!
فماذا أطلب بعد؟

الأصحاح الحادي عشر

إقامة لعازر من الأموات

واهب القيامة

يروي لنا القديس يوحنا قصة إقامة لعازر من الأموات التي حدثت قبل الأسبوع الأخير من حياته على الأرض بفترة قليلة، غالبًا في يوم السبت السابق لدخوله أورشليم. ويعلل البعض **عدم عرض هذه المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأخرى بأن لعازر كان لا يزال حيًا حين كتابتها، وخشوا لئلا يسبب له ذلك متاعب كثيرة، أما القديس يوحنا فسجل إنجيله بعد رحيل لعازر**. قدم المعجزة ليكشف لنا عن شخص السيد المسيح أنه **القيامة واهب الحياة، وغالب الموت**. إذ كان يسوع مزمعًا أن يسلم نفسه للموت ويُدفن في القبر، أراد تأكيد سلطانه أنه يضع نفسه ويقيمها كما يشاء. إنها المعجزة الأخيرة التي سجلها القديس يوحنا، في شيءٍ من التفصيل.

في قرية صغيرة تسمى بيت عنيا أو بيت العناء أو الألم وُجدت عائلة مجهولة من الناس محبوبة جدًا لدى السيد المسيح. فتحت هذه العائلة قلبها له، كما فتحت بيتها ليستريح فيه، وعرفت كيف تخاطبه. في وسط الآم الموت المرة والخطيرة بعثت الأختان رسالة: "يا سيد هوذا الذي تحبه مريض" [٣]. لم تطلبا لأخيهما الشفاء، ولا طلبتا من السيد أن يترك خدمته ويفتقدهما في ظروفها القاسية.

مات لعازر وقال السيد لتلاميذه: "لعازر حبيبنا قد نام، لكني أذهب لأوقظه". دعا الموت نومًا، فإن من يلتصق بالمسيح "القيامة" لن يحل به الموت، بالنسبة له يُحسب الموت هبة وراحة.

بعد أربعة أيام من وفاته دخل السيد القرية فلاقته مرثا وصارت تعاتبه: "**يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي، لكني الآن أيضًا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه**" [٢٢]. أكد لها السيد أن أخاها سيقوم، وإذ أعلنت عن إيمانها أنه سيقوم في القيامة... قال لها يسوع: "أنا هو القيامة والحياة". [٢٥].

لم يحتمل أن يرى الرب دموع الأختين إذ "**بكى يسوع**" [٣٥]. إنه يشاركنا مشاعرنا! إنه عجيب في حبه لبني البشر، لا يحتمل دموعهم بل يقول: "حوِّلي عني عينيكِ فإنهما قد غلبتانيِ" (نش ٦: ٥). وإذ انطلق إلى القبر وطلب رفع الحجر قالت مرثا: "**يا سيد لقد أنتن لأن له أربعة أيام!**"

يقول **القديس أغسطينوس** أن إقامة لعازر من الأموات ليس موضوع دهشتنا بل موضوع فرحنا.

فليس من المدهش أن ذاك الذي يخلق بقوته أناسًا يأتي بهم إلى العالم أن يقيم ميتًا، لكنه أمر مفرح أنه يهبنا القيامة ويمتعنا بالخلاص[1].

يرى **القديس أغسطينوس** أن الأناجيل ذكرت قيامة ثلاثة أشخاص بواسطة السيد المسيح، وأن هذه الأعمال تحمل معانٍ تمس خلاصنا. فإن كان قد أقام هذه الأجساد إنما ليشير إلى قيامة نفوسنا.

❖ **أقام ابنة الرئيس** في مجمع السنهدرين، وهي ملقاة في البيت (مر ٥: ٤١-٤٢)... ليهتم كل واحدٍ بنفسه *his soul*، فإنه في الخطية موت. الخطية هي موت للنفس. لكن أحيانًا تمارس الخطية في الفكر وحده. أنت تجد لذة فيما هو شر، إنك وافقتها في عملها؛ أنت تخطئ. هذه الموافقة هي قتل لك، لكن الموت في الداخل، لأن الفكر الشرير لم ينضج بعد ويتحول إلى عمل. لقد صرَّح الرب أنه يود أن يقيم مثل هذه النفس إلى الحياة، وذلك للصبية التي لم تُحمل بعد لكي تُدفن، إنما كانت ملقية ميتة في البيت، كما لو كانت الخطية لم تعد بعد ظاهرة.

لكن إن كنت ليس فقط تحتضن شعورًا باللذة في الشر وإنما تمارس الشر، يمكن القول بأن الميت قد حُمل خارج الباب. إنك بالفعل في الخارج محمول إلى القبر. مع هذا فإن الرب أيضًا أقام مثل هذا إلى الحياة، **وأعاد الشاب إلى أمه الأرملة**. إن كنت تخطئ تب، فسيقيمك الرب، ويردك إلى الكنيسة أمك.

أما المثل الثالث للموت فهو **لعازر**. إنه نوع خطير من الموت متميز بأنه تحول إلى العادة في ممارسة الشر. فإن السقوط في الخطية شيء وممارسة الخطية كعادة شيء آخر. من يسقط في الخطية وفي الحال يخضع للإصلاح يقوم إلى الحياة سريعًا، لأنه غير ساقطٍ في شرك عادة الشر، إنه لم يُلقَ بعد في القبر. أما الذي تحول إلى العادة في الشر فهو مدفون، وبحق يُقال عنه: "**قد أنتن**"، فإن سمته تحمل رائحة مرعبة، بدأ يحمل سمعة رديئة للغاية. مثل هؤلاء جميعًا اعتادوا على ارتكاب الجريمة، وهجروا الأخلاقيات... ومع هذا فإن قوة المسيح ليست بأقل من أن ترد مثل هؤلاء إلى الحياة. إننا نعرف ونرى في كل يوم أناسًا يتغيروا من أشر العادات، ويتقبلوا نوعًا من الحياة الفضلى أكثر من الذين يلومونهم... ليته لا ييأس أحد؛ ولا يستسلم[2].

❖ بين كل العجائب التي صنعها الرب يسوع المسيح احتلت إقامته للعازر من الموت المقام الأول

---

[1] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate cf. 49:1.*
[2] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:3.*

في الكرازة[1].

القديس أغسطينوس

١. تبليغ السيد بمرض لعازر ١–١٦.

٢. تحرك السيد نحو عائلة لعازر ١٧–٣٢.

٣. إقامة لعازر من الأموات ٣٣–٤٤.

٤. أثر إقامة لعازر ٤٥–٥٧.

١. تبليغ السيد بمرض لعازر

"**وكان إنسان مريضًا،**

وهو لعازر من بيت عنيا،

من قرية مريم ومرثا أختها". **[١]**

لعازر: الاسم العبري غالبًا "اليعازر"، معناه يعينه يهوه.

بيت عنيا: اسم أرامي معناه "بيت البؤس أو العناء"، وهي قرية في الجنوب الشرقي من جبل الزيتون على بعد ميلين تقريبًا من أورشليم، وتدعى اليوم العازرية، نسبة إلى إقامة لعازر من الموت. نقرأ عن مريم ومرثا في لوقا ١٠: ٣٨ الخ أنهما تعيشان في الجليل. فإن كان الأمر هكذا، فغالبًا ما قامتا بتغيير إقامتهما في ذلك الحين في الجليل. واضح أن ربة البيت هي مرثا، الأخت الكبرى، وهي التي استضافت أختها الصغرى. ذكر القديس يوحنا مريم أولاً مع أنها الأصغر، ربما لأن مريم كانت أكثر شهرة في الكنيسة الأولى، وهي التي سكبت الطيب على قدمي السيد المسيح (١٢: ٣)، كما اختارت النصيب الصالح الذي لا يُنزع منها (لو ١٠: ٤٢).

مريم: اسم عبرى معناه "عصيان". و**مرثا:** مؤنث كلمة أرامية معناها "ربة".

"**وكانت مريم التي كان لعازر أخوها مريضًا،**

هي التي دهنت الرب بطيبٍ،

ومسحت رجليه بشعرها". **[٢]**

❖ مريم هذه ليست التي كانت زانية المذكورة في بشارة لوقا (لو ٧: ٣٧–٥٠)، لأن هذه مريم أخرى، لأن تلك المرأة المذكورة في بشارة لوقا مملوءة أعمالاً رديئة كثيرة، أما هذه فكانت شريفة ثابتة في

[1] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate 49:1.*

الفضيلة، اجتهدت في ضيافة السيد المسيح[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فأرسلت الاختان إليه قائلتين:

يا سيد هوذا الذي تحبه مريض". [٣]

ليست من صلاة أبسط من هذه الصلاة القصيرة المملوءة تواضعًا مع ثقة وتسليم للأمر بين يديه. اكتفتا بعرض الحالة دون تقديم أي طلبٍ أو مجيء السيد إليهما لعلاج الموقف ومساندتهما. كان العرض في بساطة هو أن الذي يحبه مريض، فلن يتخلى عنه أو عنهما. وربما لم تطلب الأختان مجيئه إليهما، لأنهما تعلمان ما ورد قبلاً (في الاصحاح السابق) كيف أراد يهود أورشليم رجمه، فانطلق إلى ما وراء الأردن حتى لا يتمموا ما في نيتهم. هكذا لم ترد الأختان أن تضعاه في في وضعٍ فيه خطورة على حياته. وفي نفس الوقت كان لعازر صديقًا له، فاكتفتا بإبلاغه بأمر مرضه، وكانتا متأكدتين أنه حتمًا سيفعل شيئًا.

لم تذكر الأختان اسم المريض ولا قرابته لهما، أي أنه أخوهما، بل دعوه "**الذي تحبه**". نحن نعلم أنه محب كل البشر، والكل كانوا يتلمسون رقته ولطفه وحبه، لكن الصيغة التي كتبت بها الأختان توحي بأن السيد المسيح يخص المريض بعلاقة محبة خاصة. لم تشيرا في الرسالة أن المرض كان خطيرًا، ربما لكي لا يزعجا السيد.

❖ لماذا لم تفعلا مثل قائد المائة الشريف الذي ترك أخاه المريض وجاء إلى المسيح بدلاً من بعثهما رسالة إليه؟ كانت لهما ثقة كبيرة في المسيح، ولهما مشاعر قوية أسرية. بجانب هذا فإنهما امرأتان ضعيفتان حاصرهما الحزن[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يكفي أنك تعرف، فإنكَ لست بالذي يحب وينسى... لو لم يحب الله الخطاة لما نزل من السماء إلى الأرض[3].

القديس أغسطينوس

"فلما سمع يسوع قال:

---

[1] *Hom. on St. John, 62:1.*
[2] *Homilies on St. John, 62:1.*
[3] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:5.*

هذا المرض ليس للموت،

بل لأجل مجد الله،

ليتمجد ابن الله به". [٤]

أعلن لهم السيد بأن هذا المرض ليس للموت النهائي عن هذه الحياة، وإنما لموتٍ مؤقتٍ سُمح به لأجل مجد الله خلال إقامته من الأموات.

يرى البعض أن كلمة "**يتمجد**" هنا كما في كثير من الأحيان في هذا السفر لا تعني نوال كرامة أو إبراز سمو الشخص، وإنما تعني قيام الشخص بإرادته بعمل يبدو أقل من مستواه من أجل محبته وخدمته للغير، دون إلزام من آخر، خاصة حينما يتحدث عن الصلب كمجد للابن والآب، حيث يبذل الابن ذاته من أجل خلاص الخطاة ومجدهم الأبدي. مسيحنا الذي لا يصنع العجائب إلاَّ من خلال دافع الحب غالبًا ما يربط موضوع إقامة لعازر بمجد صليبه، إذ جاء هذا العمل تمهيدًا لصلبه.

❖ يليق بنا أن ندهش من أختي لعازر، فبعدما سمعتا أن المرض ليس للموت ورأتاه ميتًا لم تتعثرا، مع أن ما حدث كان على خلاف ما قيل. مع كل هذا جاءتا إلى الرب ولم تفكرا أنه تنطقا بشيءٍ باطلاً[1].

❖ انظروا كيف ذكر أن له ولأبيه أيضًا المجد الواحد، لأنه إذ قال: "**لأجل مجد الله**"، قال بعد ذلك "ليتمجد **ابن الله به**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ تمجيد الله لا يضيف شيئًا إلى كرامته، إنما لنفعنا. لهذا يقول: "**ليس للموت**" [٤]، لأنه حتى هذا الموت ذاته ليس هو موتًا، بل بالأحرى صنع معجزة بها يُقتاد الناس إلى الإيمان بالمسيح، فيهربون من الموت الحقيقي[2].

القديس أغسطينوس

"وكان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر". [٥]

يشير هنا إلى محبة السيد المسيح لمرثا بكونها الأخت الأكبر ثم مريم ولعازر. إنه كان يستريح للأسرة ككل، وكان كل عضو من الأسرة يشعر بدالة خاصة ومحبة المسيح له شخصيًا.

---

[1] *Hom. 62. PG 59:369.*

[2] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:6.*

❖ فإن قلت: لِمَ ذكر البشير موضحًا في هذا الخبر أن السيد المسيح أحب لعازر؟ أجبتك: "ليعلمنا ألا نستاء أو نترك الرب عند حدوث مرض للرجال الثابتين في فضيلتهم المحبوبين عند الله"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ واحد مريض واثنتان في حزن، الكل محبوبون. لكن ذاك الذي أحبهم هو منقذ المرضى، بل بالأكثر هو مقيم الموتى، وهو معزي الحزانى[2].

القديس أغسطينوس

"**فلما سمع أنه مريض**

مكث حينئذٍ في الموضع الذي كان فيه يومين". **[٦]**

لكل شيء عند السيد المسيح وقته المناسب حسب فكره الإلهي وليس حسب فكرنا نحن البشري. ففي عرس قانا الجليل إذ قالت له أمه "ليس لهم خمر" (يو ٢: ٣) قال لها: "لم تأتِ ساعتي بعد" (يو ٢: ٤). وعندما طلب منه اخوته أن يذهب إلى اليهودية لاقتراب عيد المظال أجابهم: "إن وقتي لم يحضر بعد" (يو ٧: ٥). وهنا كنا نتوقع سرعة ذهابه لبيت عنيا لمساندة أحبائه، لكننا نجده يمكث في الموضع يومين. **إنه يعرف اللحظة المناسبة لكل عملٍ.**

في المعجزات السابقة جميعها ما يشغل قلب السيد المسيح إبراز حبه للمتألمين، هنا تأخر لأنه في محبته للأسرة كلها كان يود تأكيد حقيقة، وهي أنه هو "القيامة"، إذ حان وقت موته وقيامته. لهذا لم يسرع بالذهاب ليشفيه في مرضه، ولا بعد موته مباشرة، بل تركه يبقى في القبر إلى اليوم الرابع حتى ينتن الجسد، فيتأكد الكل بأنه واهب الحياة والقيامة حتى بعد أن يفسد الجسد.

❖ لماذا مكث؟ حتى يخرج النفس الأخير ويُدفن، فلا يقول أحد أنه لم يكن ميتًا بل كان غارقًا في نومٍ عميق، أو أنه كان قد غشى عليه ولم يكن موتًا. لهذا السبب مكث يومين حتى يحدث الفساد، وتقولا: "**قد أنتن**" [٣٩][3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ثم بعد ذلك قال لتلاميذه:**

لنذهب إلى اليهودية أيضًا". **[٧]**

---

[1] *Homilies on St. John, 62:1.*
[2] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:7*
[3] *Hom. 62. PG 59:369.*

بقوله لتلاميذه: "**لنذهب إلى اليهودية أيضًا**" [٧] يوضح السيد رحمته حتى نحو غير المستحقين. فمع عدم استعداد اليهودية لقبوله يطلب الذهاب مرة أخرى لرافضيه. إنه لا يكف عن أن يقدم الفرص لكل نفسٍ لعلها تتمتع به حتى وإن رفضته قبلاً.

❖ لماذا أخبرهم هنا مقدمًا إلى أين هو ذاهب مع أنه لم يفعل ذلك في أي موضع آخر؟ كانوا في رعبٍ شديد... لذلك حذرهم مقدمًا حتى لا يضطربوا أمام عنصر المفاجأة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال له التلاميذ:**

يا معلم الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضًا إلى هناك". **[٨]**

منذ أسابيع قليلة كان اليهود يريدون رجمه في الهيكل في عيد التجديد (يو ١٠: ٣١).

❖ أرادوا بنصيحتهم أن يحفظوا الرب من الموت، ذاك الذي جاء ليموت ليخلصهم من الموت[2].

القديس أغسطينوس

❖ خافوا عليه أيضًا، لكنهم بالأكثر خافوا على أنفسهم، لأنهم لم يكونوا بعد كاملين. لهذا فإن القديس توما وقد هزه الخوف، قال: "**لنذهب نحن أيضًا، لكي نموت معه**" [١٦]، لأن توما كان أكثر ضعفًا وعدم إيمان عن البقية. لكن انظروا كيف شجعهم يسوع بما قاله: "**أليست ساعات النهار اثنتي عشرة؟**" [٩][3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب يسوع:**

أليست ساعات النهار اثنتي عشرة؟

إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر،

لأنه ينظر نور هذا العالم". **[٩]**

طريقنا مملوء بالعثرات، من يسلك في النور لن يعثر، أما من يبقى في الظلمة فيعثر. من يشرق عليه شمس البرّ يستنير، وينطلق كما من مجدٍ إلى مجدٍ، وتصير العثرات بالنسبة له كلا شيء، بل علة نصرته وإكليله. أما من يسلك حسب شهوات جسده وفكر العالم الشرير وكبرياء قلبه فيبقى متعثرًا،

---

[1] *Homilies on St. John, 62:1.*
[2] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:8.*
[3] *Homilies on St. John, 62:1.*

ويعطي لنفسه أعذارًا لا حصر لها.

لم يخفْ السيد المسيح من الموت، لأنه هو النور الذي لن تصمد أمامه قوات الظلمة. وهكذا من يلتحف به يسير كل أيام غربته بلا خوف ولا اضطراب ولا قلق.

كان اليهود مثل كثير من الأمم يقسمون النهار من شروق الشمس إلى غروبها إلى ١٢ قسمًا أو ساعة تطول أو تقصر حسب مواسم السنة المختلفة.

رحلة العبور إلى السماء لا تبدأ بالليل حين ينتقل الإنسان من العالم، إنما تبدأ في النهار وهو يجاهد في حياته، واثقًا في نعمة الله التي تسير به نحو الأبدية. أعطانا الله ساعات النهار كفرصٍ ثمينةٍ للعمل، تصير لها قيمتها حين نستغلها كما يليق وإلا صارت كلا شيء.

❖ إنه يشير إلى نفسه أنه هو النهار، وقد اختار اثني عشر تلميذًا. يقول: إن كنت أنا هو النهار وأنتم الساعات، فهل تعطي الساعات نصيحة للنهار؟ الساعات تتبع النهار، لا النهار يتبع الساعات... إنه يشير إلى نفسه أنه النهار الروحي. لتنصت الساعات إلى النهار، ولتكرز بالنهار، إذ تُعرف وتستنير بالنهار، وبكرازة الساعات يؤمن العالم بالنهار. وباختصار بحق قال: "اتبعوني إن كنتم لا تريدون إن تتعثروا".

القديس أغسطينوس

"**ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر،**
لأن النور ليس فيه". **[١٠]**

❖ قال هذا لكي يظهر أن من يشعر أنه ليس فيه شر فلن يلحق به أمر مخيف؛ إنما من يفعل الشر يلحق به هذا. لهذا يلزمنا ألا نخاف لأننا لا نفعل ما يستحق الموت. أو لعله يقول هذا أن من ينظر نور هذا العالم هو في أمان، فإن كان من يرى نور هذا العالم هو هكذا في أمان، كم بالأكثر من يكون معي، ما دام لا يعزل نفسه عني؟! إذ شجعهم بهذه الكلمات أضاف هدف ذهابهم إلى هناك الذي يلزمهم، وإذ أبرز ذلك يذهبون لا إلى أورشليم بل إلى بيت عنيا [١١-١٢][1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال هذا، وبعد ذلك قال لهم:**

[1] *Homilies on St. John, 62:1.*

لعازر حبيبنا قد نام،

لكني أذهب لأوقظه". [١١]

يدعو السيد المسيح المؤمن "**حبيبنا**"، ولم يقل "حبيبي"، فإن دخولنا في عهد مع الله يجعلنا أحباء ليس فقط له، بل ولكل الكنيسة، بكونه عضوًا فيها. موت لعازر لا يقطع الصداقة بينه وبين السيد المسيح وكنيسته، بل يبقى صديقًا له ولكل الكنيسة عبر كل الأجيال.

❖ كأنه يقول: "إنني لست أذهب بذات الهدف الذي كان قبلاً، أن أجادل وأصارع مع اليهود، وإنما لكي أوقظ صديقنا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يدعو السيد المسيح الموت "**نومًا**". النوم فيه راحة جسدية حيث يستعيد الجسم طاقته، ليبدأ بيقظته يومًا جديدًا في حيويةٍ ونشاطٍ. هذا حق بالنسبة لنوم الموت، فالمؤمن إذ ينام يقوم في حياة جديدة بإمكانيات جديدة في عالم جديد.

❖ بالحقيقة لا يُقال عن القديسين أنهم أموات بل يقال عنهم أنهم راقدون[2].

القديس جيروم

❖ بالنسبة لأختيه هو ميت، أما بالنسبة للرب فهو نائم. هو ميت بالنسبة للبشر غير القادرين أن يقيموه، أما الرب فأقامه من القبر بسهولة جدًا كمن يوقظ نائمًا على سريره. فإنه بالنسبة لسلطانه تكلم معه كنائمٍ، وأيضًا بالنسبة للآخرين وهم موتى غالبًا ما يتحدث الكتاب المقدس عنهم كنائمين. وكما يقول الرسول: "ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الأخوة من جهة **الراقدين**، لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم" (١ تس ٤: ١٣). لذلك تحدث عنهم أيضًا كراقدين، إذ سبق فأخبرهم عن قيامتهم. وهكذا كل الأموات هم راقدون، سواء كانوا صالحين أم أشرارًا[3].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** أن جميع الأموات أشبه بالنيام، لكن بعضهم يتمتع بأحلام سعيدة، والآخرون مرعبة. أو هم أشبه بمن هم في مكان حفظ مؤقت، لكن بعضهم مثل لعازر المسكين الذي يتنعم في حضن أبيه إبراهيم، بينما الغني الغبي في عطشٍ شديدٍ لا يجد من يهبه نقطة ماء (لو ١٦:

---

[1] *Homilies on St. John, 62:1.*
[2] *Against Vigiliantius, 6.*
[3] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:9.*

٣٢-٢٤). الكل سيخرج لينال كل واحدٍ حسب أعماله[1].

❖ إن كان ليس اسم "أرملة" هو الذي يضايقك، إنما فقدانك لمثل هذا الزوج، فإنني أوافقك أن قليلين هم أمثال ذلك الرجل في عالم الرجال، في حبه ونبله وتواضعه وإخلاصه وحكمته وورعه.

حقًا، لو أنه هلك كلية أو انتهي أمره تمامًا، لكان ذلك كارثة عظمى وكان الأمر محزنًا. لكن إن كان كل ما في الأمر أنه **أبحر إلي ميناء هادئ، وقام برحلة إلى اللَّه الذي هو حقًا ملكه**، لهذا يلزمنا ألا نحزن بل نفرح.

فإن هذا الموت ليس بموتٍ، إنما هو نوع من الهجرة والانتقال من سيئ إلي أحسن، من الأرض إلي السماء، من وسط البشر إلي الملائكة ورؤساء الملائكة، بل ومع اللَّه الذي هو رب الملائكة ورؤساء الملائكة.

لأنه عندما كان يخدم الإمبراطور هنا على الأرض كانت تحف به مخاطر الأشرار ومكائدهم. وبقدر ما كان صيته يتزايد، كانت خطط الأعداء (الحاسدين) تلتف حوله، والآن قد انتقل إلي العالم الآخر حيث لا يمكن أن ننتظر شيئًا من هذا.

فبقدر ما تحزنين لأن اللَّه أخذ إنسانًا هكذا كان صالحًا ومكرمًا كان يجب أن تفرحي أنه **رحل إلى مكان أكثر أمانًا وكرامة، متخلصًا من مضايقات الحياة الحاضرة الخطيرة، إذ هو الآن في أمان وهدوء عظيم.**

إن كان لا حاجة لنا أن نعرف أن السماء أفضل من الأرض بكثير، فكيف نندب الذين رحلوا من هذا العالم إلي العالم الآخر؟!

لو كان زوجك سالكًا مثل أولئك الذين يعيشون في حياة مخجلة لا ترضى اللَّه، كان بالأولي لكِ أن تنوحي وتبكي، ليس فقط عند انتقاله، بل حتى أثناء وجوده حيًا هنا. لكن **بقدر ما هو من أصدقاء اللَّه، يلزمنا أن نُسر به**، ليس وهو حيّ هنا، بل وعندما يرقد مستريحًا أيضًا.

وإذ يلزمنا أن نفعل هذا، استمعي ما يقوله الرسول الطوباوي: "لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جدًا" (في ١: ٢٣)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال تلاميذه: يا سيد إن كان قد نام فهو يُشفى**". **[١٢]**

---

[1] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, cf. 49:9, 10.*
[2] *Letter to a Young Widow, 3.*

كثيرًا ما يكون النوم خاصة بعمقٍ بالنسبة للمريض إحدى علامات شفائه. لذلك إذ قال السيد أن لعازر قد نام رأى التلاميذ أنه لا ضرورة لذهاب السيد إلى اليهودية لشفائه، لأنه قد بدأ شفاؤه بنومه العميق. ولم يتصور التلاميذ كيف يسيروا مع يسوع المسيح رحلة تمتد إلى يومين أو ثلاثة أيام وإلى بلد مقاومٍ لهم لكي يوقظوا صديقًا من نومه.

"وكان يسوع يقول عن موته،
وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم". [١٣]
"فقال لهم يسوع حينئذٍ علانية:
لعازر مات". [١٤]

❖ نطق بالكلمة الأولى "**نام**" راغبًا في تأكيد أنه لا يحب الافتخار، وإذ لم يفهموا أضاف "**مات**"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وأنا أفرح لأجلكم إني لم أكن هناك لتؤمنوا،
ولكن لنذهب إليه". [١٥]

إذ مات لعازر وفقد الكل الرجاء في عودته للحياة تحرك الرب نحوهم ليعلن أنه رجاء من ليس له رجاء، ومعين من ليس له معين. حينما يقول البشر: "يبست عظامنا، وهلك رجاؤنا، قد انقطعنا" (حز ٣٧: ١١) يقول السيد الرب: "هأنذا أفتح قبوركم، وأصعدكم من قبوركم يا شعبي... فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم، وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي".

❖ لماذا يقول: "**لأجلكم**"؟ لأني سبق فأخبرتكم مقدمًا عن موته، وإذ نحن هناك عندئذٍ إذ أقيمه لا يوجد شك من جهة الخداع. ألا ترون كيف كان التلاميذ غير كاملين في وضعهم وغير مدركين لقوتهم كما ينبغي؟ هذا كان بسبب الرعب الذي حل بهم والمتاعب والاضطرابات التي لنفوسهم. عندما قال: "**انه نائم**" أضاف "**أذهب لأوقظه**"، لأنه لم يرد أن يخبرهم مسبقًا بالكلام ما يحققه فعلاً بالأعمال. فإنه دومًا يعلمنا ألا نطلب المجد الباطل، ولا أن نقدم وعودًا بلا سبب. إن كان قد فعل هذا في حالة قائد المائة عندما قال "أنا أذهب وأشفيه" (مت ٨: ٧)، كان ذلك من أجل إيمان قائد المائة الذي قال هذا. وإن قال أحد: "كيف ظن التلاميذ انه نائم؟ كيف لم يفهموا أنه يعني بذلك الموت بقوله: "**أنا أذهب لأوقظه**" فإنه من الغباوة أن يفهموا أنه يذهب خمس عشرة غلوة *stadia*

[1] *Homilies on St. John, 62:1.*

ليوقظه. نجيب على ذلك يبدو أنهم ظنوا بأن كلماته غامضة كما اعتاد أن يتحدث معهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لم يقل "لنذهب إلى أختيه لتعزيتهما" بل "**إليه**"، فالموت لا يقدر أن يفصل السيد المسيح وكنيسته عن المنتقل، فيذهب الكل إليه بالحب ويلتقوا معه كعضوٍ حي في جسد المسيح. لم يقل "اذهب"، بل "**لنذهب**" **فيضم الكنيسة كلها معه للالتقاء مع الراقدين.**

"**فقال توما الذي يقال له التوام للتلاميذ رفقائه:**

لنذهب نحن أيضًا،

لكي نموت معه". **[١٦]**

"**توما**" تعني توأم، يُقال له باليونانية ديديموس *Didymus* وتعني "توأم". أثار إخوته التلاميذ بقوله هذا. يصعب إدراك نيته، هل كان يتحدث بشجاعة، فلا يبالي بالموت، مفضلاً أن يذهبوا جميعًا ليتعرضوا مع يسوع المسيح للموت الذي ينتظره، وكأنه يقول مع راعوث: "حيثما مت أموت وهناك أدفن" (را ١: ١٨). مفضلاً أن يكون في رفقة المسيح وإن كانت تكلفة ذلك هو "الموت"، عن أن يحيا وليس في رفقة السيد المسيح. أم تحدث هكذا عن خوفٍ كما بنوع من الدعابة أو عن تبرمٍ.

❖ لقد ارتاع التلاميذ من ملاقاة اليهود، أما توما الرسول فكان أكثرهم رعبًا، لذلك قال: "**لنذهب نحن أيضًا لكي نموت معه**"، ولأنه كان أضعف عزمًا من التلاميذ الآخرين وأقلهم إيمانًا.

❖ يقول البعض أنه رغب في أن يموت (مع يسوع) لكن الأمر ليس كذلك، فإن التعبير هنا يصدر عن شخص في جبنٍ. إلاَّ أن المسيح لم يوبخه بل سند ضعفه، وبعد ذلك صار أكثر قوة من الجميع، لا يُقهر. فالعجب في هذا أننا نرى شخصًا كان ضعيفًا هكذا قبل الصلب، صار بعد الصلب وبعد إيمانه بالقيامة أكثر غيرة من أي شخصٍ. عظيمة هي قوة المسيح! ذات الشخص الذي لم يجسر أن يذهب مع المسيح إلى بيت عنيا هو بعينه وهو لا يرى المسيح يجري وحده في العالم المسكون، ويقطن بين الأمم المملوءة بالقتل والذين يطلبون قتله[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. تحرك السيد نحو عائلة لعازر

[1] *Homilies on St. John, 62:2.*
[2] *Homilies on St. John, 62:2.*

"فلما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعة أيام في القبر". [١٧]

يسجل لنا الإنجيليون الآخرون بعض الأحداث التي تمت خلال هذه الرحلة نحو بيت عنيا، مثل شفاء الأعمى عند أريحا، واللقاء مع زكا وقبوله الإيمان بالمسيح. مع محبة السيد المسيح للعازر وأختيه وذهابه ليقيمه من الأموات لم يتجاهل احتياجات الآخرين، إنما أينما وُجد يصنع خيرًا.

يرى **القديس أغسطينوس** أن الأربعة أيام التي عبرت بلعازر في القبر تشير إلى مراحل البشرية. اليوم الأول هو يوم سقوط آدم وحواء حيث ملك الموت على آدم وبنيه. واليوم الثاني يشير إلى الإنسان وقد كسر الناموس الطبيعي الشاهد لله. واليوم الثالث يشير إلى كسر الناموس الموسوي، وأخيرًا جاء اليوم الرابع حيث كُرز بالإنجيل، ووهب السيد المسيح الحياة الجديدة المقامة للموتى في الخطايا[١].

وُجد اعتقاد لدى اليهود أن النفس تحوم حول الجسد بعد الموت لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع تفارقه بلا أمل قط للعودة إلى الجثمان[٢]. وكأنه في اليوم الرابع ينقطع كل أملٍ برجوع الإنسان إلى العالم مرة أخرى.

"وكانت بيت عنيا قريبة من أورشليم نحو خمس عشرة غلوة". [١٨]

صنع السيد المسيح معجزات لا حصر لها في الجليل، أما في أورشليم فمع كثرة معجزاته يختار الإنجيلي يوحنا معجزات لها مدلولها الخاص بالنسبة للشعب والقيادات مثل مفلوج بيت حسدا الذي عانى من الفالج ٣٨ سنة، وشفاء المولود أعمى، وإقامة لعازر في اليوم الرابع من موته.

كانت بيت عنيا على بعد حوالي ميلين من أورشليم، فالميل اليهودي يحوي سبع غلوات ونصف.

❖ ليس بدون سبب يشير إلى هذا، فقد أراد أن يخبرنا أنها كانت قريبة (من أورشليم) وربما لهذا السبب جاء كثيرون[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزوهما عن أخيهما". [١٩]

كان الحزن عند اليهود يستمر لمدة حوالي شهر، يدعون الثلاثة أيام الأولى "**أيام الحزن**"، يليها سبعة أيام تُدعى "**أيام المراثي**". في فترة الحزن لا يعمل أهل الميت شيئًا، وإن حياهم أحد فلا يردون

---

[1] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, cf. 49:12.*
[2] *Leon Morris, p. 409.*
[3] *Homilies on St. John, 62:2.*

السلام عليه. أما في أيام المراثي فلا يمارسون أعمالاً إلاَّ ما هو خاص: ينامون في فراش على الأرض، ولا يرتدون نعالهم، ولا يغتسلون أو يدهنون أنفسهم، يغطون رؤوسهم ولا يقرأون في الشريعة أو المشناه *Mishnah* أو التلمود *Talmud*. وفي بقية الثلاثين يومًا لا يحلقون شعرهم ولا يرتدون ثوبًا أبيض أو ثوبًا جديدًا، ولا يخيطون أي تمزيق يحدث في الثياب أثناء الجنازة[1].

جاءت كلمة "**اليهود**" في هذه السفر لتعني المقاومين للسيد المسيح، لذلك يرى البعض أن هؤلاء مع مقاومتهم للسيد شعروا بفداحة الكارثة فجاءوا إلى مرثا ومريم لا كزيارات عابرة بل للإقامة يومين أو ثلاثة مع أهل المنتقل في البيت، خاصة إن كان المنتقل هو رب البيت.

❖ كيف كانوا يعزونهما وقد كان السيد المسيح يحبهما، وقد قرر اليهود إن اعترف معترف أن هذا هو المسيح كان يخرج خارج مجمعهم؟ نقول: إنهم كانوا يعزونهما، إما لضرورة مصابهما، وإما أنهم احتشموهما، لأنهما كانتا أشرف حسبًا من غيرهما، وإما أن يكون هؤلاء الذين جاءوا ما كانوا أشرارًا، لأن كثيرين منهم آمنوا بالسيد المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فلما سمعت مرثا أن يسوع آت لاقته،**

وأما مريم فاستمرت جالسة في البيت". **[٢٠]**

يبدو أن مرثا كانت تترقب مجيئه بكل غيرة، وتطلب ذلك ليهبها هي وأختها تعزية. وإذ سمعت أنه في الطريق إلى البيت تركت كل مراسيم الجنازات وتقاليدها، وتركت المعزين القادمين لزيارتها، وأسرعت لتلتقي بيسوع. تركت البيت وأيضًا القرية والتقت به في خارج القرية. أما مريم فبقت في البيت، ربما بسبب شدة حزنها الذي أفقدها القدرة على سرعة الحركة، أو لأنها لم تكن قد سمعت عن مجيئه.

يرى البعض أن مرثا هي الأكبر سنًا وهي التي كانت تدير شئون البيت (لو ١٠: ٤٠).

❖ إن قلت: فما كان غرض مرثا في أنها لم تأخذ أختها عندما خرجت لاستقبال السيد المسيح؟ قلت: إنها أرادت أن تخاطبه على انفراد وتخبره بما حدث. لكن عندما قدم لها رجاءً صالحًا ذهبت ودعت مريم، التي لاقته بينما كان حزنها في أعلى درجاته.

ألا ترون كيف كان حبها ملتهبًا؟

[1] *Cf. Adam Smith Comm. on John.*

هذه هي مريم التي قال عنها: "مريم اختارت النصيب الصالح" (لو ١٠: ٤٢).

قد يقول أحد: "كيف ظهرت مرثا أكثر غيرة منها؟" لم تكن أكثر غيرة منها، إنما ظهرت هكذا لأن مريم لم تكن بعد قد علمت بمجيئه؛ مرثا كانت أضعف منها. فإنها حتى عندما سمعت مثل هذه الأمور من المسيح تحدثت بطريقة كمن يحبو: "**لقد أنتن لأن له أربعة أيام**" [٣٩]. أما مريم وهي لم تسمع شيئًا لم تقل هكذا، وإنما في الحال آمنت[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقالت مرثا ليسوع:**

يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي". **[٢١]**

وهي نفس الكلمات التي قالتها أختها فيما بعد [٣٢]، مما يكشف أنهما لم يكونا بعد يدركا شخص السيد المسيح كما ينبغي، أنه حاضر في كل مكان. لقد حملت إيمانًا أنه كان قادرًا بحضوره أن يمنع الموت من الاقتراب نحو أخيها، كما آمنت بحنوه وترفقه. كان إيمانها كالقصبة المرضوضة التي لن يقصفها يسوع المسيح، بل يسندها ويدعمها.

"**لكني الآن أيضًا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه**". **[٢٢]**

عادت مرثا تلوم نفسها وتصحح حديثها مع السيد المسيح، فإنها تؤمن بأنه حتى بعد موت أخيها إن طلب السيد من الله (الآب) شيئًا، أي إقامته، فسينال طلبته. لم تجسر وتقول أن يقيم أخاها، لكنها طلبت ذلك بطريق غير مباشر، وتركت له أن يحكم في الأمر، إن كان يقيم لعازر أم لا.

آمنت أنه إن طلب من الله شيئًا يعطيه إياه، ولم تدرك أنه هو الحياة، له الحياة في ذاته، وأن ما يفعله إنما بقوته، لأنه واحد مع الآب.

❖ أرأيت حكمتهما (مريم ومرثا) السماوية؟ وإن كان عزمهما ضعيفًا، لكنهما عندما أبصرتا السيد المسيح لم تنهارا في الحال في العويل، ولا إلى فجائع الندب، ولا إلى النوح، وذلك كما يعرض لنا نحن إذا رأينا أقوامًا من معارفنا داخلين عندنا في حال نوحنا. إذ اعتبرتا السيد المسيح معلمًا، لأنهما آمنتا به. لكنهما جهلتا شرفه السامي واقتداره بالقول: "**أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه**". فخاطبتاه كمن يخاطب من هو ثابت في الفضيلة فينال ما يطلبه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Homilies on St. John, 62:3.*
[2] *Homilies on St. John, 62:3.*

"**قال لها يسوع:**

سيقوم أخوكِ". **[٢٣]**

جاءت إجابة السيد المسيح لسؤال مرثا المملوء تواضعًا والمثير للشفقة: "**سيقوم أخوكِ**" [٢٣].

❖ هكذا فند السيد القول السابق: "**كل ما تطلب**" [٢٢]، إذ لم يقل: "أنا أطلب" بل ماذا؟ "**سيقوم أخوكِ**". لو أنه قال: "يا امرأة إنكِ لا تزالين تتطلعين إلى أسفل، فإني لست محتاجًا إلى عونٍ من آخر، بل أفعل كل شيء بذاتي"، لكان ذلك بالنسبة لها أمرًا خطيرًا وعثرة في طريقها، أما أن يقول: "**سيقوم أخوكِ**"، فهو تصرف من يختار طريقة الحديث المتوسطة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قالت له مرثا:**

أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير". **[٢٤]**

كان موضوع القيامة من الأموات قد استقر تمامًا في أذهان اليهود، ماعدا عند الصدوقيين الذين يرفضونه. وقد جاءت الأسفار التي بعد السبي تفيض بالأحاديث عنها (٢ مك ٧: ٩، ١٤، ٢٣، ٣٦؛ ١٢: ٤٣؛ ١٤: ٤٦؛ حك ٥: ١–٧، ١٧؛ ٦: ٦–٧)، كما جاءت الكتابات اليهودية مثل يوسيفوس المؤرخ والترجوم تتحدث عنها.

"**قال لها يسوع:**

أنا هو القيامة والحياة،

من آمن بي ولو مات فسيحيا". **[٢٥]**

❖ بهذا برهن لها عن سلطانه... أظهر أنه لم يكن محتاجًا إلى آخر لكي يعينه، مادام هو نفسه الحياة. فلو أنه احتاج إلى آخر، فكيف يمكنه أن يكون القيامة والحياة؟ ومع هذا لم يشر إلى ذلك صراحة بل بالتلميح[2].

❖ لقد أظهر أنه واهب كل الصالحات، وأنه يليق بنا أن نسأله[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وكل من كان حيًا وآمن بي،**

---

[1] *Homilies on St. John, 62:3.*
[2] *Homilies on St. John, 62:3.*
[3] *Homilies on St. John, 62:3.*

فلن يموت إلى الأبد،

أتؤمنين بهذا؟" [٢٦]

كأنه يقول لها: "أنتِ تقولين إن أخاك سيقوم في يوم الدينونة، من الذي يقيمه غيري أنا واهب القيامة ومصدر الحياة؟ وإن كان في سلطاني أن أقيمه في اليوم الأخير فهل يصعب عليّ أن أقيمه الآن؟" هكذا فتح الرب باب الرجاء أمامها، وسند إيمانها وكشف لها عن شخصه أنه ليس مجرد إنسان، بل هو واهب الحياة والوجود.

كل من يؤمن وإن مات حسب الجسد فسيقوم ويتمتع بكليته بالشركة في المجد. إنه لا يعود يموت بعد موت الجسد، إنما يعود بعودة الجسد ممجدًا مع النفس ليمارس المؤمن الحياة المقامة أبديًا. إنه لم يقل أن المؤمن لن يعبر من البوابة التي ندعوها الموت، بل بالأحرى الحياة التي يهبها تستمر خلال الموت. لا يقدر الموت أن يمحو الحياة التي يهبنا إياها السيد المسيح.

❖ انظر كيف يرتفع السيد المسيح بعقل مرثا، لأنه لم يكن هذا مطلوبه أن يقيم لعازر فحسب، لكن أن تعرف مرثا والحاضرون تلك القيامة، ولهذا السبب جهر بألفاظه قبل إقامته لعازر[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

سألها السيد المسيح: "**أتؤمنين بهذا؟**" وكأنه يطالبها بالإيمان الذي يتحدى الطبيعة والموت؛ وجاءت إجابتها في ثباتٍ وحزم بلا تردد، تحمل اليقين.

"**قالت له: نعم يا سيد (رب)،**

أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم". **[٢٧]**

قدمت مرثا قانون إيمانها بكل إخلاص: "**أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم**" [٢٧]. وهو ذات قانون الإيمان الذي نطق به بطرس الرسول وامتدحه السيد (مت ١٦: ١٦–١٧). جاء قانون إيمانها يحوي ثلاثة بنود رئيسية:

- يسوع هو المسيح، أو المسيا الذي انتظره الآباء والأنبياء. كان كثير من يهود القرن الأول يترقبون مجيئه بشوقٍ عظيم.
- أنه ابن الله بالطبيعة (مز ٢: ٧).
- جاء إلى العالم ليقيم منه كنيسته المقدسة، ليس من اليهود وحدهم بل من العالم.

[1] *Homilies on St. John, 62:3.*

إن كان هو المسيا مخلص العالم، ابن الله بالطبيعة وقد نزل إلى العالم ليقيمه فهو حتمًا الحياة والقيامة.

❖ لقد رفع بالفعل رأيها الهابط عنه، فلا تحسبه واحدًا بين كثيرين. فإنها ليست ببساطة دعته "**يا رب**" بل ردت له الكرامة. وتحدثت بتلك الكلمات لتكرمه، يظهر ذلك مما قلته بعد هذا. إنها لم تضحك ولا سخرت ولا شكت إلى لحظة[1].

❖ يبدو لي أن المرأة لم تفهم القول، وإن كانت قد أدركت أنه أمر عظيم، لكنها لم تدركه بالكامل. لهذا السبب عندما سُئلت شيئًا أجابت بشيء آخر[2].

❖ لم تقل له "أقم أخي"، لكنها قالت: "**أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سرًا قائلة:**

المعلم قد حضر،

وهو يدعوكِ". **[٢٨]**

لم تنتظر مرثا كلمة مديح من أجل إيمانها، لكنها أدركت خلال هذا اللقاء مفاهيم جديدة، وتمتعت بخبرات جديدة في فترة قصيرة، مضت ودعت أختها مريم لتتمتع هي أيضًا معها بما نالته. هذا وقد سأل السيد عن مريم لأنها لم تأتِ مع أختها. دعتها سرًا لأنه كان حولها كثيرون من المعزين، ولعل بعض المعزين – سواء كانوا رجالاً أو نساءً – ضد يسوع، لا يطيقونه. خشت مرثا لئلا تثير الدعوة اضطرابًا يعوق مريم عن الانطلاق سريعًا لتلتقي بيسوع وتتمتع بتعزياته.

نلاحظ في حديثها السري مع أختها عن مجيء السيد الآتي:

أولاً: دعته "**المعلم** *Didaskalos*"، لا تقوم تعزياته على عواطف مجردة، وإنما مع الحب والحنو يقدم حقائق إيمانية فريدة، قادر أن يجتذب تلاميذه المحبوبين لديه وأصدقاءه إلى التعزيات الإلهية.

ثانيا: "**قد حضر**" ذاك الذي طال انتظارنا لمجيئه، ونترجى الكثير من وجوده.

ثالثًا: "**وهو يدعوك**"، فقد سأل عنك بالاسم، لأنه يهتم بكِ، ويطلب سلامكِ وتعزية قلبكِ.

"**أما تلك فلما سمعت قامت سريعًا،**

---

[1] *Hom. 62. PG 59:181.*
[2] *Hom. 62. PG 59:372.*

وجاءت إليه". [٢٩]

إذ سمعت دعوة السيد المسيح على فم أختها "**قامت سريعًا، وجاءت إليه**". وقد علق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على هذا التصرف النبيل، حاسبًا إياها أنها سلكت بالفلسفة الحقيقية، أي بالحكمة التي لا تطلب الأمور التافهة غير النافعة بل ما هو بالحق لخيرها، وقد نالت بسبب حكمتها. من يتصور سيدة مات أخوها منذ أربعة أيام ومعزون كثيرون حولها يبكين وينحن معها، وإذ تسمع عن يسوع لا تنتظر حضوره إليها ليعزيها، بل تنطلق إليه إلى خارج قريتها والنساء حولها يحسبن إياها أنها ذاهبة إلى القبر تبكي!

ما أحوجنا في وسط دموعنا وتجاربنا ألا نركز أنظارنا على المرارة، ولا نعطي اعتبارًا للمعزين المتعبين العاجزين عن تقديم السلام الحقيقي، بل تنطلق أعماقنا نحو ذاك الذي هو قادم إلينا ليفيض بتعزياته السماوية فينا! لنخرج بالحق من كل شكليات وليرتفع قلبنا بروح الله القدوس إلى السيد المسيح فهو وحده طبيب النفوس والأجساد، وواهب الحياة والقيامة، الإله القدير وحده الذي يبادر دومًا بالحب.

ما أحوج النفس وسط وادي الدموع هذا أن تترك كل ما يحطمها من متاعب، وتتجاهل كل تعليق بشري، لتنسحب بالرجاء نحو ذاك الذي وحده قادر أن يشكلها بروحه القدوس ويشبعها ويقيمها معه في مجده أبديًا!

الانشغال المستمر بأحزاننا يسبب لنا كآبة أكثر مرارة من الأحزان نفسها، أما اللقاء مع السيد المسيح، فيهب بهجة الحياة المقامة وتهليلها الدائم.

❖ انظروا كمثالٍ كيف نالت هذه المرأة مكافئتها بممارستها الحكمة الحقيقية. فإذ كان الكل جالسًا بجوارها إذ كانت تبكي وهي حزينة، لم تنتظر سيدها أنه يجب أن يأتي إليها، ولا طالبت بما يبدو أنه بحقها (فإن النساء الحزينات بجانب بؤسهن لديهن هذا البلاء وهو أنهن يهولن من وضعهن)، أما هي فلم تفعل شيئًا من هذا، فما سمعت حتى أسرعت إليه[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ولم يكن يسوع قد جاء إلى القرية،

بل كان في المكان الذي لاقته فيه مرثا". [٣٠]

بحكمة إلهية كان السيد يتحرك ببطءٍ شديدٍ حتى يعطي مرثا الفرصة لتسرع بدعوة أختها، ويهب مريم فرصة الإسراع نحوه، فينطلق معهما إلى القبر، ويحول أحزانهما إلى أفراح فائقة. هكذا كثيرًا ما

[1] *Homilies on St. John, 63:1.*

يبدو الرب متباطئًا في حلّ مشاكلنا مع أنه يطلب سعادتنا، حتى يهبنا فرصة الالتجاء إليه، والتعبير عما في داخلنا من إيمان حي ورجاء ثابت، فنسرع إليه لندرك خطته الإلهية الخفية والفائقة من نحونا.

❖ قال عن السيد المسيح: "**ولم يكن يسوع قد جاء إلى القرية، بل كان في المكان الذي لاقته فيه مرثا**". لأنه مشى ببطءٍ، لئلا يُظن أنه يطرح ذاته في عمل الآية، لكنه انتظر حتى يسأله أولئك من أجلها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ثم أن اليهود الذين كانوا معها في البيت يعزونها،
لما رأوا مريم قامت عاجلاً وخرجت،
تبعوها قائلين:
إنها تذهب إلى القبر لتبكي هناك". [٣١]

بينما دعت مرثا أختها سرًا، وقدمت لها دعوة السيد لها [٢٨]، فسحبتها من وسط بكائها ومن وسط المعزين لتجري نحوه، إذا مريم بتحركها الصامت سحبت كل من كان معها في بيتها وهم لا يدرون إلى أين يذهبون. حبها العملي للمخلص جذب الكثيرين ليروا ويلمسوا ذاك الذي يقيم من الأموات.

❖ لم تأتِ وحدها، بل سحبت معها اليهود الذين كانوا معها في البيت. بحكمة عظيمة دعتها أختها سرًا حتى لا تربك الحاضرين الذين جاءوا معًا، ولم تشر إلى سبب حديثها، فإنه بالتأكيد لو سمعوا لرجعوا إلى بيوتهم. أما الآن إذ خرجت تبكي تبعوها. ربما أكد هذا موت لعازر[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فمريم لما أتت إلى حيث كان يسوع ورأته،
خرت عند رجليه، قائلة له:
يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي". [٣٢]

لم يدخل السيد المسيح القرية ولا بيت لعازر وأختيه، وإنما التقى بالأختين ثم ذهب ومعه الجمع إلى القبر. إنه محب لعمله، قد جاء لينطلق إلى القبر، ويتمم عمله بلا تأخير.

❖ مريم هذه أحر شوقًا من أختها مرثا، لأنها لم تخجل من الجمع، ولا من الظنون التي امتلكها أولئك

[1] *Homilies on St. John, 63:1.*

من أجله، فقد كان فيهم كثيرون من أعدائه، الذين قالوا: "**ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضًا لا يموت؟**" [٣٧]. لكن عند حضور المعلم أبعدت عنها الأوهام الميتة كلها، وتمكنت في عزمٍ واحدٍ من تكريمها المعلم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. إقامة لعازر من الأموات

"**فلما رآها يسوع تبكي،**

واليهود الذين جاءوا معها يبكون،

انزعج بالروح واضطرب". **[٣٣]**

هنا يظهر السيد المسيح أنه قد صار بالحقيقة إنسانًا يحمل مشاعر إنسانية، يشارك المتألمين، ويبكي مع الباكين. إنه رجل أحزان (إش ٥٣: ٣). لم يوجد قط ضاحكًا، لكنه في أكثر من موضع وُجد باكيًا.

❖ لم يقل السيد المسيح لها شيئًا، ولا نطق بالأقوال التي قالها لأختها مرثا.، لأن جمعًا كثيرًا كان حاضرًا، ولم يكن وقت لتلك الأقوال، لكنه تنازل إذ كشف عن طبيعته الإنسانية، ولم يرد أن يتخيلوا فيه شيئًا أكثر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أنتم تنزعجون بغير إرادتكم، أما المسيح فانزعج لأنه أراد ذلك.

يسوع جاع، هذا حقيقي، إنما لأنه أراد.

كان حزينًا، هذه حقيقة، لكن لأنه أراد. في سلطانه أن يكون هكذا أو كذلك، يتأثر أو لا يتأثر. لأن الكلمة أخذ نفسًا وجسدًا حاملاً فيه نفس الطبيعة البشرية واحدًا مع الكلمة، المسيح الواحد. بهذا الكلمة الذي له سلطان فائق يستخدم الضعف رهن إشارة إرادته، وبهذا فقد "**انزعج**"[2].

القديس أغسطينوس

"**وقال: أين وضعتموه؟**

قالوا له: يا سيد تعال وانظر". **[٣٤]**

---

[1] *Homilies on St. John, 63:1.*

[2] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:18.*

❖ إن سألت: لِم سأل هذا السؤال؟ أجبتك: إنه لم يرد أن يبادر هو، لكنه شاء أن يعرف من أولئك كل ما جرى، وأن يسألوه أن يعمل الآية حتى يستخلص الآية من كل تهمة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ سيأتي المسيح إلى قبرك، وإذ يجد مرثا المرأة التي تقدم خدمة صالحة، ومريم التي تهتم بقلبها بكلمة اللَّه مثل الكنيسة المقدسة التي اختارت النصيب الصالح تبكيان، يحنو.

عند موتك يرى دموع الكثيرين فيقول: "**أين وضعتموه؟**" بمعنى في أية حال من الجريمة هو؟ في أية رتبة بين النادمين؟

أريد أن أرى من تبكون عليه، لكي ما يحركني بدموعه. سأرى إن كان قد مات فعلاً بالخطية فأعالجه بالمغفرة.

يقول له الشعب: "**تعال وانظر**".

ما معنى "تعال"؟ لتأتِ مغفرة الخطايا، ولتأتِ الحياة إلى من رحل، والقيامة من الأموات، ليأتِ ملكوتك لهذا الخاطئ أيضًا[1].

القديس أمبروسيوس

❖ يا للعجب الذي جاء ليقيمه من الأموات يبدو كمن لا يعرف موضع القبر، إذ "**قال: أين وضعتموه؟**" [٣٤]. وكما يقول كثير من الآباء أن الله العالم بكل شيء يبدو كمن لا يعرف موضع الظلمة، ولا يعرف الشر ولا الأشرار. لهذا إذ أخطأ آدم في الجنة، سأل الرب: "أين أنت؟" (تك ٣: ٩). وفي يوم الدينونة يقول للأشرار: "لست أعرفكم" (مت ٧: ٢٣)، وهنا يتساءل: "**أين وضعتموه؟**"

❖ لست أراكم في نوري، في البرّ الذي أعرفه[2].

❖ ماذا تعني "**انظر**"؟ ترفق، فإن الرب ينظر حين يتحنن. لذلك قيل له: "انظر إلى تواضعي وألمي، واغفر لي كل خطاياي" (مت ٩: ١٣)[3].

القديس أغسطينوس

"**بكى يسوع**". **[٣٥]**

---

[1] *Concerning Repentance 2:7:54-55.*
[2] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:20.*
[3] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:20.*

جاء الفعل "**بكي**" هنا في اليونانية مختلفًا عما ورد عن بكاء مريم وجمهور المحيطين بها [٣٣]، إذ لا يحمل العويل المرتفع مثلهم، بل انسياب الدموع من عينيه. إنها مجرد شهادة عملية لمشاعره العميقة ومشاركته للمتألمين أمام الجموع التي لم تدرك بعد كيف تواجه الموت. وقد وجدت الجموع في هذه الدموع شهادة حية عن محبته للعازر [٣٦].

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن كل ما صنعه السيد المسيح كان بحكمته الإلهية لكي تنتفع الجموع بصنع المعجزة، فمن جانب لم يتحدث مع مريم أمام الجموع بما قاله لمرثا حين التقت به منفردة. فقد تحدث عن إقامة لعازر. فلو سمعت الجموع ذلك حيث يحمل كثيرون له عداوة، لتركوه ورجعوا إلى أورشليم، ولم يروا إقامة لعازر. من جانب آخر أكد ناسوته في تلك اللحظات، حتى لا تنفر الجموع إن تحدث عما يخص لاهوته.

بكى في صمت، واضطرب ثم تنهد كمن يكبح اضطرابه، وسأل عن موضع القبر... كل هذا أثار تساؤلات في أذهان اليهود، ورغبة في معرفة ما سيفعله دون نفورٍ من جانبهم.

❖ ماذا فعل المسيح؟ لم يدخل معها في حوارٍ في ذلك الوقت، ولا قال لها ما قاله لأختها (لأنه لم يوجد جمع عظيم، وكان ذلك غير مناسب في ذلك الحين). كل ما فعله كان بقياسٍ (معين) وتنازلٍ منه، ليؤكد طبيعته البشرية، إذ بكى في صمت، وأجَّل صنع الآية في ذلك الوقت. فإذ كانت الآية عظيمة، وإذ كان يمارس أمرًا خطيرًا حتى يؤمن كثيرون بها، وحتى لا يتممها في غير حضورهم، فتوجد عثرة للجمهور، ولا ينتفعون بعظمتها، وحتى لا يفقد الفريسة قدم شهادات كثيرة لتنازله وأظهر تأكيدًا لناسوته. وقد بكى واضطرب. فعادة يثير الحزن المشاعر، وإذ تنهد بالروح أي ضبط اضطرابه سأل: "**أين وضعتموه؟**" [٣٤][1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بكى الرب نفسه أيضًا من أجل لعازر نفسه الذي سيقيمه إلى الحياة، بلا شك لكي يسمح لنا بمثاله أن نبكي على موتانا، وإن كان لم يعطنا وصيته بذلك، هذا مع إيماننا بأنهم يقومون إلى الحياة الحقيقية. ليس اعتباطًا قيل: "اسكب دموعًا على الميت، وأبدأ بالحزن كمن أصابه ضرر عظيم"، لكنه يكمل بعد قليل قائلاً: "ولتتعزى في حزنك، لأن بالحزن يحل الموت، وأسى القلب يبتلع القوة"[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 63:1.*
[2] *Letters, 263.*

القديس أغسطينوس

❖ لكي يُظهر المخلص نفسه أن لديه مشاعر بشرية حقيقية حزن من أجل ذاك الذي سيُقيمه من الأموات[1].

القديس جيروم

"**فقال اليهود:**

انظروا كيف كان يحبه". **[٣٦]**

إذ رأى اليهود دموع السيد قالوا: "**انظروا كيف كان يحبه**" [٣٦]، ونحن إذ نرى دمه يتساقط من جسمه على الصليب نسبحه قائلين: "انظروا كيف يحبنا!"

❖ ألا ترون أنه لم يُظهر بعد أية علامة على إقامته له، وذهب لا كمن يقيم لعازر بل كمن يبكيه؟ هكذا بدا لليهود أنه ذاهب لينتحبه لا ليقيمه، وذلك من قولهم: "**انظروا كيف كان يحبه**" [٣٦][2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وقال بعض منهم:**

ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضًا لا يموت؟" **[٣٧]**

في جهالة ظنوا دموع السيد المسيح علامة عجز وعدم قدرة على العمل، ولم يدركوا أنها دموع الحب والحنو، وأنه ليس فقط كان قادرًا أن يشفيه وإنما لا يزال قادرًا أن يقيمه حتى بعد أن أنتن جسمه.

❖ لقد اعترف اليهود هنا أن السيد المسيح فتح عيني الأعمى، ولكنهم استكثروا عليه أن يجعل لعازر لا يموت.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فانزعج يسوع أيضًا في نفسه،**

وجاء إلى القبر،

وكان مغارة،

وقد وُضع عليه حجر". **[٣٨]**

لا يفهم من انزعاج يسوع في نفسه فقدان سلامه الداخلي، لكنه كما أخلى ذاته ليحل بيننا كإنسانٍ

---

[1] *Letter 60:7.*
[2] *Homilies on St. John, 63:1.*

حقيقيٍ كاملٍ، سمح بإرادته أن يدخل الانزعاج إلى نفسه حتى يشارك المنزعجين، فيحملهم إلى سلامه الإلهي.

"**قال يسوع:**

ارفعوا الحجر.

قالت له مرثا أخت الميت:

يا سيد قد أنتن،

لأن له أربعة أيام". **[٣٩]**

أمر برفع الحجر حتى يرى كل الواقفين أن الجسد ملقى في القبر ميتًا، كما يشتمون الرائحة، فيتأكدون أنه أنتن، وعند خروجه من القبر لا يظنوا أنه خيال بل هو جسد حقيقي.

جاء اعتراض مرثا غالبًا بعد أن بدأوا يحركون الحجر فاشتمت الرائحة.

❖ لماذا لم يدعُ لعازر وهو على بُعد من القبر ويأتي به أمام أعينهم؟ أو بالأحرى لماذا لم يجعله يقوم والحجر مُلقى على القبر؟ فإن ذاك القادر بصوته أن يحرك الجثمان ويظهره متمتعًا بالحياة مرة أخرى هل كان كثير عليه أن يدحرج الحجر بصوته؟

ذاك الذي له القوة بصوته أن يجعل من هو مربوط وملفوف بالأكفان يمشي هل كثير عليه أن يجعل الحجر يتحرك؟

فلماذا لم يفعل ذلك؟

لكي يجعل منهم شهودًا للمعجزة، فلا يقولون كما قالوا في معجزة الأعمى: "إنه هو"، "إنه ليس هو". فإن أياديهم ومجيئهم إلى القبر تشهد بالحق أنه هو.

لو لم يأتوا لبدا لهم أنهم نظروا رؤية أو أنه شخص عوض آخر.

الآن مجيئهم إلى الموضع ورفع الحجر والأمر بحل الميت الذي في الأكفان المربوطة، فإن الأحباء الذين حملوه إلى القبر يعرفون من الأكفان من هو. لم تترك أختاه خلفًا (من الجموع) إذ قالت إحداهما: "**قد أنتن لأن له أربعة أيام**" [٣٩]. أقول أن كل هذه كانت كافية لتبكم أصحاب الميول الشريرة، إذ صاروا شهودًا للمعجزة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Homilies on St. John, 63:2.*

❖ سيأتي ويأمر برفع الحجر هذا الذي سقط على كتفي الخاطئ.

كان يمكنه أن يحرك الحجر بكلمة أمره، لأنه حتى الطبيعة الجامدة تود أن تطيع أمر المسيح.

كان يمكنه بقوة عمله الصامت أن يحرك حجر القبر. هذا الذي أثناء آلامه تحركت حجارة كثيرة من قبور الأموات وانفتحت فجأة.

لكنه أمر الرجال أن يرفعوا الحجر بالحق حتى يؤمن غير المؤمنين بما يرونه، وينظرون الميت يقوم.

لكن هذا يحمل رمزًا ليهبنا قوة تخفيف ثقل الخطايا، الضغط الثقيل الذي على المجرم. من جانبنا نحرك الأثقال، ومن جانبه يقيم ويخرج من القبور أولئك الذين يتحررون من أربطتهم[1].

القديس أمبروسيوس

❖ الآن قيل: "**لقد مات منذ أربعة أيام**". فإنه بالحقيقة تبلغ النفس إلى هذه العادة التي أتحدث عنها بنوع من التقدم أربع مرات.

المرحلة الأولى: هي كما لو كانت إثارة اللذة التي في القلب.

والثانية: هي قبولها.

والثالثة: هي تحولها إلى عمل.

والرابعة: تحولها إلى عادة.

يوجد من يلقون عنهم الأمور الشريرة عن أفكارهم كأنهم لا يجدون فيها لذة.

ويوجد من يجدون فيها لذة، ولكنهم لا يوافقونها. هنا لا يكمل الموت لكن يحمل بداية معينة، فقد أضيف إلى الشعور باللذة موافقة. في الحال تحدث إدانة للشخص.

بعد الموافقة يحدث تقدم للموافقة إذ تتحول إلى عملٍ ظاهرٍ.

والعمل يتحول إلى عادة. فيحدث نوع من اليأس، حتى يُقال: "**قد أنتن لأن له أربعة أيام**". لذلك جاء الرب هذا الذي كل الأمور بالنسبة له سهلة. ومع هذا فوجد في هذه الحالة كما لو كانت هناك صعوبة. لقد اضطرب بالروح، وأظهر الحاجة إلى احتجاج كثير وعال ليقيم الذين تقسوا بالعادة. ولكن عند صرخة الرب تفجرت أربطة الضرورة. ارتعبت قوات الجحيم، وعاد لعازر حيًا. فإن الرب ينقذ حتى من العادات الشريرة هذا الذي له أربعة أيام ميتًا فإنه بالنسبة للرب وحده يُحسب راقدًا هذا الذي

[1] *Concerning Repentance Book 2:7:56.*

يريد الرب أن يقيمه[1].

القديس أغسطينوس

❖ حتى إن كنت راقدًا في قبرك، فالرب يُقيمك، وإن كان جسدك قد أنتن[2].

القديس جيروم

يرى **العلامة أوريجينوس** أنه إذ أصدر السيد المسيح أمره "**ارفعوا الحجر**" أعاقت مرثا تنفيذ الأمر بكلماتها: "**يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام**" [٣٩]، بعد ذلك رفعوه.

هذه اللحظات ما بين الأمر وتأخير تنفيذ تحمل نوعًا من عدم الإيمان، فلم يتحقق القول: "**إن آمنتِ ترين المجد الله**" [٤٠]. **لحظات التأخير هي لحظات عدم إيمان وعصيان.**

❖ يليق بنا أن نؤمن أن فترة التأخير في تنفيذ الوصية هي وقت للعصيان بالنسبة لمن ينفذ الوصية بعد ذلك... لذلك وجب علينا أن نتذكر القول: "لا تتأخر في الرجوع إلى الرب، ولا تؤجله من يوم إلى يوم" (ابن سيراخ ٥: ٧)، والقول: "لا تقل لصاحبك اذهب وعد، فأعطيك غدًا، وموجود عندك" (أم ٣: ٢٨). يلزمنا أن نعتقد أنه دينونة على مرثا إن الكلمات: "**فرفعوا الحجر**" [٤١] قد كُتبت مؤخرًا، وكان يجب أن تُقال فورًا بعد الكلمات: "**قال يسوع: ارفعوا الحجر**"[3].

العلامة أوريجينوس

❖ يقول: "**ارفعوا الحجر**" [٣٩]. ارفعوا ثقل الناموس، واكرزوا بالنعمة. "لأنه لو أُعطي ناموس قادر أن يُحيي لكان بالحقيقة البرّ بالناموس. لكن الكتاب أغلق على الكل تحت الخطية ليُعطي الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون" (غلا ٣: ٢١–٢٢). لذلك "ارفعوا الحجر"[4].

القديس أغسطينوس

"**قال لها يسوع:**
ألم أقل لكِ إن آمنت ترين مجد الله؟" **[٤٠]**

❖ حقًا الإيمان هو بركة عظيمة، ويصنع أمورًا عظيمة للذين يتمسكون بالحق ويتمتعون ببركات كثيرة.

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 48:6.*
[2] *Letter 147:9.*
[3] *Commentary on John, Book 28:19 – 22.*
[4] *St. Augustine:On the Gospel of St. John, tractate, 49:22.*

بالإيمان يستطيع الناس أن يمارسوا أعمال الله باسمه. حسنًا يقول المسيح: "لو كان لكم إيمان مثل حبة الخردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل" (مت ١٧: ٢٠). مرة أخرى: "من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا، ويعمل أعظم منها" (يو ١٤: ١٢). ماذا يعني بالأعظم منها؟ تلك التي شوهد التلاميذ يعملونها. فإنه حتى ظل بطرس أقام ميتًا، وهكذا ظهرت بالأكثر قوة المسيح. فإنه ليس عجيبًا أنه وهو حي صنع عجائب مثلما بعد موته يستطيع آخرون أن يصنعوا باسمه أعمالاً أعظم مما فعل. هذا برهان عن القيامة لا يُقاوم، فإنه حتى وإن شاهد الكل القيامة كانوا يؤمنون بها هكذا. لأنه يمكن للناس أن يقولوا إنها ظهور، أما من يرى حدوث عجائب بمجرد دعوة اسمه أعظم مما فعله حين كان بين البشر، فإنه لا يقدر أحد ألا يؤمن إلاَّ إذا كان عديم الحس.

إذن الإيمان بركة عظيمة عندما يصدر عن مشاعر وهَّاجة وحب عظيم ونفس متقدة.

بالحق يجعلنا الإيمان حكماء، ويخفي انحطاطنا البشري، ويلقي بالحجج إلى أسفل ويفلسف (يعطي حكمة) بخصوص السماويات، أو بالأحرى الأمور التي لا تستطيع حكمة البشر أن تكشفها. إنها تدركها بفيضٍ وتنجح فيها.

لنلتصق إذن بالإيمان، ولا نعتمد على الحجج الصادرة عنا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعًا

ورفع يسوع عينيه إلى فوق، وقال:

أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي". [٤١]

إنها لحظات رهيبة حيث رُفع الحجر فظهر الجسد، وقد فاحت رائحة النتن العنيف، بينما وقف السيد المسيح يخاطب الآب، شاكرًا له أنه استمع له. إنه من جهة يؤكد علاقته بالآب حتى يطمئن الحاضرون أنه سماوي وليس كما ادعى بعض القادة أنه ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين. ومن جانب آخر لكي يكون قدوة لنا.

❖ ما أقوله دومًا، أقوله الآن، أن المسيح لم يتطلع كثيرًا نحو كرامته قدر ما كان يتطلع إلى خلاصنا، **فلا يهتم بتقديم منطوقات سامية علوية، بل ما يمكن أن يجتذبنا إليه.** لهذا فإن أقواله العلوية القديرة قليلة ومخفية، أما أقواله المتواضعة فكثيرة وفيَّاضة في مقالاته...

[1] *Homilies on St. John, 63:3.*

فلم يكن يتحدث بالأولى بطريقة عامة، لئلا تسبب دمارًا لمن يأتون بعده، ومن الجانب الآخر فلا يمتنع عنها تمامًا، لئلا يتعثر الذين كانوا في ذلك الوقت. فالذين يعبرون من الانحطاط إلى الكمال يستطيعون بتعليمٍ سامٍ منفرد أن يبلغوا إلى كل التعليم، وأما أصحاب الفكر الضعيف فإنهم ما لم يسمعوا دومًا أقوالاً في مستوى ضعيف لا يأتون إليه نهائيًا.

في الواقع بعد أقوال كثيرة مثل هذه (علوية) كانوا يريدون أن يرجمونه ويضطهدونه ويحاولون قتله ويعتبرونه مجدفًا... فعندما جعل نفسه مساويًا لله؛ قالوا: "هذا الإنسان يجدف" (مت ٩: ٣). وعندما قال: "مغفورة لك خطاياك" (يو ١٠: ٢٠) دعوه شيطانًا. وعندما قال أن من يسمع كلماته يصير أقوى من الموت، أو "أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ٨: ٥١) تركوه. مرة أخرى قاوموه حين قال إنه نزل من السماء (يو ٦: ٣٣، ٦٠).

الآن إذ لم يستطيعوا أن يحتملوا مثل هذه المقولات، مع أنه نطق بها نادرًا جدًا وبالجهد فلو أن كل محادثاته كانت مشحونة دومًا بالأمور العلوية، من هذا النسيج، فهل كانوا يلتفتون إليه؟

لذلك كان يقول: "كما أوصاني الآب أتكلم" (يو ١٣: ٣١)؛ "لم آتِ من نفسي" (يو ٧: ٣٨)، عندئذٍ كانوا يؤمنون.

واضح أنهم آمنوا مما أشار إليه الإنجيلي قائلاً: "إذ قال هذه الكلمات آمن به كثيرون" (يو ٥: ٣٠). فإن كانت الأقوال التي تحمل تواضعًا تجتذب الناس إلى الإيمان، والكلمات العلوية تفزعهم، لذلك نطق بالكلمات المتواضعة من أجل السامعين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من أجلنا قدم التشكرات لئلا نظن أن الآب والابن أقنوم واحد بعينه عندما نسمع عن إتمام ذات العمل بواسطة الآب والابن. لهذا فلكي يظهر لنا أن رد تشكراته ليست ضريبة يلتزم بها من هو في عجز عن السلطان، بل بالعكس أنه ابن اللَّه الذي ينسب لنفسه دومًا السلطان الإلهي، لذلك صرخ: "**لعازر هلم خارجًا**". هنا بالتأكيد أمرٍ لا صلاة[2].

القديس جيروم

❖ يصلي كابن الإنسان، ويأمر كابن الله[3].

---

[1] *Homilies on St. John, 64:1.*
[2] *Of the Christian Faith, 4:6:72.*
[3] *Of the Christian Faith, 3:4:32.*

القديس أمبروسيوس

❖ عندما يرفع أحد عينيه يليق به أن يرفعهما نحو السماء بطريقة لائقة، ويرفع أيضًا يدين مقدستين، خاصة عندما يقدم الصلوات بلا غضبٍ ولا جدال (١ تي ٢: ٨). فإنه عندما ترتفع العينان خلال التفكير والتأمل، واليدان ترتفعان خلال الأعمال، ترتفع النفس وتتمجد. وذلك مثل موسى الذي رفع يديه (خر ١٧: ١١)، ويقول الشخص: "ليكن رفع يدي كذبيحة مسائية" (مز ١٤٠: ٢)، فينهزم عماليق، وكل الأعداء غير المنظورين، وتنتصر الأفكار الإسرائيلية (المعاينة لله) التي فينا.[1]

العلامة أوريجينوس

"وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي،
ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني". [٤٢]

هنا يوضح أن العلاقة بين الآب والابن لا تستلزم مثل هذه الصلاة، لكن من أجل الحاضرين لكي يثقوا أنه على علاقة بالسماء.

❖ الاستماع هنا ليس عن موضوع طاعة، بل هو اتحاد أبدي. بنفس الطريقة فإنه يُقال عن الروح القدس أنه يستمع للآب ويمجد الابن. إنه يمجد، لأن الروح القدس علمنا أن الابن صورة اللَّه غير المنظور (كو ١: ١٥)، وبهاء مجده، ورسم جوهره (عب ١: ٣) [2].

القديس أمبروسيوس

❖ وماذا لدى السيد المسيح أكثر من رسله إن كان هو يعمل آياته بالصلاة؟

أليق ما يُقال إن أولئك عملوا المعجزات بالصلاة، لكنهم في أكثر أوقاتهم عملوا الآيات بدون صلاة، لما دعوا باسم يسوع فقط. فإن كان اسمه قد حمل قوة هذا مقدارها، فلو احتاج هو إلى صلاة، لما كان اسمه اقتدر على شيء، وحين خلق الإنسان إلى أية صلاة احتاج؟

أما عن معادلته لأبيه في الكرامة فتظهر في مواضعٍ كثيرة، لأنه قال: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" (تك ١: ٢٦)... وما الذي يكون أضعف منه إن احتاج إلى صلاة؟

فلننظر ما هي صلاته؟ قال: "**أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي**"، ومن الذي صلى في وقت من الأوقات بهذه الصلاة؟ فقبل أن يقول شيئًا قال "**أشكرك**"، فقد أوضح أنه لا يحتاج إلى صلاة، وقوله: "لأنك سمعت لي يوضح أنه ليس فاقدًا سلطانه، ولكن أظهر أنه مالك إرادة واحدة مع أبيه.

---

[1] *Commentary on John, Book 28:36 – 37.*
[2] *Of the Holy Spirit Book 2:12:137-138.*

فإن قلت: لِم اتخذ شكل صلاة؟ قلت لك: لا تسمع الجواب مني لكن منه، القائل: "**ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني**"، فقد وضع السبب الصادق لصلاته، لكي لا يظنوا أنه ضد الله، ولا يقولوا إنه ليس من الله[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم:**

لعازر هلم خارجًا". **[٤٣]**

كان يمكنه أن يقيم حبيبه لعازر بكلمة هامسة أو في صمت، لكنه صرخ بصوتٍ عظيم مناديًا حبيبه: "**لعازر هلم خارجًا**". ذلك لكي يتأكد الحاضرون أنه أقامه بسلطانه الشخصي، لم يستخدم اسم آخر، إنما يأمر فيقوم الميت. ولعله صرخ بصوت عظيم ليدرك الحاضرون أن نفس لعازر لم تكن داخل القبر، بل يناديها السيد لتخرج من الجحيم، كما من مكانٍ بعيدٍ. أيضًا لكي يدرك الحاضرون أنه ذاك الذي قال بإشعياء النبي: "أنا الرب وليس آخر، لم أتكلم بالخفاء في مكان من الأرض مظلم" (إش ٤٥: ١٨-١٩).

تكلم لكي ندرك أنه ذاك الذي في مجيئه الأخير يتكلم، فيسمع الأموات صوته ويحيون (يو ٥: ٢٥).

ناداه باسمه "**لعازر**" كمن يقيمه من نومٍ عميقٍ. يقول الله لموسى أنه يعرفه باسمه كعلامة اهتمامه به شخصيًا. لم يقل له "قم" بل "**هلم خارجًا**"، فحضرة المسيح واهب الحياة قدمت له الحياة، إنما صدر الأمر ليتحرك.

❖ لماذا صرخ بصوت عظيم كمن لم يرد أن يعمل بالروح ويأمر في صمت إلاَّ لأنه أراد أن يَظهر ما هو مكتوب: "في لحظة، في طرفة عين، عند البوق الأخير سيقوم من الأموات بغير فساد" (١ كو ١٥: ٥٢)؟ فإن رفع الصوت هو استجابة لدوي البوق. لقد صرخ "**لعازر هلم خارجًا**". لماذا أضاف الاسم إلاَّ لئلا يظن أحد أنه قام بدلاً من آخر، أو أن الإقامة تمت عرضًا وليس بالأمر[2].

القديس أمبروسيوس

❖ لم يقل السيد المسيح للعازر: "باسم أبي هلم خارجًا"، ولا قال "أيها الآب أقمه"؟ لماذا لم يستخدم كل هذه التعبيرات، وبعدما أخذ شكل من يصلي أظهر بكل أعماله سلطانه المستقل؟ لأن هذا

---

[1] *Homilies on St. John, 64:2.*
[2] *On Belief in the Resurrection, 2:77.*

أيضًا هو جزء من حكمته، **ليظهر بالكلمات تنازله، وبالأعمال السلطان**... فإذ لم يكن هناك أي اتهام ضده سوى أنه ليس من عند الله، وبهذا خدعوا كثيرين، لهذا أكد ببراهين كثيرة هذه النقطة بأقواله وذلك من أجل ضعفاتهم. فقد كان في سلطانه بطرق أخرى أن يظهر في نفس الوقت اتفاقه مع الآب وإظهار كرامته، لكن الجموع لم تكن بعد قد ارتفعت بعد[1].

❖ إنه لم يقل: "قم"، لكنه قال: "**هلم خارجًا**" مخاطبًا الميت كمن يخاطب حيًا، فما الذي يكون مساويًا لهذا السلطان؟

وإن كان قد فعل هذا بغير قوته، ماذا يكون له أكثر مما للرسل الذين قالوا: "لماذا تشخصون إلينا كأننا بقوتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشي؟" (أع ٣: ١٢)

لو أنه لم يعمل بقوته ولم يضف ما قاله الرسل عن أنفسهم لكانوا هم بالحقيقة حكماء أكثر منه، إذ يرفضون المجد. وفي موضع آخر يقولون لماذا يفعلون هذا؟ "نحن أيضًا بشر تحت الآلام مثلكم" (أع ١٤: ١٥). إذ لم يفعل الرسل شيئًا من أنفسهم لذلك تكلموا بهذه الطريقة، لكي يحثوا الناس على ذلك، أما بالنسبة له فعندما وُجدت مثل هذه الفكرة عنه، أما كان يجب عليه أن ينزع هذه الشكوك، لو أنه لم يفعل هذه بسلطانه؟

وإنما بالحقيقة فعل المسيح عكس ذلك عندما قال: "**لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا**" [٤٢]، لكي يؤمنوا أنه لا حاجة أن أصلي (أطلب)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الآن ما هو: "**هلم خارجًا**" إلاَّ إظهار ما هو مخفي؟

من يعترف يخرج خارجًا.

"**هلم خارجًا**"؛ ما كان يمكنه فعل ذلك لو لم يكن حيًا، وما كان يمكنه أن يكون حيًا لو لم يقم مرة أخرى. لهذا ففي الاعتراف إذ يفهم الإنسان نفسه يمجد الله[3].

❖ تأملوا حالة لعازر نفسه، فإنه خرج، ولكن بأربطته. كان حيًا بالفعل خلال الاعتراف، لكنه لم يصر حرًا بل كان متشابكًا إذ كان في أربطته. ماذا تفعل الكنيسة التي قيل لها: "ما تحلونه يكون محلولاً"، إلاَّ ما قاله الرب لتلاميذه: "**حلوه ودعوه يمشي**"؟[4]

---

[1] *Homilies on St. John, 64:2.*
[2] *Homilies on St. John, 64:3.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 17:2.*
[4] *Sermon on N.T. Lessons, 17:3.*

القديس أغسطينوس

❖ أتريد دليلاً أقوى على أن البعض يخلص بإيمان آخرين؟! لعازر مات، ومضى عليه يوم واثنان وثلاثة، وانحلت عضلاته ودب الفساد فعلاً في جسده. كيف يمكن لميت له أربعة أيام أن يؤمن، ويطلب بنفسه من المخلص؟

ولكن ما نقص عند الميت وُجد عند أختيه الحقيقيتين، فعندما أتى الرب سجدت الأخت أمامه. وعندما قال: "أين وضعتوه؟" أجابته: "**يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام**". فأجابها: "**إن آمنتِ ترين مجد اللّه**" فكأنه يقول لها: ليكن عندك الإيمان الذي يقيم جثة الميت.

كان لإيمان الأختين قوة عظيمة هكذا حتى أعاد الميت من أبواب الجحيم!

إن كان للبشر بالإيمان، واحد لحساب الآخر، يمكن أن يقوم الميت، أما يكون النفع أعظم إن كان لك إيمان خالص لأجل نفسك؟!

بلى، حتى وإن كنت غير مؤمن أو قليل الإيمان فإن اللّه محب البشر يتعطف عليك عند توبتك.

فمن جانبك، يليق بك أن تقول بذهن أمين: "أؤمن يا سيد، فأعن عدم إيماني" (مر ٩: ٢٤). فإنك محتاج أن تقول مثل الرسول: "يا رب زد إيماننا[١]". فإذ لك نصيب من جانبك، تتقبل النصيب الأعظم من اللّه[٢].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ لما كان "الرب يحل المسجونين" (مز ١٤٦: ٧)، ويهب راحة لمنسحقي الروح والمرتعب من كلماته (إش ٦٦: ٢)، ربما يقول لي أنا الراقد في قبر الخطية: "**جيروم، هلم خارجًا**"[٣].

❖ إذ لا أزال ملقيًا في مقبرة خطاياي، ومقيدًا بأربطة شروري، أنتظر أمر الرب الوارد في الإنجيل: "**جيروم، هلم خارجًا**"[٤].

القديس جيروم

❖ يا من ترقد في ظلمة الضمير وفي فساد خطاياك كما في سجن الجريمة، هلم خارجًا. لتعلن عن خطاياك فتتبرر. "الفم يعترف به للخلاص" (رو ١٠: ١٠). إن اعترفت عن دعوة المسيح

---

[١] راجع لو ١٧:٥.

[٢] مقال ٩:٥.

[3] *Letter 4:2.*

[4] *Letter 7:3.*

فستتكسر القضبان، وتنحل كل سلسلة، بل وتزول نتانة الفساد الجسدي الخطيرة[1].

القديس أمبروسيوس

"فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة،
ووجهه ملفوف بمنديل،
فقال لهم يسوع:
حلوه، ودعوه يذهب". [٤٤]

كيف خرج لعازر وهو مربوط اليدين والرجلين؛ إنه خرج كمن يحبو أو يعرج، وكان محتاجًا إلى من يحل رباطات الأكفان من جسمه.

بلا شك أن إقامة لعازر من الأموات أحدثت ضجة عظيمة في كل أورشليم التي جاء إليها كثيرون للاستعداد لعيد الفصح. انه ليس بالحدث الطبيعي، ولا بالمعجزة التي سبق أن شاهدها أحد، خاصة بعد أن اشتموا رائحة الفساد التي حلت بالجثمان.

❖ يقول يوحنا الرسول عن لعازر: "**فخرج الميت**" لنرى في فعل السيد المسيح شاهدًا له بسلطانه. وقوله: "**فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل**"، لكي لا يُظن أن الفعل خيالاً. فإن خروجه مربوطًا يبدو أنه ليس بأقل عجبًا من قيامته. وقول السيد المسيح للجمع: "حلوه" فلكي إذا لمسوه واقتربوا منه يعرفون بالحقيقة أنه هو ذاك. وقول السيد المسيح: "**ودعوه يذهب**"، لتعرف عزمه الخالي من التفخيم، لأنه ما اتبعه ولا اقتاده، ولا أراد أن يمشي معه حتى يريهم إياه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يلزمنا أن نهتم بهذا أيضًا، أن نقدم عملاً لائقًا بيسوع، فليس فقط نصلي لكي يصير الميت حيًا، بل أيضًا نصرخ إليه وندعو ذاك الذي في داخل الكهف والقبر إلى الأمور الخارج من القبر.

يلزمنا أن ندرك أنه يوجد لعازر كثيرون حتى الآن بعد أن صاروا أصدقاء يسوع، مرضوا وماتوا، وكموتى صاروا في القبر في أرض الأموات مع الموتى، ومؤخرًا صاروا أحياء بصلاة يسوع، ودعوا ليخرجوا من القبر إلى الخارج بصوت يسوع العالي.

من يثق في يسوع يخرج بالأربطة الخاصة بالموت من خطاياه السالفة، لكنه لا يزال مربوطًا حول

[1] *Concerning Repentance Book 2:7:57-58.*

وجهه، فلا يقدر أن يرى، ولا أن يمشى، ولا أن يفعل شيئًا ما بسبب أربطة الموت، حتى يأمر يسوع القادرين لكل يحلوه ويدعوه يمشي.[1]

❖ مثل هذا يخرج من أجل صوت يسوع، لكنه لا يزال مربوطًا برباطات خطاياه. إنه حي، لأنه تاب وسمع صوت يسوع، لكنه إذ لم يتحرر بعد من رباطات الخطية لا يقدر أن يسير في الحال بقدمين متحررتين، وبكونه لم يتحرر ليتمم الأمور الفائقة فقد ارتبطت يداه وقدماه بأربطة كأربطة الموتى.

مثل هذا الإنسان بسبب الموت الذي فيه ملتصقًا بأربطة يديه وقدميه تغطى وجهه بالجهالة، وارتبط به حوله.

لهذا فإن يسوع لا يرغب فيه أن يعيش فحسب ويبقى في القبر ويكون مربوطًا عن أمور الحياة التي في خارج القبر... لذلك يقول يسوع للقادرين أن يخدموه: "**حلوه ودعوه يمشي**" [٤٤[2].]

العلامة أوريجينوس

٤. أثر إقامة لعازر

"**فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم،**

ونظروا ما فعل يسوع،

آمنوا به". **[٤٥]**

كثير من أصدقاء مريم اليهود آمنوا به [٤٥]، أكثرهم كانوا قد جاءوا من أورشليم، أقرب مدينة إلى قرية عنيا، وقد عُرف شعب أورشليم بمقاومته للسيد المسيح. بينما قدم البعض تقريرًا عما حدث للفريسيين [٤٦]، الذين استدعوا مجمع السنهدرين للانعقاد [٤٧]، وخططوا لقتل يسوع [٤٨-٥٧]. لقد تنبأ قيافا رئيس الكهنة أنه ينبغي أن يموت واحد عن الشعب كله [٤٩-٥٢].

ثمر هذا العمل العجيب كالعادة يقدم رائحة حياة لحياة، ورائحة موت لموتٍ. كثيرون إذ نظروا ما صنع يسوع آمنوا به، بينما آخرون ذهبوا إلى رؤساء الكهنة والفريسيين، إما ليثيروهم أو ليقدموا شهادة عما حدث أو ليدعوهم للإيمان. وكان موقف رؤساء الكهنة والفريسيين مقاومًا للسيد المسيح.

شعرت المجموعة الأولى من المعزين أنه لا حاجة لاستشارة رؤساء الكهنة والفريسيين، وأنه يجب الكف عن مقاومة الحق الإلهي. صارت زيارة بيت الحزن علة تحولهم إلى الإيمان الحقيقي. وتحققوا

---

[1] *Commentary on John, Book 28:54.*
[2] *Commentary on John, Book 28:57 – 59.*

من قول الحكيم أن الذهاب إلى بيت النوح أفضل من الذهاب إلى بيت الوليمة (جا ٧: ٢). هؤلاء جاءوا بنيةٍ صادقةٍ لتعزية مريم ومرثا، فخرجوا متعزين بعمل الله والإيمان بالسيد المسيح واهب القيامة. فإن من يروي يُروى (أم ١١: ٢٥). لهذا وجب ألاَّ يكف أحد عن عمل الخير ما دام في استطاعته (أم ٣: ٢٧).

لماذا قال: "**جاءوا إلى مريم**" ولم يقل إلى "مرثا" أيضًا؟ ربما كانت مريم أكثر شهرة في أورشليم عن مرثا، فجاءت الأغلبية لتعزية مريم. هذا ويرى البعض أن مرثا تميل إلى العمل والحركة بينما مريم تميل إلى الجلسات الهادئة (لو ١٠: ٣٨–٤٠). والذي يميل إلى العمل لا يجد وقتًا حتى للقاء مع المعزين، أما الذي يميل إلى الهدوء فيود أن يجلس مع المعزين.

"**وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين،**

وقالوا لهم عما فعل يسوع". **[٤٦]**

تمثل هذه الجماعة الشكليين في العبادة، فالحق واضح، والعمل الإلهي ملموس، لكنهم وهم يعلمون مقاومة القيادات له ذهبوا يخبرونهم.

"**فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعًا وقالوا:**

ماذا نصنع، فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة". **[٤٧]**

لما كانت المعجزة تصرخ بالحق الذي لا يمكن مقاومته ولا إنكاره عقد رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعًا. أدركوا أن قرارات السنهدرين لن تجدي. فالشعب التف حوله وصار الخطر يمس حياة الأمة كلها وسلامها. لم يُعقد المجمع للاستشارة أو إصدار قرارات للشعب، إنما للتحرك العملي للخلاص من يسوع.

ألبسوا القضية جانبًا سياسيًا خطيرًا في تحليلٍ للموقف مغالط للحقيقة، وهو أن يسوع هذا لا يكف عن عمل آيات كثيرة وفريدة مثل شفاء المولود أعمى وإقامة لعازر من الأموات، الأمر الذي حول الجميع إليه، يؤمنون به ويقيمونه ملكًا، بكونه المسيا المنتظر الذي يقيم خيمة داود الساقطة. بهذا يفقد مجمع السنهدرين سلطانه، ويفقد القادة الدينيون سلطانهم. وإذ يشعر الرومان بإقامة ملك لليهود يدخلون بجيش، ويستولون على أورشليم ويهدمون الهيكل، ولا يوجد من يقاوم أو يعارض. هكذا يحتل الرومان الموضع سياسيًا ودينيًا.

❖ أخفت هذه القيادات مشاعر حسدهم وغيرتهم الشريرة تحت ستار الدفاع عن الأمة اليهودية

والهيكل الذي يعتبرونه أقدس موضع في العالم وأعظم مبنى وأفخمه.

انظر ماذا فعل اليهود، وقد كان واجبًا أن يُذهلوا ويتعجبوا من قيامة لعازر، إلا أنهم أرادوا أن يقتلوا من أقام ميتًا.

يا لغباوتهم إذ ظنوا أن يدفعوا إلى الموت من قهر الموت في أجسام آخرين.

وفي قول رؤساء الكهنة والفريسيين: "**ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة**" يدعونه إنسانًا... وقالوا لا ماذا نصنع؟ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا وتسترضوه وتسجدوا له، ولا تظنوه أيضًا إنسانًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**إن تركناه هكذا، يؤمن الجميع به،**

فيأتي الرومانيون، ويأخذون موضعنا وأمتنا". **[٤٨]**

يتساءل **العلامة أوريجينوس** عن هؤلاء القوم الذين مضوا إلى الفريسيين إن كانوا قد فعلوا هذا لكي يراجع الفريسيون أنفسهم ويؤمنوا، أم لكي يثيروهم بالأكثر ضده ويسرعوا بوضع الخطة للخلاص منه، وهو يميل إلى الرأي الثاني.

❖ ما خشاه رئيس الكهنة والفريسيون تحقق بطريقة رمزية. فإن كان رئيس الكهنة يمثل شهوات الجسد التي تقاوم شهوات الروح، فإنه لم يكن ممكنًا له أن يغلب رئيس الكهنة الأعظم ربنا يسوع المسيح، الذي بالحق احتل موضعه، لكن على مستوى سماوي أبدي. وعوض الفكر الفريسي الحرفي تمتعنا بالروح، فلم يعد للفريسيين موضع. أما أن يحتل الرومان موضع اليهود، فإن الرومان يمثلون كنيسة الأمم التي صارت إسرائيل الجديد، واحتلت موضع إسرائيل القديم كشعبٍ مقدسٍ كهنوتيٍ صاحب الوعود الإلهية.[1]

العلامة أوريجينوس

❖ "تورط الوثنيون في الدمار الذي عملوه، في الشبكة التي أخفوها انتشبت أرجلهم" (مز ٩: ١٥ *LXX*). هذا هو حال اليهود.

لقد قالوا أنهم يقتلون يسوع، لئلا يأتي الرومانيون ويأخذون موضعهم وأمتهم، وعندما قتلوه حدثت هذه الأمور لهم. عندما فعلوا هذا الذي حسبوا أنهم به يهربون، إذا بهم لم يفلتوا منها. الذي قُتل هو

[1] *Cf. Commentary on John, Book 28:86 – 97.*

في السماء، والذين قتلوه نصيبهم في جهنم[1].

❖ كأنهم قالوا: إذا رأى الرومانيون أن السيد المسيح مقلقًا للشعوب يظنون فينا العصيان عليهم، فيهدمون مدينتنا.

وأنا أسأل أحدهم: قل لي متى رأيت السيد المسيح يعلم بالعصيان؟ أما أشار بإعطاء الجزية لقيصر؟ أما أردتم أن تصيروه ملكًا فهرب؟ ألم يعش حياة بسيطة خالية من التباهي، ولم يمتلك منزلاً ولا شيئًا آخر من الممتلكات وأمثالها؟

فهذه الأقوال نطقوا بها ليس متوقعين أنها تحدث، لكنهم قالوها حسدًا، لأن من أبرأ المرضى وعلم الحياة الفاضلة وأشار بالخضوع للرؤساء، لا يثير عصيانًا، بل يهدم العصيان ويزيله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا،
كان رئيسًا للكهنة في تلك السنة:
أنتم لستم تعرفون شيئًا". [٤٩]

بحسب الشريعة يُقام رئيس الكهنة مدى الحياة (خر ٤٠: ١٥)، وذلك بالوراثة متسلسلاً من هرون وأبنائه. لكن في ذلك تدخلت السلطات الرومانية، وحملت سلطة عزل وإقامة رئيس الكهنة كما يحلو لهم وفي أي وقتٍ يشاءون، دون التزام بالشريعة سوى أن يكون من النسل الكهنوتي. جاء في يوسيفوس المؤرخ أن قيافا هو اسم الشهرة، وأن اسمه الحقيقي هو يوسف. كان رئيسًا للكهنة لمدة ثماني أو تسع سنوات، وغالبًا ما قام فيتايليوس *Vitellius* والي اليهودية بعزله[2].

لم يتطلع الرومان إلى السيد المسيح كمقاومٍ لمملكتهم، ولم تشغلهم شعبيته قط، لأنه نادى بالخضوع للسلطات ودفع الجزية لقيصر، بل طالب سمعان بطرس أن يدفع عن نفسه وعنه الجزية. وفي محاكمته نرى بيلاطس يبذل الجهد عدة مرات ليطلقه.

"ولا تفكرون إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب،
ولا تهلك الأمة كلها". [٥٠]

كان رئيس الكهنة يرتدي الصدرية التي بها الأوريم والتميم (خر ٢٨: ٣٠)، ويصلي إلى الله ليعطيه مشورة صادقة، لكن يبدو أن هذا الأمر كان قد انتهى تمامًا. فقدم رئيس الكهنة مشورته

[1] *Homilies on St. John, 65:1.*
[2] *Antiq. 18. c. 3.*

للمجمع لا خلال استشارة الله، بل خلال حسده الشرير. قدم ما يبدو حسب الفلسفة البشرية أنه منطقي وصادق مبني على فكرٍ سليمٍ، غير أنه في الحقيقة كان مبنيًا على مشاعر شريرة ورغبة قوية للخلاص من ذاك الذي سحب شعبيتهم وفضح شرهم. جاء في إشعياء النبي: "قد ارتد الحق إلى الوراء، والعدل يقف بعيدًا، لأن الصدق سقط في الشارع، والاستقامة لا تستطيع الدخول" (إش ٥٩: ١٤).

"**ولم يقل هذا من نفسه،**
بل إذ كان رئيسًا للكهنة في تلك السنة،
تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة". **[٥١]**

❖ لم يتكلم قيافا رئيس الكهنة من نفسه، ولا أدرك معنى ما قاله، مع أنه نطق بنبوة. وفي بولس أيضًا وجد بعض معلمي الناموس "وهم لا يفهمون ما يقولون، ولا ما يقررونه" (١ تي ١: ٧). لكن ليس هذا حال الإنسان الحكيم الذي يقول عنه سليمان في الأمثال: "الحكيم يفهم كلمات فمه ويحمل تعقلاً على شفتيه" (راجع أم ١٦: ٢٣)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ أرأيت كم هي قوة الرئاسة الكهنوتية، لأن قيافا لما تأهل لرئاسة الكهنوت، على الرغم من كونه خاليًا من أن يكون مؤهلاً لها تنبأ، غير عارفٍ ما قاله. فقد استخدمت النعمة فمه فقط، ولم تلمس قلبه الدنس. وآخرون كثيرون قالوا أشياء قبل كونها وتنبأوا، وكانوا قد فشلوا في أن يكونوا أهلاً لذلك، وهم: نبوخذنصر وفرعون وبلعام. أنظر كم هي قوة الروح، إذ اقتدرت أن تُسخر نية خبيثة للنطق بألفاظٍ مملوءة نبوة عجيبة[2].

❖ ماذا يعني: "**إذ كان رئيسًا للكهنة في تلك السنة**"؟ هذا الأمر كغيره قد فسد، فإنه منذ صارت تلك الوظائف موضوع شراء (بالمال)، لم يعودوا كهنة مدى حياتهم وإنما لمدة عام. ومع هذا كان لا يزال الروح حاضرًا في هذه الحالة. ولكن عندما رفعوا أيديهم ضد المسيح تركهم الروح وتحول إلى الرسل. هذا أعلنه الحجاب الذي انشق، وصوت المسيح القائل: "هوذا بيتكم يترك لكم خرابًا" (مت ٢٣: ٣٨). قال يوسيفوس الذي عاش فترة قصيرة بعد ذلك أن ملائكة معينين الذين بقوا معهم

[1] *Commentary on John, Book 28:172 – 174.*
[2] *Homilies on St. John, 65:1.*

لعلهم يرجعون (عن شرهم) تركوهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وليس عن الأمة فقط،

بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد". [٥٢]

جاءت هاتان العبارتان شرحًا يقدمه الإنجيلي يوحنا كيف استخدم الله حتى شر رئيس الكهنة للشهادة للحق، والتنبؤ عن عمل المسيح الخلاصي لحساب اليهود، بل ولحساب أبناء الله في كل العالم من اليهود والأمم معًا.

من هم أبناء الله المتفرقون؟ المؤمنون من كل الأمم، إذ يجتمعون معًا كأعضاء في جسد المسيح الواحد. يرى **العلامة أوريجينوس** أن إسرائيل حسب الجسد أيضًا بعد التشتيت يقبلون الإيمان بالمسيح ليجتمعوا معًا إلى واحد[2].

"فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه". [٥٣]

❖ بالحقيقة لقد طلبوا أن يفعلوا ذلك من قبل، إذ يقول الإنجيلي: "فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه" (يو ٥: ١٨)، وأيضًا قال (السيد): "لماذا تطلبون أن تقتلوني؟" (يو ٧: ١٩). كانوا قبلاً يطلبون ذلك أما الآن فإنهم قرروا ما قد صمموا عليه وتحركوا للعمل[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فلم يكن يسوع أيضًا يمشي بين اليهود علانية،

بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية إلى مدينة يقال لها أفرايم،

ومكث هناك مع تلاميذه". [٥٤]

"**أفرايم**" هي قرية صغيرة قريبة من بيت إيل، وقد ضمهما الكتاب المقدس معًا في ٢ أي ١٣: ١٩، وأيضًا في يوسيفوس[4].

يعتقد أنها ذات المدينة أو القرية الواردة في ١ مك ٥: ٤٦؛ ٢ مك ١٢: ٢٧. أُعطيت لسبط يهوذا (يش ١٥: ٩). يقول كل من **يوسابيوس والقديس چيروم** أنها على بعد حوالي ٢٠ ميلاً من أورشليم.

---

[1] *Homilies on St. John, 65:1.*
[2] *Cf. Commentary on John, Book 28:185.*
[3] *Homilies on St. John, 65:1.*
[4] *War, b 4, c. 8 s. 9.*

يرى البعض أنه مكث هناك من ٢٤ يناير إلى ٢٤ مارس، أي لمدة شهرين[١].

❖ أعتقد أن هذه الكلمات وما يشبهها سُجلت، لأن الكلمة يود أن يردنا عن التهور بسرعة شديدة وفي غير تعقلٍ للصراع مع الموت من أجل الحقٍ (سيراخ ٤: ٢٨) والاستشهاد.

فمن جانب من الصواب ألا تتجنب الاعتراف، وأيضًا ألا تتردد في الموت من أجل الحق، إن دخل إنسان في صراع من أجل الاعتراف بيسوع. ومن الجانب الآخر ليس بأقل صوابًا أيضًا أنه إذا وُجدت محنة عظيمة لا تسقط فيها، بل تتجنبها ما استطعت، ليس فقط لأن نتيجة ما سيحدث غير واضحة أمامنا، ولكن أيضًا لكي لا نكون مسئولين عن أن نثير الذين لا يريدون بالفعل أن يسفكوا دمنا، فيسقطون في هذه الجريمة، ويصيرون بالأكثر خطاة وأشرارًا، وذلك إن كنا نعمل ما هو لنفعنا ولا نبالي بالذين يتآمرون ضدنا للموت. بسببنا يسقطون في عقوبات أشد، إن ركزنا على أنفسنا ولا نعطي اعتبارًا لما يخص الآخرين، فنخلص أنفسنا بقتلنا بينما لا تكون هناك ضرورة تستدعي ذلك.[٢]

❖ "**أفرايم**" معناها "إثمار"، وهو أخ منسى الأكبر منه ويعني "نسيان". فإنه إذ ترك خلفه الشعب "كما في النسيان" جاءت ثمار الأمم. حينما حول الله أنهار إسرائيل إلى برية، ومصادر المياه إلى أرض جافة والأرض الخصبة إلى أرض قاحلة وذلك بسبب شر الساكنين فيها (مز ١٠٦: ٣٣–٣٨). لكنه يحول البرية التي للأمم إلى أحواض مياه، وأرضهم الجافة إلى مصادر حياة[٣].

العلامة أوريجينوس

"**وكان فصح اليهود قريبًا،**

فصعد كثيرون من الكور إلى أورشليم قبل الفصح ليطهروا أنفسهم". **[٥٥]**

❖ أراد اليهود أن يجعلوا يوم العيد قرمزيًا بدم الرب. فيه ذُبح الحمل الذي قدسه كيوم عيدٍ لنا بدمه. كانت هناك خطة بين اليهود لقتل يسوع، وذاك الذي جاء من السماء ليتألم أراد أن يقترب من موضع آلامه، لأن ساعة آلامه قد جاءت[٤].

القديس أغسطينوس

❖ يا له من تطهير عجيب بتصميمٍ لارتكاب جريمة، ونيات تنزع نحو القتل، وأيادي سافكة للدماء![٥]

---

[1] *cf. Adam Clarke Comm.*
[2] *Commentary on John, Book 28:192 – 194.*
[3] *Commentary on John, Book 28:214.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50:2.*
[5] *Homilies on St. John, 65:2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فكانوا يطلبون يسوع ويقولون فيما بينهم وهم واقفون في الهيكل:
ماذا تظنون هل هو لا يأتي إلى العيد؟" [٥٦]

ربما كان أهل أفرايم يطلبونه إذ فارق المدينة، لعله ذهب إلى أريحا أو إحدى نواحيها. ولعل الذين طلبوه هم من قبل رئيس الكهنة، كانوا يبحثون عنه ليخبروا رئيس الكهنة بالموضع الذي يقيم فيه أثناء الاحتفال بالعيد.

❖ جعلوا من الفصح فرصة للتخطيط ضده، وحسبوا وقت العيد وقت جريمة، فإنه سيسقط في أيديهم إذ يستدعيه موسم العيد[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الذين بحثوا عنه والذين لم يبحثوا عنه هم ملامون. لهذا ليتنا نطلب المسيح ليكون هو لنا، فنحفظه، لا لكي نقتله[2].

القديس أغسطينوس

"وكان أيضًا رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدروا أمرًا،
أنه إن عرف أحد أين هو، فليدل عليه لكي يمسكوه". [٥٧]

❖ ليأتوا إلى الكنيسة ويسمعوا منا أين هو، يسمعوا ذلك من الإنجيل... إنه رجل (صعد)، وهو حاضر هنا. لقد عاد لكنه لم يتركنا. لقد حمل جسده إلى السماء لكنه لم يسحب جلاله من العالم[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Homilies on St. John, 65:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50:3.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50:4.*

من وحيّ يو ١١

لتصرخ بصوت عظيم مناديًا باسمي:

هلم خارجًا!

❖ مريم ومرثا تبعثان إليك رسالة من أجل أخيهما:

هوذا الذي تحبه مريض!

ها إخوتي المجاهدون يطلبون عني أمامك.

وإخوتي الراحلون في الفردوس يشفعون أمام عرشك.

من يقدر أن يقيمني من مرضي سواك يا طبيب النفوس والأجساد!

❖ دبّ المرض في كل كياني،

احتلّ فكري وقلبي وكل حواسي.

واحتلّ الفساد داخلي.

من ينقذني من هذا الجسد الفاسد إلا أنت يا أيها القيامة!

❖ لتنطلق يا أيها السماوي إلى قبري!

فقد سببتُ انزعاجًا حتى لنفسك!

فإني موضوع حبك!

لتصرخ بصوتك الإلهي مناديًا اسمي،

ولتقل: "هلمّ خارجًا".

عبورك إلى قبري وهبني القيامة بعد الموت،

لا يكون للموت وجود في حضرة القيامة!

أعترف بخطيتي، وأتمتع بالحلّ الرسولي حسب وعدك:

ما حللتموه على الأرض يكون محلولاً في السماء!

❖ بك أتمتع بالحياة المُقامة المتهللة!

نعم، رددت لي بهجة خلاصك.

وتحوّل المأتم إلى عيدٍ لا ينقطع!

أختاي على الأرض وفي الفردوس تمجدانك،

أنت مخلص النفوس من فساد الموت!

❖ ليس لي ما أنطق به،
صارت حياتي الجديدة شهادة حيّة لأعمالك الفائقة.
ليؤمن الكثيرون بك،
إذ يروك متجليًّا في ضعفي!
وليثر عدو الخير وجنوده،
فإنه لا يحتمل نور القيامة فيّ!

❖ أخيرًا اسمح لي أن أعبر معك على القبور،
لتنادي كل شخص باسمه،
ما أعذب صوتك لي، وأنت تصرخ:
"هلمّ خارجًا!
يا له من محفلٍ ممتعٍ،
إذ تخرج النفوس من قبورها مشرقة ببهائكّ
عِوض الفساد تتمتع بشركة طبيعتك الإلهية!
فيتحوّل الكثيرون إلى عروس سماوية،
مهيأة ومعدة للعرس الأبدي غير المنقطع!

الأصحاح الثاني عشر

عشاء في بيت لحم

خُتم الأصحاح السابق بصورة قابضة حيث بدأت الحرب الجدية ضد يسوع من القيادات اليهودية للخلاص منه، إذ حسبه الكتبة والفريسيون خائنًا للمجمع. لكن جاء هذا الأصحاح يكشف عن وجود أناس أمناء يشهدون للحق، فيمجدون السيد ويشهدون له وسط هذا الجو من البغض والكراهية.

جاءت الشهادة لمجده على كل المستويات: المستوى الفردي كأخت لعازر، والمستوى الجماعي كموكب أورشليم، المستوى الخارجي (اليونانيون)، كما تشهد له السماء، وأنبياء العهد القديم، وبعض الرؤساء، وأخيرًا السيد المسيح يشهد لنفسه.

١. سكب الطيب على قدمي يسوع ١-١١.
٢. دخوله أورشليم منتصرًا ١٢-١٩.
٣. تكريم اليونانيين ليسوع ٢٠-٢٦.
٤. تمجيد السماء ليسوع ٢٧-٣٦.
٥. شهادة الأنبياء لمجده ٣٧-٤١.
٦. تمجيد بعض الرؤساء له ٤٢-٤٣.
٧. شهادة المسيح لنفسه ٤٤-٥٠.

١. سكب الطيب على قدمي يسوع

"ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا،
حيث كان لعازر الميت الذي أقامه من الأموات". [١]

بعد إقامة لعازر قام السيد المسيح بزيارة ودية لبيت لعازر قبل الفصح بستة أيام، وهو في بيت عنيا على مقربة من أورشليم. جاءت زيارته هذه **كإعداد للاحتفال بالفصح**، ليعلمنا أن نهتم بإعداد أنفسنا للمناسبات الروحية.

هذا ومن جانب آخر إذ جاءت الساعة لصلبه جاء بنفسه وهو يعلم أنهم سينصبون له الشباك، وهو قادر أن يفلت منها ويحطمها، لكنه جاء إلى العالم خصيصًا لتقديم نفسه ذبيحة حب عنا.

وهي **زيارة صداقة** لبيتٍ محبوبٍ لديه جدًا، "بيت لعازر ومريم ومرثا"، لأنه يعلم أنه بعد قليل

سيفارقهم حسب الجسد. إنها زيارة وداعية، يترك بصمات حبه وكلمات تعزية وداعية تسندهم في يوم التجربة الذي كاد أن يحل.

أخيرًا فقد جاء إلى بيت عنيا بعد إقامته للعازر **لكي يتابع آثار عمله**، وكأنه جاء لكي يسقي ما قدس زرعه حتى يأتي بالثمر اللائق.

جاء السيد المسيح في السبت اليهودي حيث يُحتفل بالفصح في اليوم السادس من زيارته. كان الوقت قد أزف لتختار كل أسرة الحمل الذي يُقدم فصحًا في العيد، وكان يلزم حفظه خمسة أيام عن الحظيرة. وها هو حمل الله الفصح الحقيقي، يأتي بنفسه ليعزل نفسه، مسلمًا نفسه في أيدي محبيه لمسحه بالطيب والدموع في اليوم التالي من وصوله. بإرادته كرس حياته مبذولة فصحًا عن العالم كله. وقد جاء موكب دخوله إلى أورشليم في السبت المسيحي (أحد الشعانين) في اليوم التالي من زيارته لبيت عنيا.

"**فصنعوا له هناك عشاء،**

وكانت مرثا تخدم،

وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه". **[٢]**

قدمت الأسرة ذبيحة شكر عملية لذاك الذي أقام رب البيت، فصنعوا عشاء، وقام الثلاثة بأدوار مختلفة. لعازر بين المتكئين يشهد للمسيح الذي أقامه من الأموات، ومرثا تخدمه، ومريم تعلن حبها له بسكب الطيب على قدميه. يرى البعض أن هذه الوليمة هي بعينها التي تمت في بيت سمعان الأبرص (مت ٢٤: ٦). لكن يرى البعض أن الوليمتين مختلفتان، فالوليمة هنا تمت في بيت لعازر وأختيه بدليل قيام مرثا بالخدمة. الوليمة المذكورة في إنجيل متى كانت في اليوم الثالث من أسبوع الفصح، أما هذه فتمت قبل الفصح بستة أيام. وأن الوليمتين تمتا في بيت عنيا، مريم سكبت هنا منًا أي حوالي الرطل من الطيب، وفي الوليمة الثانية سكبت بقيته كله (مر ١٤: ٣).

لقد خدمت مرثا المائدة تعبيرًا عن تقديرها العظيم للسيد. حسبت ذلك كرامة لها أن تخدم السيد، أيا كانت الخدمة. لقد سبق أن قارن بين خدمتها وجلسة أختها مريم عند قدميه، قائلاً لها: أنت تهتمين بأمور كثيرة، أما مريم فاختارت النصيب الصالح الذي لن ينزع عنها، مع هذا لم تترك الخدمة.

"**وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه**" **[٢]**. وجوده هو برهان على حقيقة قيامته التي وهبه إياها السيد المسيح. لقد جلس يأكل مؤكدًا أن الرب أقامه فعلاً.

❖ إنه يتلهف أن يعيد زيارته لذاك الذي أُقيم من الأموات، ويفرح بعطية الحياة المتجددة، إنه يأتي

إلى الوليمة التي تعدها كنيسته له، بمناسبة ذاك الذي كان ميتًا فوجد بين الجالسين مع المسيح[1].

القديس أمبروسيوس

❖ واضح أن الوليمة كانت في بيت مرثا، إذ أن الذين أحبوا المسيح وهو أحبهم قبلوه عندهم.

قوله: "**وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه**"، كان في هذا دلالة على صدق قيامته، إذ يعيش ويأكل بعد أيام كثيرة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كلما أقام شخصًا من الأموات أمر السيد بتقديم طعامٍ له ليأكل، لئلا يُظن أن القيامة خيال. ولهذا السبب وُصف لعازر بعد قيامته أنه كان في وليمة مع ربنا[3].

القديس جيروم

"**فأخذت مريم منًا من طيب ناردين خالص كثير الثمن،**

ودهنت قدمي يسوع،

ومسحت قدميه بشعرها،

فامتلأ البيت من رائحة الطيب". **[٣]**

المن: وزن يوناني وروماني يساوي نحو مائة درهم.

الناردين: نوع من الأطياب الثمينة التي تنافس بها القدماء، وذُكر في سفر نشيد الأناشيد (١: ١٢؛ ٤: ١٣-١٤). أما كونه خالصًا فيعني أنه نقي غير مضاف إليه شموع أو راتنجات ليصير كالمرهم.

عبَّرت مريم عن حبها بسكب رطلٍ من طيب ناردين خالص كثير الثمن، حيث دهنت قدميه ومسحتهما بشعر رأسها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب. قدمت أغلى ما لديها لتكريم السيد. إنها لم تدهن رأسه كالعادة المتبعة، بل في حبٍ عميقٍ دهنت قدميه. حتمًا إن سكب رطل طيب نقي تدفق على ثياب السيد المسيح، وامتلأ البيت كله برائحته الطيبة. وكما تقول النفس البشرية عن عريسها الملك: "مادام الملك في مجلسه، أفاح نارديني رائحته" (نش ١: ١٢).

لقد سكبت مريم طيب حبها الخالص ولازالت رائحته الطيبة تملأ بيت الرب عبر الأجيال، يشتمه

---

[1] *Concerning Repentance 2:7:60.*
[2] *Hom. on St. John, 65:2.*
[3] *Against Jovinianus, 2:17.*

الآب إذ يحمل رائحة المسيح الذكية (٢ كو ٢: ١٥)، ونشتمه نحن المؤمنون بعد كل القرون، فنشتهي أن نقدم حياتنا كلها رائحة حب خالص نحو ذاك الذي بادرنا بحبه.

❖ مرثا خدمت، من هذا يتضح أن الوليمة كانت في بيتها... مريم لم تخدم، إذ كانت تلميذة. هنا أيضًا سلكت بطريقة أكثر روحانية. فإنها لم تخدم كما لو كانت قد دُعيت لتفعل هذا، ولا قدمت خدماتها مشاعة لكل الضيوف بوجهٍ عامٍ، وإنما كرمت ذاك وحده. اقتربت إليه ليس كإنسانٍ بل بكونه إلهها. لهذا سكبت عليه دهن الطيب ومسحته بضفائر رأسها، لم تمارس هذه أفعال معتقدة فيه مثلما ظن الكثيرون[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الطيب هو البرّ، كان وزنه **منًا** (رطلاً)، لكنه طيب من ناردين خالص كثير الثمن... أصل الكلمة "**خالص**" في اليونانية ندعوها "الإيمان". أنتم تطلبون أن تصنعوا البرّ، فإن البار بالإيمان يحيا (رو ١: ١٧).

امسحوا قدمي يسوع، أي اقتفوا إثر خطوات الرب بحياة صالحة.

امسحوا قدميه بشعوركم، بما هو فائض لديكم، قدموه للفقراء بهذا تمسحون قدمي الرب. لأن الشعر يبدو كأنه أمر زائد في الجسد. لتقدموا شيئًا من الفيض الذي لديكم. إنه فائض عندكم، لكنه ضروري بالنسبة لقدمي الرب.

ربما قدما الرب على الأرض في احتياج. فإنه عن من يقول إلاَّ عن أعضائه: "ما فعلتموه بأحد اخوتي الأصاغر فبي فعلتم" (مت ٢٥: ٤٠)؟ إنكم تقدمون مما هو فائض عنكم، لكنكم تقدمون ما هو مُستحب لقدميه[2].

❖ "**فامتلأ البيت من رائحة الطيب**" [٣]. العالم يمتلئ بسمعته الشخصية الصالحة، لأن السيرة الصالحة كرائحة طيب مبهجة. الذين يسلكون في الشر ويحملون اسم مسيحيين يسيئون إلى المسيح. عن هؤلاء قيل أنه بسببهم يُجدف على اسم الرب (رو ٢: ٢٤). إن كان بمثل هؤلاء يجدف على اسم الله، فإنه خلال الصالحين يُكرم اسم الله.

استمعوا إلى الرسول وهو يقول: "نحن رائحة المسيح الذكية في كل موضع". كما جاء في نشيد الأناشيد: "اسمك دهن مهراق" (نش ١: ٣).

---

[1] *Hom. 65. PG 59: 391.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50: 6.*

القديس أغسطينوس

❖ هذا العطر لا يختلف عن عطر العروس الذي أفاح رائحة العريس. "مادام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته" (نش ١: ١٢).

جاء في الإنجيل إن سكب الطيب على رأس ربنا قد أفاح رائحة ذكية في أرجاء المنزل حيث أقيمت المأدبة. يبدو أن المرأة ساكبة الطيب قد تنبأت بسرّ موت المسيح. وقد شهد الرب لعملها هذا قائلاً، "إنما فعلت ذلك لأجل تكفيني" (مت ٢٦: ١٢).

المنزل الذي امتلأ بهذه الرائحة يمثل الكون بأكمله، العالم كله: "**حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم**"، تنتشر رائحة عملها هذا مع الكرازة بالإنجيل، ويصير الإنجيل "**تذكارًا لها**"، إذ أن النارديين في نص نشيد الأناشيد يفيح رائحة العريس لعروسه، وفى الإنجيل أيضًا تصير رائحة المسيح الذكية التي ملأت كل المنزل كطيبٍ يطَّيب كل جسد الكنيسة في كل المسكونة والعالم أجمع[١].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ [في حديثه الموجه إلى الإمبراطور ثيؤدوسيوس كتب:]

لذلك أيها الإمبراطور الآن أوجه كلماتي ليس فقط عنك بل إليك، إذ تلاحظ كيف بكل حزم يريد اللَّه أن يحاكم، فإنه بقدر ما قد صرت ممجدًا بالأكثر يليق بك أن تخضع لخالقك بالكامل، إذ هو مكتوب: "عندما يحضرك الرب إلهك إلى أرض غريبة، وتأكل ثمر الآخرين لا تقل: بقوتي وبري أعطاني هذه، إنما الرب إلهك هو الذي أعطاك إياها". فالمسيح بمراحمه وهبك هذه، لذلك فحبًا في جسده أي الكنيسة أعط ماءً لقدميه، قبِّل قدميه، فليس فقط تعفو عمن سقط في خطية بل أيضًا بواسطة حبك للسلام تصلحهم وتهبهم راحة.

اسكب دهنًا على قدميه، لكي ما يمتلئ كل البيت الذي يجلس فيه المسيح برائحة طيبك، ويُسر كل الجالسين معه برائحتك الذكية. بمعنى كرِّم المذلولين، حتى تفرح الملائكة بالعفو عنهم، إذ يفرحون بخاطئ واحدٍ يتوب (لو ١٥: ١٠)، ويُسر الرسل، ويمتلئ الأنبياء بالبهجة[٢].

القديس أمبروسيوس

"**فقال واحد من تلاميذه،**

وهو يهوذا سمعان الإسخريوطي المزمع أن يسلمه". [٤]

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٣.

[2] *St. Ambrose: Letter 50:26.*

❖ إذ فاحت رائحة المسيح الذكية صارت للبعض رائحة حياة لحياة، ولآخرين رائحة موتٍ لموتٍ (٢ كو ٢: ١٤-١٦). هذه الرائحة الذكية صارت رائحة موت ليهوذا.

القديس أغسطينوس

"لماذا لم يُبع هذا الطيب بثلاث مائة دينار،
ويُعطَ للفقراء؟" [٥]

وسط هذا الجو السماوي، رائحة المسيح الذكية التي تسحب القلوب نحو السماء، وُجدت رائحة نتانة الإصرار على الطمع والسرقة مع روح الخيانة تنبعث من قلب تلميذ يبدو من خاصة المسيح. لا يستطيع القلب أن يحتمل رائحة المسيح الذكية واهبة الحياة، فتصير بالنسبة له رائحة موتٍ لموتٍ (٢ كو ٢: ١٦).

لم يسترِح يهوذا الخائن لهذا التصرف، وحسبه تبديدًا لمبلغٍ كبيرٍ كهذا، إذ حسب ثمن الطيب بحوالي ٣٠٠ دينارًا، كان يمكن تقديمه للفقراء، ولم يستطع أن يتلمس ثمن الحب الذي لا يُقدر بثمن. كان يهوذا رسولاً وكارزًا بالإنجيل، لكنه لا يحب روح التكريس والحب. تحولت الكرازة عنده إلى مهنة وعمل رسمي، لا تحمل رائحة طيب الحب التي تملأ بيت الرب "الكنيسة".

لقد وجد الحجة التي يتذرع بها ليهاجم عمل المحبة، فبدا كمن هو مترفق بالفقراء. فإنه حتى الشيطان يحول نفسه كما إلى ملاك نور. استخدم الحكمة البشرية، فحسب خدمة الفقراء ضد إظهار الحب للسيد المسيح، خافيًا في أعماقه طمعه وحبه للمال، وأنه لص يسرق ما بالصندوق.

لم يكن يحتمل هذا الخائن عمل الحب، حيث تسكب مريم طيبًا يمكن أن يُباع بثلاثمائة دينارًا، بينما قام هو ببيع السيد نفسه بثلاثين من الفضة. هي وضعت الثلاثمائة دينارًا تحت قدمي سيدها وحسبت ذلك كلا شيء، أما هو فوضع سيده تحت ثلاثين من الفضة وحسب سيده كلا شيء أمام هذا المبلغ التافه.

"قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء،
بل لأنه كان سارقًا،
وكان الصندوق عنده،
وكان يحمل ما يُلقى فيه". [٦]

يرى البعض أن كلمة "**إسخريوطي**" معناها "حامل الصندوق".

لم يحمل يهوذا حنوًا على الفقراء، ولا اهتمامًا بهم، وإنما كانت خدمة الفقراء فرصة لسرقة المال.

يتساءل البعض: لماذا عهد إليه السيد المسيح الصندوق، ولم يعهد به إلى بطرس أو يوحنا أو غيرهما ممن هم أهل الثقة؟ ربما لأن يهوذا اشتهى هذا العمل، فنال سؤل قلبه. ولعل السيد المسيح سمح له بذلك حتى لا يكون له عذر في بيع سيده، لأنه لم يكن في عوزٍ.

تبقى الكنيسة عبر كل العصور تضم قلة مقدسة تلقي بكل ما لديها تحت قدمي السماوي، فتفوح رائحة حبهم، وتملأ بيت الرب برائحة المسيح الساكن في قلوبهم. وتضم أيضًا من يختفون وراء الشكليات وصناديق الفقراء ليسلبوا حق المسيح ويبيعونه بثمن عبدٍ، ولا يقوم بفضحهم، لعلهم يرجعوا إلى أعماقهم، ويكتشفوا شرهم وتتجدد حياتهم بالتوبة وبالرجوع إلى مخلصهم.

❖ أطال الرب أناته على يهوذا الشيطان واللص والخائن له. لقد سمح له أن يُقبل بين الرسل الأبرياء ما يعرفه الأمناء كمكافأة لهم (يقصد جسد الرب ودمه)[1].

❖ انظروا الآن وتعلموا أن يهوذا هذا لم يصر فاسدًا فقط في الوقت الذي فيه قبل رشوة اليهود وخان ربه... لم يهلك في ذلك الحين وحده، بل كان بالفعل سارقًا وشريرًا حين كان يتبع الرب، إذ تبعه بجسده لا بقلبه. لقد أكمل عدد ١٢ للرسل، لكن لم يكن له نصيب في البركة الرسولية... عند رحيله خلفه آخر فكمل العدد الرسولي[2].

❖ لماذا كان للرب صندوق، هذا الذي تخدمه الملائكة، إلاَّ ليعلن بصراحة أن كنيسته تلتزم فيما بعد أن يكون بها مستودع للمال؟

لماذا أعطى اللص هذه المسئولية إلاَّ ليعلم كنيسته طول الأناة في احتمال اللصوص؟

لكن ذاك الذي اعتاد أن يختلس مالاً من الصندوق لم يتردد في أن يسلم ربه من أجل المال[3].

القديس أغسطينوس

❖ محبة المال أمر مروع، فإنها تفسد الأعين والآذان، وتجعل البشر أردأ من الوحوش المفترسة، فلا تعطي للإنسان أن يضع في اعتباره ضميره ولا الصداقة ولا الزمالة ولا خلاص نفسه، وإنما تسحبه من هذا كله، كسيدة عنيفة تستعبد من تأسرهم...

لقد جعلت جيحزي أبرص بدلاً من كونه تلميذًا ونبيًا، وأهلكت حنانيا (وسفيرة) معه، وجعلت يهوذا خائنًا.

---

[1] *Letters, 43.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50: 10.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50: 11.*

محبة المال أفسدت قادة اليهود... جبلت ربوات الحروب، وملأت الطرق بالدماء، والمدن بالنحيب والمراثي[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال يسوع:**

اتركوها، إنها ليوم تكفيني قد حفظته". **[٧]**

بينما دانها يهوذا حاسبًا أنها تصرفت بغير حكمةٍ، وبددت المال فيما لا ينفع، وكان يجب تقديمه للفقراء، إذا بالسيد المسيح يعلن أنها قامت بعملٍ روحي نبوي فائق، فقد تنبأت عن تكفينه. خلال حبها تلامست مع آلام السيد المسيح وموته ودفنه، وبتصرفها أعلنت عن رائحة الخلاص الذكية.

لم نسمع قط أن إنسانًا يُكفن، ويُدهن جسده للتكفين، وهو بعد حيّ، أما السيد المسيح فحسب هذا الطيب تكفينًا لجسده الذي لن يرى فسادًا. لقد سلم جسده المبذول طعامًا روحيًا عند تأسيسه سرّ الأفخارستيا في خميس العهد، والآن إذ بذل جسده بإرادته يعلن عن تكفينه. هكذا يؤكد السيد إرادته المقدسة الحرة في قبول الموت والدفن من أجل العالم ليهبهم قوة قيامته وبهجتها.

❖ قول السيد المسيح عن مريم "**اتركوها، إنها ليوم تكفيني قد حفظته**" ذكر الدافع لما فعلته المرأة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ انظروا يا إخوة، فإنه لم يقل له: "إنك تقول هذا من أجل لصوصيتك". لقد عرفه أنه لص. ومع هذا لم يخَوِّنه بل بالأحرى احتمله، مقدمًا لنا مثالاً للصبر في احتمال الأشرار في الكنيسة[2].

القديس أغسطينوس

"**لأن الفقراء معكم في كل حين،**

وأما أنا فلست معكم في كل حين". **[٨]**

حمل هذا القول إشارة خفية للعملين، فمن جهة عمل يهوذا المختفي وراء تظاهره بحب الفقراء بينما يقوم بتسليم سيده للموت في خيانة بشعة، والثاني عمل مريم الرائع حيث تلقفت هذا الجسد المُسلم للموت لتكرمه بأغلى ما لديها، الطيب الكثير الثمن. إنه يوبخ يهوذا سرًا، لأنه يدعي حب الفقراء، ويكرم مريم، لأنها وجدت فرصة لا تتكرر "**لست معكم في كل حين**".

لقد كفنت مريم جسد مسيحها وهو حيّ، فنالت مديحًا من فم السيد نفسه. كفن نيقوديموس ويوسف

---

[1] *Homilies on St. John, 65 : 3.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50: 11.*

الرامي جسد السيد بعد موته، فنالوا كرامة لكنها لا تقارن بالكرامة التي نالتها مريم. هي قدمت رطلاً من الطيب وهما قدما مائة رطل، لكن التقدمة الأولى للجسد الحي فاقت كثيرًا التقدمة الثانية.

مريم لا تزال تدعونا أن نطيب جسد المسيح الحي في أعضائه الفقراء والمساكين والمتألمين والمطرودين والذين ليس لهم من يسأل عنهم، فقد وعدنا الله: "لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض، لذلك أنا أوصيك قائلاً: افتح يديك لأخيك المسكين والفقير في أرضك" (تث ١٥: ١١). ويدعونا نيقوديموس ويوسف الرامي أن نطيب جسده في الأعضاء التي رحلت، أي الشهداء والقديسين.

لا يمكن أن نمارس عملاً على حساب الآخر، إذ حبنا للفقراء يتناغم مع حبنا للقديسين الذين لا يزالوا أحياء يمارسون الحب لله كما لكل البشرية بالصلاة والشكر الدائم.

❖ أراد المسيح أن يحد من شره المتزايد، مستخدمًا تواضعًا عظيمًا نحوه. لذلك لم يذّكره بالسرقة مع أنه يعرفها، وهكذا وضع عبارة تحجز رغبته الشريرة، وتنزع عنه كل دفاع عن نفسه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بخصوص حضوره الإلهي معنا، فالمسيح حاضر على الدوام، وبخصوص حضوره في الجسد، بحق قال لتلاميذه: "**لست معكم في كل حين**" [٨].

القديس أغسطينوس

"**فعلم جمع كثير من اليهود أنه هناك،**
فجاءوا ليس لأجل يسوع فقط،
بل لينظروا أيضًا لعازر الذي أقامه من الأموات". **[٩]**

سمع كثير من اليهود بقصة إقامة لعازر من الأموات، إذ كانت موضوع حديث المدينة، فتقاطروا لا ليروا يسوع وحده بل وذاك الذي أقامه من الأموات. لم يأتوا ليسمعوه، بل لينظروا ويتأكدوا من قصة الإقامة من الأموات. لم يأتوا ليلقوا أيديهم عليه، ولا ليخبروا القيادات ضده، بل ليكرموه. جاء البعض لكي يثبتوا إيمانهم بالمسيح بأن يسمعوا معجزة الإقامة من فم لعازر نفسه، وآخرون بحب الاستطلاع جاءوا يتأكدون كيف يقوم إنسان من الموت، وماذا رأى في موته، وما هي أخبار العالم الآخر. صار لعازر في أيام العيد هذه عرضًا عجيبًا يريد كثيرون أن يروه ويسمعوه.

"**فتشاور رؤساء الكهنة ليقتلوا لعازر أيضًا**". **[١٠]**

[1] *hom. 65. PG 59: 391- 392.*

كتب **القديس جيروم** رسالة إلى مارسيللا *Marcella* يمتدح فيه بلاسيللا *Blaesilla* ابنة باولا *Paula* فقد انتقل زوجها بعد سبعة شهور من زواجها، وأصيبت بمرضٍ خطيرٍ دفعها إلى الإيمان وتكريس طاقاتها لحساب المسيح، فعانت الكثير من الهجوم على تصرفاتها. حسبها **القديس جيروم** لعازر الجديد حيث تمتعت بما هو أشبه بالقيامة من الأموات.

❖ كانت حياتها السابقة تتسم بنوع من الإهمال، وقد تقيّدت بأربطة الغنى، ورقدت كمن هي ميِّتة في قبر العالم. لكن يسوع تحرك في ضيق وانزعج بالروح وصرخ: "بلاسيلا، هلم خارجًا". لقد قامت عند دعوته، وخرجت وجلست تأكل مع الرب (يو ١٢: ٢). في غضب هدّدها اليهود، يطلبون قتلها، لأن المسيح أقامها (يو ١٢: ١٠). إنها تكتفي بأن يعطي الرسل المجد للَّه. بلاسيلا تعرف أنها مدينة بحياتها لذاك الذي رد لها الحياة. إنها تعرف أنها تقدر الآن أن تحتضن قدمي ذاك الذي منذ قليل كانت ترهبه كديّان لها... أيّة تعزية لها في كلماتهم (للمقاومين لها) التي هي أخف من الدخان؟[1]

القديس جيروم

❖ أما كان يستطيع المسيح الرب القادر أن يقيم من الأموات أن يقيم من يُقتل (أي يقيم نفسه حين طلب اليهود قتله)؟

حينما كنتم تعدون موتًا عنيفًا للعازر، هل كنتم تجردون الرب من سلطانه؟

إن كنتم تظنون أن الميت غير المقتول فانظروا فقط إلى هذا، أن الرب فعل الأمرين، فأقام لعازر حين كان ميتًا، وأقام نفسه حين قُتل[2].

القديس أغسطينوس

"لأن كثيرين من اليهود كانوا بسببه يذهبون،

ويؤمنون بيسوع". [١١]

إذ التهبت قلوب الكثيرين بالشوق نحو رؤية يسوع والإيمان به تزايد بالأكثر حسد رؤساء الكهنة، وتشاوروا معًا، فلم يجدوا سبيلاً آخر للخلاص من هذا الموقف سوى قتله. لقد بذلوا كل الجهد لتشويه صورته أمام الجموع حتى يتخلى الكل عنه، لكن ذهبت هذه كلها هباءً، خاصة بإقامة لعازر من الموت. لم يكن يوجد دليل على كونه المسيا مثل إقامته الأموات، واهبًا للحياة، لأنه هو الحياة.

---

[1] *Letter 38:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 50: 14.*

٢. دخوله أورشليم منتصرًا

"وفي الغد سمع الجمع الكثير الذي جاء إلى العيد أن يسوع آت إلى أورشليم". [١٢]

"فأخذوا سعوف النخل،

وخرجوا للقائه،

وكانوا يصرخون:

أوصنا،

مبارك الآتي باسم الرب، ملك إسرائيل". [١٣]

كان سعف النخيل يشير إلى النصرة، لهذا دعا شيشرون إنسانًا نال جوائز كثيرة "رجل السعف الكثير". لقد غلب السيد قوات الظلمة بموته، لهذا استحق أن يحملوا سعف النخيل أمامه.

هذا وحمل سعف النخيل كان يمثل دورًا رئيسيًا في الاحتفال بعيد المظال، فكان علامة للبهجة بالعيد. وكأن المسيح هو عيدنا، مفرح قلوبنا.

يشبه سليمان الحكيم النفس المحبوبة لعريسها السيد المسيح بالنخلة: "قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها" (نش ٧: ٨).

اعتاد الأقباط في أحد الشعانين أن يتباروا في اقتناء السعف وجدله وتزيينه بالورود ووضع "قربان على شكل صليب" فيه... كعلامة مبهجة لاستقبال النفس لعريسها الغالب، وبهجة القلب بالملك السماوي، مخلص النفوس من الفساد. ولا يزال كثيرون يحتفظون بالسعف المجدول من أحد الشعانين حتى يحل أحد الشعانين التالي، علامة استمرارية الترحيب بالملك في القلب كما في الأسرة داخل البيت.

قدموا صرخات مستقبلية مقتبسة من مز ١١٨: ٢٥-٢٦. هكذا جاء لقاء الشعب متناغمًا مع الفكر الكتابي، إذ لمسوا فيه أنه المسيا المنتظر، بينما أصيبت القيادات الدينية بالعمى الروحي.

مع أنه جاء فقيرًا بلا مجد زمني، لكن الشعب استقبله كملكٍ مخلصٍ لإسرائيل. أدركوا أنه الملك البار القادم باسم الرب (مز ٢: ٦). قبلوا مملكته بكل قلوبهم، عبروا عن ذلك بقولهم "**أوصنا**" أو "هوشعنا"، وتعني "خلصنا".

فتح الشعب قلوبهم ليدخل فيها رب المجد، وكأنهم ترنموا مع المرتل قائلين: "ارتفعي أيتها الأبواب الدهرية فيدخل ملك المجد... الرب القدير الجبار، الرب الجبار في القتال" (مز ٢٤: ٧-٨).

❖ سعف النخيل هو رمز للمديح يشير إلى النصرة، إذ جاء الرب للنصرة على الموت بالموت،

وبغلبة صليبه يهزم رئيس الموت.

الهتاف الذي استخدمه الشعب المتعبد هو "هوشعنا"؛ البعض ممن يعرفون العبرية يرون أنه يشير إلى الذهن في حالة من اليقين، وذلك كما في لساننا (اللاتيني) صيغ للتعجب ففي حزننا نقول: "وأسفاه"، وفي فرحنا: "ها!" وفي دهشتنا: "رائع!"، وفي تعجبنا: "ياه!" هكذا هذه الكلمة تدخل في نفس الفصيلة حيث لا توجد ترجمة لها في اليونانية أو اللاتينية، مثل غيرها: "من يقول لأخيه: رقا!" لأن هذه أداة تعجب تعبر عن مشاعر الغضب[1].

❖ "**مبارك الآتي باسم الرب، ملك إسرائيل**" [١٣]. بالأحرى يفهم "**باسم الرب**" أنه "باسم الله الرب" كما يمكن أن يفهم على أنه باسمه هو، بكونه هو الرب[2].

❖ أية محنة ذهنية عانى منها رؤساء اليهود وهم يسمعون جمهورًا عظيمًا كهذا يعلنون أن يسوع هو ملكهم!

لكن أية كرامة ينالها الرب ليكون ملكًا لإسرائيل؟

أي أمر عظيم لملك الأبدية أن يصير ملكًا للبشر؟

فإن ملوكية المسيح على إسرائيل ليس بقصد نوال جزية، ولا بتقديم سيوف في أيدي الجنود، ولا لهزيمة أعدائه في حرب علنية، لكنه هو ملك إسرائيل في ممارسته سلطانه الملوكي على طبيعتهم الداخلية، وفي تدبير اهتماماتهم الأبدية، وفي جلب الذين لهم الإيمان والرجاء والمحبة متركزة فيه إلى ملكوته السماوي. لهذا فإنه بالنسبة لابن الله، المساوي للآب، الكلمة الذي به كان كل شيء، وبمسرته صار ملكًا لإسرائيل، هو عمل فيه تنازل وليس فيه ارتفاع له. إنه سمة حنو، وليس تزايد في السلطة. فإن ذاك الذي كان يُدعى ملك إسرائيل على الأرض، يُدعى رب الملائكة في السماء[3].

القديس أغسطينوس

"**ووجد يسوع جحشًا،**

فجلس عليه كما هو مكتوب". **[١٤]**

اعتاد السيد المسيح أن يدخل مشيًا على قدميه، لكنه الآن يمتطي جحشًا في تواضع عجيب. لم يأتِ راكبًا مركبة كسليمان (نش ٣: ٩–١٠) بأعمدة من فضة وقواعد من ذهب ومغشاة بالأرجوان. لم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 3.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 4.*

يكن مجده ماديًا، لأن مملكته ليست من هذا العالم، لهذا لم يحمل مظهر الأبهة.

"**فجلس عليه**"، لم يقل "ركبه"، إذ أراد الإنجيلي أن يبرز موقفه كملكٍ يتربع على العرش.

ما ورد هنا باختصار ذكره الإنجيليون الآخرون في شيء من التوسع (مت ٢١: ١–١٦؛ مر ١١: ١–١١؛ لو ١٩: ٢٩–٤٨).

"**لا تخافي يا ابنة صهيون،**

هوذا ملكك يأتي جالسًا على جحش أتان". **[١٥]**

يدعو النبي ابنة صهيون أن تتطلع إلى ملكها المتواضع والوديع الذي يملأ حياتها ببهجة النصرة، لذا يدعوها ألا تخاف، بل تفرح وتتهلل، فقد جاء لكي ينزع عنها القلق والخوف. لقد تحققت نبوة زكريا النبي: "ابتهجي جدًا (لا تخافي) يا ابنة صهيون... هوذا ملكك يأتي إليك، وهو عادل ومنصور، وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان" (زك ٩: ٩). إنه لم يأتِ لكي ينتقم من الأعداء، يهودًا كانوا أم رومانيين، وإنما جاء ليحل بسلامه السماوي ومجده العلوي عليهم. هذا ما عبَّر عنه الإنجيلي لوقا: "سلام في السماء، ومجد في الأعالي" (لو ١٩: ٣٨). ويعلق **القديس أغسطينوس** على ذلك قائلاً:

❖ قيل لها "**لا تخافي**"، لتعرفيه ذاك الذي الآن تمجديه، ولا تعطي للخوف طريقًا إذ يأتي ليتألم. فإنه بسفك دمه يُمحى ذنبك، وتُرد لك حياتك. أما عن الجحش ابن الأتان الذي لم يركبه إنسان قط (كما ورد في الإنجيليين الآخرين) فيفهم شعوب الأمم التي لم تتقبل ناموس رب، وأما الأتان... فيشير إلى شعبه الذي جاء من إسرائيل وخضع لمعرفة مزود سيده[1].

القديس أغسطينوس

❖ "**لا تخافي يا ابنة صهيون**"، لأن ملوك اليهود كانوا غالبًا ظالمين وطامعين، إذ سلموهم لأعدائهم وجعلوهم تحت الجباية عند محاربيهم... لكن ليس هذا هو حال ذاك الوديع والمتواضع كما يظهر من ركوبه الأتان، لأنه لم يدخل المدينة يقتاد جيشًا، لكنه جلس على الأتان فقط[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً،**

ولكن لما تمجد يسوع حينئذٍ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 5.*

[2] *Hom. 66. PG 59: 395- 396.*

وأنهم صنعوا هذه له". [١٦]

لم يستطِع التلاميذ إدراك حقيقة الأحداث وما وراءها، وكيف تحققت نبوات العهد القديم إلاَّ بعد أن تمجّد السيد المسيح بقيامته وفتح قلوبهم بالحب وأذهانهم بروح المعرفة، فأدركوا أنهم تمتعوا بالعهد الجديد الذي اشتهاه الأنبياء قديمًا.

يقدم لنا الإنجيلي هذه الملاحظة أن التلاميذ لم يفهموا الأحداث أنها تتمم النبوات حتى حلّ الروح القدس عليهم بعد أن تمجد المسيح بصلبه وقيامته فأدركوها. كانوا كأطفالٍ صغارٍ يتصرفون وهم لا يدركون الأمور، لكنهم إذ بلغوا النضوج عرفوا ما وراء الأحداث من أسرارٍ إلهية، وعرفوا خطة الله للخلاص.

❖ أرأيت كيف أن التلاميذ جهلوا أكثر النبوات عن السيد المسيح إذ لم يعلنها لهم؟ ولا حين قال: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه" (يو ٢: ١٩) عرفوا ذلك. يقول إنجيل آخر: "كان هذا الأمر مُخفي عنهم" (لو ١٨: ٣٤)، ولن يعرفوا أنه كان ينبغي أن يقوم من الأموات...
انظر إلى فلسفة البشير، كيف أنه لم يخجل من إشهار غباوة التلاميذ الأولى.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يخجل القديس يوحنا من الاعتراف بجهل التلاميذ، فقد عاد وأظهر معرفتهم، لأنه لم يضع في اعتباره تكريم الناس، بل كان يدعو لمجد الروح.

القديس كيرلس الكبير

اختلفت وجهات النظر نحو هذا الموكب الفريد:

١. تطلع إليه **السيد المسيح** أنه موكب المجد خلال الصليب، فقد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان بتقديم نفسه حمل الفصح عن العالم كله، ليعبر بالمؤمنين من عبودية إبليس إلى كنعان السماوية.

٢. وتطلع إليه **رجال العهد القديم** وهم في الجحيم، ليروا تحقيق الرموز والنبوات، وقد حانت اللحظات التي طالما ترقبوها بشوقٍ عظيمٍ، ليأتي من يخرج بهم إلى الفردوس، حاملاً إياهم غنائم سماوية.

٣. وتطلع **التلاميذ** إلى الموكب، ولم يفهموا شيئًا! دخلوا في حالة ارتباك شديد!

٤. تطلع **رؤساء الكهنة والفريسيون** إلى الموكب أنه دمار تام لمراكزهم ومصالحهم الشخصية.

٥. تطلعت **الجموع** إلى الموكب أنه دخول إلى عصرٍ جديد، حيث جاء من يخلصهم من الاستعمار الروماني، ويهبهم مجدًا زمنيًا!

٦. أخيرًا تطلع **السمائيون** إلى الموكب وهم يدهشون أمام تواضع كلمة الله المتجسد، وهو ملك السماء والأرض، يجلس على جحش ويزفه بشر ضعفاء... ماذا وراء تواضعه هذا وحبه للبشر؟!

"وكان الجمع الذي معه يشهد أنه دعا لعازر من القبر،
وأقامه من الأموات". [١٧]

خروج هذه الجموع الغفيرة للقائه كان بسبب إقامة لعازر، وفي نفس الوقت أعطى الفرصة للحديث عن إقامة لعازر من الأموات، فتعلق به كثيرون، وتزايد بالأكثر حسد الفريسيين، وفقدوا كل أملٍ لهم في محاصرة شعبية يسوع المسيح والحدّ من سلطانه، فلم يكن أمامهم سوى الإسراع بقتله والخلاص منه. قُدمت عظات كثيرة للشعب، وصنعت آيات لا حصر لها، لكن إقامة لعازر من الأموات جذبت جماهير نحو السيد المسيح. فإنه ليس من أمر يحطم الإنسان مثل الموت، ولا ما يبهجه مثل القيامة من الموت.

❖ لم يرد كثيرون أن يتغيروا في الحال حتى آمنوا بالمعجزة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"لهذا أيضًا لاقاه الجمع،
لأنهم سمعوا أنه كان قد صنع هذه الآية". [١٨]
"فقال الفريسيون بعضهم لبعض:
انظروا إنكم لا تنفعون شيئًا،
هوذا العالم قد ذهب وراءه". [١٩]

الآن تحققت كل مخاوف القيادات الدينية، خاصة رؤساء الكهنة والفريسيين، فقد كاد الأمر يفلت من أيديهم، إذ تحرك الشعب ككل في موكب هزَّ مدينة أورشليم. فمن جانب اكتشف الفريسيون حقيقة أنفسهم: "**إنكم لا تنفعون شيئًا**" [١٩]، ومن الجانب الآخر شعر الفريسيون كأن العالم كله ذهب وراءه، وهنا يقصد به العالم اليهودي، أي كل إنسان، قد التصق به كتلميذٍ له. وأن كل تأخير في الخلاص منه يمثل خطرًا يصعب علاجه.

❖ قول الفريسيين: "**هوذا العالم قد ذهب وراءه**" قصدوا بالعالم هنا الجمع، لأن من عادة الكتاب المقدس أن يدعو الخليقة والسالكين في شرهم عالمًا، فقد قال السيد المسيح لتلاميذه: "لا يقدر

[1] *Homilies on St. John, 66: 2.*

العالم أن يبغضكم، ولكنه يبغضني أنا، لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة" (يو ٧: ٧).

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. تكريم اليونانيين ليسوع

"وكان أناس يونانيون من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد". [٢٠]

اشتهى بعض الدخلاء من اليونانيين أن يروا يسوع. وقد جاء تصرفهم هذا ربما بعد يومٍ أو يومين من دخول السيد المسيح إلى أورشليم، إذ قضى اليوم الأول في عملٍ عام.

يرى البعض أنهم يهود، تشتتوا وارتبطوا بالثقافة الهيلينية، لهذا دُعوا يونانيين مثل خصي كنداكة وكرنيليوس. كما كان اليهود يقدرون بعضًا من الأمم الذين يميلون العبادة لله طبيعيًا، دون معرفتهم للناموس الموسوي والأنبياء، هكذا كان الأمم أيضًا يقدرون اليهود الأتقياء ويتركونهم يتعبدون في وسطهم، بل ويسمحون لهم بحضور اجتماعاتهم الدينية قدرما يُسمح لهم. هؤلاء كانوا يحسبون غرباء في نظر اليهود.

ويرى آخرون أنهم أمميون، ففي العصور المتأخرة سمح اليهود لبعض الأمم الأتقياء أن يأتوا إلى الهيكل في العيد، وكأنهم كانوا يتنبأون عن تحطيم الحجاب الفاصل بين الأمم واليهود في المسيح يسوع. هؤلاء كانوا يقدمون إلى الهيكل للعبادة دون أن يأكلوا من الفصح.

في ميلاده اجتذب المجوس من الشرق، حيث قدموا له هدايا وسجدوا له، كما شهدوا له بطريق أو آخر في القصر الملكي وبين الكهنة ورؤساء الكهنة. وعند صلبه اجتذب اليونانيين من الغرب ليتمتعوا برؤيته. وكأنه قد جاء السيد ليضم الشرق مع الغرب، ويصير الكل رعيةً واحدةً لراعٍ واحدٍ. بميلاده وصلبه فتح طريق الإيمان للأمم كي يتمتع الكل به. صار من حق الرجل المكدوني أن يتراءى لبولس الرسول في حلمٍ ليصرخ: "أعبر وأعنا" (أع ١٦: ٩).

لم يشترك هؤلاء اليونانيون في موكب دخول السيد المسيح أورشليم، ربما لأن الموكب كان قاصرًا على اليهود، لكنهم عرفوا كيف يشتركون فيه روحيًا، حين أعلنوا شوقهم الصادق لرؤيته. وكأنهم يصرخون بلغتهم مع اليهود "أوصنا (خلصنا) في الأعالي"!

مع شدة الازدحام حول شخص يسوع المسيح لم ييأس هؤلاء اليونانيون من تحقيق شهوة قلوبهم، وهي رؤية يسوع.

❖ إذ اقتربوا من أن يصيروا دخلاء (أي يتهودوا) جاءوا إلى العيد. وإذ بلغهم تقريرًا عنه قالوا: "**نريد**

أن نرى يسوع" [٢١][1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فتقدم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل،**

وسألوه قائلين:

يا سيد نريد أن نرى يسوع". **[٢١]**

يظن البعض أن لهؤلاء اليونانيين معرفة سابقة بفيلبس، وأنهم عاشوا بجوار بيت صيدا في جليل الأمم. وربما حضروا بعض اجتماعات السيد المسيح هناك ورأوا فيلبس قريبًا منه.

جاءت رسالتهم لفيلبس تحمل تقديرًا خاصًا للسيد المسيح وشوقًا للقاء معه والحديث معه على انفراد. جاءوا إلى العيد ومع هذا لم تشغلهم عظمة بناء الهيكل ولا ازدحام أورشليم الشديد بالقادمين للعيد، ولا رؤية آيات وعجائب حتى بواسطة شخص المسيح، إنما يريدونه هو، يشتهون رؤيته والحديث معه.

للأسف حتى في الأعياد المسيحية خاصة الكبرى كالميلاد والقيامة كثير من المسيحيين ينشغلون بالعيد دون أن يشتهوا رؤية السيد المسيح، واللقاء معه شخصيًا.

يرى البعض أنهم من فينيقية أو سوريا، ربما من سكان ديكابوليس *Dicapolis* بجوار بحيرة جنيسارت وبيت صيدا.

❖ انظروا كيف يريد اليهود أن يقتلوه، والأمم أن يروه.

لكن وجد أيضًا من اليهود من صرخ: "مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل".

هنا يوجد من هم من أهل الختان ومن هم من أهل الغرلة، أشبه بحائطين في بيت لهما اتجاهان مختلفان، يلتقيان معًا بقبلة السلام في الإيمان الواحد بالمسيح.

لنستمع إذن لصوت حجر الزاوية: "**قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان**" [٢٣]. ربما يظن البعض أنه يتحدث عن نفسه أنه تمجد، لأن الأمم يريدون أن يروه. الأمر ليس هكذا، بل رأى الأمم من كل الدول يأتون إلى الإيمان بعد آلامه وقيامته. وكما يقول الرسول: "إن العمى قد حصل جزئيًا لإسرائيل، إلى أن يدخل ملء الأمم" (رو ١١: ٢٨). فقد انتهز الفرصة عند مجيء اليونانيين الذين يريدون أن يروه ليعلن عن ملء الأمم المستقبل، ويعد عن اقتراب الساعة التي فيها يمجد ذاته والتي

[1] *Homilies on St. John, 66: 2.*

عند حدوثها في السماء تأتي الأمم إلى الإيمان[1].

القديس أغسطينوس

"فأتى فيلبس، وقال لأندراوس،
ثم قال أندراوس وفيلبس ليسوع". [٢٢]

ما أروع أن يعمل الخدام معًا، فيتقدمون معًا إلى شخص السيد المسيح يقدمون النفوس المشتاقة إلى معرفته.

ربما تشاور فيلبس مع أندراوس عما يفعلاه، لأنه كثيرًا ما سمعه يقول أنه جاء لخراف إسرائيل الضالة. فاتفقا أن يقدما الأمر للسيد المسيح.

❖ تقدم فيلبس إلى أندراوس بكونه سابقًا له، وأخبره بالأمر. لكنه لم يتحرك بسلطانٍ إذ سمع القول: "في طريق الأمم لا تمضوا" (مت ١٠: ٥) لهذا تشاور مع التلميذ وتحدث معه، وقدما الأمر للسيد[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وأما يسوع فأجابهما قائلاً:
قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان". [٢٣]

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح سبق فأمر تلاميذه: "في طريق الأمم لا تمضوا" (مت ١٠: ٥)، لكن إذ حان وقت الصلب انفتح الباب للأمم. لقد أتت الساعة للكرازة الأمم.

قبل السيد طلبهما، وجاء قوله: "**قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان**" [٢٣]، مشجعًا الأمم أن يتقدموا للتعرف عليه والإيمان به. لقد رأى السيد الحقل قد أينع للحصاد، وجاء وقت قبول الأمم في الإيمان. إنها ساعة مجد له، حيث تُفتح أبواب كنيسته أمام كل البشرية، وإن كان هذا قد جاء كرد فعل لرفض اليهود له وخروجهم من حظيرة الإيمان. هذا يتحقق بموت السيد المسيح ودفنه وقيامته كحبة حنطة في الأرض لتأتي بثمرٍ كثيرٍ.

كان التلاميذ والرسل هم بكور اليهود القادمين للإيمان به، وجاء هؤلاء اليونانيون كبكورٍ للأمم الذين يدخلون الإيمان بعد أن شق الصليب الحجاب الحاجز بين السماء والأرض، وبين اليهود والأمم.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 8.*
[2] *Homilies on St. John, 66: 2.*

كان لابد للسيد أن يتمجد بموته وقيامته حتى يؤسس كنيسته المجيدة من اليهود والأمم معًا. حبه ألزمه بالموت، لكي يخلص العالم الذي دمره الفساد، يغسله من خطاياه ويبرره ويقدسه ويمجده في السماء، هذه هي الحنطة الكثيرة، حصاد عمله الخلاصي.

لقد أتت الساعة التي لن يدرك أعماقها وأسرارها سوى الله نفسه؛ هذه الساعة هي ساعة المجد للآب كما للابن. لقد مضت حوالي ثلاث سنوات يقدم فيها السيد أعماله العجيبة وكلماته مع الجموع، الآن حان للبذرة أن تقع في الأرض وتدفن وتموت. جاء وقت المعصرة، فقد سبق فرآه إشعياء النبي وسمعه يقول: "قد دُست المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن أحد معي" (إش ٦٣ : ٣).

قد أتت الساعة ليبسط يديه على الصليب، ويتمم المصالحة بين الآب وبني البشر، كما يضم اليهود والأمم معًا أعضاء في جسده الواحد.

❖ أتريد أن تقتنع أنه تألم بإرادته؟ آخرون لا يعلمون ماذا يحدث لهم، لذلك ماتوا بغير إرادتهم، أما هو فسبق وقال: "ابن الإنسان يُسلم ويصلبوه". ألا تعرف لماذا؟ "صديق الإنسان" هذا لم يمنع الموت؟ لكى لا يهلك العالم كله في خطاياه. "ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يُسلم ويصلب" وأيضًا: "تقدم صاعدًا إلى أورشليم" (مت ٢٠: ١٨؛ لو ١٩: ٢٨).

أتريد حقًا أن تعرف أن الصليب مجد يسوع؟ استمع إلى كلماته لا إلى كلماتي، فإذ كان يهوذا خائن رب البيت على وشك القيام بالخيانة، وقد جلس على مائدته، وشرب كأس نعمته عوض الخلاص، تقدم ليسفك الدم البريء. "رجل سلامتي الذي وثقت به أكل خبزي، ورفع علىّ عقبه" (مز ٤١: ٩). لم يكن يده بعد قد تركت عطية نعمته، مدبرًا ثمنًا لخيانته بموته... وإذ سمع "أنت قلت" (مت ٢٦: ٥) خرج. عندئذٍ قال يسوع: "**قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان**". لترى يا عزيزي كيف عرف أن الصليب هو المجد اللائق به.

إن كان إشعياء لم يخجل من نشره إلى أجزاء، فهل يخجل المسيح من موته عن العالم؟!

"الآن يتمجد ابن الإنسان" (يو ١٣: ٣)، لا لأنه لم يكن ممجدًا من قبل، بل كان ممجدًا بالمجد الذي له من قبل كون العالم (يو ١٧: ٥). كان ممجدًا على الدوام إذ هو اللَّه، والآن يتمجد حاملاً صبره.

إنه لم يسلم حياته رغمًا عنه، ولا قبل الموت قسرًا بل بموافقته. اسمع ماذا يقول؟ "لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن آخذها أيضًا" (يو ١٠: ١٨). إنني أسلمها لأعدائي باختياري، وإلا ما كان يتم ذلك.

لقد جاء بغرض وضعه هو بنفسه أن يتألم، مسرورًا بعمله النبيل، مبتسمًا بتاجه، معتزًا بخلاص البشري، دون خجلٍ من الصليب إذ هو لخلاص هذا العالم. لم يكن إنسانًا عاديًا بل اللَّه المتأنس[1].

القديس كيرلس الأورشليمي

"الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الارض وتمت،
فهي تبقى وحدها،
ولكن إن ماتت تأتي بثمرٍ كثيرٍ". [٢٤]

مهما بلغ العالم لا يستطيع أن يدرك سرّ حصاد ثمر كثير من حبة حنطة واحدة، ولا كيف يتحول الحصاد إلى لحم ودم وعظام في أجسام البشر والحيوانات. هكذا يبقى سرّ موت المسيح وقيامته كأساس إقامة الكنيسة المجيدة فوق كل فكرٍ بشري.

لقد جاء اليونانيون ليروه، فلماذا قدم لهم مثل الحنطة؟ لقد أراد أن يؤكد لهم أنهم لا يقدرون أن يروه كما هو ما لم يعبر هو إليهم بموته وقيامته، فيدخل إلى عالمهم ويحملهم فيه. هو الطريق الذي يسحب قلوبهم إليه، يعبر إليهم، فيتحدثوا به ويعبروا معه إلى حضن الآب كثمرٍ متزايد. يصيرون "من لحمه وعظامه" (أف ٥: ٣٠).

- إن قلت وما معني قول السيد المسيح: "**إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتى بثمرٍ كثيرٍ**"؟ أجبتك: إنه يتكلم عن صليبه، كأن السيد المسيح يقول: إن من شأن هذا الحادث أن يتحقق في الحنطة، إنها إذا ماتت تأتي بثمرٍ كثيرٍ، فإن كان هذا يحدث في البذور، فأليق وأوجب أن يكون فيّ، إلا أن تلاميذه لم يعرفوا الأقوال التي قالها.

- الحياة الحاضرة حلوة ومملوءة باللذة، لكن ليس بالنسبة للكل، بل للذين هم متمسكون بها. لذلك إذا ما تطلع أحد إلى السماء، ويرى الأمور الجميلة هناك، للحال يحتقر هذه الحياة ولا يبالي بها. وذلك كما أن جمال أي شيء يكون موضوع إعجاب من لا يرى ما هو أجمل منه، لكن إذ يظهر ما هو أفضل منه يُحتقر الأول. فإن اخترنا أن نتطلع إلى ذلك الجمال ونلاحظ سمو المملكة هناك، فإننا في الحال نتحرر من القيود الحالية، فإن التعاطف مع الأمور الزمنية هو نوع من القيود...

[1] مقال ١٣ :٦.

ماذا يقول: "إن لم تحتملوا موتي ببسالة، بل إن لم تموتوا، لا تقتنوا شيئًا"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ صارت الحنطة في أرض يهوذا نادرة، لأن حبة القمح قد ماتت هناك، وفي بيت الأرملة الوثنية فاض الزيت كجداول[2].

القديس جيروم

"**من يحب نفسه يهلكها،**

ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية". **[٢٥]**

من يحب نفسه أكثر من حبه للسيد لمسيح، أو من يحب حياته الزمنية على حساب مجده الأبدي يهلك نفسه. أما من يهلك نفسه كحبة الحنطة، فيشارك السيد المسيح آلامه وموته، ممجدًا مخلصه، ينعم بالحياة الأبدية.

موت السيد المسيح غيَّر مفاهيم الموت ومعاييره كما غيَّر نظرتنا إلى الحياة، فأصبح الموت ضرورة لازمة للتمتع بالحياة المثمرة الكاملة. حيث لا موت فلا حياة صادقة. وحين يدفن الإنسان الأنا، يعلن المسيح "الحياة" ذاته فيه. وحينما يطلب الإنسان "ذاته" لا يجد المسيح له مكانًا فيه، فيفقد الإنسان مصدر حياته.

من يموت عن حياته القديمة ويُصلب عن العالم، تتجلى حياته الجديدة التي في المسيح يسوع ليختبر عربون الحياة العتيدة.

❖ إن سألت: وكيف من يحب نفسه يهلكها؟! أجبتك: من يتمم شهواتها الشنيعة، من يسمح لها خارج الواجب، ذاك هو الذي يحبها فيهلكها، ولهذا السبب توصينا الحكمة فتقول: "لا تكن تابعًا لشهواتك، بل عاصيًا أهواءك. فإنك إن أبحت لنفسك الرضى بالشهوة جعلتك شماتة لأعدائك" (يشوع بن سيراخ ١٨: ٣٠-٣١)، لأن الشهوات تحجز النفس عن الطريق المؤدية إلى الفضيلة.

وقوله "**ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية**"؛ إن قلت: وما معنى "**ومن يبغض نفسه**"؟ أجبتك: من لا يخضع لها، ولا يطعها متى أمرته بفعل الأفعال الضارة.

لم يقل: "من لا يخضع لها"، لكنه قال: "**ومن يبغض نفسه**"، لأنه كما أننا لا نحتمل أن نسمع صوت الذين نبغضهم، ولا أن نبصر وجوههم، كذلك يجب علينا أن نرجع عن أنفسنا بشدةٍ إذا أمرتنا

---

[1] *Homilies on St. John, 67 : 1.*
[2] *Letter 54:16.*

بمخالفة وصايا الله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن كنت تحب، فلتكن مستعدًا أن تُفقد. إن أردت أن تقتني الحياة في المسيح، لا تخف من الموت من أجل المسيح[1].

❖ بالتأكيد إنه إعلان عميق وغريب عن قياس حب الإنسان لحياته الذي يقوده إلى تدميرها، وبغضه لها الذي يضمن حفظها! إن كنت تحب حياتك بطريقة خاطئة بالحقيقة أنت تبغضها، أما إن كنت تحبها بطريقة صالحة فإنك فيما أنت تبغضها بالحق تحبها. يا لسعادة الذين يبغضون حياتهم فيحفظونها، فلا يسبب حبهم دمارًا لها[2].

القديس أغسطينوس

"إن كان أحد يخدمني فليتبعني،
وحيث أكون أنا هناك أيضًا يكون خادمي،
وإن كان أحد يخدمني يكرمه الآب". [٢٦]

بعد أن قدم السيد مفهومًا جديدًا للموت وللحياة من خلال صلبه وموته وقيامته، الآن يقدم لنا مفهومًا جديدًا للخدمة. فالخدمة ليست غيرة مجردة للعمل لحساب الآخرين، إنما هي اتحاد مع الخادم الحقيقي الفريد، يسوع المسيح، ومرافقته وتبعيته في طريق جثسيماني.

إن أراد أحد أن يخدم السيد المسيح ويكرز به، يلزمه أولاً أن يتبعه، أي يتتلمذ له ويتعلم منه ويطيعه ويسلك معه طريق الصلب والدفن، ليقوم معه حاملاً ثمارًا كثيرة. ليترك الخادم ملذات العالم، متطلعًا إلى السعادة الأبدية. ليتحد مع الأبدي، فينال مجدًا أبديًا يهبه له الآب القدوس نفسه.

بهذا المفهوم الجديد يجد الخادم مكافأته في الخدمة، حيث يجد نفسه في رفقة مسيحه، يشاركه آلامه كما مجده. حقًا إن من يتمتع بالشركة مع السيد المسيح ويكرس حياته للشهادة له ينال كرامة في عيني الله أكثر مما يظن في نفسه أو في عيني الناس. "والفاهمون يضيئون كضياء الجلد، والذين ردوا كثيرين إلى البرّ كالكواكب إلى أبد الدهور" (دا ١٢: ٣). وكما يقول السيد المسيح نفسه: "أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا" (يو ١٧: ٢٤). في طريق الخدمة يجد الخادم فرصته الفريدة للحديث مع الخادم الحقيقي، يسوع المسيح. في الطريق يعلن المسيح عن نفسه

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 10.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 10.*

وعن أبيه، فيتمتع الخادم بالمعرفة الإلهية.

من يحفظ كرم الله ويعمل فيه يكرمه الله نفسه، "حافظ سيده يكرمه" (أم ٢٧: ١٨).

هكذا حوَّل السيد المسيح أنظار اليونانيين القادمين لرؤيته إلى العمل لحساب ملكوته، إذ كشف لهم عن المجد المُعد للذين يخدمون في كرمه. يحول السيد الاشتياقات الجميلة لرؤيته إلى عملٍ جادٍ حتى يروه في مجده الأبدي وهم متمتعون معه بالشركة في المجد.

❖ إنه يتحدث بخصوص الموت ومتطلبات من يتبعه وذلك بالأعمال، فيحتاج من يخدم أن يتبع على الدوام من يُخدم... "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل وصليبه ويتبعني" (مت ١٦: ٢٤) أي يقول: "أن يكون دومًا مستعدًا للمخاطر والموت والرحيل من هذا الموضع". بعد أن أخبر عن المتاعب قدم المكافأة. من أي نوع؟ " التبعية له، والوجود أينما وُجد هو، مظهرًا أن القيامة تتبع الموت"[1].

❖ ولكن أين المسيح؟ في السماوات. **لذلك ليتنا حتى قبل القيامة ننقل نفوسنا وعقولنا إلى هناك.** لماذا يقول ذاك الذي يخدم المسيح "يكرم الآب" ، ولم يقل: "أنا أكرمه"؟ وذلك لأنهم لم يكونوا بعد قد صار لهم التفكير السليم بخصوصه، لكن كان لهم فكر عظيم من جهة الآب[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أية كرامة يمكن أن تكون أعظم من أن يكون الابن المتبني مع الابن الوحيد؛ حقًا ليس بأن يرتفع إلى الألوهة بل شريكًا في الأبدية؟![3]

❖ لقد أراد منا أن نفهم كمن يقول: من لا يتبعني لا يخدمني. لذلك فإن خدام يسوع المسيح هم الذين لا يطلبون ما لأنفسهم، بل ما هو ليسوع المسيح (في ٢: ٢١). لأن "**فليتبعني**" معناها: ليسلك في طرقي، وليس في طريقه هو. وكما هو مكتوب في موضع آخر: "من قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضًا" (١ يو ٢: ٩)[4].

❖ كل واحدٍ هو خادم للمسيح بنفس الطريقة كما أن المسيح هو خادم. ومن يخدم المسيح بهذه

---

[1] *Hom. 67.PG 59: 401.*
[2] *Hom. 67. PG 59: 401.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 11.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 12.*

الطريقة سيكرمه الآب بالكرامة الرائعة أن يكون مع ابنه، فلا يُعوزه شيء لسعادته إلى الأبد[1].

❖ حينما تسمعون أيها الإخوة: "حيث أكون أنا هناك يكون خادمي"، **لا تظنوا فقط في الأساقفة والكهنة الصالحين. بل لتخدموا أنتم أيضًا بطريقتكم المسيح، بحياتكم الصالحة، وتقديم العطاء، والكرازة باسمه وتعاليمه قدر المستطاع...**[2]

القديس أغسطينوس

٤. تمجيد السماء ليسوع

"**الآن نفسي قد اضطربت،**

وماذا أقول؟ أيها الآب نجني من هذه الساعة،

ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة". **[٢٧]**

إذ تحدث عن ضرورة آلامه وموته، كابن الإنسان رفع قلبه للآب وهو يقول: "**الآن نفسي قد اضطربت**" [٢٧]. حقًا إنها كلمات غريبة ينطق بها يسوع المسيح، خاصة وأن التلاميذ رأوا أناسًا من الأمم يطلبون أن يروه، وسمعوه يقول: "**لقد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان**". لكنه إذ صار إنسانًا حقيقيًا كان لابد لنفسه أن تضطرب أمام سحابة الآلام التي تحيط به. ولعله رأى خلال هذه السحابة خطايا البشرية كلها قد ظهرت أمامه لكي يحملها على كتفيه، مقدمًا نفسه ذبيحة عن خطايانا.

بينما يقول لتلاميذه: "لا تضطرب قلوبكم" (يو ١٤: ١). يقول: "**الآن نفسي قد اضطربت**" [٢٧]. اضطراب نفسه ينزع اضطراب نفوسنا؛ آلامه هي سرّ راحتنا الأبدية. لقد انطلق السيد المسيح بإرادته ومسرته ليحمل خطايانا، وكان لزامًا وسط مسرته أن تضطرب نفسه بسبب هول خطايانا. لقد حمل ضعفاتنا فيه ليهبنا روح القوة.

اضطراب نفسه هو حزن مقدس يولد فرحًا في قلوب البشرية المؤمنة، ومسرة للآب من أجل مصالحته مع البشرية، وتهليلاً للسمائيين. اضطربت نفسه وهو يدخل طريق الصليب الضيق حتى نشاركه آلامه وندخل معه إلى أمجاده السماوية. آلامه هي مجرد ساعة قد حلت وستعبر، لتحتل الأبدية التي لا يحدها زمن ما. يرى البعض أن الفعل هنا في اليونانية يحمل معنى الاضطراب أكثر منه الخوف[3].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 12.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 51: 13.*
[3] *Leon Morris, p. 450.*

جاء حديثه مع الآب يكشف عن مسرته بالصليب، إذ يقول: "**لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة**" [٢٧]، ولكي يحملنا إلى حياة التسليم والتواضع يصرخ: "**أيها الآب نجني من هذه الساعة**" [٢٧].

❖ هذه ليست أقوال لاهوته لكنها أقوال طبيعته الإنسانية التي لا تشاء أن تموت، وتتمسك بهذه الحياة الحاضرة، موضحًا بذلك أنه لم يكن خارج الآلام الإنسانية، لأنه كما أن الجوع ليس زللاً ولا النوم، فكذلك ولا الارتياح إلى الحياة الحاضرة زلل، وللسيد المسيح جسد نقي من الخطايا، وليس جسد متخلص من الضرورات الطبيعية، لذا اقتضت الحكمة أن يكون له جسد.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد أخذ ضعف الإنسان لكي يعلمه عندما يكون في حزنٍ أو اضطرابٍ، فيقول: "يا أبتاه ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (مت ٢٦: ٣٩). فإنه هكذا **يتحول الإنسان مما هو بشري إلى ما هو إلهي حينما يفضل إرادة الله عن إرادته هو**[1].

القديس أغسطينوس

"**أيها الآب مجد اسمك.**

فجاء صوت من السماء:

مجدت وأمجد أيضًا". **[٢٨]**

إذ يخضع الابن المتجسد لإرادة الآب ويقدم نفسه ذبيحة، فإن الإعلان عن قبولها بالقيامة هو مجد لاسم الآب أيضًا. هنا يربط السيد المسيح بين الموت والمجد (القيامة)، فإن كانت نفسه قد اضطربت فهو لا يطلب إعفاءه من الموت، بل عبوره إلى القيامة التي تحمل مجدًا متبادلاً، مجد الابن ومجد الآب.

يقصد باسم الله هنا الله نفسه وأيضًا سماته، إذ يتمجد الآب نفسه، كما تتمجد حكمته ومراحمه وحبه وقداسته وبره الخ.، هذا كله يتحقق بعمل السيد المسيح الخلاصي.

جاء صوت الآب معلنًا: "**مجدت، وأمجد أيضًا**" [٢٨]. كأنه يقول: "لقد حققت خطتي بك. أرسلتك كفارة عن خطايا العالم، وتممت عدلي الذي لن يفارق حبي ومراحمي. أتممت عملي. هكذا أنت تقدم دمك على الصليب، وأنا أقبله ذبيحة حب. موتك وقيامتك يمجداني ويتممان رسالتي نحو محبوبي، الإنسان. لقد مجدتك وسأمجدك في لحظات موتك وقيامتك".

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 52: 3.*

لقد تمجد السيد المسيح بتعاليمه وأعمال محبته من عجائب وآيات، كما تمجد في التجربة في البرية حيث جاءت الملائكة تخدمه، وتمجد في عماده حيث سُمع صوت الآب الذي يشهد له (مر ٩: ٧) والروح القدس الذي ظهر على شكل حمامة، وتمجد في تجليه حيث تكلم معه موسى وإيليا عن الخروج المزمع أن يكمله في أورشليم (لو ٩: ٣١). كما يتمجد بالأحداث المذهلة التي تتم أثناء القبض عليه ومحاكمته وصلبه، ويتمجد بقيامته، وبصعوده إلى السماء وبإرسال الروح القدس على تلاميذه، ونجاح الكرازة بهم، وانتشار إنجيله في العالم كله.

❖ قول السيد المسيح أيها الآب مجد اسمك! أبان بذلك أنه من أجل الحق يموت إذ سمى فعله مجدًا لله.

وقول الآب: "**مجدت، وأمجد أيضًا**"؛ فإن سألت وأين مجده؟ أجبتك: قد مجده في الأزمان الكائنة قبل هذه، وسيمجده بعد الصليب.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ مع أنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا نعمة الحق، إلا أنهم اعترفوا لا إراديًا، وفي جهلهم نطقوا بأسرارٍ، فحدثت شهادة عظيمة من الآب للابن. وقد جاء في سفر أيوب أيضًا: "ومن يعرف عندما يضع قوة رعده؟" (أي ٢٦: ١٤ *LXX*)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ "**وأمجد أيضًا**" [٢٨]، عندما يقوم من الأموات، عندما لا يكون للموت أي سلطان بعد عليه، وعندما يرتفع فوق السماوات بكونه الله، ويكون مجده فوق كل الأرض[2].

القديس أغسطينوس

"**فالجمع الذي كان واقفًا وسمع قال:**

قد حدث رعد.

وآخرون قالوا:

قد كلمه ملاك". **[٢٩]**

يرى البعض أن الصوت كان باللغة التي يفهمها اليهود والتي لم يفهمها اليونانيون، لذلك قال الأولون إن ملاكًا كلمه، بينما ظن الآخرون أن رعدًا قد حدث. فقد شُبه صوت أحد المخلوقات الحية

[1] *Of the Holy Spirit Book 2:6:55.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 52: 4.*

بالرعد (رؤ ٦: ١).

❖ لأن سألت: ومن أين حلّ بهم هذا الظن؟ أجبتك: لعل الصوت لم يكن واضح الدلالة، لكنه مرّ عليهم بسرعة، إذ كان بعضهم جسدانيين متوانين، والبعض الآخر منهم عرف أن الصوت كان واضحًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب يسوع وقال:**

ليس من أجلي صار هذا الصوت،

بل من أجلكم". **[٣٠]**

لم يكن السيد المسيح محتاجًا إلى صوتٍ من السماء ليشجعه، إنما جاء هذا الصوت من أجل الحاضرين لكي يؤمنوا أن الآب أرسله، لكي لا يتعثر فيه التلاميذ أثناء آلامه، بل يجدوا فيها راحتهم، كما يجد هو فيها مسرته.

لعل هذا الصوت كان من أجل اليونانيين الذين أرادوا أن يروه. فإنهم لم يشاهدوا آياته وعجائبه، وإنما سمعوا عنها، لذلك جاء الصوت من السماء يشهد له أمامهم.

ما هي وصية الآب للابن؟ تقديم الحياة الأبدية للبشرية، الأمر الذي لا يمكن لخليقةٍ ما في السماء أو على الأرض أن تقدمه.

❖ كأنه يقول: لم يصر هذا الصوت لأعرف أنا منه شيئًا كنت جاهلاً به، لأنني أعرف خفيات أبي كلها، لكنه صار لأجلكم. وقد اقتادهم السيد المسيح إلى أن يسألوه ما هو الذي قيل، إلا أنهم كانوا مندهشين ولم يخبروه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كما أن ذاك الصوت الذي نطق به الله لم يكن من أجله بل من أجل الآخرين، اضطربت نفسه ليس من أجله بل بإرادته من أجل الآخرين[1].

القديس أغسطينوس

"**الآن دينونة هذا العالم،**

الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجًا". **[٣١]**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 52: 5.*

إنه صوت الآب الذي يعرفه الابن ويدرك أعماقه، فقد جاء الصوت ليعلن دينونة هذا العالم الشرير، وهزيمة الشيطان "رئيس هذا العالم"، وطرده خارجًا بلا سلطان. يفقد إبليس دائرة نفوذه حيث يعلن المؤمنون غلبتهم في حلبة المصارعة، ويخرج إبليس في ضعفٍ شديدٍ وهزيمةٍ منكرة، بعد كسب جولات كثيرة سابقة. هكذا يخسر إبليس جولته مع السيد المسيح، وتستمر هذه الهزيمة في صراعه مع المؤمنين، أعضاء جسد المسيح الغالب.

في يقين الإيمان يوجه الإنجيلي يوحنا حديثه للأحداث قائلاً: "كتبت إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء وكلمة الله ثابتة فيكم، وقد غلبتم الشرير" (١ يو ٢: ١٤). كما كتب: "لأنه كل من وُلد من الله يغلب العالم، وهذه الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا" (١ يو ٥: ٤). كما يترنم المتمتعون بعمل الله الخلاصي قائلين: "الآن صار خلاص إلهنا وقوته وملكه وسلطان مسيحه. لأنه قد طُرح المشتكي على اخوتنا، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهارًا وليلاً. وهم غلبوه بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت" (رؤ ١٢: ١٠–١١).

ما يخططه البشر من قتل للسيد المسيح، وما يمارسه إبليس من محاولة الخلاص من السيد، هذا كله يؤول إلى هزيمة الشر وتحطيم سلطان إبليس بالصليب، إذ لا يستطيع رئيس هذا العالم الشرير أن يقف أمام رئيس الحياة. وكما يقول الرسول: "أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يُوهب لكم رجل قاتل، ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات، ونحن شهود لذلك" (أع ٣: ١٤–١٥). كما يقول الرسول بولس عن السيد المسيح: "لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس" (عب ٢: ١٤).

يتحدث السيد المَسيح بيقين النصرة حيث بموته يرد نفوس كثيرة إلى المعرفة ويحررهم من قيود إبليس.

لم تذكر كلمة "**دينونة**" بأداة تعريف، فهو لا يشير هنا إلى الدينونة النهائية، بل هي دينونة تبدأ بعمل المسيح الخلاصي، وذلك كقول سليمان الشيخ بروح النبوة: "ها إنه قد وُضع لسقوط كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تُقاوم" (لو ٢: ٣٤).

❖ إن سألت ما هو معني هذا المجد؟ أجبتك: هو قول السيد المسيح: "الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجًا".

❖ ما هي "**دينونة العالم**"؟ إنها كما يقول: "ستكون محاكمة ونقمة". كيف وبأية وسيلة؟ ذبح إبليس الإنسان الأول، إذ جعله مجرمًا بالخطية، أما فيّ فلا يوجد ذلك. فلماذا أسلمني الموت؟ لماذا

وضع في نفس يهوذا أن يحطمني؟... كيف إذن يُدان العالم فيَّ؟ سيقال كما في محكمة العدالة المقاومة للشيطان: حسنًا، لقد قتلت كل البشر، إذ وجدتهم جميعًا مسئولين عن الخطية، ولكن لماذا قتلت المسيح؟ أليس من أجل أنك قد أخطأت في ذلك؟ لذلك فيه ينتقم للعالم كله"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لمثل تلك الدينونات ينطق الرب هنا: "**الآن دينونة هذا العالم**"، بينما تبقى الدينونة النهائية محفوظة، عندما يُدان الأحياء والأموات.

لذلك فإن الشيطان قد اقتنى الجنس البشري، وأمسك به بالصك المكتوب بخطاياهم كمجرمين مذعنين للعقوبة. إنه يملك على قلوب غير المؤمنين، يخدعهم ويستعبدهم، يغويهم كي يتركوا الخالق ويعبدوا المخلوق. ولكن بالإيمان بالمسيح الذي تثبت بموته وقيامته، وبدمه الذي سفكه لغفران الخطايا ألوف من المؤمنين قد خلصوا من سلطان الشيطان، واتحدوا في جسد المسيح، وقد صاروا تحت قيادة الرأس.

هذا ما عناه عندما دعاه "**دينونة**"، هذا الفصل الصادق، هذا الترحيل للذين له، الذين خلصوا من الشيطان[2].

❖ الآن يخبرنا الرب مقدمًا ما يعرفه أنه بعد آلامه وتمجيده سيصير كثير من الأمم في العالم كله الذين يسكن الشيطان في قلوبهم مؤمنين، ويطرد منها الشيطان الذي يجحدونه بالإيمان[3].

القديس أغسطينوس

"وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع". [٣٢]

يُطرح إبليس خارجًا، إلى الجحيم حيث يفقد مملكته التي أقامها بين البشر على الأرض، بينما يرتفع السيد المسيح عن الأرض. بالصليب ينحدر العدو، وبه يرتفع السيد ليرفع معه مؤمنيه إلى السماء.

سبق وقرأنا أن الإنجيلي يوحنا يتطلع إلى الصليب كرفعٍ (٣: ١٤؛ ٨: ٢٨)، بكونه مجدًا له.

هنا ينسب إلى نفسه العمل "**جذب النفس إليه**"، وفي موضع آخر ينسبه إلى الآب (يو ٦: ٤٤). إنه يجتذب النفس ليس إلزامًا ولا بالعنف، وإنما بالحب الجذَّاب. وكما يقول في هوشع: "كنت أجذبهم

---

[1] *Hom. 67. PG 59: 403.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 52: 6.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 52: 7.*

بحبال البشر، بربط المحبة، وكنت لهم كمن يرفع النير عن أعناقهم، ومددت إليه مطعمًا إياه" (هو ١١: ٤).

النفس التي كانت بعيدة عنه لا تحتمل اللقاء معه بسبب ظلمتها الآن تتمتع بنوره وتنجذب إليه. إنه سيصعد إلى السماء ويسحب معه قلوب محبيه لتتمتع بالسماويات.

بقوله "**الجميع**" ليؤكد فاعلية الصليب في جذب السمائيين والأرضيين ليصيروا واحدًا. يُصالح به **الكل** لنفسه، عاملاً الصلح بدم صليبه، بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السماوات" (كو ١: ٢٠) ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السماوات وما على الأرض، في ذلك" (أف ١: ١٠). كما يؤكد جاذبيته لكل البشرية سواء كانوا من اليهود أو الأمم، لكنه لن يجتذب أحد قهرًا بغير إرادته.

❖ معنى ذلك أنه يجتذب حتى الذين يؤمنون من الأمم... يقول: "**أجذبهم**"، كمن هم محتجزين بواسطة طاغية، وغير قادرين بأنفسهم أن يقتربوا إلى (السيد المسيح)، ويهربوا من يدي الطاغية الذي يمسك بهم، في موضع آخر يدعوهم مسبيين، "كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوي، وينهب أمتعته إن لم يربط القوي أولاً؟" (مت ١٢: ٢٩). قال هذا ليؤكد السيد قوته، ومن يدعوهم مسبيين يدعوهم هنا منجذبين إليه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن كان المسيح صار لعنة من أجلنا لكي يخلصنا من لعنة الناموس، فهل تتعجب أنه من أجلنا يخضع للآب ليجعلنا نحن أيضًا خاضعين له، كما جاء في الإنجيل: "لا يأتي أحد إلى الآب إلا بي" (يو ١٤: ٦)، "**وأنا إن ارتفعت أجذب إليَّ الجميع**". فالمسيح إذن يخضع للآب في المؤمنين، إذ كل المؤمنين بل كل الجنس البشري يُحسب أعضاء جسمه. لكنه في غير المؤمنين، يُقال أنه لم يخضع، لأن هذه الأعضاء لجسده لا تخضع للإيمان[1].

القديس جيروم

"**قال هذا مشيرا إلى أية ميتة كان مزمعًا أن يموت**". **[٣٣]**

ارتفع بالصليب فصار منظرًا للعالم معلقًا بين السماء والأرض، كمن هو مستحق لهذه أو تلك.

لقد سمعت الجماهير عظاته وشاهدت آلاف من العجائب، لكن قلة التصقت به وثبتت في التلمذة له. أما وقد صُلب فجذب العالم إليه، وآمن كثيرون به، وثبتوا في محبته.

[1] *Letter 55:5.*

"**فأجابه الجمع:**

نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد،

فكيف تقول أنت أنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان؟

من هو هذا ابن الإنسان؟" **[٣٤]**

كان الشعب يتوقع خلاف ما أعلنه، فمع سماعهم الصوت الذي من السماء وكلمات النعمة الخارجة من فمه لم يصدقوا أنه يرتفع أي يموت مع أن العهد القديم قد تنبأ عن موته، فهو كاهن إلى الأبد (مز ١١٠: ٤)، وملك أبدي (مز ٨٩: ٢٩). جاء عنه في سفر دانيال: "فأُعطى سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والالسنة؛ سلطانه سلطان أبدي ما لا يزول وملكوته ما لا ينقرض" (دا ٧: ١٣-١٤). وفي سفر حزقيال: "عبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد" (حز ٣٧: ٢٥). تذكروا النبوات الخاصة بخلوده، ولم يتذكروا النبوات الخاصة بموته وأنه يسكب نفسه للموت (إش ٥٣: ١٢)، وأن يديه ورجليه تثقب.

"**من هو هذا الإنسان؟**" [٣٤] لم يسألوه لكي يتعرفوا على شخصه، وإنما لأنهم كانوا يظنون أنه المسيا الكاهن والملك إلى الأبد، وفوجئوا بأنه يجب أن يموت. لقد تشككوا في أمره بسبب إعلانه عن ضرورة موته.

❖ لقد عرفوا أن المسيح خالد وفيه حياة لا تنتهي. ألم يعرفوا ما قيل في مواضع كثيرة من الكتاب عن **آلامه وقيامته** في ذات الموضع؟

هكذا وضع إشعياء النبي الأمرين معًا، إذ قال: "ظُلم، أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه، كشاةٍ تُساق إلى الذبح وكنعجةٍ صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه" (إش ٥٣: ٧). وداود أيضًا في المزمور الثاني ومواضع أخرى كثيرة ربط بين الأمرين. وأب الآباء (يعقوب) أيضًا بعد قوله: "ربض كأسدٍ وكلبوةٍ من ينهضه؟" (تك ٤٩: ٩) أظهر الآلام والقيامة في نفس الوقت. إلاَّ أن هؤلاء إذ ظنوا أنهم يسكتوه ويبينوا أنه ليس المسيح مستخدمين نفس هذه الظروف وهي أن المسيح يبقى إلى الأبد.

لاحظوا كيف عالجوا الأمر بمكرٍ، لأنهم لم يقولوا: "سمعنا أن المسيح لا يتألم ولا يُصلب" بل قالوا: "**يبقى إلى الأبد**". ومع هذا فإن ما قالوه لا يمثل اعتراضًا حقيقيًا، فإن الآلام ليست عائقًا لخلوده. لهذا فإننا نرى أنهم فهموا أمورًا كثيرة مشكوك فيها، وقد سلكوا فيها خطأ عن عمدٍ. فقد سبق فحدثهم عن الموت. عندئذٍ قالوا: "**من هو ابن الإنسان؟**" قالوا هذا بخبثٍ. كأنهم يقولون: "نسألك ألا تظن أننا نقول هذا عنك، ولا تجزم أننا نعارضك في عداوة ضدك. وإنما نحن لسنا نعرف عمن تتكلم، ومع هذا

فنحن نقول رأينا"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال لهم يسوع:**
النور معكم زمانا قليلاً بعد،
فسيروا مادام لكم النور،
لئلا يدرككم الظلام،
والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب". **[٣٥]**

❖ قول السيد المسيح: "**النور معكم زمانًا قليلاً بعد**" يوضح أن موته مؤقت، لأن نور الشمس لا يبطل، لكنه يتوارى قليلاً ثم يظهر. وقوله لليهود: "**فسيروا مادام لكم النور، لئلا يدرككم الظلام**" قال هذا ليحثهم على الإيمان به.

وقوله: "**والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب**"، فكم من أعمالٍ عملها اليهود الآن ولم يعرفوا ما عملوه، لكنهم كانوا كسالكين في الظلام، لأنهم ظنوا أنهم سائرون في الطريق القويمة، وهم يسلكون في الطريق المضادة، يحفظون سبوتًا ويصونون الشريعة، ويحترسون من الأطعمة، ولا يعرفون أين يمشون[2].

❖ "**آمنوا بالنور، مادام لكم نور**"، ولكن عن أي وقت يتحدث هنا؟ هل عن كل الحياة الحاضرة، أم عن الوقت ما قبل الصليب؟ أظن أنه عن كليهما. فإنه من أجل محبته للبشر التي لا توصف كثيرون آمنوا حتى بعد الصليب. ينطق بهذه الأمور ليحث على الإيمان[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لتصيروا أبناء النور.
تكلم يسوع بهذا،
ثم مضى واختفى عنهم". **[٣٦]**

إذ هو منشغل بخلاصهم طلب منهم أن يهتموا بأعماقهم فيسلكوا في النور ما دام لهم النور حتى لا يصيروا أبناء الظلمة. لم يدخل معهم في حوارات جافة، بل وجههم إلى ما هو لخلاصهم وبنيانهم.

---

[1] *Homilies on St. John, 68 : 1.*
[2] *Hom. on St. John, 68:1.*
[3] *Hom. 68. PG. 59: 405.*

طلب منهم أن يتمتعوا بنوره مادام قد تجسد وحلّ بينهم، حتى يحملهم إلى النور السماوي الأبدي.

حياتنا هي فرص قليلة، ربما لا تتكرر، لذا لاق بنا أن ننتفع بكل فرصة لأجل شركتنا مع الله. إنجيلنا هو سراج للنفس ينيرها. من لا يقبل نوره يسقط في الظلمة، وأما من يتمتع به فيصير ابنًا للنور (لو ١٦: ٨؛ أف ٥: ٨)، وابنًا للنهار (١ تس ٥: ٥).

إنه يحذرهم بأنهم سيشتهون أن يروا يومًا من أيام ابن الإنسان ولا يروا (لو ١٧: ٢٢)؛ وأن ملكوت الله يُنزع منهم ويُعطى للأمم (مت ٢١: ٤٣).

❖ "**لتصيروا أبناء النور**" بمعنى تصيروا "أبنائي". مع أن الإنجيلي في البدء يقول: "الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد، بل من الله" (يو ١: ١٣)، أي وُلدوا من الآب. بينما يُقال هنا أنه هو ولدهم، وذلك لكي تدركوا أن عمل الآب والابن هو واحد[1].

❖ يقول يوحنا الرسول عن السيد المسيح: "**ثم مضى واختفى عنهم**"؛ فإن سألت: وما غرض السيد المسيح من أن يختفي؟ لأنهم لم يحملوا حجارة ليقتلوه، ولا جدفوا عليه مثلما فعلوا فيما سبق، فلِمَ اختفي؟! أجبتك: إذ يعرف السيد ما في قلوبهم من تذمرٍ مملوء بالغضب، لم ينتظر حتى يخرج هذا الغضب إلى حيز التنفيذ، لكنه اختفى ليهدئ من شرهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

أخيرًا إذ قدم لهم نصيحة أبوية أن ينتهزوا فرصة وجوده لكي يشرق بنوره عليهم فيبدد ظلمتهم، موضحًا أن الوقت مقصر، والزمان الذي بقي قليلاً ليتركهم، في الحال مضى واختفى عنهم، حتى لا يدخلوا في جدالٍ، بل يفكروا في جدية من جهة موقفهم منه.

٥. شهادة الأنبياء لمجده

"**ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به**". **[٣٧]**

يقدم لنا يوحنا الإنجيلي شهادة إشعياء النبي لمجد السيد المسيح ورفض اليهود له، لأنهم "**أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله**" [٤٣].

من جهة كثرة معجزاته فيقول "**هذا عددها**" [٣٧]، مع ذلك لم تحثهم على الإيمان به، بل على حسده ومقاومته. لم يسمعوا عنها فقط، وإنما صنعها "**أمامهم**"، لأنه لم يصنعها خفية بل علانية بشهود كثيرين. مع هذا لم يؤمنوا به، إذ أصيبت أعين قلوبهم بالعمى بشهواتهم التي قست قلوبهم

[1] *Homilies on St. John, 68 : 1.*

وأفسدتها.

"ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله:
يا رب من صدق خبرنا،
ولمن أُستعلنت ذراع الرب". [٣٨]

تحققت نبوة إشعياء بأنهم لن يصدقوا الشهادات النبوية والإعلانات الإلهية، ولم يقبلوا ذراع الرب الذي هو قوته وسلطانه وعجائبه.

"**خبرنا**" هنا تشير إلى الإنجيل الذي تنبأ عنه إشعياء وغيره من الأنبياء.

❖ كما أنك بذراعك تعمل، هكذا كلمة الله يمثل ذراعه[1].

القديس أغسطينوس

"لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا،
لأن إشعياء قال أيضًا". [٣٩]

يكشف القديس يوحنا الإنجيلي عن حال اليهود الذين اتسموا بالعناد والمقاومة لله ولأنبيائه، منذ نشأتهم في مصر، وعند خروجهم حيث قاوموا موسى وهرون، وفي البرية، فلم ينجُ منهم نبي. وكما قال إيليا النبي: "قد تركوا عهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقيت أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها" (١ مل ١٩: ١٠). ويقول الشهيد استفانوس: "يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان، أنتم دائما تقاومون الروح القدس. كما كان آباؤكم كذلك أنتم. أي الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟ وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجئ البار، الذي أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه" (أع ٧: ٥١–٥٣).

سلسلة لا تنقطع من مقاومة عمل الله واضطهاد مستمر للأنبياء، أعمت أعينهم الداخلية عن الرؤيا، وقسَّت قلوبهم، فصاروا عاجزين عن التمتع بالإيمان!

❖ مرة أخرى لاحظوا هنا أن "**لأن**" و "**قال**" لا تشيران إلى علة عدم إيمانهم، إنما تشيران إلى الحدث ذاته. فإنه ليس لأن إشعياء قال هم لم يؤمنوا، وإنما إذ لم يريدوا أن يؤمنوا هو قال: فلماذا لم يعبر الإنجيلي هكذا بدلاً من جعل عدم الإيمان صادر عن النبوة وليست النبوة صدرت عن عدم الإيمان؟ لقد وضع هذا الأمر بطريقة إيجابية قائلاً: "**لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا، لأن إشعياء قال**"

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 53: 2.*

[٣٩]. إنه يرغب في تثبيت عدم خطأ الحق الكتابي بطرق كثيرة، وأن ما سبق فقاله إشعياء لم يسقط بل حدث ما قاله[1].

❖ "**لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا**"، وضعت عوض "لم يكونوا يريدون أن يؤمنوا". لا تتعجب... إنه لم يقل أن صُنع الفضيلة مستحيل بالنسبة لهم، بل لأنهم لم يريدوا، على هذا الأساس لا يستطيعون[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يتجاسر أحد في دفاعه عن حرية الإرادة بطريقة بها يحاول أن يحرمنا من الصلاة القائلة: "لا تدخلنا في تجربة". ومن الجانب الآخر لا ينكر أحد الإرادة ويتجاسر فيجد عذرًا للخطية. لنلتفت إلى الرب في تقديمه الوصية، وفي تقديمه عونه، ففي كليهما يخبرنا عن التزامنا بالواجب، وعن مساندتنا في تنفي**ذه. فإن البعض يرتفعون إلى الكبرياء خلال ثقتهم المبالغ فيها في إرادتهم الذاتية، بينما يسقط آخرون في عدم المبالاة خلال المبالغة في عدم الثقة.**

يقول الأولون: "لماذا نسأل الله ولا نسعى نحن للغلبة على التجربة ما دام كل شيء في مقدورنا؟"

يقول الآخرين: "لماذا نجاهد لنحيا صالحين مادامت القدرة على فعل هذا هي في يد الله؟"...

من جانبٍ يلزمنا أن نشكره من أجل القوة التي يمنحنا إياها، ومن الجانب الآخر يلزمنا أن نصلي لكي لا تفشل قوتنا الصغيرة تمامًا. إنه ذات الإيمان عينه العامل بالمحبة (غلا ٥: ٦)، حسب القياس الذي يهبه الرب لكل إنسان، حتى أن من يفتخر لا يفتخر بذاته بل في الرب (١ كو ١: ٣١)[3].

❖ إذن لا عجب أنهم لم يقدروا أن يؤمنوا، حيث كان كبرياء إرادتهم هكذا، إذ جهلوا برّ الله وأرادوا برّ أنفسهم، كما يقول عنهم الرسول: "لم يخضعوا لبرّ الله" (رو ١٠: ٣). إذ انتفخوا لا كما بالإيمان بل بالأعمال، وتعثروا أمام حجر العثرة. هكذا قيل "**لم يقدروا**"، فنفهم من ذلك أنهم لم يريدوا، وذلك بنفس الطريقة كما قيل عن الرب إلهنا: "إن كنا غير مؤمنين فهو يبقى أمينًا، لن يقدر أن ينكر نفسه" (٢ تي ٢: ١٣). قيل عن الكلي القدرة "**لن يقدر**"...[4]

❖ هؤلاء اليهود "**لم يقدروا أن يؤمنوا**"، ليس أن هؤلاء الناس لا يقدروا أن يتغيروا إلى الأفضل، وإنما مادامت آراءهم تسلك في هذا الاتجاه لا يقدروا أن يؤمنوا، لهذا فهم عميان وغلاظ القلوب، لأن

---

[1] *Homilies on St. John, 68 : 2.*
[2] *Hom. 68. PG 59: 406*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 53: 8.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 53: 9.*

بإنكارهم الحاجة إلى عون إلهي لم يجدوا عونًا[1].

القديس أغسطينوس

"قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم،
لئلا يبصروا بعيونهم،
ويشعروا بقلوبهم،
ويرجعوا فأشفيهم". [٤٠]

لم يقدروا أن يؤمنوا، لأنهم لم يريدوا، ولا طلبوا عون الله ونعمته لمساندتهم. لهذا لم تفتح نعمة الله أعينهم لمعاينة الحق والتمتع بالخلاص؛ هذا ما يعنيه بقوله: "**أعمى عيونهم**". مقاموتهم طمست عيون قلوبهم، فلم ينالوا الشفاء من طبيب النفوس والأجساد، فصاروا كمن أعمى الله عيونهم. الإصرار المستمر وعدم الرغبة في التمتع برؤية الحق جعلتهم عاجزين عن الإيمان الحي. هذا النص ورد في إشعياء ٦: ٩، ربما يشير إلى الحكم الذي يحل عليهم كأمةٍ.

❖ كما أن الشمس تبهر العيون الضعيفة ليس بسبب طبيعتها اللائقة بها، هكذا أيضًا بالنسبة للذين لا يبالون بكلمة الله. هكذا قيل في حالة فرعون أن (الله) قسى قلبه. هكذا يكون حال من هم مصرون تمامًا على مقاومة كلمات الله.

هذا هو أسلوب الكتاب، كما قيل: "أسلمهم إلى فكرٍ مرفوض" (رو ١: ٢٨)... فإن الكاتب هنا لا يقدم الله بكونه هو نفسه يفعل هذه الأمور إنما يظهر أنها تحدث خلال شر الآخرين. فلكي يرعب السامع لذلك يقول الكاتب: "قسى الله"، "أسلمهم".

ولكي يُظهر أنه **لا يسلمنا ولا يتركنا إلاَّ إذا أردنا نحن ذلك** اسمع ما يقوله: "أليست شروركم قد فصلت بيني وبينكم؟" (إش ٥٩: ٢ *LXX*). ويقول هوشع: "أنتم نسيتم ناموس إلهكم، وأنا أيضًا أنساكم" (هو ٤: ٦ *LXX*). وهو نفسه يقول: "كم مرة أرد أن أجمع أبناءكم... وأنتم لا تريدون؟" (لو ١٣: ٣٤)...

إذ نعرف هذا ليتنا نبذل كل الجهد ألا نترك الله، بل نتمسك بالاهتمام بنفوسنا ومحبة بعضنا البعض. ليتنا لا نبتر أعضاءنا، فإن هذا عمل من هم مجانين، بل كلما رأيناهم في وضع شرير نترفق بهم بالأكثر[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 53: 10.*
[2] *Homilies on St. John, 68: 2 – 3.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه". [٤١]

نطق إشعياء النبي بهذا حين رأى مجده وتحدث عنه. رأى السيد على كرسي عالٍ وأذياله تملأ الهيكل. المجد الذي رآه إشعياء هو مجد يهوه؛ هنا القديس يوحنا الإنجيلي يقول أنه مجد يسوع، حاسبًا أن يسوع المسيح هو يهوه. جاءت الترجمة الآرامية (الترجوم): "لأن عيني رأتا **شاكيناه** الرب" (إش ٦: ٥). ولما كانت شاكيناه هي النور الإلهي أو الحضرة الإلهية، فإن ما رآه إشعياء النبي هو نور الرب أو بهاءه، شعاع مجده ورسم جوهره (عب ١: ٣).

❖ إن سألت: مجد من رأى إشعياء النبي؟ أجبتك: مجد الآب. ولعلك تقول: فكيف يتحدث إشعياء النبي عن مجد الآب، ويوحنا البشير عن مجد الابن، وبولس الرسول عن مجد الروح؟ أجيبك: لم يكن حالهم حال من يجمعون الأقانيم، لكنهم قالوا هذا القول موضحين رتبة واحدة موجودة بهم، وبيان ذلك أن سمات الآب هي سمات ابنه، وسمات الابن هي سمات الروح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ما رآه إشعياء ليس الله كما هو، وإنما بطريقة رمزية تناسب إمكانية رؤية النبي. فإن موسى أيضًا رآه، ومع هذا نجده يقول له عندما رآه: "فالآن إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك حتى أعرفك..." (خر ٣٣: ١٣)، إذ لم يرَ الله كما هو... "أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله، ولم يظهر بعد ماذا سنكون. ولكن نعلم أنه إذ أُظهر نكون مثله، لأننا **سنراه كما هو**" (١ يو ٣: ٢)[1].

القديس أغسطينوس

٦. تمجيد بعض الرؤساء له

"ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضًا،
غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به،
لئلا يصيروا خارج المجمع". [٤٢]

آمن به بعض الرؤساء مثل نيقوديموس (يو ٣)، حاسبًا إياه معلمًا من عند الله، وأيضًا يوسف الرامي الذي تقدم لبيلاطس لاستلام جسده، ونال بركة دفنه في قبره الجديد. ووُجد غيرهما ممن آمنوا به في قلوبهم، لكنهم لم يتجاسروا ويعلنوا إيمانهم علانية. وسنتحدث عن مجمع السنهدرين في نهاية

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 52: 12.*

هذا الأصحاح بمشيئة الرب.

ظن إيليا أنه وحده يعبد الله ولم يدرك أن سبعة آلاف رجل لم يحنوا ركبة لبعلٍ يراهم الله ولا يعرفهم العالم. هكذا في كل جيل توجد بقية أمينة خفية لها تقديرها في عيني الله لا عند الناس.

"**لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله**". **[٤٣]**

لم يعترف البعض به خشية فقدان كرامتهم الزمنية، إذ أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله. وكما يقول السيد المسيح: "كيف تقدرون أن تؤمنوا، وأنتم تقبلون مجدًا بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟!" (يو ٥: ٤٤).

❖ هذا ما قاله لهم السيد المسيح: "كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدًا من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟" (يو ٥: ٤٤)، فلم يكونوا إذًا رؤساء، لكنهم كانوا عبيدًا، لأنهم ابتعدوا عن الإيمان لعشقهم في المجد الباطل.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٧. شهادة المسيح لنفسه

"**فنادى يسوع وقال:**

الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي،

بل بالذي أرسلني". **[٤٤]**

هذا هو ختام عظته الموجهة للأشرار المصممين على عدم الإيمان، وتُحسب تكملة للعظة التي قُطعت بالآية ٣٧. لقد نادى (صرخ) يسوع بصوتٍ عالٍ، مظهرًا غيرته الشديدة على خلاصهم.

هنا يؤكد وحدته الخفية مع الآب، فمن يؤمن بالابن يؤمن بالآب الذي أرسله، ومن يرى الابن يرى الآب أيضًا، من يكرم الابن يكرم الآب.

❖ معنى: "**لا يؤمن**" أي لا يكون ذلك عند حدود الشكل الجسدي، ولا عند حدود الإنسان الذي ترونه. فإنه يقرر أنه يلزمنا أن نؤمن بأنه ليس إنسانًا مجردًا، بل نؤمن بيسوع المسيح اللَّه والإنسان (في نفس الوقت).

القديس أمبروسيوس

❖ كأن يقول: "لماذا تخشون أن تؤمنوا بي؟ الإيمان بي يعبر خلالي إلى الآب، كما أن إنكاركم إياي

يصل إليه. انظروا كيف أنه بكل وسيلة يظهر عدم الاختلاف في الجوهر[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ تكريم الابن فيه تكريم للآب، إنه لا يُنقص من لاهوته[2].

❖ الآن عندما يقول: "**الذي يؤمن بي، ليس يؤمن بي، بل بالذي أرسلني**" [٤٤]. ماذا نفهم سوى أنه ظهر كإنسانٍ للبشر بينما بقي غير منظور بكونه الله؟ ولكي لا يظن أحد أنه ليس بأكثر مما يروه فيه يشير إلى الإيمان به كمساوٍ للآب في الشخصية والرتبة... فمن يؤمن بالآب يلزمه أن يؤمن أنه أب، ومن يؤمن بالآب يؤمن أن له ابن، وبهذا فمن يؤمن بالآب يلزمه أن يؤمن بالابن[3].

القديس أغسطينوس

"**والذي يراني، يرى الذي أرسلني**". **[٤٥]**

❖ ماذا إذن؟ هل لله جسد؟ لا يمكن! فإن الرؤية التي يتحدث عنها ليست بجهة من الجهات جسمًا، فالبصر هنا إنما يريد به بصيرة العقل، وفي هذه الجهة بيَّن السيد المسيح أن جوهره هو جوهر أبيه. هنا يعلن عن الشركة في ذات الجوهر[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نطق بالكلمات السابقة (يو ١٢: ٤٤) حتى لا يؤمن أحد أنه مجرد ما يظهر عليه، أي أنه ابن الإنسان، وبالكلمات التالية [٤٥] لكي يؤمنوا أنه مساوٍ للآب...

لقد أرسل المسيح رسله... لكن لم يكن ممكنًا لأحدهم أن يقول: "من يؤمن بي ليس يؤمن بي، بل بالذي أرسلني"، فإنه ليس من أي أساس يمكن أن يقوم عليه القول: "يؤمن بي".

نحن نصدق الرسول، لكننا لا نؤمن به، لأنه ليس من رسول يبرر الخطاة. إنما نؤمن بالذي يبرر الخطاة، إيمانه يُحسب برًا (رو ٤: ٥).

يُمكن للرسول أن يقول: "من يقبلني يقبل الذي أرسلني"، أو "من يسمعني يسمع الذي أرسلني"، إذ يقول الرب: من يقبلكم يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني (مت ١٠: ٤٠). فإن السيد يُكرم في الخادم، والأب في الابن، وعندئذٍ الأب كما في الابن والسيد كما في الخادم.

---

[1] *Hom. 69. PG 59: 408- 409*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 90:5.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 54: 2.*
[4] *Hom. 69. PG 59: 409.*

أمكن للابن الوحيد الجنس بحقٍ أن يقول: "آمنوا بالله، فآمنوا بي" (يو ١٤: ١). وكما يقول هنا أيضًا: "**الذي يؤمن بي، ليس يؤمن بي، بل بالذي أرسلني**". إنه لا يحول إيمان المؤمن عنه، وإنما أراد ألا يقف المؤمن عند إيمانه به كعبدٍ، لأن كل من يؤمن بالآب يؤمن للحال بالابن، الذي بدونه لا يكون للآب وجود كآبٍ. وهكذا يبلغ إلى إيمانه بمساواته للآب، ذلك طبقًا للكلمات التالية لها: "**والذي يراني، يرى الذي أرسلني**" [٤٥][1].

القديس أغسطينوس

"**أنا قد جئت نورًا إلى العالم،**

حتى كل من يؤمن بي، لا يمكث في الظلمة". **[٤٦]**

قبل مجيء المخلص – شمس البرّ – إلى العالم كان الكل في الظلمة. بإشراقه تبددت الظلمة، لكن لم ينتفع منها إلاَّ من كانت عيناه سليمتين قادرتين على رؤية أشعة شمس البرّ هذا. أشرقت شمس البرّ على البشرية كلها لكي يجد المؤمنون فيه نورًا وراحة، حيث لا يبقى للظلمة موضع فيهم. بنوره تنتهي المخاوف واليأس، ويحل الفرح السماوي والرجاء في الأبدية.

❖ إذ يُدعى الآب بذات الاسم في كل موضع في العهدين القديم والجديد، يستخدم المسيح نفس الاسم أيضًا. لهذا يدعوه بولس: "البهاء" (عب ١: ٣)، متعلمًا أن يفعل هذا من ذات المصدر. أيضًا يظهر هنا العلاقة القوية بينه وبين الآب، وأنه لا يوجد فصل بينهما، وذلك متى قال أن الإيمان به ليس به، بل يعبر إلى الآب، ويدعو نفسه النور "لأنه يُخلص من الخطأ، ويزيل الظلمة العقلية[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أليس بصالح ذاك الذي رفع الأرض إلى سماء حتى أن الكواكب المتلألئة المصاحبة له تعكس مجده في السماء كما في مرآة، هكذا طغمات الرسل والشهداء والكهنة يشرقون مثل كواكب مجيدة، وتهب نورًا للعالم؟[3]

القديس أمبروسيوس

❖ إنه لم يقل (لتلاميذه) "قد جئتم نورًا للعالم، حتى كل من يؤمن بكم لا يمكث في الظلمة". مثل هذا

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 54: 3.*
[2] *Hom 69. PG. 59: 409.*
[3] *Of the Christian Faith, 2 : 2 : 24.*

القول أقول لن يمكن قبوله بأي وضع. لذلك فكل القديسين هم أنوار، لكنهم استناروا به بالإيمان، وكل من ينفصل عنه تحوط به الظلمة. أما ذاك النور الذي ينيرهم، فلن يمكن أن ينفصل عن ذاته، لأنه غير قابل للتغيير[1].

القديس أغسطينوس

"**وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن،**
فأنا لا أدينه،
لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم". **[٤٧]**

لم يأتِ السيد المسيح ليدين العالم بل ليخلصه. كلمات الأنبياء التي تنبأت عنه تدينهم.

❖ الآن هو زمن الرحمة، فيما بعد يأتي زمن الدينونة، إذ قيل: "أسبح لك يا رب الرحمة والحكم" (مز ١٠١: ١)[2].

القديس أغسطينوس

"**من رذلني ولم يقبل كلامي، فله من يدينه،**
الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير". **[٤٨]**

إن كان السيد المسيح يشتهي خلاص الكل لا دينونتهم، فإنه في اليوم الأخير كلماته تدين غير المؤمنين، كشاهد على جرائمهم. كل كلمة ينطق بها، وكل حنو يقدمه، وكل عطية يهبها، هذه كلها تشهد ضد من يستهين به.

❖ قوله: "**الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير**" [٤٨] فيه الكفاية ليعلن أنه هو نفسه الديان بعد ذلك. فإنه هو نفسه الذي تكلم، وهو الذي أعلن ذلك، وهو نفسه الذي أقام نفسه كبابٍ يدخل منه كراعٍ إلى خرافه. فإنه سيُدان الذين لم يسمعوا الكلمة قط بطريقة غير الذي سيُدان بها من سمعوا واستخفوا بالكلمة. يقول الرسول: "لأن كل من أخطأ بدون الناموس فبدون الناموس يهلك، وكل من أخطأ في الناموس فبالناموس يُدان" (رو ٢: ١٢)[3].

القديس أغسطينوس

"**لأني لم أتكلم من نفسي،**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 54: 4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 54: 5.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 54: 6.*

لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم". [٤٩]

يقوم يسوع بكونه المسيا برسالة الخلاص التي تسلمها من الآب لينطق بها ويتممها. إنه وكالة الآب، ما يفعله لحساب الآب الذي أحب العالم وبذل ابنه الوحيد من أجله.

لقد فشل آدم الأول في رسالته، وعصى الله، ولم يكن بالسفير اللائق ليمثل السماوي، فجاء آدم الثاني بروح الطاعة يتمم العمل المُوكل إليه، عمل الحب الإلهي الفائق. فيه يمكننا أن نمارس الطاعة التي فقدناها بانتسابنا لآدم أبينا.

❖ حتمًا قال هذا من أجلهم... ألا ترون أنه قدم تعبيره في تواضع متزايد، حتى يجتذب هؤلاء الناس ويُسكت القادمين بعدهم؟ هذا هو السبب الذي نطق بكلمات تناسب إنسانًا مجردًا، إذ كان مدركًا أن الكلمات لا تخص طبيعته بل تناسب ضعف المستمعين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الابن وحده هو كلمة الآب، وحكمة الآب، فيه كل وصايا الآب. فإنه لا يوجد زمن فيه لم يعرف الابن وصية الآب، مما يجعل من الضرورة أن يقتنيها في وقت معين، تلك التي اقتناها قبلاً. ما ناله من الآب هو أنه وُلد، فاقتناها بمولده (الأزلي)... لم يقدم الآب للابن وصية لم تكن لديه، وإنما كما قلت أنه في حكمة الآب وفي كلمة الآب تقوم كل وصايا الآب[2].

القديس أغسطينوس

"وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية،
فما أتكلم أنا به،
فكما قال لي الآب هكذا أتكلم". [٥٠]

❖ إن كان الابن نفسه هو الحياة الأبدية، وهو وصية الآب، فماذا يعني هذا سوى "**أنا هو وصية الآب**"؟ وبقوله: "**فما أتكلم به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم**" (يو ١٢: ٥٠).

لا يُفهم "قال لي" كما لو كان الآب يستخدم كلمات في حديثه مع الكلمة وحده، أو أن كلمة الله يحتاج إلى كلمات من الله.

تكلم الآب مع الابن بنفس الطريقة كما أعطى الحياة للابن، ليس كمن لا يعرف أمرًا، أو لم يكن له الأخرى (الحياة)، وإنما لأنه هو الابن... إنه الحقاني قد ولد الحق، فماذا يمكن أن يقول للحق؟

---

[1] *Hom. 69. PG 59: 410.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 54: 7.*

فإن الحق الذي ليس فيه نقص لا يحتاج إلى من يهبه حقًا إضافيًا. إذن هو تكلم مع الحق لأنه ولد الحق[1].

القديس أغسطينوس

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 54: 8.*

ملحق للأصحاح الثاني عشر

عن

مجمع السنهدرين

إذ كثيرًا ما نسمع في هذا السفر عن رؤساء الكهنة والفريسيين ونادرًا عن الكتبة، أود أن أقدم فكرة سريعة عن أعضاء مجمع السنهدرين.

كلمة *Sanhedrim* هي الصيغة الأرامية للكلمة اليونانية *sunedrion* ومعناها "مجمع" أو "جلسة اجتماع (قضائي)".

يعتبر هذا المجمع هو الهيئة العليا لمحكمة القضاء العالي في أورشليم، تحت رئاسة رئيس الكهنة لإسرائيل، في أيام خدمة السيد المسيح ومحاكمته.

تاريخه

ترجع نشأة هذا المجمع إلى عصر سيادة الإمبراطورية اليونانية، وإن كان الربيون يجاهدون ليجدوا بدء نشأته هو مجمع السبعين شيخًا الذي أُقيم في أيام موسى النبي (عد ١١: ١٦، ٢٤).

أول مرة يُشار إليه تحت اسم "**المشيخة**" *geraousia* كان في أيام أفتيخوس الكبير ٢٢٣–١٨٧ق.م.

حوَّل **الأباطرة الهيلينيون** الحرية للمجتمعات المحلية في الشئون الداخلية، فكانت إسرائيل تحكم نفسها بنفسها داخليًا، خلال مجلس الشيوخ الأرستقراطي (١ مك ٦: ١٢؛ ٢ مك ١: ١٠؛ ١١: ٢٧)، تحت رئاسة رئيس الكهنة الذي ينال المركز وراثيًا.

عندما دخل **النظام الروماني** بواسطة بومباي *Pompey* احتفظ رئيس الكهنة بمركز "حاكم الأمة"[1]، مما يدل على بقاء مجلس المشيخة في ذلك الحين.

قام ***Gabinius*** بتقسيم الإقليم اليهودي إلى خمسة مقاطعات أو خمسة مجامع[2]، فلم يعد مجمع أورشليم منفردًا في الحكم القضائي.

بعد عشرة سنوات أعاد قيصر تعيين هيرقانيوس الثاني *Hyrcanus II* إلى مركوه السابق وامتد

---

[1] *Josephus: Antiq. 20:10:1.*
[2] *Josephus: Antiq. 14:5:4.*

سلطان مجمع أورشليم إلى الجليل[1]. وهنا لأول مرة يدعى مجمع أورشليم "**السنهدرين**".

بدأ هيرودس حكمه بإصدار أمره بقتل جميع أعضاء مجمع السنهدرين[2]، وقام بتعيين أعضاء موالين له.

بعد موت هيرودس وابنه أرخيلاوس *Archelaus* امتد سلطان المجمع. وفي أيام السيد المسيح على الأرض، وفي عصر الرسل، كان هذا المجمع يعتبر المحكمة القضائية العليا للعدالة.

زال هذا المجمع بلاشك بعد ذلك، إذ انتهى دوره بخراب أورشليم عام ٧٠م

أعضاؤه

١. **رؤساء الكهنة:** تعتبر الهيئة الأرستقراطية في أورشليم، تضم رؤساء الكهنة السابقين والعاملين مثل حنان حما قيافا وقيافا وبعضًا من الأسرة من أولادهما. انحرف هذا اللقب عن الدور الرئيسي له وهو العمل الديني البحت ليمارسوا العمل السياسي تحت ستار الدين.

٢. **الصدوقيون،** ويدعون أحيانا الكهنة أو الشيوخ، ولم يكونوا كهنة بالمفهوم الديني كما ورد في أسفار موسى، وإنما كانوا اسبه بهيئة قضائية، وهم ملتصقون برؤساء الكهنة، يحملون عداء خفيا للفريسيين.

٣. **الفريسيون،** يعتبرون أنفسهم حماة الناموس والتقليد اليهودي. حرفيون إلي أبعد الحدود، لهم سلطان قوي في المجامع المحلية. كانوا يندسون بين الشعب لإثارة تساؤلات واعتراضات في الحديث مع يسوع المسيح لعلهم يستطيعون أن يبلغوا مجمع السنهدرين بما يحسبونه انحرافات عن الناموس.

٤. **الكتبة،** وهم متبحّرون في الناموس الموسوي (مت ٢٢: ٣٥، لو ٧: ٣٠) ويدعون معلمي الناموس *nomodidashalos* (لو ٥: ١٧، ٣٤).

بدأت هذه الفئة تظهر بعد ظهور عزرا الكاتب (نح ٨–١٠) حيث كان يقرأ الشريعة.

تطوّر دور الكتبة كمعلمين من تفسير الشريعة إلى ممارسة العدالة، وكان يُطلب احترامهم أكثر من الوالدين، لأن الأبناء والآباء ملتزمون باحترام معلّميهم.

المجمع الأورشليمي والمجامع المحلِّية

حسب التقليد اليهودي يوجد نوعان من المجامع *sunedria*، السنهدرين العالي في أورشليم يضم ٧١ عضوًا، والسنهدرين الابتدائي في البلاد الأخرى ويضم كل مجمع ٢٣ شخصًا يعيِّنهم السنهدرين

[1] *Josephus: Antiq. 14:8:3-5.*
[2] *Josephus: Antiq. 14:9:4.*

العالي.

بحسب المِشناه *Mishna* يضم السنهدرين العالي ٧٠ عضوًا مع الرئيس ونائب الرئيس، وأيضًا خدّام المحكمة.

يُعتقد أن العضوية تستمر مدى الحياة، أما الأعضاء الجدد فيقوم بتعيينهم الأعضاء القائمون أو السلطة السياسية العُليا.

سلطاته

كانت سلطته القضائية في أيام السيد المسيح محدودة بالإحدى عشر منطقة لليهودية، لذا لم يكن قادرًا على إصدار حكم جنائي ضد ربنا يسوع مادام مقيمًا بالجليل، اللهم إلا متى دخل حدود اليهودية.

قانونيًا لم يكن له سلطان على اليهود، لكن أدبيًا كانت المجامع المحلّية واليهود بوجه عام أينما وجدوا يميلون للطاعة لقرارات مجمع السنهدرين العالي. ولم تكن المجامع المحلّية ملتزمة بالرجوع إليه، اللهم إلا في الاستشارة في القضايا الخاصة بالشريعة.

اجتماعاته

عادة كانت المحاكم المحلّية تجتمع في يومي الاثنين والخميس من الأسبوع، فيما عدا أيام الأعياد، وبالأكثر لا تجتمع في يوم السبت. وكان مجمع السنهدرين يجتمع في الموضع المدعو *Xystos* أو *Xistus* وهو في الجانب الشرقي في بيت رئيس الكهنة.

الإجراءات القانونية

بحسب المِشناه يجلس الأعضاء في شبه نصف دائرة ليرى كل منهم الآخرين. ويجلس أمامهم كاتبان للمحكمة، واحد عن اليمين، والآخر عن اليسار، عملهم هو حصر الأصوات الخاصة بتبرئة المتهم أو إدانته. ويجلس أمامهم ثلاثة صفوف من التلاميذ المتعلّمين لكل منهم كرسيه. وكان المتهم أو السجين يلتزم بالظهور في ثياب متواضعة تدلّ على الحزن.

في القضايا الخاصة بالإعدام يبدأون بالأشخاص الذين يطلبون براءته ليقدموا حججهم، ولا يسمح للتلاميذ أن ينطقوا بشيء ضد المتهم، إنما إن وُجد ما هو لصالحه ينطقون به. من يقدم حججًا للبراءة لا يقدر أن يقدم ما هو ضد المتهم، بينما يسمح العكس للذين يتهمونه يمكن أن يقدموا أمورًا في صالحه.

يبدأ أخذ الأصوات بأصغر الأعضاء، وأحيانًا يُسمح بأن يبدأ التصويت بأهم الأعضاء. بالنسبة

لبراءة المتهم فيكفي وجود أغلبية الأصوات، أما بالنسبة للإدانة فلابد من أن تكون الأغلبية مضافًا إليها اثنين.

هذا ولا يجوز إصدار الحكم في يوم المرافعة، إنما يلزم مناقشة الأمر وإصدار الحكم في اليوم التالي، باستثناء حالة الشخص الذي يضلل الشعب، فيمكن محاكمته في نفس اليوم أو ذات الليلة. بخلاف هذه الحالة، لم يكن ممكنًا مناقشة قضية تستوجب الموت في يوم الجمعة أو اليوم السابق للعيد، بل تُرجأ إلى ما بعد السبت أو ما بعد العيد.

كانت سلطة المجمع الدينية والمدنية والجنائية تحدّها الهيئات الحاكمة الأجنبية في أرض إسرائيل، وهي تختلف من وقت إلى آخر حسب الحاكم.

كان يُقاد الشخص وهو في طريقه للموت يتقدمه منادٍ يُعلن: "وُجد فلان بن فلان مستحقًا للموت، فإن كان يريد شخص ما أن يستوضح الأمر فليتقدم ويُعلن ذلك"[1].

كان يطلب من المحكوم عليه بالموت أن يعترف بجريمته حتى يتمكن من أن يكون له نصيب في الحياة العتيدة.

[1] *Sanhedrin 6:1.*

من وحي يو ١٢

أطيابك هي سرّ حياتي!

❖ هب لي أن أعبر إليك مع أحبائك مريم ومرثا ولعازر.
أدخل معهما إلى الوليمة،
فحيث حللت تُقيم وليمة سماوية مفرحة!
أسكب مع مريم طيبًا خالصًا على قدميك!
أنه ليس من عمل يداي،
ولا اشتريته بمالي الخاص!
فما أقدمه لك هو ثمر روحك القدوس.
أسكب الطيب فأشتم رائحتك الذكية.
رائحتك ملأت بيتي الداخلي، وعطّرت كل كياني.
رائحتك هي سرّ حياتي!

❖ نعم، اشتمّها يهوذا السارق رائحة موت لموت،
فافتقد الحب، لأنه لا يُدرك إلا الخيانة.
وحسب العطاء خسارة،
لأن محبة المال أعمته!
أما أنا فأشتمّها لأحيا بها.
اسمح لي مع مريم أن أمسح قدميك بشعر رأسي!
أقدّم كل ما يظنّه العالم مجدًا لخدمة اخوتك المحتاجين!
الفقراء والمحتاجون هم قدماك، بهما أسير إليك.
لأكرمهما فأكرم قديك.

❖ مع مرثا تمتد يداي لخدمة جسدك.
فكل عطاء لإخوتك تستقبله يداك!
هب لي أن أعمل،
فمع كل حركة أرى يديك تعملان بي وفيّ!

يداك في داخلي مبسوطتان للعمل بلا انقطاع!

❖ مع لعازر أجلس صامتًا!
حياتي المُقامة بك هي شهادة حيّة لحبك وجلالك!
صمتي أعظم، وأقوى من كل كلمة مقولة!

❖ هوذا اليونانيون الغرباء يطلبون رؤياك.
من يقدر أن يلتقي بك ما لم ترتفع على الصليب.
كيف نتمتع بالثمر الإلهي ما لم تُدفن،
تقوم فتقيمنا معك!

❖ هوذا السماء تشهد لك،
أنت موضوع كل النبوات،
أنت محقق مشيئة الآب،
أنت مخلص العالم كله!
رائحة صليبك ملأت السماء والأرض!
اشتمّها الآب رائحة سرور.
وتنسمها السمائيون فأدركوا أسرارًا خفية.
وتعرَّف عليها البشر فصاروا ملائكة!
أطياب صليبك هي سرّ حياتي!

الباب الثالث

إعلانه عن ذاته لخاصته

ص ١٣ – ص ١٧

أحاديث السيد المسيح الوداعية ١٣ – ١٦.
الصلاة الوداعية ١٧.

أحاديث السيد المسيح الوداعية

يو ١٣ – يو ١٦

في الأصحاحات السابقة (١–١٢) قدم لنا الإنجيلي قصة الحب الإلهي حيث تجسد كلمة الله، وصار إنسانًا لكي يخدم البشرية الساقطة ويعلن حبه ورعايته الفائقة لكل محتاج، ويوجه أنظار البشرية إلى شخصه كمحبٍ للبشر قادر أن يجددهم ويشبعهم ويشفيهم ويهذبهم. الآن جاءت ساعة تجلي الحب الإلهي حيث يدخل المسيا طريق الآلام حتى الصلب من أجل كل نفسٍ بشرية. وقد دعا البعض الأصحاحات ١٣–١٧ حيث التقى السيد بتلاميذه في العلية لينطلق بهم إلى بستان جثسيماني **بإنجيل المحبة**. يروي لنا الإنجيلي خدمة غسل الأرجل التي ينفرد بها المخلص، يهبها لتلاميذه لعلهم يشاركونه حبه بغسلهم أقدام إخوتهم. كما أسس سرّ الفصح الحقيقي الذي ترقبته الأجيال، ويبقى موضوع تسبيح السمائيين، وأخيرًا قدم أحاديث وداعية هي رصيد حي للكنيسة.

استخدم الإنجيلي كلمة "**محبة**" كاسم أو فعل ٩ مرات في الأصحاحات ١–٢، بينما استخدمها ٣٠ مرة في الأصحاحات ١٣–١٧. فقصة العلية طابعها الرئيسي هو الحب.

في أحاديثه الوداعية قدم السيد المسيح الكثير من أسراره لتلاميذه الخاصة بالعمل الإلهي في حياتهم، فكشف عن الآتي:

١. **خطته الإلهية**، لكي يهيئ لهم موضعًا معه في السماء المتسعة، والتي تترقب مجيء البشرية للتمتع بشركة المجد الأبدي. كشف لهم أن كل ما يحدث له من الآلام والصلب ليس بكارثة مُرة، وإنما عطية الآب له ليحقق حبه للبشرية، فيدخل بهم إلى حضن الآب.

٢. **شخصه الإلهي**: فهو واحد مع الآب، يتمم مشيئة الآب بمسرة، ما ينطق به وما يعمله إنما هي كلمات الآب محب البشر وأعماله.

٣. **مركزهم الجديد**، كأغصان في الكرمة الإلهية. فإن كان الإنسان قد طُرد من جنة عدن، صار له مسيحه كرمة إلهية، بل صار الإنسان غصنًا يحمل ثمرًا فائقًا للطبيعة، يُسر الله بثمره الذي من عمل يديه.

٤. **إمكانياتهم الجديدة**: الحب الباذل لأجل الآخرين. حيث يحسب المؤمن نفسه غير أهلٍ أن يُبذل من أجل إخوته، مشاركًا مسيحه مجد الحب الباذل حتى الصليب.

٥. **دورهم في العالم**: يحبون البشرية، والعالم يبغضهم. إذ يقدمون ما هو لمملكتهم، مملكة النور

والحب، ويقدم العالم الشرير ما لمملكته من ظلمة وبغض.

٦. **مساندتهم الإلهية:** يرسل لهم الباراقليط، الذي يسحبهم من الارتباك بالآلام التي تواجههم، ليشتموا فيها الحب لله والناس، والمجد والكرامة كشركاء للمسيح في آلامه، والتمتع برائحة قيامة المصلوب الذكية. يرفعهم الروح القدس فوق الآلام، فلن تقدر أن تحاصرهم أو تضيق عليهم، بل يرونها طريق الجلجثة الذي ينطلق بهم إلى السماوي المصلوب، فينعموا بالتمتع به في سماواته.

الأصحاح الثالث عشر

خدمة غسل الأرجل

إذ انتهى السيد المسيح من أحاديثه العامة الآن يبدأ في أحاديث خاصة مع تلاميذه قبل القبض عليه، غايتها تعزيتهم أثناء آلامه والكشف عن أسراره، وتقديم نصائح وداعية. يتحدث معهم كأب مع أولاده، يقدم لهم حكمته ميراثًا يغنيهم ويسندهم. لقد جاءت ساعة انتقاله من العالم لهذا أراد أن يدبر أمور بيته.

١. غسل أقدام التلاميذ ١-١٧.
٢. حديثه عن مسلمه ١٨-٣٠.
٣. مجد ابن الإنسان ٣١-٣٣.
٤. المحبة الأخوية ٣٤-٣٥.
٥. إنذار بطرس منكر المسيح ٣٦-٣٨.

١. غسل أقدام التلاميذ

"أما يسوع قبل عيد الفصح،
وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب،
إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم،
أحبهم إلى المنتهى". [١]

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح قدم أعمالاً عظيمة منذ بداية خدمته، أما وقد جاء وقت رحيله عنهم منطلقًا إلى الآب، فقدم لهم حبًا فائقًا، خلال الصليب، ليكون سندًا لهم بعد صعوده.

ونحن أيضًا إذ لا ندرك وقت رحيلنا من العالم يليق بنا مع كل نسمة من نسمات حياتنا أن نقدم حبًا باذلاً لكل من هم حولنا، فنترك لهم ميراثًا من الحب، وتبقى ذكرياتنا لديهم هي أعمال المحبة الخالدة.

يتساءل كثير من الدارسين عن موعد الفصح اليهودي، هل كان في يوم خميس العهد حيث قام السيد المسيح، حمل الفصح الحقيقي، بتأسيس سرّ الفصح المسيحي؟ أو أنه كان في يوم الجمعة

العظيمة حيث تحقق الفصح الحقيقي في ذات يوم الفصح اليهودي ليبطل الرمز؟

كثرت الكتابات جدًا في هذا الأمر، غير أن ما ليس فيه خلاف، أن بعض الجماعات كانت تمارس الفصح بتقويم يختلف عما تمارسه القيادات اليهودية الدينية الرسمية في أورشليم. لهذا يرى الكثيرون أن ما ورد في الأناجيل الثلاثة عن احتفال السيد المسيح وتلاميذه بالفصح في يوم الخميس كان بتقويم استخدمه السيد، بينما قام مجمع السنهدرين وأتباعه بالاحتفال به يوم الجمعة، غير أنه لم يكن ممكنًا ذبح خروف الفصح إلاَّ يوم الجمعة بعد عرضه على الكهنة في يوم الفصح الرسمي.

ما يشغل ذهن الإنجيلي ليس موعد تأسيس الفصح المسيحي، وإن كان قد أورد أنه "**قبل عيد الفصح**"، وإنما انشغاله بالفصح الحقيقي، بذبح **حمل الله** الذي يحمل خطية العالم على الصليب. إنه فصح الدهور كلها، لا بل والفصح الذي يشغل السماء والسائيين، فقد أُشير إلى السيد المسيح كحملٍ في سفر الرؤيا ما يقرب من خمس عشرة مرة. رأى الإنجيلي "الخروف قائم في السماء كأنه مذبوح"، ورأى الكنيسة الممجدة في السماء "امرأة الخروف"، والحياة السماوية هي "عُرس الحمل" الذي جاء وامرأته هيأت نفسها (رؤ ١٩: ٧–٨). رأى الحمل هو قدس أقداس السماء أو الهيكل الأبدي وسراجها (رؤ ٢١).

الآن يحدثنا الإنجيلي يوحنا عن "**غسل الأرجل**" كخدمة حب وبذل. حدث هذا أثناء الإعداد لسرّ الإفخارستيا وليس أثناء تناوله. وقد كان من عادة اليهود غسل الأقدام قبل العشاء.

لم يذكر الإنجيلي يوحنا أحداث أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس من الأسبوع الأخير حيث أوردها الإنجيليون الثلاثة السابقون في شيءٍ من التفصيل، ولم يرد أن يتحدث عن تأسيس سرّ الإفخارستيا (مت ٢٦: ٢٦؛ مر ١٤: ٢٢؛ لو ٢٢: ١٩).

إذ هو العالم بكل شيء جاءت الساعة التي سمح فيها لعدو الخير أن يكون له سلطان أن يتحرك ويحرك أتباعه لمقاومة السيد، وكما قال: "هذه ساعتكم وسلطان الظلمة" (لو ٢٢: ٥٣).

قوله "**جاءت ساعته**" لا تعني إتمام أمور محتمة لا سلطان له عليها، إنما هي ساعته التي تتحقق خلال سلطانه الإلهي لتحقيق خلاص العالم، دون أن يلزم الأشرار على ممارسة شرهم، إنما يحول شرهم للخير. إن كانت هناك حتمية لمجيء هذه الساعة، فهي حتمية حب الله الفائق الذي يطلب خلاص العالم. وبإعلانه عنها يكشف أنه جاء بإرادته من أجل هذه الساعة.

هنا يربط هذه الساعة بأمرين متكاملين، أو بأمرٍ واحد ذي وجهين، وهو انتقاله أو صعوده إلى الآب، وإعلان حبه اللانهائي لخاصته. وكأن صعوده إلى السماء ليس من أجله هو بل من أجل

محبوبيه كي يتمتعوا بصعودهم أو لقائهم مع الآب.

هكذا يقبل السيد أحداث آلامه حتى الصلب بروح الحب الفائق. آلامه هي موضع سروره. "من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب، مستهينًا بالخزي، فجلس عن يمين عرش الله" (عب ١٢: ٢).

❖ يقول يوحنا البشير: "**أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت**"، فهو لم يعرف ذلك حينئذٍ فقط، لكنه عرفها قديمًا.

وفي قوله عن السيد المسيح: "**لينتقل من هذا العالم إلى الآب**"، يسمى البشير هنا بصوتٍ عظيمٍ موت السيد المسيح انتقالاً.

وقوله: "**أحبهم إلى المنتهى**" أن السيد المسيح لبث محبًا لهم حبًا دائمًا.

❖ ماذا يعني: "**أحبهم إلى المنتهى**"؟ إنه كمن يقول: "يستمر يحبهم بلا انقطاع"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد عبر (إلى الآب) لكي يطعمنا، فلنتبعه حتى نقتات[2].

❖ نتمتع في آلام الرب وقيامته بالعبور من هذه الحياة القابلة للموت إلى الحياة الأخرى الخالدة، أي من الموت إلى الحياة[3].

❖ الآن تحقق هذا الرمز النبوي في الحق، عندما اقتيد المسيح كحملٍ للذبح (إش ٥٣: ٧)، لكي بدمه الذي يُرش على قوائم قلوبنا العليا، برشم علامة صليبه على جباهنا، نخلص من الهلاك الذي ينتظر العالم، وذلك كإسرائيل وهو يخلص من عبودية المصريين ودمارهم (خر ١٢: ٢٣). والعبور الكلي التقدير الذي نمارسه بعبورنا من الشيطان إلى المسيح، ومن العالم غير المستقر إلى مملكته المؤسسة حسنًا. لذلك فإننا بالتأكيد نعبر إلى الله الدائم أبديًا...

يمجد الرسول الله من أجل هذه النعمة الممنوحة لنا، فيقول: "الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته" (١ كو ١: ١٣).

هذا الاسم "**بصخة**" كما قلت أنه في اللاتينية يُدعى عبورًا... هكذا أنتم ترون هنا لنا بصخة وعبور. من أين وإلى أين يعبر؟ من هذا العالم إلى الآب.

---

[1] *Hom 70. PG 59: 413.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 53:6.*
[3] *Letters, 55.*

لقد وُهب الرجاء للأعضاء في رأسهم، حتى أنهم دون شك يتبعونه وهو يعبر قدامهم.

وماذا عن غير المؤمنين الذين يقفون بعيدًا عن هذا الرأس وعن أعضائه؟ ألا يعبر هؤلاء أيضًا حيث أنهم لا يقطنون هنا أبديًا؟ واضح أنهم يعبرون، لكن **يوجد فارق بين من يعبر من العالم ومن يعبر مع العالم**. وبين من يعبر إلى الآب ومن يعبر إلى العدو. فإن المصريين أيضًا عبروا، لكنهم لم يعبروا من البحر إلى الملكوت، وإنما من البحر إلى الهلاك[1].

❖ "**أحبهم إلى المنتهى**" [١]. هو نهايتنا، فيه نعبر... يُفهم ذلك بأن حبه ذاته هو الذي حمله إلى الموت[2].

القديس أغسطينوس

وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه". [٢]

كان السيد المسيح يعلن أن لحظات قتله قد اقتربت، وأن أحد تلاميذه يخونه، والآخر ينكره، والبقية تتركه... هذا كله في عينيه عطية الآب له ليقيم الخلاص.

في نفس اللحظات كان ما يشغل الشيطان هو أن يسيطر على قلب يهوذا ليحركه نحو خيانة سيده، ظانًا أنه قادر أن يطفئ النور الإلهي، ويفسد الحب السرمدي. لكن الله الكلي الصلاح يحول حتى شر إبليس لخيرنا.

ربما يتساءل البعض: ألم يكن قد ألقى الشيطان بفكر الخيانة على يهوذا حين تحرك قبلاً والتقى مع الفريسيين واتفق معهم على ذلك؟ يرى البعض أن عدو الخير ألقى ببذار الفكرة، وكان يرويها بمياه الطمع والخيانة، لكن الآن **يدخل عدو الخير إلى قلب يهوذا كصاحب ومالكٍ مستقر في موضعه، وليس كمن يثير فكره، ويحاول إغواءه**. حين نفتح الباب للشر يلقي العدو بذاره كضيفٍ يحاول بوسيلة أو أخرى أن يقتحم ما ليس له. وحين نقبل أفكاره، ونبدأ في التحرك، يدخل في جسارة ليقطن كمالكٍ، وكقائدٍ يحرك عجلة القيادة دون إمكانية للمقاومة من جهتنا. لهذا كل فكر فيه نتراخى عن مقاومته إنما يفتح باب قلوبنا وأفكارنا ليجد العدو نفسه صاحب الحق في الدخول والسيطرة.

❖ بقي سيده إلى اليوم الأخير مستمرًا في عطائه له[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 55: 1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 55: 2.*
[3] *Homilies on St. John 70: 1.*

❖ في حالة يهوذا كُتب: "**وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا الإسخريوطي بن سمعان أن يسلمه**" [٢]. لذلك يمكنكم القول عن كل الذين جُرحوا في القلب بواسطة الشيطان أن الشيطان قد ألقى في قلب هذا أن يرتكب الزنا، أو ذاك أن يرتكب الغش، وفلان أن يصير مولعًا بالشهرة... وهكذا بالنسبة للخطايا التي يلقيها الشيطان في القلب غير المسلح بدرع الإيمان الذي به يمكنه أن يطفئ ليس سهمًا أو اثنين بل كل سهام الشريرة الملتهبة نارًا (أف ٦: ١٦)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ "**ألقى الشيطان في قلب يهوذا**"... أي قدم اقتراحًا روحيًا، لم يدخل إليه خلال الأذنين بل خلال الأفكار، وبذلك لم يدخل بطريق جسداني بل روحي. فما ندعوه روحيًا لا يفهم دومًا بطريقة ممدوحة. فقد عرف الرسول أمورًا روحية للشر في السماويات التي يشهد أنه يلزمنا أن نجاهد ضدها (أف ٦: ١٢)[2].

القديس أغسطينوس

"**يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه،**
وأنه من عند الله خرج،
وإلى الله يمضي". **[٣]**

❖ على حسب ظني دفع الآب هنا خلاص المؤمنين إلى السيد المسيح. فعندما يقول: "كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي" (مت ١١: ٢٧)، يتحدث عن هذا النوع من الدفع. كما ذكر السيد المسيح نفسه في موضع آخر "كانوا لك، وأعطيتهم لي" (يو ١٧: ٦) وأيضًا: "لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجذبه الآب" (يو ٦: ٤٤). وأيضًا: "إن لم يكن قد أُعطي من السماء" (٣: ٢٧). فإن الإنجيلي يقصد هذا أو ذاك أن المسيح ليس بأقل (من الآب) بهذا العمل، حيث أنه جاء من عند الله وذهب إلى الله، ويملك كل شيء. فإذا سمعت دفع وسلم، فلا تظن ظنًا بشريًا، إنما بين إكرامه الآب وائتلافه معه، لأنه كما أن أباه دفع إليه، كذلك دفع هو إلى أبيه، وبين ذلك إذ قيل "ولكن كل واحدٍ في رتبته: المسيح باكورة، ثم الذين للمسيح في مجيئه. وبعد ذلك النهاية متى سلم الملك لله الآب" (١ كو ١٥: ٢٣).

لكن يوحنا يقول هذا بطريقة بشرية مظهرًا عناية (المسيح) العظيمة بهم، ومعلنًا حبه غير المنطوق

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 24.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 55: 4.*

به، إذ يهتم بهم كما بنفسه، معلمًا إياهم أم كل صلاح، أي التواضع، إذ قال إنه بداية كل فضيلة ونهايتها.

ليس بلا سبب يقول: "**من عند الله خرج، وإلى الله يمضى**" [٣]، وإنما لكي نتعلم أنه فعل ما يليق بذاك الذي جاء من هناك ويذهب إلى هناك، موطئًا بقدميه على كل كبرياء[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه لم تدُفع إلى يديه بعض الأمور دون غيرها، بل "**كل شيء**" [٣]. إذ كان داود أيضًا متطلعًا بالروح يقول عن هذا: "قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت قدميك" (مز ١١٠: ١). فإن أعداء يسوع أيضًا هم جزء من "**كل شيء**"، الذي عرفهم يسوع بسابق معرفته أنهم قد دُفعوا إليه من الآب. ولكن لكي ندرك بأكثر وضوح ما تعنيه العبارة: "**الآب قد دفع كل شيء لديه**" [٣]، لننتبه إلى العبارة: "وكما في آدم يموت الجميع، هكذا في الرب يحيا الجميع" (راجع ١ كو ١٥: ٢٢)[2].

العلامة أوريجينوس

❖ إذ عرف الرب ما سيفعله من أجل أصدقائه وبصبرٍ استخدم أعداءه، بهذا دفع إليه الآب كل شيء في يديه، كل من الشرير ليستخدمه، والصالحين لأجل الهدف النهائي[3].

القديس أغسطينوس

"**قام عن العشاء، وخلع ثيابه،**

وأخذ منشفة واتزر بها". **[٤]**

لم يقم عن تناول العشاء، إنما ترك موضعه على المائدة بعد أن جلس الحاضرون ينتظرون العشاء. خلع السيد ثوبه الخارجي أو معطفه، واتزر بمنشفة ليأخذ شخصية خادم، ولكي يتهيأ ليجفف أرجلهم بعد غسلها.

كان غسل الأرجل يتم قبل البدء في تناول الطعام، وإذ كانت الشوارع والأزقة أغلبها ترابية، والأحذية عبارة عن "صنادل مفتوحة"، ولم تُعرف الجوارب في ذلك الحين، يمكننا أن ندرك كيف كانت الأقدام متسخة، وكيف تكون رائحتها، خاصة في الحرّ أو مع السير لمدة طويلة. لهذا كان غسل

---

[1] *Homilies on St. John 70: 1.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 26 – 27.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 55: 5.*

الأقدام من عمل العبيد أو أقل الحاضرين كرامة.

عندما أرسل داود النبي إلى أبيجايل يطلبها زوجة، في تواضع قامت وقالت له: "هوذا أمتك جارية لغسل أرجل عبيد سيدي" (١ صم ٢٥: ٤١). يرى البعض أن السيد المسيح بدأ بغسل قدمي يهوذا، لعل ضميره يؤنبه ويندم على ما بدأ يخططه.

مسيحنا الذي في تواضعه قال ليوحنا المعمدان: "اسمح الآن لأنه هكذا يليق أن نكمل كل برّ" (مت ٣: ١٥) يكشف عن برّ التواضع الذي له قبل تأسيس سرّ الإفخارستيا. فمن منا يجسر ويقترب إلى السرّ ما لم أولاً تنحني نفسه مع سيده لينال كرامة مخلصه، فيقترب إلى التناول من جسد الرب ودمه المبذولين لأجله؟ مسكين من يقترب من هذا السرّ بقلبٍ متعجرفٍ أو نفسٍ متعالية دون انحناء لغسل أقدام حتى مقاوميه ومضطهديه.

❖ يفهم "**حين كان العشاء**" أن العشاء صار مُعدًا، موضوعًا على المائدة لكي يستخدمه الضيوف[1].

القديس أغسطينوس

❖ تعال أيها الرب يسوع، ولتخلع ثيابك، هذه التي لبستها من أجلي.

لتصر عاريًا لكي تكسوني برحمتك.

لتتزر من أجلنا بمنشفة، لكي تجعلنا نتزر بعطية الخلود.

لتسكب ماءً في مغسل، فلا تغسل أقدامنا فحسب بل ورأسنا، ليس فقط لأجسادنا بل ولخطوات نفوسنا. أود أن تنزع كل دنسٍ لضعفنا...

يا لعظمة سموك! كخادمٍ تغسل أقدام تلاميذك، وكإله ترسل ندى من السماء.

ليس فقط تغسل الأقدام، وإنما تدعونا أيضًا أن نجلس معك، وبمثال كرامتك تحثنا قائلاً: "**أنتم تدعونني معلمًا وسيدًا، وحسنًا تقولون لأني أنا كذلك، فإن كنت أنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض**" [١٣-١٤].

إذن أود أنا نفسي أن أغسل أقدام إخوتي؛ أود أن أكمل وصية ربي، فإني لا أخجل من نفسي، ولا أستخف بما فعله ذاك أولاً.

سرّ عظيم وحسن لا يفهمه أحد![2]

القديس أمبروسيوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 55: 3.*

[2] *Of the Holy Spirit, 1: 1: 13 – 15.*

"ثم صب ماء في مغسلٍ،
وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ،
ويمسحها بالمنشفة التي كان متزرًا بها". [٥]

انتظر السيد حتى اتكأ الجميع حول المائدة، وكانت العادة في تلك الأيام ألا يجلس الآكلون على كراسي حول المائدة، ربما يمكن للعبد أن يجلس على كرسي حين يأكل، أما الشخص الحرّ فيتكئ على ذراعه (الكوع) الأيسر ورأسه متجهة نحو المائدة والقدمين من الجانب الآخر.

كانت العادة أن يقوم أحد العبيد بغسل الأقدام، وإذ لم يوجد بينهم عبد ربما توقع الكل أن أقلهم سنًا أو مركزًا يقوم بهذا العمل، لكن السيد قام بنفسه بهذا الدور. وهو بهذا **يرفع من كرامة العبيد**، إذ هم يمارسون هذا العمل قسرًا بحكم وضعهم الاجتماعي، أما السيد فقام به بكامل حريته بمسرة، خلال تواضعه وحبه. هكذا لا يعود يأنف العبد من ممارسة أي عمل، يمارسه من أجل الرب، لا خوفًا من الناس. وكما يوصيهم القديس بولس: "أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوفٍ ورعدةٍ في بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضي الناس، بل كعبيد المسيح، عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أن مهما عمل كل واحدٍ للخير فذلك يناله من الرب، عبدًا كان أم حرًا" (أف ٦: ٥–٨).

يرى **العلامة أوريجينوس** أن السيد المسيح لم يغسل قدمي يهوذا، إذ ليس له نصيب معه بسبب إصراره على شره. بينما يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد بدأ بغسل قدمي يهوذا أولاً ليقدم له كل عمل محبة حتى اللحظات الأخيرة قبل قيامه بالخيانة، لعله يراجع نفسه ويتراجع عن شره.

❖ يبدو لي أنه غسل قدمي الخائن أولاً بقوله: "**وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ**" [٥][1].

❖ انظر كيف أظهر السيد المسيح طريق التواضع، ليس بغسل أقدامهم فقط، لكنه أوضحه بطبيعة أخرى إذ نهض بعد اتكاءهم كلهم. ثم لم يغسل أرجلهم على بسيط الحال، لكنه غسلها بعد خلع ثيابه. ولم يقف عند هذا الحد، لكنه اتزر بإزار، ولم يكتفِ بهذا لكنه ملأ المغسل بنفسه، ولم يأمر آخر أن يملأه. مارس أعمال الغسل بنفسه كلها ليرينا أن نمارس أعمالنا لا في شكليات بل بكل نشاطنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Homilies on St. John 70: 2.*

❖ لم يأخذ إبراهيم بنفسه ماءً، ولا قام بنفسه بغسل أقدامهم كغرباء جاءوا إليه، بل قال: "ليؤخذ ماء ويغسلوا أرجلكم" (راجع تك ١٨: ٤). كما لم يحضر يوسف ماءً ليغسل أقدام اخوته الإحدى عشر، إنما الرجل الذي على بيت يوسف أحضر إليهم شمعون وجاء بماء ليغسل أقدامهم (تك ٤٣: ٢٣–٢٤). أما ذاك الذي قال: "جئت ليس كمن يتكئ على مائدة بل كمن يخدم" (راجع لو ٢٢: ٢٧). وبحق يقول: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩)، هو بنفسه صب ماءً في مغسل. فإنه قد عرف أنه لا يستطيع أحد أن يغسل أرجل التلاميذ مثله بطريقة بها يكون لهم نصيب معه [٨][1].

❖ الماء في رأيي هو الكلمة الذي يغسل أقدام التلاميذ عندما جاءوا إلى المغسل وجلس يسوع أمامهم.[2]

العلامة أوريجينوس

لم يقل الكتاب "**غسل أرجل التلاميذ**" بل قال: "**ابتدأ** يغسل أرجل التلاميذ" وكما يقول **العلامة أوريجينوس** بأنه قد بدأ ولم يتوقف عن الغسل، إذ كانوا في حاجة إلى غسلٍ مستمرٍ، حيث تدنسوا في ذات الليلة بعد الغسل: "كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة" (مت ٢٦: ٣١)، كما قال لبطرس: "لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات" (يو ١٣: ٣٨)[3].

❖ ما العجب في أن يصب ماءً في مغسلٍ ليغسل أقدام تلاميذه ذاك الذي سكب دمه على الأرض لكي يغسل دنس خطاياهم؟

ما العجب في أنه مسح بالمنشفة التي اتزر بها الأقدام التي غسلها هذا الذي بجسده نفسه الذي التحف به أقام ممرًا ثابتًا لخطوات الإنجيليين الذين له؟

لكي يتزر بالمنشفة ألقى بثيابه التي كان يرتديها جانبًا، ولكنه حين أخلى ذاته (من مجد لاهوته) لكي يأخذ شكل العبد لم يلقِ بما هو لديه بل قبل ما هو ليس لديه قبلاً[4].

القديس أغسطينوس

"فجاء إلى سمعان بطرس،

قال له ذاك:

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 47 – 49.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 50.*
[3] *Cf. Commentary on John, Book 32: 52 – 58.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 55: 7.*

يا سيد أنت تغسل رجلي". [٦]

واضح أن التلاميذ كانوا في حالة شبه ذهول أمام ما فعله السيد، فلم ينطق أحد بكلمة حتى جاء دور بطرس الرسول. كثيرًا ما رأى القديس بطرس سيده يتواضع لكنه لم يكن يتصور أنه يبلغ إلى هذه الدرجة أن يقوم بدور العبد الذي يغسل الأقدام.

❖ كأنه يقول: هل بهاتين اليدين اللتين بهما فتحت العيون وطهرت البرص وأنهضت أمواتًا، تغسل بهما رجلي؟! ولذلك لم يتضرع إليه بقول أكثر من قوله: "**أنت تغسل رجلي**" لأن هذا القول كان كافيًا وحده توضيح كافة ما في ذهنه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ واضح من قوله "**فجاء إلى سمعان بطرس**" أنه لم يبدأ غسل الأقدام به مما يؤكد أنه لم يكن في ذهن السيد المسيح أن يُوجد أحد رئيسًا على التلاميذ.

القديس أغسطينوس

"**أجاب يسوع وقال له:**
لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع،
ولكنك ستفهم فيما بعد". [٧]

كأنه يقول له: "اسمح لي الآن أن أفعل ذلك، وسأوضح لك قريبًا طبيعة هذا العمل وغايته".

❖ ماذا يعني: "**ستفهم فيما بعد**"؟ متى؟ عندما تخرج شياطين باسمي، عندما تراني مرتفعًا إلى السماوات، عندما تعرف بالروح إني أجلس عن اليمين، عندئذٍ تفهم ما يحدث[1].

❖ معنى هذا انك ستعرف أي ربح عظيم تجنيه من هذا، ربح الدرس الذي تتعلمه كيف أن هذا يقودنا إلى كل تواضعٍ[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بالنسبة لي غسل أقدامكم هو رمز لأساسات نفوسكم التي تتطهر، لكي تتجمل بالتبشير بالصالحات (رو ١٠: ١٥؛ إش ٥٢: ٧)، وتقتربون إلى نفوس البشر بأرجلكم الطاهرة. لكنكم الآن لا تعرفون هذا السرّ، إذ ليس لكم بعد المعرفة الخاصة به... عندئذٍ تفهمون هذا السرّ، وتستنيرون

[1] *Hom. 70. PG 59: 416.*
[2] *Homilies on St. John 70: 2.*

بمعرفة أمور ليست وضيعة ولا تافهة.[1]

العلامة أوريجينوس

"قال له بطرس:

لن تغسل رجلي أبدًا,

أجابه يسوع:

إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب". [٨]

لم يكن ممكنًا لبطرس الرسول أن يرى سيده الذي له كل المهابة أن يحتل مركز عبدٍ ليمارس غسل الأقدام، لهذا اعترض على تصرف سيده. لم يكن يدرك الرسول ما يفعله سيده، أنه احتل مركز العبد خلال محبته الفائقة، حتى يسمح ليهوذا أن يبيعه كعبدٍ، ويسمح لعدو الخير أن يتمم خطته نحو الخلاص بالصليب.

كأنه يقول له: "لا يمكنك أن تكون لي تلميذًا ما لم أغسلك". فإنه ما لم تمتد يد السيد المسيح لتغسل النفس الداخلية لن يستطيع الإنسان أن يتمتع بالخلاص، ولا يتأهل أن يكون تلميذًا للمخلص. المؤمن في حاجة أن يغتسل في المعمودية خلال عمل روح الله القدوس (١ كو ٦: ١١؛ تي ٣: ٥–٦)، وأن يغتسل بالدم الثمين (١ يو ١: ٧). إننا نحتاج إلى غسل أقدام نفوسنا التي تتسخ خلال سيرها في هذا العالم، هذا العمل خاص بالسيد المسيح نفسه غافر الخطايا ومخلص النفس من الفساد. نتمتع به خلال سرّ التوبة والاعتراف، بدونه لن نقدر أن نشترك في التمتع بذبيحة المسيح (سرّ الإفخارستيا).

ماذا يعني: "**إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب**"؟ هنا يشير السيد إلى أن عملية الغسل من اختصاصه، فلن يظهر إنسان طاهرًا في يوم الرب العظيم، وينال نصيبه، أي الشركة مع المسيح في المجد، بمجهوده الشخصي، وإنما بعمل المسيح نفسه غاسل نفوسنا من أدناس الخطية.

كثيرًا ما نعترض على تصرفات الرب بسبب عمانا الداخلي، وعدم استيعابنا لحكمته الإلهية وخطته نحونا.

❖ لم يدرك السرّ، لذلك رفض الخدمة، إذ ظن أن تواضع الخادم سيُصاب بضررٍ، وذلك إن سمح للرب أن يخدمه[2].

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 87: 88.*

[2] *On the Mysteries, 6: 31.*

القديس أمبروسيوس

❖ واضح أنه وإن كان قد قال هذا للمعلم بنية صادقة وقورة، لكنه تكلم بما يضر نفسه. الآن الحياة مملوءة بأخطاء من هذا النوع، من أناسٍ يعتقدون بما يظنونه أنه الأفضل ولكن في جهالة يتكلمون أو يعملون أمورًا تقودهم إلى اتجاه مضاد[1].

❖ كما أن بطرس القائل: "**لن تغسل رجلي أبدًا**" مُنع من أن يستمر فيما زعمه حتى يكون له نصيب مع يسوع، هكذا أنتم يا من تخطئون بحكمٍ متسرع وتعدون بهذا وذاك في تهورٍ يكون الأفضل لكم أن تكفوا عن الاستمرار في قراركم الخاطئ وتفعلون هكذا أو ذاك بأكثر تعقل[2].

❖ إن لم نفعل هذا (تقديم أقدامنا للسيد المسيح لغسلها) لا يكون لنا نصيب معه، ولا تكون أقدامنا جميلة. هذا على وجه الخصوص أمر مهم، متطلعين إلى أننا غيورون لنوال المواهب الأعظم (١ كو ١٢: ٣١)، ونرغب أن ننضم إلى الذين يبشرون بالصالحات[3].

❖ أتجاسر فأقول، بما يتناغم مع العبارة: "إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب"، أنه لم يغسل قدمي يهوذا، لأنه قد وضع بالفعل في قلبه أن يخون معلمه وربه. لقد وجده الشيطان غير مرتدٍ سلاح الله الكامل، وليس له درع الإيمان الذي به يطفئ سهام الشريرة الملتهبة نارًا (أف ٦: ١٣–١٦)[4].

العلامة أوريجينوس

"**قال له سمعان بطرس:**
يا سيد ليس رجلي فقط،
بل أيضًا يدي ورأسي". **[٩]**

ربما شعر بطرس بالحاجة إلى غسل روحي كامل، لذلك اشتهى لا أن يغسل الرب قدميه بل أن يغسل كل كيانه. يرى البعض في طلب بطرس الرسول هنا نوع من التواضع، لكنه أيضًا حمل نوعًا من الكبرياء، إذ لم يقبل فكر المسيح، بل أراد أن يتمم فكره هو. أحيانًا نريد أن نقدم لله مشورتنا ليعمل حسب هوانا، حتى وإن كنا نطلب أمورًا روحية بإخلاص.

---

[1] *Cf. Commentary on John, Book 32: 57 – 58.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 96.*
[3] *Commentary on John, Book 32: 101.*
[4] *Commentary on John, Book 32: 19.*

يقول **العلامة أوريجينوس** أن بطرس الرسول لم يكن في حاجة إلى غسل يديه، لأن رب المجد يسوع لا يطلب الحرف القاتل كغسل الأيدي عندما يأكلون خبزًا (مت ١٥: ٢). كما لم يكن في حاجة إلى غسل رأسه التي لم يرد يسوع أن تُغطى بعد إذ استقرت عليها صورة الله ومجده (١ كو ١١: ٧)[1].

❖ كان بطرس الرسول شديد التسرع في استعفائه من غسل رجليه، وأشد تسرعًا من ذلك في طلبه غسل يديه ورأسه، وكلا الأمران كانا من حبه الخالص للسيد المسيح... لماذا لم يقل له أن يتمثل به بدلاً من تهديده؟ لأنه ما كان لبطرس أن يقتدي به. فلو قال له: "اسمح الآن، فإنني بهذا أحثك على التواضع"، لوعده بطرس ربوات المرات بذلك حتى لا يقوم سيده بهذا العمل. لقد نطق السيد بما يرعب بطرس ويخيفه، أن يصير منفصلاً عنه. فإنه هو الذي كان على الدوام يسأله: "أين تذهب؟" [٣٦]. كما قال: "إني أضع حياتي من أجلك" [٣٧][2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"قال له يسوع:
الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه،
بل هو طاهر كله،
وأنتم طاهرون،
ولكن ليس كلكم". [١٠]

كان من عادة اليهود أن يستحموا مرتين، لذلك أوضح السيد أن الغسل بمياه المعمودية لا يتم سوى مرة واحدة. أما غسل القدمين فيشير إلى دموع التوبة بكونها معمودية ثانية.

كان إحدى عشر منهم طاهرًا مع أنهم في تلك اللحظات الحاسمة تركوا السيد وهربوا (مر ١٤: ٥٠). دعاهم أطهارًا ولم يعاتبهم على ضعفهم، حتى حين قال: "تتركونني وحدي" لم يكن يهدف إلى عتابهم، إنما أراد أن يؤكد أنه يعالج ما يعاني منه الإنسان من الشعور بالعزلة في لحظات ضيقه، كما صرخ المرتل: "أبي وأمي قد تركاني". ولكن واحدًا منهم غير طاهر، لأنه جاء يحمل الخيانة في قلبه. لقد غسل السيد المسيح قدميه وهو يعلم بخيانته، ليؤكد ترفقه بالخطاة واشتياقه نحو تمتعهم بعطاياه.

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 102.*
[2] *Homilies on St. John 70: 2.*

ليس من أحد – في العهد القديم أو العهد الجديد – بلا خطية أو بلا عيب إلا السيد المسيح، حمل اللَّه الذي بلا عيب (١ بط ١: ١٩)... لهذا يمكننا القول بأن من أراد أن يتمتع بالتطويب لزمه أن يحمل سمات سيده القدوس، أي أن يصير مقدسًا بالتصاقه بالرب، الذي وحده يقول: "أنتم طاهرون" (يو ١٣: ١٠)، لأن دمه يطهر من كل دنس (١ يو ١: ٧)، هو كفارة عن خطايانا (١ يو ٢: ٢).

❖ الإحدى عشر الذين اغتسلوا وصاروا طاهرين، صاروا أكثر طهارة عندما غسل يسوع أقدامهم، أما يهوذا الذي صار بالفعل نجسًا – إذ قيل: من هو نجس فليتنجس بعد (رؤ ٢٢: ١١) – صار أكثر نجاسة وعدم طهارة عندما دخله الشيطان بعد اللقمة (يو ١٣: ٢٧)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ إن كانوا أطهارًا، فلماذا غسل أقدامهم؟ لكي نتعلم أن نكون متواضعين. فإنه لهذا جاء، ليس لأي عضو في الجسد، بل ما يُحسب أكثر احتقارًا عن بقية الأعضاء[2].

❖ إنه يأتي إلى أعضاء الجسد التي يظن أنها الأكثر كرامة. هل كان التلاميذ أطهارًا الذين لم يكونوا بعد قد خلصوا من خطاياهم، ولا نالوا الروح، حيث لازالت الخطية تسود... ولا قدمت الذبيحة؟ كيف إذن يدعوهم أطهارًا؟ لكي لا تظن أنهم أطهار وقد خلصوا من خطاياهم أضاف: "أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به" (راجع يو ١٥: ٣) بمعنى "بهذه الكيفية أنتم أنقياء؛ لقد قبلتم النور، لقد تخلصتم من خطأ يهوذا"... هؤلاء قد طردوا كل شر من نفوسهم واصطحبوه بذهنٍ خالصٍ[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "الذي عنده يُعطى ويزداد" (مت ٢٥: ٢٩). وحيث كان التلاميذ طاهرين أضاف يسوع إلى طهارتهم غسل أقدامهم. إنه لا يود أن يغسل الذين لم يغتسلوا، ولا الذين لم يكونوا طاهرين كلهم. وإنما يتحدث عن الذين هم طاهرين بهذه الطريقة، فإنه إن وُجد بين بني البشر من هو كامل إن لم يتمتع بالغسل الذي من يسوع فلا يحسب طاهرًا...[4]

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 110.*
[2] *Homilies on St. John 70: 2.*
[3] *Hom. 70. PG 59: 416.*
[4] *Commentary on John, Book 32: 72 – 73.*

❖ لقد غسل أرجلهم لأنهم طاهرون حسبما هم بشر، ولكن ليس حسب الله، فإنه بدون يسوع لا يكون أحد طاهرًا عند الله حتى وإن سبق فظن أنه قد اغتسل باجتهادٍ معين[1].

❖ الروح القدس وقوة العلي يمكن أن يقطنا في أولئك الذين قد صاروا بالفعل طاهرين كما عند الناس، وكأنهم ثوب وقد اغتسلوا خلال عماد يسوع، واغتسلت أرجلهم بواسطته[2].

❖ إن كان قد جعل أرجل تلاميذه جميلة بغسلها، فماذا نقول عن الجمال الحقيقي الذي يظهر في كل الذين يعتمدون بالروح القدس ونار بواسطة يسوع (مت ٣ : ١١)؟[3]

❖ الآن صارت أقدام الذين يكرزون بالأخبار الصالحة جميلة، حتى انهم إذ اغتسلوا وتطهروا ومسحوا بيدي يسوع صاروا قادرين على السير في الطريق المقدس، والعبور إلى ذاك القائل: "أنا هو الطريق" (يو ١٤: ٦). فإنه هو وحده، وكل من غُسلت قدماه بيسوع يرحل في هذا الطريق الذي هو حي، ويُحضر إلى الآب. هذا الطريق لن يضم قدمًا دنسًا وغير طاهر. لهذا خلع موسى نعليه من قدميه حيث كان المكان القادم إليه والذي يقف عليه أرضًا مقدسة (خر ٣: ٥). نفس الأمر بالنسبة ليشوع بن نون (يش ٥: ١٥)[4].

❖ أما بالنسبة لتلاميذ يسوع فلكي يسيروا في الطريق الحي المفعم بالنشاط، لا يكفيهم أن يكونوا بلا أحذية في رحلتهم كما أمر يسوع تلاميذه (مت ١٠: ١٠)، بل بالحقيقة يلزم أن تغتسل أقدامهم بواسطة يسوع عندما يضع ثيابه جانبًا. ربما من جانبٍ يجعل أقدامهم الطاهرة أكثر طهرًا. ومن الجانب الآخر ربما لكي يحمل الدنس الذي في أقدام تلاميذه في جسده بواسطة المئزرة التي اتزر بها وحده (يو ١٣: ٤)، إذ هو وحده يحمل ضعفاتنا (مت ٨: ١٧؛ إش ٥٣: ٤)[5].

❖ لاحظوا أنه إذ أراد أن يغسل أقدام التلاميذ لم يختر وقتا آخر سوى عندما دخل الشيطان في قلب يهوذا الإسخريوطي بن سمعان ليسلمه (يو ١٣: ٢) عند تحقيق التدبير (الآلام) من أجل البشر. فإنه قبل هذا لم يكن الوقت مناسبًا ليسوع أن يغسل أقدام التلاميذ، فإن من يود أن يغسل أقدامهم في الفترة الفاصلة حتى وقت الآلام؟ لم يكن الوقت مناسبًا... صار الوقت مناسبًا بعد تحقيق

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 74.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 75.*
[3] *Commentary on John, Book 32: 79.*
[4] *Commentary on John, Book 32: 80 – 82.*
[5] *Commentary on John, Book 32: 83.*

التدبير (الآلام)، فإنها ساعة الروح القدس الذي افتقد التلاميذ الذين صاروا طاهرين وقد غُسلت أقدامهم، ففي ذلك الوقت أُعدت أقدامهم وصارت جميلة لكي تبشر بالصالحات بالروح (رو ١٠: ١٥؛ إش ٥٢: ٧)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ ماذا تظنون في هذا يا إخوتي؟ إلاَّ أنه **في المعمودية المقدسة يغتسل الإنسان بكليته، كل ذرة فيه.** ومع هذا فإنه إذ يعيش في هذه الحياة البشرية لن يتوقف عن السير على الأرض بقدميه. هكذا فإن مشاعرنا البشرية ذاتها، التي لن تنفصل عن حياتنا المائتة على الأرض، تشبه القدمين اللتين بهما نصير في تلاقٍ ملموس بالأعمال البشرية، وهكذا يمكننا القول أننا إن قلنا أننا بلا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا (١ يو ١: ٨).

ففي كل يوم ذاك الذي يشفع فينا (رو ٨: ٣٤) يغسل أقدامنا، فإننا في حاجة إلى غسلٍ يوميٍ لأقدامنا، أي تدبير طريق خطواتنا باستقامة. نعرف ذلك في الصلاة الربانية حيث نقول: "اغفر لنا ما علينا، كما نغفر من عليهم"، وكما هو مكتوب: "إن اعترفنا بخطايانا"، فإنه بالحقيقة ذاك الذي غسل أقدام تلاميذه "هو أمين وعادل أن يغفر لنا خطايانا، ويطهرنا من كل إثم" (١ يو ١: ٩)، بمعنى يغسل أقدامنا التي نسير بها على الأرض[2].

❖ الكنيسة وهي في طريقها إلى المسيح قد تكون خائفة من تدنيس قدميها التي غسلتهما في مياه المعمودية[3].

القديس أغسطينوس

"لأنه عرف مسلمه،

لذلك قال: لستم كلكم طاهرين". [١١]

❖ فإن استخبرت: إن كان التلاميذ طاهرين فلِمَ غسل السيد المسيح أرجلهم؟ فأجيبك: إنما فعل ذلك ليعلمنا أن نتواضع.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فلما كان قد غسل أرجلهم، وأخذ ثيابه واتكأ أيضًا قال لهم:

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 84: 86.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 56: 4.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 57: 1.*

أتفهمون ما قد صنعت بكم؟" [١٢]

لقد خلع السيد المسيح ثيابه ليغسل أقدام تلاميذه، وإذ تمم مهمته ارتداها ثانية واتكأ. وإذ تشير الثياب إلى الجسد، فقد حمل هذا التصرف رمزًا بإرادته وقيامته بسلطانه الشخصي.

الآن يحقق السيد المسيح لبطرس الرسول ما وعده به وهو أن يشرح له ما وراء هذا التصرف من معنى. إنه يقدم لهم وصية في شكل سؤال.

❖ قول السيد المسيح لتلاميذه: "**أتفهمون ما قد صنعت بكم؟**" لا يوجه خطابه هذا إلى بطرس فقط لكنه يخاطب جماعتهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أنتم تدعونني معلمًا وسيدًا،**

وحسنًا تقولون،

لأني أنا كذلك". **[١٣]**

هذا اللقب المزدوج "**معلم وسيد**" يقابل "رابي *rabbi* وسيد *lord*"، كان شائعًا بين معلمي اليهود المعتمدين.

❖ غسل الجالس على الشاروبيم أرجل تلاميذه، وأنت يا إنسان أرضي، رماد وغبار وتراب، أتتعالى وتترفع ترفعًا عظيمًا؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم،**

فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض". **[١٤]**

❖ عندما ينحني عند قدمي أخيه، فإن الشعور بالتواضع يستيقظ في القلب أو يتقوى إن كان بالفعل موجودًا[1].

❖ ليغفر كل واحد لأخيه أخطاءه ويصلي من أجل أخطاء الآخر، بهذا يغسل الواحد قدمي الآخر[2].

القديس أغسطينوس

"**لأني أعطيتكم مثالاً،**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 58: 4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 58: 5.*

حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضًا". [١٥]

❖ إلاَّ أنه ليس الأمر متشابه، لأنه هو الرب والسيد وأما أنتم فعبيد رفقاء لبعضكم البعض. ماذا إذن يعني "**حتى كما**" أي بذات الغيرة. لهذا فقد قدم أمثلة لأعمال عظيمة لعلنا نتمم ما هو أقل. هكذا يقوم المعلمون في المدارس بكتابة الحروف للأطفال بطريقة جميلة جدًا حتى يقلدهم الأطفال وإن كان بطريقة أقل.. أين إذن أولئك الذين ينشقون عن زملائهم؟ أين هم أولئك الذين يطلبون كرامات؟ لقد غسل المسيح قدمي الخائن المدنس للمقدسات، اللص، والذي اقترب جدًا لوقت الخيانة، حالته لا يُرجى منها الشفاء، ومع ذلك جعله شريكًا معه على المائدة، فهل تتكبرون وتتغامزون؟ يقول قائل: "لنغسل أقدام بعضنا البعض". هل هو أمر عظيم أن نغسل أقدام خدامنا؟ بالنسبة لنا "عبد" و"حر" كلمتان مختلفتان، لكن توجد حقيقة واقعية. فإنه بحسب الطبيعة هو الرب ونحن خدم، ومع ذلك لم يرفض أن يفعل ذلك... لقد جعلنا الله مدينين لبعضنا البعض، إذ قام هو أولاً بالعمل، فجعلنا مدينين بممارسة ما هو أقل[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"الحق الحق أقول لكم

إنه ليس عبد أعظم من سيده،

ولا رسول أعظم من مرسله". [١٦]

لاحظ **العلامة أوريجينوس** أن هذه العادة الخاصة بغسل أقدام الآخرين سائدة بين البسطاء والسذج، مطالبًا المؤمنين بممارستها، سواء كانوا أساقفة أو كهنة أو أصحاب مراكز في العالم. هذا وكما نحن في حاجة إلى غسل أقدام الآخرين يلزمنا أن نقبل غسل أرجلنا من الآخرين.

❖ غسل يسوع أقدام التلاميذ بكونه معلمهم، وأقدام الخدم بكونه سيدهم. فإن تراب الأرض الصادر عن العالم يُنظَف بالتعليم، حيث لا يبلغ الأجزاء الدنيا المتطرفة في التلاميذ. لكن الأمور التي تدنس الأقدام تنزع بربوبية (سيادة) الحاكم، إذ له سلطان على الذين لا يزالوا يتقبلون دنسًا عامًا، إذ هم لا يزالون يحملون روح العبودية (رو ٨: ١٥)[2].

❖ بخصوص المخلص وهو الرب (السيد) يمكن أن ترى فيه أمرًا يفوق السادة الآخرين الذين لا

---

[1] *Homilies on St. John 71: 1.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 115 – 116.*

يرغبون في العبد أن يكون كسيده[1].

العلامة أوريجينوس

❖ ذات الحب الذي للآب هو أيضًا للابن... وأي حب للابن سوى أنه بذل ذاته من أجلنا، وخلصنا بدمه (أف ٥: ٢)... فالآب بذل الابن، والابن بذل ذاته... إنه بذل ذاك الذي يريد ذلك، بذل من قدم ذاته للبذل. فالآب لم يبذل الابن كعقوبة بل كنعمة[2].

القديس أمبروسيوس

❖ قال هذا لأنه غسل أقدام التلاميذ بالكلمة والمثال كسيد للتواضع. لكن يمكننا بعونه أن نمارس ما يحتاج إلى ممارسة دقيقة جدًا، إن كنا لا نتباطأ فيما هو واضح بكمالٍ[3].

القديس أغسطينوس

❖ كونوا متمثلين بي كما أنا أيضًا بالمسيح (١ كو ١١: ١). من أجل هذا أخذ جسدًا من جبلتنا حتى يعلمنا به الفضيلة. إذ أرسل الله ابنه في شبه جسدنا الخاطيء حتى تُدان الخطية في جسد الخطية (رو ١٨: ٣). كذلك يقول المسيح نفسه: "تعلموا مني، فإني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). هذا علمنا إياه لا بالكلمات وحدها وإنما بالأعمال أيضًا.

لقد دعوه سامريًا وبه شيطان ومخادعًا كما ألقوه بالحجارة، وأرسل إليه الفريسيون خدامًا ليمسكوه، ومرة أخرى لكي يجربوه، وكانوا يشتمونه، وإذ لم يجدوا فيه خطأ كان يقدم لهم خبزًا بالكلمات كما بالأعمال...

لنتطلع إلى ما يفعله الآن مع التلاميذ، وأية أعمال يظهرها نحو الخائن. لقد اختاره تلميذًا، وأشركه في المائدة والملح (الذي يمنع الفساد)، ورأى معجزات تستحق كل تقدير، ومع هذا صنع معه أمرًا أخطر من كل شيء، ليس برجمه أو سبه وإنما بالخيانة، ومع استحقاقه الكراهية عامله السيد بصداقة وغسل قدميه، إذ أراد بهذا أن يمنعه من الشر.

كان في سلطانه – لو أراد – أن يجعله يابسًا كشجرة التين، وأن يشقه إلى نصفين كما تشققت الصخور، وأن يمزقه كما انشق الحجاب، لكنه لم يرد أن يمنعه عن تحقيق خطته قهرًا إنما اختيارًا. لذلك غسل قدميه، ومع هذا لم يخجل هذا الشرير البائس[4].

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 120.*
[2] *Of the Holy Spirit 1:12:129.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 59: 1.*
[4] *Homilies on St. John 70: 1.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه**". **[١٧]**

يتحقق التطويب الحقيقي خلال معرفة الله العملية بالطاعة له. فالإنسان لا يتمتع بالطوبى لأجل معرفته الكثيرة، وإنما خلال تمتعه بشركة الطبيعة الإلهية، حيث تتحول المعرفة إلى خبرة عمل.

❖ **غسل الأقدام هو من تخصص السيد المسيح الذي يغسل أعماق النفس ويغفر الخطايا. فمن بالحب والتواضع يغفر لمن يخطئ إليه إنما يشترك في إحدى سمات المسيح العظمى**، ويُحسب متمتعًا بالحياة الجديدة المطوبة في المسيح يسوع. قول السيد: "**طوباكم**" إنما يكشف عن المجد السماوي والحياة السماوية التي نختبرها بممارستنا لهذا العمل.

العلامة أوريجينوس

❖ "**أن تعلموا**" (تعرفوا) فهذا يخص الكل، أما "**أن تعملوا**" فهذا ليس للكل. لهذا يقول: "**طوباكم إن عملتموه**". ولهذا السبب أقول دومًا وأكرر نفس الشيء مع أنكم تعرفونه، حتى أضعكم في موضع العمل. فإنه حتى اليهود "يعرفون" لكنهم ليسوا مطوبين، لأنهم لا يعملون ما يعرفون[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. حديثه عن مسلمه

"**لست أقول عن جميعكم،**

أنا أعلم الذين اخترتهم،

لكن ليتم الكتاب:

الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عقبه". **[١٨]**

يكشف السيد المسيح عن خطة يهوذا في خيانة سيده. يعرفها السيد منذ البداية، لكنه ستر عليه حتى تلك اللحظات عندما بدأ في خطوات عملية جادة، والآن يكشفها لتلاميذه الذين لم يتخيلوا إمكانية حدوثها بينهم. ويلاحظ هنا في حديثه أنه لم يعمم الخطأ؛ بل يمتدح البقية كأوانٍ طاهرة مخلصة. وفي نفس الوقت لم يورد تفاصيل الجريمة ولا أفصح عن اسم مرتكبها، إنما أكد أن ما يحدث سبق فأعلنه الكتاب المقدس (مز ٤١: ٩).

لم يتحدث السيد المسيح عن دافع يهوذا لهذا العمل، حقًا لقد سبق فعلق الإنجيلي عليه عندما

[1] *Homilies on St. John 71: 2.*

انتقد سكب مريم أخت لعازر الطيب على قدمي السيد: "قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء، بل لأنه كان سارقًا، وكان الصندوق عنده، وكان يحمل ما يُلقى فيه" (١٢: ٦). أما في أمر خيانة السيد فقد أورد الإنجيليون الحقائق، وما اتفق عليه من ثمن للخيانة، وكيف رد المبلغ بعد تسليمه في يأسٍ، دون تعليق عن أعماق دوافعه. إنما قام الدارسون فيما بعد بوضع توقعاتهم وتحليلاتهم بخصوص هذا التصرف، ولم يحاول أي إنجيلي أن يقدم عرضًا كاملاً لدوافع هذا الخائن.

تحدث يوحنا الإنجيلي عن عمل الخيانة مباشرة بعد غسل السيد لأقدام التلاميذ، ليكشف عن شوق الكلمة الإلهي المتجسد للقيام بأقل الأعمال في تواضع حقيقي وبذل من أجل الجميع. حتى وإن وجد من بينهم من يخطط ضده بشرٍ عظيمٍ؛ يعمل لحساب الجميع. أما العمل المضاد فمارسه يهوذا بطريقته الخاصة في اعتدادٍ بفكره وتدبيره لحساب نفسه وهو لا يدري أنه يدمر نفسه.

يقودنا مسيحنا – الطريق الحقيقي – لندخل فيه ونعمل بروح الخضوع والتواضع في حب صادق مع وجود من يقيمنا ومن يطلب تدميرنا.

أخيرًا يؤكد السيد أنه يعلم الذين اختارهم، ولم يجهل شخصية يهوذا حين اختاره، لكن كل الأمور تسير بسماحٍ منه، فليس شر يهوذا هو سيد الموقف بل حب المسيح هو السيد، الذي يحول من الشر جزءً لتتميم خطته الإلهية لخلاص البشر. هذا يهبنا طمأنينة كاملة، أنه يوجد محب البشر، ضابط الكل يحول كل الأحداث لحسابنا، حتى مقاومة الأشرار لنا.

❖ ربما إذ يعرف الرب الذين هم له (٢ تي ٢: ١٩؛ عد ١٦: ٥)، لا يعرف الذين ليسوا له. وكما يقول عن البعض: "إني لم أعرفكم قط" (مت ٧: ٢٣)، لهذا يقول أيضًا عن يهوذا الذي ليس له: "إني لا أعرفك قط". لكن لو أن يهوذا كان للمسيح ثم سقط، كان يُمكن أن يُقال له: "لست أعرف من أين أنت" (راجع لو ١٣: ٢٧)... لهذا السبب لم يقل: "أنا أعلم جميعكم"، بل "**أنا أعلم الذين اخترتهم**"[1].

❖ رفع يهوذا عقبه ضد المعلم عندما دخله الشيطان بعد اللقمة [٢٧][2].

العلامة أوريجينوس

❖ لم يقل السيد المسيح: "من يأكل الخبز معي يسلمني"، لكنه قال: "**الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عقبه**"، مريدًا أن يبين طبيعة اغتياله الغاشة المستورة.

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 154 – 155.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 167.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أقول لكم الآن قبل أن يكون،**

حتى متى كان تؤمنون إني أنا هو". **[١٩]**

إنه يؤكد للتلاميذ حضوره في كل مكان، وعلمه بكل شيءٍ، فإذ يخبرهم مقدمًا عن موته والظروف المحيطة به يؤمنون بالأكثر أنه المسيا، ينمو إيمانهم به بكونه الإله العارف بكل شيء، ومخلص العالم الذي ترقبه الآباء والأنبياء.

❖ في الواقع اقترب الرسل مرة نحو الرب وقالوا له: "يا رب زد إيماننا" (راجع لو ١٧: ٥). لم يدينوا أنفسهم كمن هم غير مؤمنين، فإن كلمة "زد" تظهر أنه كان لهم الإيمان الذي يُمكن يزداد... ويمكن فهم الكلمة "**تؤمنون**" [١٩] بما يعادل: "لكي تزدادوا في الإيمان"[1].

العلامة أوريجينوس

"**الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسله يقبلني،**

والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني". **[٢٠]**

يؤكد السيد لتلاميذه أنه مع وجود جاحدين وخائنين له يوجد أيضًا مؤمنون يقبلونه، ويُحسبون أنهم قبلوا الآب أيضًا.

❖ ما علاقة هذا بما قيل قبلاً: "**طوباكم إن عملتموه**" [١٧] حتى يضيف: "**إنه يقبلكم**"؟ إنه توجد علاقة قوية وتناغم قوي، فإنهم لما توقعوا أن يخرجوا إلى العالم، وأن يقاسوا شدائد كثيرة، عزاهم بأسلوبين من العزاء، الأول أوضحه لهم إذ قال: "**إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه**" [١٧]. والثاني بقوله: "**الذي يقبل من أرسله يقبلني**"، لأنه فتح لهم بيوت جميع الذين جاءوا عندهم حتى ينالوا تعزية مضاعفة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من يقبل من أرسله يسوع إنما يقبل يسوع الذي أرسله، ومن يقبل يسوع يقبل الآب. لذلك فمن يقبل من أرسله يسوع إنما يقبل الآب الذي أرسل يسوع[3].

❖ يمكن أيضًا على أساس هذه الكلمات أن نقبل ما هو مضاد. فمن يقبل من يرسلهم ابن الهلاك

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 174, 176.*
[2] *Homilies on St. John 72: 1.*
[3] *Commentary on John, Book 32: 212.*

إنما يقبل ضد المسيح، ومن يقبل ابن الهلاك إذ هو يقبل ضد المسيح بكونه الكلمة التي تبدو كأنها صادقة وباطلاً تعلن أنها العدل، إنما يقبل ابن الهلاك نفسه. لنحذر إذن كصرافين صالحين، فنصّدق على خدمة الرسل الحقيقيين، ونرفض خدمة الرسل الكذبة[1].

العلامة أوريجينوس

لاحظ **العلامة أوريجينوس** أن السيد المسيح قال: "**من يقبلكم**" ولم يقل: "من يؤمن بكم يؤمن بي" ولا "من يراكم يراني" [إنه يريدنا أن نقبل رسله، ولكن لا يطلب منا أن نؤمن بهم أيضًا[2]].

"**لما قال يسوع هذا اضطرب بالروح،**

وشهد وقال:

الحق الحق أقول لكم إن واحدًا منكم سيسلمني". **[٢١]**

اعتاد السيد المسيح أن يتحدث عن آلامه وموته دون أن يضطرب، لكنه إذ يشير إلى خيانة تلميذه قيل: "**اضطرب بالروح**"، فإن خطايا المؤمنين تحزن قلب السيد المسيح الأبوي. وكما تكلم الرب قديمًا وقال: "ربيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا عليّ" (إش ١: ٢). كما قيل: "في ضيقهم تضايقت... لكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه" (إش ٦٣: ٩-١٠).

اضطرب يسوع "في الروح *in spirit*" [٢١]، إي في روحه البشرية، إذ صار بالحق إنسانًا كاملاً، روحه تضطرب من أجل خيانة تلميذه له. ليس اضطراب الخوف من الموت أو عن جهل لما سيحدث، إنما اضطراب من أجل التلميذ الذي يتجاسر فيخون سيده وربه.

❖ الذي يخونني ليس غريبًا عن تلاميذي، وهو ليس واحد من تلاميذٍ كثيرين، بل واحد من الرسل الذين نالوا كرامة اختياري لهم.

يوجد كثيرون دانوا المسيح قائلين: "أصلبه، أصلبه" (لو ٢٣: ٢١)... أما خيانته فهي عمل واحد قد رآه وتعرَّف عليه. فإذ تعرَّف عليه كمعلمٍ يقدم تعاليم كثيرة وعظيمة، سمعها في جلسات خاصة مع الرسل، وإذ عرفه أنه الرب، فعندما خانه خان عظمته التي يعرفها، الأمر الذي لا يقدر من يرَ عظمته أن يمارسه...

عندما تعلم كم هو عظيم، وصار مستمعًا لعظمة الكلمة والعقل والنعمة التي فيه، عندئذٍ خانه، خان عظمته بقدر ما تعرف عليها. لهذا السبب كان خير له لو لم يولد (مت ٢٦: ٢٤؛ مر ١٤:

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 213 – 214.*

[2] *Cf. Commentary on John, Book 32: 216.*

٢١)، سواء كان الميلاد يفهم على أنه التجديد (الميلاد الثاني) كما يفهمه الإنسان بمفهومٍ عميق، أو الميلاد بالمفهوم العام[1].

❖ لو أن شر يهوذا كان واضحًا لتلاميذ يسوع لعرفوا من الذي يخون المعلم عندما قال: "**إن واحدًا منكم سيسلمني**"، لكن تطلع التلاميذ "**بعضهم إلى بعض وهم محتارون في من قال عنه**" [٢٢].

بالحقيقة ربما خجل الرسل من أن يتشككوا بالشر في يهوذا من أجل أعماله السابقة النبيلة. ربما لم يكن يهوذا منتميًا بالكامل للشر، حتى بعد أن دخل الشيطان في قلبه... إذ وُجدت فيه بقية من الاختيار الصالح.

عندما رأى يسوع يُدان، عندما قيدوه وسلموه للحاكم بيلاطس (مت ٢٧: ٢) ندم ورد الثلاثين من الفضة لرئيس الكهنة والشيوخ قائلاً: أخطأت إذ سلمت دمًا بريئًا" (مت ٢٧: ٤)... يهوذا الذي أحب المال ألقى بالمال ومضى وشنق نفسه (مت ٢٧: ٥). لم ينتظر حتى ليرى نهاية دينونة يسوع أمام بيلاطس.

العلامة أوريجينوس

لقد شهد المرتل أنه لم يكن يهوذا يحمل عداوة ضد المسيح (مز ٥٥: ١٣)، بل وحتى بعد تسليمه للمخلص مدح المعلم قائلاً أنه أخطأ إذ سلم دمًا بريئًا، معترفًا بذلك أمام رؤساء الكهنة والشيوخ، بجانب إلقائه بالمال على الأرض دون الاستمتاع به. كل هذه اللمسات الجميلة تكشف أنه كان يمكنه أن يقدم توبة مقتربًا نحو المخلص، لكنه للأسف فتح قلبه للشيطان للمرة الثانية لينتحر فاقدًا الرجاء في الله مخلص البشرية.

يتساءل **القديس أغسطينوس** لماذا اضطرب يسوع بالروح وقال: "الحق الحق أقول لكم إن واحدًا منكم سيسلمني"؟ هل لم يعرف هذا من قبل حتى يضطرب بالروح؟ ألم يقل منذ قليل: "**الذي يأكل معي الخبز رفع على عقبه**" [١٥]؟ أم هل اضطرب بالروح لأنه حان وقت التنفيذ للخيانة عمليًا؟ اضطرب بالروح ذاك الذي له سلطان أن يضع نفسه وأن يأخذها (يو ١٠: ١٨). لقد اضطرب ذاك القوي القدير، الثابت كالصخر، لكن ما اضطرب هو ضعف طبيعتنا التي قبلها بإرادته فيه.

يكمل القديس قائلاً: [بالتأكيد الأمر هكذا: ليت العبيد لا يعتقدون بشيء غير لائق بربهم، بل يدركون عضويتهم في رأسهم. الذي مات لأجلنا هو أيضًا اضطرب، لأنه احتل موضعنا. ذاك الذي مات في قوة، اضطرب وسط قوته. ذاك الذي سيحول جسد تواضعنا إلى شبه شكل جسد مجده قد

[1] *Commentary on John, Book 32: 235 – 238.*

حول أيضًا في نفسه مشاعر ضعفنا وتعاطفه معنا إلى مشاعر نفسه. تبعًا لهذا حين اضطرب ذاك العظيم والشجاع والراسخ الذي لا يُقهر، لا نخف عليه كمن يمكن أن يسقط، إنه لا يهلك بل يبحث عنا!... ففي اضطرابه نرى أنفسنا، وهكذا إذ يلحق الاضطراب بنا لن نيأس ولا نهلك. **باضطراب ذاك الذي ما كان يمكن أن يضطرب بغير إرادته يهبنا راحة نحن الذين نضطرب بغير إرادتنا**[1].]

❖ إذ بقوته أخذ كمال ناسوتنا، بذات القوة أيقظ في نفسه المشاعر البشرية عندما حكم عليها بطريقة لائقة[2].

القديس أغسطينوس

يقول **القديس أغسطينوس** أن بقوله: "**إن واحدًا منكم**" [٢١] لم يقصد وحدتهم حسب الروح بل حسب الجسد، لأنه لم يكن بالحقيقة منهم، وكما يقول القديس يوحنا: "منا خرجوا، لكنهم لم يكونوا منا، لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا ليظهروا أنهم ليسوا جميعهم منا" (١ يو ٢: ١٩)[3].

"**فكان التلاميذ ينظرون بعضهم إلى بعض،**

وهم محتارون

في من قال عنه". **[٢٢]**

واضح أن تصرفات يهوذا لم تحمل أدنى نوع من الشكوك، إذ لم يشك أحد قط فيه.

إذ سمعوا هذا التحذير، وهم يعلمون أن معلمهم لن يخدعهم، ولا ينطق بفكاهة تطلع كل واحد نحو الآخر، وكانوا يتساءلون في صمت: تُري من يكون هذا؟ نظراتهم كشفت عن اضطرابهم الداخلي.

عندما بكى داود ابنه المتمرد بكى كل تابعيه (٢ صم ١٥: ٣٠)، وهكذا إذ اضطرب يسوع حزنًا على مسلمه اضطرب معه تلاميذه. اضطراب روح واهب السلام والفرح ملأهم رعبًا. تحول العيد من الفرح إلى اضطراب ورعب.

"**وكان متكئًا في حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه**". **[٢٣]**

كان اليهود في ذلك الحين عند العشاء يجلسون بميل وهم متكئون على ذراعهم الأيسر فوق وسادة حول المائدة، كما كان اليونانيون والرومانيون يفعلون. على كل وسادة يتكئ آخر على ذات الوسادة. فكان يوحنا بسبب دالته يجلس بجوار السيد وتكون رأسه في حضن سيده.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 60: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 60: 5.*
[3] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 61: 2.*

"**فأومأ إليه سمعان بطرس**

أن يسأل من عسى أن يكون الذي قال عنه". **[٢٤]**

كان القديس يوحنا هو أنسب شخص يمكن أن يسأل السيد المسيح، إذ كانت له دالة خاصة، وقد جلس بجوار سيده واتكأ في حضنه. كان بطرس في غيرته يود أن يعرف التلميذ مسلم سيده، لكنه لم يتجاسر أن يسأله بل أومأ إلى يوحنا ليسأله.

❖ شوهد بطرس الرسول في كل موضع ناهضًا من زيادة شوقه للسيد المسيح، إلا أنه يظهر هنا مرتاعًا، فلم يصمت ولم يتكلم، لكنه أراد أن يعرف ذلك بوساطة يوحنا الرسول.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فاتكأ ذاك على صدر يسوع وقال له:**

يا سيد من هو؟" **[٢٥]**

مع الدالة الشديدة التي ليوحنا حتى اتكأ في حضن يسوع لكنه يتكلم بكل وقار: "**يا سيد**". دالتنا على مخلصنا لا تنزع عنا حديثنا معه بكل احترامٍ ووقارٍ.

كان القديس يوحنا متكئًا في حضن يسوع [٢٣]، وإذ أراد أن يسأله عمن سيسلمه ارتفع برأسه ليتكئ على صدر يسوع، ويرى **العلامة أوريجينوس** أن العمل أعظم وأسمى من الاتكاء في الحضن[1].

❖ أعطاهم معلمهم دالة هذه مقدارها، فإن ابتغيت أن تعرف علة ذلك فمن الحب كان فعله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن يوحنا الحبيب الذي اتكأ على صدر الرب أحب ثديي الكلمة (يو ١٣: ٢٥)؛ وإذ وضع قلبه بقرب منبع الحياة تمتع بامتصاص الأسرار الخفية التي في قلب الرب كما يمتص الإسفنج.

يعطينا يوحنا الثدي الغنى بالكلمة، فنمتلئ من الصلاح الذي أخذه يوحنا من منبع الصلاح، معلنًا عن الكلمة الأبدي. لذلك يحق لنا الآن أن نقول: "**تذكر حبك أكثر من الخمر**" **إذا ما صرنا كالعذارى، ولم نعد أطفالاً في أذهاننا تحت نير نوع من التفاهة الطفولية، وإذ لم نتدنس بعد بالخطية فندنو من الموت في كهولتنا.** لذلك دعنا نحب فيض التعليم الإلهي لأنهم "بالحق يحبونك" (نش ١: ٤). هذا هو التلميذ الذي كان يسوع يحبه، والمسيح هو الحق. ينسب النص هنا للمسيح اسمًا أكثر جمالاً

[1] *Commentary on John, Book 32 : 278.*

وملاءمة للرب أفضل من داود النبي الذي قال : "أن الرب مستقيم" (مز ٩٢: ١٥). يسمى الرب بالحق في هذا النص. لأنه يجعل المعوج مستقيمًا. ليصير كل المعوج مستقيمًا والعراقيب سهلاً (إش ٤٠: ٤) بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد دائمًا أبديًا. آمين[١].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ هؤلاء الذين كانوا يهودًا بالميلاد لم يستطيعوا بالإنجيل أن يستردّوا البتولية التي فقدوها في اليهودية. ومع ذلك فإن يوحنا، واحدًا من التلاميذ، يُروي عنه أنه كان أصغر الرسل، وكان بتولاً عندما تقبل المسيحية، بقي بتولاً، وعلى هذا الأساس كان محبوبًا بالأكثر من ربنا، واتكأ على صدر يسوع. وما لم يجسر بطرس، الذي كان له زوجة، أن يسأله [٢٥] طلب من يوحنا أن يسأله. وبعد القيامة عندما أخبرَتْهما مريم المجدلية أن الرب قام (يو ٢٠: ٤) جرى الاثنان نحو القبر، ولكن يوحنا سبق بطرس، وعندما كانا يتصيدا في السفينة ببحيرة جنيسارت وقف يسوع على الشاطئ ولم يعرف الرسل من هو الذي يرونه (يو ٢١: ٧)؛ **البتول وحده عرف البتول**، وقال لبطرس: "هو الرب"[٢].

القديس جيروم

"**أجاب يسوع:**

هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه،

فغمس اللقمة، وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطي". **[٢٦]**

ظن التلاميذ أنه إذ غمس السيد القمة وأعطاها ليهوذا إنما لكي يستعجله في تنفيذ أمرٍ ما ولا ينتظر حتى يتعشى معهم.

كما همس يوحنا في أذني السيد هكذا أجابه همسًا، حتى لا يسمع بقية التلاميذ. وعوض ذكر اسمه اكتفى بتقديم علامة، حتى تدرك الأجيال القادمة أن الله يود أن نتعرف على مقاومي الحق، لا بذكر أسمائهم، وإنما خلال ثمارهم الشريرة وروحهم.

يبدو أن يهوذا في خجل لم يتجاسر ويغمس اللقمة ويأكل من ذات الصحفة التي يأكل منها السيد المسيح وتلاميذه، لكن غمس السيد اللقمة وأعطاه ليمد يده ويأكل مع التلاميذ، إذ يود السيد أن يتذكر سمو مركزه ومساواته للتلاميذ.

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، ١٩٩٣، عظة ١.

[2] *Against Jovinianus, 1:26.*

واضح من تصرف السيد مع يهوذا أن الأخير كان يجلس بالقرب منه، ربما لأنه كان أمين الصندوق، فكان التلاميذ يتركون له موضعًا قريبًا، حتى إن احتاج السيد إلى شيء للخدمة يكون يهوذا قريبًا منه.

حقًا كثيرون يقتربون من السيد المسيح حسب الجسد بل ويزحمونه أينما ذهب، لكن قلوبهم بعيدة عنه جدًا. وآخرون يبدون كمن هم بعيدين عنه وهم يحملونه في قلوبهم وأفكارهم، ويحملهم السيد فيه كأعضاء في جسده المقدس.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح استخدم مع يهوذا كل وسيلة لعله يرتدع عما يفعله، فقد عُرف حتى بين القبائل المتبربرة أنهم لا يخونون من يأكلون معهم من طعام واحد. لذلك جعل الرب العلامة التي يُعرف بها الخائن هي أن يغمس السيد نفسه اللقمة ويعطيه ليأكل من ذات الطعام، ومع ذلك خان من قدم له الطعام.

❖ حتى طريقة توبيخه حُسبت بطريقة تجعله في خزي. إذ لم يحترم المائدة التي اشترك فيها بأكل الخبز، لكن ألم تقدر أخذ اللقمة من يد (السيد) أن تغلبه؟ إنها لم تغلبه[1]!

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ما ناله كان حسنًا، ولكن ناله لضرره، لأنه بروح شرير قبل ما هو صالح[2].

❖ الأمر الهام ليس ما هو الذي يُعطى بل من هو الشخص الذي يتقبل العطية، ليس طبيعة الشيء المُعطاة بل طبيعة ذاك الذي ينالها. فإنه حتى الأمور الصالحة ضارة، والأمور الشريرة نافعة حسب شخصية من يتقبلها... لماذا أُعطى الخبز للخائن، إلاَّ ليكون شهادة عن النعمة التي استخدمها بجحود؟[3]

القديس أغسطينوس

"**فبعد اللقمة دخله الشيطان،**

فقال له يسوع:

ما أنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة". **[٢٧]**

دخل الشيطان يهوذا لأنه سلم نفسه بالكامل له، ملك عليه بالأكثر بكونه ابن الهلاك الذي لم يفكر

---

[1] *Homilies on St. John 72: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 61: 6.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 61: 1.*

قط في التوبة والرجوع عما يخططه ضد سيده. يقول الرسول بولس عن الشيطان أنه "يعمل الآن في أبناء المعصية" (أف ٢: ٢)، لكنه أحيانًا يدخل بأكثر وضوح وقوة عندما يسلمون أنفسهم بالكامل تحت سلطانه.

بعد اللقمة التي أعطاها السيد المسيح له دخله الشيطان، فإن كانت اللقمة تشير إلى حنو المسيح وعطاياه، فإن من يستهين بعطاياه ويسيء استخدام حنو الله يفتح الطريق للعدو كي يدخل ويملك.

بقوله: "**ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة**" [٢٧] لم ينل نصيحة من الرب بل سماحًا ليتمم ما يريده. لقد نزع الرب عنه كل نعمة، لأنه مصمم على تسليم ذاته للخيانة والشر. وكأنه يقول له: "أنت مصمم على الخيانة، لم تفتح بابًا للتوبة والرجوع إليَّ. اذهب افعل ما تشاء، فأنا لا أخشى الموت بل مستعد له".

كان يهوذا قد وضع مع الأشرار خطة بزمنٍ دقيق لتسليم السيد، وقد اقتربت اللحظات التي يتمم فيها خطته، ولعله كان لا يعرف كيف يعتذر من الحاضرين ليخرج، لذا قدم له الرب سؤل قلبه، وشهوة نفسه. عندما نسمع المرتل يقول: "يعطيك الرب سؤل قلبك" يلزمنا فحص قلوبنا بروح الله القدوس، حتى ننال ما نشتهيه، إن كان رؤية الله والعشرة معه، أو حب الشر وممارسته.

ولعل السيد طلب منه أن يسرع لئلا يُفضح أمره بين التلاميذ فيلاقي إهانات منهم.

ربما يتساءل البعض: ألم يمارس يهوذا عمله الشرير قبلاً إذ تشاور مع رؤساء الكهنة والفريسيين لتسليم السيد، فلماذا قيل هنا: "**فبعد اللقمة دخله الشيطان**"؟ لقد صوب إبليس أحد سهامه النارية نحو قلب يهوذا فوجد استجابة داخلية، الأمر الذي فتح أبواب قلبه بالأكثر ليدخل الشيطان ويتربع فيه كملكٍ! هكذا مع كل قبول لفكرٍ خاطئٍ، وكل سلوكٍ شريرٍ، إنما يهيئ الطريق لما هو أشر.

❖ إذ رأى يسوع ذاك الذي دخل، وذاك الذي استقبله، وكل الخطة التي وُضعت ضده تجرد للمعركة، ولكي يغلب الشرير من أجل خلاص البشر قال: "**ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة**". [٢٧][1]

العلامة أوريجينوس

❖ قال يوحنا الرسول عن يهوذا: "بعد اللقمة دخله الشيطان ضاحكًا على وقاحته". لقد نطق بهذا، ليس لكي يرعبهم بل ليعزيهم، حتى لا تحل بهم المخاطر فجأة فيزداد اضطرابهم[2].

❖ إذ كان مرتبطًا بجماعة من التلاميذ لم يجسر (الشيطان) أن يقفز إليه، إنما كان يهاجمه من

---

[1] *Commentary on John, Book 32: 299.*
[2] *Homilies on St. John 72: 4.*

الخارج، لكن عندما أعلن عنه المسيح وفصله عنهم قفز إليه الشيطان دون خوفٍ[1].

❖ "**اعمله بأكثر سرعة**" تعبير لا يصدر عمن يوصي بأمرٍ ما، ولا من يقدم نصيحة، بل من يوبخ ويظهر له أنه يود إصلاحه، ولكن إذ كان لا سبيل لتقويمه دعاه يذهب[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بعد أخذه هذا الخبز دخل الشيطان في خائن الرب، إذ سُلم لسلطانه ليملك بالكامل على ذاك الذي دخله في قلبه لكي يقوده إلى الخطأ.

لسنا نفترض أن الشيطان لم يكن فيه قبلاً حين ذهب إلى اليهود ودخل معهم في صفقة بخصوص ثمن خيانة الرب، إذ يقول الإنجيلي لوقا بكل وضوح: "فدخل الشيطان في يهوذا الذي يُدعى الإسخريوطي، وهو من جملة الاثني عشر، فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة" (لو ٢٢: ٣-٤)... **دخوله الأول عندما زرع في قلبه فكر خيانة المسيح، فإنه بروحٍ كهذا جاء إلى العشاء. أما الآن بعد الخبز دخله لا ليجرب من هو يتبع آخر بل ليملك على من هو له**[3].

❖ إنه ليس كما يظن بعض القراء غير المفكرين بأن يهوذا تسلم جسد المسيح. إذ نفهم أن الرب كان قد قدم للكل سرّ جسده ودمه حين كان يهوذا أيضًا حاضرًا كما هو واضح جدًا من قصة القديس لوقا (لو ٢٢: ١٩-٢٢). وإنما بعد ذلك نأتي إلى اللحظة التي بحسب ما رواه يوحنا قدم الرب كشفًا عن خائنه بتغميس لقمة الخبز وإعطائها له، ربما ملمحًا بغمز الخبز إلى المزاعم الباطلة للآخر. فإن غمس الشيء لا يعني دومًا غسله، بل أحيانا يُغمس الشيء لكي ما يُصبغ. فإن أخذناه بالمعنى الصالح هنا للغمس فإنه جحود لما هو صالح كان يستحق الإدانة[4].

❖ "**اعمله بأكثر سرعة**" [٢٧]، ليس لأنك تحمل سلطانًا في ذاتك، ولكن لأن (يسوع) يريد ذلك، ذاك الذي له كل السلطة[5].

القديس أغسطينوس

"**وأما هذا فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به**". **[٢٨]**

حقًا يعرف السيد المسيح أعماقنا أكثر من معرفتنا نحن لأنفسنا. كما يعرف الرب شر الأشرار

---

[1] *Homilies on St. John 72: 2.*
[2] *Hom 72. PG 59: 424.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 62: 2.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 62: 3.*
[5] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 62: 4.*

كيهوذا، يعرف أيضًا ضعف القديسين كبطرس الرسول.

❖ لم يجعل السيد المسيح ما سيفعله يهوذا ظاهرًا، لأنه لو علم تلاميذه بذلك لعلهم كانوا قد عزلوه، ولعل بطرس كان قد قتله، فلهذا السبب لم يعرف السيد المسيح أحدًا من المتكئين ولا يوحنا الرسول عنه... ولم يشأ السيد المسيح أن يشّهر بيهوذا إلى اليوم الأخير من الأيام التي لبث فيها معه، وهذا ما يجب علينا أن نعمله، فلا نشهر بخطايا الموجودين معنا، ولو كان حالهم حال من قد خاب من الشفاء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"لأن قومًا، إذ كان الصندوق مع يهوذا، ظنوا أن يسوع قال له:
اشترِ ما نحتاج إليه للعيد،
أو أن يعطي شيئًا للفقراء". [٢٩]

ظن التلاميذ أن السيد قال له: "**اشترِ ما تحتاج إليه للعيد**" [٢٩]. واضح أن ذلك حدث في الليلة السابقة للفصح، لأن التلاميذ يعلمون تمامًا أنه لا يوجد شراء أو بيع في يوم عيد الفصح. ربما ظنوا أنه يشتري حملاً ليُقدم في يوم عيد الفصح، أي في اليوم التالي.

واضح أن همسات السيد المسيح ليوحنا لم يسمعها أحد، لذا لم يشك أحد قط في يهوذا، بل ظنوا أنه يقدم خيرًا في العيد. حقًا عاش السيد المسيح كفقيرٍ، لكنه كان يقدم للفقراء من القليل الذي معه في الصندوق. وكأنه يُلزم حتى الذين يعيشون على الصدقة أن يقدموا منها صدقة للغير.

❖ إن سأل سائل: إن كان قد أشار إلى تلاميذه قائلاً: "لا تقتنوا ذهبًا ولا فضة ولا نحاسًا في مناطقكم ولا مذودًا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا لأن الفاعل مستحق طعامه" (مت ١٠: ٩-١٠) كيف حمل يهوذا صندوقًا؟ أجبناه: لخدمة الفقراء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان ليلاً". [٣٠]

خرج من بيت عنيا إلى أورشليم وهي على بعد حوالي ميلين. أسرع يهوذا بالخروج ليحقق خطته ليلاً وسط ظلمة قلبه، في وسط الجو البارد والظلام خرج لكي لا يراه أحد وهو يمارس شرّه الذي كان أكثر من الليل الدامس.

❖ وأنا أسأل البشير: لِم تذكر لي الوقت؟! فسيجيبني: لتعرف قسوة قلبه، إذ أنه ولا الوقت أمسكه عن

فعله[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بالحقيقة "**خرج**"، إذ لم يخرج فقط من البيت الذي أُقيم فيه العشاء، وذلك حسب المعنى البسيط، إنما خرج أيضًا من يسوع بالمعنى النهائي. أظن أنه إذ دخل إبليس يهوذا بعد اللقمة لم يحتمل أن يكون في ذات الموضع مع يسوع إذ ليس اتفاق بين المسيح وبليعال (٢ كو ٦: ١٥)[2].

❖ (اللقمة) بالنسبة للآخرين كانت لخلاصهم، أما ليهوذا فكانت للدينونة (١ كو ١١: ٢٧–٢٩)، لأن الشيطان دخله بعد اللقمة... إنها كما قلت كمثال، أن الخبز الذي ينعش تمامًا بالمعنى الجسماني، يزيد متاعب الحمى، وفي نفس الوقت يخزن للشخص صحة وحيوية[3].

❖ يليق بنا القول بأن نفهم الليل في ذلك الحين رمزيًا، بكونه صورة الليل الذي خيم على نفس يهوذا عندما دخله الشيطان، الظلمة التي تخيم على وجه الغمر (تك ١: ٢). إذ دعا الله الظلمة ليلاً (تك ١: ٥). هذا الليل الذي يقول عنه بولس أننا لسنا أبناء له، ولا للظلمة، فإننا يا إخوة "لسنا من ليلٍ ولا من ظلمةٍ" (١ تس ٥: ٤–٥) بل ليتنا نحن الذين من النهار نصحو (راجع ١ تس ٥: ٥)[4].

العلامة أوريجينوس

❖ تحدث النهار مع النهار، بمعنى أن المسيح فعل هذا مع تلاميذه المخلصين لكي ما يسمعوه ويحبوه كأتباعٍ له. وأظهر الليل معرفة لليل (مز ١٩: ٢) بمعنى أن يهوذا فعل هذا مع اليهود غير المؤمنين لكي ما يأتوا كمضطهدين ويجعلوا من (المسيح) سجينًا[5].

القديس أغسطينوس

٣. مجد ابن الإنسان

"فلما خرج قال يسوع:
الآن تمجد ابن الإنسان،

---

[1] *Homilies on St. John 72:3.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 301 – 302.*
[3] *Commentary on John, Book 32: 309 – 310.*
[4] *Commentary on John, Book 32 : 313.*
[5] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 62: 6.*

وتمجد الله فيه". [٣١]

حتى هذه اللحظات لم يكن ممكنًا للتلاميذ أن يدركوا ما يدور حولهم، ولا أن يفهموا كلمات السيد المسيح عن صلبه وموته وقيامته، إنما حلّ بهم نوع من الاضطراب من جهة أحداث تبدو مجهولة بالنسبة لهم.

وسط هذا الاضطراب يعلن الإنجيلي أنه بخروج يهوذا لتتميم الخيانة تمجد ابن الإنسان، وتمجد الآب أيضًا، كيف؟

أولاً: إذ خرج العنصر الفاسد من وسط الكنيسة المجاهدة تمجد السيد المسيح واهب البرّ لشعبه. ما كان للفساد أن يبقى على الدوام وسط الكنيسة، إذ يحكم على نفسه باعتزال كنيسة المسيح الحقيقية.

ثانيًا: بخروج يهوذا سنحت الفرصة للتلاميذ الأطهار أن يسمعوا الأحاديث الوداعية الطويلة لمخلصهم، والتي قدمها لهم لمساندتهم، ليس فقط خلال أحداث الصلب، بل لتهب تعزيات إلهية للكنيسة المقدسة عبر كل الأجيال إلى حين مجيئه على السحاب. بخروج الفاسد المصمم على فساده، سنحت الفرصة ليروا السيد المسيح رئيس الكهنة الأعظم السماوي وهو يحدث الآب عن أسرار المجد الإلهي، وعن مساندة الكنيسة حتى تتمتع بشركة المجد.

ثالثًا: تمجد ابن الإنسان، لأن الآب اختاره مخلصًا للعالم، والآن يتحقق مجده بالأكثر إذ بدأ الموكب يتحرك للقبض عليه، وتسليمه للمحاكمة، والموت على الصليب. هذا هو مجد محبته الإلهية الفائقة.

يؤكد السيد لتلاميذه أن الأحداث القادمة مفرحة للغاية، إذ لا يمكن فصل دور الآب عن دور الابن في تحقيق خلاص العالم. إنها محبة الآب هي التي قدمت لنا الصليب (٣: ١٦؛ رو ٥: ٨). إنه الآب الذي في المسيح هو الذي صالح العالم معه (٢ كو ٥: ١٩). إنه الآب الذي باركنا في المسيح، إذ اختارنا قبل تأسيس العالم (أف ١: ٣–٤).

❖ بهذا القول أنهض السيد المسيح أفكار تلاميذه بعد سقوطها، وحقق لهم ليس فقط ألا يكتئبوا، بل أن يفرحوا.

❖ تكُتب هذه الأمور حتى لا نحمل حقدًا على من يضروننا، بل ننتهرهم ونبكي عليهم. فإن البكاء يليق لا على المتألمين بل على المخطئين. فالإنسان الجشع، والذي يتهم آخر باطلاً، والذي

يمارس شرًا، هؤلاء يسببون لأنفسهم ضررًا أعظم، ويسببون لنا خيرًا أفضل، إن كنا لا ننتقم لأنفسنا. كمثال لذلك لو أن إنسانًا سلبك، فهل تشكر الله على ما أصابك وتمجده؟ بشكرك تقتني ربوات المكافآت، بينما يجمع هو لنفسه نارًا لا يُنطق بها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذا هو السبب الذي لأجله يقول: "**الآن تمجد ابن الإنسان**" [٣١]، وذلك في وقت بدء تحقيق التدبير (الآلام) حيث يموت يسوع، وذلك عندما خرج يهوذا بعد اللقمة يتمم عمله ضد يسوع. وإذ لم يكن ممكنًا ليسوع أن يتمجد إن كان الآب لا يتمجد فيه، قيل: "**تمجد الله فيه**"[2].

❖ تحقق المجد نتيجة لموت "**ابن الإنسان**" عن البشر، الذي لا يخص الكلمة الابن الوحيد الذي بطبيعته لا يموت، ولا للحكمة والحق، ولا إلى أي لقب آخر يخص سمات يسوع اللاهوتية، بل يخص الإنسان، الذي هو أيضًا "**ابن الإنسان**" المولود من نسل داود حسب الجسد (رو ١: ٣)[3].

العلامة أوريجينوس

❖ ماذا قال النهار عندما ذهب الليل؟

ماذا قال المخلص عندما رحل البائع؟

"**الآن تمجد ابن الإنسان**" [٣١]...

أليس ليظهر أن تواضعه العميق قد اقترب، والقيود والحكم والإدانة والسخرية والصلب والموت قد صاروا على وشك الحدوث؟

هل هذا تمجيد أم تحقير؟

عندما صنع عجائب ألم يقل يوحنا عنه: "لم يكن الروح قد أُعطي، لأن يسوع لم يكن قد تمجد بعد" (يو ٧: ٣٩)؟

وعندما أقام الميت لم يكن بعد قد تمجد، فهل يتمجد الآب وهو يقترب بشخصه إلى الموت؟

إنه لم يتمجد حينما عمل كإله، فهل يتمجد وهو في طريقه للآلام كإنسان؟...

"**الآن تمجد ابن الإنسان**" [٣١]، مشيرًا إلى الاعتزال الكامل لرئيس الخطاة (يهوذا) عن أصحابه، فيبقى حول (المسيح) قديسوه. **إننا نحن ظل مجده، الذي سيتحقق حين ينفصل الأشرار تمامًا،**

---

[1] *Homilies on St. John 71: 3.*
[2] *Commentary on John, Book 32: Commentary on John, Book 320 – Commentary on John, Book 321.*
[3] *Commentary on John, Book 32: Commentary on John, Book 322.*

ويقطن (المسيح) مع قديسيه في الأبدية[1].

❖ " **الآن تمجد ابن الإنسان**" [٣١]، ربما تشير كلمة "**الآن**" لا إلى الآلام الوشيكة الحدوث، بل إلى ما يتبعها مباشرة من قيامته، كما لو كان الأمر قد تم فعلاً[2].

القديس أغسطينوس

"**إن كان الله قد تمجد فيه،**

فإن الله سيمجده في ذاته،

ويمجده سريعًا". **[٣٢]**

لقد تمجد السيد المسيح سريعًا عندما أُلقي القبض عليه، إذ سقط الجمع أمامه بكلمة من فمه، ولم يقدروا أن يقبضوا عليه إلاَّ بتسليم نفسه لهم (يو ١٨: ٦). مجَّده الآب في آلامه وصلبه حيث شهدت الطبيعة نفسها أنه ابن الله، وآمن قائد المائة، كما آمن اللص الذي تلامس مع محبة المصلوب.

لكن ما هو أعظم فهو تمجيد ابن الإنسان بموته عن البشرية. وبتمجيده أعلن حب الآب الذي بذل ابنه الوحيد عن العالم، فتمجد الله في ابنه. وإذ تمجد الآب بموت الابن أعلن عن مجد ابنه بالقيامة من الأموات، فتمجد في ذاته كصاحب سلطان، وأن هذا المجد يتحقق سريعًا بقيامته حتى يظهر كمال مجده حين نراه وجهًا لوجه، خاصة في يوم الرب العظيم القادم أيضًا سريعًا.

ظهر مجد الرب في خيمة الاجتماع، فلم يقدر موسى أن يدخلها بسبب السحاب الذي غطاها (خر ٤٠: ٣٤–٣٥). أيضًا عندما خرج الكهنة من الهيكل لم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة، إذ ملأ مجد الرب البيت (١ مل ٨: ١٠–١١). وأيضًا عندما نزل موسى من الجبل ومعه لوحا الشريعة في يديه لم يدرك أن جلده كان يلمع بالمجد، فلم يقدر هرون وكل بني إسرائيل أن يقتربوا إليه (خر ٣٤: ٢٩–٣٠). وفي التجلي انعكس مجد الرب يسوع على ثيابه التي صارت بيضاء كالنور (لو ٩: ٢٩–٣١).

في العهد القديم ظهر مجد الرب خلال السحابة أو بهاء وجه موسى، وفي العهد الجديد أثناء خدمة السيد المسيح ظهر مجده في تجليه، إذ انكشف بهاء وجهه، فكان مشرقًا كالشمس، وانعكس هذا المجد على ثيابه. أما وقد عُلق على الصليب، فقد ظهر مجد الآب والابن بالتعرف عليهما. لذا يرى **العلامة أوريجينوس** أن المجد هنا هو "المعرفة" التي لا يعرفها سوى الآب والابن ومن يريد الابن أن يعلنها له (مت ١١: ٢٧)، المعرفة التي لا يعلنها لحم ودم بل الآب السماوي (مت ١٦: ١٧).

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 63: 2.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 63: 3.*

في هذه العبارة قدم لنا السيد أربع حقائق هامة:

١. يتمجد ابن الإنسان بالصليب كغالبٍ لقوات الظلمة، ومحققٍ الخطة الإلهية من جهة الإنسان.

٢. يتمجد الآب بالصليب، معلنًا حبه الإلهي نحو البشرية.

٣. يمجد الآب ابنه بالقيامة وصعود الابن، حاملاً كنيسته فيه إلى السماء.

٤. قد حان الوقت لتحقيق المجد سريعًا بلا تباطؤ.

❖ ماذا يعني: "**الله سيمجده في ذاته**"؟ إنه سيمجده بذاته وليس بوسيلة أخرى. "**ويمجده سريعًا**، أي في صلبه، لأن "حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين، من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت، والصخور تشققت، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين" (مت ٢٧: ٥١-٥٢) فهذا هو معنى "**فإن الله سيمجده في ذاته**". ما يقوله هو أنه ليس بعد زمن طويل، ولا ينتظر إلى وقت القيامة، ولا سيظهره باهرًا، وإنما سريعًا على الصليب نفسه يظهر بهاؤه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**يا أولادي أنا معكم زمانا قليلاً بعد،**

ستطلبونني، وكما قلت لليهود:

حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا،

أقول لكم أنتم الآن". **[٣٣]**

"**يا أولادي**"، أو "**أولادي الصغار**" أو "المحبوبون" *Teknia*، وهو تعبير يحمل حنوًا عظيمًا وعاطفة قوية، كحنو الأم نحو رضيعها المحبوب لديها جدًا.

الآن قد خرج يهوذا فتحدث السيد بحنو فائض نحو تلاميذه كأبناء محبوبين لديه.

الزمان القليل هنا ربما ساعات قليلة للغاية بعدها يتشتت التلاميذ، تاركين السيد المسيح وحده في المحاكمة، إذ لا يقدرون أن يذهبوا حيث هو تحت المحاكمة. فالصليب يعني عزلة السيد المسيح عن أعدائه كما عن أحبائه، إذ لا يقدر أحد أن يعبر معه الطريق، وكما سمعه إشعياء النبي يقول: "قد دُست المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد" (إش ٦٣: ٣). تركه يهوذا ومعه الأشرار المصممون على شرهم ليروا آثار الصليب يوم لقائهم معه، فيطلبون من الجبال أن تسقط عليهم والتلال أن تغطيهم من وجه الجالس على العرش. وفي طريق الصليب تركه الأحباء، إذ لا يستطيع أحد غيره أن يساهم في ذبيحة الصليب، لكنه إذ يقوم يُصلبون معه ليتمجدوا أيضًا معه. يجدون في

[1] *Hom. 72. PG 59: 425.*

آلامه مجدًا وكرامة، فيحسبون آلامهم هبة إلهية لا يستحقونها، ومتعة للوجود الدائم مع المصلوب الغالب!

❖ قال السيد المسيح هذه الأقوال لليهود مرعبًا إياهم، وقالها لتلاميذه مشعلاً شوقهم.

❖ "**أقول لكم أنتم الآن**" [٣٣]... عندما يهرب التلاميذ، وعندما يعاني اليهود من مآسي لا تُحتمل تفوق كل وصف عندما تؤسر مدينتهم، عندما يحل بهم غضب الله من كل جانب. إذن يتحدث مع اليهود بسبب عدم إيمانهم، وأما بالنسبة لكم فلكي لا تحل بكم متاعب غير متوقعة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا تخافوا من القول أن المخلص هو أب لأشخاص معينين. فقد قال للمفلوج: "لا تخف يا بني، مغفورة لك خطاياك" (مت ٩: ٢). وللمرأة نازفة الدم: "يا بنية إيمانك خلصك" (مت ٩: ٢٢). الآن يقول لتلاميذه: "**أولادي الصغار**" أظن إنها صيغه التصغير واضحة، تعلم صغر النفس التي للرسل حتى ذلك الحين.[2]

❖ يلزمكم أن تفهموا أنه ليس مستحيلاً التغيير من كون الشخص ابنا ليسوع ليصير أخاه، حيث أنه على المستوى البشري لا يمكن للابن أن يصير مؤخرًا أخًا للشخص الذي كان له ابنا قبلاً.

❖ بعد قيامة المخلص، هؤلاء الذين دعاهم "**أبناء صغارًا**" صاروا له إخوة... كمن تغيروا بقيامة يسوع. لهذا كتب: "اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم..." (يو ٢٠: ١٧).

ربما يُمكن أيضًا بنفس الطريقة التغيير من كون الشخص خادمًا ليسوع. كان التلاميذ قبلاً خدامًا قبل أن يكونوا أبناء صغارًا، كما هو واضح من الكلمات: "أنتم تدعوني معلمًا وسيدًا، وحسنًا تقولون لأني أنا كذلك" (يو ١٣: ١٣). وأيضًا الكلمات: "ليس عبد أعظم من سيده" (يو ١٣: ١٦)، هذه التي سبقت الكلمات: "**يا أولادي الصغار أنا معكم**".

لكن لتلاحظوا أن العبد أولاً يصير تلميذًا، وبعد ذلك ابنًا صغيرًا، فأخًا للمسيح ثم ابنا لله[3].

العلامة أوريجينوس

إنهم سيطلبونه، لكنه إذ يقضي ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في قلب الأرض (مت ١٢: ٤٠) عندما

---

[1] *Homilies on St. John 72: 4.*
[2] *Commentary on John, Book 32: 368.*
[3] *Commentary on John, Book 32: 368 – 374.*

ترحل نفسه إلى فردوس كقوله: "اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٣٤)، حيث يحمل الذين ماتوا على رجاء في الجحيم إلى الفردوس، أما التلاميذ فلا يقدرون أن ينطلقوا معه إلى فردوسه. إنهم لم يقدروا في ذلك الحين أن يتبعوه.

❖ لكي يحفظهم من التفكير بأن الله يمجده بطريقة بها لا يرتبط بهم في علاقات أرضية قال لهم: "**يا أولادي، أنا معكم زمانًا قليلاً بعد**" [٣٣]. وكأنه يقول لهم: حقًا إنني سأتمجد بقيامتي، لكنني لا أصعد فورًا إلى السماء، بل "**أنا معكم زمانًا قليلاً بعد**". وكما نجد في سفر أعمال الرسل أنه قضي ٤٠ يومًا معهم بعد قيامته يدخل ويخرج ويأكل ويشرب (أع ١: ٣)... لكنه لا يكون بعد معهم في شركة الضعف البشري[1].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** أن هذا القليل الذي يبقى فيه معكم ثم يطلبونه ولا يقدرون أن يأتوا إليه، ربما يُقصد به الفترة من حديثه معهم حتى صلبه وموته وقيامته. هذا القليل الذي فيه يكون معهم في شركة الضعف البشري، ثم لا يعود يشترك معهم في هذا الضعف. أو ربما يقصد فترة الأربعين يومًا من قيامته حتى صعوده، حيث يكون معهم دون شركة الضعف البشري، إذ لا يعود بعد قابلاً للموت ثم يصعد حيث لا يكون معهم بعد جسديًا[2].

٤. المحبة الأخوية

"**وصية جديدة أنا أعطيكم،**
أن تحبوا بعضكم بعضًا،
كما أحببتكم أنا،
تحبون أنتم أيضًا بعضكم بعضًا". **[٣٤]**

إن وُجد بينهم يهوذا الجاحد لكن ليس الكل مثله، بل هم تلاميذ مخلصون. علامة تلمذتهم الحب المتبادل فيما بينهم. إنها وصية قديمة (١ يو ٢: ٧)، لكنها في المسيح صارت جديدة، إذ أعطاها أعماقًا أعظم، وإمكانيات للتنفيذ أقوى. تمتد ليحب الشخص حتى أعداءه ومقاوميه، مشتهيًا خلاص كل نفس. يوجد تعبيران في الإنجيل باليونانية لكلمة "**جديدة**" أحدهما يعني "حديثًا"، أما هنا فيحمل التعبير الانتعاش والتجديد *fresh*. فالوصية قديمة (لا ١٩: ١٨)، لكن الصليب قدمها لنا بأعماقٍ

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 64: 1.*
[2] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 64: 2 – 3.*

جديدةٍ، وهبنا انتعاشًا لإمكانية ممارستها بمفهومٍ جديدٍ.

وصية المحبة هي أغنية رائعة تملأ الكنيسة فرحًا وبهجة. وصية جديدة، وتبقى جديدة، يمارسها الكل حتى في السماء، لا تقدم ولا تشيخ (عب ٨: ١٣). يخبرنا **العلامة ترتليان** أن الوثنيين يقولون عن المسيحيين: "انظروا كيف يحب بعضهم بعضًا!" وجاء في تقرير فيلكس *Minucius Felix* تعليق **كاسيليوس** *Caecilius* الوثني عن المسيحيين: "يحبون الواحد الآخر، غالبًا قبل أن يعرف أحدهما الآخر". هذه شهادة وثنيين مقاومين لإيمان المسيحيين ومهاجمين لهم. **لوقيان الساموسطائي** *Lucian of Samosata* الذي لم ينطق بكلمة صالحة في حق المسيحيين هاجمهم بأنهم أغبياء، لأنهم محبون بعضهم البعض، ويمكن لأي وثني أن يسيء استغلال هذا الحب، فيجمع منهم ثروات طائلة.

أشار الإنجيلي إلى أمرين جديدين، الوصية الجديدة هنا، والقبر الجديد الذي دُفن فيه السيد المسيح (١٩: ٤١). فبدخول هذه الوصية إلى أعماقنا تحول إنساننا الداخلي إلى قبر المسيح الجديد، الذي يستريح فيه السيد وترافقه ملائكته، ويشهد لقيامته المجيدة. الوصية الجديدة تحول قبرنا إلى سماء جديدة!

❖ كأنه قال لهم قد اضطربتم لذهابي عنكم، إلا أنه إن أحب بعضكم بعضًا ستكونون أقوى من الكل[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنها وصية جديدة، لأنه جردنا من القديم، وألبسنا الإنسان الجديد.

إنه بالحقيقة ليس أي نوع من الحب يقدر أن يجدد من يصغي إليه، أو بالأحرى يخضع بالطاعة لهذا الحب، إنما يتحدث عن الحب الذي يتميز عن العاطفة الجسدية إذ يضيف: "**كما أحببتكم أنا**" [٢٤]...

أعطانا المسيح وصية جديدة، أن نحب بعضنا البعض كما أحبنا هو.

هذا هو الحب الذي يجددنا، يجعل منا أناسًا جددًا، ورثة العهد الجديد، مسبحين بالتسبحة الجديدة[2].

❖ لنحب بعضنا بعضًا حتى بالاهتمام الشديد الذي لحبنا نكسب ما استطعنا بعضنا البعض، لكي

[1] *Homilies on St. John 72:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 65: 1.*

يكون الله فينا. يُمنح هذا الحب لنا بواسطته... فإنه أحبنا بهذا الهدف أن نحب بعضنا البعض، واهبًا ذلك لنا بحبه لنا، فنرتبط بعضنا البعض في حب مشترك، ونتحد معًا كأعضاء برباط المسرة، ونصير جسدًا للرأس القدير هكذا[1].

❖ كأنه يقول: هباتي الأخرى يقتنيها معكم من هم ليسوا لي، ليس فقط الطبيعة والحياة والإدراك الحسي والتعقل والأمان الذي أهبه كنعمة للإنسان والحيوان، بل وأهبهم اللغات والأسرار والنبوة والمعرفة والإيمان والعطاء للفقراء، وتسليم أجسادهم حتى تحترق، ولكن بسبب نقص المحبة يصيرون كصنجٍ يرن، إنهم لا شيء ولا ينتفعون شيئًا (١ كو ١٣: ١–٣)[2].

القديس أغسطينوس

"**بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي،**

إن كان لكم حب بعض لبعضٍ". **[٣٥]**

إن كانت الخطية تحدر النفس إلى طريق الظلم والموت فإن عمل السيد المسيح، الكلمة الإلهي المتجسد هو الإقامة من القبر، وتقديم المعرفة السماوية وتحقيق عجائب إلهية، فتحيا النفس في طريق الحق بالإيمان، وتنتقص من العار، **وتتسع بالحب للَّه وخليقته السماوية وأيضًا الأرضية.**

إنه يدخل بها إلى الطريق الضيق بقلبٍ متسعٍ، على عكس الخطية التي تدخل بها إلى الطريق الرحب المتسع بقلب ضيق. يقول المرتل: "**في طريق وصاياك سعيت، عندما وسعت قلبي**" [٣٢].

❖ إن سألت: وما غرض السيد المسيح من قوله هذا؟ أجبتك: لأن هذا الحب أعظم من كل فضيلة، فهو الذي يجعل الناس قديسين، لأنه هو علة كل فضيلة.

فإن قلت: وما رأيك: هل المعجزات تظهر هذا الحب إظهارًا أليق وأوجب؟ أجبتك: لا تظهره بأية وسيلة، لأن السيد المسيح قال: "كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا؟ وباسمك أخرجنا شياطين؟ وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذٍ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (مت ٧: ٢٢–٢٣).

وأيضًا لما فرح تلاميذه بأن الشياطين تخضع لهم قال: "ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالأحرى أن أسماءكم كتبت في السماوات" (لو ١٠: ٢٠) فإن كان فعل المعجزات اقتاد المسكونة إلى الإيمان، فإن الحب كان قبل هذا، فإن لم يكن الحب موجودًا لا يثبت عمل

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 65: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 65: 3.*

العجائب[1].

❖ يا لعظمة الحب! أقوي من النار ذاتها، يصعد إلى السماء عينها، لا يوجد من يعوقه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق بقلوبنا أن تتسع وتنفتح قدر الإمكان حتى لا تضيق عليهم في حدود الجبن الضيقة، وتمتلئ بطاقة الغضب الهادر، فنصير عاجزين عن نوال ما يدعوه النبي "**الطريق الرحب**" لوصية اللَّه في قلوبنا الضيقة، أو أن نقول مع النبي: "**في طريق وصاياك سعيت عندما وسعت قلبي**"[3].

الأب يوسف

❖ ما كان يمكنني أن أجري (في طريق وصاياك) لو لم توسع قلبي... أتستطيع أن تفعل ذلك بنفسك؟ يجيب: "لا أستطيع" إنه ليس خلال إرادتي الذاتية، كما لو كانت ليست في حاجة إلى معونتك، بل لأنك وسعت قلبي.

توسيع القلب هو بهجة ننالها في برٍ. هذه عطية اللَّه، أثرها أننا لا نتضايق من وصاياه خلال الخوف من العقوبة، بل يتسع القلب خلال الحب والبهجة التي لنا في البرّ.

القديس أغسطينوس

❖ الطريق الذي يؤدي إلى الحياة ضيق وكرب (مت ٧: ١٤)، وأما القلب الذي يطوف فيه بجولة حسنة، أي في طريق وصايا اللَّه، فمتسع ورحب بالكلمة الإلهية، وهو مقدس ويرى اللَّه. وعلى العكس الطريق "الواسع والرحب يقود إلى الهلاك" (مت ٧: ١٣). أما القلب (الذي يسلكه) فضيق، لا يقبل أن يقيم فيه منزلاً للآب والابن (يو ١٤: ٢٣)، بل يتجاهل اللَّه بسبب جهالته. هذا الإنسان يجعل قلبه ضيقًا بسبب قساوته.

لنتأمل أيضًا كيف يعلمنا سليمان أن نسجل الكلمات الإلهية على لوحي قلبنا (أم ٣: ٤؛ ٧: ٣؛ ٢٢: ٢٠)، معلنًا بأن "الحكمة تنادي في الخارج، في الشوارع تعطي صوتها" (أم ١: ٢٠). بقوله "الخارج" لا يقصد الحديث عن الشوارع بل عن القلوب، لكي يوسعها اللَّه...

العلامة أوريجينوس

❖ إن طريق وصايا اللَّه ضيقة، وأما قلب من يجري فيها فرحب ومتسع، لأنه مسكن الآب والابن

---

[1] *Homilies on St. John 72:4.*
[2] *Homilies on St. John 73: 1.*
[3] *St. Cassian: Conferences, 16:27.*

والروح القدس، يسلكها جاريًا بقلب متسع... وأما طريق مساوئ الأشرار فمتسعة، وقلوبهم ضيقة، لأنه لا موضع للَّه فيها.

أنثيموس أسقف أورشليم

٥. إنذار بطرس منكر المسيح

"قال له سمعان بطرس:
يا سيد إلى أين تذهب؟
أجابه يسوع:
حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني،
ولكنك ستتبعني أخيرًا". [٣٦]

سبق فقال السيد المسيح أنه حيث يذهب لا يقدرون أن يذهبوا [٣٣]، ومع هذا ففي جسارة سأله بطرس: "**يا سيد إلى أين تذهب؟**" دفعه حب استطلاعه إلى الدخول في حوارٍ كان في غنى عنه، لأنه انتهى بتأكيد أنه سينكر سيده ثلاث مرات، الأمر الذي لم يكن قط يقدر أن يقبله فكريًا. كان يليق به أن يخضع لكلمات السيد، ويفكر في وصية الحب عوض السؤال فيما لا يخصه.

مع هذه الجسارة أجابه الرب بصراحةٍ كاملةٍ بما يسنده ليرافقه طريق الألم وأن يموت معه وأن يشرب معه الكأس، لكن فيما بعد سينال هذه البركة. إنه لم يجبه على سؤاله بالطريقة التي أرادها بطرس الرسول، إذ كان يود أن يعرف موقعًا معينًا يذهب إليه السيد. لقد رافق سيده في رحلاته أثناء خدمته أينما ذهب ولم يكن يتوقع أنه يمكن أن يفارقه. لعل بطرس كان يظن أن السيد ذاهب إلى المجد الزمني أو السلطة الأرضية، لكن الرب أعلن له أنه الآن عاجز عن أن يرافقه في السماء، إذ لم يتمم بعد عمله على الأرض، ولا نضج لكي يرتفع معه في المجد الأبدي.

❖ إن الحب العظيم أشد من النار عينها، يصعدنا إلى السماء عينها، ولا يوجد مانع يقدر أن يضبط نهضته الشديدة، لأن بطرس الرسول الملتهب شوقه لما سمع السيد المسيح يقول: "**حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا**" [٢٣]، قال هنا: "**يا سيد إلى أين تذهب؟**" قال هذا القول لتوضيح حاله، ليس مريدًا أن يعرف إلى أين يمضي مثلما كان مشتهيًا أن يتبعه، وما اجترأ عاجلاً أن يقول ظاهرًا إنني أجئ معك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد أعلن تأجيل (إمكانية تبعيته) دون أن يفقده الرجاء. لم ينزع عنه هذا الرجاء، بل بالأحرى منحه إياه خلال كلماته التالية: "**ولكنك ستتبعني أخيرًا**" [٣٦]. لماذا تتسرع هكذا يا بطرس؟ فإن الصخرة لم يجعلك راسخًا بعد بروحه. لا ترتفع بتشامخ، "**لا تقدر الآن**". **ولا تسقط في اليأس، "لكنك ستتبعني أخيرًا"**[1].

القديس أغسطينوس

"**قال له بطرس: يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك؟**

الآن إني أضع نفسي عنك". **[٣٧]**

ربما ظن بطرس أن السيد المسيح سيذهب في رحلة طويلة شاقة، وأنه لا يوجد ما يبرر عجزه عن مرافقته، لأنه مستعد أن يرافقه حتى إلى الموت. لكن مسكين بطرس، فإنه لا يعرف ضعفه وعجزه عن تبعية المسيح بدون النعمة الإلهية. لم يدرك أنه بدون المسيح لا يقدر أن يفعل شيئًا (يو ١٥: ٥).

❖ لما سمع بطرس الرسول قول السيد المسيح: "**ولكنك ستتبعني أخيرًا**" لم يضبط شوقه، لكنه أسرع فقال: "**لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟ إني أضع نفسي عنك**". وأنا أخاطب بطرس الرسول: ماذا تقول يا بطرس؟ قد قال السيد المسيح لك: "لا تقدر الآن أن تتبعني" أتقول أنت "لماذا لا أقدر أن أتبعك؟" ستعلم بالخبرة بعينها أن محبتك ليست شيئًا إذا لم تكن المعونة من الأعالي حاضرة معها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذه التجربة هي درس لنا ألا نستهين بضعف الجسد لئلا نُجرب[2].

القديس أمبروسيوس

❖ لقد رأى الرغبة التي في ذهنه، لكنه لم يدرك قياس قوته.

افتخر الضعيف بعزيمته، أما الطبيب فعينُه على صحته. واحد وعد، والآخر سبق فعرف، الجاهل كان جسورًا، أما العارف بكل شيء فتنازل ليعلم.

يا لعِظَم ما تعهد به بطرس إذ تطلع فقط إلى شوقه دون أن يعلم إمكانياته[3].

القديس أغسطينوس

"**أجابه يسوع:**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 66: 1.*
[2] *On the Decease of His Brother Saytrus, Book 2:28.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 66: 1.*

أتضع نفسك عني؟

الحق الحق أقول لك، لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات". [٣٨]

❖ انظر إلى شدة سقوط بطرس الرسول، لأن ما أصابه هذا المصاب دفعة ودفعتين، لكنه في وقت قليل نطق لفظ الجحود ثلاث دفعات.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يا من تظن في نفسك أنك قادر أن تموت من أجلي فلتتعلم أولاً أن تعيش لأجل نفسك، لأنه بخوفك من موت جسدك تعطي الفرصة لنفسك أن تموت. كما أن الاعتراف بالمسيح هو حياة، فإن إنكاره هو موت[1].

❖ من يتبرأ من المسيح كإنسانٍ، لا يجد مصالحة مع الله بالشفيع. فإنه يوجد إله واحد وشفيع واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح (١ تي ٢: ٥).

من ينكر المسيح كإنسان لا يتبرر، فإنه بعصيان إنسان واحد صار كثيرون خطاة، وهكذا بطاعة إنسان واحد يصير كثيرون أبرارًا (رو ٥: ١٩). من ينكر المسيح كإنسانٍ لا يقوم في قيامة الحياة، لأنه بإنسان دخل الموت، وبإنسان دخلت قيامة الأموات؛ فكما أنه في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح يحيا الجميع (١ كو ١٥: ٢١–٢٢)[2].

القديس أغسطينوس

من وحي يو ١٣

اسمح لي أن أتجاسر وأغسل أقدام إخوتي!

❖ فتح يهوذا الطمع قلبه، ليلقي الشيطان فيه بذاره.

مدّ يده للسرقة مرة ومرات فدخله العدو.

أما وقد أصرّ على خيانة سيده فملك العدو على القلب،

ودخل كصاحب سلطان ومالك بيت!

وجد مملكة الظلمة مُعدة لرئيس المملكة.

❖ اخترته تلميذًا، وسلمته الصندوق.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 66: 1.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 66: 2.*

ووهبته صنع العجائب كسائر التلاميذ.
في حنوك لم تعلن عن اسمه، ولا شهَّرت به،
لعله يرجع عن شره.
بل وانحنيت لتغسل قدميه.
غمست اللقمة في الصحفة، ليأكل من يدك،
ولم يشك أحد فيه!

❖ بتواضعك مارست عمل العبيد.
خلعت ثيابك الخارجية، واتزرت بمنشفة.
لم تستنكف من صب الماء في المغسل بنفسك.
ولا تحرجت من غسل أقدام تلاميذك.
لقد بدأت تغسل أقدامهم المتسخة بالماء،
لكي تغسل قلوبنا وضمائرنا بدمك الطاهر.
من يجسر ويحتل مركزك يا غاسل أقدام البشرية.

❖ لأتجاسر وأشاركك حبك.
اسمح لي في حنوك أن أنال هذه الكرامة.
اسمح لي أن أغسل أقدام إخوتي المسيئين إليَّ بفرحٍ وتهليلٍ!
قلبي بالحب يغسل كل تصرف يبدو شريرًا.
قلبي بروحك القدوس يتسع، ليضم الكل فيه.
قلبي يئن حتى يرى كل الأقدام طاهرة ومقدسة!

❖ طهرني بالكامل بالماء والروح الناري في مياه المعمودية.
متى أرى العالم كله طاهرًا ومقدسًا فيك؟
لتبقى يداك تغسل كل دنسٍ يومي فيَّ!
لتغسل يا سيدي كل أقدام مؤمنيك!

❖ خرج يهوذا – صاحب القلب المظلم – ليلاً ليتمم أعمال الظلمة.
وبقي تلاميذك معك، يا أيها النور الحقيقي.

سألتهم الحب الحقيقي، مقتدين بك.
فلا يمكن للظلمة أن تقتحم قلبًا يسكنه الحب.

❖ اشتاق بطرس أن يتبعك أينما ذهبت،
ولم يدرك المسكين ضعف إمكانياته!
ظن أنه قادر أن يضع نفسه عنك،
ولم يدرك أنه لا يستطيع أن يبذل ما لم تبذل أنت أولاً حياتك عنه.
كشفت له ضعفه بكل وضوحٍ،
وملأت قلبه رجاءً عجيبًا.
أعلنت له أنه سيتبعك أخيرًا،
حين يُصلب أيضًا معك كل بقية حياته،
وحين يستشهد من أجل اسمك القدوس!

❖ أنت تعرفني يا مخلصي أكثر مما أعرف عن نفسي.
أنت سند لي،
تحقق كل شهوات قلبي!
لتمتد يدك يا رب وتغسل قلبي كل يومٍ.
فلا تقدر فخاخ الشيطان أن تحوط بي.
ولن يقدر العدو أن يملك في داخلي.
يداك تشرقان بالنور عليَّ،
فلن تستطيع مملكة الظلمة أن تتسلل إلى داخلي.

الأصحاح الرابع عشر

المعزي الآخر

الآن يقدم ثلاثة أحاديث وداعية سجلها لنا الإنجيلي في الأصحاحات ١٤–١٦.

في هذه الأحاديث يجتمع الراعي السماوي مع القلة القليلة التي تمثل قطيعه الضعيف، وقد أوشكت العاصفة أن تهب بكل قوة، وظن إبليس، الذئب المفترس، أنه حتمًا يحطم الراعي مع رعيته. أما الراعي وهو يتمم خطته الإلهية فيُطَمئِن الرعية، طالبًا منها ألا تضطرب، بل يليق بها أن تتعرف على سرّ الحب الإلهي:

فمن جهة الآب، لديه منازل كثيرة تتسع للكل، وفي نفس الوقت مسرته أن يأتي مع الابن ويسكن في أعماق كل مؤمن.

ومن جهة الابن، فالعاصفة التي تهب ضده ما هي إلاَّ الطريق المُعد ليحمل رعيته خلال الصليب إلى العرش، وينعموا بشركة مجده. إنه أب يتحدث مع أولاده الصغار، الذي وإن فارقهم بالجسد إنما ليبعث لهم روحه القدوس معزيًا، فلا يتركهم يتامى، بل يقودهم إلى السماء عينها حيث المسيح صاعد!

ومن جهة الروح القدس، فهو المعزي الآخر، يقود الرعية إلى كل الحق الذي هو السيد المسيح، ويهبهم قوة للشهادة أمام العالم، مبكتًا العالم على عدم إيمانه ليجذبهم خلال كرازة التلاميذ إلى الإيمان، وعلى برّ لكي يدرك العالم أنه لن يتبرر إلاَّ ببرّ المصلوب، وعلى دينونة حيث يتحطم إبليس ويُدان.

تبقى هذه الأحاديث الوداعية سرّ قوة الكنيسة، إذ تجد فيها سرّ الخلاص الذي شغل الثالوث القدوس ويشغله حتى يكمل خلاص البشرية وتتمتع بما أعده الله لها.

هذا الأصحاح هو امتداد لحديث السيد المسيح مع تلاميذه بعد تأسيس سرّ الإفخارستيا وبعدما دان تصرف يهوذا، وأعلن ما سيفعله بطرس الرسول، منكرًا السيد المسيح ثلاث مرات. لقد أراد أن يهب بقية التلاميذ تعزية وراحة بعدما اضطربت نفوسهم وحزنت بحديثه أن أحدهم يسلمه والآخر ينكره. وقد رأينا في الأصحاح السابق أن الجلسة كانت أشبه بمؤتمر يتسم بالحوار المفتوح.

غالبًا ما يحدث الاضطراب بسبب الخوف من المجهول أو توقع خسارة فادحة تمس النفس أو

الجسد أو الممتلكات، لهذا فإن علاج الاضطراب هو الإيمان، الذي يهب النفس بصيرة فتعرف موضع استقرارها الأبدي، وتدرك أنها بالله قادرة على هدم حصون، ولا تقدر قوة ما أن تحطمها، وتتمتع بالثبوت في الله ضابط السماء والأرض، وكل خليقة ظاهرة أو خفية.

١. الراحة الأبدية	**١-٣.**
٢. المسيح طريق الراحة	**٤-١١.**
٣. الصلاة والراحة	**١٢-١٤.**
٤. المعزي الآخر	**١٥-١٧.**
٥. ظهوره لهم	**١٨-٢٤.**
٦. المعزي المعلم	**٢٥-٢٦.**
٧. فرح المسيح برحيله	**٢٧-٣١.**

١. الراحة الأبدية

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن التلاميذ قد اضطربوا جدًا، خاصةً بعدما كشف السيد المسيح عما سيفعله بطرس الرسول. فإن كان هذا التلميذ قد اتسم بالغيرة المتقدة، وكان في رفقة السيد، وقد أعلن رغبته أن يقدم حياته من أجل المسيح سينكره ثلاث مرات فأي رجاء لهم؟ لهذا قدم لهم السيد الحديث التالي لينزع ما في نفوسهم من اضطراب، ويفتح أمامهم أبواب الرجاء للتمتع بالسماء!

"**لا تضطرب قلوبكم،**

أنتم تؤمنون بالله، فأمنوا بي". **[١]**

يحذرنا السيد المسيح من القلق والاضطراب، مقدمًا لنا الإيمان به كعلاجٍ عمليٍ للمعاناة من القلق. كان القلق واضحًا في نظراتهم. "كان التلاميذ ينظرون بعضهم إلى بعض وهم محتارون في من قال عنه" (يو ١٣: ٢٢). هذا وقد رأى السيد ليس فقط نظراتهم المضطربة، وإنما قلوبهم التي تدمي من القلق في الداخل. لم يتركهم في اضطرابهم إذ يهتم بسلامهم وسلامنا الداخلي. الآن يفتح لهم باب الأمان والسلام ألا وهو الإيمان به، يؤمنوا به كمخلص يتألم ويموت لأجلهم لكي يهبهم قوة القيامة وبهجتها، ويفتح لهم طريق السماء، ويهبهم حق العبور إلى مواضع الراحة الأبدية.

بدأ التلاميذ يفقدون رجاءهم في إقامة مملكة على الأرض، وبدأت أحلامهم من جهة يسوع تضيع، أما هو فرفعهم إلى الميراث الأبدي الروحي، رفع قلوبهم إلى السماء لكي تشتاق إلى ما قد يُعد لهم هناك.

❖ انظروا كيف عزى السيد المسيح تلاميذه بقوله: "**لا تضطرب قلوبكم**"، إذ أوضح بهذا القول الأول قدرة لاهوته، لأنه عرف الأفكار التي جازت في أنفسهم، ورد عليها في وسط كلامه.

وبقول السيد المسيح: "**أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي**" كأنه يقول: "يجب أن تعبر هذه الشدائد كلها، لأن الإيمان بي وبأبي هو أقوى اقتدارًا من المصائب الواردة عليكم، ولا يسمح لأي شر أن يغلبكم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يؤكد الرب دومًا هذا التعريف لإيمان الكنيسة الذي يتضمن التعليم بأنه يوجد إله واحد الآب، لكنه لا يفصل نفسه عن سرّ الإله الواحد... وهو ليس بإلهٍ ثانٍ، ولا بالإله المنفرد.

وحيث أن طبيعة الإله الواحد فيه لا يمكن أن يكون إلهًا مختلفًا عنه... فهو لا يقدر أن ينفصل عنه، ولا أن يندمج فيه. لهذا يتحدث بكلمات مختارة بتأنٍ، فما يدعيه بالنسب للآب يشير بلغة متواضعةً أنها تناسبه هو أيضًا. خذ كمثال الأمر: "**تمسكوا بالإيمان بالله، فآمنوا بي**". إنه يتماثل مع الله في الكرامة. أسألكم كيف يمكنه أن ينفصل عن طبيعته؟ يقول: "**تمسكوا بالإيمان بي أيضًا**" كما قال: "**تمسكوا بالإيمان بالله**" أليس القول: "بي *in me*" يعني طبيعته؟[1]

القديس هيلاري أسقف بواتييه

❖ أنتم تخشون الموت بخصوص شكل العبد هذا؛ "**لا تضطرب قلوبكم**" [١] فإن شكل الله سيقيمه ثانية[2].

القديس أغسطينوس

"**في بيت أبي منازل كثيرة،**

وإلا فإني كنت قد قلت لكم أنا أمضي لأعد لكم مكانًا". **[٢]**

يدعو السماء "**بيت أبيه**"، فهو يعود إلى بيت أبيه الذي هو بيته، وهناك يعد مواضع وشقق *mansions* لمؤمنيه، فيشعر كل واحدٍ أنه راجع إلى بيت أبيه السماوي أو بيته الذي ينتظره. وبقوله "**مواضع كثيرة**" يعطينا طمأنينة أن لله أبناء كثيرين، وأن السماء متسعة للجميع. وقد جاءت الكلمة اليونانية تعني مسكنًا دائمًا وإقامة مستمرة.

عوض المملكة الزمنية وجه أنظارهم إلى مملكة المجد الأبدي. وهي مملكة متسعة جدًا يمكن أن

---

[1] *On the Trinity 9: 18.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 67: 1.*

تضم كل البشرية إن أرادت، "**في بيت أبي منازل (مواضع) كثيرة**" [٢].

إن كان سيتركهم بالجسد، إنما من أجل مجدهم. "**لأعد لكم مكانًا**" [٢]، فهو لا يذهب من أجل راحته الشخصية ومجده، وإنما ليهيئ لكل واحدٍ موضعًا خاصًا به.

إن كان اليهود يفتخرون بالهيكل كبيت الله، وقد ضم غرف كثيرة (١ مل ٦: ٥؛ عز ٨: ٢٩؛ إر ٣٥: ٢، ٤؛ ٣٦: ١٠) فإن هيكل السماء به منازل كثيرة متنوعة ليجد كل مؤمن مكانًا فيه يليق به.

"**وإلا فإني قد قلت لكم**": لست أقدم لكم رجاءً باطلاً، فقد وعدتكم بالميراث الأبدي، لتكونوا معي حيث أكون أنا. لو لم يوجد لكم مكان لما قلت هذا لكم.

❖ وكما سند السيد المسيح بطرس الرسول حين كان حزينًا بقوله: "ولكنك ستتبعني أخيرًا" (١٣: ٣٦) هكذا قدم لهؤلاء هذا القبس من الرجاء، حتى لا يظنوا أنه قد أُعطي الوعد بذلك لبطرس وحده، قال لهم: "**في بيت أبي مواضع كثيرة**". وفي قول السيد المسيح لتلاميذه: "**أنا أمضي لأعد لكم مكانًا**" يظهر أن ذاك المكان الذي يقبل بطرس يقبلهم أيضًا، لأن هناك فيض من السعة في المواضع[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى جوفنيانوس *Jovinianus* أن المواضع الكثيرة في بيت أبينا هي الكنائس المنتشرة في العالم، ويرد عليه **القديس جيروم** بأن ربنا يناقش هنا لا عدد الكنائس بل المنازل السماوية والمساكن الأبدية.

❖ مع تنوع المجد في السماء إلا أن الكل يتمتعون ببيتٍ واحدٍ، وقد صعد الرب لا ليُعد مواضع كثيرة، بل يُعدّ بيتًا واحدًا، فالكل يشتركون في ذات البيت ويشعرون بالكفاية والشبع، وإن اختلف مجد كل نجمٍ عن الآخر[2].

القديس جيروم

❖ هل كان يمكن لأحدهم ألا يخاف إن كان بطرس أكثرهم ثقة وجراءة قيل له: "لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات" (يو ١٣: ٣٨)؟

فإذ حسبوا أنفسهم ابتداء من بطرس كمن مصيرهم الهلاك، لذلك اضطربوا. والآن إذ يسمعوا: "**في بيت أبي مواضع كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم، أنا أمضي لأعد لكم مكانًا**" ينتعشون من اضطرابهم ويصيرون في يقين وثقة أنه بعد عبور مصائب التجارب يسكنون مع المسيح في حضرة

[1] *Homilies on St. John, 73:1.*
[2] *Against Jovinianus, 2:28*

الله.

فمع أن الواحد أقوى من الآخر، والواحد أحكم من الآخر، والواحد أبرّ من الآخر فإنه: "**في بيت الآب يوجد مواضع كثيرة**". **لن يبقى أحد منهم خارج هذا البيت**، حيث يتقبل كل واحدٍ موضعًا حسب استحقاقه.

الكل يتشابه في أخذ الفلس الذي أمر صاحب البيت أن يعطيه لكل من يعمل في الكرم، دون تمييز بين الذين عملوا أقل أو أكثر (مت ٢٠: ٩). هذا الفلس حتمًا يشير إلى الحياة الأبدية، حيث لا يعيش أحد مدة مختلفة عن الآخرين، إذ لا يوجد في الأبدية مقياس متباين. لكن المواضع الكثيرة تشير إلى درجات استحقاق كل واحدٍ في الحياة الأبدية الواحدة. فللشمس مجد، وللقمر مجد آخر، وللنجوم مجد آخر، نجم يمتاز عن نجم في المجد. هكذا يكون في القيامة من الأموات.

القديسون، مثل كواكب في السماء، ينالون في الملكوت مواضع متنوعة بدرجات مختلفة من البهاء. ولكن بناء على ذلك الفلس لا يُحرم أحد من الملكوت. وسيكون الله هو الكل في الكل (١ كو ١٥: ٤١-٤٢) بطريقة معينة هكذا، التي هي الله محبة (١ يو ٤: ٨). سيحقق الحب هذا بالأمر العام (الملكوت) الذي هو عام بالنسبة للكل. فإنه بهذه الطريقة كل واحدٍ بالحقيقة يقتني هذا (الملكوت)، **وإذ يحب أن يرى في الآخرين ما هو ليس لديه. لهذا لن يكون هناك حسد بين هذا البهاء المتنوع، حيث أن وحدة الحب تملك على الكل**[1].

❖ ليذهب الرب ويعد لنا مكانًا. ليذهب فلا يُرى، وليبقى مختفيًا حتى نمارس الإيمان. بهذا يعد لنا المكان، الذي هو بالإيمان نحيا. لتكن لدينا الرغبة في الإيمان بهذا المكان حتى يُقتنى الموضع المُعد. الاشتياق إلى الحب هو الإعداد للمنزل. لتعد يا رب ما أنت تعده، فإنك تعدنا لك، وتعد ذاتك لنا، وذلك قدر ما تعد لك موضعًا فينا، ولنا فيك. إذ تقول: "اثبتوا فيّ وأنا فيكم" (يو ١٥: ١). وكما أن لكل واحدٍ شركة فيك، البعض أقل والبعض أكثر هكذا يكون التنوع في المكافآت حسب الاستحقاقات المختلفة[2].

القديس أغسطينوس

يتساءل **القديس أغسطينوس** كيف يعد السيد المسيح بأنه يذهب ليعد لنا مكانًا وفي نفس الوقت يقول: "**في بيت أبي مواضع كثيرة**"، أي معَدَّة بالفعل؟ يجيب على ذلك بأنه بالفعل قد أعدها مسبقًا

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 67: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 68: 3.*

بتدبيره من أجلنا، وأنه يتمم ذلك في شيء من التفصيل العملي الدقيق. وذلك كما نرى في الأناجيل السيد المسيح يختار تلاميذه ويقدم لهم الدعوة، ومع ذلك يقول الرسول: "اختارنا قبل تأسيس العالم" (أف ١: ٤). هكذا تم تعيينهم قبل تأسيس العالم بخطته الإلهية، وحقق ذلك عمليًا عندما تجسد ودعا التلاميذ والرسل[1].

"وإن مضيت وأعددت لكم مكانًا آتي أيضًا وأخذكم إليَّ،
حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضًا". [٣]

ذهاب السيد المسيح هو فتح للطريق، إذ يُعد الموضع، ويعطي حق العبور به إلى مملكة المجد الأبدي. إنه يعود بذاكرتهم إلى موكب الشعب القديم حيث كان يتقدمهم ليلتمس لهم منزلاً (عد ١٠: ٣٣)، هكذا يتقدمهم السيد ليعبر بهم مسيرة الثلاثة أيام، أي مسيرة القيامة، والنصرة على الموت، ليجد الكل مواضع في السماء!

يرى السيد المسيح القيادات الدينية مع الشعب وهم في اضطراب شديد يريدون الخلاص منه، ويصرخون: "اصلبه، اصلبه!" لذا أوصى تلاميذه ألا يلحق هذا الاضطراب بقلوبهم، فإنه بينما يضطرب العالم حوله للخلاص من يسوع، إذا به ينطلق بإرادته ليفتح باب المجد حتى لمقاوميه. إنه يود خلاص الجميع!

جاء التعبير "**آخذكم إليَّ**" في اليونانية يحمل فيضًا من الحب والشوق والانجذاب نحو السيد المسيح. هذا هو عمل الروح القدس الذي يسكب الحب في القلب، فيشتاق إلى اللقاء معه وجهًا لوجه، وأن ينضم إلى حضنهم، حيث يستدفئ بقوة حب المسيح الفائق له. ما ننعم به من جاذبية الآن إلى السيد وثبوت فيه هو عربون لما سنناله، ولكن لا يمكن أن يُقارن به.

قبل الله الكلمة أن يصير إنسانًا، وحلّ بيننا، وصار مواطنًا معنا في عالمنا، لكي يحملنا إلى وطنه السماوي ننعم بالشركة في الطبيعة الإلهية، ونُحسب أهل بيت الله (أف ٢: ١٩). صارت شهوة قلبنا أن نقول مع الرسول: "لي اشتهاء أن أنطلق **وأكون مع المسيح** ذاك أفضل جدًا" (في ١: ٢٣)، نتبعه حيثما ذهب (رؤ ١٤: ٤). هذه هي طلبة العريس السماوي من أجل عروسه: "يكونون معي حيث أكون أنا" (يو ١٧: ٢٤)، أي تتمتع العروس بالخدر السماوي.

❖ كأن السيد المسيح يقول لتلاميذه: إنني قد حرصت من أجل هذا الأمر حرصًا جزيلاً، موضحًا أنه

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 68: 1.*

ينبغي عليهم أن يثقوا ويؤمنوا بذلك، ويترجوه جدًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. المسيح طريق الراحة

"**وتعلمون حيث أنا اذهب،**

وتعلمون الطريق". **[٤]**

إذ تحدث معهم عن الصليب وقدم لهم جسده ودمه المبذولين، حسبهم السيد يعلمون أين هو ذاهب، وما هو الطريق الذي يسلكه، حيث يفتح بصليبه أبواب الدخول إلى حضن الآب السماوي.

إذ قدم لهم السيد المسيح الحياة السماوية المطوّبة كتعزية لهم وسط الآلام، أظهر لهم ما هو الطريق إلى هذه الحياة. يقول: "لقد عرفتم البيت السماوي، بيت أبيكم الذي تستقرون فيه، وعرفتم الطريق المؤدي إليه. لقد سبق فأخبرتكم عنه مرارًا بكل وضوح، وكان يليق بكم أن تعرفوه".

❖ قال هذا إذ كان يعرف أنفسهم أنها تطلب فيما بعد أن تعرف هذا المطلوب. وبقوله: "**وتعلمون الطريق**" أوضح الشهوة التي في نيتهم[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ علمنا أن في بيت أبينا مواضع كثيرة (يو ١٤: ٢) يقابل هذا حدد ما هي حالة الصلاح التي بلغها كل شخص يرفض الشر كعلاج.

فمثلاً الشخص الوارث بعض المواهب الصالحة منذ بدء حياته وخروجه من ممارسة الشر حديثًا إلى السلوك السوي والحق، يقابله شخص آخر بلغ إلى السلوك السوي والحق بالمثابرة والتقدم فيها.

بينما شخص ثالث نمى بواسطة رغبته في الخير، وأيضا شخص آخر يبقى مستمرًا بحزم في ارتفاعه إلى مستوى عالٍ في الفضيلة، وقد يتمكن شخص آخر أن يتقدمه في الارتفاع إلى مستوى أعلى.

وقد يسبق البعض هؤلاء، بينما يحاول آخرون بشدة في الارتفاع.

يقبل اللّه كل شخص حسب إرادته الحرة، ويرتب الاختيار حسب استحقاق كل شخص، فيمنح تعويضًا للأشخاص الأكثر نبلاً، ويعطي مكافآت لمن هم أقل مستوى[3].

---

[1] *Homilies on St. John, 73:1.*

[2] *Homilies on St. John, 73:2.*

[3] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٥.

القديس غريغوريوس النيسي

"**قال له توما:**

يا سيد لسنا نعلم أين تذهب،

فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟" **[٥]**

مع كل ما أعلنه السيد عن الصليب والقيامة، لكن لم يكن ممكنًا لهم إدراك ذلك، ربما ظنوا أنه يرتفع مثل إيليا بمركبة نارية، أو تحمله ملائكة إلى السماء، أو ينطلق إلى حضن إبراهيم الذي يشتهيه كل يهودي. تحيَّر توما في الأمر كما تحيَّر التلميذان اللذان كانا في طريقهما إلى عمواس حتى بعد أن أكد لهما النسوة قيامته.

بحديثه اللطيف معهم فتح مجال الحوار معه، فتحدث معه على الأقل تلميذان: توما وفيلبس. سأله توما عن الطريق دون أن يعتذر بأنه يناقض كلمات السيد المسيح القائل: "**تعلمون الطريق**" [٤]. لم يخجل توما من الاعتراف بأنه لم يفهم كلمات السيد، ولا عرف إلى أين هو ذاهب حتى يعرف الطريق، على خلاف بطرس الذي ظن أنه يقدر أن يذهب مع المسيح حتى وإن كانت التكلفة هي حياته ذاتها (يو ١٣: ٣٧).

حسن أن يعترف توما بجهله، لكنه ملوم لأنه يفكر في ملكوت أرضي، لذا ظن أن السيد يذهب إلى بلدٍ آخر. لهذا لم يعرف الطريق. لم يعرف إن كان يذهب إلى بيت لحم أو الناصرة أو كفرناحوم أو إحدى مدن الأمم، كما ذهب داود إلى حبرون لكي يُمسح ملكًا ويرد الملك لإسرائيل. هل ظن توما أن السيد المسيح سيذهب إلى عالم الأرواح غير المنظور... لا نعلم!

❖ قال بطرس ما قاله (أين تذهب؟ يو ١٨: ٣٦) لا ليتعلم، وإنما ليتبعه. ولكن عندما انتهر بطرس وكشف المسيح أن ما هو ممكن يبدو الآن مستحيلاً (بأن يتبعه التلاميذ)، وظهرت الاستحالة في تحقيق ذلك قاده ذلك إلى الرغبة في معرفة الأمر بدقة لذلك قال السيد للآخرين: "**وتعرفون الطريق**". فإذ قال: "ستنكرني" (١٣: ٣٩) قبل أن ينطق أحد بكلمة، إذ هو فاحص قلوبهم، قال: "**لا تضطربوا**". الآن إذ يقول هنا: "**تعرفون**" كشف عن الرغبة التي في قلوبهم، معطيًا إياهم عذرًا لسؤالهم. الآن ما قاله بطرس "**أين تذهب**" عن محبة خالصة، قاله توما عن جبنٍ.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال له يسوع:**

أنا هو الطريق والحق والحياة،

ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي". [٦]

جال فكر توما هنا وهناك لعله يدرك إلى أين يذهب يسوع، كما جال فكر مرثا إلى اليوم الأخير عندما أخبرها السيد أن أخاها يقوم. وفي الحالتين، كما في أغلب المواقف إن لم يكن جميعها يسحب السيد المسيح أنظار السامعين إلى شخصه، قائلاً: "**أنا هو**". فهو الطريق والحق والحياة والقيامة والراعي والباب والخبز النازل من السماء، فيه كل كفايتنا. فالطريق ليس خارجًا عنه، والحق ليس له وجود بدونه، والحياة ليست إلاَّ فيه.

هو الطريق الذي إذ ندخله ندخل إلى الآب دون أن نخرج من الابن، لأن الابن في الآب، هكذا باتحادنا مع الابن ننعم بالاتحاد مع الآب.

إذ يقدم نفسه الطريق والحق والحياة لا يفصل بينهم، لأنه هو الكل لنا. هو الطريق، نؤمن به فنثبت فيه وهو فينا لينطلق بنا إلى حضن الآب، وهو الحق بروحه ينير أعماقنا فنكتشف الأسرار الإلهية الفائقة المعرفة، وهو الحياة إذ نقبل حياته حياة ممنوحة لنا. بهذا نتمتع بالدخول إلى الآب والتعرف عليه والتمتع به.

صحح السيد المسيح مفهوم توما، فأعلن له أنه هو الطريق الذي يقودهم إلى الآب وإلى معرفته. إنه الطريق بتعاليمه (يو ٦: ٨٦)، وبمثاله (١ بط ٢: ٢١)، وبذبيحته (عب ٩: ٨–٩)، وبروحه (يو ١٦: ١٣). إنه الطريق الذي فيه تتحقق كل الوعود الإلهية (٢ كو ١: ٢٠). لا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلاَّ به، ولا إلى معرفته ما لم يخبره الابن عنه.

إنه **الطريق** الذي تحدث عنه إشعياء النبي قائلاً: "وتكون هناك سكة وطريق يُقال لها الطريق المقدسة، لا يعبر فيها نجس بل هي لهم. من سلك في الطريق حتى الجهال لا يضل. لا يكون هناك أسد، وحش مفترس لا يصعد إليها، لا يوجد هناك، بل يسلك المفديون" (إش ٣٥: ٨–٩).

إنه **الطريق** الذي قدم فيه دمه ليعبر بنا إلى المقدس (عب ٩: ١٢)، فيه نتمتع بالصليب شجرة الحياة.

إنه **الحق**، الذي فيه كملت الظلال والرموز الواردة في العهد القديم. فهو المن الحقيقي النازل من السماء (يو ٦: ٣٢)، وخيمة الاجتماع (عب ٨: ٣).

إنه **الحق** الذي يبدد كل ما هو باطل وما هو خطأ.

إنه **الحق** الذي يحطم كل خداع؛ ففيه نجد الثقة الحقيقية والحقيقة (٢ كو ١: ٢٠).

هو **الحياة** والقيامة: "احسبوا أنفسكم أمواتًا عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا" (رو

٦: ١١).

إنه **الطريق والحق والحياة**، وكأنه هو البداية والنهاية وما بينهما. به نبدأ الحياة، ونسلك الطريق، ونبلغ إلى النهاية.

❖ إذن الطريق هو قوة اللَّه الفائقة، لأن المسيح هو طريقنا، الطريق الصالح، أيضًا هو الطريق الذي يفتح ملكوت السماوات للمؤمنين... المسيح هو بدء فضيلتنا، هو بدء الطهارة[1].

القديس أمبروسيوس

❖ "**أنا هو الطريق**"؛ هذا هو البرهان علي أنه "ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي".

أنا هو الحق والحياة، بهذا فإن هذه الأمور ستتحقق حتمًا. فإنه لا يوجد معي باطل، إذ أنا هو الحق.

إن كنت أنا هو الحياة أيضًا، فإنه لا يقدر حتى الموت أن يعوقكم عن المجيء إلي.

بجانب هذا فإني إن كنت أنا هو الطريق، فلا تحتاجون إلى من يمسك بأيديكم ويقودكم. وإن كنت أنا هو الحق فكلماتي ليست كذبًا، وإن كنت أنا هو الحياة فإنكم وإن متم تنالون ما أخبرتكم به...

لقد نالوا تعزية عظيمة بكونه هو الطريق. كأنه يقول: "إن كان لي السلطة المنفردة أن أحضر إلى الآب، فإنكم حتمًا ستأتون إليه، إذ لا يمكن لكم أن تأتوا إليه بطريق آخر. ولكن بقوله قبلاً: "لا يستطيع أحد أن يأتي إليّ ما لم يجتذبه الآب" وأيضًا: "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلي الجميع" (١٢: ٣٢)، وأيضًا "لا يأتي أحد إلى الآب إلا بي" (١٤: ٦)، يظهر بهذا أنه معادل لمن ولده.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يقول المخلص نفسه: "**أنا هو الطريق والحق والحياة**" [٦]. ويقول الرسول: "متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذٍ تظهرون أنتم أيضًا معه في المجد" (١ كو ٣: ٤). مرة أخرى جاء في المزامير: "رحمتك أفضل من الحياة *lives*" (مز ٦٢: ٤). الحياة بصيغة الجمع مضاعفة، لأن المسيح هو الحياة في كل أحد[2].

❖ هذا الطريق صالح يقود الإنسان الصالح إلى الآب الصالح، الإنسان الذي يجلب خيرات من كنزه الصالح، العبد الصالح والأمين (مت ٧: ١٤؛ لو ٦: ٤٥؛ مت ٢٥: ٢١). لكن هذا الطريق

---

[1] *On the Christian Faith, Book 3: 7:51-52.*
[2] *Commentary on John, Book 6:41.*

ضيق، لا يستطيع الغالبية، الذين هم بالأكثر جسديون أن يسافروا فيه. لكن الطريق ضيق أيضًا بالذين يجاهدون ليعبروا فيه إذ لم يُقل "إنه محصور" بل ضيق[1].

العلامة أوريجينوس

❖ الآن الطريق غير قابل للخطأ، أعني يسوع المسيح؛ إذ يقول: "**أنا هو الطريق والحياة**". هذا الطريق يقود إلى الآب، إذ يقول "ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي" (يو ١٤: ٦)[2].

القديس أغناطيوس الأنطاكي

❖ الآب الأسمى والمكرم هو أب الحق نفسه، أي أب الابن الوحيد الجنس. والروح القدس له روح الحق... لذلك فمن يعبدون الآب بالروح والحق، ويتمسكون بهذه الوسيلة للإيمان يتقبلون أيضًا طاقات خلالها. يقول الرسول: "لأن الروح واحد الذي به نقدم تكريمًا، وبه نصلي". (راجع يو ٤: ٢٣-٢٤). الابن الوحيد الجنس يقول: "**لا يأتي أحد إلى الآب إلا بي**"، لذلك فإن الذين يكرمون الآب باسمي بالروح والحق هم عابدون حقيقيون[3].

الأب غريغوريوس بالاماس

❖ كل إنسان يرغب في الحق والحياة، لكن ليس كل أحدٍ يجد الطريق[4].

❖ سرْ به كإنسان (بتجسده صار طريقًا لخلاصنا)، فتأتي إلى الله. **به تذهب وإليه تذهب.**

لا تنظر خارجًا عنه إلى إي طريق به تذهب إليه. فإنه إن لم يهبنا أن يكون الطريق نضل على الدوام. لقد صار الطريق الذي به تذهبون إليه.

لست أقول لكم: ابحثوا عن الطريق. فالطريق ذاته يأتي إليكم، قوموا واسلكوا فيه. اسلكوا بالحياة لا بالأقدام. فإن كثيرين يسيرون حسنًا بأقدامهم، وأما بحياتهم فيسيرون بطريقة شريرة.

أحيانًا حتى الذين يسيرون حسنًا يجرون خارج الطريق. هكذا ستجدون أناسًا يعيشون حسنًا لكنهم ليسوا مسيحيين. إنهم يجرون حسنًا، لكنهم لا يجرون في الطريق. بقدر ما يجرون يضلون، لأنهم خارج الطريق. لكن إن جاء مثل هؤلاء إلى الطريق، وتمسكوا به كم يكون إيمانهم عظيمًا، إذ يسيرون حسنًا ولا يضلون! لكن إن لم يتمسكوا بالطريق، يا لشقاؤهم هم سلكوا حسنًا! كم يلزمهم أن ينوحوا.

---

[1] *Commentary on John, Book 6:105.*
[2] *Epistle to Eph., 9*
[3] *The One Hundred and Fifty Chapters, ch 59*
[4] *Sermon on N.T. Lessons, 91:1.*

كان الأفضل لهم أن يتوقفوا في الطريق عن أن يسيروا بثبات خارج الطريق[1].

❖ يقول الرب إنهم يعرفون الأمرين (أين هو ذاهب، وما هو الطريق)، أما (توما) فيعلن أنه لم يعرفهما، أي لم يعرف الموضع الذي يذهب إليه (السيد) والطريق للبلوغ إليه. لم يعرف (توما) أنه ينطق بكلمات باطلة، إذ هم يعلمون ذلك، لكنهم لا يعرفون أنهم يعلمون. **فالسيد يقنعهم بأنهم بالفعل عرفوا ما يظنون أنهم يجهلونه**، إذ يقول: "**أنا هو الطريق والحق والحياة**" [٦]... إذ عرفوا الذي هو الحق، فإنهم يعرفون الحق. إذ عرفوا ذاك الذي هو الحياة، فقد عرفوا الحياة. انظروا، لقد اقتنعوا أنهم عرفوا ما لم يعرفوا أنهم عرفوه[2].

❖ لقد كان بنفسه ذاهبًا إلى نفسه. إلى أين نحن نذهب إلاَّ إليه؟ وبأي طريق نذهب إلا به نفسه، **فبه نذهب إليه**. بنفس الطريق هو ونحن نذهب هكذا إلى الآب[3].

❖ نال الرسول توما بأن تكون أمامه (أيها الرب يسوع) لكي يسألك أسئلة، ومع ذلك **لم يستطِع أن يدركك حتى اقتناك فيه**.

إنني أسألك لأني أعرف أنك أعلى مني.

إنني اسأل وأبحث قدر ما أستطيع لكي ما أجعل نفسي تنتشر في ذلك الموضع الذي أعلى مني، حيث أصغي إليك يا من لا تستخدم صوتًا خارجيًا لكي تقنع بتعليمك.

أسألك اخبرني، كيف تذهب إليك؟

هل تركت نفسك لتأتي إلينا حيث أنك أتيت ليس من ذاتك بل من الآب الذي أرسلك؟

بالحقيقة أعلم أنك أخليت ذاتك، إذ أخذت شكل العبد. إنك لم تنزع عنك شكل الله لكي تعود إليه، ولا فقدته كأمر تسترده... **إنك بهذا أتيت، لكنك كنت ولا تزال قاطنًا حيث كنت توجد، وتعود دون أن تترك الموضع الذي أتيت إليه.**

إن كنت بهذه الوسيلة أتيت وعدت فبذلك أنت هو ليس فقط الطريق الذي به نذهب إليك، بل أنت الطريق لنفسك أن تذهب وترجع[4].

❖ كما لو أنه قال: بأي طريق تذهبون؟ "**أنا هو الطريق**".

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 91:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 69: 1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 69: 2.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 69: 3.*

إلى أين تذهبون؟ "**أنا هو الحق**".

أين ستقطنون؟ "**أنا هو الحياة**".

لنسير إذن في الطريق بكل يقين، لكننا نخشى الشباك المنصوبة على جانب الطريق.

لا يجرؤ العدو أن ينصب شباكه في الطريق، لأن المسيح هو الطريق، لكن بالتأكيد لن يكف عن أن يفعل هذا في الطريق الجانبي.

لهذا أيضًا قيل في المزمور: "وضعوا لي عثرات في الطريق الجانبي" (مز ١٣٩: ٦ *LXX*). وجاء في سفر آخر: "تذكر أنك تسير في وسط الفخاخ" (ابن سيراخ ٩: ١٣ *Ecclus*). **هذه الفخاخ التي نسير في وسطها ليست في الطريق، وإنما في الطريق الجانبي.**

ماذا يخيفك؟ سرْ في الطريق!

لتخف إذن إن كنت قد تركت الطريق.

فإنه لهذا سُمح للعدو أن يضع الفخاخ في الطريق الجانبي، لئلا خلال أمان الكبرياء تنسى الطريق وتسقط في الفخاخ[١].

❖ المسيح المتواضع هو الطريق، المسيح هو الحق والحياة، المسيح هو الله العلي الممجد.

إن سلكت في المتواضع تبلغ المجد.

إن كنت ضعيفًا كما أنت الآن لا تستخف بالمتواضع، فإنك تثبت بقوة عظيمة في المجد[٢].

❖ إنه الطريق "الكلمة صار جسدًا" (١: ١٤).

لديه الطريق: "أخلى ذاته وأخذ شكل العبد" (في ٢: ٧).

إنه البيت الذي إليه نذهب، إنه الطريق الذي به نذهب.

ليتنا نذهب به إليه فلا نضل[٣].

القديس أغسطينوس

❖ ذاك الذي يُسيِّج حولي ويغلق طرقي الشريرة (هو ٢: ٦) أجده هو الطريق الحقيقي القائل في الإنجيل: "**أنا هو الطريق والحق والحياة**" [٦][٤].

القديس جيروم

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 92:1.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 92:2.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 42:3.*
[4] *Letter 122:1.*

❖ المسيح ليس فقط هو اللَّه، بل بالحقيقة اللَّه الحق، إله حق من إله حق، إذ هو نفسه الحق[1].

القديس أمبروسيوس

❖ لا يمكن أن يوجد أي رجاء في الخلاص دون معرفة هذين الاثنين (الآب والابن) في نفس الوقت[2].

الشهيد كبريانوس

❖ انظر إلى نفسك داخل نفسك. "لماذا تنظر القذى في عين أخيك، ولا تدرك الخشبة التي في عينك؟" (مت ٧: ٣)

النفس التي تخرج من ذاتها مدعوة للدخول إلى نفسها، فبخروجها من ذاتها خرجت من ربها...

لقد انسحبت منه، ولم تقطن في ذاتها، ومن ذاتها تقاوم، وطردت من ذاتها وسقطت في أمور لا تخصها...

لقد نسيت النفس ذاتها خلال محبتها للعالم.

الآن فلتنسَ ذاتها لكن خلال محبة خالق العالم![3]

القديس أغسطينوس

❖ توجد طرق كثيرة للذين يؤمنون بالمسيح ويكونون تحت قيادته يلزمهم أن يسلكوها قبل الدخول إلى الأرض المقدسة، فإنهم بعد أن يخرجوا من مصر، ويعبروا كل هذه المراحل الواردة في الكتاب المقدس، يستريحون. "هذه رحلات بني إسرائيل... حسب قول الرب" (عد ٣٣: ١-٢).

من الذي نظَّم السبل التي يجب أن يسلكها بنو إسرائيل في هذه المراحل؟ من إلاَّ الله؟ لقد نظمها بعمود النار والسحابة المضيئة...

الآن، تأمل فإن نفس الشيء يحدث روحيًا في مسيرتك، إذا خرجت من مصر، وكنت قادرًا أن تتبع المخلص يسوع (يشوع) الذي يدخل بك إلى الأرض.

يبدو أن موسى (الناموس) هو القائد، لكن كان يشوع متواجدًا بجانبه دون أن يقود علانية.

انتظر لكي يقود موسى إلى اللحظة التي فيها يكمل زمانه، عندئذٍ يأتي ملء الزمان (غل ٤: ٤) ويقود يسوع... يتسلم يسوع تعليم الشعب ويقدم وصاياه علنًا.

---

[1] *Of the Holy Spirit Book 1:17:108.*
[2] *Letter 73 to Jubauan: 17.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 92:3.*

فلنسلك إذن فيها ونصلي قائلين: "**ضع لي يا رب ناموسًا، في طريق حقوقك، فأتبعه كل حين**" (مز ١١٩: ٣٣).

إنني أسعى (أتبعه) مادام يوجد "**طريق الحقوق**".

إنه ليس بالطريق السهل، ولا يحتاج إلى يومين أو ثلاثة أيام أو حتى عشرة أيام، إنما في الواقع إلى كل أيام الحياة لعلي أجد طريق حقوقه.

وبنفس الكيفية احتاج أن أجد "**طريق الشهادة**": "فرحت بطريق شهاداتك مثل كل غنى" (مز ١١٩: ١٤)؛ كما يوجد "**طريق الوصايا**": "في طريق وصاياك سعيت عندما وسعت قلبي" (مز ١١٩: ٣٢).

كل هذه الطرق هي في أصلها طريق واحد، وهو ذاك الذي يقول: "**أنا هو الطريق**" (يو ١٤: ٦). لنسلك إذن في كل هذه الطرق حتى نبلغ غايتها وهو "المسيح".

العلامة أوريجينوس

❖ لا يتلوث الإنسان مرة أخرى بالتراب من الأرض بعدما غسل قدميه: تقول العروس: "قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما" (نش ٥: ٣). خلع موسى نعليه من رجليه (وهو مصنوع من جلد حيوان ميت)، لأنه كان يسير على أرض مقدسة (خر ٣: ٥).

يقول الكتاب أن موسى لم يلبس نعليه مرة أخرى، بل حسب أوامر اللّه له على الجبل صنع ثياب الكهنة التي استخدم في حياكتها خيوطًا ذهبية وزرقاء وبنفسجية وحمراء والكتان الفاخر حتى يشع جمالها حولهم (خر ٢٨: ٥، ٨). ولم يعمل موسى أية زينة على قدميه، لأن أقدام الكهنة تبقى عارية دون غطاء. لأن الكاهن يسير على الأرض المقدسة، فيلزم ألا يستعمل حذاء من جلد حيوان ميت. لذلك منع السيد المسيح تلاميذه من لبس أحذية، لأنه أمرهم أن يسيروا في طريق القداسة (مت ١٠: ٥-٦).

أنتم تعرفون هذا الطريق المقدس الذي أمر السيد المسيح تلاميذه أن يسيروا فيه قائلاً: "**أنا هو الطريق**" (يو ١٤: ٦). **لا نتمكن أن نسير في هذا الطريق إلا إذا خلعنا رداء الإنسان العتيق الميت**[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"**لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضًا،**

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١١.

ومن الآن تعرفونه،

وقد رأيتموه". [٧]

إنها كلمات عتاب صادرة من السيد المسيح الذي تعَّرف عليه كثير من الآباء والأنبياء من خلال الرموز والظلال، واشتهوا أن يروه ويرتبطوا به. كان هو كل رجائهم. ولكن للأسف فإن التلاميذ وقد عاشوا مع السيد ورافقوه في خدمته، بل في رحلاته، وأحيانًا في خلواته، وقد حان وقت رحيله من العالم، لم يعرفوه بعد كما ينبغي.

يشتهي السيد المسيح أن يتعرف عليه كل المؤمنين ليدركوا حقوقهم فيه. وهذا هو موضوع صلوات الرسل أنفسهم من جهة البشرية. وكما كتب القديس بولس إلى أهل أفسس: "لا أزال شاكرًا لأجلكم، ذاكرًا إياكم في صلواتي، كي يعطيكم إله ربنا... لتعلموا نحونا، نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات" (أف ١: ١٦–٢٠).

أما قوله: "**من الآن تعرفونه، وقد رأيتموه**" [٧] فيقصد بالآن ساعة الصليب. خلال بغض العالم للمسيح، وصلب السيد المسيح لمحبة العالم في مؤمنيه، يُعرف الآب الكلي الحب، ويراه المؤمنون في الابن المصلوب القائم من الأموات. ساعة الصليب هي فرصة إلهية مقدمة للمؤمنين لكي يتعرفوا على الآب ويروه، لأنهم بالصليب يدخلون إلى المصالحة معه، ويتمتعون بالاستقرار في حضنه.

من يعرف المسيح بحق يدرك أنه الابن، الله السماوي، مملكته ليست من هذا العالم، نزل من السماء ويصعد إليها بكونه في حضن الآب. فمن يبلغه يبلغ الأحضان الإلهية للآب، ويتعرف على شخصه وأسراره.

لاحظ **القديس يوحنا الذهبي الفم** وغيره من الآباء أن السيد المسيح يقول تارة بأنهم رأوه وعرفوه، وتارة أنهم رأوه ولم يعرفوه، وأخرى أنهم لم يروه ولا يعرفوه، فهل في هذا تناقض؟ يميز القديس بين رؤية الابن خلال الجسد وحده حيث يلمسونه بأيديهم الجسدية ويرونه بأعينهم الجسمانية دون رؤية جوهره وعدم إدراك لاهوته وبهاء مجده؛ هؤلاء يرونه ولا يرونه، وفي نفس الوقت لا يعرفونه. **حتى التلاميذ رأوه والتصقوا به، لكن إلي لحظات صعوده وحلول روحه القدوس لم يكونوا قادرين على إدراك لاهوته كما يليق. هكذا يمكن للإنسان أن يعرفه ولا يعرفه؛ فيعرفه دون إدراك المعرفة الحقيقية لشخصه.**

من يرى حقيقة الابن ويتعرف على شخصه كما يليق يرى الآب ويتعرف عليه.

❖ إنه لا يناقض نفسه؛ حقا لقد عرفوه، ولكن ليس كما كان ينبغي. لقد عرفوا الله، لكنهم لم يكونوا

بعد قد عرفوا الآب. فإنه بعد ذلك إذ حل الروح القدس عليهم عمل فيهم مقدمًا لهم كل معرفة.

ما قاله هو هكذا: "إن عرفتم جوهري ورتبتي تعرفون أيضًا جوهر الآب ورتبته. **ستعرفونه وترونه بواسطتي**". يقصد بالرؤية المعرفة بالإدراك الذهني، فإن هؤلاء الذين يُرون يمكن أن نراهم ولا نعرفهم، أما الذين يُعرفون لا نقدر أن نعرفهم ولا نعرفهم. لذلك يقول: "**وترونه**"، كما يقال: "يُرى بواسطة الملائكة" (١ تي ٣: ١٦). أما ذات الجوهر فلا يُرى، ومع هذا يقال أنه يُرى، أي قدر ما يستطيعون أن يروا.

قيلت هذه الكلمات لكي تتعلموا أن الذين يرونه يعرفون من ولده. لكنهم لم يروه في جوهره غير المحتجب، إنما رأوه في ثوب جسده.

إنه يود في كل موضع أن **يضع الرؤية موضع المعرفة**، كما يقول: "طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨). يعني بالأنقياء الذين تحرروا ليس من الزنا وحده، بل ومن كل الخطايا، لأن كل خطية تجلب دنسًا للنفس.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يعلق **القديس أغسطينوس** على الآيات (٧–١٠) بأن السيد المسيح يؤكد أن من يعرفه يعرف الآب، لأنه لا يقدر أحد أن يأتي إلى الآب إلا به. وأن السيد المسيح هنا يؤكد وحدته مع الآب، وفي نفس الوقت التمايز بين الآب والابن[1].

"**قال له فيلبس:**

يا سيد أرنا الآب وكفانا". **[٨]**

إذ تحدث السيد المسيح عن الآب اشتاق فيلبس أن يراه، لكنه لم يكن بعد قادرًا.

أولاً: لأنه أراد رؤية اللاهوت حسيًا، يراه بالعين الجسدية كما يرى المسيح.

ثانيًا: سرّ عجزه عن الرؤية هو عدم رؤيته لحقيقة المسيح نفسه، يراه حسب الجسد دون أن يدرك لاهوته.

وأخيرًا: عدم إدراكه الوحدة الفريدة بين الآب والابن في ذات الجوهر، لذلك سأله: "**يا سيد أرنا الآب وكفانا**" [٨].

طلبة فيلبس تشبه طلبة موسى النبي الذي اشتهى أن يرى مجد الله (خر ٣٣: ١٨). حقًا رؤية الله

[1] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 70: 1.*

فيها الشبع والكفاية، وهي طلبة تفرح قلب الله، لكن الخطأ في طلبة فيلبس هو تجاهله لوحدانية الابن مع الآب، لأنه لم يتمتع بالتجلي مثل بطرس ويعقوب ويوحنا. وعدم إدراكه أنه حتى تلك اللحظات لم يعرف المسيح كما ينبغي ولا رأى جوهر لاهوته.

❖ قلب فيلبس النظام وقال: "**أرنا الآب**"، كمن قد عرف المسيح تمامًا. أما المسيح فوضعه في الطريق المستقيم، حاثًا إياه أن يقتني معرفة الآب من خلاله، بينما أراد فيلبس أن يراه بعينيه الجسديتين. ربما لأنه سمع عن الأنبياء أنهم رأوا الله. لكن هذه الحالات كانت من قبيل التنازل، لذلك يقول المسيح: "الله لم يره أحد قط" (١: ١٨)، مرة أخرى: "كل من سمع وتعلم يقبل إليَّ" (٦: ٤٥). "لم تسمعوا صوته قط، ولا أبصرتم هيئته" (٥: ٣٧). وفي العهد القديم: "لا يرى إنسان وجهي ويعيش" (خر ٣٣: ٢٠).

ماذا يقول المسيح؟ "**أنا معكم زمانًا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟**" لم يقل له: "ولم تراني" بل قال: "**ولم تعرفني**".

ربما يسأل فيلبس:" لماذا أرغب في أن أتعلم عنك؟ الآن أنا أطلب أن أري أباك، وأنت تقول لي لم تعرفني؟" أية علاقة بين هذا وبين السؤال؟ بالتأكيد العلاقة وثيقة جدًا، فإن كان هذا هو الذي له الآب ومازال هو الابن فإنه من خلاله يعرف الذي ولده. فمن أجل التمييز بين الأقنومين يقول: "**من رآني فقد رأي الآب**"، لئلا يظن أحد أن الآب نفسه هو الابن بعينه.

لماذا لم يجبه: أنت تطلب أمورًا مستحيلة لا يُسمح بها لإنسان، وإنما هي ممكنة لي وحدي؟ لأن فيلبس قال: "**وكفانا**"، فمع معرفته للمسيح أظهر له أنه لم يره. بالتأكيد لو أنه عرف الآب، لكان قادرًا أن يعرف الابن، لهذا يقول: "من رآني فقد رأي الآب"... وكأنه يقول له: "ليس ممكنًا أن تراني أو ترى الآب". لأن فيلبس فكر في المعرفة حسب الرؤية، وإذ فكر هكذا ظن أنه رأى الابن، فأراد بنفس الطريقة أن يرى الآب، لكن يسوع أظهر له أنه لم يرَ الابن نفسه.

وإن أراد أحد أن يدعو المعرفة رؤية فلا أعارضه، إذ يقول المسيح: "لأن من يعرفني يعرف الآب". لكنه لم يقل هذا، إنما أراد أن يعلن عن الشركة في الجوهر: من يعرف جوهره يعرف جوهر الآب أيضًا. هل يتحدث هنا عن حكمة الآب؟ هل عن صلاحه؟ ليس هكذا، وإنما ما هو الله عليه، ذات جوهره... بحق انتهره قائلاً: "**أنا معكم زمانًا هذه مدته؟**" لقد تمتعت بمثل هذا التعليم، ورأيت المعجزات التي فعلتها بسلطان، وكل ما يخص اللاهوت، التي يفعلها الآب وحده من غفران للخطايا وإعلان عن الأسرار الخفية وإقامةٍ من الموت وخلقة من التراب ولم تعرفني؟ إذ التحق بالجسد لهذا

يقول: "ألم تعرفني؟" إنك ترى الآب، فلا تطلب ترى ما هو أكثر، ففيه تراني. إن رأيتني لا تكون محبًا للاستطلاع أكثر، لأنك تعرفه فيَّ أيضًا.

❖ "ألست تؤمن إني أنا في الآب، والآب فيّ؟" بمعنى: إني أُرى في ذات الجوهر. "**الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال**" [١٠] كيف يبدأ بالكلام ويأتي إلى الأعمال؟ لأنه كان يلزم طبيعيًا أن يقول: "الآب هو يتكلم الكلام"، لكنه هنا وضع الأمرين معًا التعليم والمعجزات. وربما قال هذا لأن الكلام هو أيضًا كان أعمالاً. فكيف يعمل الآب كلاهما؟ يقول في موضع آخر: "إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا" (١٠: ٣٧)، فكيف يقول هنا أن الآب هو يعملها؟ ليظهر نفس الشيء أنه لا يوجد فاصل بين الآب والابن. ما قاله هو هذا: "لا يعمل الآب في طريق، وأنا في طريق آخر". كما يقول في موضع آخر: "أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل" (٥: ١٧)، مظهرًا في العبارة الأولى عدم الاختلاف في العمل بين الآب والابن، وفي الثانية الهوية للآب والابن[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال له يسوع:**

أنا معكم زمانًا هذه مدته، ولم تعرفني يا فيلبس؟

الذي رأني فقد رأى الآب،

فكيف تقول أنت ارنا الآب؟" **[٩]**

في عتابه لفيلبس بل ولكل التلاميذ يقول السيد: "**أنا معكم**"، ولم يقل: "أنتم معي". فقد نزل إلينا وحلَّ بيننا، فمن جانبه جاء إلينا خلال مبادرة حبه. بقي لنا أن تستنير أعيننا الداخلية ونتقدم نحوه، لنصير نحن معه كما هو معنا. هو نزل إلينا لكي بروحه نصعد إليه.

إنه معهم ليس خلال رؤية سريعة إلى دقائق أو ساعات كما أعلن عن نفسه قديمًا للأنبياء خلال الرؤى والإعلانات والأحلام، إنما جاء وحلَّ بينهم، وعاش في وسطهم "**زمانًا هذه مدته**"، لهذا كان يليق بهم أن يروه كما ينبغي فيروا الآب، ويدركوه، ويتحدوا معه في المسيح يسوع. من رأى المسيح حقًا يرى الآب!

هل يمكن لخليقةٍ ما في السماء أو على الأرض أن تتجاسر وتنطق بهذا؟ مستحيل! لقد حسب السيد المسيح أن من رآه فقد رأى الآب، وذلك إن اكتشف حقيقة السيد. لهذا عاتب السيد المسيح

[1] *Homilies on St. John, 74:2.*

فيلبس، لأنه لم يعرفه بعد عشرة دامت حوالي ثلاث سنوات. إنه لم يلمه لأنه يشتهي رؤية الآب، وإنما لأنه لم يدرك من هو المسيح، وبالتالي لم يستطع طوال هذه المدة أن يتمتع برؤية الآب. لم يدرك أن ملء اللاهوت في المسيح جسديًا (١ كو ٢: ٩)، فالآب هو فيه في كمال لاهوته. ما يعمله السيد المسيح يشترك فيه الآب بكونه العمل الإلهي الواحد.

❖ أما تؤمن إني أنا في الآب، والآب فيَّ؟ نعم من يتطلع إلى الابن يرى الآب في صورة. لاحظ أي نوع من الصور يتحدث عنها. إنه الحق والبرّ وقوة اللَّه، ليس أخرسًا لأنه الكلمة، وليس بلا إحساس لأنه الحكمة، وليس باطلاً وغبيًا لأنه القوة، وليس بلا حياة لأنه الحياة، ليس ميتًا لأنه القيامة[1].

❖ في الكنيسة اعرف صورة واحدة، صورة الله غير المنظور التي قال عنها الله: "وصنع الإنسان على صورتنا"... (تك ١: ٢٦). تلك الصورة التي كُتب عنها أن المسيح "بهاء المجد ورسم أقنومه" (راجع عب ١: ٣). في هذه الصورة أدرك الآب، كما يقول الرب يسوع نفسه: "من رآني فقط رأى الآب". لأن هذه الصورة غير منفصلة عن الآب، والتي هي بالحق تعلمني وحدة الثالوث، إذ يقول: "أنا والآب واحد" (١٠: ٣٠) وأيضًا: "كل ما للآب فهو لي" (١٦: ١٥). وأيضًا عن الروح القدس يُقال أن الروح هو روح المسيح، كما هو مكتوب: "يأخذ مما لي ويخبركم" (١٦: ١٤)[2].

القديس أمبروسيوس

❖ من يتأهل للتطلع إلى ربوبية الابن ينعم بربوبية الآب. هذا الكلام ليس من عندي، بل هي كلمات الابن الوحيد القائل: "**أنا معكم زمانًا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رآني فقد رأى الآب**". وباختصار لا تفصلهما، ولا تصنع تشويشًا.

لا تقل قط أن الابن غريب عن الآب، ولا تقبل القائلين إن الآب في وقت ما الآب، وفي وقت آخر هو الابن. فإن هذه العبارة غريبة وجاحدة وليست من تعاليم الكنيسة. لكن الآب بولادته الابن بقي الآب ولم يتغير، ولد الحكمة ولم يفقد الحكمة. ولد القوة دون أن يصير ضعيفًا. ولد اللَّه ولم يخسر ربوبيته. لم يفقد شيئًا بالنقص أو التغير، ولا المولود ناقص في شيء.

كامل هو الوالد، وكامل هو المولود.

---

[1] *On the Christian Faith, Book 1:7:50.*
[2] *Sermon Auxentuis, 32.*

اللَّه هو الوالد، اللَّه هو المولود، اللَّه من اللّه، ولكنه يُدعى الآب إلهه دون أن يخجل من القول: "أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧)[١].

القديس كيرلس الأورشليمي

يعبر **القديس غريغوريوس النزينزي** عن سرّ انجذابه إلى الثالوث الذي كرز به بين شعبه، بينما لمدة طويلة قد حُرم الثالوث من الكرازة به بين الشعب، وإن كان ليس تمامًا[٢].

❖ ليقودني الكلمة الإلهي في نهاية حياة مملوءة بالدموع إلى المسكن غير المتغير، حيث يوجد ثالوثي، وبهاء سموه المجتمع، ظلال الثالوث تمجدني[٣].

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ بالحق انتهر السيد التلميذ، إذ رأى ما في قلب السائل. إن كان الآب بنوعٍ ما أفضل من الابن، حتى أن فيلبس أراد أن يعرف الآب، بهذا لم يعرف الابن، إذ ظن أنه أقل من الآب. فلكي يُصحح مثل هذا المفهوم قيل: "**الذي رآني رأى الآب، فيكف تقول أنت أرنا الآب؟**" [٩]... لماذا تود أن تكتشف وجود مسافة بين من هما متشابهين؟ لماذا تتوق إلى معرفة منفصلة بين من هما غير منفصلين؟ ما قاله بعد ذلك لم يكن لفيلبس وحده، بل لهم جميعًا، هذا يلزم ألا نضعه كما في زاوية، حتى يمكننا بمعونته أن نفسره بأكثر حرص[٤].

❖ لم تكن بعد عينا فيلبس سليمتين بما فيه الكفاية لتنظرا الآب، وبالتالي لتنظرا الابن الذي هو مساوٍ للآب. هكذا قام يسوع المسيح بشفائه بأدوية ومراهم الإيمان ليقوي عيني ذهنه اللتين كانتا بعد ضعيفتين وعاجزتين عن رؤية نورٍ عظيمٍ كهذا. وقال له: أما تؤمن إني في الآب، والآب فيَّ؟" ليت ذاك العاجز عن أن يرى ما سيظهره له الرب يومًا ما ألا يطلب أن يرى بل أن يؤمن. ليؤمن أولاً حتى تُشفى العينان اللتان بهما ينظر[٥].

القديس أغسطينوس

"ألست تؤمن إني أنا في الآب، والآب فيَّ؟
الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي،

---

[١] مقال ١١: ١٨.

[2] *De vita sua 1102. PG 37:1106 A.*
[3] *Poemata de seipso, 11. PG 37:1165-66.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 70: 3.*
[5] *Sermon on N.T. Lessons, 38:4.*

لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال". [١٠]

إذ تتحقق رؤيتنا لله في هذا العالم خلال الإيمان لا العيان، لذا يتحدث السيد المسيح هنا عن "الإيمان"، وأي إيمان؟ إيمان بأن جوهر الابن ليس مضافًا إلى الآب، إذ كل منهما في الآخر، بكونهما جوهرًا واحدًا. فمن أراد أن يرى الآب، ويتعرف عليه يلزمه أن يؤمن بالمسيح أنه "الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبَّر" (يو ١: ١٨). فلا عجب إن قال: "الذي يراني يرى الذي أرسلني" (يو ١٢: ٤٥).

❖ لا يوجد أي اعتراض على فهم الابن أنه في الآب كما في مصدرٍ... الابن في الآب وعند الآب، ليس كمن وُجد خارجًا عنه، ولا في زمنٍ، بل في جوهر الآب مشرقًا منه، وذلك كأشعة الشمس المشرقة، وحرارة النار المتضمنة في صلبها. ففي هذين المثالين نجد شيئًا متولدًا من آخر، لكنه شريكه الدائم في الوجود معه مع عدم الانفصال عنه، فلا يوجد الواحد دون الآخر، وإنما يحفظ حالة طبيعته الحقيقية[1].

القديس كيرلس الكبير

❖ يقول الرب الحق: "**أنا في الآب، والآب فيّ**". بوضوح الواحد في كليته هو الآخر في كليته، فالآب ليس هو بإفراط في الابن، ولا الابن ناقص في الآب[2].

❖ نفس سمة اللاهوت تُرى في الاثنين[3].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ لأن الآب لا يفعل شيئًا إلا بممارسة قوته وحكمته، فقد صنع كل الأشياء بحكمة، كما هو مكتوب: "بحكمة صنعتَ الكل" (مز ١٠٤: ٢٤)، هكذا أيضًا لا يفعل اللَّه الكلمة شيئًا بدون شركة الآب. لا يعمل بدون الآب، بدون مشيئة الآب لا يقدم نفسه للآلام كلية القداسة، ويُذبح لأجل خلاص العالم كله (يو ٣: ١٦-١٧؛ عب ١٠: ١٠-١٢). بدون إرادة الآب لا يقوم من الأموات إلى الحياة[4].

القديس أمبروسيوس

---

[1] *PG 73:12 a.*
[2] *Agaiust Eunomius, 2:4.*
[3] *Ibid, 6: 3.*
[4] *Of the Christian Faith, 4:6:69-70*

"صدقوني إني في الآب، والآب فيَّ،

وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها". [١١]

إذ يتحدث مع خاصته عن أسراره الإلهية يشهد لنفسه بنفسه، إذ سبق فقال: "وإن كنت أشهد لنفسي، فشهادتي حق" (يو ٨: ١٤). هنا لا يخاطب فيلبس وحده، بل كل التلاميذ، مقدمًا رسالة لكل مؤمنيه. يقدم السيد المسيح أعماله أيضًا شهادةً حقة لصدق كلماته، فأعماله تشهد أن السيد إنما يعمل أعمال أبيه، ويتكلم كلمات أبيه، فهي أعمال الآب والابن معًا، وكلماتهما. يقول القديس بولس عن الآب: "كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه" (عب ١: ٢). كما يقول السيد عن نفسه: "**الكلام الذي أكلمكم به، لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال**" [١١].

❖ يليق بكم عند سماعكم "أب" و"ابن" ألا تسألوا شيئا آخر غير تأكيد العلاقة في الجوهر، ولكن إن كان هذا غير كافٍ لكم لتأكيد الكرامة المشتركة والجوهر المشترك فتعلموا هذا من الأعمال[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنك ترى أن الابن هو اللَّه، فيه اللَّه الآب، إذ يقول نفس العبارة التي وردت في الإنجيل: "**إني في الآب، والابن فيَّ**". إنه لم يقل: "أنا هو الآب"، بل" الآب فيّ، وأنا في الآب". أيضًا لم يقل: "الآب وأنا هما أنا"، بل "أنا والآب واحد " حتى لا نفصل بينهما دون أن نضع خلطًا في ابن الآب.

إنهما واحد من جهة شرف وحدة اللاهوت، إذ ولد اللَّه اللَّه. هما واحد في ملكوتهما، لأن الآب لا يملك على هؤلاء، والابن على أولئك، متكبرًا على أبيه كما فعل أبشالوم، إنما ملكوت الآب هو ملكوت الابن. إنهما واحد، إذ لا يوجد بينهما اختلاف ولا انقسام، بل ما يريده الآب يريده الابن. إنهما واحد، لأن أعمال الخلقة التي للمسيح ليست غير ما للآب، إنما خالق كل الأشياء هو واحد، خلقها الآب بالابن. وكما يقول المرتل: "هو قال فكانوا، هو أمر فخلقوا" (مز ٣٣: ٩؛ ١٤٨: ٥).

الابن هو اللَّه بعينه *Very God*، له **الآب فيه دون أن يصير هو الآب، لأن الآب لم يتجسد، بل الابن... الآب لم يتألم من أجلنا، بل أرسل من يتألم...**

فليس بقصد تكريم الابن ندعوه "الآب"، ولا لتكريم الآب نتصور الابن أحد خلائقه. إنما هو أب واحد، نعبده خلال ابن واحد، دون أن نفصل العبادة بينهما.

ليعلن عن الابن الواحد، جالسًا عن يمين الآب قبل كل الدهور في العرش، ليس عن تقدم ناله في

[1] *Homilies on St. John, 74:2.*

زمان بعد الآلام، بل منذ الأزل[1].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ بينما نحن نتكلم هو نفسه الذي لن يسحب حضرته منا يكون معلمنا[2].

❖ هل كلماته هي أعمال؟ واضح أن الأمر هكذا، لأنه بالتأكيد من يبني قريبه بما يقوله يعمل أعمالاً صالحة[3].

❖ ينسب ما يفعله للآب الذي منه يفعل. لأن الآب ليس الله (المولود) من آخر، أما الابن هو الله المساوي حقًا للآب لكنه مولود منه. لذلك فالآب هو الله الذي ليس من الله، والنور الذي ليس من نور، بينما الابن هو إله من إله، نور من نور[4].

القديس أغسطينوس

٣. الصلاة والراحة

"الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي،
فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا،
ويعمل أعظم منها،
لأني ماض إلى أبي". [١٢]

بعد أن كشف سرَّ وحدته الفريدة مع الآب، وأن ما ينطق به أو يعمله به إنما هي أعمال الآب الحالّ فيه، أوضح أن هذه الحقيقة تمس خلاصهم وحياتهم. هي إيمان فعّال يهبهم قوة فائقة لممارسة أعمال المسيح الساكن فيهم. فاستعلان الآب ومعرفته تقود المؤمن إلى اختبار أعمال الله فيه. وكما يقول الرسول بولس: "ليحل المسيح في قلوبكم... لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله، والقادر أن يفعل كل شيء أكثر جدًا مما نطلب أو نفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا" (أف ٣: ١٧–٢٠). فالإيمان واهب المعرفة يبعث إلى خبرة الأخذ والامتلاك والممارسة حسب قوة الله. "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا" (في ٢: ١٣).

هذا هو سرّ تعزية التلاميذ بعد أن عرفوا ترك السيد المسيح لهم فامتلأوا حزنًا، وشعروا أنهم كقطيعٍ

---

[1] مقال ١١: ١٦، ١٧.

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 71: 1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 71: 1.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 71: 1.*

بلا راعٍ، ليس لهم من يعينهم ولا من يسندهم، خاصة وأنهم يدركون مدى كراهية القيادات اليهودية لهم.

لهذا أكد لهم السيد المسيح أنه لا يتركهم في ضعفٍ، بل يهبهم قوة لممارسة أعمالٍ عظيمةٍ من معجزات وآيات تسندهم، فيمارسون ما يعمله وأعظم منها. هذا لن يقلل من شأنه، ولا يخلط بين شخصيته كابن الله الوحيد وشخصياتهم كأبناء بالتبني وتلاميذ له، لأن ما يفعلونه إنما باسمه، وبالإيمان به، وهذا لحساب مجده. فإنه ليس فقط صانع عجائب، وإنما واهب تلاميذه صنع العجائب.

لماذا قال أنهم يعملون أعمال أعَظم منه؟

١. هو صنع معجزات خلال الثلاث سنوات لخدمته على الأرض، أما هم فيعملون الآيات عبر الأجيال إلى انقضاء الدهر. هو صنع آيات في حدود المنطقة التي عاش فيها، أما هم فيصنعون آيات وعجائب في كل العالم حيث يكرزون. بعض الآيات لم يفعلها لأنه لم تكن هناك حاجة إليها مثل نقل جبل، وهذا تم على يد سمعان الخراز أيام المعز لدين الله الفاطمي.

٢. هو قدم أساس الكرازة ودفع الثمن بالصليب، لكنه ترك الكرازة تنتشر بعد صعوده وحلول روحه القدوس، فظهر العمل أعظم حيث انتشر الإيمان في المسكونة كلها ولم يُحد باليهودية.

أما سرّ قوتهم فهو كما يقول: "**لأني ماضٍ إلى أبي**" [١٢]. سيكون شفيعًا لهم، يحملهم أمام الآب كأعضاء جسده. فيعملون بقوة الآب، ويرسل لهم المعزي الإلهي، الروح القدس العامل فيهم وبهم لحسابه.

❖ إنها مشيئة الرب أن ينال تلاميذه قوات عظيمة. إنها إرادته أن ما فعله حين كان على الأرض يصنعه خدامه باسمه... أعطاهم سلطانًا أن يقيموا موتى. بينما كان يمكنه أن يرد لشاول بصره، إلا أنه أرسله إلى تلميذه حنانيا لكي ببركته تسترد عينا شاول البصر الذي فقده[1].

القديس أمبروسيوس

❖ لكي يظهر أنه ليس فقط قادرًا على فعل هذه الأمور، بل وما هو أعظم منها، إذ يصنعها بزيادة. إنه لم يقل: "أستطيع أن أفعل أمورًا أعظم من هذه" وإنما ما هو أكثر دهشة يقول: أنني أستطيع أن أعطي للآخرين أن يعملوا ما هو أعظم من هذه... بمعنى انه قد بقي لكم الآن أن تعملوا

[1] *Concerning Repentance, 1:8:34.*

عجائبي لأني أنا ماض[1].

❖ ألا تنظروا أنه هو الذي يعمل هذه؟ يقول: "**أفعله**"، وليس أسأل الآب، بل "**الآب يتمجد بي**"... كل العجائب التي فعلها (الرسل) إنما هو فعلها فيهم، وكانت يد الرب معهم (أع ١١: ٢١)[2].

❖ ألا ترون سلطانه؟ الأمور التي يفعلها الآخرون، إنما هو يفعلها، فهل هو بلا سلطان في الأمور التي يفعلها بنفسه ما لم يفعلها بالآب؟ كيف يمكن أن يقال هذا؟ لكن لماذا وضع هذه بعدها؟ ليؤكد كلماته، ويظهر أن أقواله الأولى هي من قبيل تنازله. فقوله: "**أنا ماضٍ إلي الآب**" معناها "إنني لا أهلك، بل أبقي في كرامتي اللائقة بي، فإنني في السماء"، قال هذا كله لتعزيتهم. حيث يبدو أنهم لم يفهموا أحاديثه عن القيامة. فظنوه أمرًا كئيبًا، ففي أحاديث أخرى يعد بأنه يعطيهم مثل هذه الأمور، ملطفًا من حالهم بكل وسيلة، ومظهرًا لهم أنه يبقى على الدوام، ليس فقط يبقي، وإنما سيظهر لهم قوة أعظم[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أعتقد بصدق أنه يعمل "**أعظم**" عندما يغلب إنسان ما – وهو لم يزل في الجسد، ضعيف وسهل وقوعه – في معركته مع الجبابرة وفرق الشياطين، وليس سلاحه سوى إنجيل المسيح وإيمانه شخصيًا به. فيُعْتَبَرُ حينئذٍ أعظم من ذاك الذي يربحه بذاته.

العلامة أوريجينوس

❖ لقد وعد أنه هو نفسه سيعمل هذه الأعمال الأعظم.

ليت العبد لا يفتخر على السيد.

إنه يقول أنه سيعمل أعمالاً أعظم مما يعملها هو، لكنه هو عامل الكل، سواء التي فيهم أو بواسطتهم، وليس أنهم يعملون كما من أنفسهم. لذلك فإن التسبحة الموجهة إليه هي: "أحبك يا رب قوتي" (مز ١٨: ١).

ولكن ما هي هذه الأعمال الأعظم؟

هل هي أنهم بظلهم إذ يسيرون يشفون المرضى (أع ٥: ١٥)؟ لأن الشفاء بالظل أعظم من لمس هدب الثوب الحامل لقوة الشفاء (مت ١٤: ٣٦). مع ذلك فإن ما يُمدح به هو القوة المؤثرة لكلماته.

---

[1] *Homilies on St. John, 74:2.*
[2] *Homilies on St. John, 74:2.*
[3] *Homilies on St. John, 74:2.*

إذ في هذا يقول: "**الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ يعمل الأعمال**" [١٠].

أية أعمال يشير إليها إلاَّ الكلمات التي ينطق بها؟

كانوا يسمعون ويؤمنون وكان إيمانهم هو ثمرة هذه الكلمات عينها. بينما ثمرة ذات هذه الكلمات عندما بشر التلاميذ بالإنجيل لم يكن بالعدد القليل مثلهم بل آمنت أمم كثيرة، وبلا شك هذا عمل أعظم[١].

❖ لقد أضاف للحال: "**لأني ماضٍ إلى أبي، ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالابن. إن سألتم شيئًا باسمي فإني أفعله**" [١٢-١٤]. ذاك الذي قال: "يعملها هو" عاد فقال: "**أنا أفعله**". كأنه يقول: "لا يبدو لكم هذا مستحيلاً، لأن من يؤمن بي لن يمكنه أن يكون أعظم مني، إنما أنا الذي أعمل الأعمال الأعظم مما أعمل الآن. إني أعمل أعمالاً أعظم بالذي يؤمن بي مما أعمله أنا بدونه. لكن أنا الذي أعمل به... انظروا لقد صنع أعمالاً أعظم حينما كرز به المؤمنون عما عمله عندما تكلم هو مع سامعيه[٢].

❖ إنه يعمل فينا، ولكن ليس بدوننا[٣].

القديس أغسطينوس

"**ومهما سألتم باسمي،**

فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالابن". **[١٣]**

يعود السيد المسيح فيؤكد أن ما يعملونه هو باسمه، بل هو فاعله، دون تجاهل دور الآب، فهو يوجه أنظارنا إلى الآب لنسأله. وبقوله: "**مهما سألتم**" يطالبنا أن نسأل الآب حسبما يليق بنا، بما يبدو لنا أنه أمر فائق جدًا. نطلب منه أن نصير بالحق أبناء له، نحمل أيقونة ابنه الوحيد، فيكون الابن هو برنا وقداستنا وفداءنا (١ كو ١: ٣٠).

❖ يعمل الآب في الابن لكي يتمجد الابن في الآب، ويعمل الابن في الآب لكي يتمجد الآب في الابن، لأن الآب والابن هما واحد[٤].

القديس أغسطينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 71: 3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 72: 1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 72: 2.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 73: 4.*

"إن سألتم شيئًا باسمي، فإني أفعله". [١٤]

إذ نرفق اسم المسيح بصلواتنا وطلباتنا التي نقدمها للآب، فنطلب برّ المسيح وقداسته يقوم المسيح نفسه بالعمل، إذ يقول: "**فإني أفعله**" [١٤]. لأن استدعاء اسمه إنما هو استدعاء حضوره الإلهي، لهذا ففي كل الأسرار الإلهية كما في الصلوات الشخصية يعلن الكاهن أو المؤمن "باسم الآب والابن والروح القدس"، طالبًا حضرة الثالوث القدوس.

تركه لهم بالجسد يقوي من مركزهم، لأنه هو يعمل فيهم لمجد الآب، يراهم الآب خلاله، فيستجيب كل طلباتهم. بمعنى أنه بصعوده ينالون إمكانية العمل بالآب والابن خلال روحه القدوس الذي يرسله إليهم. صعوده إلى السماء يزيل أية مسافة بينهم وبين الآب، لأن حضور الابن بالجسد الممجد هو حضور لهم كأعضاء في هذا الجسد.

يطلبون لا خلال إمكانياتهم البشرية ولا استحقاقاتهم، بل باسم المسيح وخلال عمله الكفاري موضع سرور الآب.

٤. المعزي الآخر

"إن كنتم تحبونني،

فاحفظوا وصاياي". [١٥]

حدثنا قبلاً عن الإيمان كأساس للمعرفة الإلهية، والآن يضع البناء فوق الأساسات، وهو حفظ وصاياه. إن كان السيد المسيح من جانبه يحضركم فيه إلى الآب، فيُسر بهم، ويستجيب لطلباتهم، فمن جانبهم يلزمهم أن يحبوه ويحفظوا وصاياه. بهذا ينالون تعزية ليست بقليلةٍ، محبتهم العملية للسيد المسيح بحفظ وصاياه تهبهم قوة للعمل خاصة وسط الضيق.

❖ نحتاج في كل موضع إلى كل من الأعمال والممارسات، وليس مجرد استعراض لكلمات... الله يطلب الحب الذي يظهر بالأعمال. لهذا السبب قال لتلاميذه: "من يحبني يحب وصاياي". فبعدما ما قال لهم: "إن سألتم شيئًا باسمي فإني افعله"، فلئلا يظنوا أن ذلك يتحقق بمجرد السؤال أضاف: "**إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي**"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه الروح المعزي هذا الذي وعد به المسيح تلاميذه. لكن لنلاحظ الطريق الذي فيه أعطى الوعد:

[1] *Hom 75. PG 59: 438.*

"**إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر...**" (١٥: ١٦). لكن كيف يمكننا أن نحب لكي نقبل ذاك الذي بدونه لا نقدر أن نحب الله (رو ٣: ٥) ولا أن نحفظ وصاياه؟... لنفهم أن من يحب هو بالفعل له الروح القدس، وأن به قد صار مؤهلاً لاقتناء ما هو أكمل، وبنوال ما هو أكثر نحب أكثر[1].

❖ الوعد ليس باطلاً سواء بالنسبة للذي لم يقتنِ بعد الروح القدس أو من اقتناه. فإنه مقدم لمن ليس له لكي يقتنيه، ومن اقتناه لكي ينال بأكثر فيض. فإنه لو لم يُقتنِ بقياس أقل من الآخرين ما كان القديس اليشع يقول للقديس إيليا: "ليكن نصيب اثنين من روحك عليّ" (٢ مل ٢: ٩)[2].

القديس أغسطينوس

"**وأنا أطلب من الآب،**

فيعطيكم معزيًا أخر، ليمكث معكم إلى الأبد". **[١٦]**

إذ يتمم عمل الفداء على الصليب، يصعد إلى السماء، ليرسل الروح القدس، ليهب كنيسته عذوبة الشركة في الصليب وخبرة قوة القيامة وعربون الحياة السماوية. هذا هو المعزي الآخر الذي يأخذ مما للسيد المسيح ويعطينا.

عمل الروح القدس يستمر في حياة الكنيسة حتى انقضاء الدهر ليقدمها عروسًا تحمل أيقونة عريسها السماوي.

كلمة "**باراكليت**" التي تترجم معزيًا تعني أيضًا محاميًا أو مدافعًا *Advocate*، فهو الذي يقف مدافعًا عن كنيسة المسيح ضد خصومها.

السيد المسيح يدعو نفسه "**معزيًا**" إذ يلقب الروح القدس "**المعزي الآخر**" وقد دعا الترجوم *Targum* أيام المسيا بأيام التعزية. فالمسيح عزى تلاميذه حين كان معهم بالجسد، وإذ يفارقهم بالجسد يرسل لهم روحه القدوس معزيًا آخر.

الطلب هنا أو الصلاة ليست طلبة كلامية، لكنه إذ يقدم نفسه ذبيحة حب عن البشرية صار من حق مؤمنيه أن يحل الروح القدس ويستقر فيهم، هذا الذي لم يعد مستقرًا في الإنسان منذ لحظة سقوطه في الخطية. هذه العطية التي هي بالحقيقة نوال واهب العطايا، عطية دائمة تلازم المؤمن حتى يعبر من هذه الحياة. لن يفارقه الروح القدس مادام يقبله فيه ويتجاوب معه.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 74: 1 – 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 74: 2.*

إذ سبق فقدم أساس المعرفة وهو الإيمان، ثم بنى على الأساس أعمال المحبة التي هي حفظ وصاياه، يبعث إلينا بروحه القدوس من عند الآب الذي وحده يقدر أن يحقق هذا كله.

هنا يكشف السيد المسيح عن دور الثالوث القدوس المتكامل معًا لتحقيق خطة تمجيدنا الأبدي. فالآب الذي أرسل ابنه معزيًا يبذل نفسه خلاصًا للعالم، الآن يستقبله عند صعوده، فيستقبل الكنيسة الجامعة، من آدم إلى آخر الدهور، في شخصه بكونه الرأس. يستقبل المعزي الأول فيُسر به، إذ أكمل خلاص البشرية وأعلن عن حب الآب عمليًا، وإذ يستقبله في السماء، يبقى هذا المعزي متغربًا عن البشرية بالجسد لكنه حاضر على الدوام في وسط كنيسته المقدسة. ويطلب عنها أمام الآب ليرسل المعزي الآخر، الذي يحل في الكنيسة وينيرها ويقدسها ويقودها دون أن يفارق الآب أو ينفصل عنه.

هكذا تظهر علاقة الحب المتبادل بين الثالوث القدوس العامل لخلاص البشرية ومجدها الأبدي.

❖ فإن قلت: لِمَ قال السيد المسيح: "**وأنا أطلب من الآب**"؟ أجبتك: لأنه لو قال: "أنا أرسله" لما صدقوه، لذلك قال هنا: "**وأنا أطلب من الآب**" حتى يجعل كلامه عندهم مؤهلاً لتصديقه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله،**
لأنه لا يراه ولا يعرفه،
وأما أنتم فتعرفونه،
لأنه ماكث معكم ويكون فيكم". **[١٧]**

إذ انطلق المعزي الأول، السيد المسيح، يطلب إرسال المعزي الآخر، روحه القدوس. وإذ صعد القائل: "أنا هو الحق" (١٤: ١٦) بعث إليهم "روح الحق". وكما رفض العالم المعزي الأول، الحق ذاته، هكذا يرفض المعزي الآخر، روح الحق. "بهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا" (١ يو ٣: ٢٤). يهبنا الروح القدس مواجهة حادة بين روح العالم وروح الحق، إذ لا يطيق العالم الحق ولا يقبله ولا أن يراه، بل يقاومه. لا يقدر أن يراه أو يعرفه، لذلك: "إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب" (١ يو ٢: ١٥).

روح العالم هو روح البطلان والخداع، فما يقدمه من ممتلكات ومباهج وأفراح، سرعان ما يتحول إلى حرمان وأحزان ومرارة، بهذا لا يعرف الحق له موضعًا فيه. كما لا تجد محبة العالم لها موضعًا في الحق الأبدي السماوي. ما يقدمه الله هو الحق غير المتغير، لهذا يقول السيد المسيح: "سلامي

أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا" (يو ١٤: ٢٧). "سأراكم أيضًا فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم" (يو ١٦: ٢٢). "من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد" (يو ٤: ١٣). هذه هي طبيعة الحق وهباته وعطاياه، التي لا تتناغم مع طبيعة العالم وروحه وعطاياه الزائلة.

روح الحق هذا الذي لا يعرفه العالم هو موضوع معرفة المؤمنين، حيث يسكن ويستقر معهم، ويكون فيهم، يعرفونه معرفة الثبوت فيه.

"**روح الحق**" الذي يشهد للمسيح الذي هو الحق، ويجتذب النفوس لقبول إنجيله، والتعرف على أسراره.

"**لا يستطيع العالم أن يقبله**"، يقصد بالعالم الذين أحبوه فحملوا اسمه، هؤلاء الذين يجدون لذتهم في شهوات الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة (١ يو ٢: ١٦). هؤلاء مصابون بالعمى الروحي وفساد الفكر، فلا يقدرون أن يروا روح الحق أو يعرفوه.

"**وأما أنتم فتعرفونه**"، جاء في الفولجاتا وبعض المخطوطات "**فستعرفونه**"، إذ يتهيأون بالإيمان به خاصة بعد قيامة السيد المسيح لمعرفة الروح القدس الموعود به، ويتمتعون بحلوله عليهم ليستقر فيهم، وذلك في يوم البنطقستي. إنه يجتذبنا دومًا إلى ما فوق أنفسنا.

❖ ولكي إذا سمعوا "**معزيًا آخر**" لا يظنوا أيضًا شخصًا آخر، ويتوقعوا أن يروه بأبصارهم، تحاشى ذلك وقال: "**الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يرى السريان في الكلمات: "وكان الروح يرف فوق المياه"، كما لو أن الروح كان يعطي دفء الرعاية التربوية *fostering*، أي كان يهيئ طبيعة المياه لميلاد الكائنات الحية. في هذا يوجد برهان كافٍ على تساؤلات بعض الناس إن كان الروح القدس لم تنقصه القوة الخالقة[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ الحب العالمي (الزمني) ليس له تلك الأعين غير المنظورة بينما الروح القدس لا يمكن أن يُرى إلاَّ بالأعين غير المنظورة[2].

❖ إنه يُرى بطريقة غير منظورة، ولا يمكن أن تكون لنا أية معرفة عنه ما لم يكن فينا[3].

---

[1] *Homilia 2 in Hexameron. PG 29:43B.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 74: 4.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 74: 5.*

القديس أغسطينوس

٥. ظهوره لهم

"**لا أترككم يتامى،**

إني آتي إليكم". **[١٨]**

لقد تعلق به تلاميذه كأبناء صغار بأبيهم، لذلك وهو في طريق تركهم خلال الصليب والصعود إلى السماء يريد أن يؤكد لهم أنه لا يريد السيد المسيح أن يتركهم مثل اليتامى، أي كأطفالٍ محرومين من الأبوة والأمومة ومن الحنو العائلي والتوجيه والعون في الحياة، لا يريد أن يتركهم فريسة للبؤس والحرمان.

بتركه إياهم خلال الصليب ثم القيامة فالصعود يبدو كمن صاروا في يُتم عظيم، إذ لم يعد بعد معهم حسب الجسد. لكنه يحول هذا اليُتم إلى بنوة جديدة فائقة، بإرسال روحه القدوس الذي يهب البنوة لله خلال المعمودية.

كان اليهود يدعون المعلمين آباء والتلاميذ أبناءهم، فبترك السيد المسيح تلاميذه يصيرون كمن هم بلا أب، وإذ هو سالك في طريق الموت، وبعد ذلك الصعود إلى السماء يرسل لهم المعلم الآخر والمعزي والمدافع عنهم وقائدهم في الطريق للتمتع بالأبوة الإلهية. لن يشعروا بحرمانٍ ما، لأن روحه القدوس يمكث معهم. أما من جهته هو فسيأتي إليهم بعد موته بقيامته وظهوره لهم، كما يأتي إليهم بعد صعوده في مجيئه الأخير ليحملهم إلى المجد. إنه يأتي أيضًا إلينا على الدوام بروحه، حاضر في قلوبنا، وفي وسطنا.

❖ لأن التلاميذ إذ لم يعرفوا معنى ما قيل لهم، ولا نالوا تعزية كافية، قال لهم السيد المسيح: "**لا أترككم يتامى**"، لأنهم طلبوا هذا الأمر أكثر من كل شيء. وقول السيد المسيح لتلاميذه: "**إني آتي إليكم**" يوضح لهم مجيئه إليهم ثانية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**بعد قليل لا يراني العالم أيضًا،**

وأما أنتم فترونني.

إني أنا حي،

فأنتم ستحيون". **[١٩]**

كان العالم يراه خلال تجسده، لكنه لم يره قط بعدم إدراكه للاهوته. الآن إذ يُصلب ويموت لا يعود

العالم يراه، لا حسب الجسد ولا حسب لاهوته، إذ يختفي عنه. أما التلاميذ فيحرمون إلى حين من رؤية جسده، لكنهم يرون أسراره الإلهية، ويختبرون قيامته عاملة فيهم، فيحيون كما هو حي، بل هو يتمتعون بالحياة عينها. يقولون مع الرسول بولس: "أحيانا مع المسيح" (أف ٢: ٥)؛ "فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ" (غل ٢: ٢٠).

❖ كأنه يقول لهم: إنني سأجيء إليكم ليس مثلما جئت أولاً. وقوله: "**إني أنا حي، فأنتم ستحيون**"، كأنه يقول لهم: لأن الصليب لا يفصل بيننا إلى النهاية، لكنه يخفيني مدة قليلة فقط. وعلى حسب ظني أن السيد المسيح لا يقصد بالحياة الحياة الحاضرة فقط، لكن الحياة المستقبلة أيضًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كنا أمواتًا عنه حينما عشنا لأنفسنا، ولكن إذ مات لأجلنا يحيا هو لنفسه ولأجلنا. لأنه إذ يحيا، نحن أيضًا نحيا. بينما كنا قادرين بأنفسنا أن نموت، فإنه ليس بأنفسنا نستطيع أن نقتني الحياة[1].

القديس أغسطينوس

"**في ذلك اليوم تعلمون إني أنا في أبي،**
وأنتم فيّ، وأنا فيكم". **[٢٠]**

كما أقوم من الأموات تقومون أنتم أيضًا. قيامتي هي تأكيد لقيامتكم. وإذ أنا حي أشفع فيكم لدى الآب. لن يقدر الموت أن يحطمكم، بل تحيون بنعمتي وتتمتعون بشركة مجدي.

بعد موته لم يقدر غير المؤمنين أن يروه، أما بالنسبة للمؤمنين فترآى لهم في ظهورات كثيرة، وإلى اليوم يتمتع المؤمنون برؤيته في أعماقهم. لازال المسيح حيًا في حياة الكنيسة وحياة مؤمنيه، يختبر المؤمنون حياة المسيح الساكن فيهم.

بقوله: "**أنتم فيَّ**" يعلن أنه أخذ البشرية فيه بتجسده، وبقوله: "**وأنا فيكم**" يعلن أنه صار فينا حيث ننعم بشركة الطبيعة الإلهية. أخذنا فيه أعضاء جسده، ووهبنا إياه فينا بإقامة ملكوته داخلنا.

وهبنا سرّ الإفخارستيا حيث قال: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه" (يو ٦: ٥٦)، "فمن يأكلني فهو يحيا بي" (يو ٦: ٥٧).

❖ بالنسبة للآب تشير هذه الكلمات إلى الجوهر (الإلهي الواحد)، وأما بالنسبة للتلاميذ فتشير إلى وحدة الفكر وإلى العون الإلهي.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 75: 3.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الآن أيضًا هو فينا ونحن فيه، هذا ما نؤمن به الآن، أما حينئذٍ فإننا سنعرف أيضًا هذا. وإن كنا ما نعرفه الآن هو بالإيمان، أما ما سنعرفه فسيكون بالرؤية الفعلية[1].

القديس أغسطينوس

"**الذي عنده وصاياي ويحفظها، فهو الذي يحبني،**
والذي يحبني يحبه أبي،
وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي". **[٢١]**

الشهادة الحقيقية لحبنا للسيد المسيح هو الطاعة لوصيته أو ناموسه، كحبٍ ملتزمٍ وقورٍ مطيعٍ، يجعل الإرادة متناغمة مع إرادة المحبوب، والسلوك متفق مع الحكمة الإلهية.

١. أما ثمرة هذا الحب العملي، فهو تمتع المؤمن بحب الآب له، وحنوه واحتضانه لهم. فالآب يحب الابن، ويحب محبوبيه.

٢. ويتمتع أيضًا بحب المسيح له "**وأنا أحبه**" [٢١]، كأخٍ ومخلصٍ له، يهبه المغفرة ويمتعه بالحياة المحيية.

٣. كما يتمتع بإعلان الابن ذاته له، "**وأُظهر له ذاتي**" [٢١]. إذ يشرق بنوره على الفكر كما على القلب، ويتمتع المؤمن باستنارة روحية.

هكذا يربط السيد المسيح التمتع بالحب الإلهي بالحياة العملية الاختبارية خلال حفظ الوصية الإلهية، كما يربطه بالكشف الإلهي أو الظهور الإلهي الذي يعلن الروح القدس، روح الاستنارة. هكذا من يود أن يرى الله يلزمه أن يحب، وأن يترجم الحب إلى خبرة الوصية الإلهية.

❖ لا يكفينا أن نقتني الوصايا فقط، لكننا نحتاج إلى حفظ مستقصى وبليغ لها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الذي عنده (وصاياي) في ذاكرته ويحفظها في حياته؛ الذي عنده في شفتيه ويحفظها سلوكيًا؛ الذي عنده في أذنيه ويحفظها في العمل؛ الذي عنده في الأعمال ويحفظها بالمثابرة، مثل هذا "**يحبني**". بالعمل يعلن الحب، وبالتطبيق بغير ثمر يكون مجرد الاسم (للحب)[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 75: 4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 75: 5.*

القديس أغسطينوس

❖ كل كلمة من كلمات المسيح تكشف عن مراحم اللّه وبره وحكمته، ويمكن أن تكون لهذه الكلمة قوتها في النفس عن طريق الأذن إن أصغت إليها طوعًا. هذا هو السبب في أن الإنسان القاسي القلب والشرير الذي لا يصغي إليها طوعًا ليس فقط لا يدرك الحكمة الإلهية، بل ويصلب (يسوع) الذي علّم بها.

لذلك يجب علينا أيضًا أن ننظر إن كنا نصغي إليه طوعًا، إذ قال: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي... الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي" (يو ١٤:١٥، ٢١).

ألا ترى كيف أنه يجعل في وصاياه مكمنًا لإعلان ذاته؟ إن أعظم الوصايا هي أن تحب اللّه والقريب، تلك التي تأتي بعدما نرفض كل الأمور الزمنية ويستقر ذهننا[1].

القديس مرقس الناسك

"قال له يهوذا ليس الإسخريوطي:

يا سيد ماذا حدث حتى أنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم؟" [٢٢]

إذ قدم السيد المسيح هذه الوعود الإلهية عبَّر أحد التلاميذ عن دهشتهم أنه يظهر ذاته لهم دون العالم. هذا ما عبَّر عنه "**يهوذا ليس الإسخريوطي**"، وهو أخ يعقوب (لو ٦: ١٦)، أحد أقرباء يسوع المسيح حسب الجسد (مت ١٣: ٥٥)، كاتب رسالة يهوذا.

دُهش يهوذا إذ شعر بأنه ومعه بقية التلاميذ نالوا نعمة فائقة وإعلانًا لشخص المسيا وعمله، الأمور التي لم يتمتع بها العالم. لكن يبقى أن نتساءل: هل كان يهوذا يدرك في هذه اللحظات إعلان السيد المسيح عن نفسه، أم كان لا يزال يفكر فيه كملكٍ أرضيٍ، ويتلامس معه خلال الجسد وحده، بينما كان السيد يود أن يسحب كل أفكارهم نحو السماء؟

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح وقد وعدهم أنه يظهر ذاته لهم، ظنوا أنه يترآى لهم في أحلام، إذ لم يتخيلوا أنه يقوم من الأموات، ويصعد حقيقة إلى السماء. حسبوه يظهر في أحلامهم كخيالات، وإذ لم يجسروا أن يسألوه صحح مفاهيمهم بأنه يأتي هو والآب ويسكنا فيهم، كما لو كانوا منزلاً لهما.

[1] *Philokalia, Book 1.*

❖ ألا ترون كيف صارت نفوسهم تعاني من الخوف؟ فقد صار (يهوذا) مرتبكًا وفي ضيق، حاسبًا أنه سيرى كما نرى أجسادًا ميتة في حلمٍ. فلكي يزيل عنهم هذا التصور اسمع ما يقوله: "**إليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً**" [٢٣]... هذا أمر لا ينتمي إلى أحلام[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب يسوع وقال له:**
إن أحبني أحد يحفظ كلامي،
ويحبه أبي،
وإليه نأتي،
وعنده نصنع منزلاً". **[٢٣]**

بدأ يوجه حديثه لا إلى تلاميذه وحدهم، بل إلى كل المؤمنين الذين يحبونه، ويظهر أن الوعد الإلهي عام للكل، وأنه لا يسكن معه الآب، إذ يقيم من القلب مسكنًا أو هيكلاً إلهيًا.

والعجيب أنه بينما يدهش يهوذا لإعلان السيد المسيح عن ذاته، يتكلم السيد المسيح بالجمع عن نفسه ومعه الآب، وكأنه يود أن يربط أذهان المؤمنين بوضعه الحقيقي أنه صاعد إلى الآب، وكائن معه. كأنه يقول لهم: أتريدون أن أعلن لكم ذاتي؟ إني غير منفصل عن الآب! أمكث معه في السماء، وإذ أحل في قلوبكم نحل نحن معًا فيها.

❖ **المواهب التي يقسمها الروح القدس لكل واحدٍ تُمنح من الآب بالكلمة.** لأن كل ما للآب هو للابن أيضًا. إذًا فتلك التي تُمنح من الابن في الروح القدس هي مواهب الآب. وعندما يكون الروح القدس فينا يكون فينا أيضًا الكلمة الذي يمنح الروح القدس، والآب الذي هو في الكلمة. وهذا يتفق مع ما قيل: "إليه نأتي، أنا والآب، وعنده نصنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣). لأنه حيث يوجد النور يوجد أيضًا الشعاع، وحيث يوجد الشعاع، يوجد أيضًا نشاطه، وتوجد نعمته الخافقة.

هذا ما نادي به أيضًا الرسول عندما كتب لأهل كورنثوس في الرسالة الثانية: "نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة اللَّه، وشركة الروح القدس مع جميعكم" (٢ كو ١٣: ١٣). لأن هذه النعمة والموهبة التي تمنح، إنما تمنح في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس.

وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا لا يمكننا أن نشترك في الموهبة إلا في الروح القدس. لأننا **عندما نشترك فيه تصبح لنا محبة الآب ونعمة الابن وشركة الروح القدس نفسه.**

[1] *Homilies on St. John, 75:3.*

هذه الحقيقة أيضًا تبين أن عمل الثالوث واحد. فالرسول لا يعني أن ما يُعطى يُعطى بالتجزئة وعلى حدةٍ من كل أقنوم، بل أن ما يُعطى يُعطى في الثالوث، وإن كل ما يُعطى هو من اللَّه الواحد.

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ برهان الحب هو إعلانه خلال العمل. هذا هو السبب الذي لأجله يقول يوحنا في رسالته: "من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب" (١ يو ٢: ٤). حبنا حقيقي أن حفظنا إرادتنا متناغمة مع وصاياه. من يجول هنا وهناك خلال شهواته الشريرة لا يحب الله بالحق، لأنه يضاد الله في إرادته[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ يوجد هنا نوع من الإعلان الداخلي عن الله، الأمر الذي لا يُعرف نهائيًا بالنسبة للأشرار الذين لا يقبلون أي إعلان عن الله الآب والروح القدس، وهكذا أيضًا بالنسبة للابن الذي لا يعرفون عنه إلاَّ ما هو بالجسد... ويكون لهم ذلك للدينونة لا للفرح، للعقوبة لا للمكافأة[2].

❖ لئلا يظن أحد أن الآب والابن وحدهما دون الروح القدس يصنعان لهما منزلاً لدى الذين يحبونهما، فليتذكر ما قيل قبلاً عن الروح القدس: "**لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه، لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم**" [١٧].

هنا ترون أن الروح القدس أيضًا مع الآب والابن يجد له مسكنًا في القديسين، أي بكونه الله في هيكله.

يأتي الثالوث القدوس إلينا كما نأتي نحن إليه.

هو يأتي بالعون، ونحن نأتي بالطاعة، هو يأتي لينير، ونحن نأتي لنرى.

هو يأتي ليملأ، ونحن نأتي لكي نحتويه، فلا تكون رؤيتنا له خارجية بل داخلية.

سكنى الثالوث ليست مؤقتة بل أبدية.

لا يعلن الابن نفسه هكذا بهذه الطريقة للعالم. فإن العالم الذي تكلم عنه في عبارة سابقة يضيف إليه فورًا القول: "**الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي**" [٢٤]. الذين هم هكذا لن يروا الآب والروح القدس، وإنما يروا الابن إلى حين لا كمصدر بركة بل لدينونتهم. لا يروه في شكل الله الذي فيه هو مساوٍ للآب والروح القدس، غير منظور معهم، بل الشكل البشري، الذي بإرادته كان موضوع استخفاف في

[1] *Hom. 30, PL 76: 1220. Forty Gospel Homilies,*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 76: 2.*

آلامه ويكون موضوع رعب في دينونة العالم[1].

❖ السكنى التي وعد بها في المستقبل من نوعٍ ما... سكنى روحية تتحقق داخليًا في الذهن، والأخرى (الخاصة برؤية السيد المسيح أثناء خدمته على الأرض) جسدية مُعلنة خارجيًا للعين والأذن.

واحدة تجلب بركة أبدية للذين يقبلونها، والأخرى خاصة بالزمن للذين ينتظرون الخلاص.

بالنسبة لواحدة لن ينسحب الرب ممن يحبونه، وبخصوص الأخرى يأتي ويذهب. إنه يقول: "**بهذا كلمتكم، وأنا عندكم**" [٢٥]، أي حضور جسدي فيه يتحدث معهم بطريقة منظورة"[2].

القديس أغسطينوس

❖ يسكن روح المسيح في من يحملون شبهه، أقول، من جهة الشكل والسمات... فيقدم اللَّه في وعوده للأبرار: "إني سأسكن فيهم، وأسير بينهم، وأكون لهم إلهًا، وهم يكونون لي شعبًا" (٢ كو ٦: ١٦؛ لا ٢٦: ١٢؛ إر ٣: ٣٣، ٣٢: ٣٨؛ زك ٨: ٨). ويقول المخلص: "**إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً**" (يو ١٤: ٢٣)...

وفي أجزاء أخرى من الكتاب المقدس يتحدث عن سرّ القيامة، للذين قد فُتحت آذانهم إلهيًا، ويقول إن الهيكل الذي تمّ تدميره يُعاد بنائه من جديد من أحجار حية وثمينة. هذا يجعلنا نفهم أن كل من تقودهم كلمة اللَّه إلى الكفاح معًا في طريق التقوى يكونون حجارة ثمينة في هيكل اللَّه العظيم الواحد.

لذلك يقول بطرس الرسول: "كونوا أنتم أيضًا مبنيين كحجارةٍ حيةٍ، بيتًا روحيًا، كهنوتًا مقدسًا، لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند اللَّه، بيسوع المسيح" (١ بط ٢: ٥). ويقول أيضًا بولس الرسول: "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه، حجر الزاوية" (أف ٢: ٢٠). كما يوجد ما يشبه ذلك بتلميحٍ خفي في تلك الفقرة من إشعياء التي يخاطب فيها أورشليم: "هأنذا أبني بالأثمد حجارتكِ، وبالياقوت الأزرق أؤسسكِ، وأجعل شُرَفَكِ ياقوتًا، وأبوابكِ حجارة بهرمانية، وكل تخومك حجارة كريمة، وكل بنيك تلاميذ الرب، وسلام بنيكِ كثيرًا" (إش ٥٤: ١١-١٤).

إذن يوجد بين الأبرار من هم أثمد، ومن هم ياقوت أزرق، وآخرون بهرمان، أو حجارة كريمة، أي فيهم كل الأنواع للاختيار...[3]

العلامة أوريجينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 76: 4.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 77: 2.*

[3] القمص تادرس يعقوب ملطي، الكنيسة عند العلامة أوريجينوس، تعريب دكتور جورج بطرس.

"الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي،
والكلام الذي تسمعونه ليس لي،
بل للآب الذي أرسلني". [٢٤]

إذ تحدث عن شوقه نحو مجيئه مع الآب إلى قلوبهم وسكناهما فيها كهيكل مقدس يحذرهم من محبة العالم مباهجه الباطلة التي تحرمهم من حفظ كلامه الذي هو كلام الآب، بهذا يعلنون عن حبهم للظلمة لا للنور. فلن يكون له ولا للآب موضع فيهم.

❖ كأن السيد المسيح يقول: فمن هذه الجهة من لا يحفظ هذه الأقوال ليس من شأنه أنه لا يحبني فقط، لكنه ولا يحب أبي أيضًا، وإن كانت هذه دلالة الحب وهي الاستماع للوصايا، وهذه وصايا أبي، فمن يسمعها لا يحب الابن فقط، لكنه يحب معه أباه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٦. المعزي المعلم

"بهذا كلمتكم وأنا عندكم". [٢٥]

يشجعهم السيد المسيح على قبول المعزي الآخر بكونه المعلم الذي لا ينافسه، بل يذَّكرهم بما قاله السيد، ويكشف لهم عن أسرار أخرى "**يعلمكم كل شيء**" [٢٦]، لأنه روح الحكمة. إنه لا يأتي بإنجيل جديد، بل يذكرهم بإنجيل المسيح، ويعلن لهم ما لم يكونوا قادرين على قبوله قبلاً.

"وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي،
فهو يعلمكم كل شيء،
ويذكركم بكل ما قلته لكم". [٢٦]

❖ يدعو الروح القدس معزيًا بسبب الهموم التي استحوذت عليهم حينئذٍ.

وهذه الأقوال قالها السيد المسيح لتلاميذه مكلفًا إياهم أن يحتملوا مفارقته بأوفر صبرٍ، إذ هي علة نعمٍ عظيمةٍ صالحةٍ لهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يسكن الروح في إنسانٍ بدون الآب والابن، ولا الابن أيضًا بدون الآب والروح القدس، ولا الآب بدونهما. سكناهم غير منفصل، لكن أحيانًا يعلنون عن أنفسهم برموزٍ مقتبسة من الخليقة

منفصلين، ليس في جوهرهم[1].

القديس أغسطينوس

❖ أرسل كل من الآب والابن الروح القدس. أرسل الآب الروح القدس، إذ كُتب: "**وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي**" [١٦]. وأرسله الابن إذ قال: ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق" (١٥: ٢٦). إذن إن كان الابن والروح القدس يرسلان بعضهما البعض، كما يرسل الآب، فلا يوجد منزله أقل بالخضوع بل شركة في السلطة[2].

القديس أمبروسيوس

❖ الكلمة اليونانية "**باراكليت**" معناها في اللاتينية "محامي" أو "معزي". دُعي المحامي، لأنه يتدخل أمام عدالة الآب لحساب الخطاة المخطئين.

هذا الذي هو جوهر واحد مع الآب والابن، قيل أنه يتوسل بغيرة من أجل الخطاة، إذ يجعل الذين يعلمهم أن يفعلوا هذا. لذلك يقول بولس: "الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها" (رو ٨: ٢٦)...

هذا الروح نفسه يُدعى المعزي، لأنه إذ يعد رجاءً في الغفران للذين يحزنون على خطاياهم. إنه يرفع قلوبهم من الحزن والضيق. إنه يعد أنه يعلمهم كل شيء، لأنه إن لم يكن الروح حاضرًا في قلب المستمع يكون قول المعلم بلا نفع.

لا يليق بأحدٍ أن ينسب لمعلمه ما يفهمه منه، لأنه ما لم يوجد المعلم الداخلي يجهد المعلم الخارجي نفسه باطلاً. يقول يوحنا: "وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم، ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء... كما علمتكم تثبتون فيه" (١ يو ٢: ٢٧).

لا يتعلم أحد بصوتٍ عندما لا يُمسح قلبه بالروح. "**يذكركم بكل ما قلته لكم**"، إذ يهبكم المعرفة ليس كمن هو أقل بل بكونه يعرف ما هو خفي[3].

البابا غريغوريوس (الكبير)

الكنيسة هي تمتع بالشركة في سرّ الثالوث القدوس. إنها عطية الحب والحياة من أب الأنوار، حضور المسيح وتذكره في الصلاة، وشهادته وخدمته لقوة الروح القدس المقدَّس الذي يقود الكنيسة

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 21:33.*
[2] *On the Holy Spirit, Book 3:1:8.*
[3] *Hom. 30, Forty Gospel Homilies. PL 76: 1220.*

وأبناءها إلى كمالهم خلال صوت الروح الداخلي.

يقول **مار إسحق أسقف نصيبين:** [عندما يؤسس الروح سكناه في إنسان، لا يتوقف الأخير عن الصلاة، لأن الروح لا يتوقف عن الصلاة فيه.]

❖ إذ أبدأ في التأمل في الوحدة يغمرني الثالوث بإشراقه. وما أن أبدأ في التفكير في الثالوث حيث تستولي عليّ الوحدة. حينما يظهر لي أحد الثالوث أظن أنه الكل، يملأ عيني بالكامل، يهرب الفيض مني. ولا يكون في ذهني المحدود جدًا في إدراكه أقنوم واحد موضع لأكثر من ذلك. عندما اربط الثلاثة في فكر واحدٍ أرى لهيبًا واحدًا، فلا أستطيع أن أُقسّم النور الواحد ولا أحلّله[1].

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ الثالوث القدوس كله يتكلم ويعلم (يو ٦: ٤٥؛ مت ٢٣: ١٠؛ أع ١٠: ٢٠)... لكنهم غير منفصلين[2].

القديس أغسطينوس

الكنيسة والثالوث القدوس

الكنيسة هي البيئة الإلهية التي تعمل فيها النعمة، وتقدم الخلاص. إننا وحدنا الذين نعرف أن الكائن البشري حسب تعبير **القديس أغسطينوس** "امتداد للعائلة الثالوثية"، بمعنى عندما يفكر اللَّه في الإنسان بكونه أيقونته، فإن يسوع المسيح يحتل المركز الأول. لهذا هذا الإنسان يحكمه نفس الديناميكيات كالثالوث نفسه، أي الحرية والوحدة والحب. إننا وحدنا نعرف صورة اللَّه هذه التي تتحقق في طوق إلهي، تتطلب منا ما فوق في الطبيعة. يلزمنا أن نتحرك إلى ما فوق الصراع من أجل الحياة، ونتعدى المركزة على ذواتنا، ليكون لنا تطلعًا نحو المشاركة وتحقيق جوهري لكل الإنسانية[3].

يرى **القديس غريغوريوس النزينزي**[4] أن العهد القديم أعلن عن الآب علانية، وعن الابن بطريقة أكثر غموضًا. وأعلن العهد الجديد عن الابن، وأوحى بلاهوت الروح القدس. وهكذا جاء الإعلان عن الثالوث تدريجيًا، لئلا يصير الشعب أشبه بأناس تثقّلوا بطعام أكثر من طاقتهم، وقدّموا نور الشمس لأعينهم الضعيفة جدًا عن رؤيته، لئلا يحدث خطر فقدان حتى ما هو في حدود طاقتهم، وإنما كما

---

[1] *Gregory Nazianzen: Orati xL, iN Sanctum baptisma 41. PG 36:417 c.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 77: 2.*
[3] *Declaration of Msgr. Joseph Phourde, Archbishop of Ottawa, at the Synod of Rome on October 19, 1971.*
[4] *St. Gregory Nazianzen, Oratio 31, Theologica 26. PG 36:161.*

يقول داود بالتدريج يصعدون ويتقدمون وينمون من مجدٍ إلى مجدٍ، فيشرق نور الثالوث على الذين يستنيرون.

❖ إننا نحفظ بكل اهتمام الإيمان الذي نتسلمه من الكنيسة، فإنه خلال عمل روح اللَّه، يكون وديعة ثمنها عظيم، مودعة في إناءٍ صالحٍ، تتجدد بغير انقطاع، وتجعل الإناء الذي يحفظها متجددًا. **تُمنح عطية اللَّه (الروح القدس) للكنيسة كالنسمة التي قُدمت للإنسان في خليقته،** حتى يشترك كل الأعضاء فيها ويحيون بها. في الكنيسة تودع الشركة مع المسيح أي الروح القدس، عربون عدم الفساد، ثبات إيماننا، سلم للصعود إلى اللَّه... فإنه حيث توجد الكنيسة يكون أيضًا روح اللَّه، وحيث يوجد روح اللَّه تكون الكنيسة وكل نعمة[1].

❖ وعد الرب بالأنبياء أن **يسكب روحه على خدامه وخادماته في نهاية الأزمنة** هذه. هذا هو سبب نزوله على ابن اللَّه الذي صار ابن الإنسان، إذ صار معتادًا به أن يسكن في الجنس البشري ويستقر على البشريين، وأن يحيا في خليقة اللَّه، يجددهم من العتق إلى جدة المسيح... لهذا السبب وعد الرب أيضًا أن يرسل الباراكليت الذي يهيئنا للَّه[2].

❖ كما أن الدقيق الجاف لا يقدر بدون سائل أن يصير عجينًا أو خبزة واحدة، هكذا نحن الكثيرون **لا نقدر أن نصير واحدًا في المسيح بدون الماء الذي من السماء.** هذا الماء تقبَّله الرب كهبة من الآب، والذي هو يعطيه أيضًا للذين يشتركون معه، مرسلاً الروح القدس على كل الأرض[3].

❖ يصف الكهنة تلاميذ الرسل مسيرة الذين يخلصون وخطوات صعودهم، **فيصعدون بالروح إلى الابن، وبالابن إلى الآب، وأخيرًا يرد الابن عمله للآب** كقول الرسول (١ كو ١٥: ٢٤)[4].

❖ **الآب يخطط ويعطي أوامر، والابن يحقق ويخلق، بينما الروح ينعش وينمي، وعلى درجات يصعد الإنسان نحو الكامل**[5].

❖ إذ ينشط التلاميذ بذات المشاعر يسبحون اللَّه، **فيجلب الروح القبائل البعيدة إلى الوحدة، ويقدمون للآب بكور الأمم.** هذا أيضًا هو السبب الذي لأجله وعد الرب بإرساله الباراكليت إلينا

---

[1] *Adv. Haer. 3:24:1.*
[2] *Adv. Haer. 3:17:1-2 PG 7:929-30.*
[3] *Adv. Haer 3:17:2.*
[4] *Adv. Haer. 5:36:2. PG 7:1223 B.*
[5] *Adv.Haer. 4: 38:3 PG 1108B.*

هذا الذي يهيئنا للّه[1].

❖ كما أن الأرض القفر لا تقدر أن تأتي بثمرٍ ما لم تستقبل ماءً، هكذا نحن الذين كنا قبلاً خشبًا جافًا، ما كان يمكننا أن نحمل ثمر للحياة بدون المطر الفياض الذي من العلا. لأن **أجسادنا تتقبل الاتحاد مع عدم الفساد خلال غسل المعمودية، وأما نفوسنا فخلال الروح.** هذا هو السبب الذي لأجله أن هذا وذاك ضروريان، لأن هذا وذاك يساهمان في الحياة الإلهية[2].

القديس إيريناؤس

❖ لا نزال نحتاج إلى آخر يكشف لنا، ويعلن عن كل شيء... ومع التوبة التي كرز بها الرب والمخلص، والتحول من الشر إلى الصلاح، ومع غفران خطايانا الذي يُوهب لكل الذين يؤمنون، مع هذا فإن كمال كل الصلاح ومجمله في هذا: أنه بعد كل هذه الأمور **يتأهل الإنسان أن يتقبل نعمة الروح القدس،** وإلا فإنه لا يوجد شيء ما يُحسب كاملاً بالنسبة لمن ينقصه الروح القدس الذي به نبلغ سرّ الثالوث المطوّب[3].

العلامة أوريجينوس

❖ **يُقاد حاملو الروح القدس إلى الكلمة، أي إلى الابن. لكن الابن يأخذهم ويقدمهم إلى الآب، والآب يمنحهم عدم الفساد.** فبدون الروح لا يتم الاقتراب إلى الآب... لأن معرفة الابن تتم بالروح القدس، لكن الابن حسب مسرة الآب يمنح مواهب الروح حسب إرادة الآب، للذين يريد لهم لذلك[4].

دليل الكرازة الرسولية

عطية الروح القدس تعلن لنا حسبما نسعى ونطلب

❖ هذه العطية (الروح القدس) التي في المسيح هي واحدة، تقدم بالكامل للكل، ولا يُحرم أحد منها، ولكن **كل واحد يأخذها حسب قياس إرادته في قبولها.** إنها تقطن داخلنا حسب درجة ما يتأهل الإنسان لها بطلبه إياها في غيرة. هذه العطية تبقى معنا حتى نهاية العالم، عزاءً لترقبنا لها، وسلامًا بواسطة الامتيازات التي تهبنا إياها، على رجاء أنها تصير لنا نور أذهاننا، وشمس نفوسنا. هذا الروح القدس يلزمنا أن نطلبه، ونشتاق إليه، عندئذٍ نتمسك به بالإيمان والطاعة

---

[1] *Adv. Haer 3:17:2. PG 7:930.*
[2] *Adv. Haer. 3:17:2 PG 7:903 A.*
[3] *In Librum Jesu nave, Homilia 3:2 PG 12:838A.*
[4] *Proof of the Apostolic Preaching, 7.*

لوصايا اللَّه[1].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

❖ **تصعد طريق الحكمة الإلهية من الروح الواحد بالابن الواحد إلى الآب الواحد.** هكذا الصلاح الطبيعي، والقداسة الموروثة، والكرامة الملوكية تبلغ من الآب بالابن الوحيد إلى الروح[2].

❖ عندما نثَّبت عيوننا خلال قوة الإنارة (التي للروح) على جمال صورة اللَّه غير المنظور (على الابن)، وبالصورة نُقتاد إلى الجمال الفائق للأصل (للآب)، عندئذٍ روح المعرفة الذي فينا لا ينقسم بالنسبة للذين يحبون رؤية الحق، بل يهبهم فيه قوة رؤية الصورة... إنه لا يعينها في الخارج، بل يقودهم إلى المعرفة في نفسه[3].

❖ إنه لا يقطن فيهم (الخطاة)، لأنهم يرفضون بسهولة النعمة التي يتقبلونها[4].

القديس باسيليوس الكبير

٧. فرح المسيح برحيله

"سلامًا أترك لكم،

سلامي أعطيكم.

ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا.

لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب". [٢٧]

ماذا ترك السيد المسيح لتلاميذه الذين تركوا كل شيء وتبعوه؟ "**سلامي أعطيكم**" [٢٧]. إنه يتركهم ليس في حزنٍ ومرارةٍ، بل في سلام ليهبهم ميراثًا ثمينًا، هو سلامه! هو نفسه سلامنا (أف ٢: ١٤)، أورثنا ذاته سلامًا لنا.

إنه لا يقدم السلام كما يقدمه العالم، تحية كلامية شكلية، بل بركة حقيقية تتمثل في تقديم ذاته لمؤمنيه. هذا السلام لا يمكن للعالم بكل إمكانياته أن يقدمه ولا بكل أحزانه أن يسحبه من المؤمن. لأن ما يعطيه العالم يمس الجسد ويُحد بالزمن والمكان، أما سلام المسيح فيحتضن كيان الإنسان كله، ولا يقدر زمن ما أو مكان ما أن يحده. إنه يسحب أعماق الإنسان لتختبر الأبدية.

---

[1] *On the Trinity 2:35.*
[2] *Liber de Spititu Sancto, 18:47 PG 32:153 B.*
[3] *Liber de Spiritu Sancto, 18:14 PG 32:153 A.*
[4] *Leber de Spiritu Sancto, 26:61 PG 32:180 D.*

"**لا تضطرب قلوبهم ولا ترهب**"، لأن سلام المسيح أبدي، ليس من قوة تقدر أن تنزعه عن الإنسان المتمسك به. سلام العالم قد يدفع الإنسان إلى الخطية، سواء من جهة الملذات أو الكبرياء، أما سلام المسيح فهو عمل النعمة الغنية التي تحفظ الإنسان في القداسة والبر. لكي يسحب قلوب تلاميذه إلى الفرح الأبدي والسلام السماوي، تحدث معهم كمن يتهلل بعودته إلى السماء، واهبًا إياهم سلامه كي يمتلؤا به ويفرحوا بصعودهم معه.

❖ إذ اضطرب التلاميذ عند استماعهم قول السيد المسيح: "**أنا أمضي لأعد لكم مكانًا**"، متصورين أن انصرافه عنهم يثير العداوة والحروب عليهم، انظر كيف إنه نزع ارتياعهم، فقال: "**سلامًا أترك لكم، سلامي أعطيكم**"، فأوشك أن يقول: "مادام السلام يشملكم فما الذي يضركم من العالم؟"

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه يترك لنا سلامًا وهو راحل، وسيقدم لنا سلامه عندما يأتي في النهاية. سلامًا يتركه لنا في هذا العالم، وسلامه سيهبنا في العالم الآتي. يترك لنا سلامه، وإذ نسكن فيه نهزم العدو.

سيهبنا سلامه عندما لا يوجد بعد أعداء نحاربهم فنملك كملوك.

سلامًا يترك لنا حتى نحب أيضًا بعضنا البعض هنا، وسيعطينا سلامه حين نكون فوق إمكانية حدوث نزاع.

سلامًا يتركه لنا حتى لا يدين الواحد الآخر فيما هو سرّ لكل منهما ونحن على الأرض؛ سيهبنا سلامه عندما "يُظهر آراء القلوب وحينئذٍ يكون المدح لكل واحدٍ من الله" (١ كو ٤: ٥). ومع هذا ففيه ومنه ننال السلام سواء الذي يتركه لنا وهو ذاهب عند الآب أو ما سيمنحنا إياه عندما يحضرنا إلى الآب.

وماذا يترك لنا عندما يصعد من عندنا سوى حضوره الذي لن يسحبه منا؟ فإنه هو سلامنا الذي يجعل كلاهما واحدًا (أف ٢: ١٤). لذلك يصير هو سلامنا، سواء عندما نؤمن بأنه هو، أو عندما نراه كما هو (١ يو ٣: ٢).

لأنه إن كان ونحن بعد في هذا الجسد الفاسد الذي يثقل على النفس ونسير بالإيمان لا بالعيان لا يترك الذين يرحلون وهم بعيدون عنه (٢ كو ٥: ٦–٧)، كم بالأكثر عندما نبلغ تلك الرؤية، سيملأنا بنفسه[1].

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 77: 3.*

❖ **السلام الذي يتركه لنا في هذا العالم يمكن بالأكثر لياقة أن يدعى سلامنا لا سلامه. لأنه إذ بلا خطية تمامًا ليس فيه أي عنصر من الخلاف نفسه. أما السلام الذي لنا هو الذي في وسطه لا نزال نقول: "أغفر لنا ما علينا" (مت ٦: ١٢)... إنه ليس بالسلام الكامل، إذ نرى ناموسًا آخر في أعضائنا ضد ناموس ذهننا (رو ٧: ٢٢–٢٣)**[1].

القديس أغسطينوس

"**سمعتم أني قلت لكم:**
أنا أذهب ثم آتي إليكم،
لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون،
لأني قلت أمضي إلى الآب،
لأن أبي أعظم مني". **[٢٨]**

يقدم سببًا آخر لعدم اضطراب قلوبهم، وهو أنه وإن كان ذاهبًا عنهم إلاَّ أنه سيأتي إليهم. إنه ذاهب ليتسلم الملكوت والسلطان والقوة لحسابهم، لذا لاق بهم أن يفرحوا بما سيتمتعون به.

"**لأن أبي أعظم مني**" **[٢٨]**، إذ صار إنسانًا وتنازل ليحقق خلاصنا، صار في تنازله كمن هو أقل من الآب في المجد حسب ناسوته. إن كانت مسرة الآب والابن أيضًا أن يتنازل الابن من أجل البشرية ليمجدهم، فيليق بالمؤمنين وهم يسمعون الابن أن يعتز بتنازله أن يفرحوا معه، لأن في هذا خلاصهم ومجدهم.

❖ واضح أنه صار إنسانًا بينما بقي هو اللَّه، فإن اللَّه انتحل إنسانًا، ولم يُمتص اللَّه في إنسانٍ. لذلك بالكمال، بمنطق مقبول أن يُقال إن المسيح كإنسانٍ هو أقل من الآب، وأن المسيح كإله مساوٍ للآب، مساوٍ للَّه (يو ١٠: ٣٠)[2].

❖ أمور كثيرة قيلت في الكتاب المقدس تتحدث عنه في شكل اللَّه، وأمور كثيرة في شكل العبد. اقتبس اثنين من هذه كمثالين، واحد يخص كل منهما. فبحسب شكل اللَّه قال: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، وبحسب شكل العبد: "أبي أعظم مني"[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 77: 4.*
[2] *Letters, 170.*
[3] *Letters, 238.*

❖ ما هو غير طبيعي إن كان ذاك الذي هو اللوغوس قد صار جسدًا (يو ١: ١٤) يعترف بأن أباه أعظم منه، إذ ظهر في المجد أقل من الملائكة، وفي الهيئة كإنسان؟ لأنك "جعلته أقل قليلاً من الملائكة" (مز ٨: ٥)... وأيضا: "ليس فيه شكل ولا جمال، شكله حقير، وأقل من شكل بني البشر (إش ٥٣: ٢-٣). هذا هو السبب لماذا هو أقل من الآب، فإن ذاك الذي أحبك احتمل الموت، وجعلك شريكًا في الحياة السماوية[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ بسبب تواضعه يقول هذه الكلمات، هذه التي يستخدمها خصومنا ضده بطريقة خبيثة[2].

❖ يقولون مكتوب: "**أبي أعظم مني**". أيضًا مكتوب: "لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً للَّه" (في ٢: ٦). وأيضًا مكتوب أن اليهود أرادوا قتله، لأنه قال إنه ابن اللَّه معادلاً نفسه باللَّه (يو ٥: ١٨). مكتوب: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠). إنهم يقرأون نصًا واحدًا وليس نصوص كثيرة. إذن هل يمكن أن يكون أقل ومساوٍ في نفس الوقت لذات الطبيعة؟ لا، فإن عبارة تشير إلى لاهوته، وأخرى إلى ناسوته[3].

القديس أمبروسيوس

"وقلت لكم الآن قبل أن يكون،
حتى متى كان تؤمنون". [٢٩]

أخبرهم مقدمًا بموته حتى لا يتعثروا متى حدث، وقد أظهر لهم ما وراء موته كضرورةٍ لازمة لخلاصهم. بهذا يخفف السيد المسيح من حدة حزنهم واهبًا إياهم الرجاء.

"لا أتكلم أيضًا معكم كثيرًا،
لأن رئيس هذا العالم يأتي،
وليس له فيّ شيء". [٣٠]

ظن البعض أنه يتحدث عن بيلاطس بنطس كحاكم روماني، لكن يكاد يجمع الرأي على أنه يعني برئيس هذا العالم إبليس كما جاء في أف ٢: ٢ ويو ٢: ٣١؛ ودُعي إله هذا العالم في ٢ كو ٤: ٤. صراع السيد المسيح ليس ضد إنسان بل ضد قوات الظلمة الروحية. الإنسان ليس طرفًا في

[1] *Letter 8 to the Caesareans, 5.*
[2] *On the Holy Spirit, Book 2:8:59.*
[3] *Of the Holy Spirit Book 5:18:224.*

المعركة، إنما المعركة هي بين المسيح وإبليس، وللإنسان أن يختفي في أحدهما. يتكلم السيد المسيح بلغة اليقين أنه ليس لإبليس موضع فيه. لذا فهو حتمًا غالب له.

❖ قول السيد المسيح: "**لأن رئيس هذا العالم**"، يعني به إبليس، وقد دعاه الناس الأشرار بهذا الاسم، ليس لأنه يرأس السماء والأرض، وإلا لقلب الخلائق وعكسها، وإنما يرأس الذين قد أسلموا إليه ذواتهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إننا مُحاصرون بجيوش الأعداء، فإنهم حولنا من كل جانب. الجسد الضعيف سيصير قريبًا ترابًا، إنه واحد ضد كثيرين، يحارب ضد فرق هائلة. إلى أن يحل، إلى أن يأتي رئيس العالم، ولا يجد خطية فيه، إلى أن يحين ذلك، فلتنصت في أمان إلى كلمات النبي: "لا تخف من رعب الليل، ولا من سهم يصير في النهار..." (مز ٩١: ٥)[1].

❖ إن نقص أسقف فضيلة أو فضيلتان في قائمة الفضائل لا يعني هذا أنه لا يعود يُدعى بارًا، ولا يُدان على نقائصه، وإنما يكلل على ما لديه. لأن اقتناء كل الفضائل وعدم النقص في شيءٍ منها هو من سمات (المسيح) وحده، الذي لم يفعل خطية، ولا في فمه غش الذي إذ شُتم لم يشتِم عوضًا (١ بط ٢: ٢٢)[2].

القديس جيروم

❖ بمثل هذه الكلمات يشير إلى الشيطان كرئيس ليس على خلائق الله بل على الخطاة، هؤلاء الذين يشير إليهم هنا باسم "**هذا العالم**". عندما يستخدم اسم "العالم" بمعنى شرير يشير السيد فقط إلى محبي هذا العالم، الذين كُتب عنهم في موضع آخر: "محبة العالم عداوة لله" (يع ٤: ٤). حاشا لنا أن نفهم الشيطان أنه رئيس العالم كمن يسيطر على تدبير أمور كل العالم، السماء الأرض وما فيهما. مثل هذا العالم قيل عنه عندما تحدثنا عن المسيح الكلمة: "كوَّن العالم به" (يو ١: ١٠). العالم كله من أعلي السماوات إلى أسافل الأرض يخضع للخالق ليس للهارب؛ للمخلص لا للمخرب؛ للمنقذ لا للمستعبِد؛ للمعلم لا للمخادع[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Letters, 22:3.*
[2] *Against the Pelagians, 1:22.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 79: 2.*

"ولكن ليفهم العالم إني أحب الآب،
وكما أوصاني الآب هكذا أفعل.
قوموا ننطلق من ههنا". [٣١]

إن كان ليس لإبليس موضع في السيد المسيح، وليس في إمكانياته أن يحاربه، لكن سمح السيد له أن يدخل معه في المعركة الحاسمة، من أجل تحقيق خطة الآب للخلاص، وحب الابن للآب.

هذه هي وصية الآب له أن يخَّلص العالم بآلامه، لذلك سألهم أن يقوموا وينطلقوا كي يسلم نفسه للموت.

❖ قال السيد المسيح ذلك لينهض نفوس تلاميذه، وليعرفوا أنه يذهب إلى هذا الموت ليس كرهًا بل طوعًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

من وحي يو ١٤

ليحملني روحك القدوس إلى سماواتك المتسعة!

❖ إذ اضطربت نفسي في داخلي،
من أجل كثرة خطاياي،
كشفت لي عن اتساع سماواتك،
التي تنتظر كل مؤمن!
تهبنا حياة أبدية واحدة للجميع،
يتلألأ فيها مؤمنوك ككواكبٍ بهية.
كل منهم يفرح ويتهلل من أجل عظم بهاء أخيه!

❖ لأنطلق بك يا أيها الطريق إلى حيث توجد.
فأنت طريقي الإلهي، وأنت سماواتي.
بك أنطلق، إليك لأبقى معك في حضن أبيك!

❖ أتساءل: كيف وأنا الإنسان أبقى معك؟
وهبتني روحك القدوس يقدس أعماقي.
تركتني بالجسد بصعودك،

وأرسلت لي روحك الناري، يشكلني على صورتك!
يهبني معرفة الحق،
فأتعرف عليك يا أيها الحق.
أراك فأرى الآب، لأنكما واحد!
أراك في تنازلك تعلن: أبي أعظم مني.
لا أتعثر بهذه الكلمات،
بل ألمس فيها روح التواضع، يا من صرت عبدًا من أجلي!

❖ أسمع كلماتك هذه فأتعلق بحبك!
حبك أنزلك إليَّ، لكي يرفعني إلى حضن أبيك.
وأنت غير منفصل عنه صرت كمن هو أقل منه،
لكي تحملني من انحطاطي إلى علو شركة مجدك!

❖ كم كنت اشتهي أن أرافقك حين كنت هنا بالجسد،
لكن صعودك أصعد قلبي إليك.
عطية روحك القدوس، روح الحق، واهب كل العطايا، تعزي أعماقي.
عطيتك أثلجت قلبي، فلن أطلب من الآب غيرها!
عطيتك نزعت عني يتمي،
فصرت ابنا لملك الملوك الذي لا يموت!
عطيتك هو المعلم القادر أن يدخل أعماقي،
ويقودني لا بفلسفات نظرية،
بل يحملني إلى الحق كله!

❖ أشرقت عليَّ أيها الابن الوحيد بنور الروحٍ،
فامتلأت حياتي ببهاء الثالوث القدوس.
مات العالم عني بكل ظلمته، لأحيا في نور الحق.
مجدًا لك أيها الآب محب البشر، ومدبر الخلاص!
شكرًا لك أيها الابن خالق الكل، ومخلص الجميع!

لك التسبيح أيها الروح القدس، واهب القداسة والصلاح!
نفسي تغوص في لجة حب الثالوث القدوس،
تشتهي أن تنعم بالرؤية الكاملة في يوم الرب العظيم!

الأصحاح الخامس عشر

حديث وداعي

الأصحاحان ١٥ و١٦ هما حديث وداعي تحدث به السيد مع تلاميذه في الليلة التي أُلقي القبض عليه ليُسلم للموت. وها هو يهيئهم في هذا الحديث لمواجهة التجربة. ففي هذا الأصحاح حدثهم عن:

١. الحاجة إلى الثبوت فيه ١–٨.
٢. محبتهم لبعضهم البعض ٩–١٧.
٣. مواجهة بغض العالم ١٨–٢٥.
٤. إرسال المعزي لهم ٢٦–٢٧.

١. الحاجة إلى الثبوت فيه

"أنا الكرمة الحقيقية،
وأبي الكرام". [١]

إذ تنازل من أجلنا استخدم أيضًا تشبيهات زمنية للتعرف على شخصه وعمله فينا، فيُدعى شمس البرّ المُشرق على الجالسين في الظلمة، وكوكب الصبح المنير، والكرمة.

ما كان يمكن لشخصٍ يهوديٍ أن يتوقع من المسيا أن يشبه نفسه بالكرمة، فقد ترقوا مجيئه ملكًا مخلصًا لهم، صاحب سلطان يرد لشعبه كرامتهم في العالم، ويهبهم سلطة ملوكية. أما التشبيه بالكرمة فيخص الشعب أو كنيسة الله.

لقد غرس الله جنة عدن ليتمتع آدم وبنوه بثمارها، ولا يحرم أحد إلا من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر. وإذ طرد الإنسان نفسه من هذه الجنة ليعيش في أرض تنبت له شوكًا وحسكًا، قدم الله عبر الأجيال إمكانيات إلهية ليجعل من شعبه كرمة مثمرة تقدم عنبًا يُستخرج منه خمر روحي مفرح. وجاء العهد القديم مليء بالمراثي على هذه الكرمة التي لم تثمر إلا مرارة.

ففي مرثاة الكرمة التي أنشدها آساف جاء: "كرمة من مصر نقلت، طردت أممًا وغرستها؛ هيأت قدامها فأصلت أصولها، فملأت الأرض. غطى الجبال ظلها، وأغصانها أرز الله. مدت قضبانها إلى البحر، وإلى النهر فروعها. فلماذا هدمت جدرانها ليقطفها كل عابري الطريق، يفسدها الخنزير من الوعر، ويرعاها وحش البرية؟" (مز ٨٠: ٨–١٣) هكذا يئن المرتل، لأن الكرمة التي غرستها يمين

الرب حطمت الحصون التي أقامها الرب حولها ليصير ثمرها، لا للرب بل لعابري الطريق وخنزير الوعر ووحش البرية.

وقدم لنا الله نفسه مرثاة على كرمه في إشعياء حيث يقول: "والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا أحكموا بيني وبين كرمي. ماذا يُصنع لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنبًا، صنع عنبًا رديئًا؟ (إش ٥: ٣-٤).

مرة أخرى في مرثاة على ذات الكرمة يقول الله: "وأنا قد غرستكِ كرمة سورق (من صنفٍ ممتازٍ)، زرع حق كلها، فكيف تحولت لي سروغ جفنة غريبة؟" (إر ٢: ٢١).

هذه هي مسرة الله أن يصير شعبه كله كرمة، تهب حياتها لمن حولها، تفرح قلب الله بثمر الروح، وتبهج السمائيين بعمل الله فيها. لكن ماذا حدث؟ يقول هوشع النبي:"إسرائيل جفنة ممتدة، يخرج ثمرا لنفسه، على حسب كثرة ثمره قد كثر المذابح، على حسب جودة أرضه أجاد الأنصاب. قد قسموا قلوبهم" (هو ١٠: ١-٢). صار شعب الله ليس كرمة مقدسة لحساب ملكوت الله، بل جفنه تخرج مرارة، لحساب عبادة الأوثان ومملكة الظلمة. **لم يعد بعد يوجد حل آخر سوى أن يصير المسيا نفسه كرمة حقيقية يتطعم فيها المؤمنون، فيأتون بثمرٍ روحيٍ سماويٍ فائقٍ.**

السيد المسيح هو الكرمة المغروسة في التربة، إذ هو الكلمة الذي صار جسدًا، رآه إشعياء النبي بروح النبوة بلا شكل ولا جمال (إش ٥٣: ٢). ثمر الكرمة يفرح الله والناس (قض ٩: ١٣). ثمر الحكمة (السيد المسيح) خير من الذهب ومن الإبريز (أم ٨: ١٩). إنه كرمة يهوذا التي تغنيه بدم العنب (تك ٤٩: ١١)، وكرمة يوسف التي تجري فروعها على الحائط (تك ٤٩: ٢٢)، كرمة إسرائيل التي يجلس تحتها بسلام (١ مل ٤: ٢٥).

❖ لم يذكر الكرمة هنا لأجل معنى آخر إلا لكي يعلم التلاميذ أنهم بدون قوة السيد المسيح لا يمكنهم أن يعملوا شيئًا، وأنهم على هذا المثال يحتاجون أن يتحدوا به كاتحاد الغصن بالكرمة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إننا أقرباء الرب حسب الجسد، لذا يقول: "أخبر باسمك إخوتي" (عب ٢: ١٢؛ مز ٢٢: ٢٢). وكما أن الأغصان واحدة مع الكرمة (الأصل) وهي منها (يو ١٥: ١) هكذا نحن أيضًا جسد واحد متجانس مع جسد الرب، ومن ملئه نحن جميعًا أخذنا (يو ١: ١٦)، ولنا هذا الجسد كأصل لقيامتنا وخلاصنا.

القديس أثناسيوس الرسولي

يرى **القديس أغسطينوس** أن السيد المسيح يدعو نفسه الكرمة ويدعونا نحن بالأغصان، والكرمة والأغصان من طبيعة واحدة. هكذا إذ صار إنسانًا حمل ناسوتنا، فصار كرمة ونحن الأغصان الثابتة فيه إذ حملنا فيه[1].

بقوله: "**أنا هو**" رأينا خلال هذا السفر أن السيد المسيح يتحدث على مستوى حضوره الذاتي، فقد حل بيننا كرمة حقيقية، الحق ذاته، نُغرس فيه ككنيسة العهد الجديد التي تتمتع بالحياة الأبدية، فتفيض بالخمر الروحي الذي يفرح السماء!

الآب ليس فقط صاحب الكرم، لكنه هو العامل فيه والمهتم به، إنه الكرّام، يهتم بكل فرعٍ من فروعها. هو الحافظ للثبوت الإلهي، حيث نثبت في الكرمة كأغصانٍ حية فيها، وثبوتنا في الكرمة، الابن الوحيد الجنس، نثبت في الآب، ونتحد به، لنستقر في أحضانه أبديًا، لن نُنزع منه.

الآب الذي جاء بشعبه من مصر قديمًا ليغرسهم كرمة في أرض الموعد، هو بعينه الذي أرسل ابنه من السماء ليغرسنا فيه أعضاء جسده، فروع كرمة سماوية حية. أقام كلمته المتجسد كرمة أو رأسًا، لنصير نحن فيه فروعًا أو أعضاء جسده. وكما يقول الرسول:" وإياه جعل رأسًا فوق كل شيء للكنيسة التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل" (أف ١: ٢٢-٢٣). "ما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته، الذي عمله في المسيح" (أف ١: ١٩-٢٠).

"كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه،

وكل ما يأتي بثمر ينقيه، ليأتي بثمرٍ أكثر". [٢]

يُطلب من الكرمة عنبًا جيدًا (إش ٥: ٢)، ويطلب من المسيحي حياة مسيحية لائقة، بفكر مسيحي، وسلوك مسيحي، وقلب مسيحي محب لكل البشرية. ما نفع الكرمة بلا عنب؟ وما نفع المسيحي بلا حب؟!

مع النمو المستمر في الحياة المسيحية، ومع الثمر المتكاثر إلا أنه يوجد دائمًا ما لا يرغبه الله فينا فينقيه، فيقوم الله بالعمل ككرام يقلم أغصان الكرمة لكي تأتي بثمر أكثر. لقد قال السيد المسيح لتلاميذه عند غسل أقدامهم أنهم أطهار، لكنهم يحتاجون أن يمد يديه ليقوم بنفسه بغسل أقدامهم حتى تتنقى أو تطهر مما لحق بها أثناء سيرهم في العالم.

يرى البعض أنه يشير هنا إلى يهوذا الذي لم يحمل ثمرًا، فاستحق نزعه من الرسولية وحرمانه من الملكوت. إنه كشجرة التين التي جاء إليها السيد وهو في طريقه ولم يجد فيها ثمرًا، فلعنها وجفت

[1] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 80: 1.*

للحال.

جاء الوعد لمن يأتي بثمر إنه ينقيه ليأتي بثمر أكثر أو يقلّمة، أي ينزع عنه كل ما هو زائد وما يعوق نموه وإثماره. هذا التقليم لا يحمل عنفًا أو قسوة من الكرام، بل هو اهتمام ورعاية لكي يتزايد الثمر. يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** إن التقليم هنا يشير إلى الاضطهادات التي تواجه المؤمنين، فهي لا تحطمهم، بل تزيدهم قوة وإثمارًا.

المؤمنون هم الأغصان الكثيرة الظاهرة التي ترتمي في اتجاهات مختلفة لكنها تجتمع معًا في المسيح، الجذر الخفي واهب الحياة والثمار، وهو مركز وحدتهم. المؤمنون كأغصان الكرمة الضعيفة التي لا تقدر أن تقوم بذاتها بدون الجذر. يقول الرب في حزقيال: "يا ابن آدم ماذا يكون عود الكرم فوق كل عودٍ أو فوق القضيب الذي من شجر الوعر؟" (حز ١٥: ٢).

❖ لا تعجب إذن إن كان من تلك الكرمة التي تنمو وتملأ كل البقاع (مز ٧٩: ١٠) توجد أغصان تُقطع منها، **هذه التي رفضت أن تنتج ثمر الحب**[1].

❖ لماذا لم يقل: "أنتم أنقياء خلال المعمودية التي فيها تغتسلون" بل قال: "**لسبب الكلام الذي كلمتكم به**" [٣]، إلا لأنه في الماء أيضًا الكلمة هي التي تنقي؟ انزع الكلمة، فيصير الماء ليس بأكثر ولا أقل من ماء. إذ تُضاف الكلمة إلى العنصر فتكون النتيجة هي "السرّ" كما لو كانت هي نفسها نوعًا من الكلمة المنظورة[2].

❖ كلمة الإيمان هذه تحمل مثل هذه الفضيلة في كنيسة الله، حتى أنه بوسطة ذاك الذي هو حاضر في الإيمان ويبارك ويرشه يطهر حتى الرضيع الصغير وإن كان عاجزًا بقلبه أن يؤمن بالبرّ، وأن يعترف بفمه للخلاص. كل هذا يتم بواسطة الكلمة التي قال عنها الرب: "**أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به**" [٣][3].

❖ إنهم ليسوا فيه بنفس الطريقة التي فيها هو فيهم. ومع ذلك فكلا الطريقتين هما لصالحهم وليس لمنفعته هو. فبالنسبة لعلاقة الأغصان بالكرمة، فالأغصان لا تساهم في شيء بالنسبة للكرمة، وإنما تستمد كل وسائل حياتها من الكرمة. أما عن علاقة الكرمة بالأغصان فهي التي تمد الأغصان بالقوت الحيوي لها، ولا تأخذ من الأغصان شيئًا... إن قُطع غصن ينبت غيره غصن

---

[1] *Letters, 52.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 80: 3.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 80: 3.*

آخر حي، لكن الغصن المقطوع لا يقدر أن يحيا منفصلاً عن الأصل[1].

القديس أغسطينوس

❖ في قول السيد المسيح لتلاميذه: "**كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه**" يذكر عيشتهم بطريقة غامضة، موضحًا أنه بدون أعمال لا يحق لهم أن يوجدوا فيه. وقوله "**كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه**"، معناه أن هذا الغصن يتمتع باهتمام كثير من السيد المسيح.

❖ لم يقل أن الأصل (الجذر) محتاج إلي رعاية الكرام بل الأغصان، أما ذكر الأصل هنا فليس لهدف سوى أن يتعلموا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا بدون قوته، وأنه يلزمهم أن يتحدوا معه بالإيمان كما تتحد الأغصان بالكرمة. "**كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه**".

هنا يشير إلي طريقة الحياة، مظهرًا أنه بدون أعمال لا يمكن أن نكون فيه "**كل ما يأتي بثمر ينقيه**". مع أن الجذر يتطلب عناية أعظم من الفروع حيث يُحفر له وينقب حوله، لكنه لم يقل شيئًا من هذا، إنما كل ما قاله يخص الأغصان. يظهر أن الأصل فيه الكفاية في ذاته، وأما التلاميذ فيحتاجون إلي عونٍ عظيمٍ من الكرام، مع أنهم ممتازون. لهذا يقول: "**كل ما يأتي بثمر يقلمه**"... هذا يمكن الجزم به أنه قيل بخصوص الاضطهادات التي تحل بهم. فإن "**ينقيه**" هو أن يقلمه فيجعل الغصن يحمل ثمرًا أفضل. لهذا يُظهر أن الاضطهادات تجعل الناس أكثر قوة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ في غيرته أن يفعل وصية الآب قام وأسرع ليتمم سرّ آلامه الجسدية. لكن في لحظة تالية كشف سرّ تجسده. بأخذه جسدًا صرنا فيه كأغصان في الكرمة. فلو لم يصر كرمة ما كان يمكننا أن نحمل ثمارًا صالحة. إنه يحدثنا على الثبوت فيه بالإيمان بتجسده. **فإذ صار الكلمة جسدًا فإننا نحمل طبيعة جسده**، كما الأغصان في الكرمة. لقد اعتزل شكل عظمة الآب بتواضعه، إذ أخذ جسدًا ودعا نفسه الكرمة، مصدر وحدة كل الأغصان، ودعا الآب الكرام الذي يقلم الأغصان العقيمة التي بلا نفع لكي تُحرق بالنار[3].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

"**أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به**". **[٣]**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 81: 1.*
[2] *Homilies on St. John, 67:1.*
[3] *On the Trininty, 9 (55).*

ربما يشير هنا إلى حديثه أثناء تأسيس الإفخارستيا عن يهوذا مسلمه (يو ١٣: ٢١–٣٠) والتي على أعقابها خرج يهوذا وتمم صفقته مع رئيس الكهنة، فنزع نفسه كما عن جسم المسيح، وتم تقليم الأغصان (تلاميذ الرب) لهذا لاق القول عنهم: "**أنتم الآن أنقياء**" [٣]. جاءت كلمة المسيح تفصل بين الحق والباطل، وما هو ثمين وما هو مزيف. صار كل منهم نقيًا بكلمة الحق التي للمسيح (يو ١٧: ١٧)، بالإيمان به الذي يطهر قلوبهم وينقيها من كل شائبة (أع ١٥: ٩)، تنقوا من خميرة الفريسيين التي هي الرياء.

لعله أيضًا يشير هنا إلى ما ورد في سفر اللاويين (١٩: ٢٣–٢٤) عن الكروم التي في كنعان، فإنها تبقى إلى ثلاث سنوات غير نقية، وفي السنة الرابعة تصير نقية لمجد الله. هكذا بقي التلاميذ مع السيد المسيح ثلاث سنوات، والآن إذ يعبر بهم إلى صليبه وقيامته كبكرٍ مُقدم عنهم وباسمهم للآب يصيرون أنقياء في عيني الله. لقد عبر بالكرمة ثلاث سنوات، والآن سنة النعمة التي بها تصير ثمارها مقدسة للرب. السنة الأولى هي البشرية في جنة عدن، والثانية تحت الناموس الطبيعي إلى مجيء موسى النبي، والثالثة تحت الناموس الموسوي، والرابعة سنة النعمة الإلهية حيث جاء مخلص العالم. به صارت الثمار قُدس للرب.

❖ أرأيت كيف أن السيد المسيح يوضح أنه مهتم بأغصانه، إذ أظهر أنه عمل هذا العمل ليس احتياجًا إلى خدمتهم، لكن لكي ينجحوا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**اثبتوا فيّ، وأنا فيكم،**

كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة،

كذلك أنتم أيضًا إن لم تثبتوا فيّ". **[٤]**

كثيرًا ما نتحدث عن الحياة الإيمانية إنها التصاق بربنا يسوع، لكن هذا في عيني السيد ليس كافيًا. إنه يطالبنا ويعدنا بما أعظم، أن نحيا فيه، ويسكن هو فينا. إيماننا الحي هو خبرة "في المسيح"، التعبير الذي يكرره الرسل في رسائلهم باستمرار.

كلمة "**الثبوت**" محببة جدًا لدى القديس يوحنا، وردت في العهد الجديد ١١٢ مرة، منها ٦٦ مرة في إنجيل معلمنا يوحنا ورسائله: ٤٠ مرة في إنجيله و٣٣ مرة في رسالته الأولى و٣ مرات في رسالتيه الثانية والثالثة. فقد جاء السيد المسيح لكي يتمتع المؤمنون بالثبوت فيه، فتبقى علاقتهم به ليست وقتيه بل أبدية. في العهد القديم نقرأ عن عمل الروح في حياة الأنبياء والملوك وغيرهم في فترات

وقتية. أما في العهد الجديد فلم يأتِ السيد، ولا أرسل روحه القدوس ليقدم إشراقات وقتية، كما ادعي بعض الفلاسفة، وإنما للثبوت الدائم فيه. فإن كان يقيم من مؤمنيه أغصانًا إنما ليؤكد موضعها فيه، فيثبتون فيه (١ يو ٢: ٦) وفي الحق (٢ يو ٢)، وفي الحياة (١ يو ١٥: ٣). هذه وصية إلهية، بل وعد إلهي يلزمنا أن نتمسك به.

كما أن الغصن يشارك طبيعة الشجرة وينتعش بعصارتها ويحيا بحياتها هكذا يليق بنا أن نكون شركاء في الطبيعة الإلهية ونسلك بحكمته، ونحمل قوته وإمكانياته، ونتطهر ببرّه وقداسته.

❖ ولكي لا ينفصلوا عنه بسبب جبنهم، شدد أنفسهم عند استرخائها بالخوف، وألصقهم فيه، وبسط لهم فيما بعد آمالاً صالحة، في المستقبل. فإن الأصل باقٍ، أما النزع أو البقاء فخاص بالأغصان. فإنه إذ يحثهم بالطريقين، بالأمور المبهجة أو المؤلمة، فإنه يطلب أولاً ما يلزم عمله من جانبنا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أنا الكرمة، وأنتم الأغصان،
الذي يثبت فيّ، وأنا فيه، هذا يأتي بثمرٍ كثيرٍ،
لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا". [٥]

يقدم السيد المسيح نفسه سرّ حياة وثمار المؤمن فهو المخلص والصديق والطريق والباب والحياة والقيامة والمعزي والراعي الصالح.

يطالبنا أن نثبت فيه بالإيمان، فيثبت فينا بروحه القدوس وبتقديم جسده ودمه المبذولين طعامًا وشرابًا لنا. عليه نعتمد، وبه نثق، وبالشركة معه نحيا. هكذا نلتصق به، وهو بنا بسكناه فينا بروحه القدوس. نحن نعتمد عليه، لا كما يرتمي الفرع على حائط يسنده، وإنما كغصنٍ لا قيمة له بدون الجذر. هكذا يكشف مسيحنا عن قصده الإلهي من تجسده، بل ومن جهة الإنسان، وهو أن يتمتع المؤمن بالحياة الحقيقية من المنبع الإلهي بغير توقف.

الثبوت فيه أمر اختياري، لكنه لازم للمؤمن، بدونه لن يتمتع بثمرٍ روحيٍ، هو شرط قاطع؛ إما ثبوت فإثمار، وإلا فلا إثمار قط! ليس من حل وسط بين الأمرين.

❖ ينسب القديسون كل شيء إلى الرب. فلنتعلم أننا لا نستطيع أن نصنع شيئًا بدون الرب؛ يقول

[1] *Homilies on St. John, 67:1.*

الرب: "إن لم تثبتوا فيّ لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (راجع يو ١٥:٥).

ربما يعترض أحد على ذلك، قائلاً: إذ أنسب كل شيء للرب، فماذا يخصني أنا؟ لنفحص في كل موضع ما يخصنا حتى لا يمتزج مع ما يأتي من قبل الرب.

يقول: "**ضع لي يا رب ناموسًا في طريق حقوقك**" (مز ١١٩: ٣٣). ما يخصنا نحن "**أطلبه في كل حين**" (مز ١١٩: ٣٣).

مرة أخرى أطلب من الله: "أعطني حكمة، فأفحص ناموسك" (مز ١١٩: ٣٤).

مرة ثالثة أطلب: "اهدني في سبيل وصاياك" (مز ١١٩: ٣٥)، ماذا يخصني؟ يشير إلى ما يخصني بالكلمات: "**فإني إياها هويت**" (مز ١١٩: ٣٥)...

لنطلب ما يأتينا من الله لكي نحصل عليه، ولنعده أيضًا بما يعتمد علينا نحن، ولا نتخلى عن وعدنا، حتى لا ننقض الميثاق الذي يربطنا بالرب.

هذا ما يقوله المرتل "**أمل قلبي إلى شهاداتك، لا إلى الطمع**" (مز ١١٩: ٣٦)، عالمًا بأن الطمع هو رذيلة ذات نفوذ قوي تؤله مكاسب الأشرار، وقد دعاها الرسول: "عبادة الأوثان" (كو ٥: ٣). هذا ونتعلم من هذه العبارة أن الطمع لا يتفق مع شهادات الرب.

العلامة أوريجينوس

"**إن كان أحد لا يثبت فيّ، يُطرح خارجًا كالغصن،**
فيجف ويجمعونه، ويطرحونه في النار، فيحترق". **[٦]**

هنا يحذرنا من الرياء، إذ يوجد من لهم اسم المسيح دون الشركة معه والثبوت فيه، مثل هؤلاء يشبهون أغصانًا تثقل على الشجرة بلا نفع، ولا حاجة إليها. فإنهم إذ رذلوه عمليًا، يصيرون مرذولين، وإذ رفضوا الشركة معه، لا يتمتعون بالحياة الخفية فيه، ولا يستحقون إلاَّ الطرح في النار لأنهم جافون. النار هي أنسب مكان للخلاص من الأغصان الجافة.

لا تُقدر قيمة أي فرع بالخشب الذي فيه، لأنه إذا عُزل عن الأصل لا يُستخدم في شئ إلا للنار؛ أما ثبوته في الأصل، واتصاله الخفي فيه فيقيم منه فرعًا حيًا يزهر ويثمر، لأنه يحمل حياة. بهذا يصير موضع كرامة الكرام وشغله الشاغل ليأتي بمزيد من الثمار.

بحديثه هنا لا يرعبنا مسيحنا، الكرمة الحقيقية، إنما يوجه أنظارنا إلى عهده الأمين، فهو المتكفل بذلك حسب غني نعمته وسخائه الإلهي الفائق. هذا الذي "به كان كل شيء، وبغيره لم يكن شيء مما كان " (يو ١: ٣).

"**يطرح خارجًا**" إذ يعزل الشخص نفسه عن الكرمة يخرج من دائرتها، فلا يحمل فيه حياة المسيح، ولا يشرق فيه نوره، ولا يتمتع بغنى نعمته وقوته، ولا يعمل روحه القدوس فيه. هذا هو حال المسيحي الذي بعد أن صار غصنًا في الكرمة يعتد بإمكانياته ومواهبه وقدراته وفكره الخاص، فيطرح نفسه خارجًا، ويصير فرعًا جافًا مبتورًا لا يصلح إلا للحريق.

يصف الرب نفسه في حزقيال حال الغصن الجاف بقوله: "كل إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المتغربين في إسرائيل إذا ارتد عني (عزل نفسه عن الكرمة)، وأصعد أصنامه (أي اعتد بذاته) إلي قلبه، ووضع معثرة إثمه تلقاء وجهه، ثم جاء إلي النبي ليسأله عني، فإني أنا الرب أجيبه بنفسي. وأجعل وجهي ضد ذلك الإنسان، وأجعله آية ومثلاً، وأستأصله من وسط شعبي" (حز ١٤: ٦-٨).

❖ يقول السيد المسيح لتلاميذه: "**بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا**". إنه لخسارة عظيمة ألا يقدر الغصن أن يعمل شيئًا، ولكن السيد المسيح لم يوقف العقوبة عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، لأنه قال: "**يطرح خارجًا كالغصن فيجف**". وبقوله: "**ويطرحونه في النار فيحترق**" يوضح أن الذين يقاومونه يحترقون.

❖ يقول: "**يطرح خارجًا**"، فلا يعود يتمتع بيد المزارع. "إنه يجف"، بمعنى إن كان ليس له جذور فإنه يتعرض للخطر، إن كانت لديه أية نعمة يتعرى منها، وبهذا يُحرم من كل عون وحياة.

وما هي النهاية؟ يُطرح في النار. لكن لا يكون هذا حال من يثبت فيه. عندئذٍ يشير إلى ما هو الذي يثبت قائلاً: "إن ثبت كلامي فيكم". فإنه إذ يقول: "إن سألتم شيئًا باسمي أفعله لكم" يضيف: "إن كنتم تحبونني احفظوا وصاياي (يو ١٤: ١٥). هنا: "**إن كنتم تثبتون في، ويثبت كلامي فيكم، تسألون لأنفسكم ما فيكون لكم**". قال هذا ليظهر من جانب أن الذين يتآمرون ضده يحترقون، ومن جانب آخر فإنه يظهر للآخرين أنهم لا يُقهرون، إذ يقول: "في هذا يتمجد أبي أنكم تأتون بثمرٍ كثيرٍ، وتصيرون تلاميذي"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنك لا تتقبل درعًا فاسدًا بل درعًا روحيًا!

منذ الآن تُزرع في فردوس غير منظور!

إنك تتسلم اسمًا جديدًا لم يكن لك من قبل، إذ كنت تدعى موعوظًا، أما الآن فمؤمنا!

[1] *Hom. 76. PG 59: 448.*

من الآن فصاعدًا تُطعم في زيتونة روحية (رو ١١: ٢٤)، إذ قُطعت من الزيتونة البرية، وطُعمت في الزيتونة الجيدة. نُزعت من الخطايا إلى البرّ، ومن الدنس إلى النقاوة.

ها أنت تصير شريكًا في الكرمة المقدسة (يو ١٥: ١، ٤-٥)! حسنًا فإن ثبت في الكرمة تنمو كغصنٍ مثمرٍ، وإن لم تثبت فيها تهلك بالنار.

إذن ليتك تحمل ثمرًا باستحقاق! فلا يسمح اللّه أن يحل بك ما حل بشجرة التين العقيمة (مت ٢١: ١٩)، إذ لم يأت بعد المسيح (للدينونة) ولا لعننا بسب عُقمنا ليته تكون لنا القدرة أن نقول: "أما أنا فمثل زيتونة مثمرة في بيت اللّه، توكلت على رحمة اللّه إلى الدهر والأبد" (راجع مز ٥٢: ٨). وهنا لا نفهم الزيتونة بمعناها المادي، بل نفهمها ذهنيًا بكمال النور.

إن كان اللّه يزرع ويسقي[١]، فإنه يليق بك أن تأتى بثمارٍ. اللّه يهب نعمته، وأنت من جانبك تتقبلها وتحافظ عليها. لا تحتقر النعمة من أجل مجانيتها، بل اقبلها واكتنزها بورعٍ[٢].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ يصلح الغصن فقط لأحد أمرين: إما في الكرمة أو في النار. إن لم يكن في الكرمة فمكانه يكون النار. ولكي يهرب من النار يلزمه أن يكون في الكرمة[٣].

القديس أغسطينوس

"إن ثبتم فيّ، وثبتت كلمتي فيكم،
تطلبون ما تريدون فيكون لكم". [٧]

يربط السيد المسيح بين الثبوت فيه والثبوت في كلمته، فإنه خلال إنجيله نتمتع بالوحدة الصادقة. هذا الإنجيل المترجم عمليًا بحفظ الوصية الإلهية وممارستها والفرح بها [١٠-١١].

الثبوت في كلمة المسيح هو لقاء دائم مع الكلمة، وتعرف على شخص السيد المسيح خلال كلمته، فنثبت فيه بكل قلبنا وفكرنا ومشاعرنا وأحاسيسنا وإرادتنا. ليس ما يقدر أن يفصلنا عنه قط!

إنه يقدم لنا وعدًا ثابتًا أن كل ما نريده حسب مسرته يكون لنا خلال ثبوتنا فيه. وما هي طلبتنا سوى أن نصير أيقونته، ونحمل مشيئته فينا، ونلتقي به، ونتمتع بالشركة في مجده.

ثبوتنا في المسيح وفي كلمته، وبالتالي ثبوته فينا، يجعلنا بالحق رجال صلاة نعرف ماذا نطلب،

---

[١] يقول الرسول: "أنا غرست وأبلوس سقى، لكن الله ينمي" (١ كو ٣: ٦)، فنسب القديس كيرلس الغرس والسقي للّه العامل الذي ينمي الزرع.

[٢] مقال ١: ٤.

[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 81: 3.*

وننعم في يقين ما نطلبه، لأنه حسب مسرة الله أبينا. وكأن سرّ قوة الصلاة هو ثبوتنا فيه وسكناه فينا.

❖ ألا ترون أن الابن لم يساهم بأقل من الآب في اهتمامه بالتلاميذ؟ الآب هو الذي يقّلم من جانب، ويحفظهم فيه من الجانب الآخر. الثبوت في الأصل (الجذر) هو الذي يعطي الأغصان ثمارًا.

إن ما لا يّقلم وإن ثبت في الأصل يحمل ثمرًا لكن ليس بالقدر اللائق، أما الذي لا يثبت في الأصل فلا يأتي بثمرٍ نهائيًا، لكن لا يزال التقليم يظهر أنه خاص بالابن والثبوت في الأصل خاص بالآب الذي ولد الأصل. ألا ترون أن كل الأشياء عامة سواء التقليم والإمكانية بالتمتع بما هو من الأصل؟[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ حقًا تكون لنا طلبات لأمورٍ معينة عندما نكون في المسيح، وتكون لنا طلبات أخرى لأننا لا نزال في هذا العالم... لذلك إذ نثبت فيه، عندما تثبت كلمته فينا، نطلب ما نريد فيكون لنا. لكن **إن كنا نسأل ولم يتحقق سؤالنا، فإن ما نسأله لا يتعلق بثبوتنا فيه، بل برغبات الجسد الملحة وضعفاته، التي ليست في المسيح، والتي لا تثبت كلمات المسيح فيها**. فبخصوص كلماته، في كل الأحوال، هي تنتمي إلى تلك الصلاة التي علمنا إياها حيث نقول: "أبانا الذي في السماوات" (مت ٦: ٩). ليتنا لا نسقط من كلمات هذه الصلاة ومعانيها في طلباتنا، فكل ما نسأله يكون لنا... أما إن كانت كلماته تسكن فقط في الذاكرة، وليس لها موضع في الحياة، فلا يُحسب الغصن ثابتًا في الكرمة، إذ لا يستمد حياته من الأصل[2].

القديس أغسطينوس

"**بهذا يتمجد أبي، أن تأتوا بثمرٍ كثيرٍ، فتكونون تلاميذي**". **[٨]**

هنا يكشف السيد المسيح عن ثمر الثبوت فيه العجيب ألا وهو:

* **تمجيد الآب**، حيث يُعلن حب الآب الفائق في حياتنا، ويتجلى بهاؤه على أعماقنا، ونمارس بالحق بنوتنا له، "حتى متى أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو".

* **الثمر المتزايد**، حيث تتحقق كل طلباتنا في الصلاة.

* نتمتع **بالتلمذةٍ له**، فنصير رجال الله، نشهد له لنرد كل نفس إليه، لكي يصير الكل "أهل بيت الله" (أف ٢: ١٩).

---

[1] *Hom. 76. PG 59: 447- 448.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 81: 4.*

❖ أترون كيف أن الذي يحمل ثمرًا هو تلميذ؟ ولكن ماذا: "**بهذا يتمجد أبي؟** يعني: "أنه يُسر عندما تثبتون فيه، حينما تأتون بثمرٍ"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يرى البعض أن الكلمة اليونانية *doxazein* تعني حرفيًا: "أكثر بهاءً أو وضوحًا" في نظر الناس، كما تعني "يتمجد".

❖ منه (من المسيح) مثل هذه النعمة، ولهذا فإن المجد ليس مجدنا بل مجده هو... هنا يتمجد الآب أننا نحمل ثمرًا كثيرًا، وأننا صرنا تلاميذ المسيح. بمن نحن صرنا هكذا إلاَّ بذاك الذي رحمته تسبق فتعمل فينا؟ نحن عمله، مخلوقون في المسيح يسوع لأعمال صالحة (أف ٢: ١٠)[2].

القديس أغسطينوس

٢. محبتهم لبعضهم البعض

"**كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا.**

اثبتوا في محبتي". **[٩]**

يحدثنا السيد المسيح الذي هو الحب عينه، عن الحب من أربعة جوانب:

محبة الآب له [٩].

محبته هو للآب [١٠].

محبة المسيح لنا [٩].

محبتنا له وثبوتنا فيها [٩].

بهذا يكشف السيد المسيح أن أساس كل عمل إلهي هو "الحب" الذي بين الآب والابن، هذا يوضح أن محبة الله لنا لا تقوم على عاطفة مؤقتة، لكنها ثمرة حب إلهي سرمدي بين الآب والابن، وأخيرًا فإن المؤمنين يلتزمون من جانبهم أن يحملوا ثبوتًا دائمًا في الحب. فكما أنه لا يجد ما يوقف قط حب الله لنا يلزمنا أن نحمل ذات السمة في حبنا له. هذا ما يطلبه السيد المسيح لأجلنا: "ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم" (يو ١٧: ٢٦).

يعلن حبه لهم ليؤكد لهم أنه وإن كان سيتركهم جسديًا سواء بموته أو فيما بعد بصعوده، لكنه

---

[1] *Hom. 76. PG 59: 448.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 82: 1.*

يحبهم بلا حدود. يحبهم كما يحبه الآب، مع أنهم ليسوا أهلاً للحب كما يليق.

السيد المسيح هو الابن الوحيد المحبوب لدى الآب، في محبته له أعطاه كل شيء، لأنه واحد معه في ذات الجوهر، كما سلمه خلاص البشرية. فجاء عمل المسيح الخلاصي موضوع حب الآب وسروره. خلال الحب المتبادل بين الآب والابن يوصينا السيد المسيح أن نحبه ونثبت في محبته.

الثبوت في محبته يحمل معنى اختفائنا فيه، لنتمتع بحبه بلا انقطاع، ونشاركه سمة الحب، ونتعرف عمليًا على أعماق أسراره بممارستنا الحياة فيه.

❖ إذن هنا ترون ما هو مصدر الأعمال الصالحة. من أين تكون لنا (هذه الأعمال) أليست من الإيمان العامل بالمحبة (غلا ٥: ٦)؟ وكيف يمكننا أن نحب؟ أليس لأنه أحبنا أولاً؟

أعلن الإنجيلي نفسه بوضوحٍ شديدٍ في رسالته: "نحن نحب الله لأنه أحبنا أولاً" (١ يو ٤: ١٩). لكنه حين يقول: "**كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا**" [٩] لا يشير إلى مساواة بين طبيعته وطبيعتنا كما هي بينه وبين الآب، بل يشير إلى النعمة التي للوسيط بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح (١ تي ٢: ٥)... فإن الآب بالحقيقة أيضًا يحبنا ولكن فيه. هنا يتمجد الآب أننا نحمل ثمرًا في الكرمة، أي في الابن، وبهذا نصير تلاميذه[1].

القديس أغسطينوس

"**إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي،**
كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي،
وأثبت في محبته". **[١٠]**

إذ حمل السيد المسيح رسالة الخلاص ثبت كابن الإنسان في محبة الآب خلال مثابرته في العمل. "لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته" (إش ٤٢: ٤). لقد حفظ وصية الآب، لا بتسجيلها فقط بالروح القدس خلال النبوات في العهد القديم، وإنما أيضًا بتسجيلها عمليًا حين أخلى ذاته، وأخذ صورة العبد، وصار في شبه الناس، ووضع نفسه حتى الموت موت الصليب (في ٢: ٥-٨). حفظ الوصية بالطاعة الكاملة، وقبول الآلام بمسرة (عب ٥: ٨؛ ١٢: ٢). حقق الوصية بالكامل حتى أعلن على الصليب: "قد أكمل" (يو ١٩: ٣٠). ونحن خلال ثبوتنا فيه، وشركتنا في سماته نحفظ الوصية، لا عن ظهر قلب، ولا بالتأمل فيها ودراستها فحسب، وإنما بممارستها في سهرٍ دائمٍ وتدقيقٍ وشوقٍ حقيقيٍ داخليٍ لتتمتع بها. فالوصية ليست ثقيلة، وإنما تحمل

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 82: 2.*

في داخلها قوة التنفيذ بتهليل وبهجة، لأنها تخفي في داخلها "الكلمة" نفسه كقول **القديس مرقس الناسك**. الوصية الإلهية هي مفتاح السماء، بها نتمتع بمسيحنا الكنز السماوي.

علامة الثبوت في محبته حفظ وصاياه، كما يحفظ هو وصايا الآب ويتمم مشيئته. فإننا لن نتمتع بالحب بدون الطاعة والتسليم.

❖ انظر كيف يشدد السيد المسيح تلاميذه أيضًا عندما يقول: "**اثبتوا في محبتي**". فإن قلت كيف يكون هذا؟ أجابك: "**إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي، كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي، وأثبت في محبته**". تأمل كيف يخاطبهم السيد المسيح بسلطان، لأنه لم يقل: "اثبتوا في الحب الذي لأبي"، بل قال: "اثبتوا في محبتي".

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**اثبتوا في محبتي**" [٩]. كيف نثبت؟ لتصغوا إلى ما يلي ذلك: "**إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي**" [١٠].

يجلب الحب حفظ وصاياه، لكن هل حفظ وصاياه يجلب حبًا؟

من يقدر أن يشك في أن الحب هو الذي يسبق؟ فإن من ينقصه الحب ليس له الأساس السليم لحفظ الوصايا. بهذا فإن قوله: "**إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي**" لا يظهر مصدر الحب بل الوسيلة التي بها يُعلن الحب. وكأنه يقول: لا تظنوا أنكم تثبتون في محبتي إن كنتم لا تحفظون وصاياي. فإنه فقط إن حفظتم إياها تثبتون...

إذن لا يخدع أحد نفسه بالقول أنه يحبه إن كان لا يحفظ وصاياه. فإننا نحبه قدر قياس حفظنا لوصاياه، وكلما قل حفظنا لها يقل حبنا له[1].

القديس أغسطينوس

يؤكد **القديس أغسطينوس** أن محبة المسيح لنا قائمة وتطلب خلاصنا، وهي المبادرة والتي تحثنا على حفظ وصاياه؛ أما عدم حفظنا للوصية فيعلن عن نقص حبنا نحن له، وعدم ثبوتنا في محبته المبادرة[2].

"كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم،
ويكمل فرحكم". [١١]

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 82: 3.*
[2] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 82: 3.*

في حديثه الوداعي هنا يكرر تعبير "**كلمتكم بهذا**" سبع مرات، وهو ذات التعبير الذي يعلنه حزقيال النبي تكرارا: "أنا الرب تكلمت" (حز ٥: ١٣). وكأن الذي يحدثهم هنا هو ذاك الذي تحدث إليهم خلال الأنبياء منذ قرون.

نتمتع بالوعد الإلهي كأغصان في الكرمة، نثبت في المسيح الكرمة الحقيقية، ونثبت في كلمته، وفي محبته، وأيضًا في فرحه. لقد كمل فرح القديس يوحنا المعمدان حين رأى العريس قادمًا وسمع صوته، حيث يلتقي بعروسه خلال الصليب (يو ٣: ٢٩). فرح المسيح أن يبذل حياته من أجل عروسه، ويقتنيها عذراء عفيفة مشتراة بالدم الثمين. وها هو يدعونا للتمتع بفرحه، حيث نرى في خلاصنا وخلاص اخوتنا كمال الفرح السماوي.

في العهد القديم ارتبط الخلاص بالفرح، فكان داود المرتل يردد: "رد لي بهجة خلاصي" (مز ٥١). ويتطلع إشعياء النبي إلي مفدي الرب الراجعين إليه، إذ "يأتون إلي صهيون، بترنمٍ وفرحٍ أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانها، ويهرب الحزن والتنهد" (إش ٣٥: ١٠). يرى الطبيعة ذاتها: الجبال والآكام وكل شجر الحقل تشيد ترنمًا وتصفق بالأيادي (إش ٥٥: ١٢). وفي العهد الجديد كلما اجتمعت الكنيسة في سرّ الإفخارستيا يتناولون الطعام بابتهاج (أع ٢: ٤٦).

إذ كان في طريقه للصليب بسرور يوصي تلاميذه أن يثبتوا في فرحه وهم يشاركونه الصليب، بهذا يكمل فرحهم.

❖ نطق السيد المسيح بهذه الأقوال لتلاميذه موضحًا لهم أن المصائب الحاضرة ليست مؤهلة للحزن بل للتلذذ بها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ما هو فرح المسيح فينا سوى أنه يُسر بأن يفرح بنا؟ وما هذا الفرح الذي لنا الذي يقول أنه يصير كاملاً إلاَّ بأن تكون لنا شركة معه؟ لهذا قال للطوباوي بطرس: "إن لم أغسلك ليس لك نصيب معي" (يو ١٣: ٨). إذن **فرحه فينا هو النعمة التي يمنحنا إياها، وهي أيضًا فرحنا.**

علاوة على هذا، فقد فرح منذ الأزل عندما اختارنا قبل تأسيس العالم (أف ١: ٤). ولا نستطيع القول بأن فرحه لم يكن كاملاً، لأن فرح الله لم يكن في أي وقت غير كاملٍ.

لكن هذا الفرح لم يكن فينا، لأنه يُمكن أن يكون هذا بالنسبة لنا نحن الذين لم نكن موجودين. بل وحتى عندما بدأ وجودنا لم يبدأ فينا. لكن (هذا الفرح) كان فيه دائمًا، هذا الذي في الحق غير القابل للسقوط الذي **لسابق معرفته فرح بأننا سنكون له**، بهذا كان له فرح فينا، هذا الذي كان كاملاً، إذ

فرح بسابق معرفته وسابق تعيينه لنا[1].

❖ فرحه بخلاصنا الذي كان دائمًا فيه بسابق معرفته وسابق تعيينه لنا بدأ يكون فينا عندما دعانا، وصار لائقًا أن يُدعى هذا الفرح فرحنا، إذ به نحن أيضًا نُطوَّب. لكن هذا الفرح الذي يزداد وينمو ويتقدم بمثابرة لكماله. وبهذا فإنه يكون له بدايته في الإيمان بالتجديد (الميلاد الجديد) وكماله بالمكافأة عندما نتقدم...[2]

❖ **فرحي دائمًا كامل حتى قبل دعوتكم حين كنتم في سابق معرفتي بأنني سأدعوكم**، لكنه وجد له موضعًا فيكم أيضًا، حين تشكلتم حسب ما سبق فعرفته عنكم. "**يكمل فرحكم**"، إذ ستطوبون، الأمر الذي لستم عليه بعد، كما أنكم الآن أنتم مخلوقون، أنتم الذين لم يكن لكم وجود سابق[3].

القديس أغسطينوس

"**هذه هي وصيتي:**

أن تحبوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم". **[١٢]**

وصية السيد المسيح الأخيرة والأساسية في حديثه الوداعي هي "المحبة"، وقد ربط خلال هذا الحديث بين الوصية والحب. إن أدركنا مفهوم المحبة في حياتنا المسيحية، فإننا لا نحتاج إلى وصية أخرى. لهذا يقول **القديس أغسطينوس:** "حب الله وأفعل ما شئت". حقا لقد أساء البعض فهم هذه العبارة، واستخدموها كتصريح للحياة المتسيبة، لكن من يدرك "الحب" لا يقدر إلا أن يسلك في المسيح يسوع حسب فكره الإلهي. لنحب ذات حب المسيح للخطاة، لكي يصيروا أيقونته الحية، الخليقة الجديدة في المسيح يسوع.

وكما يقول الرسول بولس: "من أحب غيره فقد أكمل الناموس" (رو ١٣: ٨)، "المحبة هي رباط الكمال" (كو ٣: ١٤). بل والسيد المسيح نفسه إذ تحدث عن وصيتي المحبة لله والمحبة للقريب يقول: "بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء" (مت ٢٢: ٤٠).

أدرك القديس يوحنا الحبيب أن الحب هو عصب الوصية. وكما يقول **القديس چيروم** أنه في شيخوخته المتأخرة كان يُحمل القديس يوحنا إلى اجتماعات المؤمنين العامة، وكان حديثه دومًا: "يا أولادي حبوا بعضكم بعضًا". ولما سُئل عن استمراره على ذلك، أجاب: "لأن هذه هي وصية الرب،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 83: 1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 83: 1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 83: 1.*

وفي حفظها وحدها كفاية[1]".

❖ يتحقق الثبوت بالحب، والحب بحفظ الوصايا، ووصية السيد المسيح هي أن نحب بعضنا بعضًا، فالثبوت في إلهنا إنما يتكون من الحب الذي نحب به بعضنا بعضًا.

إنه لم يذكر حبًا على بسيط حاله، لكنه أوضح طبيعته فقال: "**كما أحببتكم**"...

مادام الحب أمرًا قديرًا لا يُقاوم، وليس كلمة مجردة، فلنعلنه بأعمالنا.

لقد صالحنا ونحن أعداء؛ فإذ صرنا أحباءه لنثبت هكذا في محبته.

لقد قاد الطريق، فعلى الأقل نتبعه.

أحبنا لا لمصلحة خاصة به (إذ هو لا يحتاج إلى شيء)، فعلى الأقل نحبه من أجل نفعنا.

أحبنا ونحن أعداؤه، فلنحبه على الأقل بكونه صديقنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لماذا يتحدث عن الحب كما لو كانت وصية خاصة؟ ذلك لأن كل وصية هي تخص الحب، والوصايا كلها تضاف إلى وصية واحدة، لأنه أيا كانت الوصية فهي تتأسس على الحب وحده. كما أن أغصانًا كثيرة للشجرة تصدر عن جذرٍ واحدٍ، هكذا فضائل كثيرة تصدر عن الحب وحده. الغصن الذي هو أعمالنا الصالحة لا يكون له تُسغ (السائل داخل أوعية النبات) ما لم يبقَ ملتحمًا بجذر الحب[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ "**هذه هي وصيتي**" [١٢]، كما لو لم توجد وصية أخرى غيرها، فماذا تظنون يا إخوتي؟...

لنتأمل كلمات الرسول: "المحبة هي كمال الناموس" (رو ١٣: ١٠). هكذا حيث يوجد الحب فماذا ينقص؟ وحيث لا يوجد الحب أي شيء يمكن أن يكون نافعًا؟

الشيطان يؤمن (يع ٢: ١٩)، لكنه لا يحب. ليس أحد يحب إن لم يكن مؤمنًا...

من لهم الحب المتبادل يكون لهم الله نفسه هدفًا للحب، هؤلاء بالحق يحبون بعضهم بعضًا، وأيضا **غاية محبتهم لبعضهم البعض هي حبهم لله**. لا يوجد مثل هذا الحب في كل البشر، إذ قليلون من لهم هذا الدافع لحبهم الواحد للآخر، وهو أن يصير الله هو الكل في الكل (١ كو ١٥: ٢٨)[3].

---

[1] *St. Jerome: Common. Gal., Lib 3. c. 6.*
[2] *Hom. 27. Forty Gospel Homilies, PL 76: 1205.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 83: 3.*

القديس أغسطينوس

"ليس لأحد حب أعظم من هذا،
أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه". [١٣]

جاءت هذه الكلمات لا كعظة للدراسة، لكنها وقد قدمت في ليلة صلبه، يعلن ما يكرز به عمليًا، موجهًا أنظارهم نحو الصليب كتجلٍ عملي للحب الإلهي نحو كل بشر، نحو أحبائه، ليس الأبرار، بل الخطاة. وكما يقول الرسول، "ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه" (رو ٥: ١٠). لقد مات مسيحنا حتى من أجل مضطهديه وهو علي الصليب، أو خلال جسده "الكنيسة".

لا يستطيع أحد أن يحب صديقه أكثر من هذا، إذ يضع نفسه لأجله، يضع كل ما لديه. دفعت الصداقة العظيمة التي ربطت بين داود وناثان الأخير أن يُسلم تاج الملك له، لكنه لم يكن قادرًا أن يضع حياته من أجله. أما السيد المسيح فوضع حياته ليس من أجل أحبائه بل ومن أجل أعدائه، طالبًا المغفرة لصالبيه. أعظم برهان على محبته لهم هو بذل ذاته من أجلهم، الأمر الذي لا يفعله إنسان ما على ذات المستوى، لأنه وهو الخالق بذل ذاته عن خليقته المحبوبة لديه جدًا. بذل ذاته عن البشرية وهي معادية له (رو ٥: ٨، ١٠).

❖ "المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان صادق" هي حقًا فضيلة حقيقية، إذ هي "غاية الوصية" (١ تي ١: ٥). بحق قيل أنها "قوية كالموت" (نش ٨: ٦)، إما لأنه لا يغلبها أحد كما لا يغلب أحد الموت؛ أو لأنه في هذه الحياة قياس المحبة هو أنه حتى الموت. كما يقول الرب: "أي حب أعظم من أن يبذل إنسان حياته عن أصدقائه ؟" (راجع يو ١٥: ١٣). أو بالأحرى لأن الموت ينزع النفس عن حواس الجسد، هكذا المحبة تنزعها عن شهوات الجسد. المعرفة هي أمة المحبة، عندما تكون نافعة، لأنه بدون المحبة "العلم ينفخ" (١ كو ٨: ١)، وليس في قياس المحبة تملأ المحبة القلب بالتهذيب، ولا تجد المعرفة شيئًا فارغًا لتنتفخ[1].

القديس أغسطينوس

❖ ليس من أحد يضطهدنا حتى الموت، فكيف إذن نبرهن على حبنا لأحبائنا؟

يوجد أمر ما يلزمنا أن نفعله في أزمنة السلام في الكنيسة لكي نوضح إن كنا أقوياء بما فيه الكفاية حتى أننا نموت من أجل حبنا في أوقات الاضطهاد. يقول يوحنا في موضع آخر: "من له

[1] *Letters, 167:11.*

وسائل الحياة في العالم ويرى أخاه في احتياج ويغلق عنه حنوه في داخله، كيف يثبت محبة الله فيه" (١ يو ٣: ١٧)؟ ويقول يوحنا المعمدان: "من له ثوبان ليعطِ من ليس له" (لو ٣: ١١). فهل الذي لا يعطي ثوبه يسلم حياته؟

تعهد فضيلة الحب في أزمنة الهدوء بإظهار الرحمة، عندئذٍ لا تُقهر في أزمنة الاضطراب.

تعلم أولاً أن تسلم ممتلكاتك لله القدير، وعندئذٍ تسلم نفسك[١].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ ليتنا نقتدي به في مثل هذا الروح من الطاعة الوقورة، لا أن تكون لنا الجسارة أن نقيم مقارنة بينه وبين أنفسنا[٢].

القديس أغسطينوس

"**أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به**". **[١٤]**

دُعي إبراهيم خليل الله أو حبيبيه (إش ٤١: ٨؛ يع ٢: ٢٣)، إذ آمن بالله في طاعة له، فحسب له برًا. ودُعي موسى صديقًا لله (خر ٣٣: ١١)، هذا ما يود أن يتمتع به كل مؤمن خلال الإيمان الحي.

❖ أي شيء أثمن من الصداقة التي يشترك فيها الملائكة تمامًا كالبشر؟ لذلك يقول الرب يسوع: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى يقبلونكم في المظال الأبدية" (لو ١٦: ٩).

الله نفسه يجعلنا أصدقاء عوض كوننا عبيدًا، إذ بنفسه يقول: "أنتم أحبائي إن فعلتم ما أمرتكم به". أعطانا مثالاً للصداقة كي نتبعه.

يلزمنا أن نحقق رغبة الصديق (الرب يسوع)، ونكشف له أسرارنا التي نحتفظ بها في قلوبنا، ولا نتجاهل ثقته. لنريه قلوبنا فيفتح قلبه لنا. لذلك يقول: "قد سميتكم أحباء، لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي" [١٥]. إذن الصديق إن كان صديقًا حقًا لا يخفي شيئًا، بل يسكب نفسه، كما يسكب ربنا يسوع أسرار أبيه.

هكذا من يفعل إرادة الله هو صديقه، ويتكرم بهذا الاسم. **هذا الذي له فكر واحد معه هو أيضًا صديقه، إذ توجد وحدة فكر بين الأصدقاء.** وليس أحد مكروه أكثر من إنسان يسيء إلى الصداقة[٣].

---

[1] *Hom. 27. Forty Gospel Homilies. PL 76: 1205.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 84: 2.*
[3] *Duties of the Clergy, 3: 22: 135 – 136.*

القديس أمبروسيوس

"لا أعود أسميكم عبيدًا،
لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده،
لكني قد سميتكم أحباء،
لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي". [١٥]

لم يقف الأمر عند بذل ذاته عنهم، وإنما أقام عهدًا معهم ليصيروا أحباء، يتمتعون بمعرفة أسراره، وليسوا عبيدًا.

يحمل لسانه ناموس اللطف والحنو، فيدعوهم هنا أحباء، وبعد قيامته يقول: "اذهبوا إلى إخوتي" (يو ٢٠: ١٧)، كما يقول لهم: "يا غلمان (أبنائي المحبوبين) هل عندكم طعامًا؟" (يو ٢١: ٥). أما هم فمن جانبهم يدعون أنفسهم عبيدًا له كما في ١ بطرس ١: ١. كلما قدم لنا كرامة يلزمنا نحن من جانبنا أن نكرمه بالأكثر. كلما ارتفعنا في عينيه، نشعر بالأكثر بانسحاقنا أمامه.

ليس من وجه للمقارنة بين العبد والصديق، فقد يحب السيد عبده ويترفق به، لكنه لا يسمح له بمشاركته أسراره الخاصة. العبد يتقبل الأوامر الصادرة من سيده، وليس له حق الحوار بل يلتزم بالتنفيذ، لا يعرف ما وراء هذه الأوامر من هدف في ذهن سيده، له أن يطيع طاعة عمياء.

كأحباء لهم لم يقدم لهم الوصايا من عرشه، بل نزل إليهم ليتحدث معهم، فيدركوا أنهم في قلبه، لهم تقديرهم الخاص في أعماقه. بنزوله إليهم أنهى عهد العبيد، بانتهاء الحرف القاتل للناموس، وجاء بنا إلى عهد الحب الفائق حيث ننعم بالبنوة لله خلال دم الابن الوحيد الجنس، وذلك بعمل روحه القدوس في مياه المعمودية. هكذا رفعنا وجدد خلقتنا لنصير أيقونته، لنا حق التمتع بمعرفة الآب، وإدراك أسراره الإلهية.

❖ عندما رأى ربنا يسوع المسيح أن تلاميذه قد اقتربوا من قبولهم البنوة، ويعرفوه ويتعلموا من الروح القدس، قال لهم: "لا أعود أسميكم عبيدًا... لكني قد سميتكم أحباء، لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي" (يو ١٥: ١٥).

فالذين أدركوا ما قد آلوا إليه في المسيح يسوع، صرخوا قائلين: "لم نأخذ روح العبودية أيضًا للخوف بل أخذنا روح التبني الذي به نصرخ يا آبا الآب" (راجع رو ٨: ١٥).

فإن فشل الإنسان في إظهار استعدادٍ كاملٍ وغيرةٍ للقيام (من الخطية)، فليعلم مثل هذا أن مجيء ربنا ومخلصنا يكون دينونة عليه. لذلك قال سمعان (الشيخ) منذ البداية: "إن هذا وُضع لسقوط وقيام

كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تُقاوم" (لو ٢: ٣٤). قال الرسول من بعده: "لهؤلاء رائحة موت لموت، ولأولئك رائحة حياة لحياة" (٢ كو ٢: ١٦)[1].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ إنه يُدخل اسم "**أحباء**" بطريقة يسحب بها اسم "**عبيد**"، وليس كمن يضم كليهما في تعبيرٍ واحدٍ، وإنما الواحد يحتل الموضع الذي يتخلى عنه الآخر.

ماذا يعني هذا؟... إنه يوجد نوعان من الخوف، يُنتجان نوعين من الخائفين، هكذا يوجد نوعان من الخدمة، تنتجان نوعين من الخدم. يوجد خوف يطرده الحب الكامل (١ يو ٤: ٢٨) ويوجد خوف آخر طاهر يبقى إلى الأبد (مز ١٩: ٩). **الخوف الذي ليس فيه حب، يشير إليه الرسول عندما يقول:** "**إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضًا للخوف**" (رو ٨: ١٥). لكنه أشار إلى الخوف الطاهر عندما قال: "لا تستكبر بل خف" (رو ١١: ٢٠).

في ذلك الخوف الذي يطرده الحب خارجًا توجد أيضًا الخدمة المرتبطة به، فإن الرسول يربط الاثنين معًا، أي الخدمة والخوف، إذ يقول: "إذ لم تأخذوا روح العبودية (الخدمة) للخوف". مثل هذا الخادم يرتبط بهذا النوع من الخدمة هذا الذي كان أمام عيني الرب عندما قال: "**لا أعود أسميكم عبيدًا، لأن العبد لا يعلم ما يعمله سيده**". بالتأكيد ليس العبد المتسم بالخوف الطاهر، الذي يُقال عنه: "أيها العبد الصالح، أدخل إلى فرح سيدك"، وإنما العبد الذي يتسم بالخوف الذي يطرده الحب خارجًا، والذي قيل عنه في موضع آخر: "العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما الابن فيبقى إلى الأبد" (يو ٨: ٣٥).

إذن حيث أعطانا سلطانًا أن نكون أبناء الله (يو ١: ١٢)، ليتنا لا نكون عبيدًا بل أبناء. فبطريقٍ حقيقيٍ عجيبٍ لا يوصف يكون لنا نحن العبيد السلطان ألا نكون عبيدًا.

حقًا إننا عبيد بالخوف الطاهر الذي يميز العبد الذي يدخل إلى فرح سيده، ولسنا عبيدًا بالخوف الذي يُطرد والذي يخص من لا يسكن في البيت إلى الأبد.

لنضع في ذهننا أن الرب هو الذي جعلنا قادرين أن نخدم ليس كعبيدٍ لا يعرفون ما يعمل سيدهم، ولا كمن عندما يصنع عملاً صالحًا يتعالى، كما لو كان قد فعله بنفسه وليس بربه، وهكذا يتمجد لا في الرب بل في ذاته، خادعًا بذلك نفسه إذ يفتخر كمن لم ينل شيئًا (١ كو ٤: ٧).

ليتنا أيها الأحباء لكي ما نصير أحباء الرب نعلم ما يعمله سيدنا. فإنه هو الذي جعلنا ليس فقط

[1] *Philokalia, Book 1.*

بشرًا بل وأبرارًا، ليس نحن الذين جعلنا أنفسنا هكذا[1].

❖ لا تقل: قبل أن أومن كنت أصنع أعمالاً صالحة ولذلك اختارني، فإنه أية أعمال صالحة تسبق الإيمان، إذ يقول الرسول: "وكل ما ليس من الإيمان فهو خطية" (رو ١٤: ٢٣)[2].

❖ إذن انظروا أيها الأحباء، إنه لم يختر الصالحين، وإنما جعل المختارين صالحين. "**أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم**" (١٦). أليس هذا هو الثمر الذي سبق فقال عنه: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٥)؟ لقد اختارنا وعيننا أن نذهب ونأتي بثمر، وبذلك ليس من ثمر يكون لنا لكي نحثه على اختيارنا... إننا نذهب لنأتي بثمر، وهو نفسه الطريق الذي فيه نذهب، والذي عيننا لنذهب فيه. هكذا هي رحمته للكل[3].

❖ ليدم الحب، إذ هو نفسه ثمرنا.

هذا الحب في الوقت الحاضر يكمن في شوقنا وليس في كمال تمتعنا به، وكل ما نسأله خلال شوقنا هذا باسم الابن الوحيد يهبنا إياه الآب. أما ما نطلبه، ولا يخص خلاصنا فلا نظن أننا نطلبه باسم المخلص. فإننا نطلب باسم المخلص ما هو بالحقيقة يخص طريق خلاصنا[4].

القديس أغسطينوس

"ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم،
وأقمتكم لتذهبوا، وتأتوا بثمرٍ،
ويدوم ثمركم،
لكي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي". [١٦]

اختارهم ليس على أساس كفاءتهم أو حكمتهم أو صلاحهم، بل من قبيل حبه ونعمته المجانية. الله هو صاحب المبادرة، اختارهم قبل أن يختاروه هم أو يأخذوا قرارًا بهذا. وكما جاء في سفر التثنية: "إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق بكم الرب، واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم..." (تث ٧: ٦-٨).

إذ اختارهم "أقامهم" *hetheka hymas* أي وضعهم في مركز الخدمة (١ تي ١: ١٢)، متوجًا

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 85: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 86: 2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 86: 3.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 86: 3.*

هامتهم بهذه الكرامة، وواهبًا إياهم ثقته فيهم كسفراء عنه يتسلمون شئون مملكته في هذا العالم. وهم في هذا يلتزمون بالعمل "**لتذهبوا وتأتوا بثمرٍ ويدوم ثمركم**". دعاهم ليحملوا النير في كل موضعٍ، يتنقلون من موضعٍ إلى آخر في العالم كله، لا يعرفون الاستكانة والراحة، بل العمل والجهاد والبذل، لكي يكون لهم ثمر كما في سائر الأمم (رو ١: ١٣). يرى **الأب ثيؤدور أسقف المصيصة** أن الكلمة اليونانية تعني "زرعتكم"، فبكونه الكرمة غرسهم كأغصان فيه.

سرّ نجاح الخدمة أن السيد المسيح هو الذي اختار التلاميذ والرسل وكان عونًا لهم يعمل فيهم وبهم. لذا لاق بمن يخدم في كرم الرب الآتي:

١. أن يغرسه الرب نفسه بيمينه أو يختاره للخدمة.

٢. أن يثبت في الكرمة الحقيقية حتى يثمر ولا يجف.

٣. أن يدرك أنه مدعو للعمل لا للخمول، فإن كان السيد المسيح قد بادر بالحب وباختيار تلاميذه، يلتزم المختارون أن يذهبوا ليعلنوا كمال حب الله للبشرية. مع مطالبتهم بالوحدة يسألهم ألا يلتصقوا ببعضهم بعضًا، بل ينطلقوا للكرازة، يشتركوا في رحلة الكنيسة عبر العالم ليتمتع بالمخلص (مر ١٦: ١٥).

٤. أن ينتظر الثمر بطول أناة ولا ييأس، فإن الذي اختاره هو متكفل بتقديم الثمر الدائم.

٥. أن ينسب كل ثمرٍ أو نجاح للرب.

"**ويدوم ثمركم**" ليس كسائر الفلاسفة الذين تلألأت فلسفتهم إلى حين ثم صارت ماضيًا قد عبر، وإنما ثمرهم هو في كنيسة الله التي لا تقوى عليها قوات الجحيم. يتسم المؤمن المحب **بالاستمرارية في كل شيء**، استمرارية في التمتع بكلمة الله [٧]، واستمرارية في محبة المسيح [٩–١٠]، واستمرارية في فرح المسيح [١١]، واستمرارية في الإثمار [١٦].

علامة حبه ليس فقط أنه اختارهم وأقامهم للعمل وجعل ثمرهم مستمرًا، وإنما وهبهم أيضًا نعمة لدى الآب، فكل ما يطلبونه باسمه منه ينالونه.

❖ لنؤمن أنه مهما سألنا الآب ننال باسمه، لأن إرادة الآب هي أن نطلب خلال الابن، وإرادة الابن أن نطلب من الآب... لا تفهم من ذلك أن الآب غير قادر أن يفعل، وإنما توجد قوة واحدة تتكشف[1].

[1] *On the Christian Faith, Book 1:2:12.*

القديس أمبروسيوس

❖ كأن السيد المسيح يقول لتلاميذه: أنا بادرت بحبكم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد هيأتكم للنعمة. لقد غرستكم لكي تنطلقوا بإرادتكم، وتأتوا بثمر أعمالكم. أقول أنه يلزمكم أن تذهبوا بإرادتكم، فإن القول بأن تفعلوا شيئًا يعني أن تذهبوا في قلوبكم. أضاف بعد ذلك: "**ثمركم يبقى**"... ما نفعله من أجل الحياة الأبدية يبقى حتى بعد الموت. لنعمل لأجل الثمر الذي يبقى[1].

❖ لماذا سأل بولس الرب ثلاث مرات ولم يتأهل أن يُسمع له (٢ كو ١٢: ٨)؟ يطلب المسيح من المبشر العظيم أن يسأل باسم الابن؟

لماذا لم ينل ما سأله؟

اسم الابن هو يسوع الذي يعني "الخلاص". من يسأل باسم المخلص يطلب ما يخص خلاصه الواقعي. فإن كان ما يسأله ليس لصالحه فإنه لا يطلب من الآب باسم يسوع. لهذا يقول الرب لرسله عندما كانوا لا يزالوا ضعفاء: "إلى الآن لم تطلبوا شيئًا باسمي" (يو ١٦: ٢٤). هذا هو السبب الذي لأجله لم يُسمع لبولس. لو أنه تحرر من التجربة لما كان يوجد ما يعينه على خلاصه...

لاحظوا طلباتكم. هل تسألون من أجل مباهج الخلاص؟ "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلها تزاد لكم" (مت ٦: ٣٣)[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"**بهذا أوصيكم حتى تحبوا بعضكم بعضًا**". **[١٧]**

يمزج السيد المسيح الحب لله بالحب للإخوة [١٢، ١٧]، مقدمًا نفسه مثالاً لنا إذ أحبنا وبذل ذاته عنا [١٣]، ودعانا أحباء [١٤]، وكشف لنا أسراره [١٥]، واختارنا [١٦]، وأقامنا لخدمته (١٦)، وأعطانا نعمة لكي تقبل طلباتنا باسمه لدى الآب... هذا كله نرده له بحبنا لإخوتنا.

❖ بمعنى إني أخبرتكم بأني أضع حياتي لأجلكم لا للتوبيخ، أو لأني أجري لكي ألتقي بكم، وإنما لكي أقودكم إلى الصداقة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Hom. 27. Forty Gospel Homilies.*
[2] *Hom. 27. Forty Gospel Homilies.*

❖ هذا هو الثمر الذي لا يمكننا أن نقتنيه بعيدًا عنه، كما أن الأعضاء لا تقدر أن تفعل شيئًا بدون الكرمة. **ثمرنا هو المحبة** التي يشرحها الرسول أنها: "من قلبٍ طاهرٍ وضميرٍ صالحٍ وإيمانٍ بلا رياء" (١ تي ١: ٥). هكذا نحب بعضنا البعض، وهكذا نحب الله. فإنه **لن يكون حبًا حقيقيًا لبعضنا البعض إن كنا لا نحب الله**. فإن كل واحد يحب أخاه كنفسه إن كان يحب الله. وأما **من لا يحب الله فلا يحب نفسه**[1].

القديس أغسطينوس

٣. مواجهة بغض العالم

"**إن كان العالم يبغضكم، فإعلموا أنه قد أبغضني قبلكم**". **[١٨]**

البغض هو سمة إبليس ودعامة مملكته، كما أن الحب هو سمة مملكة المسيح. فلا عجب إن كان محبو العالم يبغضون مملكة المسيح بلا سبب، فإن هذه هي طبيعتهم. لو أن الكراهية تقوم بسبب شر ارتكبوه لما كانت لهم تعزية، أما إن قامت لأن العالم لا يطيق مسيحهم، فهذه الكراهية هي مجد لا يستحقه المؤمن، لأنه يحمل شركة آلام السيد المسيح.

دُعي الأشرار "**العالم**"، لأنهم محبون له فيحملون اسمه، ولأنهم يمثلون الغالبية العظمى من سكان العالم. لا نعجب إن كان العالم لا يطيق أولئك الذين يحبهم الرب ويباركهم. فقد حدثت عداوة بين العالم الشرير وأولاد الله منذ زحفت الحية إلى حواء لكي تغريها، فقد قتل قايين هابيل لأن أعماله كانت بارة، وأبغض عيسو يعقوب لأنه نال البركة، وحسد إخوة يوسف أخاهم لأن أباه قد أحبه، وأبغض شاول داود لأن الرب كان معه يُنجح طريقه... هكذا في كل هذه الأمثلة لم يحمل القديسون كراهية، ولا صنعوا شرًا يستحقون عليه البغض.

إذ لحقت المتاعب **القديس جيروم** كتب إلى أسيلا *Asella* عند تركه روما متجهًا إلى الشرق: [أكتب إليك في عجالة أيتها السيدة العزيزة أسيلا، فإنني ذاهب إلى السفينة مبتلعًا بالحزن والدموع، إلا أنني أشكر إلهي إني حُسبت مستحقًا لبغض العالم[2].]

❖ لا يرتعب أحدكم أيها الإخوة الأعزاء المحبوبين بالخوف من الاضطهاد القادم، أو من مجيء ضد المسيح الذي يهدد، حيث لا يوجد سلاح ضد كل الأمور غير النصائح الإنجيلية، والوصايا والتحذيرات السماوية.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 87: 1.*
[2] *Letter 45:6.*

ضد المسيح قادم، لكن المسيح يغلب.

العدو يقترب ويثور، ولكن الرب الذي يبرئ آلامنا وجراحاتنا يتبعنا.

المقاوم في غضب يهدد، لكنه يوجد الذي يحررنا من يديه[1].

الشهيد كبريانوس

❖ مع هذا الحب يلزمنا أيضًا أن نحتمل بغض العالم لنا بصبرٍ... لماذا يتعالى العضو نفسه على الرأس؟ إنك ترفض أن تكون في الجسد إن كنت لا تريد أن تحتمل بغض العالم لك مع بغضه للرأس[2].

القديس أغسطينوس

"لو كنتم من العالم،

لكان العالم يحب خاصته،

ولكن لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم،

لذلك يبغضكم العالم". [١٩]

يُحسب المؤمنون أنهم ليسوا من العالم، ليس بسبب حكمتهم وفضائلهم، ولا لأنهم من طبيعة تختلف عن بقية البشر، وإنما لأنهم قبلوا دعوة الله لهم وصاروا مختارين منه، أفرزهم للعمل في ملكوته. لهذا يبغضهم العالم. حياة المسيحي الحقيقي تدين العالم الشرير في صمت، لذا لا يجد العالم له طريقًا سوى الانتقام ممن لا يشاركه شره ويهدئ من ضميره.

هنا يشير إلى المزمور ٦٩: "أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب" (مز ٦٩: ٤)، وقد جاء المزمور كله يتنبأ عن شخص السيد المسيح.

❖ كأن السيد المسيح يقول لتلاميذه: "إن شئتم أن تحبوا فيجب عليكم أن تتألموا"، إذ يذكر هذا المعنى بغموضٍ في قوله: "**لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته**"، فإن أحبكم العالم فواضح أنكم قد أردتم خبثه فيكم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ العالم يحب نفسه باطلاً، ويبغض نفسه حقيقة. لأن من يحب الشر، يبغض نفسه (مز ١١: ٣). ومع ذلك قيل أن العالم يحب ذاته قدر ما يحب الشر الذي جعله شريرًا. ومن الجانب الآخر قيل

---

[1] *Letter 58 to the people abiding in Thibaris, 7.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 87: 2.*

أنه يبغض ذاته بقدر حبه لما يسبب له ضررًا. لذلك فهو يبغض طبيعته الحقيقية التي فيه ويحب الرذيلة.

إنه يبغض ما هو عليه حسبما خلقه صلاح الله، ويحب ما قد جلبه هو بإرادته الحرة... **لقد مُنعنا من أن نحب فيه ما هو يحبه، وأُمرنا أن نحب فيه ما هو يبغضه، أي عمل الله والتعزيات المتنوعة لصلاحه.**

مُنعنا من أن نحب الرذيلة التي فيه، وأُوصينا أن نحب الطبيعة، **أما العالم فيحب الرذيلة في ذاتها ويكره الطبيعة.**

وبهذا نحن نحب ونكره بطريقة سليمة، بينما العالم يحب ويكره ما فيه بطريقة شريرة[1].

القديس أغسطينوس

"**اذكروا الكلام الذي قلته لكم:**

ليس عبد أعظم من سيده.

إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم.

وإن كانوا قد حفظوا كلامي، فسيحفظون كلامكم". **[٢٠]**

حقا لقد دعاهم السيد أحباء، لكن يليق بهم أن ينظروا إلى أنفسهم أنهم عبيد لله. لم يرد أن يبدأ حديثه بما سيعانوه من اضطهاد، إنما بدأ بما سيحتمله هو من متاعب. وضع نفسه في مقدمة المعركة التي بين النور والظلمة، وأن متاعبهم ليست إلا شركة في آلام السيد المسيح. وضع السيد تمييزًا فاصلاً بين المؤمنين المقدسين في حقه وبين الأشرار السالكين في ظلمة الجهالة.

❖ فقد أظهر السيد المسيح هنا أن تلاميذه مماثلون له، وكأنه يقول لهم: "إن كانوا يضطهدونكم، فإنكم بهذا تشاركونني في آلامي، فلا ينبغي أن تضطربوا، لأنكم لستم أفضل مني".

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن كان "**ليس عبد أعظم من سيده**" فليت أولئك الذين يتبعون الرب يبقون مقتربين إلى خطواته، متواضعين، صامتين، هادئين، حيث أن الذين يتواضعون بالأكثر يتمجدون[2].

الشهيد كبريانوس

"**لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي،**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 87: 4.*

[2] *Letter 13 to Rogation, the priest and to the other confessors, 4.*

لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني". [٢١]

أحد الأسباب الرئيسية لبغض العالم للمؤمنين هو الجهل وعدم المعرفة، فإنهم لا يعرفون الآب الذي أرسل السيد المسيح. خلال هذه الجهالة يأكلون شعب الله. وكما يقول المرتل: "قال الجاهل في قلبه ليس إله... ألم يعلم كل فاعلي الإثم الذين يأكلون شعبي كما يأكلون الخبز والرب لم يدعوا" (مز ١٤: ١، ٤).

لم يعرفوا الآب ولا عرفوا الابن المرُسل منه. "لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد" (١ كو ٢: ٨).

لا نتعجب من أن السيد الذي يقول: **لست أدعوكم عبيدًا**" يعود فيقول: "**ليس العبد أعظم من سيده**"، فهو لا يريد أن يدعونا عبيدًا، وفي نفس الوقت يدعونا "عبيدًا" وأننا لسنا أفضل منه الذي هو سيدنا. وكما يقول **القديس أغسطينوس** أنه واضح أنه يقصد في العبارة الأولى العبد الذي لا يسكن في البيت إلى الأبد، المتسم بالخوف الذي يطرده الحب خارجًا[1].

يعلق **القديس أغسطينوس** على تعبير "**من أجل اسمي**" الذي يعني "من أجل البرّ"، لأن مسيحنا هو برّنا. فالأشرار يضطهدون الأبرار في المسيح يسوع ليس من أجل جريمة ارتكبوها، بل من أجل البرّ. وأحيانًا يمارس الأبرار تأديبات قاسية ضد الأشرار، كما يفعل القضاة ضد المجرمين، أو كما يمارس رجال الشرطة ذلك ضد المقاومين للأمن، فإن كان القاضي أو رجل الشرطة مقدسًا في الرب فلا يُدان على معاقبته للشرير، لأن الشرير لا يحتمل العقوبة من أجل البرّ بل من أجل شره. كما يقول أيضًا إن الأشرار أحيانًا يضطهدون أشرارًا. قد يُسأل إن اضطهد الأشرار أشرارًا كما يفعل الأمراء الأشرار والقضاة الأشرار فإنهم وهم يضطهدون الأبرار بالتأكيد يعاقبون أيضًا القتلة والزناة وكل طبقات فاعلي الأشرار، هؤلاء الذين يمارسون ما هو ضد القوانين العامة، فكيف نفهم كلمات الرب: "**لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته**" [١٩]؟ فإن هؤلاء الذين يُعاقبون بسبب الجرائم السابق ذكرها إنما يُعاقبون لأنهم يسببون ضررًا للعالم نفسه. غير أن ذاك العالم موجود في الذين يعاقبون هذه الجرائم وفي الذين يحبون هذه الجرائم. لذلك فإن العالم إذ يوجد في الأشرار وغير الصالحين يكره الذين له بخصوص هذه الفئة من الناس المجرمين، ويحب الأشرار الذين يقدمون نفعًا له[2].

❖ ما هذا إلاَّ أنه يقول: إنهم يبغضونني فيكم؛ إنهم يضطهدونني فيكم؛ وإذ كلمتكم هو كلمتي، فإنهم

---

[1] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 88: 1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 88: 3*

لا يحفظونها.

فإن كل هذا يفعلونه بكم، ليس من أجلكم بل من أجلي. لهذا فإن هؤلاء الذين يفعلون هذه الأمور بسبب اسمي بؤسهم أعظم. كما يطوَّب الذين يحتملون هذه الأمور من أجلها. فإنه هو نفسه يقول في موضع آخر: "طوبى للذين يُضطهدون من أجل البرّ" (مت ٥: ١٠). إنهم يحتملونه من أجل اسمي، لأنه كما يعلمنا الرسول: "صار من الله لنا حكمة وبرًا وقداسة وفداءً، كما هو مكتوب: "من يفتخر فليفتخر بالرب" (١ كو ١: ٣٠-٣١). فإن الأشرار يصنعون مثل هذه الأمور من أجل الشر، وليس من أجل البرّ، لذلك فكلا الطرفين لهما بؤس متشابه، الذين يمارسون الاضطهاد والذين يُضطهدون. أيضًا الصالحون يمارسون هذه الأمور (لتأديب) الأشرار، ليفعل الأولون ذلك من أجل البرّ، بينما الآخرون يعانون منه ليس من أجل البرّ[1].

القديس أغسطينوس

"لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لم تكن لهم خطية،

وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم". [٢٢]

لقد تحققت الوعود الإلهية، وجاء من كان يتطلع إبراهيم إلى يومه فرآه وتهلل، كما اشتهى بقية الآباء والأنبياء مجيئه. بهذا ليس لهم عذر في رفضهم له. حملوا كراهية سبق فتنبأ عنها الكتاب المقدس (مز ٣٥: ١٩؛ ٦٩: ٤؛ ١٠٩: ٣).

❖ لا يُفهم هنا كل خطية، بل خطية ما عظيمة... لأن هذه الخطية تحوي فيها كل الخطايا، ومن يتحرر منها ينال غفرانًا لكل خطاياه. هذه الخطية العظمى هي عدم إيمانهم بالمسيح الذي جاء خصيصًا لكي يجدد إيمانهم. لو لم يأتِ لتحرروا من هذه الخطية. بمجيئه صارت حياة غير المؤمنين بالأكثر محفوفة بالدمار كما هو بخلاص الذين يؤمنون. فإنه هو رأس الرسل ورئيسهم صار كما أعلنوا: "للبعض رائحة حياة لحياة، وللبعض رائحة موت لموت" (٢ كو ٢: ١٦)[2].

❖ إذ أكمل قائلاً: "**وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم**" [٢٢]. ربما يتحرك أحد قائلاً: إن كان يوجد عذر للخطية بالنسبة لمن لم يأتِ المسيح إليهم، ولا تحدث معهم... أجيبه بأنه لهم عذرهم ليس عن كل خطية ارتكبوها، وإنما عن هذه الخطية الخاصة بعدم إيمانهم بالمسيح... هذا وهو يأتي بكنيسته إلى الأمم، ويتحدث معهم. هنا يُشار إلى الكلمات التي قالها: "من يقبلكم يقبلني" (لو

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 88: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 89: 1.*

١٠: ١٦). ويقول الرسول بولس: "إذ تطلبون برهان المسيح المتكلم فيّ" (٢ كو ١٣: ٣)[1].

❖ لكن واضح أنهم ليسوا بهذا يهربون من الدينونة. "لأن كل من أخطأ بدون الناموس فبدون الناموس يهلك؛ وكل من أخطأ في الناموس، فبالناموس يُدان" (رو ٢: ١٢). كلمة الرسول "**يهلك**" هذه لها رنين مرعب أكثر من القول "**يُدان**"، هذا يُظهر أن مثل هذا العذر (بأنه لم يأتِ إليهم المسيح، ولا تحدث معهم) لن ينفعهم شيئًا، بل يضيف عليهم تفاقمًا. فإن الذين يعتذرون بأنهم لم يسمعوا يهلكون بدون الناموس[2].

القديس أغسطينوس

"**الذي يبغضني يبغض أبي أيضًا**". **[٢٣]**

يتساءل **القديس أغسطينوس** كيف يُمكن لليهود وهم لا يعرفون الآب الذي أرسل الابن الوحيد الجنس [٢١] أن يبغضوه [٢٣]؟ ويجيب في شيء من الإطالة بأن الإنسان كثيرًا ما يحب آخر أو يبغضه دون أن يراه أو يتعرف عليه، وإنما حسبما يتصوره عنه، أو ما يسمعه عنه. هكذا اليهود ابغضوا الآب وهم لا يعرفونه، وإنما حسبما تصوروا عنه. كما يقول **القديس أغسطينوس:** [كيف يمكن لهم أن يحبوا أب الحق هؤلاء الذين امتلأوا بالكراهية نحو الحق نفسه؟ فإنهم لا يرغبون في أن يُدان سلوكهم، بينما عمل الحق هو أن يدين مثل هذا السلوك. وهكذا ابغضوا الحق قدر ما أبغضوا معاقبتهم التي يسقطها الحق على مثل هؤلاء. وإذ لم يعرفوا أنه هو الحق الذي يدين من هم مثلهم، لذلك فقد كرهوا من لا يعرفوه، وإذ يبغضوه، فبالتأكيد لن يستطيعوا إلاَّ أن يبغضوا ذاك الذي ولد الحق. وهكذا إذ لم يعرفوا الحق الذي بحكمه يدانون، والمولود من الله الآب، فبالتأكيد هم أيضًا لم يعرفوا الآب ويبغضونه. يا لهم من أناس تعساء! فإنهم إذ يرغبون في أن يكونوا أشرارًا يجحدون ما هو حق إذ يدينهم[3].]

"**لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا، وأبغضوني أنا وأبي**". **[٢٤]**

لقد صنع السيد المسيح بينهم أعمالاً عجيبة وفريدة، ليس فقط من جهة السلطان، وإنما أيضًا من جهة الحنو والحب والرحمة. ومع هذا أبغضوه هو والآب الذي أرسله، فما العجب إن أبغضوا الذين

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 89: 2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 89: 3.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 90: 3.*

صاروا مؤمنين به وتلاميذ له.

❖ لم يكونوا بلا خطية قبل أن يتكلم معهم ويعمل مثل هذه الأعمال بينهم، وإنما لم تكن لهم خطية عدم الإيمان به، هذه التي يُشار إليها على وجه الخصوص، لأنها بالحقيقة تشمل كل الخطايا الأخرى. فلو أنهم تخلصوا منها وآمنوا به، لغُفرت لهم كل الخطايا الأخرى[1].

القديس أغسطينوس

رأوا بعيونهم المملوءة حسدًا وكراهية فكرهوه، أما القديس يوحنا فقد رآه وتمتع بالشركة معه، إذ يقول: "الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه، ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة... الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضًا شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب، ومع ابنه يسوع المسيح" (١ يو ١: ٣).

يقول **القديس أغسطينوس** أن كثير من الأنبياء قاموا بأعمال لم يقم بها غيرهم، لكنه ليس من وجه للمقارنة بين أعمالهم وأعمال السيد المسيح، ليس فقط من جهة كثرة العجائب التي بلا عدد، ولا بتنوعها، وإنما أيضًا بصنعها بسلطانه الشخصي، وبدونه لا يستطيع أحد أن يفعل شيئًا. هذا بجانب ميلاده من عذراء بتول وقيامته في اليوم الثالث الخ[2].

❖ إنهم هم أنفسهم شهود بهذا، إذ قيل: "لم يظهر قط مثل هذا في إسرائيل" (مت ٩: ٣٣). "منذ الدهر لم يسمع أن أحدًا فتح عيني مولود أعمى" (يو ٩: ٣٢). ونفس الأمر بخصوص لعازر (إقامته من الأموات)، وفي كل الأعمال الأخرى، وعجائبه التي كانت جديدة وفوق كل تفكير. قد يقول قائل:" فلماذا إذن يضطهدونك ويضطهدوننا؟ "**لأنكم لستم من العالم، لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته**" [١٩]... ولما كان الأمر مذهلاً بالنسبة لنا أخبرنا عن السبب، وهو شرهم. لم يقف عند هذا بل قدم النبي (مز ٣٥: ١٩؛ ٦٩: ٤) ليظهره أنه سبق فأعلن عن ذلك منذ زمن قديم، قائلاً: "**أبغضوني بلا سبب**" [٢٥].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم:
إنهم أبغضوني بلا سبب". [٢٥]

بغضهم للسيد المسيح بلا سبب، فكلماته وتعاليمه كانت علانية تقدم الحق ممتزجًا بالحب،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 91: 1.*
[2] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 91: 2 – 4.*

وأعماله فائقة فريدة تقوم على نعمته الغنية وحبه اللانهائي. جاء في المزامير: "الذين يبغضونني بلا سبب" (مز ٣٥: ١٩؛ ٤: ٦٩). جاءت "**بلا سبب**" في اليونانية لتعني: "بدون مقابل"، فقد أبغضوه ولم يكن في ذهنهم نوال مقابل لهذه الكراهية.

يرى **القديس أغسطينوس** أن السيد المسيح قد أعلن عن بغض اليهود له ولأبيه، أبغضوه بلا سبب، وأنهم يقتلونه، لكن متى جاء الباراقليط في عيد العنصرة بعد صعود السيد المسيح يجتذب الحاضرين خلال كلمة بطرس الرسول، فيؤمن حوالي ثلاثة آلاف نسمة ممن كانوا مشتركين في الثورة ضده والمطالبة بصلبه. وهكذا يشهد الروح القدس له عمليًا بتحويل مبغضي الحق إلى مؤمنين بالحق.

❖ كأنه يقول: لقد أبغضوني وقتلوني عندما كنت منظورًا بين أعينهم، لكن ستُحمل الشهادة لي بواسطة المعزي الذي يجتذبهم إلى الإيمان بي عندما لا أكون منظورًا منهم[1].

القديس أغسطينوس

٤. إرسال المعزي لهم

الآن، بعد أن قدم لهم طريقًا يبدو غاية في الصعوبة، إذ طالبهم أن يثبتوا فيه كالأغصان في الكرمة، وهذا يبدو مستحيلاً في نظر الإنسان، كيف يثبت الإنسان الضعيف في ابن الله السماوي؟ كيف يتحد الترابي مع السماوي؟

عاد فسألهم أن يحبوا، لا خلال عواطف بشرية مؤقتة، بل أن يبذلوا حتى الموت كما بذل هو ذاته من أجل العالم، وهكذا صارت الوصية كأنها مستحيلة، من يقدر أن يتممها؟

وأخيرًا كشف عن بغض العالم واضطهاده لهم... هذا كله صار أشبه بطريق ضيق لا يقدر إنسان ما أن يسلكه، لهذا عزاهم بوعده بإرسال روحه القدوس الباراكليت. هذا هو المعلم السماوي والمرشد الحقيقي الذي يحملهم إلى كمال حق المسيح. هو يثبتهم في الكرمة، وهو يسكب الحب السماوي في قلوبهم، وهو يهبهم قوة الشهادة للمسيح لتجتذب حتى المقاومين لهم للحق.

"**ومتى جاء المعزي،**
الذي سأرسله أنا اليكم من الآب،
روح الحق الذي من عند الآب ينبثق،
فهو يشهد لي". **[٢٦]**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 92: 1.*

يتحدث هنا عن المعزي بكونه أقنومًا يدعى "**روح الحق**"، ينبثق من عند الآب، يشهد للابن خلال عطاياه ونعمته على المؤمنين.

إنه روح الآب، إذ يقول الابن نفسه: "من عند الآب ينبثق" (يو ١٥: ٢٦)، وفي موضع آخر يقول: "لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم" (مت ١٠: ٢٠). وهو روح الابن أيضًا، إذ يقول الرسول "أرسل اللَّه روح ابنه إلي قلوبكم صارخًا يا أبا الآب" (غلا ٤: ٦)، أي يجعلكم تصرخون، لأن هذا هو ما نصرخ به ولكن فيه، أي يملأ قلوبكم بالمحبة التي بدونها يكون صراخكم باطلاً، حيث يقول: "ولكن إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له" (رو ٨: ٩).

سبق فقال أنه يطلب من الآب أن يرسل المعزي (يو ١٤: ١٦)، وهنا يقول: "**سأرسله أنا إليكم من الآب**". فُهو مُرسل من الآب من جهة أنه مدبر الخلاص والتقديس، ومُرسل من الابن بكونه قد دفع الثمن على الصليب لكي يستقر الروح في الإنسان ويجد فيه برّ المسيح.

الروح القدس يشهد للابن، وإذ يسكن في التلاميذ يشهدون للسيد المسيح بقوة الروح.

❖ نفس المعزي يرسله أيضًا الآب كما سبق فعلمنا قائلاً: "وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي" (١٤: ٢٦). انظروا وحدتهما، فإن من يرسله الآب يرسله الابن أيضًا[1].

القديس أمبروسيوس

❖ حتى لا يقول التلاميذ للسيد المسيح: فماذا نعمل إن كانوا لم يحفظوا قولك، فلهذا السبب لا يحفظون قولنا، إن كانوا قد طردوك فإنهم سيطردوننا، إن كانوا قد أبصروا آيات لم يبصرها أحد كائنة من غيرك، إن كانوا قد سمعوا أقوالاً لم يُسمع مثلها من غيرك ولم يستفيدوا، إن كانوا كرهوا أباك وكرهوك معًا، فلِم ألقيتنا في معاندتهم؟ كيف نتأهل فيما بعد عندهم للتصديق؟ من يصغي إلينا من الذين قبيلتهم قبيلتنا؟ ولكي لا يفتكروا هذه الأفكار فيضطربوا، عزاهم فقال: "**ومتى جاء المعزي، الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي**". قول السيد المسيح لتلاميذه: "**روح الحق**"، وما يدعوه الروح القدس **لكي يكون مؤهلاً لتصديقه.**

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نؤكد أن الروح القدس نفسه أيضًا الذي يعمل في الأنبياء، فيض اللَّه يفيض منه ويرجع كشعاع

[1] *Of the Christian Faith, 2: 9: 76.*

الشمس[١].

العلامة أثيناغورس

❖ الروح القدس هو في الواقع روح، يصدر بالفعل عن الآب، ولكن ليس بذات الطريقة التي لإصدار الابن، إذ يتم لا بالولادة بل بالانبثاق[٢].

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ هكذا لا يمكن لخاصية أقنوم الآب أن تنتقل إلى الابن أو إلى الروح القدس. إنها خاصية الآب أن يكون موجودًا دون علة، وهذا لا ينطبق على الابن والروح، فإن الابن خرج من عند الآب (يو ١٦: ٢٨)، ويقرر الكتاب أن "الروح ينبثق من اللَّه، من الآب" (يو ١٥: ٢٦)[٣].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

استخدم **القديس أبيفانيوس** عبارة إن الروح القدس ينبثق من الآب ويأخذ من الابن[٤]، وإنه من ذات جوهر الآب والابن[٥]. ويقرر **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** أن الروح ينبثق من الآب ويأخذ من الابن[٦].

يؤكد **القديس كيرلس** تعليمه بخصوص الانبثاق، قائلاً: [ينبثق الروح القدس من اللَّه الآب، كما من ينبوع، أما الابن فيرسله للخليقة[٧].]

جاء في اللجنة اللاهوتية الدولية المشتركة بين الأرثوذكس والكاثوليك القدامى: [يتميز الآب عن الأقنومين الآخرين بكونه من طبيعته منذ الأزل يلد الابن ويبعث الروح القدس. ويتميز الابن عن الأقنومين الآخرين بكونه مولودًا من أبيه؛ ويتميز الروح القدس بكونه ينبثق من الآب. هكذا الآب غير مولود وبدون أساس *anaitios* سابق له أو أصل، وفي نفس الوقت هو "الأصل الواحد، الجذر الواحد، الينبوع الواحد للابن والروح القدس"[٨]. هو وحده الأساس *aitios* الذي منذ الأزل يلد الابن ويبعث الروح القدس... لذلك، فالآب بلا أساس (علة) سابقة *anaitios* وهو نفسه الأساس

---

[1] *Legat. 10:24.*
[2] *Oratione 39 :12..*
[3] *De Oratione Dominica 3.*
[4] *Anor. 7.*
[5] *Anor. 7.*
[6] *Adv. Maced. 10.*
[7] *PG 77:318 D.*

[٨] القديس باسيليوس الكبير، عظة ٤:٢٤ مجلد الآباء اليونان ٦٠٩:٣١.

autoatitos، بينما للابن والروح القدس أساس في الآب[1].]

❖ يليق بنا أن نتحقق كم من أشياءٍ كثيرة يجب أن تُقال عن (هذا) "الحب". وأيضًا، كم من أشياء عظيمة نحتاج لمعرفتها عن اللَّه، حيث أنه بذاته هو "الحب". فكما أنه "ليس أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له" (مت ١١: ٢٧)، كذلك لا يعرف أحد الحب سوى الابن، وبنفس الطريقة لا يعرف أحد الابن، الذي هو الحب ذاته، إلا الآب. بالإضافة إلى ذلك، إذ يُدعى الحب، **فالروح القدس المنبثق من الآب، هو وحده الذي يعرف ما باللَّه**، كما "يعرف أمور الإنسان روح الإنسان الذي فيه" (١ كو ٢: ١١). هنا إذن الباراقليط الذي هو "**روح الحق، الذي من الآب ينبثق**" (يو ١٥: ٢٦)، يجول باحثًا عن أنفسٍ مستحقةٍ وقادرةٍ على تَقَبُّل عِظَمِ محبته، أي محبة اللَّه، التي يرغب في إعلانها لهم[2].

العلامة أوريجينوس

❖ جعل المسيح رسله يعمدون باسم الآب والابن والروح القدس، أي الاعتراف بالخالق والابن الوحيد الجنس والعطية. لأن اللَّه الآب هو واحد، منه كل شيء؛ وربنا يسوع المسيح الابن الوحيد الذي به كان كل شيء (١ كو ٨: ٦) هو واحد؛ والروح عطية اللَّه لنا، الذي يتخلل كل شيء هو أيضًا واحد (أف ٤: ٤). هكذا الكل قد تعظّم حسب القوى التي لهم **والمنافع التي يمنحونها**، القوة الواحدة التي منها الكل، الابن الواحد الذي به كل شيء، العطية الواحدة التي تهبنا رجاء كاملاً. لا يمكن أن يوجد نقص في هذا الاتحاد السامي الذي يحتضن الآب والابن والروح القدس، غير محدود في سرمدية، مثاله في صورة تعبر عنه، وتمتعنا به في العطية[3].

❖ لأن أذهاننا الساقطة عاجزة عن إدراك الآب أو الابن، **فإن إيماننا الذي وجد صعوبة في تصديق تجسد اللَّه يستنير بعطية الروح القدس، رباط الوحدة ومصدر النور**[4].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

❖ إنه يملأ الكل بقوته، لكنه يُشترك فيه بالنسبة للمتأهلين وحدهم... والذين لهم شركة الروح يتمتعون به قدر ما تسمح طبيعتهم، وليس قدر ما يستطيع هو أن يهب نفسه في الشركة[5].

---

[1] *Photius: De S. Spiritus Mystaggia 16 ; Mark of Ephesus: Capita Syllogistica 24.*

[٢] القمص تادرس يعقوب ملطي، الروح القدس عند العلامة أوريجينوس، تعريب دكتور جورج بطرس.

[3] *On the Trinity 2:1.*

[4] *On the Trinity 2:33.*

[5] *Liber de Spiritu Sancto. 9 :22 PG 32 :108-9.*

❖ الباراكليت مثل الشمس للعين النقية يُظهر لك في نفسه الصورة (الابن) التي (للآب) غير المنظور. وبالتأمل الطوباوي للصورة سترى الجمال غير المنطوق به الذي للأصل. إنه هو الذي يشرق في أولئك الذين يتطهرون من الدنس، ويجعلهم روحيين خلال الشركة معه. وكما أن الأجسام البهية الشفّافة متى سقطت عليها أشعة الشمس، تصير بهية تعكس منها بهاءً على الآخرين، هكذا **النفوس الحاملة للروح إذ تستنير بالروح تصير هي نفسها روحية وتبعث نعمة على الآخرين**[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ المسيح وُلد، والروح هو السابق له. المسيح اعتمد والروح حمل شهادة له. المسيح جُرّب، وهو الذي عاد به (إلى الجبل). المسيح صنع عجائب، والروح رافقه. المسيح صعد، والروح خلفه[2].

❖ أعمال المسيح الجسمانية انتهت، وأعمال الروح تبدأ[3].

❖ إن كان الروح لا يُعبد، فكيف يمكنه أن يؤلهني في المعمودية؟... من الروح ننال ما يجددنا. هكذا أنتم ترون الروح يعمل بكونه اللَّه واهب المِنح لنا. هكذا أنتم ترون ما نُحرم منه إن أنكرنا أن الروح هو اللَّه. بالروح أعرف اللَّه. هو نفسه اللَّه، وفي الحياة الأخرى يؤلهني[4].

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ إصلاحنا هو من عمل الثالوث القدوس كله والمساوي لبعضهم، وخلال الطبيعة الإلهية كلها الإرادة والقوة تجتازا في كل شيء يُعمل به. لهذا فإن خلاصنا حقيقة هو من عمل اللاهوت الواحد. وإن كان ما قد تحقق من أجلنا أو تم في الخليقة، الأمر الذي يبدو أنه يُنسب لكل أقنوم، فإننا نؤمن أن كل الأشياء هي من اللَّه بالابن في الروح القدس[5].

القديس كيرلس الكبير

عمل الروح القدس اللائق به هو تحقيق وحدتنا مع المسيح.

❖ إنه الروح الذي يوحدنا، نقول أنه يجعلنا نتجانس مع اللَّه؛ استقباله يجعلنا شركاء الطبيعة الإلهية،

---

[1] *Liber de Spiritu Sancto. 9 :23. PG 32 :109.*
[2] *Oratio 31, Theologica 5:31,29 PG 36:159 B.*
[3] *Oratio 41 In Pentecosten, 5. PG 36:436 B.*
[4] *Oratio 31. Theologica 5:28 PG 36:105 A.*
[5] *In Joannis Evangelium, Liber 10, 15:1 PG 74:333-6.*

ونحن نتسلم هذا من الابن، وبالابن من الآب[١].

❖ (الابن نفسه) يشَّكلنا حسب مجده، ويوسمنا بخاتم شكله[٢].

❖ إنه يمنحنا الرائحة الكاملة لذاك الذي ولده[٣].

❖ واهب الروح الإلهي المعطي الحياة ومعطيه هو الابن المولود من اللَّه[٤].

❖ الملء المُعطى لنا بالآب والابن يتحقق... بالروح القدس الذي يملأنا بالمواهب الإلهية به ويجعلنا شركاء في الطبيعة التي لا يُنطق بها[٥].

❖ هكذا حيث يعيش الابن فينا بطريقةٍ لا توصف وذلك بروحه (غلا ٤: ٦)، نقول أننا مدعوّون لروح البنوة[٦].

❖ شكرًا للاتحاد مع الابن الذي يتحقق بوساطة الروح في الذين يقبلونه حتى أننا نتشكل للبنوة[٧].

❖ إن كانت الصورة الحقيقية التي تعبر بكمال عن التشبه بالابن نفسه، بلا خطأ، فالشبه الطبيعي للابن هو الروح الذي نتوافق معه بدورنا خلال التقديس، والذي يشكلنا إلى شكل (الآب) نفسه[٨].

❖ نحن نتشكل حسب المسيح، ومنه نتقبل الصورة (غلا ٤: ٩)، وشكل الروح حسنًا جدًا، كمنْ مِنْ أحد شبيه له بالطبيعة[٩].

❖ بسبب قوته وطبيعته يمكن للروح بالتأكيد أن يُصلحنا إلى الصورة الفائقة[١٠].

القديس كيرلس الكبير

جاء في كتابات **القديس باسيليوس الكبير** كما في كتابات **القديس كيرلس الكبير** الروح القدس هو العامل ليقيم منا صورة للآب، ومرة أخرى أنه البيئة الحية التي خلالها يخلق فينا الشبه للآب والابن.

---

[1] *In Joannis evangelium 11:10. PG 74:544.*
[2] *De SS. Trinitate Dialogus,3. PG 75 :837 A.*
[3] *De SS. Trunitate Dialogus, 5 PG 75 :837 A.*
[4] *De SS. Trinitate Dialogus, 3. PG 75 :964 A*
[5] *De SS. Trinitate Dialogus, 3. PG 75 :800 C.*
[6] *De SS. Trinitate Dialogus, 3. PG 75 :833*
[7] *De SS. Trinitate Dialogus, 3. PG 75 :837 A*
[8] *De SS. Trinitate Dialogus, 7. PG 75 :1089 A*
[9] *De SS. Trinitate Dialogus, 7. PG 75 :1089 B.*
[10] *De SS Trinitate Dialogus, 7. PG 75 :1113 A*

❖ واهب الروح الإلهي المحيي هو الابن المولود من اللَّه، الذي يشارك الحياة، ويتقبل الطبيعة الإلهية الكاملة من الآب؛ والذي فيه الابن والروح المحيي، يقوم الأخير بخلق الحياة للذين ينالونه[١].

❖ في الطبيعة الإلهية الواحدة الثلاثة أقانيم المتمايزون يتحدون في جمالٍ سامٍ واحد؛ ونحن أيضًا نتشكل بقبولنا ختم بنوي بالابن في الروح[٢].

❖ شكرًا للروح، إذ نتشكل حسب جمال الابن الإلهي الفائق، نشترك في الطبيعة الإلهية[٣].

❖ يمنحنا الابن كمال رائحة الذي ولده (الآب). به وفيه نتقبل رائحة معرفة اللَّه، ونغتني بها[٤].

القديس كيرلس الكبير

يقول **القديس كيرلس الكبير** أن الروح القدس يعطي "طاقته إذ هي طاقة اللَّه"[٥].

❖ كرز الابن عن نفسه وعن الآب مثله. صار الكلمة نفسه منظورًا وملموسًا[٦].

❖ بخصوص عظمته لا يمكن معرفة اللَّه... أما بخصوص حبه فهو معروف دومًا بكلمته... وبالروح الذي يحتضن الإنسان ويهبه سلطة إلى مجد الآب[٧].

القديس إيريناؤس

❖ الآب يُعلن، والروح حقًا يعمل، والابن يخدم[٨].

القديس إيريناؤس

عيد البنطقستي هو مجيء الروح القدس الذي وعد به المسيح، والروح في عيد البنطقستي الدائم هو تأكيد لحضور المسيح في الكنيسة. هكذا فإن عيد العنصرة هي عيد مسياني ليس بأقل مما هو خاص بالروح القدس *pneumatological*، حيث أنه يدشن حضور المسيح في الكنيسة سرائريًا. عيد البنطقستي يزيل الارتباك بين صعود المسيح إلى السماء وجلوسه على يمين الآب وبين وعده:

---

[1] *De SS. Trinitate Dialogus, 5. PG 75 :964 B.*
[2] *De SS. Trinitate Dialogus, 5. PG 75 :964 B.*
[3] *De SS. Trinitate Dialogus, 3. PG 75 :837 C.*
[4] *De SS. Trinitate Dialogus, 3. PG 75 :856 C.*
[5] *De SS. Trinitate Dialogus, 7. PG 75 :1112 B.*
[6] *Adv. Haereses 4:6:6.*
[7] *Adv. Haereses 4:20:4. PG 7:1034 B.*
[8] *Adv. Haereses 4:20:6. PG 7:10367.*

"ها أنا معكم كل الأيام وإلى الانقضاء[1]" (مت ٢٨: ٢٠).

يقول **القديس مقاريوس** أنه عندما يحل المسيح والروح فينا نختبر ذلك بطرق متنوعة: في فرح أو دموع، في سكون أو نشوة طرب. توجد أشكال متعددة لحضور اللَّه، أما ثمر الروح فهو دائمًا حضور المسيح واهب الوحدة، الذي يعيش في الكنيسة وفي قلب المؤمن[2].

"**وتشهدون أنتم أيضًا،**

لأنكم معي من الابتداء". **[٢٧]**

يقول **القديس أغسطينوس** إذ يحل الروح القدس على الكنيسة يحمل التلاميذ الذين رافقوا السيد المسيح منذ بداية خدمته إمكانية الشهادة له، الأمر الذي لم يكونوا قادرين عليه أثناء حديث السيد المسيح معهم، إذ لم يكن ملء الروح قد حلّ فيهم. متى حلّ الروح القدس يهبهم الإيمان العامل بالمحبة، والمحبة الكاملة تطرد الخوف خارجًا. فلا يعود بطرس الرسول ينكر المسيح كما حدث عند الصلب، بل يشهد له محتملاً الآلام والاضطهادات من أجل اسمه بفرحٍ. [إذ يشهد له الروح القدس، ويوحي بمثل هذه الشهادة بشجاعة لا تُقهر، يجرد أحباء المسيح من خوفهم، ويحولهم إلى حبهم لبغض أعدائهم لهم[3].]

❖ في الكلمات السابقة قوَّى الرب تلاميذه ليحتملوا كراهية أعدائهم، وأعدَّهم أيضًا بتقديم نفسه مثالاً لكي يزدادوا شجاعة في الاقتداء به، مقدمًا لهم الوعد بالروح القدس الذي يأتي ليشهد له، ولكي يصيروا هم شهودًا خلال عمل الروح القدس في سامعيه. فإن هذا هو معنى: "**وتشهدون أنتم أيضًا، لأنكم معي من الابتداء**" [٢٧]. بمعنى إذ يحمل شهادة تحملون أنتم أيضًا شهادة. إنه في قلوبكم، أنتم في أصواتكم؛ هو بالوحي وأنتم بالنطق، حتى تتحقق الكلمات: "إلى أقصى الأرض بلغ صوتهم" (مز ١٩: ٤). فإنه إن لم يملأهم بروحه لا يحقق كثيرًا تقديم نفسه مثلاً للهدف[4].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Boris Bobrinskoy: The Mystery of the Trinity, St. Vladimir 1999, p. 72.*
[2] *Boris Bobrinskoy: The Mystery of the Trinity, St. Vladimir 1999, p. 73.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 92: 2.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 94: 1.*

من وحي يو ١٥

طمعني فيك،

يا أيها الكرمة الحقيقية!

❖ محبوبي العجيب، اكشف لي عن حبك الفائق.
غرستني كما في جنة إلهية،
وسيَّجت حولي بحبك،
وترقبت لعلي أقدم لك ثمرًا يفرح قلبك!
وإذ أخرجت عنبًا رديًا لم تهملني.

❖ اقتلعتني من فسادي،
وطعمتني فيك، يا أيها الكرمة الحقيقية!
أحمل ثمر روحك القدوس، عنب الحب والفرح!
أحمل طعم عذوبتك، ورائحتك الذكية!
بدونك لا أصلح إلاَّ للمزبلة والنار!

❖ ليجري حبك في عروقي،
إذ أنا غصن حيّ فيك وبك.
فيصير فرحك بي كاملاً، وفرحي بك كاملاً.
أحبك، فأتعرف على أسرارك وإرادتك.
أحبك، فأبذل نفسي من أجل اخوتك الأصاغر!

❖ أحبك، وإن كانت تكلفته بغض العالم لي.
إني غصن فيك، يا أيتها الكرمة الإلهي،
العالم لا يطيقك، فلا يطيقني!
العالم لا يحتمل صوتك، فلا يقبل كلماتك التي على لساني!

❖ من يثبتني فيك، فلا أُقتلع منك؟
من يهتم بي إلاَّ أباك الكرَّام العجيب؟
من يحوط حولي ويعمل فيَّ،

إلاَّ روحك القدوس المعزي؟

لك المجد أيها الثالوث الكلي الحب!

الأصحاح السادس عشر

إرسال المعزي

إن كان الألم قد دخل إلى العالم كثمرة من ثمار العصيان، لكن الله في حبه سمح لابنه الحبيب أن يتأنس ويتألم كذبيحة حب مقدمة عن كل البشرية. هكذا تحول الألم من ثمرة خطية إلى علامة حب. وصار من حقنا أن نتألم معه لكي نتمجد أيضًا معه. خلال هذه الذبيحة الفريدة ندرك مفهوم الوعد الإلهي أنه يجرح ويشفي (تث ٣٢: ٣٩). حدثهم السيد المسيح صراحة عن ما سيعانوه من آلام، مقدمًا لهم **روحه القدوس** المعزي الذي سيحل عليهم ويعمل فيهم ويهبهم تعزياته الإلهية.

❖ تحتاج النفس إلى السراج الإلهي، وهو الروح القدس، الذي ينير البيت المظلم، وإلى شمس البرّ الساطعة التي تضيء وتشرق في القلب، وتحتاج إلى الأسلحة التي تغلب بها في المعركة.

القديس مقاريوس الكبير

١. سهام الحب الجارحة	**١-٦.**
٢. إرسال المعزي	**٧-١٥.**
٣. وعد باللقاء معهم بعد قيامته	**١٦-٢٢.**
٤. استجابة صلواتهم	**٢٣-٢٧.**
٥. صعوده إلى السماء	**٢٨.**
٦. تركه عند آلامه	**٢٩-٣٢.**
٧. غلبته لحسابهم	**٣٣.**

١. سهام الحب الجارحة

في إخلاص كامل كشف لهم السيد المسيح عما سيلحقهم من متاعب أثناء الإرسالية التي يبعثهم إليها، لكنها متاعب حب، هي سهام حب من أجله، حيث يبغضهم العالم كما يبغضه هو.

"قد كلمتكم بهذا لكي لا تعثروا". [١]

تكرر تعبير "**قد كلمتكم بهذا**" سبع مرات في مقاله هذا، وقد جاء في اللغة اليونانية يحمل نوعًا من الاستمرارية مع الوقار، وكأن هذه الأمور التي يتحدث عنها في حديثه الوداعي لا تمس زمنًا معينًا بعينه، بل أمورًا خاصة بالكنيسة عبر الأزمنة، وأنها أمور جوهرية.

كلمة "**تعثروا**" هنا يترجمها البعض "تسقطوا في فخ"؛ كما يسقط طير أو حيوان في شرك.

يخبرهم عما سيعانوه من آلام مقدمًا حتى لا يتعثروا، أي لئلا يفقدوا إيمانهم وتُصاب نفوسهم بضررٍ، كما يحدث مع الجسد عندما يعثر في الطريق أو يسقط على حجرٍ أو في فخٍ.

❖ "**قد كلمتكم بهذا لكي لا تعثروا**" [١]، فإنه إذ ينسكب الروح القدس في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا (رو ٥: ٥) يكون لمحبي شريعة الله سلام عظيم، فلا يتعثروا في شيء[1].

القديس أغسطينوس

"**سيخرجونكم من المجامع،**

بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله". **[٢]**

يدعو وقت الألم "**ساعة التجربة**".

الالتصاق بالمسيح والشهادة له تُحسب جريمة دينية أو تجديفًا، لهذا يقطعون من المجامع ويُحرمون من حق العبادة كأشخاص تحت اللعنة، غير مستحقين أن يمارسوا العبادة لله والشركة مع المؤمنين. لم يكن الألم الذي يصيب اليهودي الذي يؤمن بالسيد المسيح بطرده من الهيكل وحرمانه من التمتع بالانتساب إلى الأمة اليهودية أقل من القتل، إذ يفقد إحساسه بالانتساب لشعب الله في ذلك الحين، والتمتع بالامتيازات الخاصة به، واعتباره كاسرًا للناموس. يُنظر إليه كسامري أو وثني أو عشار، خائن لدينه وشعبه ووطنه.

لا يقف الأمر عند الطرد، وإنما يتعقبون المؤمنين بالسيد المسيح لتقديمهم ذبائح بشرية، ويحسبون ذلك لمجد الله. وكما جاء في إشعياء: "قال إخوتكم الذين أبغضوكم وطردوكم من أجل اسمي ليمتجد الرب" (إش ٦٦: ٥). هذا ما حدث مع بولس الرسول حين نذر ٤٠ شخصًا ألا يأكلوا ولا يشربوا حتى يقتلوه (أع ٢٣: ١٢–١٣). وقد جاء في التلمود *Talmud* "من يسفك دم كافرٍ يعادل من يُحضر تقدمة لله[2]". وهكذا يحمل الذئاب ثوب الحملان، ويظهر أعداء الله كأنهم خدام غيورون على مجده، يمارسون العداوة كأنها التزام ديني لحساب السماء.

❖ بحق قيل لمثل هؤلاء: "**سيخرجونكم من المجامع**"، أي أن الذين لهم غيرة لله، ولكن ليس حسب المعرفة، إذ يجهلون برّ الله، وليس لهم ما يستدعي الخجل من استبعادهم بواسطة الناس، مادام

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 93:1.*
[2] *Bammidar, R. 21ad Num. 25 :13.*

الله هو مجد قوتهم[1].

❖ إنهم لا يعرفون الآب ولا ابنه هؤلاء الذين يحسبون أنهم يقدمون الخدمة له بقتلكم. هذه كلمات أضافها السيد لأجل تعزية خاصته الذين يُطردون من المجامع اليهودية... "**ستأتي ساعة فيها...**" يقول هذا بطريقة كمن يسبق فيخبرهم عن أخبارٍ صالحةٍ تتبعها شرور ضخمة... إنهم بالحق يشتتونكم وأنا أجمعكم، أو إنهم بالحق يشتتونكم لكن تأتي ساعة فرحكم[2].

القديس أغسطينوس

"**وسيفعلون هذا بكم،**

لأنهم لم يعرفوا الآب، ولا عرفوني". **[٣]**

شتان ما بين من يتحدث أو يكتب عن الله وبين من يعرف الله والله يعرفه. هنا إذ يتحدث السيد عن المعرفة لا يقصد بها مجرد المعرفة العقلية، إنما معرفة الخبرة والحياة، لهذا عندما يقول للأشرار في يوم الدينونة: "لست أعرفكم" لا يعني أن الله يجهلهم، لأنه عارف بكل شيءٍ، لكنه لا يعرفهم معرفة الصداقة والشركة.

علة شرهم عدم المعرفة الحقيقية، وكما جاء في هوشع: "لأنهم قد تجاوزوا عهدي، وتعدوا على شريعتي، إليّ يصرخون: يا إلهي نعرفك نحن إسرائيل" (هو ٨: ١-٢). إنهم قد يعرفون إرادة الله، لكنهم يجهلونه عمليًا في سلوكهم. يدرسون الكتاب المقدس، لكنهم يحرفون معانيه حسب أهوائهم.

❖ كأن السيد المسيح يقول لتلاميذه: يكفيكم للتعزية أن معاناتكم هذه المصاعب هي من أجلي ومن أجل الآب. هنا يذكرهم أيضًا بتطويبه الذي قاله حين ابتدأ تعليمه: "طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم في السماوات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم" (مت ٥: ١١-١٢)[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**لكني قد كلمتكم بهذا،**

حتى إذا جاءت الساعة،

تذكرون إني أنا قلته لكم،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 93:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 93:3.*
[3] *Homilies on St. John, 77:3.*

ولم أقل لكم من البداية،

لأني كنت معكم". [٤]

لم يقل هذا من بداية التصاقهم به حتى لا يربكهم أو يقلقهم، أما وقد صاروا تلاميذه فأعلن لهم هذا كأمرٍ جوهري في حياتهم وشركتهم معه. سبق فأعلن لهم عن ساعة التجربة لكي يدركوا أن ما سيحل بهم لم يحدث مصادفة كما يظن البعض، ولكن بسماحٍ إلهي، وفي الحدود التي يسمح بها الله. هذا وبحديثه هنا يهيئهم لكي يستعدوا لهذه الساعة بأسلحة روحية، خاصة بسيف الكلمة الإلهية.

لماذا أخبرهم بذلك في هذا التوقيت؟ لأن ساعة التجربة قد اقتربت. حانت ساعة آلامه، وستحل ساعة آلامهم، وأنه سيفارقهم بالجسد. حين كان معهم بالجسد كان يعزيهم ويسندهم. الآن يترك لهم كلمته ووعوده ويرسل لهم الروح القدس يعزيهم.

❖ لا يندهش أحد أننا مستنزفون باضطهاداتٍ متواصلةٍ، ونسقط تحت ضغوط فوق العادة، مادام الرب قد أنبأنا مقدمًا بأن هذه الأمور ستحدث في نهاية العالم، وقدم تعليمات لجيشنا بكلماته التي تعلمنا وتشجعنا[1].

الشهيد كبريانوس

❖ من هذه الكلمات يمكنكم أن تحكموا وتثقوا في بقية كلماتي. إذ لا تستطيعون القول أنني أتملقكم بأن أذكر لكم فقط ما هو يسركم، ولا أقدم لكم كلمات خداع. لأن من يود أن يخدع لا يخبركم مقدمًا بأمور كهذه تجعلكم تنصرفون (عنه). لذلك أخبركم مقدمًا أن هذه الأمور ستحل عليكم حتى لا تضطربوا بعدم توقعكم لها.

وأيضًا لسبب آخر وهو ألا تقولوا إننا لسنا نعرف مقدمًا أن هذه الأمور ستحدث. تذكروا إذن أنني أخبرتكم بها...

ليتنا نحن أيضًا نضع هذه الأمور في الاعتبار أثناء تجاربنا، عندما نعاني شيئًا من الأشرار، "ناظرين إلى رئيس إيماننا ومكمله" (عب ١٢: ٣)، وأن هذه يسببها الأشرار، وأنها من أجل الفضيلة، ومن أجله.

فإن تأملنا في هذه الأمور سيكون كل شيء سهلاً ومحتملاً. فإن كان من يتألم من أجل محبوبيه يفتخر بذلك، فما هي مشاعر ذاك الذي يحتمل هذا من أجل الله؟

[1] *Letter 58 to the people abiding in Thibaris, 2.*

إن كان هو من أجلنا حسب ذاك العار، أي الصليب، مجدًا (١٣: ٣١)، فكم بالأكثر يلزمنا نحن أن نأخذ موقفًا كهذا؟

وإن كنا نستطيع أن نستخف بالآلام، كم بالأكثر نستطيع أن نستهين بالغنى والطمع؟[1]

❖ "**لم أقل لكم من البداية، لأني كنت معكم**" [٤]. قيل هذا بطريقة بشرية، كأنه يقول لهم: "إذ كنتم في آمان، وكان في سلطانكم أن تسألوني متى أردتم، وكانت العاصفة كلها تهب علي، لذا كان من غير الضروري أن أخبركم بهذه الأمور في البداية"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يتساءل **القديس يوحنا الذهبي الفم** لماذا قال لهم أنه لم يسبق أن يخبرهم بهذا مع أنه عندما دعا الاثني عشر قال لهم أنهم سيقفون أمام ملوك وولاة من أجل اسمه ويجلدونهم في مجامعهم (مت ١٠: ١٨،١٧). يجيب على ذلك أنه ما سبق أن أخبرهم عنه كان يخص ما سيحدث في المستقبل حين يكرزون بين الأمم؛ أما ما يخبرهم عنه هنا فهو ما سيعانوه من اليهود، وأنه قد صار على الأبواب، وهو أمر لم يسبق أن يخبرهم عنه"[3].

"**وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني،**

وليس أحد منكم يسألني أين تمضي". **[٥]**

سبق أن سأله بطرس هذا السؤال (يو ١٣: ٣٦) وأيضًا توما (يو ١٤: ٥)، وكلاهما نالا إجابة منه، أما الآن فيطالبهم ألا يسألوه، لأن قلوبهم امتلأت حزنًا [٦].

يليق بهم عوض أن يسألوه أين يمضي أن يدركوا ويثقوا أن كل الأمور تعمل معًا لخيرهم كأحباء الله (رو ٨: ٢٨).

❖ الآن يعدهم أنه يمضي بطريقة خلالها لا يسأله أحد إلى أين يمضي. لأن سحابة استقبلته عندما صعد من بينهم، وعند ذهابه إلى السماء لم يسأله أحد شفاهًا، بل كانت هناك شهادة عينية (أع ١: ٩-١١)[4].

القديس أغسطينوس

"**لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم**". **[٦]**

---

[1] *Homilies on St. John, 77:3-4.*
[2] *Homilies on St. John, 78:1.*
[3] *Homilies on St. John, 78:1.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 94:3.*

سبق فملأهم السيد المسيح بالفرح (يو ١٥: ١١)، لكن إذ أُمتصت أفكارهم في الضيق ملأ الحزن قلوبهم، ولم يتركوا مجالاً لفرح المسيح أن يملك عليها. كانت أفكارهم مشغولة بملكوت المسيح الخارجي والمجد الزمني وأنهم يملكون معه، وإذ تسللت أفكار العالم إليهم ملك حزن العالم عليهم.

❖ حزنت مشاعرهم البشرية، لأن رؤيتهم له جسمانيًا تنتهي تمامًا. لكنه عرف ما هو نافع لهم، لأن تلك النظرة الداخلية التي بها يهبهم الروح القدس تعزية بلا شك أسمى... إذ يسكب نفسه في قلوب الذين آمنوا. عندئذٍ أضاف: "**إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن ذهبت سأرسله إليكم**" [٧]. وكأنه يقول لهم: خير لكم أن يُنزع من أمامكم هذا الشكل الذي للعبد، إذ جاء الكلمة جسدًا بالحق وحلّ بينكم. لكنني لست أريد أن تستمروا في محبتكم لي جسديًا، وتكتفون بهذا اللبن، مشتهين أن تبقوا أطفالاً على الدوام... إن التصقتم بالجسد بطريقة جسدانية، لا يكون للروح مجال لكم...

ماذا يعني "**إن لم أنطلق لا يأتيكم الروح القدس**" سوى أنكم لا تقدرون أن تقبلوا الرب مادمتم مستمرين في معرفة المسيح حسب الجسد؟ لهذا يقول أحد الذين نالوا شركة الروح: "وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد، لكن الآن لا نعرفه بعد" (٢ كو ٥: ١٦). فإننا الآن حتى جسد المسيح نفسه لم يعرفه بطريقة جسدانية، حيث بلغ إلى المعرفة الروحية للكلمة الذي صار جسدًا[1].

❖ بالرحيل الجسدي للمسيح كل من الآب والابن كما الروح القدس صاروا حاضرين معهم. فإن كان المسيح قد فارقهم بطريقة ما ليبقى في موضعه وليس معهم، لكي يصير الروح القدس حاضرًا فيهم، فماذا يعني وعده عندما قال: "هأنذا معكم دائمًا وإلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨: ٣)، أنا والآب "إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣)؟...[2]

القديس أغسطينوس

❖ الحزن المفرط أمر مرعب يولِّد موتًا. لذلك يقول بولس: "لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط" (٢ كو ٢: ٧)[3].

❖ إنها تعزية لهم ليست بقليلة أن يعلموا أنه يعرف شدة قنوطهم. فإنهم بجانب حزنهم لتركه إياهم وما سيحل بهم من أمور مرعبة قادمة، لم يكونوا يدركون أن كانوا يستطيعون أن يحتملوا هذا بثبات

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 94:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 94:5.*
[3] *Homilies on St. John, 78:1.*

عزمٍ[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. إرسال المعزي

"لكني أقول لكم الحق
أنه خير لكم أن انطلق،
لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي،
ولكن إن ذهبت أرسله اليكم". [٧]

كان الأنبياء في العهد القديم يعزون الشعب وسط ضيقاتهم بمجيء المسيا المخلص كمعزٍ لهم (إش ٩: ٦؛ ميخا ٥: ٦؛ زك ٣: ٨). الآن جاء المسيا وها هو يفارقهم بالجسد، فصارت الحاجة ملحة إلى معزٍ آخر هو روحه القدوس. أما مجيئه فيتطلب رحيل المسيح [٧]. لم يكن ممكنًا للتلاميذ أن يقبلوا هذا، لذلك أكد السيد المسيح "**أقول لكم الحق**" [٦] أنه لخيرهم أن ينطلق. هذا التعليم كان غير متوقع وغريبًا على مسامعهم. صعوده ليس لراحته بل لخيرهم، فإن كان ما فعله خلال تجسده هو لحساب مؤمنيه، فصعوده هو صعود للرأس الذي لا تفارقه أعضاء الجسم.

سبق فأعلن لهم عن ضرورة موته لخلاص البشرية (مت ٢٠: ١٩؛ ٢٦: ٢؛ مر ٩: ٣١؛ ١٠: ٣٣؛ لو ٩: ٤٤؛ ١٨: ٣٢)، الآن لا يكرر ما سبق فأعلنه، إنما يكشف عن خطة الله من جهة إرسال الروح القدس إلى العالم، الذي لن يتم ما لم يتحقق خلاصنا بالصليب والقيامة والصعود إلى السماء.

لماذا لا يأتي الروح القدس ما لم ينطلق المسيح أولاً؟ لأنه قادم ليستقر في النفس البشرية التي اشتراها السيد بدمه ووهبها برَّه وأعطاها حق الدخول إلى السماء. فموت السيد المسيح وقيامته وصعوده هو طريق التمتع بحلول الروح القدس على الكنيسة، واستقراره في داخلها لكي يتمتع المؤمن بهذه السُكنى.

من الجانب الآخر فإن صعوده إلى السماء كمخلصٍ ممجدٍ لا ينزع عنه انشغاله بعروسه التي افتداها بدمه، بل يرسل لها من يقدسها له، ويجَّملها ويجعلها أيقونة له، تتهيأ للعرس السماوي الأبدي. بهذا فإن حلول الروح القدس الذي هو روح المسيح أفضل للكنيسة من بقاء السيد المسيح جسديًا على الأرض. فبقاء السيد المسيح جسديًا على الأرض يسحب أنظار البشر الجسمانية إليه، أما حلول

[1] *Homilies on St. John, 78:1.*

روحه القدوس فيسحب قلوبهم إلى المسيح الممجد في السماء، فتلتهب أعماقهم لا للبقاء على الأرض بل للانطلاق إلى العريس.

صعد السيد المسيح إلى السماء في لحظات حاسمة، وظروف غريبة، إذ ترك التلاميذ لا قوة لهم، ولا عمل لهم سوى الانتظار.

١. **فمن جهة حياتهم الخاصة وإيمانهم**، كانوا حتى لحظات الصعود في خوفٍ وضعفٍ وقسوة قلبٍ وضعف إيمانٍ (مر ١٦: ١٤). تركهم بالجسد وترك لهم وصاياه الصعبة، وطريقه الضيق، وصليبه الصعب. من يقدر أن يحتمل هذا كله؟!

٢. **ومن جهة عملهم أثقل عليهم الرسالة:** طالبهم بالكرازة والتلمذة في العالم كله. "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم" (مت ٢٨: ١٩)، وسألهم أن يكرزوا باسم الثالوث القدوس. رسالة صعبة في فترة لم يعودوا فيها يصنعون معجزات ويطهرون برص ويخرجون شياطين كما كانوا في فترة خدمته على الأرض قبل الصلب.

من أجل هذا كانوا في حاجة إلى من يسند ومن يعين، لذلك وعدهم بذلك الروح الناري، روح اللَّه القدوس نفسه، الذي يعمل فيهم من أجل تقديسهم وتقديس الآخرين، "أنا أرسل إليكم موعد أبي، فأقيموا في أورشليم على أن **تُلبَسوا قوة من الأعالي**" (لو ٢٤: ٤٩). من أجل هذا تحول صعود الرب إلى موضوع فرحهم وتهليل نفوسهم، لأنه فيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد إلى السماء، فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم **بفرحٍ عظيمٍ**، وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون **ويباركون اللَّه** (لو ٢٤). لأنه كما قال لهم الرب: إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم (يو ١٦: ٧)[١].

في عيد العنصرة تحدث **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن "**مواهب الروح القدس**" قائلاً:

[قبل هذه الأيام، صعد إلى السماوات، وأخذ عرشه السماوي، واسترد مجلسه عن يمين الآب. وها هو اليوم يمنحنا حلول الروح القدس، وخلاله يقسم علينا المواهب السماوية الأخرى. لأنه أية موهبة من بين المواهب التي نتمتع بها في داخل خلاص نفوسنا لم ننلها خلال خدمة الروح (القدس)؟!

فخلاله نتحرر من العبودية، وندعى إلى الحرية!

خلاله صرنا أولاًد اللَّه، بتبنيه إيانا!

وفوق هذا كله، إن أمكنني أن أقول، إننا قد تجددنا، خالعين عنا ثقل الخطايا الكريه!

خلاله نرى قدامنا طغمات الكهنة!

[١] للمؤلف: الله مقدسي، ١٩٦٧، ص ٣.

خلاله يساعدنا معلمينا! منه ننال مواهب الإعلانات، ومواهب الشفاء، وكل المواهب الأخرى التي بها يزين الروح القدس كنيسة اللَّه.

هذا ما يعلنه الرسول بولس قائلاً: "ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه، قاسمًا لكل واحدٍ بمفرده كما يشاء" (١ كو ١٢: ١١). يقول "كما يشاء" وليس "حسبما يؤمر". ويقول: "قاسمًا" وليس "مقسمة"، مظهرًا أنه هو صاحب هذه المواهب، وليس كمن يخضع لسلطان آخر.

فالسلطان الذي يشهد عنه الرسول بأنه للآب هو نفسه ينسب للروح القدس. وكما قال عن الآب: "ولكن اللَّه واحد الذي يعمل الكل في الكل"، ويقول أيضًا عن الروح القدس: "ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسمًا لكل واحد بمفرده كما يشاء".

انظروا كمال السلطان، فإذ الطبيعة (الإلهية) واحدة، لذلك فإنه لا يوجد أدنى شك من جهة السلطان، وإذ توجد مساواة في الكرامة فإن القوة والسلطان واحد.]

❖ أظهر الإنجيليون الثلاثة الآخرون بوضوح بما فيه كفاية أنه نطق بمثل هذه النبوة قبل أن يقترب من العشاء (مت ٢٤: ٤٩؛ مر ١٣: ٩–١٣؛ لو ٢١: ١٢–١٧)... إذ صار المعزي أو الشفيع ضروريًا عند رحيل المسيح، ولهذا يتحدث عنه منذ الابتداء حيث كان هو معهم، وكان حضوره تعزية لهم. ولكن في ليلة رحيله لاق به أن يتحدث عن مجيء ذاك الذي به يُسكب الحب في قلوب الذين يكرزون بكلمة الله بكل جسارة. ومعه يحملون داخليًا الشهادة للمسيح، ولا يجدون أية علة للعثرة عندما يطردهم أعداؤهم اليهود من المجامع ويقتلونهم، ظانين أنهم يقدمون خدمة لله. لأن المحبة تحتمل كل شيء (١ كو ١٣: ٧)، هذه التي تنسكب في قلوبهم بعطية الروح القدس (رو ٥: ٥)[1].

القديس أغسطينوس

❖ كأنه يقول علانية: "إن كنت لا أسحب جسمي من مفهومكم الجسماني لا أستطيع بروحي المعزي أن أقودكم إلى رؤيا روحية[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ مادمنا لا نستطيع بأية وسيلة أن يكون لنا هذا التطويب الذي به نؤمن ونحن لا نرى ما لم نتقبله من الروح القدس، فلسبب حسن قيل: "خير لكم أن أنطلق. فإنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي،

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 94:2.*
[2] *Moral 8:13.*

لكن إن انطلقت أرسله إليكم" [٧]. هو حاضر معنا على الدوام بلاهوته، ولكن إن لم ينطلق بالجسد عنا، فإننا نرى جسمه دومًا حسب الجسد ولا نؤمن من الجانب الروحاني[1].

القديس أغسطينوس

❖ لاحظوا كيف يعزيهم مرة أخرى، إذ يقول: "إنني أتكلم معكم لا لكي أبهجكم، ومع أنكم قد حزنتم ربوات المرات، لكن يلزمكم أن تسمعوا ما هو لصالحكم. إنه بالحق من أجل شوقكم يلزم أن أكون معكم، ولكن ما هو لنفعكم يختلف عن ذلك. فإنه جزء من الاهتمام بالغير ألا يكون الشخص حانيًا أكثر من اللازم مع أحبائه في أمور خاصة بنفعهم، أو في ما يقودهم إلى ما هو ليس لصالحهم"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

السيد المسيح والروح القدس

فتح ميلاد السيد المسيح الزمني الطريق لنا لحلول الروح القدس فينا، فقد جاءت حياة السيد المسيح تشهد لعمل الروح القدس، الذي هو روحه، في كل موضع وفي كل تصرف. جاء يوحنا السابق الملاك الذي أعد الطريق للسيد المسيح مملوءً من الروح وهو بعد في الرحم (لو ١: ١٥). ذات الروح حلّ على القديسة العذراء مريم وظللها مثل الشكينة التي حلت في جبل سيناء، حتى يهيئها لكي يكون المولود منها القدوس المدعو ابن اللَّه (لو ١: ٣٥). وعند زيارة القديسة مريم لأليصابات امتلأت الأخيرة من الروح القدس وارتكض الجنين في بطنها بابتهاج (لو ١: ٤١-٤٢). وسبحت مريم وزكريا بوحي الروح (لو ١: ٤٦، ٦٨). وبالروح القدس استقبل سمعان الشيخ الطفل يسوع في الهيكل (لو ٢: ٢٥-٣٢). وقاد الروح القدس ربنا يسوع إلى البرية ليُجرَّب (مر ١: ١٢).

يقدم لنا السيد المسيح الروح القدس ليحل فينا، فنحمل المسيح في داخلنا، ويصير هو نفسه صلاتنا وعبادتنا "بالروح" إذ تصرخ أعماقنا نحو الآب: "أيها الآب أبا" (رو ٨: ١٥؛ غلا ٤: ٦).

"ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية،
وعلى برّ،
وعلى دينونة". [٨]

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 93:4.*
[2] *Homilies on St. John, 78:1.*

تحقق إرسالية الروح القدس إلى الكنيسة اهتمام السيد المسيح بها، فإنه متى جاء يهب البشرية حياة التوبة والرجوع إليه خلال الصليب. فهو وحده يقدر أن يدخل القلب ويمرر الخطية ويفضحها أمامه، فيرجع إلى عذوبة الشركة مع الله. إنه قادر أن يقنع القلب والفكر وكل أعماق الإنسان أن سعادته وسلامه وفرحه وخلوده وعدم فساده يكمن في الالتصاق بالمخلص لا بالخطية، وأن لذة العشرة مع الله لا تُقارن بأية لذة للخطية.

دُعي الروح القدس "**الباركليت**"، وهي كلمة يونانية قديمة "بارا" تعني الملازمة، و"كليت" تعني الدعوة للمعونة، فهو الملازم المعين، أو القائد المعزي، الشفيع المدافع. وتترجم "الباراكليت" في اللاتينية "أفوكاتوس"، وفي الفرنسية "أفوكات"، أي المحامي أو الشفيع المدافع.

هذا هو أساس شركتنا مع الثالوث القدوس، إنه شفيع عنا أمام الآب، يقدم حجته، ليخرج قضيتنا بالبراءة، ويصير لنا حق الشركة والتمتع بالأحضان الإلهية. ودفاع الروح القدس، دفاع قوي قادر ومجيد. لكنه دفاع بحقٍ، لا يتقدم في القضية مدافعًا عنًا زورًا أو بهتانًا، لأنه روح الحق، الذي يشهد للحق، بل هو الحق ذاته. فهو عادل في دفاعه، لا يتستر على خطايانا أو أخطائنا. في مؤازرته للخطاة (في ٢٠:١)، لا يستر خطايانا أو يخفي آثارها بأوراقٍ من التين كما فعل آدم ويفعل بنوه، ولا يحابي الوجوه، ولا يطلب شركة بين النور والظلمة، أو البرّ والنجاسة، إنما هذا هو عمله، وهكذا يكون دفاعه عنا: إنه **ينخس قلب الإنسان** قبل أن يؤمن أو يسكن فيه مغيرًا طبيعته، ليعطيه الإيمان، ويهيئه لقبول عطية الروح القدس، وذلك كما حدث يوم الخمسين. "فلما سمعوا نُخسوا في قلوبهم، وقالوا لبطرس وسائر الرسل... توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس" (أع ٢: ٣٧-٣٩).

يرى **القديس أغسطينوس** أن الخطية العظمى هي عدم الإيمان بالمسيح مخلصًا للعالم، فمن لا يؤمن لا يقدر أن يتمتع بغفران خطاياه. لهذا فإن التبكيت على خطية يحمل معنى حث الإنسان على التخلي عن عدم إيمانه بالمسيح، بهذا ينفتح أمامه باب المغفرة.

وبينما بطرس يكلم كرنيليوس ومن معه "حلّ الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة... حينئذٍ أجاب بطرس أترى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما نحن. وأمر أن يتعمدوا باسم الرب" (أع ١٠: ٤٤-٤٧).

إن كان الروح ينخس القلوب قبل العماد، أفلا ينخس قلوبهم بعدما يسكن فيها بسرّ الميرون؟! إن عمله هو التبكيت على الخطية ليتوب الإنسان ويعترف، وفي سرّ التوبة والاعتراف يغفر للإنسان عن

خطاياه بالروح القدس الذي يغفر باستحقاقات دم المسيح أيضًا: "اقبلوا الروح القدس من غفرتم لهم خطاياهم غُفرت..." فالروح القدس بالنسبة لمن لم يؤمنوا أو للمؤمنين لا يتستر على خطاياهم، بل بالعكس إذ هو نور يكشف ويفضح الخطية أمام عيني الإنسان الداخلية، ويكشف آثامنا ومرارتها قدام قلوبنا، وفي نفس الوقت يكشف عمل الصليب وقوة حب اللَّه الجذابة.

من هنا يتقدم الروح القدس باعترافاتنا المملوءة نتانة، ويرفقها بالدم المسفوك مع دموع التوبة وصلوات الإيمان. وللحال يحكم بالبراءة للإنسان عن خطاياه السابقة، سواء في سرّ المعمودية أو سرّ التوبة والاعتراف[1].

❖ انظروا كيف يبدأ أولاً بانتهار الخطية... والتوبيخ، ليس من أجل اليهود وحدهم، بل بالأحرى لكل إنسان يكون عنيدًا ومقاومًا للباركليت. التوبيخ الثالث الذي للروح القدس لإدانة رئيس هذا العالم. سيشهد الباركليت لمجد المسيح، وسيظهر للعالم خطأه إن هجر (المسيح) وتعبد لذاك الذي بالطبيعة ليس الله، أي إبليس... الآن هو ليس رئيس هذا العالم بالحق، كمن يملك كرامة حاكم ورثها فيه، لكن إذ هو يتمسك بمجد هذا العالم بالخداع والعنف، ولأنه لا يزال يحكم هؤلاء خطأ، وبسبب شر إرادتهم يمارس سلطته عليهم[2].

القديس كيرلس الكبير

❖ تثور فينا الرغبة أن نفهم لماذا كما لو لم توجد خطية للإنسان سوى عدم إيمانه بالمسيح، إذ تحدث عنها وحدها هنا بأن الروح القدس يدين العالم عليها، مع أنه واضح أنه بجانب خطية عدم الإيمان توجد أنواع متنوعة من خطايا البشر، فلماذا يبكت الروح القدس العالم عن هذه وحدها؟ ذلك لأن بعدم الإيمان يُمسك بكل الخطايا، وبالإيمان تُغفر. لهذا فإن الله ينسب إليهم هذه الخطية فوق كل بقية الخطايا، إذ بها لا تُغفر بقية الخطايا مادام الإنسان المتكبر لا يؤمن بالله المتواضع. فقد كُتب: "الله يقاوم المتكبرين، ويعطي نعمة للمتواضعين" (أم ٣: ٣٤؛ يع ٤: ٦). هذه النعمة التي من الله هي هبة منه؛ لكن العطية العظمى هي الروح القدس نفسه، وقد دُعي "نعمة". فإنه إذ أخطأ الجميع وأعوزهم مجد الله، لأنه بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم ودخل الموت بخطيته التي بها أخطأ الكل" (رو ٣: ٢٣؛ ٥: ١٢).

القديس أغسطينوس

---

[1] للمؤلف: الله مقدسي، ١٩٦٧، ص ١٢-١٣.

[2] *The Mission of the Holy Spirit, in Toal 2:369- 371. PG 74; 922 B2*

يؤكد **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الروح القدس كما الآب يشهدان للسيد المسيح لأجل خلاص العالم الذي وُضع في الشرير. حقا لقد قدم السيد المسيح تعاليم وعجائب، لكن الأشرار قاوموها. أما متى صعد إلى السماء، فيرسل روحه القدوس الذي يعمل في تلاميذ المسيح ورسله، ليكشف عن الحق، ويتمم أعمالاً عجيبة فائقة باسم المسيح، ويقوم بتبكيت العالم، لكي يدرك شره، ويقبل الرجوع إلى المخلص.

❖ "**ومتى جاء ذاك يبكت العالم**" [٨]. بمعنى أنهم لا يفعلون هذه الأمور دون أن يُعاقبوا متى جاء ذاك. فإنه بالحق الأمور التي تمت فعلاً كافية أن تبكم أفواههم. ولكن متى تمت هذه الأمور أيضًا بواسطته (بعد صعوده) حينما تصير التعاليم أكثر كمالاً (بحلول الروح القدس)، والمعجزات أعظم (على أيدي الرسل)، يُدانون بالأكثر إذ يرون مثل هذه الأمور تتم باسمي، مما يجعل القيامة أكثر تأكيدًا.

الآن يمكنهم القول: هذا هو ابن النجار، ونحن عارفون بأبيه وأمه، ولكن حين يرون رباطات الموت قد انحلت، والشر يُنزع، والمعوجات الطبيعية تستقيم، والشياطين يخرجون، وفيض العون من الروح، وهذا كله يتحقق بدعوتي، فماذا سوف يقولون؟ يحمل الآب شهادة لي، وسيحمل الروح أيضًا شهادة مع أنه حمل شهادة في البداية، نعم وسيحملها وسيبكت[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يقول **القديس أغسطينوس** أن السيد المسيح نفسه يبكت العالم على خطية، كما في قوله: "**لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية**" (يو ١٥: ٢٢)، وعلى برّ، إذ قال: "أيها الآب البار العالم لم يعرفك" (يو ١٧: ٢٥)، كما يبكت على دينونة، إذ أعلن أنه سيقول للذين على اليسار: "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدة لإبليس وملائكته" (مت ٢٥: ٤١). وردت عبارات كثيرة في الإنجيل تؤكد أن السيد المسيح يبكت على هذه الأمور. لماذا إذن ينسب هذا للروح القدس كما لو كان هذا امتيازًا خاصًا به؟ يجيب **القديس أغسطينوس** أن الروح القدس ينسكب على قلوب التلاميذ (رو ٥: ٥)، فيهبهم المحبة التي تطرد الخوف خارجًا (١ يو ٤: ١٨)، فيصير لهم حق التوبيخ والتبكيت. ويكمل القديس حديثه: [كثيرًا ما أقول أن عمل الثالوث القدوس لا ينفصل، لكن كل أقنوم يقوم بدوره، ليس فقط بغير انفصالهم، بل وأيضًا دون خلط بينهم. فمن حقنا أن ندرك كلاً من وحدتهم وثالوثهم

[1] *Homilies on St. John, 78:1.*

(تمايزهم)[1].]

"**أما على خطية،**

فلأنهم لا يؤمنون بي". **[٩]**

يوضح السيد المسيح دور الروح القدس في التبكيت على خطية قائلاً: "**لأنهم لا يؤمنون**" [٩]. إن كانت الخطية تملك على القلب، فليس من طريق للخلاص منها إلا بقدوم ملكٍ آخر قادر على إبادتها، وهو الإيمان بالمسيح الذي يملك على القلب. ملكت الخطية فصارت مصدر فساد ورجاسة، لذا صارت الضرورة ملحة للإيمان بالمخلص الذي ينزع الفساد والرجاسة، ويحتل عدم الفساد والقداسة الموضع. بالخطية كسر الإنسان الناموس وحلت اللعنة، وبالإيمان بالمسيح مكمل الناموس وحامل اللعنة عنا نتحرر من الحرف القاتل واللعنة لننعم بالروح المحيي والحياة المطوَّبة.

بلغت خطية اليهود القمة عندما لم يقبلوه بكونه المسيا المخلص مع أنه صنع العجائب التي سبق أن أعلن عنها الأنبياء (إش ٣٥: ٣–٦). عند حلول الروح القدس في يوم العنصرة اعترف جمع من اليهود بهذه الخطية، ورجعوا إلى الله (أع ٢: ٣٧).

❖ لأن هذه الخطية، كما لو كانت هي الخطية الوحيدة، وضعها قبل الخطايا الأخرى، لأن بالاستمرار فيها تُستبقى بقية الخطايا، وبنزعها تنزع بقية الخطايا[2].

القديس أغسطينوس

❖ يبكت "**على خطية**"؛ هذا يعني انه سيقطع كل أعذارهم، ويظهر أنهم عصوا عصيانًا فاحشًا[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وأما على برّ،**

فلأني ذاهب إلى أبي،

ولا ترونني أيضًا". **[١٠]**

أما عن التبكيت على برٍّ، فيقول السيد المسيح: "**فلأني ذاهب إلى أبي، ولا تروني بعد**" [١٠]. أي يبكتهم على عدم إدراكهم لبرّ المسيح وقداسته، فقيامته وصعوده إلى السماء هما الدليل على برّه. لذلك إذ يصعد السيد إلى السماء يرسل روحه ليحمل قلوب البشرية إلى حيث المسيح جالس،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 95:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 95:2.*
[3] *Homilies on St. John, 78:1.*

فيتلامسوا معه ويختبروا برَّه فيهم، بل يصير المسيح لهم برًا.

تبكيت العالم على خطية يعني عمل الروح القدس في الكشف عن حقيقة العالم أنه خاطئ. وأما على البرِّ فهو الكشف عن حقيقة ما فعله العالم بالمسيح، أي الصلب، فإن آلام المسيح المخلصة وصلبه هي لأجل تبريرنا. فالروح الذي ينير العينين ليدرك الإنسان خطاياه، ينيرهما أيضًا ليدرك قوة موت المسيح واهب البرّ.

لم يدرك اليهود قيمة موسى النبي كما ينبغي إلا بعد انتقاله من العالم، ولم يعرف الكثيرون برّ المسيح إلا بعد صعوده إلى السماء. حلول الروح القدس في يوم العنصرة حسب الوعد الإلهي هو برهان على مجد المسيح الجالس على يمين العظمة (أع ٢: ٣٣)، وهذا دليل على برِّه الإلهي.

يتساءل **القديس أغسطينوس** لماذا قال السيد المسيح أن الروح القدس يبكت على برْ لأنه ذاهب إلى أبيه. ويجيب بأن الكلمة عند تجسده ومجيئه من عند الآب أظهر رحمته علينا، وبصعوده إلى السماء وذهابه إلى الآب نقوم معه، ونطلب ما هو فوق حيث المسيح جالس. إنه جالس على يمين الآب، يجلس بكونه الرأس والجسد، وكأن الكنيسة وقد صارت جسدًا تتمتع ببرْ المسيح، حيث صار لها حق الجلوس في السماء عن يمين الله[1].

❖ لذلك يليق بنا ألا نحسب أنفسنا منفصلين عن ذاك البرْ الذي يشير إليه الرب نفسه، قائلاً: "عن البرْ، لأني ماضٍ إلى الآب". فإننا نحن أيضًا نصعد مع المسيح، ونحن مع المسيح رأسنا، الآن بالإيمان والرجاء إلى حين، لكن رجاءنا يكمل في القيامة الأخيرة من الأموات. لكن حين يكمل رجاؤنا يكمل أيضًا تبريرنا. والرب الذي كمل هذا أظهر لنا في جسده (أي في رأسنا) الذي فيه قام وصعد إلى الآب ما يلزمنا أن نترجاه. فقد كُتب: "أُسلم من أجل خطايانا، وأُقيم لأجل تبريرنا" (رو ٤: ٢٥). إذن العالم قد دين على خطية في الذين لم يؤمنوا بالمسيح، وعلى بره في الذين قاموا في أعضاء المسيح. فقد قيل: "فنصير برّ الله فيه" (٢ كو ٥: ٢١). فإننا إن لم نكن فيه فلا طريق للبرّ. أما فيه فيذهب بنا بالكامل إلى الآب، ويتحقق فينا البرّ الكامل[2].

القديس أغسطينوس

❖ لقد ترك الرسول الأمر واضحًا: يلزمنا أن نؤمن أن عمل الآب وعمل الابن هو عمل واحد[3].

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 94:3-5.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 94:6.*
[3] *Of the Christian Faith, 3:11: 90.*

القديس أمبروسيوس

❖ عندما يُوبخ بار (معتد ببره)، فإنه يُوبخ على خطية وليس على برّ. لهذا يجب ملاحظة إن هذا النطق الإلهي: "لا تكن بارًا بزيادة" (جا ٧: ١٦، ٢٠)، لا يخص برّ الإنسان الحكيم، وإنما كبرياء الإنسان المتعجرف. فالإنسان الذي يصير "بارًا بزيادة"، بهذا الزيادة عينها يصير غير بارٍ. فإنه يجعل نفسه بارًا بزيادة بقوله أنه بلا خطية، وتصوره أنه صار بارًا ليس بنعمة الله، وإنما بالاكتفاء بإرادته الذاتية. وهو ليس بارًا بالحياة البارة بل بالأحرى باكتفائه بالتصور بما هو ليس عليه[1].

القديس أغسطينوس

❖ "**على برّ، فلأني ذاهب إلى أبي، ولا ترونني أيضًا**" [١٠]. بمعنى: "لقد أظهرت حياة بلا لوم، وهذا برهان إني ذاهب إلى الآب". إذ كانوا على الدوام يحتجون ضده بأنه ليس من الله، ولذا دعوه خاطئًا وعاصيًا، لذلك يقول أن الروح سينزع عنهم أيضًا هذا العذر. فإن كان يبدو عليَّ إنني لست من الله اظهروا لي إني عاصٍ؛ عندما يعلن الروح أنني ذاهب عنده، ليس إلى حين بل أسكن هناك، لأن القول "**لا ترونني أيضًا**" يعبر عن هذا؛ فماذا سوف يقولون إذن؟ لاحظوا كيف أنه بهذين الأمرين أزال شكهم الشرير، لأنه لا تُنسب المعجزات إلى شريرٍ، ولا البقاء مع الله يخص خاطئًا. لذلك لا تقدرون بعد أن تقولوا إن هذا الإنسان شرير، وأنه ليس من الله[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وأما على دينونة،**

فلأن رئيس هذا العالم قد دين". **[١١]**

في اختصار، فإن الروح القدس ليس فقط يبكت على الخطية [٩] واهبًا الإيمان للإنسان، ومقدمًا برّ المسيح المصلوب له، وإنما يدين العالم الشرير، ويقدم للمؤمنين ما هو للابن، فيتمتعوا بشركة المجد السماوي. هكذا يقدم لنا الروح القدس ثلاث حقائق هامة تمس حياتنا:

- **فساد طبيعتنا بالخطية.**
- **إصلاحها وتمتعها ببرّ المسيح.**
- **دينونة الشر أبديًا.**

يبكت الروح القدس على دينونة، "**لأن رئيس هذا العالم قد دين**" [١١]. بينما ظن العالم أنه قد

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 95:3.*
[2] *Homilies on St. John, 78:1.*

حكم على المسيح ودانه، إذا بالروح القدس يكشف للمؤمنين أنه بالصليب دين عدو الخير وشُهر به (١ كو ٢: ١٥). انفضح إبليس كمخادعٍ ومدمرٍ للبشرية، وبدأ الأمم يرفضونه ويهجرون عبادته خلال الكرازة بصليب المسيح. عمل الروح القدس تأكيد أن المسيح أعظم وأقوى من إبليس، يهب سلطانًا لتلاميذه أن يدوسوا على قوات الظلمة. وهكذا يختبر المؤمن في حياته اليومية عربون السلطان الذي ناله لكي يتمتع بكماله في يوم الدينونة حيث يُدان إبليس ويتمتع الإنسان بكرامة فائقة. يحتل الإنسان الدرجة السماوية الفائقة التي سقط منها إبليس وكل جنوده. لهذا جاء فعل "**دين**" يحمل معنى الاستمرارية، فالغلبة على قوات الظلمة عمل يومي مستمر.

❖ أيضًا يُدان العالم "**عن دينونة، لأن رئيس هذا العالم قد دين**"، أي الشيطان، رئيس الأشرار. إذ يسكن في قلب هذا "العالم" وحده، أي في قلوب الذين يحبون "**العالم**"، كما أن مواطنتنا نحن في السماء، إن كنا قد قمنا مع المسيح. هكذا **كما أن المسيح ونحن جسده معه هم واحد، هكذا الشيطان مع كل الأشرار الذين رأسهم هو إبليس كما لو كانوا جسده، هو أيضًا واحد.** لذلك كما أننا لا ننفصل عن البرّ الذي قال عنه الرب: "لأني ماضٍ إلى الآب"، هكذا لا ينفصل الأشرار عن تلك الدينونة التي قال عنها: "**لأن رئيس هذا العالم قد دين**".[1]

❖ رئيس هذا العالم، أي رئيس الظلمة، أو غير المؤمنين، الذي يتحرر منه ذلك العالم الذي يقال له: "لأنكم كنتم قبلاً ظلمة، وأما الآن فنور في الرب" (أف ٥: ٨)؛ رئيس هذا العالم الذي يقول عنه في موضع آخر: "الآن رئيس هذا العالم يُطرح" (يو ١٢: ٣١)، هذا بالحقيقة يُدان قدر ما هو مُعَيّنْ لحكم النار الأبدية نهائيًا[2].

القديس أغسطينوس

❖ "إذ يُدان بواسطتي فسيعرفون من الذي سيطأ عليه بقدميه فيما بعد، وسيعرفون قيامتي بوضوح التي هي علامة من يدين رئيس هذا العالم. فإنه غير قادر أن يمسك بي. فبينما قالوا بأن به شيطان، وأنني مخادع فستظهر كل هذه الأمور أنها باطلة، إذ لم يكن ممكنًا لي أن أفوز عليه لو كنت خاضعًا للخطية، لكنه الآن يُدان ويُطرد[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 94:6.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 95:4.*
[3] *Homilies on St. John, 78:1.*

"إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم،
ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن". [١٢]

صرح لهم السيد المسيح أن لديه أمور كثيرة لم يرد أن يخبرهم بها، لأنهم عاجزون عن قبولها في ذلك الحين، ففيه تختفي كنوز الحكمة والمعرفة.

❖ لذلك فإنه خير لكم أن أرحل إن كنتم سوف تحتملون هذه برحيلي. ماذا يحدث؟ هل الروح أعظم منك حتى أننا الآن لا نحتمل، لكن سنحتمل بعد ذلك؟ هل سيعمل الروح بأكثر قوة وأكثر كمالاً؟ لا، ليس كذلك، لأنه هو أيضًا ينطق بكلماتي[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يكن التلاميذ في ذلك الحين مستعدين أن يموتوا من أجل المسيح عندما قال لهم: "لا تقدر الآن أن تتبعني" (يو ١٣: ٣٦)... ومع ذلك نجد بعد هذا أعدادًا بلا حصر من رجال ونساء وأولاد وبنات وشباب وشابات وشيوخ وصغار تُوجوا بالاستشهاد، ووُجد القطيع مستعدًا لهذا الذي لم يكن الرعاة قادرين على احتماله عندما نطق الرب بهذه الكلمات[2].

❖ حسنًا، ليتنا نقبل الأمر هكذا، إن كثيرين يستطيعون الآن أن يحتملوا هذه الأمور، إذ أُرسل الروح القدس، هذا الذي لم يستطع التلاميذ أن يحتملوه قبل مجيئه[3].

❖ بالرغم من إني أشتهي وأسأل وأتضرع بكل غيرة أن الرب يستخدمكم أن تزيلوا جهلي في هذا الأمر، إلا أنني وإن كنت لا استحق هذا، اللَّه لا يسمح! فإنني سأسأل الرب إلهنا بصبرٍ الذي لي إيمان إنني لن أتذمر ضده إن رفض أن يفتح لي عندما أقرع. سأتذكر القول: "لي كثير لأقوله لكم، لكنكم لا تحتملون الآن" (راجع يو ١٦: ١٢)[4].

القديس أغسطينوس

"وأما متى جاء ذاك روح الحق،
فهو يرشدكم إلى جميع الحق،
لأنه لا يتكلم من نفسه،

---

[1] *Homilies on St. John, 78:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 96:1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 96:2.*
[4] *Letters, 166:27.*

بل كل ما يسمع يتكلم به،
ويخبركم بأمورٍ آتية". [١٣]

وعدهم السيد المسيح أنهم يتمتعون بمجيء "**روح الحق**" الذي يرشدهم إلى كل الحق. فقد سبق فقدم السيد نفسه لهم قائلاً: "أنا هو الحق"، من يقتنيه يقتني الحق. لكنهم كيف يقتنونه؟ بالروح القدس الذي هو روح الحق، يعمل فيهم، فيثبتهم في المسيح الذي هو الحق الإلهي.

هل أخفى السيد المسيح الحق عن تلاميذه؟ لقد جاء إلى العالم ليقدم الحق. تحدث مع تلاميذه قدر ما يحتملون، ومع الجماهير حسب قدرتهم. لكنهم كانوا عاجزين عن قبول كل الحق، لذا بعث بروحه القدس لكي يقودهم ويدخل بهم إلي أعماق جديدة في الحق. هذا وقد أكد السيد أن روح الحق لا يعلم بشيء يناقض ما يعلم به السيد المسيح، بل ما يسمعه من الآب والمتناغم مع الابن، فينطق به لمجد الثالوث القدوس وخلاص البشر.

يقودهم روح الله إلى النبوة (رو ٨: ١٤)، ويسلك معهم في الطريق، قائدًا لهم ومرافقًا، ويبقى سندًا لهم حتى يبلغ بهم إلى النهاية، حيث يتمتعون بكل الحق. إنه أشبه بربان السفينة العارف بأسرار المنطقة البحرية، يقودها ويبلغ بالمسافرين إلى البر بأمان.

إنه روح الحق، لا يقود المؤمن إلا في الحق (١ يو ٢٧). يتكلم بما فيه نمونا وتقدمنا في الأمور الآتية. وكما جاء في يوئيل: "يكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويحلم شيوخكم أحلامًا، ويرى شبابكم رؤي". (٢: ٢٨) وقد تحقق ذلك كما جاء في سفر الأعمال (١١: ٢٨؛ ٢٠: ٢٣؛ ٢١: ١١). تحدث الروح عن الارتداد في الأزمنة الأخيرة (١ تي ٤: ١).

❖ لقد أعلن أننا بدون الروح نعيش كأطفالٍ صغارٍ. لقد قال أن الروح سيأتي، هذا الذي يجعل من الأطفال الصغار رجالاً أقوياء بالنمو، أقصد في العمر الروحي. وقد أبرز هذا، لا لكي يجعل قوة الروح في المركز الأول، وإنما ليظهر أن كمال القوة هو في معرفة الثالوث[1].

❖ يقول ابن الله بخصوص الروح القدس أنه لا يتكلم من نفسه، بمعنى ليس بدون الشركة مع الآب ومعي. لأن الروح لا ينقسم ولا ينفصل، بل ينطق بما يسمع... هذا يعني أنه لا يتكلم بدوني، إذ ينطق بالحق، إنه يتنسم بالحكمة. لا ينطق بدون الآب، لأنه روح الله. إنه يسمع لا من ذاته، لأن كل الأشياء هي من الله.. لذلك ما يقوله الروح هو قول الابن ولا ينطق الروح شيئًا من ذاته. لأن

[1] *Of the Holy Spirit, Book 3:14:99.*

الثالوث لا يتكلم بشيء خارج عنه[1].

❖ هذا لا يعني أي سماع لكلمات واقعية (ملموسة) بل وحدة الإرادة والقوة التي توجد في الآب والابن والروح القدس. ما يقوله الروح يقوله الابن هنا (يو ١٦: ١٣). لنتعلم أن ما يقوله الروح يقوله الابن أيضًا، وما يقوله الابن يقوله الآب أيضًا، إذ يوجد فكر واحد، وطابع واحد للعمل في الثالوث[2].

القديس أمبروسيوس

❖ قال لتلاميذه عن الروح القدس: "**ويخبركم**"، بهذا رفع تمييز فهمهم، لأن الجنس الإنساني بصفة عامة لا يرتاح إلى شيء كارتياحه إلى أن يعرف الأحداث القادمة. لقد سألوه في هذا الأمر، إذ قال بطرس الرسول: "يا سيد إلى أين نذهب؟" (يو ١٣: ٣٦)، وقال توما الرسول: "يا سيد لسنا نعلم أين تذهب، فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟" (يو ١٤: ٥). فقد أراحهم من هذا الاهتمام، إذ أوضح لهم هنا أن الروح القدس يسبق فيقول لهم الخفايا كلها، أي "**يخبركم**". فإن قلت: "ولِم لم يعطِ السيد المسيح الروح القدس لتلاميذه قبل أن ينطلق من عندهم؟" أجبتك: "لأن اللعنة لم تكن قد أُنتزعت بعد، وخطيتنا لم تكن قد حلت بعد، فما كان لائقًا أن يجيء الروح القدس، إذ كان الناس كلهم مدينين في العقوبة، وكأن السيد المسيح يقول: "ينبغي أن تنحل العداوة وأن نصالح إلهنا، وبعد ذلك نقبل تلك الموهبة".

القديس يوحنا الذهبي الفم

يقول **القديس أغسطينوس** أن التلاميذ حتى بعد أحداث الصلب والقيامة وصعود السيد المسيح لم يكونوا قادرين على إدراك بعض الحقائق الإيمانية مثل أن العالم قد خُلق بواسطة ذاك الذي صُلب، وأنه هو ابن الله الذي كسر طريقة حفظ اليهود للسبت، وأيضًا أن الله ثالوث قدوس: الآب والابن والروح القدس، وأن الابن واحد مع الآب ومساوٍ له في ذات الجوهر الخ. مثل هذه الحقائق لم يدركها التلاميذ بوضوح إلا بالروح القدس الذي وُهب لهم، فامتلأت قلوبهم حبًا وغيرة في الروح، واستنارت بمعرفة الحق[3].

❖ لذلك أيها الأحباء يلزمكم ألا تتوقعوا أن تسمعوا منا ما امتنع الرب عن إخباره لتلاميذه، إذ كانوا

---

[1] *Of the Holy Spirit, 2:12 (131, 133, 134).*
[2] *Of the Christian Faith, 5:11 (133).*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 96:3. cf.*

غير قادرين على احتمالها، بل بالأحرى تطلبوا أن تنموا في المحبة التي تُسكب في قلوبكم بالروح القدس الذي أُعطي لهم (رو ٥: ٥). بهذا فإنه في غيرة الروح ومحبة الروحيات تستطيعون، لا بأية علامة ظاهرة للأعين الجسدية، أو بأي صوت يرن في آذانكم الجسدية، وإنما برؤية العين الداخلية والسماع الداخلي أن تتعرفوا على ذلك النور الروحي، وتلك الكلمة الروحية التي يعجز الجسدانيون أن يحتملوها. إذ لا يمكن محبة ما هو ليس بمعروفٍ. لكن عندما يُعرف الشيء ولو بقياسٍ صغير فإنه أيضًا يُحب، وبذات الحب ينال الشخص معرفة أفضل وأكمل.

فإن صرتم نامين في الحب الذي سكبه الروح القدس في قلوبكم: "**هو يعلمكم كل الحق**"، أو كما جاء في بعض المخطوطات: "**فهو يرشدكم إلى جميع الحق**". وكما قيل: "قدني في طريقك يا رب، فأسلك في حقك" (مز ٨٦: ١١). والنتيجة هي أنكم تتعلمون هذه الأمور التي امتنع الرب عن النطق بها في ذلك الحين، ليس خلال معلمين خارجيين، بل تكونوا متعلمين من الله (يو ٦: ٤٥)...

نعم حسنًا، لقد قلت لكم الآن بعض الأمور التي لها شيء من نفس هذه السمات وأنتم قبلتموها، ليس فقط احتملتموها، بل استمعتم إليها بسرورٍ. فإن ذاك المعلم الداخلي الذي حين كان يتكلم من الخارج مع تلاميذه قال: "**إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن**" [١٢]، يرغب أن يتحدث في الداخل إلينا عما قلت أنه يخص طبيعة الله غير المتجسمة، بالطريقة التي يتحدث بها مع الملائكة الذين يرون وجه الآب على الدوام، والتي نبقى بعد لا نحتملها.

لهذا عندما يقول: "**سيعلمكم كل الحق**"، أو "**يرشدكم إلى جميع الحق**" [١٣] لست أظن أن الملء ممكنًا في ذهن أي شخص في هذه الحياة، لأنه من وهو يعيش في هذا الجسد الفاسد والمقاوم للنفس يقدر أن يعرف كل الحق، إن كان الرسول يقول: "الآن أعرف بعض المعرفة"؟ وإنما يتحقق بالروح القدس الذي ننال الآن غيرته (٢ كو ١: ٢٢) حتى ننال بعد ذلك كمال المعرفة التي يقول عنها الرسول نفسه: "حينئذٍ وجهًا لوجهٍ" (١ كو ١٣: ١٢)[1].

القديس أغسطينوس

❖ هذا تجديدنا، يجعلنا على صورة اللّه من جديد، وذلك **بغسل التجديد والروح القدس** الذي يجددنا، فنصير أبناء اللّه، نصير خليقة جديدة مرة أخرى بشركة الروح، ويخلصهما مما كان عتيقًا[2].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 96:4.*
[2] *Ad. Eunom. 5.*

يعلق **القديس أغسطينوس** على قول السيد المسيح عن الروح القدس: "**لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم، ويخبركم بأمورٍ آتية**" [١٣]، قائلاً بأنه إذ هو من عند الآب ينبثق (يو ١٥: ٢٦) أزليًا، فهو من الآب وليس من نفسه، هو واحد معه ومساوٍ له في ذات الجوهر. هو من الآب، له ذات معرفته [إنه يسمع ممن ينبثق منه. بالنسبة له **السمع هو معرفة، والمعرفة هي وجوده** التي سبق لنا مناقشتها. لأنه ليس من ذاته، بل من ذاك الذي انبثق منه، والذي منه له الكيان والمعرفة والسمع التي ليست إلاَّ معرفة... هذا السمع سرمدي، لأن المعرفة سرمدية... وما هو سرمدي ليس له بداية ولا نهاية، يمكن استخدام الفعل في أية صيغة سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل[1].]

"**ذاك يمجدني،**

لأنه يأخذ مما لي ويخبركم". **[١٤]**

إرسال الروح القدس وعمله يمجدان الابن. فالآب يمجده في السماء، والروح القدس يمجده على الأرض. يأتي الروح القدس باسم المسيح، ويعمل لحساب مملكته، محققًا رسالة إنجيله. لا يأتي ليقيم مملكة أخرى، بل هي ذات مملكة المسيح التي تنسب أيضًا للآب، لأن كل ما للابن هو للآب، وما للآب هو للابن.

إذ صار المسيح ابن البشر قدم الآب ما له للابن لأجلنا، وعهد الابن بدوره العمل للروح القدس، هنا وحدة الثالوث في العمل.

"**كل ما للآب هو لي،**

لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم". **[١٥]**

يتمتع المؤمنون المعمدون باسم المسيح بالشركة معه في موته وقيامته بطريقة غير خاضعة لحواسنا الظاهرية. وهي تتم بعمل الروح القدس الذي ينحدر من السماء باستدعاء الكاهن كما رسم السيد المسيح في كنيسته المقدسة. هذا الروح الذي يأخذ مما للمسيح ويعطينا (يو ١٦: ١٥).

يعطينا الروح هذا السرّ بفضل نعمة المسيح، لأنه "لا بأعمال في البرّ عملناها نحن، **بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني**، تجديد الروح القدس" (تي ٣: ٥). "مبارك اللَّه أبو ربنا يسوع المسيح الذي على حسب رحمته الكثيرة **ولدنا ثانية** لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات لميراث لا يبلى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظ في السماوات لكم" (١ بط ٣: ٤).

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 99:4 – 5.*

"**يأخذ مما لي ويخبركم**" (يو ١٦: ١٤). فبحسب اعتقاد المنادين بالفيلوك[١] بخصوص العلاقات الباطنة في أقانيم الثالوث لا يمكن لأقنوم أن **يأخذ** أو يتقبل شيئًا من أحد الأقنومين الآخرين إلا بطريق "الانبثاق"[٢].

يرى *فوتيوس* *Photius* أن هذه الكلمات لا تعني أن الروح القدس يأخذ من الابن بل من الآب؛ لأن السيد المسيح لم يقل "يأخذ مني *of Me*" بل قال: "**يأخذ مما لي** *on Mine*، فالتعبير الأول يعني من ينطق به (شخصيًا)، أما تعبير "**مما لي**" فيعلن عن شخص آخر يرتبط مع المتكلم برباط القرابة[٣]. لقد أضاف الرب: "**كل ما للآب هو لي**"، لذلك ما يأخذه الروح مما لي إنما يأخذه من الآب[٤]. الأخذ هنا لا يخص الجوهر الإلهي بل سمات ربنا يسوع المسيح حتى نتشكل نحن على صورة الابن (رو ٨: ٢٩).

❖ "**كل ما هو للآب فهو لي**". فماذا إذن أكثر وضوحًا من هذه الوحدة؟ كل ما للآب يخص الابن، وكل ما للابن تقبله أيضًا الروح القدس[٥].

❖ لقد قبل كل شيء من الآب بحق ميلاده (الأزلي منه)، ويظهر الآب بالكامل بمجد جلاله (أي لم ينقص بما قدمه للابن)[٦].

❖ "**كل ما هو للآب فهو لي**"، لا بمعنى أنه وُهب له ذلك من الآب بل ما تسلمه من الآب هو حقه، إذ هو الابن الذي ولده الآب[٧].

❖ ليس من أمر ما مستبعد، فالابن له ذات الإرادة التي للآب[٨].

القديس أمبروسيوس

٣. وعد باللقاء معهم بعد قيامته

"**بعد قليل لا تبصرونني،**

---

[١] أن الروح القدس منبثق من الآب والابن (راجع بحثنا عن الفيلوك في الحوار مع الكنيسة الكاثوليكية).

[2] *Cross: Oxford Dictionary of the Christian Church, 1985, p. 423.*

[3] *Photius: De S. Spiritus Mystaggia 22.*

[4] *Photius: De S. Spiritus Mystaggia 29.*

[5] *Of The Holy Spirit, 2:11 (118).*

[6] *Of the Holy Spirit Book 3:18:223.*

[7] *Of the Christian Faith, 4:8:80.*

[8] *Of the Christian Faith, 2:6 :51.*

ثم بعد قليل أيضًا تروننني،
لأني ذاهب إلى الآب". [١٦]

إن كان السيد المسيح يجتاز طريق الألم والموت فهو يفارقهم بالجسد إلى حين، يدعو هذا "**قليلاً**"، إذ يعود فيظهر لهم بعد قيامته ويهبهم راحة وتعزية. بعد قليل يموت، فيختفي عنهم ثم يقوم، وبعد قليل يصعد إلى السماء إلى الآب، ثم يعود على السحاب ليحمل كنيسته إلى المجد الأبدي. فالزمن طال أم قصر هو قليل جدًا، لأنه ليس من وجه للمقارنة بين الزمن والأبدية. وكما يقول القديس بطرس الرسول: "ولكن لا يُخف عليكم هذا الشيء الواحد أيها الأحباء، أن يومًا واحدًا عند الرب كألف سنة، وألف سنة كيومٍ واحدٍ. لا يتباطأ الرب عن وعده، كما يحسب قوم التباطؤ، لكنه يتأنى علينا" (٢ بط ٣: ٨-٩). كأنه يقول إن دوري يستلزم تركك، لكن هذا الترك هو لحسابكم، لخلاصكم ولمجدكم.

❖ "**ثم بعد قليل أيضًا تروننني، لأني أنا ذاهب إلى الآب**". فإنه يوضح أنه لا يهلك، لكن موته هو انتقال. هذا هو إعلان لهم أنه سيعود، وأن مفارقته تكون إلى حينٍ، إذ يأتي إليهم ثانية، وأن انفصالهم (عنه) إلى لحظات، ولكن تبقى صحبته لهم مستمرة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فقال قوم من تلاميذه بعضهم لبعض:
ما هو هذا الذي يقوله لنا،
بعد قليل لا تبصروننني،
ثم بعد قليل أيضًا تروننني،
ولأني ذاهب إلى الآب". [١٧]
"فقالوا ما هو هذا القليل الذي يقول عنه؟
لسنا نعلم بماذا يتكلم". [١٨]

تحنن السيد المسيح، إذ رآهم في حيرة لا يدركون كلماته، وإذ لم يجسر أحدهم أن يسأله كانوا يتهامسون فيما بينهم يسألون بعضهم البعض عما يقصد. لم يتركهم هكذا في حيرتهم فبدأ يفسر لهم كلماته.

❖ لم يعرف التلاميذ ما قاله لهم السيد المسيح، فمن هذه الجهة يتعجب على حالهم كيف أنهم سمعوا

[1] *Hom. 79. PG 59-465.*

هذه الأقوال دفعات كثيرة، وصاروا كمن لم يسمعوها.

قال السيد المسيح هنا هذا القول في توصية تلاميذه وإيضاحه لهم عظمة حبه، لإظهاره ذاته من هو.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فعلم يسوع أنهم كانوا يريدون أن يسألوه،
فقال لهم:
أعن هذا تتساءلون فيما بينكم؟
لأني قلت بعد قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضًا ترونني". [١٩]
"الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون، والعالم يفرح.
أنتم ستحزنون، ولكن حزنكم يتحول إلى فرحٍ". [٢٠]

إذ لم يستطِع التلاميذ أن يدركوا ما يقوله حدثهم بصراحة أنهم سيحزنون بسبب آلامه وصلبه وموته. لقد عرف أنهم مشتاقون إلى المعرفة لذلك شرح لهم الأمر. لم يخبرهم في تفاصيل، إنما أخبرهم بما سيحل بهم، ويمس مشاعرهم من حزن ثم فرح. لم يحدثهم بأكثر من هذا حتى لا يزداد ارتباكهم، إنما أكد أن ذلك يؤول إلى فرحهم وإلى تمتعهم بميلاد جديد.

يجد الأشرار فرحهم ومسرتهم في حزن القديسين وآلامهم، بينما يجد المؤمن مسرته في مشاركة المتألمين، حاسبًا آلام كل إنسان كأنها آلامه الشخصية.

❖ أراهم أن بعد الحزن يكون الفرح، وأن الحزن يولد السرور، وأنه لمدة قصيرة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يُفهم من ذلك بأن التلاميذ قد أُلقوا في حزن على موت الرب، وفي الحال امتلأوا فرحًا بقيامته. أما العالم الذي يعني به الأعداء الذين قتلوا المسيح، فكانوا حتمًا في نشوة من الفرح بقتل المسيح في الوقت نفسه الذي كان فيه التلاميذ في حزنٍ[1].

القديس أغسطينوس

"المرأة وهي تلد تحزن،
لأن ساعتها قد جاءت.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 101:2.*

ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح،
لأنه قد وُلد إنسان في العالم". [٢١]

لم يعدهم بنزع الضيقات، لكنه وعدهم بتقديم فهم جديد للألم، إذ يجعله كألم المخاض، الذي يليه ولادة طفلٍ، فيحتل الفرح موضع الألم.

❖ ما يقوله هو من هذا النوع: "ستحل بكم آلام الطلق، ولكن أوجاع الولادة المفاجئة تسبب لكم فرحًا". كلاهما يثبتان كلماته بخصوص القيامة، ويظهر أن الرحيل هو أشبه بعبور من الرحم إلى نور النهار. حتى الأم لكي تصير أمًا تعبر كما في حزن. هنا أيضًا يطبق أمرًا باطنيًا، إذ تحل أوجاع طلقات الموت التالي لتأتي بإنسانٍ جديد ناتج عنها. إنه لم يقل فقط أن الحزن يعبر، بل ولا تعود تذكره. يا لعظم الفرح الذي يتبعه! هذا ما سيكون مع القديسين... هنا لا يقول إن طفلاً يولد بل "إنسان". بالنسبة له إنه يلتصق هنا بقيامته، وأنه لا يَلد بطلقات الموت بل يُولد للملكوت[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فأنتم كذلك عندكم الآن حزن،
ولكني سأراكم أيضًا، فتفرح قلوبكم،
ولا ينزع أحد فرحكم منكم". [٢٢]

إن كنا نتمتع بكمال الفرح في الأبدية غير أننا ننال عربونه هنا، فنحيا في فرحٍ داخليٍ لا ينقطع (٢ كو ٦: ١٠). سرعان ما يتحول فرح العالم بمسراته ومباهجه إلى حزنٍ، لأنه عالم متقلب على الدوام. وسرعان ما يتحول الحزن الروحي إلى فرحٍ دائمٍ، لأنه فرح المسيح غير متغير. يقدم السبب لفرحنا الذي لا يُنزع منا، وهو رؤيته لنا أو ظهوره لنا، يرانا أعضاء جسمه ونراه رأسنا. فإنه يبدو كمن قد تركنا لحيظة ليعود فيجمعنا بمراحمه العظيمة وغنى نعمته (إش ٥٤: ٧).

عودته هي عودة للفرح إلى القلب، يعود كمصدر حقيقي للفرح الداخلي الدائم، وشبع للنفس. هذا الفرح لا يستطيع أحد ولا تستطيع الأحداث أن تنزعه عنا، إذ لا تقدر أن تغتصب النفس من مخلصها، ولا أن تسحبها من محبة المسيح لها.

❖ "**لا ينزع أحد فرحكم منكم**" [٢٢]، لأن فرحهم هو يسوع نفسه[2].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Hom. 79. PG. 59:466.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 101:3.*

❖ ذكر هذا المثل ليوضح أن الحزن وقتي، وأن السرور دائم ثابت، وأن الفائدة من المخاض عظيمة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. استجابة صلواتهم

أما السبب الثاني لفرحهم الدائم أنه إذ يُظهر المسيح نفسه لهم ويراهم، يرتبطون بالآب فيطلبون باسم المسيح فينالوا مهما كانت طلبتهم.

يعاتبهم أنهم لم يطلبوا شيئًا بعد باسمه لكي يكون فرحهم كاملاً. وماذا يطلبون إلاَّ سكنى الثالوث القدوس فيهم؟!

"**وفي ذلك اليوم لا تسألونني شيئًا.**

الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم". **[٢٣]**

لا يحتاجون بعد أن يطلبوا شيئًا بعد ظهور السيد المسيح لهم، إذ فيه كل الكفاية. هكذا يتجلى السيد المسيح القائم من الأموات في القلب فيشبع كل احتياجاته، ولا يدعه معوزًا شيئًا. لا يطلبون شيئًا، لأن الروح القدس يهبهم كل الحق، ويقودهم فيه، فيتمتعون بملكوت المسيح.

❖ فإن قلت: وما معني قول السيد المسيح: "**إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم**"؟ أجبتك: أي أنهم لا يحتاجون وسيطًا، لكن إذا ذكروا اسمه فقط يجازيهم بأن يأخذوا جميع مطالبهم، وبذلك أراهم قوة اسمه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الكنيسة في الوقت الحاضر في حالة مخاض تشتهي تلك الثمرة التي لتعبها، لكنها عندئذٍ ستلد تأملاً واقعيًا. الآن تتمخض لتلد في أنين، عندئذٍ تلد في فرح. الآن تلد خلال صلواتها، عندئذٍ تلد بتسابيحها[1].

❖ الرب غير متوانٍ بخصوص وعده، بعد قليل سنراه، حيث لا نعود نسأل شيئًا... إذ لا يوجد شيء نشتهيه، ولا يوجد شيء مخفي نسأل عنه. هذا القليل يبدو لنا طويلاً، لأنه لا يزال مستمرًا وسينتهي، عندئذٍ نشعر كم كان هذا الوقت قليلاً[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 101:5.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 101:6.*

❖ في العالم المقبل إذ نبلغ الملكوت حيث نصير مثله، إذ نراه كما هو (١ يو ٣: ٢)، ماذا عندئذٍ نطلب، إذ ستتحقق كل رغبتنا بالصالحات (مز ١٠٣: ٥)؟ وكما يُقال في مزمورٍ آخر: "سأشبع عندما يُعلن مجدك" (مز ١٧: ١٥). فإن الطلبة تُمارس بسبب نوع من الاحتياج، الأمر الذي لا موضع له حيث يسود الفيض[1].

القديس أغسطينوس

"**إلى الآن لم تطلبوا شيئًا باسمي.**
اطلبوا تأخذوا،
ليكون فرحكم كاملاً". **[٢٤]**

إلى تلك اللحظات لم يطلبوا شيئًا، لكن متى جاء ذاك فهو يعلمهم الصلاة فيطلبوا الاتحاد مع الله الآب بالابن الوحيد الجنس في الروح القدس.

❖ يعرف الرب يسوع كيف أن نفس الإنسان، أي الذهن العاقل الذي خُلق على صورته، لا تقدر أن تشبع إلاَّ به وحده...

يعرف أنه قد أُظهر وأنه مخفي. يعرف أن فيه قد أُعلن ما هو مخفي. يعرف هذا كله. يقول المزمور: "يا لعظم فيض عذوبتك يا رب، التي أخفيتها للذين يخافونك، التي تصنعها للذين يترجونك" (مز ٣٠: ٢٠ *LXX*).

عذوبتك عظيمة ومتعددة أخفيتها للذين يخافونك...

فلمن تفتحها؟ للذين يترجونك.

سؤال بجانبين قد أُثير، لكن كل جانب يحل الآخر...

هل الذين يخافون والذين يترجون مختلفون؟

أليس الذين يخافون الله هم يترجونه؟...

للناموس الخوف، وللنعمة الرجاء... الناموس ينذر من يتكل على ذاته، والنعمة تعين من يثق في الله... نحن نسمع الناموس. فإن لم توجد نعمة، تسمع العقوبة التي تحل بك... لتصرخ: "ويحي أنا الإنسان الشقي!" (رو ٧: ٢٤). لتعرف نفسك أنك منهزم، لتكن قوتك في خزي ولتقل: "ويحي أنا الإنسان الشقي! من ينقذني من هذا الجسد المائت؟"... هكذا ينذر الناموس من يعتمد على ذاته.

انظر هوذا إنسان يعتمد على ذاته، يحاول أن يجاهد، إنه منبطح ومُستعبد وأُخذ أسيرًا. من تعلم

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 102:3.*

أن يعتمد على الله، وقد بقي الناموس ينذره ألا يعتمد على ذاته، الآن تسنده النعمة. إذ يعتمد على الله. في هذه الثقة يقول: "من ينقذني من جسد هذا الموت؟ نعمة الله بيسوع المسيح ربنا" (رو ٧: ٢٤–٢٥ *Vulgate*).

الآن انظر إلى العذوبة، تذوقها، تلذذ بها. اسمع المزمور: "ذوقوا وانظروا ما أعذب الرب" (مز ٣٤: ٨ *Vulgate*). يصير عذبًا لك، إذ ينقذك.

كنت في مرارة ذاتك، عندما اعتمدت عليها. لتشرب العذوبة، ولتتقبل غيرة الفيض العظيم هكذا[1].

❖ ما تسألونه يُحسب كلا شيء بالنسبة لما أريد أن أعطيكم. لأنه ماذا سألتم باسمي؟ أن تخضع الشياطين لكم. لا تفرحوا بهذا، فإن ما قد سألتموه هو لا شيء، فلو كان ذلك شيئًا لكان يسألهم أن يفرحوا...

"**لكي يكون فرحكم كاملاً**"، أي اسألوا ما يشبعكم.

عندما تسألون أمورًا زمنية لا تسألون شيئًا. "من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا" (يو ٤: ١٣)...

اسألوا ما يشبعكم!

تحدثوا بلغة فيلبس: "يا رب أرنا الآب وكفانا" (يو ١٤: ٨). قال له الرب: أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفني؟ من رآني يا فيلبس، فقد رأى الآب أيضًا" (يو ١٤: ٩ *Vulgate*).

قدم تشكرات للمسيح الذي صار ضعيفًا لأجلكم لأنكم ضعفاء، ولتكن رغباتكم معدة للاهوت المسيح لكي تشبع بها[2].

❖ قوله: "**كل ما طلبتم**" يجب ألا يُفهم أنه أي طلب كان، بل أي شيء يكون بالحقيقة له علاقة بالحياة المطوَّبة.

وما جاء بعد ذلك: "**إلى الآن لم تطلبوا شيئًا باسمي**" [٢٤] يُفهم بطريقتين: إما أنكم لم تطلبوا باسمي، إذ لم تعرفوا اسمي بعد كما يجب، أو أنكم لم تطلبوا شيئًا، إن قورن بما يجب أن تطلبوه، فما تطلبونه يُحسب كلا شيء[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Sermon on N.T. Lessons, 95:1-5.*
[2] *Sermon on N.T. Lessons, 95:6.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 102:2.*

"قد كلمتكم بهذا بأمثالٍ،
ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضًا بأمثالٍ،
بل أخبركم عن الآب علانية". [٢٥]

إنه يقدم لنا معرفة عظيمة عن الآب، لنلتمس فيه أبوته، وندخل إلى أسراره، ونتأمل مجده الفائق. لن يكون الآب غريبًا عنا، وهذا ما يجعل فرحنا كاملاً.

مع كل ما شرحه لهم يحسب أنه لم يكشف لهم كل الأسرار الإلهية، لأنهم لم يكونوا بعد يحتملونها. إنه يكلمهم بأمثالٍ وليس علانية. أما بعد قيامته وصعوده وحلول الروح القدس عليهم فأخبرهم عن الأسرار علانية.

❖ كأن السيد المسيح يقول لهم: عند قيامتي ستعرفون أقوالي كلها معرفة واضحة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **القديس أغسطينوس** أن "**الساعة**" هنا تعني المستقبل، حين نرى الله وجهًا لوجه. وكما يقول القديس بولس: "فإننا ننظر الآن في مرآة في لغزٍ، لكن حينئذٍ وجهًا لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذٍ سأعرف كما عُرفتُ" (١ كو ١٣: ١٢).

"في ذلك اليوم تطلبون باسمي،
ولست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم". [٢٦]

كأنه يقول لا توجد حاجة أن أخبركم إنني لن أكف عن أن أقدمكم خلال دمي المسفوك عنكم لدى الآب، فإن حبي لكم لن يتوقف، وحب الآب لكم لن ينتهي.

❖ كيف لا يسأل الابن الآب، بل الآب والابن ينصتان إلى من يسألهما! هذا الأمر عالٍ لا يقدر أحد أن يبلغه إلا بعين الذهن الروحية[1].

القديس أغسطينوس

"لأن الآب نفسه يحبكم،
لأنكم قد أحببتموني،
وآمنتم إني من عند الله خرجت". [٢٧]

سرّ حب الآب للمؤمنين هو أن إيمانهم عامل بالمحبة (غلا ٥: ٦). بحبهم للابن يتمتعون بحب

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 102:4.*

الآب لهم. بهذا يتمتع المؤمنون بالدالة لدى الآب، فيطلبون لا في خوف، وإنما بدالة الحب التي لهم لدى أبيهم السماوي المحب لأبنائه.

❖ علة حبنا أننا محبوبون (من الله). بالتأكيد أن نحب الله، فهذه عطية إلهية. إنه هو الذي أعطانا النعمة أن نحبه، أحبنا بينما كنا نحن لا نحبه. حتى عندما كنا لا نسره كنا محبوبين منه، لعلنا نصير موضوع سروره في عينيه. فإننا ما كنا نقدر أن نحب الابن ما لم نحب الآب أيضًا. الآب يحبنا، لأننا نحب الابن، متطلعين إلى أن نتسلم من الآب والابن القدرة أن نحب كلاً من الآب والابن، لأن المحبة تتسكب في قلوبنا بروح الاثنين (رو ٥: ٥). بالروح نحب كلاً من الآب والابن الذي نحبه مع الآب والابن. إذن الله هو الذي يعمل هذا الحب التقوي الذي لنا، وبه نعبد الله. وقد رأى أنه صالح، وعلى هذا الأساس هو نفسه أحب ما قد عمله فينا. لكنه ما كان يعمل فينا لو لم يحبنا أن يعمل فينا[1].

القديس أغسطينوس

٥. صعوده إلى السماء

خرجت من عند الآب،
وقد أتيت إلى العالم،
وأيضًا أترك العالم،
وأذهب إلى الآب". [٢٨]

هنا يحدثهم علانية عن تجسده الذي انتهى به إلى صعوده لكي يحمل البشرية المؤمنة معه. هذا هو سرّ حبه، أنه ظهر في الجسد، وحملنا إلى المجد.

لقد جاء من عند الآب الذي كرسه لهذا العالم وختمه، ونزل إلى عالمنا في تواضعٍ عجيبٍ وحبٍ إلهيٍ فائقٍ. ثم عاد فترك العالم بالجسد، وعاد بصعوده إلى الآب. هذا هو سرّ الإنجيل كله (التجسد الإلهي، وموته بالجسد ثم قيامته وصعوده إلى السماء). هذا هو مفتاح السماء!

❖ "يقول **من عند الله خرجت**"، مبلغًا أن طبيعته هي ذاتها كما هي التي أعطيت له بميلاده[2].

❖ "**خرجت من عند الآب، وأتيت إلى العالم**" العبارة الأخيرة تشير إلى تجسده، والأولى إلى طبيعته[3].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 102:5.*
[2] *On the Trinity, 6 (31).*
[3] *On the Trinity, 6 (31).*

القديس هيلاري أسقف بواتييه

❖ عندما يقول أن المسيح "**خرج**" من عند الآب، لا تتخيل تغيرًا في المكان كما يحدث مع الناس. لا تُفهم "**أنا أتيت**" بلغة الحركة، وإنما بخصوص التجسد[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كان يتحدث عن آلام جسده وقيامته، وبهذه القيامة يؤمن أولئك الذين تشككوا قبلاً. لأنه بالحق اللَّه الحاضر في كل مكان، لا يعبر من موضع إلى آخر. وإنما كإنسان يذهب كما هو بنفسه قد ذهب. لذلك يقول في موضع آخر: "قوموا ننطلق من ههنا" (يو ١٤: ٣١). بهذا يذهب ويأتي، الأمر المشترك بينه وبيننا[2].

القديس أمبروسيوس

❖ لقد جاء من عند الآب لأنه من الآب، وجاء إلى العالم ليظهر للعالم الشكل الجسدي الذي أخذه من العذراء. لقد ترك العالم بانسحابه جسديًا، وانطلق إلى الآب بصعوده كإنسان، لكنه لم يترك العالم بحضوره الفعال المدبر له[3].

القديس أغسطينوس

٦. تركه عند آلامه

"**قال له تلاميذه:**

هوذا الآن تتكلم علانية،

ولست تقول مثلاً واحدًا". **[٢٩]**

توبيخ السيد المسيح للتلاميذ برقةٍ ولطفٍ ومحبةٍ أعطاهم الثقة والشعور بأنه يتحدث معهم علانية، ويرد على أسئلتهم التي في داخل أفكارهم ولم يستطيعوا أن يعبَّروا عنها أو يفصحوا بها. شعر التلاميذ أنه يتحدث معهم بكل وضوح وصراحة، خاصة وأنهم يؤمنون بأنه المسيا العالم بكل شيء، ولا يخفي عنه شيء ما. إنه العارف القلوب وفاحص الكلى، ولا يحتاج أن يسأله أحد، بل يعرف أسرارهم وأفكارهم واحتياجاتهم الداخلية.

يرى **القديس أغسطينوس** أن التلاميذ ظنوا أنه يتكلم علانية ولا يقول مثلاً واحدًا بينما لم تكن بعد

---

[1] *In 1 Cor. Hom. 20.*
[2] *On the Holy Spirit, Book 2:8:80.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 102:6.*

قد جاءت الساعة التي يتحقق فيها ذلك حسب وعده الإلهي. إنما جاءت عندما أكمل حديثه قائلاً: "**هوذا تأتي ساعة وقد أتت الآن، تتفرقون كل واحد إلى خاصته...**" [٣٢][1].

"**الآن نعلم أنك عالم بكل شيء،**
ولست تحتاج أن يسألك أحد،
لهذا نؤمن أنك من الله خرجت". **[٣٠]**

❖ كأنهم قالوا: إنك قد عرفت الظنون التي شككتنا قبل أن نظهرها وأرحتنا منها، إذ قلت: "لأن الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني" [٢٧].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابهم يسوع: الآن تؤمنون**". **[٣١]**

يجيبهم السيد المسيح: "أتؤمنون؟ هل سيبقى إيمانكم ثابتًا؟ إنه قد اقتربت الساعة التي فيها تتفرقون وتتركونني**!**"

❖ ليت البشر لا يستبعدون التفكير في الابن عندما يقرأون عن اللَّه فقط، ولا يستبعدون التفكير في الآب عندما يقرأون عن "الابن" وحده.

الابن على الأرض ليس بدون الآب (يو ١٠: ٣٠)، فكيف تظن أن الآب في السماء بدون الابن؟...

الابن في الجسد، وهو ليس وحده، كما هو مكتوب: "**وأنا لست وحدي لأن الآب معي**"، فهل تظن أن الآب يسكن وحده في النور؟[2]

القديس أمبروسيوس

"**هوذا تأتي ساعة وقد أتت،**
الآن تتفرقون فيها كل واحدٍ إلى خاصته،
وتتركونني وحدي،
وأنا لست وحدي،
لأن الآب معي". **[٣٢]**

جاء السيد المسيح ليحتل مكاننا حتى ننعم بشركة مجده. فنحن جميعًا كثيرًا ما نعاني من الشعور

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 104:1.*
[2] *On the Christian Faith, Book 3:3:22-23.*

بالعزلة. قد يحيط بنا الوالدان لكننا من الأعماق نصرخ مع داود النبي: "أبي وأمي قد تركاني..." وقد يحوط بنا الأحباء والأصدقاء، لكننا نئن: "ليس من يشاركني مشاعري، ولا من يدرك أعماقي، ويشعر بأحاسيسي". هذه صرخات النفس التي تحطمها الخطية وتعزلها عن إلهها مشبعها الحقيقي. ليس من يقدر بعد أن يملأ الفراغ الداخلي. أما وقد جاء السيد المسيح بلا خطية فإنه لن يعاني قط من شعور داخلي بالعزلة، لأنه لن ينفصل قط عن الآب وعن روحه القدوس. لكنه صار وحيدًا وسط البشر، حيث جاء إلى خاصته، وخاصته لم تقبله، وفي ساعة ضيقه تركه تلاميذه وصار وحيدًا، لكنه يعلن: "**وأنا لست وحدي، لأن الآب معي**" [٣٢]. هذه صيحة النصرة التي تهتف بها كل نفس اتحدت مع مسيحها المتألم، فإنها لن تعاني من العزلة، ولن تشعر أنها وحدها! لأن الله ساكن فيها لا يفارقها.

٧. غلبته لحسابهم

"**قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام.**

في العالم سيكون لكم ضيق،

ولكن ثقوا (افرحوا) أنا قد غلبت العالم". **[٣٣]**

بالإيمان يحل المسيح في قلوبنا، فنتمتع بنصرته نصرة لنا. "وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا. من هو الذي يغلب العالم إلاَّ الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله؟!" (١ يو ٥: ٤-٥).

السلام الذي يقدمه السيد المسيح لهم يحمل الحياة المطوَّبة المشرقة، ليتمتعوا بروح القوة والنصرة مع التعزية السماوية والسند الإلهي.

لم يخفِ عنهم أنه سيكون لهم في العالم ضيق، لكنه يطالبهم بالبهجة والسرور وسط الضيق، لأنه يتجلى في حياتهم كغالبٍ للعالم الشرير.

قيل أن فنانًا أراد أن يقدم لوحة عن السلام فاختار يومًا عاصفًا جدًا وصوَّر صخرة عظيمة تخبطها الأمواج من كل جانب، وقد ظهرت في اللوحة سفينة حطمتها الأمواج وجثث بعض النوتية والمسافرين تطفو على المياه وسط دوامات الأمواج. في وسط هذه الصخرة أقامت حمامة عشًا في نقرة وقد رقدت في النقرة مطمئنة جدًا، وسجل الفنان كلمة "سلام" على الصخرة تحت النقرة مباشرة. هكذا سلامنا هو في المسيح يسوع صخر الدهور. فيه نستقر ونستريح وسط كل دوامات الحياة وتجاربها.

❖ قول السيد المسيح لتلاميذه في العالم سيكون لكم ضيق، أي مادمتم موجودين في العالم تقاسون ضغوطًا ولا تقاسون ذلك الآن فقط لكنكم تقاسونه فيما بعد أيضًا.

❖ يسمح لنا نحن أيضًا أن نغلب، متطلعين إلى رئيس إيماننا، ونسير في ذات الطريق الذي قطعه من أجلنا... أننا لسنا مائتين بسبب صراعنا مع الموت، بل نحن خالدون بسبب نصرتنا... هل يفسد الموت أجسامنا؟ ما هذا؟ أنها لن تبقى في الفساد، بل تصير إلى حال أفضل...

إذن لنغلب العالم، لنركض نحو الخلود، لنتبع الملك، لنُعِد النصب التذكاري للغلبة، لنستخف بملذات العالم. لسنا نحتاج إلى تعب لإتمام ذلك.

لنحول نفوسنا إلى السماء، فينهزم كل العالم! عندما لا تشتهيه تغلبه؛ إن سخرت به يُقهر.

غرباء نحن ورُحَّل، فليتنا لا نحزن على أي أمورٍ محزنة خاصة به[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إننا نثق في ذاك الذي قال: "افرحوا، أنا قد غلبت العالم" [٣٣]، لأننا ننال النصرة على عدونا إبليس، بمعونته وحمايته[2].

❖ لماذا يقول لنا: "**افرحوا**" إلاَّ لأنه قد غلب لأجلنا، وحارب لأجلنا؟

فإنه أين حارب؟ لقد حارب بأن أخذ طبيعتنا له...

لقد غلب من أجلنا نحن الذين أظهر لنا قيامته...

التصق يا إنسان بالله، هذا الذي خلقك إنسانًا. التصق به جدًا، ضع ثقتك فيه.

أدعه، ليكن هو قوتك. قل له: "فيك يا رب قوتي".

عندئذٍ تتغنى عندما يهددك الناس، وأما ما تتغنى به يخبرك الرب نفسه: "إني أترجى الله، لا أخشى ماذا يفعل بي الإنسان" (مز ٥٦: ١١)[3].

❖ في التجربة التي يواجهونها بعد تمجيده قبلوا الروح القدس، ولم يتركوا (السيد المسيح).

إن كانوا قد هربوا من مدينة إلى مدينة لكنهم لم يهربوا منه هو.

بينما تلحق بهم التجربة في العالم يجدون فيه سلامًا.

عوض كونهم شاردين منه بالأحرى يجدون فيه ملجأ. فإنهم بعمل الروح القدس فيهم يتحقق فيهم ما قيل الآن: "**كونوا متهللين، أنا قد غلبت العالم**" [٣٣].

كانوا متهللين وغالبين، ولكن في من؟ فيه. فإنه ما يُحسب غالبًا للعالم إلا لكي تغلب أعضاؤه

---

[1] *Homilies on St. John, 78:3.*
[2] *Letters, 39.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 67:4.*

العالم. لهذا يقول الرسول: "شكرًا لله الذي يهبنا الغلبة" مضيفًا في الحال: "بربنا يسوع المسيح" (١ كو ١٥: ٥٧)[1].

القديس أغسطينوس

من وحي يو ١٦

لا تتركني وحدي!

❖ هوذا يصوب العالم سهامه ضدي!
إنه يحسب في موتي خدمة لله وله!
تعزيتي أنه أراد الخلاص منك، ولم يدرِ أنك مخلصه.
إنه يود الخلاص مني، فلن أكف عن محبتي له!

❖ لا تتركني وحدي،
فيما أنت مجرب تقدر أن تعين المجربين مثلي!
لقد صعدت إلى سماواتك،
لكنك لم تفارقني، فأنت مالئ السماء والأرض.

❖ أرسلت لي روحك القدوس، مصدر تعزيتي.
ليبكتني على خطيتي، فأمتلئ رجاءً بغافر الخطايا!
ليبكتني على برّ، فأتراءى أمام الآب مختفيًا في برّك!
ليبكتني على دينونة، فأرى إبليس مُدانًا تحت قدمي!

❖ ليقودني روحك إليك،
ويعلن لي حقك كله،
فأتعرف على خطتك نحوي!
بحلوله فيّ تتجلى أنت في أعماقي.
أراك وأسمعك وأتلامس مع حبك!

❖ روحك العذب يفيض بعذوبتك في أعماقي.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 103:3.*

وسط آلام العالم أتمتع بتعزياتك الإلهية.
يحملني إليك وأنت في البستان وحدك.
تركك الكل، لكن لن يقدر أحد أن يفصلك عن أبيك.
هب لي في وحدتي أن أتمتع بالشعور بحضرتك الإلهية!
نعم أقول إنك لا تتركني وحدي!

الأصحاح السابع عشر

الصلاة الوداعية

بعد هذا العرض المفرح والمعزي لحديث السيد المسيح الوداعي المسهب مع التلاميذ الذي شغل قرابة أربع أصحاحات (١٣-١٦) يقدم لنا الإنجيلي يوحنا الصلاة الوداعية العلنية أمامهم. وهي حديث فريد مقدم من الابن في اللحظات الأخيرة قبل تسليمه للصلب. تختلف عن الصلاة الربانية التي علمنا إياها السيد المسيح نفسه، لأن الأخيرة تركز على طلب غفران الخطايا، أما هذه الصلاة فتكشف عما في قلب السيد المسيح من اشتياقات نحو الكنيسة يحققها خلال الصليب. لم يكن محتاجًا إلى الصلاة لمغفرة الخطايا لأنه بلا خطية، بل هل نفسه غافر الخطايا.

تعتبر أطول صلاة للسيد المسيح سجلها لنا الإنجيليون، لكننا لا نستطيع القول بأنها أطول حديث بين السيد المسيح والآب، فقد قضى الليل كله مصليًا قبل اختياره الاثني عشر تلميذًا (لو ١٢: ٦). كما وُجدت مناسبات أخرى قضى فيها فترات طويلة للصلاة.

لهذه الصلاة قدسية خاصة في نظر المؤمنين حيث جاءت في ظل الصليب. إنها **تناسب ذاك الشفيع الكفاري الفريد** حيث يحمل كنيسته فيه كأعضاء جسده المقدس ليقدمها لأبيه القدوس. هي **طلب بنوي** من أجل الخلاص [٢٤]، يمزق الحجاب الذي فصل البشرية عن الآب.

تُعتبر **صلاة عائلية** قدمها رب العائلة: يسوع المسيح عن عائلته، التلاميذ أو الكنيسة ككل. أو **صلاة وداعية**، قدمها على مسمع من تلاميذه، بعد حديثه الوداعي معهم عن سرّ علاقته مع الآب، الآن يتحدث مع الآب علانية من أجلهم، ليكشف لهم عن دوره لدى الآب من جهتهم.

هي **صلاة كهنوتية**، وكما يقول **القديس إكليمنضس الإسكندري** أن يسوع في هذه الصلاة هو رئيس الكهنة الذي يعمل لحساب شعبه، وأن هذه الصلاة تدعى صلاة كهنوتية عليا، أو صلاة رئيس الكهنة. يقدمها كإعداد للبشرية لقبول ثمار ذبيحته الفريدة. وهي تشكل ذروة إعلان سرّ الوحدة بين الآب والابن[1]. إنها ليست عملاً مجردًا، بل هي حضوره في الآب، حيث يحملنا إلى حضنه.

قدمها **كصلاة سرائرية** بعد تقديم سرّ الفصح المسيحي، أي بعد أن قدم لهم جسده ودمه المبذولين لغفران خطاياهم وحياة أبدية لهم، وقد جاءت **الصلاة من أجل حفظهم** في النعمة التي تسلموها. وكأن السيد المسيح يؤكد لنا حاجتنا إلى الصلاة المستمرة حتى نحفظ النعم الإلهية، أو حتى يحفظنا الله في

[1] *Boris Bobrinskoy: The Mystery of the Trinity, St. Vladimir 1999, p. 83.*

غنى نعم أسراره الإلهية.

هي **صلاة ربانية** يقدمها رب المجد لكي يعلمنا كيف نصلي.

هي صلاة في مواجهة الموت، وقد امتلأت صلاته بالعذوبة، لأنه يواجه الموت من أجل تقديس أحبائه. بارك يعقوب الاثني عشرة بطريركًا (أبًا) قبل موته، وبارك موسى الأسباط الاثني عشر أيضًا قبل موته، والآن يبارك السيد المسيح الكنيسة في العالم كله قبل تقديم حياته ذبيحة حب من أجلهم. الخط الواضح في هذه الصلاة هو تأكيد عملي لما قاله لتلاميذه: "افرحوا، أنا قد غلبت العالم" (١٦: ٣٣). الآن وقد اقتربت جدًا لحظات صلبه، يتطلع إلي موته، لا ككارثة تحل به، بل كنصرة يحققها لحساب البشرية. لقد كرر مرارًا وتكرارًا لتلاميذه هذه الحقيقة، لكنهم لم يكونوا بعد قادرين علي إدراكها، لهذا طلب من الآب مساندتهم في وسط أحداث القيامة حتى يدركوها سريعًا ويتمتعوا بفاعليتها. الآن يسلم تلاميذه في يدي الآب أثناء عبوره طريق الصليب، فإنه ليس من قوى أخرى يمكن أن تسندهم سوى العمل الإلهي.

١. طلبة خاصة به	**١-٥.**
٢. طلبة عامة عن الغير	**٦-١٠.**
٣. طلبة من أجل حفظهم	**١١-١٦.**
٤. طلبة من أجل تقديسهم	**١٧-١٩.**
٥. طلبة من أجل الوحدة	**١١، ٢٠-٢٣.**
٦. طلبة من أجل تمجيدهم	**٢٤-٢٦.**

١. طلبة خاصة به

"تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء". [١]

إذ صار كلمة الله إنسانًا حقيقيًا كاملاً مارس العبادة لتأكيد خضوعه حتى للناموس ولنظام العبادة، وصلى أيضًا ليكشف عن علاقته بالآب، إذ أُتهم بأنه بعلزبول رئيس الشياطين، وأنه ليس من عند الله.

لم يكن السيد المسيح في حاجة إلى الصلاة، لأنه هو واحد مع أبيه في الجوهر. لكنه كممثلٍ لنا يقدم الصلاة عن نفسه: "**مجد ابنك**" [١] لكي لا نكف عن الطلبة من أجل مجدنا فيه.

المسيح بكونه الله نصلي إليه، وإذ صار إنسانًا صار يصلي حتى يكمل فيه كل برّ. لقد قيل له كما قيل لنا: "اسألني فأعطيك" (مز ٢: ٨). وها هو يسأل الآب، معطيًا كرامة خاصة للصلاة، لكي

نجد فيها شبعنا. ويقول الرسول بولس: "الذي في أيام جسده، إذ قدم بصراخٍ شديدٍ ودموعٍ وطلباتٍ وتضرعاتٍ للقادر أن يخلصه من الموت، وسُمع له من أجل تقواه، مع كونه ابنًا تعلم الطاعة مما تألم به" (عب ٥: ٧-٨). لقد اشترى البشرية بدمه، فقدم الدم ليسأل الآب أن يهبه البشرية تسكن فيه فتتبرر. أما نحن فبدونه لا نقدر أن نسأل من الله كأبٍ لنا، ولا نقدر أن ننال. بصلاته قدس صلواتنا، وفتح لنا طريق الالتقاء مع الآب خلال المسرة الإلهية. صلى باسمنا، إذ يعرف أعماق قلوبنا (خر ٢٣: ٩) ويدرك تمامًا احتياجنا، وهو الطريق الذي وحده يصعد إلى السماء، إلى حضن أبيه، لذا فهو وحده القادر أن يقدس صلواتنا.

رفع السيد المسيح عينيه إلى السماء كما فعل ذلك من قبل (يو ١١: ٤١)، لماذا؟ إنه ساكن السماء بلاهوته ولا يحتاج إلى رفع عينيه إلى السماء كمن يتوسل أمرًا ما من الآب. لكنه إذ صار ابن البشر قدَّس السيد المسيح حتى حركات الجسد، حتى نرفع أعيننا نحن أيضًا مع عينيه، فيرفع قلوبنا إلى السماء أثناء الصلاة (مز ٢٥: ١). كان اليهود في ذلك الوقت يرفعون رؤوسهم إلى فوق، ويفتحون أعينهم نحو السماء أثناء الصلاة، وقد استخدم السيد المسيح ذات الوضع الذي كان سائدًا في أيامه، لكي نلتزم نحن بالعبادة بروح جماعية في تدبير كنسي منظم بلا تشويش. هذا لا يعني أنه لا تقدم الصلاة إلا بهذا الوضع، فقد امتدح السيد المسيح العشار الذي لم يجسر أن يرفع عينيه، هكذا وقد قرع صدره في ندامة (لو ١٨: ٢٣). والسيد المسيح نفسه انحنى أثناء حديثه مع الآب في البستان (مت ٢٦: ٣٩).

"**أيها الآب قد أتت الساعة،**

مجد ابنك، ليمجدك ابنك أيضًا". **[١]**

يدعو السيد المسيح الآب أباه، وهو الأب بالطبيعة، لكي إذ نرفع نحن أعيننا معه، نتطلع إلى الله كأبٍ لنا، وذلك بالتبني الذي نلناه بروحه القدوس. إنه يوجهنا إلى أبيه بروح التشجيع والرجاء في نوال العطايا من يديه الإلهيتين.

"**قد أتت الساعة**" [١]، كثيرًا ما كان يكرر بأن ساعته لم تأتِ بعد. الآن إذ بدأ طريق الصليب يقول: "**قد أتت الساعة**"، وهو يعرفها. لا يعرف الإنسان ساعته (جا ٩: ١٢) أما ابن الإنسان فقد عرفها. دعاها "**هذه الساعة**" (يو ١٢: ٢٧) و"**الساعة**" (يو ١٧: ١). فإنه لا توجد ساعة في كل التاريخ البشري، بل منذ بدء الزمن حتى نهايته كساعة الصليب التي فتحت أبواب السماء، وصالحت البشرية مع الآب، وأعطتهم حق الميراث الأبدي والمجد السماوي.

ساعة آلام المسيح هي في خطة الله؛ ذروة هدف السيد المسيح منذ البداية، بل وقبل تجسده من أجل هذه الساعة. لقد جاءت الساعة الحاسمة حيث المعركة بين السماء والجحيم من أجل مجد الله وسعادة الإنسان على مستوى أبدي. وكأنه يقول: "لقد جاءت الساعة التي فيها اتحدت قوات الظلمة لكي تسيء إلى ابنك، الآن أيها الآب مجد ابنك!" إنها ساعة فريدة، ساعة المعركة بين النور وسلطان الظلمة؛ بين السماء وجهنم. رآها يوحنا الحبيب فقال: "خرج غالبًا ولكي يغلب" (رؤ ٦: ٢)، خرج ممتطيًا مركبة الصليب التي تحطم كل قوات الظلمة.

في وسط الآلام التي قبلها الابن بمسرة مجد الآب ابنه أثناء آلامه، عندما حاولت الجموع القبض عليه فسقطوا على الأرض، وبعد أن سلمه يهوذا اعترف بجريمته وختمها بانتحاره، وأرسلت امرأة بيلاطس إلى زوجها تحذره من أن يصنع به شرًا. مجدته الطبيعة إذ انكسفت الشمس وانخسف القمر، والصخور تشققت، والقبور تفتحت. أيضًا شهد له الهيكل إذ انشق حجابه. هذا ما شاهدته البشرية أثناء محاكمة السيد وآلامه وموته. هذه كلها أمجاد لكنها لا تشغل ذهن السيد المسيح، وهو يقول: "**مجد ابنك**"، إنما ما يشغله هو المجد الذي لا تنظره العيون الجسدية، هو الغلبة على إبليس والتشهير بقوات الظلمة، وإطلاق الأسرى من الجحيم، ودخول اللص اليمين إلى الفردوس. مجَّده الآب أيضًا إذ أقامه من الأموات، وأرسل الروح القدس على تلاميذه وأسس مملكته في قلوب البشرية. هذا ما كان يشغله ويصلي لأجله.

أراد الشيطان أن يقدم له ممالك العالم أثناء تجربته بشرط أن يجحد بنوته لله ويرفض المجد الذي يقدمه الآب، لكن السيد المسيح كممثلٍ لنا لن يقبل المجد إلا من يدي أبيه، ففيه نرث المجد، إن تقدسنا كأبناء الله.

قدم السيد هذه الصلاة قبل تسليم نفسه للموت ذبيحة عن خطايانا، لكي نقدم صلاة مماثلة في لحظات عبورنا من العالم. عندما نشعر أن ساعة انتقالنا من العالم قد جاءت نصرخ إلى الله: "**قد أتت الساعة**". لتقف بجانبي، ولتعلن عن ذاتك لي. هوذا خيمتي الأرضية تنحل، فألبس البناء المصنوع بغير يدٍ بشرية. كما مجدت نفسي بنعمتك، مجِّد جسدي في يوم لقائي معك على السحاب".

"**ليمجدك ابنك أيضًا**"، فإنني أسلمك إرادتي، وأكرس كل طاقاتي ومواهبي لحساب ملكوتك. نصرتي وخلاصي ومجدي شهادة حية لمجدك الفائق ونعمتك الغنية.

كتب الإنجيلي يوحنا هذا السفر لكي تختبر كل نفس عربون المجد الأبدي في أعماقها، حتى يمكن للإنسان بكليته نفسًا وجسدًا أن ينعم بشركة المجد. لهذا نجد الاسم "**مجد**" قد تكرر في هذا

السفر ١٨ مرة أكثر من أي سفر آخر في العهد الجديد باستثناء الرسالة الثانية إلي أهل كورنثوس، حيث يحدثنا الرسول عن الخادم في آلامه وأتعابه كخادمٍ ممجدٍ بالرب. أما الفعل "**يمجد**" فقد تكرر هنا ٢٣ مرة بينما لم يتكرر في أي سفر آخر في العهد الجديد أكثر من ٩ مرات. وكأن الإنجيلي يوحنا يود أن ننطلق بالروح القدوس لننعم بالأمجاد التي يعدها لنا السيد المسيح. إنه سفر المجد الحقيقي الذي فيه أخلى الكلمة نفسه حتى نلتقي به ونتعرف عليه وعلى حبه ونتحد به فنتمجد معه!

هذا هو مجد الابن أن نتمتع بصليبه فنشاركه أمجاده. وهذا هو مجد الآب أيضًا، إذ احب العالم وبذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية (يو ٣: ١٦) أي ينعم بالمجد الأبدي. هكذا مجد الابن واحد مع مجد أبيه، وهو مجد يقوم لا عن احتياج أو زيادة في مجدهما، وإنما في حبهما لنا ننعم بشركة المجد خلال العمل الإلهي للخلاص.

❖ "**تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء**"، عندما قال السيد المسيح لتلاميذه: "في العالم سيكون لكم ضيق" (يو ١٦: ٣٢)، فلكي لا يزعزع نفوسهم أنهضهم بالصلاة أيضًا، لأنهم كانوا ينظرون إليه في صورة إنسان، ولأجل أولئك صلى عند إقامته لعازر، وذكر العلة "أي بسبب الجمع الحاضر". قال: "أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني" (يو ١١: ٤١-٤٢).

ولعلك تقول: نعم كان يجب حدوث هذه الأمور في حضرة اليهود، أما كونها حدثت في حضرة تلاميذه، فلماذا؟ فأجيبك: كان يجب حدوثها أمام تلاميذه، لأن الذين قالوا: "الآن نعلم أنك عالم بكل شيء، ولست تحتاج أن يسألك أحد" (يو ١٦: ٣٠) احتاجوا أن يحقق لهم ذلك أكثر من كل الناس. ولسبب آخر وهو أن البشير لم يدعو فعل السيد المسيح صلاة، لكنه قال: "ورفع يسوع عينيه إلى فوق" (يو ١١: ٤١) وخاطب أباه بقولٍ أكثر اختصاصًا.

وقول السيد المسيح للآب: "**قد أتت الساعة، مجد ابنك، ليمجدك ابنك**" أرانا أيضًا أنه جاء إلى صليبه ليس كرهًا، لأنه كيف يكون كرهًا وهو يبتهل أن يتحقق ذلك، ويسمي ذلك شرفًا ومجدًا ليس للمصلوب وحده، بل ولأبيه معه، لأنه **بالصليب لم يتمجد الابن وحده، بل به تمجد معه أبوه أيضًا.** فإنه قبل الصلب لم يعرف حتى اليهود (الآب)، فقد قيل: "إسرائيل لا يعرفني" (إش ١: ٣)، أما بعد الصلب فقد ركض العالم كله نحوه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Homilies on St. John, 80:1.*

❖ لو أن الابن قد مات (بالجسد) ولم يقم، فإنه بلا شك لا يكون قد تمجَّد بواسطة الآب، ولا هو مجَّد الآب. الآن إذ يتمجد بقيامته بواسطة الآب، يمجد الآب بالكرازة بقيامته. انكشف هذا الأمر بترتيب الكلمات عينه: "**مجد ابنك، ليمجدك ابنك أيضًا**". بمعنى: أقمني حتى بي يعرفك العالم كله[1].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** أن الكلمة اليونانية للمجد (دكصا) تفسر في اللاتينية *clarifica* أو يجعل الأمر ساطعًا. فعندما يكشف الابن عن الآب ويظهر حقيقته، تتعرف الخليقة على حقيقة بهائه فتسبحه. [من هنا قيل في الكتاب المقدس: طوبى للذين يسكنون في ديارك، يسبحونك إلى أبد الأبد" (مز ٨٤: ٤). يستمر التسبيح لله بلا نهاية، **حيث توجد معرفة الله الكاملة. وبسبب كمال المعرفة يوجد البهاء والمجد**[2].]

"**إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد،**

ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته". **[٢]**

إذ هو الابن الوحيد الجنس ينسب سلطانه للآب، بكونه المولود منه، وهو في هذا لا يحمل سلطانًا من مصدر خارجي، لأنه واحد معه في الطبيعة الإلهية والجوهر الإلهي. وبكونه قبل في طاعة أن يتمم خلاصنا ومصالحتنا مع الآب حسب أنه نال منه السلطان. هذا السلطان يختلف عن سلطان ملوك العالم ورؤسائه. سلطانه أن يصالح البشرية مع الآب، ويهبهم البنوة بروحه القدوس، فيصيروا كمن في قرابة، بهذا سلطانه يهب الحياة الأبدية. وهو الحياة الأبدية ذاتها كابن الإنسان تقبل الحياة الأبدية نيابة عن البشرية لكي بحبه يسكبها في كل بشر.

"**أعطيته**": قيل عن القديس يوحنا أنه مُغرم بالفعل "**يعطي**"، فقد تكررت في هذا السفر ٧٦ مرة، وجاءت في هذه الصلاة ١٧ مرة، منها ١٣ مرة عن عطاء الآب للابن، وأربع مرات عطاء الابن لتلاميذه. تكرار هذا الفعل يحمل معانٍ كثيرةٍ في ذهن الإنجيلي. فإنه إذ يتحدث عن الكلمة الإلهي بكونه ابن الله الوحيد الجنس يرى الآب يلد الابن أزليًا فيعطيه كل ما له، لأنه يحمل ذات الجوهر، فهو **يعطي** ليس بالمنحة أو الهبة أو النعمة المقدمة كما من الخارج، لكنه عطاء الآب للابن وهما أقنومان متمايزان لكنهما جوهر واحد. إنه عطاء لا يمكن إدراكه ولا التعبير عنه، لا يخضع للزمن، ولا للتغيير بالنقص أو الزيادة. كل ما للآب فهو للابن، وما للابن فهو للآب من حيث السمات الإلهية.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 105: 1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 105: 3.*

خلال هذا السرّ الإلهي الفائق يرى الإنجيلي أن الابن وقد تجسد يفيض بالعطاء خلال النعمة الإلهية كهبة لمؤمنيه. هذا العطاء مجاني، مقدم من الآب والابن والروح القدس. كل عطية إلهية تقدم لنا من الآب بالابن في الروح القدس كما يكرر **القديس كيرلس الكبير**.

إن كان يحلو للكنيسة في أغلب ليتورجياتها أن تردد لقب "محب البشر" إنما لتؤكد أن مسرة الثالوث القدوس هي في العطاء المستمر للبشر دون توقف، حتى يحملوا أيقونة المسيح، ويتمتعوا بالعرس السماوي معه أبديًا.

كلمة "**جسد**" هنا يعني بها "الإنسان" ككل (تك ٦: ٣)، فهو صاحب سلطان على البشرية، على الأجساد كما الأرواح. فإذ يقدم نفسه ذبيحة مرة واحدة يصالح الكل مع الله، إذ ذاق الموت بنعمته عن كل أحدٍ (عب ٢: ٩). بكونه المسيا مخلص العالم الذي صار إنسانًا لتحقيق الخلاص نال من الآب سلطانًا عامًا على كل جسد، أي على كل الجنس البشري، حتى بتقديس ذاته لهذا العمل يصالح الكل مع الآب. بنعمته ذاق الموت من أجل كل أحدٍ (عب ٢: ٩). بهذا تحقق الوعد بأن ينال المسيا ميراثًا جامعًا (مز ٢: ٨) يضم الأمم مع اليهود (٢ كو ٥: ١٤–١٥؛ رو ٥: ٢١؛ ١ تي ٢: ٤–٦). سلطان السيد المسيح على كل البشر، أما الحياة الأبدية فيهبها للمؤمنين الذين يعطيهم الآب لابنه ميراثًا أبديًا. إنه صاحب سلطان على بني البشر ليهب حياة لأبناء الله، ويجعل كل شيء هو لهم (٢ كو ٤: ١٥)، كل الوعود الإلهية هي من أجلهم.

في صلواته من أجل نفسه لكي يمجده الآب حمل حبًا للآب كما لنا، لأن مجده هو مجد لأبيه، وفيه نتمتع بشركة أمجاده، ونختبر قوة قيامته، وتصعد قلوبنا معه لتحمل بهاء مجده!

لم يقل "سيعطي" بل قال: "**يعطي**"، فعطاء الابن لنا؛ أو تقديم ذاته هبة لنا هي **عطية حاضرة الآن**؛ نقبلها ونعيشها ونتمتع بها وننمو فيها، حتى ننعم بها بصورة أعظم وأبهى يوم لقائنا معه وجهًا لوجه.

❖ إن قلت: وما هو معني قول السيد المسيح: "**إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد**"؟ أجبتك: قد أظهر مقدمًا أن الكرازة به ليست مقصورة على اليهود وحدهم، ولكنها تمتد إلى العالم كله. هنا يعلن مقدمًا الدعوة الأولي للأمم (بعد رفض اليهود له). فقد سبق فقال: "في طريق الأمم لا تمضوا" (مت ٥: ٥)، لكن اقترب الوقت الذي يقول فيه: "اذهبوا وتلمذوا كل الأمم" (مت ٢٨: ١٩). لقد أظهر أن الآب يريد ذلك.

هذا الأمر كان يعارض اليهود تمامًا، ويعارض التلاميذ أيضًا. فإنه حتى بعد هذا لم يكن سهلاً أن

يقبلوا إعلان الدعوة للأمم إلى أن نالوا تعليم الروح، لأن ذلك فيه عثرة ليست بقليلة لليهود[1].

❖ ماذا يعني "**كل جسد**"؟ بالتأكيد لم يؤمن الكل، لكن من جانبه هو قدم لكي يؤمن الكل، فإن لم يبالِ الناس بكلماته، فالخطأ ليس من جانب المعلم، بل من جانب الذين لم يقبلوا كلماته[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وهذه هي الحياة الأبدية،**

أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك،

ويسوع المسيح الذي أرسلته". **[٣]**

"**الحياة الأبدية**": إذ يقدم المسيح نفسه ذبيحة يبطل مفعول الخطية وهو الموت، ويثبت في المؤمنين وهم فيه، فيتمتعوا به بكونه الحياة التي لا تُقاوم. به يعبر المؤمن فوق حدود الزمن، فتتمتع النفس بالخلود في السماء، ويتمجد الجسد حاملاً طبيعة جديدة لائقة بالأبدية. دُعي الخلاص المقدم من السيد المسيح **حياة أبدية** للأسباب الآتية:

أولاً: صار للمؤمن حق الوقوف أمام العدالة الإلهية متحصنًا بذبيحة المسيح التي تحميه من الموت الأبدي.

ثانيًا: صار للحياة حتى في العالم الحاضر طعمها الخاص ورسالتها، حيث يبث المؤمن في الآخرين روح السعادة والفرح والسلام الداخلي خلال عمل السيد المسيح الخلاصي.

ثالثًا: حياة أبدية، لأنها تتعدى حدود الزمن، وتتحدى الموت.

رابعًا: تكشف عن خلود المؤمن نفسًا وجسدًا.

"**أن يعرفوك**": **المعرفة** هي طريق الحياة الأبدية، معرفة الآب الإله الحقيقي وحده، والعبادة له، والطاعة، وقبول السيد المسيح المعلم والذبيحة والكاهن والمخلص، المسيح الحقيقي وحده.

"**الإله الحقيقي**": الله ليس اسما مجردًا أو فكرة في الذهن، لكنه الإله الحقيقي الذي ينشغل بخليقته، ويهتم بخلاص بني البشر، العملي في حبه اللانهائي. هذا الذي في حبه الإلهي أرسل ابنه الوحيد خلاصًا للبشر. إنها ليست معرفة عقلانية مجردة، لكنها معرفة اختبار وتذوق لخطة الله الخلاصية. إنها تجاوب مع هذه الخطة، فيقبل المؤمن يسوع المسيح ربًا وفاديًا ومعلمًا ومشبعًا لكل احتياجاته. قبول عملي لإرسالية السيد المسيح الإلهية. فيتمتع المؤمن بتجديد حياته المستمر خلال

[1] *Homilies on St. John, 80:1.*
[2] *Homilies on St. John, 80:2.*

عمل روح الله القدوس. بهذا فإن **المعرفة هي حياة وشركة مع من نتعرف عليه**. ما قيل عن الله الحقيقي وحده لا يحمل هنا تعارضًا مع يسوع المسيح، إنما مع العبادة الوثنية وتعدد الآلهة.

يترجم البعض هذا النص: "**لكي يعرفوك، ويسوع المسيح الذي أرسلته، الإله الحقيقي وحده**".

يرى **القديس أمبروسيوس** أن المؤمن أشبه بتاجرٍ ناصحٍ يتقدم إلى مائدة الصيارفة الروحية ليقدم الوزنات والتمسك بالوعود الإلهية مقابل تمتعه بالحياة الأبدية المجانية، فينعم بالمعرفة الإلهية الحقيقية.

❖ هذه هي كلمة الرب، هذه هي الوزنة الثمينة التي بها تخلصون. هذا المال يلزم أن يُرى على مائدة النفوس حتى بالتجارة الدائمة الصادقة للعملات الصالحة يمكن التنقل في كل مكان بشراء الحياة الأبدية. "**هذه هي الحياة الأبدية**" التي تهبها لنا أيها الآب القدير مجانًا، لكي نعرف أنك "**أنت هو الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته**" [٣][1].

❖ بهذا يضع النهاية لأتباع سابيليوس (الذين يدعون أن الأقانيم الثلاثة مجرد ثلاثة أسماء أو أشكال لأقنومٍ واحدٍ) ولليهود، هؤلاء الذين سمعوه يتكلم. فالأولون يلزمهم ألا يقولوا أن الآب هو ذاته الابن، إذ كان يمكنهم هذا لو لم يُضف "**المسيح**" إلى العبارة، والآخرون يلزمهم ألا يفصلوا الابن عن الآب[٢].

❖ تقول الكتب المقدسة أن الحياة الأبدية تستند على معرفة الإلهيات وعلى ثمر الأعمال الصالحة[٣].

القديس أمبروسيوس

❖ "**الإله الحقيقي وحدك**"، يقول ذلك بطريقة ما لتمييزه عن الذين ليسوا بآلهة، إذ كان على وشك أن يرسلهم إلى الأمم... أما إذا لم يقبل (الهراطقة) هذا، بل بسبب كلمة "**وحده**" يرفضون أن يكون الابن هو الله الحقيقي، فهم بهذا يرفضون كونه الله نهائيًا... لكن إن كان الابن هو الله، وهو ابن الله الذي يدعى "**الإله وحده**"، فمن الواضح أنه هو أيضًا الإله الحقيقي وأن "**وحده**" توضع للتمييز عن الآخرين.

لو أن الابن ليس هو الإله الحقيقي فكيف يكون هو "الحق"؟ ،لأن الحق يفوق بمراحل "الحقيقي"[٤].

---

[1] *On the Christian Faith, Book 5: Prlogue:15.*
[2] *On the Christian Faith, Book 5:1:19.*
[3] *Duties of the Clergy, 2: 2: 5.*
[4] *Homilies on St. John, 80:2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ **أولاً:** لا توجد حياة أبدية في الاعتراف بالله الآب بدون يسوع المسيح.

ثانيًا: يتمجد المسيح في الآب. فالحياة الأبدية بكل دقة هي أن نعرف الإله الحقيقي وحده ونعرف ذاك الذي أرسله، يسوع المسيح[1].

❖ إذن يتمجد الآب بالابن الذي عرفناه به.

المجد هو هذا أن الابن، إذ صار جسدًا، قبل منه سلطانًا على كل جسد، مع القيام بإعادتنا للحياة الأبدية...

ولكن ماذا تحتوى أبدية الحياة؟ تخبرنا كلماته: الحياة هي "أن **يعرفوك**" الإله الحقيقي وحده ويسوع المسيح الذي أرسلته. هل يوجد أي شك أو أية صعوبة هنا أو أي تضارب؟ الحياة هي أن تعرف الإله الحقيقي وحده[2].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

"**أنا مجدتك على الأرض،**

العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته". **[٤]**

يعلن السيد المسيح أنه قد جاء لا لكي يستريح بل ليعمل طول نهاره حتى يكمل عمل الخلاص. وإذ يحملنا فيه لا نعرف الراحة إلا في العمل المستمر، حتى نتمم خلاصنا بخوفٍ ورعدةٍ (في ٢: ١٢). لن نسلك بأنصاف الحلول، بل كل الوقت لحساب خلاصنا.

"**أنا مجدتك**": لقد حسب ربنا يسوع أن عمله الخلاصي قد تم فعلاً، إذ أحنى رأسه لقبول الكأس بالحب ليحمل خطايانا في جسده ويقدم نفسه ذبيحة عنا، وكأنه قد تمم رسالته. يتحدث مع الآب أنه أكمل العمل الذي تسلمه من يديه، متطلعًا إلى انتشار الإنجيل في العالم، وتعرف المؤمنين على محبة الله الآب الحقيقي، والتمتع بالاتحاد معه، وتعبد المؤمنين له. لقد مجَّد الآب لأنه سرَّه وتمم عمله الكامل، وفي هذا سرور أيضًا للابن ومجد له.

لم نرَ السيد المسيح يشكو من حياته التي رافقها الصليب منذ الحبل به؛ ولا مما عاناه كابن البشر من إهانات واتهامات وآلام وتجارب، لأنه جاء إلى العمل ليمجد الآب بإعلان الحب الإلهي العملي لكل بشر. وهو في طريق الجلجثة لا يشغله إلا تحقيق إرادة الآب التي هي واحدة مع إرادته. ونحن إذ

---

[1] *On the Trinity, 9: 42.*
[2] *On the Trinity, 3 (13, 14).*

نتحد به نعبر فوق كل الأحداث وكل الآلام لنهتم بمجد الله فينا وفي اخوتنا ونكمل رسالتنا لحساب ملكوت الله. لم يأتِ السيد المسيح إلى العالم ليعبر طريقًا مفروشًا بالورود، وإنما ليجد مسرته في تحقيق كل برّ، كما يجد الآب مسرته فيه، لأنه يخبر عنه عمليًا، ويحقق خطته من نحو الإنسان. لقد تمم السيد المسيح عمل الآب وإرادته لنتمتع بالخلاص، والآن لا يزال يتممه فينا لكي يتجلى في داخلنا فنشاركه أمجاده.

بذات الروح يليق بالخدام، وهم يتمتعون بإمكانية الله لتحقيق خطته الإلهية للخلاص، أن يتطلعوا إلى البشرية بمنظار الرجاء في خلاص الكثيرين. يليق بنا نحن كأعضاء في جسد المسيح أن نمجد الآب بأن نتمم إرادته وعمله قدر استطاعتنا. نمجده على الأرض التي أعطاها لبني البشر كإعدادٍ للعبور إلى الأبدية. يليق بنا أن نثابر حتى النفس الأخير لنتمم العمل الإلهي.

❖ قال السيد المسيح للآب: "**أنا مجدتك على الأرض**"، لأنه قد تمجد في السماء، إذ له المجد في طبيعته، وملائكته ساجدون له، فهو لم يتحدث عن ذلك المجد الذي للآب في جوهره... إنما يذكر المجد القائم من عبادة الناس له...

قال: "**العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته**". فإن قلت: إن كان عمل السيد المسيح لم يكن قد أكمل، فكيف يقول: "**قد أكملته**"؟ أجيبك: إما يعني أنه عمل ما يخصه كله من جانبه، وإما يتحدث عما سيكون كأنه قد حدث. وإما فوق هذا كله أن الكل قد أُنجز، لأن جذر البركات قد أعد، وأن الثمار حتمًا تتبعه بالضرورة، وذلك بحضوره ومساندته في هذه الأمور التي تتحقق فيما بعد. لهذا يقول مرة أخري في تنازل: "العمل الذي أعطيتني"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أي شيء لم تتقبله الطبيعة البشرية في الابن الوحيد؟ ألم تتقبل هذا، أنها لن تصنع شرًا بل كل خير، باتحادها بشخص الكلمة الذي به كان كل شيء؟ لكن كيف أكمل العمل المعهود إليه بينما كان قد بقي بعد دخوله في الآلام الذي به يسند الشهداء، مقدمًا نفسه مثالاً يقتدون به؟ لهذا يقول بطرس الرسول: "فإن المسيح أيضًا تألم لأجلنا تاركًا لنا مثالاً لكي تتبعوا خطواته" (١ بط ٢: ٢١). وإنما يقول أنه أكمل ما قد عرف بتأكيد تام أنه يتممه. وذلك كما استخدم سابقًا في النبوة صيغة الماضي عن أمور تحدث بعد سنوات طويلة. إذ يقول: "ثقبوا يدي رجلي، وأحصوا عظامي"

[1] *Homilies on St. John, 80:2.*

(مز ٢٢: ١٦–١٧). لم يقل: "سيثقبوا وسيحصوا"... هكذا يقول هنا كما لو أنه هو أولاً مجد الآب، ويطلب أن يتمجد. لذلك يلزمنا أن ندرك أنه استخدم كل الكلمات السابقة الخاصة بالمستقبل... وصاغها في الماضي[1].

القديس أغسطينوس

"**والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك،**

بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم". **[٥]**

لأجلنا أخلى ذاته عن مجده، ولأجلنا تمجّد، نال من الآب الكرامة والمجد (١ بط ١: ١٧)، المجد الذي كان له من قبل تأسيس العالم (يو ١٧: ٥).

يضع ربنا يسوع، ملك الملوك، التيجان الملوكية على رؤوس مؤمنيه الأتقياء بيده. ما من درجة من الكرامة مهما علت لا يمكن للَّه أن يرفعنا إليها إن أراد ذلك؛ فهو يرفع المسكين من المزبلة، ويقيمه وسط الأشراف "الملوك الروحيين" (مز ١١٣: ٧–٨). فقد أخذ الرب داود من بين أغنامه، وأقامه ملكًا متوجًا على أعظم عرش في المسكونة كلها في ذلك الحين. في استحقاقات الدم الثمين وهبنا ربنا يسوع المسيح روحه القدوس، الذي يشكل إنساننا الداخلي لنحمل شركة المجد والبهاء بصورة فائقة.

يحمل مجد الابن كرامات وسلطانًا وأفراح من أجل تحقيق إرادة الآب وإتمام العمل. هذا المجد الذي يسأله هو مجده من قبل تأسيس العالم:

أولاً: مجد أزلي، شريك مع الآب في المجد، فهو بهاء مجده (عب ١: ٣)؛ لا ينفصل عنه. ورد تعبير "**قبل تأسيس العالم**" وأمثاله في الكتاب المقدس ليعني الأزلية (يو ١٧: ٢٤؛ مز ٩٠: ٢؛ أف ١: ٤؛ يو ١: ١).

ثانيا: بتأنسه أخلى الكلمة الإلهي ذاته عن مجده، كمن يضع حجابًا يغطي به بهاءه، لكن الحجاب لم يغير من طبعه، ولم ينزع عنه حقيقة مجده الأزلي. إن كان الآب قد تمجد بالابن بتجسد الابن وتنازله حتى الصليب لتحقيق الخلاص، فإن تنازل الابن لن يفقده مجده.

ثالثًا: عاد فارتدى مجده والتحف به، ليفتح لنا طريق المجد السماوي. فباتحادنا بالسيد المسيح الممجد للآب ننعم بشركة المجد في الدهر الآتي.

يطلب الابن أن يلتحف بالمجد الذي له منذ الأزل قبل خلقة العالم، فيتمتع الناسوت الذي التحف

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 105: 4 – 5.*

به ببهاء القيامة من الأموات والصعود إلى السماء، إذ له سلطان أن يضع حياته بالموت ويأخذها بالقيامة، لأنه هو القيامة. يعلن الآب مجد الابن في قيامته وصعوده وجلوسه عن يمينه في الأعالي، فوق كل خليقة (في ٢: ٦–٩). هذا ما أعلنه إشعياء النبي بكل وضوح: "أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن؛ إن جعل نفسه ذبيحة إثم يرى نسلاً تطول أيامه ومسرة الرب بيده تنجح... لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه، فأُحصي مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين" (إش ٥٣: ١٠–١٢). هكذا يُسر الآب بالصليب لأنه به تصير البشرية المؤمنة غنائم يحملها المصلوب إلى العرش الإلهي مبررة وممجدة فيه. **إنه مجد الآب، وهو مجد الابن واهب البرّ، ومجد البشرية التي تشاركه مجده السماوي!** لكنه إذ يحقق مشيئة الآب يقبل الألم كإرادة أبيه، ويقبل القيامة حسب مسرة أبيه.

هذا هو مجد الابن المتجسد، إنه لا ينال مجدًا من الخارج، لكن من الذي له أزليًا ينعكس على ناسوته. إنه لم يطلب أن يتمجد مع رؤساء هذا العالم وسلاطينه. فقد قدم له إبليس في التجربة ممالك العالم فرفض، حتى نستخف بالأمجاد الزمنية ونطلب ما هو سماوي. كأنه يقول: "لتعطي أمجاد العالم لمن يشتهيها، أما أنا فنصيبي في المجد هو معك في السماء على مستوى أزلي. لست أطلب أن أتمجد مع الناس بل معك!"

نصرخ مع مسيحنا لنطلب مجدنا لا على الأرض بل الذي "**عند الآب**"، أي في الأحضان الإلهية، فيتحقق فينا الوعد الإلهي: "من يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبت أنا أيضًا، وجلست مع أبي في عرشه" (رؤ ٣: ٢٠).

❖ تأمل كيف لم يطلب السيد المسيح من الآب أن يمجده بالمجد الذي له على الأرض، لكنه طلب منه أن يمجده بالمجد الذي كان له عنده.

❖ أين هو ذاك المجد؟ إذ سمح ألا يكرم من البشر بسبب الغطاء الذي وضعه حول نفسه، فكيف يطلب أن يمجده الآب؛ ماذا يقول هنا؟ ما يقوله خاص بالتدبير، فإنه إذ لم تتمجد طبيعته الجسدية بعد، ولا نال بعد عدم الفساد، ولا شارك (جسده) العرش الملوكي. لهذا لا يقول: "على الأرض" بل "عندك"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Homilies on St. John, 80:2.*

❖ وهكذا يمكنني أن أذكركم بأمور كثيرة الآن بطرق مغايرة، لكن على أي الأحوال أقدم لكم شهادة أخرى حتى تتأكدوا أن الله يدعى" أبًا البشر"في معنى غير مناسب" أي ليس بالطبيعة.

هكذا خوطب الله في إشعياء: "فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا ابراهيم" (إش ٦٣: ١٦) و"سارة لم تتمخض بنا".

وإذ يقول المرتل: "ليضطربوا من هيئته، أب اليتامى وقاضي الأرامل"" (مز ٦٨: ٥ *LXX*)، أليس من الواضح للجميع أنه يدعو الله أبًا للذين فقدوا آباءهم متأخرًا، ليس لأنه ولدهم بل من أجل اهتمامه بهم وحمايته لهم؟

ولكن بينما نحن ندعو الله أبًا للبشر في معنى غير مناسب، فهو أب المسيح وحده بالطبيعة لا بالتبني.

فبالنسبة للبشر هو أب في زمان، أما للمسيح أب قبل كل زمان، إذ يقول: "**والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم**[1]".

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ نفهم أن المجد الذي لناسوته من أنه وهو قابل للموت يصير خالدًا مع الآب، هذا قد تحقق بالتدبير السابق المحتم قبل وجود العالم، وقد تحقق في الوقت المعين في العالم[2].

القديس أغسطينوس

٢. طلبة عامة عن الغير

"أنا أظهرت اسمك للناس،
الذين أعطيتني من العالم كانوا لك،
وأعطيتهم لي،
وقد حفظوا كلامك". [٦]

طلبته الخاصة به قصيرة جدًا بالنسبة لصلاته من أجل الآخرين، لكنها تسبقها حتى ندرك حبنا لإخوتنا كما لأنفسنا. فإن كنا نطلب من أجل مجدنا الأبدي، ونعلن عن حبنا لخلاصنا، يلزمنا أن نطلب للآخرين كما لأنفسنا. احتلت الصلاة عن الآخرين مركزًا خاصًا، حتى لا تحتل صلواتنا من أجل الكنيسة وخلاص البشرية ركنًا صغيرًا في صلواتنا. لا نضيِّق قلبنا من جهة الغير، بل يتسع

[1] مقال ٧: ١٠.

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 105: 7.*

بالروح القدس، ليطلب بكل فيض من أجلهم.

بعد أن طلب من أجل نفسه ليس عن احتياج، إنما علامة الشركة بينه وبين الآب، والمجد المتبادل بل الواحد فيهما، الآن يطلب عن خاصته، وهم معروفون لديه بالاسم، من أجل كل الذين يؤمنون به ويقبلونه. إنه يعلمنا أننا في الصلاة نربط الحب الإلهي بالحب الأخوي. ففي طلبته عن نفسه كشف عن وحدته العجيبة مع الآب مع اتساع قلبه نحو البشرية.

إنه يريد أن الكل يخلصون وإلي معرفة الحق يقبلون، لكن في هذه الصلاة الشفاعية يقدم الذين يقبلون أن يقدمهم للآب. إنه يود أن يحمل العالم كله إلى العرش، لكنه لا يحمل أحدًا قسرًا، ولا يطلب عمن لا يقبل عمله فيه. إنه يقدم من سُجلت أسماؤهم بدمه في سفر الحياة.

"**أنا أظهرت اسمك للناس**" [٦]. إن كانت الطبيعة تعلن عن الله في حدود معينة، والناموس الموسوي يعلن عنه بالأكثر، فإن تجسد الكلمة قدم إعلانًا كاملاً عن الله في محبته للبشر وسماته. إنه يصلي إلى الآب كمعلمٍ قدم لتلاميذه المعرفة الإلهية، ما تسلمه من الآب بكونه الابن العارف بأسرار أبيه قدمه لتلاميذه حتى يتعرفوا على اسمه أو شخصه. إنه يشرق عليهم بنور المعرفة، فيبدد ظلمة الجهل، فيحبوه ويعبدوه ويمجدوه. في تعليمه لم يطلب ما لنفسه مع أنه واحد مع أبيه، لكنه يطلب أن يتعرفوا على اسم الآب، فإنه لا يعرف الآب إلاَّ الابن ومن يعلن له (مت ١١: ٢٧). هو وحده القادر أن يكشف عن الحق ويدخل بتلاميذه إليه ويدخل بالحق إلى أعماقهم.

"**اسمك**": كان اليهود يتطلعون إلى اسم الله بوقارٍ شديدٍ، فكانوا لا يخاطرون بذكر اسمه "يهوه"، لئلا يخطئ الشخص في نطقه. وكان الكتبة عند نسخ الأسفار المقدسة يمارسون طقسًا خاصًا عند كتابة اسم الله مثل غسل القلم قبل كتابته مباشرة. كان النطق بالاسم يحمل معنى الحضور الإلهي ذاته. وقد حملت الكنيسة الأولى ذات الفكر الإنجيلي، فحسبت النطق باسم "يسوع" يحمل معنى حضرته. وكان الآباء يمارسون "صلاة يسوع" حيث يرددون اسمه إعلانًا عن شعورهم بحضوره بينهم وفي داخلهم. فالاسم ليس مجرد تمييز بين شخص وآخر بلقبٍ معين، وإنما يحمل كيانه كله. فلا نعجب إن قام نبوخذنصر بتغيير اسم متَّنيا إلى صدقيا (٢ مل ٢٤: ١٧). بهذا يعني أن متَّنيا صار رجل نبوخذنصر، وكل من يستخدم اسمه الجديد إنما يدرك أن كيانه مرتبط بنبوخذنصر. وعندما ولدت راحيل ابنًا وكانت في طريقها للموت دعته "ابن أوني" أي "ابن حزني"، لكن أباه رفض أن ترتبط شخصية ابنه بحزن أمه، فأعطاه اسما يملأه رجاءً وقوةً، إذ دعاه "بنيامين" أي "ابن يميني" (تك ٣٥: ١٨).

أيضًا كثيرًا ما يغير الله نفسه أسماء مؤمنيه، لكي يحملوا سمات جديدة لائقة بدعوة إلهية لعملٍ معينٍ. فدعا إبرام إبراهيم إذ جعله أبًا لأممٍ كثيرةٍ (تك ١٧: ٥). وبنفس الطريقة دعا ساراي سارة لتدرك دورها كأميرة. وأيضًا دعا يعقوب إسرائيل، فعوض أن يحمل سمة التعقب لاخوته يتمتع بسرّ قوة الله كجندي أو مصارع من أجل الله (تك ٣٢: ٢٨). وإذ أهان فشحور إرميا وضربه ووضعه في مقطرة غير الله اسمه إلى مجور مسابيب (إر ٢٠: ٣) إذ يحمل سمة الخوف من كل جانب، مشيرًا إلى ما سيناله من عقابٍ إلهيٍ بسبب عنفه.

هكذا أيضًا أمرنا السيد المسيح أن نتمم العماد باسم الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨: ١٩؛ أع ٨: ١٦)، أي بالتمتع بعمل الثالوث وحضرته وسكناه في الشخص المعمد.

هكذا كثيرًا ما يستخدم الاسم في الكتاب المقدس بمعنى الشخص نفسه. فبحبنا لاسم الله إنما نعلن عن حبنا لشخصه وكيانه.

"**الذين أعطيتني من العالم كانوا لك**": يقصد بالذين أعطيتني مبدئيًا التلاميذ الذين قبلوه، لكن الأمر يمتد ليشمل كل الذين يقبلونه عبر الأجيال ويسمعون كلماته ويتجاوبون معها. مع معرفتهم بأسمائهم لم يذكر اسمًا ما منهم، بل طلب باسم الجميع. يكرر كلمة "**أعطيتني**" ليقصد بهم الذين صاروا للمسيح خلال الإيمان به. ينسبهم لله أبيه، ويقدمهم الآب له كعطية ليكونوا ورثة المسيح. بالصليب يقدمهم السيد المسيح للآب مبررين متأهلين للمصالحة معه، والآب بدوره يقدمهم للابن كأعضاء جسده لهم حق الميراث الأبدي.

يُنسبون لله الآب بكونهم خليقته الذين نالوا الحياة بابنه، وبكونهم البقية الباقية الأمينة التي تقدست بدم المسيح، وبكونهم المختارين من قبله.

"**حفظوا كلامك**"، أي ثبتوا فيه واستمروا فيه وعملوا به، تُحفظ الوصية بقبولها داخل القلب ويُختم عليها بممارستها عمليًا. ليظهر التزامنا بدقة التعليم، يقول إنه يعطيهم الكلمات التي أعطاها له الآب. هكذا يليق بنا أن نقدم ذات الكلمات التي قدمها لنا السيد المسيح، والتي أوحى بها روحه القدوس على تلاميذه ورسله القديسين. لقد أودع هذه المعرفة الحية في حياة تلاميذه ورسله الذين اختارهم. هؤلاء **يحفظون الكلمة**، إذ يتقبلون في حياتهم الكلمة المتجسد، وإن كان العالم يرذلهم ويقاومهم.

❖ قال السيد المسيح للآب: "**أنا أظهرت اسمك للناس**"، إذ أظهر اسمه بأقواله وأفعاله.

وقال: "**الذين أعطيتني من العالم**" كما قال قبلاً: "لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم يُعط منه" (راجع ٦: ٦٥) "إن لم يجتذبه أبي". هكذا يقول هنا "الذين أعطيتني". الآن يدعو نفسه "الطريق"، حيث

يؤسس بما يقوله هنا أمرين: أنه لا يعارض الآب، وأن إرادة الآب هي أن يودعهم لدى الابن. "**كانوا لك، وأعطيتهم لي**". هنا يريد السيد المسيح أن يوضح أن أباه يحبه حبًا عظيمًا، لأنه لم يتوسل إليه أن يعطيه إياهم.

وقال: "**وقد حفظوا كلامك**"، كأنه يقول: حفظوه بأنهم صدقوني[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يتساءل **القديس أغسطينوس:** هل الذين كانوا للآب لم يكونوا للابن؟ حتمًا من هم للآب هم للابن أيضًا، فلماذا يقول: "**كانوا لك، وأعطيتهم لي**" [٦]؟ كانوا للآب كما للابن الكلمة، وإذ جاء للعالم متجسدًا قبلوا الابن المتجسد فصاروا تلاميذ له. لم يقل: "**كانوا لنا**" لأن الابن وهو من الآب ينسب السلطان للآب[2].

"**والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك**". **[٧]**

❖ لو جاز أن سأل أحد السيد المسيح: ومن أين علموا ذلك؟! لأجاب: من أقوالي، لأنني علمتهم هذا[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما قال: "**وعلموا يقينًا**" [٧] أراد أن يفسرها: "**وآمنوا**" [٨][4].

القديس أغسطينوس

"**لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم،**
وهم قبلوا وعلموا يقينًا إني خرجت من عندك،
وآمنوا أنك أنت أرسلتني". **[٨]**

ما يقدمه السيد المسيح لتلاميذه هو التعليم الإلهي السماوي، أما جوهره فهو اكتشاف شخصيته أنه من عند الآب خرج.

يدرك المؤمنون أن السيد المسيح هو الكلمة الإلهي المتجسد، تعاليمه هي حقائق إلهية، ووصاياه شريعة سماوية، ووعوده صادقة وأمينة لأنها إلهية.

أعطيتهم الكلمات والتعاليم التي لك، فصار لهم التعليم النقي الصادر مباشرة من السماء، والذي لا

---

[1] *Homilies on St. John, 81:1.*
[2] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 106: 5.*
[3] *Homilies on St. John, 81:1.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 106: 6.*

يمتزج بتعاليم بشرية مفسدة لكلمة الحق.

لقد تأكدوا في يقين إني المسيح الموعود به، وها هم لا يطلبون آخر، إنهم يتمتعون بعملي الإلهي وتعاليمي السمائية.

"من أجلهم أنا أسأل،

لست أسأل من أجل العالم،

بل من أجل الذين أعطيتني لأنهم لك". [٩]

لقد قدم حياته مبذولة من أجل العالم كله، لكنه إذ يصلي أو يشفع بدمه إنما يقدم الذين قبلوه ويؤمنون به. إنه يموت من أجل العالم كله، لكن الرب يعرف تمامًا من يُصرون على رفضه، فهم ليسوا له. لذلك فإن عينيه على وجه الخصوص على الذين أُعطوا له من العالم. أما الذين يصرون على رفضه فيبقون في العالم كالتبن الذي تهب الرياح فتبدده، أو يُلقى في النار، إنه تبن بلا قيمة.

إنه لا يشفع فيمن صمموا أن يملأوا كأس الشر والتمرد وعدم الإيمان، ليس لعدم حبه لهم، وإنما لرفضهم عمله فيهم. إنه لم يقل: "إني أطلب ضدهم"، فهو لا يحمل كراهية، إنما هم الذين يبغضونه ولا يقبلونه. أما نحن فإذ لا نعرف من هم للرب ومن هم ليسوا للرب، ولا نستطيع أن نحكم على أحدٍ، لذلك نلتزم بالصلاة من أجل كل الناس (١ تي ٢: ١، ٤). فحيث يوجد نَفَسْ واحد في إنسان ما نترجى خلاصه، وبهذا الرجاء تجد الصلاة لها مكانًا، فنردد ما يقوله صموئيل النبي: "وأما أنا فحاشا لي أن أخطئ إلى الرب فأكف عن الصلاة من أجلكم بل أعلمكم الطريق الصالح المستقيم" (١ صم ١٢: ٢٣).

لقد كرس السيد المسيح إمكانياته الإلهية لحساب مختاريه لكي يتأهلوا للكرازة بإنجيله في العالم كله. ويصلي من أجل بني البشر الذين يحملهم فيه أبناء لله، لهم حق الشركة في الميراث، ولم يذكر أنه يصلي من أجل السمائيين.

بالحب المتبادل في طاعة للآب يقدم الابن المتجسد دمه ثمنًا لخلاص البشر، وفي حب للابن يقدمهم الآب للابن عروسًا مقدسة. يتقبل الابن هذه العطية من الآب التي لحساب البشر، حيث يُحسبون الأواني المكرمة.

الذين قبلوا كلمة السيد المسيح وآمنوا بها دخلوا في ميثاق جديد مع الآب، فحسبهم السيد المسيح أنهم للآب، إذ يقول: "**إنهم لك**". وهم عطية الآب للابن، إذ أعلن الآب محبته للبشر ببذل ابنه الوحيد الجنس، وإذ تقبلهم الابن كعطية من أبيه حسبهم للآب، إنهم باكورة الله (رؤ ١٤: ٤). خلال الوحدة

الحقيقية نُحسب للابن كما للآب، إننا شعب الله الآب، وشعب المسيح.

❖ "**من أجلهم أنا أسأل** (أصلي)" [٩].

هل أنت تُعلِم الآب (بأمورهم) كما لو كان جاهلاً؟

هل تتحدث معه كما مع إنسان بلا معرفة؟...

ألا ترون أن هذه الصلاة ليست إلا لكي يفهموا حبه لهم؟ فإن الذي ليس فقط يعطي ما له، بل ويطلب من آخر أن يفعل ذات الشيء، إنما يظهر حبًا أعظم.

ماذا إذن "**أنا أسأل من أجلهم**"؟ يقول: "**لست أسأل من أجل العالم، بل من أجل الذين أعطيتني**". إنه يضع على الدوام "**أعطيت**" لكي يدركوا أن هذا يحسبه الآب أمرًا صالحًا.

ولأنه على الدوام كان يقول: "**لأنهم لك**" و"**أنت أعطيتني إياهم**"، فلكي ينزع أي شك شرير، ولئلا يظن أحد أن سلطانه حديث، وأنه نال ذلك حديثًا، ماذا قال؟ "**وكل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي**" [١٠][1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يضيف "**لأنهم لك**" [٩]. فإن **الآب لم يفقد الذين أعطاهم للابن**، حيث أن الابن يستمر قائلاً: "**كل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي**" [١٠]. واضح بما فيه الكفاية كيف أن كل ما يخص الآب يخص الابن أيضًا[2].

القديس أغسطينوس

"**وكل ما هو لي فهو لك،**

وما هو لك فهو لي،

وأنا ممجد فيهم". **[١٠]**

من بين ما للابن هو الشعب المقدس بدمه، فهو أيضًا للآب. حقًا يمكن لأية خليقة أن تقول للآب: "كل ما هو لي فهو لك"، لكن السيد المسيح وحده الواحد معه في ذات الجوهر يمكنه القول: "**وما هو لك فهو لي، وأنا ممجد فيهم**"، فهما واحد ومتساويان في القدرة والسلطان والمجد. ليس بين الآب والابن أي نزاع، ليس بينهما "هذا لك وذاك لي" كما يحدث بين البشر. فمنذ الأزل الآب ولد الابن كالنور من النور، الآب للابن، والابن للآب، لهما جوهر واحد، وطبيعة واحدة. من هم للآب

[1] *Homilies on St. John, 81:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 107: 2.*

بالضرورة هم للابن. ومن يقتني الابن ويتعرف عليه يقتني الآب ويدرك أسراره. كل ما قدمه الابن من بركات للخلاص، إنما هي لمجد الآب، كأنما قدمها منه.

ليس لدى الابن شيء ما ليس لحساب أبيه، ولا ما لدى الآب ليس من عمل ابنه، لأنه هو قوة الآب وحكمته وكلمة قدرته. إذ صرنا أعضاء في جسد المسيح يقدمنا الرأس إلى الآب بكوننا له، إذ يتمجد الآب فينا، خلال ما ننعم به في المسيح من استماع للكلمة وطاعة وشهادة حقة للحب الإلهي وعمل لحساب ملكوته. ما نفعله باسم المسيح، إنما نمارسه بقيادة روحه القدوس لمجد الآب كما الابن والروح القدس.

"**أنا ممجد فيهم**": يعلن السيد المسيح مقدمًا عن نجاح كرازة تلاميذه، خلالها يتمجد المسيح في المؤمنين به في العالم. السيد المسيح ممجد في مؤمنيه الذين يسمعون له، ويطيعونه، ويعملون باسمه، ويكرزون بنعمته؛ هذا المجد مقدم للآب أيضًا.

يطلب السيد المسيح من أجل المؤمنين به، لأنه هو صاعد إلى السماء، آتٍ إلى الآب، وتبقى أعضاء جسده، أي المؤمنون، تمجد الآب، وتشهد له، خلال حملها لاسم المسيح. لقد كرز التلاميذ، وصنعوا آيات باسم المسيح، والروح القدس الساكن فيهم مجَّد المسيح (يو ١٦: ١٤)، وهو ينسب للآب أيضًا.

❖ ألا ترون المساواة في الكرامة؟ فلئلا عند السماع: "**أعطيتني**" يبدو لكم أنهم قد تحولوا عن سلطان الآب، أو كانوا قبل ذلك خارج سلطان الابن، لذلك أزال هاتين الصعوبتين بقوله هذا...

لهذا فإن القول: "**أعطيتني**" قيل من قبيل التنازل، لأن ما للآب هو للابن، وما للابن هو للآب. هذا ما لا يمكن أن يقال عن ابن بالنسبة للبشر، ولكن لأنهما (الآب والابن) هما على مستوي المساواة في الكرامة...

عندئذٍ قدم السبب والبرهان بقوله: "**وأنا ممجد فيهم**"، بمعنى إما "أنا لي سلطان عليهم" أو "هم سيمجدونني ويؤمنون بك وبي ويمجدوننا بالتساوي"...

كيف يتمجد (هو والآب) فيهم بالتساوي؟ لأن الكل يموتون من أجله كما من أجل الآب، ويكرزون به كما يكرزون بالآب، وإذ يقولون أن كل الأشياء صنعت باسمه، هكذا باسم الابن أيضًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Homilies on St. John, 81:2.*

❖ "**وأنا ممجد فيهم**" [١٠]. يحدث الآب عن تمجيده كأنه قد تم، مع أن ذلك حدث في المستقبل. منذ قليل طلب من الآب أن يحقق مجده... بقوله أنه قد تحقق فعلاً، مظهرًا أنه قد تم تدبير ذلك فعلاً، وأراد أن يظهر أنه ما سيتحقق في المستقبل هو أمر أكيد[1].

القديس أغسطينوس

٣. طلبة من أجل حفظهم

"**ولست أنا بعد في العالم،**

وأما هؤلاء فهم في العالم،

وأنا آتي إليك.

أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك.

الذين أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن". **[١١]**

"**ولست أنا بعد في العالم**" كأنه يقول: إنني علي وشك أن أترك العالم حسب الجسد، فهم محتاجون إلى عونٍ خاص ومساندة. محتاجون أن أقدمهم لك لكي تحفظهم في الحق.

إذ يطلب من أجل حفظهم يدعو الله: "**أيها الآب القدوس**". عطيته الثمينة لأبنائه هي القداسة، ليصيروا قديسين كما هو قدوس. إنه يبغض الخطية، لذا يحوط بأبنائه كي لا تتسرب إليهم، وهم بدورهم كأبناء له لا يطيقوا الخطية، ويرتعبون منها كأخطر عدو يواجههم.

"**احفظهم في اسمك**": إذ ينتسب المؤمنون إلى الله القدوس، فمن أجل كرامة اسمه يحفظ أبناءه، وليس لأجل استحقاقهم الذاتي. إذ هو صاعد إلى السماء عند الآب يحمل أسماء مؤمنيه كما على الصدرة، كرئيس الكهنة الأعظم السماوي، يدخل بهم إلى العرش، يحمل لهم كل حبٍ وحنوٍ. لن ينساهم فإن أسماءهم منقوشة على كفه، مختومة على صدره، قائمة داخل قلبه. لقد سبق فأخبر بطرس الرسول أنه سأل من أجله حتى لا يسقط في الخطر المحدق به وهو لا يعلم (لو ٢٢: ٢٣)، قائلاً: "طلبت من أجلك". وهو المخلص يطلب عن تلاميذه لكي يحفظهم الآب بلا عثرة كل أيام حياتهم، ويكونوا دومًا تحت رعايته ووصايته الأبوية، حتى نشاركه ذات الحب، فلا نكف عن الصلاة الدائمة لأجل خلاص الكثيرين وبنيان النفوس وحفظها ونموها في الرب.

إذ يعلن الابن أن الآب أعطاه المختارين ليكونوا له، حيث يقدم الابن دمه كفارة عن العالم كله، يعود يقدم الابن بالحب هؤلاء المؤمنين إلى الآب القدوس، سائلاً إياه: "**احفظهم في اسمك**". لم يطلب

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 107: 3.*

لهم الغنى، ولا المجد الزمني، ولا النصرة الأرضية، لكنه يطلب منه أن يحفظهم في اسمه من الخطية والعالم الشرير، حتى يجتازوا أيام غربتهم، ويبلغوا إلى حضن الآب. يطلب حفظهم في الوصية الإلهية في اسم الآب، مع التمتع بروح الوحدة.

"**الذين أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن**". يربط السيد المسيح بين القداسة والوحدة الحقيقية، **فحيث توجد القداسة يُوجد الحب الفائق الذي يوّحد**، وحيث توجد الخطية يُوجد الحسد والخصام والبغض والانقسام. من ينعم بالقداسة التي من فوق يتمتع بالوحدة على مستوى علوي، فيصير القديسون واحدًا متشبهين بالوحدة بين الثالوث القدوس.

إذ يطلب من الآب أن يحفظهم في اسمه، إنما يعني فيه وفي الإيمان به. أما غاية هذا الإيمان أو هذا التعليم فهو أن يتمتعوا مع كل المؤمنين بالوحدة. يصيروا جسدًا واحدًا وروحًا واحدًا متشبهين بوحدة الآب مع الابن. هكذا يتمجد الآب فيهم.

❖ "**ولست أنا بعد في العالم**" [١١]، بمعنى "مع أنني لا أعود أظهر في الجسد لكنني أتمجد بواسطتهم". ولكن لماذا يقول على الدوام: "**لست في العالم**" وأنني "إذ أتركهم أعهد بهم إليك" وأنه "إذ كنت في العالم كنت أحفظهم؟ لأنه إذ فهم إنسان هذه الكلمات بمعانيها البسيطة فسيلحقه سخافات كثيرة. إذ كيف يُعقل القول أنه لا يعود بعد في العالم، وأنه إذ يرحل يعهد بهم إلي آخر؟ إذ أن هذه كلمات إنسان مجرد يفارقهم أبديًا... لقد أظهر بهذه الكلمات أنه نطق بها هكذا ليهبهم راحةً وفرحًا.

❖ قال: "**احفظهم في اسمك**" أي احفظهم في معونتك.

❖ هذا ما تشككوا فيه... قدم نفسه لأفكارهم، ليأخذوا نفسًا صغيرًا عندما يسمعونه يقول هكذا، ويسلمهم إلى رعاية الآب. فإذ بعد سماعهم نصائح كثيرة لم يستجيبوا دخل في حوارٍ مع الآب معلنًا حنوه عليهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

بعد تحول **القديس غريغوريوس النزينزي** إلى الإيمان المسيحي وجحده للعالم **انبهر فجأة ببهاء الثالوث القدوس الذي حفظه فيه وهو بعد في هذا العالم**، إذ يقول: [منذ اليوم الذي فيه جحدت أمور العالم لكي أكرس نفسي للتأمل المنير السماوي، عندما حملني التفكير السامي ليضعني بعيدًا عن كل

[1] *Hom. 81. PG 59: 480.*

ما يخص الجسد، ويخفيني في أماكن خفية في الخيمة السماوية؛ منذ هذا اليوم وعيناي قد أصيبتا بعمى بنور الثالوث، الذي يتعدّى بهاؤه قدرة الذهن على إدراكه، إذ يشرق على الكل من العرش الممجد جدًا بأشعة مشتركة للثالوث لا يمكن وصفها. هذا هو مصدر كل ما هو هنا تحت، وقد انفصل بالزمن عن الأمور العلوية... **من هذا اليوم مُت عن العالم ومات العالم عني**[1].]

❖ لقد أعلن أنه ليس بعد في العالم، أي بحضوره الجسدي... لقد أوصي الآب الاهتمام بأولئك الذين أوشك أن يتركهم بغيابه الجسدي، قائلاً: "**أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذي أعطيتني**". إنه كإنسان يطلب من الله لحساب تلاميذه الذين استلمهم منه[2].

القديس أغسطينوس

"**حين كنت معهم في العالم كنت احفظهم في اسمك.**

الذين أعطيتني حفظتهم،

ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك ليتم الكتاب". **[١٢]**

"**كنت أحفظهم في اسمك**"، رأينا أنه كثيرًا ما يستخدم الكتاب المقدس تعبير "اسم الله" بمعنى "الله نفسه". فغاية الكلمة المتجسد أن يحفظ مؤمنيه في الآب، بتقديم نفسه لهم بكونه الحق الإلهي. يطلب السيد المسيح حفظ مؤمنيه، كما حفظ هو تلاميذه وهو على الأرض لكي لا يهلك منهم أحد إلاَّ ذاك الذي أصر أن يكون ابنا للهلاك. هكذا يطلب من أجل المؤمنين أيضًا لكي يحفظهم الآب القدوس ليتمموا رسالة الإنجيل المقدسة ويشهدوا للحق الإلهي.

لم يهلك منهم أحد سوى الذي أصر على أن يصير ابنا لإبليس المخادع، فصار ابنا للهلاك بإرادته. لقد نال نعمة التلمذة لكنه أفسد العطية بإرادته الشريرة، ومحبته للمال. يدعو يهوذا "**ابن الهلاك**" لأنه سحب نفسه من التمتع بالعضوية في الأسرة الإلهية، أن يكون ابنًا لله، وأصر على البنوة لإبليس المدمر والمهلك. إنه "**ابن الهلاك**"، لأنه لم يرد خلاص نفسه، بل أفسد بإرادته الشريرة العطايا الإلهية المقدمة له، وفتح قلبه لسلسلة من الخطايا كالطمع والخيانة واليأس.

"**ليتم الكتاب**"، إذ تنبأ عنه الكتاب المقدس كما في (مز ٤١: ٩؛ ١٠٩: ٨). وفيه تحققت الرموز كخيانة أخيتوفل لداود الملك، وأبشالوم لأبيه، تحققت في صورة أبشع في يهوذا الخائن.

❖ قال السيد المسيح للآب: "**حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم في اسمك**". يتكلم بمنزلة

---

[1] *Poemata de seipso 1, PG 37:984-85.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 107: 4 – 5.*

إنسان ومثل نبي، ولا يظهر أنه يفعل شيئًا باسم الله.

وقال: "**الذين أعطيتني حفظتهم، ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك، ليتم الكتاب**". وفي موضع آخر يقول: "من كل الذين أعطيتني بالتأكيد لا أتلف منهم أحدًا" (راجع ٦: ٣٩). مع هذا لم يهلك (الخائن) وحده، وإنما هلك بعد ذلك كثيرون، فكيف يقول: "لا أتلف قط أحدًا"؟ فمن جانبي أنا لا أتلف. وفي موضع آخر يعلن عن الأمر بأكثر وضوح: "لا أطرد أحدًا" (راجع ٦: ٣٧). وكأنه يقول: ليست علة الهلاك مني، ولا أنا أهملتهم، فإن ابتعدوا بإرادتهم لا أجتذبهم عن إلزام[1].

❖ "**ليتم الكتاب**"... لا لكي يتحقق الكتاب... ولكن هذا هو أسلوب الكتاب المقدس الذي يضع الأمور في تطابق مع بعضها البعض كما لو كانت قد حدثت بسبب كتابتها[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يقول إذ أنا آتٍ إليك احفظهم في اسمك، الذي فيه أنا حفظتهم حين كنت معهم. في اسم الآب حفظهم الابن كإنسان يحفظ تلاميذه حين كان بجانبهم في حضوره الجسدي، لكن الآب أيضًا حفظ الذين سمع لهم في اسم الابن واستجاب لصلواتهم المقدمة باسم الابن. إذ قال الابن نفسه لهم: "الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم" (يو ١٦: ٢٣). لكننا لا نأخذ هذا بمفهومٍ جسدانيٍ، أنهما يتناوبان معًا على حفظنا، كما لو أن الواحد يخلف الآخر عندما يرحل. فإننا نُحفظ في نفس الوقت بواسطة الآب والابن والروح القدس، الذين هم الله الواحد الحقيقي المبارك[3].

القديس أغسطينوس

"**أما الآن فإني آتي إليك،**

وأتكلم بهذا في العالم،

ليكون لهم فرحي كاملاً فيهم". **[١٣]**

إذ يكمل السيد المسيح رسالته على الصليب ويقوم من بين الأموات، يذهب إلى الآب حيث يجد الآب مسرته في هذا، ويفرح الابن بعمله الخلاصي. إنه يسأل أن يتمتع مؤمنوه بفرحه. بصعوده حمل شعبه بروح الحب، وسجل أسماءهم كرئيس الكهنة السماوي على الصدرة، ليدخل بها إلى قدس

---

[1] *Homilies on St. John, 82:2.*
[2] *Hom. 81. PG 59: 480-481.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 107: 6.*

الأقداس السماوي؛ بل حملهم في قلبه ثابتين فيه كما هو ثابت فيهم، ونقشهم بمسامير الصليب على كفيه. فإن كان لم يعد بعد منظورًا لهم لأنه في السماء، لكنه ليس بعيدًا عنهم ولا هم عنه، إنه في قلوبهم كما هم في قلبه وفكره، مشغول بهم حتى يدخل بهم إلى حضن أبيه.

من يقبل إرادة الله الصالحة وكلمته الصالحة يتوقع مقاومة العالم بإرادته الشريرة وكلمته الشريرة. لذلك يطلب السيد المسيح لتلاميذه بل ولكل أعضاء كنيسته أن يتمتعوا وهم في هذا العالم بفرحه كاملاً. هذه هي مشيئة السيد المسيح وشهوة قلبه أن يتمتع كل مؤمنٍ بالفرح السماوي الكامل غير المتقطع. إنه يتركهم وسط الدموع والآلام والتجارب، لكنه يحقق في داخلهم فرحه الفائق للطبيعة.

ليتنا في وسط دموعنا نرفع أعيننا لنرى مسيحنا يطلب لنا من أبيه أن ننعم بفرحه الكامل. إنه وعد إلهي نلتزم أن نسمعه بروح الإيمان والصمت والهدوء ونتمسك به ونناله. من يحفظ كلمة المسيح بصبرٍ يتمتع بحماية إلهية خاصة في ساعة التجربة (رؤ ٣: ١٠). هذا ما تحقق عمليًا حيث كان الشهداء يتهللون بفرح عظيم وسط آلامهم.

فرح المسيح هو عطية إلهية، نعمة مجانية، وفي نفس الوقت وصية نلتزم بها. تُقدم للمجاهدين فيها، لذا يوصينا الرسول: "أخيرًا يا اخوتي افرحوا في الرب" (في ٣: ١). "افرحوا في الرب في كل حين، وأقول أيضًا افرحوا" (في ٤: ٤).

من يسلك في العالم بفكر السيد المسيح يتشكل بروحه القدوس ليكون أيقونة له يسلك على اثر خطواته، لا ينشغل بأمور العالم، ولا يكرس حياته لخدمته، مثل هذا يقدم له الآب حماية من أجل ابنه القدوس.

"**ليكون فرحي كاملاً فيهم**": غاية حديثه مع المؤمنين أن يسكب فرحه الإلهي فيهم. مسيحنا هو فرحنا الأبدي الكامل، وهو مصدر الفرح وسيد البهجة الحقيقية. بدونه يذبل كل فرح، لأنه مرتبط بالعالم الزائل. أما فرح المسيح فأبدي على مثاله. وهو موضوع سرور الآب لذلك يطلب المسيح ذلك منه.

دون شك أن الشركة مع الأحياء تعطي نوعًا من السعادة، والحرمان منها يسبب حزنًا وألمًا. الآن جاء الوقت ليعلن لهم السيد أنه سيفارقهم حسب الجسد، ولن يعودوا يتمتعوا بالاجتماع معه بذات الكيفية التي مارسوها أثناء سنوات خدمته العلنية على الأرض. هذه العزلة ليست مصدرًا للحزن بل للفرح. إنهم يتمتعون بحضوره في وسطهم وفي داخلهم، حيث يسكن في قلوبهم ويبعث فرحه الكامل فيهم، يصير فرحه هو فرحهم، فيختبروا الفرح الكامل.

❖ يقول إن الفرح الذي له الممنوح لهم بواسطته يجب أن يكمل فيهم. ولهذا الهدف أعلن أنه تكلم في العالم. هذا هو سلام العالم العتيد وتطويبه بنوال ما يجب أن نحياه في الحاضر باعتدالٍ وبرٍّ وتقوى[1].

القديس أغسطينوس

"أنا قد أعطيتهم كلامك،
والعالم أبغضهم،
لأنهم ليسوا من العالم،
كما إني أنا لست من العالم". [١٤]

يسأل الآب أن يقف مع المؤمنين كصديقٍ شخصيٍ لهم، لأن لهم أعداء كثيرون، لأن العالم يقدم لهم الكراهية بلا سبب إلا لأنهم ليسوا من العالم، ويحثوا البشرية على الخروج من العالم الشرير، ليتمتعوا بالقدوس. لهذا يقول المرتل: "أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب... لأني من أجلك احتملت العار" (مز ٦٩: ٤، ٧). إذ قبلوا الكلمة الإلهي لم يعد يطيقهم العالم، لأنه لا يقبل الخلاص. العالم يحتقر ما يُقدم له لأجل مجده، ويبذل كل الجهد ليدمر الإيمان الذي يحطم الدمار. هكذا فإن أبناء العالم يرفضون كلمة المجد والخلاص ويكرسون طاقاتهم لتحطيم الإيمان الحي، فيحطمون أنفسهم وهم لا يدرون.

يعلم العالم أنهم كانوا منه، والآن صاروا ليسوا منه، صاروا خليقة جديدة (٢ كو ٥: ١٧)، أشبه بعالمٍ جديدٍ منافسٍ له، مع أنه عالم حب وبذل وخدمة حتى للمقاومين. يبقى العالم القديم يبذل كل الجهد حتى لا يفلت أحد من يديه، إذ يريد أن يكون الكل منه. قد يعجب بقدراتهم وإمكانياتهم وسلوكهم، لكنه في أنانيته لن يكف عن إغرائهم للعودة إلى أحضانه، أو مقاومتهم للخلاص منهم.

يوجد مثل يهودي قائل: "إن لم يعرف العالم قيمة الأبرار فيه يقيم (بالكراهية لهم) سياجًا من اللآلئ يحميهم".

صلاة السيد المسيح الوداعية تكشف عن عمل الله الفائق في حفظ الخدام والمؤمنين وكلمة الكرازة. بدون هذه النعمة الإلهية لاندثر الإيمان منذ أجيال طويلة، فعبر كل القرون كتَّل العالم طاقاته لإبادة الإيمان وتحطيم الكنيسة وتدمير المسيحيين، لكن تبقى كلمات السيد المسيح هي سرّ بقاء الإيمان والمؤمنين إلى اليوم.

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 107: 8.*

إنه الآب القدوس الذي يقول: "مرة حلفت بقدسي، إني لا أكذب لداود" (مز ٨٩: ٣٥). بكونه القدوس لا يطيق الخطية، ويحسب المقدسين له، ويحفظهم من الخطية التي هم أيضًا يبغضونها ويحسبونها شرًا خطيرًا. إنه كأب قدوس يهتم بأبنائه ويعلمهم ويحفظهم تحت رعايته مباشرة. هم بأنفسهم عاجزون عن أن يثبتوا فيما نالوه من نعم إلهية، لذا فهم محتاجون إلى عون إلهي. يُحفظون لحساب الله كأبناء له.

❖ إذ نصير راسخين في الفضيلة ويضطهدنا الأشرار، أو عندما نرغب في الفضيلة فيسخرون بنا، لا نرتبك ولا نغضب, فإن هذه الأمور طبيعية، وفي كل موضع تولَّد الفضيلة كراهية لدي الأشرار. لأنهم يحسدون الذين يريدون أن يعيشوا بلياقة، ويفكرون في إيجاد عذر لأنفسهم إن أهانوا سمعة الآخرين.

إنهم يبغضونهم لأنهم يسلكون علي خلافهم، ويستخدمون كل وسيلة ليهينون طريقة حياتهم.

يلزمنا ألا نحزن، إذ هذه هي علامة الفضيلة. ولهذا السبب يقول السيد المسيح: "لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته" (١٥: ١٩)، وفي موضع آخر يقول: "ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسنًا" (لو ٦: ٢٦). وبهذا المعنى يقول هنا: "أنا أعطيتهم كلامك، والعالم يبغضهم". إذ يقول: "لأجلك ولأجل كلمتك أبغضوهم"، لهذا يؤهلوا للتمتع بكل عناية إلهية[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذه الكراهية (من العالم) لم تكن بعد قد لحقت بهم في حياتهم، لكنها تحققت فيما بعد.

إنه يتحدث كعادته عن المستقبل في صيغة الماضي. وقد ألحق ذلك بسبب بغض العالم لهم قائلاً: "**لأنهم ليسوا من العالم، كما أني لست من العالم**" [١٤]. هذا قد مُنح لهم خلال ميلادهم الجديد، لأنهم حسب ميلادهم كانوا من العالم، كما سبق فقال لهم: "أنا اخترتكم من العالم" (يو ١٥: ١٦). إنه امتياز لطيف وُهب لهم أن يصيروا مثله إذ هو "**ليس من العالم**" وذلك خلال الخلاص من العالم الذي قدمه لهم. على أي الأحوال لم يكن هو قط من العالم، فإنه حتى بالنسبة لأخذه شكل العبد وُلد من الروح القدس الذي وُلدوا هم منه ثانية. فإن كانوا هم بسبب هذا لم يعودوا بعد من العالم لولادتهم الثانية من الروح القدس، فبنفس السبب لم يكن هو قط من العالم لميلاده (تجسده) من الروح القدس[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 82:1.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 108: 1.*

القديس أغسطينوس

"لست أسأل أن تأخذهم من العالم،
بل أن تحفظهم من الشرير". [١٥]

إذ طلب من الله أن يحفظهم من العالم الشرير أوضح أنه يوجد طريقان لحفظ أولاد الله من العالم.

الطريق الأول أن يأخذهم من العالم بموتٍ مفاجئٍ سريعٍ ليعبروا إلى عالم أفضل. هذا ما اشتهاه بعض رجال الله عندما ضاق بهم الأمر؛ مثل أيوب وإيليا ويونان وموسى، حين اشتدت بهم الضيقات والتجارب. لكن السيد المسيح لم يطلب هذا الطريق لتلاميذه، لأنه جاء إلى العالم ليقدم لمؤمنيه حياة النصرة خلال حمل الصليب، لا أن يهربوا من العالم. ولأن السيد جاء إلى العالم ليخدم البشرية، فصار العالم غير مستحقٍ للمؤمنين (عب ١١: ٣٨).

إن كان العالم بشره صار مظلمًا، فقد جاء السيد المسيح نورًا للعالم يغلب الشر والظلمة، وأقام من تلاميذه كواكب منيرة تضيء في العالم. محبة السيد لمؤمنيه لم تدفعه لسحبهم فورًا من العالم المظلم، وإنما لتقديسهم ليضيئوا في العالم، لهم روح النصرة. لقد اشتهى إرميا النبي أن يهرب إلى البرية (إر ٩: ٢)، لكن مسيحنا يعمل بالكل، وكما يقول بولس الرسول: "وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذي قوَّاني أنه حسبني أمينًا إذ جعلني للخدمة" (٢ تي ١: ١٢). وكتب القديس بطرس: "فإذا الذين يتألمون بحسب مشيئة الله فليستودعوا أنفسهم كما لخالقٍ أمينٍ في عمل الخير" (١ بط ٤: ١٩). فلا يستطيع حتى الراهب المتوحد أن يهرب من شعوره بالالتزام بالعمل بوسيلة أو أخرى من أجل تقديس العالم. لم يطلب الابن من الآب أن يرسل مركبات نارية تحمل تلاميذه إلى السماء ليخرجهم من وجه العالم الشرير.

والطريق الآخر أن يهبهم روح القوة والنصرة على شر العالم، هذا ما طلبه السيد لتلاميذه، وهو حفظهم من الفساد الذي حلَّ بالعالم، وذلك أن يعهد بهم في حضن الآب، فلا يقترب إليهم الشرير. إنه لم يطلب حفظهم بإزالة التجارب والضيقات من طريقهم، وإنما لينعموا بالنصرة في صراعهم ضد الشر، وشهادتهم لإمكانيات النعمة الغنية العاملة فيهم.

❖ ماذا يقول المسيح للآب؟.... "**احفظهم من الشرير**"، يعني من الشر الأخلاقي، من الرذيلة، وضعف القلب[1].

[1] *Hom 1. on Gal. PG 61: 664.*

❖ لا يتكلم لأجل خلاصهم من التجارب فحسب، بل أيضًا من أجل استمرارية إيمانهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من المهم وجودهم في العالم، وإن كانوا لم يعودوا بعد ينتسبون إليه[2].

القديس أغسطينوس

"**ليسوا من العالم،**

كما إني أنا لست من العالم". **[١٦]**

يطالب بحفظهم لأنهم تشبهوا به، إذ صاروا كمسيحهم ليسوا من العالم، لا تشغلهم ملذات العالم، ولا يرتبكوا لأتعابه، لأن خدمتهم لمسيحهم تبتلع أفكارهم، وتملأ قلوبهم.

❖ فإن قلت: وما معني قول السيد المسيح أن تلاميذه: "**ليسوا من العالم**"؟ أجبتك: إنهم ينظرون إلى عالم آخر، وليس فيهم شيء من الأرض، لكنهم قد صاروا كمواطني السماوات. بهذه الأقوال أظهر السيد المسيح حبه لهم إذ مدحهم عند أبيه واستودعهم عنده.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ربما يُسأل: إن كانوا لم يعودوا بعد من العالم، سواء وهم لم يتقدسوا بعد في الحق أو تقدسوا فعلاً، فكيف يطلب هكذا (ألاَّ يأخذهم من العالم)؟ أليس هذا لأن **حتى هؤلاء الذين تقدسوا يلزم أن يستمروا لأجل نموهم في التقديس**، أو في القداسة؛ وهذا لا يتم بغير نعمة الله، **بتقديس نموهم كما قدسهم في البداية**؟ من هنا يقول بولس عن نفس الأمر: "الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحًا يكمل إلى يوم يسوع المسيح" (في ١: ٦)[3].

القديس أغسطينوس

٤. طلبة من أجل تقديسهم

"**قدسهم في حقك، كلامك هو حق**". **[١٧]**

ما معنى "**قدسهم**"؟ لا يقف عمل الله فيهم عند حفظهم من من الشر والشرير، وإنما يمتد إلى العمل الإيجابي أن يسلكوا بالقداسة والصلاح وعمل البرّ، يطلب أن تلتهب قلوبهم بحب القداسة. تقديسهم أيضًا يحمل معنى النمو المستمر في الإيمان والالتهاب الدائم للقلب بروح الله.

---

[1] *Hom. 82. PG 59: 483.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 108: 2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 108: 2.*

أما وسيلة التقديس فهي "**في حقك**"، أي خلال كلمة الله. بالكلمة والصلاة يتقدس كل عمل كنسي كالأسرار المقدسة، وأيضا تتقدس النفس، ويتقدس خدام الله.

بالتقديس مارس الأنبياء عملهم مثل إرميا ١: ٥؛ وأيضًا الكهنة واللاويين. هكذا بالتقديس يتأهل خدام العهد الجديد للعمل ويتكرسوا له (رو ١: ١). هنا يقوم السيد المسيح كرئيس الكهنة بتقديس الكهنة.

كلمة "**قدسهم** *Hagiason*" مشتقة من مقطعين: "*A*" أو "*Ha*" وهي في اليونانية تعني النفي، و*gee* تعني "الأرض"، أي "لا أرض". وكأن القداسة هي نزع كل ما هو أرضي من القلب، ليتفرغ لحب الله وعبادته وخدمته. وهي تحمل أيضًا معنى "النقاوة" حيث يتنقى القلب من كل شائبة زمنية ليحمل سمة روحية سماوية. الكاهن أو الخادم الذي يرتبك بأمور العالم حتى في خدمة الكنيسة يهين الإنجيل، ويفقد الحق الإلهي، ويخسر قدسية قلبه الداخلي.

جاءت كلمة "**مقدس**" في العبرية بمعنى تقديم ذبيحة، إذ صارت الذبيحة مخصصة لله وحده، غايتها تمتع الشعب بالشركة مع الله القدوس، بكونهم شعب الله.

سمة "**القداسة**" خاصة بالله القدوس وحده، لهذا يسبحه السمائيون قائلين: "قدوس، قدوس، قدوس". فتقديسنا لا يحمل سوى معنى اتحادنا مع القدوس، وتمتعنا بالشركة في الطبيعة الإلهية. الحياة المقدسة ليست مجرد حياة أخلاقية فاضلة، لكنها ارتباط بالحياة الإلهية، وتمتع بعمل القدوس.

❖ ماذا يعني بكلماته: "**قدِّسهم في حقك**" [١٧] سوى "قدّسهم فيَّ"... فالآب يقدس في الحق، أي في كلمته، في ابنه الوحيد، يقدس ورثته والوارثون مع الابن[1].

القديس أغسطينوس

❖ "**قدسهم في حقك**"، بمعنى "اجعلهم قديسين بعطية الروح والتعاليم الصادقة". كما أنه عندما قال: "أنتم أنقياء بسبب الكلام الذي كلمتكم به" (يو ١٥: ٣). هكذا يقول الآن نفس الشيء: "أرشدهم، علمهم الحق"... فإن النطق بالتعاليم المستقيمة بخصوص الله يقدس النفس. وإذ يقول إنهم يتقدسون بالكلمة، لا يتوقف ذلك على أعمالٍ العجيبة... إذ يعرف أن كلمة الله هي أيضًا تطهر. لكن القول: "**قدسهم**" يبدو لي أيضًا أن تعلن عن أمر آخر مشابه. "كرسهم (اعزلهم) لأجل الكلمة والكرازة. هذا ما يظهر مما جاء بعد ذلك[2].

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 108: 3.*
[2] *Hom. 82. PG 59: 483-484.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الآب والابن والروح القدس يقدسوا معًا، ويُحيوا، وينيروا، ويهبوا راحة. لا ينسب أحد طاقة التقديس على وجه خاص ومعين لطاقة الروح، بعد سماعه قول المخلص "**قدسهم في اسمك**" (يو ١٧: ١١، ١٧). هكذا كل الطاقات تتحقق بالتساوي للمتأهلين لها بواسطة الآب والابن والروح القدس، بمعنى كل نعمة وفضيلة وإرشاد وحياة وتعزية وتحول إلى عدم الموت والعبور إلى حياة الحرية وكل الأمور الصالحة الأخرى النازلة إلى الإنسان[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ كما أن الآب يقدس، هكذا أيضًا الابن يقدس، والروح القدس يقدس.

الآب يقدس حسب المكتوب: "إله السلام نفسه **يقدسكم** بالتمام، ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح" (١ تس ٥: ١٣). وفي موضع آخر الآب يقدس: "أيها الآب **قدسهم** في حقك" [١٧].

ويقول نفس الرسول عن الابن: "قد صار لنا حكمة من اللَّه وبرًا **وتقديسًا** وبرًا" (١ كو ١: ٣٠)...

ويعلم الرسول أيضًا أن الروح القدس يقدس، إذ يقول: "وأما نحن فينبغي لنا أن نشكر اللَّه كل حين لأجلكم أيها الاخوة المحبوبين من الرب أن اللَّه اختاركم من البدء للخلاص بتقديس **الروح** وتصديق الحق" (٢ تس ٢: ١٣)...

لكن التقديس واحد، لأن المعمودية واحدة، ونعمة السرّ واحدة[2].

القديس أمبروسيوس

"كما أرسلتني إلى العالم

أرسلتهم أنا إلى العالم". [١٨]

إذ كرس الابن نفسه لعمل الخلاص بعثه الآب في إرسالية لتحقيق هذا العمل الإلهي. لقد دُعي بالشفيع (١ يو ٢: ١)، والرسول (عب ٣: ١)، والخادم (رو ١٥: ٨)، والمُرسل (غلا ٣: ١)، لكنه أُرسل كابن لله، وليس مثل الخدام والعبيد.

لماذا يربط إرساليته من عند الآب بإرساليتهم من قِبَله؟ لأن الإرسالية صعبة والمهمة قاسية، لهذا أراد أن يؤكد لهم أنه يقف بجوارهم، ويعمل معهم وبهم وفيهم، لأن عملهم هو امتداد لعمله هو. كابن

---

[1] *Letter 189 to Eustathius, 7.*
[2] *Of the Holy Spirit Book 3:4:25-28.*

الإنسان قبل السيد المسيح عطايا من أجل الناس (مز ٦٨: ١٨)، قدمها بعد ذلك لهم (أف ٤: ٨).

إذ قدم نفسه ذبيحة، فتح الطريق لرسله أن يشاركوه الحب العملي فيصيروا بالثبوت فيه ذبائح مقدسة (في ٢: ١٧؛ ٢ تي ٤: ٦). صار موت القديسين عزيز في عيني الرب، لأنه يرتبط بموت المسيح.

❖ أرسل الآب ابنه ليس في الجسد الخاطئ، بل في **شبه** الجسد الخاطئ (رو ٨: ٣). وأرسل ابنه أولئك الذين وُلدوا في الجسد الخاطئ وقد تقدسوا به من دنس الخطية[1].

القديس أغسطينوس

❖ كان من عادته أن يتحدث عن المستقبل كأمرٍ قد حدث فعلاً[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ولأجلهم أقدس أنا ذاتي،

ليكونوا هم أيضًا مقدسين في الحق". [١٩]

إذ بإرادته يسلم نفسه للموت ليفتدي البشرية بحسب أنه قدس ذاته أو كرس حياته كلها لاقتناء خلاصنا. وكما يقول الرسول بولس: "وأما المسيح... بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبديًا" (عب ٩: ١١-١٣). لقد كرس حياته بالكامل ليتعهد خلاص بني البشر، ليس ما يشغله سواهم، خاصة وأنه الوحيد القادر أن يقدم نفسه ذبيحة بلا عيب عن العالم كله. الآن بكونه رئيس وفي نفس الوقت هو الذبيحة، فتقديسه لنفسه ليس بالأمر الخارجي. إنه غير محتاج إلى دم حيوانات لتقديسه، لأنه بلا خطية، إنما بإرادته كرس كل إمكانياته لتقديس خدامه وشعبه، حتى الموت موت الصليب.

كما كرس الابن رسالته في خلاص البشرية، كمن لا يوجد ما يشغله سوى الإنسان، هكذا يتقدس المؤمن فيكرس كل إمكانياته وطاقاته ووقته لمحبوبه المسيح الذي هو "الحق". هذا ما تمتع به الرسول بولس فدعا نفسه "المفرز لإنجيل المسيح" (رو ١: ١). هذا ما ناله الأنبياء فيسمعون الصوت الإلهي: "قبلما خرجت من الرحم قدستك" (إر ١: ٥). هكذا كان مفهوم الكهنة واللاويين أنهم مكرسون لخدمة الله. والمؤمن أيضًا وإن لم يتفرغ بوقته للخدمة والكرازة والعبادة، فإن قلبه يتقدس حيث يعمل كل شيء لمجد الله، حتى أكله وشربه ونومه!

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 108: 4.*
[2] *Hom. 82. PG. 59:484.*

❖ يقول هنا يقدس نفسه، وليس أنه يعين نفسه على التقديس بتطهير النفس أو الروح، ولا لكي يشترك في الروح القدس، لأن الروح القدس فيه بالطبيعة، وهو دائمًا وأبدًا مقدس، وسيظل هكذا. يقول هنا: "**أقدس أنا ذاتي**"، لأنني أقدم نفسي وأحضرها كذبيحة بلا عيب لرائحةٍ ذكيةٍ، لأن ذاك الذي يؤتى به إلى المذبح الإلهي كان مقدسًا، أو يُدعى حسب الناموس مقدسًا[١].

❖ إذ هو شريك الآب في الوجود سرمديًا يتقبل البنوة بالروح، وبكونه صار في الجسد صار مشابهًا الأبناء بالتبني... لهذا يُقال إنه تقدس. فالتقديس هو خاص بناسوته، أو الجسد، لأن الطبيعة البشرية لا يمكنها أن تقتني القداسة من ذاتها[٢].

القديس كيرلس الكبير

❖ ماذا يعني: "**أقدس ذاتي؟**" أقدم ذاتي ذبيحة، فالذبائح كلها تُدعى مقدسة، والتي تقدم لله فهي على جهة التحقيق مقدسة. هذا يقوله إما لأن رأسهم كان في طريقه أن يكون هكذا، أو لأنهم هم أيضًا يُقدمون ذبيحة، إذ قيل: "قدموا أجسادكم ذبيحة حية" (رو ١٢: ١)[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قال الرب هذا لكي تعرف أنه هو مقدس في الجسد لأجلنا، وأيضًا يقدس بفضيلة لاهوته[٤].

القديس أمبروسيوس

ليس فقط تقدس الكلمة كإنسانٍ، وإنما يقدس ذاته، إنه مصدر التقديس لناسوته. يؤكد **القديس كيرلس الكبير** أن السيد يقدس جسده. إنه يقبل الروح الذي هو روحه، يقبله بكونه إنسانًا، لكنه يهب الروح لنفسه بكونه اللَّه. صنع هذا لأجلنا، لا لأجله هو[٥].

❖ الكلمة الذي يسكن في جسده يقدس ذات هيكله بالروح القدس ويحول إياه إلى صورة (قوة) طبيعته[٦].

❖ إن قال أحد أن الرب يسوع المسيح الواحد قد تمجد بالروح القدس، بكونه استخدم به قوة غير قوته هو، وأنه منه نال قوة ضد الأرواح الشريرة، وقوة لصنع المعجزات أمام الناس، ولا يعترف أنه هو

---

[1] *Comm. on John 6: 51.*
[2] *Dialogus 6 PG 75:1008 D.*
[3] *Hom. 82.*
[4] *Of the Christian Faith, 2: 9 (78).*
[5] *In Joannis Evangelium 11. PG 74:548 B.*
[6] *In Joannis Evangelium 11. PG 74:549.*

روحه الذي به يعمل هذه الإلهية، فليكن محرومًا.

أناثيما ٩ للقديس كيرلس الكبير

❖ ماذا عني بكلماته: "**ولأجلهم أنا أقدس ذاتي**" [١٩] إلاَّ إني أقدسهم فيّ، إذ هم (جزء) مني؟ فإن هؤلاء الذين يتحدث عنهم، كما قلت هم أعضاؤه؛ والرأس مع الأعضاء هم المسيح. وذلك كما يعلم الرسول عند حديثه عن ذرية إبراهيم: "فإن كنتم للمسيح فأنتم إذًا نسل إبراهيم"، وذلك بعد قوله: "لا يقول وفي الأنسال فإن كان نسل إبراهيم هو المسيح" (غلا ٣: ١٦-١٩)، فماذا يُعلن للذين يقول لهم: "أنتم إذًا نسل إبراهيم" سوى أنتم المسيح؟ وبنفس السمة يقول الرسول نفسه في موضع آخر: "الآن أفرح في آلامي لأجلكم، وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي" (١ كو ١: ٢٤). لم يقل شدائدي بل "شدائد المسيح"، لأنه كان عضوًا في المسيح، وفي اضطهاداته إذ تعَّين للمسيح أن يحتملها في كل جسده، كان يملأ نصيبه من الشدائد. ولكي تتأكد من هذا في العبارة الماثلة أمامنا لاحظ ما يلي بعد ذلك... "**ليكونوا هم أيضًا مقدسين في الحق**" [١٩]. وماذا يعني هذا سوى "فيّ"، وذلك حسب الحقيقة أن الحق هو الكلمة التي في البدء، والتي هي الله؟[1]

القديس أغسطينوس

٥. طلبة من أجل الوحدة

"**ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط،**

بل أيضًا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم". **[٢٠]**

إنه يطلب من أجل الذين يؤمنون به خلال كرازة تلاميذه ورسله. تمتد هذه الصلاة عبر كل الأجيال، وتحمل كل نفس لكي تتمتع بطلبة السيد المسيح الكفارية من أجلها، فتصير محفوظة في الدم الكريم، مقدسة ومتمتعة بالوحدة مع بقية الأعضاء.

تمتد صلاته الوداعية لتشمل البشرية المستعدة لقبول الخلاص عبر كل الأجيال حتى انقضاء الدهر. فهو يشفع بدمه عن كل من يقبل عمله الفدائي، لكي يصير الكل واحدًا. يتمتعون بالوحدة الحقيقية والحكمة السماوية الطاهرة والمجد الذي من عند الآب.

لماذا يحد هذه الطلبة على الذين يقبلونه سواء في الحاضر أو المستقبل بينما نلتزم نحن بالصلاة من أجل جميع البشر؟ قلنا إنه يريد أن الكل يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون، لكنه لا يُلزم أحدًا

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 108: 5.*

على الخلاص أو قبول معرفة الحق. وإذ هو عالم بمن يرفضه لا يصلي ضدهم، لكنه لا يشفع فيهم كفاريًا ماداموا مصرين على رفض الخلاص، لئلا تُحسب شفاعته إلزامًا عليهم بقبول الإيمان أو تكون بلا نفع، حاشا لله! أما بالنسبة لنا فإننا لا نعرف من الذي يقبل الإيمان ويثبت فيه، ومن الذي يرفضه تمامًا أو ينكره فيما بعد، لذا لاق بنا أن نصلي عن الجميع.

إنه يصلي عن الضعفاء في الإيمان لكي يتمتعوا بالقوة والثبات فيه. ويصلي من أجل القادمين في الإيمان فيما بعد.

❖ قال السيد المسيح من قبل عن تلاميذه: "**ولأجلهم أقدس أنا ذاتي**" [١٩]، ولئلا يظن أحد أنه إنما يعمل هذا العمل من أجل رسله فقط قال هنا: "**ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضًا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم**". وبهذا أراح أنفس رسله، إذ أراهم أن كثيرين سيكونون تلاميذ لهم، وعزاهم أيضًا، إذ أوضح لهم أنهم يصيرون سبب خلاص لكثيرين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ كرز الرسل بكلمة الإيمان هذه بصورة رئيسية وفي البداية، هؤلاء الذين التصقوا به لذلك دُعيت "**كلامهم**" [٢٠]. على أي الأحوال، ليس بسبب هذا توقفت عن أن تكون "كلمة الله" لأنها دعيت "كلمتهم"، إذ يقول الرسول أن أهل تسالونيكي قبلوا منه "ككلمة أناس، بل كما هي بالحقيقة ككلمة الله" (١ تس ٢: ١٣). "كلمة الله" لأنها أُعطيت بواسطة الله مجانًا. لكنها دعيت "كلمتهم" لأنها عُهدت إليهم بصفة رئيسية وفي البداية لكي يُكرز بها[1].

القديس أغسطينوس

"**ليكون الجميع واحدًا،**
كما أنك أنت أيها الآب فيّ، وأنا فيك،
ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا،
ليؤمن العالم أنك أرسلتني". **[٢١]**

بعد أن سأل من أجل حفظهم من الشرير وقداستهم، سأل من أجل وحدة الكنيسة كلها، هذه التي لن تقوم إلا على طرد الشر مسبب الخصومة والانقسام والتمتع بالحياة المقدسة واهبة الحب والوحدة. تقوم الوحدة على عمل الله في حياة الخدام (الرسل والتلاميذ والكهنة)، كما تقوم على عمله في كل

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 109: 5.*

المؤمنين على مستوى الشعب.

يكرر السيد المسيح تعبير "**ليكونوا**" سبع مرات [١١، ١٩، ٢١ (مرتان)، ٢٢، ٢٣، ٢٤]. أربع مرات من السبع مرات يطلب أن يكون أتباعه واحدًا. هكذا كان رب المجد يسوع مهتمًا على وجه الخصوص بالوحدة.

شغل موضوع الوحدة قلب السيد المسيح، فقد سبق أن طلب لأجلها [١٣]، وها هو يطلبها من الآب كما في لجاجةٍ. يود أن تتشبه الكنيسة في علاقتها الداخلية بالعلاقة بين الآب والابن، الأمر الذي يكرره السيد في صلاته. **سرّ الوحدة في الكنيسة التصاقها بالثالوث القدوس الذي يحمل وحدة فريدة في ذات الجوهر، واتساع قلب المؤمنين بالحب ليجد كل أحدٍ موضعًا فيه.**

يصير الكل واحدًا، جسدًا واحدًا بقلبٍ واحدٍ وفكرٍ واحدٍ ورجاءٍ واحدٍ في التمتع بالوعود الإلهية.

لقد تحققت هذه الصلاة في الكنيسة الأولى حيث كان الرعاة وأيضًا الشعب بإيمانٍ واحدٍ وقلبٍ واحدٍ مع اختلاف الثقافات بين الأمم. كل يعبِّر عن إيمانه بثقافته اللائقة به. كما اجتمع المؤمنون الذين من أصل يهودي مع الذين من أصل أممي في جسدٍ واحدٍ. ولنا ملء اليقين أن صلاته الوداعية أيضًا ستتحقق حين تجتمع الكنيسة في العالم حول الإيمان الواحد وبروح واحد وغاية واحدة: الالتقاء بالسيد المسيح أبديًا، يحملون روح التبني للآب الواحد.

❖ "**ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا**"؟ أي ليكونوا واحدًا في إيمانهم بنا.

❖ ماذا يعني "**فينا**"؟ في الإيمان بنا. فإنه إذ لا يوجد ما يؤذي كل البشر مثل الانقسام، يشترط أن يكونوا واحدًا... فإن كل الذين يؤمنون خلال الرسل هم واحد، وإن كان البعض منهم قد انشقوا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يلزمنا أن نتحقق ما عليه اللَّه (الآب)، وما سيكون عليه المخلص نهائيًا، وكيف قد وُعد القديسون بأن ينالوا التشبه بالآب والابن، إنهما واحد في ذاتهما، فسنصير واحدًا فيهما[2].

❖ يلزم أن يُطبع الحق في الذهن في أكثر تفصيل، إننا لسنا واحدًا في الآب والابن بالطبيعة بل بالنعمة. لأن جوهر النفس البشرية وجوهر اللَّه ليسا واحدًا كما يزعم أتباع ماني[3].

❖ يوحنا الإنجيلي الذي شرب الكلمة من صدر المسيح يقول: "بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا،

---

[1] *Hom.82. PG 59: 484.*
[2] *Letter 124:10.*
[3] *Against Jovinianus, 2:29.*

أنه قد أعطانا من روحه... من اعترف أن يسوع هو ابن اللَّه فاللَّه يثبت فيه وهو في اللَّه" (١ يو ٤:١٣-١٥). إن آمنتم بالمسيح، كما آمن الرسل، تصيرون جسدًا واحدًا معهم في المسيح. أما إذا كنتم في تسرع تدعون أن لكم الإيمان والأعمال مثلهم بينما ليس لكم ذات إيمانهم وأعمالهم فلن تستطيعوا أن تنالوا نفس المركز[١].

❖ "أما تعلمون أنكم هيكل للروح القدس" (١ كو ٣: ١٦؛ ٦: ١٩)؟ يقول: "هيكل" وليس "هياكل" ليظهر أن اللَّه يسكن في الكل بطريقة متشابهة... دعوا الكنيسة كما تريدون: العروس، الأخت، الأم، فإن **اجتماعها واحد فقط**، لا يعوزها الزوج أو الأخ أو الابن. إيمانها واحد، ولا تتدنس بالتعاليم المتغيرة، ولا تنقسم بالبدع. تبقى عذراء حيثما ذهب الحمل تتبعه؛ وهي وحدها تعرف أغنية المسيح[٢].

القديس جيروم

❖ إنهم (الثالوث) فينا ونحن فيهم، بكونهم هم واحد في طبيعتهم، ونحن واحد في طبيعتنا. إنهم فينا بكونهم الله في هيكله، ونحن فيهم كخليقة في الخالق[٣].

❖ "**ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا**" [٢١]. أضاف "**فينا**" لكي نعرف أن صيرورتنا واحدًا في الحب الذي بالإيمان غير المتغير يُنسب لنعمة الله وليس لأنفسنا، ولكن إذ يقول الرسول: "أنتم الذين كنتم قبلاً في ظلمة الآن نور"، فلكي لا ينسب أحد هذا الفعل لنفسه يقول: "**في الرب**" (أف ٥: ٨)[٤].

القديس أغسطينوس

❖ من الأوفق هنا أن أذكر كلمات الإنجيل: "**ليكون الجميع واحدًا كما أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني**" (يو ١٧: ٢١). العظمة والمجد لرابطة هذه الوحدة! الروح القدس هو هذا المجد والعظمة، ولا يمكن أن ينكره أي شخص يفحص بدقة كلام السيد المسيح وهو يقول: "**وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني**" (يو ١٧: ٢٢). في الحقيقة أعطى السيد المسيح هذا المجد لتلاميذه عندما قال لهم: "اقبلوا الروح القدس" (يو ٢٠: ٢٢). لقد استقبل كلمة اللّه هذا المجد الذي كان عنده قبل تأسيس العالم، عندما ألبس نفسه الطبيعة

---

[1] *Against Jovinianus, 2:19.*
[2] *Against Jovinianus, 2:19.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 110: 1.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 110: 2.*

البشرية. لذلك تمجدت الطبيعة البشرية بالروح القدس، ونتج عن تلك العلاقة توزيع مجد الروح القدس على كل واحد يتحد بالمسيح، ابتداء من التلاميذ. وهكذا يقول المسيح: "**وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحدًا كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيّ، ليكونوا مُكملين إلى واحد، وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني**" (يو ١٧: ٢٢-٢٣).

فالذي ينمو بسرعة من مرحلة الشباب إلى مرحلة الرجولة الكاملة يصل إلى مستوى هذا العصر الروحي (أف ٤: ١٣)، حتى لو كان مولودًا من عبد وإحدى السراري، فإنه يحصل على الاستحقاق الملكي ومجد الروح القدس بالانفصال والنقاء.

هذه هي الحمامة الكاملة التي يبحث عنها العريس عندما يقول: "واحدة هي حمامتي كاملتي الوحيدة لأمها هي عقيلة والدتها هي"[١].

القديس غريغوريوس النيسي

"**وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني،**
ليكونوا واحدًا كما أننا نحن واحد". **[٢٢]**

ربما يشير هنا إلى المجد الذي يناله الكلمة المتجسد بصنع العجائب وجذبٍ النفوس التائهة إلى خلاصها، فإنه يهب تلاميذه هذه الإمكانية في اسمه القدوس، إذ لم يخجل السيد المسيح من دعوة المؤمنين اخوة له (عب ٢: ١١). فإنهم نالوا التبني للآب، وصار لهم هذا المجد، مجد البنوة، لكن ليس بالطبيعة كالسيد المسيح، إنما بالنعمة. المجد هو عطية إلهية: "الرب يعطي رحمة ومجدًا" (مز ٨٤: ١١).

خلال آلام الصليب يحملنا السيد إلى مجده: "لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام" (عب ٢: ١٠). إذ ترتفع قلوبنا نرى المجد الذي قيل عنه إن الملائكة يغطون وجوههم أمامه (يو ١٢: ٤١)، هذا المجد المشرق على أورشليم العليا، إذ الحمل هو نور أورشليم الجديدة (رؤ ٢١: ٢٣).

لا يعرف العالم الله معرفة خبرة الحياة والاتحاد معه، أما المؤمنون فيعرفونه بكونه أباهم الذي يتحدون معه، ويلمسون حبه المستمر، فيقدمون ذبائح شكر لا تنقطع.

يؤكد السيد المسيح أن الوحدة التي يتمتع بها المؤمنون مصدرها هو قبوله كابن الإنسان المجد من أبيه ليهبه لمؤمنيه. وكأن ثبوتنا في المسيح الواحد وتمتعنا بعطية المجد هو طريق الوحدة الأصيلة.

---

[١] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٥.

الوحدة الكنسية الصادقة، الصادرة كنعمة إلهية، هي شهادة حية ليسوع أنه المسيا الحقيقي، وعن حب الله الفائق للبشرية.

هكذا يركز السيد المسيح على الوحدة كأمرٍ أساسي وجوهري، وهي ليست بالوحدة الظاهرية كتجمع القيادات الكنسية معًا، لكنها وحدة عمل الروح القدس الذي يضم الكل بالروح بالقوة الإلهية لغاية مقدسة كاملة وليس على مستوى سياسات كنسية. مركز هذه الوحدة أن يصير الكل واحدًا في الآب والابن كما هما واحد. فمن يقبل السيد المسيح "الطريق" يسير به إلى حضن الآب متحدًا معه، كما يسير به إلى قلوب المؤمنين ليختبر وحدة الاخوة.

لما كان الروح القدس هو روح الآب وروح الابن، لذا يرى البعض أنه روح الوحدة ، هو واهب عطية الوحدة، إذ يجمع الكل معًا ليعمل الكل في الكل (١ كو ١٢: ٤).

❖ "**المجد الذي أعطيتني أعطيتهم**"، لكي بالآيات وبالعقائد يلزمهم أن يكونوا نفسًا واحدة. **فإن هذا هو المجد أن يكونوا واحدًا، وهذا أعظم حتى عن الآيات**. فكما أننا نعجب من الله حيث لا يوجد في طبيعته صراع أو خلاف، وهذا هو مجده العظيم، هكذا يقول أيضًا ليت هذه الأمور تكون علة للمجد. قد يسأل أحد: كيف يسأل الأب أن يعطيهم هذه بينما يقول أنه هو نفسه يعطيهم إياها؟ سواء كانت عظته خاصة بالعجائب أو الانسجام بينهم أو السلام، فإنه هو يهبهم هذه الأمور، بينما يقدم هذه الطلبة لكي يهبهم راحة (أنه يطلب من الآب عنهم)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه يسوع الذي صلى: "**ليكونوا واحدًا فينا، كما أنا وأنت واحد أيها الآب**" (راجع يو ١٧: ٢١-٢٢). لأنه عندما يكون الله الذي هو واحد في كل واحدٍ، فإنه يجعل الكل واحدًا، ويضيع العدد في حلول الوحدة[2].

القديس باسيليوس

❖ ماذا كان هذا المجد إلا **الخلود** الذي تتقبله الطبيعة البشرية فيه؟

فإنه لم يتقبله هو وحده، ولكن كطريقته المعتادة بتدبيره المسبق الثابت يشير إلى المستقبل في صيغة الماضي، فإنه إذ هو الآن في موضع مجده، أي قيامته بالآب، يقيمنا هو نفسه إلى ذات المجد في النهاية.

---

[1] *Homilies on St. John, 82:2.*
[2] *Letter 8 to Caesareans, 7.*

ما يقوله هنا مشابه لقوله في موضع آخر: "كما أن الآب يقيم من الأموات ويحييهم، هكذا الابن يحيي من يشاء"...

"ما يفعله الآب" ليس بطريقة ما بينما "ما يفعله الابن" بطريقة أخرى، بل "بنفس الطريقة" (راجع يو ٥: ٢١، ١٩). بهذا قام المسيح بذاته. لهذا قال: "انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه" (يو ٢: ١٩). بهذا فإن مجد الخلود الذي قال إنه أخذه من الآب يُفهم أنه قد وهبه هو أيضًا لنفسه، وإن لم يكن قد قال هذا[1].

القديس أغسطينوس

❖ يطرد الحب الخوف كما يقول الرسول: "لا خوف في المحبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى الخارج، لأن الخوف له عذاب، وأما من خاف فلم يكتمل في المحبة" (١ يو ٤: ١٨). لكن إذا تغير الخوف إلى حب، يتم ذلك الاتحاد، نتيجة للخلاص. لأن الجميع يتحدون مع هذا الخير الوحيد من خلال الكمال الذي يرمز إليه بالحمامة: "واحدة هي حمامتي كاملتي الوحيدة لأمها. هي عقيلة والدتها هي" (نش ٦: ٩).

يشرح السيد المسيح هذه الفكرة في الإنجيل بوضوح أكثر. عندما منح التلاميذ كل القوة من خلال بركته، أعطى أيضا بركات لقديسيه بواسطة صلاته للآب. وأضاف تاج هذه البركات حيث قيل: "**وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما أننا نحن واحد**" (يو ١٧: ٢٢). أي يجب ألا يختلفوا على الخير، بل يتحدوا في رأيٍ واحدٍ من خلال وحدة الروح القدس. وكما يقول الرسول بولس: "مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برابطة السلام، فإنما يوجد جسد واحد وروح واحد" (أف ٤: ٣)[2].

القديس غريغوريوس النيسي

"**أنا فيهم، وأنت فيَّ،**
ليكونوا مكملين إلى واحد،
وليعلم العالم أنك أرسلتني،
وأحببتهم كما أحببتني". **[٢٣]**

❖ هل بالحق يمكن أن يُحب البشر بواسطة اللَّه (الآب) بذات الحب الذي للابن، هذا الذي به يُسر الآب (مت ٣: ١٧)؟ إنه موضع سرور الآب في ذاته، ونحن موضع سروره بالابن. نحن الذين

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 110: 3.*

[2] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٥.

يرى اللَّه فيهم أنهم على مثاله، خلال بنوتنا نُدعى للتبني.

الحب السرمدي لطبيعة اللَّه شيء، الحب الذي بالنعمة شيء آخر... الابن يحبه الآب حسب كمال الحب الثابت سرمديًا، أما بالنسبة لنا فالنمو في النعمة يؤهلنا لحب اللَّه[1].

القديس أمبروسيوس

❖ كيف يعطيهم المجد؟ بأن يكون فيهم، هو ومعه الآب، لكي يلتحموا معًا... إنه يظهر أن **السلام له قوة أعظم في جذب البشر عن صنع المعجزة**، فكما أن طبيعة الصراع تسبب شقاقًا، هكذا طبيعة السلام تهب التحامًا معًا[2].

❖ أوضح السيد المسيح هنا أنه ليس وحده يحب تلاميذه، لكن أباه أيضًا يحبهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**أنا فيهم، وأنت فيّ**" [٢٣]، بمعنى إني في أولئك الذين أرسلتني إليهم، وأنت فيَّ أنا المُصالح العالم معك خلالي[3].

القديس أغسطينوس

❖ الآب يحبنا في الابن، لأن فيه اختارنا قبل تأسيس العالم (أف ١: ٤). لأن من يحب الابن الوحيد بالتأكيد يحب أعضاءه خلال عمله، إنه طعَّمنا فيه بالتبني، لكننا لسنا بهذا معادلين الابن الوحيد الذي به خُلقنا وأُعيدت خلقتنا، إذ يُقال: "**لقد أحببتهم كما أحببتني**". فإن الشخص لا يكون دائما مساويًا للآخر حين يُقال: "كما هذا هكذا الآخر"...

إنه يحب الابن من جهة لاهوته، إذ ولده مساويًا لنفسه. يحبه أيضًا بكونه جسدًا لأن الابن الوحيد صار إنسانًا، وبكونه الكلمة فإن جسد الكلمة هو عزيز عليه. أما بالنسبة لنا فبكوننا أعضاء في ذاك الذي يحبه، ولكي ما نصير هكذا. لقد أحبنا لهذا السبب قبل أن يخلقنا[4].

القديس أغسطينوس

٦. طلبة من أجل تمجيدهم

"أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا،

---

[1] *On the Christian Faith, Book 5:7:89-90.*
[2] *Homilies on St. John, 82:2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 110: 4.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 110: 5.*

لينظروا مجدي الذي أعطيتني،
لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم". [٢٤]

غاية شفاعة السيد المسيح الكفارية عن المؤمنين به أن يتمتعوا بالوجود معه أبديًا في السماء. فبعد أن طلب لأجلهم الحفظ في الاسم القدوس، والتقديس، والوحدة، يطلب لهم المجد. وكما يقول المرتل: "الرب يعطي رحمةً ومجدًا" (مز ٨٤: ١١). هذه هي خطة الله من نحونا أن ننعم بالاتحاد معه أبديًا، ونتمتع بالملكوت السماوي والحياة المجيدة المطوَّبة.

ما هي السماء؟ إنها حيث يوجد السيد المسيح يكون الموضع، إن صح التعبير، سماءً. "**يكونون معي حيث أكون أنا**". حضوره هو سماء السماوات وكمال التطويب والفرح. السماء هي شركة معه (في ١: ٢٣). هي رؤية **مجد الابن** الذي يغطي الملائكة وجوههم أمامه (يو ١٢: ٤١). الحمل هو نور أورشليم الجديدة العليا (رؤ ٢١: ٢٣). كما أن العروس تشرق بنور عريسها، هكذا ينعكس بهاء المجد على الكنيسة الحاملة أيقونته والمرتفعة من مجدٍ إلى مجدٍ.

يشفع لدى الآب بكونه صاحب سلطان أن يهب حياة أبدية. يتحدث كملك الملوك، وكرئيس الكهنة الأعظم، وكمخلصٍ العالم، وكذبيحة الحب للبشرية والطاعة للآب. فهو يطلب من مركز القوة كابن الله الوحيد واهب الحياة.

❖ قال: "**أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا**". هذا هو ما ابتغوه، إذ كثيرًا ما كانوا يقولون: "يا سيد إلى أين تذهب؟" (يو ١٣: ٣٦). وقال السيد المسيح للآب: "**لينظروا مجدي**"، إذ يذكر هنا بطريقة غامضة أن **الراحة كلها هي أن ينظر تلاميذه إلى ابن الله، هذا يجعلهم يتمجدون.** هذا ذكره بولس الرسول قائلاً: "ونحن جميعًا ناظرين مجد الرب بوجهٍ مكشوفٍ كما في مرآة، نتغير إلى تلك الصورة عينها، من مجدٍ إلى مجدٍ كما من الرب الروح" (٢ كو ٣: ١٨). وكما أن الذين ينظرون إلى أشعة الشمس ويتمتعون بهواء لطيف، يتمتعون بمعاينتهم هذا، هكذا يكون حالنا، حينئذٍ يقدم لنا هذا النظر لذة أكثر من لذة الناظرين إلى أشعة الشمس بكثير.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ المجد الذي للكلمة هو أيضًا مجد الآب. ويقول الرسول: "لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل إنسانٍ أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب" (في ٢: ١٠-١١). لذلك بخصوص لاهوته فللابن مجده، وأن مجد الآب والابن هو

واحد. إنه ليس بأقل منه في السمو، لأن المجد واحد، ولا هو أقل في اللاهوت، لأن ملء اللاهوت في المسيح[1].

القديس أمبروسيوس

❖ بلا شك لا يكفي أن يقول: "**أريد أن هؤلاء يكونون حيث أكون أنا**" [٢٤]، بل أضاف "**معي**". فإن الوجود معه هو أعظم بركة... إننا لا نستطيع أن نشك أن المؤمن الحقيقي هو مع المسيح بالإيمان، ففي هذا يقول: "من ليس معي فهو عليَّ" (مت ١٢: ٣٠). ولكن حين قال: "**أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا**" تكلم على وجه التحديد عن تلك الرؤية التي بها نراه كما هو (١ يو ٣: ٢)[2].

القديس أغسطينوس

"**أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك،**
أما أنا فعرفتك،
وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني". **[٢٥]**

حينما طلب من أجل تقديسهم دعا الآب "**أيها الآب القدوس**"، وإذ يطلب من أجل تمجيدهم يدعوه "**أيها الآب البار**". فما نتمتع به من أمجاد إنما هي أكاليل البرّ التي يقدمها لنا الديان البار. فبرّ الله هو مصدر كل صلاحٍ ومجدٍ لنا، هذه التي وعد بها الآب البار، وقدم الابن المصلوب ثمنًا لها لنتأهل لقبولها.

❖ قد أرانا هنا أنه لا يعرف الله (الآب) إلا الذين عرفوا ابنه، وكأن السيد المسيح يقول للآب: كنت أشاء أن يكون للناس نصيبهم إلا أنهم لم يعرفوك. وعلى ما يلوح لظني أنه يقول هنا هذا القول مستصعبًا غباوتهم، لأنهم لم يريدوا أن يعرفوا هذه الصفة إنه صالح وبار.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لأنك بار لا يعرفك العالم. إنه العالم المعين للدينونة التي بحق يستحقها، لا يعرفك. أما العالم الذي يتصالح بالمسيح فيتأهل لمعرفتك، لا عن استحقاق ذاتي بل بالنعمة. لأنه ماذا يعني بمعرفته سوى الحياة الأبدية؟ هذه التي بينما هو يحجزها عن العالم المُدان يهبها للعالم المُصالح معه. بهذا فإن العالم لا يعرفك لأنك بار، إذ يرد له ما يستحقه وهو ألا يعرفه. بينما بنفس الطريقة فإن العالم

[1] *Of the Christian faith, 2, 9 (82).*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 111: 2.*

المُصالح معه يعرفك لأنك أنت رحوم، وليس عن استحقاق ذاتي للعالم، إنما يتمتع بذلك بالنعمة لحاجته إلى العون أن يعرفك.

تبع ذلك "**أما أنا فعرفتك**" [٢٥]. إنه هو ينبوع النعمة الذي بالطبيعة الله، وبالنعمة صار إنسانًا لا يوصف بالروح القدس والعذراء... وإذ نعمة الله هي بالمسيح يسوع ربنا يضيف: "و**هؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني**" [٢٥]. هكذا هو حال العالم المُصالح معه. لكن لأنك أرسلتني هم عرفوا، أي بالنعمة عرفوا[1].

القديس أغسطينوس

"**وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم،**
ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به،
وأكون أنا فيهم". **[٢٦]**

يختم صلاته الوداعية بطلب المعرفة الإلهية لهم، فبعد أن طلب حفظهم من الشر، ثم تقديسهم للعمل الإلهي، والوحدة السماوية، يطلب لهم المعرفة، هذه التي لن تتحقق ما لم يرتفعوا معه بقلوبهم لتحيا في السماويات، وتكتشف المجد الإلهي.

المعرفة التي نتمتع بها هي ثمرة اتحادنا معه، فنتعرف علي الابن الذي يحملنا إلى معرفة الآب. وهي معرفة دائمة النمو: "**عرفتهم اسمك وسأعرفهم**". هذه المعرفة بأسرار الله يقدمها الابن، العارف وحده بكمال الأسرار الإلهية، إذ هو واحد مع أبيه. لقد عرفنا الابن وحملنا إلى معرفة اسم الآب، وسيعرفنا أيضًا خلال نمونا في حبنا الإلهي واكتشافنا المستمر لمحبة الله وحلول الكلمة في قلوبنا.

المعرفة عمل ديناميكي لا يتوقف، خلالها يتمتع المؤمن بالنمو المستمر في معرفة الآب واهب العطايا، والابن المسيا محقق الخلاص، والروح القدس الذي يدعوه السيد المسيح في هذه الصلاة "روح الحق".

من بركات الوحدة أن يختبر المؤمنون حب الآب لهم خلال حبه للابن الوحيد الجنس. تمتعهم بالحب الإلهي وسكنى الابن، الحب ذاته، فيهم هو مصدر الفرح الكامل (رو ٥: ٣، ٥).

❖ سنتمتع نحن أيضًا حسب قياسنا، إن كنا متعقلين. لذلك يقول بولس: "إن كنا نتألم معه فنتمجد أيضًا معه" (رو ٨: ١٧). أما الذين ببلادتهم ونومهم يعملون ضد أنفسهم، حينما يُقدم أمامهم مثل هذا المجد وعدم دخولهم الجحيم، حين يكون في قدرتهم أن يملكوا ويتمجدوا مع ابن الله، ومع ذلك

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 101: 5.*

يحرمون أنفسهم من بركات عظيمة كهذه، هؤلاء يستحقون ربوات الدموع ويصيرون أكثر بؤسًا من أي كائن[1].

❖ أرأيت كيف بلغ السيد المسيح بكلامه إلى غاية جيدة؟ إلى المحبة التي هو أم الأفعال الحسنة كلها وكمالها... ليتنا إذن نؤمن بالله ونحبه، فلا يقال لنا: "يعترفون بأنهم يعرفون الله، ولكنهم بالأعمال ينكرونه" (تي ١: ١٦). مرة أخري: "فقد أنكر الإيمان وهو شرٌّ من غير المؤمن" (١ تي ٥: ٨). لأنه بينما يهتم (غير المؤمن) بأهله وأقاربه والغرباء لا تسعف أنت حتى الذين ينتمون إلى عائلتك، فأي عذر لك عندما يُجدف على الله ويُهان بسببك؟[2]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد عرفتهم اسمك بالإيمان، وسأجعله معروفًا بالعيان. جعلته معروفًا للذين هم في رحلة في أرض غريبة لها نهاية معينة، وسأجعله معروفًا للذين سيكون ملكهم بلا نهاية[3].

❖ صلاة المسيح تنتهي، وآلامه تبدأ[4].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Homilies on St. John, 80:3.*
[2] *Homilies on St. John, 82:3-4.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 101: 6.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 101: 6.*

من وحي يو ١٧

هل ينقصك مجد،

يا كلي المجد؟

❖ وقفت مع تلاميذك مندهشًا!
سمعتك تقول: مجد ابنك، ليمجدك ابنك أيضًا!
هل ينقصك مجد يا كلي المجد؟
وهل يحتاج الآب إلى مجد،
ذاك الساكن في نور لا يُدنى منه؟

❖ مجدك ومجد أبيك واحد،
أن تتمجد البشرية الساقطة بالمجد السماوي!
تريد أن الكل يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون.
تريد أن يصير التراب سماءً!
ويتمتع الفاسد بعدم الفساد!
هذا هو مجدك العجيب!

❖ احملني معك إلى حيث تحدث أباك.
فتطمئن نفسي وسط ظلمة هذا العالم،
مادمت تضع نفوس مؤمنيك في خزانة أبيك،
تُحفظ ولا يقترب إليها لص!

❖ تحملهم إلى أبيك القدوس!
لكي كما كرست حياتك لقداستنا،
نتقدس فيك،
ونُحسب قديسين وأبرارًا أمام أبيك.

❖ تحملنا جميعًا إلى الآب،
كأعضاء جسدك الواحد،
فلا يتسلل إلينا روح انشقاق!

بل ننعم بالوحدة الحقيقية أبديًا!

❖ تطلب من أجلنا لأنك رئيس الكهنة السماوي.
تطلب عنا لأنك رأس الكنيسة.
أنت وحدك قادر بدمك أن تطلب،
لأنك بصليبك رفعتنا إلى السماء.
وفي جنبك المطعون أخفيتنا،
وبدمك اشتريتنا وفديتنا!

❖ طلبتك حتمًا تتحقق فينا!
متى نراك في مجدك،
فتنعم ببهاء مجدك على كل كنيستك،
ويتمجد الكل بك وفيك إلى الأبد!

الباب الرابع

ابن الله الذبيح

ص ١٨ – ص ١٩

الأصحاح الثامن عشر

محاكمة يسوع دينيًا ومدنيًا

حتى نهاية الأصحاح السابع عشر لم يسجل لنا الإنجيلي يوحنا إلا القليل جدًا عن تاريخ السيد المسيح، مقدمًا ما يستلزمه الأمر للكشف عن شخصيته ورسالته. أما الآن وقد أتت الساعة كما قرأنا في الصلاة الوداعية، واقترب الصليب، فقد انشغل القديس كغيره من الإنجيليين بسرد تفاصيل أحداث هذا الأسبوع. التلاميذ والرسل الذين كانوا يخجلون من الأحداث أثناء وقوعها هم أنفسهم وجدوا فيها عذوبة وخلاصًا ومجدًا، كما وجدوا فيها كشفًا عن الأسرار الإلهية الفائقة.

بعد حديث السيد المسيح الوداعي الطويل مع التلاميذ، وتقديم الصلاة الوداعية، بدأ الإنجيلي يعرض قصة آلامه. وقد اهتم القديس يوحنا بعرض الظروف المحيطة بآلام السيد المسيح بكونها تمس خلاصنا، وعرض أيضًا ما لم يعرضه الإنجيليون الثلاثة السابقون.

١. تسليم نفسه للجند	**١–٩.**
٢. قطع أذن ملخس	**١٠–١٢.**
٣. أمام حنان	**١٣–١٤.**
٤. إنكار بطرس	**١٥–١٨.**
٥. حوار مع رئيس الكهنة	**١٩–٢٤.**
٦. إنكار بطرس مرتين	**٢٥–٢٧.**
٧. في دار الولاية	**٢٨–٣٢.**
٨. حوار مع بيلاطس	**٣٣–٤٠.**

١. تسليم نفسه للجند

"قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون،
حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه". [١]

هيأ السيد المسيح تلاميذه لهذه الساعة خلال أحاديثه الوداعية، وطلب مساندة الآب لهم في صلاته الوداعية، وهو في العلية في حضور تلاميذه، وإعلانه لهم عن كثير من أسراره التي تمس خلاصهم وخلاص العالم. لذا حانت لحظات مواجهته للصليب بفرحٍ داخليٍ وسرورٍ، حسب مسرة أبيه

الصالح.

يروي لنا الإنجيلي ليس قصة القبض على يسوع المسيح، بل بالأحرى تسليم نفسه للجند لمحاكمته. أخذ تلاميذه وانطلق على ضوء القمر حيث كان احتفال الفصح والقمر كاملاً، ودخل بستانًا يملكه أحد أحبائه، اعتاد أن يدخله ويجتمع مع تلاميذه فيه كثيرًا. وقد كان لنبلاء اليهود حدائقهم وأماكن اللهو خارج المدينة حتى جبل الزيتون؛ ولازالت هذه العادة قائمة عند الآسيويين.

لقد جاءت الساعة لكي يدخل رئيس خلاصنا دائرة الآلام ليحقق الخلاص الذي جاء من أجله، وصارت اللحظات الأخيرة من حياته هنا على الأرض تحمل أحداثًا متوالية تمس كل كياننا. كأن السيد المسيح قد مارس أولاً عمله **كمعلمٍ** يقود تلاميذه إلى الحق الإلهي، ثم **ككاهنٍ** يشفع فيهم لدى الآب، **وكذبيحةٍ** يبذل ذاته، **وكملكٍ** يملك بالحب العملي الباذل، يفتح بدمه القلوب ويؤسس عرشه في داخلنا؛ **إنه المعلم والكاهن والذبيحة والملك.**

اختار البستان أرضًا للمعركة للقبض عليه، أو بالأحرى لتسليم نفسه، ولم يختر بيتًا ما داخل المدينة، حتى لا يحاول البعض من الشعب أو الأحباء الدفاع عنه، فيدخلون في معركة وبسببه يحدث سفك دم. ولكي لا يسبب متاعب أو حرجًا لصاحب البيت، ولكي تجد الجماهير فرصتهم للانطلاق بلا عائق للقبض عليه مع القيادات الدينية والجند. في البستان يمكن للتلاميذ أن يهربوا دون سفك دماء بسببه، أما في المدينة، فقد يعترض البعض صفوف القادمين للقبض عليه، وقد يتحول الأمر إلى معركة. إنه لا يطلب كرامة بشرية، ولا مدافعين عنه بل ينسحب لكي يحمل آلام الغير.

جاء ليحمل أتعاب الآخرين لا أن يحمل الآخرون أتعابه. هكذا قدم لنا مثلاً حيًا بأن المسيحي كقائد محب لا يلقي بهمومه أو متاعبه أو آلامه على الآخرين، ولا يشتكي لأحد، بل ينحني مع سيده ليحمل أتعاب الآخرين. أخيرًا فإن القبض عليه في البستان يعلن رفض قصور الأغنياء ومنازل اليهود إيواءه، فيُقبض عليه كمرفوضٍ من شعبه، خارج المحلة.

عبر وادي قدرون: كان بستان جسثيماني في جبل الزيتون شرقي أورشليم. يفصل هذا الجبل عن المدينة وادي ضيق للغاية يجري فيه مجرى (نهير) قدرون. وهو نهر صغير جدًا عرضه ما بين ٦ و٧ أقدام، ولم يكن دائمًا مملوء ماءً، بل كان طوال السنة جافًا ماعدا فترات سقوط الأمطار. وقد أخذ اسمه من كلمة قيدار *qaadar* العبرية ومعناها "أسود"، حيث كانت بقايا الذبائح ومخلفات المدينة تُلقى فيه. ويرى البعض أنه كان أشبه بمصرف أكثر منه بنهرٍ. وكان لعبور **وادي قدرون** معناه الخاص:

أولاً: جاءت نبوة داود النبي عن المسيا في مزمور ١١٠: ٧: "**من النهر يشرب في الطريق، لذلك يرفع الرأس**". لقد شرب المسيا من المجرى في طريقه إلى آلامه المجيدة لخلاصنا. دُعي النهر الأسود بسبب ظلام الوادي الذي يجري فيه أو لون مياهه المختلطة بالقاذورات التي تُلقى فيه من المدينة. من هذا المجرى شرب مسيحنا وهو في طريقه لخلاصنا فرفع رأسه ورؤوسنا.

ثانيًا: في طريق هروبه من وجه ابنه أبشالوم المتمرد عبر داود الملك مع من كانوا معه نهر قدرون، وصعدوا إلى جبل الزيتون، وهم يبكون بصوت عظيم (٢ صم ١٥: ٢٣، ٣٠). هكذا إذ رفض اليهود ملكهم "ابن داود" انسحب إلى جبل الزيتون عابرًا نفس طريق داود، وكان يطارده اليهود المتمردون لكي لا يملك على قلوبهم.

ثالثًا: اعتاد بعض ملوك يهوذا الصالحين أن يحرقوا الأوثان ويدمروها ويلقونها في هذا الوادي، مثل آسا (٢ أي ١٥: ١٦)، وحزقيا (٢ أي ٣٠: ١٤)، ويوشيا (٢ مل ٢٣: ٤، ٦). وهكذا كان الوادي مملوءً من الرجاسات الملقية فيه. لقد قبل السيد المسيح الذي بلا خطية أن يصير خطية لأجلنا، ليحمل عنا اللعنة.

دخل آدم الثاني، السيد المسيح، في البستان حتى يبدأ احتمال سلسلة آلام الصليب، كما بدأت خطية آدم الأول في جنة عدن. وفي البستان أُعلنت اللعنة، وفيه نال آدم وعدًا بالمخلص، لذلك بدأ تحقيق الخلاص في البستان، وفي البستان تحققت القيامة وتمتع الإنسان بالبرّ الإلهي. في كل مرة ندخل فيها حديقة نذكر آلام السيد المسيح في البستان التي زرعها لكي ننعم بثمر الروح المشبع والمفرح.

أخذ معه تلاميذه إذ اعتاد أن يأخذهم في رفقته عندما ينسحب للصلاة. أخذهم، لا ليدافعوا عنه، وإنما ليشهدوا لآلامه واحتماله من أجلهم، ولكي يتهيأوا لشركة آلامه. ولعله أراد أن يكشف لهم عن ضعفهم حتى يدركوا أنه لا خلاص لهم إلا بمخلصهم.

حدثنا الإنجيلي يوحنا عن الكأس التي تسلمها من يد الآب ليشربها [١١]، لكنه لم يسرد لنا تفاصيل آلامه في البستان، إذ سبق فعرضها غيره من الإنجيليين. هذا وقد أبرز الإنجيلي أن كل الأمور كانت تسير بخطة إلهية فائقة دون أن يفقد حتى الأشرار حرية إرادتهم. لم يكن طريق الألم بالنسبة للسيد المسيح هزيمة أو ضعفًا، لكنه كان طريق ابن الله الذي يحقق خطة خلاص البشرية الفائقة، هو طريق الصليب، واهب الغلبة، ومحطم مملكة الظلمة. لقد أبرز الإنجيلي الجانب الآخر لآلام السيد بكونها طريق المجد الأبدي. لقد أظهر أن **يسوع المتألم هو سيد الموقف**، حتى نشاركه

ذات المشاعر وسط مشاركتنا له آلامه وصلبه في حياتنا اليومية.

❖ ما يرويه هنا بخصوص دخول الرب إلى البستان مع تلاميذه لم يتم بعد تقديم الصلاة مباشرة... إنما بالتأكيد تمت أحداث معينة عبَّر عنها الإنجيلي الحالي ووجدت في الأناجيل الأخرى. وذلك وجدت أحداث كثيرة هنا صمت عنها الإنجيليون الآخرون في رواياتهم[١].

القديس أغسطينوس

❖ الموت أمر مرعب للغاية، لكن ليس لأولئك الذين تعلموا الحكمة الحقيقية التي من فوق. فإن من لا يعرف شيئا عن الأمور العتيدة بل يحسب الموت انحلالاً ونهاية للحياة، بحق يرتعب ويخاف كمن يعبر إلى لا وجود. أما الذي يتعلم بنعمة الله الأمور الخفية السرية لحكمة (الله)، ويحسب الأمر رحيلاً إلى موضع آخر، لا يجد سببًا للرعدة، بل بالأحرى يفرح ويبتهج، إذ بتركنا الحياة الفانية نذهب إلى حياة أفضل وأبهى وبلا نهاية. هذا ما يعلمنا إياه المسيح بتصرفاته حيث يذهب إلي آلامه، لا متغصبًا ولا عن ضرورة، بل بإرادته، لذلك قيل: "قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون، حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه"[٢].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع،
لأن يسوع اجتمع هناك كثيرًا مع تلاميذه". [٢]

سمح السيد أن يتم القبض عليه في الموضع الذي يعرفه يهوذا، حتى يعطيه فرصة لمراجعته لنفسه، لعله يدرك أنه أساء استخدام المزايا التي قُدمت له، أن يكون من خاصته حتى في مكان خلوته.

قدم لنا الإنجيليون الحقائق دون تعليق، فذكروا ما فعله يهوذا كحقيقة واقعية دون لومٍ أو تبكيتٍ، وذلك كما قدموا أعمال السيد المسيح وكلماته دون تعليق. ولعلهم بإعلان الروح القدس أرادوا أن يتركوا الأعمال نفسها تتحدث في قلوب القراء وأفكارهم.

❖ إذ سارع السيد المسيح إلى المكان الذي كان معروفًا عند مسلمه، أزال عن المتآمرين عليه التعب ، وخلصهم من كافة الشقاء، وأظهر لتلاميذه أنه يجيء إلى الموت طوعًا، فقد كان هذا فيه كفاية لتعزيتهم. جاء لكي يضع نفسه في البستان كما في سجن.

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 1.*
[2] *Homilies on St. John, 83:1.*

"**قال يسوع هذا**". ماذا تقول؟ بالتأكيد كان يتحدث مع الآب، بالتأكيد كان يصلي. لماذا لم يقل: "إذ انتهي من الصلاة جاء إلي هناك"؟ لأنه لم تكن صلاة بل كانت حديثًا لحساب التلاميذ....

ولئلا إذا سمعت قول البشير: "**حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه**" تظن أن السيد المسيح استتر فيه، قال بعد ذلك مباشرة: "**وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع**". ولم يقل هذا فقط، لكنه قال: "**لأن يسوع اجتمع هناك كثيرًا مع تلاميذه**". إذ كان السيد المسيح يجتمع مع تلاميذه الخاصة، مخاطبًا إياهم في أمورٍ خاصة ضرورية، لا يجوز أن يسمعها غيرهم، وقد يأخذهم في جبالٍ وبساتينٍ، ملتمسًا مكانًا خاليًا من الاضطرابات أكثر من غيره، حتى لا تنزعج نيتهم عند استماعهم له.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هناك وُجد الذئب الملتحف بجلد الحمل، الذي اجتاز بين الغنم بمشورة خفية ضد أب الأسرة، وعرف كيف يجد الفرصة لتشتيت القطيع الهزيل، وإلقاء شباكه المشتهاة للراعي[1].

القديس أغسطينوس

"**فأخذ يهوذا الجند وخدامًا من عند رؤساء الكهنة والفريسيين،**

وجاء إلى هناك بمشاعلٍ ومصابيحٍ وسلاحٍ". **[٣]**

كيف لم يخجل يهوذا من مواجهة السيد المسيح وهو يقود أعداءه ضده، مرتدًا عن التبعية له، والشركة مع تلاميذه؟ هذا هو فعل الخطية، وهذا هو عمل إبليس. أن يصير للخاطئ ما هو أشبه بجبهة زانية لا تعرف الحياء. قاد يهوذا هذا الموكب الضخم، ولعله طلب هذا العدد لإشباع طموحٍ فيه كقائدٍ له وزنه وكرامته.

خرجت فرقة *cohort* (*teen speiran*) وهي تعادل عُشر فيلق (*legion*). يرى البعض أن تعداد الفيلق ٦٠٠٠ شخصًا، غير أن البعض يرى أن عدد الفيلق لم يكن ثابتًا ولا أقسامه كفرقٍ متساوية. فرقة الجند هنا هم العسكر الرومان الذين يقدمهم الحاكم لحماية الهيكل، وأما الخدام فهم الذين ينتسبون إلى السنهدرين. ويقدر البعض الجند والخدام (جند الهيكل) بحوالي ٥٠٠ شخصًا، والبعض يظنهم ألفًا، أما الذين حول السيد في البستان فكانوا غالبًا إحدى عشر. فكثرة الجمهور لا تعني صدق الطريق؛ **كثيرًا ما تكون القلة القليلة هي الأمينة المخلصة في علاقتها مع الله**. ولعل الجند جاءوا بالسيوف، وأما الخدام فجاءوا بالعصي.

ربما يتساءل البعض: لماذا كل هذا العدد للقبض على السيد المسيح؟ لقد اعتاد الرومان أن

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 2.*

يستخدموا أعدادًا كبيرة من الجند لممارسة عملٍ صغيرٍ. ففي أعمال الرسل نجد ٢٠٠ جنديًا و٧٠ فارسًا و٢٠٠ حاملي حراب في حراسة الأسير بولس في الطريق (أع ٢٣: ٢٣). هذا وقد كان يُخشى حدوث ثورة شعبية بالقبض عليه.

لم تكن هذه جماهير شعبية جاءت اعتباطًا، وإنما كانت قيادات، وجاء مسئولون من الهيكل ومن البلاط للقبض عليه. اتحدت الكنيسة الشكلية الحرفية مع قوات الظلمة ضد الحق. وجاء الحشد خليطًا من قيادات يهودية متنوعة مع جند من الأمم الرومان، وخدام يهود، كل يحمل عداوة تجاه المجموعة الأخرى، لكنهم اتحدوا في مقاومة السيد المسيح، تصالحوا عندما دخل السيد المسيح طريق الألم، لكي يقدم الكل أعضاء في جسده المتألم الممجد.

في الليل انطلق السيد المسيح قائد المعركة ضد قوات الظلمة، ليذهب إلى أرض المعركة، معلنًا خروجه للصليب. انطلق مع تلاميذه إلى موضع معروف، إلى البستان كما في موكبٍ. ذهب في خطة مرسومة **ينتظر موكبًا متواطئًا مع الظلام**. كان ينتظر يهوذا مع موكب الظلمة كمن في شبه موعدٍ معه، وفي مكانٍ معروفٍ لديه. لم يتهرب السيد المسيح من موكب الظلمة، كما توارى سابقًا حين رفع اليهود الحجارة ليرجموه وهو يُعَلِّم في الهيكل، فاختفى وخرج من الهيكل مجتازًا في وسطهم (يو ٨: ٥٩).

خرجوا بمصابيح ليلقوا القبض على يسوع، آدم الثاني، مع أن القمر كان كاملاً. لقد ظنوا أنه ربما يختبئ بين الأشجار كما اختفى آدم الأول في جنة عدن وراء الشجر من وجه الله. جاءوا بالمشاعل ليوقدوها لعلهم يرون الشمس المشرقة في وسط البستان! **أرادوا بالمصابيح أن يروا "شمس البر"**. حملوا سيوفًا وأسلحة لئلا يقاوم آدم الثاني أو تلاميذه، ولم يدركوا انهم بهذا يستلون السيوف ضد أنفسهم. جاء الموكب مستعدًا، لعلهم خشوا من خسوف القمر لذلك حملوا المشاعل والمصابيح، وخشوا أن يُوجد مع تلاميذه أسلحة، لذلك جاءوا مسلحين مستعدين للدخول في معركة.

ليس عجيبًا أن نجد ذات الفكر عبر العصور، فيتهم العالم الكنيسة بأنها تريد أن تقيم دولة داخل دولة، مع أن أسلحتها روحية، ومملكتها ليست من هذا العالم.

يذكر الإنجيلي يوحنا وحده دون سائر الإنجيليين "**الجند**"، أي فرقة من الحرس الرومانيين المرابطين في أورشليم، جاءوا مع خدام من عند رؤساء الكهنة والفريسيين للقبض على السيد المسيح. وكأن روما نفسها، أي عاصمة العالم، قد دخلت طرفًا في الدعوى ضد يسوع الناصري.

❖ إنها كتيبة، ليست من اليهود بل من العسكر. هنا نفهم أن الأمر تم عن طريق الحاكم كما لو كان

من أجل أمان الشخص المجرم، ولحفظ مراسيم السلطة القانونية الشكلية، ولردع أية محاولة للمعتقل أن يقاوم. وفي نفس الوقت وُجدت جماعة ضخمة قد اجتمعت، وجاءت مسلحة لبث الرعب أو للهجوم ضد أي شخص يحاول الدفاع عن المسيح[1].

القديس أغسطينوس

❖ هؤلاء كثيرا ما أرسلوا للقبض عليه لكنهم لم يكونوا قادرين. لكن في هذه المرة واضح أنه سلم نفسه لهم بإرادته. كيف أغروا الكتيبة؟ لقد كانوا جنودا يفعلون أي شيء من أجل نوال مال[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من هو الخروف الذي قلب نفسه ذئبًا، وبدأ يعض الراعي الصالح؟!

❖ لماذا بالغش نسيت تلك الموهبة التي أعطاك إياها ربنا كما أعطى بطرس ويوحنا؟!

❖ ارتعبوا أيها الحكماء من القبلات الغاشة، فإنه بواحدة منها عُلق ابن اللّه على خشبة.

القديس يعقوب السروجي

"فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه،

وقال لهم: من تطلبون؟" [٤]

واجه السيد المسيح الجموع الثائرة المسلحة بلطف ورقة سائلاً إياهم: "**من تطلبون؟**" بلا شك سبق أن رآه كثيرون من خدام الهيكل حين كان يذهب هناك، لكن خشية حدوث أي خطأ قام يهوذا بتقبيله، لأنه يعرفه أكثر منهم. وإذ رأوه لم يعرفوه ليؤكد لهم أن مصابيحهم لن تنفعهم شيئًا. وحين عرَّفهم ذاته لم يستطيعوا القبض عليه ليدركوا أن سيوفهم بلا قيمة ما لم يسلم نفسه إليهم.

❖ هكذا لم ينتظر أن يعرف ذلك من مجيئهم بل تحدث وعمل بغير ارتباكٍ إذ هو عالم بكل شيء[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أجابوه: يسوع الناصري.

قال لهم يسوع: أنا هو.

وكان يهوذا مسلمه أيضًا واقفًا معهم". [٥]

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 2.*
[2] *Homilies on St. John, 83:1.*
[3] *Homilies on St. John, 83:1.*

عندما أرادوا أن يقيموه ملكًا اختفى (يو ٦: ١٥)، وحينما أرادوا صلبه قدم نفسه لهم، فقد جاء إلى العالم لكي يحمل أثقالنا على الصليب. التقى بهم في هدوء وسكينة وكان يجيبهم بكل لطفٍ: "**أنا هو**". وهو اسم الله الممجد وسط شعبه (خر ٣: ١٤). لقد وطأوا عليه كدودة لا إنسان (مز ٢٢: ٦)، ولم يدركوا أنه يهوه ذاته.

عندما سُئلوا عمن يطلبون أجابوا: "**يسوع الناصري**". كل ما يعرفونه عنه أنه "**يسوع الناصري**". ولعلهم استخدموا هذا اللقب للاستهانة به، أنه من الناصرة، وللتغطية على أنه المسيح المنتظر. حقًا لم يعرفوه، لأنهم لو عرفوا رب المجد لما صلبوه. لم يستغل السيد المسيح عدم معرفتهم له أو عماهم، كما فعل أليشع ضد قوات آرام (السريان) حيث قال لهم إنه هذا هو الطريق ليدخل بهم إلى المدينة. في نظر القديس يوحنا الإنجيلي تعثر اليهود في يسوع بسبب هويّته أنه "**الناصري**".

- ❖ تعثّر فيه نثنائيل في بداية خدمة السيد المسيح، إذ قال لفيلبس: "أمنَ الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟" (يو ١: ٤٦).
- ❖ وحينما تحدّث مع الجماهير عن نفسه أنه الخبز السماوي قالوا: "أليس هذا هو يسوع الذي نحن عارفون بأبيه وأمه" (راجع يو ٦: ٣٨-٤٢)، حيث يشيرون بهذا إلى **يوسف الناصري**.
- ❖ وحين تدخّل نيقوديموس للدفاع عن السيد المسيح قال بعض المتشككين: "ألعلّ المسيح من الجليل يأتي؟... لم يقم نبي من الجليل" (يو ٧: ٤١، ٥٢). فتعثّروا فيه، لأنه من مدينة **ناصرة الجليل**.
- ❖ للمرة الرابعة في البستان في سخرية قالت الجماهير إنها تطلب **يسوع الناصري**.
- ❖ وأخيرًا للمرة الخامسة عندما كان يسوع ممددًا على الصليب كمجرمٍ محكومٍ عليه بالموت جاء عنوان علته: "**يسوع الناصري ملك اليهود**" (يو ١٩: ١٩).
- ❖ أرأيت قدرة السيد المسيح أن تحارب عنه، إذ كيف كان في وسطهم فأعمى عيونهم. والدليل على أن ظلام الليل لم يكن السبب في ذلك، هذا أوضحه البشير، إذ قال عن يهوذا: "**وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح**". لو لم يكن معهم مشاعل لوجب أن يعرفوا السيد المسيح من صوته، فإن كان أولئك يجهلونه، فكيف يجهله يهوذا الملازم معه على الدوام، لأنه كان واقفًا معهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فلما قال لهم اني أنا هو،**

رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض". [٦]

قال: "**أنا هو**"، وهو اسم الله المجيد (خر ٣: ١٤) الخاص بإعلان حضرته في وسط شعبه. تعبير **أنا هو** *ego eimi*، في اليونانية يدل على ثمة "ذات" مهيبة وغير مدركة تُزيح الستار عن نفسها، كما جاء في الأصحاح الثامن حين قال يسوع: "قبل أن يكون إبراهيم **أنا هو** *ego eimi*" (يو ٨: ٥٨)، أو "**أنا كائن**" وليس "كنت"[١]. وإذ قال إنه هو، رجعوا إلى الوراء، وسقطوا على الأرض، لا حول لهم ولا قوة، كمن هزهم رعد شديد أو صعقهم برق. كان يمكنه أن يأمر الأرض فتنشق وتبتلعهم كما حدث مع قورح وداثان وجماعتهما (عد ١٦: ٤٩)، لكن عاد فسلم نفسه إليهم بعد أن قدم حماية لتلاميذه. بهذا أكد للكل أنه سلم نفسه للموت بكامل إرادته. أراد أن يدركوا ضعفهم لعلهم يتوبون، ولم يكن يعاقبهم على ما فعلوه، فإن العقاب أصعب من أن يحتملوه. هذا كله لم يحرك قلوبهم للتوبة، ولا نسبوا ما حدث لهم إلى قوة السيد المسيح، بل كملوا طريق شرهم بقلوب جاحدة حجرية.

لقد صنعت آية في اللحظات الأخيرة قبيل تسليم نفسه، ومع هذا لم تستجب قلوبهم، لأنهم لم يطلبوا الحق الإلهي، وإنما سلكوا حسب أهوائهم البشرية، وطلبوا ما هو للناس وليس ما هو لله. فالمعجزة لا تحرك القلب إلا إذا كان القلب حتى في عماه يشتهي أن يتعرف على النور، وأن يسلك فيه.

يقول **القديس أغسطينوس** إنه إن كان قد فعل ذلك عندما أُلقي القبض عليه ليُحاكم، فماذا يفعل عندما يأتي لكي يحاكم؟

❖ رب المجد الذي استهان بالخزي واحتضن الآلام في الجسد لم يهجر حرية إرادته، إذ يقول: "انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه" (يو ٢: ١٩). مرة أخرى: "ليس أحد يأخذ حياتي مني، بل أنا أضعها بنفسي". "لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن آخذها" (راجع يو ١٨: ١٠). ولما اقترب منه المسلحون بالسيوف والعصي في ليلة آلامه، جعلهم يتراجعون إلى الوراء بقوله: "**أنا هو**" (يو ١٨: ٦؛ خر ٣: ١٤). مرة أخرى عندما طلب منه اللص وهو يموت أن يذكره، اظهر سلطانه الجامعي بقوله: "اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٢٤). حتى في لحظات آلامه لم يتخلَ عن سلطانه[٢].

القديس غريغوريوس النيسي

---

[١] دراسات كتابية ٤: إنجيل يوحنا – سكريما تعريب رهبنة دير مارجرجس الحرف، ج ٢، ص ٢٩-٣٠ (١٩٨٧).

[2] *Against Eunomius 2: 11.*

❖ صوته وحده الناطق "**أنا هو**" بدون أسلحة ضرب الجمع الغفير وأثبطهم وأسقطهم أرضًا مع كل وحشية كراهيتهم ورعب أسلحتهم. فإن الله مخفي في الجسد البشري، واليوم كان (النور) الأبدي غامضًا هكذا في تلك الأذرع البشرية حتى أنهم بحثوا عنه بمشاعل ومصابيح ليقتلوه بالظلمة[1].

❖ حقًا لقد بحثوا عنه في ثورتهم الجنونية للموت، لكنه هو أيضًا إذ سلم نفسه للموت كان يبحث عنهم. لهذا إذ أظهر سلطانه للذين لهم الإرادة (أن يقتلوه)، وليس السلطة أن يمسكوه. **ليتهم الآن يمسكوه لكي يعمل بإرادته في الذين لم يعرفوها**[2].

القديس أغسطينوس

"**فسألهم أيضًا: من تطلبون؟**

فقالوا: يسوع الناصري". **[٧]**

إذ لم يهدف نحو معاقبتهم، بل نحو مراجعتهم لأنفسهم، أقامهم بعنايته، ولم يتركهم ساقطين أبديًا، لأنه لم يأت ليدين بل ليخلص. وإذ سقطوا لم يهنهم بكلمة جارحة، ولا أساء إليهم، بل كرر ذات السؤال، وقدموا ذات الإجابة. وهو بهذا يريد أن يثير ضمائرهم حتى يدركوا أنهم أخطأوا التصرف. وقد جاءت إجابتهم دون تغيير تكشف عن عنادهم وإصرارهم على الشر.

❖ يا لغباوتهم! كلمة السيد المسيح ألقتهم مطروحين على ظهورهم، فلم يرتجعوا ولا على هذا الحال، وقد عرفوا قدرته، بل كرروا أقوالهم أيضًا نفسها.

❖ إن كانوا لم يعرفوا أنه يسوع كيف كان ليهوذا أن يجهله، الذي كان معه على الدوام؟ فقد وقف معهم؛ ولم يعرفه بعد مثلهم، وسقط إلى الوراء معهم. وقد صنع يسوع ذلك ليظهر أنهم ليس فقط لم يستطيعوا أن يمسكوه، بل ولم يكن في استطاعتهم أن يروه بينما كان في وسطهم لو لم يعود فيهبهم سماحًا بذلك[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب يسوع: قد قلت لكم إني أنا هو،**

فإن كنتم تطلبونني، فدعوا هؤلاء يذهبون". **[٨]**

أمر بترك تلاميذه يذهبون في طريقهم لأنهم لم يكونوا بعد قادرين على مشاركتهم آلامه بسبب

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 3.*
[3] *Hom 83. PG 59: 490.*

ضعف إيمانهم، كما أنه أراد أن يجتاز المعصرة وحده، لأنه ليس من حق كائن ما أن يقدم خلاصًا للعالم سواه. هو وحده قادر أن يحتل مركزنا ليحمل آثامنا عنا، ويغفرها خلال ذبيحته الكفارية الفريدة. إنه تصرف سليم يطابق الأصول القضائية، إذ يسلم المتهم نفسه إلى العدالة ليُطلق سراح الذين لم يكونوا طرفًا في النزاع. بهذا أعطى فرصة لأحبائه ليتمتعوا بحمايته فيهربون، كما قدم فرصة للجموع المقاومة له أن تعيد التفكير وتقدم توبة إن أرادت.

سلم نفسه بإرادته ليكون سجينًا، ليس لأنه كان عاجزًا عن الهروب، وإنما لأنه لم يرد أن يهرب. وحين طلب منهم أن يتركوا تلاميذه يذهبون لم يتوسل إليهم، لأنهم كانوا في ضعفٍ شديدٍ، وإنما كان يأمرهم ليدركوا أنه صاحب سلطان، يهتم بخلاص تلاميذه كما يسلم نفسه من أجلهم ومن أجل المختارين. أظهر حنوه على خاصته حتى في أمر لحظات الألم، ترفق بضعف إيمانهم وقامتهم الروحية غير النامية، فإنه لم يحن بعد وقت شركتهم معه في آلامه، ولا نالوا قوة الروح القدس الذي يسندهم. إنه لا يدعنا نُجرب فوق ما نحتمل، يعرف كيف يسمح بالضيق قدر الإمكانيات الموهوبة لنا، والقامة التي بلغناها.

"ليتم القول الذي قاله،
إن الذين اعطيتني لم أهلك منهم أحدًا". [٩]

❖ قال السيد المسيح: "**فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون**"، موضحًا حنوه إلى الساعة الأخيرة، كأنه قال لهم: إن كنتم تحتاجون إليّ فلا يكون لكم مع هؤلاء تصرف، فها أنا بذلت لكم ذاتي.

❖ بالهلاك هنا لا يعني الموت بل الهلاك الأبدي؛ وإن كان الإنجيلي في هذا الموضع عني أيضًا المعنى السابق (الموت) أيضًا. ربما يندهش أحد لماذا لم يلقوا القبض عليهم معه، ويقاطعونهم إربًا، خاصة عندما أثارهم بطرس بما فعله مع العبد. من إذًا الذي منعهم؟ ليس أحد سوى القوة التي دفعتهم إلى الوراء. هكذا لكي يظهر الإنجيلي أن هذا لم يحدث بمحض رغبتهم، بل بأمره (السيد) وقوته قد مُنعوا من ذلك، أضاف: "**ليتم القول الذي قاله أن الذين أعطيتني لم أهلك منهم أحدا**" [٦][1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ربما يتساءل البعض: لماذا ترك التلاميذ يهربون "**ليتم القول الذي قال إن الذين أعطيتني لم أُهلك**

[1] *Homilies on St. John, 83:1.*

منهم أحدًا" [٩]، بينما سمح لمؤمنيه فيما بعد أن يحتملوا الاضطهاد والاستشهاد؟ لقد أراد لهم أن يهربوا، لأنهم لم يكونوا بعد قد قبلوا الروح القدس الذي يسندهم وسط الاضطهادات، فكان يمكنهم أن ينكروا السيد المسيح كما أنكره بطرس ثلاث مرات وقت محاكمة السيد، وبذلك يتعرض التلاميذ ليس للموت الجسدي، وإنما للهلاك الأبدي[1].

القديس أغسطينوس

٢. قطع أذن ملخس

"**ثم أن سمعان بطرس كان معه سيف،**
فاستله، وضرب عبد رئيس الكهنة،
فقطع أذنه اليمنى،
وكان اسم العبد ملخس". **[١٠]**

أخطأ سمعان بطرس إذ تصرف بما لا يليق به كتلميذٍ للسيد المسيح الذي دعا إلى عدم مقاومة السلطات (مت ٥: ٣٩)، وعدم مقاومة الشر بالشر. لقد كرر السيد المسيح عدة مرات أنه ينبغي أن يتألم ابن الإنسان، كما أعلن أن ساعته قد جاءت، ومع هذا قاوم بطرس بالكلام كما بالعمل ليمنع الآلام. وبينما كان يظن أنه يدافع عن سيده إذا به يعمل ضد إرادته. لقد سمع منذ دقائق طلب السيد المسيح أن يتركوا تلاميذه يذهبون في طريقهم بسلامٍ، أما هو فعوض ذهابه أصر أن يقف ويضرب بالسيف. حينما رأى سمعان بطرس سقوط الجموع أمام السيد المسيح تشجع وأراد أن يدافع بالسيف، لكنه ما أن رأى السيد المسيح مقبوضًا عليه تحت المحاكمة سرعان ما أنكره ثلاث مرات.

اتسم بطرس بغيرته المتقدة مع تسرعه، ومع هذا فإن ما فعله هو أنه قطع الأذن اليمنى للعبد. والعجيب أنه لم يجسر أن يضرب يهوذا كخائنٍ لسيده وفي مقدمة العصابة، بل ضرب عبدًا. كانت نية بطرس صالحة، وهي الدفاع عن سيده، لكن هذه النية لن تبرر سوء تصرفه واستخدامه للسيف. كان يليق به أن ينتظر ما يأمر به سيده.

ربما كان بطرس يريد قتل عبد رئيس الكهنة، لكن الرب لم يسمح إلا بقطع أذنه لا ليبرز سلطانه في الشفاء وإعادة الأذن، وإنما ليعلن ترفقه حتى لمقاوميه. لم يسمح الله لبطرس أن يضرب رقبة العبد، لأنه ربما كان ذلك يثير الجند فيقتلون التلاميذ، ويُحاكم السيد المسيح كمثيرٍ للفتنة والقتل.

ذكر الإنجيليون الثلاثة الآخرون هذا الحدث دون الإشارة إلى اسم الرسول بطرس واسم العبد

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 4.*

ملخس، ربما لأنهما كانا لا يزالا عائشين، أما القديس يوحنا فذكر الاسمين لأنهما كانا قد رقدا.

❖ وثق بطرس الرسول في كلمات ربنا يسوع المسيح وآياته التي فعلها من قبل، فتدرع بسلاحٍ ضد الذين يهاجمونهم. فإن قلت: كيف امتلك بطرس الرسول سيفًا هذا الذي أُمر ألا يقتني ذهبًا ولا ثوبين (مت ١٠: ٩-١٠)؟ أجبتك: على ما يلوح لظني أن بطرس الرسول خشي هذا الحادث بعينه، فاستعد لذلك من قبل. وإن قلت: لقد أُمر ألا يلطم أحدًا (مت ٥: ٣٩)، كيف صار قاتلاً للناس؟ وأبلغ ما يُقال إنه أُمر ألا ينتقم. أجبتك: إنه حارب هنا ليس لذاته، لكن لمعلمه، ولم يكن التلاميذ كاملين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بمثل هذا الفعل طلب التلميذ الدفاع عن سيده دون أي تفكير فيما يحمله العمل من معنى. لذلك حثه أن يمارس الصبر، وسجل الحدث نفسه لكي نختبر فهمه...

تفسير "**ملخس**" هو "مُعين لكي يملك". ماذا إذن يعني بالأذن التي قُطعت من أجل الرب وشفاها الرب إلا تجديد السمع الذي يقلَّم (يشذَّب) من عتقه لكي يتمتع بجدة الروح، وليس بعتق الحرف؟ من يستطيع أن ينكر أن الذي يفعل معه المسيح هكذا لا يُعين أن يملك معه؟ لقد وُجد كعبدٍ محتاج إلى العتق من للعبودية... ليتمتع بالشفاء والحرية[2].

القديس أغسطينوس

"فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد.

الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟" [١١]

لم يضخِّم السيد المسيح من الموقف بل في حنوٍ ورقةٍ وبخ تلميذه الحسن النية، وقام بشفاء العبد. بلطف وبخه، حتى لا يستخدم السيف المادي، بل سيف كلمة الله القادر على النصرة. اتهمه السيد المسيح بأنه مقاوم لإرادة الآب الذي أعطى الابن الكلمة المتجسد الكأس ليشربها، وإن كانت تبدو مرة للغاية.

لقد صمم السيد المسيح أن يشرب الكأس بسببنا، كأس الألم حتى الموت موت الصليب، لكي يقدم لنا كأس الخلاص، كأس البركة الإلهية والتعزيات السماوية. أراد أن يشرب الكأس في طاعة لأبيه محب البشر الذي يعلم شوق ابنه الوحيد لخلاص البشر. ونحن أيضًا إذ نتقبل من يدي الله كأس

[1] *Homilies on St. John, 83:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 5.*

الآلام نذكر أنها كرامة عظيمة لنا أن نشارك الابن الوحيد الجنس آلامه وصلبه وكأسه؛ نتقبلها من يد الآب الذي يحبنا ويرعانا، وبحكمته يعلم قدر احتمالنا وما فيه نفعنا. إنه أب حكيم قدير لن يخطئ التقدير قط!

بالحب والطاعة شرب السيد كأس الألم ثمرة خطايانا لنشرب نحن كأس الخلاص المفرح، واهب البركة والتعزية. يليق بنا نحن أيضًا أن نشارك مسيحنا شرب الكأس التي نتسلمها من الآب بفرحٍ ومسرةٍ. إنها مجرد كأس صغير، وليست نهرًا ولا بحرًا؛ ليست جحيمًا، بل نيرًا هينًا إلى لحظات. آلامنا مع المسيح هي كأس تُقدم لنا كهبةٍ إلهية، يقدمها لنا الأب خلال أبوته الحانية لمجدنا لا لضياعنا.

يشير الكأس إلى نصيب الإنسان من الحياة سواء كان من الأفراح أو الأتعاب، هنا يشير إلى آلام المسيح النهائية التي قبلها مسرة من يد الآب لأجلنا.

❖ قال السيد المسيح لبطرس الرسول "**الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟**"، موضحًا أن الحادث لم يكن من اقتدار أولئك، لكنه من سلطانه، وأظهر أنه ليس مخالفًا لله، لكنه مطيع لأبيه إلى الموت[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أصل هذا الكأس هو هذا الذي مع (المسيح) وقد شربه، إذ يقول الرسول: "أحبنا المسيح، وأسلم نفسه لأجلنا قربانًا وذبيحة لله رائحة طيبة" (أف ٥: ٢)[2].

القديس أغسطينوس

"ثم أن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه". [١٢]

حنو السيد المسيح على ملخس وشفاء أذنه لم يؤثر على ثورة الجمع المحتشد ضده.

انفرد هذا الإنجيلي بذكر أنهم إذ قبضوا عليه أوثقوه. أوثقوه كمن نالوا نصرة عليه، ولعلهم خشوا أن يصنع معجزة فيفلت من أيديهم، لذلك أحكموا الوثق جدًا. يُقال أنه إذ سلم نفسه أرادوا ضمان السيطرة عليه فقيدوه بعنفٍ شديدٍ، حتى كان الدم يخرج من أطراف أصابعه. أوثقوا يديه خلفه، ووضعوا قيودًا حديدية في رقبته، وصاروا يجرونه. بدأت سلسلة العذابات والإهانات بكل وسيلة ممكنة. كان العبيد وحدهم هم الذين يوثقون قبل إثبات دينونتهم. لقد قبضوا على يسوع وأوثقوه ليس عن ضعف أو عجز، ولا عن عدم قدرة للهروب، ولكن لأنه كان يريد خلاصنا بالصليب. ما كان

---

[1] *Homilies on St. John, 83:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 5.*

يمكنهم أن يوثقوه لو لم يوثق نفسه بقرون المذبح بحبال الحب الفائق، كحملٍ ليُقدم ذبيحة عن العالم. لم يدركوا انه قد رُبط عوضًا عنا نحن الذين تربطنا حبال آثامنا (أم ٥: ٢٢) ونير العصيان (مراثي ١: ١٤)، فإن الشر هو رباطات النفس التي تسحبنا أمام قضاء الله. الفساد هو رباط النفس الذي يقودنا إلى مملكة إبليس. وإذ صار مسيحنا خطية من أجلنا قبل أن يُربط بالحبال لكي يحررنا من قيودنا. صار تحت القيود لننعم نحن بالحرية.

إذ قبل القيود خلال محبته صارت لنا كرامة الشركة معه أن نُقيد بالطاعة والحب لله. نفتخر بقيود الحب فنقول مع الرسول: "اذكروا قيودي" (١ كو ٤: ١٨)، بكونها شركة قيود مع المسيح. قيوده حولت القيود من علامة العبودية والشر إلى علامة شركة الحب، فلا عجب إن تهلل بولس وسيلا في قيودهما ليسبحا الله في منتصف الليل داخل السجن، ويحسبها **القديس أغناطيوس الأنطاكي** لآلئ روحية ثمينة.

القائد *Chiliarches* هنا هو قائد الألف، ربما كان قائد جند الهيكل أو الحاكم الروماني المسئول عن أمن الهيكل وحراسته.

لقد تحققت النبوات فقد أحاطت به الثيران (مز ٢٢: ١٢)، أحاطت حوله كالنحل (مز ١١٨: ١٢). وتحققت الرموز، فقد رُبط اسحق لتقديمه محرقة، ورُبط يوسف لكي تجتاز القيود نفسه، ويدخل السجن ظلمًا، ورُبط شمشون ليقتله الفلسطينيون، وقال عنه إشعياء النبي: "من الضغطة ومن الدينونة أُخذ" (إش ٥٣: ٨).

٣. أمام حنان

في الاستعمار الروماني كان ما يشغل روما الجزية التي تقدم للإمبراطور، والسلطة العسكرية لضمان قوة الإمبراطورية وسلطانها، لهذا لم تُلزم المستعمرات بتغيير اللغة والثقافة والدين وممارسة الشئون الداخلية. فكانوا يتركون المستعمرات تمارس المحاكمات المدنية والجنائية حسب تقاليدها، مع حق الحاكم الروماني في التغيير إن استوجب الأمر. كما كان للحاكم أن يقضي في الشئون التي تمس سلام الدولة، خاصة أن أثار أحد شغبًا عامًا، أو فتنة ضد الدولة الرومانية، لهذا كانت محاكمة يسوع المسيح أمام رؤساء الكهنة وفي مجمع السنهدرين أمرًا طبيعيًا، أما إن صدر الحكم بالقتل، فكان يلزم تثبيت الحكم بواسطة الحاكم الروماني.

لقد خشيت القيادات الدينية أن يرفض الحاكم الروماني قتل يسوع المسيح لسببٍ دينيٍ، لذلك قدمت الشكاية من جانبين: ديني كمجدفٍ، وجنائي كمثير فتنة ضد الدولة الرومانية.

"**ومضوا به إلى حنان أولاً،**

لأنه كان حما قيافا الذي كان رئيسًا للكهنة في تلك السنة". **[١٣]**

حنان: اسم عبري، اختصار حنانيا، معناه "يهوه قد أنعم"، رئيس كهنة في أورشليم.

قيافا: اسم آرامي، ربما كان معناه "صخرة" وقد كان رئيس كهنة لليهود، إذ لم تعد وظيفة رئيس الكهنة مدى الحياة كما كانت سابقًا.

كان من المتوقع أن يُلقى في السجن حتى الصباح لمحاكمته، لكن قوات الشر كانت تخشاه، فأسرعت بإجراءات المحاكمة الدينية ليلاً، وبقيت تعمل حتى الصباح. كانوا في ظمأ نحو دم المسيح، كفريسة سقطت بين أيديهم. انطلق الموكب ليلاً أولاً من جبل الزيتون في أورشليم إلى منزل حنان حمى قيافا رئيس الكهنة في تلك السنة، ربما لأن منزله كان في الطريق، ولعلهم أرادوا أن ينالوا فتواه كرئيس كهنة سابق مختبر وشيخ، وهم يعلمون أنه مع شيخوخته متعطش إلى سفك دم يسوع المسيح، فلا يُحسب ذهابهم في منتصف الليل إزعاجًا له بل تكريمًا. هذا ولعلهم ذهبوا لنوال الأجرة، فقد حققوا خطته، وتمموا نصيحته: "**أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب**" [١٤].

قادوه إلى سادتهم، وكان الوقت في منتصف الليل. بناء على توجيهات قيافا انطلق الموكب إلى حنان أولاً، لكي يثبت حكمه دينيًا أمام الشعب بأنه لا خلاف قط بين كل القيادات الدينية على الخلاص من يسوع. ذهبوا به لإقامة جلسة غير رسمية مخصصة لجمع الأدلة على الاتهامات الموجهة ضد يسوع. أما الجلسة الرسمية فكانت في الصباح أمام رئيس الكهنة قيافا الذي تولّى الرئاسة. لم يكن متوقعًا أن يحضر حنان محاكمته الدينية أمام مجمع السنهدرين في الصباح المبكر جدًا، وكرئيس كهنة قدمت له الذبيحة لفحصها أنها بلا لوم! هذا وإحضاره لحنان حما قيافا يعطي الأخير سندًا لمحاكمته يسوع المسيح مستندًا عل قرار حماه.

كان لحنان سلطانه القوي وسط أمته، لأنه عاش كرئيس كهنة لمدة طويلة. ولأنه على الأقل خمسة من أبنائه تولوا رئاسة الكهنوت بالتتابع، وفي تلك السنة تسلم زوج ابنته رئاسة الكهنوت.

لم يجد حنان حاجة إلى تأخير الذبيحة بل بعث بها فورًا إلى زوج ابنته قيافا حيث جمع أعضاء السنهدرين في بيته، وربما في المكان المخصص لهم في الهيكل، لإصدار الحكم فورًا دون تأجيل. فالأمر في أذهانهم لا يحتاج إلى فحص ومداولات. كان حكم قيافا مقدمًا بأنه لصالح الشعب كله أن شخصًا واحدًا يموت، سواء كان بحقٍ أو ظلمٍ، كان بريئًا أو مذنبًا. فإن الصالح العام يقتضي هذا.

❖ فإن قلت: ولِمَ جاءوا بالسيد المسيح إلى حنان؟ أجبتك: بسبب رغبتهم في القبض عليه، شهروا بما

فعلوه، وحالهم حال قوم قد نالوا انتصارًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ مضوا به إلى أولئك الذين لم يجدوا قط إمكانية الدنو إليه. لأنه استمر في كونه النهار (المضيء) بينما بقوا هم كظلمة. إنهم لم يبالوا بالكلمات: "تعالوا إليه واستنيروا" (مز ٣٤: ٥). لو أنهم اقتربوا إليه لاقتنوه، لا بأياديهم لقتله، بل بقلوبهم للترحيب به. على أي الأحوال إذ أمسكوا به بهذه الطريقة ازدادت الهوة جدًا بينهم وبينه. لقد أوثقوا ذاك الذي كان يلزم أن يحلهم[1].

القديس أغسطينوس

"وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود،
أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب". [١٤]

❖ لماذا يذكرنا الإنجيلي بهذه النبوة؟ إنه يعلن أن هذه الأمور قد تمت لأجل خلاصنا. هكذا هي قوة الحق المتزايدة، فإنه حتى الأعداء يعلنون الأمور مقدمًا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. إنكار بطرس

"وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع،
وكان ذلك التلميذ معروفًا عند رئيس الكهنة،
فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة". [١٥]

لقد هرب بطرس أولاً مع بقية التلاميذ، لكنه عاد يتبع المسيح من بعيد ومعه الإنجيلي يوحنا. يرى **القديس جيروم** أن يوحنا تبع السيد المسيح حتى الصليب لأنه كان معروفًا لدى رئيس الكهنة كإنسانٍ له مركزه[3]، من عائلة لها سمعتها وتقديرها. والبعض يرى أنه كان يبيع السمك لبيت رئيس الكهنة أو لخدمه، لهذا تركوه يتبعه حتى لحظات الصليب.

❖ وإن سألت: لِمَ لم يذكر اسمه؟... لأنه ذكر هنا فضيلة عظمى لم يحكمها، لأن تلاميذه فروا هاربين، وهو لحقه، لهذا السبب أخفى نفسه، وقدم بطرس الرسول عن نفسه. وحتى لا يُقال كيف لما انصرف التلاميذ كلهم دخل هذا التلميذ إلى دار رئيس الكهنة؟! ذكر أنه "**كان ذلك التلميذ**

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 112: 6.*
[2] *Hom. 83. PG 59: 491*
[3] *St. Jerome, Epistle to Marcel.*

معروفًا عند رئيس الكهنة"، حتى لا يتعجب أحد أنه لحقه، ولا يصفه بالشجاعة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وأما بطرس فكان واقفًا عند الباب خارجًا،**
فخرج التلميذ الأخر الذي كان معروفًا عند رئيس الكهنة،
وكلم البوابة فأدخل بطرس". **[١٦]**

❖ مجيئه إلى هناك كان من شوقه، ووقوفه دون أن يدخل إلى داخل كان من ارتياعه وخوفه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقالت الجارية البوابة لبطرس:**
ألست أنت أيضًا من تلاميذ هذا الإنسان؟
قال ذاك: لست أنا". **[١٧]**

ربما كان لبطرس شيئًا من العذر لو أن الذي تحدث معه هو ملخس عبد رئيس الكهنة وقال: "أنت الذي قطعت أذني فسأقطع رأسك". لكن تحدثت معه الجارية البوابة، وكان يليق به في شجاعة أن يعتز بأنه تلميذ هذا الإنسان أو على الأقل خلال الحكمة البشرية يصمت، لكنه أنكر بالرغم من تحذير الرب له أنه سينكره ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك.

يرى *Calzarius* أن اسم الجارية *Ballila*، ويلاحظ أنه كان من الشائع في أغلب الأمم القديمة أن يقوم بهذا العمل سيدة "بوابة"، غالبًا ما كانت هذه السيدة عجوز (٢ صم ٤: ٦).

❖ ماذا تقول يا بطرس؟ ألم تعلن: "إن لزم الأمر أن أضع نفسي من أجلك إني أضعها"؟ ماذا حدث إذن حتى أنك لم تقدر حتى أن تحتمل تساؤل جارية؟

هل سألك جندي؟

هل هو أحد الذين قبضوا عليه؟

لا بل جارية بسيطة في مذلة، ولم يصدر التساؤل من جنس عنيف.

إنها لم تقل: "ألست أنت تلميذ ذاك المخادع المفسد؟، بل قالت: "هذا الإنسان"، وهو تعبير يحتمل نوعًا من الشفقة عليه واللين. لكن بطرس لم يقدر أن يحتمل أية كلمة في هذا الأمر... لقد تحدثت بلطفٍ، لكن بطرس لم يدرك هذا، ولا حسب الأمر هكذا في ذهنه[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 83:2.*
[2] *Homilies on St. John, 83:2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وكان العبيد والخدام واقفين، وهم قد أضرموا جمرًا،
لأنه كان برد.
وكانوا يصطلون،
وكان بطرس واقفًا معهم يصطلي". [١٨]

اصطحب العبيد والخدام الواقفين حول النار ربما لكي لا يشك أحد في أمره كتلميذٍ ليسوع، ويظنوه واحدًا منهم. اصطحب الأشرار ليستدفئ معهم، ولم يدرك أنه بهذا يلهب نار التجربة ضده فيحترق، لولا غنى نعمة الله التي انتشلته.

وسط هذا الجو الرهيب من الكراهية وجّه الإنجيلي يوحنا أنظارنا نحو الجحود الثلاثي الذي سبق فكشف عنه ربنا يسوع لتلميذه بطرس الذي مارس هذا الجحود.

أضرم العبيد والخدام نارًا، لأنه كان برد. لم تشغلهم محاكمة يسوع المسيح، بل كان يشغلهم الدفء من برد الجو. وكما قيل: "الشاربون من كؤوس الخمر والذين يُدهنون بأفضل الأدهان ولا يغتمون على انسحاق يوسف" (عا ٦: ٦). لعل هؤلاء كانوا خدام رئيس الكهنة ومعهم الجند الرومان الذين قاموا بدورهم العنيف في القبض على يسوع واقتياده إلى حنان ثم إلى بيت قيافا، وعندئذ سُمح لهم بالانصراف عن مجلس المحاكمة. أما رئيس الكهنة ومن معه، فكانت غيرتهم لقتل يسوع قد أنستهم البرد.

كان يليق ببطرس أن يهرب من صحبة الأشرار مرددًا قول المرتل: "لا تمل قلبي إلى أمرٍ رديء لأتعلل بعلل الشر مع أناسٍ فاعلي إثم، ولا آكل مع نفائسهم" (مز ١٤١: ٤). لكنه وقف يستدفئ مع العبيد والخدام عوض مرافقة السيد المسيح في محاكمته لعله يطلب شهادته. لقد تجمدت غيرة بطرس من البرد الداخلي ووقف يستدفئ مع مقاومي الحق، فعرض نفسه لخطر جحوده لسيده.

❖ يقول الإنجيلي يوحنا: "**لأنه كان برد**". إن وضعنا في اعتبارنا الموسم، ربما لم يكن ممكنًا أن يكون الجو باردًا، لكن يكون برد عندما لا يُعرف المسيح، عندما لا يوجد من يرى النور، عندما تُجحد النار الآكلة.

وقف بطرس بجوار كانون الجمر، إذ شعر أنه يتجمد.

الشر ذو لهيب يهودي، يحرق ولا يقدم دفئًا.

الشر هو الموقد الذي يلهب ظلام الخطأ حتى في أذهان القديسين، فقد أظلمت عينا بطرس

الداخلتين[1].

القديس أمبروسيوس

٥. حوار مع رئيس الكهنة

"**فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه**". **[١٩]**

ربما سأله رئيس الكهنة بأي سلطان يقيم له تلاميذ، ويشكّل جماعة دينية تكرز بتعاليم جديدة، ويجعل من نفسه مصلحًا عامًا. سأله عن تلاميذه لكي يثبت الاتهام المدني أنه مثير للشغب ضد الدولة، وأنه خطر على الحكام الرومان، له تلاميذ يقاومون السلطات. كما سأله عن تعليمه لكي يؤكد الاتهام الديني أنه مجدف ونبي كاذب، يعمل ضد الناموس خاصة بأمن الكنيسة اليهودية. لتثبيت ضرورة قتله أثار الجانبين: الجانب السياسي والجانب ديني وكلا الاتهامين عقوبتهما الموت! أراد أن يُسقط السيد المسيح تحت جناية.

لم يسأله عن أعمال محبته ومعجزاته، لأنه لم يكن قادرًا على إنكارها كأعمال إلهية، وهو يعلم أن هذا قد يثير أذهان الحاضرين لإعادة التفكير في أمره بسبب أعماله الفائقة.

إذ كان قيافا قد أراد أن ينصب الشباك لتلاميذ يسوع كمسببي شغبًا، صمت السيد المسيح من أجل حنوه عليهم، وبعدم الإجابة بخصوصهم أخرجهم من هذه الشباك. فقد جاء السيد المسيح لخلاصهم وتقديسهم، لذلك صمت من جهتهم لخلاصهم من أيدي المقاومين. هذا وإذ يدافع عن تعاليمه لا يوجد مجال لاتهام التلاميذ الذين يمارسون ما يسمعونه من تعاليم.

❖ يا لخبث رئيس الكهنة، لقد سمع السيد المسيح في الهيكل يخاطب الشعب باستمرار، معلمًا إياهم بمجاهرة، فأراد الآن أن يعرف... مريدًا أن يطعن في السيد المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابه يسوع:**
أنا كلمت العالم علانية.
أنا علمت كل حين في المجمع وفي الهيكل،
حيث يجتمع اليهود دائمًا،
وفي الخفاء لم أتكلم بشيء". **[٢٠]**

[1] *Exposition 10: 76.*

بخصوص الاتهام الثاني طلب شهادة الجموع أنفسهم لأنه كان يتحدث علانية، لكل من له أذن للسمع لكي يسمع، أي لكل من يرغب في الاستماع إلى الحق، سواء كان من الطبقات العليا أو الدنيا، من المتعلمين أو الأميين، من اليهود أو الأمم، يحمل صداقة أو عداوة.

إنه كالشمس التي تلقي بأشعتها في كل موضع. كان يتحدث علانية في الهيكل كما على الجبل وعلى الشواطئ. يتحدث في الأعياد والسبوت وكلما حان وقت مناسب للكلمة. إنه الحكمة التي تنادي في كل موضع لعل أحد ما يميل إليها (أم ٨: ٣؛ ٩: ٣). استخدم السيد المسيح كلمة "**علانية**"، وهي تحمل أيضًا معنى "الجرأة"، فإنه لم يعلم في زاوية خفية كمن هو خائف أو كمن يطلب ود إنسانٍ ما. هو معلم الجميع، يطلب بنيان الكل.

بقوله "**خفية**" لا ينفي لقاءاته الشخصية مع أفراد أو مع تلاميذه وحدهم. لقاءاته الشخصية لم يحسبها أحاديث خفية، بل هي كتاب مفتوح أمام الجميع، لأن ما ينطق به مع أحدٍ على انفراد يتناغم مع تعليمه العام. فما تحدث به مع السامرية أعلنته لأهل المدينة، فجاءوا إليه يحدثهم بذات التعليم. وقد أعلن السيد نفسه أن ما يُقال في المخادع يُعلن في السطوح (مت ٣٠: ١١). هكذا يليق بالمؤمن أن يقتدي بسيده في هذا الأمر (رو ١٠: ٦).

يؤكد السيد المسيح أن وصيته ليست مخفية. وكما جاء في سفر التثنية: "إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك، ولا بعيدة منك" (تث ٣٠: ١١). ويقول **العلامة ترتليان**: [لا يخشى الحق شيئا سوى إخفاءه]. كأنه يقول: لماذا تسألني؟ اسأل الخدام الذين أرسلتهم أنت ومن معك من رؤساء الكهنة والفريسيين، فقد سبقوا فقدموا لكم عني تقريرًا: "لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان" (يو ٧: ٤٦). ولعله كان بعضهم من الذين جاءوا للقبض عليه، وحضروا محاكمته الدينية، لكنهم صمتوا عن الحق الذي سبق أن شهدوا عنه.

واضح أن كلمة "**العالم**" تشير إلى العالم اليهودي، لأن السيد المسيح تحدث معهم علانية، أما مع الأمم فالتقى على مستوى فردي مع أشخاص معينين أرادوا الحديث معه أو التمتع بأعمال محبته.

لم يقم السيد المسيح مدرسة سرية، بل كانت أحاديثه عامة وصريحة. وأنه لم يقف هو أو تلاميذه موقف المثيرين ضد المجتمع أو الدولة.

كان القاضي هو نفسه المُدعي مقدم الاتهام، والمتهم نفسه هو المحامي عن نفسه والشاهد.

❖ ما هذا؟ ألم يتكلم قط في الخفاء؟ حقًا قد تكلم، ولكن ليس كما كانوا يظنون أنه تكلم عن خوف أو

ليسبب منازعات، ولكن في كل وقت كانت منطوقاته عالية جدًا عن مسامع الكثيرين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**أنا كلمت العالم علانية**" **[٢٠]**. إنه تكلم علانية إذ سمعه كثيرون؛ مرة أخرى لم يكن ذلك علانية لأنهم لم يفهموا حتى ما تكلم به مع تلاميذه وحدهم، بالتأكيد تكلم معهم خفية... لكنه أراد أن يُعرف ذلك لكثيرين بواسطتهم، إذ قال للقلة القليلة في ذلك الحين: "الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور، والذي تسمعونه في الأذن نادوا به على السطوح" (مت ١٠: ٢٧). بهذا فإنه حتى ما يبدو أنه قاله لهم خفية كان بمعنى ألا يكون في خفية، إذ لم يقل هذا ليبقى السامعون لا ينطقون به، بل بالأحرى يكرزون بكل طريقة ممكنة. هكذا يمكن أن ينطق بالشيء علنًا وليس علنًا في نفس الوقت[2].

القديس أغسطينوس

"**لماذا تسألني أنا؟**

إسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم.

هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا". **[٢١]**

طلب شهادة من سمعوه ليس من تلاميذه أو أحبائه ليدافعوا عنه، وإنما شهادة خدام الهيكل والشعب الذي استمع إليه. فقد قالوا: "لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان (يو ٧: ٤٦). هذه هي شهادة الخدام أمام رؤساء الكهنة والفريسيين.

جاءت إجابة ربنا يسوع لرئيس الكهنة تحمل اتهامًا ضمنيًا ضد رئيس الكهنة أن إجراءات المحكمة خاطئة، وأنه يتربص على خطأ غير موجود، وأن المحاكمة ملفقة ومخادعة. لهذا صفعه أحد الخدّام مدافعًا عن كرامة رئيس الكهنة حسب زعمه [٢٢].

❖ هذه ليست أقوال متكبرٍ، لكنها أقوال الواثق بحقيقة ما قاله. وكأن السيد المسيح قال لرئيس الكهنة: أتسألني عن تلاميذي؟ اسأل أعدائي المتآمرين عليَّ، الذين ربطوني... لأن هذا هو برهان للصدق الخالي من الشك والارتياب، أن يستدعي أحد أعداءه شهودًا لما قاله، فقد كان يجب على رئيس الكهنة أن يفعل هكذا، لكنه لم يعمل.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Hom. 83. PG 59: 491.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 113: 3.*

"ولما قال هذا لطم يسوع واحد من الخدام كان واقفا قائلاً:

أهكذا تجاوب رئيس الكهنة؟" [٢٢]

يرى البعض أن الكلمة هنا تعني ليس لطمة بيده بل بالعصا الخاصة بعسكر الهيكل، ضربه بها على وجهه. وهي ذات الكلمة التي استخدمت في ميخا ٥: ١ "يضربون قاضي إسرائيل بقضيب على خده"، وفي أيوب ١٦: ١٠ "لطموني على خدي تعييرًا".

لم تحمل كلمات السيد المسيح جفاء أو قسوة بل شفقته تستشفّ من الكلمات. تحدث بوداعة ورقة مع شجاعة، دون أية إهانة لرئيس الكهنة، لكن إذ كانت كلماته مقنعة وتجيب على اتهام الكهنة لهذا عبّر الخادم عما في قلب رئيس الكهنة وما يود أن يفعله. لم يدرِ هذا الخادم أن بفعله هذا أعلن شخص المسيا الذي تنبأ عنه الأنبياء: "بذلت ظهري للضاربين وخدي للناتفين، وجهي لم أستر عن العار والبصق" (إش ٥٠: ٦). "يضربون قاضي إسرائيل بقضيب على خده" (مي ٥: ١). "فغروا عليّ أفواههم، "لطموني على فكي تعييرًا، تعاونوا عليّ جميعًا" (أي ١٦: ١٠).

يعتقد البعض أن هذا الخادم هو ملخس الذي شفى السيد المسيح أذنه، فردَّ عمل الحب الإلهي بالجحود والعنف. ولعله كان أحد الخدام الذين شهدوا للسيد المسيح أمام رئيس الكهنة والفريسيين (يو ٧: ٤٦) فخشي أن يطلبه يسوع شاهدًا على كلماته وتعاليمه، أو لأن السيد شفاه خشي أن يُتهم بأنه صديق ليسوع على حساب الهيكل وولائه لرئيس الكهنة وللشعب، لذلك أظهر نوعًا من العداوة.

❖ ارتعبي أيتها السماء، وتزعزعي أيتها الأرض من أجل حلم الرب وطول أناته ولقلة تحفظ عبيده. ماذا قال (السيد)؟ إنه لم يقل:" لماذا تسألني؟ كمن يرفض أن يتكلم معه، إنما أراد أن ينزع كل ستار عن سلوك أحمق، بل يكون فوق هذه اللطمة مع أنه قادر أن يحطمها ويزيلها، وينزع كل شيء، لكنه لم يفعل شيئًا من هذا، بل نطق بكلمات يمكن أن تهدئ من كل وحشية[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أجابه يسوع:

إن كنت قد تكلمت رديًا فأشهد على الردي،

وإن حسنًا فلماذا تضربني؟" [٢٣]

بإجابته على ضاربه أعطى المؤمنين حق الدفاع عن أنفسهم لا الانتقام لأنفسهم، مع الالتزام أن يكون الدفاع داخل دائرة الحب والحق والوداعة. فالسيد المسيح احتمل الضرب والإهانة ولم يهدد.

[1] *Homilies on St. John, 83:3.*

كان يمكن للسيد المسيح أن يجيب هذا الخادم بعملٍ معجزي كتيبيس يده أو بشق الأرض لتبتلعه الخ. لكن أجابه في وداعة وحكمة، دون أن يقدم له الخد الآخر كما أوصى في موعظته على الجبل (مت ٥: ٣٩). بهذا علم الجميع أنه يوجد من يحول الخد الآخر جسمانيًا لكن قلبه يحمل كراهية لمن يضربه، أما السيد المسيح فقد حوَّل كل جسمه ليُصلب بالحب حتى من أجل ضاربه. فالتحول يلزم أن يكون في الداخل.

❖ ينقصنا صبر مخلصنا الذي أُقتيد كحملٍ للذبح ولم يفتح فاه، بل برحمةٍ قال لضاربه: "إن كنتُ قد تكلمتُ رديًّا فاشهد على الردي، وإن حسنًا فلماذا تضربني؟"[1]

القديس جيروم

❖ لم يجب الرب رئيس الكهنة باستخفاف، ولم يحط من قدره نهائيًا من كرامته ككاهن، إنما أكد بالأحرى براءته[2].

الشهيد كبريانوس

❖ أظهر هنا بالأحرى ما يجب إظهاره، وهو أن هذه الوصايا العظمى التي له (كتحويل الخد الآخر للاطمين) تتم لا بتباهٍ جسدي بل بإعداد القلب. فإنه يمكن حتى الإنسان الغضوب أن يحول خده الآخر ظاهريًا[3].

القديس أغسطينوس

"وكان حنان قد أرسله موثقًا إلى قيافا رئيس الكهنة". [٢٤]

واضح أنه قد حُلت وثق السيد المسيح أثناء محاكمته أمام حنان لفحصه، والآن قد أوثق مرة أخرى، وإن كان البعض يرى أن العبارة تحتمل أنه كان موثقًا حتى في لحظات محاكمته، وأرسل كما كان الحال عليه موثقًا إلى قيافا.

لم يشغل القديس يوحنا الإنجيلي عرض الأحداث بترتيب زمني. فما ورد هنا يأتي بعد الآية ١٣ مباشرة من جهة الترتيب الزمني.

٦. إنكار بطرس مرتين

"وسمعان بطرس كان واقفًا يصطلي،

---

[1] *Against the Pelagians, 3:4.*
[2] *Letter 59 to Cornellius: 4.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 113: 4.*

فقالوا له:

ألست أنت أيضًا من تلاميذه؟

فأنكر ذاك، وقال لست أنا". [٢٥]

ربما سمع بطرس أن رئيس الكهنة سأل السيد المسيح عن تلاميذه [١٩]، فخشي أن يُقبض عليه أو يتعرض لضربات مثل سيده، لذلك أنكر أنه من تلاميذه. لقد ألقى بنفسه في التجربة للمرة الثانية، إذ وقف بين الخدام يصطلي. أراد أن يستدفئ بنار الأشرار، فحمل برودة من جهة الحياة الصالحة. كان يليق به أن يستدفئ بنار محبة المسيح التي لا تقدر مياه كثيرة أن تطفئها (نش ٨: ٦–٧).

يروي لنا القديس يوحنا الإنجيلي قصة مؤلمة تُعد بين آلام السيد المسيح، لا تقل عن آلامه الجسمانية وهي إنكار بطرس له ثلاث مرات.

الإنكار الأول: كان خارجًا أو تحت في قاعة دار قيافا. لم يكن يسوع في علية الدار أمام رئيس الكهنة. أنكر بطرس أمام البوابة الجارية وهو واقف يصطلي مع الخدام [١٦، ١٨].

الإنكار الثاني: بعد الإنكار الأول بفترة وجيزة (لو ٢٢: ٥٨). حتمًا انسحب من الموقع إلى مدخل القاعة يستدفئ بعد إنكاره الأول (مت ٢٦: ٧١) كان ذلك وقت الصياح الأول للديك بعد منتصف الليل مباشرةً. لكن تبعته الجارية وبعض من معها، خاصة وأن الاتصال بين الموضعين مباشر. هناك اتهمه رجل ربما بإثارة الجارية له. إذ أثارت المرأة الموقف غالبًا ما انهارت التساؤلات من كثيرين ليتعرفوا على حقيقة أمره. فلا يفهم من تساؤل الرجل عن شخص سمعان بطرس أن الباقين وقفوا صامتين، فإن الموقف كان يهز المدينة كلها، ولا شك حدث صخب مع تساؤلات كثيرة من كثيرين.

الإنكار الثالث: داخل القاعة على مرأى من يسوع، وإن كان عن بعد. بعد حوالي ساعة من الإنكار الأول وجه الحاضرون الاتهام الثالث ضده أنه جليلي (لو ٢٢: ٥٩)، مع تأكيد أنه من تلاميذه، وقد أورد القديس يوحنا أن أحد أقرباء ملخس قد دعم الاتهام [٢٦]. كان الإنكار هذه المرة حارًا، هنا صاح الديك للمرة الثانية.

سقط بطرس في سلسلة من الأخطاء والخطايا، كل خطية تدفع به إلى أخرى حتى بلغ إلى ما لم يكن يتوقع حدوثه قط. بدأ بطرس بثقته في نفسه أنه مستعد أن يموت مع معلمه، خلال هذا الاعتزاز البشري الصادر عن ذات معتدة بنفسها اهتم بنفسه فانطلق يستدفئ بنارٍ في وسط صحبة الأشرار، ومع كل سقوط في الإنكار عن ضعف بشري يتلقفه إنكار أشد وأمرّ، بالرغم من تحذيرات السيد له.

ومع الصياح الأول للديك، العلامة التي قدمها له السيد، لم يرجع عما هو فيه. كان بطرس في حاجة إلى نظرة المسيح إليه لتبعث فيه روح التوبة المملوءة رجاءً.

❖ يا للعجب من بطرس الحار في الشوق، الثابت فيه، كم استحوذ عليه السهو، بعد أن أوثقوا السيد المسيح ومضوا به، لم يتحرك، لكنه لبث يستدفئ أيضًا، ثم لما سُئل أنكر أيضًا، لكي تعرف ما هو مبلغ ضعف طبيعتنا (لو ٢٢: ٦٢).

القديس يوحنا الذهبي الفم

"قال واحد من عبيد رئيس الكهنة،
وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه:
أما رأيتك أنا معه في البستان؟" [٢٦]

حاول بطرس أن يخفي شخصيته كتلميذٍ للمسيح، ولم يعلم أنه ليس خفي إلا ويظهر. يوجد مثل شائع جاء فيه أنه ربما عصفور طائر في الهواء يخبر بما نخفيه كذبًا.

❖ لماذا كتب الإنجيليون في اتفاق بخصوصه؟ ليس لاتهام التلميذ، وإنما من أجل تعليمنا أي شر عظيم ألا نترك كل الأمور في يد الله، بل نعتمد على أنفسنا. لكن لا تندهشوا من رعاية سيده المترفقة، فقد سبق ففكر في تلميذه، لكي يرفع بطرس حينما يسقط، وذلك بتطلعه إليه فيسبح به في بحر الدموع[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فأنكر بطرس أيضًا،
وللوقت صاح الديك". [٢٧]

❖ انظروا، فقد تحققت نبوة الطبيب، وجاءت وقاحة المريض إلى النور[2].

القديس أغسطينوس

٧. في دار الولاية

"ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية،
وكان صبح،

[1] *Homilies on St. John, 83:3.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 113: 6.*

ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية،
لكي لا يتنجسوا،
فيأكلون الفصح". [٢٨]

لماذا قُدم لبيلاطس الوالي لمحاكمته؟

١. لكي يصدر الحكم بموته بطريقه شرعية حسب دستور البلد كمستعمرة رومانية.

٢. لو لم يقدم للمحاكمة الرسمية لتحول الأمر إلى شغب ولم يكن يُصلب، إذ هذا من حق الوالي وحده، وإنما لرجمه المشاغبون ولم تتحقق النبوات.

٣. ربما خشيت القيادات اليهودية الدينية من ثورة الشعب عليهم، لذلك حسبوا أن محاكمته الرسمية تعطيهم شيئًا من الشرعية، وضبط الشعب إن انقلب عليهم.

٤. لكي يصبغوا موته بصبغه العار والفضيحة، فكان الصلب مستخدمًا عند الرومان، وهو أكثر أنواع الموت خزيًا. فقد أرادت القيادات أن تفسد سمعته تمامًا وتطمس كل شهرته.

الآن يقدم لنا الإنجيلي صورة حية لمحاكمة السيد المسيح أمام بيلاطس الحاكم الروماني، في قاعة القضاء في دار الولاية *praitoorin, praetorium*. فقد بدأت إجراءات محاكمته مبكرًا جدًا. كانت الأحداث تجري بسرعة حتى يحقق السنهدرين خطته مدعمة بحكم مدني قبل أن يحدث انشقاق بين الشعب حول شخص يسوع. ظن البعض أنها بين الساعة الثانية والثالثة صباحًا، وآخرون أنها بين الخامسة والسادسة صباحًا، وكانت القيادات تستعجل هذه الإجراءات والناس نيام حتى يقللوا من خطر هياج الشعب عليهم، أو خطر إعادة النظر في أمر السيد المسيح، فبعد ثورتهم عليه يعودوا ويلتزمون بالوقوف في صفه ضد القيادات.

كان الأمر في أذهان اليهود غاية في الخطورة، إذ كانوا يدفعون الضابط الروماني الكبير الوالي بيلاطس بنطس للحكم عليه، بينما كانت الجماهير مضطرة إلى البقاء في خارج دار الولاية لئلا يتدنّسوا طقسيًا بدخولهم محكمة وثنية في أيام الفصح، أو بيت أممي غير ملتزم بالطقوس الخاصة بهذا الأسبوع كنزع الخميرة. كان اليهود يحسبون أن مجرد لمس شخص أممي يسبب لهم نجاسة، خاصة في وقت الفصح. كانوا يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل.

بحسب الشريعة من يدخل مكانًا دنسًا يتدنس، ومن يدخل خيمة يرقد فيها ميت يحسب دنسًا (عد ١٩: ١٤). طقسيًا الشخص غير الطاهر لا يقدر أن يأكل من أية ذبيحة (لا ٧: ٢٠)، وهذا يمنعه من حفظ الفصح. من هو غير طاهر في وقت الفصح يمارس الفصح بعد شهر من موعده (عد ٩:

٦–١٣)، ولا يشترك مع الشعب في الفصح في موعده.

أبرز الإنجيلي يوحنا كغيره من الإنجيليين أن أحداث الصليب قد تمت ليس عن هزيمة السيد المسيح أمام الأشرار الذين كانوا يبدون أكثر قوة جسمانية منه، وأصحاب سلطة، وإنما تمت في توافقٍ تامٍ مع خطة الآب لخلاص العالم والتي هي مسرة الابن أن يتممها. فلا عجب إن أعلن مسيحنا على الصليب "قد أكمل" (١٩: ٣٠) قبيل انحناء رأسه وتسليمه الروح. فالصليب بكل أحداثه لم يكن كارثة في حياة ربنا يسوع المسيح، بل تحقيق الخطة الإلهية.

كانت السلطة الرومانية تسمح لمحاكم اليهود صراحة بإقرار عقوبة الإعدام وتنفيذها في حالات معينة، وهي الزنا والتجديف وانتهاك حُرمة الهيكل. ولعلّه لهذا السبب كان الاتهام الأول هو عزمه على هدم الهيكل كوسيلة غير مباشرة لتسليمه إلى الموت الطقسي أو الشرعي، وكان هذا الموت يتم حسب التقليد اليهودي بالرجم بالحجارة. وقد توارى السيد المسيح عنهم عندما أرادوا رجمه (يو ٨: ٥٩). لأنه لم يكن ممكنًا للموت بالرجم أن يحقق خلاص العالم. أما عقوبة الصلب فكانت تُطبق حسب القانون الروماني على العبيد وغير الرومانيين. وهو عقوبة بشعة شائنة، وتمثل اللعنة والرجاسة القُصوى في نظر اليهود. لهذا تضامن اليهود مع بعض الرومان على تحقيقها بأسرع ما يمكن في يوم الاستعداد للفصح.

جرى حوار ثلاثي بين قادة الديانة اليهودية الرسميين رافعي الدعوة وبين الوالي الروماني الذي يلتزم كموظف روماني أن يقوم بواجبه بأن يتبين الجريمة التي اقترفها المتهم، ويتحقق من دواعي الشكوى وبين السيد المسيح العالِم بأن ساعته قد أتت، وأنه في طاعة يتمم مشيئة الآب المتطابقة مع مشيئته كمحبٍ للبشر.

يرى البعض أن "**الفصح**" هنا لا يعني حمل الفصح، وإنما ذبائح أخرى كانت تُقدم خلال الاحتفال بالفصح، كانت تؤكل في العشية السابقة للعيد، وأن السيد المسيح صُلب في اليوم التالي لعيد الفصح. يرى آخرون أن الفصح هنا يعني خروف الفصح، وأنه كان اليوم المناسب لتقديم الذبيحة، لأن السيد المسيح علق على الصليب في ذات لحظات أكل الفصح، بهذا لم يشترك السيد المسيح في أكل الفصح. ويرى فريق أن اليهود كانت لهم الحرية لأكل خروف الفصح منذ الخميس في العشية حتى الجمعة عشية، وأن هذا السماح كان لازمًا بسبب كثرة عدد الحملان التي كانت تُذبح.

يرى البعض أن السيد المسيح أكل بالفعل الفصح في السنة الأخيرة من حياته على الأرض (مت ٢٦: ١٧–١٩؛ مر ١٤: ١٢–١٨؛ لو ٢٢: ٨–١٥)، وأنه أكله قبل الموعد بعدة ساعات، وأن السيد

نفسه قد ذُبح في نفس اللحظات التي يجب أن يُذبح الحمل حسب الشريعة.

واضح من الأناجيل الإزائية (متى ومرقس ولوقا) أن السيد المسيح وتلاميذه أكلوا الفصح في يوم خميس العهد، وبعد ذلك قدم جسده ودمه فصحًا للعهد الجديد. غير أن ما ورد هنا في إنجيل يوحنا يوضح إن القيادات اليهودية لم تكن بعد أكلت الفصح، وبهذا يكون الفصح في يوم الجمعة العظيمة.

نشر كثير من الدارسين كتبًا كاملة في حل هذه المشكلة[1]. توجد دلائل على أن جماعات مختلفة في إسرائيل استخدمت تقويم مختلف عن التقويم الذي يستخدمه المسئولون في الهيكل. مثال ذلك الجماعات التي أنتجت مخطوطات البحر الميت استخدمت تقويمًا قديمًا وحسبت أن الكهنة في أورشليم يحتفلون الأعياد كلها في تواريخ خاطئة. فالحل البسيط للمشكلة القائمة بين أيدينا هو أن يسوع وتلاميذه استخدموا تقويمًا مختلفًا، فحفظوا الفصح يومًا مقدمًا عن المسئولين في الهيكل. هذا يفسر لنا لماذا لم يشر إلى الحمل الخاص بالفصح في العشاء الرباني، مع أنه أساسي في حفظ الفصح، حيث لم يكن ممكنًا تقديم الحمل ذبيحة قبل أكله بدون موافقة السلطات الخاصة بالهيكل. أشارت الأناجيل الإزائية إلى وجبة الفصح التي مارسها السيد المسيح وتلاميذه، أما يوحنا فأشار إلى الاحتفال الرسمي، وإذ لم يكن بعد قد تم لذلك امتنع فريق رؤساء الكهنة من دخول دار الولاية، حتى لا يتدنسوا، فيضطروا إلى الاحتفال بالفصح بعد شهر من موعده (عد ٩: ٦-١٣).

❖ وأنا أقول لأحدهم: قل لي أي دنس يحل بك من سيرك في مجلس القضاء الذي فيه يقابل الظالمين مقابلة عادلة، هؤلاء الذين يعشرون النعناع والشبث ويقتلون ظلمًا ولا يظنون أنهم يتدنسون بذلك، واحتسبوا أن سيرهم في مجلس القضاء ينجسهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من يدخل في أيام الفطير مسكن شخص من أمة أخرى يُحسب ذلك نجاسة! يا له من عمل شرير! هل بالحق يتنجسون بمسكن شخص غريب، ولا يتنجسون بارتكابهم الشر؟ كانوا يخشون الدنس من دار الولاية التي لقاضٍ غريب ولا يخافون التدنس بسفك دم أخٍ بريء[2].

القديس أغسطينوس

"فخرج بيلاطس إليهم وقال:
أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟" [٢٩]

---

[1] *Leon Morris, The Gospel according to John, Eerdmans Grand Rapids 1971, p. 774-786.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 114: 2.*

حمل بيلاطس بعض الصفات الجميلة، فمن جانب لم يرفض أن يقوم بدوره كقاضٍ في الصباح المبكر، مع أنه كان يمكنه أن يطلب انتظارهم حتى يحل الوقت المناسب لقيامه بالمحاكمة. ومن جانب آخر كان متواضعًا، فإذ رفضوا الدخول إلى دار ولايته لئلا يتنجسوا كان يمكنه ألا يخرج إليهم، بل يطلب منهم إما أن يدخلوا إليه أو يرجعوا إلى بيوتهم، أو يؤجلوا المحاكمة إلى ما بعد العيد، حتى يمكنهم المثول بين يديه. وأيضًا طلب بحث الأمر وتوضيحه، متسائلاً عن طلب الشكاية ضد يسوع، وما هو الاتهام ومدى صحته.

❖ ألا ترون أنه متحرر من الولع بالحكم ومن الخبث؟ فإنه إذ رأى يسوع مقيدًا، يقتاده كثيرون، لم يظن أن هذا فيه برهان كاف لاتهامهم له، إنما سألهم عن الاتهام، حاسبا أنه لأمر غريب أن يحكموا ويصدروا العقوبة دون أية محاكمة من جانبه، فلماذا يقولون هذا؟[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

تساؤل بيلاطس لا يعني عدم معرفته للشكوى ضد السيد المسيح، لكنه كحاكمٍ يلتزم أن تسير كل الأمور بترتيب ونظام.

هذا ومن جانب آخر فإن تساؤل بيلاطس سبب إحباطًا للقيادات، إذ هم يعلمون أنه حسب الشريعة يسقط المجدف تحت حكم الموت، أما حسب القانون الروماني فإن التجديف على الإله الذي يعبده اليهود لا يبرر الحكم بالموت، إذ لا يحسب ذلك جريمة عظمى.

حقًا لقد اشترك الجند الرومان مع جند الهيكل في القبض على يسوع المسيح، مما يدل على وجود نوع من التعاون أو التشاور بين السلطات الدينية والمدنية، ولعله لهذا لم تستعد السلطات الدينية للمحاكمة بوضع صحيفة اتهام ليسوع المسيح. سواء اشترك بيلاطس في تدبير القبض على السيد المسيح أو لم يشترك، فإنه كحاكم روماني كان يعتز بحبه لممارسة العدالة وتطبيق القانون والسير في الإجراءات القانونية بطريقة لائقة.

"**أجابوا وقالوا له:**

لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك". **[٣٠]**

سألهم بيلاطس بكل تهذيب عن شكواهم ضد يسوع، هذا ما يقتضيه واجبه كموظفٍ في المملكة، وفي نفس الوقت أظهر انزعاجه أمام هذا الشعب الصاخب. أما إجابتهم فجاءت تكشف عن عجزهم

[1] *Homilies on St. John, 83:4.*

عن إثبات دعواهم ضده، مع اصرارهم بشراسة. لم يكونوا قادرين على تقديم اتهام صريح كأن يكون خائنًا للبلد أو قاتلاً أو مسببًا للشغب، لكنهم قدموا اتهامًا عامًا وهو أنه "**صانع شر**". كانوا يزجّون بيلاطس رغمًا عنه لتنفيذ رغبتهم، أما هو فكان يود ألا يشترك في ذلك.

كان المدعون غير مهذبين في حوارهم مع بيلاطس، فقد خرج إليهم وسألهم عن الاتهام، أما هم ففي عجرفة لم يقدموا اتهامًا، بل حسبوا سؤاله أشبه بعدم ثقة فيهم وفي حكمهم، إذ "**قالوا: لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك**". لم يرد اليهود أن يكون بيلاطس هو القاضي الذي يحكم، وإنما المنفذ العملي لما أصدروه هم. كأنه من حقهم أن يحكموا وليس من حق الوالي أن يتعرف على الاتهام أو يناقشهم في حكمهم. هم يحكموا وهو يلتزم بالتنفيذ، الأمر الذي لا يقبله عقل.

❖ يا له من جنون! لماذا لم تشيروا إلى أفعاله الشريرة عوض إخفائها؟ لماذا لا تبرهنون على الشر؟ ألا ترون أنهم كانوا يتجنبون الاتهام المباشر من كل جانب، إذ كانوا عاجزين عن النطق بشيءٍ؟ سأله حنان عن تعليمه وسمع له، فأرسله إلى قيافا. وبدوره سأله قيافا، وإذ لم يكتشف شيئًا أرسله إلى بيلاطس. بيلاطس يقول: "أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟" ولا هنا وجدوا ما يقولونه... عندئذ ارتبك بيلاطس[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال لهم بيلاطس:**

خذوه أنتم وأحكموا عليه حسب ناموسكم.

فقال له اليهود:

لا يجوز لنا أن نقتل أحدًا". **[٣١]**

ربما ظنت القيادات الدينية اليهودية أنه مجرد تسليم شخص يهودي للحاكم المستعمر فيه كل الكفاية على التحقق من شره وجريمته؛ إذ لا يمكن لقيادة دولة مُستعمرة أن تسلم الحاكم المستعمر شخصًا للحكم عليه بالقتل بلا سبب. لكن هذا الفكر لا يناسب الحاكم الروماني الملتزم بتطبيق القانون ومراعاة الإجراءات القانونية السليمة. لقد حسب هذا نوعًا من الفوضى، لهذا قال لهم: "إن كان قد كسر ناموسكم، فأحكموا أنتم حسب ناموسكم، هذا أمر ليس من اختصاصي، ولا يشغل الرومان في شيء". لم يرد الرومان أن ينشغلوا بالقضايا المحلية للمستعمرات، بل يتركوها في أيدي قياداتهم والمحاكم المحلية الوطنية مادامت لا تمس أمن الدولة.

[1] *Homilies on St. John, 83:4.*

يرى البعض أن بيلاطس هنا يذكرهم بسوء تصرفاتهم واستغلال سلطتهم، لذلك نزعت عنهم الدولة الرومانية حق الحكم بالموت على شخصٍ ما. وكأنه يقول لهم: بسبب إساءة استخدام السلطة نزعت عنكم الدولة حق الحكم بالموت، فلماذا تحكمون على يسوع هذا، وتطلبون مني التنفيذ دون محاكمة فعلية؟ خذوه أنتم واحكموا عليه إن كان ذلك في سلطانكم، وإما قدموا الدعوى ودعوني أبحث الأمر وأفحص الاتهام حتى لا أشارككم خطأكم.

يرى د. لايتفوت *Lightfoot* أنه قد حُرم اليهود من حق إصدار حكم الإعدام حوالي ٤٠ عامًا قبل خراب أورشليم، كما اعترفوا هم بذلك عدة مرات. قيل أن مجمع السنهدرين تحت تأثير بعض القادة الدينيين كانوا إلى فترة طويلة يرفضون الحكم بالموت على يهودي كابن لله مهما كان لصًا أو فاعل شر. فازداد عدد المجرمين واللصوص. انتشر الشر، وصارت الشريعة كما في سبات لا تتحرك نحوهم، فتركوا للحاكم – حتى وإن كان وثنيًا – أن يتصرف مع المجرمين. كان ذلك بسماحٍ إلهي، لأنه لو أصدر السنهدرين الحكم بالموت على شخص يسوع كفاعل شرٍ أو مجدفٍ الخ وقاموا بالتنفيذ، لحكموا عليه بالرجم لا بالصلب. وكان لابد لعتقنا من لعنة الناموس أن يرفع ابن الإنسان على الصليب لأنه ملعون من عُلق على خشبة.

لم يكن من حق اليهود الحكم بالإعدام صلبًا، لكن كان من حق مجلس السنهدرين أن يحكم بالرجم. فلا نتعجب من إحضار امرأة أمسكت في الزنا يطلبون من السيد المسيح حكمه عليها، إذ كان يلزم رجمها حسب الشريعة الموسوية. لم ينقض السيد المسيح الشريعة، لكنه طالبهم بوجود شخصٍ واحدٍ برئ من الخطية يلقيها بأول حجر، فلم يوجد. مرة أخرى نسمع عن استفانوس الشماس وأول الشهداء إذ رجمه اليهود دون أخذ إذن بذلك من السلطات الرومانية (أع ٧: ٥٧).

❖ قال اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحدًا، أي أنه لا يجوز لهم ذلك في هذا الوقت، إذ كانوا قد ارتكبوا كثيرًا من حالات القتل، وقد أظهر ذلك ما فعلوه بالشهيد استفانوس الذي رجموه بالحجارة، إلا أنهم اشتهوا أن يصلبوه لكي يشهروا بموته.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ليتم قول يسوع الذي قاله،

مشيرًا إلى أية ميتة كان مزمعًا أن يموت". [٣٢]

لقد رفضت القيادات اليهودية الحكم على السيد المسيح بالرجم، لأن هذا يثير الجماهير، خاصة وقد اكتظت المدينة بالجماهير من بلاد كثيرة، ولعل بعضهم سمعوا عن شخص السيد المسيح وأرادوا

اللقاء معه. أما متى تم الحكم خلال الحاكم فلا تقدر الجماهير أن تثور، وربما تتشكك في أمر يسوع، لأن الحكم صدر عن هيئة غير دينية.

أما من الجانب الأهم فإن صلبه كما رأينا يحقق خطة الله التي سبق فكشف عنها خلال الناموس والأنبياء.

٨. حوار مع بيلاطس

"ثم دخل بيلاطس أيضًا إلى دار الولاية،
ودعا يسوع وقال له:
أنت ملك اليهود؟" [٣٣]

لماذا سأله بيلاطس؟ توجد آراء كثيرة.

١. يرى البعض أن بيلاطس بدأ يتلامس مع شخص السيد المسيح ويدرك أنه شخص غريب له تقديره واحترامه، حتى وإن سُلم إليه كسجين ومطلوب قتله. في داخل الولاية بعيدًا عن قادة اليهود والجماهير الثائرة سنحت الفرصة لبيلاطس أن يختلي مباشرة بالرب يسوع. وكأن السيد المسيح وقد رفضته خاصته انتقل إلى العالم الروماني الخارجي ليُعلن عن ذاته له.

٢. يرى آخرون أنه كقاضٍ يبحث عن العدالة والحق التزم أن يسمع كل الأطراف حتى يتحقق من صحة الاتهام ضد يسوع أو بطلانه.

٣. آخرون يحسبون أنه تكلم في شيءٍ من السخرية، فمادام يسوع ينطق بالحق، ففي سخرية يسأله: ما هو هذا الحق في ذهنك؟ ربما حمل هذا السؤال نوعًا من الاستخفاف، بمعنى: هل أنت هو ملك اليهود، المسيا الذي ينتظرونه ليخلصهم من الاستعمار؟ هل أنت ملك اليهود الذين يبغضونك ويسلمونك للموت؟ هل أنت الملك الشرعي وقيصر الملك الفعلي؟

في رأي هذا الفريق أن لم يرد أن يجيب على سؤال بيلاطس لأنه لم يسأل من أجل التعرف على الحق، وإنما كنوع من السخرية، فلم يرد أن يقدم اللآلئ أمامه.

❖ لرغبة بيلاطس أن يتخلص من معاداة اليهود له لم يهملهم، مقدمًا محاكمة طويلة المدى، فدخل "**ودعا يسوع**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابه يسوع:**

أمن ذاتك تقول هذا؟ أم آخرون قالوا لك عني؟" [٣٤]

بقوله هذا واضح أن بيلاطس كان مترددًا بين شوقه للتعرف على شخص المسيح، وما سمعه عنه إن كان صاحب سلطان حقيقي أم لا، وبين ما سمعه من أقوال متضاربة من اليهود. وكأن السيد المسيح يطالبه أن يفكر في الأمر جديًا ليتعرف على شخصه.

❖ لم يسأل السيد المسيح بيلاطس سؤالاً لجهله بما في ضميره، لكنه سأله مريدًا أن يوبخ اليهود... لقد وبخ بيلاطس، وكأنه قال له: "إذ قد سمعت هذا الذي قاله اليهود، فلماذا لا تستقصي في البحث؟"

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أجابه بيلاطس: ألعلي أنا يهودي؟
أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إليَّ، ماذا فعلت؟" [٣٥]

لم يقتنع بيلاطس من الموقف، ففي استهتار قال له بأن الأمر لا يشغله، إنه يخص اليهود، ولا يخصه هو. لقد تنحّى بيلاطس على مسئوليته معلنًا أنه ليس بيهودي، وأن الذي سلمه هو أُمّته ورؤساء الكهنة، وأن ما يقوم به إنما من قبيل المسئولية كقاضٍ.

❖ هنا أراد أن يتنصل من الأمر. وإذ قال له: هل أنت ملك؟ وبخه يسوع مجيبًا إياه: "هذا سمعته من اليهود، فلماذا لم تبحث الأمر بدقة؟ لقد قالوا إني فاعل شر، اسألهم أي شر فعلته. لكنك لم تفعل هذا، بل ببساطة قدمت اتهامات ضدي".[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

"أجاب يسوع:
مملكتي ليست من هذا العالم،
لو كانت مملكتي من هذا العالم،
لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود،
ولكن الآن ليست مملكتي من هنا". [٣٦]

❖ اقتاد بيلاطس إلى فوق، ذاك الذي لم يكن شريرًا جدًا، ولا على شاكلتهم، فأراد أن يظهر له أنه ليس إنسانًا مجردًا بل الله، ابن الله[2].

[1] *Homilies on St. John, 83:4.*
[2] *Homilies on St. John, 83:4.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

إذ أخذ الكلمة شكل عبد لا ينكر أنه الملك صاحب الكرامة والسلطان، ليس حسب فكر اليهود، ولا حسب فكر بيلاطس، إنما مملكته في أعماق القلوب، تحكم القلوب والأذهان بكونه الحق الإلهي. لقد فهم بيلاطس من كلماته أنه يحسب نفسه ملكًا مع أنه يقف أمامه كسجينٍ متهمٍ، ومطلوب إعدامه من رؤساء أمته. أكد السيد المسيح أن مملكته ليست من هذا العالم:

أولاً: إنها **لا تقوم في هذا العالم** كممالك البشر الممتدة عبر البحار والأرض (دا ٧: ٣؛ رؤ ١٣: ١، ١١). عاصمة مملكته أورشليم المدينة التي من عند الله النازلة من السماء (رؤ ٢٢: ٢).

ثانيًا: طبيعة مملكته ليست أرضية، فهي مملكة داخل قلوب البشر (لو ١٦: ٢١)، تنشأ في القلوب والضمائر (رو ١٤: ١٧)، غناها روحي، وإمكانياتها روحية، ومجدها من الداخل.

ثالثا: حراسها ليسوا أرضيين، وأسلحتهم روحية، لا يحتاجون إلى أسلحة أرضية زمنية، لهذا منع تلاميذه من أن يدافعوا عنه. جاءت إجابة السيد المسيح أن مملكته ليست من هذا العالم، وإلا كان له جيش يدافع عنه، تُرضي بيلاطس جزئيًا، فإن السيد لن يدخل في القضايا الخاصة بهذا العالم، وخاصة اقتناء السلطة، لكنه في نفس الوقت هو ملك على مستوى أعظم من ممالك العالم.

رابعًا: خطتها ليست زمنية، لذا لم يسمح لتلاميذه أن ينسحبوا إلى المجد الباطل والعظمة البشرية.

خامسًا: سكانها ومواطنوها ليسوا من هذا العالم، يسلكوا في العالم، لكنهم ليسوا منه، يتمتعون بميلادٍ روحيٍ جديدٍ، ويسلكون بروح الله، ويتمتعون بالحكمة الإلهية، ويغتنون بالغنى الإلهي.

رآه إشعياء النبي بروح النبوة ملكًا على الشعوب بالصليب فقال: "هوذا قد جعلته شارعًا للشعوب رئيسًا وموصيًا للشعوب" (إش ٥٥: ٤). مملكته ليست كممالك العالم التي فيها "صار الحق معدومًا" (إش ٥٩: ١٥).

كأن أجابه السيد المسيح لبيلاطس هي أنه ليس ملكًا حسب فكر بيلاطس، أي ملك سياسي كسائر ملوك الأمم، أو كملك يخلص شعبه بالثورة ضد روما. وفي نفس الوقت هو الملك السماوي ليس من هذا العالم، فلا يحتاج إلي جيشٍ يدافع عنه، ويثبت سلطانه. حتمًا لم يكن بيلاطس قادرًا على إدراك هذا التمييز، لذا ربما استخف بإجابة السيد، أو شعر بنوع من الارتباك الفكري والعجز عما يعنيه المتهم أمامه. فإنه لم يسبق له أن يسمع مثل هذا.

❖ لقد أبطل ما كان يخشاه بيلاطس منذ قليل، أي الشك في أن ينال سلطانًا ملوكيًا, فهل مملكته أيضًا ليست من هذا العالم؟ حتمًا إن مملكته أيضًا في العالم، فكيف يقول: "**ليست من هذا**

العالم"؟ ليس لأنه لا يحكم هنا، وإنما لأن إمبراطوريته هي من فوق، إنها ليست إمبراطورية بشرية، بل أعظم بكثير من هذا وأكثر سموًا. فإن كانت أعظم، فكيف صار أسيرًا؟ برضاه وتسليم نفسه. لكنه لا يعلن عنها حاليًا، إنما ماذا يقول؟ "**لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم**" [٣٦]. أظهر هنا ضعف المملكة التي بيننا، إذ تعتمد قوتها على الخدام، أما المملكة التي من فوق ففيها الكفاية ولا تحتاج إلي شيء[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ تعالوا إلى الملكوت الذي ليس من هذا العالم.

تعالوا، آمنوا، ولا تسقطوا في جنون الغضب خلال الخوف.

لقد قال حقًا بالنبوة على لسان الله الآب: "أنا أقمت منه ملكًا على صهيون جبل قدسي" (مز ٢: ٦)، على جبل صهيون وليس ملكًا على العالم. لأنه ما هو ملكوته إلا أولئك الذين يؤمنون به، والذين يقول لهم: "أنتم لستم من العالم، كما إني لست من العالم"؟ ومع هذا فهو يرغب في أن يكونوا في العالم لكي ما يتحقق ما قاله عنهم للآب: "لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير" (يو ١٧: ١٥)[2].

❖ لقد كانوا من العالم طالما لم يكونوا من مملكته؛ كانوا مُنتسبين إلى رئيس هذا العالم. كل البشرية كانت من العالم؛ حقًا خُلقت بواسطة الله الصالح، لكنها وُلدت من آدم ككتلة فاسدة تحت الدينونة، ثم صارت مملكة لا تعود تنتسب للعالم، هذه التي تجددت بالمسيح. لأنه هكذا أنقذنا الله من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته (١ كو ١: ١٣)، عن هذه المملكة يقول: "**مملكتي ليست من هذا العالم**"، أو "مملكتي ليست من هنا"[3].

القديس أغسطينوس

"**فقال له بيلاطس:**

فأنت إذا ملك؟

أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك،

لهذا قد ولدت أنا،

---

[1] *Homilies on St. John, 83:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 115: 2.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 115: 2.*

ولهذا قد أتيت إلى العالم،

لأشهد للحق.

كل من هو من الحق يسمع صوتي". [٣٧]

في كلمات نارية يؤكد السيد المسيح نفسه ملكًا يشهد للحق، وأن من هو من الحق يسمع له [٣٧]. إنه ملك بالميلاد الأزلي من الآب، بكونه الكلمة الإلهي. لكن هذا الحق لن يقدر أن يقبله إلا من هم من الحق وفي الحق. بيلاطس نفسه لم يكن قادرًا على إدراك هذه الحقيقة ولا أن يستمع لصوته.

جاء السيد المسيح لكي يشهد للحق، فقد عرف العهد القديم الله أنه "إله الحق" (مز ٣١: ٥؛ إش ٦٥: ١٦). بينما نقرأ في العهد الجديد "الحق الذي لله" (رو ١٥: ٨)، الذي استبدله الوثنيون بالباطل أو الكذب (رو ١: ٢٥)، حيث يبدو أن الحق هو كيان الله الجوهري. ويقول يسوع المسيح: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦).

"**كل من هو من الحق**": نقرأ في هذا السفر عمن هم: "**من الحق**"، ومن هم "من الأرض" (٣: ٣١)، ومن هم "من العالم" (١٥: ١٩)، ومن هم "من الله" (٨: ٣٧)؛ ومن هم "من إبليس" أبيهم (٨: ٤٤)، ومن هم من أسفل، ومن هم من فوق (٨: ٢٣). هكذا يميز السفر بين فريقين: فريق ينتسب لفوق، للسماء، لله، للحق؛ وفريق صار منتسبًا لأسفل للأرض، لهذا العالم الشرير ولإبليس. وليس من فريقٍ ثالثٍ يقف بينهما.

❖ إن كان قد وُلد ملكا، فإن كل سماته الأخرى هي بالميلاد، ولم ينل شيئا إضافيًا. فعندما تسمع: "كما أن الآب له الحياة في ذاته، هكذا أعطي للابن أيضًا أن تكون له الحياة" (٥: ٢٦)، لا يُحسب سوى للميلاد، وهكذا بالنسبة لبقية السمات[1].

❖ عندما قالوا إنه فاعل شر، ولم يكونوا قادرين على إثبات ذلك وقف صامتًا. ولكن عندما سئل بخصوص المملكة تحدث مع بيلاطس معلمًا إياه، وقائدا إياه إلى الأمور العلوية. ولكن لماذا سأل بيلاطس في غير حضورهم، وإنما في معزل عنهم إذ دخل به إلى دار الولاية؟ لقد توقع أمرًا عظيمًا من جهة، وأراد أن يدرك كل الأمور بدقة بعيدًا عن متاعب اليهود... أجابه: "**مملكتي ليست من هذا العالم**"، بمعنى: "إني بالحقيقة ملك، ولكن ليس كما يتوقع شخص مثلك، بل أسمى من ذلك بكثير جدًا"، مشيرًا بهذه الكلمات وتلك التي تليها أنه لم يفعل شرًا[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 83:4.*
[2] *Hom. 84. PG 59: 498.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليس كل من يسمع صوتي هو من الحق، وإنما من هو من الحق يسمع صوتي، أي لأن هذه عطية تُمنح له من الحق. ما هذا سوى أنه بالهبة السخية التي للمسيح يؤمن بالمسيح؟[1]

القديس أغسطينوس

"قال له بيلاطس:
ما هو الحق؟
ولما قال هذا خرج أيضًا إلى اليهود،
وقال لهم:
أنا لست أجد فيه علة واحدة". [٣٨]

قدم بيلاطس سؤالاً هامًا للغاية: "**ما هو الحق؟**" لكنه لم ينتظر الإجابة بل خرج إلى اليهود يعلن أنه لم يجد فيه علة واحدة. ربما قدم السؤال عن اشتياقٍ حقيقيٍ لمعرفة الحق، لكن انشغاله في أعماله لم يعطه الفرصة ليتمتع بالإجابة واختبار الحق. هذا ما نفعله كثيرًا في صلواتنا حين نطلب من الله ولا ننتظر إجابته علينا.

ظهر بيلاطس كصديقٍ لشخص يسوع، أحبه وتأثر به، فقد أعلن عن براءته علانية، وأنه لم يجد فيه علة تستوجب حكم الموت. وحين ألزموه أكد لهم أنه لا يفعل هذا من عنده، لكن هذا حكمهم عليه. وقد حاول بكل الطرق أن يفتح لهم بابًا للتراجع عما حكموا به عليه.

من الصعب تقييم شخصية بيلاطس، فواضح أنه كان مقتنعًا تمامًا ببراءة يسوع المسيح، وأنه قد سُلم إليه حسدًا وخبثًا. وأنه كان يخشى هياج الشعب عليه إن أطلقه. يمكن القول أنه كان يشتاق أن يعمل بالعدل والحق، لكن دون أن يسبب له ذلك مشاكل أو اضطرابات. فهو غير مستعد لأية تضحية من جانبه للوقوف في صف العدل والحق.

"ولكم عادة أن أطلق لكم واحدًا في الفصح،
أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود". [٣٩]

كانت هذه العادة نوعًا من التكريم لعيد الفصح، كذكرى للتحرر من عبودية فرعون. لكنهم حولوا ما هو للتكريم إلى كسرٍ للناموس: "مبرئ المذنب ومذنب البريء كلاهما مكرهة للرب" (أم ١٧: ١٥).

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 115: 4.*

❖ لاحظوا كيف عمل بحكمة. إنه لم يقل: "حيث أنه مخطئ ومستحق للموت، سامحوه كهبة للعيد"، وإنما إذ برأه أولاً من كل جريمة سألهم بعد ذلك إن كانوا لا يسقطون قضيته بكونه بريئًا فإنه حتى كمخطئ يغفرون له بسبب الزمن (العيد)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لسنا نلومكم أيها اليهود على إطلاق المجرم في وقت الفصح، بل على قتلكم للبريء. ومع ذلك فلِمَ لم يحدث هذا لما تحقق الفصح الحقيقي، بل بقي ظل الحق قائمًا باليهود المخطئين. وبتدبير الحكمة الإلهية العجيبة تحقق الحق الذي لذاك الظل، وذلك بواسطة المضلين. فإنه لكي يُحفظ الفصح الحقيقي أُقتيد المسيح كشاةٍ للذبح كذبيحة[2].

القديس أغسطينوس

"فصرخوا أيضًا جميعهم قائلين:

ليس هذا بل باراباس،

وكان باراباس لصًا". [٤٠]

لم يجد بيلاطس علة واحدة يحاكمه عليها، ولكي يُوجد للثائرين منفذًا اقترح عليهم أن يطلق هذا البريء بمناسبة عيد الفصح؛ وبالرغم من سلطانه الشرعي لم يستطع أن يقف بيلاطس أمام هياج الجماهير التي طالبت بإطلاق اللص باراباس وليس يسوع. طلبوا أن يُطلق باراباس اللص ويُقتل يسوع، فإن باراباس لا يقدر أن يسرق منهم كرسي موسى الذي جلسوا عليه، أما يسوع ففي نظرهم قد سحب الكرسي من تحتهم، وسرق منهم تقاليدهم الخاطئة.

والعجيب أن باراباس في الآرامية تعني "ابن الآب"، وهو رجل اشتهر بسفك الدماء وفعل المنكرات. هنا يرفض العالم "ابن الآب" الحقيقي ليطلق من له الاسم وحده مع احترافه اللصوصية. وقد جاءت كلمة "لص" في السريانية *archilesstees* وتعني "رئيس عصابة". يرى البعض أن باراباس كان يقتاد عصابة لصوص سفكت دماء كثيرة وهددت الحاكم الروماني (لو ٢٣: ١٩).

لقد فضلوا اللص رمز الخطية عن القدوس البار، في غباوة كثيرًا ما يفضل الإنسان شهوات جسده عن التمتع ببرّ المسيح.

---

[1] *Homilies on St. John, 84:1.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 115: 5.*

من وحي يو ١٨

آلامك تكشف عن أمجادك!

❖ حانت ساعة آلامك، بل ساعة مجدك.
بإرادتك دخلت إلى البستان مع تلاميذك.
دخلت يا شمس البرّ تنتظر موكب الظلمة قادمًا إليك.
حملوا سيوف وعصي للقبض عليك.
كل الطبيعة تترقب كلمة من فيك فتبيدهم.
حملوا مشاعل ليبحثوا عن شمس البرّ!
ولم يدرك الكل أنك بإرادتك تسلمهم ذاتك،
من أجل حبك العجيب لخلاصهم.

❖ أرادوا أن ينقضُّوا عليك،
فسقطوا على وجوههم.
سلمتهم ذاتك،
فأوثقوك في عنفٍ لئلا تهرب منهم.
تفجر الدم من يديك،
وبحبك شفيت جراحات العبد ملخس!

❖ سحبوك إلى رئيس الكهنة في وسط ظلمة الليل،
يا من تود أن تسحبهم بروحك القدوس إلى بهاء نورك الإلهي.
حكم رئيس الكهنة الشرير بأنه خير أن تموت من أجل الأمة،
ولم يدرك أنك رئيس الكهنة السماوي.
تموت لتقتل موت البشرية،
وتقوم لتقيمهم معك.

❖ التحف رئيس الكهنة بسلطان ديني وزمني وشعبي.
وأما أنت فتركك الكل،
خانك تلميذك، وأنكرك آخر.

قدرة رئيس الكهنة تكمن في إمكانيات بشرية زائلة خارجية.

وأما أنت فقوة الله وكلمته وحكمته!

مجدك الإلهي ليس في عوزٍ إلى مساندة بشرية!

❖ سلموك يا ملك الملوك السماوي إلى والٍ بشري.

طالبوا بقتلك كفاعل شرٍ.

لم يجد فيك الوالي علة واحدة!

تحايل بكل وسيلة لكي لا يمد يده بغير ما يمليه عليه ضميره!

لكن أصر الشعب العنيد على قتلك.

قبلوا قيصر ملكًا وحيدًا عليهم لكي يرفضوا ملكك.

أطلقوا باراباس لكي تصلب أنت يا كلي الصلاح!

❖ في ضعف سلمك بيلاطس للصلب.

فإنه لا يستطيع أن يدفع صداقته لقيصر ثمنًا للعدل!

كل قوى الظلمة تكاتفت عليك،

وهي لم تدرك أنها إنما تكشف عن علو مجدك!

الأصحاح التاسع عشر

صلب يسوع المسيح

لاحظنا في الأصحاحات السابقة أن الإنجيلي يوحنا لم يمِل إلى سرد التاريخ، إذ يهدف نحو الكشف عن شخصية يسوع المسيح بكونه كلمة الله المتجسد الذي جاء لأجل خلاص العالم. أما وقد بدأ يتحدث عن صلب السيد فلم يعبر على الأحداث التاريخية بقدر ما قدم شخصية السيد المسيح المصلوب كفادٍ للبشرية. إنه يعتز بالصليب ويفتخر به.

١. محاكمته أمام بيلاطس ١–١٥.
٢. الحكم بالصلب ١٦–١٨.
٣. عنوان علته ١٩–٢٢.
٤. توزيع ثيابه ٢٣–٢٤.
٥. اهتمامه بأمه ٢٥–٢٧.
٦. تقديم خل له ٢٨–٢٩.
٧. تسليم الروح ٣٠.
٨. طعنه بالحربة ٣١–٣٧.
٩. دفنه ٣٨–٤٢.

١. محاكمته أمام بيلاطس

"فحينئذٍ أخذ بيلاطس يسوع وجلده". [١]

حاول بيلاطس أن يطلق السيد المسيح إذ وثق من براءته، وظن أنه يمكنه تحقيق ذلك، إذ اعتاد أن يطلق لهم سجينًا في وقت الفصح، لكنه أمام ثورة الجمهور فشل. مع هذا فلا يزال بيلاطس مقتنع بأنه ليست ثمة جريمة حقيقية يمكن أن تُنسب إلى يسوع المسيح. استخدم وسيلة أخرى، بأن سمح لجنوده أن يجلدوه ويسخروا منه كملك، حتى يؤكد للجمهور أنه لا حول له ولا قوة، فيعفوا عنه.

يقدم لنا الإنجيلي عرضًا لمحاكمة السيد المسيح المملوءة ظلمًا، فالمدَّعون أنفسهم كانوا في حالة ارتباكٍ، والقاضي كان مرتبكًا جدًا بين شعوره بالظلم الساقط على شخص يسوع وبين ثورة الجماهير عليه، وادعاء أنه يقيم نفسه ملكًا، لأنه يقاوم قيصر. فشلت محاولة بيلاطس في تبرئة يسوع، فالتزم

أن يواصل سير الدعوى حسب الأصول المرعيّة. كان لابد من التعامل معه بقسوة، وذلك بسبب خطورة الاتهام وطبيعته. أول تنازل من جانب بيلاطس أمام عناء الجماهير أنه أمر بجلد يسوع، فعامله الجنود كصانع فتنة، مع أمله في إظهار براءة يسوع على الصعيد القانوني.

لم يكن بيلاطس جادًا في الحكم بالعدل، فمع إدراكه أن يسوع بار حكم عليه بالجلد كمجرم [١]. يذكر لوقا الإنجيلي أن بيلاطس قال للجماهير أنه يؤدبه ويطلقه. وكأن غاية بيلاطس هو جلده مترجيًا أن يتراجع اليهود عن طلبهم الخاص بصلبه بعد أن تأكد أنه ليس ما يستوجب صلبه (لو ٢٣: ١٦).

يبدو أن الجلد قد تم حسب النظام الروماني وهو أعنف بكثير منه حسب النظام اليهودي. كان من عادة الرومان جلد المقدمين للصلب. من أجلنا قبل السيد المسيح ذلك، وكما جاء في إشعياء: "بذلت ظهري للضاربين وخدي للناتفين، وجهي لم أستر عن العار والبصق" (إش ٥٠: ٦). ويقول المرتل: "على ظهري حرث الحراث، طوَّلوا أتلامهم" (مز ١٢٩: ٣). كما سبق السيد المسيح نفسه فقال: "ويسلمونه إلى الأمم لكي يهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه" (مت ٢٠: ١٩؛ راجع مر ١٠: ٣٤؛ لو ١٨: ٣٣). يقول القديس بطرس أن بجلداته شفينا (١ بط ٢: ٢٤)، فقد جُلد الطبيب لكي يُشفى المرضى. احتمل الجلدات من أجلنا، لكي يجد المؤمنون مسرتهم في احتمالهم الآلام من أجله، ومشاركتهم إياه آلامه وصلبه (أع ٥: ٤١؛ ١٦: ٢٢، ٢٥).

كان الجلد عقوبة مرعبة، حيث كان يستخدم السوط من عدة سيور توضع بها قطع معدنية أو عظام، حتى متى جُلد الشخص يتهرأ جسمه، وتظهر أحيانًا شراييننه وبعض طبقات جسمه الداخلية كما يخبرنا يوسابيوس المؤرخ. ويروي لنا الكاتب الروماني شيشرون *Cicero* أن الجلد أحيانًا يؤدي إلى الموت. وكان الجلادون الرومان قساة لا يعرفون الرحمة. ولعله بسبب الجلدات لم يحتمل يسوع المسيح أن يحمل الصليب حتى موضع الصلب، ويبرر البعض موته سريعًا على الصليب بسبب الجلدات القاسية. هذا ونلاحظ أن الإنجيليين أشاروا إلى جلد السيد كحقيقة تمت دون الحديث عن مدى آلامه أثناء الجلد.

استهان السيد بكل أنواع العذابات والسخرية من أجل محبته لنا وشوقه لخلاصنا، حتى نحسب شركتنا معه في عاره وآلامه مجدًا لا نستحقه.

❖ قال يوحنا الرسول: "**أخذ بيلاطس يسوع وجلده**". لعل بيلاطس أراد بذلك أن يحل غيرة اليهود ويتلافاها، لأنه إذ لم يقدر أن ينقذ السيد المسيح بأقواله الأولى سارع لوقف شرهم إلى هذا الحد.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يلزمنا أن نعتقد بأن بيلاطس فعل هذا لا لسبب سوى أن اليهود إذ يرون فيض الأذية التي لحقت به يشعرون بالاكتفاء، ويحجمون عن رغبتهم الجنونية نحو موته. بذات الهدف سمح الحاكم لكتيبته أن تمارس ما حدث بعد ذلك، وربما أمرهم بذلك، وإن كان الإنجيلي قد صمت عن ذكر هذا[1].

القديس أغسطينوس

"**وضفر العسكر إكليلاً من شوك،**

ووضعوه على رأسه،

وألبسوه ثوب ارجوان". **[٢]**

اعتاد الجند أن يسخروا بمن يسقطون تحت الحكم، خاصة وأنهم يمثلون السلطة المحتلّة الساخرة بمن يثير الفتنة ضد روما. جاءت السخرية تتناسب مع نوع الاتهام: "**ملك اليهود**". إنهم لم يجدوا ملكًا يُقدم للموت كل يوم، فحسبوا السخرية بملك اليهود تمثيلية هزلية يصعب أن تتكرر.

الأرجوان: لون صباغة ثمينة يشمل البنفسجي والأحمر، تُستخدم من بعض أصناف صدف السمك، يصعب العثور عليه، وكانت ثياب الأرجوان غالية الثمن. ارتبط الأرجوان بالحياة الملوكية، كما يلبسها الأغنياء وذوي المكانة الرفيعة وكبار موظفي الدولة.

يروي متى البشير أنه ثوب قرمزي (مت ٢٧: ٢٨)، تستخرج صبغته من بعض أجسام الحشرات الميتة، لذا فالثوب القرمزي أرخص بكثير من الأرجوان، وهو خاص بالقادة العسكريين، ولعل الجند جاءوا بثوبٍ قديمٍ لقائد عسكري ألقاه بسبب قِدَمه. فاستخدمه الجند كثوبٍ أرجوانيٍ يرتديه جليلي فقير (يسوع)، إذ يقيم نفسه ملكا!

إكليل الشوك والثوب الأرجواني الأحمر يعترفان بالمرتبة الملوكية، لكن العالم يقلبانها إلى الهزء به.

❖ قال: "**وضفر العسكر إكليلاً من شوك، ووضعوه على رأسه، وألبسوه ثوب أرجوان**" ليرضي بيلاطس غيظ اليهود، ولهذا الغرض أخرج إليهم السيد المسيح مكللاً بالشوك، حتى إذا أبصروا المسبة الواصلة إليه يتنفسوا من مرضهم قليلاً، ويقذفوا سمهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**وكانوا يقولون:**

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 116: 1.*

السلام يا ملك اليهود،

وكانوا يلطمونه". [٣]

هكذا سلمه بيلاطس للجند كي يسخروا به، فضفروا له إكليلاً من شوك، ووضعوه على رأسه عوض إكليل الملك، وألبسوه ثوب أرجوان كملكٍ، وفي سخرية كانوا يلطمونه، وهم يقولون: "**السلام لك يا ملك اليهود**".

"**فخرج بيلاطس أيضًا خارجًا،**

وقال لهم:

ها أنا اخرجه إليكم،

لتعلموا إني لست أجد فيه علة واحدة". [٤]

أخرجه بيلاطس أمام القيادات اليهودية وجمهور الثائرين ليروا أن شكواهم ضده بأن يقيم نفسه ملكًا نوعًا من الخيال. فها هو أمامهم قد تهرأ جسمه من الجلدات، وصار أضحوكة وموضع سخرية.

إذ أساء بيلاطس للسيد المسيح وهو يعلم أنه بريء قدمه للمدعين عليه لعلهم يسحبون دعواهم ضده. لقد شهد بيلاطس أنه بحسب القانون الروماني "**لست أجد فيه علة واحدة**" [٤]، ليس من دعوى حقيقية يمكن توجيهها ضد، مكررًا ما سبق أن أعلنه (يو ١٨: ٣٨). بهذا دان بيلاطس نفسه، لأنه مادام ليس فيه علة واحدة لماذا جلده، ولماذا سلمه للجند كي يسخروا به، ولماذا أخرجه للمدعين عليه ولم يطلقه فورًا كما تستوجب العدالة؟

"**فخرج يسوع خارجًا،**

وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان.

فقال لهم بيلاطس:

هوذا الإنسان". [٥]

ربما بقوله: "**هوذا الإنسان**" يود أن يؤكد لليهود إن كنتم تتطلعون إليه كمن يثير فتنة ليقيم نفسه ملكًا يقاوم قيصر، فها أنتم ترونه في صورة الضعف الشديد عاجز عن المقاومة، وليس من أتباعٍ له حاولوا مقاومة السلطات. بهذا لا مجال لتخوفكم منه.

إخراجه للمدعين وقد وُضع إكليل الشوك على رأسه وقد امتلأت رأسه ووجهه مع بقية جسمه بالدماء أعطى فرصة للمدعين أن يصروا على صلبه، لأن بيلاطس عامله كعبدٍ، قام بتعذيبه بغير حقٍ. فالعبد ليس من حقه الدفاع عن نفسه، أما الحرّ فيلزم إثبات إدانته قبل تعذيبه خاصة بهذه

الصورة المؤلمة.

خرج السيد المسيح ليكون مشهدًا أمام الناس، يحمل العار عنهم. الأمر الذي دفع الرسول بولس فيما بعد أن يشتهي الخروج معه خارج المحلة حاملاً عاره (عب ١٣: ١٣).

إذ صار مشهده مؤلمًا للغاية قال بيلاطس: "**هوذا الإنسان**" [٥] ولم يذكر اسمه، كنوع من الاستخفاف به. هذا المنظر سحب قلب الحكيم منذ قرابة ألف عام قبل حدوثه فقال: "أخرجن يا بنات صهيون وانظرن الملك سليمان بالتاج الذي توجته به أمه في يوم عرسه، وفي يوم فرح قلبه" (نش ٣: ١١).

يرى البعض أن قول بيلاطس: "**هوذا الإنسان**" حمل معنى سريًا. فكلمة "آدم" في العبرية تعني إنسانًا. وكأن هوذا الإنسان معناها: هوذا آدم الذي خلقه الله ليكون ملكًا على الخليقة، صاحب سلطان، صار في بؤسٍ شديدٍ جلب اللعنة لنفسه كما للخليقة. هكذا احتل آدم الثاني، السيد المسيح، مركز آدم الأول ليجلب الحياة الملوكية السماوية لمن فقدوا حتى سلامهم الزمني، وعوض الموت الذي جلبه آدم الأول حلت الحياة الأبدية بآدم الثاني (١ كو ٥: ٢٢، ٤٥).هذا ما نطق به بيلاطس دون أن يدرك معناه!

أمام هياج شرس لمبغضي يسوع أعلن بيلاطس براءته ليكون شاهدًا على ذلك عبر التاريخ، أما يسوع فلم ينطق ببنت شفةٍ. قال بيلاطس: "**هوذا الإنسان**" ولم يقل؛ "هوذا المذنب"، وكأنه يقول لهم إنه لا يزال في نظره منزهًا من أي ذنب يمكن أن يسنده إليه.

"**فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا، قائلين:**

اصلبه، اصلبه.

قال لهم بيلاطس:

خذوه أنتم واصلبوه،

لأني لست أجد فيه علة". **[٦]**

كان يمكن للشعب بعد أن سمع بيلاطس يكرر تعليقه أنه لم يجد فيه علة واحدة، وقد نظروا جسمه تمزق بالجلدات، ورأسه وجبينه قد نُخسا بالأشواك، ووجهه تورم باللطمات، أن يطلبوا إطلاقه، لكن سرعان ما تحرك رئيس الكهنة وحراس الهيكل ليصرخوا قائلين: "**اصلبه، اصلبه**" [٦]. قد بلغ حسدهم وحقدهم عليه أقصى الحدود فلم يذعنوا لحكم بيلاطس، ولا تأسفوا لآلام السيد، بل حسبوه مستوجب الموت حتى وإن كان بريئًا. فسلامهم وسلام المدينة – كما ظنوا – يستوجب صلبه والخلاص منه.

لقد جاء رؤساء الكهنة وأتباعهم لهدفٍ واحدٍ، وهو تأكيد ضرورة صلبه، مهما كانت التكلفة. لم يصغوا لأية كلمة نطق بها بيلاطس، وإنما إذ لاحظوا رغبته الملحة في إطلاقه لأول مرة تظهر كلمة "**أصلبه**"، هذه التي نطق بها رؤساء الكهنة وخدام الهيكل. لقد افصحوا عما في قلوبهم.

للمرة الثالثة يعلن بيلاطس براءة السيد المسيح، طالبًا منهم: "**خذوه أنتم واصلبوه لأني لست أجد فيه علة**" [٦]. إنه يعلم تمامًا أنهم لن يستطيعوا أن يصلبوه، وإنما قال هذا ليوبخهم. وكأنه يقول لهم: "إن كان حقدكم عليه يدفعكم لصلبه، فلا تستخدموني أداة طيعة لهذا الحقد، فأرتكب شرًا ضد العدالة. ضميري غير مستريح! نفذوا شهوة حقدكم إن استطعتم!"

❖ انظروا كيف قدم القاضي دفاعه بطرقٍ كثيرةٍ، مبرئًا إياه من الاتهامات الموجهة ضده. لكن ليس شيء من هذا كله جعلهم في خزي من تحقيق هدفهم... فإن القول: "**خذوه أنتم واصلبوه**" تعبير لشخصٍ يبرئ نفسه من ارتكاب جريمة، ويدفعهم لممارسة عمل غير مسموح لهم به. فقد أحضروا (السيد) لكي يتم الأمر بقرار الحاكم، لكن حدث العكس، فإن الحاكم أبرأ السيد ولم يدِنه بقرارٍ منه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجابه اليهود:**

لنا ناموس،

وحسب ناموسنا يجب أن يموت،

لأنه جعل نفسه ابن الله". **[٧]**

إذ بطلت حجتهم أنه مقاوم لقيصر وللسلطات الرومانية، وأنه مثير للشغب قدموا اتهامًا آخر ليس من حق بيلاطس أن يتدخل فيه، وهو أنه مجدِّف ومقاوم للناموس اليهودي. هذا من اختصاص رئيس الكهنة ومجمع السنهدرين، وليس لبيلاطس ورجاله التدخل في الشئون الدينية الداخلية.

لقد جدف وادعى الألوهية، "**لأنه جعل نفسه ابن الله**". لقد أدركت القيادات الدينية خلال أحاديث السيد المسيح الكثيرة أنه عني بقوله "ابن الله" مساواته لله، لهذا اتهموه بالتجديف.

قدم المدَّعون صحيفة الاتهام، وهي أنه قد جدَّف فهو مستحق للموت (لا ٢٤: ١٦). كانوا يفتخرون بالناموس حتى وهم يكسرون الناموس ويخطئون في حق الله. "الذي يفتخر بالناموس، أبتعدي الناموس نهين الله" (رو ٢: ٢٣). وهم يسيئون إلى الناموس ظنوا أنهم يكرمونه. لم ينصتوا

[1] *Homilies on St. John, 84:2.*

للقول النبوي: "ويل للذين يقضون أقضية الباطل وللكتب الذين يسجلون جورًا" (إش ١٠: ١).

❖ تأملوا الاتهام: "**جعل نفسه ابن الله** " [٧]. اخبروني، هل هذا أساس اتهام، أن الذي يمارس أعمال ابن الله يدعو نفسه ابن الله؟ ماذا إذن يفعل المسيح؟ بينما كانوا يواصلون هذا الحوار الواحد يلي الآخر واصل هو سلامه، متممًا قول النبي: "لم يفتح فاه، في تواضعه نزع حكمه" (إش ٥٣: ٧-٨ *LXX*)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فلما سمع بيلاطس هذا القول ازداد خوفًا**". **[٨]**

إذ سمع بيلاطس أن المتهم ليس فقط نسب لنفسه الملوكية وإنما الألوهية، اضطرب بالأكثر وخاف. صار الأمر بالنسبة له أكثر صعوبة. فقد كان يمكنه أن يقوم بدورٍ لتهدئة الشعب بالنسبة لنسبه الملوكية لنفسه، أما أن ينسب لنفسه الألوهية فليس في مقدرة بيلاطس أن يهدئ من روع الشعب. وفي نفس الوقت خشي بيلاطس من شخصية يسوع، إذ لم يكن ممكنًا التحقق منها. لقد تأكد من حقد القيادات الدينية عليه، لكن كيف يتأكد أنه بالحقيقة ابن الله. لقد خشي بيلاطس أن يكون مشتركًا معهم في الجريمة مقاومًا ابن الله المتأنس.

"**فدخل أيضًا إلى دار الولاية،**

وقال ليسوع:

من أين أنت؟

وأما يسوع فلم يُعطِه جوابًا". **[٩]**

قدم بيلاطس سؤالاً للمتهم في داخل دار الولاية يكشف عما يدور في ذهن الوالي، وهو أن شخصية يسوع تمثل لغزًا. كأنه يسأله: "ما هو أصلك الخفي السرّي؟ من أنت؟ اخبرنيّ". إنه سؤال كثيرًا ما وُجِّه إلى شخص السيد، فقد سأله اليهود، "من تجعل نفسك؟" (يو ٨: ٥٣). أما إجابته فهي أنه لن يعرفه إلا ذاك الذي هو معه في كل حين، من ذات جوهره، إذ يقول: "إن كنتُ أمجد نفسي، فليس مجدي شيئًا؛ أبي هو الذي يمجدني" (يو ٨: ٥٤). لقد تحيّر اليهود إذ يعلن: "أبي هو الذي يمجدني، الذي تقولون أنتم أنه إلهكم، ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه" (يو ٨: ٥٤-٥٥).

أمام حيرة بيلاطس وخوفه سأل السيد المسيح: "**من أين أنت؟**" [٩]. تحدث معه في دار الولاية في

[1] *Homilies on St. John, 84:2.*

قاعة القضاء، بعيدًا عن ضجيج القيادات اليهودية والشعب.

أجاب يسوع على أسئلة بيلاطس السابقة، أما عن هذا السؤال "**فلم يعطِه جوابًا**" (يو ١٩: ٩). لأن **بيلاطس يطلب معلومات عنه من معطيات هذا العالم، بينما تتطلب الإجابة الخروج من العالم لإدراك ذاك الأزلي، فهو ليس بنبي مجرد بين الأنبياء ولا أحد المعلمين أو صانع عجائب وأشفية، لذا صمت.**

لقد سبق فسأله: "أنت ملك اليهود؟" (١٨: ٣٣)، "أفأنت إذن ملك؟" (١٨: ٣٧). أجابه: "أنت تقول إني ملك". الآن لم يسأله: "من أنت؟" ولا "هل أنت ابن الله؟" إنما سأله بطريق غير مباشر: "**من أين أنت؟**" [٩] هل أنت من البشر أم قادم من السماء؟ من أسفل أم من فوق؟ كان بيلاطس يعلم موطن السيد المسيح كابن بشر، إنما كان يسأله ليتأكد هل هو أعظم من البشر أم لا. لم يكن ممكنًا أن يقدم السؤال مباشرة لئلا يُتهم بأنه يتدخل في المعتقدات الدينية التي تحكم فيها القيادات اليهودية وحدها.

صمت السيد المسيح ليس عن عجز، ولا عن عدم اكتراث بخلاص بيلاطس، وإنما ليعطي بيلاطس فرصة للتفكير المتزن، لأنه سبق فأجاب على سؤاله بقوله: "مملكتي ليست من هذا العالم" (يو ١٨: ٢٦)، كما أوضح له من أين هو خلال الحوار التالي.

بروح النبوة دُهش إشعياء لصمت السيد المسيح، فتحدث عنه في أكثر من موضع: "لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته" (إش ٤٢: ٣)، "ظُلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه، كشاهٍ تُساق إلى الذبح، وكنعجةٍ صامتةٍ أمام جازيها فلم يفتح فاه" (إش ٥٣: ٧).

- ❖ خاف بيلاطس إذ سمع من اليهود أن السيد المسيح "**جعل نفسه ابن الله**" [٧]، وارتاع لئلا يكون ما قالوه صدقًا، ويظن أنه يتجاوز الناموس، فلهذا السبب لم يسأله أيضًا: ماذا عملت، لكن إذ زعزعه خوفه صار يفحصه من جهة شخصه، إذ قال: "**من أين أنت؟**" إلا أن السيد المسيح لم يعطه جوابًا، لأن قد سمع: "مملكتي ليست من هذا العالم" (يو ١٨: ٣٦) و"لهذا وُلدت ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق" (يو ١٨: ٣٧)، فقد وجب عليه ألا يعاند ما سمعه[1].
- ❖ وقال يوحنا الرسول: "**وأما يسوع فلم يعطِه جوابًا**"، فإذ صمت السيد المسيح عن جواب بيلاطس أوضح أنه جاء إلى التألم طائعًا.

[1] *Homilies on St. John, 84:2.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كان يجتاز ماثلاً للقضاء دون أن يفتح فاه، ليس في سمة حملٍ فعل هذا بضمير شريرٍ مقتنعٍ بخطاياه، وإنما منْ هو في وداعته يقدم نفسه ذبيحة عن خطايا الآخرين[1].

القديس أغسطينوس

"**فقال له بيلاطس:**

أما تكلمني؟

ألست تعلم إن لي سلطانًا أن أصلبك،

وسلطانًا أن أطلقك؟" **[١٠]**

في اعتزاز بالسلطة ثار بيلاطس لرفض السيد المسيح أن يجيبه على سؤاله. لذلك قال له: "**أما تكلمني؟ ألست تعلم أن لي سلطانًا أن أصلبك وسلطانًا أن أطلقك؟**" بالغ بيلاطس في نظرته لسلطانه، إذ ظن في نفسه إنه سيد الموقف؛ ولم يدرك أنه من جانب ليس من حقه أن يصلب من كان بريئًا، ولا أن يطلق من يستحق الصلب حسب القانون الروماني، ومن جانب آخر نسي أنه يوجد إله ضابط الكل، وأنه لا يحدث أمر ما بدون سماح منه.

رأينا أن صمته لم يكن رفضًا من جانب ربنا يسوع عن الإجابة، لكنه قائم على عجز بيلاطس عن إدراك الحقيقة، لهذا إذ ظن بيلاطس أن له سلطان أن يصلبه أو أن يطلقه [١٠] أجابه يسوع معترفًا بما لبيلاطس من سلطان في حدود ما سُمح له به من فوق.

❖ أرأيت كيف أن بيلاطس قد أوجب الحكم على نفسه مقدمًا، لأنه إن كان الحل والربط كله عنده، فلِم لم يطلقه إذ لم يجد فيه علة واحدة؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**أجاب يسوع:**

لم يكن لك عليَّ سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق،

لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم". **[١١]**

ربما توقع بيلاطس أنه بهذا يفتح المجال ليسوع المسيح كي يتحدث معه لعله يطلقه، لكن السيد وبخه على كبريائه وافتخاره بالسلطة فوق العدالة مع تجاهل دور الله ضابط الكل. جاوبه السيد

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 116: 4.*

المسيح لكي ينزع عنه هذه الحماقة. وكما يقول الحكيم: "جاوب الجاهل حسب حماقته، لئلا يكون حكيمًا في عيني نفسه" (أم ٢٦: ٥). حين استخدم بيلاطس سلطانه وجلده ظلمًا صمت ربنا يسوع، لكنه حين أعلن في كبرياء عن هذا السلطان وبخه، حتى يدرك بيلاطس حقيقة حجمه. لقد نسي بيلاطس: "لأن فوق العالي عاليًا يُلاحظ، والأعلى فوقهما" (جا ٥: ٨). هذه هي آخر كلمات نطق بها السيد المسيح مع بيلاطس في هذا السفر. لقد طالبه أن يدرك أن كل سلطانٍ أرضيٍ يتمتع به الشخص بناء على سماح الهي، يصدر من فوق، من السماء، وليس مستمدًا من روما. صاحب السلطان الحقيقي على كل شئون البشر هو الله، لا الإمبراطور أو من يعينهم حكامًا وولاة.

لم يمر بيلاطس بلحظات مثل هذه حين وجد نفسه يحاكم شخصًا يتطلع إليه كثيرون أنه ابن الله وملك إسرائيل. فقد صار مصير هذا الإنسان بين يديه، لهذا أراد السيد المسيح أن يكشف له أنه إنما هو أداة في يد الله، ما كان يمكنه أن يفعل شيئًا بدون سماح السماء (أع ٤: ٢٧–٢٨). مع هذا قدم له السيد المسيح شيئًا من العذر إن قورنت خطيته بخطية الذين سلموه له. هذا لن يبرر بيلاطس ولا يعفيه من المسئولية. مسئولية مسلميه الذين قرأوا العهد القديم وسمعوا عن النبوات التي تحققت فيه بجانب ما رأوه من معجزات لا حصر لها وما حمله من سلطان إلهي. هذا كله جعل خطيتهم أعظم من خطية بيلاطس.

يرى البعض أن السيد المسيح هنا يشير إلى يهوذا التلميذ الخائن الذي سلمه. لكن واضح أنه لا يقصد من أسلمه "يهوذا" وحده، لكنه يعني الأمة اليهودية كلها ورؤساء الكهنة، وكما قال بيلاطس قبلاً: "أُمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إليَّ" (يو ٨: ٣٥). حقًا لم يجد بيلاطس في يسوع المسيح علة تستوجب الموت، أما يهوذا فكان تلميذًا وصديقًا نال الكثير من البركات والإمكانيات للعمل لحساب الملكوت السماوي. انحرف بيلاطس عن العدالة، لكنه لم يأخذ رشوة كيهوذا. أخطأ بيلاطس في عدم ثباته لإطلاق البريء، لكنه لم يحمل روح الحسد والحقد والضغينة التي اتسمت بها القيادات اليهودية ضد يسوع المسيح.

ماذا يعني بالخطيئة هنا؟ في نظر الإنجيلي يوحنا هي "**عدم معرفة**" اللَّه في استعلانه في يسوع المسيح.

❖ لقد حطم السيد كبرياء (بيلاطس) وتشامخه، إذ قال: "**لم يكن لك عليَّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق**"، موضحًا أن هذا الحادث ليس على بسيط ذاته مثل حوادث كثيرة، لكنه يتم

بطريقة سرية[1].

❖ وإذا سمعت قول السيد المسيح لبيلاطس: "**لو لم تكن قد أعطيت من فوق**" لا تظن أن بيلاطس بريء من كل زلة، لذلك قال: "**الذي أسلمني إليك له خطية أعظم**"، موضحًا أن بيلاطس مُطالب بخطية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ **عندما لم يجب كان صامتًا كحملٍ، وعندما أجاب علمنا كراعٍ**. لذلك ليتنا نتعلم مما قاله، كما علمنا أيضًا برسوله: "ليس سلطان إلا من الله" (رو ١: ١٣). وأن من يسلم للسلطان بريئًا لكي يُقتل لهو خاطئ أكثر من صاحب السلطان نفسه إن قتله خوفًا من سلطانٍ أعظم منه[2].

القديس أغسطينوس

"**من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يطلقه،**

ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين:

إن أطلقت هذا فلست محبًا لقيصر،

كل من يجعل نفسه ملكًا يقاوم قيصر". **[١٢]**

حديث السيد المسيح لم يثر بيلاطس ضده للدفاع عن سلطانه، بل على العكس صار أكثر حماسًا وغيرة على تبرئته وإطلاقه. هذا واضح من ثورة اليهود وصراخهم ليحولوا الاتهام ضد بيلاطس نفسه كمن هو ليس محبًا لقيصر، وكمتهاونٍ مع من يقاومه، وكمن لا يصلح أن يحتل هذا المركز ويمارس واجباته.

وجد الخصوم وسيلة لزيادة الضغط على بيلاطس بتوجيه تهمة التهاون مع من يزرع الفتنة والتمرد. فمع حرص الشرع الروماني على احترام حقوق الشعوب المستعمرة وعاداتهم عند ممارستها في إطار جماعتهم، إلا أنه كان قاسيًا عديم الشفقة في قمع التمرد والعصيان. بهذا قد يلحق بيلاطس الأذى إذا ما أصرت الجماهير على الشكاية عليه لتهاونه في هذا الاتهام.

خشي بيلاطس من الوشاية لدى طيباريوس قيصر ضده، فقد عُرف أنه من أكثر الأباطرة انفعالاً. سمع لوشايات ضد كثيرين، وكان لا يثق فيمن يخدمونه. كان بيلاطس مستعدًا أن يطلق يسوع، ولكنه لم يكن مستعدًا أن يواجه اتهامًا بأنه فشل في مهمته كصديقٍ لقيصر، ويدخل في متاعب مع روما

---

[1] *Homilies on St. John, 84:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 116: 5.*

مهما كانت التكلفة.

❖ لما أراد اليهود أن يجدوا في الشريعة علة على السيد المسيح فلم تنفعهم، انقلبوا بمكرهم إلى الشرائع التي هي خارج شريعتهم، إذ قالوا: "**كل من يجعل نفسه ملكًا يقاوم قيصر**". وأنا أسأل اليهود: وأين ظهر السيد المسيح عاصيًا مغتصبًا؟ من أين يجوز لكم اتهامه بذلك؟ أرجو أن توضحوا هذا؟ أمن تاجه؟ أم من شكله؟ أم من جنده؟ أم من مشيه مع تلاميذه الاثني عشر، مستخدمًا البساطة في الطعام والثوب والمبيت؟[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فلما سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع،**
وجلس على كرسي الولاية،
في موضع يقال له البلاط، وبالعبرانية جباثا". **[١٣]**

البلاط هنا أشبه برصيف حجري غالبًا في هواء طلق، حيث كان يوجد فيه كرسي العدالة للقضاء خاص بالولاة والحكام ليحكموا من خلاله. كان الموضع مرصوفًا بحجارةٍ ملونة ورخامٍ أزرق وأبيض وأسود.

كان الموضع يُدعى بالعبرانية "**جباثا**"، مشتقة من "جابا"، معناها "مرتفع" أو "عالٍ"، حيث كان موضع الحكم غالبًا ما يكون مرتفعًا في دار القضاء حتى يمكن للكل أن يروا القاضي أو الحاكم ويتابعوا الحوار، ويسمعوا الحكم. كان القاضي يصعد عليه بواسطة درجات رخامية، ولعل هذه الدرجات هي التي كانت تُدعى "**البلاط**". ويرى البعض أن كلمة "**جباثا**" تعني مكانًا مغلقًا، إذ كان محاطًا بسورٍ حتى لا يقتحمه أحد من الحاضرين لإساءة التصرف مع المتهمين أثناء محاكمتهم. ويرى البعض أن هذا الموضع كان مخصصًا لمحاكمة المجرمين خاصة في الأمور الخطيرة التي تمس كيان الدولة.

بات إصدار الحكم قريبًا، لأن الوالي يجلس على كرسي الولاية الرسمي *curule*، وهو كرسي من العاج خاص بالقضاة الرومانيين وما يمثلونه.

"**وكان استعداد الفصح،**
ونحو الساعة السادسة،

[1] *Homilies on St. John, 84:2.*

فقال لليهود:

هوذا ملككم". **[١٤]**

بعد عرضه لمكان المحاكمة عرض الإنجيلي أيضًا التوقيت فكان وقت الاستعداد للفصح نحو الساعة السادسة أي ظهرًا. كانت أيام عيد الفطير (لو ٢٣: ٥٤)، وكان اليهود يستعدون لسبت الفصح. جاء التوقيت يضخم من ذنب صالبيه، إذ لم ينتظروا عبور العيد، مما يكشف عن مرارة حقدهم واندفاعهم وتسرعهم. لقد نزعوا الخمير القديم من كل بيت، لكنهم لم ينزعوا أعمال الإنسان القديم من قلوبهم وأفكارهم وسلوكهم.

كان ذلك ما بين الساعة الثالثة والساعة السادسة، إذ رُفع على الصليب في تمام الساعة السادسة.

تحدث الإنجيلي مرقس (١٥: ٢٥) عن صلب السيد المسيح في وقت الساعة الثالثة حيث حسب الجلد منذ بدأ جلد السيد، أما الإنجيلي يوحنا فحسبه وقت الساعة السادسة حيث بدأ رفعه على الصليب.

يرى البعض أن الساعة السادسة هنا حسب التوقيت الروماني حيث يبدأ اليوم الجديد من منتصف الليل وليس كالتوقيت اليهودي الذي استخدمه الإنجيليون الآخرون، حيث يبدأ اليوم من الغروب إلى الغروب، أي السادسة صباحًا حيث كاد أن يصدر الحكم وتبدأ الإجراءات الفعلية للصلب. وفي بعض المخطوطات وبعض نصوص الآباء جاءت "نحو الساعة الثالثة" وليس "السادسة".

إذ اتجه اليهود إلى اتهام بيلاطس نفسه في غضب سخر بهم قائلاً لهم: "**هوذا ملككم**" [١٤]. وكأنه يقول لهم: "إن كنتم بكل طاقتكم تريدون صلبه، فأنتم تسيئون إلى أنفسكم، إنه ملككم". لعله بهذا يلقي بآخر سهم لإنقاذ يسوع المسيح من الصلب!

❖ أسلم بيلاطس السيد المسيح إلى اليهود، ظانًا أنه يستعطفهم، والدليل على أنه عمل هذا العمل على هذا القصد اسمع ما قاله لهم: "**هوذا ملككم**".

القديس يوحنا الذهبي الفم

في سخرية باليهود أعلن بيلاطس: "**هوذا ملككم**"، ولعله إلي هذه اللحظات كان السيد مكللاً بإكليل الشوك ومرتديًا ثوبًا أرجوانيًا أو قرمزيًا قديمًا. لم يدرك بيلاطس أنه بالحقيقة ليس فقط ملك اليهود، بل ملك العالم كله الذي فيه تحققت النبوات بكونه مسيح الرب. قديما رفض جدعون إقامته ملكًا على إسرائيل متطلعًا إلى الرب نفسه بكونه الملك الحقيقي (قض ٨: ٢٣). وعندما أراد الشعب أن يقيم لهم صموئيل النبي ملكًا كسائر الأمم، أعلن له الله أنهم لم يرفضوا صموئيل، بل رفضوه هو نفسه كملكٍ

عليهم (١ صم ٨: ٥، ٧). وكان رجال العهد القديم يترقبون تحقيق الوعد الإلهي: "أنت ابني وأنا اليوم ولدتك. اسألني فأعطيك الأمم ميراثًا لك، وسلطانك إلى أقطار الأرض، لترعاهم بقضيب من حديد." (مز ٢: ٧-٩)

كان يليق ببيلاطس أن يعلن لكل العالم: "هوذا ملككم الذي يرعى النفوس ويقيمها في مملكته السماوية الأبدية".

جاء السيد المسيح، حمل الله، لكي يرفع الخطية عن العالم (١: ٢٩). إنه محب للبشرية لكنه لا يطيق رؤية خطاياهم. إنه يرفع خطاياهم ليتقدموا في حضرة الآب حاملين برَّه. أما هنا فنجد الإنسان لا يطيق مخلصه، يريد أن يرفعه عن عينيه حتى لا يراه. لا يحتمل الشرير حب الله، ولا يقدر حتى على معاينته!

"**فصرخوا: خذه، خذه! اصلبه!**

قال لهم بيلاطس:

أأصلب ملككم؟

أجاب رؤساء الكهنة:

ليس لنا ملك إلا قيصر". **[١٥]**

ازدادت الصرخات بأنهم لا يطيقون رؤيته "**خذه، خذه**" [١٥]، فقد رفضوا نسبتهم إليه، أو انتسابه إليهم، ليس لهم ملك إلا قيصر. تطلع إليهم إشعياء النبي فقال عنه: "مكروه الأمة" (إش ٤٩: ٧)، كما قال: "لا صورة له ولا جمال فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه، محتقر ومخذول من الناس، ورجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمُستر عنه وجوهنا، محتقر فلم نعتد به" (إش ٥٣: ٢-٣).

كان الحكم بالإعدام صلبًا معروفًا قديمًا في الإمبراطورية الرومانية وخارجها. وكان العالم القديم يتطلع إلي الصلب كأبشع أنواع الموت، إذ يمثل عارًا وخزيًا. وكان الكتاب القدامي يحجمون عن الكتابة عن الصلب في شيء من التفصيل. قال شيشرون أن الصلب "أقسى أنواع العقوبات وإثارة للاشمئزاز". وتحدث عنه يوسيفوس بأنه "أدنى أنواع الموت". وتحدث الفيلسوف الروماني سينيكا عن الصلب كموت بطيء ومؤلم للغاية، متسائلاً إن كان يوجد شخص يود أن يموت بإرادته بهذه الوسيلة: "هل يمكن وجود شخص يفضل أن يضيع وقته في ألم بموت عضوٍ يلي عضوًا، أو بترك حياته تنتهي نقطة فنقطة عوض أن يسلم النفس مرة واحدة؟ هل يمكن أن يوجد إنسان يرغب في تثبيته على خشبة اللعنة، يلتصق بها إلى مدة طويلة وقد تشوه شكله، انتفخ جسمه بحُبُر (آثار الجراحات) على

كتفيه وصدره، يتنسم الحياة وسط آلام مريرة ممتدة؟ حقا إنه يجد مبررات كثيرة لكي يفضل الموت قبل أن يرتفع على الصليب[1]".

كان يندر جدًا الحكم بالصلب على مواطنٍ روماني، إنما كانت هذه العقوبة تُستخدم لضبط العبيد حتى لا يفكروا في الثورة، ويبقوا في مذلة وضعهم مهما كانت متاعبهم.

أمام ثورتهم ضد السيد المسيح لم تعد لهم رغبة في الحرية ولا قيمة للخلاص، كل ما يترجوه هو الخلاص من شخصه، حتى وإن صاروا عبيدًا لقيصر. لقد فقدوا إحساسهم بأنهم تحت الاستعمار الروماني. حقًا كان اليهود – خاصة القيادات – يكرهون قيصر ولا يطيقون من ينتدبهم حكامًا أو ملوكًا عليهم، لكن أمام بغضهم لشخص السيد المسيح حسبوا الولاء لقيصر والاستعباد له أفضل. كانوا مستعدين للخضوع لأي طاغية من قبل قيصر، يطيعون أوامره برضا إن كان في هذا خلاصًا من شخص السيد المسيح.

جواب رؤساء الكهنة فيه تخوِّف من جهة تهديد مؤسستهم الكهنوتية بالزوال. إنهم يقبلون قيصر ملكًا وحيدًا عليهم متناسين ملكوت اللَّه.

❖ تطلع باهتمام إلى الرب وهو يُحاكم، فقد سمح لنفسه أن يقوده الجنود. جلس بيلاطس في الحكم. الذي يجلس عن يمين الآب يقف ليُحاكم! الشعب الذي عتقه من أرض مصر... يصرخ: "**خذه! أصلبه!**"

لماذا أيها اليهود؟ هل لأنه شفى عميانكم؟ أم لأنه جعل العرج منكم يمشون؟ ووهب البركات للآخرين؟! يدهش النبي فيقول: "على من تفغرون الفم وتدلعون اللسان؟" (إش ٥٧: ٤) ويقول الرب نفسه في الأنبياء: "صار لي ميراثي كأسد في الوعر. نطق عليّ بصوته. من أجل ذلك أبغضته" (إر ١٢: ٨). لم أرفضهم لكنهم رفضوني، لهذا أقول: "قد تركت بيتي" (إر ١٢: ٧)[2].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ ضغطوا عليه، قائلين: "**أصلبه**". ولماذا كانوا يجاهدون كي يقتلوه بهذه الوسيلة؟ إنه موت شائن! لقد خشوا لئلا يكون له فيما بعد أي ذكرى، فأرادوا أن يسقطوا عليه عقوبة لعينة، وهم لا يدرون إن الحق يتمجد خلال العوائق. لتأكيد إن هذا الشك كان لديهم اصغوا إلي ما قالوه: "سمعنا أن هذا المضل قال بعد ثلاثة أيام أقوم" (مت ٢٧: ٦٣). لهذا قاموا بإثارة الكل ليقلبوا الأوضاع ويحطموا

[1] *Martin Hengel: Crucifixion, London 1977, p. 30-31; Leon Morris, p.655.*

[2] مقال ١٣: ١٥.

الأمور فيما بعد. وقد فسد الشعب المشوش بواسطة حكامه، وصرخوا مكررين: "اصلبه!"[1]

❖ "**ليس لنا ملك إلا قيصر**". بإرادتهم أخضعوا أنفسهم للعقوبة. لذلك سلمهم الله، إذ وهم أولاد طردوا أنفسهم عن عنايته وإشرافه الفائق. وحيث أنهم بصوتٍ واحدٍ مجدوا سلطانه سمح لهم بالسقوط حسب طلبتهم[2].

❖ هنا انحدروا عن مملكة المسيح، ودعوا لأنفسهم مملكة قيصر[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. الحكم بالصلب

"**فحينئذٍ أسلمه إليهم ليصلب،**

فأخذوا يسوع ومضوا به". **[١٦]**

إذ لم تكن فيه مخافة الله بل مخافة البشر وقَّع بيلاطس على الحكم بصلبه، وسلمه للقائمين بالتنفيذ. ذاك الذي شهد مرارًا وتكرارًا ببراءته أخيرًا أصدر الحكم عليه كمجرمٍ. لقد غسل يديه (مت ٢٧:٢٤)، ليعلن أنه بريئ من هذا الحكم، لكن غسل يديه لن يبرئه أمام الله.

انطلقت القيادات اليهودية مع منفذي الحكم كي يكسبوا الوقت، فقد خشوا تراجع بيلاطس في الحكم، إذ رأوه بين الحين والآخر يعلن براءته. ومن جانبٍ آخر حتى لا يجد الشعب فرصة لمراجعة أنفسهم، وتذكر أعمال السيد المسيح العجيبة مع شهادة بيلاطس بنطس ببراءته، فتسير الأمور على خلاف هواهم. هكذا يثير عدو الخير تابعيه لانتهاز كل فرصة للإسراع بقتل الإيمان بالسيد المسيح في حياة كل مؤمن حتى لا يتمتع به.

في نظرهم شعر القادة أن خطتهم قد نجحت، وسقطت الفريسة في شبكتهم. فانطلقوا بالحمل إلى الذبح، ولم يدركوا أن ما يحدث سبق فتنبأ به الأنبياء، بكونه خطة الله الخلاصية.

❖ إذ سمع بيلاطس هذه الأمور سلمه ليُصلب؛ قطعًا بلا تعقل! كان يجب أن يتحقق إن كان المسيح قد هدف نحو نوال سلطة ملوكية، لكنه نطق بالحكم خلال الخوف وحده. ولكي لا يحدث هذا قال المسيح مقدمًا: "مملكتي ليست من هذا العالم"، ولكن إذ أسلم بيلاطس نفسه بالكامل للأمور الزمنية لم يمارس الحكمة كما يلزم. كان يكفي لحلم زوجته أن يرعبه، لكن شيئًا من هذا كله لم

---

[1] *Homilies on St. John, 84:2.*
[2] *Hom 84. PG 59: 501.*
[3] *Hom 85. PG 59: 503.*

يجعله يتصرف حسنًا؛ إذ لم يتطلع إلى السماء بل سلَّم المسيح.

الآن وضعوا عليه الصليب كفاعل شرٍ. لقد أبغضوا الخشبة ولم يقبلوا حتى أن يلمسوها. هذا هو حال ما كان رمزًا حيث حمل اسحق الخشب. لكن الأمر كان وقتئذٍ متوقفًا على إرادة أبيه، لأنه كان رمزًا، أما هنا فقد تمت الحقيقة عمليًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة، ويقال له بالعبرانية جلجثة". [١٧]

كجزء من آلامه حمل الصليب حرفيًا. الجسم النحيف الرقيق حمل خشبة الصليب بكل ثقلها، حملها وحده أولاً. وإذ لم يستطع بسبب ضعف الجسد مع الجلدات التي عانى منها وجراحات إكليل الشوك واللطم، عاونه سمعان القيرواني في حمله (مت ٢٧: ٣٢). وكما حمل اسحق حطب المحرقة وهو في طريقه ليُقدم محرقة، هكذا حمل المسيح خشبة الصليب. وكما يقول النبي: "وُضع عليه إثم جميعنا" (إش ٥٣: ٦). ويقول القديس بطرس: "الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبرّ" (١ بط ٢: ٢٤).

جاءوا به إلى موضع التنفيذ خارج المدينة يدعى الجلجثة. أشار **العلامة أوريجينوس** إلي تقليد بأنه في هذا الموضع دُفن آدم. هنا حيث غلب الموت آدم الأول وحوله إلى تراب، مات المسيح – آدم الثاني – لكي يقتل الموت، ويرد الحياة لآدم وبنيه. كان هذا الموضع على جبل المُريا حيث قدم إبراهيم ابنه اسحق ذبيحة محرقة، لكن الله أرسل كبشًا يُقدم عوضًا عن إسحق. يرى البعض أن السيد المسيح قد صُلب على تلٍ يحمل شكل الجمجمة.

❖ يقول البعض أن آدم مات ورقد هناك، وأن يسوع قدم النصرة في نفس الموضع الذي ملك فيه الموت، إذ ذهب حاملاً الصليب كغالبٍ على طغيان الموت. كان كتفاه رمزًا للنصرة. ماذا يهم إن كان اليهود قد فعلوا ذلك بنية مغايرة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ تألم بآلامنا حتى قَبِل آلام الصليب، قَبِل أن يأخذ جسدنا. لو لم يتألم لما شاركنا حياتنا البشرية.

---

[1] *Homilies on St. John, 85:1.*
[2] *Hom 85. PG 59:504.*

أولاً تألم، وبعد ذلك نزل. ولكن ما هذا الألم الذي احتمله لأجلنا؟ إنها آلام الحب![1]

العلامة أوريجينوس

"**حيث صلبوه،**

وصلبوا اثنين آخرين معه من هنا ومن هنا،

ويسوع في الوسط". **[١٨]**

صُلب معه اثنان آخران واحد عن يمينه، والآخر عن يساره. ربما لم يكن ذلك الوقت هو موعد صلبهما، لكن رؤساء الكهنة أصروا على ذلك كنوعٍ من الإهانة أنه مصلوب بين مجرمين. ولعله لهذا السبب كان اللصان يعيرانه ويسيئان إليه، لأن بصلبه عجل بحياتهما ليُصلبا معه. لم يطلب رئيس الكهنة صلب تلميذين حوله لئلا يُحسب ذلك كرامة أن جميعهم صلبوا من أجل الحق، وأن تلميذيه شاركا آلامه، بل أصر أن يُصلب مجرمان، يحتمل أن يكونا من فرقة باراباس اللص.

أراد قادة اليهود أن يعلنوا أنه أشر الثلاثة لأنه صلب في الوسط، ولم يدركوا أنه بذلك تحققت النبوة أنه أُحصي مع آثمة.

❖ وإن قلت: فما غرض اليهود إنهم "**صلبوه، وصلبوا اثنين آخرين معه**"؟ أجبتك: إنهم في هذا الفعل أتموا النبوة كارهين، لأن هذا الفعل قد تقدم إشعياء النبي فذكره منذ قديم الزمان فقال "وجعل مع الأشرار قبره ومع غني عند موته" (إش ٥٣: ٩). أراد إبليس أن يضع حجابًا يخفي ما قد حدث، لكنه كان عاجزًا. فإن الثلاثة قد صُلبوا، لكن يسوع وحده كان مجيدًا، حتى تدركوا أن سلطانه فوق الكل.

تمت معجزات عندما سُمر الثلاثة على الصليب، لكنه لم ينسب أحد شيئًا من المعجزات لأحد الاثنين، وإنما ليسوع وحده. لقد بطلت خطة إبليس تمامًا، وارتدت على رأسه، إذ خلص أحد الاثنين. إنه لم يهن مجد الصليب بل ساهم في مجده ليس بقليلٍ. فإن **تجديد لص على الصليب والدخول به إلى الفردوس ليس بأقل من اهتزاز الصخور**[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. عنوان علته

"**وكتب بيلاطس عنوانًا،**

---

[1] *Homilia 6 in Ezechielem 6 PG 13:714 D.*

[2] *Homilies on St. John, 85:1.*

ووضعه على الصليب،

وكان مكتوبًا:

يسوع الناصري ملك اليهود". [١٩]

ما قد كُتب على الصليب دعاه يوحنا "عنوانًا" أو "لقبًا *titlos*"، ودعاه متى "علته" أو "الاتهام *accusation – citiei*"، ودعاه مرقس ولوقا "نقشًا *apigraphe*".

اهتم الإنجيلي يوحنا بالكشف عن إبراز الصليب في حياة يسوع المسيح. ففي الأصحاح الثالث، في لقاء يسوع الليلي مع نيقوديموس قال السيد: "وكما رفع موسى الحيَّة في البرية، هكذا ينبغي أن **يُرفع ابن البشر**" (يو ٣: ١٤). مرة أخرى في حديث السيد مع اليهود قال: "متى **رفعتم ابن الإنسان** فحينئذٍ تفهمون إني أنا هو" (يو ٨: ٢٨). وفي حديثه مع بعض اليونانيين يقول: "وأنا **إن ارتفعت عن الأرض (الصليب)** أجذب إليَّ الجميع.

يرفع الإنجيلي أذهاننا لنراه يكشف عن الرفع أو السمو في المجد الذي صار لنا خلال المصلوب. فيه نرى مسيحنا ممجدًا في أبيه ومعه، حيث صار لنا حق الانطلاق نحو حضن الآب. جوهر الصليب أن يرتفع عن الأرض ليجتذب الجميع إليه، فيعيشوا على مستوى أرفع وأسمى من الأرض.

يرى الرسول بولس أن محبة اللَّه ترتسم على البشرية بشكل الصليب، إذ يتحدث عن العرض والطول والعمق والعلو لحب اللَّه (أف ٣: ١٨). كأن أبعاد الصليب هي التعرف على سرّ الحب الإلهي.

في التقليد الشرقي يُحتفل بالصليب كشخصٍ حيّ، فيرونه يسوع المصلوب. يطلب **العلويات،** يفصل بين الظلمة والنور، وبين المعرفة والجهل. لذا صار للدينونة، يميز بين من يشتهي النور الأبدي ومن يستطيب الانطلاق في الظلمة.

الصليب هو **ارتفاع إلى ما وراء هذا العالم،** وانفتاح على العالم الآخر حتى تُستعاد الشركة وتُضاء المعرفة، فيتسنّى للإنسان الذي جاء إليه اللَّه أن يتجه بدوره إلى اللَّه، بل وأن يدخل حياته.

استخدام الكلمتين "**فوق**" و"**أسفل**" أمر حيوي في إنجيل يوحنا الذي يكشف عن شخص المصلوب وعمله. فإن كان الإنجيلي قد أغفل العشاء السرّي إلا أنه أسهب في عرض حديث السيد المسيح عن سرّ الشكر، مؤكدًا أنه الخبز **النازل** من السماء **(أي فوق)** (يو ٦: ٢٢–٤٠). وفي حديثه عن المعمودية وهي تغطيس يسحب قلوبنا إلى **الولادة من فوق** لنعاين عبر الصليب أعماق حب اللَّه أبينا (يو ٣: ٨).

في اختصار، بالصليب نتحقق أننا وإن كنا في العالم لكننا لسنا من العالم (يو ٧: ٦، ١٤، ١٦، ١٨)، بل **من فوق**. نصير شركاء المسيح القائم من الأموات الذي لم تعرفه المجدلية حتى ناداها باسمها، وظنت أنه غريب. وأيضًا التلميذان الذاهبان إلى عمواس اللذان رافقا السيد المسيح الطريق ظنّاه هكذا غريبًا.

❖ المسيح هو ملك اليهود، لكن اليهود بختان القلب في الروح وليس الختان بالحرف؛ الذين مدحهم ليس من الناس بل من الله (رو ٢: ٢٩)، الذين ينتمون لأورشليم الحرة، أمنا الأبدية في السماء، سارة الروحية التي طردت الجارية وأولادها من بيت الحرية (غلا ٤: ٢٢–٣١). لذلك ما قد كتبه بيلاطس كتبه، لأن الرب قال ما قاله[1].

القديس أغسطينوس

❖ جمع بيلاطس بذلك غرضين هما: انتقامه من اليهود، واعتذاره للسيد المسيح، لأنهم لما أنزلوا السيد المسيح بمنزلة رديئة، وأرادوا أن يحققوا ذلك بمشاركته اللصين على الصليب أطبق أفواههم وأفواه جميع الذين يريدون أن يلوموا السيد المسيح، وأوضح أنهم إنما ثاروا على ملكهم.

هذا عن انتقامه من اليهود، أما عن اعتذاره للسيد المسيح فكما يوضع على قاهر غالب علامته، كذلك وضع القاضي الكتابة في اللوح، مبديًا صوتًا بهيًا، موضحًا ظفره مُشيدًا بمملكته، وإن لم يكن بإشارة كاملة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ شهد أعداء الرب يسوع المسيح أنه هو الملك، ملك إسرائيل، حيث كتبوا فوق رأسه على الصليب "هذا هو يسوع ملك اليهود" (مت ٢٧: ٣٧). ونحن نقبل هذه الشهادة حتى ولو يَفهم منها أنها تُضعف شمول قوته وتحّد من ألوهيته على الإسرائيليين. يحمل العنوان المكتوب على الصليب شهادة بألوهية المسيح، ليس على اليهود فقط، بل على جميع الناس. هو ملك على كل الأرض، ويحكم على كل أجزائها[3].

القديس غريغوريوس النيسي

"فقرأ هذا العنوان كثيرون من اليهود،

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 117: 5.*

[2] *Homilies on St. John, 85:1.*

[3] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ٧.

لأن المكان الذي صُلب فيه يسوع كان قريبًا من المدينة،
وكان مكتوبًا بالعبرانية واليونانية واللاتينية". [٢٠]

سُجل هذا العنوان بالثلاث لغات الرئيسية في ذلك الحين: العبرية لغة الناموس، واليونانية لغة الفلاسفة، واللاتينية لغة الحكام، فقد صُلب السيد ليملك على الجميع.

❖ حتى في صلب السيد المسيح حسده رؤساء كهنة اليهود، وأنا أخاطبهم: إن هذا العنوان ما سبب لكم ضررًا، لأنه إن كان السيد المسيح ميتًا ضعيفًا وقد أزمع أن يُنزع ذكره، فلماذا خوفكم هذا من ألفاظ الكتابة القائلة: "**يسوع الناصري ملك اليهود**"؟ [١٩]

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس:**
لا تكتب ملك اليهود،
بل أن ذاك قال: أنا ملك اليهود". [٢١]

لم يشفِ الصليب غليل المتهمين، فراحوا يضغطون على بيلاطس أن يأمر بتغيير العنوان: "**ذاك قال أنا ملك اليهود**" [٢١]. لكن بيلاطس رفض الخضوع لطلبهم، فقد سقط تحت ضغوط كثيرة من فريق رؤساء الكهنة، ولم يعد يحتمل ضغطا آخر. أرادوا إبراز انه مغتصب للكرامة والسلطة، وأنهم هو مخلصون لقيصر وفي ولاءٍ له، مع أنهم كانوا في مذلة الاستعمار، وكانوا في داخلهم يطلبون ملكًا يهوديًا له كامل السلطات. لم يدركوا أن رئيسهم يجب أن يُقطع (دا ٩: ٢٦).

"**أجاب بيلاطس:**
ما كتبت قد كتبت". [٢٢]

كانت القوانين الرومانية تمنع تغيير منطوق الحكم متى نُطق به. يبدو أن بيلاطس قد تنبأ بغير إرادته، أنه هذا هو المسيا الملك الذي لن يملك آخر غيره على القلوب. وردت هذه النبوة في مزمور ١٨: ٢٢ حوالي ١٠٠٠ عام قبل الصلب.

٤. توزيع ثيابه

"**ثم أن العسكر لما كانوا قد صلبوا يسوع،**
أخذوا ثيابه،
وجعلوها أربعة أقسام لكل عسكري قسمًا،

وأخذوا القميص أيضًا،

وكان القميص بغير خياطة منسوجًا كله من فوق". [٢٣]

إذ حمل خطايانا لم يستنكف من أن يُعرى على الصليب لنرى عرينا، ونطلب أن نلبس السيد المسيح، إذ هو برنّا.

وُجدت عادة قديمة في العالم كله تقريبًا، بموجبها تعود مقتنيات المحكوم عليهم بالإعدام إلى الجلادين وغالبًا للذين ينفذون الحكم. يقدم لنا القديس يوحنا الإنجيلي تركة السيد المسيح التي تبدو هزيلة للغاية، وهي ثيابه بعد أن عرّوه ليُصلب، كانت ملقاة على الأرض، اقتسمها الجنود الأربعة الذين نفذوا الحكم، وبقي القميص الذي بغير خياطة. وهو منسوج كله من فوق، ألقوا عليه قرعة حتى لا يشقوه. صار كمن لا يملك شيئًا حتى القميص الذي يُحسب كجلدٍ ثانٍ للشخص. كانت ثيابه ملقاة كمن لا صاحب لها، لأن المحكوم عليه بالموت لا رأي له بعد، ولا حقوق، حتى بالنسبة لثيابه. كانت ملابس الرجل في منطقة إسرائيل في ذلك الحين هي الثوب الخارجي والثوب الداخلي وغطاء الرأس وحزام والنعلين وملابسه الداخلية الخ. غير أنه لم يُوجد نعلان للسيد المسيح بين ملابسه.

يرى **فيلون اليهودي السكندري** أن قميص رئيس الكهنة في هيكل أورشليم كان دائمًا منسوجًا كله من فوق بغير خياطة بموجب فريضة طقسية. ورأى البعض أن ذلك رمزًا إلى كهنوت المسيح. يرى البعض أن هذا القميص كان مشابهًا لقميص رئيس الكهنة، وقد وصفه المؤرخ اليهودي يوسيفوس أنه غير مخيط، بل هو قطعة واحدة على الكتفين والجانبين، وكان طويلاً، له فتحة للرقبة وله فتحتان لليدين[1]. قيل أن هذا القميص كان من صنع يدي والدته وهو طفل، وأنه لم يتمزق ولا قدم، وذلك كما حدث مع ثياب شعب بني إسرائيل في البرية.

❖ على ما يلوح لظني أن يوحنا البشير قال هذا القول مضمرًا فيه حقارة الثياب وبساطتها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى **العلامة أوريجينوس** في هذا القميص إشارة إلى كمال تعليم المسيح الذي يلزمه حفظه دون شقه أو تقسيمه إلى أجزاء. ويرى **القديس كيرلس الكبير** فيه رمزًا لميلاد المسيح البتولي، حيث بقيت والدته بتولاً بعد ولادته. ويرى **القديس كبريانوس** الذي كان يئن من الانقسامات التي وُجدت في كنيسة شمال أفريقيا أن القميص الذي بغير خياطة يشير إلى الكنيسة الحقيقية الواحدة التي لا يمكن أن تُشق ولا أن تُرتق.

---

[1] *Antiq. B 3 c. 7, s. 4.*

وفي رسالة **للقديس أغسطينوس** إلى الدوناتست كتب: [لماذا تريدون أن تقسموا ثياب الرب، ولماذا لا تحفظوا قميص الحب هذا مع بقية العالم ككلٍ منسوجًا من أعلى، هذا الذي لم يستطع حتى مضطهدوه أن يشقوه؟[1]]

يرى **الأب ثيؤدور أسقف المصيصة** أن مثل هذا النسيج كان عامًا في وقت السيد المسيح، وإن كان في أيامه لم يعد يوجد مثل هذا النسيج إلا بين ملابس الجنود.

❖ قُسمت ثيابه لحسابنا. لا يستطيع أحد أن يملك كل شيء، إذ تُلقى قرعة، لأن توزيع الروح القدس لا يأتي حسب إرادة إنسان. إذ "أنواع مواهب موجودة، ولكن الروح واحد... ولكن هذا كله يعملها الروح الواحد بعينه، قاسمًا لكل واحدٍ بمفرده كما يشاء" (١ كو ١٢: ٤، ١١)... هكذا قُسمت الثياب، أعمال المسيح أو نعمته...

نقرأ أن (القميص) "**منسوجًا كله من فوق**"، لأن الإيمان بالمسيح منسوج هكذا، حيث ينزل إلى الناسوت... مادام هو مولود من الله قبل الدهور. وقد قبل الجسد...

القول: "**وكان القميص بغير خياطة**" يشير أيضًا إلى **أن الإيمان يلزم ألا يتمزق بل يبقى بكامله**[2].

القديس أمبروسيوس

❖ ترمز ثياب الرب يسوع المسيح التي قُسمت إلى أربعة أجزاء إلى الكنيسة الرباعية، إذ تنتشر في كل العالم، الذي يحوي أربع أرابع، وبالتساوي بمعنى بانسجام، موزعة على كل الأربع مناطق. لهذا يقول في موضع آخر أنه سيرسل ملائكته ليجمع مختاريه من الأربعة رياح (مت ٢٤: ٣١). وما هذا إلا من الأربعة أرابع للعالم: الشرق والغرب والشمال والجنوب؟[3]

❖ يشير القميص الذي أُلقي عليه قرعة إلى وحدة كل الأجزاء التي تُحتوى في برباط المحبة. وعندما يريد الرسول أن يتحدث عن المحبة يقول: "أريكم طريقًا أفضل" (١ كو ١٢: ٣١). وفي موضع آخر: "لتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة" (أف ٣: ١٩). وفي موضع آخر: "وفوق كل هذه المحبة التي هي رباط الكمال" (كو ٣: ١٤) فإن كانت المحبة طريقًا أفضل، ومعرفة فائقة وتُفرض فوق كل الأشياء، لذلك كان من اللائق أن هذا القميص الذي يمثل المحبة يكون منسوجًا

---

[1] *Letters, 76.*
[2] *Exposition 10: 116, 119, 120.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 118: 4.*

من فوق، وبغير خياطة[1].

القديس أغسطينوس

"**فقال بعضهم لبعض:**
لا نشقه بل نقترع عليه لمن يكون،
ليتم الكتاب القائل:
اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى لباسي ألقوا قرعة،
هذا فعله العسكر". **[٢٤]**

❖ انظر النبوات التي تمت بالأفعال التي تباحث بها العسكر، لأن المصلوبين كانوا ثلاثة، إلا أن أقوال النبوات كملت في السيد المسيح، فلأي سبب لم يعملوا هذا العمل بالآخرين إنما لهذا وحده؟! تأمل استقصاء النبوة، لأن داود النبي لم يقل إنهم اقتسموا ثيابه فقط، لكنه ذكر مع ذلك ما لم يقتسموه، لأن بعضها اقتسموها، ولباسه لم يقتسموه، لكنهم جعلوا امتلاكه بالقرعة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

إذ يكتب **القديس جيروم** لأستوخيوم *Eustochuim* عن حياة البتولية والسلوك اللائق بالعذارى، يرى أن اللواتي يمارسن هذه الحياة يتشبهن بالسيد المسيح الذي كان له ثوب منسوج من فوق (سماوي). [ليت المتزوجات يخيطن لأنفسهم ثيابًا، لأنهن فقدن الثوب المنسوج من فوق.]

وفي نفس الرسالة يطالب العذارى ألا يرتدين أحذية فيقول: [أُمر موسى ويشوع أن يخلعا أحذيتهما، لأن الأرض التي وقفا عليها كانت مقدسة (خر ٣: ٥؛ يش ٥: ١٥)، كان لهذا الأمر معنى سريًا. هكذا أيضًا عندما عُيّن التلاميذ للبشارة بالإنجيل طَلب منهم ألا يأخذوا معهم أحذية ولا سيور أحذية (مت ١٠: ١٠). وعندما جاء الجند ليُلقوا قرعة على ثياب يسوع لم يجدوا أحذية ليأخذوها، لأنه لم يكن ممكنًا للرب أن يملك ما قد منع عبيده منه[2].]

٥. اهتمامه بأمه

"**وكانت واقفات عند صليب يسوع،**
أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية". **[٢٥]**

جاء عن **مريم زوجة كلوبا** في مت ٢٧: ٥٦؛ مر ١٥: ٤٠ أنها أم يعقوب الصغير ويوسي؛ وأن

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 118: 4.*
[2] *Letter22:19.*

ابنها يعقوب هو ابن حلفى *Alpheus*، مما يبدو أن حلفى وكلوباس هما شخص واحد. يقول هيجيسبوس *Hegesippus* نقلاً عن يوسابيوس[1] أن كلوباس هو أخ يوسف خطيب القديسة مريم.

بينما هرب جميع التلاميذ ماعدا يوحنا إذا بالنسوة – والدته وأختها ومريم المجدلية – استمررن في مرافقته حتى الصليب. لم يخشين عنف الأشرار ولا رعب المنظر. حقًا لم يكن في إمكانيتهن أن يعملن شيئًا له، لكنهن أظهرن إخلاصهن حتى النهاية، رافقنه في طريق الخلاص الذي سار فيه، لقد تحقق قول سمعان الشيخ للقديسة مريم أنه يجوز في نفسها سيف (لو ٢: ٣٥).

مع حزنهن الشديد لم يقمن بتصرفات غير لائقة كما كانت عادة النسوة في الجنازات في ذلك الحين. لقد رافقن السيد من أجل إخلاص حبهن له. حقًا إنها نعمة الله الفائقة هي التي سندت هؤلاء النسوة في تلك اللحظات العصيبة، خاصة القديسة مريم والدته.

بينما وُجد أربعة جند يقومون بتنفيذ حكم الصلب بكل عنفٍ وقسوة كان مقابل ذلك أربع نساء يرافقن المسيح وسط آلامه.

❖ وقفت النسوة عند الصليب، الجنس الضعيف الذي ظهر أكثر رجولة، وهكذا تغيرت كل الأمور تمامًا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفًا،

قال لأمه: يا امرأة هوذا ابنك". [٢٦]

حتمًا في هذه اللحظات كان قلب القديسة مريم قد انشغل تمامًا بآلام ابنها، أما هو فآلامه لم تشغله عنها، بل هي ثمرة حبه الشديد لها ولكل البشرية. ما يشغله خلاص الكل وبنيانهم ومجدهم. في بادرة حنان أخيرة نحو أمه أراد أن يؤمن لها عناية وعونًا بعد ذهابه، فسلّمها إلى من كان يحبه، والذي يعلم أنه الأقرب إليه من كل تلاميذه. بلا شك كان يوسف النجار قد تنيح منذ سنوات، ولم يعد من يهتم بالقديسة مريم، لذلك سلمها السيد المسيح وهو على الصليب للقديس يوحنا الحبيب بكونها أمه وهو ابنها. فنال يوحنا علاقة جديدة، البنوة لأم يسوع رب المجد.

لم يترك لأمه شيئًا، إذ لم يكن له ذهب ولا فضة لكي ترثه عنه، فالصندوق العام لحساب كل التلاميذ كان في يد يهوذا الذي غالبًا ما بدده، حتى ثيابه ورثها العسكر، ليس له ما يقدمه لها سوى

---

[1] *H.E. 1:3:11.*
[2] *Hom. 85. PG. 59: 506.*

تسليمها في يد من يحبه: يوحنا الرسول!

بالصليب تمتعت أمه بنوعٍ من الأمومة نحو الآخرين بعد ارتفاع ابنها الوحيد يسوع إلى الصليب.

لم يقل لها: "يا أماه" بل "**يا امرأة**"، ليس استخفافًا بها، ولا جحدًا لأمومتها، وإنما لكي لا يزداد جرحها كأم تسمع ابنها في اللحظات الأخيرة قبيل موته. ولعله أراد أن يؤكد لها أنه ليس من هذا العالم، فيخاطبها ليس من خلال العلاقات الدموية المجردة، وإنما كممثلةٍ للكنيسة موضوع حبه الفائق.

يقول نيسيفورس[1] *Nicephoros* بأن العذراء مريم عاشت في بيت يوحنا ١١ عامًا في أورشليم، ويرى البعض أنها ذهبت معه إلى أفسس.

❖ أطلب إليكم أن تتأملوا كيف فعل (السيد) كل شيء على الصليب بدون اضطراب، فتحدث مع تلميذه عن أمه، متممًا النبوات، مقدما رجاءً حسنًا للص، مع أنه قبلَ بإرادته أن يُصلب ظهر وقد تصبب منه العرق وتألم واضطرب. ماذا يعني هذا؟ إنه ليس بالأمر الصعب ولا المبهم. لقد أظهر قبل الصلب ضعف الطبيعة (كإنسان)، هنا يظهر عظمة السلطان.

بجانب هذا فإنه بهذين الأمرين يعلمنا أنه قبل حدوث الأمور المرعبة نضطرب، دون أن ننفر منها، ولكن عندما ندخل المعركة نحسب كل الأمور ممكنة وسهلة.

إذن ليتنا لا نخاف الموت. بالطبيعة نفوسنا تحب الحياة، لكن يحدث لنا أن نحل رباطات الطبيعة، فتصير هذه الرغبة (في الحياة الزمنية) ضعيفة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نال ذاك التلميذ مائة ضعف أكثر مما تركه عندما استلم أم ذاك الذي وهب كل شيءٍ[3].

القديس أغسطينوس

"**ثم قال للتلميذ: هوذا أمك.**

ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته". **[٢٧]**

❖ وهو على الصليب شهد المسيح وقسم أعمال التقوى بين الأم والتلميذ. قدم الرب شهادة ليس فقط على المستوى العام، بل وعلى المستوى الخاص. وأشار يوحنا إلى هذه الشهادة التي للمسيح شاهدًا عن عظمة هذه الوصية[4].

---

[1] *Ecc. His. Lib 2, 3*
[2] *Homilies on St. John, 85:1.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 119: 3.*
[4] *Letter, 63:109.*

❖ وقفت أمه لا تبالي بالخطر الذي يحدق بها، وذلك من أجل غيرتها للتقوى. استهان هو بمخاطره، وقدم لأمه صفوًا تقويًا. تعلمنا القراءة هنا أنه يلزم اتباع الحنو المادي، وتوقير الأبناء (لأمهاتهم)...

أعلن أن هذه التي ولدت الله بقيت عذراء. ومع ذلك فسُلمت بطريقة سرائرية ليوحنا، الأصغر (بين التلاميذ). هنا سرّ الكنيسة التي ارتبطت قبلاً بالمظهر، وليس عمليًا بالشعب القديم، ولكنها إذا ولدت الكلمة مزروعة في أجساد الناس وعقولهم خلال الإيمان بالصليب ودفن جسد الرب بوصية الله، اختارت أن تتبع الجنس الأصغر[1].

القديس أمبروسيوس

❖ يا للعجب من هذه الكرامة التي رام بها السيد المسيح تلميذه! ما أوفر هذه الكرامة، لأنه لما انصرف هو في ذلك الوقت سلمها إلى تلميذه المهتم بها، وإذ كان لائقًا بها أن تحتاج إلى مساعدة سلمها إلى محبوبه.

❖ يعلمنا أن نقدم توقيرًا فوق المعتاد لأمهاتنا. فعندما يقاومنا الوالدون بخصوص أمور روحية يلزمنا ألا نتمسك بما لنا. ماداموا لا يعوقونا يلزمنا أن نقدم لهم وقارًا، وأن نفضلهم عن الآخرين، لأنهم ولدونا، وربونا واحتملوا ربوات الأمور المرعبة من أجلنا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لكي تتعلم بأكثر تدقيق من الكتاب المقدس الإلهي أنه ليس فقط يُدعى "أبًا" من هو أب طبيعي بل وغيره أيضًا، اسمع ماذا يقول الرسول؟ "لأنه وإن كان لكم ربوات من المرشدين في المسيح لكن ليس آباء كثيرون، لأني ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل" (١ كو ٤: ١٥). كان بولس أبًا للكورنثويين، ليس لأنه ولدهم حسب الجسد بل خلال التعليم، وولدهم مرة أخرى حسب الروح.

اسمع أيضًا أيوب: "أب أنا للفقراء". لقد دعا نفسه أبًا، ليس لأنه ولدهم جميعًا، بل من أجل اهتمامه بهم.

وابن اللّٰه الوحيد نفسه عندما سُمر على الشجرة وقت الصلب لما نظر مريم أمه حسب الجسد ويوحنا تلميذه المحبوب جدًا من تلاميذه، قال له: "**هوذا أمك**". وقال لها: "**هوذا ابنك**"، معلمًا إياها أن

---

[1] *Exposition 10: 129, 132, 134.*
[2] *Hom. 85. PG 59: 506.*

تصب حبها "الوالدي"[١] فيه، شارحًا بطريقة غير مباشرة ما قيل في لوقا: "وكان أباه وأمه يتعجبان منه[٢]"، هذه الكلمات التي يتصيدها الهراطقة قائلين أنه وُلد من رجل وامرأة.

فكما دعيت مريم أمًا ليوحنا من أجل حبها الوالدي وليس لأنها أنجبته، هكذا دعي يوسف أبًا للمسيح من أجل عنايته بتربيته وليس لأنه أنجبه. إذ يقول الإنجيل: "لم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر" (مت ١: ٢٥).[٣]

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ إنه الابن البتول الذي قبل الأم البتول ميراثًا من الرب[٤].

القديس جيروم

٦. تقديم خل له

"بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل،
فلكي يتم الكتاب قال:
أنا عطشان". [٢٨]

سبق فذكر الإنجيلي في حديثه عن لقاء السيد المسيح مع المرأة السامرية أنه كان عطشانًا، وكان ذلك أيضًا في وقت الساعة السادسة. وكما يرى البعض أنها ساعة الظهيرة التي فيها خرج آدم من الفردوس. هكذا يعلن اللَّه محبته الفائقة للبشرية وعطشه إلى الرجوع إلى أحضانه الإلهية.

أثناء خدمته أعلن السيد المسيح للمرأة السامرية أنه عطشان (يو ٤: ٦-٧)، إذ كان يطلب إيمانها. وفي آخر رحلته هنا، وهو على الصليب، يعلن عن عطشه نحو كل نفسٍ بشريةٍ لتتمتع بأعماله الخلاصية. إن كانت نيران الجحيم قد جعلت من الغني إنسانًا عطشانًا، يطلب قطرة ماء يبلل بها لسانه، فقد احتل مسيحنا مكاننا ليعلن عن عطشنا لكي نرتوي بينابيع حبه.

كان العطش أمرًا طبيعيًا لمن يُصلب حيث يفقد الجسم الكثير من الماء بسبب العرق والجراحات. لم يشكو مسيحنا كل آلام الجلد وإكليل الشوك والمسامير والحربة، لكن الشكوى الوحيدة التي نطق بها هي أنه عطشان، معبرًا عن عطشه الداخلي بجانب آلام جسده. سبق فتنبأ المرتل داود في المزمور

---

[١] الكلمة اليونانية تستخدم عن الحب الذي للأم أو الأب تجاه الابن أو العكس حب الابن لوالديه.

[٢] لو ٢: ٣٣ "وكان يوسف وأمه يتعجبان مما قيل فيه".

[٣] مقال ٧: ٩.

[4] *Letter 127:6.*

الخاص بالصلب فقال: "لصق لساني بحنكي" (مز ٢٢: ١٥). كما جاء أيضًا في المزمور ٦٩: ٢١. لم يشر الإنجيليون الإزائيون إلى عطش السيد، بل انفرد الإنجيلي يوحنا بذلك.

"وكان إناء موضوعًا مملوءً خلاً،
فملأوا إسفنجة من الخل،
ووضعوها على زوفا،
وقدموها إلى فمه". [٢٩]

مال البعض إلى احتساب ذلك إمعانًا في قسوة لا موجب لها بحق من يحتضر، إذ كان من المعتاد تقديم كأس خمر للمصلوبين حتى يخففوا عن آلامهم في لحظات موتهم، أما بالنسبة للسيد المسيح ففي شيء من السخرية قدموا إسفنجة بها خل. ويرى البعض الأمر عكس ذلك تمامًا، فإن من تقصّوا الحقيقية أضحى ثابتًا منذ زمن طويل أن الجند الرومانيين كانوا يزوَّدون في البلاد الحارة بشرابٍ خاص يُدعى *pouska*، وهو مزيج من الماء والخل، من شأنه أن يقطع العطش.

يتساءل البعض كيف يمكن رفع الاسفنجة المملوءة خلاً على زوفا وهو نبات ضعيف لا يقوى على البلوغ إلى فم المصلوب؟ ظن البعض أن الكلمة هنا تعني "جريدة"، لأن الكلمتين "زوفا" و"جريدة" في اليونانية متقاربتان جدًا، خاصة وأنه وجدت الكلمة الأخيرة في نسخة ترجع إلي القرن الحادى عشر. لكن أغلب الدارسين يرفضون ذلك، إذ جاءت الكلمة "**ὑσσῷ**" في كل المخطوطات السابقة وفي مخطوطات آباء الكنيسة الأولي.

يقول *Raymond E. Brown* أنه يوجد ١٨ نباتًا يُدعى "زوفا"، وأن أكثر من صنف له ساق طويلة قادرة أن تحمل الإسفنجة حتى تبلغ إلى فم الشخص المصلوب[1].

لقد رفض السيد المسيح أن يشرب خمرًا قبل رفعه على الصليب (مت ٢٧: ٣٤؛ مر ١٥: ٢٣)، هذا الذي يُقدم لكي يخفف الآلام.

❖ من له السلطان هكذا لكي يكيِّف ما يفعله مثل هذا "الإنسان" الذي نظم كل شيء بخصوص آلامه؟ لكن هذا الإنسان هو الوسيط بين الله والناس، الإنسان الذي نقرأ عنه في النبوة... من يعرفه؟... إنه ذاك الذي أظهر نفسه محتملاً كل هذه الأمور، هو نفسه أيضًا كان مختفيًا، إذ هو الله الذي أعد كل الآلام.

[1] *Leon Morris, p. 668.*

لقد رأى كل هذا سيتم، فسأل أن يتحقق، لهذا قبل أن يشرب الخل... "في عطشي سقوني خلاً" (مز ٦٩: ٢١)[1].

❖ "**قال أنا عطشان**" [٢٧]، كما لو قال: "أمر واحد فشلتم أن تفعلوه، وهو أن تعطوني ما أنتم عليه. لأن اليهود أنفسهم كانوا خلاً مستخرجًا من خمر الآباء البطاركة والأنبياء، وامتلأوا كإناء مملوء من شر هذا العالم، قلوبهم كإسفنجة، مخادعين في شكل أعماق بها مسام معوجة. أما الزوفا التي وضعوا عليها الإسفنجة المملوءة خلاً فبكونها عشبًا ضعيفًا يطهر القلب فإنه يناسب تواضع المسيح نفسه الذي حاصروه وتخيلوا أنهم أوقعوه في الفخ تمامًا. لذلك قيل في المزمور: "اغسلني بزوفاك فأطهر" (مز ٥١: ٧). فإننا نتطهر بتواضع المسيح. لأنه لو لم يتواضع ويطيع حتى موت الصليب (في ٢: ٨) ما كان يُسفك دمه لأجل غفران الخطايا، أو بمعنى آخر لتطهيرنا[2].

القديس أغسطينوس

٧. تسليم الروح

"**فلما أخذ يسوع الخل قال:**

قد أكمل.

ونكس رأسه، وأسلم الروح". **[٣٠]**

بقوله "**قد أكمل**" أعلن السيد المسيح أن عداوة مضطهديه قد بلغت النهاية، وإن النبوات الخاصة بصلبه قد تحققت بالكامل. قد زال الظل تمامًا وتحققت الحقيقة: بيع بثلاثين من الفضة، ثُقبت يداه ورجلاه، قسمت ثيابه، وعلى لباسه ألقوا قرعة، والآن قدموا له خلاً في عطشه، وطُعن جنبه. الآن كملت آلامه لكي ينطلق يحمل الغنائم إلى الفردوس. عوض الجو المملوء كآبة يفتح أبواب الفردوس لكي تتهلل النفوس التي رقدت على رجاء. الآن قد تم تقديم ذبيحة جسده، وها هو كرئيس الكهنة الأعظم السماوي ينطلق إلى الآب ليشتمها رائحة سرور ورضا عنا.

"**أسلم الروح**": لم تغتصب حياته منه بالقوة، بل سلمها بكامل حريته. لقد قال للآب: "في يديك استودعك روحي"، معبرًا عن قبوله للموت باختياره، فدية عن كثيرين.

"**نكس رأسه**": الذين يُصلبون عادة يرفعون الرأس للتنفس ولن ينكسوا الرأس إلا بعد آخر نسمة في حياتهم، أما السيد المسيح فلكي يبرز دوره الاختياري أحنى رأسه أولاً كمن ينام، أو كمن يخضع ليعلن

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 119: 4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 119: 4.*

أنه حمل ثقل خطايانا وشرورنا، إذ يرى البعض أنه بتنكيس رأسه أعلن مدى ثقل خطايانا التي حملها بإرادته عنا. "لأن آثامي عليّ، طمت فوق رأسي، كحملٍ ثقيل أثقل مما أحتمل" (مز ٣٨: ٤). "لأن شرورًا لا تُحصى قد اكتنفتني" (مز ٤٠: ١٢). احناء الرأس أيضًا يعلن عن خضوعه وطاعته لأبيه الذي يُسر بتقديم ابنه الوحيد ذبيحة حب عن البشرية.

عند الصليب أسلم يسوع روحه البشرية في يدي الآب، لكي يسلم روحه القدوس إلى كنيسته.

❖ **إذ أحنى رأسه سلم الروح**، بمعنى أنه مات. مع ذلك فإن لفظ النفس الأخير لا يأتي بعد انحناء الرأس، ما حدث هنا هو على النقيض. إنه لم يحدث له ما يحدث معنا أن يحني رأسه عندما سلم النفس الأخير وإنما عندما أحنى الرأس أسلم الروح قد أظهر الإنجيلي بكل هذه أنه رب الكل[1].

❖ أرأيت كيف كان السيد المسيح عاملاً كل ما يشاء بسلطانٍ وبخلوٍ من الاضطراب؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أحنى الرأس، وتمم رحيل روحه في عملٍ مريحٍ لها، كما في حضن الآب القادر أن يدللها ويقويها في حضنه.

العلامة أوريجينوس

❖ من يقدر أن ينعس متى يريد، مثلما مات يسوع حينما أراد؟ من هو هذا الذي خلع ثيابه عندما شاء، كما خلع جسده حسب مسرته؟ من هو هكذا يرحل عندما يريد، كما رحل هذا من هذه الحياة حسب مسرته؟ يا لعظمة سلطان ذاك الذي نترجاه ونرهبه إذ هو الديان، إن كان هكذا هو سلطانه الذي أعلنه وهو إنسان ميتٍ![2]

القديس أغسطينوس

٨. طعنه بالحربة

"ثم إذ كان استعداد،
فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت،
لأن يوم ذلك السبت كان عظيمًا،
سأل اليهود بيلاطس أن تُكسر سيقانهم ويُرفعوا". [٣١]

---

[1] *Hom. 85. PG 599: 507.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 119: 6.*

كانت كل السبوت أيام مقدسة، لكن هذا السبت الذي كان يقع في أسبوع الفصح حيث الفطير غير المختمر، الذي يُقدم فيه البكور كما يرى البعض، فهو "**اليوم العظيم** *megale hemera*"، وهو أعظم يوم من أيام الإعداد الطبيعي للفصح.

كان الإعداد لكل سبت يبدأ في الساعة التاسعة من يوم الجمعة (٣ ظهرًا). جاء في يوسيفوس[1] أن الإمبراطور أوغسطس أصدر منشورًا لصالح اليهود أنه لا يُلزم أحد أن يقدم تحية في يوم السبت، ولا في الاستعداد له منذ الساعة التاسعة (حسب الطقس اليهودي).

لم يكن يُسمح ببقاء الأجساد الميتة في الأيام العادية (تث ٢١: ٢٣) ولعل ضميرهم بدأ يوخزهم فلم يحتملوا بقاء جسمه معلقًا أمامهم يذكرهم بجريمتهم البشعة، فيفسد عليهم فرح العيد. هذا وبمناسبة العيد كانت أورشليم مكتظة بالغرباء، فلم يرد اليهود أن يبقى جسم المسيح المصلوب معلقًا.

يرى البعض أنهم لم يطلبوا قطع رؤوسهم لكي يموتوا سريعًا بلا آلام متزايدة، وإنما طلبوا كسر سيقانهم من أجل معاناتهم من آلام أكثر. وهكذا حتى في طلب الرحمة (إنزال أجسادهم من على الصليب) كانوا قساة للغاية. وعندما تظاهروا بالقداسة – عدم ترك الأجساد حتى لا تتدنس الأرض – مارسوا الشر. اهتموا بحفظ السبت ولم يراعوا العدالة والبرّ.

❖ كان اليهود يبلعون الجمل ويصفون عن البعوض، إذ مارسوا إثمًا جسيمًا ودققوا جدًا بخصوص (حفظ) اليوم[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فأتى العسكر وكسروا ساقي الأول والآخر المصلوب معه". [٣٢]

"وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه،

لأنهم رأوه قد مات". [٣٣]

مات السيد المسيح سريعًا قبل اللصين، ربما لأن جسمه كان نحيفًا، ولأن شخصه كان رقيقًا، فلم يحتمل كل هذه الآلام. أو لعله سمح لنفسه بالموت قبلهما ليدرك الكل أنه مات بإرادته، إذ سلم روحه في يدي الآب في الوقت الذي اختاره. لقد خضع للموت بإرادته لا عن التزام، وإنما خلال نصرته بالحب.

"لكن واحدًا من العسكر طعن جنبه بحربة،

[1] *Josephus: antiq. 6. 16, c.6, s 51.*
[2] *Homilies on St. John, 85:1.*

وللوقت خرج دم وماء". [٣٤]

لم ترد قصة طعن جنب المسيح إلا في هذا الإنجيل.

يسوع الذي مات حقيقة حسب الجسد، إذ فارقت النفس الجسد، يُعلن أنه مبدأ الحياة الغالبة للموت. بموته غلب الموت وأعاد إلينا الحياة الأبدية.

يرى آباء الكنيسة الأولى مثل **القديسين أغسطينوس وأمبروسيوس ويوحنا الذهبي الفم** في هذه الظاهرة إشارة أولى إلى سرّي المعمودية (الماء) والإفخارستيا، حيث يكون الارتواء مباشرًا من الجرح في جنب ربنا يسوع. ويرى كل من **العلامة ترتليان والقديس كيرلس الأورشليمي والقديس جيروم** أن الماء والدم هنا هما رمزان للمعمودية والاستشهاد[1]. ويرى البعض أنهما رمز للعهدين القديم (الماء) والجديد (الدم) حيث فيه تم العهد وتمتع رجال العهدين بالخلاص.

يُقال أن هذا الجندي يُدعى لونجينوس *Longinus*، وأنه إذ خرج دم وماء من جنب السيد سقطت قطرات دم على عينيه العليلتين فبرئتا، فآمن به، وأنه كرز في كبدوكية، ونال هناك إكليل الشهادة. يرى البعض أن اسم لانجينوس جاء تحريفًا من كلمة *Longchee* اليونانية، ومعناها حربة أو رمح وردت هنا في النص.

لازال النقاش مستمرًا حول موضع الحربة، هل على الجانب اليمين أم اليسار من السيد المسيح. وإن كان الروح القدس لم يعلن لنا خلال الأناجيل عن ذلك، مكتفيًا بأنه طعن بالحربة تحقيقًا للنبوة. يرى البعض في طعن السيد المسيح بالحربة حتى قلبه إنما كان ذلك أشبه بنافذة تطل من خلالها النفس على أحشاء المسيح الداخلية أو قلبه، لترى فيض حبه الإلهي، أو لهيب الحب الفائق نحو البشرية. إنه النافذة المفتوحة التي من خلالها يمكن للمؤمن أن يلتقي بالله، ويرسل إليه مشاعر حبه. إنها نافذة القلب التي لا تُغلق قط أمام أي تائب.

سمح الله للجندي أن يضرب قلب السيد المسيح بالحربة لكي نرى في القلب الصخرة المضروبة لأجلنا (١ كو ١٠: ٤)، والينبوع الذي يفيض علينا (زك ١٣: ١)، وآبار الخلاص التي حُفرت من أجلنا (إش ١٢: ٣)، والنهر الذي يفيض بمجاريه لكي يفرِّح مدينة الله.

❖ جُرح الرب في آلامه، ومن هذا الجرح خرج دم وماء... الماء للغسل، والدم للشرب، والروح لقيامته. فالمسيح وحده هو رجاؤنا وإيماننا وحبنا. رجاء في قيامته، وإيمان في الجرن، وحب في

[1] *Letter 69:6.*

السرّ[1].

القديس أمبروسيوس

❖ جاء الجند وكسروا سيقان الآخرين ولم يكسروا ساقي المسيح. لكن هؤلاء ضربوا جنبه بالحربة ليبهجوا اليهود، وكنوعٍ من الإهانة للجسد الميت... الآن تحققت النبوة: "ينظروا إلى الذي طعنوه" (راجع زك ١٢: ١٠). ليس هذا فقط، وإنما صار هذا العمل برهانًا على الإيمان بالنسبة للذين لم يؤمنوا بعد ذلك، مثل توما ومن على شابهته. هذا أيضًا حمل سرًا فائق الوصف قد تحقق، إذ خرج دم وماء. لم يحدث هذا بلا هدف، ولا مصادفة، حيث صدر الينبوعان. لأن بهذين الاثنين معًا تتكون الكنيسة. يعرف ذلك المبتدئون في الأسرار، فإنهم بالماء ينالون الميلاد الجديد، وبالدم والجسد ينتعشون. هكذا وُجدت الأسرار في البداية حتى عندما تقتربون إلى الكأس المهوب تقتربون كما من جنبه ذاته لتشربوا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كما أن عمله الأرضي (خدمته على الأرض) بدأت بالماء، هكذا انتهت به. طُعن جنبه بالحربة، وفاض دم وماء، رمزان للمعمودية والاستشهاد[3].

القديس جيروم

❖ لقد أُعلن عن ذلك مقدمًا عندما أُمر نوح أن يقيم بابًا في جنب الفلك (تك ٦: ١٦)، حتى تدخل منه الحيوانات لكي لا تهلك من الطوفان، والتي كانت تشير إلى الكنيسة. لهذا خُلقت المرأة الأولى من جنب الرجل وهو نائم (تك ٢: ٢٣) ودُعيت الحياة (حواء) وأم كل حي (تك ٣: ٢٠)... أحنى آدم الثاني هذا رأسه ونام على الصليب حتى تتشكل العروس مما يصدر عن جنب النائم... أي شيء أطهر من مثل هذا الدم؟ أي شيء يهب صحة أكثر من هذا الجرح؟[4]

القديس أغسطينوس

"والذي عاين شهد،
وشهادته حقٌ،
وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم". [٣٥]

---

[1] *Concerning Virgins 3: 5 (22).*
[2] *Hom. 85. PG. 59: 507.*
[3] *Letter 69 to Oceanus, 6.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 120: 2.*

"لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل:

عظم لا يُكسر منه". [٣٦]

بقوله هذا يشهد القديس يوحنا أنه عاين ذلك بنفسه، وأن ذلك حدث معجزيًا. وقد أشار إلى ذلك لأن الإنجيليين الآخرين لم يشيروا إلى هذا الحدث، وهو يؤكد حقيقة موته.

لقد تم الكتاب حسب الوعد الذي قُدم لكل الأبرار كإشارة لما يتحقق مع يسوع البار (مز ٣٤: ٢٠) أن الله يحفظ كل عظامه، وواحدة منها لا تنكسر. ويقول داود بالروح: "كل عظامي تقول: يا رب من هو مثلك؟" (مز ٣٥: ١٠). هذا وقد مُنع اليهود من كسر عظمة من عِظام خروف الفصح (خر ١٢: ٤٦؛ عد ٩: ١٢). فالمسيح فصحنا ذُبح لأجلنا (١ كو ٥: ٧)، إنه حمل الله (يو ١: ٢٩)، لذلك لا تُكسر عظامه.

تشير العظام في العبرانية إلى قوة الجسم، بكونها تكَّون الهيكل العظمي للإنسان. فعدم كسر عظامه يرمز إلى أن السيد المسيح وإن كان قد قَبِلَ أن يصلب كما في ضعفٍ، لكن في ضعفه قوة. فالخطية تكسر عظامنا وتنزع عنا قوتنا، لذا يقول المرتل داود في مزمور التوبة: "تبتهج عظامي المنسحقة" (مز ٥١: ٨). لكن الخطية لم تقدر أن تكسر أو تسحق عظام المسيح، إنما وقف بثبات يحمل ثقل خطايانا حتى يخلصنا منها.

❖ لقد تمت تلك النبوة، إذ لم يكسر اليهود للسيد المسيح عظمًا، وأن هذا القول قيل في وصف الخروف عند اليهود، إلا أن الرسم حاضر من أجل الحق، وفي هذا خرج أكثر وضوحًا، ولهذا السبب اقتاد البشير ذكر ما قاله الكتاب إلى وسط كلامه.

❖ يعلن القديس يوحنا بصوتٍ عالٍ عن الأسرار اللازمة مقدمًا، وإذ رأى الكنز ملقيًا فيها كان دقيقًا بخصوص ما حدث وكيف تحققت النبوة أيضًا... "عظمة واحدة منه لا تنكسر" (راجع خر ١٢: ٤٦؛ مز ٣٤: ٢٠). فإن هذا قد قيل بخصوص حمل اليهود، وذلك من أجل الحقيقة التي سبق فتنبأ عنها الرمز، ففيه تحققت النبوة بأعظم كمالٍ. لهذا فإن الإنجيلي قدم النبي. وإذ هو يقدم نفسه على الدوام كشاهدٍ ربما يبدو أن شهادته غير موضع ثقة جلب موسى (كشاهدٍ) وقال أن ما حدث لم يكن بغير هدفٍ، بل سبق فكُتب عنه قبلاً في القديم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *Hom. 85. PG 59: 507- 508.*

"وأيضًا يقول كتاب آخر:

سينظرون إلى الذي طعنوه". [٣٧]

تم قول الكتاب أيضًا بخصوص طعنه بالحربة، إذ جاء في سفر زكريا النبي ينظر إليه الذين طعنوه وينوحون (١٢: ١٠؛ رؤ ١: ٧)، وأنه جُرح في بيت أحبائه (زك ١٣: ٦).

❖ سيتطلع هؤلاء البؤساء إلى الذي سخروا به، إذ رأوه معلقًا على الصليب الثمين. سيروه متوجًا بالمجد الإلهي، وسينحدرون إلى هوة الدمار في مجازاة عادلة على شرهم من نحوه[1].

القديس كيرلس الكبير

❖ مرة أخرى يثبت كلمات النبي بشهادته هو.

أخبرتكم بهذه الأمور لتتعلموا العلاقة العظيمة بين الرمز والحقيقة. ألا ترون بأي اجتهاد أخذ هذه الأمور لكي يؤمنوا من خلال ما يبدو خزيًا وعارًا؟

إهانة الجندي للجسم الميت كانت أشر من صلبه... لكن ولا خلال العار يقدر أحد أن يؤذى قضيتنا. فإن ما يبدو خزيًا عظيمًا للغاية هو نفسه سجل مهيب للغاية عن الأمور الصالحة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٩. دفنه

"ثم أن يوسف الذي من الرامة،

وهو تلميذ يسوع ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود،

سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع.

فأذن بيلاطس،

فجاء وأخذ جسد يسوع". [٣٨]

إذ كان الفصح اليهودي وشيكًا وجب التعجيل في الدفن. يظهر الإنجيلي عملية الدفن بطريقة مؤثرة كعملٍ وقورٍ، من صنع الإيمان والحب، التزم بها تلميذان ليسوع خفيّان.

كان يوسف الرامي تلميذًا للسيد المسيح، في ضعفه كان متخفيًا طوال خدمة السيد، لكن في اللحظات الحاسمة حيث عُلق جسد الرب على الصليب، في شجاعة انطلق إلى بيلاطس يستأذنه في

---

[1] *Comm. on St.Luke, Hom. 145, ch. 22.*

[2] *Hom. 85. PG 59: 508.*

أخذ الجسد، فنال كرامةً عظيمةً. رافقه في ذلك نيقوديموس الذي جاء ليلاً إلى السيد، والآن لا يخشى طرده من مجمع السنهدرين. لو لم يفعلا ذلك لقام العسكر بدفنه مع اللصين في قبرٍ قديمٍ، ولم تكن قيامته قد تأكدت، بل كان يمكن الادعاء بأن الذي قام شخص آخر.

❖ لم يكن يوسف هذا تلميذًا من الاثني عشر، لعله كان من السبعين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"وجاء أيضًا نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً،
وهو حامل مزيج مر وعود نحو مائة منا". [٣٩]

يُستخدم المزيج من المر والعود لحفظ الجسم مدة طويلة. يرى البعض أن المائة من المزيج يكفي لتطييب ٢٠٠ جسمًا من الراقدين. وقد ظنوا أن في ذلك خطأ في النسخ. لكن هكذا كانت العادة بالنسبة للشخصيات الهامة أو المحبوبة، فقد قيل عن جنازة أرسطوبولس *Aristobulus* أن كمية ضخمة من الأطياب أُستخدمت، وقيل أن ٥٠٠ خادمًا حملوا عودًا لتطييب جسد هيرودس في جنازته[1]. وأن ٨٠ رطلاً من الأطياب استخدمت في جنازة غمالائيل الكبير.

المن: وزن يوناني وروماني يساوى نحو مائة درهم.

❖ لديكم مر من أجل الدفن. وعصارة الصبر من أجل العبور إلى العالم السفلي، حيث كل نقطة تنحدر إلى اسفل، وقرفة لأجل تدبير الجسم على خشبة الصليب[2].

القديس باسيليوس الكبير

❖ رائحتك الأولى فوق كل الأطياب (نش ٤: ١٠)، هذه التي أُستخدمت في دفن المخلص (يو ١٩: ٣٩). تفوح الرائحة الذكية من إبادة ملذات الأعضاء. أما الرائحة الثانية فهي مثل رائحة لبنان (نش ٤: ١١) تطلق رائحة عدم الفساد الذي لجسد ربنا، زهرة العفة البتولية[3].

القديس أمبروسيوس

"فأخذا جسد يسوع،
ولفاه بأكفانٍ مع الأطياب،
كما لليهود عادة أن يكفنوا". [٤٠]

---

[1] *Josephus, b 15 c.3, s.4, b 17, c.8, s.c.*
[2] *Hom. 17, Ps. 44: 7, Exegetie Homilies in Fathers of the Church vol 46, p. 290.*
[3] *Concerning Virgins 1:7:39.*

❖ ماذا يعني أن يوسف ونيقوديموس يدفنان المسيح وليس التلاميذ؟

واحد منهما صالح وبار (لو ٢٣: ٥٠)، والثاني لا يُوجد فيه نفاق، فإن دفن المسيح يتحقق دون خداع أو شرٍ. فقد أغلق على أي بابٍ للمراوغة...

لو أن الرسل دفنوه لقال اليهود بكل تأكيد أن هؤلاء لم يدفنوه... لكن إنسانًا بارًا كفن جسم المسيح في كتانٍ ثمينٍ (مت ٢٧: ٥٩؛ لو ٢٣: ٥٣)، وإنسان غير مرواغ دهنه بالطيب، لذلك فإن هذا الأمر لم يتم بلا هدف، لأن البرّ يلبس الكنيسة، والبراءة تخدم النعمة.

لتغطوا جسد الرب (الكنيسة) بالثياب... ولتدهنوه بالمر والسليخة فيكون لها رائحة المسيح الذكية (٢ كو ٢: ١٥).

قدم يوسف كتانًا ثمينًا، ربما هو ما رآه بطرس نازلاً من السماء، وفيه كل أنواع الحيوانات كرمزٍ للأمم (أع ١٠: ١٢).

هكذا تُكفن الكنيسة التي ترتبط بتنويع من الشعب في شركة إيمانها بهذا الطيب النقي السري[1].

القديس أمبروسيوس

❖ أظن أنه ليس بدون هدف يقول: "**كما لليهود عادة أن يكفنوا**" [٤٠]، فإنه بهذا – إن كنت لا أخطئ – يحثنا على ممارسة مثل هذا الواجب من أجل الميت، حسب عادة كل أمة[2].

القديس أغسطينوس

"**وكان في الموضع الذي صلب فيه بستان،**

وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط". **[٤١]**

دُفن جسد المسيح في قبرٍ جديدٍ، كان قد أعده يوسف الرامي في بستان له خارج المدينة، قريب من موضع الصلب "الجلجثة"، ولم يكن يتوقع أنه سيكون قبرًا للسيد المسيح.

في بستان أحنى السيد المسيح رأسه ليسلم إرادته بين يدي الآب في مسرة ليحمل الصليب، وهناك أُلقي القبض عليه، وفي بستانٍ قام السيد المسيح ليعلن بآلامه وموته أنه غلب الموت ووهب القيامة. في البستان دُفنت حبة الحنطة التي تحدث عنها السيد المسيح (يو ١٢: ٢٤)، وأثمرت ثلاثين وستين ومائة. في البستان فجَّر السيد ينابيع الحياة (نش ٤: ١٥).

كان القبر جديدًا، وقد قام السيد والحجر موضوع عليه، فكما وُلد من البتول هكذا قام من قبر

---

[1] *Exposition,10: 136, 137.*

[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 120: 4.*

بتول. كل شيءٍ بالنسبة له كان جديدًا حتى القبر لكي يهبنا الحياة الجديدة.

❖ في هذا الفردوس غنيت لعروسي في نشيد الأناشيد: "قد دخلت جنتي يا أختي العروس" (نش ٥: ١)، فقد **كان مكان الصلب بستانًا**. ماذا أخذ من هناك؟ " قطفت مري مع طيبي، إذ شرب المر مع الخل، وبعد ذلك قال: "قد أُكمل". لأن السرّ تم، والمكتوب تحقق، والآثام غُفرت. "لأن المسيح وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة، فبالمسكن الأعظم والأكمل غير المصنوع بيدٍ، أي الذي ليس من هذه الخليقة، وليس بدم تيوس وعجول ولكن بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءًا أبديًا. لأنه إن كان بدم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنجسين يقدس إلى طهارة الجسد، فكم بالأحرى يكون دم المسيح؟!" (عب ٩: ١١-١٤)[١].

❖ يعود فيقول في نشيد الأناشيد "نزلت إلى جنة الجوز" (نش ٦: ١١)، إذ صلب السيد في البستان. فإنه وإن كان الموضع الآن مزينًا بالهبات الملكية لكنه كان قبلاً بستانًا، ولا تزال العلامات والآثار قائمة. إنه "جنة مغلقة وينبوع مختوم" (نش ٤: ١٢). قيل هذا عن اليهود، هؤلاء الذين قالوا: "تذكّرنا أن ذلك المضل قال وهو حيّ إني بعد ثلاثة أيام أقوم، فمرْ أن يُضبط القبر" وعلى هذا "مضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر" (مت ٢٧: ٦٣، ٦٥)[٢].

❖ في بستان كان دفنه، حيث زُرعت هناك كرمة، إذ قال عن نفسه: "أنا هو الكرمة" (يو ١٥: ١). لقد زُرع في الأرض لكي يقتلع اللعنة التي حلّت بسبب آدم حيث سُلِّمت الأرض للشوك والحسك. لقد طلعت الكرمة من الأرض ليتم القول: "الحق من الأرض أشرق، والعدل من السماء اطلع" (مز ٨٤: ١٠).

وماذا يقول ذاك المدفون في البستان؟ "قطفتُ مرّي مع طيبي" (نش ٥: ١) وأيضًا: "مرّ وعود مع كل أنفس الأطياب" (نش ٤: ١٤). وهذه هي علامات للدفن، إذ جاء في الأناجيل "أتين (النسوة) إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه" (لو ٢٤: ١). "وأحضر نيقوديموس أيضًا خليطًا من مرّ وعود" (يو ١٩: ٣٩)، ومكتوب أيضًا "أكلت خبزي (شهدي) مع عسلي" (نش ٥: ١). إذ أكل المُر من قبل الصليب والعسل بعد القيامة[٣].

---

[١] مقال ١٣: ٣٢.

[٢] مقال ١٤: ٥.

[٣] مقال ١٤: ١١.

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ كما أنه لم يحبل بأحد من قبله أو بعده في رحم العذراء مريم، هكذا لم يُدفن أحد في هذا القبر قبله أو بعده[1].

القديس أغسطينوس

"فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود،
لأن القبر كان قريبًا". [٤٢]

لم تقم خدمة جنازة للسيد المسيح، لأنه مات مصلوبًا، مرفوضًا من خاصته. ولم يكن يوجد وقت لأنه كان يلزم دفنه سريعًا قبل الغروب. دُفن شمس البرِّ مع غروب الشمس، ولم يكن ممكنًا للقبر أن يحبس نوره، ولا للظلمة أن تسيطر عليه. حرسه الجند لئلا يقوم فيعلن وفاء ديننا وقبول ذبيحته عنا، ويبررنا أمام الآب، لكن صارت الحراسة شهادة حقيقية عن قيامته.

واضح من هذا التصرف أنه لم يكن موضوع قيامته في ذهن أحد بالرغم من الإشارات المستمرة إليها قبل صلبه. وتم الدفن هكذا بسبب ضيق الوقت مع عدم الإعداد بمقبرة خاصة به، كما لم يفكر أحد في دفنه في مقابر الأسرة، ربما لأن الغروب قد اقترب جدًا، ومن الصعب التدبير بين الأسرة للدفن في ظروف مرة كهذه. هذا من الجانب البشري، أما من جهة التدبير الإلهي فكان كل شيء معدًا بتدبيرٍ عجيبٍ سبق فأعلن عنه إشعياء النبي قبل ذلك بأكثر من ٧٠٠ عامًا حيث قال عنه أنه مع غني يكون قبره (إش ٥٣: ٩).

❖ دبر أن يوضع جسد السيد المسيح في قبر جديد لم يكن قد وضع فيه أحد، حتى لا يُظن أن القيامة صارت لآخر موضوع معه، **وحتى يتمكن تلاميذه من أن يجيئوا ويعاينوا ما يحدث، لأن القبر كان قريبًا.**

القديس يوحنا الذهبي الفم

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 120: 5.*

من وحي يوحنا ١٩

معك أُدان، ومعك أُصلب!

❖ اقتادوك إلى المحاكمة، وأنت ديان الكل!
تقدست المحكمة بوجودك،
وصار قبول الظلم حبًا فيك وفي أولادك لذة لنفسي!
صمت أمام بيلاطس، فاضطرب.
أعلنت له عن ملكوتك، أنه ليس من هذا العالم،
فاشتاق أن يعرف من أنت.
أطلقوا باراباس اللص،
وصُلبت أنت أيها البار.
نعم، فتحت باب السبي،
وأطلقت نفسي من الحبس.

❖ لأخرج معك إلى الجلجثة.
أجد في عمل صليبك كرامة لا استحقها.
أتطلع إلى إكليل الشوك،
فأراك تعد لنفسي إكليل مجدٍ أبدي.

❖ صار طريق الجلجثة طريقًا ملوكيًا،
من يستحق أن يعبر فيه،
ليدخل معك إلى مجدك السماوي؟

❖ حملت خشبة الصليب لكي تحمل كل البشرية المؤمنة فيك.
في حبك العجيب عطشت إلى كل البشرية،
سقوك خلاً، لكي تسقينا من نهر الحياة في أورشليم العليا.
أحنيت رأسك، وسلمت روحك في يد أبيك،
لكي ترفع رؤوسنا أمام أبيك،
وتمجد نفوسنا مع أجسادنا!

❖ جُرحت بالحربة، فأفاض جنبك لي دمًا وماء!
بدمك تقدست بكليتي،
وخلال الماء تهبني روح البنوة للآب.

❖ في صلبك أُحصيت مع أثمة،
لكي تعلن أنك مخلص الخطاة.
وفي موتك دُفنت في قبر غني،
أنت محب الخطاة لكي تبررهم،
أنت تضم الفقراء والأغنياء.
أنت محب للجميع.

❖ في بستان دفنوك،
لأن في البستان مات آدم الأول،
وفي البستان تتقدم فترد لنا الحياة من جديد.

الباب الخامس

قيامته تشهد للاهوته

ص ٢٠

الأصحاح العشرون

القيامة: اليوم الأول والثامن معًا

المسيح القائم من الأموات

إن كان القديس يوحنا بدأ إنجيله مختلفًا تمامًا عن بقية الأناجيل الإزائية الثلاثة، معلنًا ميلاده الأزلي بكونه كلمة الآب الواحد معه، فإنه ختم السفر كبقية الأناجيل بالحديث عن قيامة المسيح. لأن قيامة المسيح تمثل عصب العمل الخلاصي، فقد سبق وتحدث عنها أكثر من مرة، وقدّم آية يونان النبي في جوف الحوت مثالاً لدفنه وقيامته (مت ١٢: ٤٠).

لم يشرح لنا أحد من الإنجيليين كيف قام، لكن ما شغل ذهنهم تأكيد قيامته بكل وسيلة حتى يقتنع الكل بها. وبقدر ما أكد التلاميذ والرسل قيامته قاومها غير المؤمنين، لأن قيامته تعني تأكيدًا أنهم ارتكبوا جريمة قتل للمسيا واهب الحياة. القيامة تؤكد العمل الخلاصي، فإن كان قد ذُبح لأجلنا، فقيامته تؤكد قبول الذبيحة. وإن كان قد صُلب من أجل ديوننا، فقيامته تعلن وفاء الدين. ليس من أمر شغل أذهان الكارزين مثل تأكيد قيامته، لأنه صُلب علانية أمام الشمس التي انكسفت أمام الحدث، وقام ليظهر لخاصته ومُحبّيه المخلصين في طلب خلاصهم.

أبرز كل إنجيلي جانبًا من أحداث القيامة يختلف عن الجوانب التي أبرزها غيره من الإنجيليين. فما رواه الإنجيلي يوحنا لم يرد في الأناجيل الأخرى. لم يذكر الإنجيلي يوحنا قصة لوقا البشير عن لقاء السيد المسيح مع التلميذين اللذين كانا في طريقهما إلى عمواس؛ ولا ما رواه متى البشير عن لقاء المسيح مع بعض النسوة وهن ذاهبات من عند القبر، ولا إلى ما أشار إليه مرقس البشير عن الشاب الذي بثوب أبيض أخبر النسوة أن يروا يسوع في الجليل.

١. السحر: القبر الفارغ ١–١٠.

٢. صباحًا: مريم المجدلية والملاكان ١١–١٣.

٣. صباحًا: لقاء المجدلية مع المسيح ١٤–١٨.

٤. لقاؤه مع تلاميذه الأحد مساءً ١٩–٢٥.

٥. لقاؤه معهم في الأحد التالي ٢٦–٢٩.

٦. الغاية من الإنجيل ٣٠–٣١.

١. السحر: القبر الفارغ

"وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا،
والظلام باقٍ،
فنظرت الحجر مرفوعًا عن القبر". [١]

أورد القديس يوحنا مواقف كثيرة لنساء لهن دورهن القوي، ففي بدء الآيات تظهر القديسة مريم أم يسوع شفيعة عن الحاضرين في عرس قانا الجليل. وفي الأصحاح الثاني يلتقي السيد المسيح مع المرأة السامرية التي جذبت مدينة سوخار بأكملها لتتمتع بشخص السيد المسيح بعد أن أعلن السيد لها عن نفسه. وفي حادثة إقامة لعازر (ص ١١) كان حضور الشقيقتين مريم ومرثا بارزًا. والآن تظهر مريم المجدلية بأمانتها الداخلية العجيبة. جاءت إلى القبر والليل باقٍ، مدفوعة بحبها الشديد لذاك الذي كان في ذلك الحين غائبًا عنها. السبب العميق لحضور مريم المجدلية هنا يبدو أنه حزنها الشخصي المفرط، وإحساسها بالغياب النهائي الذي يعينه القبر على الدوام. إنها أول من رأى الحجر مرفوعًا عن القبر. لقد أراد الرب أن تشهد بأن رافع خطية العالم (يو ١: ٢٩) قد قام، وإن الحجاب الأخير قد رُفع.

كلمة مجدلية *Magdalene* هي مؤنث لكلمة مجدلة *Magdala*. فتعبير مجدلية يعني "مريم التي من مجدلة". يذكر التلمود أنه كانت توجد مدينة باسم مجدلة حوالي ٢٠ دقيقة سيرًا على الأقدام من طبرية (بحر الجليل) من الجانب الغربي. كلمة "مجدلية" تعني "برجًا". وبالفعل كان في المنطقة برج أعطى لها هذا الاسم، ربما كان برجًا للحراسة.

اكتفى الإنجيلي يوحنا بالقديسة مريم المجدلية ولم يشر إلى النسوة اللواتي ذهبن معها، ربما لأنها كانت متحمسة جدًا لزيارة القبر، فقد تمتعت بمحبة السيد. التصقت به في حياته وخدمته من مالها (لو ٨: ٢–٣)، واستمعت إلى عظاته. كانت محبتها قوية كالموت، إذ وقفت بجوار السيد المسيح حتى موته على الصليب، وجاءت إلى القبر دون أية اعتبارات لما تواجهه من مصاعب، فحبها للسيد المسيح نزع عنها كل خوفٍ من الموت أو من القبر. جاءت إلى القبر لتبكيه بمرارة، وتسكب طيبًا وحنوطًا على جسمه. مريم المجدلية التي التصقت بالسيد المسيح حتى آخر لحظات الدفن تمتعت بأول أخبار القيامة المفرحة المجيدة: القبر الفارغ!

جاءت مريم المجدلية إلى القبر **في أول الأسبوع**، أي ما أن عبر سبت العهد القديم حيث لا يجوز الذهاب إلى القبر، إن نُفذ الناموس حرفيًا حتى جاء السبت الجديد، أول سبت في العهد الجديد، حيث

قام السيد المسيح. صارت مريم ممثلة للكنيسة التي تتمّم ناموس المسيح فتحتفل بالسبت الجديد خلال الانطلاق إلى قبر السيد لتتمتع بشركة قيامته. يبدأ الإنجيل هنا باليوم الأول من الأسبوع الجديد، فيفتح أمامنا زمنًا آخر كليًا، يُعلن فيه عن حياة جديدة مُقامة وعالم جديد. منذ ذلك الوقت اتخذ المسيحيون يوم الأحد يوم راحة تذكارًا لقيامة السيد المسيح، وُسمي يوم الرب (رؤ ١: ١٠).

جاءت إلى القبر باكرًا، فالحب يدفع المؤمن للقاء مع القائم من الأموات في أول فرصة ممكنة، باكرًا دون تراخٍ أو تأجيل. جاءت والظلام باقٍ حيث أمكن لنور شمس البرّ أن يشرق في داخلها، وينير لها طريق القبر الفارغ الشاهد لمجد قيامة المسيح. كان الظلام لا يزال باقيًا، لكن الحب أضاء لها الطريق.

"**فنظرت الحجر مرفوعًا عن القبر**"، انشغالها بالسيد المسيح نزع عنها التفكير في رفع الحجر لتقديم الحنوط (مر ١٦: ١؛ لو ٢٤: ١)، وفي نفس الوقت إذ جاءت ووجدت الحجر مرفوعًا والقبر فارغًا لم تُدرك في الحال أنه قام، بل ظنّت أن الجسد قد أُخذ من القبر [٢]. لقد أراد الرب أن تتمتع بأخبار القيامة تدريجيًا.

❖ قام وكان الحجر موضوعًا والأختام عليه، ولكن لكي يتأكد الآخرون تمامًا كان من الضروري فتح القبر بعد القيامة، وهذا ما قد حدث. هذا ما دفع مريم للتحرك. فإذ كانت مملوءة حبًا نحو سيدها، إذ عبر السبت لم تحتمل أن تهدأ فجاءت باكرًا جدًا، مشتاقة أن تجد نوعًا من التعزية في المكان. وإذ رأت الموضع، والحجر مرفوعًا لم تدخل، ولا انحنت، بل رجعت نحو التلاميذ في شوقٍ عظيمٍ، فإن هذا هو ما كانت تبغيه بغيرة. لقد أرادت بسرعة فائقة أن تعلم ماذا حدث للجسد. هذا هو معنى ركوضها وكلماتها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

فركضت وجاءت إلى سمعان بطرس،
وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه،
وقالت لهما:
أخذوا السيد من القبر،
ولسنا نعلم أين وضعوه". [٢]

إذ ركض التلميذان نحو القبر لم يكن ممكنًا لمريم المجدلية أن تلحق بهما، فجاءت إلى القبر غالبًا

[1] *Homilies on St. John, 85:4.*

وهما هناك، وربما بعد رحيلهما. هناك وقفت تبكي حيث تمتعت برؤية الملاكين لتعزيتها.

ركضت سريعًا إلى سمعان بطرس ويوحنا، ولعلهما أقاما عند حدود المدينة بالقرب من القبر، لذا انطلقت بسرعة إليهما. لم يخطر على ذهنها أنه قام كما قال، مع أن لمسات القيامة واضحة، والشهادة قوية. ربما ظنّت أن رئيس الكهنة قد أمر بأخذ الجسد إلى موضع آخر كنوعٍ من الإهانة، لأن القبر كان فارغًا، أو ربما خشي يوسف الرامي ونيقوديموس من اليهود أن يثوروا ضدهما فحملاه إلى قبر آخر.

جاءت إليهما تطلب البحث عن جسد المسيح؛ فإنها لم تنحصر في الحزن على موته، إنما تطلب أن ترى جسده حتى بعد موته لتقدم علامات حبها بتطييبه.

والعجيب أن بطرس ويوحنا قد التصقا ببعضهما البعض. جحود بطرس أعطاه تواضعًا، لكن في غير يأسٍ، بتوبته ودموعه عاد للشركة مع يوحنا والعمل معه، ويوحنا في حب لم يستنكف من الالتصاق بذاك الجاحد مادام قد قدم توبة.

يرى البعض أن مريم المجدلية ركضت إلى بطرس ويوحنا بينما ذهبت النسوة إلى بقية التلاميذ يخبرونهم بما حدث.

❖ ذهبت والدة الإله إلى القبر حيث التقت مع النسوة الباقيات... بكونها الثيؤتوكس أدركت وحدها قوة الكلمات الملائكية – إذ سمعت مع مريم المجدلية الأخبار السارة الخاصة بالقيامة – عندما التقت بابنها وإلهها مع بقية النسوة، لقد رأت القائم من الأموات وتعرفت عليه قبل كل النسوة. سقطت ولمست قدميه، وصارت رسولاً لرسله[1].

الأب غريغوريوس بالاماس

"**فخرج بطرس والتلميذ الآخر، وأتيا إلى القبر**". **[٣]**

أسرع كلاهما إلى القبر قدر المستطاع ليتحققا الخبر، ويتأكدا شخصيًا، ويبحثا عن جسد السيد المسيح.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن القديسة مريم المجدلية وإن لم تكن بعد تفكر بوضوح في القيامة، بل ظنت أن الجسد قد أُخذ، إلا إن الإنجيلي يوحنا لم يحرمها من المديح عما فعلته. ولا حسب في ذلك عارًا على التلاميذ أنهم تلقنوا المعرفة الأولى بخصوص هذا الأمر من المرأة التي

[1] *Homily on the Sunday of the Myrrh- bearing Women. PG 151: 244 CD, 245.*

قضت الليل كله في شوقٍ وسهرٍ لرؤية جسد السيد المسيح[1].

يكشف الإنجيلي عن درجات نرتقي بها إلى معرفة القيامة وفهمها. ابتدأ أولاً بالصدمة الأولى المباشرة التي تلقتها مريم المجدلية لدى اكتشافها القبر فارغًا. والآن رأى يوحنا وتلامس مع ما سبق أن أعلنه السيد المسيح نفسه "أنه ينبغي أن يقوم من الأموات".

"**وكان الاثنان يركضان معًا،**

فسبق التلميذ الآخر بطرس،

وجاء أولاً إلى القبر". **[٤]**

كان الاثنان يركضان معًا، فما سمعاه من مريم المجدلية لم يسببا لهما حالة إحباط، إذ لم يكن في أيديهما ما يعملاه، لكن على العكس أراد أن يعملا بسرعة من أجل راحتها، ولاكتشاف حقيقة الأمر. انطلقا معًا، ولم تكن هناك مزاحمة بين الصديقين عمن يدخل القبر أولاً. وإن كان يوحنا لصغر سنه سبق بطرس، فالعمل مشترك، مما شجع الواحد الآخر للانطلاق إلى القبر، ولم يعق الواحد الآخر، بل كان كل منهما يسرع قدر طاقته. لم يحسد بطرس يوحنا لأنه أسرع منه، ولا احتقر يوحنا بطرس لأنه أبطأ منه. **وإن كان بطرس قد تاب، لكن إنكاره للسيد وشعوره بالذنب أبطأ من حركته نحو القبر، دون أن يحرمه من التمتع بالقائم من الأموات.** هذه هي الصداقة الروحية الجادة، التي تحمل روح العمل الجماعي دون إعاقة الواحد للآخر. وكما يقول الحكيم: "اثنان خير من واحدٍ، لأن لهما أجرة لتعبهما صالحة" (جا ٤: ٩).

يرى البعض أن مريم المجدلية انطلقت إلى التلاميذ بعد أن رأت هي ومن معها من النسوة الملاك، وقد أخبرهن عن القيامة. لكن مع دهشة الموقف لم تخبر التلاميذ بما قاله الملاك، فإن كل ما كان يشغلها أن تجد جسد السيد المسيح أو تلتقي معه. وربما بدا لها رؤيتها للملاك وحديثه معهن أشبه بحلمٍ أو خيال. ولم يتحرك من التلاميذ سوى بطرس ويوحنا[2].

"**وانحنى فنظر الأكفان موضوعة،**

ولكنه لم يدخل". **[٥]**

لم يدخل يوحنا لأنه وثق أن ما قالته مريم المجدلية حقيقة وهو أن الجسد غير موجود. وتأكد من مجرد النظر إلى القبر الفارغ. لكن ما أن دخل بطرس حتى تبعه هو أيضًا ورأى وآمن بأن الجسد

---

[1] *Homilies on St. John, 85:4.*
[2] *Cf. Adam Smith: Comm. On John 21:2.*

غير موجود بالقبر.

"ثم جاء سمعان بطرس يتبعه،
ودخل القبر،
ونظر الاكفان موضوعة". [٦]

اقتربا ونظرا الأكفان الكتانية موضوعة بنظامٍ وترتيبٍ، وهي علامة القيامة، فإنه لا ينزع أحد الأكفان من كان في نيته سرقة الجسد أو نقله. لأن السارق لن ينشغل بترتيب الأكفان، والذي ينقل الجسد لا يعرّيه. فلو كان البعض سرقوا الجسد فهل يربكون أنفسهم بنزع المنديل ويضعونه ملفوفًا في موضع آخر؟ ما حدث حتمًا لم يتم خلال نابشي القبور أو سارقي الجثث.

❖ انحنى يوحنا ليرى، أما بطرس فدخل ونظر الأكفان الكتانية موضوعة لم يستفسر فورًا بل توقف. أما الغيور فدخل أكثر وانحنى يتطلع في كل شيءٍ بدقة ونظر أمرًا أكثر، عندئذٍ دعا الآخر لكي ينظر، إذ دخل بعد بطرس ورأى الأكفان موضوعة والمنديل في موضع وحده[1].

❖ كان لابد أن يأخذوه كما هو. لهذا السبب يخبرنا الإنجيلي يوحنا مسبقًا أنه دفن بمرٍ كثيرٍ، هذا يجعل الأكفان تلتصق بالجسد، ليس بأقل من الرصاص. هكذا عندما تسمعون أن المنديل في موضع وحده لا تسلكون كالقائلين بأنه سُرق. فاللص لا يمارس تصرفًا لا حاجة إليه. فإنه لماذا ينزع الأكفان ويزيل المنديل؟ بجانب هذا كيف يمكنه أن يهرب من اكتشاف أمره إن قضى وقتًا طويلاً في فعل هذا؟ فسيُقبض عليه خلال التأخير والتواني. بل ولماذا توضع الأكفان الكتانية منفصلة والمنديل وحدها ملفوفة؟ لكي تتعلموا أن التصرف لم يحدث في تسرع أو بطريقة صاخبة[2].

❖ إن قلت: فما الغرض في أن "المنديل الذي كان على رأسه ليس موضوعًا مع الأكفان بل ملفوفًا في موضع وحده"؟! أجبتك: لتعلم أن هذا الفعل ما كان فعل من كان مسرعًا ولا مضطربًا، فمن هذا الفعل صدقوا قيامته.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لو أن الأعداء سرقوا الجسد، فمن أجل المكسب المادي ما كانوا قد تركوا الأكفان. لو أن الأحباء

---

[1] *Hom. 85. PG 59: 510.*
[2] *Hom. 85 PG 59: 509- 510.*

فعلوا هذا لما سمحوا بتعرية الجسد وأهانته... هذا يظهر بالأحرى إن الجسد وقد عبر إلى الخلود لا يحتاج إلى ملابس في المستقبل[1].

القديس أمونيوس الإسكندري

"والمنديل الذي كان على رأسه ليس موضوعًا مع الأكفان،
بل ملفوفًا في موضعٍ وحده". [٧]

ترك السيد المسيح الأكفان والمنديل الذي كان على رأسه ملفوفًا داخل القبر، فإنه قام ولا يعود يموت ليُكفّن مرة ثانية. لقد **التحف جسده بثوب مجده تاركًا ثياب العالم التي تُبلى داخل القبر**. ففي الفردوس لا نحتاج إلى ثيابٍ كما على الأرض، إذ نلتحف ببرّ المسيح ونشاركه مجده. عندما صعد إيليا في مركبة نارية منطلقة إلى السماء سقط ثوبه لأنه ليس في حاجة إليه.

لنترك مع المسيح أكفان القبر خلفنا، إذ نحمل عربون عدم الفساد عوض الفساد الذي حلّ بنا.

ترك لنا السيد المسيح الأكفان في القبر موضوعة بنظام، والمنديل الذي كان على رأسه في موضع وحده، **حتى يجد كل مؤمن متى انطلق إلى القبر فراشًا أعده له الرب بأكفانه الثمينة، ويجد منديله يمسح الدموع التي سكبها في جهاده في العالم.**

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على ترك الأكفان والمنديل في القبر بأن مسيحنا المصلوب يحثنا ألا نبالغ في الأكفان عند دفن موتانا، فإن جسم الميت سيقوم في مجدٍ بهيٍ لا يحتاج إلى ثيابٍ فاخرة!

❖ يا لعظمة قوة المصلوب! إنه يحث الذين يهلكون (جسديًا) بأن الموت ليس موتًا. فلا يعملون كأناسٍ هالكين، بل كأناسٍ يبعثون بالميت الذي أمامهم إلى موضعٍ بعيدٍ ومسكنٍ أفضل. يحثهم على أن هذا الجسم الأرضي الفاسد سيرتدي ثوبًا أكثر مجدًا من الحرير والثياب المذهبة، يرتدي ثوب عدم الفساد، لذا يليق بهم ألا يرتبكوا بخصوص دفنهم، بل يحسبوا الحياة الفاضلة هي ثوب كالنسيم العجيب...

❖ أي عذر لنا إن كنا نزين جسمًا يُستهلك بالفساد والدود، ونهمل المسيح وهو عطشان ويسير عاريًا وغريبًا؟ لنكف إذن عن هذا التعب الباطل. ليتنا نتمم جنازات الراقدين بما فيه لصالحنا وصالحهم لمجد الله، لنكثر من العطاء لأجلهم. لنبعث معهم زادًا في الطريق... لنبعث بالراقد إلى القبر وهو

[1] *Leon Morris, p. 692.*

بهذه الثياب (التي للعطاء) فيكون المسيح ميراثًا له[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فحينئذٍ دخل أيضًا التلميذ الآخر الذي جاء أولاً إلى القبر،
ورأى فآمن". [٨]

لقد سبق يوحنا بطرس في ركضه نحو القبر، لكن بطرس سبقه في الجرأة، إذ دخل القبر بنفسه كمن يبحث عن الجسد، ويتحقق الأمر من كل جوانبه. يتسم البعض بالحركة السريعة، والآخرون بالجرأة أكثر من غيرهم، والكل يسند بعضهم البعض خلال المواهب والقدرات المتباينة. سرعة يوحنا شجّعت بطرس على الحركة بأكثر سرعة، وجسارة بطرس شجّعت يوحنا على الدخول في القبر. بطرس رأى وتعجب (لو ٢٤: ١٢)، ويوحنا رأى وآمن (يو ٢٠: ٨).

موت السيد المسيح بالجسد ودفنه في قبرٍ نزع عنا الخوف من الموت والقبر، فإنه سيحل بنا الموت قريبًا ونُوضع في قبر. لذا يليق بنا أن نردد مع أيوب البار: "قلت للقبر أنت أبي، وللدود أنت أمي" (أي ١٧: ١٤).

"لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب،
أنه ينبغي أن يقوم من الأموات". [٩]

يعلل الإنجيلي يوحنا بطئه هو وبطرس في الإيمان بعدم معرفتهما العميقة للنبوات، كانا في حاجة أن يفتح اللَّه ذهنيهما ليفهما الكتب، كما حدث مع تلميذي عمواس (لو ٢٤: ٤٤-٤٥). لم يدرك التلاميذ ما تنبأ عنه المرتل: "لأنك لن تترك نفسي في الهاوية، ولن تدع تقيَّك يرى فسادًا" (مز ١٦: ١٠). ولا فهموا ما قاله السيد المسيح عن تحقيق آية يونان بقيامته (مت ١٢: ٤٠).

لم يقل الإنجيلي: "أنه يقوم من الأموات"، وإنما "**ينبغي أن يقوم من الأموات**". فالقيامة كانت من جانب هي جزء حيوي رئيسي في خطة الله لخلاصنا وتبريرنا، لذلك تحقيقها كان أمرًا ضروريًا, ومن جانب آخر لم يكن ممكنًا للسيد المسيح القائل: "أنا هو القيامة" أن يحبسه الموت، أو يقبض عليه القبر!

"فمضى التلميذان أيضًا إلى موضعهما". [١٠]

عادا إلى الموضع الذي كان التلاميذ يجتمعون فيه، خاصة بعد الصلب، وليس إلى منازلهما، لأنه

[1] *Homilies on St. John, 85:6.*

لم يكن لهما منزل في أورشليم. عادا إلى التلاميذ لا للكرازة بالقيامة، ولا لتأكيد أنهما لم يجدا جسد السيد، وإنما غالبًا ما خشيا من الأحداث القادمة. لأنه لم يكن ممكنًا لهما أن يتوقعا ما سيفعله قادة اليهود حين يكتشفوا عدم وجود الجسد في القبر. عادا إلى إخوتهما ينتظرا ما سيعلنه اللَّه. حتمًا تحدثا مع التلاميذ عما حدث، وقرر الكل أن يجتمعوا معًا في العُلّية في مساء ذات اليوم، حيث ظهر لهم السيد المسيح، ولم يكن توما حاضرًا معهم. كان لابد للتلاميذ أن يجتمعوا خاصة وأن ملاكين ظهرا لمريم المجدلية، بينما لم يظهر ملاك لبطرس ويوحنا.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنهما ذهبا أولاً في دهشة، كل إلى بيته، حيث بدأت القيامة تتجلى أمامهما، ثم عادا فاجتمعا ببقية التلاميذ حسب أمر السيد.

٢. صباحًا: مريم المجدلية والملاكان

"أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجًا تبكي،

وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر". [١١]

بينما انطلق التلميذان إلى إخوتهما التلاميذ بقيت مريم المجدلية عند القبر تبكي. لم يكن ممكنًا لها أن تفارق القبر حتى ترى جسد السيد المسيح.

بالحب تلتصق النفس بالسيد المسيح، وتود أن تتعرف على أسراره وتراه. فيما هي تبكي انحنت إلى القبر تنظر. لقد تأكدت أن الجسد ليس بالقبر، ودخل التلميذان وتأكدا، لكن حبها له جعلها بين الحين والآخر تتطلع منحنية نحو القبر لعلّه يوجد ما يعزّيها!

❖ الجنس النسائي إلى حدٍ ما مملوء بالمشاعر، ويميل بالأكثر نحو الحنو. أقول هذا لئلا تندهشوا كيف أمكن لمريم أن تبكي بمرارة عند القبر، بينما لم يحمل بطرس عاطفة! إذ قيل: "**فمضى التلميذان إلى بيتهما**"، أما هي فوقفت تزرف الدموع. ذلك لأن طبيعتها ضعيفة، ولم تكن بعد قد أدركت بدقه موضوع القيامة. أما هما فإذ شاهدا الأكفان الكتانية آمنا ورحلا إلى منزليهما في دهشة. ولماذا لم يذهبا فورا إلى الجليل كما أمرهما السيد قبل الآلام؟ ربما لأنهما انتظرا الآخرين، كما كانا في قمة الدهشة. هذان إذن ذهبا في طريقهما، أما هي فوقفت في الموضع. وكما قلت فإن مجرد التطلع إلى القبر وهبها تعزية عظيمة...

على أي الأحوال لقد نالت مكافأة ليست بقليلة بسبب غيرتها العظيمة. فما لم ينظره التلميذان رأته هذه المرأة أولاً. نظرت ملاكين جالسين، واحد عند القدمين، والآخر عند الرأس، في ثيابٍ بيضٍ، حتى

ثيابهما كانت مملوءة تألقًا وبهجة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فنظرت ملاكين بثيابٍ بيضٍ جالسين،
واحدًا عند الرأس،
والآخر عند الرجلين،
حيث كان جسد يسوع موضوعًا". [١٢]

بعد انصراف التلميذين، في ذات اليوم بعد طلوع الشمس على الأرجح، عادت مريم وحدها، وكانت لا تزال تبحث عن الغائب عنها، ولم تكن حالتها النفسية قد تغيرت إذ انحنت إلى القبر وهي تبكي، فقدم لها القبر إعلانًا آخر، إذ رأت ملاكين بثيابٍ بيضٍ جالسين، واحدًا عند الرأس والآخر عند الرجلين. كأنهما كانا يقيسان جسده لا بمقاييس العالم بل بمقاييس سماوية، حيث أمكن تقديم جسده القائم من الأموات عبر كل العصور ليقيم منه الكنيسة الجامعة، جسده المقدس.

استجاب الرب لحبها ودموعها، ففتح عن عينيها لترى ملاكين يشهدان للقيامة، إذ على فم شاهدين تقوم الشهادة. لم تنظرهما من قبل ولا نظرهما التلميذان عند دخولهما القبر. لقد ذكر القديسان متى ومرقس أنها رأت ملاكًا واحدًا، ربما اكتفيا بالإشارة إلى الملاك الذي تحدث معها.

تشير **الثياب البيض** إلى النقاوة.

لماذا كانا جالسين؟ لا يحتاج الملائكة إلى الجلوس للراحة، لأنهما بلا أجساد قابلة للتعب، لكن جلوسهما يشير إلى الدعوة ألا نخاف من القبر، فحيث يوجد السيد المسيح نجلس ونستريح. إن كان العالم قد وضع جنودًا لحراسة قبر السيد المسيح لئلا يقوم، فقد قام وارتعب الجند وهربوا، أما جنود الرب فهم الملائكة الجالسون في طمأنينة ويقين بغلبة المسيح ونصرته على قوات الظلمة.

يشير الملاكان إلى الشاروبين اللذين كانا على غطاء تابوت العهد حيث عرش الرحمة وحضرة الله وسط شعبه (خر ٢٥: ١٨). لم يحملا سيفًا كما حمل الشاروب عند باب جنة عدن ليمنع الإنسان من الدخول، وإنما كانا جالسين عند الرأس والرجلين، يرحبان بنا، ويقودان كل مؤمن للتمتع بالشركة مع المسيح المصلوب القائم من الأموات، لنتمتع بالحياة الأبدية خلال الصليب، شجرة الحياة.

يرى **البابا غريغوريوس (الكبير)** أن ملاكًا عند الرأس يعلن عن لاهوته: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله "(يو ١: ١). والثاني عند الرجلين يعلن عن التجسد: "الكلمة

[1] *Homilies on St. John, 86:1.*

صار جسدًا وحل بيننا" (يو١: ١٤). يمكن أيضًا القول بأنهما يشيران إلى العهدين القديم والجديد، كلاهما يقدمان ذات الرسالة بأن الرب صار إنسانًا ومات وقام. إنهما كالشاروبين اللذين كانا على غطاء تابوت العهد حيث كان مجد الرب يتجلى. وكلمة شاروب تعني "كمال المعرفة "، وماذا يعني الشاروبان إلا العهدين؟ وما هو كرسي الرحمة إلا الرب الذي صار إنسانًا. يعلن العهد القديم عن أمرٍ لابد أن يحدث، ويعلن العهد الجديد أن هذا الإعلان قد تحقق وتم. وكأن العهدين ينظران الواحد نحو الآخر بينما اتجه الاثنان نحو كرسي الرحمة، يتأملان الرب الذي صار إنسانًا، وبقلب واحدٍ يصفان سرّ تدبيره[1].

❖ لماذا كان أحدهما جالسًا عند الرأس، والآخر عند القدمين؟ أليس لأن الكلمة اليونانية المترجمة ملاكين في اللاتينية *nuntii* (حاملا الأخبار)؛ وبهذا فإنهما يشيران إلى إنجيل المسيح الذي يُكرز به من الرأس حتى القدمين، أو من البداية حتى النهاية؟[2]

القديس أغسطينوس

❖ إذ لم يكن ذهن المرأة قد ارتفع بما فيه الكفاية لقبول القيامة من خلال برهان المنديل (والأكفان)، حدث أمر آخر، إذ رأت ملاكين جالسين في ثياب برَّاقة، حتى يقيماها إلى حين من حزنها الشديد، ويهبانها راحة. لم يتحدثا عن القيامة، لكنها أُقتيدت إلى هذا التعليم بهدوء. رأت ملامح بهية غير عادية، وشاهدت ثيابًا مضيئة، وسمعت صوتًا معزيًا[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كرّم اليهود القدامى قدس الأقداس من أجل ما احتواه من الكاروبين وعرش الرحمة وتابوت العهد والمن وعصا هرون والمذبح الذهبي. هل يبدو قبر المسيح أقل كرامة منه؟ فإننا إذ ندخله غالبًا ما نرى المخلص في أكفانه، وإن تأخرنا نرى ملاكًا جالسًا عند قدميه وآخر عند رأسه. هذا القبر نحته يوسف الرامي، وجاءت نبوة إشعياء تخبرنا عن مجده: "في راحته يكون مجيدًا" (إش ١١: ١٠)، بمعنى أن موضع دفن الرب ينال كرامة عالمية[4].

القديس جيروم

"فقالا لها: يا امرأة لماذا تبكين؟

---

[1] *cf. Hom 25. Forty Gospel Homilies, PL 76: 1189.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 121: 1.*
[3] *Homilies on St. John, 86:1.*
[4] *Letter, 46:5.*

قالت لهما: أنهم أخذوا سيدي،

ولست أعلم أين وضعوه". [١٣]

أظهر الملاكان حنوًا نحو مريم المجدلية الباكية، فقد دُهشا لبكائها، إذ كانا ينتظران أنها تفرح بقيامته. حقًا وسط آلامنا يشاركنا السمائيون الحب، ويندهشون لحزننا، إذ أدركوا ما يعده القائم من الأموات من أمجاد لمؤمنيه.

لم يكن ممكنًا حتى لرؤية الملاكين أن يشبعا قلب المجدلية، فقد جاءت تطلب السيد المسيح نفسه.

❖ منعها الملاكان من الدموع (يو ٢١: ١٣)، لأنه بمثل هذا الوضع يليق بهما ماذا يعلنان سوى أنه بطريق أو آخر أنه موضوع فرح المستقبل... لقد وضعا السؤال: لماذا تبكين؟ كما لو قالا: لا تبكين. أما هي فظنتهما يسألان لعدم معرفتهما عن سبب دموعها[1].

القديس أغسطينوس

❖ في كل هذه الظروف كان كما لو أن الباب ينفتح أمامها لتدخل قليلاً قليلاً إلى معرفة القيامة. كانت طريقة جلوسهما دعوة لها أن تسألهما، إذ أظهرا لها أنهما يعرفان ما قد حدث. ولهذا لم يجلسًا معا بل كل منهما على انفراد... ماذا قالت؟ تحدثت في حرارة وانفعال: "**إنهم اخذوا سيدي، ولست أعلم أين وضعوه**" [١٣]. ماذا تقولين؟ أما عرفتِ بعد شيئًا عن قيامته، بل لازلتِ تتخيلين أنه لا يزال موضوعًا في مكان؟ ألا ترون كيف أنها لم تقبل بعد تعليمًا عاليًا؟[2]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم تكن تطلب الجسد، بل الرب الذي أُخذ[3].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ "في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي" (نش ٣: ١). وقد قيل: "جاءت مريم والظلام باق"، "في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته". وفي الأناجيل تقول مريم: "**أخذوا سيدي ولست أعلم أين وضعوه؟!**"[4]

القديس كيرلس الأورشليمي

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 121: 1.*

[2] *Homilies on St. John, 86:1.*

[3] *Hom 25. Forty Gospel Homilies , PL 76: 1189.*

[4] مقال ١٤: ١٢.

٣. صباحًا: لقاء المجدلية مع المسيح

"ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء،
فنظرت يسوع واقفًا،
ولم تعلم أنه يسوع". [١٤]

موضوع "المكان" الخاص أين يمكث يسوع، وأين يذهب، هو موضوع حيوي. ففي بداية الإنجيل سأله التلميذان الأولان: "يا معلم أين تمكث؟" (يو ١: ٣٨). وفي العشاء الأخير قال له توما: "لسنا نعلم إلى أين تذهب" (يو ١٤: ٥). وعند القبر سألته المجدلية: "إن كنت قد حملته، فقل لي أين وضعته، وأنا آخذه" (يو ١٤: ١٥). وعندما سألها أن تبشر بقيامته وجّه نظرها إلى أين تذهب، إذ أراد لها كما للتلاميذ أن يصعدوا درجات أعلى في معرفتهم لقيامته.

قبل أن يجيب أحد الملاكين عليها جاءت الإجابة عمليًا من السيد المسيح نفسه الذي وقف وراءها ليتحدث معها ويجيب على سؤالها. كان شهوة قلب المجدلية أن ترى جسد المسيح الميت، لكنه وهبها ما هو أعظم، إذ ظهر لها "القائم من الأموات". إنه يعطينا أكثر مما نسأل وفوق ما نطلب.

التفتت إلى الوراء ربما لأنها شاهدت الملاكين قاما بعملٍ غير عادي كالسجود متجهين نحوه، أو أن أنظارهما قد تحولت عنها إليه بوقار شديد. رأته إنسانًا عاديًا فلم تتعرف على شخصه. لم تكن نفسية المجدلية أو فكرها مهيأ للقاء مع القائم من الأموات. وربما بسبب حزنها الشديد لم تستطع أن تتعرف على شخص ربنا يسوع. حقًا كانت تبحث عنه بدموعٍ بقلبٍ منكسرٍ، ولم تدرك أنه قريب من منسحقي القلوب (مز ٣٤: ١٨)، أقرب مما يظنوا. هكذا يليق بنا حين نطلبه أن ندرك أنه قريب إلينا جدًا، فوق كل تصورٍ بشري. فهو في داخلنا يود أن يعلن ذاته لنا.

لم يروِ لنا يوحنا الإنجيلي أن أحد الملاكين قد أخبراها بقيامته، ربما لأنه سبق فأشار إلى ذلك الإنجيليون الثلاثة (مت ٢٨: ٥–٧؛ مر ١٦: ٦–٧؛ لو ٢٤: ٥–٧).

❖ على ما يلوح لظني أنها إذ قالت إنهم أخذوا سيدي ولست أعلم أين وضعوه ظهر السيد المسيح خلفها بغتة! فأخاف الملاكين، فإذ عاينا سيدهما أظهرا في الحال بشكلهما وبنظراتهما وبحركتهما أنهما قد أبصرا ربهما، بهذا الحال استمالا التفات مريم.

ظهر لهما بهذه الكيفية، ولم يظهر هكذا للمرأة، حتى لا ترتعب منه عند أول نظرة إليه. إنما ظهر لها في شكل عادي بسيط كما يظهر من كونها قد ظنته أنه البستاني.

كان هذا يليق بفكر غير متقدم أن ينطلق إلى الأمور العلوية ليس دفعة واحدة بل بهدوءٍ، لهذا

سألها: "**يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين؟**"[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ أحبت وشكت رأته ولم تتعرف عليه (يو ٢١: ١٤)؛ حبها أعلنه لها، وشكها منعها عن معرفته[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"**قال لها يسوع:**
يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين؟
فظنت تلك أنه البستاني،
فقالت له: يا سيد إن كنت أنت قد حملته،
فقل لي أين وضعته،
وأنا آخذه". **[١٥]**

ربما جاء تساؤل السيد المسيح يحمل شيئًا من الحزم: **يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين؟** وكأنه يقول لها: لماذا أتيتِ إلى هذا الموضع باكرًا؟

لقد سبق فرُمز لهذا التصرف بيوسف الذي تظاهر أمام إخوته كغريبٍ قبل أن يكشف لهم عن شخصه (تك ٤٤-٤٥). إنه يعاتبها: "**لماذا تبكين؟ أنا قمت! من تطلبين؟ ها أنا أمامك! قيامتي فيها الإجابة على كل أسئلتك، وفيها شبع لكل احتياجاتك**".

جاءت إجابتها تحمل معنى: "لماذا تلومني على دموعي الغزيرة؟ ولماذا تسألني من أطلب؟ أنت تعرف سرّ دموعي وموضوع طلبي"، وإذ حسبته البستاني ترجته أن يخبرها أين هو إن كان قد حمله إلى موضع آخر.

ربما ظنت أنه كبستاني لم يقبل أن يوضع جثمان مصلوب مرفوض من المجتمع في قبر سيده الجديد، لذلك حمله إلى موضع آخر. لذلك طلبت أن تأخذه لتجد له قبرًا آخر تضعه فيه. بحبها لم تشعر بأي ثقل من جهة حمل جسد المسيح والبحث عن قبرٍ لائق به.

❖ مرة أخرى تتحدث عن جسد موضوعٍ أو محمولٍ بعيدًا كما عن جثة ميت. إنها بهذا تعني: "إن كنت قد حملته خوفًا من اليهود، أخبرني. فإنني آخذه". عظيم هو حنو المرأة وانفعالها المحب،

---

[1] *Homilies on St. John, 86:1.*
[2] *Hom 25. Forty Gospel Homilies , PL 76: 1189.*

لكن لم يكن لديها شيء علوي. لذلك يضع الأمر أمامها بالصوت لا بالمظهر[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ سألها عن سبب حزنها لكي يزيد من شوقها، حتى إذ سأل تلك التي تبحث لترى تشعر بحب ملتهب متزايد من نحوه[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"**قال لها يسوع: يا مريم.**

فالتفتت تلك، وقالت له:

ربوني، الذي تفسيره يا معلم". **[١٦]**

إذ بحثت عنه بغيرة متقدة ومحبة تأهلت أن تسبق غيرها في التمتع بصوته المفرح. لقد سرّ السيد المسيح أن يهبها فرح قيامته، لكي تشهد وتكرز بإنجيل القيامة. تحدث معها لا بلهجة بستاني حارس للبستان، وإنما بنغمة المحبة التي اعتادت عليها. سمعت اسمها على فمه فعرفت شخصه، وكما قال السيد عن خرافه أنها تعرف صوته (يو ١٠: ٤). كان يكفيها كلمة واحدة، أن يناديها السيد باسمها. وكما تقول الكنيسة: "صوت حبيبي، هوذا آتٍ طافرًا على الجبال، قافزًا على التلال" (نش ٢: ٨).

قالت له: "**ربوني**" وهو لقب يحمل نوعًا من الكرامة أكثر من لقب "راباي". إنه يحمل معنى "يا معلمي العظيم الكرامة".

❖ إلى أن دعاها باسمها وظهر لها كهاتفٍ لا تزال تظنه ميتًا وتسأل أين هو موضوع، دعاها باسمها. وكأنه يقول لها: "لتعرفي ذاك الذي يعرفك". وإذ دُعيت مريم باسمها عرفت خالقها. أنه ذاك الذي تبحث عنه خارجها، وهو يعلمها أن تبحث عنه داخليًا[3].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ علة حزنها الشديد أنها لم تعرف أين تذهب لتهدئ من حزنها. لكن قد أتت الساعة حين يعلن لها الملاكان إلى حد ما بالفرح الذي يحل بعد الحزن، فقد طلبا منها ألاَّ تبكي[4].

❖ عندما حولت جسمها (التفتت إلى الوراء) ظنته على غير ما هو عليه [١٥]، بينما حينما حولت

---

[1] *Homilies on St. John, 86:1.*
[2] *Hom 25. Forty Gospel Homilies , PL 76: 1189.*
[3] *Hom 25. Forty Gospel Homilies, 193.*
[4] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 121: 1.*

قلبها تعرفت عليه كما هو[1].

القديس أغسطينوس

"**قال لها يسوع:**
لا تلمسيني،
لأني لم أصعد بعد إلى أبي،
ولكن اذهبي إلى اخوتي،
وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم". **[١٧]**

فعلت مريم حسبما أُمرت، ذهبت إلى التلاميذ وأبلغتهم الرسالة: "قد رأيت الرب". لقد أكدت لهم خبرتها مع المسيح القائم من الأموات.

لتأكيد قيامته سمح لتلاميذه أن يلمسوا آثار المسامير والجراحات، كما سمح للنسوة أن يمسكن قدميه ويسجدن إليه (مت ٢٨: ٩). أما بالنسبة للمجدلية فربما لأنها ظنت أنه قام كما سبق فأقام لعازر ليعيش معهم على الأرض، لذلك طلب منها ألا تلمسه بيديها بل بقلبها، لتكرز بقيامته وصعوده إلى السماء. إنه لم يقم ليؤسس له مملكة أرضية، بل ليصعد، ويقيم مملكته في القلوب. لقد سبق فهيأ أذهانهم قبل صلبه أنه يصعد إلى السماء، لذا لم يرد أن تتحول بهجة قيامته إلى شوق نحو بقائه معهم على الأرض.

يرى *Leon Morris* أن الفعل "**تلمسيني**" في اليونانية يحمل معنى "**لا تستمري في لمسي**" وليس "لا تبتدئي باللمس". أراد السيد المسيح منها أن تتوقف عن اللمس، وكأنه سمح لها باللمس ولكن إلى حين. أراد أن يؤكد لها أنه قد قام بحياة جديدة، ليس كالحياة القديمة التي تركها، ليهب البشرية المؤمنة هذا التغيير في يوم الرب العظيم (١ كو ١٥: ٥١-٥٣).

مرة أخرى إذ تلامست مع قيامته يؤكد لها أنه لم يصعد بعد إلى السماء، وقد حان الوقت للكرازة بالقيامة وتهيئة الأذهان للصعود. إنه لا يوجد وقت للارتباط الزمني وحضوره جسديًا وسطهم. ليس من وقت للحديث معه، بل يلزم تحقيق رسالته، إنه وقت للكرازة بالأخبار المفرحة.

مع قيامته والإعلان عن صعوده لم يخجل من أن يدعو تلاميذه "**إخوتي**".

بعث السيد المسيح برسالة مع المجدلية إلى تلاميذه الذين تركوه عند القبض عليه ولم يرافقوه حتى الصليب. لم يشر إلى كلمة عتاب واحدة، وكأنه قد أرسل إليهم يقول: "إني أغفر وأنسى ولا أعاتب!"

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 121: 2.*

أرسل إليهم المجدلية التي سبق فأخرج منها سبعة شياطين لكي تكرز للتلاميذ بالأخبار المفرحة للقيامة.

في رسالته إليهم أعلن شوقه للوحدة، اتحادهم معه، لينالوا البنوة لله، فيصير الله الآب أباهم، ويصير المسيح نفسه معهم، يحسب الآب إلهه كابن البشر الممثل لهم. لكنه يميز بين مركزه كابن أزلي حقيقي وبينهم كأبناء بالتبني، إذ لم يقل: "**أبينا وإلهنا**". أخيرًا إن كان بطرس ويوحنا تركاها في البستان تبحث عنه باكية، فإنها إذ وجدته عادت تبشر الكل بما رأته وسمعته ووجدته. لقد وجدت المسيا مخلص العالم الذي يعدهم ليرتفعوا معه بقلوبهم إلى حضن الآب.

أجاب **القديس جيروم** على تساؤل مارسيلا *Marcella* كيف يتفق ما جاء في يو ٢٠: ١٧ "**لا تلمسيني**" مع ما ورد في مت ٢٨: ٩: "فتقدمتا وأمسكتا بقدميه". يقول أنه في الحالة الأولى فشلت مريم المجدلية في التعرف على لاهوت ربنا يسوع، أما في الحالة الثانية تعرفتا عليه، ولهذا نالا الامتياز الذي حُرمت منه مريم المجدلية أولاً[1].

❖ بمعنى إنكِ لستِ أهلاً أن تلمسي القائم ذاك الذي تظنين أنه لا يزال في القبر[2].

القديس جيروم

❖ أعطى يسوع المرأة درسًا في الإيمان التي عرفته أنه السيد، ودعته هكذا في إجابتها له. كان هذا البستاني يغرس في قلبها، كما في حديقته حبة الخردل. ماذا إذن يقصد بقوله: "**لا تلمسيني**"؟ وكما لو كان علة المنع يجب بحثها أضاف: "**لأني لم أصعد بعد إلى أبي**". ماذا يعني هذا؟ إن كان لا يُلمس بواسطة البشر وهو واقف على الأرض، فكيف يُمكن أن يُلمس بواسطة البشر وهو جالس في السماء؟ بالتأكيد قدم نفسه قبل صعوده لكي يلمسه تلاميذه (لو ٢٤: ٢٩)... هذه المرأة ترمز لكنيسة الأمم التي لم تؤمن بالمسيح إلا بعد صعوده فعلاً إلى الآب، وبهذا فهو يريد أن يؤمنوا به، أي يلمسوه روحيًا إذ هو والآب واحد...

❖ كان يليق بمريم التي كانت لا تزال تظن عدم مساواته للآب أن تُمنع من لمسه بالكلمات: "**لا تلمسيني**". بمعنى لا تؤمني هكذا حسب مفاهيمك الحالية. لا تدعي أفكارك تنبسط خارجيًا إلى ما صرت عليه من أجلك دون العبور إلى ما بعد ما أنتِ عليه... إنك تلمسيني حينما تؤمنين إني أنا

[1] *Letter, 59, Question 4.*
[2] *Letter 39:6.*

الله ولست بأية طريقة غير مساوٍ للآب[1].

القديس أغسطينوس

❖ على حسب ظني أن هذه المرأة أرادت أن تأتلف به أيضًا كائتلافها به من قبل، ومن فرحها به لم تدرك فيه أمرًا عظيمًا، إذ كان أفضل حالاً في ذات جسده بمقدارٍ كثيرٍ، فإذ حجزها عن هذه المهمة رفع أفكارها حتى تنظر إليه بأوفر خشوعٍ وأجزله، فمعنى قوله: "**لا تلمسيني**" هو لا تقتربي مني كالحال السابق.

❖ بينما رأيناه على الصليب وحيدًا، لا نراه هكذا بعد، بل يظهر وسط إخوته. في يوم قيامته قدم الرسالة المفرحة: "اذهبي إلى اخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧). نسمعه يخاطب تلاميذه كإخوته وذلك في يوم قيامته المجيدة بعدما اجتاز آلامه. فإننا إذ نتقدس بعمله الخلاصي (آلام الصليب)، ليس فقط لا يخجل بل يُسر جدًا أن يدعوهم هكذا "إخوته" (عب ٢: ١٢).

❖ يقول العريس: إن كنت ترغب أن تُفتح الباب وأن ترتفع أبواب نفسك ليدخل ملك المجد، يلزمك أن تقبل اشتياقاتي في نفسك. كما يقول الإنجيلي: "من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي" (مت ١٢:٥٠). يليق بك أن تقترب إلى الحق، وتصير شريكه حتى لا تنفصل عنه.

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ "**اذهبي إلى إخوتي، وقولي لهم: "إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم**". مع أنه لم يكن قد اقترب صعوده ليتحقق فورًا، إنما يتم ذلك بعد أربعين يومًا، فلماذا قال هذا؟ رغبة في أن يرفع أذهانهم، ويحثهم بأنه سيرحل إلى السماوات[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما يذهب (إلى أبيه) حاملاً الغلبة والنصرات بجسده القائم من الأموات... عندئذٍ تقول بعض القوات: "من ذا الآتي من أدوم بثيابٍ حمرٍ من بصرة، هذا البهي بملابسه؟" (إش ٦٣: ١). والمرافقون له يقولون للمقيمين عند أبواب السماء: "ارتفعي أيتها الأبواب ليدخل ملك المجد" (مز ٢٤: ٧). وإذ يستفسرون بالأكثر، أقول، إذ يروا يمينه بآثار دمه، وكل جسمه وقد امتلأ

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 121: 3.*
[2] *Homilies on St. John, 86:2.*

بالجراحات يقولون: "ما بال لباسك محمر وثيابك كدائس المعصرة؟" يجيب: "لقد حطمتهم ومزقتهم قطعًا" (راجع إش ٦٣: ٢–٣)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ سألها ألا تلمسه لأنه لم يصعد بعد (يو ٢١: ١٧)، **حتى تلمسه بعد صعوده، إذ يُعد لها أمجادًا عظيمة، فتلمس ما لا يمكن لمسه بالأيدي**، وترى ما لم تستطِع رؤيته هنا. ولعله يخبرها ألا تلمسه بمعنى لا تعودي تحسبينني بشريًا مجردًا، بل أنا القدوس. ارفعي قلبك وفكرك إلى السماويات، واطلبيني هناك، لأني صاعد إلى أبي الذي لم أتركه قط ولا أنفصل عنه. أنا أقيمك وأصعد بك إلى عرشي!

السبب أنه لا يُلمس كما في هذه الكلمات: "**لأني لم أصعد بعد إلى أبي**"... فالقلب الذي لا يؤمن بمساواته للآب، يبقى الرب بالنسبة له غير صاعد بعد إلى أبيه. **فمن يؤمن أنه شريك مع الآب في السرمدية هو وحده يلمسه**... لأني صرت إنسانًا فهو إلهي، ولأنكم قد تحررتم من الخطأ فهو إلهكم. أنه أبي وإلهي بطريقة متمايزة عنكم، إذ ولدني بكوني الله قبل الدهور، ولكنه خلقني كإنسانٍ في ملء الزمان[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ لئلا يظن أحد في بساطة أو عن سرعة خاطر مع عناد أن في قول المسيح: "**أصعد إلى أبي وأبيكم**" أنه مساوٍ في الكرامة مع الأبرار، لهذا يجدر بنا أن نصنع تمييزًا. وهو أن اسم "الآب" هو واحد "أي آب لابن واحد"، أما عمله فمتعدد "أي يعطى البنوة بالتبني لكثيرين". وإذ يعلم المسيح نفسه هذا قال في عصمة عن الخطأ: "**أصعد إلى أبي وأبيكم**"، ولم يقل: "أبينا"، بل ميز بينهما.

قال أولاً بما يليق به: "**إلى أبي**" الذي هو بالطبيعة، وبعد ذلك أضاف: "**وأبيكم**" الذي هو بالبنوة. لأنه مهما بلغ سمو الامتياز الذي تقبلناه بقولنا في صلواتنا: "أبانا الذي في السماوات"، إلا أن العطية هي من قبيل محبة اللّه المترفقة. فنحن ندعوه أبًا، ليس لأننا وُلدنا بالطبيعة من أبينا السماوي، بل انتقلنا من حالة العبودية إلى البنوة بنعمة الآب خلال الابن والروح القدس. لقد سمح لنا أن ننطق بهذا من قبيل محبة اللّه المترفقة غير المنطوق بها[3].

---

[1] *Commentary on John, Book 6:288 – 289.*

[2] *Hom 25. Forty Gospel Homilies , 193-195.*

[3] مقال ٧: ٧.

❖ لئلا يُظن أنه من جانب ما هو آب للابن وللخليقة معًا صنع المسيح تمييزًا كما يلي. إنه لم يقل: "أصعد إلى أبينا" لئلا تصير الخليقة شريكة للابن الوحيد (على مستواه الطبيعي) بل قال: "**أبي وأبيكم**" أي هو أبي بالطبيعة وأبوكم بالتبني[١].

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ إن كنت تطلبه بين الكائنات الأرضية كما طلبَته مريم المجدلية، احذر لئلا يقول لك ما قاله لها: "**لا تلمسيني، لأني لم أصعد بعد إلى أبي وأبيكم**" [١٧]. فإن أبوابك ضيقة، لا يمكن أن ترتفع فلا تقدر الدخول فيها. اذهب في طريقك إلى اخوتي، أي إلى الأبواب الدهرية هذه إذ ترى يسوع ترتفع... أبدية هي أبواب الكنيسة، هذه التي يشتهي النبي أن يعلن فيها تسابيح المسيح، قائلاً: "لكي أخبر بكل تسابيحك في أبواب ابنة صهيون" (مز ٩: ١٤)[٢].

❖ يكشف ابن اللَّه الفارق بين الولادة والنعمة عندما يقول: "**لم أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم**". إذ لم يقل: "لم أصعد إلى أبينا وإلهنا"... التمييز علامة الفارق، إذ ذاك الذي هو أب المسيح هو خالقنا[٣].

❖ غاية المسيح في التجسد أن يهيئ لنا الطريق إلى السماء[٤].

❖ حقًا قال لمريم المجدلية: "**لا تلمسيني**" [١٧]، لكن هذا الطاهر لم يقل: "لأني طاهر"، فهل تتجاسر يا نوفيتان *Novatian* وتقول إنك طاهر، بينما حتى إن كنت طاهرًا بأعمالك فبقولك هذا تُحسب غير طاهرٍ؟[٥]

القديس أمبروسيوس

❖ إنه قد أوشك أن يجلس على عرش أبيه، أما هم فيقفون. مع كونه في كيانه حسب الجسد صار أخانا، لكن في كرامته يختلف عنا جدًا بما لا يمكن أن نخبر عن قدره[٦].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب،**

---

[١] مقال ١١: ١٩.

[2] *On the Christian Faith, Book 4:2:25-26.*
[3] *On the Christian Faith, Book 1:14:90.*
[4] *On the Christian Faith, Book 3:7:50.*
[5] *Concerning Repentance, 1:8:38.*
[6] *Homilies on St. John, 86:2.*

وأنه قال لها هذا". [١٨]

❖ انظروا كيف زالت خطية الجنس البشري كما بدأت. في الفردوس كانت المرأة علة الموت للرجل (تك ٣: ٦)، وخرجت من القبر امرأة تعلن الحياة للبشر. روت مريم كلمات ذاك الذي أعاد لها الحياة. وحواء روت كلمات الحية التي جلبت الموت. وكأن الرب يخبر الجنس البشري، لا بالكلام بل بالعمل: " اقبلوا نبع الحياة من اليد التي قدمت مشروب الموت"[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

٤. لقاؤه مع تلاميذه الأحد مساءً

"ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع،
وكانت الأبواب مغلقة،
حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود،
جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم:
سلام لكم". [١٩]

لم نسمع أن اليهود أرادوا الانتقام من التلاميذ في ذلك الحين، لكن بسبب ضعف إيمانهم ظنوا أنه بعد صلب السيد ودفنه يأتي الدور عليهم. مع أن اليهود لم يقتربوا إليهم منذ قال لهم: "دعوهم يمضوا" (يو ١٨: ٨). فقد كان هدف القادة هو "يسوع" نفسه، لذا فلا قيمة للتحرك ضد أتباعه مادام هو نفسه قد مات في عارٍ على الصليب ولم يعد له وجود. حسبوا أن الأمر ليس بذي قيمة.

ظهور السيد المسيح في وسطهم والأبواب مغلقه لم يكن بعملٍ معجزي، لأن هذه هي طبيعة الجسم القائم من الأموات، لن تستطيع المادة أن تعوقه. إنما ما أراد تأكيده فهو أنه قام بذات الجسم، لكنه جسم ممجد. لم تكن قيامته تعني عودته إلى الحياة العادية على الأرض، بل هي انطلاق بالمؤمنين وصعوده بهم إلى حضن الآب.

لم نجد كلمة "**الأبواب**" بالجمع إلا في يوحنا، ولعله كان للعلية أكثر من باب، أو ربما يقصد أن باب البيت كان مغلقا كما كان باب العلية، إذ كان التلاميذ في رعبٍ، فلم يكتفوا بغلق باب البيت الخارجي.

في الأناجيل الأخرى أبرز الإنجيليون أن التلاميذ كانوا في خوفٍ بعد القيامة مباشرة، إذ لم يكن

[1] *Hom. 25. Forty Gospel Homilies, 195.*

بالأمر الهين أن يروا من مات ودفن لا يزال حيًا يظهر لهم. أما هنا فكشف الإنجيلي يوحنا عن سبب آخر لخوفهم وهو "اليهود". لقد شعر التلاميذ أن حياتهم معرضة لخطرٍ حقيقي حتى بعد قيامته، إذ خشوا أن تُوجه إليهم تهمة سرقة الجسد.

ظهر لتلاميذه في أول سبت مسيحي لكي يبارك هذا اليوم ويقدسه.

اجتمع التلاميذ ربما للصلاة والعبادة، وربما للحوار بخصوص الأحداث الجارية في ذات اليوم، حيث أكدت النسوة وبطرس ويوحنا أن القبر فارغ، وروت المجدلية لقاءها معه، وأبلغتهم رسالته التي عهدها بها، هذا وقد ظهر للنسوة في ذات اليوم (مت ٢٨: ٩)، كما ظهر لتلميذي عمواس في الطريق وتحدث معهما، وفتح أذهانهما وألهب قلبيهما بالحب (لو ٢٤: ١٣) الخ.

ولعلهم اجتمعوا للصلاة خشية القبض عليهم لأن اليهود ادعوا أن تلاميذه جاءوا ليلاً وسرقوا الجسد. على أي الأحوال فقد عرف التلاميذ أن يجتمعوا معًا في لحظات الضيق للصلاة.

قوله لهم: "**سلام لكم**" [١٩] لم تكن كلمتين مجردتين كالتحية المعتادة بين الأصدقاء بل كانت بركة غير عادية تحمل قوة وتقدم ثمر القيامة: السلام الداخلي مع الله، ومع الإنسان نفسه كما مع إخوته؛ سلام في المسيح وليس سلام العالم الباطل.

❖ المسيح نفسه بتول، وأمه أيضًا عذراء، نعم مع أنها أمّ لكنها بقيت عذراء. فقد دخل يسوع والأبواب مغلقة (يو ٢٠: ١٩). وفي قبره قُطع قبر جديد من صخرة صلبة للغاية، لم يرقد فيه أحد قبله ولا بعده (يو ١٩: ٤١). مريم هي جنّة مغلقة... ينبوع مختوم" (نش ٤: ١٢). وكما جاء في يوئيل (٣: ١٨ *LXX*) من هذا الينبوع يفيض النهر بمياهه[1].

القديس جيروم

❖ بالحقيقة استطاع الدخول من الأبواب دون فتحها ذاك الذي بميلاده بقيت بتولية أمه لا تُمس[2].

القديس أغسطينوس

❖ كان التلاميذ مجتمعين والأبواب مغلقة بسبب الخوف من اليهود (يو ٢٠: ١٩). فمن يقطن آمنا في مدينة الرؤيا في غلبة التأمل المقدس خائفًا من الأرواح الشريرة، مغلقًا على حواسه، يتقبل كلمة اللّه. فتأتي إليه بطريقة خفية، وتظهر له بطريق غير الحواس، معلنة له السلام، وواهبة إياه هدوءً، معطية إياه أن يكون عديم الشهوات... وإذ تتنسم فيه تهبه مواهب الروح القدس العديدة،

[1] *Letter 48:21.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 121: 4.*

وتعطيه سلطانًا على الأرواح الشريرة وتظهر له علامات الأسرار الإلهية.

القديس مرقس الناسك

"ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه،
ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب". [٢٠]

بدخوله والأبواب مغلقة أكد لهم السيد المسيح أن جسده القائم من الأموات له طبيعة جديدة. والآن يؤكد لهم أنه ذات الجسد، إذ يحمل ذات جراحات الصليب، لكنه جسد مجيد.

تحدث المسيح القائم من الأموات بفمه، فأعطاهم سلامًا جديدًا فائقًا، وتحدث معهم بجراحاته التي في يديه وجنبه، فوهبهم فرحًا فريدًا بحضرته في وسطهم. أراهم يديه وجنبه ليطمئنوا أنه يسوع المصلوب نفسه بذات الجسد. لقد ترك آثار الجراحات شهادة حية لقيامته، وتبقى هذه الجراحات في الأبدية مصدر فرح ومجد، كعلامة حب إلهي عجيب لا ينقطع لخلاص البشرية. لقد وضع حجابًا على بهاء مجد جسده القائم من الأموات حتى يمكنهم معاينته والتحدث معه.

يبقى السيد المسيح يبسط يديه ويكشف عن جنبه ويحتضننا بحبه ويروينا من ينبوع دمه العجيب، فنعلم أنه مادام هو حي فنحن بصليبه أحياء. لن يقدر الموت أن يحطمنا! جراحات صليبه هي لغة الحب القادرة أن تنزع منا الخوف من العالم، وتهبنا فرحًا داخليًا فائقًا.

إنه دومًا يفتح بصيرتنا بجراحات صليبه، فندرك أننا لسنا نتمتع برؤيا فحسب، بل نتمتع بحضرته في وسطنا.

❖ بالتأكيد سيبقى كيان الأجسام القائمة من الأموات كما هو الآن، وإن كانت ستصير في مجدٍ سامٍ. لأن المخلص بعد نزوله إلى الجحيم كان له ذات الجسد الذي صُلب، إذ أَظهر للتلاميذ آثار المسامير في يديه والجراحات في جنبه.

إن أنكرنا هويّة جسده لأنه دخل والأبواب مغلقة، وأن هذا ليس من طبيعة الأجسام البشرية، يلزمنا إذن أن ننكر أيضًا أنه كان لبطرس وللرب جسدين حقيقيين لأنهما سارا على المياه، وهذا مخالف للطبيعة (مت ٢٢: ٣٠)[1].

القديس جيروم

ما هي سمات الجسد المُقام من الأموات؟

[1] *Against Jovinianus, 1:36.*

يماثل الجسد المقام من الأموات جسد السيد المسيح بعد قيامته، الذي خرج والحجر موضوع، ودخل العلية والأبواب مغلقة (يو ٢٠: ١٩-٢٠)، إنه يعلو على الزمان والمكان والحدود المادية والحجب. أنه الجسد الأمثل في تعاونه مع النفس، لينطلق الإنسان نحو الله في شركةٍ مجيدةٍ مع رؤية ولقاء وجهًا لوجه! هذا لا يعني أنه جسد آخر غير الذي لنا، إنما هو بذاته لابسًا عدم الفساد (١ كو ١٥: ٥٣).

يُعالج **القديس أغسطينوس** هذه المشكلة "**طبيعة الجسد المُقام**" بحذر، إذ يقول: **[على أي الأحوال، أيًا كانت طبيعة الجسد الروحاني، ومهما كانت عظمة نعمته، أخشى أن أتحدث في هذا، لأننا لازلنا لا نحمل أية خبرة بخصوص هذه الحقيقة[1].]**

يتسم الجسد المُقام بالآتي:

١. يصير الجسد البشري بعد القيامة روحانيًا، لكن يُمكن التعرف عليه وتمييزه عن بقية الأجساد. أوضح القديس أن تعبير "**الجسم السماوي**" يلزم ألا يعني إنكار **الطبيعة الجسمانية الحقة للجسم الروحي[2]. [لا يعني "الجسد الروحاني" أنه ليس جسدًا بعد، وإنما كما أن "الجسد الحي" يعني "الحياة"... "الجسد الروحاني" يعني "جسدًا مطيعًا للروح"[3].]**

٢. إنه ذات الجسد الذي لنا، لكنه سيتحول بالكامل إلى عدم الفساد. لا يحمل الجسد القادم ما في الجسد من نقائص أو عيوب **[سيتحول تمامًا إلى الأفضل في وقت القيامة[4].]**

٣. تبقى **جراحات الاستشهاد فيه،** لا كعيوبٍ خلقية بل كعلامات ظاهرة تكشف عن سرّ حب الشهداء الشديد للسيد المسيح. ستكون للمجد والكرامة، وليس كنقائصٍ وعيوبٍ في الجسد[5].

٤. جسد ممجد يشبه جسد المسيح القائم من الأموات.

٥. **[إنه من الممكن والمعقول أننا سنرى السماوات الجديدة والأرض الجديدة، بطريقة بها أينما حوّلنا أعيننا نرى الله بأكثر وضوح، حاضرًا في كل مكان، مدبرًا كل المسكونة[6].]**

٦. يقدم لنا مفهوم الجسد الروحاني أنه لا يعود يشغلنا عن التأمل في الله، ولا يكون عائقًا للنفس بل خاضعًا لها. فالأمر الهام جدًا في رأي **القديس أغسطينوس** أنه لن تكون بعد أية مقاومة بين

---

[1] *De civite. Dei,22:21.*
[2] *Retractiones 2:3.*
[3] *Sermon 242:8:11.*
[4] *De doctrina christina, 1:19:18.*
[5] *City of God 22:19.*
[6] *De Civit. Dei 22:29:3 cf. De Gen. ad Lit. 12:35.*

النفس والجسد، فإن الجسد المُقام يتجاوب مع الروح. **[نفس الجسد الذي يعذبنا حتى نبقى في الخطية، سيكون خاضعًا لنا في القيامة، ويكف عن أن يتعبنا بالعوائق التي يضعها لنا في طريقنا ونحن نحفظ شريعة الله والوصايا الإلهية**[1]**.]**

في كتابه "مدينة الله" يقول بأكثر تدقيق: **[سيخضع الجسم الروحاني للروح، لكنه يبقى جسمًا لا روحًا. كما في هذه الحياة تخضع الروح الجسدانية نفسها للجسد لكنها تبقى روحًا وليست جسدًا**[2]**.]** هكذا عوض الصراع بين النفس والجسد سيكون في الحياة العتيدة اتحاد كامل بطبيعة روحية لا يكون لدى الجسم أية ثورة ضد النفس. وكما يقول **القديس أغسطينوس: [لماذا يُقال جسم روحي، أيها العزيز المحبوب، إلا لأنه لا يفشل في الخضوع للروح؟ سوف لا يكون فيك شيء في صراع معك، ولا يكون فيك تمرد عليك. لا يعود يوجد ما يرثيه الرسول بقوله: "الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد" (غل ٥: ١٧)**[3]**.]**

❖ لا بتدمير تركيب الخليقة ولا جوهرها. إنما فقط الشكل الخارجي لهذا العالم هو الذي يمضي، أي الحالات الناجمة عن السقوط. وعندما يمضى هذا الشكل الخارجي، يتجدد الإنسان ويزدهر في أصالة الحياة غير الفاسدة. لن يعود ممكنًا له أن يشيخ. وسوف تكون "سماء جديدة وأرض جديدة" (رؤ ٢١: ١). في هذه السماء الجديدة والأرض الجديدة يسكن الإنسان جديدًا إلى الأبد، متحدثًا مع الله إلى الأبد[4].

القديس إيريناؤس

❖ إذًا قام ربنا بنفس الجسد الذي دُفن به. وقد أخذ المسيحيون وعدًا بالقيامة. نحن نأمل في قيامة مماثلة لقيامة ربنا التي سبقت كل إيماننا، لأن قيامته جاءت حتى تصير الأساس لإيماننا. ولكن لماذا؟ حتى إننا بعد القيامة لا نكون كما نحن الآن؟ قام ربنا يسوع المسيح بجسده وصعد إلى السماوات. حين كان المسيح بجسده على الأرض حمل في جسده الوظائف البشرية حتى يثبت أن ما دفن هو الذي قام. ولكن هل ستكون هناك حاجة للطعام في السماء؟ لأننا قرأنا أن ملائكة قد ظهروا على الأرض في هيئة رجال (تك ١٧: ٩)، جاءوا إلى إبراهيم، وأكلوا معه، والملاك الذي ظهر لطوبيا أكل معه. هل نقول إنهم أكلوا ظاهريًا وليس فعليًا؟ أليس أن إبراهيم ذبح عجلاً

---

[1] *To Fortunatus 22.*
[2] *De Civit. Dei, 22:21.*
[3] *Sermon 242:8.*
[4] *K. Ware: The Orthodox Way:SVSP., P.182.*

بالحقيقة، وعمل خبزًا، ووضعهما على المائدة؟ وقدم الطعام للملائكة فأكلوا؟ (تك ١٨: ١-٩)[1].

القديس أغسطينوس

❖ الله المحب الرحوم أطلق بنفسه الجسد من أسره، وحرره من عبودية الهلاك، العبودية المرة المميتة، ومنحه الخلود في الأبدية. بذلك منح الجسد البشري عطية الأبدية المقدسة، فجعله خالدًا غير مائتٍ إلى الأبد[2].

القديس إكليمنضس السكندري

"**فقال لهم يسوع أيضًا:**

سلام لكم، كما أرسلني الآب أرسلكم أنا". **[٢١]**

عاد يؤكد لهم عطيته "**سلام لكم**" [٢١]، لكي خلال هذه العطية يتأهلوا لإرسالية سماوية، بسلطان علوي، يبشرون بأخبار القيامة المفرحة، كسفراء عن السلام الداخلي. إذ يصيرون أعضاء جسد المسيح القائم من الأموات يعمل الرأس فيهم، حتى يشهدوا للعالم بالحياة المُقامة التي يمارسونها في الروح القدس.

❖ ما قاله قبل الصلب: "سأراكم فتفرح قلوبكم، ولا يستطيع أحد أن ينزع فرحكم منكم" (١٦: ٢٢) قد تحقق الآن عمليًا. هذا كله دفعهم إلى الإيمان الصادق... هذه هي أول الكلمات التي قالها لهم بعد القيامة[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ولما قال هذا نفخ، وقال لهم:**

اقبلوا الروح القدس". **[٢٢]**

قدم لهم الروح القدس للمرة الأولى في عشية اليوم الأول من قيامته، وجاء ذلك تتويجًا لما بدأ يبزغ في السحر. سبق ذلك عيد العنصرة مما يثير الكثيرين للتساؤل عن الفارق بين إعطائه الروح القدس هنا وإرساله في عيد العنصرة.

يندر وجود فعل نفخ *emphyso* في الكتاب المقدس، لكننا نجده في سفر التكوين، وهو لا يخلو من مدلول، بعد أن كان الروح يرف على وجه المياه فنفخ اللَّه في أنف آدم نسمة حياة، فصار آدم

---

[1] *Sermon 362:10.*
[2] *Paedagogus 3:1.*
[3] *Homilies on St. John, 86:2.*

نفسًا حيّة (تك ٢: ٧). وجاء أيضًا في حزقيال عندما تقاربت عظام الموتى وهبّت (نفخت) الروح فيها فحييت (حز ٣٧: ٩). يُفهم من هذا أنه تدشين الخلق الجديد الذي يتحقق بنفخة الروح المُعطى للتلاميذ. يمكن القول أنها إرسالية غايتها أن يعمل التلاميذ بالروح القدس ليتمتع العالم بالخليقة الجديدة أو الحياة المُقامة. وهبهم نفخة الروح القدس لينالوا إمكانية العمل الرسولي والخدمة. سبق فنفخ في التراب فجعل من آدم نسمة حية، الآن نفخ في وجوههم ليقيم فيهم الإنسان الجديد ويتمتعوا بعطية الروح العامل فيهم وبهم.

يقول **الأب مكسيموس المعترف:** [بما أننا اعتمدنا في المسيح بالروح، (أي أننا اشتركنا في موت المسيح وقيامته) نلنا الانعتاق الأول من فساد الجسد في المسيح بالروح. ولكننا ننتظر الانعتاق الأخير... في الروح.]

- ❖ إننا نعلم أنه فقط في الكنيسة – مع الأساقفة – المؤسسة على النظام الإنجيلي والسيامة في الرب يحق العماد وغفران الخطايا، وبدون هذا لا يمكن الربط والحل حيث لا يوجد من يقرر أن يفعل ذلك[1].
- ❖ أُعطي سلطان غفران الخطايا للرسل وللكنائس التي أُرسل إليها هؤلاء الرجال بواسطة المسيح ليؤسسوها، وللأساقفة الذين خلفوهم بواسطة سيامتهم كهنة[2].

الشهيد كبريانوس

- ❖ انظروا أن الخطايا تغفر بالروح القدس، أما البشر فيستخدمون خدمتهم لغفران الخطايا، إنهم لا يمارسون حقًا خاصًا بسلطانٍ من ذواتهم. إذ هم لا يغفرون الخطايا باسمهم بل باسم الآب والابن والروح القدس. يسألون اللاهوت أن يهب؛ فالخدمة من جانب الإنسان والعطية من سلطان العليّ[3].

القديس أمبروسيوس

- ❖ لماذا أُعطى الروح القدس للتلاميذ أولاً على الأرض، ومؤخرًا نازلاً من السماء؟ لأنه توجد وصيتان للحب، أي حب الله وحب القريب. عطية الروح على الأرض لتجلب حب القريب، والعطية التي من السماء لتجلب حب الله.

---

[1] *Letter 73 to Jubauan: 7.*
[2] *Firmilian to Cyprian: Letter 75: 16 (on 256 A.D.).*
[3] *Of the Holy Spirit, Book 3:18:137.*

كما يوجد حب واحد مع وصيتين، هكذا يوجد الروح الواحد مع عطيتين.

العطية الأولى قدمها الرب حين كان ساكنًا على الأرض، **والثانية** من السماء. لأنه من محبة القريب نتعلم كيف نبلغ إلى محبة الله. بالحق هو الروح القدس الواحد كان حاضرًا في قلوب التلاميذ مبكرًا لكي يهبهم الإيمان، ولكن لم يكن بعد قد أُعطى بمنحة واضحة إلى ما بعد القيامة.

لذلك كُتب: "لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد" (يو ٧: ٣٩)... يليق بنا أن نتأكد أن الذين كان لهم الروح القدس فعلاً... قبلوه علانية بعد قيامة الرب، حتى يستطيعوا أن يعينوا ليس فقط قلة بل كثيرين[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"**من غفرتم خطاياه تغفر له،**

ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت". **[٢٣]**

ربنا يسوع يغفر الخطايا (كما يخرج الشياطين) بروحه القدوس، ويظهر ذلك من قوله لتلاميذه بعد القيامة: "**اقبلوا الروح القدس**"، مكملاً قوله: "**من غفرتم خطاياه تُغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت**" [٢٢-٢٣].

❖ عمل الكاهن هو عطية الروح القدس، وحقه أن يغفر الخطية (بالروح القدس) وأن يمسكها[2].

القديس أمبروسيوس

❖ كملكٍ أرسلهم حكامًا، معطيًا إياهم سلطانًا أن يلقوا في السجن أو أن يُخرجوا منه، هكذا إذ أرسلهم قلدهم ذات السلطان[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يحذر **البابا غريغوريوس (الكبير)** من إساءة استخدام هذا السلطان، حيث يمارسونه حسب هواهم، وليس حسب شخصية من يخضعون له، فينطبق عليهم القول: "لإماتة نفوس لا ينبغي أن تموت، واستحياء نفوسٍ لا ينبغي أن تحيا" (حز ١٣: ١٩)[4].

"**أما توما أحد الاثني عشر الذي يقال له التوأم،**

فلم يكن معهم حين جاء يسوع". **[٢٤]**

---

[1] *Hom 25. Forty Gospel Homilies, 202-204.*
[2] *Concerning Repentance, 1:2:8.*
[3] *Homilies on St. John, 86:3.*
[4] *Cf. Hom 25. Forty Gospel Homilies, 205.*

اتسم توما بالصراحة الكاملة، فمع ذروة إعلانات اليوم الأول التي كان غايتها جذب هذا العالم للتمتع بخبرة القيامة، كان قرار توما صريحًا أنه لا يؤمن ما لم يبصر في يدي يسوع أثر المسامير، ويضع إصبعه في أثر المسامير وفي جنبه [٢٥].

غياب توما عن الاجتماع مع التلاميذ حرمه من فرصة ذهبية لرؤية السيد المسيح والاستماع إلى كلماته ونوال بركته. ربما كان لتوما عذره في الغياب لسبب صحي أو سبب آخر، لكن أي عذر له أن يرفض شهادة إخوته أنهم رأوا الرب.

❖ نحن لا نقيم الصلوات وقوفًا يوم الأحد أول الأسبوع بدون سبب. ليس فقط لأننا قائمون مع المسيح، ونطلب ما هو فوق ممتدين إليه، بل أيضًا لأن هذا اليوم إنما هو بشكل ما صورة الدهر الآتي. ولأجل ذلك أيضًا إذ هو مبدأ الأيام لا يُسمى أولاً بل واحدًا، فموسى يردد قائلاً: "كان مساء وكان صباح".

القديس باسيليوس الكبير

❖ إن ذاك الأحد (يوم الفصح) كان أحد الخلاص؛ أما هذا (اليوم الثامن بعده والذي ندعوه أحد توما) فهو ذكرى الخلاص وتثبيت الخلاص. ذاك كان الحد الفاصل بين القبر والقيامة. أما هذا فليس سوى يوم اللَّه للخلق، فكما بدأ الخلق الأول يوم أحد، يبدأ الخلق الثاني أيضًا في اليوم عينه، الذي هو في الوقت نفسه أول (نسبة للأيام التي تليه) وثامن (نسبة للأيام التي تسبقه)... يعود إلى الحياة التي فوق.

القديس غريغوريوس النزينزي

"فقال له التلاميذ الآخرون:
قد رأينا الرب.
فقال لهم: إن لم أبصر في يديه أثر المسامير،
وأضع إصبعي في أثر المسامير،
وأضع يدي في جنبه،
لا أؤمن". [٢٥]

هكذا قدم لنا الإنجيلي اليوم الأول للقيامة واليوم الثامن في وحدتهما الحميمة. يلتقي السيد بالتلاميذ في اليومين بطريقة متشابهة. الآن يوجه الإنجيلي نظرنا إلى الجراحات حتى يصرخ كل إنسان مع توما: "**ربي وإلهي**".

❖ لم يصدق توما الرسل عندما قالوا له: "**قد رأينا الرب**"، ليس لأنه لم يثق فيهم، فإنه لم ينكر تمامًا ولا حسب القيامة من بين الأموات ممتنعة، لأنه لم يقل: "لست أصدقكم"، لكنه قال: "**إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه لا أؤمن**[1]".

القديس يوحنا الذهبي الفم

٥. لقاؤه معهم في الأحد التالي

"**وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضًا داخلاً وتوما معهم،**
فجاء يسوع والأبواب مغلقة،
ووقف في الوسط وقال:
سلام لكم". **[٢٦]**

في فلسطين اعتادوا في القرن الأول أن يحصوا اليوم الأول والأخير عندما يتحدثون عن فترة زمنية معينة. لهذا فإن القول: "**وبعد ثمانية أيام**" تعني بالنسبة لنا اليوم الثامن، أو بعد سبعة أيام، وهو الأحد الأول بعد القيامة أعلن السيد المسيح نفسه لتوما. يشير اليوم الثامن إلى الدهر الآخر.

يقدم لنا الإنجيلي لقاء آخر مع التلاميذ والأبواب مغلقة. لم يلتقِ معهم كجماعة طوال أيام الأسبوع من الاثنين حتى السبت، ليؤكد لهم أنه لا يعود يسلك معهم كما قبل الصلب، فقد حان الوقت لإعدادهم لصعوده. بعد القيامة صار وضعه الطبيعي كابن الإنسان القائم من الأموات هو السماء. في بدء خدمته اختفى لمدة أربعين يومًا يُجرب من الشيطان (مت ٤: ١–٢) ليؤكد لتلاميذه أنه جاء ليحارب باسمهم ويقدم لهم نصرته. الآن يبقى أربعين يومًا مختفيًا لا يلتقي معهم إلا في ظهورات معدودة ليؤكد لهم المجد المُعد لهم بصعوده إلى السماء.

كان هذا اجتماع أسبوعي للتلاميذ في يوم الرب، السبت المسيحي، وقد ظهر لهم فيه السيد ليؤكد وعده بطريقة ملموسة أنه إن اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه يكون في وسطهم. وقد حرص توما أن يكون حاضرًا مترقبًا ظهور السيد المسيح للتلاميذ.

❖ إن قلت: ولِم لم يظهر السيد المسيح لتوما في الحال، بل بعد ثمانية أيام؟ أجبتك: حتى يعلن له التلاميذ ذلك فيما بعد ويسمع منهم هذا القول بعينه، ويلتهب بشوقٍ أكثر، ويصير فيما بعد أكثر تصديقًا[2].

---

[1] *Homilies on St. John, 87:2.*
[2] *Homilies on St. John, 87:1.*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هل هذا الأمر مدهش إن كان ذاك الذي في طريقه ليحيا إلى الأبد جعل دخوله والأبواب مغلقة بعد قيامته، هذا الذي عند مجيئه ليموت جعل ظهوره من رحم مغلق للبتول؟... أنه يظهر لهم في الحال بعد قيامة جسده أنه غير فاسد ويمكن أن يكون ملموسًا. أنه يُظهر لنا أن جسده بعد قيامته هو من ذات طبيعة جسدنا لكنه مختلف في نوع المجد[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"**ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا،**
وأبصر يدي.
وهات يدك، وضعها في جنبي،
ولا تكن غير مؤمنٍ بل مؤمنًا". **[٢٧]**

❖ انظر إلى تعطف ربنا، كيف أنه من أجل نفسٍ واحدة أراهم ذاته وبه جراحاته، وجاء إليهم ليخلص الواحد.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ سيكون لنا بعد القيامة ذات الجسم والدم والعظام، فإن ما يُدان في الكتاب المقدس ليس طبيعة هذه الأمور، وإنما تصرفاتها[2].

القديس جيروم

"**أجاب توما وقال له: ربي وإلهي**". **[٢٨]**

لم يكن توما شكاكًا بالصورة التي ظنها في نفسه، فإنه ما أن رأى الرب أمامه وسمع صوته حتى شعر بعدم الحاجة إلى لمس جراحات سيده، وأعلن في الحال إيمانه به، صارخًا: "**ربي وإلهي**". لعل مجرد رؤيته لسيده سحبت قلبه للعالم بكل شيء، فأعلن له ما قاله للتلاميذ بأنه لن يؤمن ما لم يلمس جراحاته. عرف السيد ذلك دون أن يخبره أحد.

اختلفت الآراء، فالبعض يرى أن توما أعلن إيمانه ولم يلمس جراحات السيد، وآخرون يرون أنه أعلن إيمانه فعلاً، وفي طاعة لسيده لمس جراحاته، وإن كان لم يعد بعد محتاجًا إلى ذلك لكي يؤمن.

---

[1] *Hom 25. Forty Gospel Homilies , 201.*
[2] *To Pammachius Against John of Jerusalem, 28..*

❖ لقد رأى الناسوت ولمسه، وأدرك اللاهوت الذي لن يُرى ولا يُمس[١].

القديس أغسطينوس

❖ كما أن الآب هو اللَّه والابن هو رب، هكذا أيضًا الابن هو اللَّه والآب هو رب[٢].

القديس أمبروسيوس

"قال له يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت،

طوبى للذين آمنوا ولم يروا". [٢٩]

لم يقل له السيد: "لأنك لمست جراحاتي آمنت"، وإنما قال: "**لأنك رأيتني**"، فرؤيته للسيد المسيح جذبته للإيمان.

❖ الرب القادر أن يقوم دون أي أثر للجراحات احتفظ بآثار الجراحات حتى يلمسها الرسول الشاك، فتُشفى جراحات قلبه[٣].

❖ عندما لمس التلميذ الشاك جراحات جسم سيده شُفيت جراحات عدم إيمانه. عدم إيمان توما كان أكثر نفعًا لإيماننا عن إيمان التلاميذ المؤمنين، لأنه إذ رجع إلى الإيمان بلمس يسوع، تحررت أذهاننا من كل شك، وصارت ثابتة في الإيمان[٤].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ لقد عرف الجراحات التي في قلوب تلاميذه، فلكي يشفيها احتفظ بآثار جراحات جسده[٥].

❖ يمكن التأكيد بأن التلميذ لم يجسر أن يلمسه عندما قدم (السيد) نفسه لهذا الهدف، إذ لم يُكتب "فلمسه توما". ولكن سواء أكان ذلك بالرؤية فقط أو باللمس أيضًا رأى وآمن، فقد أعلن ما جاء بعد ذلك عن إيمان الأمم: "طوبى للذين آمنوا ولم يروا".

القديس أغسطينوس

٦. الغاية من الإنجيل

"وآيات أُخَر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 121: 5.*
[2] *Of the Holy Spirit, Book 3:15:108.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 48:1.*
[4] *Hom 25. Forty Gospel Homilies , 206-207.*
[5] *Sermon on N.T. Lessons, 38:2.*

لم تُكتب في هذا الكتاب". [٣٠]

يكشف لنا الإنجيلي عن غاية الكتابة، أنه ليس تقديم عرض شامل عن حياة السيد المسيح وأعماله وأقواله، إذ يعرف الإنجيلي الكثير ولم يسجله. ما يبغيه هو تمتع كل قارئ ليس بمجرد الاعتقاد، بل الإيمان الحيّ الذي يقدم معرفة حقيقية تهب حياة أبدية.

"**وأما هذه فقد كُتبت،**

لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله،

ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه". [٣١]

الإيمان بيسوع أنه المسيح ابن الله لا يترك الإنسان في موقعه كما هو، بل يقوده للتمتع بالحياة الأبدية، أو التمتع باسم المسيح، أي بشخصه بكونه الحياة في ذاتها.

❖ جاء الحديث "**تكون إذا آمنتم**" في اليونانية يحمل الاستمرارية، أي إيمانًا عاملاً مستمرًا.

"باسمه" أي خلاله، لأنه هو الحياة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

الأحداث المرتبطة بيوم قيامة السيد المسيح[2]

حاول كثير من الدارسين ترتيب أحداث يوم القيامة العجيب حسبما وردت في الأناجيل المقدسة. وقد رتبها *Weslcott* هكذا:

السبت * قبل الساعة ٦ م ذهبت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب إلى القبر (مت ٢٨: ١).

* مؤخرًا قامت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومي بإعداد الحنوط (مر ١: ١٦).

الأحد * باكرًا تمت القيامة، وبعد ذلك الزلزلة، ومجيء ملاك وفتح القبر (مت ٢٨: ٢-٤).

* جاءت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومي وربما معهن نسوة أخريات إلى القبر في الفجر. ذهبت مريم المجدلية رأسًا إلى القبر، ورجعت مع بطرس ويوحنا (يو ٢٠: ١ الخ).

* النسوة الأخريات بلغن إلى القبر مع شروق الشمس (مر ١٦: ٢)، رأين ملاكًا، وتسلمن رسالة للتلاميذ (مت ٢٨: ٥ الخ؛ مر ١٦: ٥ الخ).

* نسوة أخريات من بينهن يؤانا جئن متأخرات، وكان لازال الوقت صباحًا باكرًا (لو ٢٤: ١

[1] *Hom. 87. PG 59: 521.*

[2] *B. F. Westcott: (Cf. Leon Morris, p. 696.)*

الخ)، وقد ظهر لهن ملاكان على شكل شابين (لو ٢٤: ٤ الخ).

* جاء بطرس ويوحنا إلى القبر (يو ٢٠: ٣–١٠). رأت مريم المجدلية ملاكين (يو ٢٠: ١١–١٣). نساء أخريات أخبرن التلاميذ بالأمر (لو ٢٤: ١٠ الخ)
* ظهر الرب لمريم المجدلية (يو ٢٠: ١٤–١٨؛ مر ٩: ١٦).
* ظهر الرب لنسوة أخريات كن عائدات إلى القبر (مت ٢٨: ٩ الخ).
* ظهر الرب لتلميذين في الطريق إلى عمواس (لو ١٣: ٢٤ الخ).
* ظهر الرب لبطرس مؤخرًا بعد الظهر (لو ٢٤: ٣٤؛ ١ كو ١٥: ٥).
* ظهر الرب للإحدى عشر مع آخرين (لو ٢٤: ٣٦ الخ؛ يو ٢٠: ١٩).

من وحي يو ٢٠

قبرك لم يقدر أن يحبسك في داخله!

❖ مع فجر السبت الجديد أنطلق إلى قبرك.
قبرك لا يقدر أن يحبسك في داخله،
فإنك لن تستريح،
حتى تنطلق إلى قلبي.
قمت والحجر موضوع والختم قائم.
لتدخل في أعماقي،
وتختم عليها بختم البكورة.
لن يقدر حجر الخطية مهما ثقل أن يبطل قيامتك.

❖ لأدخل مع بطرس ويوحنا إلى قبرك.
أرى أكفانك موضوعة لكي أموت معك،
وأكفن بها.
أرى منديلك تمسح به دموعي التي سكبتها كل أيام حياتي!

❖ وإن تحدث معي ملاك لن تشبع نفسي.
لن أكف عن البكاء حتى أراك وأحملك!
لتناديني بفمك،

فإن صوتك حلو!
قل كلمة، فتقيم مني كارزًا ببهجة قيامتك.
أسرع مع تلاميذك، لأتمتع بظهوراتك العجيبة!

❖ ليحملني روحك إلى العلية في شركة مع تلاميذك.
تدخل والأبواب مغلقة،
حتى لا يتسلل أحد إلى لقائك معي.
تكشف لي جراحاتك، فأتعرف على أسرار حبك.
تهبني سلامك،
فيمتلئ قلبي فرحًا.

❖ نعم، كم أشتاق أن ألمس بيدي نفسي جراحاتك،
لأصرخ مع توما الرسول: ربي وإلهي!

الباب السادس

خاتمة

ص ٢١

الأصحاح الحادي والعشرون

وليمة عند طبرية

أو

العبور إلى الدهر الآتي

إذ خُتم الأصحاح السابق بالحديث عن غاية الكتابة من هذا السفر، ظن البعض أن هذا الأصحاح أُضيف إلى السفر في وقت لاحق لكتابته. لكن لا يوجد دليل قوي على هذا الإدعاء، خاصةً وأنه لم توجد أية مخطوطة للسفر خالية من هذا الأصحاح. هذا ولم تفصل الكنيسة بين هذا الأصحاح وغيره من الأصحاحات[1].

يتساءل البعض: ما الحاجة إلى هذا الأصحاح بعد أن بدا كمن ختم السفر بتقديم غاية كتابته. بدأ السفر بالكشف عن بدء الكلمة الأزلي الذي بلا بداية وانتهى في الأصحاح السابق إلى ظهوره قائمًا من الأموات في اليوم الثامن للفصح المسيحي حيث كان هذا اليوم رمزًا للأبدية ذاتها. أما في هذا الأصحاح، فيسير بنا الإنجيلي كما إلى تخوم الدهر الآتي. يختم الرسول يوحنا الحبيب إنجيله بلقاء السيد المسيح مع بعض تلاميذه عند بحر طبرية ليأكل معهم كما في وليمة، وكأنها دعوة للتمتع بالوليمة السماوية.

يعتبر هذا الأصحاح أطول عرض لظهور السيد المسيح في الجليل بعد قيامته.

❖ يليق بنا أن نلاحظ أن الرب يُوصف كمن يقيم وليمته النهائية مع سبعة من تلاميذه (يو ٢١: ١-١٤). لماذا فعل هذا لو لم يعلن بأن أولئك الذين وحدهم مملوءين بنعمة الروح القدس السباعية (إش ١١: ٢-٣)، يكونون معه في وليمته الأبدية؟... يعلن بولس الرسول بالحق: "إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له" (رو ٨: ٩). ما يعنيه أنه لا يفرح أحد فيما بعد عند رؤية المجد الإلهي ما لم يقوده الآن الله الساكن فيه[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

---

[1] *Cf. Leon Morris: Reflections on the Gospel of John, Hendrickon Publishers, 2000, p. 724.*
[2] *Hom 25. Forty Gospel Homilies, PL 76: 185-6.*

١. ظهوره على بحيرة طبرية ١-١٤.
٢. حديثه مع بطرس ١٥-١٩.
٣. حديثه عن يوحنا ٢٠-٢٣.
٤. ختام السفر ٢٤-٢٥.

١. ظهوره على بحيرة طبرية

"بعد هذا أظهر أيضًا يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية، ظهر هكذا". [١]

يقدم لنا القديس يوحنا أحد ظهورات السيد المسيح القائم من بين الأموات، ولم يكن الظهور في يوم العبادة، ولا في داخل الهيكل، ولا حين كانوا مجتمعين للصلاة، وإنما ظهر لهم في أحد أيام العمل وهم منهمكون في عملهم: صيد السمك. مسيحنا مشتاق أن يعلن ذاته للبشرية حتى في لحظات عملهم، كما بعث بالملائكة إلى الرعاة الساهرين في حراستهم لغنمهم ليبشروهم بميلاد السيد المسيح.

لقد سبق أن ظهر السيد المسيح عدة مرات للنسوة كما للرسل في أورشليم وعند القبر. أمرهم أن يذهبوا إلى الجليل، واعدًا إيّاهم أن يلتقوا به (مت ٢٨: ٧؛ مر ١٦: ٧). وقد تحقق هذا الوعد كما يخبرنا القديس يوحنا هنا. يرى البعض أن هذا هو الظهور السابع للسيد المسيح بعد قيامته، والثالث للتلاميذ [١٤]، وقد تم ذلك في اليوم الثالث من قيامته.

جاء الفعل "**ظهر** *genoumenis esti*" الذي تُرجم في العربية "**أظهر**" يعني صار ظاهرًا، أو "**أعلن عن نفسه**". وكأن الموضع الطبيعي للسيد المسيح بعد قيامته هو في العالم الآخر، وأن هذه الظهورات هي إعلان عن نفسه لتلاميذه وغيرهم ليتأكدوا من قيامته. يكشف هذا الفعل عن حالة ربنا يسوع السامية حيث لا يعود الالتقاء به في هذا العالم. فهو الذي يجعل ذاته حاضرًا فيه حين يشاء. وهو الذي يصير إذ ذاك منظورًا حسب ظروف الزمان والمكان. لم يأتِ إلى هذا الشاطئ ماشيًا كمن انطلق من موضع إلى آخر، بل وقف على الشاطئ فجأة وظهر للتلاميذ هكذا.

ربما يشير هذا الفعل "**أظهر نفسه**" أيضًا إلى ما يختلج في نفوس التلاميذ من جراء ذلك، إذ لم يكونوا بعد قد تمتعوا بمعرفته بعد قيامته كما هو. لذلك تحدث معهم كمن هو غريبٍ عنهم مناديًا إيّاهم باسم عمومي: "**يا غلمان**" [٥].

❖ ألا ترون أنه لم يبقَ معهم على الدوام، ولا بنفس الطريقة التي كانت قبلاً؟ لقد ظهر إلى لحظات،

في المساء ثم اختفى، بعد ذلك ظهر مرة أخرى بعد ثمانية أيام واختفى أيضًا، وبعد هذه الأمور ظهر عند البحر، مرة أخرى في مهابة عظيمة. ماذا يعنى "**ظهر**"؟ واضح من هذا أنه لم يكن يُرى إلا عندما يتنازل، لأن جسده غير فاسد، وفي نقاوة (جسد روحاني) بلا اختلاط[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ استعادهم إلى الرجاء الذي لم يكن بعد قد بدأ يحل بهم من جهته، لكنه إذ فعل ذلك نحسب هذا قد تم بناء على أثر اليأس التي تملك علي أذهانهم. أما الآن بعد عودته إليهم حيًا من القبر، بعد الشهادة العظيمة للحق الخاص بتجديد جسده الذي قدمه لأعينهم وأياديهم، ليس فقط يُرى، بل وأيضا يُلمس ويُمسك بعد فحص علامات الجراحات نفسها. وذلك لكي يعترف الرسول توما الذي رفض قبلاً أن يؤمن بعد أن نفخ عليهم الروح القدس، وبعد أن سكب من شفتيه في آذانهم: "**كما أرسلني الآب أرسلكم أنا، من غفرتم لهم خطاياهم غُفرت لهم، ومن أمسكتموها عليهم أُمسكت**". صاروا فجأة مرة أخرى صيادين لا للناس بل للسمك[2].

القديس أغسطينوس

تحقق هذا المشهد عند بحر طبرية في الجليل، فقد رحل التلاميذ شمالاً ربما إلى منازلهم حيث التقى بهم في الجليل.

بحر طبرية *Tiberias*: كان بحر الجليل يدعى في أيام السيد المسيح بحر طبرية. في العهد القديم كان يدعى بحر كنارة *Chinnereth*، وجاء في لوقا ٥:١ "بحيرة جنيسارت". وفي حوالي عام ٢٠م تأسست مدينة على شواطئه دعيت طبرية *Tiberias* على اسم الإمبراطور، ودُعي البحر "بحر طبرية"، وقد تم هذا التغيير خلال عدة سنوات. استخدم الإنجيلي يوحنا الاسم الشائع وقت كتابته للسفر.

"**كان سمعان بطرس وتوما الذي يقال له التوأم،**
ونثنائيل الذي من قانا الجليل،
وابنا زبدي، واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم". **[٢]**

لقد جاء سبعة تلاميذ إلى شاطئ بحر طبرية. ظهر لهم معًا، ربما لأنه كما يقول البعض أن القانون الروماني يتطلب سبعة شهود للشهادة. أظهر السيد المسيح نفسه هنا لسبعة من تلاميذه من

[1] *Homilies on St. John, 87:2.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 122:2.*

بينهم نثنائيل الذي لم يشر إليه القديس يوحنا بعد لقائه مع السيد المسيح في الأصحاح الأول. يظن البعض أنه هو برثلماوس أحد الاثنى عشر تلميذًا. أما التلميذان اللذان لم يشِر إلى اسمهما هنا فربما هما فيلبس من بيت صيدا وأندراوس من كفرناحوم.

"قال لهم سمعان بطرس:
أنا أذهب لأتصيد.
قالوا له: نذهب نحن أيضًا معك.
فخرجوا ودخلوا السفينة للوقت،
وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئًا". [٣]

مما لا شك فيه أن الفترة التي عاشها التلاميذ ما بين الصلب حتى الصعود، كانت تمثل غموضًا، وإن كانت ظهورات السيد المسيح لهم فتحت أمامهم أبواب الرجاء، وكشفت لهم عن الكثير من الأسرار الإلهية. كانت الحالة النفسية للتلاميذ متقلبة، والمستقبل بالنسبة لهم لم يكن واضحًا. لم يكن ممكنًا لهم أن يدركوا طابع حياتهم الجديدة بعد مفارقة السيد المسيح لهم بالجسد. لقد تسلموا الالتزام بالإرسالية للعالم كله، لكنهم لم يكونوا بعد قد تمتعوا بالروح القدس الذي يقودهم للعمل الجديد. حقا لقد تبدل حزن جمعة الصلب ببهجة القيامة في الأحد، ولكن ما هي خطة الله بالنسبة لهم؟ هل يبقوا في بيوتهم، أم يجتمعوا معًا؟ هل يعيشوا في الجليل، أم ينطلقوا للشهادة القيامة؟ كان الموقف غاية في الصعوبة، لهذا إذ دعاهم بطرس للرسل للتصيد تحركوا معه لممارسة أي عمل. لم يكن قد حان وقت الكرازة بالمسيح وعمله الخلاصي، إذ كان يلزم الانتظار حتى صعوده وحلول روحه القدوس على الكنيسة.

لم يعرف التلاميذ حياة الخمول والكسل، فخرجوا للتصيد، ليس كنوعٍ من الترفيه، وإنما للعمل، حتى يجدوا ما يسد احتياجاتهم المادية. دعاهم بطرس للرسول للتصيد كمورد رزق لهم، لأنهم كانوا يعيشون قبل الصلب على ما يقدمه البعض في الصندوق (لو ٨: ٣). لهذا كما يخبرنا **القديس يوحنا كاسيان** عن الرهبنة المصرية أن الرهبان كانوا ملتزمين بالعمل لسد احتياجاتهم، بل والاهتمام بالفقراء، مع التطلع إلى العمل كتدريبٍ يمس نموهم الروحي. يجدر بالراهب ألا ينشغل بالأعمال الكثيرة، وفي نفس الوقت لا يعتمد على أقربائه أو غيرهم في المئونة الضرورية له.

❖ بفضل الزهد في كل غنى نختار الحصول على قوتنا اليومي بعمل أيدينا دون أن نعتمد على غنى أقربائنا، لئلا نميل إلى التأمل في الكتاب المقدس مع كسلٍ، فتصير قراءتنا عقيمة. لكن الأفضل

أن يكون لنا الفقر العامل. حقًا لو أن الرسل علمونا هذا بمثالهم أو رأينا هذا في قوانين آبائنا لكان هذا مبهجًا لنا.

هذا ويجدر بك أن تعلم أن **هناك خطر آخر لا يقل عن السابق، وهو أنك تقتات بمعونة الغير وأنت سليم الجسد قوى البنية، هذا لا يليق إلا بالضعفاء...** لذا يلزم بالكل أن يعيشوا بالعمل اليومي الذي من أيديهم، ويجدر بنا أن نعود إلى وصية المحبة التي أوصانا بها الرسول الذي يمنع مساعدة الأغنياء للكسالى قائلاً: "فإننا أيضًا حينَ كُنَّا عندكم أوصيناكم بهذا أنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضًا" (٢ تس ٣: ١٠).

هذه هي كلمات **الطوباوي أنطونيوس** التي نطق بها مع هذا الإنسان، وقد علمنا الطوباوي هذا بمثاله[1].

الأب إبراهيم

ما أجمل أن يجتمع الإخوة معًا ليس فقط في العبادة الكنسية والكرازة، بل وفي الحوار المملوء حبًا، وأيضًا **في العمل**، فتزداد المحبة المتبادلة بينهم، ويجدون مسرّتهم في الوحدة العملية.

قرار القديس بطرس طبيعي، وإن كان البعض يشعرون بأنهم قرار ليس حسب مشيئة الله، إذ ذهب هو وزملاؤه دون استشاره الله بالصلاة، لذلك قضوا الليلة كلها ولم يصطادوا شيئًا. على أي الأحوال كان هذا درسًا عمليًا عن فشل كل جهود بشرية، مهما كان هدفها، مادامت لا تستعين بالعون الإلهي، خاصة في اصطياد النفوس لحساب ملكوت الله.

❖ قال يسوع، الحق: "ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله" (لو ٩: ٦٢). لماذا عاد بطرس إلى ما قد تركه؟ نحن نعرف أن بطرس كان صياد سمك بينما كان متى عشارًا. عاد بطرس لصيد السمك بعد تحوله للإيمان. أما متى فلم يجلس بعد في مكان الجباية، لأن المعيشة خلال صيد السمك شيء، وإضافة الربح خلال الجباية شيء آخر. توجد أعمال كثيرة لا نستطيع ممارستها جزئيًا ولا بالكامل دون أن نخطئ. لا يسمح لأحد أن يعود إليها بعد إيمانه، تلك التي ترتبط بالخطية[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

يجيب **القديس أغسطينوس** على التساؤل: "إن كان الرب قد وعد قائلاً: "اطلبوا ملكوت الله وبرّه،

[1] *Cassian: Conferences, 24:12..*
[2] *Hom 24. Forty Gospel Homilies, PL 76: 1184.*

وهذه كلها تزاد لكم" (مت ٦: ٣٣)، فلماذا لم يُوجد للتلاميذ ما لقوتهم حتى التزموا بالذهاب للصيد؟ إنه هو أيضًا وضع هناك السمك الذي يُصطاد، وجاء بالتلاميذ إلى العوز لكي يلزمهم أن يصطادوا، فيكشف لهم المعجزة التي أعدها لهم، فيُشبع الكارزين بإنجيله، وفي نفس الوقت يعزز الإنجيل نفسه بالسرّ العظيم الذي ينطبع على أذهانهم بسبب كثرة عدد السمك[1].

❖ لم يُطلب منهم أن يمتنعوا عن طلب الاحتياجات اللازمة خلال المهنة، مادامت هذه المهنة شرعية في ذاتها ومسموح بها، ومادامو يحتفظون بعملهم الرسولي دون مساس به، وذلك متى لم يكن لهم وسيلة لكسب القوت اليومي. وإلا يتجاسر أحد ظانًا أو مؤكدًا أن الرسول بولس لم يبلغ كمال الذين تركوا كل شيء وتبعوا المسيح، إذ رأى أن يعمل بيديه لسد احتياجاته حتى لا يكون ثقلاً على أحد ممن يكرز لهم بالإنجيل. إنما بالأحرى نجده يحقق كلماته: "تعبت أكثر من جميعهم" مضيفًا: "ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي" (١ كو ١٥: ١٠)[2].

القديس أغسطينوس

"ولما كان الصبح، وقف يسوع على الشاطئ،
ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع". [٤]

لم يعرفه التلاميذ ربما لأن نور الصباح لم يكن بعد كافيًا للرؤية، أو لأنه كان بعيدًا عنهم، أو أخذ شكلاً آخر كما في مر ١٦: ١٢.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنه لم يعلن لهم ذاته حتى يمكنهم الدخول في حوارٍ معه.

❖ قبل القيامة مشى يسوع على أمواج البحر أمام نظر تلاميذه (مت ١٤: ٢٥). إلى ماذا يشير البحر إلا للعصر الحاضر الذي يضطرب بضجيج الظروف وفوضى هذه الحياة الفانية؟ ماذا تعني صلابة الشاطئ إلا استمرارية السلام الأبدي غير المنقطع؟ وحيث أن مخلصنا قد عبر فعلاً إلى ما وراء الجسد الفاني، لذلك وقف بعد قيامته على الشاطئ كمن يتحدث إلى تلاميذه بتصرفاته الخاصة بسرّ قيامته[3].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"فقال لهم يسوع:

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 122: 4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 122: 3.*
[3] *Hom 24. Forty Gospel Homilies, PL 76: 1184.*

يا غلمان ألعل عندكم إدامًا أجابوه لا". [٥]

"**غلمان**" باليونانية *Paidia* تعبير يُستخدم لمن لهم علاقة قوية مع عاطفة وحنو نحو المتحدث إليهم. الكلمة اليونانية *pais* معناها حرفيًا الأطفال الصغار أو المحبوبون. استخدمها الإنجيلي يوحنا للابن الصغير لأحد النبلاء (٤: ٤٩)، وللطفل المولود حديثًا (١٦: ٢١). لكن يمكن استخدامها للبالغين، بل وتستخدم أحيانا بالنسبة للجنود. هكذا تحدث السيد المسيح معهم بروح الأبوة نحو أبناءٍ أعزاءٍ لديه، فمع أنه بالقيامة تمتع بالجسد الممجد، فإن هذا المجد يُعلن بروح الحب الأبدي والحنو الفائق. بحسب عمرهم لم يكونوا في طبقة الأبناء، لكنهم صاروا أبناء للَّه يتمتعون بالبنوة الإلهية.

كأبٍ مملوء حنوًا يهتم حتى بطعامهم الجسدي، يُشبع كل احتياجاتهم الروحية والجسدية. يبقى مسيحنا القائم من الأموات **يعبر خلال مؤمنيه** عند كل بيت، خاصة الفقراء والمحتاجين، ويسأل: يا أولادي ألعل عندكم طعامًا؟ إنه يعلم أنه ليس لديهم طعامًا، لكنه يثير فيهم الرغبة في الصلاة بإيمان ليطلبوا منه شبعًا. يشبعهم بالطعام لا من يدٍ بشريةٍ، بل من مخازنه، يرويهم بنفسه بوسيلةٍ أو أخرى بينابيع حبه، ويفتح عيون قلوبهم ليروه ويتعرفوا على أسراره.

❖ بالأحرى تحدث معهم بطريقة بشرية كما لو كان يود أن يشترى منهم شيئًا. ولكن عندما أشاروا أنهم لم يصطادوا شيئًا أمرهم أن يلقوا شباكهم إلى الجانب الأيمن من السفينة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

جاءت إجابتهم لهم بالنفي "**لا**"، للتعبير عما عانوه من مرارة، إذ قضوا الليل كله بلا صيد. لم يريدوا الحديث عن هذه الليلة في شيء من التفصيل، إذ يصعب على الشخص أن يتحدث عن فشله.

"فقال لهم: القوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا،
فألقوا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك". [٦]

يبدو أنه حسب خبرتهم كصيادي سمك كان يلزمهم إلقاء الشبكة في الجانب الأيسر من السفينة في ذلك الموضع من البحيرة. مع عدم معرفتهم لمن قدم لهم المشورة أطاعوا الأمر بروح التواضع والاجتهاد وطول الأناة دون مناقشة، وبغير اعتداد بخبرتهم الطويلة في الصيد، ولعل رقة حديث السيد ولهجته ألزمتهم بالطاعة والخضوع.

صيد السمك الكثير كان عملاً معجزيًا، ليس لإبراز سلطان السيد المسيح حتى على السمك

[1] *Homilies on St. John, 87:2.*

والبحار، وإنما لإعلان رعايته واهتمامه باحتياجات الناس، خاصة الذين تركوا كل شيء من أجله. هذا وقد حمل ذلك عملاً رمزيًا، **فجهاد التلاميذ طوال المساء يشير إلى جهاد الأنبياء ورجال العهد القديم لكي يصطادوا النفوس لحساب مملكة المسيح، لكن لم يصطادوا شيئًا، حتى جاء السيد المسيح، وفتح بصليبه أبواب الفردوس، وأعطى التلاميذ سلطانه للصيد، فامتلأت سفينة الكنيسة بالسمك.**

لقد جاهد التلاميذ طوال المساء وبدا لهم كأنهم فاشلون لم يصطادوا شيئًا، لكن السيد المسيح الذي لن ينسى تعب أبنائه، ففي لحظات عوّضهم عن تعب الليل كله. هكذا يبعث فينا روح الرجاء. فقد نتعب لسنوات في الخدمة، لكن يظهر الثمر في اللحظات الأخيرة من حياتنا على الأرض.

حقًا حينما يوجهنا السيد المسيح للعمل لحساب ملكوته، ونطيعه لن توجد بعد الشباك فارغة. هو وحده يعرف أين توجد النفوس المتعطشة للتمتع بالخلاص، حتى وإن لم توجد علامات ظاهرة عليهم؛ وهو الذي يوجهنا إليها، ويجتذبها إلى شباك كنيسته المقدسة.

❖ نقرأ مرتين في الإنجيل المقدس أن الرب أمر أن تُلقى الشباك للصيد.

في الصيد الأول (لو ٥: ٤-٦) قبل الآلام، لم يقل إن الشباك تلقى على الجانب اليمين أم اليسار، وقد جاءوا بسمكٍ كثيرٍ حتى **كادت الشباك أن تتخرق**. وفي الصيد الأخير، بعد القيامة أمر بإلقاء الشبكة على الجانب اليمين، ومع أنها قد جاءت بسمكٍ كثيرٍ لم تتخرق الشباك.

يُشار للأبرار بالجانب اليمين والأشرار الشمال (مت ٢٥: ٣٣). الصيد الأول يشير إلى الكنيسة في الوقت الحاضر حيث تأتي بالصالحين والأشرار. إنها لا تختار الذين يدخلون فيها، لأنها تجهل الذين يمكنها أن تختارهم. تحقق في الصيد الأخير على الجانب اليمين حيث أن كنيسة المختارين وحدها التي لا يوجد فيها شيء من أعمال الأشرار، سترى مجد بهائه.

في الصيد الأول تخرقت الشبكة بسبب الأشرار الذين دخلوا مع المختارين، فمزقوا الكنيسة بهرطقاتهم. في الصيد الأخير أصطيد السمك الكبير ولم تتمزق الشبكة، لأن كنيسة المختارين المقدسة تبقى في سلام خالقها الذي لا يُعاق، وليس من انشقاقات تمزقها[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

"فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس:

هو الرب.

[1] *Hom 24. Forty Gospel Homilies, 181-182.*

فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب،
اتزر بثوبه، لأنه كان عريانًا،
وألقى نفسه في البحر". **[٧]**

"**اتّزر بثوبه**" أو بسترة الصيّاد أو الثوب الخارجي *ependuteen*، وهو أشبه بمعطف للرجال في عصرنا الحالي.

"**لأنه كان عريانًا**"، تعبير خاص بالشخص الذي لا يرتدي الثوب الخارجي، كما قيل عن شاول حين خلع ثيابه *himatra* الخارجية وانطرح عريانًا النهار كله وكل الليل (١ صم ١٩: ٢٤). وقيل عن داود وهو متمنطق بأفودٍ من كتّان أنه قد انكشف في أعين إماء عبيده (٢ صم ٦: ١٤، ٢٠).

"**ألقى نفسه في البحر**"، واضح أنه كان قريبًا من الشاطئ على بعد حوالي ٢٠٠ ذراعًا (حوالي ١٣٢ ياردة إنجليزية) وأن المياه كانت ضحلة، إذ ارتدى الثوب الخارجي ليعبر إلى الشاطئ، فلو كانت غير ضحلة ما كان يرتدي الثوب الخارجي حتى يقدر أن يسبح إلى الشاطئ.

أدرك يوحنا الذي كان يسوع يحبه أنه هو الرب، فإن الرب يكشف أسراره لمحبيه. حقًا إن اللَّه لا يحرم أحدًا من التمتع بمعرفته، فكل من يضع رأسه على صدر السيد المسيح يتمتع بالأسرار الإلهية. ومن يرافق السيد المسيح آلامه حتى الصليب يتمتع بنقاوة القلب وصفاء العينين ليسبق غيره في التعرف على السماويات. هكذا إذ تلامس القديس يوحنا مع شخص ربنا يسوع المسيح لم يستطع أن يخفي معرفته فأعلنها، حتى وإن سبقه بطرس ليلتقي مع السيد. مسرته أن يتمتع الكل بما يراه ويختبره.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن بطرس الرسول اتسم بالحماس والغيرة المتقدة، واتسم يوحنا بالهدوء، لذلك تعرف يوحنا بهدوء على شخص المسيح أولاً، لكن بطرس هو الذي جاء إليه أولاً حيث ألقى نفسه في البحر وسبح إليه، ولم ينتظر أن يأتي مع التلاميذ بالسفينة[1].

❖ عندما تعرَّف عليه بطرس ترك السمك والشباك واتزر.

انظر شعوره بالمهابة والشوق، فإنه مع أن المسافة كانت ٢٠٠ ذراعًا لم يستطِع أن ينتظر السفينة أن تأتي إليه بل ذهب إلى الشاطئ سابحًا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

مع أن القديس بطرس قد أنكر السيد المسيح ثلاث مرات، لكنه إذ قدم دموع التوبة شعر بدالة حب

[1] *Hom. 87. PG 59: 522.*
[2] *Hom 76. PG 59: 522.*

وصداقة لن يقدر الزمن أن ينزعها. إذ عرف أنه الرب لم تستطع السفينة أن تحتمله ولم يستطع هو أن ينتظر حتى تبلغ الشاطئ، بل ألقى بنفسه في البحر ليسرع باللقاء مع محبوبه.

❖ بينما لم يعرف الآخرون قال التلميذ الذي يسوع يحبه لبطرس: "**هو الرب**" (يو ٧: ٢١). لأن البتولية هي أولاً تعرف الجسم البتولي أنه "يسوع" هو بعينه، لكن لم يره الكل بذات النظرة[1].

القديس جيروم

"**وأما التلاميذ الآخرون فجاءوا بالسفينة،**
لأنهم لم يكونوا بعيدين عن الأرض إلا نحو مائتي ذراع،
وهم يجرون شبكة السمك". **[٨]**

مائتا ذراع أي حوالي ١٠٠ ياردة.

"**فلما خرجوا إلى الأرض،**
نظروا جمرًا موضوعًا وسمكًا موضوعًا عليه وخبزًا". **[٩]**

كما أن صيد السمك كان عملاً معجزيًّا، هكذا وجود جمرٍ موضوعٍ عليه سمك مع خبز فجأة هو من إعداد السيد المسيح معجزيًا. لقد وجد التلاميذ جمرًا [١٩] كما في دار رئيس الكهنة (يو ١٨: ١٨)، لكن هذه المرة يوجد فوق الجمر سمك وبجانبه خبز. يعبر المشهد عن طابعه "الاحتفالي".

بينما سألهم إن كان لديهم طعام فيبدو كمن هو جائع، إذا به يقدم لهم طعامًا لا يعتمد على مجهودات بشرية ضعيفة. حقا إن كان قد دعانا للعمل لحساب ملكوته، لكن الثمر المفرح والطعام السماوي الذي يسر الآب هو من صنع السيد المسيح نفسه، ومن عمل روحه القدوس.

❖ ذاك الذي رغب أن يُشوي بأتعاب آلامه في بشريته يقوتنا بخبز لاهوته، إذا يقول: "أنا هو الخبز الحي النازل من السماء" (يو ٦: ٥١). وهكذا أكل سمكًا مشويًا مع خبز لكي يظهر لنا بهذا الطعام أنه حمل آلامه في بشريته، وقدم لنا طعامًا بلاهوته[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ طلب سمكًا مشويًّا على فحم لكي يثَّبت للتلاميذ الشاكّين الذين لم يجسروا أن يقتربوا إليه، إذ ظنّوا أنهم لا يرون جسدًا بل روحًا[3].

---

[1] *To Pammachius Against John of Jerusalem, 35.*
[2] *Hom 24. Forty Gospel Homilies, 184.*
[3] *To Pammachius Against John of Jerusalem, 34.*

القديس جيروم

"**قال لهم يسوع:**
قدموا من السمك الذي أمسكتم الآن". **[١٠]**

❖ أمر السيد المسيح تلاميذه أن يقدموا من السمك الذي اصطادوه، موضحًا أن الأعجوبة الكائنة لم تكن خيالية.

❖ سارت الأمور على غير الطبيعة، ما هي هذه؟

أولاً: أنهم اصطادوا سمكًا كثيرًا.

ثانيًا: الشباك لم تتخرق.

ثالثًا: وقبل وصولهم إلى البر كان الجمر معدًا والسمك عليه، ومعه الخبز. فإنه لم يعد يُوجد الأشياء من مادة موجودة فعلاً، وذلك بتدبير خاص كما فعل قبل الصلب[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**فصعد سمعان بطرس وجذب الشبكة إلى الأرض،**
ممتلئة سمكًا كبيرًا مائة وثلاثًا وخمسين،
ومع هذه الكثرة لم تتخرق الشبكة". **[١١]**

رأينا في الصيد الأول (لو ٥: ١-١١) شباكهم صارت تتخرّق حيث كانت خاضعة لسُنن هذا العالم، أما هنا فمع وفرة الصيد "**لم تتخرق الشبكة**" حيث تخضع لسُنن الأبدية.

اهتم الإنجيلي يوحنا بالأعداد لكنها لم تكن في ذهنه علامة لكميات بل لنوعية كيان. فنراه يحدد عرس قانا الجليل "**في اليوم الثالث**" (يو ٢: ١). كما ذكر **سبع** آيات **وسبع** مواعظ، وجاءت كلمة "اللَّه" في مقدمة الإنجيل **ثمان** مرات، وفي الإنجيل كله ٨٠ مرة. أما كلمة "لوغوس" فوردت ٤ مرات في المقدمة و٤٠ مرة في كل السفر. أما رقم ١٥٣ فقد انكبّ على تأويله عبر القرون معلقون لا يُحصون.

يقدم لنا **القديس أغسطينوس** تفسيرًا رمزيًا لهذه المعجزة، جاء فيه: إن عدد التلاميذ الذين خرجوا للصيد سبعة وهو الرقم الذي يشير إلى كمال الأزمنة (٧ أيام الأسبوع)، وقد جاءهم السيد في الصباح أي عند نهاية الأزمنة. وأن سحب الشبكة إلى الشاطئ يشير إلى تحقيق الدينونة في اليوم الأخير. أما

[1] *Hom 76. PG 59: 522.*

محاولة الصيد طول الليل فيشير إلى الخدمة ما قبل قيامة السيد المسيح حيث لم يتمتع أحد ببركات القيامة وانتشار الكلمة، وإلقاء الشبكة على الجانب الأيمن للسفينة يشير إلى كسب الكثيرين بعد قيامته. غير أن الشبكة جمعت الكثير من السمك الكبير والصغير إشارة إلى وجود مؤمنين صالحين وأيضًا وجود أشرار داخل الكنيسة، ويتم الفرز في يوم الرب. وأما عدد السمك الكبير فهو ١٥٣ سمكة إشارة إلى رجال العهد القديم (١٠ رمز الناموس) مع رجال العهد الجديد (٧ رقم الكمال) فالمجموع ١٧. رقم ١٥٣ هو محصلة جمع الأرقام من ١ إلى ١٧.

تُسمى بعض الأعداد بأنها مثلثة. مثل رقم ١٠ هو العدد المثلث للعدد ٤ (١+٢+٣+٤=١٠) والعدد ١٥٣ هو العدد المثلث للعدد ١٧، وهو يحوي ٧، ١ أي ثمانية. عدد التلاميذ على البحيرة ٧، وعدد ٨ يشير إلى الأبدية.

يرى **البابا غريغوريوس (الكبير)** أن كل عمل في العهد القديم يرتبط بالوصايا العشرة، وأنه يكمل في العهد الجديد بالروح القدس الذي يقدم سبع نعم "روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة والتقوى، روح مخافة الرب" (راجع إش ١١: ٢-٣). فالعهدان معًا يشار إليهما برقم ١٧ [٧+١٠]، فكل أعمالنا في العهدين هي ١٧، فإذا ضربت في رقم ٣ تكون المحصلة ٥١ حيث يُحتفل باليوبيل (٥٠) ونبدأ بالسنة ٥١... هذه هي راحة العهد القديم. أما في العهد الجديد فنضرب ٥١ في ٣ (إشارة للثالوث القدوس) فتكون المحصلة ١٥٣، وهي إشارة إلى المختارين من رجال العهدين معًا في الكنيسة السماوية أي بيتنا السماوي[1].

يقدم لنا **القديس أغسطينوس** مقارنة رائعة بين معجزتي صيد السمك الواردتين في إنجيل لوقا ٥: ٣-٧، وإنجيل يوحنا ٢١: ١-١١. وقد نقل عنه ذلك **البابا غريغوريوس (الكبير)**. يمكننا أن نلخص مقارنته في النقاط التالية مع شيء من التصرف[2]:

١. تمت المعجزة الأولى (لو ٥) قبل قيامة السيد المسيح، أما الثانية فتمت بعد قيامته. لهذا يرى أن المعجزة الأولى تشير إلى **الكنيسة في العالم الحاضر**، وهي تتمتع بنعمة المسيح، أما الثانية فتشير إلى **الكنيسة في العالم القادم**، أو فيما بعد القيامة، حيث تتمتع الكنيسة بمجد المسيح.

٢. في إنجيل يوحنا تمت المعجزة في **الصباح المبكر** بعد ليلٍ طويلٍ، إشارة إلى ظهور الكنيسة في كمال مجدها مع مجيء المسيح الثاني الذي يشرق عليها بصباحٍ جديدٍ.

---

[1] *Hom 24. Forty Gospel Homilies, 182-183.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 122: 7 – 9.*

٣. في إنجيل لوقا لم يُطلب منهم إلقاء الشبكة **على الجانب الأيمن من السفينة** بل أن يدخلوا إلى العمق ليلقوا الشباك، فامتلأت الشباك بالسمك الجيد والرديء. أما في إنجيل يوحنا فطُلب إلقاء الشبكة على الجانب الأيمن، وجاءوا بسمك كله جيد. المعجزة الأولى تشير إلى الكنيسة المملوءة من المؤمنين، لكن ليس الجميع صالحين، بل يختلط الصالح بالشرير، ولا يمكن فرزهم هنا. ففي الكنيسة مؤمنون صادقون يتمتعون بالشركة مع الله في المسيح يسوع بعمل روحه القدوس كما يوجد مؤمنون شكليون ومراءون لا يبالون بخلاص أنفسهم ولا خلاص إخوتهم، إنما كل ما يشغلهم هو مجدهم الذاتي أو الملذات وشهوات الجسد والارتباط بالزمنيات. أما في إنجيل يوحنا فنجد الكنيسة مع بدء الدهر الآتي يُفرز المؤمنون الحقيقيون عن الأشرار. حيث يقف الصالحون عن يمين السيد المسيح كمباركي الآب لهم حق الميراث الأبدي، أما الأشرار فلا نصيب لهم عن يمين المسيح بل على اليسار كمن لا وجود لهم، وليس لهم نصيب مع المخلص.

٤. في إنجيل لوقا نجد الشباك **كادت أن تتخرق**، أما في إنجيل يوحنا حيث امتلأت الشبكة جدًا **لم نسمع هذا التعبير**. فالكنيسة في هذا العالم تتعرض إلى هجمات أصحاب البدع والهرطقات ومحبي الانشقاق، حتى تبدو الكنيسة كأنها تكاد تتمزق من الانقسامات، لكن الكنيسة الحقيقية تبقى مخفية بلا انقسام في عيني الله، حيث يكون كل أعضائها أعضاء في جسد المسيح الواحد. أما في كنيسة السماء (بعد القيامة) فنرى شبكة واحدة لن تتعرض إلى تمزيق، بل تحمل بهاء الوحدة كعروس المسيح الواحدة للعريس السماوي.

٥. تحققت الأولى خلال سفينتين حيث يوجد أهل الختان (رجال العهد القديم) وأهل الغرلة (الأمم الذين دخلوا الإيمان)، ففي العالم ظهرت كنيسة العهد القديم كما كنيسة العهد الجديد، وفي كلاهما يعمل المسيا بطريقٍ أو آخر. أما في السماء فلا فصل بين الكنيستين، إذ صارا سفينة واحدة تضم الجميع.

٦. يرى **القديس أغسطينوس** أن السفينة تبعد حوالي ٢٠٠ غلوة. ولما كانت تضم أهل الختان وأهل الغرلة معًا، فإن رقم ١٠٠ يشير إلى الوقوف عن يمين السيد المسيح، فيكون رقم ٢٠٠ إشارة إلى وقوف الفريقين معًا على ذات المسافة، أو يتمتع الفريقان بذات المكافأة والمجد.

٧. بالنسبة لعدد السمك ١٥٣ سمكة فقد قدم كثير من الآباء تفاسير رمزية مختلفة عن هذا الرقم.

٨. قيل عن السمك أنه كبير، لأن المؤمنين يُحسبون عظماء في ملكوت الله.

"**قال لهم يسوع:**

هلموا تغدوا.

ولم يجسر أحد من التلاميذ أن يسأله من أنت،

إذ كانوا يعلمون أنه الرب". **[١٢]**

"**هلموا تغدّوا**"، جاءت كلمة "**تغدّوا**" ترجمة حرفية للكلمة اليونانية *aristeasate*، ويرى البعض أن أصل الكلمة استخدم لتعني "الإفطار" كما جاء في هومير *Homer* وإكسنوفون Xenophom وبلوتارخ *Plutarch*، أو لوجبة مبكرة، كما تُستخدم لطعام الغذاء. وكأن السيد يدعوهم "هلموا لطعام الإفطار"، إذ كان الوقت صباحًا مبكرًا.

كصديق شخصي "**قال لهم يسوع: هلموا تغدّوا**" **[١٢]**. لقد دعاهم للوليمة التي أعدّها لهم، فأكلوا وشبعوا، وبقي سمك كثير كبير يبيعونه، لكي ينفقوا على احتياجاتهم اليومية.

تمت معرفتهم للرب بدون كلامٍ من قبل الرب ولا من قبلهم، وكأنه قد رفعهم إلى سكون السماء حيث لا نسمع لغة بشرية، بل نتحدث بلغة الحب السماوي.

❖ لم يتجرأ أحد من تلاميذه أن يسأله، ولا تقدموا إليه فيما بعد بكلام، لكنهم جلسوا ناظرين إليه بصمتٍ وخوفٍ كثيرٍ واستحياء "**إذ كانوا يعلمون أنه الرب**". ولهذا السبب لم يسألوه "من أنت؟" وأبصروا صورته، فتبينوا فيها تغيرًا، فكانوا خائفين جدًا، وأرادوا أن يسألوه عن هيئته، لكن لخوفهم ومعرفتهم أنه لم يكن أحدًا آخر، بل هو الرب، ضبطوا سؤالهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**ثم جاء يسوع وأخذ الخبز وأعطاهم،**

وكذلك السمك". **[١٣]**

تصرف معهم الرب كصديقٍ، وقدم لهم احتياجاتهم، وأما هم ففي حياء لم يجسروا أن يسألوه: من أنت؟ إذ علموا أنه الرب. ولكي ما يفتح لهم باب اللقاء في دالة حب قوية تقدم وأخذ الخبز وأعطاهم، وهكذا فعل بالسمك.

لم يذكر الإنجيلي يوحنا إن كان السيد المسيح قد شاركهم الطعام أم لا، فإنه حتمًا لم يكن جسمه القائم من الأموات محتاجًا إلى طعام، لكنه ربما أكل لتأكيد أنه يحمل جسمًا حقيقيًا وليس خياليًا.

❖ أوضح أن الأعجوبة الكائنة لم تكن خيالاً، لكن البشير لا يقول هنا إن السيد المسيح أكل معهم. قول لوقا البشير في هذا الموضع غير واضح: "فأخذ وأكل قدامهم" (لو ٢٤: ٤٣). أكل السيد

المسيح هنا ليس عن طبيعة جسده إذ لم يكن محتاجًا إلى طعام، لكن لتواضعه أكل برهانًا على القيامة الكائنة.

❖ لم يعد يمارس ما كان يفعله قبلاً... هنا لم يعد بعد ينظر إلى السماء (ليبارك الطعام)، ولا تمم الحركات البشرية مظهرًا أن ما كان قد فعله قبلاً كان من قِبَلْ تنازله. ولكي يُظهر لهم أنه لم يعد يبقى معهم على الدوام، ولا بنفس الطريقة التي كان بها معهم قبلاً. لهذا قال: "**هذه هي مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه...**"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**هذه مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعدما قام من الأموات**". **[١٤]**

"**هذه هي مرة ثالثة**" ظهر فيها لتلاميذه وهم مجتمعون بالكامل أو أغلبيتهم. فقد ظهر لعشرة منهم (يو ٢٠: ١٩)، ومرة أخرى لإحدى عشر (يو ٢٠: ٢٦)، وفي هذه الدفعة لسبعة منهم (يو ٢١: ٢). ويرى البعض أن هذا الظهور هو السابع بوجهٍ عام بعد قيامته حتى صعوده إلى السماء:

١. لمريم المجدلية (مر ١٦: ٩؛ يو ٢٠: ١٥-١٦).
٢. للنسوة القادمات للقبر (مت ٢٨: ٩).
٣. لاثنين من تلاميذه في الطريق إلى عمواس (لو ٢٤: ١٣ الخ).
٤. لبطرس وحده (لو ٢٤: ٣٤).
٥. للعشرة تلاميذ بدون توما (يو ٢٠: ١٩).
٦. للإحدى عشر في اليوم الثامن حين آمن توما (يو ٢١: ٢٦).
٧. لسبعة تلاميذ (يو ٢١: ٢)، ما بين ٨ أيام و١٤ يومًا من قيامته.
٨. للتلاميذ على جبل معين في الجليل (مت ٢٨: ١٦).
٩. لأكثر من ٥٠٠ أخٍ دفعة واحدة (١ كو ١٥: ٦)، إن لم يكن ذلك هو بعينه الظهور السابق.
١٠. رآه يعقوب (١ كو ١٥: ٧).
١١. لكل التلاميذ عند صعوده إلى السماء (مر ١٦: ١٩-٢٠؛ لو ٢٤: ٥٠-٥٣؛ أع ١: ٣-١٢؛ ١ كو ١٥: ٧).

هذه هي الظهورات التي وردت في الكتاب المقدس، لكننا لا نستطيع أن نجزم إن كانت هناك

[1] *Homilies on St. John, 87:2.*

ظهورات أخرى تمت ولم ترِد في الكتاب المقدس.

❖ لإيضاح أن السيد المسيح لم يقم مع تلاميذه إقامة متصلة، وعلى شبه ائتلافه بهم فيما سبق قال البشير: "**هذه مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه**".

❖ ربما عندما تسمعون هذه الأمور تلتهبون وتحسبون أن الذين كانوا معه كانوا سعداء، وأيضًا الذين سيكونون معه في يوم القيامة العامة. لنبذل كل الجهد حتى نرى ذاك الوجه العجيب. فإننا إن كنا ونحن الآن نسمع نلتهب شوقًا لو كنا في تلك الأيام التي قضاها على الأرض، وسمعنا صوته، ورأينا وجهه، واقتربنا إليه ولمسناه، وخدمنا تحت قيادته. فلتحسبوا كم تكون عظمة من يراه ليس بعد في جسدٍ قابل للموت، ولا وهو يمارس أعمالاً بشرية، وإنما بجسدٍ تحرسه الملائكة، فنكون نحن أنفسنا في شكل نقي بلا اختلاط.

نراه ونتمتع ببقية البركات التي تفوق كل اللغات. إني أتوسل إليكم أن نستخدم كل وسيلة حتى لا نفقد بركة مجدٍ كهذا. فإنه ليس شيء صعبًا إن أردنا، ليس شيء ثقيلاً إن كنا نهتم بذلك. "إن كنا نصبر فسنملك معه." (١ تي ٢: ١٢)[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. حديثه مع بطرس

أكد لهم السيد المسيح أنه خالق الجسد والروح. اهتم أن يقدم لهم إفطارًا من صنع يديه لإشباع احتياجاتهم الجسدية، والآن يهتم بالطعام الروحي لإشباع احتياجاتهم الروحية.

تم هذا الحوار بين السيد المسيح والقديس بطرس بعدما تغذّ التلاميذ وشبعوا. وربما تم أثناء الأكل حيث مال السيد نحو سمعان بطرس يتحدث معه. لقد سبق أن التقى السيد المسيح بتلميذه بعد القيامة على الأقل مرتين أو ثلاثة، ولم يفتح معه هذا الحديث، ربما لأن السيد المسيح أراد أن يعطي سمعان بطرس نوعًا من الطمأنينة أن توبته قد قُبلت، وأن ما حدث لن يؤثر على علاقة السيد به. وبعد أن اطمأن سمعان بطرس فاتحه السيد في الأمر. ويرى البعض أن سمعان بطرس لم يشر إلى هذا الأمر خشية أن يعلن له السيد عن ضعفات أو سقطات أخرى ستحدث معه، إذ أدرك أن السيد المسيح يعرف أعماقه أكثر مما يعرفها هو عن نفسه. كان بطرس الرسول محتاجًا إلى هذه الجلسة لترجع إليه الثقة في عمل اللَّه فيه.

[1] *Homilies on St. John, 87:3.*

"**فبعدما تغدوا، قال يسوع لسمعان بطرس:**

يا سمعان بن يونا أتحبني أكثر من هؤلاء؟

قال: نعم يا رب أنت تعلم إني أحبك.

قال له: ارعَ خرافي". **[١٥]**

في مبادرة الحنان الشخصية هذه نحو سمعان بطرس العزيز عليه لاستعادته إلى الشركة الكاملة، شركة الذين أصبحوا الآن مختومين بختم القيامة، لم يشر السيد المسيح إلى اسم سمعان الجديد "بطرس" الذي وهبه إيّاه، وكأنه يعيد تجديد العهد معه.

"**أتحبني أكثر من هؤلاء؟**" يرى البعض أنه يقصد: هل تحبني أكثر من حبك لهؤلاء جميعًا، لكن الواضح أنه يسأله إن كان يظن أن حبه للسيد المسيح أكثر من حب بقية التلاميذ له كما كان يظن قبلاً، حين أعلن أنه مستعد أن يسير حتى إلى الموت، حتى إن أنكره الجميع. لم يجسر سمعان بن يونا في إجابته أن ينطق ويقول: "**أكثر من هؤلاء**" لأنه خشي أن يحمل في داخله ضعفًا هو يجهله، ولأنه يقدم توبة عما سبق فأعلنه أنه لن ينكره حتى إن أنكره الجميع. تحدث في أسلوب مملوء حياءً وخشوعًا! إذ تعلم القديس بطرس ألا يتكل على ذاته، بل يسلم الأمر بين يدي مخلصه، قائلاً: "**أنت تعلم**". إنه لم يعد يثق في شهادته الخاصة، ولم يكن ممكنًا أن يطلب شهادة بقية التلاميذ، إنما طلب شهادة السيد المسيح نفسه العارف القلوب والقادر أن يسند الضعفاء.

لم يسأله السيد عن توبته بخصوص جحده له ثلاث مرات، لكنه اكتفى بالسؤال عن حبه له، **فالتوبة في جوهرها هي ممارسة حب للَّه**. هذا ما يطلبه السيد المسيح من كل تائبٍ حقيقيٍ. لذلك عندما مدح المرأة الزانية التائبة قال لسمعان الفريسي: "لأنها أحبت كثيرًا مغفورة لها خطاياها الكثيرة" (لو ٧: ٤٧).

لكي يرد السيد المسيح سمعان بطرس إلى خدمة النفوس سأله: "**أتحبني؟**"، فإنه لا يأتمن إنسانًا على هذه الخدمة ما لم يكن قلبه مملوء حبًا لشخص المسيح. لأن ما يقدمه للبشرية لأجل خلاصها، إنما يقدمه للسيد المسيح نفسه. من لا يحب السيد المسيح لن يقدر أن يخدم النفوس ويهتم بخلاصها، لأنه لا يعرف قيمتها، هذه التي مات المسيح عنها، وقدم دمه ثمنًا لخلاصها. استخدم السيد المسيح كلمة "**أغاباس**"، وهو أسمى أنواع الحب وأكرمه، أما بطرس فخجل من استخدام ذات الفعل لكن بروح التواضع استخدم كلمة "**فيليو**" وهي تستخدم لمحبة الأصدقاء.

❖ قال السيد المسيح لبطرس: "**ارع خرافي**" (يو ٢١: ١٥) وما ذكر جحوده، ولا عيَّره بما فعله، وكأنه

يقول له: نفسك التي قلت إنك تبذلها من أجلي ابذلها من أجل غنمي.

❖ توجد بالحقيقة أمور أخرى كثيرة قادرة أن تهبنا دالة لدى الله، وتظهرنا بهيين ومزكين، وأما أكثر الكل مما يجلب إرادة صالحة من الأعالي، فهو الاهتمام بقريبنا في حنوٍ، الأمر الذي طلبه المسيح من بطرس[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما يلبس المائت عدم الموت، والفاسد عدم الفساد، ويُبتلع الموت في نصرة المسيح، عندئذ يصير اللَّه الكل في الكل. عندئذ لا تكون الحكمة وحدها في سليمان، والعذوبة في داود، والغيرة في إيليا وفينحاس، والإيمان في إبراهيم، والحب الكامل في بطرس الذي قيل له: "**يا سمعان بن يونا أتحبني؟**"، وغيرة الكرازة في الإناء المختار، وفضيلتان أو ثلاثة في آخرين، بل يكون اللَّه بالكامل في الكل. وتفرح صحبة القديسين في كل فرقة الفضائل، ويكون اللَّه الكل في الكل[2].

القديس جيروم

"**قال له أيضًا ثانية:**

يا سمعان بن يونا أتحبني؟

قال له: نعم يا رب أنت تعلم إني أحبك.

قال له: ارعَ غنمي". **[١٦]**

في المرة الأولى قدم السيد السؤال ليقارن بين نفسه وإخوته إن كان يحب السيد أكثر منهم، وإذ تعلم سمعان بطرس روح التواضع ولم يجب في اعتزاز بذاته لم يعد في المرتين الثانية والثالثة يقارنه بإخوته.

❖ إن كنا نرعى بخوف، ونخاف على القطيع، فكم يليق بالقطيع أن يخشى على نفسه؟ نصيبنا نحن هو الاهتمام بالرعاية، ونصيبكم هو الطاعة. نصيبنا هو السهر الرعوي، نصيبكم هو تواضع القطيع. إن كنا نحن نبدو كمن نتحدث من مكان مرتفع **نضع أنفسنا بخوفٍ عند أقدامكم، إذ نعرف مدى خطورة هذا الكرسي السامي**[3].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Homilies on St. John, 88:1.*
[2] *Against the Pelagians, 1:18.*
[3] *Sermon on N.T. Lessons, 96:1.*

❖ إن كان إيمان الرسول بطرس قد اهتز بآلام ربه، فبالدموع المرّة سمع الكلمات الرقيقة "**ارعَ غنمي**"[1].

القديس جيروم

"قال له ثالثة: يا سمعان بن يونا أتحبني؟
فحزن بطرس، لأنه قال له ثالثة أتحبني،
فقال له: يا رب أنت تعلم كل شيء،
أنت تعرف إني أحبك.
قال له يسوع: ارع غنمي". [١٧]

في المرتين الأولى والثانية استخدم السيد المسيح كلمة *agapas* واستخدم سمعان بطرس كلمة *philo* في الإجابة وهي تحمل الحب الذي فيه دالة بين الأعزاء. وجاء سؤال السيد للمرة الثالثة مستخدمًا كلمة *philo*. وكأنه في المرة الثالثة يقول له: "أتحبني أيها الصديق العزيز؟"

شغل التمييز بين التعبيرين كتابات الكثير من دارسي السفر، ورأى الكثيرون إن تعبير *agapao* عامة يشير إلى الحب القائم على تفكير عقلي متزن مع تكريس عملي للحياة من أجل المحبوب، أما *Phileo* فيشير إلى الحب العاطفي الحامل حنوًا شخصيًا نحو المحبوب. وكأن السيد يسأل تلميذه: هل تكرس حياتك لي؟ فيجيب التلميذ: بكل عاطفتي أحبك.

يميز *William Hendrikssen* بين التعبيرين قائلاً بأن تعبير *agapao* هنا كما في بقية الأناجيل بوجه عام يشير إلى الحب بكل كيان الإنسان، الذي يحتل ليس فقط العواطف، وإنما العقل أيضًا والإرادة يلعبان دورًا بارزًا، ويقوم الحب على تقدير الشخص المحبوب وبمسببات واضحة. أما *Phileo* فيشير إلى عاطفة طبيعية عفوية أو تلقائية، حيث تقوم العاطفة بدور رئيسي أكثر من العقل والإرادة. بهذا يمكننا التمييز بين التعبير، فالسيد المسيح في السؤالين الأولين يسأل بطرس إن كان يحمل نوعًا من الحب السامي والغني بالعاطفة مع التعقل والإرادة الحية، وقد جاءت إجابة بطرس أنه لا يدَّعي الحب في هذه الصورة الرائعة، لكن ما هو متأكد منه أنه يحمل عاطفة قوية أصيلة نحو السيد، وإن كانت أقل من الحب الذي طلبه السيد[2].

يرى *C. H. C. MacGregor* إن الفعل الأول يشير إلى وجود تقدير واحترام بين الطرفين،

---

[1] *Letter 35:1.*
[2] *Cf. Leon Morris: Reflections on the Gospel of John, Hendrickon Publishers, 2000, p. 737.*

والثاني يشير إلى وجود عاطفة شخصية بين عضوين في ذات الأسرة[1].

حزن القديس بطرس إذ تذكر بالسؤال الثالث جحوده ثلاث مرات، لأن تذكار الخطايا حتى التي نلنا عنها الغفران مؤلم للنفس. ولعله حزن خشية أن يكون سيده يرى في داخله ضعفًا لم يعلم هو به، كما سبق فحدث قبلاً حين أعلن أنه مستعد حتى إلى الموت معه.

دعاه لسيد المسيح ثلاث مرات أن يرعى غنمه، ويهتم بهم خلال حبه لصاحب القطيع. وقد شبه السيد الرب نفسه بالراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف (يو ١٠: ١١). كما يقول عنه إشعياء النبي: "كراعٍ يرعى قطيعه، بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات" (إش ٤٠: ٢١).

❖ ليكن دور الحب هو الذي يطعم خراف الرب... من كان لهم هذا الهدف في رعاية خراف المسيح أن تصير الخراف كما لو كانت ملكًا لهم وليست ملك المسيح، فإنهم يُدانون على محبتهم لذواتهم لا للمسيح، والرغبة في الافتخار أو نوال سلطانٍ أو مالٍ وليس عن حب للطاعة والخدمة وإرضاء الله... ماذا يعني هذا إلا إن كنت تحبني فلا تفكر في أن تطعم ذاتك بل غنمي بكونها خاصة بي، وليست خاصة بك؛ أطلب مجدي فيهم وليس مجدك أنت؛ أطلب سلطاني لا سلطانك؛ أطلب ربحي وليس مكسبك أنت، لئلا تجد نفسك تتبع الذين ينتمون إلى الأيام الخطيرة المحبين لذواتهم، وكل ما يتبع ذلك في بداية الشرور هذه؟[2]

القديس أغسطينوس

❖ بالتأكيد إذ أنكره ثلاث مرات، اعترف به ثلاث مرات. لقد أنكر وكان الوقت ليلاً والآن يعترف والوقت نهار[3].

القديس أمبروسيوس

❖ أية خطايا يمكن للندامة أن تفشل في غسلها؟ أيّة وصمات راسخة لا يمكن لمثل هذه الدموع أن تغسلها؟ باعتراف بطرس الثلاثي مسح إنكاره الثلاثي[4].

القديس جيروم

---

[1] *Ibid, p. 737.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 123: 5.*
[3] *Exposition on St. Luke 10: 90.*
[4] *Letter, 77:4.*

"**الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك،**
وتمشي حيث تشاء،
ولكن متى شخت فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك،
ويحملك حيث لا تشاء". **[١٨]**

بعد أن رد السيد المسيح القديس بطرس إلى رسوليته عاد يخبره عن استشهاده، وبقوله: "**الحق الحق**" ليؤكد أن ما ينطق به أمر خطير وهام، له وقاره، وأنه بالتأكيد سيتحقق.

إذ كان في حداثته يتمتع بالحرية حيث يمنطق نفسه متى شاء، ويسير كيفما أراد، خلال هذه الحرية يسلم نفسه في يدي مخلصه، ليمنطقه السيد ويحمله حسب مشيئته الإلهية وليس حسب فكر سمعان أو غيره من المؤمنين. إنه يخضع بإرادته لإرادة اللَّه لكي يتمجد اللَّه حتى في موته. إنه بهذا يُسر بالآلام حتى الموت إذ يمجد اللَّه، شاهدًا للحق الإلهي.

يرى *Wetstein* في تعبير "**تمد يديك**" إشارة إلى ما كان معتادًا في روما عند صلب شخص أن توضع رأس الشخص في النير وتُبسط يداه وتشدّان حتى النهاية، ويسيرون به في شوارع المدينة التي يصلب فيها.

إنه يمنطقه آخر بالسلاسل الحديدية ويحملونه إلى حيث لا يشاء، ليس لأنه لا يريد أن يُصلب من أجل حبه للسيد المسيح، وإنما لأنه يود أن يعيش ليكرز ويخدم.

❖ أوضح السيد المسيح لبطرس الرسول حال موته، لأنه إذ كان بطرس الرسول يريد دومًا أن يوجد في الأخطار والمصاعب من أجله، قال له: أطمئن فإنني من هذه الجهة أتمم شهوتك، حتى حين تصير شيخًا تقاسي المصاعب التي لم تقاسيها لما كنت شابًا.

❖ ماذا إذن "**حيث لا تشاء؟**" يتحدث عن المشاعر الطبيعية، وضرورة الجسد، وأن النفس تفارق الجسد لا إراديا. حتى وإن كانت الإرادة ثابتة، إلا أنه توجد الطبيعة في ضعف... فتعبير "**حيث لا تشاء**" يشير إلى الشعور الطبيعي[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هكذا كانت النهاية التي بلغ إليها ذاك الجاحد (لسيده) ألا وهو الحب. لقد صار في تيه بجسارته، وانطرح بجحوده لسيده. **اغتسل ببكائه**، وتزكى باعترافه، وكُلل باحتماله الآلام.

[1] *Homilies on St. John, 88:1.*

هذه هي النهاية التي بلغها أن يموت بحبٍ كاملٍ من أجل اسم ذاك الذي وعده أن يموت وذلك في جسارة. لقد فعل ذلك عندما تقوى بقيامته (قيامة المسيح)، الأمر الذي وعد أن يفعله ولم يكن بعد ناضجًا. فإن الترتيب اللازم هو أن يموت المسيح أولاً من أجل خلاص بطرس، وبعد ذلك يموت بطرس من أجل الكرازة بالمسيح[1].

القديس أغسطينوس

"قال هذا مشيرا إلى أية ميتة كان مزمعًا أن يمجد الله بها، ولما قال هذا قال له: اتبعني". [١٩]

إنكار بطرس للسيد المسيح ثلاث مرات هزه في أعماقه، لذلك أراد السيد أن يهبه روح الرجاء المفرح، فأكد له أنه سيمجد الله، ليس فقط في سلوكه كما في كرازته، وإنما حتى آخر نسمة من نسمات حياته، إذ يمجد الله في موته. حتى يستطيع أن يترنم: "إن عشنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت؛ إن عشنا وإن متنا فللرب نحن" (رو ١٤: ٨).

تحقق استشهاده بعد ٣٤ عامًا من هذا الحوار، وكان ذلك لمجد اللَّه، إذ حسب الرسول نفسه غير أهلٍ أن يُصلب كسيده، لذا طلب أن يُصلب منكس الرأس كما جاء في **يوسابيوس وبرودنتيوس *Prudentius* والقديسين يوحنا الذهبي الفم وأغسطينوس.**

❖ الآن لا حاجة لنا أن نخاف بعد من العبور من الحياة الحاضرة، لأنه في قيامة الرب صار لنا مثلاً قويًا للحياة القادمة. الآن ليس لك يا بطرس أن تخاف الموت بعد، فإنه يعيش ذاك الذي حزنت عليه حين مات، والذي في حبك الجسدي حاولت أن تمنعه عن الموت من أجلنا (مت ١٦: ٢١-٢٢)[2].

القديس أغسطينوس

❖ لم يقل: "مزمعا أن تموت"، بل قال: "**أن يمجد الله بها**"، حتى تتعلموا أن التألم من أجل المسيح هو مجد وكرامة للمتألم[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إذ قال السيد المسيح لبطرس "**اتبعني**" يبدو أن السيد بدأ يتحرك فتحرك وراءه بطرس، لكنه التفت

---

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 123:4.*
[2] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 123: 4.*
[3] *Homilies on St. John, 88:1.*

حوله فوجد يوحنا أيضًا يتبعه. غالبًا ما حورب بنوعٍ من حب الاستطلاع، إذ أراد أن يعرف إن كان يوحنا أيضًا سيستشهد أيضًا معه.

٣. حديثه عن يوحنا

"فالتفت بطرس ونظر التلميذ الذي كان يسوع يحبه يتبعه،
وهو أيضًا الذي اتكأ على صدره وقت العشاء،
وقال يا سيد من هو الذي يسلمك؟" [٢٠]

لم يذكر القديس يوحنا اسمه، ربما لأنه حسب نفسه ليس أهلاً أن يُذكر اسمه في الإنجيل المقدس. وفي نفس الوقت لم يكن ممكنًا أن يتجاهل حب السيد المسيح الخاص نحوه.

يرى **القديس أغسطينوس** أن يوحنا أكثر التلاميذ تمتعًا بحب المسيح له لأنه كان بتولاً، وعاش في طهارة منذ صبوته[1].

"فلما رأى بطرس هذا قال ليسوع:
يا رب وهذا ما له". [٢١]

يرى البعض أن بطرس الرسول كان محبًا للاستطلاع، اهتم في ذلك الوقت بالأحداث حتى التي تخص الآخرين، أكثر من تركيزه على التزاماته كتلميذ للسيد المسيح. ولعله شعر بشيء من الغيرة من نحو القديس يوحنا، فهو وإن لم يقل أنه لن ينكر المسيح لكنه عمليًا وضع رأسه على صدر المسيح، ورافقه الطريق حتى الصليب. لم تُجرح العلاقة التي بينه وبين السيد المسيح كما حدث مع بطرس الرسول.

❖ إنه لسرّ عظيم للحب الإلهي أنه حتى في المسيح لم يكن يوجد استثناء من جهة موت الجسد. ومع أنه رب الطبيعة لم يرفض قانون الجسد الذي أخذه. إنه من الضروري لي أن أموت، ولكن ليس بالمهم له ذلك[2].

القديس أمبروسيوس

❖ قدم فيما بعد إلى معلمه سؤالاً من أجل غيره، وكان يوحنا الرسول صامتًا وبطرس الرسول يتكلم، فأوضح هنا الحب الذي أخلصه له. لأن بطرس الرسول كان يحب يوحنا الرسول حبًا شديدًا، وهذا

[1] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 124: 7.*
[2] *On the Decease of His Brother Saytrus, Book 1:4.*

واضح من أفعاله فيما بعد، ويتبين في الأناجيل وفي أعمال الرسل ائتلافهما وارتباطهما. وإذ أراد بطرس الرسول أن يأخذ يوحنا الرسول شريكًا قال للسيد المسيح: "**يا رب وهذا ما له**"، أي أما يسلك الطريق التي لي بعينها؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

"**قال له يسوع:**

إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء، فماذا لك؟

اتبعني أنت". **[٢٢]**

يرى البعض أن السيد المسيح أراد توضيح أن القديس يوحنا سوف لا يموت شهيدًا مثل القديس بطرس. يقول المؤرخون القدامى أنه التلميذ الوحيد من بين الاثني عشر الذي لم يستشهد.

بقوله: "**حتى أجيء**"، لا تعني أنه لن يموت حتى مجيء السيد المسيح الثاني، وإنما هو نوع من التوبيخ للقديس بطرس على حبه للاستطلاع وانشغاله بأحداث المستقبل عوض الاهتمام بالعمل الكرازي. يرى آخرون أنه يعني بطريقة خفية أنه لن يموت حتى يتم تدمير أورشليم على يد تيطس الروماني. كثيرون ظنّوا أن كلمات السيد المسيح هنا تشير إلى أن يوحنا يعيش حتى يأتي السيد ليدين أورشليم ويحكم بخرابها. فالقديس بطرس استشهد عام ٦٧م، أي سبع سنوات قبل خراب أورشليم، بينما بقي القديس يوحنا حوالي ٣٠عامًا بعد خرابها.

يرى **القديس أغسطينوس** وغيره أن هذه العبارة تعني: إن أردت أن يبقى يوحنا إلى يوم مجيئي وآخذه معي خلال موت طبيعي، فماذا لك؟ اتبعني لتحمل أنت صليبك. وقد جاء التاريخ يؤكد أنه التلميذ الوحيد الذي تنيح بموتٍ طبيعيٍ وليس بالاستشهاد، وأنه بقي حيًا حتى استشهد الكل.

ظن البعض أن بطرس الرسول كان منفردًا مع السيد المسيح وهما يتحدثان معًا، وإذ كان يعلم مدى دالة القديس يوحنا عند السيد المسيح ظن أنه سيلحق بهما وهما يسيران ويتحدثان، لكن السيد أوضح له أن يترك الأمر في يديه، فقد يترك يوحنا حتى يعود إليه بعد نهاية حديثه مع بطرس.

❖ قال بطرس الرسول هذا القول مهتمًا بيوحنا الرسول جدًا، ولم يرغب أن ينفصل عنه، فأراه السيد المسيح أنه مهما أحبه لا يصل إلى حبه هو له، وقال: "**إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجئ فماذا لك؟ اتبعني أنت**". ولما كان بطرس الرسول دائمًا حارًا في مثل هذه المسائل، مندفعًا فيها، قطع السيد المسيح حرارته أيضًا، وعلمه ألا يبحث خارج الحد، وقال له: "**إن كنت أشاء أن يبقى حتى أجئ فماذا لك؟**"

❖ إنه يعلمنا ألا نحزن ولا نتضايق ولا نكون فضوليين نسأل خارج ما يبدو صالحًا بالنسبة لنا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

"فذاع هذا القول بين الإخوة أن ذلك التلميذ لا يموت،
ولكن لم يقل له يسوع انه لا يموت،
بل إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك؟" [٢٣]

إذ طال عمر القديس يوحنا فعاش حتى استشهد كل التلاميذ ظن المؤمنون أنه لن يموت حتى مجيء السيد المسيح الثاني، إذ فسّروا كلمات السيد بتأويلها على غير ما تحتمله الكلمات، لكن القديس يوحنا صحح مفهومهم وأكد أن السيد لم يقل هذا.

يرى البعض أن الرسولين بطرس ويوحنا هنا يشيران إلى الحياة العاملة والحياة المتأملة في الكنيسة. فمن يمارس التأمل لن يلحق به الموت كالحياة العاملة، إنما يدخل به الموت إلى الكمال، خاصة عند مجيء الرب حيث لا توجد أعمال كرازية أو صدقة بل حياة تسبيح وتأمل في الرب.

❖ لا يوجد شيء يخيفنا من الموت، ليس ما يحزنا، سواء إن كانت الحياة التي قبلناها بالطبيعة تؤخذ منا أو نقدمها ذبيحة من أجله كواجبٍ نلتزم به، سواء بسبب الدين أو لممارسة فضيلة ما، ليس منا من يرغب أن يبقى هكذا كما هو الحال حاليًا. هذا ما قد ظُن أن يوحنا قد وُعد به، لكن لم تكن الحقيقة هكذا... هو نفسه أنكر في كتاباته أنه قد وُجد وعد أنه لا يموت. من هذا المثل لا يليق بأحدٍ أن يتمسك برجاءٍ فارغٍ[2].

القديس أمبروسيوس

يرى **القديس أغسطينوس** أن ما ورد هنا بخصوص الرسولين بطرس ويوحنا يحمل معنى رمزيًا. فالقديس بطرس يمثل المؤمن في جهاده على الأرض وشهادته للسيد المسيح خلال محبته له. لهذا كان بطرس أكثر التلاميذ حبًا للسيد، وقد سأله السيد: "**يا سمعان بن يونا أتحبني أكثر من هؤلاء؟**"، أما القديس يوحنا فيمثل المؤمن وقد تمتع بالمجد الأبدي في الحياة الأخرى، فلا يسأل: أتحبني؟ وإنما يُمتص كل كيانه في حب المسيح له، فبينما كان بطرس أكثر التلاميذ حبًا للسيد، كان يوحنا أكثر التلاميذ محبوبًا من المسيح، فدعا نفسه: "**التلميذ الذي كان يسوع يحبه**". دُعي بطرس من السيد: "**اتبعني**" حيث يلتزم المؤمن المحب للسيد المسيح أن يترجم حبه إلى شركة آلام مع المسيح، فيتبعه

[1] *Hom 88 PG 59: 527.*
[2] *On the Decease of His Brother Saytrus, Book 2:49.*

حتى الصليب. وقال السيد المسيح عن يوحنا: "**إن كنت أشاء أن يبقى إلى أن أجئ**" حيث لا يستطيع الموت أن يتسلل إلى المؤمن في مجده الأبدي. الأول يتبع المسيح بالإيمان، والثاني يتمتع بمجد القيامة عيانًا[1].

٤. ختام السفر

"**هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا،**

وكتب هذا،

ونعلم أن شهادته حق". **[٢٤]**

يسجل الكاتب بوحي الروح القدس إنه تلميذ للرب يكتب بشهادة صادقة عما رآه بنفسه وسمعه من السيد المسيح، وجاءت شهادته تعلن عن الحق.

"**وأشياء آخر كثيرة صنعها يسوع،**

إن كتبت واحدة واحدة،

فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة. آمين". **[٢٥]**

يرى البعض أن هاتين العبارتين [٢٤-٢٥] سجلهما من استلموا السفر من يد الإنجيلي يوحنا ليؤكدا أن السفر هو من شهادة هذا التلميذ الموثوق فيه.

كما لاحظنا في المقدمة أن هذا السفر كثيرًا ما يكرر كلمة "**العالم**" لتأكيد أن المسيح مخلص العالم كله وليس اليهود وحدهم.

المعجزات والآيات التي صنعها السيد المسيح أكثر من أن تُحصى، ومع كثرة عددها أيضًا تنوعّها. لهذا يرى بعض الدارسين أنه يمكن تفسير العبارة حرفيًا، فإن إلهنا غير المحدود يقوم بأعمال ظاهرة وخفية غير محدودة، لن يستطيع العالم أن يسجلها بأكملها.

ليس غاية الكتاب المقدس حصر أعمال السيد المسيح وكلماته، وإنما الكشف عن شخصه وسماته وأعماله في حياة المؤمن. وقد سجّل الإنجيليون الآخرون عبارات تكشف عن كثرة أعمال السيد المسيح المعجزية (مت ٤: ٢٣-٢٤؛ ٩: ٣٥؛ ١١: ١؛ ١٤: ١٤، ٣٦؛ ١٥: ٣٠؛ ١٩: ٢ الخ). كمثال القديس بولس اقتبس عبارة من أقوال السيد المسيح لم ترد في الأناجيل الأربعة (أع ٢٠: ٣٥). فما سجله العهد الجديد عن شخص السيد المسيح وأعماله وكلماته كان كافيًا لتمتع الكنيسة

[1] *cf. St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 124: 6 – 7.*

بشخصه وفكره وأعماله.

أساء بعض النقاد فهم هذه العبارة، غير أن كثير من الدارسين سجّلوا لنا أن مثل هذه التعبيرات هي تعبيرات شرقية وُجدت في كتابات كثيرة ولم تُنتقد، واستخدمها أيضًا كتّاب غربيون. مثل هذا العبارة التي تحمل نوعًا من المبالغة هي تعبير سائد استخدمته أيضًا الأسفار المقدسة. مثال ذلك ما قاله الجواسيس "رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة، فكنا في أعيننا كالجراد، وهكذا كنا في أعينهم" (عد ١٣: ١٣). "كبرت الشجرة وقويت فبلغ علوّها إلى السماء، ومنظرها إلى أقصى كل الأرض" (دا ٤: ١١). "شعب أعظم منا وأطول منا، مدن عظيمة محصنّة إلى السماء" (تث ١: ٢٨). وجاء في يوسيفوس المؤرخ عن يعقوب أنه نال وعدًا بأن أرض كنعان تكون له ولنسله الذين يملأون الأرض كلها التي تشرق عليها الشمس، سواء على الأرض أو في البحر[1].وفي الغرب جاء عن شيشرون أن طاقات الشعب الروماني بالكاد يضاهيها المجد الذي في السماء، وأنه بالكاد كوكب الأرض يحتويها[2].

❖ لسنا نفترض أنه يتحدث بخصوص المساحة المحلية للعالم أنها لا تستطيع أن تحويها، لأن كيف يمكن كتابتها إن كان العالم لا يقدر أن يحويها أثناء الكتابة؟ لكن ربما أن هذه الكتابات لا يمكن فهمها حسب طاقات القراء[3].

القديس أغسطينوس

آمين: هذه الكلمة خاتمة كل البشائر، ومعناها "ليكن ذلك" ويصح أن نقولها بمعنى ليكن لنا إيمان بما كُتب هنا وطاعة لما أُمرنا به وتمتع بما وُعدنا به.

من وحي يوحنا ٢١

لأراك وأخدمك يا راعي النفوس!

❖ نفسي تئن مع تلاميذك، صارخة:
تعبت الليل كله ولم أصطد شيئًا.
خبراتي وقدراتي وكل طاقاتي صارت كلا شيء!
لتعبر بي يا سيدي،

---

[1] *Antiques lib. 19 ch. 20.*
[2] *Phil 2:44.*
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 124: 8.*

فبكلمتك أصطاد نفوس كثيرة في شبكة كنيستك.
قلْ كلمة، فالنفوس في بحيرة العالم تائهة.
ليس لي، ليس لي،
بل كلمتك تجتذب الكثيرين إليك.

❖ هب لي حب يوحنا وطهارته حتى أعرفك،
في هدوء الروح القوي أعلن: هو الرب!
هب لي غيرة بطرس،
فأجري نحوك وأسجد أمامك.

❖ عدْ لي سمكًا مشويًا،
هب لي طعامًا لنفسي،
فلا تجوع ولا تعطش إلى العالم.

❖ أنا أعلم أنك تشتاق أن أختلي بك.
بروح الحب تعاتبني،
دون أن تجرح مشاعري بكلمة واحدة!
مع بطرس الذي أنكرك أعلن:
أنت تعلم أني أحبك.
نعم أني أحبك،
وإن كانت نفسي تئن من ثقل خطاياي.
على كلمتك أرعى غنمك!
محتاج أن أراك وأعرفك وأحبك،
تحملني على منكبيك فأحمل اخوتي على منكبي.
من يقدر أن يحمل أثقال شعبك،
ما لم تحمله أنت مع كل الأثقال!

❖ مع بطرس تلميذك أسمع همساتك لي:
أتحبني أكثر من هؤلاء؟

تسألني إن كنت أحبك،
بكل عاطفتي وفكري وإرادتي،
وأكرس كل طاقتي لك ولأولادك أيها المحبوب،
وأبادلك تقديرك واعتزازك لي.
من أنا يا أيها العجيب في حبك؟
أقمتني عضوًا كما في الأسرة الإلهية.
فأصرخ مع بطرس:
أنت تعلم إني أحبك!
أنت لي بكليتك،
وأنا لك بكليتي، يا حبيب قلبي!
ماذا تريد أن أفعل؟

❖ عشت مدللاً كل أيام حياتي!
الآن أبسط يدي كما على الصليب.
فأُصلب معك كما صُلب تلميذك بطرس منكس الرأس.
حياتي بين يديك،
فأنت راعي نفسي العجيب.

❖ أعمالك عجيبة بلا حصر،
لو كتبتها، لما اتسع العالم ليضم هذه الكتب.
لأسجلها لا في كتاب،
بل روحك ينقشها في قلبي!
فأصير بروحك القدوس إنجيلاً مقروءً من الناس.

المحتويات

أمجاد لا يعبر عنها ٥

مقدمة في الإنجيل بحسب يوحنا ٦

إنجيل يوحنا والكنيسة الأولى، كاتبه، مكان كتابته وتاريخ الكتابة، غاية الكتابة، أهداف أخرى للسفر، الرد على الهرطقات والبدع المعاصرة واليهود المقاومين، أولاً: الرد على اليهود المقاومين، ثانيًا: المتشيعون ليوحنا المعمدان، ثالثًا: الرد على بعض أصحاب البدع، رابعًا: نداء إلى المسيحيين الذين من أصل يهودي في الشتات، خامسًا: مساندة المسيحيين في العالم أيًا كان أصلهم، إنجيل يوحنا والأناجيل الثلاثة الإزائية *Synoptic Gospels*، إنجيل يوحنا بين اللاهوت والتاريخ، تزايد الاهتمام بالجانب التاريخي، سماته: ١. إنجيل القداسة الإلهية، ٢. إنجيل الإيمان العامل بالمحبة *Redemptive love*، واهب الحياة، ٣. إنجيل الحق، ٤. إنجيل الروح، ٥. إنجيل الشهادة للسيد المسيح، ٦. إنجيل الوصية الجديدة أو إنجيل المحبة، ٧. مسيح الشباب المفرح، ٨. إنجيل أحاديث للسيد المسيح، ٩. إنجيل ليتورجي، ١٠. إنجيل القوة والحركة، ١١. اهتمامه بأرقام معينة، ١٢. أسلوبه إعجازي مطلق، ١٣. آخر ما كُتب من أسفار الكتاب المقدس، ١٤. وحدة فنية وزمنية معًا، ١٥. استخدام طريقة المقابلة، ١٦- تنوع في الأسلوب، إنجيل يوحنا والعهد القديم، إنجيل يوحنا والغنوسية، إنجيل يوحنا والهيلينيّة، إنجيل يوحنا والسيد المسيح، من هو يسوع؟، إنجيل يوحنا والآب، إنجيل يوحنا والروح القدس، إنجيل يوحنا والكنيسة، إنجيل يوحنا وجامعية الكنيسة، إنجيل يوحنا والحياة الانقضائية (الأخروية)، إنجيل يوحنا والآيات، قانونية السفر، أولاً: شهادة الكنيسة الجامعة والهراطقة، ثانيًا: شهادة الوثنيين، اعتراضات على نسبته للقديس يوحنا، تلميحات في السفر عن شخصية كاتبه، أ. إنه شاهد عيان، ب. التلميذ المحبوب، ج. الخلفية الفلسطينية، الإنجيل بحسب يوحنا وصياد السمك، أقسامه، من وحي إنجيل يوحنا.

الباب الأول

الكلمة المتجسد واهب النعمة والشهود له

ص ١

الأصحاح الأول: الكلمة المتجسد والشهود له ٦٩

الشهادة للسيد المسيح، الكلمة الإلهي، الكلمة صار جسدًا، شهود للكلمة المتجسد، شهادة يوحنا المعمدان له، شهادة تلاميذه الأولين له، دعوة فيلبس ونثنائيل، ماذا تعني شجرة التين؟

ملحق للأصحاح الأول عن النعمة الإلهية (نعمة فوق نعمة) ١٥٩

ماذا تعني النعمة؟، النعمة وكلمة الله، نعمة الخلق، نعمة حرية الإرادة، نعمة الناموس، نعمة إعادة ما فقدناه، نعمة القيامة والغلبة على الموت، نعمة التبني لله الآب، نعمة الروح القدس، نعمة الشركة في الطبيعة الإلهية، نعمة اقتناء حياة المسيح، نعمة رائحة المسيح الذكية، نعمة الفضيلة، نعمة الآب والابن، نعمة ميراث الملكوت، نعمة الخلود فيه، نعمة التمتع بمعرفة الحق الإلهي، نعمة الثبوت في الآب والابن، نعمة الشبع والفرح، نعمة النور، نعمة الكرازة والشهادة، نعمة ديناميكية، نعمة جامعة، واهب النعمة يطلب النعمة لحسابنا. من وحي يو ١.

الباب الثاني

آياته وأعماله تعلن عن لاهوته

ص ٢ – ص ١٢

سبع مراحل وسبع آيات ١٨٧

الأصحاح الثاني: العريس مفرح النفوس (عرس قانا الجليل) ١٩٠

تحويل الماء خمرًا، تطهير الهيكل، طلب آية. من وحي يو ٢.

الأصحاح الثالث: نيقوديموس والميلاد الجديد المعلم واهب الميلاد الجديد! ٢٢١

حوار حول الميلاد الجديد، الميلاد الجديد وذبيحة الصليب، الاستنارة والإيمان، موقف المعمدان من معمودية المسيح. من وحي يو ٣.

الأصحاح الرابع: لقاء مع السامرية (رابح النفوس العجيب) ٢٦٩

خروجه من اليهودية، مجيئه إلى السامرة، حوار مع السامرية، كرازة السامرية الناجحة، إيمان السامريين به، ذهابه إلى الجليل، شفاء ابن خادم الملك. من وحي يو ٤.

الأصحاح الخامس: شفاء مريض بيت حسدا (الطبيب الإلهي) ٣٢٥

شفاء مفلوج بيت حسدا، مقاومة اليهود، حديث المسيح عن السبت، حديث عن الحياة الأبدية، شهادة يوحنا المعمدان له، شهادة آياته وأعماله، شهادة الآب له، شهادة الكتاب المقدس له، من وحي يو ٥.

الأصحاح السادس: المسيح خبز الحياة أو الخبز السماوي ٣٧٨

إشباع الجموع، سير المسيح على الماء، الجموع تطلبه في كفرناحوم، أنا هو الخبز الحي، تذمر

البعض، إلى من نذهب؟ من وحي يو ٦.

الأصحاح السابع: حديث السيد المسيح عن حلول الروح القدس (ينبوع الماء الحي!) ٤٤٥

عدم ظهوره علانية في اليهودية، حوار حول صعوده إلى أورشليم، حديثه في وسط العيد، حديثه عن كسر السبت، إيمان كثيرين به، الوعد بحلول الروح القدس، شهادة خدام الهيكل له. من وحي يو ٧.

الأصحاح الثامن: المسيح نور العالم ٤٩٩

المرأة التي أُمسكت في زنا، المسيح نور العالم، هلاك غير المؤمنين، الحرية الروحية، البنوة لله والبنوة لإبليس، اتهامه بالتجديف، المسيح واهب الخلود. من وحي يو ٨.

الأصحاح التاسع: تفتيح عيني المولود أعمى (نور العالم) ٥٨١

شفاء الأعمى، حوارات بعد الشفاء: أ. حوار بين الجيران والأعمى، ب. حوار بين الفريسيين والأعمى، ج. حوار بين الفريسيين ووالدي الأعمى، د. حوار ثان بين الفريسيين والأعمى، هـ. حوار بين المسيح والأعمى، ز. حوار بين المسيح والفريسيين.
من وحي يو ٩.

الأصحاح العاشر: الراعي الصالح ٦٢٣

مسيحنا مشبع كل احتياجاتنا، الراعي الصالح، الوحدة مع الآب، يسوع في موضع عماده. من وحي يو ١٠.

الأصحاح الحادي عشر: إقامة لعازر من الأموات (واهب القيامة) ٦٦٨

تبليغ السيد بمرض لعازر، تحرك السيد نحو عائلة لعازر، إقامة لعازر من الأموات، أثر إقامة لعازر. من وحي يو ١١.

الأصحاح الثاني عشر: عشاء في بيت لحم ٧١٢

سكب الطيب على قدمي يسوع، دخوله أورشليم منتصرًا، تكريم اليونانيين ليسوع، تمجيد السماء ليسوع، شهادة الأنبياء لمجده، تمجيد بعض الرؤساء له، شهادة المسيح لنفسه. من وحي يو ١٢.

الباب الثالث

إعلانه عن ذاته لخاصته

ص ١٣ – ص ١٧

أحاديث السيد المسيح الوداعية يو ١٣ – يو ١٦ ..... ٧٦٢

الأصحاح الثالث عشر: خدمة غسل الأرجل ٧٦٤

غسل أقدام التلاميذ، حديثه عن مسلمه، مجد ابن الإنسان، المحبة الأخوية، إنذار بطرس منكر المسيح. من وحي يو ١٣.

الأصحاح الرابع عشر: المعزي الآخر ٨١٠

الراحة الأبدية، المسيح طريق الراحة، الصلاة والراحة، المعزي الآخر، ظهوره لهم، المعزي المعلم، فرح المسيح برحيله. من وحي يو ١٤.

الأصحاح الخامس عشر: الحديث الوداعي ٨٦١

الحاجة إلى الثبوت فيه، محبتهم لبعضهم البعض، مواجهة بغض العالم، إرسال المعزي لهم. من وحي يو ١٥.

الأصحاح السادس عشر: إرسال المعزي ٩٠٢

سهام الحب الجارحة، إرسال المعزي، وعد باللقاء معهم بعد قيامته، استجابة صلواتهم، صعوده إلى السماء، تركه عند آلامه، غلبته لحسابهم. من وحي يو ١٦.

الأصحاح السابع عشر: الصلاة الوداعية ٩٣٩

طلبة خاصة به، طلبة عامة عن الغير، طلبة من أجل حفظهم، طلبة من أجل تقديسهم، طلبة من أجل الوحدة، طلبة من أجل تمجيدهم. من وحي يو ١٧.

الباب الرابع

ابن الله الذبيح

ص ١٨ – ص ١٩

الأصحاح الثامن عشر: محاكمة يسوع دينيًا ومدنيًا ٩٨٧

تسليم نفسه للجند، قطع أذن ملخس، أمام حنان، إنكار بطرس، حوار مع رئيس الكهنة، إنكار بطرس مرتين، في دار الولاية. من وحي يو ١٨.

الأصحاح التاسع عشر: صلب يسوع المسيح ١٠٢٨

محاكمته أمام بيلاطس، الحكم بالصلب، عنوان علته، توزيع ثيابه، اهتمامه بأمه، تقديم خل له، تسليم الروح، طعنه بالحربة، دفنه. من وحي يو ١٩.

الباب الخامس

قيامته تشهد للاهوته

ص ٢٠ – ص ٢١

الأصحاح العشرون: القيامة: اليوم الأول والثامن معًا

المسيح القائم من الأموات ١٠٧١

السحر: القبر الفارغ، صباحًا: مريم المجدلية والملاكان، صباحًا: لقاء المجدلية مع المسيح، لقاؤه مع تلاميذه الأحد مساءً، لقاؤه معهم في الأحد التالي، الغاية من الإنجيل. من وحي يو ٢٠.

الباب السادس

خاتمة

الأصحاح الحادي والعشرون: وليمة عند طبرية أو العبور إلى الدهر الآتي ١١٠٧

ظهوره على بحيرة طبرية، حديثه مع بطرس، حديثه عن يوحنا، ختام السفر. من وحي يو ٢١.

صدر عن هذه السلسلة

العهد القديم

١ التكوين
٢ الخروج
٣ اللاويين
٤ العدد
٥ التثنية
٦ يشوع
٧ القضاة
٨ راعوث
٩ صموئيل الأول
١٠ صموئيل الثاني
١١ ملوك (جزءان)
١٢ أخبار الأيام الأول
١٣ أخبار الأيام الثاني
١٤ عزرا
١٥ نحميا
١٦ يهوديت
١٧ أستير
١٨ أيوب (٤ أجزاء)
١٩ المزامير
٢٠ الأمثال (٣ أجزاء)
٢١ الجامعة
٢٢ نشيد الأناشيد
٢٣ حكمة سليمان
٢٤ إشعياء
٢٥ إرميا (جزءان)
٢٦ مراثي إرميا
٢٧ حزقيال
٢٨ دانيال
٢٩ هوشع
٣٠ يوئيل
٣١ عاموس
٣٢ عوبديا
٣٣ يونان
٣٤ ميخا
٣٥ ناحوم
٣٦ حبقوق
٣٧ صفنيا
٣٨ حجي
٣٩ زكريا
٤٠ ملاخي

العهد الجديد

١ إنجيل متى
٢ إنجيل مرقس
٣ إنجيل لوقا
٤ إنجيل يوحنا (جزءان)
٥ أعمال الرسل (جزءان)
٦ رسالة رومية
٧ كورنثوس الأولى
٨ كورنثوس الثانية
٩ غلاطية
١٠ أفسس
١١ الرسالة إلى فيلبي
١٢ الرسالة إلى كولوسي
١٣ تسالونيكي الأولى
١٤ تسالونيكي الثانية
١٥ تيموثاوس الأولى
١٦ تيموثاوس الثانية
١٧ الرسالة إلى تيطس
١٨ الرسالة إلى فليمون
١٩ الرسالة إلى العبرانيين
٢٠ رسالة يعقوب
٢١ رسالة بطرس الأولى
٢٢ رسالة بطرس الثانية
٢٣ رسائل يوحنا الثلاث
٢٤ رسالة يهوذا
٢٥ رؤيا يوحنا اللاهوتي

يُطلب مِن

❖ مكتبة مارمرقس بالأنبا رويس / العباسية / القاهرة – ت: ٢٤٨٨٢٤٥٤

❖ كنيسة مارجرجس – سبورتنج / الإبراهيمية / الإسكندرية ت: ٥٩١٩٨٨٨ / ٠٣